المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى

بإشراف الدكتور مصطفى زيور

سيجموند فرويد

تفسير الأحلام

ترجمه : د . مصطفى صفوان

راجعه : د . مصطفى زيور



دار المعارف

تفسير الأحلام

تصدير

بقلم

دكتور مصطفى زيور

« من حل اللغز الذائع الصيت وكان أشد الرجال اقتدارا »

سوفوكليس [1]

يجمع المشتغلون بالتحليل النفسى على أن « تفسير الأحلام » خير ما كتب فرويد وأكثر مؤلفاته أصالة . ويرى فرويد هذا الرأى نفسه . فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٠ وها هو ذا فرويد سنة ١٩٣١ بعد أن نشر عشرات الرسائل والكتب يسجل رأيه فى كتابه هذا فيقول عنه : « إنه حتى فيما أرى اليوم يحوى أثمن الكشوف التى شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبى ؛ فمثل هذا الحدس لا يأتى العمر مرتين » .

ولكن فى هذه الجملة الأخيرة تواضعاً شديداً ، لأن الحقيقة أن الأحلام مسألة شغلت اهتمام الإنسان منذ أقدم ما نعرف من العصور ، كما يدلنا على ذلك ما جاء فى القرآن والكتاب المقدس عن قصة يوسف ، وما نراه فيما وصل إلينا من آثار القدامى فى الحضارات الهندية والصينية والعربية (مثل كتاب ابن سيرين وغيره) . وليس أدل على ذلك من أن المعلم الأول أرسطو أفرد مؤلفين لموضوع الأحلام كما أن أب الطب هيبوقراط أنشأ فصلا عن العلاقة بين الأحلام والأمراض فى كتابه الذى وصل إلينا . وظل الاهتمام بموضوع الأحلام لدى الفلاسفة خلال القرون الوسطى ثم لدى العلماء والفلاسفة فى العصر الحديث كما سيتبينه القارئ من الفصل الأول من هذا الكتاب .

إنها لحقيقة جديرة بالتأمل : أن تشغل مسألة الأحلام الإنسانية بأسرها ، شعوبها ورواد الفكر فيها ، ثم تبقى مع هذا دون حل حاسم حتى يناهز القرن التاسع عشر نهايته ويظهر سيجموند فرويد فيحل اللغز الذائع الصيت . المسألة إذن ليست « حدساً لا يأتى

(١) بيت من تراجيديا « أوديب ملكا » يوصف به أوديب . وقد نقش على مدالية مع صورة أوديب وهو يرد على سؤال أبى الهول وأهديت المدالية إلى فرويد من تلامذته فى أحد أعياد ميلاده .

العمر مرتين » وإنما هي من الحدس الذى لا يتاح إلا مرة فى قرون .

علينا الآن أن نسأل أنفسنا لمَ امتنع الحل طوال هذه الأحقاب ، ولمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم . إنه لا يسعنا أن نجيب عن هذين السؤالين دون أن نستضيء ببعض الحقائق الأساسية التى يضمها هذا الكتاب . ذلك أن الحلم ليس أمراً مستقلا عن سائر أحوال النفس – فى يقظتها – بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكوّن حلقة من حلقات الحياة النفسية . ويزيد خطورته أنه يعبر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الإحساس بها أثناء اليقظة ، ويحيط بما عفى عليه الزمان من الأحداث والخبرات الأولى فيبعثها أمام ناظرنا ، فتتضح لنا الصلة بين ماضى الفرد وحاضره ، ويستبين ما كان قد استغلق علينا فهمه من أحوال الإنسان ، حتى استحق الحلم وصف فرويد : إنه الطريق الأمثل إلى أعماق النفس .

بل إنا لنتبين فى الحلم سمات على آثار قديمة ترجع إلى عهود غابرة من تاريخ الإنسانية ومنطقاً غريباً نابياً لا نعهده فى يقظتنا إلا حين ننظر فى أحوال المجنون أو الرجل البدائى أو الطفل الصغير ، وأسلوباً فى الخيال والتعبير شديد الشبه بأسلوب الأساطير وعقائد المجتمعات القليلة الحظ من الحضارة . وبعبارة أخرى إن الحلم نافذة تطل على أعماق النفس يترامى البصر منها إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان ، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية ومراحل تطورها جميعاً ، فضلا عن أنها تجمع فى أفق واحد بين العقل والجنون من حيث أن الحلم خبرة من خبرات الإنسان الصحيح العقل ولكن طبيعته الهلوسية لا تختلف عن هلوسة المجنون . ومعنى ذلك أن الكشف عن طبيعة الحلم إنما يكشف عن طبيعة العقل والجنون جميعاً .

يتضح إذن أن مشكلة الحلم أعظم شأناً مما يبدو لأول وهلة وأن من يعقد العزم على أن يزيح الستار عن طبيعته إنما يواجه مشكلة طبيعة النفس الإنسانية بأسرها . وقد كان ذلك بين الأسباب التى جعلت موضوع الأحلام أمراً عسيراً ممتنعاً على الفهم العلمى الصحيح قروناً عديدة . ومن أجل ذلك كان « تفسير الأحلام » يضم فى الحقيقة بين دفتيه أخطر الاكتشافات فى تاريخ معرفة الإنسان بنفسه ، وكان صدوره فتحاً لا يدانيه أى فتح فى العلوم الإنسانية ، ونقطة تحول بالغة الأثر فى تطور علم النفس والطب النفسى جميعاً ، حتى شبهه البعض بكتاب كوبرنيكس الذى طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث .

ذلك أننا نقف فى هذا الكتاب على المعنى الصحيح لأخطر اكتشافات التحليل النفسى وأعنى به ما اصطلح عليه بالعمليات الأولية والعمليات الثانوية ، فدراسة الأحلام تتيح لنا أن نتعمق كلا منها ، وأن نفهم ما يقوم بينها من العلاقات ، فيتضح لنا الارتباط بين أشياء كان يظن أنها متباينة مستقلة بعضها عن بعض ، ونشعر بأن ضياءً قد بددت الظلمات التى كانت تكتنف أشتات الحياة النفسية . فما أن ندرك طبيعة العمليات الأولية التى يقوم عليها بنيان الحلم حتى تنجلى لنا معالم منطق فريد يختلف اختلافاً ملحوظاً عن منطقنا الذى نألفه أثناء اليقظة فى المجتمعات المتحضرة (أى منطق العمليات الثانوية) ، ولا نلبث أن نفطن إلى أن منطق العمليات الأولية إنما هو المنطق الذى يُنسج هذيان المريض على منواله ، حتى صح القول بأن الحلم مرض نفسى قصير يستغرق الليل ، وأن المرض النفسى حلم طويل يستغرق الليل والنهار .

ولا يقتصر الأمر على ذلك . فإننا إذ ننعم النظر فى منطق الحلم لا نلبث أن ندرك أنه المنطق الذى يعتنقه كل منا فى فجر حياته (أى أثناء الطفولة الأولى) وهو كذلك المنطق الذى تعتنقه الإنسانية فى فجر الحضارة فضلاً عن أنه عين المنطق الذى يصدر عنه خيال الشعراء وغيرهم من الفنانين . وإذا استرشدنا ما ظفر نا به من الفهم ، وتابعنا التنقيب فى سائر أحوال الإنسان رأينا غموضها وقد استحال وضوحاً ، وكأنها اصطفت جميعاً فى صعيد واحد . ومن الجلى أن هذه هى الصفة التى تميز الاكتشافات الكبرى : أعنى تقريب الشقة بين الأشياء الكثيرة المتباعدة وانخراطها فى نظرة واحدة تؤلف بينها ، كما حدث مثلا عند اكتشاف وحدة الموجات الضوئية والموجات الكهربية المغناطيسية وغير ذلك من الظاهرات الفيزيقية .

وهكذا ندرك أن صفحات « تفسير الأحلام » قد اشتملت الأسس التى قامت عليها دراسات فرويد اللاحقة فى شتى نواحى الحياة الإنسانية ، وأعنى بذلك ما نشره فى أعقاب « تفسير الأحلام » من المؤلفات الأساسية مثل كتابه فى « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » ثم كتابه « الطوطم والتابو » الذى أرسى فيه قواعد علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الحديثة ، ثم كتابه المشهور « ثلاث مقالات فى النظرية الجنسية » الذى عالج فيه العلاقة بين اضطرابات النمو النفسى الجنسى أثناء الطفولة وبين ما يلم بالراشد من أمراض وانحرافات نفسية ، ثم دراساته الاكلينيكية فى الطب النفسى وبخاصة « طرف من تحليل

حالة هستيريا » و « مذكرات عن التحليل النفسى لحالة من حالات البارانويا »، فضلا عن دراساته التطبيقية وبخاصة « النكتة وعلاقتها باللاشعور » و « العلاقة بين الشعر وأحلام اليقظة » . ونجد فى هذا الكتاب أيضاً نواة الدراسات التى قام بها بعض تلاميذه مثل دراسة أرنست جونز لشخصية هاملت . وجميع هذه الكتب تعتبر من المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى ، التى نزمع نشرها تباعاً فى هذه المجموعة .

فإذا تبينا ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية أساسية أدركنا أنه لا سبيل إلى فهم صحيح للتحليل النفسى بغير دراسة هذا الكتاب دراسة دقيقة تصحح تلك التصورات الساذجة المبتسرة كالقول بأن التحليل النفسى هو اكتشاف اللاشعور أو أنه نظرية قوامها تفسير الأمراض النفسية بأسباب جنسية . هذا فضلا عن كونه كتاباً ينبغى أن يقرأه كل طبيب نفسى وكل مشتغل بعلم النفس أو التربية أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو تاريخ الحضارة أو النقد الأدبى أو فقه اللغة وما إلى ذلك من علوم الإنسان .

* * *

بقى أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال الذى طرحناه فى بدء هذا التصدير ، أعنى : لمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم . والإجابة عن هذا السؤال أمر يعنينا لأن فيها تبياناً لأهمية أخرى لهذا الكتاب ، فضلا عن أنها تلقى ضوءاً على اللحظات الحاسمة فى نشأة التحليل النفسى .

فى السنوات الأولى من العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان فرويد يخطو خطواته الأولى فى سبيل الكشف عن طبيعة مرض الهستيريا ، فتبين له أن أعراض هذا المرض تخضع لحتمية سيكولوجية ، أى أن هذه الأعراض تعبر عن معان نفسية ، معان لا ترد جزافًا وإنما تحكمها علية يمكن تحديدها كما تحدد علية الظواهر الفيزيقية . ثم ما لبث أن ابتدع منهج التداعى الحر كوسيلة لاستقصاء المعانى المتضمنة فى الأعراض ، فكان يطلب من مرضاه أن يطلقوا العنان لخواطرهم فلا يمسكوا عن ذكر ما يحضرهم مهما كان تافهاً أو نابياً . فلاحظ أن مرضاه كانوا يذكرون فيما يذكرون أحلاماً عرضت لهم أثناء الليل ، ثم كانوا ينطلقون فى ذكر ما يعن لهم من الخواطر بصدد هذه الأحلام . فأصغى فرويد إلى رواية هذه الأحلام إصغاءه لغير ذلك من الخواطر ، محاولا أن يتبين ما قد تشير إليه هذه

الأحلام من معان فى ضوء السياق العام لما يفضى به المرضى وما يعانون منه .

وليس من اليسير على القارئ فى أيامنا هذه ، وقد ذاعت مكتشفات التحليل النفسى وأصبحت جزءاً من الثقافة العامة — ليس من اليسير عليه أن يدرك خطورة هذا الموقف الجديد الذى اتخذه فرويد ، وما يتضمنه من ثورة فكرية على الأوضاع العلمية السائدة فى عصره . فقد كان فرويد فى ذلك الوقت أحد العلماء الذين أنجزوا اكتشافات علمية مرموقة فى ميدان التشريح والطب العضوى، وكان يعتنق تعاليم مدرسة هلمهولتز فى التفسير الفيزيقى لظواهر الحياة ، وهى التعاليم التى كانت تعتبر نبراساً لكل باحث فى الطب والعلوم البيولوجية . فالبحث عن « معنى » للأحلام يعتبر مروقاً بل إهداراً للمبادئ الأساسية للبحث العلمى كما كان يتصوره معاصروه، لأن الاتجاه العلمى الصحيح فى رأيهم لا يكون إلا بالبحث عن الأحداث الفيزيقية والكيميائية ، وما عدا ذلك فهو ارتداد إلى أسلوب التفكير الغيبى أو شطحات الشعراء .

والواقع أن كتاب « تفسير الأحلام » استقبل عند صدوره استقبالاً سيئاً من معاصرى فرويد من العلماء . فها هو ذا البروفسور ليمان الأستاذ بجامعة برلين يكتب عنه قائلا : « لقد انتصرت (فى هذا الكتاب) الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمى» (١) .

وإننا نعلم اليوم أن هذا النقد — وإنْ جانبه الصواب — يلمس عن غير قصد حقيقة هامة . ذلك أن مكتشف التحليل النفسى ما كان ليظفر باكتشافاته ما لم يصطنع ضرباً من الحدس الفنى أخضعه لأسلوب البحث العلمى . فإن ما يميز الإنتاج الأدبى والشعر خاصة هو كما يقول كولريدج « التعطيل الإرادى للريبة » فالشاعر الأصيل يعطل عن قصد ارتيابه فيما جرى العرف على الارتياب فيه والاستخفاف به . فالأخيلة التى يزورّ الناس عنها ويرونها أضغاثاً باطلة ، تلقى لديه أذناً صاغية . وها هو ذا فرويد يكتب فى سيرته التى ظهرت فى هذه المجموعة بعنوان « حياتى والتحليل النفسى » ما يأتى : « كنت أعطل ملكتى النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيز لآراء سائدة وأكون مستعداً للنظر فى أى أمر يجد من الأمور التى كانت تنكشف لى كل يوم » . والحق أن أهم ما يتميز به رواد العلم أنفسهم إنما هو هذه « السذاجة » التى يعرفون كيف يتلقون بها الظواهر .

وإنها لحقيقة نعرفها اليوم : إن الشعراء سبقوا فرويد فى حدس الكثير من الحقائق

---

(١) Ernest Jones : Freud. Life and Work. Vol. one. London. p. 396.

النفسية . غير أن الشعراء كانوا يهدفون إلى إنشاد ما يدخل المتعة على النفس ، على حين أن فرويد كان يجهد فى أرساء قواعد علم مقنن . لقد كان من نصيب فرويد أن يكشف عن طبيعة الأحلام لأنه استطاع أن يستعير من الفنان قدرته على الحدس وتعطيله الإرادى للريبة مخضعاً ذلك لمقتضيات البحث العلمى .

على أن ذلك ما كان ليفضى به إلى إنجاز كتاب « تفسير الأحلام » — وهو كما سبق القول حجر الزاوية فى بناء التحليل النفسى بأسره — ما لم يقم بأخطر تجربة قام بها إنسان فى تاريخ المعرفة كلها ، أعنى : إقدامه على تحليل نفسه تحليلاً منهجياً بتحليل أحلامه .

حقاً أن فرويد كان قد فطن قبل ذلك إلى الدافع الأساسى فى تكوين الحلم أعنى تحقيق الرغبات ، وذلك من تحليله لبعض أحلام مرضاه ، وتأكد لديه هذا الرأى من تحليله لحلم رآه فى يوليو سنة ١٨٩٥ ، وهو حلم « حقنة إرما » الذى يناقشه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب . ويتبين من قراءة هذا الفصل أنه كان قد وصل فى فهمه للعمليات النفسية التى تشكل بناء الحلم إلى مدى بعيد ، مما يؤيد قوله فى رسالته « تاريخ حركة التحليل النفسى » : إن جوهر « تفسير الأحلام » كان قد أنجز فى أوائل سنة ١٨٩٦ ولكنه لم يكتب إلا فى صيف عام ١٨٩٩ . بل إنا نعلم اليوم من المخطوطات التى اكتشفت بعد وفاته أنه أقدم فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ على كتابة رسالة (أطلق عليها اسم : مشروع سيكولوجية علمية) أفرد فيها لموضوع الأحلام ثلاثة فصول بين فيها أن الأحلام تنشأ لتحقيق رغبة كما بين طابعها الهلوسى والارتداد النكوصى للعقل فى الهلوسات والأحلام على السواء ، وأوضح عملية النقل فى الأحلام ثم التشابه بين تكوين الحلم وتكوين الأعراض العصابية ، وعرض كذلك لاكتشافه الأساسى ، أعنى الفارق بين العمليات النفسية الأولية والعمليات الثانوية .

ولكن مهما بلغ شأن هذه البيانات الأساسية فى نظرية الأحلام فإن هذه الرسالة لا تقارن بكتاب تفسير الأحلام إلا كما يقارن كوخ صغير بقصر شاهق ، بالرغم من أن الفترة التى تفصل بينهما لا تعدو سنتين أو ثلاثة . غير أن هذه السنوات القليلة حفلت بأعظم الأحداث فى تاريخ التحليل النفسى ، إذ أقدم خلالها فرويد على تحليله لنفسه فأنجز بذلك — كما سبق القول — أخطر تجربة قام بها إنسان فى تاريخ الفكر ، لأنه كان ل أمن حقق الشعار الفلسفى الأول : اعرف نفسك .

لقد كنا نعلم مما نشره فرويد أنه أفاد من تحليله لأحلامه فائدة عظيمة مكنته من السير قدماً فى اكتشافاته ، ولكن القصة الكاملة لهذه الفترة من جهاده العلمى لم نقف عليها الا عند ما نشرت بعد وفاته (١٩٥٠) رسائله الخاصة إلى صديق يدعى « فليس » . ففى هذه الرسائل نراه يسجل ما مر به من تجارب فريدة وما اعترض طريق البحث من عقبات تأتيه من نفسه ، ثم تصميمه على أن يزيل هذه العقبات حتى يظفر بالحقيقة كاملة

إن رواية قصة جهاده فى هذه الفترة تقتضى من الصفحات ما يشمله كتاب . فيكفى أن نذكر أنه كان قد أقام نظرية فى تعليل الهستيريا اعتنقها عدة سنوات ، ثم إذا بهذه النظرية تنهار فجأة أمام نقد حاسم سلطه عليها فى ضوء تجاربه المتكررة مع مرضاه ، فيقف فى ظلام دامس من حيث علية العصاب ، ويجد نفسه فجأة وقد أوصدت أبواب الفهم أمامه مهما بذل من جهد . ولكنه ما لبث أن فطن إلى أن تعطيل قدرته على البحث متصل بأسباب تأتيه من أعماق نفسه ، أى من مقاومة عنيدة تحول دونه والاستبصار . وبعبارة أخرى فقد أيقن أن الشرط الأساسى لكى يفهم الإنسان غيره من الناس فهماً صحيحاً ، هو أن يبدأ بفهم نفسه ويزيل الستار الذى يحول دون إدراك النفس لكنهها . ولا مفر من ذلك . فغض الطرف عما فى النفس غض له عما فى غيرها . ولذلك فقد عقد العزم على أن يجرى على نفسه تحليلاً منهجياً متخذاً من أحلامه مادة هذا التحليل .

وليس من اليسير على من لم يختبر عملية التحليل النفسى بنفسه أن يدرك خطورة ما اعتزمه فرويد ، وما اقتضاه إنجاز عزمه من شجاعة وصبر ونضال مرير . ويكفى أن نذكر أن كل عملية تحليل نفسى تصطدم بمقاومة عنيدة طبيعية عند كل إنسان ، تحول دون الاستبصار بما يدور فى أعماق النفس ، وتصدر عن الإشفاق من مواجهة الحقيقة ، ويقتضى الظهور على هذه المقاومة عملا متواصلا من جانب الطبيب يدوم شهوراً طويلة . وقد قام فرويد بهذا النضال وحده وأنفق فيه نحو ثلاث سنوات خرج منها بمعرفة وكتاب . فأما المعرفة فقد استكمل فهمه للنمو النفسى أثناء الطفولة واكتشف عقدة أوديب . وفطن للدور الذى تقوم به التخييلات فى نشأة العصاب فاستقامت نظرته فى علية الأمراض النفسية . وأما الكتاب فهو « تفسير الأحلام » الذى يعتبر فى المحل الأول ثمرة هذه التجربة الفريدة .

* * *

يتضح مما سبق ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية تضعه فى مصاف المؤلفات التى تعتبر فى المرتبة الأولى من الإنتاج الفكرى على مر العصور ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوربية وبقيت المكتبة العربية ينقصها هذا الأثر الخالد .

ولا شك أن ضخامة المجهود التى تتطلبها ترجمته والصفات التى يجب توافرها فيمن يقدم عليها كانت سبباً فى الإحجام عن نقل هذا الكتاب إلى العربية حتى الآن . ذلك أن هذا الكتاب يزخر بثروة من الثقافة الغربية الحديثة والقديمة ، اليونانية اللاتينية ، جعلت نقله إلى العربية نقلا صحيحاً أمراً مستحيلا ما لم يكن المترجم قد اكتسب هذه الثقافة اكتساباً أصيلا . ثم إن فرويد على الرغم من أنه لم يكن فيلسوفاً محترفاً إلا أن قدرته على الجدل العميق بلغت فى بعض أجزاء هذا الكتاب مبلغاً يقتضى أن يكون المترجم رجلا قد مارس التفكير الفلسفى . على أن العقبة الكبرى فى نقل هذا الكتاب نقلا أميناً تنشأ من أن موضوعه يدور حول مسائل لا بد لمن أزمع نقلها من أن يكون قد اختبرها خبرة أصيلة . وبعبارة قصيرة لا بد لمترجم هذا الكتاب من أن يكون محللا نفسياً .

وقد اجتمعت لزميلى مصطفى صفوان هذه الصفات جميعاً . فقد تدرب على التحليل النفسى فى معهد باريس وحصل على إجازته ثم مارسه منذ عدة سنوات . وهو فيلسوف تعمق دراسة الفلسفة ودرس الآداب الأوربية القديمة والحديثة فضلا عن امتلاكه للغتين الألمانية والعربية امتلاكاً أكيداً . وقد أنفق فى هذا العمل الضخم زهاء ثلاث سنوات كنت أرقبه أثناءها وأتتبعه مشفقاً أحياناً مما يتطلبه الاستقصاء الدقيق لكل عبارة من المشقة والجهد ، ولكنى كنت دائماً سعيداً فخوراً به .

وفى يقينى أن صدور هذا الكتاب فى اللغة العربية يعتبر حدثاً ثقافياً عظيماً فى تاريخ المكتبة العربية . وبين يدى القارئ الدليل على ما أقول .

مصطفى زيور
دكتور فى الطب
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى

كلمة المترجم

يقرأ القارئ فى هذه الترجمة الكتاب الذى قال عنه سيجموند فرويد : « إنه يحوى أثمن الكشوف التى شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبي ؛ فمثل هذا الحدس لا يأتى العمر مرتين »[1] .

ونستطيع أن نقول دون أن ندعى الكشف عن ماهية هذا الحدس بل لعلنا لا نعدو أن نجمل الأثر الأول الذى يخرج به من هذا الكتاب القارىء غير المتأثر بسوابق الرأى (وهى كثيرة) : إن فرويد يرينا فى « تفسير الأحلام » أن الحلم كلمة وأنه إذن يفترض لغة على حسب التفرقة التى أذاعها فردينان دى سوسير فى مطلع هذا القرن : فاللغة نظام اجتماعى وأما الكلام فهو الفعل الذاتى الذى يطوع هذا النظام لمقاصده وإن خضع له . واللغة بذلك سابقة على الكلام سبق المجتمع على الفرد ؛ فهو منذ ولادته يندرج فى شبكة من القرابة يختلف نظامها باختلاف المجتمعات كما أنه — بما هو إنسان — لا يستقيم له مفهوم بغير تصور القاعدة أو القانون وتصور القاعدة أو القانون يفترض كثرة الأطراف .

بيد أن قولنا : « إن الحلم كلمة » قد يبدو مبهماً أو مشكلا ؛ لأننا نعلم أن الحلم يتألف أكثر ما يتألف من صور مرئية لا من أصوات . ولقد يتبادر إلى الذهن أننا إنما نعنى بهذا القول أن الحلم — كالرسم — ربما كان يعرب بصوره عن شىء ما . سوى أن قليلا من التدبر كفيل أن يرينا أن فكرة «التعبير» هذه يمكن أن تقال عن كل شىء : فاللغة تعبر ، والموسيقى وجميع الفنون تعبر ، وربما جاز أن نقول بمعنى ما : إن اجتماع السحب فى السماء « يعرب » عن قرب العاصفة — وإنا لنعلم أن الطبيعة بأسرها قد استحالت بالفعل فى نظر بعض الفلاسفة إلى نظام من العلامات . ومعنى ذلك أن فكرة التعبير — وهى التى يمكن أن تقال عن كل شىء — لا تفيد فى تخصيص أى شىء . فهذه الفكرة ليست فى الحقيقة تصوراً علمياً بالمعنى الصحيح ، بل الأصدق أنها تدخل فى عداد تلك التصورات التى يصدق عليها التشبيه الذى ضربه هجل فى صدد مطلق شللنج : تشبيه الليل الذى كل البقر فيه أسود .

---

(١) من مقدمة الطبعة الثالثة لترجمة بريل الإنجليزية .

والواقع أن المماثلة بين الحلم والرسم — وهى المماثلة التى يجرنا إليها تألف الحلم فى الغالب من الصور المرئية — إنما تقوم على أساس موهوم . ولو نظرنا إلى الحلم نظرتنا إلى لوحة مصورة لوجدناه شيئاً لا معقولا ، لا يحمل أقل أثر من المعنى . وإنما الواجب أن ننظر إلى رسوم الحلم نظرتنا إلى تلك الرسوم التى يتألف منها اللغز المصور والتى يتعين علينا حلها ، فإن فعلنا ارتفع خلوها الظاهرى من المعنى وربما تكشف لنا بيت من أجود ما جاد به الشعر وأفصحه[١] . أو بعبارة أخرى : إن صور الحلم إنما تشبه رسوم الكتابة الهيروغليفية أو غيرها من الكتابات المصورة وإن موقف من يفسر الحلم لا يختلف فى شىء من موقف العالم اللغوى حين يريد أن يحل للمرة الأولى نصًّا مكتوباً بكتابة مصورة لم تفك رسومها من قبل ، وتفسير الحلم إنما يعنى قراءته . وهذا التقريب الذى يصادفه القارئ مراراً على صفحات « تفسير الأحلام » بين الحلم والكتابة المصورة يجب ألا يؤخذ مأخذ المماثلة الغامضة ، إنه ينم عن اتفاق فى الجوهر . بل إن فرويد ليمد التقريب إلى التفاصيل حتى أنه يجد فى الحلم ما يضارع استخدام «المخصِّصات» فى الكتابة الهيروغليفية (أنظر ص ٣٣١) ، وإنه ليقول لنا فى مقال كتبه سنة ١٩١٣[٢] : « إنه إذا كان هذا التصور لمنهج الحلم فى التصوير لم يلق متابعة حتى الآن فلأن المحللين النفسيين يجهلون كل الجهل ما هو الموقف الذى قد كان يقفه أحد علماء اللغة لو أنه واجه مشكلة من قبيل تلك التى يواجهنا بها الحلم وما هى العدد التى قد كان يتوسل بها إلى حلها . »

الحلم — إذن — كلمة وتألفه من صور مرئية لا يخرجه عن كونه كذلك ، كل الأمر أنه يدعونا إلى أن نزيد قضيتنا تحديداً فنقول : إنه كلمة أو نص مكتوب بكتابة مصورة . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن تكون هناك لغة هى اللغة المستعملة فى الأحلام — بحسب التفرقة التى سبقت الإشارة إليها — وهذه اللغة يجب أن تدرس من النواحى الثلاث التى تدرس منها اللغة عادة ، أى فى نحوها وبلاغتها ومفرداتها . فهل الأمر كذلك ؟نعم ، وهذه الدراسة على التحديد هى ما يقوم به فرويد فى الفصل السادس من « تفسير الأحلام » — وهو أطول فصوله وعصب الكتاب جميعاً — بحيث يسعنا أن نقول بحق : إن فرويد — فى

---

(١) أنظر حديث فرويد الصريح فى هذا الصدد ، فى مطلع الفصل السادس

(٢) بعنوان « حقوق التحليل النفسى على الاهتمام العلمى » — وهو مقال نشر باللغة الإنجليزية فى المجلد الثامن من الطبعة الإنجليزية الأخيرة لمؤلفات فرويد الكاملة ، وفيه يعدد فرويد ما يستطيع التحليل النفسى أن يسديه إلى العلوم المختلفة — ومن بينها علم اللغة — وما يستطيع استعارته منها .

هذا الفصل — قد عرف الإنسان بلغة رغبته مثلما عرفنا أرسطو فى منطقه بلغة الإنسان العارف . ولا غرو إذن (كما لاحظ أستاذ هوچاك لاكان) أن كانت للتحليل النفسى قيمة البشير بالحركة التى يحمل عصرنا بأسره طابعها ، حركة اكتشاف الإنسان لعلاقته باللغة[1] . ولكننا نترك ذلك إلى إجمال النتائج التى تنتهى إليها هذه الدراسة .

ماذا عن نحو الحلم ؟[2] إن فرويد يرينا أن الحلم لا يكاد يعرب عن علاقة من العلاقات سوى علاقة الشرط أو العلية . وهو يتوسل إلى الإعراب عنها بالتعاقب . فإن ورد حلم فى أعقاب آخر غلب أن يكون الحلم الأول معادلا لجملة شرط يكون الثانى جوابها — وإن لم يكن الأمر كذلك دائماً . وسيجد القارئ مثالا على ذلك فى صفحة ٣٢٥ . وهناك — عدا هذا — علاقة التشابه التى تعرب عنها لغتنا العربية بالكاف وكأن وما إليهما : هذه أيضاً يملك الحلم وسائله فى تصويرها (أنظر ص ٣٣٠) . وأما سائر العلاقات كالاحتمال والنفى والضدية فهذه لا يكاد يعرف الحلم طريقة ما فى الإعراب عنها بل يغفلها إغفالا . ومعنى هذا أن الحلم فقير كل الفقر فى نحوه ، وهو فى ذلك يشبه كثيراً من الكتابات المصورة التى تقصر جل اهتمامها على الإعراب عن دوال المعنى مغفلة دوال النسبة .

ولكن يعوض عن هذا الفقر فى النحو ثراء بلاغى يفوق التصور . فما من صورة من الصور البلاغية التى تعرفها اللغات النهارية إلا وجدناها فى الحلم . وسيرى القارئ حلماً (هو حلم أوپرا ڤاجنر ، أنظر ص ٣٥٠) لم يكن منهجه شيئاً آخر سوى الاستعارة ، وما أن انتبه المفسر (وأعنى فرويد) إلى ذلك حتى خرج له من وراء فساد الحلم الظاهر مقال مفهوم كانت تقابل فيه الحالمة بين حبها المكنون وحب غريمتها المكشوف . وأما السبب فى هذا الالتجاء المستمر إلى الاستعارات وضروب الكناية والمجاز المرسل المبثوثة فى الشعر والأغانى الشعبية وغيرها فيذكره فرويد فى القسم د

(١) نرجو أن تجد اللغة العربية من يترجم إليها مؤلفات دى سوسير وترو بتسكوى وليڤى ستروس ودوميزيل وغيرهم ممن لا يستغنى عن أعمالهم إذا أردنا أن نجارى الثورة الحديثة فى علوم الإنسان .

(٢) من الجلى أننا لا نتحدث هنا عن النحو بتعريفه الضيق الذى يقصره على دراسة الإعراب وحركاته (فلا محل للحديث عن حركات الإعراب ونحن بصدد كتابة مصورة وإن اشتمل الحلم على وسائل تعادل بعض الحركات الصوتية مثل رفع الصوت للتوكيد أو اصطناع لهجة معينة ، أنظر ص ١٩٥ و ص ٥٨١) بل بالمعنى الأعم الذى دعا إليه بيننا الأستاذ إبراهيم مصطفى والذى يفيد دراسة طرق ترتيب المقال على حسب العلاقات بين المعانى .

من الفصل السادس . كما أنه يزيد فيرينا كيف كان لصورة البرج فى ذلك الحلم تركيب عطف البيان . ونستطيع نحن أن نجد فى إثره الرمز والمقابلة والتشبيه والحذف وإطلاق اسم العلم فى مجرى الصفة واستعمال القليل للدلالة به على الكثير . بل إن الحلم بوجه عام ليسرف فى استخدام الصور البلاغية إسرافاً هو الذى يؤدى إلى هذا العطل الظاهرى من المعنى على نحو ما يقع فى شعر السرياليين[١] . ويعين على هذا أنه إذا كان هناك أسلوب نستطيع أن نقول : إنه أسلوب الحلم بالذات ، فذلك هو الحذف ، والحذف المخل . بل نستطيع أن نقول بوجه عام : إنه إذا كان المحللون يفهمون مرضاهم فباستنادهم إلى معرفتهم برمزية المحذوف فيها لا يقل أهمية عن المذكور بل يزيد خطراً . فإذا أراد القارئ أن يعلم السر فى هذا الإسراف البلاغى من جانب الحلم قلنا فى إيجاز : إنه الرقابة ؛ فأنت إذا تحدثت وأنت تشعر بأن ثمت رقيباً على كلماتك كان أول ما تعمد إليه هو الحذف واستخدام الألفاظ فى غير مواضعها ، وإذا كان هناك تعريف يجمع بين ضروب الأشكال البلاغية كالمجاز المرسل أو الكناية أو ما إليهما ، فذلك هو كونها استعمالا للألفاظ فى غير مواضعها .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة مفردات الحلم أو — بعبارة أدق — إلى ما يسميه اللغويون الغربيون « دوال المعنى » ، كان أول ما يصادفنا هو الرموز التحليلية بالمعنى المحدود (كالملك رمزاً للأب أو الرحيل رمزاً للموت . . . إلخ) . فهذه الرموز هى الدوال الأساسية فى لغة اللاشعور[٢] ، وإنا لنسمعها دائماً أبداً فى حديث الإنسان الليلى (وأعنى الحلم) كما فى أعراض مرضه وشعره وأساطيره . . . إلخ . فإذا تركنا هذه وجدنا أن الحلم إنما

(١) كما لاحظه العالم اللغوى بنفينيست فى مقال عنوانه « ملاحظات حول وظيفة اللغة فى الكشف الفرويدى » — وهو مقال ظهر سنة ١٩٥٥ فى العدد الأول من مجلة الجمعية الفرنسية للتحليل النفسى التى يرأس تحريرها الدكتور جاك لاكان : La Psychanalyse . ونعلن بهذه المناسبة عن أسفنا إذ حالت الظروف دون أن تصلنا مقدمة وعدنا الأستاذ لاكان أن يجيبنا فيها عن سؤال وجهناه إليه لأننا نعتقد أنه الرجل الوحيد بين معاصرينا الذى يستطيع الإجابة عنه، وهو : ما هو هذا الحدس الذى يقول فرويد : إنه لا يأتى العمر مرتين؟ ونأمل أن نتمكن من نشر هذه المقدمة فى طبعة ثانية .

(٢) غنى عن البيان أننا نقول أحياناً « لغة الأحلام » بمعنى اللغة المستعملة فى الأحلام ، وهذه اللغة تصطنعها أيضاً الأعراض الهسترية والقهرية وغيرها ، فهى لغة اللاشعور حيثما كان للاشعور نصيب ، بحيث نستطيع أن نعد الحلم والعرض الهسترى أو القهرى لهجات مختلفة منها تمكن ترجمة بعضها إلى البعض الآخر — كما يبينه فرويد فى المقال الذى سبقت الإشارة إليه . وكل الفرق أن بنية المادة الدالة تختلف : فما يقوله الحالم بالصور يقوله الهسترى بجسمه وهكذا .

ينسخ الاستعمال الصوتى والمعنوى للدوال المتضمنة فى لغة الحالم النهارية . سوى أن الحلم يفاجئنا ههنا بتلك الظاهرة : ذلك أنه إذا كان هناك أمر يميز اللغات النهارية فهذا هو ما سماه أحد اللغويين المحدثين بحق ظاهرة « الفرار من الاشتراك »[١] ، بمعنى أن اللغة لا تمل من ابتداع الوسائل للتفرقة بين الدوال تجنباً للاشتراك وازدواج المعانى . ومن الحق أن اللغات النهارية مهما أمعنت فى هذا الاتجاه لا تبلغ أبداً إلى القضاء على اتساع اللفظ الواحد للمعانى المتعددة ؛ فلقد قدر على الكلمة أن تكون معقد معانى متعددة ، كما يقول فرويد (ص٣٤٩)، وهذا الاتساع وحدههو الذى يطوّع اللفظ للمقاصد التى يسخره لهاالكلام[٢] ، ولكن الذى يهمنا الآن هو أن لغة الأحلام تفلت كل الإفلات من هذا « الفرار من الاشتراك » ، بل هى تمعن فى الاتجاه المخالف : فلا حد للمعانى التى يمكن أن تحملها صورة الحلم ، وهذا هو ما سماه فرويد ظاهرة « التكثيف » . ولو رجع القارئ ههنا إلى أحد الأمثلة على ذلك ، كالحلم المعنون « حلم الخنفساوين » (ص ٣٠٢)، لحيل إليه أن صورة الخنفساء بكل ما تكثف فيها من المدلولات إنما كانت الرسم الهيروغليفى الذى يعكس كل رغبات الحالمة ومخاوفها فى صورة غريبة عنها ، ولحيل إليه بوجه عام أنه يواجه فى الحلم جميع المادة الدالة وقد تركت لنفسها فى « حالة همجية » . ولا يقف إفلات الحلم من قانون الفرار من الاشتراك عند هذا الحد ، بل هو يتناول أيضاً مادة الدوال أو بنيتها الصوتية بلعب يؤلف بحق ما يشبه « الكيمياء اللفظية » مثلما تصنع النكات (أنظر الأمثلة على ذلك فى ص ٣٠٩ وما بعدها) ، وأما السبب فى هذا كله فيرجع بعضه إلى غياب الآخر أو المخاطب فى الحلم بعض الغياب — وإن لم يكن كله كما يتبين من بقاء الرقابة — وارتفاع القاعدة أو القانون بقدر غيابه[٣] .

فإذا أردنا أن نجمل الكلام السابق عن خصائص لغة الحلم قلنا : إنها لغة تتميز بالفقر النحوى مع الإعمال المفرط للحذف فى ترتيب السياق ، ثم بالثراء البلاغى ، فالتكثيف المعنوى .

---

(١) Joseph Tubiana, "Agencement et ambiguïté en phonologie", Cahiers F. de Saussure, 1952.

(٢) ليتأمل القارىء المعانى التى لا حصر لها التى يمكن أن يلقاها اللفظ الواحد (وليكن « الشمس ») فى استعمالاته على السنة البلغاء وغيرهم : فالشمس قد تكون المحبوبة وقد تكون الجمال أو الحسن وقد تكون الملك أو المصباح أو الحياة إلى آخره .

(٣) وأما السبب الآخر والأهم فهو انحطاط الرمزى إلى المتخيل نتيجة لارتداد الأنا إلى وظيفته النرجسية . ولا يتسع المجال لشرح هذه التفرقة بين الرمزى والمتخيل — وإن كان المحللون أقرب الناس إلى فهمها فخبرتهم تريهم دوماً كيف تعامل الألفاظ معاملة « الموضوعات » .

وههنا نترك الإجابة عن بعض الأسئلة التي ربما جالت بذهن القارئ ، كأن يسأل : ما هي الصلات بين هذه اللغة التي يصطنعها الإنسان في خطابه الليلي وبين لغاته النهارية ، بين هذه الرمزية وتلك ؟ كيف نوفق في بناء واحد بين هذه النظرة إلى اكتشاف اللاشعور باعتباره اكتشافاً لغوياً بحتاً لم تختلف خطوات صاحبه في الوصول إليه مما قد كانت تكونه خطوات العالم اللغوى وبين الآراء الذائعة — وحدها — عن فكر فرويد ، كاتجاهه الدينامى وما يعزوه من الأثر الحاسم إلى تاريخ الطفولة وحياتها الجنسية [١] ؟ ونترك للغويين والنقاد أن يتبينوا كيف يمكننا تعمق لغة اللاشعور ودوراتها من أن نزيد فهما للتراكيب الدينامية للأسلوب ومقوماتها الوجدانية[٢] . كما نترك للفلاسفة أن يستخرجوا المغزى الذى قد يرونه إذ يرون الإنسان مسكوناً بلغة تأسر رغبته وفيها تولد هذه بما هي رغبة إنسانية .

نترك كل هذا لأننا إنما أردنا بالكلمة المتقدمة أن نشعر القارئ بتلك القضية : أن الأحلام — كالشعر — لا تترجم . ولقد كان ذلك رأى فرويد الذى أعرب عنه. فإذا كان كتابه « تفسير الأحلام » قد ترجم مع ذلك إلى معظم لغات العالم الحية فلا يرين القارئ في ذلك إثباتاً للضد كإثبات الحركة بالمشى ؛ لأن المترجمين اتبعوا في العادة إحدى طريقتين : فهم إما أسقطوا بعض الأحلام التي أوردها المؤلف إسقاطاً وإما استبدلوا بها أحلاماً من عندهم ومن لغاتهم . ولكن هذه الاستباحة إن جازت والكتاب في أوائل سيرته لا تجوز اليوم بعد أن صارت له مكانة الكتب المأثورة : هذه كانت الصعوبة الكبرى في ترجمة « تفسير الأحلام » . ولم أجد لها إلا حلا واحداً : وهو أن أترجم الأحلام وتفسيراتها ترجمة حرفية . فإن كان الحالم قد اعتمد في تصويره على تعبير دارج يتضمن استعارة أو كناية أو غيرهما ترجمته كما هو ونبهت عليه وفسرت وجه الاستعارة أو الكناية إذا رأيت داعياً إلى ذلك . فإن أعمل التورية نصصت عليها ، أو استغل الاشتراك الذى في أحد الألفاظ وضعت اللفظ الأصلى بعد كل ترجمة من ترجماته المختلفة ، فإن كانت الخاصة المستغلة هي الجناس بينته ، وهكذا . ولا شك في أن النص يفقد بذلك الشيء الكثير من طلاوته ولطفه — كما يقول جيمس ستراشى الذى اتبع ذات المنهج صادراً عن ذات السبب — بل

---

(١) وهى أسئلة حاولنا أن نجيب عنها في محاضرة ألقيناها بدار نقابة الصحفيين بدعوة من الجامعة الشعبية .

(٢) أنظر أيضاً بنفنيست ، ذات المرجع .

يفقد الكثير من قدرته على الإثارة والإيحاء والإقناع . ولكن القارئ يرى الآن كيف كان ذلك بعضاً من الشر الذى ليس منه بد .

وعدا هذه الصعوبة الناشئة عن طبيعة الكتاب المترجم أو — على الأدق — عن طبيعة موضوعه ، كانت هناك صعوبة أخرى تتصل بموقف المترجم إلى العربية ، والذى أعنيه بهذا القول هو مشكلة المصطلحات : هذه لم تكن بالصعوبة البالغة ؛ فقد وجدت الطريق ممهداً أمامى بفضل من سبقوا إلى الترجمة فى مجال علوم النفس والتحليل النفسى بنوع خاص ، ولهذا كان واجباً علىّ أن أوجه إليهم شكرى على هذه الصفحات ، وإذا كنت لا أذكرهم بأسمائهم فلأن أعمالهم قد سبقت أيضاً إلى التعريف بهم . سوى أن من الصعب مع هذا على مترجم فى موقفى ألا ينص فى هذا المعرض على الجهود التى بذلها الأستاذ يوسف مراد ؛ فقد كان بالقاموس الذى وضعه بمعاونة الدكتور عبد المنعم المليجى والدكتور صبرى جرجس أول من أرسى هذه المصطلحات التى صارت اليوم تراثاً مشتركاً . وقد كنت آخذ بالترجمات الموضوعة رغم ما قد يخالطها من قصور لا أظن إلا أن واضعيها كانوا أول المنتبهين إليه . ولكن هذا الالتزام بالقديم لم يمنعنى من التجديد إذا دعت الحاجة إليه : كأن أكون انتبهت إلى مرادف لم ينتبه إليه من قبل أو كأن تكون الترجمة الموضوعة قاصرة قصوراً لا يطاق عن نقل المفهوم المراد أداؤه أو خاطئة خطأ . ولقد رأيت الضرورة تدعو إلى شرح بعض المصطلحات الجديدة ولكنى لم أشرح شيئاً من القديم . كما أننى — وقد بقى المستحدث قليلا بالقياس إلى الموضوع من قبل — لم أر داعياً إلى أن أردف بالكتاب ثبتاً بالمصطلحات . هذا ، وقد كنت على الجملة — فيما أخذت وفيما ابتدعت — أوثر القريب على الغريب والاشتقاق على التعريب وأما النحت فلم أكد أعمله قط .

بعد هذه الملاحظات المتعلقة بترجمة الكتاب أتحدث عن سياستى فى تقديمه .

إن من الأمور المعلومة أن « تفسير الأحلام » كان أحد الكتب القليلة التى ظل فرويد يعنى بتعديلها زمناً طويلا ، يحذف حيناً ويضيف أحياناً أخرى [1] . والترجمة التى يقرأها القارئ فى هذه الصفحات تنقل نص الطبعة الثامنة والأخيرة — وهى من غير شك أوفى الطبعات لأن المحذوف فى خلال التعديلات المشار إليها قليل بالنسبة إلى ما أضيف . ثم حتى هذا المحذوف كثيراً ما أوردته ، بل العبارة المعدلة ذكرت صيغتها قبل التعديل كلما رأيت

(١) أنظر مقدمات الطبعات الثمانى التى ظهرت فى حياة فرويد .

لذلك دلالته بالنسبة إلى فكر المؤلف، بحيث يسع القارئ الاطمئنان إلى أن هذه الصفحات قد أودعت «تفسير الأحلام» فى صورة من أوفى ما يكون.

بقى بعد هذا أمر آخر، وأعنى به التضمينات التى لا حصر لها والتى يجدها القارئ منثرة فى خلال الصفحات المقبلة : تضمينات ترد فى خلال تفسيرات الأحلام ولا نعود ندهش لها بعد الذى سمعناه عن كثرة التجاء الأحلام إلى الاستعارات المبثوثة فى تعبيرات اللغة الدارجة وتراثها الشعرى وأغانيها الشعبية وأمثالها الحكمية . . . إلخ . ، ثم تضمينات لفرويد هى خاصة من خصائص أسلوبه . هذه وتلك لم تترك فى بعض الأحيان مفراً من شرحها شرحاً قصيراً إذا أردنا أن نضع القارئ فى «جو الكتاب» — وهو جو ينبعث عند المؤلف عن ثقافة أوربية أدبية منقطعة النظير، متمثلة إلى أبعد الحدود . ولم يكن بد كذلك من أن نجلو بعض إشارات المؤلف : فهى ربما اتجهت إلى جوانب من تاريخ الأمم الغربية وأساطيرها قد لا تكون للقارئ العربى ألفة تامة بها أو إلى وقائع تمس حياة المؤلف الخاصة قد لا يعلمها القارئ . وفيما عدا هذه الهوامش التى إنما تهدف إلى تيسير متابعة المؤلف أو جلاء الغامض من إشاراته، لن يجد القارئ شيئاً مما يشبه الشرح النظرى أو التعليق .

وقد كنت فكرت فى أن أخرج عن هذه القاعدة فيما يتصل بالفصل السابع والأخير — وهو «أصعب ما كتب فرويد وأشده تجريداً» [١] — سوى أنى رأيت أن مثل هذه الشروح لكى تفى الغرض المطلوب لا يمكن إلا أن تطول طولا لا تطيقه إمكانيات النشر ولا صبر القارئ . ثم ليتها بعد هذا كانت تفى ! فلا غنى لمن أراد أن يستوعب هذا الفصل من أن يقرأ رسائل فرويد إلى صديقه ڤيلهلم فليس، ففيها يرى فكر فرويد وهو يتكون خطوة فخطوة فى خلال الحقبة السابقة على كتابة «تفسير الأحلام» والمعاصرة لها، وفيها يجد على الأخص مشروعاً أرسله فرويد إلى صديقه وأودعه جملة الأفكار التى تؤلف بحق نواة هذا الفصل . وإذا كان جيمس ستراشى — بقدر ما أعلم — هو أول من استطاع أن يزودنا بترجمة فاهمة مفهومة لهذا الفصل، فلا يعود ذلك إلى تفوقه الأدبى غير المنازع وحسب، بل يعود على الأخص إلى أن هذا الفصل لم يتسن فهمه إلا بعد أن عرفت هذه الرسائل ونشرت (١٩٥٠) . وهناك بعد هذا سبب آخر يقتضينا أن نقرأ هذه الرسائل :

---

(١) إرنست جونز، «سيجموند فرويد»، الجزء الأول ص ٣٩٣ .

ففيها نجد صورة من حياة فرويد الخاصة . والإلمام بدقائق هذه الحياة أمر لا يستغنى عنه من أراد أن يستوعب تفسيرات المؤلف لأحلامه . وهذا الاستيعاب بدوره أمر ضرورى لسببين : فهناك أولا ما تشتمل عليه هذه التفسيرات من القيمة الأدبية (وأعنى على التحديد الإنسانية) فإن الذين يعلمون لأى المخاطر يتعرض كل من أراد أن يتعرف نفسه ويعرف غيره بها وكيف يسهل أن تنزلق محاولته إلى التبرير المتصل أو الاستفزاز الماسوشى أو تغذية العُجْب الذى لا يشبع ، أى — فى النهاية — إلى محاولته أن يسرق من غيره صورة نرجسية ، أولئك لا يمكن إلا أن يروا فى حديث فرويد ههنا غاية ما يمكن أن يصل إليه امرؤ من الاتزان بل من الإنصاف لنفسه ولغيره وغاية ما تستطيع أن تصل إليه العبقرية من التخلص من سراب «الأنا» والاقتراب من المعاش المباشر. وأما السبب الآخر والأهم فهو ضرورة هذا الاستيعاب لمن أراد أن ينفذ إلى فكر فرويد ؛ لأنه إذا كانت الحقيقة مهما بلغت موضوعيتها لا تخرجها هذه الموضوعية عن أن تكون مقياساً للعالم كما هى مقياس للمعلوم [١] أو — بوجه أعم — إذا كان تكون الموضوع يتبع دائماً تحقق الذات [٢] ، فهذه القضية لا تصدق فى مجال من مجالات المعرفة صدقها فى التحليل النفسى .

بقيت بعد ذلك هنات خفيفة اشتمل عليها النص ولم يكن بد من مداواتها وبخاصة بعد أن صارت هذه المداواة لا تكلف كبير عناء فقد نهض بها ستراشى من قبل : ذلك أن فرويد فى خلال التعديلات التى سبقت الإشارة إليها ربما حذف جملة أو جزءاً من جملة مع أن فى مستأنف السياق إشارة لا تفهم بغير هذا الجزء فلا يكون بد من أن نعيد إدراجه فى النص ، أو هو قد يضيف فقرة ولكنه يضعها فى غير موضعها فلا يكون مفر من التنبيه على ذلك حتى نجنب القارئ حيرة لا داعى إليها — وفيما عدا هذا ذكرنا تاريخ الإضافات

---

(١) إن الحقيقة تبدأ دائماً باعتبارها كلمة العالم ، حقيقته هو التى يضعها فى ميزان الآخرين ، والموضوعية التى تصبح لها من بعد تعنى فى المحل الأول أنها قد صارت جزءاً من العالم الإنسانى ، صارت لغة وعدة وكفاحاً ؛ فالناس يضعون فيها أنفسهم لكى يتفاهموا (فهى لغتهم المشتركة) ويضعون فيها عملهم لكى يصنعوا عددهم (إذا كانت نظرية طبيعية ؛ فكل نظرية طبيعية يجب أن تتسنى صياغتها على ذلك النحو : إذا أردت أن تصنع كذا فافعل كذا وكذا) أو لكى يبنوا نظام مجتمعهم (إذا كانت نظرية سياسية) .

(٢) إن مؤلف هجل الخالد « علم ظواهر الروح » يمكن اعتباره بأسره برهاناً على هذه القضية وشرحاً لقوانين هذه التبعية . والقضية بعد هذا لا توقع فى المثالية كما قد يتبادر إلى الذهن ، فنحن نعلم أى أثر كان للمؤلف المشار إليه فى نشأة الماركسية التى يمكن أن نعدها بحق نظرية تكون العالم البروليتارى من خلال تحقق الإنسان بصراعه الطبقى لأجل الاعتراف به .

المختلفة كلما رأينا أن لذلك أهمية أو أنه يعين القارئ على متابعة النص . كذلك قد يستشهد فرويد بمؤلف ولكنه لا يعني بذكر رقم الصفحة (فذكرناه) أو يذكر الرقم الخطأ (فصححناه) . وأقول بهذه المناسبة : إني رأيت من الأفضل أن أترك تبويب فرويد لقائمة مراجعه متبعاً التبويب الذى وضعه ستراشي . فقد عنى فرويد بأن يجمع كل المؤلفات المتعلقة بموضوع الحلم ثم قسمها قسمين : مؤلفات ظهرت قبل « تفسير الأحلام » سنة ١٩٠٠ وأخرى ظهرت بعده . فأما ستراشي فوزعها بين مؤلفات أشير إليها فى خلال النص وأخرى لم ترد إليها إشارة ما . وكل قائمة من هاتين رتبت فيها المؤلفات على حسب الترتيب الأبجدى للمؤلفين ، فإن كان للمؤلف الواحد أكثر من كتاب أو مقال رتبت أعماله بحسب سنى صدورها ، فإن كانت له مؤلفات متعددة فى السنة الواحدة رتبت هذه أيضاً بحسب ترتيبها فى الزمن وأردف تاريخ السنة بحرف أبجدى يدل ترتيبه بين سائر الحروف على السابق واللاحق . ولا تخفى المزية بل المزايا التى لقائمة ستراشي الأولى : فهى — أولا — ستكون بمثابة فهرست بأسماء المؤلفين يغنينا عن تكرار ذكرهم فى الفهرست التحليلى ، ثم هى ستتضمن العدد الكبير من مؤلفات فرويد ومقالاته وقد رتبت بحسب تاريخ صدورها ، وهى — ثالثاً وأخيراً — ستسهل علينا الإشارة إلى المراجع المختلفة : فيكفينا بعد اسم المؤلف أن نضع بين قوسين تاريخ الكتاب أو المقال أو تاريخه متبوعاً بحرف (نختاره من حروف الأبجدية العربية بحيث يوافق فى الترتيب حرف الأبجدية اللاتينية المستعملة فى القائمة) ثم رقم الصفحة أو الجزء فالصفحة — وربما أغفلنا ذكر السنة إذا لم يكن للمؤلف المشار إليه سوى كتاب أو مقال واحد . ولقد وضعت بين معقفين كل ما ورد فى خلال هذه الترجمة من الزيادات وكذلك كل النصوص التى استشهد بها فرويد من اللغات الأجنبية والتى أوردت فى المتن ترجمتها العربية وأسقطتها هى فى الهامش [1] .

هذا ، وإنى وقد أشرت فى الفقرة السابقة إلى هنات عرضت لا أرى محيداً عن النص على أن هذه الهنات لم تحل دون بلوغ الكتاب مبلغاً عالياً من جمال التحرير يجعل منه بحق أثراً فنياً باقياً إلى جانب قيمته العلمية . ففرويد فى كل أحواله — وفى هذا الكتاب بخاصة — كاتب ندر من حاذاه فى ذكاء العبارة ورشاقتها مع حدة وبيان . وقد لا يعلم القارئ أن

(١) مخالفاً فى ذلك عادة المترجمين الأوربيين إذ يوردون النص الأجنبى كما هو فى المتن ثم يسقطون ترجمته فى الهامش — إن أرادوا . والحكمة فى هذه المخالفة غير خافية .

مؤلف « تفسير الأحلام » سيد من سادة النثر الألمانى وأن أسلوبه من الأساليب التى بلغت مبالغ الإعجاز ؛ فقد استطاع أن يحنظ للجملة الألمانية كل أصالتها مع إعطائها نقاوة واقتصاداً لاتينيين أو يكادان . ولقد عرف له هذا الفضل فمنح جائزة جوته الأدبية سنة ١٩٣٠ ولا يمنحها سوى أعلام الكتاب .

* * *

وبعد ، فإنه لواجب يسعدنى أداؤه أن أوجه ههنا أول شكرى وأخلصه إلى والدى ؛ فقد كان يزودنى بقدرته اللغوية كلما خانتنى قدرتى ، آتياً فى كل عبارة بما يكسبها سلامة أو سلاسة ، فلولاه ولولا هذا الجهد الذى بذله مختاراً من غير حساب ما أتى هذا العمل فى الصورة التى تجعله جديراً بأن ينقل إلى الغير — أى ما كان عملا .

وأما أستاذى وصديقى — منذ أن شرفنى بصداقته — الدكتور مصطفى زيور فلست أدرى كيف أشكره إلا بأن أهدى إليه هذا العمل كله . وما أظن بعد ذلك أنى أوفيته حقه ؛ فقد قرأ هذه الترجمة سطر فسطراً مضاهياً إياها بالترجمة التى وضعها جيمس ستراشى بمعاونة آنا فرويد — وهى ترجمة لم يختلف اثنان فى إمكان الثقة بها — وكان لمراجعته هذه ، ناصحاً ومنبهاً ومصححاً ، أكبر الأثر فى تقريب الترجمة الحاضرة من الكمال المنشود . وأنا — إذن — كمن يجازيه ببعض فضله . وأما التشجيع الأدبى الذى عرفته منه دائماً فلم يكن على القطع بأقل مآثره : فبفضله — ماضيا — ولجت مجال التحليل النفسى (حيث كان الدكتور مارك شلومبرچيه أول من قاد خطواتى) وبفضله — حاضراً — أقبلت على هذه الترجمة .

وأما ترجمة ستراشى التى سبقت الإشارة إليها مرات متعددة فيكون جحوداً منى ألا أنص ههنا على دينى الكبير نحوها ؛ فما أظن أن ترجمتى كانت بالغة مبلغها من الدقة والوضوح — أيا كان حظها من هذين — لولا الاستعانة المستمرة بهذه الترجمة الفائقة والاهتداء بهديها . هذا وإن كنت لا أحتاج إلى القول بأننى لم أذهب فى ذلك حتى المدى الذى يجعلنى أنزل الترجمة عندى منزلة الأصل أو أستغنى بها عنه ؛ فمن المقطوع به أن الكتاب المترجم إنما ينتقل إلى القارئ بزاوية الانكسار التى تنشأ عن مروره فى خلال الوسط المؤلف من فهم المترجم وحساسيته (وإن لم ننس أيضاً أن هذه القضية لا تعنى أن « الترجمة خيانة » بقدر ما تنبه إلى أن الأمانة حين تكون فبجهد خاص) . وإنى — إذن —

إذ أشكر لذوى الفضل أثرهم فى محاسن هذه الترجمة لا أفكر أقل تفكير فى أن أخلى نفسى من التبعة فيما قد يكون من معايبها .

وأوجه كبير شكرى من بعدُ إلى الدكتورة هيلده زالوستسر أستاذة اللغة الألمانية بجامعة الإسكندرية ؛ فما منعت عنى معرفتها الغزيرة بآداب اللغة الألمانية وتعبيراتها الدارجة وما جرى منها بين أهل النمسا وڤيينا بنوع خاص . كما أشكر طالبى بالأمس وصديقى اليوم وأول قرائى أحمد فائق ؛ فقد قرأ الترجمة وهى مخطوط فأعانتنى ملاحظاته على تبين مواطن الشبهات فى أداء المعانى فرفعتها ، هذا فضلا عن معاونته السخية فى وضع الفهارس وتصحيح التجارب . فأما صديقى عبد العزيز إبراهيم الذى أخذ على عاتقه أن يهيئ المخطوط للمطبعة فلا يقدر جهده إلا من عاناه .(١)

وأما فضل دار المعارف إذ تولت إخراج هذا الكتاب فى الصورة التى تليق بمكانته فى عالم الفكر الغربى وبمكانتها هى فى الشرق الناطق بالضاد ، فأبين من أن يحتاج إلى نص خاص .

* * *

وأخيراً ، فإنى إذ أترك بين يدى القارئ العربى هذا الأثر الذى هو من غير شك أحد الثوابت فيما يسميه شارل دى بوس « سماء الثوابت » لا أملك إلا أن أعرب عن أملى فى أن يكون له بيننا مثل ما كان له فى الغرب من أثر معروف (وإن لم يسبر كل غوره بعد لأنه لم ينقطع) فى تاريخ الحركات الفنية والفكرية والفلسفية وفى علوم الإنسان . ولم لا والكتاب لرجل يرينا فى الحلم كليما ومن وراء هذا الكلم لغة يجلو غوامضها ويذيع أسرارها ونحن الذين ننتسب إلى قوم جعلوا من اللغة مدار حياتهم الثقافية جميعاً ؟ فمصير الكتاب بيننا ربما كان وقفاً على اختيارنا : أنقبل أن نكون خلف هذا السلف ؟ ولست أدرى ما سيكون من إجابتنا عن هذا السؤال ولكن أيًّا كان الجواب فأهم منه ألا ننسى تلك القضية التى نرى مصداقها فى كل خطوة من هذه الخبرة التى لم يكن مبدعها إلا سيجموند فرويد نفسه (وأعنى التحليل النفسى) : من لم يختبر ماضيه لم يجد حاضره .

وللمسئلة بعد هذا وجه آخر : ذلك أن فرويد إذ يرينا الكلمة (أى المعقول بالذات)

---

(١) يحزننا أن ننعى ههنا هذا التصديق ، فقد أبى الموت القاسى إلا أن يختطفه قبل أن يرى ثمرة جهده .

فى عمل الحلم كما فى أعراض المرض [١] ، يرفع أكثف الحجب التى كان يعمى فيها على الإنسان وجهه . فهل نقبل المخاطرة فى آفاق الوعى والتحقيق الإنسانيين غير المشروطين ، أى بغير التحصن بميكانيكيات الدفاع كما يقول المحللون النفسيون ؟ هذا أيضاً سؤال لا أعلم جوابنا المستقبل عنه . ولكن لاننسى تلك القضية الأخرى : من لم يختر مستقبله لم يجد ماضيه .

مصطفى صفوان
عضو الجمعية الفرنسية للتحليل النفسى

(١) مثلما يرينا هجل إياه فى العمل وفى الألم بوجه عام .

DIE TRAUMDEUTUNG

تفسير الأحلام

"FLECTERE SI NEQUEO SUPEROS, ACHERONTA MOVEBO"

« لئن لم أثن السماوات حركت الأخرون » .

(١) [بيت من ملحمة الشاعر اللاتيني ڤرجيل عن وقائع آينياس (الكتاب السابع ، السطر ٣١٢) حيث يرد على لسان الإلهة يونون إذ تعلن عزمها على أن تفسد بكل ما وسعت خطة آينياس في الفرار بفلول الطرواديين المهزومين وتأسيس مملكة جديدة بهم في أرض إيطاليا . فهو يفيد استتباب العزم على بلوغ القصد من كل سبيل ، أراد فرويد أن يمثل به ما تبذله الرغبات اللاشعورية من الجهد . والأخرون نهر يعبره الموتى في أساطير اليونان عند توجههم إلى الدار السفلى ، ثم صار يطلق على الجحيم كافة بآلهته وآهليه ، فهو يقابل في البيت لفظ « سوپروس » الذى ترجمناه بالسماوات وحقيقة السماوات بآلهتها أو قواها .]

تمهيد

هذا كتاب أحاول فيه أن أشرح تفسير الأحلام ، وأعتقد أنى إذ أفعل ذلك لا أتجاوز دائرة الموضوعات التى يهتم بها علم الأمراض العصبية ؛ ذلك أن البحث السيكولوجى يرينا أن الحلم أول حلقة من سلسلة الظواهر النفسية الشاذة — وهى سلسلة اقتضت الأسباب العملية أن يشغل الطبيب بسائر حلقاتها ، مثل المخاوف الهسترية والأفكار القهرية والهجاسية. ولا يستطيع الحلم أن يدعى مثل هذه القيمة العملية — كما يتبين من الصفحات القادمة — ولكن هذا عينه إنما يزيد قيمته النظرية من حيث هو نموذج ومثال ، وإن من قصر عن أن يبين منشأ صور الحلم ليجهد عبثاً فى أن يفهم المخاوف المرضية والأفكار القهرية والهجاسية أو فى أن يؤثر فيها تأثيراً شافياً .

بيد أن هذه الصلة التى يدين لها موضوعنا بأهميته هى أيضاً الملومة على ما يتخلل هذا المؤلف من مواطن القصور : فالثغرات التى سوف يلحظ القارئ كثرتها فى هذه الصفحات أيما كثرة إنما توافق على التحقيق تعدد مواضع الاتصال التى تسلم عندها مشكلات الحلم إلى المشكلات الأعم الداخلة فى نطاق علم النفس المرضى — وهى مشكلات لا سبيل إلى معالجتها فى هذا المعرض ويجب أن تفرد لها صفحات أخرى إذا توافر الوقت والجهد وإذا عرضت مادة جديد .

ثم إن خصائص المادة التى أصور بها تفسير الأحلام قد جعلت نشر هذه الصفحات صعبًا علىّ كذلك . فسوف يتبين من سياق هذا الكتاب لمَ كانت الأحلام المدونة من قبل فى مختلف المصنفات أو تلك المنقولة عن مصادر مجهولة لا غناء فيها على الإطلاق فيما أقصد إليه . وكان علىّ إذن أن أختار بين أحلامى وأحلام مرضاى الذين أعالجهم بالتحليل النفسى . ولكن منعنى من اللجوء إلى هذه المادة الأخيرة أن عمليات الحلم تتعقد فيها تعقداً غير مرغوب فيه ؛ لدخول الخصائص العصابية عليها . فإذا رويت أحلامى لم يكن مفر من أن أطلع نظرات الغرباء على أكثر مما كنت أود إطلاعهم عليه من دخائل حياتى النفسية ومما يلزم فى العادة كاتباً هو رجل من رجال العلم وليس بشاعر . ذلك هو الشر الأليم الذى لم يكن منه بد ؛ فأذعنت للضرورة مؤثراً هذا الإذعان على النزول عن كل برهان يسند

كشوفى السيكولوجية . ولا غرو مع هذا أن غلبتنى الرغبة فى أن أخفف من غلواء المكاشفة فأضمرت وبدّلت ، وكنت كلما فعلت نقصت قيمة المثال الذى أضربه نقصاً ملموساً لاشك فيه . وكل الذى أستطيعه هو أن أعرب عن أملى فى أن يضع القارئ نفسه فى موقفى الصعب حتى يرفق بى ، ثم عن أملى فى أن أولئك الذين سوف يرون فى أحلامى إشارة ما إلى أشخاصهم لن يفكروا فى أن ينكروا على حرية الفكر — فى حياتى الحالمة على الأقل

مقدمة الطبعة الثانية

لأن تدعو الحاجة إلى طبعة ثانية لهذا الكتاب (وما هو بالكتاب الذى تسهل قراءته) قبل أن تنقضى على نشره عشر سنين — ذلك ما لا يرجع الفضل فيه إلى دوائر المحترفين الذين كنت أوجه الخطاب إليهم فى الكلمة المتقدمة ؛ فلا يبدو أن زملائى من أطباء النفس قد كلفوا أنفسهم كبير عناء من أجل التغلب على الحيرة الأولى التى أشاعتها نظرتى الجديدة فى الأحلام ، فأما الفلاسفة المحترفون الذين صار من عادتهم أن يمروا فى عبارات وجيزة — قل أن تختلف — على مشكلات الحياة الحالمة التى لا يرون فيها سوى ظاهرة تذيل الحالات الشعورية فمن الواضح أنهم لم يلحظوا أن ههنا قد تكون البداية المؤذنة بنتائج لا بد من أن تغير وجه نظرياتنا السيكولوجية تغييراً ، وأما الموقف الذى وقفه المعلقون فى الصحف العلمية فلم يكن يترك للمرء أن يتوقع قدراً آخر لكتابى غير أن يندثر فى صمت مطبق ، على حين ما كانت القلة المقدامة من الأنصار ، ممن يزاولون التحليل النفسى بتوجيه منى ويحذون حذوى فى تفسير الأحلام ويستخدمون تفاسيرها هذه فى مداواة الأعصبة ، ليستنفدوا قط الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وعلى هذا أرانى أدين بالشكر لدائرة أشمل من القراء المثقفين ، ذوى العقول المتطلعة ، الذين يحملنى اهتمامهم على العود بعد سنوات تسع إلى هذا الكتاب الصعب وإن كان من وجوه متعددة كتاباً أساسياً .

ويسرنى أن أستطيع القول : إنى لم أجد فيه سوى القليل لأغير منه ؛ فقد ضمنته بعض المادة الجديدة هنا وهناك ، وأضفت إليه بعض التفاصيل استقيتها من خبرتى المتزايدة ، وأردت لقضاياى بعض التعديل فى قلة من مواضعه ، ولكن الجوهر فيما تحدثت به عن الأحلام وتفسيراتها وكذلك فى النظريات السيكولوجية التى تخلص من كل أولئك ، هذا الجوهر يظل هو هو ، إذ قد ثبت لمحنة الزمن — من الوجهة الذاتية على الأقل . وإن من يعرف سائر كتاباتى (فى علية الأعصبة وآلياتها) ليعلم أنى لم أتقدم قط بالرأى غير المحقق على أنه الشىء المحقق وأنى كنت أعدل دائماً من قضاياى بما يتفق وتقدم خطاى فى مجال المعرفة ، إلا الحياة الحالمة ؛ فقد وسعنى الثبات فيها على ما بدأت . فإنى اشتغلت بمشكلات

الأعصبة سنوات طوالا عرفت فيها الحيرة مراراً واستبهمت على مسالك الفكر كل استبهام أحياناً ، فكان « تفسير الأحلام » دائماً هو الذى يرد إلىّ عندئذ يقيني . ولقد صدر إذن خصومى عن غريزة واثقة حين أبوا متابعتى فى مباحثى الحلم بنوع خاص .

ومادة الكتاب أيضاً — وهى تتكون من أحلام لى نفسى تعدت الأحداث غالبيتها أو أفقدتها أهميتها وبها صورت تفسير الحلم — قد أبدت مثل هذه القدرة على البقاء وعلى مقاومة كل تغيير بعيد الغور . فلهذا الكتاب — فوق ما سبق — مغزى ذاتى آخر ، مغزى لم أدركه إلا بعد أن انتهيت من تصنيفه : فقد تبين لى أنه كان جزءاً من تحليلى الذاتى ، كان استجابتى إلى موت أبى : أى إلى أخطر حادثة ، إلى أفجع خسارة تصيب امرأ فى حياته . وإذ عرفت أن ذلك كذلك أحسست العجز عن أن أطمس معالم هذه الخبرة . وأما القارئ فلقد يستوى عنده بأى مادة يتعلم كيف يقدر شأن الحلم وكيف يفسره .

هذا وقد كنت كلما تعذر علىّ أن أدرج فى السياق القديم ملاحظة لا أجد غنى عنها نبهت على حداثة أصلها بوضعها بين معقفين [1] .

برختسجادن ، فى صيف ١٩٠٨

---

(١) ثم أسقطت هذه المعاقف فى الطبعات التالية [ابتداء من الطبعة الرابعة] .

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد انقضت سنوات تسع بين الطبعتين الأولى والثانية لهذا الكتاب ، ولكن لم يكد ينصرم العام حتى لزمت طبعة ثالثة . ولقد أسر لهذا التبدل ، ولكنى وقد أبيت بالأمس أن أرى فى إعراض القراء عن كتابى دليلا على خلوه من كل قيمة لا أستطيع اليوم أن أعد إقبالهم الحاضر عليه شاهداً على كماله .

وبعد ، فها هو ذا « تفسير الأحلام » نفسه لا يتركه تقدم العلم دون أن يغير منه . فقد كتبته عام ١٨٩٩ ونظريتى فى الحياة الجنسية لا تزال طى الغيب ، ولم يكن تحليل الأشكال المعقدة التى تتخذها الأعصبة النفسية قد تجاوز بدايته . وكان أملى إذ ذاك أن يعين تفسير الأحلام على تيسير التحليل السيكولوجى للأعصبة . ومنذ ذلك الحين أحدث الفهم الأعمق للأعصبة تأثيره الرجعى فى نظرتنا إلى الحلم ، فاتسعت نظرية تفسير الحلم فى اتجاه لم أنبه عليه التنبيه الكافى فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب : فقد علمتنى خبرتى وكذلك مؤلفات ڤيلهلم شتيكل وغيره من الكتاب أن أقدر تقديراً أصدق مدى انتشار الرمزية فى الأحلام (أو على الأصح فى التفكير اللاشعورى) ومقدار أهميتها . وهكذا تجمعت فى خلال هذه السنوات حقائق كثيرة تتطلب الاعتبار . وقد حاولت أن أحسب لهذه التجديدات حسابها بإضافات متعددة ضمنتها النص وهوامش ألحقتها به . فإذا كانت هذه الإضافات تهدد فى بعض المواضع بتمزيق الإطار الذى وضع فيه الكتاب ، أو إذا لم أكن وفقت فى كل المواضع إلى رفع النص الأصلى إلى مستوى معرفتنا الحاضرة ، فرجائى هو أن يغفر القارئ هذه المثالب ؛ فإنما هى النتائج الناجمة عن نمو علمنا نمواً مسرعاً فى الآونة الحاضرة وعلامات عليه . بل لقد أجازف إلى التكهن بنوع الاتجاهات الأخرى التى سوف تفترق فيها الطبعات المستقبلة لتفسير الأحلام – إن احتاج الأمر إلى طبعة مستقبلة – من هذه الطبعة : ففيها سوف يتحتم من جهة لصوق أوثق بالمادة الوافرة المضمنة فى الشعر والأساطير والعرف اللغوى والآداب الشعبية ، ومن جهة أخرى سوف يتحتم التعرض للعلاقات بين الأحلام والأمراض العصبية فى تفصيل يربو على ما اتسع له الإمكان هنا .

هذا ولقد بذل لى الهر أوتو رانك معاونة قيمة فى اختيار المادة المضافة ، واحتمل وحده عبء مراجعة التجارب . وإنى لأشكر له وأشكر للكثيرين غيره مشاركاتهم وتصحيحاتهم .

ڤيينا ، فى أبريل ١٩٢١

مقدمة الطبعة الرابعة

فى خلال العام الماضى (١٩١٣) أخرج الدكتور أ. أ. بريل — وهو من مدينة نيويورك — ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب :

(The Interpretation of Dreams, G. Allen & Co., London).

ولم يقتصر الدكتور أوتو رانك هذه المرة على القيام بتصحيح التجارب ، بل مد النص كذلك بفصلين قائمين بذاتهما — وهما الملحقان بالفصل السادس .

ڤيينا ، فى يونية ١٩١٤

مقدمة الطبعة الخامسة

لم يخبُ الاهتمام « بتفسير الأحلام » حتى فى إبان الحرب العالمية ، ولزمت طبعة جديدة وهذه الحرب لا تزال ناشبة . غير أنى لم أستطع الإحاطة بكل ما نشر منذ عام ١٩١٤ ، فلست أعلم ولا الدكتور رانك يعلم بمؤلف أجنبي منذ ذلك التاريخ .

وهنالك ترجمة هنجارية توشك على الظهور ، أعدها الدكتور هوللوس والدكتور فرنتسى . كما أن « محاضراتى التمهيدية فى التحليل النفسى » قد نشرت فى ڤيينا عام ١٩١٦ — ١٩١٧ (نشرها هـ . هللر) . وقد خصص الجزء الأوسط من هذه المحاضرات (وهو يضم أحد عشر فصلا) لشرح الأحلام شرحاً أريد به أن يكون أدنى للمبتدئ وأوثق التصاقاً بنظرية الأعصبة من المؤلف الحاضر ، وهو فى جملته بمثابة موجز « لتفسير الأحلام » — وإن زاد تفصيلا فى بعض المواقع .

هذا وقد خانتنى القدرة على أن أجمع العزم على مراجعة هذا الكتاب مراجعة جوهرية كانت تعلو به إلى مستوى النظرات العلمية المعاصرة فى التحليل النفسى ولكنها فى سبيل ذلك كانت تهدم طابعه التاريخى . واعتقادى على أية حال هو أن الكتاب قد أنجز مهمته بعد بقاء قارب العشرين عاماً .

بودابست — شتاينبروك ، فى يولية ١٩١٨

مقدمة الطبعة السادسة

إن الصعوبات التى تحيط بتجارة الكتب فى الوقت الحاضر جعلت هذه الطبعة الجديدة تظهر متأخرة عن الحاجة إليها بزمن طويل ؛ فأعيدت الطبعة السابقة للمرة الأولى دون أن يتناولها تعديل ما . هذا إذا استثنينا قائمة المراجع المثبتة فى آخر الكتاب ؛ فقد أكملها الدكتور أوتو رانك وواصلها .

وهكذا لم يتأيد ما قدرته من أن هذا الكتاب قد أنجز مهمته بعد أن دام قريباً من العشرين عاماً . بل قد أقول على العكس : إن هناك مهمة جديدة تنتظره : فإذا كانت مهمة الكتاب فى الماضى هى أن يزودنا بعض المعرفة بماهية الحلم فعليه اليوم مهمة لا تقل خطراً ، هى أن يدفع أخطاء الفهم العنيدة التى لا تزال هذه المعرفة هدفاً لها .

فيينا ، فى أبريل ١٩٢١

مقدمة الطبعة الثامنة

فى الفترة المنقضية بين ظهور الطبعة الأخيرة (السابعة) لهذا الكتاب عام ١٩٢٢ والطبعة الحاضرة جُمعت مؤلفاتى تحت عنوان « كتابات مجمعة » (١) وأصدرتها دار النشر الدولية للتحليل النفسى (٢) . وقد احتوى المجلد الثانى من هذه المجموعة نصاً يعيد الطبعة الأولى من « تفسير الأحلام » بحذافيرها ، بينما ضم المجلد الثالث جميع الإضافات التى ألحقت به من بعد . وأما الترجمات التى ظهرت للكتاب فى أثناء هذه الفترة عينها فتلتزم الصورة المألوفة التى ظهر عليها الكتاب للمرة الأولى فى مجلد واحد . وهذه الترجمات هى : ترجمة فرنسية وضعها مايرسون ونشرت عام ١٩٢٦ بعنوان « علم الأحلام »(٣) فى السلسلة المعنونة « مكتبة الفلسفة المعاصرة »(٤) ، ثم ترجمة سويدية قام بها جون لاندكيست عام ١٩٢٧(٥) ، ثم ترجمة أسبانية وضعها لويس بالليسترروس (عام ١٩٢٢) تشغل الجزئين السادس والسابع من الترجمة الأسبانية لمؤلفاتى الكاملة(٦) . وأما الترجمة الهنغارية التى كنت أظنها على وشك الظهور ونحن لم نزل بعام ١٩١٨ فلم تر الضوء حتى اليوم(٧) .

وقد عالجت الكتاب عند مراجعتى إياه لهذه الطبعة أيضاً على أنه وثيقة تاريخية فى جوهره ؛ فلم أدخل عليه من التعديل إلا ما اقتضاه توضيح آرائى وتعمقها . ووفاقاً لهذه النظرة

---

(١) [''Gesammelte Schriften'']

(٢) [Internationaler Psychoanalytischer Verlag]

(٣) [''La science des Rêves'']

(٣) [''Bibliothèque de Philosophie Contemporaine'']

(٤) [''Dromtydning'']

(٥) [''Obras Completas'']

(٦)

(٧) [ولكنها رأته عام ١٩٣٤ . ولقد ظهرت فى حياة فرويد — عدا الترجمات المذكورة فى هذه المقدمات — ترجمة روسية (١٩١٣) وترجمة يابانية (١٩٣٠) وترجمة تشيكية (١٩٣٨) .]

تخليت عن محاولة تضمينه قائمة بالمراجع المنشورة فى مشكلات الحلم منذ أول ظهور « تفسير الأحلام » ، وألغى القسم الذى كان مخصصاً لذلك فى الطبعات السابقة . وحذف كذلك المقالان اللذان شارك بهما أوتو رانك فى طبعات سابقة بعنوان « الحلم والشعر » و « الحلم والأساطير » .

ڤيينا ، فى ديسمبر ١٩٢٩

الفصل الأول

المصنفات العلمية فى مُشكلات الأحلام

سأقيم البرهان فى الصفحات المقبلة على أن ثمت منهجاً سيكولوجياً يمكن به تفسير الأحلام وأننا إذا اصطنعنا هذا المنهج تكشف كل حلم فإذا هو بناء نفس ذو معنى يمكن الربط بينه وبين مشاغل اليقظة فى موضع معلوم . وأحاول بعدُ أن أجلو العمليات التى يحدث عنها غرابة الحلم وخفاؤه وأن أخلص من هذه بنتيجة فى طبيعة القوى النفسية التى يتولد الحلم من ائتلاف فعلها أو تضاده . فإذا بلغت هذا المدى كف مقالى ؛ لأننا نكون بموضع تسلم عنده مشكلة الحلم إلى مشكلات أعم يقتضى حلها الركون إلى مادة أخرى .

وأبتدئ بنظرة عامة فيما صنف المؤلفون الأسبقون، وكذلك فى حال مشكلات الأحلام اليوم فى مجال المعرفة العلمية ؛ لأن العود إلى ذلك لن يسنح لى من بعدُ كثيراً ، حين أعرض للموضوع . فما تقدم الفهم العلمى للأحلام إلا تقدماً يقل عن القليل رغم جهد دام آلاف السنين ، وعلى هذا أجمع المؤلفون إجماعا لا يبدو بعده محل للاستشهاد بهذا المؤلف أو ذاك . فى المصنفات التى ذيلت كتابى بثبتها ملاحظات كثيرة حافزة ومادة موفورة حرية بالاهتمام تتعلق بموضوعنا ، لكن القليل هو الذى يمس ماهية الحلم أو يجلو لغزاً من ألغازه ، وأقل منه بالطبع ما تضمه معرفة عامة المثقفين من غير المختصين .

أى تصور للحلم ساد بين الشعوب البدائية فى مطلع الإنسانية وأى أثر ترى كان له فى مجمل نظرة هذه الشعوب إلى العالم والنفس - ذلك موضوع خليق بالاهتمام إلى أبعد مدى ، حتى أننى لا أمتنع عن معالجته فى هذا المعرض إلا كارهاً . فأحيل القارئ إلى مؤلفات سير ج. لابوك و هـ . سبنسر و إ . ب . تايلور وغيرهم ، وإنما أضيف أننا لا نستطيع أن نكتنه هذه المشكلات والتعاليم إلا بعد أن نفرغ من المشكلة المطروحة على بساط بحثنا : « تفسير الحلم » .

إن التصور قبل التاريخى للحلم له صدى يتردد جلياً فى تقويم شعوب العصور

الكلاسية للأحلام[١] . فقد كان من المسلم به عندهم أن للأحلام علاقة بعالم الكائنات فوق الإنسانية التى كانوا يؤمنون بوجودها ، وأنها — أعنى الأحلام — تحمل كواشف من عند الآلهة والجن . وكان يدخل فى اعتقادهم فوق ذلك أن الحلم يأتى الحالم لمقصد ذى خطر ، هو فى القاعدة الكشف عن الغيب . بيد أن التنوع الخارق فى محتوى الأحلام وأثرها فى النفس جعل الانتهاء إلى نظرة موحدة عن الحلم شيئاً عسيراً ، وألجأ إلى إعمال التفرقة بين الأحلام وتقسيمها طبقات من حيث قيمتها وإمكان الركون إليها . ولم يكن تقويم الحلم عند هذا الفيلسوف أو ذاك من قدامى الفلاسفة منقطع الصلة بالطبع برأيه فى العرافة بوجه عام .

فإذا جاء أرسطو كان الحلم موضوع بحث سيكولوجى ، وذلك فى الكتابين اللذين يعرض فيهما أرسطو للأحلام . فهو يحدثنا أن الأحلام ليست مبعوثة من الآلهة ، ولا هى ذات طبيعة إلهية بل هى « جنية » ؛ لأن الطبيعة « جنية » وليست إلهية . ومعنى هذا أن الحلم ليس وليد كشف يفوق الطبيعة ، بل هو يتبع قوانين النفس الإنسانية — وإن يكن من الحق أن بين هذه والإلهى نسباً . وتعريف الحلم هو أنه النشاط النفسى للنائم من حيث هو نائم .

وكان أرسطو يعرف بعض خصائص الحياة الحالمة : كان يعرف — مثلا — أن الحلم يجسم ما يعرض فى خلال النوم من المنبهات ، فيقول : « يعتقد المرء أنه يجتاز ناراً ويلظى بها ، وما به غير هذا العضو أو ذاك قد سخن قليلا . » وهو يستخلص من هذه الخاصة أن الحلم قد ينم للطبيب عن أول العلائم على تحول جعل يدب فى الجسم ولم يلق التفاتاً فى النهار[٢] .

وأما قبل أرسطو فنعلم أن القدماء لم يكونوا يرون فى الحلم نتاجاً يصدر عن النفس النائمة بل وحياً من الجانب الإلهى . ولقد أخذ يتبين بينهم كلا التيارين المتقابلين اللذين سوف نراهما يتناهبان تقويم الحلم فى كل عصر من العصور : فهم قد فرقوا بين أحلام صادقة ، ذات قيمة ، ترسل إلى النائم تحذيراً له أو تبصيراً بالمستقبل ، وأخرى لا غناء فيها ، ماكرة ، معدومة القيمة ، كان هدفها سوق الحالم إلى الضلال أو دفعه إلى التهلكة .

ويذكر جروپه (١٩٠٦ ، ٢ ، ٩٣٠) عن ماكروبيوس وآرتميدوروس قسمة للأحلام

(١) أعتمد فيما يلى على كتاب بوكسنشوتس الجامع (١٨٦٨) .
(٢) يعرض الطبيب اليونانى هيپوقراط للعلاقة بين الحلم والمرض فى فصل من مؤلفه الذائع .

شبيهة بهذه إذ يقول : « كانت الأحلام تقسم طبقتين : فأما الأولى فيقال : إنها قد تأثرت بالحاضر (أو الماضى) ولكنها خالية من الدلالة على المستقبل . وكانت تشمل المنامات [١] التى تصور فكرة ما أو ضدها — كالجوع أو إشباعه — تصويراً مباشراً ، ثم الخيالات [٢] التى تضخم الفكرة تضخيماً مغرقاً فى الخيال ، مثل الكابوس[٣] . وأما الطبقة الأخرى فكان يقال على العكس : إنها تحدد المستقبل . وكانت تشمل : (١) النبوءة المباشرة يسمعها المرء فى الحلم[٤] ، (٢) الرؤيا تسبق إلى حدث مستقبل[٥] ، (٣) الحلم الرمزى الذى يحتاج إلى تأويل [٦] . ولقد دامت هذه النظرية قروناً عديدة » .

وبهذا التقويم المتفاوت للأحلام ارتبطت مشكلة « تفسيرها » : فقد كان الناس يتوقعون من الأحلام بوجه عام نتائج ذات بال ، ولكن الأحلام لم تكن جميعها قريبة من الفهم للوهلة الأولى ، فإن استغلق أحدها لم يعرف أحد إذا كان الحلم لا يعلن مع ذلك أمراً خطيراً ، فكان هذا حافزاً على الاجتهاد لكى يستبدل بالمحتوى المستغلق للحلم محتوى آخر قريب من الفهم ، له — من ثمّ — دلالة . وكان أرتميدوروس الأفسوسى يعد أعظم حجة فى تفسير الأحلام فى أواخر العصر القديم ، ولسنا نملك سوى القناعة بمؤلفه المستفيض عوضاً عما ضاع من المؤلفات الأخرى فى بابه[٧] .

وما من شك فى أن نظرة القدماء قبل العلمية إلى الحلم كانت تتسق ومجمل نظرتهم إلى العالم بوجه عام أكمل اتساق ، وهى نظرة تسقط على العالم الخارجى — فى صورة واقع — ما لا وقوع له إلا فى باطن النفس . ثم إن نظرتهم إلى الحلم تحسب فوق ذلك حساباً لانطباع الرئيس الذى يتلقاه الذهن المستيقظ من ذكرى الحلم المتخلفة فى الصباح ؛ ففى

---

(١) [ἐνύπνια, insomnia]

(٢) [φαντάσματα,

(٣) [ephialtes]

(٤) [Χρηματισμός, oraculum]

(٥) [ὅραμα, visio]

(٦) [ὄνειρος, somnium]

(٧) — للوقوف على ما صار إليه تفسير الأحلام فى القرون الوسطى انظر : ديبجن ، ثم دراسات فورستر الوصفية ، ثم جتهارت . . . إلخ . وأما تفسير الحلم عند اليهود فبحثه ألمولى وأمرام ولوفينجر ، وحديثاً جداً بحثه أيضاً لاور بحثا راعى فيه وجهة النظر التحليلية . ويعرفنا بتفسير الحلم بين العرب دركسل وشفارتس والإرسالى تفينكجى ، ويعرفنا به بين اليابانيين ميورا وإيوايا ، وبين الصينيين زيكر ، وبين الهنود نجلاين .

هذه الذكرى يحضر الحلم كأنه شيء غريب ، طرأ من عالم آخر ، يباين سائر محتوى النفس . ونخطئ بعدُ حين نظن أن نظرية الأصل فوق الطبيعي للأحلام تعدم أنصاراً فى أيامنا ؛ فإنا قد نغض الطرف عن الكتاب التقويين والمتصوفين ، فهؤلاء يحق لهم أن يتشبثوا بالمواقع القليلة المتبقية من المجال فوق الطبيعي الذى كان متسع النطاق يوماً ما دام نور العلم لا يغزوها ، ولكنا نلاقى بعد ذلك رجالا ثاقبين لا ولع لهم بالغرائب يحاولون أن يتخذوا من هذا الامتناع على التحديد — وأعنى به امتناع ظواهر الحلم على التعليل — سنداً يدعمون به إيمانهم الدينى بوجود قوى روحية تفوق الإنسان وبتأثيرها (أنظر هافنر) . والقيمة الرفيعة التى تضيفها إلى الأحلام بعض المدارس الفلسفية ، مثل مدرسة شللنج ، هى رَجْع جلى يردد ما كان للأحلام من طبيعة إلهية غير منازعة فى اعتقاد القدماء ، فأما المناقشات فى قوة الحلم المتنبئة الكاشفة حجب الغيب فما انقطعت ؛ كل أولئك لأن المحاولات المبذولة من أجل الوصول إلى تعليل سيكولوجى لاتزال تقصر عن مكافأة المادة المتجمعة مهما كان عزوف أهل العلم عن مثل هذه المعتقدات .

وإنه لمن الصعب أن نكتب تاريخاً ما للبحث العلمى فى مشكلات الحلم ؛ لأن هذا البحث مهما علت قيمته فى بعض النقاط لا يبين عن تقدم محدد الاتجاه . فما هناك أساس من النتائج المستيقنة يتابع الباحث اللاحق البناء عليه ، بل كلما جد باحث جدد علاج المشكلات ذاتها وبدأ كمن يبدأ من البداية . فلو أردتُ أن ألتزم الترتيب الزمنى للمؤلفين ، موجزاً آراءهم واحداً فواحداً فى مشكلات الحلم ، ما وجدت مفراً من أن أترك كل أمل فى أن أقدم صورة عامة مجملة لمعرفتنا الراهنة بهذا الموضوع . وعلى هذا رأيت أن أقسم الكلام على حسب الأبواب لا المؤلفين ، وكلما جئت إلى مشكلة أوردت ما أودعته المؤلفات من مادة تعين على حلها .

غير أنى وقد تعذر علىّ الإلمام بكل ما كتب فى هذا الموضوع لما هو عليه من فرط التبعثر والاشتباك بغيره ، لا أرى مناصاً من أن أسأل القارئ القناعة ما دمت لا أغفل واقعة أساسية أو وجهة نظر ذات وزن .

لقد كان معظم الكتاب إلى عهد قريب يرون أنفسهم محمولين على معالجة النوم والحلم فى معرض واحد ، وكانوا فى العادة يعرضون فوق ذلك لحالات مماثلة تدخل فى باب علم النفس المرضى ولظواهر لها سيما الحلم (مثل الهلاوس والرؤى وما شاكلها) . وعلى نقيض

ذلك يتجلى فى أحدث المؤلفات عهداً إيثار الاقتصار على موضوع محدود النطاق ، وربما شغل الكاتب بمسألة مفردة من مجال الحياة الحالمة . وأود أن أرى فى هذا التحول أمارة على الاقتناع بأن التنوير والاتفاق لا يأتيان فى مثل هذه المسائل المظلمة إلا بمتابعة الأبحاث المفصلة . وما أقدم فى هذه الصفحات إلا بحثاً مفصلا من هذا القبيل ، بحثاً ذا طابع سيكولوجى بنوع خاص . ولم يتح لى أن أعالج مشكلة النوم إلا قليلا ؛ فهذه مشكلة فيزيولوجية فى جوهرها – وإن يكن من الحق أن من خصائص حالة النوم أنها تحدث تغييراً فى الشروط التى يعمل جهازنا النفسى بمقتضاها . وعلى ذلك أغفل فيما يجىء ذكر المؤلفات المتعلقة بموضوع النوم .

إن المسائل التى يثيرها البحث العلمى فى ظواهر الحلم من حيث هى كذلك ، يمكن تبويبها أربعة أبواب لا تخلو من بعض التداخل فيما بينها :

أ

علاقة الحلم بحياة اليقظة

يقول الحكم الساذج للمرء فى أول استيقاظه : إن الحلم – وإن يكن لا يصدر عن عالم آخر – قد حمله مع ذلك إلى عالم غير الذى يعهده . وعن هذا المعتقد يعرب الفيزيولوجى القديم بورداخ الذى ندين له بوصف دقيق نافذ لظواهر الأحلام فى فقرة يكثر الاستشهاد بها (١٨٣٨ ، ٤٩٩) : « . . . إن حياة النهار بأعمالها ولذاتها ، بسرائها وضرائها ، لا تتكرر فى الحلم على الإطلاق ، بل الأصدق أن الحلم إنما يهدف إلى تخليصنا من كل أولئك . فقد يملك نفوسنا موضوع ما أو يمزقنا ألم عميق أو تستغرق مشكلة كل طاقتنا العقلية ، ثم يأتينا الحلم بشىء مختلف النوع كل الاختلاف أو لا يلتقط من الواقع سوى عناصر متفرقة يدخلها فى تراكيبه أو يذهب إلى مجرد التلون بلون مزاجنا والإعراب عن الواقع إعراباً رمزياً . » وبهذا المعنى يتحدث ى . هـ . فيخته (١٨٦٤ ، ١ ، ٥٤١) عن أحلام مكمِّلة ويصفها قائلا : إنها إحدى المكرمات الخفية فى طبيعة الروح المنطوية فى نفسها على دوائها . ويعرب ل. شترومپل عن معنى مماثل فى بحث له فى طبيعة الأحلام ومنشئها ، اجتمعت الآراء بحق على تقديره تقديراً رفيعاً ، فيقول (١٨٧٧ ، ١٦) : « من حلم ارتحل عن عالم الشعور المستيقظ . » ويقول كذلك (ص ١٧) : « فى الأحلام تمسى ذكرانا عن المحتويات المنظمة

للشعور المستيقظ وعن مسلكه السوى كأنما لم يعد لها وجود . » وأيضاً (ص ١٩) : « إن النفس — وقد كادت تفقد كل ذاكرة — تنفصل فى الحلم عن المحتوى المألوف لحياة اليقظة ومشاغلها . . . »

بيد أن الغالبية الغالبة من الكتاب قد نظروا إلى علاقة الحلم بحياة اليقظة نظرة مخالفة . مثال ذلك هافنر إذ يقول (١٨٨٧ ، ٢٤٥) : « وأول شئ هو أن الحلم يتابع حياة اليقظة ؛ فأحلامنا تتصل دائماً بالأفكار التى كانت تشغل الشعور قبيل وقوعها . وتكاد الملاحظة المدققة أن تكتشف باطراد خيطاً يصل الحلم بخبرات اليوم السابق . » ويناقض ڤيجانت (١٨٩٣ ، ٦) قضية بورداخ التى أوردتها من قبل على التخصيص : « لأننا نلحظ فى أحيان كثيرة ، فى القسط الأعظم من الأحلام على حسب الظاهر ، أن الحلم يعود بنا إلى مألوف الحياة بدل أن يخلصنا منه » . ويصوغ مورى هذا الموقف فى عبارة محوكة فيقول (١٨٧٨ ، ٥١) : « إننا نحلم بما رأيناه أو قلناه أو رغبنا فيه أو صنعناه. »[1]. بينما يفيض يسّن فى كتابه الذى ظهر فى علم النفس سنة ١٨٥٥ بعض الإفاضة فيقول (ص ٥٣٠) : « إن محتوى الحلم تحدده دائماً — تحديداً يزيد أو ينقص — شخصية الحالم الفردية وسنه ونوعه وطبقته ومستوى تعلمه وأسلوبه المألوف فى الحياة وما اشتملته حياته السابقة جميعها من التجارب والأحداث . »

وأقطع رأى فى هذه المسألة هو رأى الفيلسوف ى . ج . إ . ماس (١٨٠٥) إذ يقول : « وتؤيد الخبرة ما نذهب إليه من أننا نحلم فى معظم الأحايين بالأمور التى تتجه إليها أشد انفعالاتنا . ومن هذا نرى أن انفعالاتنا لا بد أن يكون لها تأثيرها فى إحداث أحلامنا ؛ فيحلم الطموح بأكاليل الغار التى نالها (أو تخيل أنه نالها) أو بتلك التى لا يزال عليه أن ينالها ، بينما يحلم العاشق بمعقد أعذب آماله . . . وكل الرغبات الحسية وحركات النفور الغافية فى القلوب مستطيعة — إذا حركها محرك — أن تثير حلماً ينبعث من الأفكار المرتبطة بها أو أن تجعل هذه الأفكار تتدخل فى حلم دائر بالفعل . » — نقلا عن ڤينترشتاين (١٩١٢) .

ولم يكن القدماء على غير هذا الرأى فيما يتصل بتوقف محتوى الحلم على الحياة المستيقظة فيحدثنا رادشتوك (ص ١٣٩) كيف كان اجزركسس يتأرجح قبل حملته على أرض

---

(١) ["Nous rêvons de ce que nous avons vu, dit, desiré ou fait"]

الإغريق بين نصيحة عاقلة بالإقلاع عما اعتزم وحلم ملح يحضه عليه . وبينما هو على هذه الحال أدلى إليه مفسر متعقل من قدامى مفسرى الأحلام بين الفرس — وهو أرتابانوس — بقول سديد : إن صور الحلم لا تضم فى معظم الأحايين سوى ما يفكر فيه المرء من قبل وهو مستيقظ .

وفى قصيدة لوكريس التعليمية « فى الطبيعة »(١) ترد الفقرة الآتية (الكتاب الرابع ، البيت ٩٦٢ وما بعده) :

« وأيا كان المسعى الذى يندب له المرء نفسه ويثابر عليه ، وأيا كانت الأمور التى طال اشتغالنا بها فى الزمن الماضى ، فهذه — وقد صارت النفس أشد حرصاً على لحاقها — هى أيضاً ما نخال فى الحلم لقاءه : من له قضية يذود عنها ويوازن بين الشرائع ، والقائد يقاتل ويخوض غمار المواقع . . . »(٢)

ويقول شيشرون (« فى العرافة » (٣) ، الكتاب الثانى [فقرة ٦٧]) فى معنى شبيه كل الشبه بالذى قاله مورى بعده بهذه القرون الطوال : « وعندئذ تتخلج فى النفس وتضطرب بنوع خاص بقايا تلك الأشياء التى فكرنا فيها أو صنعناها ونحن أيقاظ . »(٤)

إن التناقض بين هاتين النظرتين فى علاقة الحلم بحياة اليقظة يبدو بالفعل شيئاً لا حل له . ومن ثم كان هنا مقام التذكير بكتاب هيلد برانت (١٨٧٥) الذى يعتقد أنه لا سبيل على الإطلاق إلى وصف خصائص الحلم إلا « بطائفة من القضايا المتقابلة ، يبدو التقابل بينها حادا حتى التناقض » (ص ٨) . « وأول تقابل يقوم فى كمال انقطاع الحلم أو انعزاله عن الحياة الواقعة من جهة ، واشتباك كل بالآخر اشتباكاً مستمراً وتوقفه عليه من جهة أخرى . فالحلم شىء مفصوم من الواقع الذى نعيشه فى حياة اليقظة فصماً تاماً ، حتى ليحق القول : إنه شىء موجود فى ذاته وجوداً أحكم إطباقه ، ضربت بينه وبين الحياة الواقعة هوة

(١) ["De reum natura"]

(٢) [Et quo quisque fere studio devinctus adhaeret,
aut quibus in rebus multum sumus ante morati
atque in ea ratione fuit contenta magis mens,
in somnis eadem plerumque videmur obire;
causidici causas agere et componere leges,
induperatores pugnare ac prœlia obire, ... etc. etc.]

(٣) ["De Divinatione II."]

(٤) ["Maximque reliquiae earum rerum moventur in animis et agitantur, de quibus vigilantes aut cogitavimus aut egimus."]

لا تعبر . إنه يحررنا من الواقع ويطفىء ذكرانا السوية عنه وينزلنا فى عالم آخر وحياة مختلفة القصة كل الاختلاف ، لا شأن لها فى جوهرها بقصة الحقيقة . . . » ويمضى هيلد برانت فيبين كيف أننا إذا حل النوم اختفى كياننا كله « اختفاءه فى مصيدة لا يرى لها باب » . حينئذ قد يركب الحالم البحر إلى سانت هيلانه ليقدم لنابليون الأسير هناك نخبة من أنبذة الموزل ، ويلقاه الإمبراطور السابق بأعظم الترحيب حتى أن المرء يكاد يأسف حين يستيقظ فإذا هذا الوهم الممتع يتبدد . ولكن دعنا نقارن بين الحلم والحقيقة : إن الحالم لم يكن فى حياته تاجر أنبذة ولا رغب فى ذلك قط ، وهو لم يركب البحر ولو مرة ، ولو فعل لكانت سانت هيلانه آخر مكان يختار الذهاب إليه ، ثم هو لا يكن لنابليون حباً بل بغضاً وطنياً عارماً ، وفوق هذا كله لم يكن الحالم رأى النور حين مات نابليون فى جزيرته ؛ فكل رابطة شخصية به ضرب من المحال . وهكذا يبدو الحلم جسداً غريباً دس بين شطرين للحياة متوائمين متداولين على أكمل وجه .

ويمضى هيلد برانت قائلا : « ومع هذا فما يبدو أنه الضد صادق كذلك وصحيح ؛ لأن أوثق الوشائج — مهما يكن من شىء — تسير فيما أعتقد جنباً إلى جنب مع هذا الانفصال وهذا الانعزال . بل إن لنا أن نذهب حتى القول بأن الحلم — أيا كان ما يعرض فيه — يستمد مادته من الواقع ومن الحياة الذهنية التى تدور حول هذا الواقع . . . ومهما أغرب الحلم فهو فى الحقيقة لا يستطيع على الإطلاق التخلص من العالم الواقعى ، وهو دائماً فى أسمى تراكيبه كما فى أجلبها للضحك يستعير بالضرورة مادته الأساسية سواء مما عرض لأعيننا فى عالم الحواس أو خطر بين أفكارنا ونحن أيقاظ ، أى — بعبارة أخرى — مما سبقت لنا به خبرة خارجية كانت أو باطنية . »

ب

مادة الحلم — الذاكرة فى الحلم

هناك على الأقل حقيقة لا نزاع فيها ، تلك هى : أن المادة التى تكون محتوى الحلم إنما تستمد جميعها من الخبرة على نحو أو آخر ، أى أن الحلم إنما يستحضرها أو يتذكرها . غير أن من الخطأ أن نظن أن مثل هذا الارتباط بين محتوى الحلم والواقع يظهر للعيان من غير عناء على أثر المقارنة بينهما ، بل يلزمنا البحث عنه بحثاً دائباً ، وقد يخفى علينا زمناً طويلاً فى

طائفة بأسرها من الحالات . ويرجع السبب فى ذلك إلى عدة من الخصائص التى تبديها ملكة الذاكرة فى الحلم والتى استعصى تعليلها حتى الآن، وإن لم تخف على الملاحظة بوجه عام . وخليق بعنائنا أن ننعم النظر إلى هذه الخواص .

أول ما نرى هو أنه يتفق أن ترد فى محتوى الحلم مادة لا يستطيع المرء مستيقظاً أن يرى فيها جزءاً من معرفته أو خبرته ؛ فهو يذكر ذكر اليقين أنه قد حلم بهذا الشىء أو ذاك ، ولكنه لا يذكر أنه قد خبره ولا متى خبره . ويظل المرء فى ظلمة لا يدرى من أى نبع استقى الحلم ، وفى هذا ما يغريه بأن ينسب إلى الحلم قدرة مستقلة على الإبداع ، إلى أن تجىء خبرة جديدة — بعد حقبة طويلة فى كثير من الأحايين — فتعيد إليه ذكرى الخبرة السابقة التى ظن ضياعها ، كاشفة له بذلك عن منبع الحلم . وهكذا يسلم المرء ضرورة بأنه قد علم فى الحلم أموراً كانت تخرج عن متناول ذاكرته المستيقظة ، وتذكّرها [١] .

ويضرب دلبوف مثالاً على ذلك فريداً فى قوته ، استمده من أحلامه : ذلك أنه رأى فى الحلم فناء منزله وقد كساه الثلج ورأى عظايتين صغيرتين تجمدتا نصف تجمد واندفنتا تحته . فسارع — وهو المحب للحيوان — إلى التقاطهما وتدفئتهما ، ثم أعادهما إلى ثقب صغير خصص لهما فى الحائط ، وقدم لهما فوق ذلك بضعة أوراق من سرخس صغير كان ينمو على الحائط ؛ لِما كان يعلمه من فرط حبهما له . وكان يعرف فى الحلم اسم النبات : أسبلنيوم روتا موراليس[٢] . واستمر الحلم ليعود بعد قليل من الاستطراد إلى العظايتين . وهنا رأى دلبوف لدهشه عظايتين أخريين وقد انكفأتا على أوراق السرخس . وحينئذ أجال البصر حوله ، فرأى عظاة خامسة فسادسة تتجهان صوب الثقب الذى فى الحائط ، وما لبث الطريق أن اكتسى كله بموكب من العظايا اتخذت ذات الوجهة . . . إلخ .

وكان دلبوف لا يعلم وهو مستيقظ سوى القليل من الأسماء اللاتينية للنبات ليس بينها « أسبلنيوم » . فكم كان عجبه حين تحقق من أن ثمت سرخساً يحمل هذا الاسم حقيقة ! وكان اسمه الصحيح : أسبلنيوم روتا موراريا[٣] — وهو الاسم الذى حرفه الحلم تحريفاً طفيفاً . وكان التفكير فى اتفاق عارض يكاد يكون مستحيلا بالطبع . ولكن من أين أتى

---

(١) — يقول ڤاشيد : إنه قد لوحظ فى أحيان كثيرة أن المرء قد يتحدث فى الحلم بلغة أجنبية مبديا فى ذلك طلاقة وسلامة يقصر عنهما وهو مستيقظ .

(٢) [Asplenium ruta muralis]

(٣) [Asplenium ruta muraria]

الحلم بذلك الاسم : « أسبلنيوم » ؟ هذا ما ظل لغزاً فى عين دلبوف .

لقد وقع هذا الحلم فى عام ١٨٦٢ . وبعد ذلك بستة عشر عاماً كان الفيلسوف يزور صديقاً فلمح لديه سجلا صغيراً حوى أزهاراً مجففة من قبيل ما يباع إلى الأجانب فى بعض أنحاء سويسرا على سبيل التذكرة . وهنا بثقت فى خاطره إحدى الذكريات ، ففتح السجل ، فإذا هو يرى « أسبلنيوم » حلمه ويرى اسمه اللاتينى مدوناً فى أسفله بخطه نفسه . عندئذ وضحت الرابطة : ففى عام ١٨٦٠ – أى قبل الحلم بعامين – زارت دلبوف أخت لهذا الصديق كانت إذ ذاك فى رحلة عرسها ، وكانت تحمل معها هذا السجل عينه لكى تهديه إلى أخيها . وأخذ دلبوف على نفسه أن يدون بأسفل كل نبات مجفف اسمه اللاتينى بإملاء أحد المشتغلين بعلم النبات .

ويشاء حسن الاتفاق الذى جعل هذا المثال خليقاً بالرواية أن يمكن دلبوف من تأثر جزء آخر من محتوى هذا الحلم إلى أصله المفقود . ففى يوم من عام ١٨٧٧ عثر دلبوف على مجلد من صحيفة قديمة مصورة ، فرأى فيها موكب العظايا مصوراً جميعه مثلما تراءى له فى الحلم عام ١٨٦٢ . وكان المجلد يحمل تاريخ عام ١٨٦١ ، وكان دلبوف يذكر أنه كان بين المشتركين فى هذه الصحيفة منذ ظهورها .

أن يكون للأحلام سلطان على ذكريات لا تُنال فى حياة اليقظة ظاهرةٌ ملحوظة ، ذات خطورة نظرية حتى أننى لأود الإلحاح فى التنبيه عليها بضرب مثال آخر من أمثلة الأحلام «الذكيرة» : يحدثنا مورى كيف ظلت كلمة «موسيدان» تراود خاطره فى أثناء النهار دون أن يعلم من أمرها شيئاً سوى أن ثمت مدينة من مدن فرنسا تحمل هذا الاسم . وفى ذات ليلة لاح لمورى فى الحلم أنه يتحدث إلى شخص يقول له : إنه قد أتى من موسيدان . فلما سأله عن موقع هذه المدنية ، أجابه : موسيدان مدينة صغيرة فى مقاطعة الدُرْدُنى . فلما استيقظ مورى لم يصدق هذه الإفادة التى تلقاها فى الحلم ، ولكن القاموس الجغرافى أثبت له تمام صحتها . وفى هذا المثال يثبت أن الحلم أعلم ، إلا أن الكشف عن الأصل المنسى لهذا العلم لم يتيسر .

ويروى يسن حادثة حلمية شبيهة بهذه غاية الشبه ترجع إلى عصر أكثر قدماً ، يقول (١٨٥٥ ، ٥٥١) : « ويدخل فى هذه الطبقة كذلك حلم (يذكره هننجر ، ١٧٨٤ ، ٣٠٠) أتاه سكاليجر الكبير الذى نظم قصيدة فى مديح أعلام ڤيرونا : فقد ظهر له فى

الحلم رجل دعا نفسه بروجنولوس شاكياً إغفاله . ولم يكن فى استطاعة سكاليجر أن يذكر أنه قد سمع بهذا الرجل قط ، ولكنه مع ذلك نظم فيه بضعة أبيات . ثم عرف ابنه بعد ذلك فى ڤيرونا أن رجلا بهذا الاسم قد اشتهر فيها كناقد حقيقة . »

ويقص الماركى درڤاىْ دى سان دُنى (عن رواية لڤاشيد ١٩١١ ، ٢٣٢) حلماً ذكيراً تميز بتلك الخاصة الفريدة ، وهى أن الحالم — وقد عجز عن أن يتعرف إحدى الذكريات فى حلم أول — يعود فيعرفها فى حلم لاحق ، يقول : « حلمت مرة بسيدة شابة ذات شعر ذهبى ، رأيتها تتحدث إلى أختى وهى تريها قطعة من النسيج المطرز . وكان وجهها يبدو مألوفاً فى الحلم ، وفكرت فى أننى قد رأيتها مرات كثيرة من قبل . فلما استيقظت كان محياها لا يزال ماثلا أمامى واضحاً غاية الوضوح ، ولكننى عجزت عجزاً تامًّا عن معرفته . ثم عدت إلى النوم ، فعادت صورة الحلم . ولكننى فى هذا الحلم الجديد سألت السيدة الشقراء : هل سعدت بلقائها من قبل فى مكان ما ؟ فأجابتنى : يقيناً ، ألا تذكر شاطئ البحر فى پورنيك ؟ وهنا استيقظت على الفور مرة ثانية ، وأمكننى عندئذ أن أذكر ذكراً أكيداً كل ما ارتبط بهذا الوجه الحلمى الخلاب من التفاصيل . »

ويروى المؤلف نفسه (على ما يذكره كذلك ڤاشيد ، ص ٢٣٣) كيف سمع موسيقى من معارفه لحناً ظنه جم الطرافة فى الحلم حتى عثر عليه بعد ذلك بسنوات فى مجموعة قديمة من القطع الموسيقية ظل مع ذلك عاجزاً عن أن يذكر أنها قد وقعت بين يديه من قبل .

هذا وقد نشر مايرز مجموعة بأسرها من أمثال هذه الأحلام الذكيرة فى مرجع لم أجد لسوء الحظ سبيلا إليه (١) . وإنى أعتقد أنه ما من أحد اشتغل بالأحلام إلا سلم بأن دلالة الحلم على معارف وذكريات لا يعلم المستيقظ امتلاكه إياها ظاهرة مألوفة إلى مدى كبير . وإنه ليتاح لى فى خلال عملى التحليلى النفسى مع العصابيين — وهو ما سوف أجىء إلى الحديث عنه فيما بعد — يتاح لى أكثر من مرة فى كل أسبوع أن أقيم لمرضاى الدليل من أحلامهم على أنهم يعرفون فى الحقيقة نصوصاً مختارة وعبارات فاحشة ... إلخ . أجود المعرفة وأنهم يستخدمون معرفتهم هذه فى أحلامهم وإن نسوها فى يقظتهم . وسأقص هنا مثالاً آخر بريئاً على شدة ذاكرة الحلم ؛ لأن تأثر مصدر المعرفة التى لم يدن بلوغها إلا للحلم كان فى هذا المثال من السهولة بمكان .

---

(١) [Proceedings of the Society for Psychical Research]

رأى أحد مرضاى فى خلال حلم طويل بعض الطول أنه يطلب كأساً من « الكونتوشوفكا » فى أحد المقاهى . ثم بعد أن خبرنى بذلك سألنى ما هذا الشراب ؛ فهو لم يسمع به قط من قبل . ولم يعجزنى أن أجيبه أن ذلك شراب بولندى من المستحيل أن يكون قد اخترع اسمه فى أثناء الحلم اختراعاً ؛ فقد كان ذلك الاسم مألوفاً لى منذ وقت طويل من طريق الإعلانات . وأبى المريض أن يصدقنى فى أول الأمر ، ولكنه بعد ذلك بأيام قلائل ، بعد أن أجاز لحلمه أن يصبح حقيقة واقعة ، لاحظ هذا الاسم على لافتة تقع عند ناصية طريق كان يمر به مرتين على الأقل فى كل يوم طوال بضعة شهور .

ولقد عرفت من أحلامى نفسى كيف يظل الكشف عن مصادر العناصر المتفرقة للحلم مرهوناً بالصدفة . مثال ذلك أننى ظللت سنوات قبل تحرير هذا الكتاب تلاحقنى صورة برج من أبراج الكنائس متواضع الهيئة فى الغاية ، دون أن أستطيع أن أذكر أنى رأيته . ثم عرفته بعد ذلك فجأة أيقن المعرفة عند محطة صغيرة على الخط الحديدى الممتد بين سالزبورج ورايخنهال . وكان ذلك فى النصف الثانى من العقد الأخير من القرن ، وكان أول عهدى بهذا الطريق فى عام ١٨٨٦ . وحدث فى سنوات تالية — وكان اشتغالى بدراسة الأحلام قد بلغ أشده — أن أخذت صورة تمثل مكاناً غريب الهيئة تلح علىّ فى الحلم إلحاحاً مرهقاً : كنت أرى فى اتجاه معين بالنسبة إلىّ ، على يسارى ، فضاء معتماً برزت فيه أشكال حجرية شائهة . وكان هناك شعاع من ذكرى يحدثنى — دون ميل منى إلى تصديقه — بأن ذلك مدخل كهف تحفظ فيه الجعة ، ولكننى ظللت عاجزاً عن أن ألقى الضوء على معنى هذه الصورة أو مأتاها . ثم اتفق عام ١٩٠٧[1] أنى جئت إلى پادوا التى عجزت آسفاً عن أن أعود إلى زيارتها منذ عام ١٨٩٥ ؛ فما روت زيارتى الأولى لهذه المدينة الجامعية الجميلة غلتى ، فقد فاتنى أن أرى رسوم جيوتو الحائطية فى كنيسة « مادونا دلْ آرينا » ونكصت على عقبى وأنا فى منتصف الطريق إليها إذ قيل لى إن الكنيسة مغلقة فى ذلك اليوم . فنى زيارتى الثانية لها ، بعد أن انصرم اثنا عشر عاماً ، كنت عازماً على إدراك ما فاتنى ، فكان التوجه إلى المادونا دلْ آرينا أول ما صنعت . وإنى لنى طريقى إليها إذا أنا أكتشف على يسارى ، عند البقعة التى أرجح أنى استدرت فيها على عقبى ، هذا المكان الذى طالما رأيته فى الحلم بأشكاله الحجرية : لقد كان فى الحقيقة مدخل مطعم فى الهواء الطلق .

---

(١) [هذه الفقرة قد أضيفت سنة ١٩٠٩ .]

ومن المصادر التى يستمد منها الحلم مادة يعيدها — وهى مادة يظل بعضها عاطلا فى أثناء النشاط الفكرى المستيقظ ، فلا يتذكر ولا يستخدم — حياة الطفولة . ولن أستشهد إلا بقليل من المؤلفين الذين لحظوا ذلك وألحوا فيه .

يقول هيلد برانت (١٨٢٥ ، ٢٣) : « سبق أن قلنا صراحة : إن الحلم يستحضر أحياناً إلى النفس — بقدرة عجيبة على الإعادة — حوادث من سنواتنا الأولى بعدت صلتنا بها كل البعد إن لم يكن عفى عليها النسيان . »

ويقول شترومپل (١٨٧٧ ، ٤٠) : « وتزيد المسألة بعد ذلك ظهوراً إذا لاحظنا كيف يبعث الحلم — إن جاز التعبير — من تحت أعمق الردوم وأشدها كثافة ، تلك التى هالها لاحق الزمن على أوائل خبراتنا فى الطفولة ، صوراً متفرقة لمحال وأشياء وأناس ظلت سليمة لم تمس ، مبقية على نضارتها الأولى . ولا يقتصر ذلك على انطباعات اجتذبت حين وقوعها شعوراً بالغ الشدة أو اصطحبت بأهمية نفسية عالية ، تعود الآن فى الحلم فى صورة ذكريات صادقة قد يسر لها الشعور المستيقظ . بل الأصدق هو أن ذاكرة الحلم تشتمل أغوارها كذلك على صور لأشخاص وأشياء ومحال وأحداث ترجع إلى الزمن الأول ، إما أنها لم تنل من الشعور إلا حظاً ضئيلا أو لم تنل من الأهمية حظاً ما أو فقدت كليهما منذ زمن طويل ، حتى لتبدو فى الحلم ولعين المستيقظ على السواء غريبة كل الغرابة ، مجهولة كل الجهل ، إلى أن يكشف عن أصلها المبكر . »

ويقول فولكلت (١٨٧٥ ، ١١٩) : « ومن الأمور الملحوظة بنوع خاص كيف تتسرب ذكريات الطفولة والصبى إلى الحلم ؛ فالحلم لا يفتأ يذكرنا بأشياء كففنا منذ زمن طويل عن التفكير فيها أو كفت منذ زمن طويل عن أن تكون لها أهمية فى نفوسنا . »

ولقد أدت سيطرة الحلم على مادة طفلية يفلت جزؤها الأعظم — كما نعلم — من شباك ذاكرتنا الشعورية إلى نشوء أحلام ذكيرة حرية بالاهتمام ، أذكر مرة أخرى قليلا من أمثلتها .

يروى مورى (١٨٧٨ ، ٩٢) أنه اعتاد وهو طفل أن يذهب فى أحيان كثيرة من مسقط رأسه « مو » إلى بلدة « تريپور » المجاورة ، حيث كان والده يشرف على بناء جسر . وفى ذات ليلة حمله الحلم إلى « تريپور » ورأى مورى نفسه يلعب فى شارع القرية من جديد . ثم اقترب منه رجل يرتدى نوعاً من الحلل الرسمية ، فسأله مورى اسمه ، فأجاب الرجل قائلا : إنه يدعى س . وإنه حارس الجسر . واستيقظ مورى يساوره الشك فى صدق هذه

الذكرى ، فسأل خادماً عجوزاً عرفته طفلا : هل تذكر رجلا بهذا الاسم ؟ فكان جوابها : « نعم ، إنه كان حارس الجسر الذى بناه والدك . »

ويضرب مورى مثالا آخر على يقين الذكرى الطفلية المنبعثة فى الحلم، لقى من حسن التأييد ما لقيه سابقه . والحالم فى هذا المثال رجل يدعى ف . ولد ونشأ فى « مونبريزون » ، ثم بعد هجرة دامت خمسة وعشرين عاماً عقد العزم على أن يزور الوطن وأصدقاء أسرته القدامى الذين لم يرهم منذ ذلك الحين . وفى ليلة الرحيل رأى الرجل فى الحلم أنه قد بلغ مقصده وأنه التقى على مقربة من « مونبريزون » برجل لم يعرفه من مرآه ، ولكن الرجل أخبره أنه السيد ت . وأنه صديق من أصدقاء والده . وكان الحالم يعلم أنه قد عرف فى طفولته سيداً بهذا الاسم ولكنه لم يعد يذكر شكله فى يقظته . ثم بعد ذلك بأيام قلائل بلغ الرجل وطنه حقيقة ، فعرف المكان الذى ظن فى الحلم أنه يجهله ، وفيه التقى بسيد عرف فيه على الفور السيد ت . — إلا أن الشخص الحقيقى كان يزيد فى السن كثيراً عما تراءى عليه فى صورة الحلم .

وأستطيع فى هذا الصدد أن أذكر حلماً من أحلامى حلت فيه علاقة محل الانطباع المراد تذكره : فقد رأيت فى الحلم شخصاً عرفت فى أثناء الحلم نفسه أنه طبيب البلد الذى ولدت فيه ، ولم تكن ملامحه فى الحلم جلية ، بل اختلطت بملامح معلم لى بالمدرسة الثانوية ما زلت ألتقى به حتى اليوم . فلما استيقظت لم أستطع أن أجد رابطاً ما بين هذين الشخصين ولكنى حين سألت والدتى عن الطبيب الذى كان يعالجنى فى هاته السنين الأولى من طفولتى علمت أنه كان أعور — وكذلك كان المدرس الذى حجب شخصه فى الحلم شخص الطبيب . وكان ذلك بعد أن انقضى ثمانية وثلاثون عاماً منذ رأيت الطبيب للمرة الأخيرة ، ولم أكن — فيما أعلم — قد فكرت فيه على الإطلاق ، مع أن بذقنى أثراً من جرح كان كفيلا أن يذكرنى بما لقيت من عنايته [1] .

وكأنما أراد بعض المؤلفين أن يخففوا هذا الغلو فيما يعزى إلى خبرات الطفولة من شأن فى الحياة الحالمة ؛ فهم يؤكدون أن فى الأحلام عناصر ترجع إلى ما يسبق الحلم بأيام قريبة

---

(١) [أضيف الجزء الأخير من هذه الجملة ابتداء من: « مع أن ... الخ » فى طبعة سنة ١٩٠٩ وظل يظهر فى جميع الطبعات التالية حتى سنة ١٩٢٢ ، ثم حذف بعد ذلك. ولكننا نجد فى صفحة ٢٨٩ إشارة إلى هذا الطبيب عينه لا تفهم بغير هذا الجزء . فأما الحدث الذى كان سببا فى الجرح المشار إليه، فأغلب الظن أنه هو الموصوف فى صفحة ٥٥٠

معدودة . ويذهب روبرت (١٨٨٦ ، ٤٦) إلى حد القول بأن الأحلام السوية لا تشغل إلا بانطباعات الأيام القليلة الأخيرة . ومن الحق أننا سوف نرى كيف شيد روبرت نظرية فى الحلم تستلزم إبراز الانطباعات الحديثة إلى مكان الصدارة وإخفاء القديمة استلزاماً آمراً ، ومع هذا فالظاهرة التى تحدّث عنها روبرت ظاهرة صحيحة — كما يسعى توكيده استناداً إلى مباحثى . وفى رأى مؤلف أمريكى ، هو نلسون ، أن الانطباعات التى تستخدم فى الحلم ترجع فى معظم الحالات إلى اليوم السابق على اليوم الذى يجىء الحلم فى أعقابه أو إلى السابق على هذا السابق ، وكأن انطباعات اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة لا تبلغ من الوهن أو من البعد مبلغاً كافياً .

ولقد دهش مؤلفون متعددون ، ممن يهمهم ألا يضعوا الصلة العميقة بين الحلم وحياة اليقظة موضع الشك ، لما رأوه من أن الانطباعات التى تستحوذ على أفكارنا المستيقظة استحواذاً شديداً لا تعرض فى الحلم إلا بعد أن ينحيها التفكير النهارى جانباً بعض التنحية : مثال ذلك أننا لا نحلم بعزيز فقدناه والحزن لا يزال يملكنا (دولاچ) . غير أن باحثة من أحدث من لاحظوا هذا الموضوع ، هى الآنسة هالام ، قد جمعت الشواهد على العكس ، مؤكدة بذلك حق كل منا فى أن تكون له فرديته السيكولوجية فى هذا المجال .

وأما الخاصة الثالثة بين خصائص الذاكرة فى الحلم — وهى أعجب الخصائص وأشدها استغلاقاً على الفهم — فتتجلى فى اختيار المادة المستذكرة ؛ فما يعد جديراً بالتذكر هنا ليس أخطر الأمور دون غيره ، كما هو الحال فى حياة اليقظة ، بل أتفهها كذلك وأقلها ظهوراً . وهنا أترك الكلمة لأولئك الكتّاب الذين أعربوا عن عجبهم أقوى الإعراب .

يقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ١١) : « والعجيب هو أن الحلم لا يستمد عناصره فى العادة من أحداث النهار الجليلة المثيرة ولا من مشاغله القوية القاهرة ، بل من تفاصيل عارضة أو — إن جاز التعبير — من قصاصات معدومة القيمة تخلفت من الخبرات الحديثة أو من الماضى السحيق . فقد يحرك مصاب عائلى حزناً عميقاً فى نفوسنا ويطرد عنا الكرى جزءاً طويلا من الليل ثم ننام ونحن فى أسره فإذا هو يمحى من ذاكرتنا حتى يعود إلينا فى عنف يشيع الاضطراب فى نفوسنا مع أول لحظات اليقظة . هذا بينما يتسع الحلم لزائدة فى جبهة شخص غريب صادفناه اتفاقاً وما فكرنا قط فى أمره بعد أن مررنا به . »

ويقول شترومپل (١٨٧٧ ، ٣٩) : « هناك حالات نكتشف فيها بتحليل الحلم أن

بعض عناصره مستمد حقيقة من خبرات اليوم السابق على الحلم أو اليوم الذى قبله ، ولكنها كانت خبرات خالية من كل قيمة أو وزن حتى أنها آلت إلى النسيان على أثر وقوعها . ومن قبيل هذه الخبرات عبارات يسمعها المرء عفواً من الآخرين أو أفعال يلحظها منهم بدون قصد أو لمحات خاطفة من الناس أو الأشياء أو نبذ متفرقة مما قرأ ، إلخ . »

ويقول هافلوك إليس (١٨٩٩ ، ٧٢٧) : « إن الانفعالات العميقة التى نعرفها فى حياة اليقظة والمسائل والمشكلات التى نصرف فيها الجزء الرئيس من طاقتنا العقلية الإرادية ليست فى العادة هى التى تمثل لشعور الحالم على الفور . بل الذى يظهر فى أحلامنا غالباً – بقدر ما يتعلق الأمر بالماضى القريب – هو انطباعات حياة النهار التافهة العارضة « المنسية » . فهذه الأوجه من نشاطنا النفسى التى كانت أشد ما يكون استيقاظاً هى التى تنام أعمق النوم . »(١)

وأما بينتس (١٨٧٨ ، ٤٤ – ٤٥) فيرى فى هذه الخاصة على التحديد من خصائص الذاكرة فى الحلم مدعاة إلى الإعراب صراحة عن قلة رضائه بتعليلات الحلم التى أيدها هو نفسه من قبل ، فيقول : « والحلم الطبيعى يثير أسئلة مماثلة : لماذا لا نحلم دائماً بالانطباعات الذكروية المتخلفة من اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة بل نغوص فى كثير من الأحيان دون ما سبب ظاهر فى ماض سحيق كاد ينطفىء ؟ لماذا ينطبع الشعور فى الحلم على هذا النحو الشائع بالصور الذكروية المجردة من الشأن بينما تظل خلايا المخ فى المناطق التى تحمل أشد آثار الخبرة حساسية خرساء خامدة فى معظمها ، إلا أن يكون قد حركها محرك إلى نشاط مستجد قبيل الحلم فى خلال حياة اليقظة ؟ »

ومن السهل أن نرى كيف كان من المحتم أن يؤدى هذا الإيثار العجيب الذى تبديه ذاكرة الحلم تجاه ما هو تافه فى خبرتنا اليومية وكان يمر – من ثم – غير ملحوظ إلى إغفال توقف الحلم على حياة اليقظة عامة وعلى الأقل إلى جعل إثبات هذا التوقف أمراً عسيراً فى أية حالة جزئية . فهكذا تجد الآنسة هوايتون كالكينز فى دراستها الإحصائية لأحلامها وأحلام معاونيها جزءاً قدره أحد عشر فى المائة من مجموع الحالات لا تظهر فيه رابطة ما بحياة

---

(١) ["The profound emotions of waking life, the questions and problems on which we spread our chief voluntary mental energy, are not those which usually present themselves at once to dream consciousness. It is, so far as the immediate past is concerned, mostly the trifling, the incidental, the 'forgotten' impressions of daily life which reapperar in our dreams. The psychic activities that are awake most intensely are those that sleep most profoundly."]

اليقظة . ولا جدال فى أن هيلد برانت كان محقا حين أكد أن فى مقدورنا أن نبين منشأ كل صورة من صور الحلم لو أنا خصصنا لاستقصاء مصدرها وقتاً وجهداً كافيين . وهو يدعو مثل هذا العمل « مهمة مفرطة المشقة والجحود ؛ فهى لن تنتهى بنا فى معظم الأحيان إلا إلى التنقيب فى زوايا الذاكرة السحيقة عن كل صنوف الحديث النفسى المجرد من القيمة وإلى جذب كل صنوف اللحظات الماضية التى لم نعد نكترث لها أقل أكتراث من نسيان لعلها قد قبرت فيه إثر وقوعها . » ولست أجد إلا أن أعرب عن أسفى لأن هذا المؤلف الحديد البصر قد ترك نفسه يحيد عن طريق لاحت له لا تبشر بخير كثير فى مبدئها ، ولو اتبعها لقادته قدماً إلى صميم تعليل الحلم .

ولا شك فى أن للطريقة التى تسلك عليها الذاكرة فى الأحلام أهمية قصوى بالنسبة إلى كل نظرية عن الذاكرة عموماً ؛ فهذه الطريقة تعلمنا أن « ما نمتلكه مرة امتلاكاً ذهنياً لا يضيع كله أبداً » (شولتس ، ١٨٩٣ ، ٥٩) ، أو كما قال دلبوف : « كل انطباع مهما كان قليل الشأن يترك أثراً لا يحول ، قابلا من غير نهاية لأن يعود إلى الظهور » [١] — وهى نتيجة يدفعنا إليها كذلك عدد وفير من الظواهر المرضية للحياة النفسية . فلا ننسى بعد ذلك هذه القدرة الخارقة التى تبديها الذاكرة فى الحلم ؛ لكى نزيد شعوراً بالتناقض الذى تضمه نظريات — سوف يجىء أوان ذكرها — تحاول أن تعلل فساد الأحلام وانعدام ترابطها بالنسيان الجزئى لما نعلمه فى خلال النهار .

ولقد يدور بخلدنا أن ظاهرة الحلم يمكن أن ترد فى جملتها إلى ظاهرة التذكر ، فلا يكون الحلم طوى مظهر ينم عن نشاط استحضارى يعمل حتى فى خلال الليل ، غير مستهدف غاية تخرج عن ذاته . ولقد يتفق ذلك وما يرويه البعض مثل پيلتس من وجود علاقة ثابتة تمكن البرهنة عليها بين وقت وقوع الحلم ومحتواه : فستحضر الحلم أقدم الانطباعات فى أثناء النوم العميق بينما يستحضر أحدثها قرب الصباح . ولكن طريقة الحلم فى معالجة المادة المراد تذكرها تبطل مقدماً مثل هذه المزاعم . فشترومپل محق حين يقول : إن الأحلام لا تكرر خبراتنا . نعم ، إن الحلم قد يخطو خطوة فى هذا الاتجاه ، لكن الخطوة الثانية لا تجىء ، أو تجىء فى صورة محورة ، أو يحل محلها شىء مغاير كل المغايرة .

---

(٣) ["Que toute impression même la plus insignifiante, laisse une trace inaltérable, indéfiniment susceptible de reparaître au jour."]

فاستحضار الحلم استحضار مجتزئ ، وهذه على التأكيد قاعدة لها من سعة الاطراد ما يسمح بترتيب النتائج النظرية عليها . بيد أن للقاعدة شواذ يكرر فيها الحلم خبرة ما فى استيفاء لا يقل عما تستطيعه ذاكرتنا المستيقظة . فدلبوف يحكى عن أحد زملائه كيف استعاد فى أحد أحلامه حادثة عربة كان قد سلم منها بما يشبه الأعجوبة فلم يترك شيئاً من تفاصيلها . وتذكر الآنسة كالكينز حلمين لم يخرج محتوى كل منهما عن أن يكون تكراراً يعيد حدثاً من اليوم السابق بحذافيره . وسيتاح لى أيضاً أن أذكر مثالا صادفته على خبرة من الطفولة عاودت الظهور فى الحلم من غير تحريف[1] [ص ٢١٠ وأيضاً ٢١٨] .

ج
منبهات الحلم ومصادره

يقول مثل عامى : « تأتى الأحلام من المعدة » ، وهذا المثل يعين على فهم المراد بقولنا : منبهات الحلم ومصادره . فمن وراء هذين التصورين تكمن نظرية فحواها أن الحلم ينتج عن إزعاج يصيب النوم ؛ فما كنا لنحلم لولا مزعج طرأ فى أثناء النوم ، والحلم استجابة بإزاء هذا المزعج .

إن المناقشة فى أمر العلل المثيرة للحلم تشغل محلا كبيراً من كتابات المؤلفين . ومن الجلى أن قيام هذه المشكلة لم يكن ممكناً إلا بعد أن أصبح الحلم موضوع بحث بيولوجى ؛ فما كان القدماء — وهم الذين اعتقدوا أن الأحلام توحيها الآلهة — بحاجة إلى التماس منبهات للأحلام ، فالحلم يصدر عن إرادة قوى إلهية أو جنية ، ومحتواه منشؤه علم هذه الإرادة أو غايتها . وأما العلم فلم يلبث أن واجه هذا السؤال : هل المنبه إلى الحلم واحد أم كثير الأنواع ؟ ومن هنا كان النظر فيما إذا كان بيان علة الحلم يدخل فى مجال علم النفس أو يدخل بالأحرى فى علم وظائف الأعضاء . والذى يبدو هو أن معظم الثقات قد اتفقوا

---

(١) تدعونى خبرتى اللاحقة إلى أن أضيف أنه لا يندر على الإطلاق أن تتكرر فى الحلم أفعال من اليوم السابق بريئة خالية من الخطر ، كحزم الحقائب وإعداد الطعام فى المطبخ . . . إلخ . غير أن الذى يلح عليه الحالم نفسه فى مثل هذه الأحلام ليس محتوى الذكرى بل « واقعيتها » : ” لقد أتيت كل هذا حقيقة بالأمس “ .

على أن العلل المزعجة للنوم ، أى مصادر فعل الحلم ، قد تتعدد أنواعها ، وأن المنبهات الحسية والتهييجات الجسمية قد تعمل على السواء عمل الحوافز إلى الحلم ، ولكن الاختلاف بين الآراء يتسع فيما يتصل بالإيثار الذى يبدونه لهذا المصدر من مصادر الحلم أو ذاك ، وفى درجة الأهمية التى يضيفونها إليها من حيث هى عوامل فى تكوين الحلم .

فإذا حصرنا منابع الحلم انقسمت أربع طبقات ، وهذه الطبقات قد استخدمت أيضاً فى تصنيف الأحلام أنفسها : (١) منبهات حسية خارجية (موضوعية) ، (٢) منبهات حسية داخلية (ذاتية) ، (٣) منبهات جسمية باطنية عضوية ، (٤) مصادر نفسية خالصة للتنبيه .

١ — المنبهات الحسية الخارجية

لقد نشر شترومپل الصغير — وهو ابن الفيلسوف الذى اهتدينا فى مشكلات الحلم بهدى مؤلفه عن الأحلام مراراً كثيرة من قبل — وصفاً رائعاً لمريض أصيب بفقدان عام للحساسية على سطح جسمه وشلل عدة من أعضائه الحسية الأعلى مرتبة : كان هذا الرجل يستسلم للنعاس إذا ما أغلقت الأبواب القليلة التى بقيت تطل عنده على العالم الخارجى . وإن من عادتنا أنفسنا حين ننشد النوم أن نعمل على توفير وضع يشبه المتحقق فى وصف شترومپل : فنحن نغلق أهم أبواب الحس — وأعنى العينين — ونحاول أن ننأى بسائر حواسنا عن كل منبه أو كل تغيير فى المنبهات الواقعة عليها . وعندئذ نذوق النوم ، وإن كنا لا نفلح أبداً فى محاولتنا كل الفلاح ؛ فما نستطيع أن نبعد عن حواسنا كل منبه إبعاداً تاماً ، ولا أن نعلق قابليتها للتهييج كل التعليق . وكوننا قد نستيقظ فى كل وقت إذا بلغ منبه حداً كافياً من الشدة دليل على « أن النفس تمكث حتى فى أثناء النوم على صلة لا تنقطع بالعالم الخارجى »[1] . وليس ما يمنع من أن تصير المنبهات التى تبلغنا على هذا النحو فى خلال النوم مصادر للأحلام .

ومن أمثال هذه المنبهات عدد وفير يتفاوت بين تلك المحتومة التى تتضمنها حالة النوم ذاتها أو لا تجد منتدحاً عن السماح بها من حين إلى حين ، وتلك العارضة الموقظة التى يكون

(١) [أنظر ملاحظات بورداخ المذكورة فى صفحة ٨٨ .]

من شأنها أن تنهى نومنا ولقد تنهيه فعلا . فقد ينفذ ضوء ساطع إلى أعيننا ، أو تبلغ ضوضاء سمعنا ، أو تهيج مادة رائحة غشاء الأنف المخاطى . وقد نتحرك فى أثناء النوم حركة غير إرادية فنكشف عن جزء من الجسم ونعرضه لأحاسيس البرد ، أو نغير وضعنا فيكون ذلك سبباً فى أحاسيس بالضغط والملامسة . وقد تلذعنا بعوضة أو يطبق طارئ صغير من طوارئ الليل على عدة من الحواس معاً . ولقد جمع انتباه الملاحظين عدداً كاملا من أحلام بلغ فيها التوافق بين المنبه الذى يتبينه المرء إذ يستيقظ عليه وبعض محتوى الحلم مدى بعيداً جداً حتى أنه أمكن أن نعرف فى هذا المنبه مصدر هذا الحلم .

وأنقل عن يسن (١٨٥٥ ، ٥٢٧) مجموعة من أمثال هذه الأحلام التى يمكن تأثرها إلى تنبيه حسى موضوعى — عارض إلى حد يزيد أو ينقص — : « يثير كل صوت يدرك إدراكاً غير متميز صوراً حلمية توافقه : فينقلنا هدير الرعد إلى حومة الوغى ، ويستحيل صياح الديك إلى صرخة رجل ولِيهَ الرعب ، ويستجلب صرير الباب لصوصاً غزاة .

« فإن انزاح عنا الغطاء فى أثناء الليل فقد نرى أننا نتجول عرايا أو نقع فى الماء ، وإن استلقينا على السرير بعرضه وتجاوزت قدمانا حده حلمنا بالوقوف على شفا جرف مروع أو بالسقوط من مرتفع شديد الانحدار . وإن اتفق أن اندفن رأسنا تحت الوسادة حلمنا بصخرة ضخمة معلقة من فوقنا ، توشك أن تقبرنا تحت ثقلها . وتراكم المنى تنتج عنه أحلام معسولة بينما تؤدى الآلام الموضعية إلى تخيل معاملة مغلظة أو هجوم عدائى أو أذى يلحق الجسم . . .

« وحلُم ماير (١٧٥٨، ٣٣) ذات مرة بنفر من الرجال هجموا عليه وطرحوه أرضاً ثم جعلوا يدقون وتداً فى الأرض بين إصبع قدمه الكبير والإصبع الذى يليه . وبينما كان يتخيل ذلك فى الحلم ، استيقظ فرأى قشة لصقت بين إصبعيه هذين . ويحكى هننجز (١٧٨٤ ، ٢٥٨) عن ماير أيضاً أنه قد حلم فى مرة أخرى بالشنق إذ كان قميصه مشدوداً إلى عنقه شداً أحكم وثاقه بعض الشىء . وحلم هوفباور وهو شاب بأنه يسقط من فوق جدار عال ، فلما استيقظ رأى أن قائمة السرير قد تهاوت وأنه وقع على الأرض حقيقة . . . ويروى جريجورى أنه نام مرة وزجاجة من الماء الساخن على قدميه ، فرأى فى الحلم أنه يصعد قمة جبل إتنا حيث كانت حرارة التربة لا تطاق . وحلم رجل آخر ، نام بعد أن وضع كمادة ساخنة على رأسه، بجماعة من الهنود الحمر ينزعون شواته ، فى حين هيئ إلى ثالث، نام فى

جلباب مبلول ، أن تيار ماء يجرفه . وكانت نوبة من نوبات النقرس طرأت فجأة فى خلال النوم سبباً قذف فى روع مريض أنه ماثل بين يدى محكمة التفتيش ممدداً على خشب التعذيب (ماكنيش) . »

ومن شأن الحجة المستندة إلى التماثل بين المنبه ومحتوى الحلم أن تزيد قوة إذا أمكن أن ندخل منبهاً حسياً ما على النائم إدخالا متعمداً فنثير عنده حلماً يتفق وهذا المنبه. ولقد سبق چيرو دى بوزارانج ، على ما يرويه ماكنيش ، إلى أمثال هذه التجارب : « ترك ركبته عارية ، فحلم أنه يسافر ليلا فى إحدى عربات البريد . وهو يلاحظ بهذه المناسبة أن المسافرين بهذه العربات يعلمون من غير شك كم تبرد ركبهم فى أثناء الليل . وفى مرة أخرى ترك مؤخر رأسه عارياً فحلم بأنه يشارك فى أداء أحد الطقوس الدينية فى الهواء الطلق — وكان من عادات البلد الذى عاش فيه أن تغطى الرأس دائماً إلا فى مثل هذه المناسبة . »

وحديثاً أورد مورى بضع ملاحظات عن أحلام عمد إلى إثارتها فى نفسه (وإن لم تؤد بضعة تجارب أخرى له إلى نتيجة ما .)

١ — هُيِّجت شفتاه وأرنبة أنفه بريشة ؛ فحلم بلون مروع من ألوان التعذيب : قناع من القطران يلصق على وجهه ثم ينزع عنه فينسلخ معه الجلد .

٢ — حُكَّ مقص على ملقاط ؛ فسمع قرع أجراس ، ثم دقات ناقوس الخطر ، ثم إذا هو يعود إلى أيام [ثورة] يونيه من عام ١٨٤٨ .

٣ — أدنى ماء الكولونيا من شمه ؛ فرأى نفسه فى القاهرة فى محل جان ماريا فارينا ، ثم تبعت ذلك مغامرات مجنونة لم يستطع ذكرها .

٤ — قرص عنقه قرصاً خفيفاً ؛ فحلم بدهان من الخردل يوضع عليه ، وفكر فى طبيب كان يعالجه فى طفولته .

٥ — قرب حديد موقد من وجهه ؛ فحلم بجماعة من « الموقدين »[١] اقتحموا المنزل وأرغمو أصحابه على تسليم نقودهم بزج أقدامهم فى السعير ، وعندئذ دخلت دوقة آبرانتس التى كان يعتقد فى الحلم أنه كاتب سرها .

---

(١) Chauffeurs اسم أطلق على عصابات من اللصوص انتشروا فى مقاطعة الڤانديه [فى أيام الثورة الفرنسية] وكانوا يلجأون إلى هذا اللون من التعذيب .

٨ ـ أسقطت قطرة من الماء على جبهته ؛ فأخذ يتصبب عرقاً فى إيطاليا ويشرب من نبيذ أورفيتو الأبيض .

٩ ـ أسقط نورشمعة على وجهه من خلال ورقة حمراء ؛ فحلم بسماء مكفهرة وسُعار وبعاصفة بحرية كان قد شهدها فى قناة المانش .

وروى دْرڤاى وڤيجانت وغيرهما محاولات أخرى فى إحداث الحلم بالتجريب .

ولقد عقب كثير من الكتاب على « قدرة الحلم العجيبة على أن يدخل فى نسيجه انطباعاً مفاجئاً آتياً من العالم الخارجى بحيث يظهر هذا الانطباع فى الحلم فى صورة كارثة سبق التمهيد لها وسوقها بالتدريج » (هيلد برانت) . ويمضى هذا المؤلف فيقول : « كنت أستخدم فى سنى الشباب منبهاً لكى أستيقظ فى ساعة معينة من كل صباح . ولقد حدث مئات من المرات أن أدرج الصوت المنبعث عن هذه الآلة فى حلم يبدو بالغ الطول مترابط الأجزاء إدراجاً محكماً ، حتى ليهيأ إلينا أن الحلم كله إنما كان يمهد لهذا الصوت خاصة ، وأنه قد وجد فيه حده المنطقى اللازم أو خاتمته الطبيعية المرسومة . »

هذا ولن ألبث طويلا دون أن أذكر فى مناسبة أخرى ثلاثة من أحلام رنين المنبه هذه.

ويقول فولكلت (١٨٧٥ ، ١٠٨) : « حلم مؤلف موسيقى بأنه فى حجرة الدراسة يحاول توضيح مسألة من المسائل لتلامذته . فلما فرغ استدار إلى أحد الصبية يسأله : هل فهمتنى ؟ فصرخ الصبى كمن به مس : أُه يا ! [أى نعم] ، فطفق الحالم يعنف الولد على هذا الصراخ المزعج ، ولكن الفصل بجميعه انطلق فى صرخات كانت فى أول الأمر : أُر يا ! ، ثم صارت أوير يو ! ، ثم فوير يو! [(١)] » . وهنا أيقظت النائم صرخات استغاثة من النار كانت تنبعث من الطريق حقيقة . »

وينقل رادشتوك عن جارنييه (١٨٦٥) أن انفجاراً أيقظ نابليون الأول وهو نائم فى إحدى العربات من حلم رأى فيه أنه يعبر [نهر] التاليامنتو تحت ضرب المدافع النمسوية إلى أن هب مذعوراً وهو يصيح : « لقد بثت الألغام تحتنا » .

ولمورى (١٨٧٨ ، ١٦١) حلم اشتهر أمره : ذلك أنه كان مريضاً يلزم الفراش فى غرفته وإلى جواره أمه ، فرأى فيما يرى النائم أن الوقت وقت حكم الإرهاب فى عهد الثورة [الفرنسية] ، وجعل يشهد بعض مناظر الموت المروعة ، ثم دُعى إلى المثول أمام المحكمة ،

---

(١) [الأولى والثانية لا معنى لها ، والثالثة هى الصرخة المألوفة عند الحريق .]

وهناك رأى روبسپيير ومارا وفوكييه - تانفيل وسائر الأبطال المفجعين لهذا العهد الرهيب . وسأله هؤلاء الحساب ، ثم بعد عدة من التفاصيل لم يعد يذكرها أدين وسيق إلى ساحة الإعدام يحيط به جمهور لا حصر له . وصعد مورى على المنصة وشده الجلاد إلى العارضة وانقلبت هذه وهوى نصل المقصلة وحس مورى برأسه يفصل من جذعه فاستيقظ فى هيلة بلغت آخر الفظاعة — فإذا هو يتبين أن رأس السرير قد سقط فأصاب عموده الفقرى عند العنق مثلما يفعل نصل المقصلة حقيقة .

ولقد كان هذا الحلم مثار مناقشة ممتعة بين لولوران وايجر ، دارت رحاها فى « المجلة الفلسفية » [١] ، وكان موضوع المناقشة هو : هل أمكن الحالم أن يحشر مادة بلغت هذا المبلغ من الثراء الفائق — على حسب الظاهر — فى البرهة الوجيزة المنقضية بين إدراك المنبه الموقظ واليقظة نفسها ؟ وكيف كان ذلك ؟

ومن شأن الأمثلة التى من هذا القبيل أن تجعل المنبهات الحسية الموضوعية الطارئة فى خلال النوم تظهر بمظهر أشد مصادر الحلم ثبوتاً ، وهى أيضاً — أعنى هذه المنبهات — تلك التى يعرف لها غير المختصين شأناً ما . فلو قد سألت رجلا من عامة المثقفين لا ألفة له بما كتب عن الأحلام : كيف تنشأ هذه ؟ لكان من المحقق أن يجيبك بإشارة إلى مثال صادفه عُلل فيه الحلم بمنبه حسى موضوعى تبينه الحالم بعد استيقاظه . وأما البحث العلمى فلا يستطيع الوقوف عند هذا الحد ، بل يرى ما يدعوه إلى إثارة أسئلة أخرى ؛ لما يلاحظه من كون المنبه الذى يطبع حواسنا فى خلال النوم لا يظهر فى الحلم بصورته الحقيقية ، بل تحل محله صورة أخرى مرتبطة به برباط ما . ولكن هذا الرباط بين منبه الحلم والحلم الناجم عن هذا المنبه إنما هو — بتعبير مورى (١٨٥٣ ، ٧٢) — : «مناسبة ما، ولكنها ليست بالفريدة المانعة .» [٢] فلو أننا نظرنا فى ثلاثة من أحلام رنين المنبه التى يرويها هيلد برانت ، لم يكن بد من السؤال : لماذا أثار المنبه الواحد ثلاثة أحلام متغايرة ؟ ولماذا أثار هذه دون غيرها ؟

يقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ٣٧) : « هأنذا فى صبيحة يوم من أيام الربيع أتروض بين الحقول الآخذة فى الاخضرار حتى أبلغ قرية مجاورة فأرى أهلها وقد برزوا فى أحسن ثيابهم وتأبطوا كتب التراتيل متوجهين زرافات إلى الكنيسة . طبعاً ! فاليوم يوم الأحد

(١) ["Revue Philosophique"]

(٢) [Une affinité quelconque, mais qui n'est pas unique et exclusive.]

وصلاة الصباح الباكر تؤذن بالبدأ . فأعقد العزم على حضورها ، بيد أنني — وقد شعرت بالحر قليلا من أثر المشى — أذهب أولا إلى الفناء المحيط بالكنيسة ألتمس نفحة من البرد . وبينما أقرأ بعض شواهد القبور سمعت قارع الأجراس يصعد البرج ، وها هو ذا جرس الكنيسة أراه فى أعلى البرج يوشك على الدق إيذاناً ببدء العبادة . إنه يظل برهة معلقاً حيث هو ، بلا حراك . ثم فجأة أخذت دقاته فى الدوى جلية نفّاذة . وكان من مبلغ جلائها ونفاذها أنها أطارت نومى — ولكن الرنين كان رنين المنبه فى الساعة الموعودة .

« وها هو ذا مثال ثان : اليوم يوم وضىء من أيام الشتاء ، والشوارع يكسوها ثلج سمك . وكنت على موعد والبعض لنزهة فى مزلقة . وكان علىّ أن أنتظر فترة طويلة قبل أن يعلن مجىء المزلقة بالباب . ويبدأ إعداد المزلقة لركوبها : سجادة الفراء تبسط ، ومدافئ الأقدام تعد ، وفى النهاية أتخذ مكانى . ومع هذا ظلت لحظة الرحيل مرجأة ، إلى أن هُزت اللجم تؤذن للخيول المترقبة بالانطلاق . وتنطلق هذه وتهز أجراس المزلقة هزًّا عنيفاً ، مرسلة جلجلتها المألوفة الأشبه بموسيقى الانكشارية — مرسلة إياها فى عنف كان من أثره أن تمزقت شبكة الحلم العنكبوتية فى لمحة البصر تمزيقاً . ومن جديد لم يكن غير المنبه برنينه الحاد .

« ومثال ثالث : أرى خادماً تتقدم فى البهو المؤدى إلى غرفة الطعام وهى تحمل عشرات من الأوانى الخزفية رُص بعضها فوق بعض . وبدا لى أن عمود الخزف الذى تحمله بين ذراعيها فى خطر من أن يختل توازنه ، فصحت محذراً : انتبهى وإلا سقط حملك كله ! وتعقب هى بالطبع بالجواب المحتوم : إنها قد ألفت مثل هذا العمل من قبل . . . إلخ . وفى أثناء ذلك أستمر على متابعة هذا التأرجح بعين قلقة . ولا يخيب ظنى . فها هى ذى تعثر بعتبة الباب وتتزلق الأوانى الهشة وتقعقع وتقرقع متناثرة على الأرض فى مئات من القطع . ولكنى لا ألبث أن أتبين أن هذا الدوى الذى لا ينتهى ليس قرقعة بل رنيناً حقيقياً — رنيناً أعلم منه وأنا أعود إلى نفسى المستيقظة أن المنبه يؤدى واجبه . »

ويكاد السؤال عن السبب الذى من أجله تخطئ النفس فى الحلم طبيعة المنبهات الحسية الموضوعية أن يلقى جواباً واحداً من شترومبل وڤونت جميعاً . وهذا الجواب هو أن استجابة النفس فى الحلم تجاه ما يصل إليها من المنبهات فى أثناء النوم تتم تحت شروط تعين على تكوين الأوهام . ذلك لأننا نعرف انطباعاً حسياً ما ، نفسره تفسيراً صحيحاً ، أى ندرجه فى طائفة الذكريات التى ينتمى إليها بحسب خبراتنا السابقة جميعها ، إذا توافر لهذا

الانطباع حظ كاف من القوة والجلاء والدوام ، وإذا توافر لنا وقت يكفى عملية تعرفه . فإذا انتفى هذان الشرطان أخطأنا الموضوع الذى يصدر عنه الانطباع ووهمنا فيه . « فلو أن رجلا خرج إلى الحقول فرأى عن بعد موضوعاً ما رؤية غير متميزة ، فقد يظنه فى مبدأ الأمر حصاناً . » فإن قرب منه فقد يفسره ببقرة راقدة ، ثم قد ترتد الصورة أخيراً على وجه التحديد إلى جماعة من الناس جلوس على الأرض . وهكذا الشأن فى الانطباعات التى تتلقاها النفس أثناء النوم ، فطبيعتها تخلو بالمثل من التحديد ، وعلى أساسها تقيم النفس الأوهام ، من حيث إن الانطباع يثير عدداً كبيراً أو صغيراً من الصور الذكروية التى من طريقها تحصل للانطباع قيمته النفسية . ولكن من أى طائفة من عديد طوائف الذكريات التى تدخل عندئذ فى الاعتبار سوف تستثار الصور التى تنسب إلى الانطباعات ؟ وأى روابط من روابط التداعى سوف تعمل عملها فى ذلك ؟ هذا أيضاً ما يظل فى نظرية شترومپل من غير تحديد ، كأنه أمر متروك لأهواء النفس .

وهنا نواجه اختياراً بين أحد أمرين : فإما أن نسلم تسليمنا بحقيقة واقعة بأن من المحال متابعة القوانين التى تحكم تكوين الأحلام إلى أبعد من هذا المدى ، وعلى ذلك نمتنع عن البحث فيما إذا كانت هناك شروط أخرى تحتم التفسير الذى يخلعه الحالم على الوهم الذى استدعاه الانطباع الحسى ، وإما أن نقدر أن المنبه الحسى الذى يبلغ النائم إنما هو مصدر متواضع فى توليد الحلم وأن هناك عوامل أخرى تحدد اختيار الصور الذكروية التى تثار فيه . والحقيقة هى أننا إذا فحصنا أحلام مورى المحدثة بالتجريب — وهى أحلام أفضت فى ذكرها من أجل هذا الغرض — رأينا ما يغرينا بالقول : إن التجربة لاتبين فى الحقيقة سوى مصدر عنصر واحد من عناصر الحلم ، وأما سائر محتواه فيبدو أكثر استقلالا وأكثر تعيناً فى جزئياته من أن يعلله اقتضاء واحد كضرورة موافقته للعنصر المدخل من الخارج بالتجريب . نعم إن المرء لا يلبث أن يتشكك فى نظرية الوهم وفى قدرة الانطباعات الموضوعية على تشكيل الحلم حين يرى أن هذه الانطباعات تخضع أحياناً فى الحلم لأغرب التفاسير وأبعدها . مثال ذلك ما يحدثنا به م . سيمون من حلم رأى فيه أشكال عمالقة جلسوا إلى مائدة وسمع لأفكهم طقطقة رهيبة وهم يمضغون ، فلما استيقظ سمع حوافر حصان يركض قريباً من نافذته . فإذا كان وقع حوافر الحصان قد أثار فى هذه الحالة بالذات أفكاراً من نطاق الذكريات المحفوظة عن « رحلات جاليفر » ، مثل الإقامة بين عمالقة

« بروبدينجناج » والإقامة بين المخلوقات الفاضلة المصورة على صورة الجياد — هذا إذا جاز لى أن ألتى بتخمين محض دون سند من الحالم نفسه — أفلا يرجح أن تكون هناك دوافع أخرى عدا المنبه الموضوعى هى التى سهلت انتقاء طائفة من الذكريات هذا مدى بعدها عن المألوف [1] ؟

٢ — التهييجات الحسية الداخلية (الذاتية)

من الواجب أن نسلم بأن نصيب المنبهات الحسية الموضوعية فى إثارة الحلم يظل غير منازع ، مهما كان من أمر اعتراضاتنا . وإذا كانت مثل هذه المنبهات تبدو من حيث طبيعتها ومدى ترددها غير كافية فى تعليل كل صور الحلم ، فإنما يحثنا ذلك على أن نلتمس للحلم مصادر أخرى تعمل مثل عملها . ولست أدرى متى انبعثت للمرة الأولى الفكرة الداعية إلى أن يحسب حساب التهييجات الداخلية (الذاتية) لأعضاء الحواس إلى جانب المنبهات الحسية الخارجية ، ولكن الواقع هو أن جميع المؤلفات الحديثة فى علـيَّة الحلم تنص على ذلك نصًّا صريحاً ينقص فى صراحته أو يزيد . فيقول ڤونت (١٨٧٤ ، ٦٥٧) : « وأعتقد أن جزءاً جوهريًّا من أوهام الحلم يرجع كذلك إلى الإحساسات الذاتية البصرية والسمعية التى نألفها فى حال يقظتنا فى صورة نقاط وضاءة تسرح فوضاها فى حقل البصر إذا أظلم ، أو طنين أو صفير فى الأذن ، إلى آخر هذه الإحساسات التى تدخل ضمنها التهييجات الذاتية للشبكية بنوع خاص . وهذا هو ما يعلل ميل الحلم الملحوظ إلى أن يبهر أبصارنا بموضوعات زاخرة تماثل هذه الإحساسات أو لا تفترق منها ، فينشر أمامنا عدداً لا حصر له من الطيور أو الفراشات أو الأسماك أو الخرز الملون أو الزهور ... إلخ . فالغبار المضىء فى حقل البصر المظلم قد اتخذ هنا أشكالا ممعنة فى الخيال ، والحبيبات المتكثرة التى يتكون منها هذا الغبار قد صار منها عدد يناظرها من متفرق الصور أدرج فى جوف الحلم ، وتلوح

---

(١) إن ظهور الأشخاص الذين لهم أحجام العمالقة فى الحلم يجعلنا نقدر أن الحلم يمس مشهدا من طفولة الحالم .

ويبقى بعد ذلك أن التفسير الذى أوردته لهذا الحلم بالإشارة إلى ذكريات من رحلات جاليڤر مثال طيب لما يجب ألا يكون عليه تفسير الحلم : فن الواجب على من يفسر الحلم ألا يطلق العنان لقريحته مهملا مستدعيات الحالم .

هذه الصور فى هيئة موضوعات متحركة ؛ لحركة هذا الخليط كله . وهذا ولا شك هو أيضاً الأساس فى ولع الحلم العظيم بصور الحيوان على أنواعها ؛ لأن فى هذه الصور من التنوع والثراء ما يستطيع أن يجارى من غير عناء الأشكال المغربة التى تتخذها الصور الضوئية الذاتية . »

وللتهييجات الحسية الذاتية من حيث هى مصدر من مصادر صور الحلم مزية واضحة على المنبهات الموضوعية ؛ فهى لا تتوقف على مثل هذه الصدف الخارجية ، بل تقف طوع اليد — إن جاز التعبير — كلما دعت إلى ذلك حاجة التعليل . ولكنها لا تخرج غانمة من مقارنتها بالمنبهات الحسية الموضوعية ، من حيث أن نصيبها فى إثارة الحلم يصعب إثباته بالملاحظة والتجريب بل يتعذر ، على عكس الحال فى المنبهات الموضوعية . فالشاهد الوحيد الذى يؤيد قوة التهييجات الحسية الذاتية على إثارة الحلم يتلخص فيما يعرف باسم هلاوس ما قبل النوم التى يصفها يوهانس موللر بقوله : إنها « ظواهر خيالية بصرية » . وهذه الظواهر صور يغلب أن تكون شديدة الوضوح ، سريعة التغير ، تنزع إلى الظهور — ظهوراً مطرداً عند الكثير من الناس — فى فترة الأخذ فى النوم ، وقد تدوم أيضاً برهة بعد فتح العينين . ولقد درس مورى هذه الظواهر التى كانت تعرض له كثيرا ، وانتهى إلى توكيد صلتها بصور الحلم بل وحدتهما (مثلما صنع موللر من قبله) . ويقول مورى : إن إحداث هذه الظواهر يستلزم قدراً معيناً من الاستسلام النفسى ، بعضاً من الإرخاء لجهد الانتباه (١٨٧٨ ، ٥٩ وما يليها) . بيد أنه يكفى أنه تحل بالمرء حالة سبات من هذا القبيل لا تزيد مدتها على الثانية لكى تقع إليه هلوسة قبنومية (بشرط أن يكون عنده الاستعداد الضرورى) ، وقد يستيقظ المرء بعد ذلك مرة ثانية ، ويتكرر هذا اللعب ، إلى أن يضع له النوم حدا . ووجد مورى أنه كان إذا عاد إلى الاستيقاظ بعد برهة ليست بالطويلة أمكنه أن يتبين فى حلمه ذات الصور التى تأرجحت أمام ناظريه فى صورة هلاوس قبنومية ، قبل أن يأخذه النوم (ص ١٣٤ ذات المرجع) . فى ذات مرة أخذت أشكال ممسوخة شاهت وجوهها وتقلنست بقلنسوات غريبة الهيئة ، أخذت تلح عليه قبل أن يغلبه النوم فى لجاجة تفوق التصور ، فلما استيقظ تذكر أنه قد حلم بها . وفى مرة أخرى — وكان يعانى ألم الجوع فقد أخذ نفسه بنظام محدد فى التغذية — لاحت له رؤيا قبنومية من طبق ويد مزودة بشوكة تتناول منه الطعام ، فلما نام حلم بمائدة حافلة وسمع صوت

الآكلين بأشواكهم . وحدث بعد فى مرة ثالثة أنه شرع فى النوم وعيناه مهتاجتان موجعتان فتراءت له هلوسة قبنومية عن علامات غاية فى الدقة لم يستطع فكها إلا واحدة فواحدة بمشقة بالغة ، فلما استيقظ بعد ساعة من النوم تذكر حلماً رأى فيه كتاباً طبع بحروف صغيرة جدا كان يقرأها بمشقة بالغة .

ولقد تخطر قبيل النوم أيضاً هلاوس سمعية بألفاظ أو أسماء أو غيرها — على نحو ما تفعل الصور البصرية — ثم تتردد هذه الهلاوس بعد ذلك فى حلم ما ، مثلما تعلن فاتحة عن رؤوس الموضوعات النغمية المقدر سماعها فى الأوبرا اللاحقة .

وعلى منهاج شترومبل وموري نهج باحث أحدث عهداً هوج. ترمبال لاد . فقد أمكنه ببعض المرانة أن يفلح فى إيقاظ نفسه فجأة دون أن يفتح عينيه بعد أن ينام نوماً تدريجيا ، تتراوح مدته بين الدقيقتين والخمس دقائق ، وبذا أمكنته المقارنة بين الأحاسيس الشبكية التى تكون آخذة فى الامحاء آنئذ وصور الحلم المتبقية فى الذاكرة . وهو يؤكد أننا نجد فى كل حالة علاقة باطنية بين الطرفين : فنقاط الضوء الشبكى أو خيوطه تزودنا — إن جاز التعبير — برسم مجمل أو بيانى للأشكال المدركة فى الحلم إدراكاً نفسيا . مثال ذلك حلم رأى فيه نفسه منكبا على قراءة سطور مطبوعة انتشرت أمامه فى وضوح ، وكانت تقابل هذا الحلم فى الشبكية مجموعة من النقاط المضيئة تنضدت فى خطوط متوازية ، أو بتعبيره نفسه : لقد حالت الصفحة المطبوعة طبعاً جليا فى الحلم إلى موضوع لاح لإدراكه المستيقظ كأنه قصاصة من صفحة مطبوعة حقيقة ، ينظره إليها المرء من خلال ثقب فى ورقة ، على مسافة لا تسمح له بأن يستخلص منها شيئاً ما استخلاصاً واضحاً . ويرى لاد — دون أن ينتقص شأن العوامل [المخية] المركزية — أنه لا يكاد يكون ثمت حلم بصرى واحد لا تشارك فيه مادة مصدرها التهييج الداخلى لشبكة العين . ويصدق ذلك بنوع خاص على الأحلام التى تعقب النوم فى غرفة مظلمة ، وأما مصدر التنبيه فى الأحلام التى تقع فى الصباح قبيل الاستيقاظ ، فهو الضوء الموضوعى الذى ينفذ إلى العينين فى غرفة أخذ يغمرها النور . وإن ما يتميز به تهييج الضوء الشبكى من طابع التغير والتقلب غير المنقطعين ليساير ما تطالعنا به الأحلام من التعاقب المستمر للصور أدق مسايرة . فإذا علقنا على ملاحظات لاد هذه أهمية ، لم نستطع الاستهانة بما لهذه المصادر الذاتية للتنبيه من أثر فى

الحلم ؛ فالصور كما نعلم هى المقوم الرئيس للأحلام . وأما نصيب الحواس الأخرى – فيما خلا السمع – فقليل الأهمية ، غير موصول .

٣ – المنبهات الجسمية الداخلية العضوية

أما وقد أخذنا نلتمس مصادر الحلم فى داخل الكائن العضوى وليس خارجه ، فمن الواجب علينا أن نذكر أن جميع أعضائنا الباطنة على التقريب – وإن تكن لا تكاد توقفنا على شىء من أمرها وهى فى حالة الصحة – تصبح مصدراً لإحساسات ذات نوع أليم فى الأغلب إذا اتفق وجودها فيما نسميه حالات التهييج أو فى خلال المرض ؛ ولهذا وجبت مساواتها بالمنبهات الحسية أو الأليمة التى تصل إلينا من الخارج. ولا يعدو شترومپل أن يعرب عن خبرة قديمة قدم الزمن إذ يقول (١٨٧٧ ، ١٠٧) : « إن النفس تصير فى أثناء النوم أعمق وأشمل إحساساً بجسميتها منها فى يقظتها ، وهى تضطر فى خلاله إلى أن تستقبل ما لا حس لها به فى يقظتها من انطباعات تصدر عن أجزاء من الجسم أو عما يصيب الجسم من التغييرات ، وتضطر إلى التأثر به » ؛ فقد كان من رأى أرسطو على مبلغه من القدم أن من الممكن كل الإمكان أن يستشعر المرء فى أحلامه مبادئ مرض لم يستطع أن يلحظ شيئاً منها فى حياة اليقظة ، وذلك لما يصيب الانطباعات من التجسيم على يد الحلم (انظر ما سبق فى ص ٤٤) . وهناك كتاب أطباء لا شك فى بعدهم عن الاعتقاد بقدرة الأحلام على التنبؤ ، وهم مع هذا قد سلموا لها بهذه الدلالة فيما يتعلق بالإنباء بالمرض على الأقل . (أنظر سيمون ، ١٨٨٨ ، ٣١ وكثيراً من المؤلفين السابقين عليه .)[١]

---

(١) من الواجب أن نذكر أهمية الأحلام العلاجية بين القدماء ، إلى جانب ما كان يعزى إليها (عند هيپوقراط مثلا) من هذه القيمة التشخيصية .

لقد كانت عند اليونان معابد تقضى فيها كهانة الأحلام . وكان من عادة المرضى أن يزوروا هذه المعابد ، فيدخل المريض معبد أبوللو أو آيسكلابيوس ، وهناك يؤدى طقوسا مختلفة ، فيغسل ويدلك ويعطر ثم يمد وقد أخذته الآخذة على جلد كبش قدم قربانا . ثم بعد ذلك يستسلم المريض للنوم ، فيحلم بعقاقير شافية قد تتراءى له فى أشكالها الطبيعية أو فى رموز وصور يتولى الكاهن عندئذ تفسيرها .

وللاستزادة فى موضوع الأحلام المطببة عند اليونان انظر : ليمان (١٩٠٨ ، ١ ، ٧٤) وبوشيه لوكلير وهرمان (١٨٥٨ ، ٤١ ثم ١٨٨٢ ، ٣٨ ، ١٦) وبوتينجر (١٧٩٥ ص ١٦٣ وما بعدها) ، ولويد (١٨٧٧)، ودولينجر (١٨٥٧ ، ١٣٠) .

ويبدو أن الأمثلة على قوة الأحلام التشخيصية لا تعدم مصدقين فى الأزمنة الحديثة . فهكذا ينقل تيسييه عن أرتيج (١٨٨٤) قصة امرأة فى الثالثة والأربعين من عمرها ظلت تعذبها أحلام هيلة [١] طوال بضع سنوات على رغم ما كان يبدو من اكتمال صحتها، ثم كان أن فحصها الأطباء فوجدوا بها مرضاً بادئاً من أمراض القلب لم يلبث أن أنفذ فيها فعله .

وأما الاضطرابات السافرة التى تصيب الأعضاء الباطنية ، فواضح أنها تعمل على إثارة الحلم فى عدد كبير من الحالات . فشيوع أحلام الهيلة وأمراض القلب والرئتين أمر يعلمه الجميع . ولقد أبرز هذا الجانب من جوانب الحياة الحالمة مؤلفون متعددون، حتى أننى أقنع بمحض الإشارة إلى ما وضع فى هذا الباب : رادشتوك ، شپيتا ، مورى ، م . سيمون ، تيسييه . بل إن من رأى تيسييه أن نوع العضو المريض يضفى على محتوى الحلم سماته الخاصة : فأحلام من يعانون أمراض القلب وجيزة فى العادة وتنتهى إلى نهاية مروعة فى لحظة اليقظة ولا يكاد يكون بينها حلم إلا تضمن محتواه بعض مواقف الموت الرهيب، وأما المصابون بأمراض الرئتين فيحلمون بالاختناق والزحام والفرار وهم يستهدفون إلى درجة ملحوظة للكابوس المألوف الذى أفلح بورنر فى إثارته إثارة تجريبية : بالنوم مستلقياً على الوجه أو بسد الفتحات التنفسية . فإذا اضطرب الهضم تضمنت الأحلام أفكاراً تتعلق بالاستمتاع بالطعام أو الاشمئزاز منه ، وأخيراً فأثر التهييج الجنسى فى محتوى الحلم شىء يستطيع كل امرئ أن يقدره حق قدره بالرجوع إلى خبرته ، وهو الذى يزود نظرية المنبهات العضوية جميعها بأقوى سندها .

وفوق هذا ، ما من أحد تغلغل فيما كتب فى هذا الموضوع إلا تبين أن بعض المؤلفين (مثل مورى وڤيجانت) قد ذهبوا إلى الاشتغال بمشكلات الحلم للأثر الذى كان لأمراضهم أنفسهم فى محتوى أحلامهم .

غير أن هذه الوقائع — وإن ثبتت من وراء كل شك — ليس لها الخطر الذى قد نظنه من حيث ما تضيفه إلى دراسة مصادر الحلم ؛ فالأحلام ظواهر تقع للأصحاء — وربما كانت تقع لهم جميعاً وربما كان وقوعها فى كل ليلة — فمن الواضح أن المرض العضوى لا يمكن أن يعد بين شروطها اللازمة . والذى يشغلنا ليس مصدر هذا الفريق من الأحلام أو ذاك ، بل المصادر الباعثة على مألوف الأحلام عند السوى من الناس .

(١) [أنظر الهامش الموضوع فى صفحة ١٨٤ عن هذه الكلمة .]

ومع هذا فما نحتاج إلا إلى أن نخطو بعد ذلك خطوة لكى نجد مورداً من موارد الحلم يفوق كل ما سبق ثراء ، مورداً يبدو كأنه لن ينضب له معين . ذلك لأنه إذا كان من المؤكد أن باطن الجسم يصير حين المرض مصدر منبهات للأحلام وكنا نسلم بأن النفس إذ تنصرف فى أثناء النوم عن العالم الخارجى تتمكن من التحول بقسط أعظم من انتباهها إلى باطن الجسم ، لم يصعب علينا أن نفترض بعد ذلك أن أعضاءنا الباطنية ليست بحاجة إلى أن تمرض أولا لكى تتمكن ثانياً من حمل النفس النائمة على أن تتلقى منها التهييجات التى تنقلب إلى صور فى الحلم على نحو من الأنحاء . فالحساسية العامة بالجسم (١) التى ندركها فى خلال اليقظة إدراكاً مبهماً فى صورة كيف غامض لمزاجنا وحسب ، والتى تشترك فى بثها أنظمتنا العضوية جميعاً – على ما يرى الأطباء – تمسى فى أثناء الليل ، إذ يشتد تأثيرها ويتميز فعل كل مقوم من مقوماتها ، أقوى المصادر الباعثة على صور الحلم وأكثرها شيوعاً. وإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا أن نستقصى القوانين التى تتحول المنبهات العضوية بمقتضاها إلى صور حلمية .

تلك – فى منشأ الحلم – هى النظرية التى تحظى بإيثار المؤلفين الأطباء قاطبة . وإن الغموض الذى يحجب عن معرفتنا لب وجودنا (" الأنا الحشوى " (٢) – بتعبير تيسييه) ، ثم هذا الذى يشمل بظلامه نشأة الحلم ليتوافقان توافقاً لم يترك للفكر مناصاً من التقريب بينهما . وسبب آخر جعل لهذه الوجهة فى التفكير التى ترجع صور الحلم إلى الإحساسات العضوية النباتية جاذبيةً خاصة فى أعين الأطباء : هو كونها تسمح بتعليل موحد للحلم وللاضطراب العقلى على السواء – وهما اللذان تكثر أوجه التطابق بين مظاهرهما أيما كثرة . ذلك أن تغيرات الحساسية العامة بالجسم وكذلك المنبهات المنبعثة من الأعضاء الباطنية تحسب لها جميعاً خطورة قصوى فى نشأة حالات الذهان أيضاً . وما من عجب بعد ذلك إذا أمكن أن نتتبع نظرية التنبيه العضوى إلى أكثر من داعية توصل إليها مستقلا .

ولقد كان للرأى الذى بسطه الفيلسوف شوبنهاور فى سنة ١٨٥١ تأثير حاسم فى فريق من الكتاب . فالصورة التى يظهر لنا العالم عليها تنشأ – وفقاً لرأيه – بأن يأخذ عقلنا الانطباعات التى تأتيه من الخارج فيصبها فى صور الزمان والمكان والعليه . ولا تحدث المنبهات

---

(١) [وهى المعروفة عندنا باسم " الحساسية الحشوية . "]

(٢) ["moi splanchnique"]

المنبعثة فى أثناء النهار من داخل الكائن العضوى ، من المجموع العصبى السمبتاوى ، إلا تأثيراً لا شعورياً فى مزاجنا على أكثر تقدير . فإذا جاء الليل ولم تعد تصم آذاننا انطباعات النهار استطاعت تلك المنبعثة من الداخل أن تجتذب الانتباه ، مثلما نسمع فى هدوء الليل خرير نبع أغرقته ضوضاء النهار . ولكن كيف للعقل أن يستجيب لهذه المنبهات إلا بأن يؤدى تجاهها وظيفته الخاصة به ؟ وعلى ذلك سوف تصاغ من هذه المنبهات موضوعات تشغل المكان والزمان وتخضع لقوانين العلية ، وهكذا تنشأ الأحلام . ولقد حاول شرنر — ومن ورائه فوللكت — أن يستقصى بعد ذلك أمر العلاقة بين المنبهات الجسمية وصور الحلم ، إلا أننى أرجئُ النظر فى هذه المحاولة إلى القسم الخاص بنظريات الحلم .

وفى بحث بلغ مبلغاً ملحوظاً من التماسك المنطقى ، قام الطبيب النفسى كراوس [١٨٥٩ ، ٢٥٥] بتتبع منشأ الأحلام والأهذية والأفكار الهجاسية إلى عامل واحد ، هو الإحساسات ذات الأصل العضوى . ومن الصعب فى رأيه أن نجد جزءاً واحداً فى الكائن العضوى يعجز عن أن يكون مبدأ حلم أو هجاس . والإحساسات الناجمة عن شروط عضوية « تجوز قسمتها قسمين : (١) تلك التى يتكون منها مزاجنا العام (الحساسية العامة بالجسم) و (٢) إحساسات نوعية خاصة بالكائن العضوى النباتى . وهذه تنقسم بدورها خمسة أقسام : (أ) إحساسات عضلية (ب) تنفسية (ج) هضمية (د) جنسية (هـ) خاصة بسطح الجسم . »

ويقدر كراوس أن نشوء صور الحلم من المنبهات الجسمية يتم على ذلك النحو : يستدعى الإحساس المثار صورة تناسبه على حسب قانون من قوانين التداعى ، ثم يتركب من هذه الصورة وهذا الإحساس بناء ذو ترابط عضوى ، إلا أن الشعور يسلك إزاء هذا المركب مسلكاً شاذاً . فهو لا يعير الإحساس انتباهاً ما بل يوجه انتباهه كله إلى الصورة المصاحبة — وهو ما يرينا فى الوقت نفسه لمَ ظل هذا الوضع خافياً علينا طيلة هذا الزمن [١] . ويبتدع كراوس اسماً خاصاً يصف به هذه العملية هو : الاستحالة الجوهرية للإحساس إلى صورة حلمية .

إن تأثير المنبهات الجسمية العضوية فى تكوين الحلم أمر يكاد ينعقد عليه الإجماع اليوم . فإذا تساءلنا عن حكم العلاقة بين الطرفين ، افترقت الإجابات ولم تعدُ أن تكون

(١) [بمعنى أن انصراف الانتباه عن الإحساس جعل نصيب هذا الإحساس فى نشأة الحلم يخفى علينا .]

منطوقات غامضة فى الكثير من الأحيان . وذلك لأن تفسير الحلم تقع عليه الآن – بناء على نظرية التنبيه العضوى – مهمة خاصة ، هى تأثر محتوى الحلم إلى المنبهات العضوية التى أحدثته ؛ فإذا لم يأخذ المرء بقواعد التفسير التى نص عليها شرنر [أنظر ص ١١٥وما بعدها] رأى المرء نفسه فى أحيان كثيرة يواجه تلك الواقعة الشائكة : وهى أن الشيء الوحيد الذى ينم على وجود المنبه العضوى هو على التحديد محتوى الحلم نفسه ليس غير .

بيد أن هناك قدراً لا بأس به من الاتفاق على تفسير الأنواع المختلفة من الأحلام المسماة أحلاماً « نمطية » لأنها تقع لأناس كثيرين مع تماثل كبير فى محتواها . مثال ذلك تلك الأحلام المألوفة بالسقوط من عل أو بوقوع سن أو بالطيران أو بارتباك المرء لعريه أو نقص ردائه . فهذا الحلم الأخير يعزى من غير مزيد إلى كون النائم يدرك أنه قد نحى الغطاء فى أثناء نومه فاستهدف للهواء . ويعزِي الحلم بسقوط الأسنان إلى منبه« سنى » – وإن لم يعن هذا بالضرورة أن هياج الأسنان الذى ينجم عنه الحلم هياج مرضى . وفى رأى شترومپل أن حلم الطيران هو الصورة التى تراها النفس ملائمة لتفسير التنبيه الناجم عن صعود الرئتين وهبوطهما فى وقت تهن فيه الأحاسيس الجلدية للقفص الصدرى حتى لا نعود نشعر بها – وهذه الملابسة الأخيرة هى ما يؤدى إلى الإحساس المقترن بفكرة الطواف فى الهواء . وأما حلم السقوط من عل ، فيقال : إن مرجعه هو أنه قد يتفق فى غياب الشعور بأحاسيس الضغط الجلدى أن يمتد ذراع بعيداً عن الجسم أو تنبسط ركبة على غرة بعد انقباض ، ويكون من نتيجة هذه الحركة أو تلك أن يعود الإحساس بالضغط الجلدى إلى الشعور ، فيصوّر هذا الانتقال إلى الشعور تصويراً نفسياً بحلم السقوط (شترومپل ، ١٨٧٧ ، ١١٨) . وموطن الضعف الواضح فى هذه المحاولات على وجاهتها هو كونها تجعل هذه المجموعة من الأحاسيس العضوية أو تلك تدخل فى نطاق الإدراك النفسى أو تغيب عنه ، إلى أن يتوافر لها المزيج الذى يوائم التعليل المنشود للحلم . وذلك دون استناد إلى أى شاهد آخر سوي ما تقول . وسوف تعرض لى فيما بعد فرصة العود إلى مسألة الأحلام النمطية ومنشئها . [أنظر صفحة٢٥٨ وما بعدها .]

ولقد حاول م . سيمون أن يستخلص بعض القواعد التى بمقتضاها تحتم المنبهات العضوية محتوى الأحلام الناجمة عنها ، وذلك بالمقارنة بين طائفة من أمثال هذه الأحلام ، فيقول (١٨٨٨ ، ٣٤) : إذا اتفق فى أثناء النوم أن جهازاً عضوياً يشارك مشاركة سوية

فى الإعراب عن انفعال ما قد هيجته علة خارجية التهييج الذى يقع له عادة بتأثير ذلك الانفعال ، جاء الحلم مشتملا على صورة تلائم الانفعال .

وتنص قاعدة أخرى (ص ٣٥) على أنه : إذا نشط فى أثناء النوم أحد الأعضاء أو هيج أو أزعج ، أتى الحلم بصور تتعلق بممارسة الوظيفة التى يقوم بها هذا العضو .

ولقد حاول مورلى فولد أن يثبت هذا التأثير الذى تقول به نظرية التنبيه الجسمى فى إحداث الحلم إثباتاً تجريبياً فى دائرة معينة ؛ فكان يغير وضع أطراف النائم فى أثناء النوم ثم يقارن بين التغييرات التى يحدثها والأحلام الناجمة عنها . وانتهى من ذلك إلى هذه النتائج :

١ ــ يطابق وضع الطرف الجسمى فى الحلم وضعه فى الحقيقة مطابقة تقريبية ، مثال ذلك أننا نرى العضو فى الحلم ساكناً وهو فى الحقيقة كذلك .

٢ ــ إذا حلم المرء بأن طرفاً من أطرافه يتحرك ، جاء أحد الأوضاع التى يمر بها الطرف فى حركته هذه مطابقاً وضعه الحقيقى .

٣ ــ قد ينسب الوضع الذى يوجد عليه طرف الحالم نفسه إلى شخص سواه .

٤ ــ قد يحلم الحالم بعائق يعوق الحركة التى يدخلها المجرب .

٥ ــ قد يظهر الطرف فى الحلم ، بعد أن يتخذ وضعاً تجريبياً ، فى صورة حيوان أو مسخ ، وفى هذه الحالة يثبت وجود تماثلٍ ما بين الحدين .

٦ ــ يثير وضع الطرف أفكاراً فى الحلم لها بعض الصلة بهذا الطرف : مثال ذلك أننا نحلم بالأعداد إذا أدخل التغيير على الأصابع .

والذى أجنح إلى استخلاصه من أمثال هذه المكتشفات هو أن نظرية التنبيه الجسمى نفسها لا تنجح كل النجاح فى رفع ما يبدو عليه اختيار الصور المحدثة فى الحلم من مظهر التحرر من الحتم [1] .

٤ ــ المصادر النفسية للتنبيه

علمنا ونحن ننظر فى علاقة الحلم بحياة اليقظة وفى منشأ مادته أن بحثة الحلم ــ لا فرق فى ذلك بين الأقدمين منهم والمحدثين ــ يرون أن الناس يحلمون بما يصنعون نهاراً ، وبما يشغل اهتمامهم وهم أيقاظ . هذا الاهتمام المنقول من حياة النهار إلى النوم ليس قيداً نفسياً

(١) لقد نشر هذا المؤلف منذ ذلك الحين مجلدين ضمنهما تجاربه أشير إليهما فيما بعد . [أنظر ص ٢٤٣ فى الهامش .]

وحسب ، رباطاً يشد الحلم إلى الحياة ، إنه أيضاً مورد من موارد الحلم لا يبخس قدره ، مورد ربما كان كافياً أن يعلل صور الحلم جميعاً لو أننا أضفنا إليه الأشياء التى ينجذب إليها اهتمام النائم ، أى المنبهات التى تعمل عملها فى خلال النوم . بيد أننا سمعنا أيضاً نقيض هذا الرأى : سمعنا أن الحلم يبعد النائم عن اهتمامات النهار وأن القاعدة هى أننا لا نبدأ نحلم بالأشياء التى تشغل جل اهتمامنا فى النهار إلا بعد أن تفقد ما يمتاز به كل طريف من قدرة على الإثارة. وهكذا نصادف فى كل خطوة نخطوها فى سبيل تحليلنا للحياة الحالمة ما يشعرنا بأنه قد حرم علينا أن نضع قاعدة عامة بغير التحوط بقيود من « كثير » و « عادة » و « فى معظم الأحيان » ، ودون أن نهيئ أنفسنا للتسليم بصحة الشواذ .

ولو أن اهتمامات اليقظة بالإضافة إلى المنبهات الحادثة فى خلال النوم داخلية وخارجية كانت تكفى معاً فى استغراق علل الحلم ، لوجب أن نكون فى موقف يسمح لنا بتبيان أصل كل عنصر من عناصر الحلم تبياناً شافياً ولحل بذلك لغز مصادر الأحلام ، فلا يبقى إلا أن نحذر نصيب كل من المنبهات النفسية والجسمية فى هذا الحلم الجزئى أو ذاك . ولكن الواقع أنه ما من حلم لقى حتى اليوم مثل هذا التعليل الكامل ، وما من أحد حاوله إلا تبقت بين يديه فقرات من الحلم — وفقرات كثيرة جداً فى العادة — لا يستطيع أن يقول فى أصلها حرفاً . فمن الواضح أن اهتمامات النهار — من حيث هى مصدر نفسى من مصادر الحلم — بعيدة كل البعد عن أن تكون لها هذه القيمة القصوى التى قد يتوقعها المرء إذ يسمع ما يتحدث به كل منا جازماً من انشغاله فى أحلامه بأعمال نهاره .

ولكننا لا نعرف للحلم مصادر نفسية أخرى . ونتيجة ذلك هى أن كل تعليلات الحلم المضمنة فيما كتب عن هذا الموضوع — باستثناء تعليل شرنر الذى نعرض له فيما بعد [ص ١١٥ وما بعدها] — تترك فراغاً كبيراً حيثما يتعلق الأمر بتعيين منشأ الصور المتخيلة التى هى أكبر مادة تميز الحلم . وفى هذا المأزق صار أغلب الكتاب ينزعون إلى خفض نصيب العوامل النفسية من إثارة الحلم قدر الإمكان ؛ لصعوبة الاهتداء إلى هذه العوامل . نعم ، إنهم يقسمون الأحلام طبقتين رئيسيتين : أحلام ترجع إلى تنبيه عصبى وأخرى مرجعها التداعى ، وهذه الأخيرة ليس لها من مصدر سوى الاستحضار [1] (ڤونت ، ١٨٧٤ ، ٦٥٧) ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون التخلص من الشك « فيما إذا كانت هذه الأحلام تملك

(١) [استحضار ما سبقت خبرته فى الماضى .]

الظهور بغير دفعة من منبه جسمى » (فوللكت ١٨٧٥ ، ١٢٧) . لا ، بل حتى إمكان الوصف يؤبى على أحلام التداعى المحض ، فيقول فوللكت (ص ١١٨) : « وأما أحلام التداعى بالمعنى الصحيح فلا تترك مجالا للحديث عن مثل هذه النواة الراسخة [المستمدة من التنبيه الجسمى] ، بل يكون مركز الحلم نفسه واهى التماسك . فالحياة الفكرية التى لا تعرف فى الحلم عامة ضابطاً من عقل أو فهم لا تجد هنا ولو تهييجاً جسمياً أو نفسياً ذا أهمية نسبية يحفظ تماسكها ، وهكذا تترك لانسيابها وتلاحقها المتقلبين ولتداخلها الفوضوى فيما بينها . » ويحاول ڤونت أيضاً أن ينقص شأن العامل النفسى فى إثارة الأحلام إذ يقول (١٨٧٤ ، ٦٥٦) : « ومن الخطأ أن تعد تهاويل الحلم هلاوس صرفة . فالأرجح هو أن معظم صور الحلم إنما هى فى الحقيقة أوهام حسية ، من حيث إنها تتفرع عن الانطباعات الحسية الواهنة التى لا تخبو أبداً فى أثناء النوم . » ويعمم ڤيجانت هذا الرأى على جميع صور الحلم فيقول (١٨٩٣ ، ١٧) : « إن عللها الأولى منبهات حسية ، ولا ترتبط المستدعيات المستحضرة بهذه المنبهات إلا من بعدُ . » ويزيد تيسييه فى خفض نصيب المصادر النفسية للتنبيه ، فيقول (١٨٩٨ ، ١٨٣) : « إن الأحلام ذات الأصل النفسى الخالص شىء لا وجود له » [١] ، وفى موضع آخر (ص ٦) : « إن الأفكار المشتملة عليها أحلامنا تجىء إلينا من الخارج . . . » [٢]

ولا يفوت المؤلفين الذين يتخذون موقفاً وسطاً ، مثل الفيلسوف العظيم الأثر ڤونت ، أن يلاحظوا أن المنبهات الجسمية والبواعث النفسية (سواء أكانت خافية أم كانت واضحة الصلة بمشاغل النهار) تعمل متآزرة فى معظم الأحلام .

وسوف نعلم فيما بعد أن لغز تكوين الحلم يمكن حله بالكشف عن مصدر نفسى للتنبيه لم يتجه إليه التفكير . وإلى أن يتم ذلك لن تدهشنا المغالاة فى تقدير نصيب المنبهات غير الناشئة عن الحياة النفسية فى تكوين الأحلام ؛ فمثل هذه المنبهات ليست أسهل على الكشف وحسب — فضلا عن إمكان التحقق منها بالتجريب — بل إن النظرة الجسمية إلى الحلم تتسق والنزعة الغالبة اليوم فى مجال الطب النفسى أكمل اتساق . نعم إن من الحق أن الجميع يؤكد اليوم سيطرة المخ على الكائن العضوى أقوى التوكيد ، بيد أن كل ما قد

---

(١) [Les rêves d'origine absolument psychique n'existent pas]

(٢) [Les pensées de nos rêves nous viennent du dehors...]

يشتم منه أن للحياة النفسية أى استقلال عن التغييرات العضوية الممكن إثباتها بالبرهان أو أى تلقائية فى مظاهرها يثير اليوم ذعر الطبيب النفسى ، كما لو كان التسليم بمثل هذه الأشياء يسترجع بالضرورة أيام فلسفة الطبيعة وأيام النظرات الميتافيزيقية فى جوهر النفس . وهذا الحذر من جانب أطباء النفس قد كان من أثره أن صارت النفس تحت الوصاية — إن جاز التعبير . فليس ينبغى اليوم أن تنم خلجة من خلجاتها عن أية قدرة خاصة بها . غير أن هذا المسلك منهم إن دل على شىء فعلى قلة إيمانهم بصدق الرباط بين ما هو جسمى وما هو نفسى . فالبحث وإن أرانا اليوم أن العلة الأولى لظاهرة من الظواهر هى علة نفسية ، فتعمقه كفيل أن يوفق حيناً إلى متابعة الطريق حتى العثور على الأساس العضوى للحدث النفسى . ولكن إذا لم يكن لمعرفتنا اليوم منتدح عن الوقوف عند ما هو نفسى ، فهل يكون ذلك سبباً فى نبذها ؟

د

لماذا ينسى الحلم بعد اليقظة

أن الأحلام « تتبدد » فى الصباح ، هذه حقيقة صارت مضرب الأمثال . نعم إن تذكر الحلم أمر يدخل فى حيز المستطاع ؛ فما نعلم الحلم إلا بتذكره بعد الاستيقاظ ، ولكننا نشعر فى الكثير الشائع من الأحيان بأننا لم نتذكر الحلم إلا تذكراً ناقصاً وأن ما ضاع منه يربو على ما يتبقى . وفى مقدورنا فوق ذلك أن نتذكر كيف تضمحل ذكرى الحلم فى سياق النهار — وكانت لم تزل حية فى الصباح — فلا تتخلف منها سوى نبذ قليلة ضئيلة . وفى أحيان كثيرة نعلم أننا حلمنا ، دون أن نعلم بماذا حلمنا . ولقد بلغ من مدى ألفتنا بكون الأحلام عرضة للنسيان أن صرنا لا نرى تناقضاً ما فى القول بإمكانية أن يكون امرؤ قد حلم فى خلال الليل على حين أنه لا يعلم شيئاً من محتوى حلمه ولا أن حلماً قد أتى . هذا ، بينما يتفق من جهة أخرى أن تبدى الأحلام قدرة خارقة على الثبات فى الذاكرة ؛ فقد حللتُ أحلاماً لمرضاى وقعت منذ خمسة وعشرين عاماً أو تزيد ، وأستطيع أن أذكر حلماً لى نفسى تفصل بينه وبين الآونة الحاضرة سبع وثلاثون سنة على الأقل ، وهو مع هذا لم يفقد شيئاً من نضارته فى ذاكرتى . كل هذا عجيب أشد العجب ، ولا يدنو للفهم للوهلة الأولى.

وشترومپل أكثر من فصل الكلام فى نسيان الأحلام . ومن الواضح أن هذا النسيان ظاهرة مركبة ؛ فشترومپل لا يرجعه إلى علة مفردة بل إلى عدة من العلل .

وأول ما يذكر من هذه جميعُ العلل التى ينتج عنها النسيان فى حياة اليقظة كذلك . فمن عاداتنا ونحن مستيقظون أن نسارع إلى نسيان عدد من الأحاسيس والمدركات يفوق الحصر ؛ إما لضعفها أو لقلة التهييج النفسى المقترن بها . وهذا عينه يصدق على الكثير من صور الحلم : فنحن ننساها لأنها أضعف من أن تحفظ فى حين نحفظ ما قد يجاورها من صور أشد قوة . بيد أن عامل الشدة فى ذاته لا يحتم بقاء صور الحلم. فشترومپل يسلم ويسلم معه غيره من الكتاب (كالكينز) بأننا كثيراً ما ننسى صوراً من الحلم نعلم أنها كانت موفورة الحظ من الشدة ، فى حين أن بين المتبقيات فى الذاكرة عدداً وفيراً من صور هى إلى أن تكون ظلالا من صور أشبه ، فقيرة فى قوتها الحسية . ثم إن الإنسان — حتى فى يقظته — أكثر نسياناً لما يحدث مرة وأكثر حفظاً لما يمكن إدراكه تكراراً ، ومعظم صور الحلم أحداث فريدة الوقوع [١] ، وفى هذا ما يسوق من غير تفريق إلى نسيان الأحلام جميعها . غير أن لعلة ثالثة خطراً يفوق الذى لسابقتيها بمقدار عظيم . ذلك أن الإحساسات والأفكار والخواطر وما إليها يجب — لكى يتحقق لها قدر كاف من قابلية التذكر — ألا تظل متفرقة ، بل أن تنتظم فى وحدات وتآليف من نوع مناسب . فلو أنك قسمت بيتاً منظوماً قصيراً إلى كلماته ثم مزجتها ، لصعب ذكره أيما صعوبة . « فالكلمات إذا رتبت على النحو الذى ينبغى وانتظمها سياق موافق لمقتضى الحال أعانت كل منها أختها وصار لمجموعها معنى يدنو به للذاكرة ويثبت فيها زمناً طويلا . وعلى الجملة فالكلم المفرّغ من المعنى عسير الحفظ على الذاكرة شاذه ، كالمختلط المبعثر . » [شترومپل ، ١٨٧٧ ، ٨٣ .] وإن الأحلام لتعوزها المعقولية ويعوزها التنسيق فى معظم الأحوال ، وتآليف الحلم مجردة من الصفات التى تطوعها للتذكر ، ومآلها إذن النسيان ؛ فهى فى الأغلب لا تنقضى لحظة حتى تكون قد تفرقت بدداً . وغنى عن البيان أن هذا الكلام جميعه لا يستقيم وما يقوله رادشتوك [١٨٧٩ ، ١٦٨] من أنه قد لاحظ أن أشد الأحلام غرابة هى أحسنها لصوقاً بالذاكرة .

وهناك عوامل أخرى يراها شترومپل أشد أثراً بعدُ فى نسيان الحلم ، مرجعها العلاقة بين الحلم وحياة اليقظة . فمن الواضح للعيان أن استهداف الحلم لنسيان الشعور المستيقظ ليس

(١) إن الأحلام التى تعاود صاحبها على فترات قد لوحظت أكثر من مرة ، أنظر مجموعة شابانيكس .

إلا الوجه الآخر لحقيقة سبق الإلماع إليها [ص ٥٩] ، وهى أن الأحلام قل أن تأخذ من حياة اليقظة ذكريات منظمة ، وإنما تأخذ قطوفاً من ذكريات ينترعها الحالم من محيطها الذى يذكر فيه عادة ونحن مستيقظون . وهكذا لا تجد تآليف الحلم مكاناً فى مجتمع التسلسلات النفسية التى تمتلأ بها النفس وتعوزها كل دعامة قد يستند الذكر إليها . « وعلى هذا النحو ترتفع الأبنية الحلمية من فوق أرض الحياة النفسية — إن جاز هذا التعبير — وتحلق فى الفضاء النفسى مثلما تحلق سحابة لا يلبث أن يبددها أول نفس من الريح . » [شترومپل ، ١٨٧٧ ، ٧٨ .] ويعين على ذلك أننا لا نكاد نستيقظ حتى يهجم علينا عالم الحس فيضرب نطاقاً حول انتباهنا فى قوة لا يستطيع الثبوت أمامها سوى القليل من صور الحلم . فهذه تدبر إذ تقبل انطباعات اليوم الوليد إدبار النجوم بريقها وضوء الشمس الطالعة .

وأخيراً لا ننسى تلك الحقيقة بين عوامل نسيان الحلم : وهى أن معظم الناس لا يعير أحلامه اهتماماً . فكل من أولى أحلامه انتباهاً حقبة ما (كأن يكون ذلك بقصد دراستها) زادت أحلامه فى هذه الحقبة عليها فيما عداها — وهو ما يعنى من غير شك أن تذكره لأحلامه يزيد يسراً ويكثر مقداراً .

ويضيف بوناتيللى (على ما يرويه بنينى) عاملين آخرين إلى العوامل التى أحصاها شترومپل ، وإن كانا فى الحقيقة متضمنين فى هذه الأخيرة . وهذان العاملان هما : (١) أن التحول الذى يصيب الحساسية العامة بالجسم بين حالتى النوم واليقظة لا يعين على الاستحضار المتبادل بينهما ، (٢) أن الترتيب المختلف الذى يخلعه الحالم على مادته الفكرية يجعل الأحلام مستحيلة الترجمة — إن جاز هذا التعبير — من وجهة نظر الشعور المستيقظ .

فأما وقد اجتمعت على نسيان الحلم هذه الأسباب جميعها ، فإنما العجيب فى الحقيقة — على ما يلاحظه شترومپل نفسه — هو أن تبقى الذاكرة بعد ذلك على هذا العدد الكبير منها . ثم إن ما يبذله بعض الكتاب من محاولات متكررة من أجل النص على القواعد التى يتم تذكر الأحلام وفاقاً لها يعدل نوعاً من التسليم بأننا نجد أنفسنا هنا أيضاً إزاء شىء ملغز لا تعليل له . فحديثاً ألح الكتاب بحق على سمات معينة يتميز بها تذكر الأحلام : كأن نتذكر فى خلال النهار شيئاً اعتقدنا نسيانه فى الصباح ، ويكون تذكره هذا لأننا لحنا موضوعاً ما له بالحلم صلةٍ عارضة (رادشتوك ، تيسييه) . بيد أن تذكر الأحلام يستهدف

فى جملته إلى اعتراض من شأنه أن ينقص قيمتها أمام أعين النقد نقصاً بالغاً : ذلك أنه إذا كانت ذاكرتنا تغفل من الحلم ما تغفل ، فما أدرانا أنها لا تزيف ما تبقى ؟

ويعرب شترومپل أيضاً عن هذه الشكوك فى أمانة استحضار الحلم فيقول [١٨٧٧ ، ٦] : « وهكذا يسهل أن يدرج الشعور المستيقظ من حيث لا يدرى إضافات متعددة فى ذكرى الحلم ، فيهيأ إلينا أننا حلمنا بأشياء من صنوف شتى ، وماحوى الحلم فى الحقيقة شيئاً منها . »

ويجزم يسن بخاصة فى هذا المعنى فيقول (١٨٥٥ ، ٥٤٧) :

« ولا ننسى فوق ذلك ونحن نبحث حلماً متلائم الأجزاء متسق السياق ونفسره ؛ لا ننسى تلك الحقيقة التى لم تلق حتى الآن ، فيما أرى ، سوى القليل من العناية : وهى أننا لا نكاد نلتزم الواقع فى مثل هذه الحالات أبداً ؛ لأننا إذ نستحضر حلماً فى أذهاننا نميل إلى سد ما بين صور الحلم من الثغرات — دون أن نلحظ ما نحن صانعوه أو نعمد إليه . فلا يحدث إلا نادراً — أو لا يحدث أبداً — أن يكون لحلم من الترابط فى الحقيقة مثلُ ما يلوح له فى الذاكرة . ويكاد يكون محالا ولو على أشد الناس محبة للحقيقة أن يروى حلماً خليقاً بالذكر من غير حشو أو تزويق . فنزوع العقل الإنسانى إلى رؤية الأشياء يتصل بعضها ببعض نزوع غلاب حتى ليكمل فى الذاكرة غير عامد ما قد يحويه حلم مفكك من نقص الرباط . »

وتقرأ هذه الملاحظات التى كتبها ايجر [١٨٩٥ ، ٤١] فتخالها ترجمة لما قرأناه ليسن وإن يكن من المؤكد أنه قد انتهى إليها مستقلاً : « . . . إن لملاحظة الأحلام صعابها الخاصة ، والوسيلة الوحيدة إلى تجنب كل خطأ فى مادة هذا شأنها هى أن نودع الورق ما قد خبرناه للتو أو لاحظناه ، دون أقل إمهال . فإن لم نفعل ، لم يلبث النسيان أن يجىء سريعاً ، كاملاً أو جزئياً . والنسيان الكامل لا خطر منه ، وأما الجزئى فغادر ؛ لأننا إذ نشرع بعد ذلك فى رواية ما لم ننسه ، كنا عرضة لأن نكمل بالمخيلة ما تزودنا إياه الذاكرة من القصاصات المتنافرة المفككة . . . ، ويصير كل منا فناناً يجهل نفسه ، ثم الرواية إذ تتكرر بين الحين والحين تنتهى بأن تفرض نفسها على تصديق مؤلفها ، فإذا هو يقدمها وهو حسن الطوية كما لو كانت واقعة صادقة استوفيت إجراءات إثباتها كما ينبغى . . . »(١) .

---

(١) ["...l'observation des rêves a ses difficultés spéciales et le seul moyen d'éviter toute erreur en pareille matière est de confier au papier sans le moindre retard ce que l'on vient d'éprouver ou de remarquer; sinon, l'oubli vient vite ou total ou partiel; l'oubli total est sans gravité; mais

ويعرب شپيتا (١٨٨٢ ، ٣٣٨) عن آراء مماثلة كل المماثلة ؛ فهو يعتقد — على ما يبدو — أن عناصر الحلم الواهية الرباط لا يدخلها أى ضرب من النظام إلا حين نحاول استحضار الحلم ، فنحن « نحيل ما هو متجاور وحسب إلى متقدم ومتأخر [١] ، أى ندخل عملية من الربط المنطقى لا وجود لها فى الحلم . »

ولما كان التأييد الموضوعى هو الكفيل وحده أن يثبت صدق ذاكرتنا ، وكان ذلك محالا فيما يتصل بالأحلام وهى خبرتنا الخاصة التى لا نملك فى شأنها مرجعاً آخر غير ذاكرتنا ، فأى قيمة تبقى بعد ذلك لذكرى الحلم ؟

هـ

الخصائص السيكولوجية المميزة للحلم

إن دراستنا العلمية للحلم تبدأ من ذلك الفرض : أن الحلم نتاج لنشاطنا النفسى الخاص. بيد أن الحلم بعد أن ينقضى يثير العجب من أنفسنا ، كأنه شىء غريب عنا ، بلغ من قلة التزامنا بالتسليم بمسئوليتنا عنه أن صارسيان عندنا القول : « أتانى حلم » أو « حلمت حلماً». فما أصل هذا الشعور بأن الحلم دخيل علينا ؟ إذا رجعنا إلى مناقشتنا فى مصادر الأحلام ، لزم أن ننفى أن يكون هذا الشعور ناجماً عن المادة الداخلة فى محتواها ؛ لأن معظم هذه المادة مشترك بين حياتى اليقظة والحلم . ومن ثم كنا نسأل : أتقع فى الحلم تغييرات فى عمليات النفس هى التى تحدث هذا الشعور الذى نتحدث عنه ؟ ثم نحاول بناء على ذلك أن نتبين ما هى الصفات السيكولوجية للحلم .

ما من أحد كان أقطع من فخنر فى توكيد الفارق الجوهرى بين حياة الحلم وحياة اليقظة ، أو استخلص من هذا الفارق مقدار ما استخلصه هو من النتائج البعيدة ،

---

l'oubli partiel est perfide; car si l'on se met ensuite à raconter ce que l'on n'a pas oublié, on est exposé à compléter par l'imagination les fragments incohérents et disjoints fournis par la memoire...; on devient artiste à son insu, et le récit periodiquement répété s'impose à la créance de son auteur, qui, de bonne foi, le présente comme un fait authentique, dûment établi selon les bonnes methodes..."]

(١) [تعبير تشم منه رائحة الفلسفة الكانتية حيث تتكون الخبرة المدركة بنظامها بصب المحسوس الخالص الذى هو تبدد محض فى صور الحساسية (الزمان والمكان) ومقولات الذهن (العلية ، الجوهر ، إلخ) .]

وذلك فى فقرة من كتابه « عناصر علم النفس الفيزيائى » (١٨٨٩ ، ٢ ، ٥٢٠) . فهو يرى أنه « لا مجرد انخفاض الحياة النفسية الشعورية دون عتبة النشاط السوى » ولا تراجع الانتباه عن مؤثرات العالم الخارجى يكفيان فى تعليل خصائص الحياة الحالمة من حيث مباينتها لحياة اليقظة ، بل يحدس أن الأرجح هو أن مسرح الحلم غير مسرح الحياة الفكرية المستيقظة ، فيقول : « لو أن مسرح النشاط النفسى كان فى أثناء النوم هو هو فى اليقظة ما جاوز الحلم ، فيما أرى ، أن يكون امتداداً للحياة الفكرية المستيقظة مع بعض الانخفاض فى الشدة ، وكان فوق ذلك بالضرورة يقاسم هذه الحياة مادتها وصورتها . ولكن الواقع يخالف ذلك كل المخالفة . »

ولكن ما الذى عناه فخنر بحديثه من هذه النقلة للنشاط النفسى من مسرح إلى آخر؟ ذلك ما لم يتضح قط ، ولا أعلم أن أحداً سلك الطريق الذى تشير إليه هذه الكلمات . فأن نؤول هذه الجملة تأويلا تشريحياً ، بمعنى أنها تلمح إلى تحيز فيزيولوجى مخى ، أو حتى إلى الطبقات النسيجية للقشرة المخية ، ذلك — فيما أرى — ما يحق لنا أن نستبعده من غير تردد ، بيد أنه قد يتضح فى المستقبل أن الفكرة حصيفة خصبة ، إذا أمكن تطبيقها بالإشارة إلى جهاز نفسى تركب من عدة من جهات الاختصاص ، صفت كل منها وراء الأخرى .(١)

وأما سائر الكتاب فيقنعون بجذب الانتباه إلى هذه الخاصة أو تلك من الخصائص البارزة للحياة الحالمة ، متخذين إياها دعامة يبدأون منها محاولاتهم من أجل الوصول إلى تعليل أشمل للحلم .

فلوحظ ، والملاحظة صائبة ، أن بين الخصائص الرئيسة للحلم خاصة تظهر فى أثناء فعل الأخذ فى النوم ، بحيث يمكن وصفها بالقول : إنها ظاهرة تبشر بالنوم . فالذى يميز حالة اليقظة ، على حسب شلاير ماخر (١٨٦٢ ، ٣٥١) ، هو كون النشاط الفكرى يتأدى أثناءها فى تصورات مجردة لا صور . ولكن الفكر يتأدى فى الحلم بوساطة الصور قبل كل شىء ، وفى مقدورنا أن نلحظ حين يقترب منا النوم أن نشاطنا الإرادى إذ يتأبى علينا أكثر فأكثر انبعثت بقدر تأبيه أفكار لا إرادية ، تندرج جميعها فى طبقة الصور . فالعجز عن نوع العمل الفكرى الذى نشعر أننا نستهدفه استهدافاً إرادياً مع

(١) [وهى الفكرة التى ينميها فرويد فى القسم الثانى من الفصل السابع من هذا المؤلف .]

انبعاث الصور الذى يصحب عادة هذا التشتت فى الانتباه خاصتان تستمران فى الحلم ويحملنا التحليل السيكولوجى للأحلام على أن نرى فيهما سمتين جوهريتين من سمات الحياة الحالمة . وقد رأينا من قبل [ص ٦٩] أن هذه الصور قبل النومية لا تفترق فى محتواها من صور الحلم (١) .

الحلم إذن يفكر فى صور مرئية على نحو غالب ، ولكنه ليس نحواً مانعاً . فالأحلام تلجأ كذلك إلى الصور السمعية ، وقد تلجأ — وإن يكن بدرجة أقل — إلى انطباعات تنتمى إلى سائر الحواس . ثم إن الحلم كاليقظة سواء بسواء قد تعرض فيه أشياء كثيرة فى صورة أفكار أو معان ليس غير (وهو ما يعنى فى الراجح أنها تحضر بوساطة آثار الصور اللفظية [المحفوظة فى الذاكرة]) . بيد أن الذى يميز الحلم حقيقة على الرغم من ذلك إنما هو هذه العناصر من محتواه التى تسلك مسلك الصور ، أى تلك الأشبه بالمدركات الحسية منها بالمذكورات . وإذا تركنا جانباً جميع المناقشات التى يعرفها الأطباء النفسيون فى طبيعة الهلاوس ، فلن نخالف أحداً من أهل الثقة فى الموضوع حين نؤكد أن الأحلام تهلوس ، أى تستبدل بالأفكار هلاوس . ولا فرق من هذه الناحية بين الصور المرئية والسمعية ؛ فقد لوحظ أن المرء إذا شرع فى النوم وبرأسه ذكرى نغمة موسيقية استحالت الذكرى إلى هلوسة موضوعها هذه النغمة عينها . فإذا استيقظ المرء ثانية تلاشت الهلوسة بدورها لتحل محلها الصور الذكروية التى هى أكثر خفوتاً ومختلفة فى الوقت نفسه كيفاً ، وقد يدوم التداول بين الحالتين أكثر من مرة بينما المرء آخذ فى النعاس .

بيد أن تغيير الأفكار إلى هلاوس ليس الناحية الوحيدة التى تختلف فيها الأحلام من مقابلاتها الفكرية فى اليقظة . فالحلم يصوغ من هذه الصور موقفاً ، إنه يمثل حدثاً يدور أمام أعيننا ، أو كما يقول شپيتا [١٨٨٢ ، ١٤٥] : إنه يخلع صورة الحركة المسرحية على فكرة ما . ولكننا لا نقدر هذه الخاصة من خصائص الحياة الحالمة حق التقدير ، إلا حين نسلم فوق ما سلف بأننا حين نحلم لا نعتقد أننا نفكر ، بل نعتقد أننا نعيش ، أى نضيف تصديقاً تاماً إلى صور الحلم الهلوسية — أو هذا هو ما يقع عادة ، فهناك شواذ تتطلب نظراً

(١) لقد أورد سيلبرير بضعة أمثلة جميلة تبين كيف تتحول الأفكار المجردة ذاتها إلى صور مرئية متشكلة تريد الإعراب عن ذات المعنى . وسأعود إلى هذا المكتشف فى موضع آخر [أنظر « الظاهرة الوظيفية» فى الفهرست التحليلى .]

خاصاً . وأما التعقيب الناقد ، كما يكون فى قولنا : ما كنا نعيش على الإطلاق ، كل الأمر أننا كنا نفكر تفكيراً من طراز خاص أى نحلم ، فهذا ما لا يكون إلا بعد أن تحل اليقظة . وهذه الخاصة هى التى تفرق الحلم الحق من حلم اليقظة الذى لا نخلط بينه وبين الواقع أبداً .

ويجمل بورداخ ما تقدم النظر فيه من سمات الحياة الحالمة فى الكلمات الآتية [١٨٣٨ ، ٥٠٢] : « ومن بين سمات الحلم الجوهرية السمات الآتية : (أ) أن نشاط النفس الذاتى يظهر فى صورة موضوعية ؛ لأن ملكاتنا الإدراكية تنظر إلى نتاج مخيلتنا نظرتها إلى انطباعات حسية ... ، (ب) أن النوم يعنى إبطال سلطة الذات ، ومن ثم كان الاستسلام للنوم يجلب معه قدراً من القابلية الصرفة . . . فالشرط فى انبعاث الصور التى تصحب النوم هو نقصان سلطة الذات . »

ويبقى بعد ذلك أن نحاول تعليل التصديق الذى تضيفه النفس إلى هلاوس الحلم ، وهو التصديق الذى لا يظهر إلا حين ينقطع ضرب من نشاط نفسى ذى سلطان . هنا يحتج شترومپل (١٨٧٧) بأن النفس فى تصديقها هذا إنما تقوم بوظيفتها على وجه صحيح يتفق وقانون عملها . فعناصر الحلم بعيدة عن أن تكون محض تصورات ، إنها خبرات نفسية ، صادقة ، فعلية ، من قبيل ما يعرض فى حالة الصحو من طريق الحواس (ص ٣٤) . فبينما تصوغ النفس المستيقظة معانيها وأفكارها فى صور لفظية وكلم ، إذا هى فى الحلم تصوغها فى صور حسية صحيحة (ص ٣٥) . ثم إن الحلم يتضمن فوق ذلك شعوراً بالمكان ؛ ففيه كما فى اليقظة تنتظم الإحساسات والصور فى مكان خارجى (ص ٣٦) . ولا محيد إذن عن التسليم بأن موقف النفس من صورها ومدركاتها الحسية فى الأحلام لا يختلف منه وهى فى اليقظة (٤٣) . فإذا كانت النفس بعد ذلك مخطئة فى صنيعها هذا ، فلأنها تفتقر فى أثناء حالة النوم إلى المعيار الذى يمكنها وحده من التفرقة بين مدركات الحس الوافدة من الخارج وتلك المنبعثة من الداخل ، أى أنها لا تملك القدرة على امتحان صورها الحلمية بالوسائل الوحيدة الكفيلة أن تثبت حقيقتها الموضوعية . ثم هى بالإضافة إلى ذلك تغفل التفرقة بين الصور التى تملك تبديلها كما تريد وتلك التى يغيب فيها هذا التحكم : إنها على خطأ لأنها تعجز عن تطبيق قانون العلية على محتوى أحلامها (ص ٥٠ — ٥١) . وخلاصة القول هى أن انصرافها عن العالم الخارجى هو أيضاً

السبب فى تصديقها عالم الأحلام الذاتى.

ويصل دلبوف إلى النتيجة ذاتها بعد محاجة سيكولوجية مختلفة بعض الاختلاف. فهو يرى أننا نعتقد أن صور الحلم موجودة حقيقة لأننا لا نملك فى أثناء النوم انطباعات أخرى نقارن بها هذه الصور، لأننا مفصولون من العالم الخارجى، ولكنه ليس من الصحيح أننا نعتقد صدق هذه الهلاوس لأننا نعدم فى النوم القدرة على امتحانها. فالحلم يستطيع أن يشبه علينا كل صنوف مثل هذا الامتحان، كأن يجعلنا نلمس الوردة التى نراها — ومع هذا فما نحن إلا حالمين. فالمعيار الأوحد المتين لكوننا نياماً أو مستيقظين ليس فى رأى دلبوف سوى واقعة اليقظة نفسها — وهو معيار لا نأخذ به إلا جرياً على العرف العملى العام. فأنا أستنتج أن كل ما خبرته بين أن نمت وأن استيقظت كان وهماً حين أتبين وأنا أستيقظ أنى راقد فى سريرى مجرداً من ثيابى. وما أخذتُ صور الحلم مأخذ الحقائق فى خلال النوم إلا لعادة فكرية لا تنام هى افتراضى وجود عالم خارجى أعارض به أناى [1].

وهكذا يرفع الانصراف عن العالم الخارجى إلى مرتبة العامل المحتم لظهور أبرز سمات الحياة الحالمة، ومن الخليق إذن بعنائنا أن نذكر بعض ملاحظات نافذة أتاها بورداخ منذ زمن قديم؛ لأنها تنير أمر العلاقات بين النفس النائمة والعالم الخاجى

(١) لقد حاول هافنر — مثل دلبوف — أن يفسر النشاط الحالم بالتحول الذى يطرأ بالضرورة على أداء الجهاز النفسى لوظائفه عندما يداخل هذا الجهاز عامل غير سوى، مع بقائه سليما فيما عدا ذلك. إلا أنه — أعنى هافنر — يصف هذا العامل وصفا مختلفا بعض الاختلاف. فهو يرى أن أول أمارات الحلم هى التحرر من الزمان والمكان، أى تحرر التخيل من الموقع الذى يشغله الفرد فى النظام المكانى والزمنى. وتلحق بذلك الخاصة الأساسية الثانية للحلم، وهى اعتبار الهلاوس والتخييلات وتآليف المخيلة مدركات موضوعية. يقول هافنر: " إن ملكاتنا النفسية العليا جميعها — وبنوع خاص ملكة التجريد وملكة الحكم والاستدلال من ناحية، وقدرة الجبر الذاتى من ناحية أخرى — يصطحب نشاطها بصور المخيلة الحسية وتكن أمثال هذه الصور دائما من وراء هذا النشاط ولهذا كان تحرر صور الحلم من كل ضابط يصيب هذه الملكات أيضا إلى حد ما. وأقول: ' إلى حد ما ' لأن ملكتى الحكم والإرادة فى ذاتيهما لا تتغيران فى أثناء النوم بحال من الأحوال. فنشاطنا لا يقل ذكاء وحرية عنه فى اليقظة. فما يستطيع إنسان واو فى الحلم أن يخرق قوانين الفكر من حيث هى كذلك، أى أن يقول عن الأشياء التى تلوح له متضادة: إنها واحدة، إلخ. وهو أيضاً فى الحلم لا يستطيع أن يرغب إلا فيما يتصور أنه الخير (Sub ratione boni). ولكن قد يضل العقل الإنسانى أثناء الحلم فى تطبيقه لقوانين الفكر بأن يأخذ فكرة فى محل أخرى. وهكذا يقع أننا قد نتفوه فى الحلم بأفضح المتناقضات ونرتكبها، بينما قد ننتهى من جهة أخرى إلى أرجح الأحكام وأسلم النتائج، ونتخذ أفضل القرارات وأطهرها. فانعدام الاتجاه هو السر فى هذا الشطط الذى تندفع إليه مخيلتنا فى خلال الحلم، كما أن الافتقار إلى التأمل النقدى وإلى التناقل مع الآخرين هو المصدر الرئيسى لما يبديه الحلم من جموح فى أحكامنا وآمالنا ورغباتنا. " (١٨٨٧، ١٨)

ولأنها تفيد كذلك فى تحذيرنا من المغالاة فى تقدير شأن النتائج المتقدم ذكرها . يقول بورداخ : « إن النوم لا يحدث إلا إذا توافر هذا الشرط : أن تكف المنبهات الحسية عن تهييج النفس ، . . . غير أن الشرط فى النوم ليس غياب المنبهات بقدر غياب الاهتمام بها [1] ، بل الحقيقة هى أن بعض المنبهات الحسية قد يكون لازماً لتهدئة النفس : فهكذا الطحان لا يدوم نومه إلا وهو يسمع جعجعة الطاحونة ، كما أن النوم فى الظلمة التامة يستحيل على من يرى أن إشعال بعض الضوء فى الليل ضرورة يقتضيها الاحتياط . » (١٨٣٨ ، ٤٨٢)

« إن النفس تنعزل فى أثناء النوم عن العالم الخارجى وترتد عن حافتها نفسها [أى عن أعضاء الحس التى من طريقها تتصل بالعالم الخارجى] . . . بيد أن الصلة لا تنقطع كل الانقطاع ؛ فلو قد كان المرء لا يستطيع سمعاً ولا حساً فى نومه وإنما يسمع ويحس بعد الاستيقاظ وحسب ، لما كان فى الوسع إيقاظه على الإطلاق . وأبين دليل على استمرار الإحساس هو كوننا لا نستيقظ دائماً لما يكون عليه الانطباع من محض الشدة الحسية ، بل لصلته النفسية بنا : فالنائم لا توقظه كلمة لا تقع من نفسه موقعاً خاصاً ، فإن ناديته باسمه أيقظته . . . أى أن النفس تميز فى نومها بين مختلف الإحساسات . . . ولهذا السبب كان انقطاع أحد المنبهات كفيلا أن يوقظ المرء ، إذا كانت لهذا الانقطاع صلة بأمر له فى فكر المرء أهمية : فيستيقظ الرجل الذى ينطفىء فى الليل ضوء مصباحه ، أو الطحان إذا وقفت الطاحونة ، أى إذا انقطع تنبيه حسى . وهذا يعنى أن كليهما كان يدرك هذا التنبيه ، لكن دون أن ينزعج له ؛ لأن هذا التنبيه لم يكن يحركه تحريكاً خاصاً بل كان على الأصح يطمئنه . » (ص ٤٨٥ وما يليها .)

لقد نغض الطرف عن هذه الاعتراضات — وهى ليست بالهينة — ، ولكننا نظل مع ذلك مرغمين على أن نقر بأن ما بحثناه حتى الآن من خصائص الحياة الحالمة وعزوناه إلى انصرافها عن العالم الخارجى لا يوضح ما تتسم به هذه الحياة من طابع الغرابة كل التوضيح . ولولا هذا لكان من المستطاع أن نحول هلاوس الحلم من جديد إلى معان ومواقفه إلى خواطر ، وبهذا نحل مشكلة تفسير الحلم . وهذا التحويل فى الحقيقة

---

(١) أنظر ما يسميه كلاپاريد (١٩٠٥) "désintérêt" [انصراف الاهتمام] ، وهو الانصراف الذى يرى أن ميكانيكية حالة النوم تقوم فيه .

هو ما نصنع حين نستحضر حلماً من الذاكرة بعد اليقظة ، ومع هذا فسواء وفقنا فى هذه الترجمة الثانية توفيقاً كلياً أم توفيقاً جزئياً ليس غير ، يظل الحلم مبقياً على إلغازه كاملا غير منقوص .

ولهذا كان المؤلفون جميعهم يفترضون من غير تردد أن المادة الفكرية لحياة اليقظة تصيبها فى الحلم تغييرات أخرى أعمق غوراً . ويريد شترومپل أن يعرب عن أحد هذه التغييرات فى الفقرة الآتية (١٨٧٧ ، ٢٧) : « إن النفس إذ ينقطع نشاطها الحسى وينقطع شعورها السوى بالحياة تفقد التربة التى تتأصل فيها مشاعرها ورغباتها واهتماماتها وأعمالها . ثم إن الحالات النفسية ، من مشاعر واهتمامات وأحكام تقويمية وما إلى ذلك مما لا تنفصم عراه من الصور الذكروية فى حياة اليقظة ، تستهدف كذلك . . . لضغط يولد الغموض ، يكون من نتيجته أن تنفصم صلة هذه الحالات بالصور ، كما أن الصور الإدراكية المحُصَّلة فى حياة اليقظة عن الأشياء والأشخاص والأماكن والأحداث والأفعال تستحضر منفردات فى عدد كبير ، لكن دون أن تصحبها قيمتها النفسية : إن هذه القيمة تفصل عنها . وهكذا تطوف هذه الصور فى النفس كيفما يحلو لها . . . »

وفى رأى شترومپل أن تجريد الصور من قيمتها النفسية (وهو ما يرجع بدوره إلى واقعة الانفصال من العالم الخارجى) يشارك بنصيب رئيس فى خلق شعور الغرابة الذى يميز الحلم من الحياة الواقعة فى ذاكرتنا .

ولقد سمعنا من قبل [ص ٨٤] أننا ما أن نستسلم للنوم حتى ننزل عن وجه من وجوه نشاطنا النفسى ، وأعنى به القدرة على توجيه مجرى أفكارنا توجيهاً إرادياً . فلم لا نسمع الآن فرضاً آخر وهو على أية حال فرض قريب من الذهن بطبيعته : أن آثار النوم تنتشر فتشمل ملكات النفس جميعاً ؟ ويبدو أن بعض هذه الملكات يعطل كل التعطيل ، وعلى ذلك نسأل : هل تظل سائر الملكات بعدئذ على نشاطها السوى؟ أهى مستطيعة أن تعمل عملا سويا فى مثل هذه الملابسات ؟ وهنا قد يخطر لنا أن نعلل السمات المميزة للحلم بنقص النشاط النفسى فى أثناء النوم ، ويجىء الانطباع الذى يتركه الحلم فى نفوسنا حين نستيقظ ونحكم بملكة مستيقظة فيقرنا على هذا الخاطر : فالحلم مفكك ، لا يجد غضاضة فى قبول المتناقضات مهما عظمت ، وأما المستحيلات فحبلها مرسل على غاربه ، وأما المعرفة التى نعلق عليها أكبر الأهمية فى النهار فتغفل إغفالاً ، ثم هو — أعنى الحلم — يظهرنا فى

مظهر البلهاء آداباً وخلقاً ، ولو أن أحداً سلك مستيقظاً مسلكه فى تصوير الحلم لظن به مسا ، ولو أن أحداً تحدث مستيقظاً على نحو ما يتحدث الناس فى أحلامهم ، أو أفاض بنوع الأشياء التى تعرض له فى الحلم ، لخلناه مختلط الفكر أو ضعيف العقل ؛ فلا يبدو أننا نجاوز تسجيل الحقيقة حين نعرب عن أضأل التقدير لنشاط النفس فى الحلم وحين نقول : إن ملكاتنا العقلية — وما علا منها مرتبة بنوع خاص — تعطل فى الحلم تعطيلا ، أو على الأقل يدركها خلل بليغ .

وقل أن اتفق المؤلفون فى شىء اتفاقهم على مثل هذا النوع من الأحكام فى صدد الحلم — وأعرض لمن شذ منهم فيما بعد [ص ٩٤ وما يليها] — وإن هذه الأحكام لتسوقهم بدورها إلى نظرية معينة أو إلى تعليل معين للحياة الحالمة . ولكن ينبغى على الآن أن أترك التلخيص مورداً بدله طائفة من النصوص لكتاب مختلفين — فلاسفة وأطباء — فى موضوع الخصائص السيكولوجية للحلم .

ففى رأى لوموان أن الخاصة الجوهرية الوحيدة للأحلام هى فقدان التناسق بين صورها .

ويؤيده مورى فيقول (١٨٧٨ ، ١٦٣) : « لا وجود لحلم لا يجانب المعقول بعض المجانبة ، أولا تضم أعطافه بعضاً من التنافر أو من الخلط الزمنى أو من فساد المنطق (١) . »

ويرى هجل — على ما يرويه شپيتا — أن الأحلام تخلو من كل تناسق موضوعى معقول .

ويقول دوجا : « الحلم هو الفوضى النفسية ، وجدانية وعقلية ، هو لعب الوظائف وقد أسلم لها حبلها ، ممارسة عملها من غير ضابط ولا هدف ؛ فالذهن يمسى فى الحلم آلة ذهنية . » (٢)

ويتحدث فوللكت نفسه — وهو البعيد عن أن تجرد نظريته النشاط النفسى المبذول فى أثناء النوم من الغاية — يتحدث (ص ١٤) عن « الاسترخاء والتفكك والاختلاط التى تصيب الحياة الفكرية ، بعد ترابطها فى خلال اليقظة بفعل القوة المنطقية للأنا المركزى . »

---

(١) [“Il n’y a pas des rêves absolument raisonnables et qui ne contiennent quelque incohérence, quelque anachronisme, quelque absurdité.”]

(٢) [“Le rêve c’est l’anarchie psychique, affective et mentale, c’est le jeu des fonctions livrées à elles-même et s’exerçant sans coutrôle et sans but; dans le rêve l’esprit est un automate spirituel.”]

وأما فساد منطق الروابط التى تربط بين المستدعيات الواردة فى الحلم ، فلا يكاد أحد يفضحه بمثل قوة شيشرون فى الكتاب الآنف الذكر (الكتاب الثانى [فقرة ٧١] : « من المحال أن نتخيل شيئاً بلغ من الانعكاس والفوضى والشذوذ مبلغاً يعجزنا عن الحلم به »[١]

ويقول فختز : (١٨٨٩ ، ٢ ، ٥٢٢) « كأن النشاط السيكولوجى قد نقل من مخ رجل عاقل إلى مخ مجنون » .

ويقول رادشتوك (١٨٧٩ ، ١٤٥) : « الواقع أنه يبدو أمراً مستحيلا أن نتميز أى قانون ثابت ينهج عليه هذا النشاط الملتاث . فالأحلام إذ تفلت من الحراسة الصارمة التى تقيمها الإرادة العاقلة ويقيمها الانتباه على مجرى الأفكار المستيقظة تندفع فى دوامة جنونية من الخلط الكاليدوسكوبى . »

ويقول هيلد برانت (١٨٧٥ ، ٤٥) : « أى قفزات عجيبة لا يأتيها الحالم حين يستدل مثلا ؟ بأى خفة يشهد أكثر دروس التجربة ألفة وهى تنقلب رأساً على عقب ؟ أى متناقضات مضحكة يجيزها فى نظم الطبيعة والمجتمع قبل أن يتجاوز الأمر حدود النكتة — كما نقول — فإذا إغراقه فى الهتر يوقظه . فنحن نحسب أن ثلاثة أضعاف الثلاثة تعدل العشرين دون أن نحرك ساكناً ، ولا يدهشنا أن يستشهد كاب ببيت من الشعر أو أن يمشى ميت إلى قبره بقدميه أو أن تسبح صخرة على وجه الماء . ولقد نتوجه والوقار يحف بنا فى بعثة خطيرة إلى دوقيه برنبورج أو أمارة ليختنشتاين لنستعرض أسطولها البحرى ، أو نتطوع تحت لواء شارل الثانى عشر قبيل موقعة پولتافا . »

ويتحدث بنتس ونصب عينيه نظرية الحلم المقامة على أمثال هذه الآراء فيقول (١٨٧٨ ، ٣٣) : « بين كل عشرة أحلام تسعة على الأقل لا معنى لها . فنحن نربط فى الحلم بين أناس وأشياء لا تحمل أقل صلة فيما بينها ، ثم ينقلب المنظر فى لمح البصر كما فى الكاليدوسكوب فإذا نحن أمام مجموعة أخرى أفرغ معنى وأشد جنوناً — إن أمكن — من سابقتها . وهكذا يمضى الذهن النائم — ليس كل النوم — فى لعبه المتقلب ، إلى أن نستيقظ فنقرع جباهنا ونسأل أنفسنا : ألا نزال نملك القدرة على الإتيان بأفكار وخواطر معقولة . »

وأما مورى فيأتى فى صدد العلاقة بين صور الحلم والأفكار المستيقظة بمقارنة سوف يرى فيها الأطباء بلاغة خاصة ، إذ يقول (١٨٧٨ ، ٥٠) : « إن إحداث هذه الصور التى

(١) ["Nihil tam praepostere, tam incondite, tam monstruose cogitari potest, quod non possimus somniari."]

تولدها الإرادة فى أغلب الأحايين عند الإنسان المستيقظ ، هو من الذكاء كالحركات التى يطالعنا بها الرُقاص والاضطرابات الشللية بالنسبة إلى القدرة الحركية . . . » (١) وأما فيما خلا ذلك ، فالحلم عنده : « سلسلة مكتملة من درجات الانحطاط فى الملكة العاقلة المستدلة . » (٢) (ص ٢٧) .

ولا تكاد تكون ثمت حاجة إلى ذكر أقوال الكتاب الذين يكررون قضية مورى مطبقة على مختلف الوظائف النفسية ذات المرتبة العالية .

فى رأى شترومپل (١٨٧٧ ، ٢٦) أن جميع العمليات المنطقية القائمة على النسب والعلاقات يصيبها الخسوف فى الحلم – ومن المفهوم أن هذا الرأى يظل صحيحاً وإن لم تتجل فى الحلم مجانبة صريحة للمعقول . ويرى شپيتا (١٨٢ ، ١٤٨) أن الأفكار التى ترد فى الحلم تبدو مستقلة كل الاستقلال عن قانون العلية . ويلح رادشتوك وغيره على ما يميز الحلم من ضعف ملكتى الحكم والاستدلال . وفى رأى يودْل (١٨٩٦ ، ١٢٣) أن الأحلام مجردة من ملكة النقد ، من القدرة على تصحيح مجموعة من المدركات الحسية بالرجوع إلى محتوى الشعور فى جملته . ويقول هذا المؤلف عينه : « إن جميع أنواع النشاط الشعورى تجىء فى الحلم ، لكنها تجىء ناقصة ، مكفوفة ، معزولة . » وأما المتناقضات التى يغرق فيها الحلم بالقياس إلى معرفتنا المستيقظة فيعللها شتريكر (مع الكثيرين من غيره) بنسياننا الحقائق فى الحلم أو باختفاء العلاقات المنطقية (١٨٧٩ ، ٩٨) ، إلى آخر كل هذا .

غير أن الكتاب الذين ينظرون على الجملة هذه النظرة القاسية إلى الوظائف النفسية فى الحلم ، يقرون للأحلام مع ذلك ببقية باقية من النشاط النفسى ، وبهذا يسلم صراحة ڤونت الذى كان لنظرياته أثر حاسم فى كثير من المشتغلين بهذا الموضوع . وقد يسأل سائل : وما طبيعة هذه البقية المستمرة فى الحلم من النشاط النفسى السوى ؟ هناك اتفاق شامل أو يكاد على أن الملكة المستحضرة – أعنى الذاكرة – هى أقل الملكات تأثراً ، بل هى تبدى فى الحلم بعضاً من التفوق على نفسها فى اليقظة (أنظر ما سبق فى ص ٥١ وما يليها) ، وإن بدا أن جزءاً من متناقضات الحياة الحالمة يرجع إلى نسيانها . وفى رأى شپيتا أن جزء

(١) ["La production de ces images que chez l'homme éveillé fait le plus souvent naître la volonté, correspond, pour l'intelligence, à ce que sont pour la motilité certains mouvements que nous offrent la chorée et les affections paralytiques..."]

(٢) ["Toute une série de dégradations de la faculté pensante et raisonnante"]

النفس الذى لا يؤثر فيه النوم هو الحياة الوجدانية ، وهذه إذن هى الموجهة للحلم . وهو يعنى بلفظ « الوجدان » [(١)] « المشاعر فى مجموعها الثابت ، من حيث هو الماهية الباطنة العميقة للكائن الإنسانى » (١٨٨٢ ، ٨٤) .

ويلمح شولتس (١٨٩٣ ، ٣٧) فى الأحلام نشاطاً نفسياً يتجلى فى النزوع إلى تفسير مادة الحلم « تفسيراً استعارياً » . وكذلك زيبك (١٨٧٧ ، ١١) فهو يشاهد فى الحلم « ملكة التفسير التكميلى » التى تمارسها النفس إزاء جميع إحساساتها وإدراكاتها . وأما الوظيفة النفسية التى تدل الظواهر على أنها أعلى الوظائف منزلة — وأعنى الشعور — فينطوى تقدير شأنها بالنسبة إلى الحلم على صعوبة خاصة . فلا شك فى أن الشعور يبقى فى الحلم ؛ فكل معرفتنا بالحلم إنما هى مستمدة منه ، ومع هذا يرى شپيتا أن الذى يدوم فى الحلم إنما هو الشعور وليس الشعور بالذات . بيد أن دلبوف يعترف بأنه عاجز عن أن يفقه شيئاً من هذه التفرقة .

وتصدق قوانين التداعى التى تحكم تعاقب الأفكار على صور الحلم كذلك ، بل إن سيطرتها لتتجلى فى الحلم أشد قوة ووضوحاً . ويقول شتروميل (١٨٧٧ ، ٧٠) : « والظاهر هو أن الأحلام تجرى مجراها إما وفق قوانين الأفكار الخالصة ، وإما وفق قوانين المنبهات العضوية المصحوبة بأمثال هذه الأفكار ، أى دون أن يكون للتدبر أو الفهم أو الذوق الجمالى أو الحكم الخلقى أى أثر فيها . » والمؤلفون الذين أسوق آراءهم يتصورون عملية تكوين الحلم على نحو قريب من النحو الآتى : إن المنبهات الحسية المتولدة من مختلف المصادر التى سبق أن أحصيتها [أنظر قسم ج] تثير مجتمعة عدداً من الأفكار فى النفس ، فتصوَّر هذه الأفكار فى صورة هلاوس (والأصح فى رأى ڤونت هو أن نقول : فى صورة أوهام حسية ؛ نظراً لتفرعها عن منبهات خارجية وباطنية) وترتبط هذه الأفكار فيما بينها على حسب قوانين التداعى المعروفة ، ثم هى تستدعى طائفة أخرى من الأفكار (أو الصور) على حسب ذات القوانين ، وعندئذ يعمل الجزء الباقى على نشاطه من ملكات النفس المنظمة المفكرة عمله فى هذه المادة جميعها بقدر مطاوعتها (أنظر على سبيل المثال ڤونت وڤيجانت) . ولكن ما من أحد وفق بعدُ إلى تبيان ما هى الدوافع التى تجعل استدعاء الصور غير الناشئة من الخارج يجرى وفق هذا القانون من قوانين التداعى أو ذاك .

---

(١) ["Gemüt"]

بيد أن ثمت أمراً كثرت ملاحظته : وهو أن الروابط التى تصل بين صور الحلم هى روابط من نوع فريد على الإطلاق ، تختلف من تلك التى تعمل فى الفكر المستيقظ . فيقول فوللكت (ص ١٥) : « إن المستدعيات تتلاحق فى الحلم وتتلامس وفق أوجه من الشبه عارضة وروابط تكاد تدق على الإدراك . ولا يخلو حلم من أمثال هذه المستدعيات المتراخية الواهنة . » ويعلق مورى أهمية قصوى على هذه السمة التى تميز ترابط الأفكار فى الحلم ؛ لأنها تمكنه من المماثلة بين الحياة الحالمة وبعض الاضطرابات العصبية . فهو يقول بسمتين رئيستين تميزان « الهذيان » : (١) نشاط النفس نشاطاً تلقائياً أشبه بالآلى ، (٢) تداعى الأفكار تداعياً فاسداً غير منتظم [١] (١٨٧٨ ، ١٢٦) . ويضرب مورى نفسه مثالين ممتازين من أحلامه كان مجرد التماثل الصوتى واسطة الربط بين صور الحلم فيهما . فقد رأى فى الحلم مرة أنه فى حج (پلريناج) إلى القدس أو مكة ، ثم بعد مغامرات متعددة رأى نفسه يزور الكيميائى پلتييه الذى سلمه — بعد أن تحدث إليه قليلا — مجرفة (پل) من الزنك انقلبت فى جزء تال من الحلم سيفاً مصفحاً (ص ١٣٧) . ورأى فى حلم آخر أنه يسير فى طريق ممتد وهو يقرأ أرقام الكيلومترات الدالة على المسافات ، ثم بعد ذلك صار فى دكان بقال رأى فيه ميزاناً ضخماً ورجلا يضع فى إحدى كفتى الميزان موازين كيلو جرامية لكى يزن مورى ، ثم قال له البقال : « إنك لست فى باريس بل فى جزيرة جيلولو » وأعقبت ذلك مناظر أخرى رأى فيها أزهار لوبليا ثم الجنرال لوپيز — وكان قد قرأ نبأ موته منذ زمن قريب — ، وأخيراً استيقظ من نومه بينما كان يلعب اللعبة المسماة لوتو [٢] .

ولكنا لن نفاجأ بالطبع إذا وجدنا أن هذا التقدير الضئيل لنشاط الحلم النفسى لم يترك بغير معارضة . ولا شك فى أن المعارضة لا تبدو هنا بالشىء الهين . فلا وزن لأن يؤكد أحد محقرى الأحلام (شپيتا ، ١٨٨٢ ، ١١٨) أن ذات القوانين التى تهيمن على حياة اليقظة تصدق على الحلم كذلك ، أو إذا أعلن آخر (دوجا) « أن الحلم لا يخالف العقل ، بل هو لا يخلو منه كل الخلو » [٣] ، ما داما لا يتكلفان عناء التوفيق بين مثل هذه الأقوال

(١) [“délire” : (1) une action spontanée et comme automatique de l’esprit; (2) une association vicieuse et irrégulière des idées.]

(٢) سوف نفهم فيما بعد [ص ٥٢٣ فى الهامش] معنى أمثال هذه الأحلام الحافلة بالجناس أو بالكلمات المبتدئة بحروف متماثلة .

(٣) [“le rêve n’est pas déraison ni même irraison pure”.]

وبين ما سبق أن قدماه عن فوضى الحياة النفسية فى الحلم وتفكك جميع الوظائف العقلية فى خلاله . ولكن ثمت فريقاً آخر من المؤلفين يبدو أنهم قد لحوا أن الحلم ربما كان له فى جنونه منهج ، وأن هذا الجنون قد لا يعدو أن يكون قناعاً ، مثلما كان من أمر الأمير الدانمركى [هاملت] الذى أطلق على جنونه هذا الحكم الثاقب . ولا بد أن هؤلاء المؤلفين قد تجنبوا الحكم على الحلم بحسب ظاهره أو يكون الحلم قد طالعهم بظاهر مختلف جداً .

فعلى هذا النحو يتحدث هافلوك إليس عن الأحلام دون أن يتوقف طويلا عند مظهر مجانبتها للمعقول فيقول : إنها « عالم أثرى من الانفعالات المبهمة والأفكار الناقصة » [١] ، عالم قد تكشف لنا دراسته عن المراحل البدائية لتطور الحياة النفسية . ويعرب ج . سوللى (١٨٩٣ ، ٣٦٢) عن هذا الرأى نفسه على نحو أشد بعدُ شمولا ونفاذاً ، وإن كلماته لتستحق المزيد من انتباهنا إذا تذكرنا أنه ربما كان أرسخ السيكولوجيين اقتناعاً بأن للأحلام معنى دفيناً ، يقول : « وأحلامنا وسيلة تحفظ بها هذه الشخصيات المتعاقبة (القديمة) ؛ فنحن حين نكون نياما نرجع إلى طرائقنا القديمة فى النظر إلى الأشياء والتأثر بها ، إلى اندفاعات وضروب من النشاط كانت تسيطر علينا منذ زمن قديم . » [٢] ويقول مفكر مثل دلبوف — وإن لم يستند رأيه إلى كبير حق لأنه لم يفند الوقائع التى تناقضه — : « إن جميع ملكات النفس فيما خلا الإدراك الحسى : الذكاء والمخيلة والذاكرة والإرادة والخلق ، تبقى فى خلال النوم هى هى فى جوهرها ، كل الأمر أنها تطبق على موضوعات متخيلة لا ثبات فيها . فالحالم ممثل يظهر كيف يشاء : مجنوناً وعاقلا ، جلاداً وضحية ، قزماً وعملاقاً ، شيطاناً وملاكاً . » [٣] (١٨٨٥ ، ٢٢٢) ويبدو أن أشد من عارض الانتقاص من النشاط النفسى فى الحلم هو الماركى درفاى الذى جادله مورى جدالا مستحراً والذى ذهبت كل جهودى من أجل العثور على كتابه عبثاً . فمورى يحدثنا عنه قائلا (١٨٧٨ ، ص ١٩) : « إن الماركى درفاى ينسب إلى الذكاء وهو نائم حرية غير منقوصة

---

(١) ["an archaic world of vast emotions and imperfect thoughts".]

(٢) ["Now our dreams are a means of conserving these successive personalities. When asleep we go back to the old ways of looking at things and feeling about them, to impulses and activities which long ago dominated us".]

(٣) ["Dans le sommeil, hormis la perception, toutes les facultés de l'esprit, intelligence, imagination, mémoire, volonté, moralité, restent intactes dans leur essence; seulement, elles s'appliquent à des objets imaginaires et mobiles. Le songeur est un acteur qui joue à volonté les fous et les sages, les bourreaux et les victimes, les nains et les géants, les demons et les anges".]

فى العمل والانتباه ، وهو يبدو كأنما كان من رأيه أن النوم لا يقوم إلا فى إطباق الحواس ، فى إيصادها دون العالم الخارجى ، بحيث لا يكاد يتميز الإنسان النائم على حسب نظرته من هذا الذى يسرح فكره وقد سد منافذ حواسه . وكل الفرق الذى يفصل عندئذ بين التفكير المألوف وتفكير النائم هو أن الفكرة تتخذ عند هذا الأخير شكلا مرئياً موضوعياً وتشبه الإحساس المتعين بالموضوعات الخارجية حتى لنخلط بينهما ، وتستعير الذكرى مظهر الواقعة الحاضرة . »(١)

بيد أن مورى يضيف إلى ذلك قوله : « إن ثمت فرقاً فوق ذلك وفرقاً له كل الخطورة ، وأعنى به أن الملكات العقلية للنائم لا تبدى التوازن الذى تلتزمه عند المستيقظ . »(٢)

فإذا رجعنا إلى ڤاشيد الذى ينقل إلينا صورة أوفى عن كتاب درڤاى ؛ وجدنا نصاً لهذا المؤلف يعرب فيه عن رأيه فى تجرد ظاهرة الحلم من التناسق على النحو الآتى : « صورة الحلم نسخة الفكرة ؛ فالجوهرى هو الفكرة ، وأما الرؤيا فلباس عارض . وإذا كان الأمر كذلك ، لزم أن نعرف كيف نتتبع سير الأفكار ، لزم أن نعرف كيف نحلل نسيج الحلم : حينئذ يصير اللاتناسق شيئاً مفهوماً ، وتصير أشد الأحلام إغراباً فى الخيال وقائع لا تعقيد فيها ولا خلل فى منطقها » (١٩١١ ، ١٤٦) . ثم يقول (ص ١٤٧) : « وإن أكثر الأحلام غرابة لتلقى تعليلا كأكثر ما يكون منطقاً ، إذا عرفنا كيف نحللها »

ولقد نبه شتاركه إلى مؤلف أقدم عهداً ، لم أكن أعلم من أمره شيئاً ، عالج خلو الحلم من التناسق تعليلا مماثلا فى عام ١٧٩٩ ، هذا المؤلف هو ڤولف دافيدسون ، يقول (١٧٩٩ ، ١٣٦) : « إن القفزات الغريبة التى تقفزها أفكارنا فى الحلم تستند جميعها إلى قانون التداعى . غير أنه يحدث أحياناً أن تخطر هذه الروابط للنفس على نحو غامض

(١) ["M. le Marquis d'Hervey prête à l'intelligence durant le sommeil, toute sa liberté d'action et d'attention et il ne semble faire consister le sommeil que dans l'occlusion des sens, dans leur fermeture au monde intérieur; en sorte que l'homme qui dort ne se distingue guère, selon sa manière de voir, de l'homme qui laisse vaguer sa pensée en se bouchant les sens ; toute la différence qui sépare alors la pensée ordinaire du celle du dormeur, c'est que, chez celui-ci, l'idée prend une forme visible, objective et ressemble, à s'y méprendre, à la sensation déterminée par les objets entérieurs; le souvenir rêvet l'apparence du fait présent."]

(٢) ["Qu'il y a une différence de plus et capitale à savoir que les facultés intellectuels de l'homme endormi n'offrent pas l'équilibre qu'elles gardent chez l'homme éveillé."]

(٣) ["L'image du rêve est la copie de l'idée; la vision n'est qu'accessoire. Ceci établi, il faut savoir suivre la marche des idées, il faut savoir analyser le tissus des rêves ; l'incohérence devient alors compréhensible, les conceptions les plus fantasques deviennent des faits simples et parfaitement logiques."]

جداً ، بحيث يهيأ إلينا أننا نشهد قفزة من قفزات الفكر وليس فى الحقيقة شىء من ذلك . »

وهكذا يتفاوت تقويم الحلم من حيث هو نتاج نفسى تفاوتاً واسع النطاق فى مختلف المؤلفات : فمن أقصى التحقير الذى رأينا صنوفاً من العبارة عنه، إلى إلماع إلى قيمة لم تُفحَص، فإلى أقصى الإطناب الذى يقدم الحلم على وظائف حياة اليقظة جميعاً . ومن هذين الطرفين المتقابلين يؤلف هيلد برانت ثالثة المتناقضات الثلاث التى رأينا [فى ص ٤٩] أنه يجمل فيها الخصائص السيكولوجية للحياة الحالمة ، يقول (١٨٧٥ ، ١٩) : « وثالثة المتناقضات تقوم فى اشتداد الحياة النفسية والسمو بها سمواً يبلغ حد المهارة المعجزة، من جهة، ونقص وضعف كثيراً ما يهبطان بها دون المستوى الإنسانى من جهة أخرى .

«إليك الوجه الأول : من ذا الذى لا يجد فى خبرته ما يؤيد أن عبقرية الحلم تبدى أحياناً — فيما تخلق وتحيك — عمقاً فى الوجدان وصدقاً ، ورقة فى الإحساس ، ووضوحاً فى النظر ، ودقة فى الملاحظة ، وتوقداً فى القريحة ، يحملنا التواضع على أن نقر بأننا لا نتسم بمثلها دائماً فى يقظتنا ؟ فللحلم شاعرية تبهر ، وتمثيل محكم ، وفكاهة لا تجارى ، وسخرية مستملحة . إنه ينظر إلى العالم فى ضوء يضفى عليه مثالية فريدة ، وكثيراً ما يُعلى الأثر الذى لمجاليه بفهم عميق لماهيته . الجمال الدنيوى يمثله لناظرنا فى بهاء سماوى ، وما سما خلع عليه أرفع حلل الجلال ، وأما ما نعهد منه المخافة فيتخذ أبشع أشكاله ، وأما الدعابة فتنقلب مجوناً يدفع إلى ضحك جارف لا يوصف . ولقد نستيقظ وخبرة من هذا القبيل لا تزال تستحوذ علينا ، فلا نملك إلا أن نحدث النفس : بمثل هذا ما أتتنا دنيا الواقع قط . »

وللمرء أن يسأل بعد ذلك : أهو ذات الموضوع يلقى هاته الملاحظات المحقرة وهذا المديح المتقد ؟ ألا يكون أن بعض الكتاب قد أغفل الأحلام فاسدة المنطق على حين أغفل البعض الآخر عميقها ومستدقها ؟ وإذا كان كلا النوعين يقع — ما استحق هذا الحكم وما استحق ذاك — أفلا يكون من العبث أن نلتمس للحلم خاصة تميزه ، ألا يكفى القول : كل شىء ممكن فى الحلم ، من انحطاط الحياة النفسية إلى أسفل درك ، إلى سمو قل أن نذوقه فى حياة اليقظة ؟ إن هذا الحل مهما كان من يسره وتيسيره يلقى دونه تلك الحقيقة : وهى أن جهود بحثة الحلم جميعاً تبدو مقامة على إيمانهم بأن ثمت بالفعل خاصة كهذه ، تصدق فى ملامحها الجوهرية صدقاً شاملا ، ومن شأنها أن ترفع هذه المتناقضات .

ولا جدال فى أن الوظائف النفسية للحلم كانت تلاقى قبولا أسرع وأحسن فى تلك الفترة

العقلية التى تجثم اليوم وراءنا ، حين كانت الفلسفة هى المسيطرة على العقول وليس العلم المضبوط . فأن يقول قائل مثل شوبرت بأن الحلم خلاص للروح من قسر الطبيعة الخارجية ، تحرير للنفس من أغلال الحس ، إلى مثل هذا من أحكام فيخته الصغير وغيره [١] مما يصور جميعه الحلم فى صورة سمو بالحياة النفسية إلى درجة أعلى ، أمر يبدو لنا اليوم فوق التصور أو يكاد ، وليس يردده فى زماننا إلا المتصوفة والتقويون [٢]. فإن الأسلوب العلمى فى التفكير قد جلب معه انقلاباً فى تقويم الأحلام . فالمؤلفون الأطباء على التحديد هم أجنح الكتاب إلى وصم النشاط النفسى فى الحلم بالتفاهة والتجرد من القيمة، على حين أن الفلاسفة والملاحظين غير المحترفين — هواة السيكولوجيين — ممن لا يستهان بعددهم فى هذا المجال بالذات ، قد ثبتوا بوجه عام على الأخذ بقيمة الحلم النفسية ، وهم فى ذلك أكثر اتفاقاً والإحساس الشعبى . ونفهم أن من نزع إلى حط قيمة النفس فى الحلم يؤثر مصادر التنبيه الجسمية عند تعليله للأحلام ، وأما من يترك للنفس الحالمة الجزء الأعظم من ملكاتها المستيقظة ، فلا يحتاج بالطبع إلى أن ينكر أن فعل الحلم قد تكون له أيضاً مهيجاته النفسية القائمة بذاتها .

والذاكرة هى أظهر الملكات العالية المرتبة التى يمكن أن يغرى المرء بإضافتها إلى الحياة الحالمة حتى بعد المقارنة المتزنة ، وسبق أن فصلنا الكلام فيما يثبت ذلك من خبرات لا يندر وقوعها . وميزة أخرى للحياة الحالمة كثيراً ما أشاد بها الكتاب الأقدمون ، هى سموها فوق فواصل الزمان والمكان . بيد أن من السهل أن نبين أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون وهماً ؛ فهذه المزية — كما يلاحظ هيلد برانت — مزية موهومة ، لأن فعل الحلم إنما يسمو على الزمان والمكان مثلما يفعل التفكير المستيقظ سواء بسواء ، ولذات السبب : وأعنى به أن هذا الفعل ليس إلا صورة من صور التفكير . ولقد نسبت إلى الحياة الحالمة مزية أخرى تتصل بالزمن ، هى استقلاله عن جريانه بمعنى آخر : فحلم كالذى رويناه لمورى فى صفحة ٦٤ بإعدامه بالمقصلة ، يبدو شاهداً على أن فى مقدور الحلم أن يحشد فى برهة من الدهر قصيرة غاية القصر محتوى إدراكياً يزيد كثيراً على ما يطيق تفكيرنا المستيقظ معالجته . بيد أن هذه

---

(١) أنظر هافنر وشپيتا .

(٢) [هامش أضيف سنة ١٩١٤ :] لقد قال الصوفى الموهوب دو پرل ، وهو أحد المؤلفين القلائل الذين أود أن أعرب عن أسفى على إهمالى إياهم فى الطبعات السابقة لهذا الكتاب : إن الحلم ، لا حياة اليقظة ، هو المدخل إلى الميتافيزيقا ، بقدر ما يتعلق الأمر بالإنسان (١٨٨٥ ، ٥٩٢) .

النتيجة قد قامت عليها حجج شتى ، ومنذ مقالات لولوران وايجّير عن « الديمومة الظاهرة للأحلام » وهذا الموضوع مثار مناقشة طويلة ، ممتعة ، لم تنته بعدُ على الراجح إلى التعليل الأخير لهذه المسألة الدقيقة العميقة المضمون (١) .

وأما قدرة الأحلام على متابعة شواغل النهار العقلية والمضى بها إلى نتائج تعذر بلوغها فى أثنائه ، قدرتها على أن تجلو شكوكاً ومشكلات وعلى أن تكون مصدر إلهام جديد للشعراء والمؤلفين الموسيقيين ، فهذا ما يبدو أمراً لا منازعة فيه بعد الرويات المتعددة وبعد الأمثلة التى جمعها شابانيكس . بيد أن الواقعة — وإن ارتفع الجدل فى شأنها — لا يزال يستهدف مفهومها لشكوك شتى تتناول المبادئ ذاتها (٢) .

وأخيراً فما يقال عن قوة الأحلام عن الإنباء بالغيب موضع لنزاع تُقابل فيه اعتبارات لا يكاد يكون لها دفع بتوكيدات عنيدة معادة . ولا شك فى أننا نحسن صنعاً إذا تجنبنا إنكار كل سند من الواقع لهذا الرأى ؛ فقد نوفق عما قريب إلى تعليل سيكولوجى طبيعى لطائفة من الحالات .

و

الحاسة الخلقية فى الحلم

لقد فصلت عن موضوع سيكولوجية الحلم تلك المشكلة الجزئية : هل تمتد الاستعدادات والمشاعر الخلقية إلى الحياة الحالمة ، وإلى أى مدى ؟ وذلك لأسباب لن تتضح إلا بعد الإحاطة بمباحثى . وهنا أيضاً سوف نجدنا من جديد أمام ذلك التناقض الذى عجبنا له من غير شك فى حديث المؤلفين عن كافة الوظائف النفسية الأخرى فى الحلم؛ فيؤكد كتّاب أن الحلم لا يعرف التزامات الخلق ، وبمثل ثقتهم يؤكد كتّاب آخرون أن خلق المرء يدوم فى حياته الحالمة .

فإن احتكمنا إلى خبرتنا المألوفة بالإحلام ، بدا أنها تؤيد أول هذين الرأيين تأييداً لا يرقى بعده شك . يقول يسّن (١٨٥٥ ، ٥٥٣) : « إنا لا نصير فى الحلم أحسن أو

---

(١) يجد القارئ مراجع أخرى ومناقشة نقدية لهذه المسائل فى رسالة توبوڤولسكا الباريسية (١٩٠٠) .

(٢) أنظر النقد الوارد فى كتاب هـ . إليس (١٩١١ ، ٢٦٨) .

أفضل ، بل على العكس يبدو الضمير فى الحلم أخرس ، فلا يستشعر المرء أثراً من شفقة ، ولقد يرتكب أقبح الجرائم ، فيسرق ويغتصب ويقتل ، دون أن يكترث أقل اكتراث لما هو فاعله ودون أن يلحقه الندم . »

ويقول رادشتوك (١٨٧٩ ، ١٤٦) : « ولا ننسى أن الحلم تخطر فيه المستدعيات وتتصل الأفكار دون أقل التفات إلى التدبر أو العقل أو الذوق الجمالى أو الحكم الخلقى . فلكة الحكم ضعيفة غاية الضعف والانصراف عن القيم الخلقية هو الغالب . »

ويقول فوللكت (١٨٧٥ ، ٢٣) : « الأحلام — كما نعلم جميعاً — مطلقة الجماح فيما يتصل بالأمور الجنسية بنوع خاص . فالحالم تغيب عنده كل قطرة من الحياء ويهجره كل شعور أوحكم خلقى ، ثم هو فيما يتعلق بالآخرين كذلك يراهم جميعاً — لا يستثنى منهم أولئك الذين يكن لهم أعمق الاحترام — فى أحوال يرتاع فى يقظته من التقريب بينهم وبينها ولو بالفكر . »

وعلى نقيض ذلك نجد أقوالا كتلك التى يذهب إليها شوبنهاور تؤكد أن كلاً منا يسلك فى الحلم ويتحدث بما يتفق وطبعه كل الاتفاق . فيؤكد ك . ب . فيشر [١] أن المشاعر الذاتية والرغبات أو الحالات الوجدانية والانفعالات تكشف عن نفسها فى انطلاق الحياة الحالمة ، وأن الأحلام مرايا تعكس الخواص الخلقية للناس .

ويقول هافنر (١٨٨٤ ، ٢٥١) : « وفيما خلا شواذ نادرة . . . يبقى الفاضل فاضلا فى حلمه ، فيقاوم الإغراء وينأى بنفسه عن الكراهية والحسد والغضب وسائر الرذائل ، وأما الأثيم فلا يرى فى أحلامه عادة سوى صور سبق أن خطرت له فى يقظته . »

ويقول شولتس (١٨٨٧ ، ٣٦) : « فى الأحلام الحقيقة ؛ ففيها نرى أنفسنا على ما هى عليه ، بالرغم من كل قناع قد نتخذه للملأ بالنبالة أو بالذلة . فالكريم لا يرتكب جرماً شائناً ولو فى الحلم ، فإن فعل استفظع فعله كأنه شىء غريب عن طبيعته . والإمبراطور الرومانى الذى أمر بموت أحد رعاياه لأنه رأى فى المنام أنه يطوح برأس الإمبراطور ، لم يجانب الصواب كثيراً حين برر عمله استناداً إلى أن مثل هذه الرؤيا لا تأتى إلا من كانت له فى يقظته مثل هذه الخواطر . وإنا لنعرب عن الأمر الذى لا يمكن أن يكون له مكان فى سريرتنا بعبارة لها مغزاها : ذلك ما لا يخطر لى ولو فى الحلم . »

---

(١) فى كتابه الذى نشر فى عام ١٨٥٠ — وأنقل رأيه هذا عن شپيتا .

وعلى العكس من ذلك يرى أفلاطون أن أحسن الرجال من اقتصروا على أن يحلموا بما بصنع غيرهم وهم مستيقظون .

ويقول فاف[١] على غرار كلمة معروفة : « خبرني بأحلامك ، أخبرك ما دخيلتك » .

ومشكلة الخلق فى الحلم هى المحور الذى يدور من حوله كتيب هيلد برانت الذى كثيراً ما استشهدت من قبل بنصوص منه ؛ لأنه بين كل ما وُضع فى دراسة الحلم أبلغه عبارة وأثراه فكراً . والقاعدة الثابتة فى نظر هيلد برانت كذلك ، هى أنه بقدر طهارة الحياة تكون طهارة الحلم ، وبقدر دنسها دنسه .

فهو يعتقد أن طبيعة الإنسان الخلقية تبقى فى الحلم كذلك ، ويقول : « فبينما لا يدعونا الخطأ فى الحساب ، مهما كان ظهوره ، أو قلب القوانين العلمية ، مهما كان شططه ، أو خلط التواريخ ، مهما كان مضحكاً ، إلى التأفف أو حتى مجرد الاسترابة ، ترانا مع هذا نفرق بين الخير والشر ، بين الصواب والخطأ ، بين الفضيلة والرذيلة . فكل ما يلازمنا فى نهارنا قد تمحوه ساعات الهجوع ، كله أو جله ، إلا أمر كانْت المطلق[٢] فإنه يتعقب خطانا كرفيق لا انفصال له عنا ولا خلاص لنا منه ولو بالنوم . . . وهذا ما لا يعلله إلا ثبوت الجزء الأساسى من الطبيعة الإنسانية ، أعنى ماهيتها الخلقية ، ثبوتاً وطيداً يقيها هذا الخلط الكاليدوسكوبى الذى يصيب فى الحلم المخيلة والعقل والذاكرة وما شاكلها من سائر الملكات . » (١٨٧٥ ، ٤٥ وما يليها .)

غير أن كلا الفريقين من الكتاب لا يلبث أن يبدى فى مستأنف نقاشه فى هذا الموضوع تذبذباً فى الرأى وخروجاً عن منطقه خليقين بأن ننتبه إليهما . فأولئك الذين يرون فى الحلم القضاء على الشخصية الخلقية للمرء كان يجب عليهم — إذا أردنا الصرامة فى المنطق — ألا يبالوا بعد ذلك بالأحلام المنافية للأخلاق وكان يسعهم أن يمتنعوا عن كل محاولة تهدف إلى تحميل الحالم مسئولية أحلامه أو إلى الاستدلال بسوئها على سوء معدنه ، وذلك بمثل الهدوء الذى يمتنعون به عن محاولة شبيهة بهذه ، فلا يستدلون بخطأ الحالم فى أحلامه على ضعة وظائفه العقلية فى يقظته . وأما من يرون أن « الأمر المطلق » يتغلغل إلى الحلم نفسه ، فكان من حق المنطق عليهم أن يقبلوا مسئولية الأحلام المنافية للأخلاق من غير قيد ، ولا

---

(١) فى كتابه المنشور فى عام ١٨٦٨ — نقلا عن شپيتا أيضا (١٨٨٢ ، ١٩٢) .

(٢) [المراد بهذا الأمر هو قانون الواجب.]

يبقى إلا أن نرجو لهم ألا تزورهم أحلام من هذا النوع الذميم تخطّىء إيمانهم الوطيد بقيمتهم الخلقية .

ولكن الذى يبدو هو أنه ما من أحد يعلم بكل هذا اليقين إلى أى مدى خير هو أم شرير ، وأنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أنه يذكر أحلاماً له تنافى الأخلاق ؛ فالكتاب من كل فريق – بغض النظر عن تقابل آرائهم فى صدد خلقية الحلم – يجهدون لكى يبينوا أصل الأحلام المنافية للأخلاق ، وهنا يدب بينهم خلاف جديد فى الرأى ، على حسب الوجهة التى يلتمسون فيها هذا الأصل : أفى وظائف الحياة النفسية ، أم فيما يداخل هذه الحياة من تأثيرات ذات علل جسمية . وهكذا تحمل قوة الواقع القائلين بمسئولية الحياة الحالمة والقائلين بارتفاع هذه المسئولية على السواء، تحملهم على أن يلتقوا جميعاً فى التسليم بأن لا خلقية الحلم لها مصدر نفسى خاص .

ويحرص أولئك الذين يعتقدون أن الطبع الخلقى لا يبرح فى الحلم على أن يتجنبوا الاضطلاع بمسئولية أحلامهم كاملة . فيقول هافنر (١٨٨٧ ، ٢٥٠) : « نحن غير مسئولين عن أحلامنا ؛ فقد تقوض فيها أساس الإرادة والفكر ، هذا الأساس الذى به وحده يتوافر لحياتنا الصدق والوجود . . . ومن ثم ارتفعت الفضيلة والرذيلة عن رغائب الحلم وفعاله . » بيد أن الإنسان يظل مع ذلك مسئولا عن أحلامه الآثمة ، من حيث كونه علتها غير المباشرة . ولهذا كان من الواجب عليه أن يطهر نفسه تطهيراً خلقيًّا فى يقظته ، وبخاصة قبل التوجه إلى النوم .

ويزودنا هيلد برانت بتحليل أعمق كثيراً لهذا المزيج من الرفض والقبول إزاء مسئوليتنا عن المحتوى الخلقى لأحلامنا . فهو بعد أن يفصل الكلام فى أن من الضرورى عند النظر فى مظهر الأحلام المنافر للأخلاق أن ندخل فى حسابنا أسلوبها الدرامى [١] فى التصوير ثم حشرها أعقد العمليات الفكرية فى أقصر برهة من الزمن ، ثم ما تؤول إليه العناصر الفكرية فى الحلم من فقدان القيمة ومن الاختلاط اللذين يسلم بهما هو نفسه ، يعود فيعترف بأن ثمت اعتبارات من أخطر ما يكون تنبغى الروية فيها قبل أن نطرح كل مسئولية عن خطايا الحلم وذنوبه .

يقول (١٨٧٥ ، ٤٩) : « عند ما نريد أن نبرئ أنفسنا تبرئة قاطعة من تهمة

(١) [أى الذى يصوغ الفكرة فى قالب الحركة المسرحية .]

مجحفة وجهت إلينا ، وبخاصة إذا تعلقت التّهمة بنياتنا ومطامعنا ، فإننا نستعمل ذلك التعبير السائر : هذا ما لم يكن يخطر لى ولو فى الحلم . ولا شك فى أننا نعنى بذلك ، من ناحية ، أننا نعتبر الحلم أقصى وآخر منطقة يمكن أن نسأل فيها عن أفكارنا ، لأن الأفكار هناك لا يربط بينها وبين جوهرنا الحقيقى إلا رباط واه متراخ حتى لا نكاد نستطيع أن نعدها منا ، ولكننا من حيث نشعر بدافع إلى أن ننفى صراحة وجود مثل هذه الأفكار ولو فى تلك المنطقة ، نسلم فى الوقت عينه تسليماً ضمنياً بأن براءتنا لا يتحقق لها التمام إلا إذا بلغت هذا المدى . وأعتقد أننا نتحدث عندئذ بلغة الحق ، وإن يكن على غير وعى منا . »

ثم يقول (ص ٥١ وما بعدها) : « ومن المحال أن نتصور فعلا من أفعال الحلم لم يعرض للنفس المستيقظة الدافع الأصيل إليه فى صورة رغبة أو شهوة أو اندفاع . » ومن الواجب أن نقول فى صدد هذا الاندفاع الأول : إن الحلم لم يبتدعه ابتداعاً ، كل الأمر أنه حاكاه وأنماه ، أو هو لم يعد أن يصوغ فى قالب درامى رقعة من نسيج تاريخنا عثر عليها فى أنفسنا ، إنه يخرج [١] كلمة الرسول : كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس [٢] . ولقد نبسم بعد أن نستيقظ ونحن شاعرون بقوتنا الخلقية لجميع هذا الطيف الذى أحكم خلقه الحلم الأثيم ، ولكن ما من ضحك يستطيع أن يخلصنا من المادة الأولى التى خلق منها الحلم . فالإنسان يشعر بأنه مسئول عما يرتكبه وهو حالم من المعاصى — لا عنها جميعاً ، ولكن عن نسبة مئوية منها مع ذلك . « وخلاصة القول هى أننا إذا أخذنا كلمة المسيح : من القلب تخرج أفكار شريرة [٣] ، بهذا المعنى الذى لا يكاد يحتمل جدالا ، تعذر علينا أن نغالب الاعتقاد بأن كل إثم يؤتى فى الحلم يجر معه على الأقل حدًّا أدنى مبهماً من استذناب النفس . »

وهكذا يرى هيلد برانت مصدر لا خلقية الحلم فيما يعرض للنفس نهاراً ، فى صورة أفكار أمارة بالسوء ، من بذور الاندفاعات الشريرة ومضاتها ، ثم هو لا يتردد فى أن يحسب لهذه العناصر المنافية للخلق حسابها فى تقدير خلق الشخص . ونعلم أن هذه الأفكار الأمارة بالسوء عينها ، وأن ذات النظرة فى تقديرها ، هى التى ساقت الأتقياء والقديسين من

---

(١) [بالمعنى المسرحى لهذه الكلمة.]

(٢) [رسالة يوحنا الرسول الأول ، الإصحاح الثالث ١٥٢ .]

(٣) [إنجيل متى ، الإصحاح الخامس عشر ، ١٩ .]

جميع العصور إلى التحسر على استبداد الخطيئة بهم [١] .

وما من شك فى أن هذه الأفكار المباينة لما عداها شيء كثير الوقوع عند الغالبية العظمى من الناس ، وفى ميادين أخرى غير الميدان الخلقى . ولكن الحكم عليها كان أقل صرامة أحياناً . ويستشهد شپيتا (١٨٨٢ ، ١٤٤) بنص من تسللر (١٨١٨) يناسب هذا المقام: «وقل أن يكون لعقل من سداد التنظم ما يمكنه من قواه كاملة فى كل وقت ، ويصون دائماً سير فكره الواضح المنتظم من أن تعوقه أفكار لا نقول : ثانوية وحسب ، بل قبيحة معكوسة إلى أبعد المدى أيضاً . ولقد رأى أعظم المفكرين على التأكيد ما يدعوهم إلى الشكوى من هذه الحثالة من الخواطر الشبيهة بالحلم ، الماجنة ، المعذبة ؛ فهى تزعج أعمق تأملاتهم وأشد أفكارهم جدًّا ومهابة . »

ولهيلد برانت ملاحظة أخرى تلقى ضوءاً أسطع على المغزى السيكولوجى الذى تتضمنه هذه الأفكار المباينة ، ومؤدى ملاحظته هو أن الأحلام تتيح لنا الظفر بنظرة عارضة إلى أغوار وجودنا وثناياه ، هذا الوجود الذى يظل موصداً دوننا عادة فى خلال اليقظة . ويعرب كانْت عن هذه الفكرة نفسها فى فقرة من كتابه فى علم الإنسان [١٧٩٨] ، يعلن فيها أن الغاية من الحلم ربما كانت الكشف عن استعداداتنا الدفينة ، وإظهارنا لا على ما نحن عليه بل على ما كان يحتمل أن نكونه لو أننا نشئنا تنشئة أخرى . ويقول رادشتوك (١٨٧٩ ، ٨٤) : « إن الحلم إنما يظهر مالا نود مصارحة أنفسنا به ، ونحن إذن نظلمه حين نرميه بالكذب والخداع . » ويقول ى . إ . إردمان : « ما أرتنى الأحلام قط كيف ينبغى لى التفكير فى شأن رجل ما ، فأما كيف أفكر فيه حقيقة ، وما هى نياتى نحوه ، فذلك — لبالغ دهشى — ما علمنى الحلم إياه أحياناً . » ويقول ى . هـ . فيخته (١٨٦٤ ، ١ ، ٥٣٩) : « إن الطابع الذى يسم أحلامنا مرآة تصور لنا حالتنا النفسية فى مجموعها تصويراً أصدق كثيراً مما نستطيع تحصيله فى يقظتنا بالملاحظة الذاتية . » وإن انبعاث هذه الاندفاعات الغريبة عن شعورنا الخلقى ليناظر ظاهرة أخرى عرفناها من قبل ، وأعنى بها نفاذ الحلم إلى مادة فكرية تغيب فى حالتنا المستيقظة أو لا يكون لها فى أثناء هذه الحالة سوى شأن ضئيل . وهذا هو ما

---

(١) قد يفيدنا أن نعلم موقف محكمة التفتيش من مشكلتنا هذه . فقد جاءت فى مؤلف توماس كارينا (١٦٥٩) الفقرة الآتية : « إذا تلفظ أى شخص ببدعة فى أثناء نومه ، وجب على المفتشين أن يروا فى ذلك داعياً إلى تقصى مسلكه ؛ فما يراود الإنسان فى نومه إلا ما يشغله فى نهاره . » (عن إفادة من الدكتور اهنيجر ، سان أوربان، سويسرا .)

تنبهنا إليه ملاحظة مثل ملاحظة بنيني : « إن رغباتنا التى ظننا زمناً أنها قد اندثرت وانطفأت توقظ من جديد ، ومن جديد تبعث إلى الحياة الانفعالات القديمة المقبورة . وتمثل أشياء وأشخاص لا نفكر فى أمرها وأمرهم إطلاقاً . »[١] (١٨٩٨، ١٤٩) ، أو ملاحظة فوللكت : « وكذلك الشأن فى الأفكار التى تلج الشعور غير ملحوظة أو لا تكاد والتى قد لا نستحضرها إلى الذاكرة بعد ذلك قط ؛ فإنها كثيراً جداً ما تعلن عن وجودها فى النفس بوساطة الحلم » (١٨٧٥ ، ١٠٥) . وأخيراً فلنا أن نتذكر فى هذا المعرض حديث شلايرماخر عن اصطحاب فعل الأخذ فى النوم بانبعاث الأفكار (أو الصور) اللاإرادية . (أنظر ص ٨٤.)

ولنا إذن أن ندرج فى باب « الأفكار اللاإرادية » جميع المادة الفكرية التى يثير انبعاثها استغرابنا ، فى الأحلام اللاخلقية واللامعقولة على السواء . بيد أن ثمت فارقاً هاماً بين الحالتين . هذا الفارق هو أننا نرى أن الأفكار اللاإرادية المتعلقة بالمجال الخلقى تناقض ما نألف من مشاعرنا ، بينما تبدو لنا الأخرى عجيبة وحسب . وما من خطوة اتخذت حتى اليوم من أجل الوصول إلى معرفة أعمق غوراً تتجاوز هذه التفرقة .

والآن ، ما هو معنى ظهور الأفكار اللاإرادية فى الحلم ، وأى النتائج تخلص لعلم النفس المستيقظة والحالمة من هذا الانبعاث الليلى للنوازع الخلقية المباينة لما عداها ؟ هنا تعود الآراء فتنقسم من جديد ، ويعود المؤلفون أيضاً فيجتمعون أو يتفرقون شيعاً على نحو جديد . فالفكرة التى قال بها هيلد برانت وغيره من الذين يشاطرونه جوهر رأيه تسوق لا محالة إلى التسليم بأن الاندفاعات اللاخلقية تملك قدراً من القوة فى حياة اليقظة نفسها ، غير أنها قوة مكفوفة لا تملك التقدم إلى حيز العمل ، وبأن شيئاً يبطل فى أثناء الليل ، كان له فى النهار فعل الكف ، فحال دوننا والانتباه إلى وجود أمثال هذه الاندفاعات . والحلم إذن قد يكشف عن طبيعة الإنسان الحقيقية ، وإن لم يكشف عن طبيعته كلها ، وقد يكون إحدى الوسائل فى تقريب باطن نفسه المستتر من معرفتنا . فهذا الفرض وحده هو الذى يخول لهيلد برانت أن يعزو إلى الحلم قوة النذير الذى يجذب انتباهنا إلى معايبنا الخلقية ، مثلما يعزو إليه الطبيب قوة الكشف عما تفوت ملاحظته من أدواء الجسم . ولا شك

(١) ["Certe nostre inclinazioni che si credevano soffocate e spente da un pezzo, si ridestano; passioni vecchie e sepolte rivivino; cose e persone a cui non pensiamo mai, ci vengono dinanzi."]

فى أن شپيتا كذلك إنما يسترشد هذه النظرة حين يتحدث عن مصادر التهييج التى تؤثر فى النفس فى سن المراهقة مثلا، فيعزّى الحالم بأنه إذا التزم الحياة الفاضلة فى يقظته وكان حريصاً على أن يقمع الأفكار الآثمة كلما انبعثت وعلى أن يحول بينها وبين أن تنضج وتصير فعالا ، فقد صنع كل ما وسعه أن يصنع . ويحق لنا وفاقاً لهذه النظرة أن نعرف الأفكار « اللاإرادية » بقولنا : إنها أفكار « قمعت » فى خلال النهار ، ويحق علينا أن ننظر إلى انبعاثها نظرتنا إلى ظاهرة سيكولوجية صادقة .

بيد أن ثمت كتاباً آخرين يرون أننا لا نملك ما يبرر النتيجة الآنفة . فى رأى يسّن أن الأفكار اللاإرادية فى الحلم كما فى اليقظة وفى هذيان الحمى وغير الحمى من الحالات « تتسم بإخلاء النشاط الإرادى إلى السكينة ، وبتوارد الصور والأفكار المستثارة باندفاعات باطنة تواردا آلياً إلى درجة تزيد أو تنقص » (١٨٥٥ ، ٣٦٠) . وكل ما يدل عليه الحلم اللاخلقى من الحياة النفسية للحالم هو أن الحالم قد سبقت له معرفة بمحتوى الحلم الفكرى ، ولكن الحلم لا يشهد على التأكيد بحصول صاحبه على نزوع نفس ما . فإذا رجعنا إلى مؤلف آخر هو مورى كاد يهيأ إلينا أنه لا ينسب إلى الحلم القدرة على هدم النشاط النفسى هدماً لا هدف من ورائه ، وإنما القدرة على رده إلى مقوماته . فهو يقول فى صدد الأحلام التى يتخطى فيها المرء موانع الأخلاق : « إن نوازعنا هى التى تتحدث وتحركنا إلى العمل دون أن يمسكنا الضمير وإن حذرنا أحياناً . فإن لى نقائصى ونوازعى إلى الرذيلة ، فإن كنت مستيقظاً جهدت فى مغالبتها ، ولا يندر أن أفلح فلا أسلمها قيادى . وأما فى أحلامى فأسلمه دائماً، أو قل: إننى أعمل بدفعها ، من غير خوف ولا ندم ... فمن الواضح أن الرؤى التى تتوارد أمام فكرى والتى منها يتكون الحلم ، توحيها إلى الحوافز التى أحسها والتى لا تسعى إرادتى الغائبة إلى كبتها . »[١] (١٨٧٨ ، ١١٣) .

وما من أحد يؤمن بقدرة الحلم على أن يرفع النقاب عن ميل للحالم مناف للخلق اشتملت عليه نفسه حقيقة وإن كان مقموعاً أو مستتراً ، كان يستطيع أن يعرب عن هذا

---

(١) [“Ce sont nos penchants qui parlent et qui nous font agir, sans que la conscience nous retienne, bien que parfois elle nous avertisse .J'ai mes défauts et mes penchants vicieux; à l'état de veille je tâche de lutter contre eux, et il m'arrive assez souvent de n'y pas succomber. Mais dans mes songes j'y succombe toujours ou pour mieux dire j'agis par leur impulsion, sans crainte et sans remords... Evidemment les visions qui se déroulent devant ma pensée et qui constituent le rêve, me sont suggérées par les incitations que je ressens et que ma volonté absente ne cherche pas à refouler.”]

المعنى بأدق من قول مورى (ص ١١٥) : « فى الحلم إذن ينكشف الإنسان لنفسه كله ، على ما ولد عليه من عرى وعوز . فهو ما أن يعلق استعماله لإرادته حتى يصير ألعوبة لجميع الانفعالات التى ينهانا عنها ونحن مستيقظون الضمير والإحساس بالشرف والخوف . »[١] وفى فقرة أخرى نقرأ له هذه الكلمة الثاقبة (ص ٤٦٢) : « إن الذى ينكشف فى الحلم هو على الأخص الإنسان الغريزى . فالإنسان حين يحلم يعود إلى الفطرة — إن جاز التعبير . وكلما قل تأصل الأفكار المكتسبة فى نفسه ، زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها عليه فى الحلم . »[٢] ومثاله على ذلك هو أنه كثيراً ما يبدو فى أحلامه ضحية الخرافات التى يحاربها فى كتاباته أشد محاربة .

ولكن ينقص قيمة هذه الملاحظات الثاقبة لمورى من حيث أثرها فى معرفتنا السيكولوجية بالحياة الحالمة رفضه أن يرى فى الظاهرة التى أصاب فى ملاحظتها إلى هذا المدى شيئاً آخر غير « الأوتوماتية السيكولوجية »[٣] التى تسيطر على الحياة الحالمة فى زعمه ، والتى يرى فيها الضد التام للنشاط النفسى .

هذا ، ونجد عند شتريكر (١٨٧٩) فقرة يقول فيها : « إن الحلم لا يتكون من أوهام وحسب ؛ فحين يخاف المرء فى الحلم غائلة اللصوص مثلا ، فاللصوص يقينا من صنع خياله ، لكن الخوف حقيقى . » وفى هذا ما ينبهنا إلى أن الحالات الوجدانية فى الحلم لا تقبل الحكم الذى يصدق على سائر محتواه . ومن ثم تنشأ هذه المشكلة : أى عمليات الحلم النفسية يمكن اعتبارها عمليات حقيقية ؟ وهذا يعنى : أيها يستحق أن يقسم له مكان بين العمليات النفسية لحياة اليقظة ؟

---

(١) [“En rêve l'homme se révèle donc tout entier à soi-même dans sa nudité et sa misère natives. Dès qu'il suspend l'excercice de sa volonté, il devient le jouet de toutes les passions contre lesquelles, à l'état de veille la conscience, le sentiment d'honneur, la crainte nous défendent.”]

(٢) [“Dans le rêve, c'est surtout l'homme instinctif qui se révèle... L'homme revient pour ainsi dire à l'état de nature quand il rêve; mais moins les idées acquises ont pénétré dans son esprit, olus les penchants en désaccord avec elles conservent encore sur lui d'influence dans le rêve.”]

(٣) [“automatisme pychologique”.]

ز
نظريات الحلم ووظيفة الحلم

كل مقال عن الحلم يهدف إلى تعليل أكثر ما يمكن تعليله من خصائصه الملاحظة مستنداً فى ذلك إلى وجهة نظر بعينها ، ثم فى الوقت نفسه يعرف مكان الحلم ضمن دائرة أوسع نطاقاً من الظواهر ، تجوز لنا تسميته نظرية فى الحلم . وتتميز نظريات الحلم المختلفة فيما بينها من حيث تعلى هذه الخاصة أو تلك إلى مرتبة الخاصة الجوهرية للحلم وتقيم عليها التعليلات والعلاقات . ولا يتحتم أن تتفرع عن كل نظرية وظيفة ما للحلم ، سواء أكانت وظيفة نفعية أم لم تكن ، بيد أننا وقد ألفنا أن نتوقع للأشياء غاياتها أكثر ترحيباً بهذه النظريات التى تلزم منها للحلم وظيفة .

ولقد أحطنا من قبل بنظرات متعددة تستحق بهذا المعنى أن يطلق عليها اسم النظريات. فاعتقاد القدامى أن الحلم ترسله الآلهة لهداية الإنسان فى أفعاله كان نظرية أفادت أصحابها خبراً بكل ما كانت تنبغى معرفته عن الحلم . ومنذ أن صار الحلم موضوع بحث علمى ، عرفنا عدداً وافراً من النظريات ، ولكن الكثير منها غاية فى النقص .

فإذا لم ندّع الاستيعاب ، أمكن أن نقسم نظريات الحلم تلك الأقسام الإجمالية الثلاثة ، وذلك من حيث مسلماتها الضمنية فيما يتصل بدرجة النشاط النفسى فى الحلم ونوع هذا النشاط :

١ — نظريات تترك النشاط النفسى يستمر كله فى الحلم ، مثل نظرية دلبوف . فالنفس على حسب هذه النظريات لا تنام ، وجهازها يظل سليماً ، ولكنها إذ تخضع لشروط حالة النوم المختلفة من شروط حياة اليقظة تحدث بأدائها السوى لوظائفها نتائج تختلف بالضرورة فى أثناء النوم منها فى اليقظة . والسؤال الذى نسأله بصدد هذه النظريات هو : هل هى تستطيع أن تشتق كل الفروق القائمة بين الحلم والتفكير المستيقظ من شروط حالة النوم وحدها ؟ ثم هى فوق ذلك لا تملك سبيلا تستطيع منه أن تتبين للحلم وظيفة ؛ فنحن لا نعلم لمَ نحلم ، لمَ تستمر الميكانيكية المعقدة للجهاز النفسى فى العمل حتى بعد الانتقال به إلى ملابسات لا يبدو معداً لها . فالنوم من غير حلم واليقظة إن وقع مزعج ، هما

وحدهما اللذان يظلان استجابتين نافعتين ، بدل الثالثة التى هى الحلم .

٢ ـ نظريات أخرى تفترض على العكس أن الحلم يتضمن نقصاً فى النشاط النفسى وتراخياً فى الروابط وفقراً فيما يستطيع امتلاكه من المواد . ويلزم من هذه النظريات أن تكون للنوم خصائص تختلف كل الاختلاف من تلك التى يضيفها إليه دلبوف مثلا . فالنوم وفق هذه النظريات ينال من النفس أكبر منال ، فلا يقتصر على إيصادها دون العالم الخارجى ، بل ينفذ إلى ميكانيكيتها ويبطل عملها إبطالا موقوتاً . ولو كان لى أن أجازف بتشبيه مستمد من مجال علم الطب النفسى ، لقلت : إن النظريات الأولى تركب الحلم على غرار البارانويا ، بينما تصوره الثانية على صورة الضعف العقلى أو الحالات الخلطية .

والنظرية القائلة : إن الحياة النفسية لا تجد فى الحلم إعراباً إلا عن جزء منها فقد شلها النوم ، هى النظرية المفضلة كثيراً عند الكتاب الأطباء وفى الدوائر العلمية بوجه عام . فهى النظرية التى يمكن وصفها بأنها النظرية السائدة ـ بقدرما يمكن القول بأن هناك اهتماماً عاماً بتعليل الأحلام . ولا يفوتنا أن نلحظ مدى السهولة التى تتجنب بها هذه النظرية الارتطام بالعقبة الكأداء التى تعترض كل محاولة فى تعليل الحلم ، وأعنى بها صعوبة فض متناقضاته . فهذه النظرية ترى فى الحلم نتيجة يقظة جزئية («يقظة تدريجية ، جزئية ، هى فى الوقت نفسه يقظة غير سوية إلى أبعد مدى » بتعبير هربارت ، ١٨٩٢) ؛ ولهذا فقد وسعها بسلسلة متدرجة من حالات التيقظ تتوجها اليقظة التامة أن تعلل كل درجات التفاوت فى نتاج النشاط النفسى للحلم ، من أحطه الذى يتجلى فى مجانبة كل معقولية إلى التفكير المركز تمام التركيز .

وأولئك الذين لا يرون لأنفسهم غنى عن لغة الفيزيولوجيا ، أو يرون لهذه اللغة طابعاً علمياً لا يرونه لغيرها ، سوف يجدون ضالتهم فى قول بينتس (١٨٧٨ ، ٤٣) :

« ولكن هذه الحالة (حالة السبات) لا تشرف على الانتهاء فى ساعات الصباح المبكر إلا بالتدريج ، فتتناقص المواد المتراكمة من التعب فى ألبومين المخ ، ويزداد ما يفسد منها أو يكتسحه جريان الدم غير المنقطع . وهكذا تستيقظ هنا وهناك مجموعات متفرقة من الخلايا بينما يبقى ما يحيط بها على حاله من السبات . وهنا يظهر أمام الشعور النائم أثر النشاط المنعزل لمجموعات الخلايا المتفرقة دون أن تكبحه سائر أجزاء المخ المتحكمة فى المستدعيات . ولهذا السبب كانت الصور الناشئة عن ذلك والتى يستمد معظمها من الانطباعات المادية

لماضينا القريب ترتبط بعضها ببعض على نحو همجى ، لا ضابط له . ولكن كلما أخذت خلايا المخ المستيقظة تزداد عدداً ، نقص خبل الحلم شيئاً فشيئاً . »

وتصور الحلم يقظة جزئية غير مكتملة تصور نصادفه يقيناً ، أو على الأقل نصادف آثاراً من نفوذه ، فى كتابات كل فيزيولوجى أو فيلسوف معاصر . وموری هو أكثر من فصل الكلام فيه ؛ فهذا المؤلف يبدو فى كثير من الأحيان كأنه يتخيل أن حالة اليقظة أو النوم تقبل النقلة من منطقة تشريحية إلى أخرى ، هذا مع ارتباط كل منطقة تشريحية فى رأيه بوظيفة نفسية خاصة بها ارتباطاً لا شك فيه . ولكننى لا أبتغى فى هذا الموضع سوى الإلماع إلى أن نظرية اليقظة الجزئية — حتى إذا لاقت ما يؤيدها — تظل معرضة أشد التعريض لنقاش طويل فى دقائقها .

وطبعى أن هذه النظرية لا تترك مجالا للحديث عن وظيفة معينة للحلم . بل الأصح أن بينتس يستخلص نتيجتها المنطقية فيما يتصل بمقام الحلم ومغزاه حين يقول (١٨٧٨ ، ٣٥) : « إن كل الوقائع تدفعنا — كما نرى — إلى أن نعد الحلم عملية جسمية معدومة النفع فى جميع الحالات ، مرَضية على التحقيق فى الكثير منها . »

ولا شك فى أن تطبيق النعت « جسمى » — الذى يدين بإبرازه إلى المؤلف نفسه — على الأحلام ، أمر له أكثر من دلالة . فهو يشير أولا إلى علية الحلم التى كانت ولا شك تلوح لعين بينتس ذات وجاهة خاصة حين كان يدرس إحداث الأحلام بالتجريب ، بإعمال المواد السامة . فمما يتسق وهذا الضرب من النظريات أن يقصر الحافز إلى الحلم على علل جسمية ، قدر الإمكان . ولو أننا صغنا هذه النظرية فى أشد صورها تطرفاً ، لكان منطوقها هكذا : إننا ما أن نبعد عن أنفسنا كل منبه فننام حتى تنعدم كل حاجة إلى الحلم وكل مناسبة تبعث عليه ، إلى أن يجىء الصباح فتتوارد المنبهات من جديد ونأخذ من جانبنا فى الاستيقاظ وينعكس ذلك فى ظاهرة الحلم ، بيد أن صيانة النوم من كل منبه ضرب من المحال ؛ فالمنبهات تقتحم النائم من كل الجوانب ، مثل بذور الحياة التى ضج منها مفيستو بالشكوى ، [1] تقتحمه من داخل ومن خارج ، بل من أجزاء من جسمه لا نلحظ شأنها مطلقاً ونحن مستيقظون ، وهكذا ينزعج النوم وتهتز إلى اليقظة هذه الزاوية من النفس ثم تهتز تلك ، وتعمل النفس بشطرها المستيقظ سعيدة إذا استطاعت أن تعود إلى النوم من

(١) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد الثالث : فى مكتب فاوست .]

جديد ، والحلم إنما هو استجابة إلى الإزعاج الذى تجلبه المنبهات على النوم — استجابة لا طائل منها بعدُ على الإطلاق .

ثم إن وصف الحلم — الذى يظل مهما قيل وجهاً من أوجه النشاط النفسى — بكونه عملية جسمية ، ينطوى أيضاً على مقصد آخر : فبه يجرد الحلم من قيمة العملية النفبسية . وربما كان مثل « العازف الجاهل الذى تجرى أصابعه العشرة على الأوتار » ، هذا المثل البالى الذى يطبقه وُلاة العلم المضبوط على الحلم ، هو خير ما يصور أية استهانة يلقاها بينهم النشاط النفسى للحلم . وعلى حسب هذه النظرة يصبح الحلم شيئاً لا يقبل تفسيراً ؛ فأنى للعازف الجاهل أن تجد أصابعه العشرة بمقطوعة من الموسيقا ؟

ولم تعدم نظرية اليقظة الجزئية نقادها حتى فى الماضى البعيد . فقد كان من رأى بورداخ عام ١٨٣٨ : « أننا حين نقول : إن الحلم يقظة جزئية ، فهذا القول — أولا — لا يلقى ضوءاً ما سواء على اليقظة أو على النوم ، ثم هو — ثانياً — لا يعدو قولنا : إن بعض القوى النفسية تنشط فى أثناء الحلم بينما يظل البعض الآخر ساكناً . ولكن مثل هذا التفاوت يقع فى كل وقت من الحياة . . . » (ص ٥٠٨)

وإلى هذه النظرية السائدة التى ترى فى الحلم عملية جسمية ، يستند فرض خليق بأكبر الاهتمام ، كان روبرت أول من ذهب إليه عام ١٨٨٦ ، وهو فرض له جاذبيته لأنه يعرف كيف يجعل للحلم وظيفة أو نتيجة نافعة . ويقيم روبرت نظريته على واقعتين من الوقائع الملاحظة ، سبق لنا النظر فيهما ونحن نبحث فى مادة الحلم (أنظر ص ٥٧) . وهاتان الواقعتان هما : أننا غالباً ما نحلم بأكثر انطباعات النهار تفاهة ، وأننا نادراً ما نتابع فى الحلم مشاغل النهار الهامة . ويؤكد روبرت أن من الصحيح بوجه لا استثناء فيه أن الأشياء التى فرغنا من التفكير فى أمرها لا تحفز إلى الحلم إطلاقاً ، وإنما تحفز إليه تلك التى تعلق بالذهن دون أن تكتمل ، أو التى يكون الذهن قد مر بها مروراً خاطفاً (١٨٨٦ ، ١٠) . — « والسبب الذى من أجله نعجز عادة عن تعليل أحلامنا هو أن عللها هى على التحديد تلك الانطباعات الحسية التى لم يتعرفها الحالم فى اليوم السابق تعرفاً كاملا . » فالشرط فى تسرب انطباع ما إلى الحلم هو إما أن يحول حائل دون الفراغ من التفكير فى أمره ، وإما أن يكون هذا الإنطباع ضئيل الشأن بحيث لا يتطاب مثل هذا التفكير على الإطلاق .

والحلم إذن ، فى تصور روبرت ، « عملية نزح جسمية ، نصير إلى الشعور بها فى

استجابتنا إليها . » إن الحلم نزح لأفكار خنقت فى المهد . « ولو أن إنساناً سلب القدرة على الحلم، لانتهى به الأمر حيناً إلى الخلل العقلى ؛ إذ سوف يزدحم فى ذهنه عدد يفوق الحصر من الخواطر الناقصة المعلقة ومن الانطباعات السطحية . بحيث تختنق تحت ثقل هذه الخواطر والانطباعات تلك الأفكار التى يجب أن تمكث فى الذاكرة فى صورة كل مكتمل . » فالحلم يعمل عمل صمام الأمان بالنسبة إلى الذهن المثقل ، وإن الأحلام لتملك قدرة مطببة مخففة . (ص ٣٢) .

غير أننا نخطىء فهم روبرت إذا نحن سألناه كيف يفيد تمثل الأشياء فى الحلم فى تخفيف أعباء النفس . فمن الواضح أن المؤلف قد خلص من هاتين الخاصتين اللتين تميزان مادة الحلم إلى أن الانطباعات المجردة من القيمة يتم نزحها فى أثناء النوم على نحو من الأنحاء بفعل عملية جسمية ، وإلى أن الحلم ليس عملية نفسية قائمة بذاتها ، بل هو المعرفة التى تبلغنا عن هذا النزح . والنزح بعد ذلك ليس الشىء الوحيد الذى يحدث ليلا فى النفس ؛ فروبرت نفسه يضيف إلى ما سبق أن الأفكار المتخلفة من اليوم المنقضى قد يتم فوق ذلك إحكامها ، وأن « ما لا يتسنى نزحه من المواد التى تبقى فى الذهن دون أن تهضم قد يربط فيما بينه بخيوط مستعارة فى المخيلة بحيث يكون كلا مؤتلفاً ، وبهذا ينتظم فى الذاكرة كصور خيالية لا ضرر منها . » (ص ٢٣) .

ولكن روبرت يخالف النظرية السائدة تمام المخالفة من حيث تقديره لطبيعة المصادر التى يصدر عنها الحلم . فبينما يخلص من تلك النظرية أن الإنسان ما كان ليحلم لولا المنبهات الحسية التى توقظ النفس بدون انقطاع من الداخل ومن الخارج ، تقيم نظرية روبرت الدافع إلى الحلم فى النفس ذاتها ، فى ثقل أحمالها وحاجتها إلى التخفف ، ثم بعد ذلك يستخلص روبرت من رأيه هذا نتيجته المنطقية فيقرر أن علل الحلم المنبعثة من أحوال الجسد إنما تشغل مرتبة ثانوية ، وأن ذهناً لم يختزن من شعوره المستيقظ مادة يبنى بها أحلامه ما كانت تسوقه هذه العلل إلى الحلم بحال من الأحوال . والقيد الوحيد الذى يقيد به روبرت رأيه هذا هو تسليمه بأن الأخيلة المنبعثة فى الحلم من أعماق النفس قد تتأثر بفعل المنبهات العصبية (ص ٤٨) . وهكذا لا يكون الحلم فى النهاية ، على حسب روبرت ، متوقفاً كل التوقف على الأحداث الجسمية . ومع هذا فالحلم فى رأيه ليس بالعملية النفسية ، ولا له من محل بين العمليات النفسية لليقظة ، إنه عملية جسمية تقع كل ليلة فى الجهاز المختص بالنشاط

النفسى ، عملية لها وظيفة تؤديها ، هى وقاية هذا الجهاز من فرط التوتر ، أو إذا جاز أن نستبدل بالتشبيه تشبيهاً فهذه الوظيفة هى : تنظيف النفس .

وعلى ذات الخاصتين المتجليتين فى اختيار مادة الحلم يقيم مؤلف آخر ، هو إيڤ دولاچ ، نظريته . وإنه لمن المفيد فى هذا المعرض أن نرى كيف تؤدى حيدة خفيفة فى النظر إلى ذات الأشياء إلى نتيجة مختلفة الدلالة كل الاختلاف .

فقد لاحظ دولاچ عن خبرة وقعت له ، بعد أن أفقده الموت عزيزاً لديه ، أن المرء لا يحلم بما يستبد بفكره نهاراً ، أو لا يحلم به إلا بعد أن تأخذ شواغل النهار الأخرى فى تلطيفه . فلما استعلم غيره تأيد عنده عموم هذا الوضع . وإنه ليأتى فى صدد أحلام المتزوجين حديثاً بملاحظة تكون خليقة بالاهتمام لو ثبت اطراد صدقها، يقول (١٨٩١ ، ٤١) : « إذا كان كلاهما شديد الشغف بالآخر ، لم يكد يحلم به مطلقاً قبيل الزواج أو فى خلال شهر العسل فإن حلم بغرام ، فلكى يرتكب فى حلمه خيانة ما مع ثالث لا منزلة له فى النفس أو كريه إليها . »[1] بم تحلم النفس إذن ؟ يرى دولاچ أن المادة التى تعرض فى أحلامنا تتكون من نبذ مستقاة من انطباعات الأيام الأخيرة أو التى قبلها ومن بقاياها . فكل ما يظهر فى أحلامنا وننزع فى أول الامر إلى ان نعده خلقاً من خلق الحياة الحالمة ، لا نلبث أن نتبين حين نفحصه عن مقربة أنه استحضار لم نعرفه [لخبرة سابقة]، أنه «ذكرى لاشعورية»[2]. بيد أن هذه المادة الفكرية تبدى خاصة مشتركة : فهى تنشأ من انطباعات كان تأثيرها فى حواسنا أشد على الأغلب منه فى عقولنا ، أو من انطباعات تحول عنها الانتباه على أثر وقوعها . فكلما قل حظ الانطباع من الشعور وزاد مع ذلك حظه من القوة ، ازداد احتمال أخذه من الحلم القادم بنصيب .

هاتان المقولتان من مقولات الانطباعات : ما خلا من الشأن وما لم نفرغ من أمره بعد، هما هما من حيث الجوهر ذات المقولتين اللتين ذكرهما روبرت نلقاهما من جديد . ولكن دولاچ ينحو بالمسألة نحواً آخر ؛ فهو يرى أن هذه الانطباعات لا تحدث الحلم لخلوها من الشأن بل لكوننا لم نفرغ من استيعاب التفكير فيها . ومن الصحيح أن الانطباعات التافهة

---

(١) ["S'ils ont été fortement épris, presque jamais ils n'ont rêvé l'un de l'autre avant le mariage ou pendant la lune de miel; et s'ils ont rêvé d'amour c'est pour être infidèles avec quelque personne indifférente ou odieuse."]

(٢) ["souvenir inconscient"]

هى أيضاً بمعنى من المعانى انطباعات لم تلق منا معالجة كافية ؛ فهى — وهى الحديثة العهد — تكون بمثابة « لوالب مشدودة » (١) ترخى فى أثناء النوم . والانطباع القوى الذى اتفق أن حال حائل دون الفراغ من معالجته أو الذى كبح جماحة عن عمد له حق فى المشاركة فى الحلم يفوق ما يكون لانطباع ضعيف لم يكد يلقى انتباهاً . فالقوة النفسية المختزنة فى أثناء النهار نتيجة للكف وللقمع تصير القوة الدافعة إلى الحلم فى الليل : فى الحلم يبرز المكبوت النفسى (٢) .

ومن سوء الحظ أن دولاچ يقف بنظريته عند هذا الحد . فهو لا يستطيع أن يعزو إلى نشاط نفسى مستقل إلا أقل نصيب فى الحلم ، وبهذا يرتد بنظريته إلى ما يتفق والنظرية السائدة ، نظرية الصحو الجزئى : « وخلاصة القول هى أن الحلم نتاج الفكر الضال من غير هدف ولا اتجاه ، متوقفاً على التعاقب عند الذكريات التى بقى لها من الشدة ما يمكنها من اعتراض طريقه واستيقاف سيره ، رابطاً بينها برباط يضعف ويرخو حيناً ثم يشتد حيناً آخر ويضيق ، على حسب التفاوت فى مقدار ما يمحوه النوم من نشاط المخ الفعلى . » (٣) (ص ٤٦) .

٣ — ونستطيع أن ندرج فى طائفة ثالثة تلك النظريات التى تعزو إلى النفس الحالمة قدرة ونزوعاً إلى أنواع بعينها من النشاط النفسى تعجز عن أدائها فى الحياة المستيقظة كل العجز أو لا تؤديها إلا على نحو ناقص جداً — وإن تشغيل هذه القدرات لأمر يجعل عادة للحلم وظيفة . وفى هذه الطائفة الثالثة تدخل معظم آراء علماء النفس الأسبقين فى تقدير الحلم ، بيد أننى أقنع بأن أنيب عنهم نصاً لبورداخ يخلص منه أن الحلم « هو النشاط الطبعى للنفس ، نشاط لا يقيده طغيان الفردية ، ولا يعطله الشعور بالذات ، ولا يوجهه

---

(١) [“autant de ressorts tendus”.]

(٢) يعرب أناتول فرانس عن فكرة مماثلة كل المماثلة إذ يقول :

“Ce que nous voyons la nuit, ce sont souvent les restes malheureux de ce que nous avons négligé dans la veille. Le rêve est souvent la revanche des choses qu'on méprise ou le reproche des êtres abandonnés.” (Le lys rouge)

[” إن ما نراه فى خلال الليل هو فى الكثير من الأحيان تلك البقايا التعسة لما أغفلناه فى يقظتنا ؛ فالحلم كثيراً ما يكون ثأر الأشياء التى احتقرناها ، أو عتاب الكائنات التى هجرناها . “ الزنبقة الحمراء .]

(٣) [“En somme le rêve est le produit de la pensée errante, suns but et sans direction, se fixant successivement sur les souvenirs qui ont gardé assez d'intensitépour se placer sur sa route et l'arrêter au passage, établissant entre eux un lien tantôt faible et indécis, tantôt plus fort et plus ıé,ser selon que l'activité actuelle du cerveau est plus ou moins abolie par le sommeil.”]

الحتم الذاتى ، وإنما هو حيوية المراكز الحسية وقد خلت للعب الطليق . » (١٨٣٨ ، ٥١٢) .

ومن الواضح أن بورداخ وسائر من ذهب مذهبه يرون أن هذا البذخ فى استخدام النفس قواها حالة تنتعش النفس فيها وتجتمع لها بها قوة جديدة على عمل النهار ، شىء أشبه بالإجازة . ولهذا كان بورداخ يستشهد بالكلمات الساحرة التى يشيد فيها الشاعر نوفاليس بمملكة الحلم ، ويقبل هذه الكلمات : « الحلم درع بيننا وبين راتب الحياة ومألوفها ، استرواح طليق للمخيلة تضرب فيه جميع صور الحياة بعضها ببعض وتقطع جد الراشد المستديم بلعب الطفل المرح ؛ فلولا الحلم لكان من المستيقن أن تسبق شيخوختنا أوانها . وهكذا يستطيع الإنسان أن يرى فى الحلم هبة غالية ، وإن جاز ألا تكون مرسلة من عليين ، وأن يعده رفيقاً مخلصاً يصحبه فى حجه إلى قبره . »

ويصف بوركينيه هذه الوظيفة المطببة المجددة لقوى الحياة وصفاً أكثر بعد إلحاحاً ، فيقول (١٨٤٦ ، ٤٥٦) : « والأحلام المبدعة بنوع خاص هى التى تقوم بهذه الوظائف . فهذه الأحلام هى لعب المخيلة لعباً سهلا وليس يربط بينها وبين أحداث النهار رباط ما . فالنفس راغبة عن إطالة ما تتضمنه الحياة المستيقظة من التوترات ، بل هى تنشد إرخاءها والاستجمام منها . ثم هى قبل كل شىء تخلق حالات تضاد حالات اليقظة ، فتعالج الحزن بالفرح ، والهم بالأمل وصور السلوان ، وتعالج الكراهية بالحب والصداقة ، والخوف بالشجاعة والثقة ، وتهدىء الشك باليقين والاعتقاد الراسخ ، والانتظار على غير طائل بالتحقيق . وكثير من جراح القلب التى لا تلتئم أبداً فى النهار يداويها النوم الذى يسترها ويصونها من كل هائج جديد . وعلى هذا ينبنى إلى حد فعل الزمن الشافى . » ونحن جميعاً نشعر بأن للنوم فعله الطيب فى الحياة النفسية ، كما أن الإحساس الغامض الذى للروح الشعبى يأبى إباءً صريحاً أن يسلب اعتقاده بأن الحلم أحد الطرق التى منها يبذل النوم أفضاله .

ولكن أشد المحاولات أصالة وأعمقها غوراً فى تعليل الحلم باعتباره نوعاً خاصاً من النشاط النفسى لا يستطيع الانطلاق حرًّا إلا فى خلال النوم ، هى تلك التى أتاها شرنر سنة ١٨٦١ . لقد كتب شرنر كتابه بأسلوب ثقيل ، طنان ، مشبع بحماسة للموضوع تكاد تقارب الثمل ، أسلوب من شأنه أن يصد كل قارىء لا ينساق فى تياره ، ثم هو يقيم فى وجه من

يتعرض لتحليله صعوبات تجعلنا نعتاض عنه طواعية بالعرض الواضح الموجز الذى كتبه الفيلسوف فوللكت لنظريات شرنر : « من خلال هذه الأركام التصوفية ومن ثنايا هذه السحب من الفخامة والبهاء تومض ، وميض البرق ، لمحات المعنى المكنون . لكن هذه لا تنير طريق الفيلسوف . » — ذلك هو الحكم الذى يصدره على أسلوب شرنر تلميذه نفسه . (فوللكت ١٨٧٥ ، ٢٩) .

إن شرنر ليس من هؤلاء الكتاب الذين يدعون للنفس كل ملكاتها حين تنتقل إلى الحياة الحالمة . كلا ، بل هو يرينا كيف تجرد بؤرة الأنا المركزية ، طاقته التلقائية ، من قوتها العصبية فى أثناء الحلم ، وكيف تنجم عن هذه اللامركزية المُدْخَلَة أن تتغير عمليات المعرفة والإحساس والإرادة والتصور ، وكيف تعدم البقايا المتبقية من هذه الوظائف النفسية كل طابع عقلى حق ، وتصير حركات آلية ليس غير . بيد أن الملكة التى تجوز تسميتها مخيلة تظفر فى مقابل ذلك بسيطرة غير مقيدة : فهى تتحرر من سيادة العقل وتتحرر — من ثم — من كل قاعدة تلتزم . صحيح أن مخيلة الحلم تستمد كل مواد بنائها من ذكريات اليقظة القريبة ، ولكنها تشيد منها تراكيب لا تحمل أدنى شبه بتراكيب الحياة المستيقظة ؛ فهى تكشف فى الحلم عن قدرة مبدعة ، لا مستحضرة فحسب . وخواصها هى ما يخلع على الحياة الحالمة سماتها ؛ فهى تؤثر من الأشياء المفرط والمغرق والمهول . غير أنها ، فى الوقت عينه ، إذ تتحرر من موانع الفكر بمقولاته تكتسب قدراً أعظم من اللدونة والخفة والتقلب ؛ فهى حاسة كأرهف ما يكون الحس بدقائق الخلجات الرقيقة مثلها بعنيف الانفعالات ، ثم هى سريعة إلى تجسيد حياتنا الباطنة فى صور خارجية يلمسها البصر . فمخيلة الحلم مسلوبة القدرة على لغة التصورات المجردة ، وهى إذن مضطرة إلى أن تصوغ ما تريد قوله فى تصاوير ، وإنها لتستخدم هذا الأسلوب المصور استخداماً كاملا قوياً ، فما هناك من تصورات مجردة تكسر شوكتها . لهذا كانت لغتها — مهما بلغ وضوحها — مسهبة ، ثقيلة ، متعثرة . ثم ينتقص وضوحَها بنوع خاص صدوفُها عن تمثيل الموضوع بصورته الخاصة به وإيثارها صورة غريبة عنه إذا كان فى هذه الصورة ما يعرب عن هذا المحمول الذى يهمها تمثيله وحده دون سائر محمولات الموضوع . وذلك هو النشاط الرمزى للمخيلة . . . وأمر آخر له أهميته القصوى ؛ هو أن مخيلة الحلم لا تصور الموضوعات أبداً تصويراً مستوفى بل مجملا فقط ، حتى هذا الإجمال تأتيه فى كثير من الحرية ؛ ولهذا جاءت صورها أشبه بتخطيطات مبتكرة .

غير أن مخيلة الحلم لا تقف عند مجرد تمثيل الموضوع ، بل تدفعها ضرورة باطنة إلى أن تدخل أنا الحالم فى علاقة بهذا الموضوع إلى حد ينقص أو يزيد، وبهذا تخلق حدثاً . مثال ذلك أن حلماً صادراً عن منبه بصرى قد يصور قطعاً ذهبية ملقاة فى الطريق : عندئذ سوف يلتقطها الحالم ويمضى فرحاً .

وأما المادة التى تتناولها مخيلة الحلم بنشاطها الفنى هذا ، فأهم مصادرها ، على حسب شرنر ، المنبهات الجسمية العضوية التى تظل مبهمة فى خلال النهار (أنظر ص ٦٨ وما يليها فيما سبق) . وهكذا يكون ثمت تطابق تام فيما يتعلق بمصادر الحلم ومنبهاته بين هاتين النظريتين الكائنتين على طرفى نقيض فى كل ما خلا ذلك : نظرية شرنر المغرقة فى الخيال ونظرية ڤونت وغيره من الفيزيولوجيين ، المتزنة اتزاناً قد يكون فيه بعض الغلو . ولكنه بينما ترى نظرية الفيزيولوجيين أن الاستجابة السيكولوجية إلى المنبهات العضوية الباطنية تكمل إذا ما استيقظت أفكار تناسب هذه المنبهات على نحو من أنحاء المناسبة ، أفكار تثير غيرها من طريق التداعى ، وإلى هذا الحد تنتهى سلسلة العمليات النفسية — ترى نظرية شرنر أن عمل المنبه العضوى ينحصر فى تزويد النفس بالمادة التى تمكنها من تحقيق أهدافها التخيلية . فتكوين الحلم فى رأى شرنر إنما يبدأ حيث يرى المؤلفون الآخرون أنه ينتهى .

ومن المؤكد أننا لانستطيع أن نرى فيما تصنعه مخيلة الحلم بالمنبهات الحسية شيئاً ذا قصد نافع ؛ فهى إنما تلعب بها لعباً عابثاً وتصور المصادر العضوية التى تنبعث منها هذه المنبهات بضرب من الرمزية المشكِّلة . ويرى شرنر — وفى هذا يفترق منه فوللكت وكثير غيره — أن مخيلة الحلم تملك طريقة بعينها تؤثرها فى تصوير الكائن العضوى فى مجموعه : تلك هى تصويره فى صورة المنزل . إلا أنها لحسن الحظ لا تبدو تلتزم هذه الطريقة الواحدة فى التصوير . ثم هى قد تشير على العكس إلى عضو مفرد من أعضاء الجسم بصف بأسره من المنازل : كأن تصور منبهاً معوياً بشارع اصطفت المنازل طويلا على جانبيه . ويتفق فى مرة أخرى أن تنوب أجزاء متفرقة من المنزل عن أجزاء متفرقة من الجسم : مثال ذلك أن حلماً ناجماً عن صداع قد يصور الرأس فيه بسقف منزل تغطيه عناكب أشبه بالضفادع تبعث على الغثيان .

وإذا تركنا رمزية المنزل جانباً ، فقد تستخدم مخيلة الحلم أى موضوع آخر يروقها فى تصوير أجزاء الجسم الصادرة عنها المنبهات : « فيرمز إلى الرئتين وهما تتنفسان بالموقد المستعر

بما له من زئير كالريح ، ويرمز إلى القلب بالصناديق والسلال المجوفة ، وإلى المثانة بالموضوعات المستديرة الشبيهة بالأكياس أو بالموضوعات المقورة على وجه أعم . فإن كان الحلم راجعاً إلى منبه جنسى رأى الحالم أنه يصادف فى الطريق مبسم « كلارينت » أو غليون طباق أو قطعة من الفراء كذلك . وهنا تمثل « الكلارينت » أو غليون الطباق الشكل التقريبى لعضو الذكورة ، بينما يمثل الفراء شعر العانة . وأما الأحلام الجنسية عند الإناث ، فقد يرمز فيها إلى الفرجة الضيقة بين الفخذين حين يلتصقان بفناء ضيق أحاطت به المنازل ، بينما يرمز إلى الفرج بممر ناعم ، زلق ، شديد الضيق ، يجرى عبر الفناء ، ترى الحالمة نفسها مضطرة إلى المسير فيه لكى تحمل ، مثلا ، رسالة ما إلى رجل من الرجال . » (فوللكت ، ص٣٤ .) وإنه لأمر له أهميته الخاصة أن مخيلة الحلم قد ترفع النقاب عن وجهها — إن جاز هذا التعبير — فى نهاية هذه الأحلام الناجمة عن منبه جسمى ، إذ تكشف صراحة عن العضو الذى يتعلق به الأمر أو عن وظيفته . وهكذا يقع عادة أن تنتهى « أحلام الأسنان» بأن ينتزع الحالم سناً من فمه .

بيد أن مخيلة الحلم قد لاتوجه انتباهها إلى شكل العضو المنبِّه فقط ، بل ترمز كذلك إلى المادة المحتواة فى هذا العضو : مثال ذلك وحل الطريق فى الأحلام الناجمة عن منبه معوى ، وزبد الماء فى تلك الناجمة عن منبه بولى . أو قد يتناول التمثيل الرمزى المنبه من حيث هو كذلك ، أو نوع التهيج الذى يحدثه ، أو الموضوع الذى يصبو إليه ، أو قد يدخل أنا الحالم فى علاقة منظورة بالرموز التى تصور حالته النفسية : مثال ذلك أن يصارع الحالم صراع المستميت كلاباً مسعورة أو ثيراناً هائجة فى حالة المنبهات الأليمة ، أو ترى الحالمة نفسها ورجل عار يطاردها فى حلم جنسى . فإذا تركنا جانباً كل هذه الثروة فى وسائل التصوير الممكنة ، بقى أن النشاط الرمزى للمخيلة هو القوة المركزية فى كل حلم . ولقد حاول فوللكت فى صفحات كتابه أن يتعمق ماهية هذه المخيلة وأن يجد لها محلا فى مذهب فلسفى ، ولكن كتابه ، وإن سطر بأسلوب بديع قوى ، يظل صعب الفهم فى الغاية على من لم يعده تعليمه المبكر لإدراك التصورات الفلسفية بروح من القبول .

ولا تقترن هذه المخيلة الرامزة التى يقول بها شرنر بأية وظيفة نافعة : إن النفس تلعب حالمة بما يعرض لها من المنبهات . ومن حق القارئ أن يستخلص أنه لعب أدنى إلى الأذى منه إلى النفع . ولكن من حق القارئ أيضاً أن يسألنا : وعلام إذن كان هذا

الاهتمام الطويل بنظرية شرنر ، وهى نظرية يبدو جلياً خلوها من كل سند غير إرادة صاحبها وخروجها على كل قواعد البحث ؟ ولعل من حقنا على سبيل الجواب أن نسجل ههنا احتجاجنا على هذا الترفع الذى تنطوى عليه إرادتنا أن ننبذ نظرية شرنر دون سابق فحص . فهذه نظرية تستند إلى الوقع الذى أحدثته فى نفس رجل أحلامه ، وهو رجل أولاها أعظم انتباهه وتدل الدلائل على أنه ذو موهبة تؤهله أحسن التأهيل للغوص فى دياجير النفس . ثم هو فوق ذلك يعالج موضوعاً ظل البشر آلاف السنين وهم يعدونه من غير شك لغزاً ، لكن لغزاً خطيراً فى ذاته ومتضمناته ، ولم يسد العلم المضبوط – باعترافه هو – سوى الشىء القليل فى سبيل إيضاحه ، فيما خلا محاولة تهدف إلى تجريده من كل مضمون أو مغزى ، على نقيض الاعتقاد الشعبى . وأخيراً فلعل من الأمانة أن نقول : إن الأمور تبدو كما لو كان من الصعب علينا بمكان أن نشرع فى تعليل الحلم دون أن نقع فى حبائل الخيال . فهناك أيضاً خيال اسمه : الخلايا العقدية . وإن الفقرة التى نقلناها (ص ١٠٩) عن باحث متزن دقيق مثل بينتس ، تلك الفقرة التى تصف كيف يشرق فجر اليقظة على مجاميع الخلايا النائمة فى المخ ، لا تترك لمحاولات شرنر قصب السبق فى شطط الخيال وضعف الاحتمال . وآمل أن تكون لى القدرة على أن أبين أن وراء هذه المحاولات الأخيرة يكمن جانب من الحق ، وإن كان من المقطوع به أن هذا الجانب لم يدركه شرنر إلا على نحو غامض ، وأنه يفتقر إلى طابع العموم الذى لا تكون بغيره نظرية فى الحلم جديرة بهذا الاسم . وإلى أن يتحقق ذلك ، فالتعارض بين نظرية شرنر ونظرية الأطباء يرينا أى طرفين لا يزال الشك يؤرجح بينهما تعليلات الحلم إلى يومنا هذا .

ح
العلاقة بين الحلم والأمراض العقلية

عندما نتحدث عن علاقة الحلم بالاضطرابات العقلية ، فقد نعنى بذلك ثلاثة أشياء مختلفة : (١) العلاقات العلية الإكلينيكية ، مثلما يقع حين يمثل حلم من الأحلام حالة ذهانية أو حين يستهلها أو يتخلف عنها ، (٢) التغييرات التى تطرأ على الحياة الحالمة فى حالات المرض العقلى ، (٣) العلاقات الباطنة بين الحلم وحالات الذهان ؛ فبينهما من

أوجه التماثل ما يشير إلى قرابة جوهرية . ولقد كانت هذه العلاقات المتشعبة بين الظاهرتين موضوعاً يؤثره المؤلفون الأطباء بعنايتهم فى الماضى ، وهم اليوم يؤثرونه من جديد — كما يتضح من قوائم المراجع التى جمعها فى هذا الشأن شپيتا ورادشتوك وموری وتيسييه . وحديثاً جداً أعار سانته دى سانكتيس هذه المسألة انتباهه[١] . ولكن يكفينا فيما نتوخاه أن نلمس هذه المسألة الهامة لمساً .

وأما فيما يتصل بالعلاقات الإكلينيكية والعلية بين الحلم والذهان ، فأورد الملاحظات الآتية على سبيل المثال : يرى هنباوم (على ما يقوله كراوس) أن التفجر الأول للجنون الهجاسى ينبعث فى أحيان كثيرة من حلم هيلة مروع ، وحينئذ يكون ثمت ارتباط بين الفكرة المتسلطة والحلم . ويورد سانته دىسانكتيس ملاحظات مماثلة فى صدد حالات من البارانويا ، معلناً أن الحلم فى بعض هذه الحالات قد يكون هو « العلة الحقيقية المحتمة للجنون . »[٢] ويقول سانكتيس : إن الذهان قد ينبعث إلى الحياة دفعة واحدة بانبثاق الحلم الذى يخرج فيه التأويل الهجاسى إلى الضوء ، أو قد يتمخض رويداً رويداً خلال سلسلة من الأحلام تأتى بعد ذلك إلى أن يغلب الاعتقاد الهجاسى كل شك . واتفق فى إحدى حالاته أن الحلم التأويلى كانت تعقبه نوبات هستيرية خفيفة ثم صارت تعقبه حالة سوادية تصحبها الهيلة . ويروى فيريه (على ما يقول تيسييه) حلماً نجم عنه شلل هسترى . وفى هذه الأمثلة يساق الحلم على أنه علة الاضطراب العقلى ، ولكنا نصدق الواقع أيضاً إذا قلنا : إن الاضطراب العقلى يظهر فى الحياة الحالمة أول ما يظهر ، أو إن أول انبثاقه يكون من خلال الحلم . وفى أمثلة أخرى تنحصر الأعراض المرضية فى نطاق الحياة الحالمة أو يقتصر الذهان على هذه الحياة. وهكذا يجذب توماير الانتباه إلى أحلام هيلة يرى أن الواجب أن نعدها أعدالا لنوبات صرعية . ولقد وصف أليسون (يذكره رادشتوك) حالة جنون ليلى[٣] كان المريض يبدو فيها مكتمل الصحة كل الاكتمال نهاراً ، ثم لا تأتى ليلة إلا استهدف للهلاوس ولنوبات من الهياج ... إلخ . ويورد دى سانكتيس ملاحظات شبيهة بهذه (حلم يعدل البارانويا عند رجل مدمن على الكحول ،

(١) ومن الكتاب الذين اهتموا بعد ذلك بهذه العلاقات : فيريه وإيدلر ولاسيج وبيشون وريجى وڤسپا وجيسلر وكازوفسكى وپاكانتونى .

(٢) ["la vraie cause déterminante de la folie"]

(٣) [nocturnal insanity]

وكان الحلم يصور له أصواتاً تتهم زوجه بالخيانة) وكذلك يفعل تيسييه . ويسوق المؤلف الأخير ملاحظات حديثة متعددة عن أفعال مرضية (كالسلوك المقام على مقدمات هجاسية أو اندفاعات قهرية) تفرعت عن الحلم . ويروى جيسلون حالة انقلب فيها النوم إلى جنون يأتى على فترات.

فلا شك فى أن الأطباء إلى جانب بحثهم فى نفسية الحلم، سوف يوجهون يوماً اهتمامهم إلى مرضيته .

وكثيراً ما يتاح لنا أن نلحظ بوضوح خاص فى حالات النقاهة من المرض العقلى أن الأحلام لا تزال تخضع لتأثير الذهان ، بينما تعمل الوظائف على نحو سوى فى خلال النهار. ويقول كراوس: إن جريجورى هو أول من جذب الانتباه إلى هذه الحقيقة . ويروى ماكاريو (على حسب تيسييه) أن مريضاً بالهوس كان بعد أسبوع كامل من شفائه لا يزال يستهدف فى أحلامه لتلك الأفكار المنسابة والاندفاعات الجامحة التى عرف بها فى مرضه .

وأما التغييرات التى تطرأ على الحياة الحالمة فى حالات الذهان المزمن فلم تلق من البحث إلا حظاً ضئيلا كل الضآلة حتى اليوم . بيد أن الانتباه قد اتجه منذ زمن طويل إلى القرابة الكامنة بين الحلم والاضطراب العقلى ، وهى قرابة تنم عليها سعة مدى الاتفاق بين مظاهرهما . ويقول مورى : إن كابانيس كان أول من وجه النظر إليها ، وتلاه ليلو ، ثم ج . مورو، ثم الفيلسوف مين دى بيران بنوع خاص . ولا شك فى أن المقارنة بين الظاهرتين أقدم بعد عهدا . فرادشتوك يستهل الفصل الذى يعالج فيه هذا الموضوع بإيراد عدة من النصوص يماثل مؤلفوها بين الحلم والجنون ، فنرى كانْت يقول فى موضع ما : « المجنون حالم يقظان » . ويعلن كراوس أن « الجنون حلم يحلمه المرء وهو مستيقظ الحواس ». وأما شوبنهاور فيسمى الحلم جنوناً قصيراً والجنون حلماً طويلا. وأما هاجن فيصف الهذيان بقوله: إنه حياة حالمة أدخلها المرض لا النوم . ويقول ڤونت : « والحقيقة هى أننا أنفسنا قد نمر فى أحلامنا بما يكاد يعدل جميع المظاهر التى نصادفها فى مستشفيات المجانين . »

ويعدد شپيتا مواضع الاتفاق التى تقوم على أساسها هذه المقارنة على نحو شبيه كل الشبه بما يسبق إليه مورى : «(١) يعطل الشعور بالذات أو على الأقل يؤخر، وينجم عن ذلك جهل الشخص بحالته ، ومن ثم العجز عن الدهش وفقدان الشعور الخلقى .

(٢) يتغير إدراك الأعضاء الحسية ، فينقص فى الحلم ولكنه بوجه عام يزداد زيادة عظمى فى الجنون، (٣) يتم الترابط بين الأفكار وفقاً لقوانين التداعى والاستحضار وحدها ، أى أن الأفكار تجتمع فى سلسلات على نمط آلى محض ، وينجم عن ذلك فقدان التناسب فى العلاقة بين الأفكار (المبالغات والأوهام) ، ويؤدى كل أولئك إلى (٤) تحول الشخصية أو انقلابها فى بعض الحالات ، وأحياناً يقع ذلك فى سمات الطبع (الانحرافات) . »

ويضيف رادشتوك إلى ما سبق سمات قليلة أخرى تتصل بتماثل الظاهرتين من حيث المادة : « فغالبية الهلاوس والأوهام تقع فى مجال حاستى البصر والسمع ثم الحساسية الإجمالية بالجسم. فحاستا الشم والذوق لا تشاركان هنا — شأنهما فى الأحلام — إلا بأقل العناصر. وفى الحمى كما فى الحلم تنبعث ذكريات من الماضى السحيق ، فالنائم والمريض يذكر كلاهما أشياء تبدو نسياً منسياً عند المستيقظ والمعافى . » بيد أننا لا نقدر التماثل بين الحلم والذهان تمام التقدير إلا إذا رأيناه يمتد ، مثل شبه عائلى ، إلى دقائق الحركات المعبرة وإلى خصائص تعابير الوجه .

« إن من برحته آلام الجسد والروح يظفر فى الحلم بما أباه الواقع عليه ، بالصحة والسعادة . وكذلك المرض العقلى؛ فهو يحفل بصور براقة من السعادة والعظم والجاه والثراء ، فأكثر ما يشتمل عليه الهذيان امتلاك مزعوم للخيرات أو تحقيق متخيل لرغبات كان امتناعها أو دمارها هو العلة التى أدت بالفعل إلى الجنون ، فتحظى من فقدت ابنها الحبيب بمتع الأمومة فى هذيانها، ويعتقد من فقد ماله أن ثروته قد جاوزت كل حد ، وترى الفتاة المخدوعة نفسها موضع الحب والحنان . »

(هذه الفقرة المقتبسة من رادشتوك تلخص ملاحظة ثاقبة أتاها جريزنجر (١٨٦١ ، ١٠٦) وبين فيها بجلاء تام أن الخاصة المشتركة بين الأفكار فى كلا الحلم والذهان هى كونها تحقق رغبات . ولقد علمتنى مباحثى أيضاً أن ذلك فى الحقيقة هو المفتاح إلى نظرية سيكولوجية فى الحلم والذهان على السواء .)

« والارتباط المغرب بين الأفكار مع ضعف الحكم هما الخاصتان الرئيستان للحلم والذهان .» ففى كليهما نرى الشخص يغالى فى تقدير قدراته العقلية مغالاة تلوح جوفاء للعين المتزنة . ثم إن سرعة جريان الافكار فى الحلم يوازيها انسياب الأفكار فى الذهان ؛ ففى كليهما يغيب كل معيار زمنى . وانقسام الشخصية فى الحلم — مثلما يقع حين تتوزع

معرفة الحالم نفسه بين شخصين يصحح أحدهما، وهو الغريب ، خطأ أنا الحالم الخاص — يطابق انقسام الشخصية الذى نعرفه فى البارانويا الهلوسية كل مطابقة ، ثم إن الحالم أيضاً يسمع أفكاره هو تنطق بها أصوات غريبة . وحتى الأفكار الهجاسية : فهى تجد نظيرها فى الحلم المرضى الذى يراود صاحبه على نمط لا يتغير (الحلم القهرى)(١) . ولا يندر أن يقول المرضى بعد شفائهم من هذاء مروا به: إن فترة مرضهم جميعاً تلوح لهم أشبه بحلم لم يكن يخلو من المسرة كل الخلو ، بل إنهم ليحدثوننا أحياناً أنهم حتى فى خلال مرضهم كانوا بين الحين والحين يساورهم الشعور بأنهم إنما وقعوا فى حبائل حلم من الأحلام ، مثلما يحدث كثيراً فى أحلام الليل .

فلا عجب بعد كل أولئك أن يلخص رادشتوك رأيه ورأى الكثيرين معه فى قوله : « إن الجنون — هذه الظاهرة المرضية غير السوية — هو اشتداد حالة سوية منتظمة الوقوع ، هى حالة الحلم . » (ص ٢٢٨) .

ولقد حاول كراوس أن يقيم بين الحلم والجنون علاقة قد تكون أوثق رباطاً من تلك التى يمكن أن تخرج من هذا التماثل بين مظاهرهما الخارجية، مؤسساً هذه العلاقة على العلل أنفسها (أو ، بعبارة أصح ، على مصادر التهييج) . فالعنصر المشترك يكمن فى رأيه — كما رأينا [ص ٧٤] — فى الإحساسات المحتمة عضوياً الإحساسات الناشئة عن مصادر جسمية ، أى فى الحساسية الإجمالية بالجسم، المبنية على مشاركة أعضاء الجسم جميعاً (أنظر رأى پنس فى كتاب مورى ، ١٨٧٨، ٥٢) .

هذا الاتفاق غير المتنازع فيه والممتد إلى خواص التفاصيل بين الحلم والاضطراب العقلى يمكن أن نعده سنداً من أقوى سند النظرية الطبية فى الحلم ، وهى النظرية التى ترى فى الحلم عملية مزعجة لا طائل منها ومظهراً يعرب عن نشاط نفسى منقوص . ومع هذا فليس لأحد أن يطمع فى الآونة الحاضرة فى الوصول إلى تعليل أخير للحلم من طريق النظر فى اضطرابات النفس ؛ لأن معرفتنا بهذه الاضطرابات لا تزال غير كافية — كما يعلمه الجميع . ولكن من الراجح على العكس كل الرجحان أن تغييراً فى موقفنا تجاه الأحلام قد يكون له أثره فى نظرتنا إلى الميكانيكية الباطنة للأمراض النفسية ، ومن ثم جاز لنا أن نقول : إننا نعمل على تعليل الذهان حين نتكلف مشقة الكشف عن سر الحلم .

---

(١) ["rêve obsédant"]

ملحق ، ١٩٠٩ :

إن وقوفى عن أتابع الحديث فيشمل المؤلفات التى ظهرت تعالج مشكلات الحلم فى الحقبة الممتدة بين أول ظهور هذا الكتاب وطبعته الثانية ، أمر يستوجب تبريراً . وقد لا يبدو المبرر مقنعاً للقارىء ، ولكنه كان على أية حال ذا أثر حاسم بالنسبة إلى . فالدوافع التى حدتنى إلى أن أتحدث أى حديث عن نهج الكتاب الأسبقين فى معالجة مشكلات الحلم ، قد استنفدها الفراغ من هذا الفصل الذى قدمت به . وما كان المضى فى هذا العمل إلا ليكلفنى مشقة بالغة على غير كبير إفادة أو نفع . ذلك أن هذه الحقبة من السنوات التسع لم تأت — سواء فى المادة أو فى الآراء — بقيم أو جديد يكون فيه ما ينير الموضوع ، وظلت معظم المؤلفات التى ظهرت فى هذه الأثناء لا تعير كتابى ذكراً ولا نظراً . وكان أقل المنبهين إليه بالطبع أولئك المسمون « بحثة الحلم » ، فضربوا بذلك مثالا ساطعاً على هذا العزوف عن تعلم كل جديد الذى هو سمة تميز العلماء . ولقد قال أناتول فرانس بسخريته المعهودة : « إن العلماء لا يحبون الاستطلاع . »[1] ولو أن العلم كان يعرف شيئاً اسمه حق القصاص ، لكان من حقى يقيناً أن أغفل من جانبى كل ما نشر منذ أن نشر هذا الكتاب. فالملاحظات القليلة التى ظهرت فى الصحف العلمية عنه كانت تنم عن تجرد من الفهم أو عن فهم مخطىء لا أملك لنقادى معهما إلا جواباً واحداً : هو دعوتهم إلى أن يقرأوا هذا الكتاب من جديد . لا ، بل ربما كان الأنسب أن تكون الدعوة إلى قراءته وحسب .

وأما مؤلفات الأطباء وغيرهم ، ممن قرروا أن يتبعوا المنهج التحليلى النفسى فى العلاج ، فتشتمل على عدد وافر من الأحلام ، نشرت وحللت وفقاً لتعاليمى . ولقد أوردت نتائج هذه المؤلفات فى سياق حديثى بمقدار ما تذهب هذه النتائج إلى أبعد من مجرد تأييد آرائى . غير أننى أضفت فى نهاية المجلد قائمة بالمراجع حوت أهم المؤلفات التى ظهرت منذ أن نشر هذا الكتاب للمرة الأولى . وأما الكتاب المسهب الذى وضعه سانته دى سانكتيس عن الأحلام والذى ظهرت له ترجمة ألمانية عقب صدوره ، فقد كان تاريخ ظهوره يوافق تاريخ كتابى بحيث استحال على أن أعقب على كتاب المؤلف الإيطالى كما استحال عليه أن يعقب على كتابى . بيد أننى لم أملك إلا أن أرى آسفاً أن هذا الكتاب ، على ما تكلف فيه صاحبه من

(١) ["Les savants ne sont pas curieux."]

الجهد ، فقير فى أفكاره كل الفقر – فقير حتى أن القارىء لا يشعر منه ولو مرة بوجود المشكلات التى عالجتها .

وليس ثمت ما يذكر سوى كتابين اثنين ، يقتربان من علاجى لمشكلات الحلم . فقد حاول فيلسوف شاب ، هو هـ . سفوبودا ، أن يمد إلى الأحداث النفسية فكرة الدورة البيولوجية التى اكتشفها ڤيلهلم فليس (دورة طولها ٢٣ يوماً ودورة طولها ٢٨ يوماً) ، فعمل فى كتاب يتسم بسعة كبيرة فى الخيال (١٩٠٤) على أن يستخدم هذا المفتاح فى حل لغز الحلم ، بين غيره من المشكلات . ولو صحت آراؤه لنفقت أهمية الأحلام سريعاً ؛ فهو يزعم أن المادة التى يتألف منها محتوى الحلم ينبغى تعليلها باجتماع جميع الذكريات التى تختتم إحدى هذه الدورات البيولوجية ، سواء أكان ذلك للمرة الأولى أم لأى مرة تشاء . ولقد دعتنى رسالة شخصية من المؤلف إلى أن أقدر أنه نفسه لم يعد يأخذ نظريته هذه مأخذ الجد ، ولكنى قد أخطأت التقدير ، فيما يبدو ، وسوف أورد فيما بعد [ص ١٨٩] بضع ملاحظات أتيتها للتثبت من فكرة سفوبودا ، دون أن أخرج منها بنتيجة مقنعة . بيد أنى لم أكن إلا أعظم سروراً حين التقيت فى مجال لم أكن أتوقع فيه مثل هذا الالتقاء برأى يطابق لب نظريتى تمام المطابقة . فإذا رجعنا إلى التواريخ ، تبين أن من المحال أن يكون صاحب هذا الرأى قد تأثر بكتابى . وعلى ذلك أرى لزاماً علىّ أن أحيي فيه المثال الوحيد الذى أستطيع اكتشافه لمؤلف يتفق معى فى جوهر نظريتى . وأما الكتاب الذى حوى الفقرة التى أعنيها فى موضوع الحلم [1] ، فقد ظهر فى طبعته الثانية عام ١٩٠٠ بعنوان « خيالات واقعى » ، كتبه لينكويس [2] .

ملحق ١٩١٤ :

كتبت صفحة التبرير السابقة عام ١٩٠٩ . ولقد تغيرت الأوضاع يقيناً منذ ذلك الحين ؛ فما عاد العمل الذى قمت به فى « تفسير الأحلام » يغفل فى أدب الموضوع . بيد أن الموقف الجديد إنما يجعل متابعة العرض السابق ضرباً من المحال . فقد أثار « تفسير الأحلام » طائفة كاملة من الآراء والمشكلات الجديدة تنوعت فيها طرق المناقشات أكبر التنوع . ولست أستطيع أن أتحدث عن هذه الكتابات قبل أن أفصل الكلام فى آرائى نفسها التى إليها استند هؤلاء المؤلفون . وعلى ذلك فكل ما لاح ذا قيمة عرضت له فى موضعه المناسب من مقالى الذى يتلو الآن .

(١) [وهى فقرة يوردها فرويد كاملة فى صفحة ٣٢٠ ، فى الهامش .]

(٢) أنظر مقالى المعنون : " يوسف پوپر – لينكويس ونظرية الحلم " (١٩٢٣ و) .

الفصل الثانى

المنهج فى تفسير الأحلام

تحليل حلم على سبيل المثال

إن العنوان الذى عَلَّيتُ به هذا الكتاب يبين أى تقليد سلفى فى تصور الحلم أنزع إلى الانتساب إليه. فالغرض الذى أضعه نصب عينى هو أن أبين أن الأحلام تقبل التفسير، ولقد أجىء فى سياق ذلك بما يعين على حل المسائل المعالجة فى الفصل السابق، ولكن ذلك لن يكون إلا فضلا يعرض فى خلال المضى إلى هدفى الخاص. وأنا إذ أزعم أن الأحلام تقبل التفسير أرانى دفعة واحدة فى موقف يخالف النظرية السائدة عن الأحلام، بل يخالف فى الحقيقة نظريات الحلم جميعاً، فيما خلا نظرية شرنر وحدها. فأن «تفسر» حلماً معناه أن تحدد له «معنى ما»، أى أن تستبدل به شيئاً آخر ينتظم فى سلك أفعالنا النفسية كحلقة لها من القيمة والشأن مثل ما لغيرها. ولكن النظريات العلمية، كما رأيناها، لا تترك مجالا للحديث عن أية مشكلة تتصل بتفسير الحلم، لأن الحلم بحسبها ليس فعلا نفسياً على الإطلاق، بل عملية جسمية يُنتبه إلى وقوعها لعلامات تبلغ الجهاز النفسى. وأما رأى سواد الناس من جميع العصور فكان مختلفاً: فإنهم قد أعملوا حقهم المقرر فى أن يغفلوا السلامة المنطقية، فسلموا من جهة بأن الأحلام غير معقولة، باطلة، دون أن يجمعوا أنفسهم مع ذلك على إعلان خلوها من كل مغزى. فهم يبدون كأن شعوراً مبهماً يقودهم إلى أن يقدروا أن لكل حلم مغزاه وإن خفى هذا المغزى، وأن الحلم قد جعل ليحل محل عملية فكرية أخرى، وليس علينا إلا أن نرفع هذا البديل على النحو الصحيح لكى نصل إلى ذاك المعنى الخفى.

ولهذا جهد عامة الناس منذ أقدم العصور فى «تفسير» الأحلام. وهم قد اتبعوا فى ذلك منهجين يختلفان اختلافاً جوهرياً. فأما أولهما فينظر إلى محتوى الحلم فى مجموعه ويسعى إلى أن يستبدل به محتوى آخر معقولا يماثل الأول من بعض الوجوه. ذلك هو التفسير الرمزى للأحلام، وهو منهج لا يلبث أن يتضح بالضرورة عجزه حين يواجه أحلاماً تتسم

بالتشوّش فوق لا معقوليتها . وقد يكون فى التفسير الذى تذكره التوراة عن يوسف لحلم فرعون ، مثال على ذلك المنهج : فأن يرى فرعون سبع بقرات سمان تأكلها سبع عجاف تأتى من بعدها ، ذلك كان بديلا رمزياً لنبوءة تنبىء بسبع سنين من المجاعة فى أرض مصر تأكل فائض السنوات السبع وافرة الغلة . وغالبية الأحلام المصطنعة التى يبتدعها خيال الكتاب إنما يراد بها إلى مثل هذا التفسير الرمزى ، فهى تخلع على فكرة الكاتب قناعاً يتسق وما نعلم من خبرتنا أنه سمات الحلم[1] . واعتقاد الناس أن الحلم يشغل بالغيب أولا ويكشف عن وجهه — وهو أثر من الدلالة التنبؤية التى كانت تنسب إلى الحلم يوماً ما — هو الذى يدعو بعد ذلك إلى الانتقال بمغزى الحلم المكتشف بالتفسير الرمزى إلى الزمان المستقبل ، بإدخال « سوف » عليه .

وأما السؤال : كيف يجد المرء طريقه إلى مثل هذا التفسير الرمزى ؟ فذلك بالطبع أمر لا سبيل إلى تبيانه والإرشاد له ، والنجاح فيه يظل مرهوناً بالتخمين الحاذق والحدس المباشر ومن ثم أمكن أن يعلى تفسير الأحلام بالرموز إلى مرتبة النشاط الفنى الذى يتطلب موهبة خاصة[2] . وأما المنهج الشعبى الآخر فى تفسير الحلم ، فبعيد كل البعد عن مثل هذا الادعاء . وفى وسعنا أن نسميه « منهج الشفرة » ؛ لأنه يعالج الحلم كما لو كان ضرباً من كتابة سرية تمكن ترجمة كل علامة من علاماتها إلى علامة أخرى معروفة المعنى وفق مفتاح ثابت : مثال ذلك أن أحلم بخطاب ثم بجنازة ، إلخ . ، فأستشير كتاب الأحلا فأجد « الخطاب » يترجم إلى « نكد » و « الجنازة » إلى « خطبة » ، ويبقى على بعد ذلك أن أنشىء من هذه المقومات التى قمت بفك مغلقها على هذا النحو جملة مفيدة أنقلها من جديد إلى الزمان المستقبل . وفى كتاب أرتميدوروس الأفسوسى عن تفسير الأحلام تعديل حرى بالاهتمام يصحح بعض التصحيح ما يتسم به منهج الشفرة هذا من طابع النقل الآلى

---

(١) لقد عثرت بالصدفة فى رواية « جراديفا » للكاتب ف . ينزن على أحلام متعددة خلقها المؤلف خلقا ، ولكنها كانت مع ذلك صحيحة كل الصحة فى بنائها ، وأمكن تفسيرها كما لو كانت صدرت عن أشخاص حقيقيين ولم تكن من بدع الخيال . وقد ذكر لى المؤلف رداً على سؤال من جانبى أنه لم يكن يعلم شيئاً عن نظريتى فى الحلم . ولقد اتخذت من هذا التطابق بين مباحثى وخلق الكاتب شاهدا على صحة تحليلى للأحلام . (أنظر فرويد ١٩٠٧ أ) .

(٢) يقول أرسطو فى هذا الصدد : إن أحسن مفسرى الحلم هم أقدرهم على إدراك أوجه التماثل ، وذلك لأن صور الحلم تشوه بفعل الحركة مثل الصور فى الماء بحيث يصيب النجاح من استطاع أن يتوسم الشكل الصحيح من وراء الصورة المشوهة (بوكسنشوتس ، ١٨٦٨ ، ٦٥) .

المحض [١] . فهذا المنهج المعدل لا يحسب حساب محتوى الحلم وحده بل يدخل كذلك فى تقديره طبع الحالم وملابسات حياته ، بحيث يختلف معنى العنصر الحلمى هو هو عند الغنى أو المتزوج أو الخطيب منه عند الفقير أو الأعزب أو التاجر مثلا . والشىء الجوهرى فى منهج الشفرة على أية حال ، هو أن عمل التفسير لا يوجه فيه إلى الحلم فى جملته بل يتناول كل جزء من محتواه على حدته ، كما لو كان الحلم حجراً جيولوجياً تستوجب كل شظية من شظاياه تقديراً خاصاً . ولا شك فى أن الأحلام المختلطة المفككة هى التى أدت إلى اختراع هذا المنهج [٢] .

---

(١) لقد ترك لنا أرتميد وروس الأفسوسى، المولود فى القرن الثانى من الميلاد على الأرجح ، كتاباً فى تفسير الأحلام كما كان يعرف فى العالم اليونانى الرومانى يفوق كل ما عداه من حيث الاستيعاب وضخامة الجهد . وهو يلح فى كتابه هذا – كما يبينه جومبرتس – على ضرورة تأسيس تفسير الحلم على الملاحظة والخبرة ، ويفرق تفرقة قاطعة بين فنه وغيره من الفنون الخادعة . وأما المبدأ الذى يقوم عليه فنه التفسيرى فلا يختلف بحسب جومبرتس من مبدأ السحر : إنه مبدأ التداعى ؛ فالشىء المرأى فى الحلم يعنى الشىء الذى يرد على الذهن فى صدده – وغنى عن البيان أن المراد هو ذهن المفسر لا الحالم . وإذ كان عنصر الحلم يذكر المفسر الواحد بأشياء مختلفة ، ويذكر هذا بغير ما يذكر به ذاك ، فقد كان ذلك مصدرا للحيرة والهوى لا سبيل إلى التغلب عليه . وتختلف الطريقة التى أصفها فى الصفحات القادمة من طريقة القدماء فى تلك الناحية الجوهرية: وهى أنها تلقى عبء التفسير على الحالم نفسه ، فهى لا تحسب حسابا لما يطرأ على بال المفسر وإنما اهتمامها بما يرد على ذهن الحالم . وترينا الروايات الحديثة للمبشر تفنكدجى (١٩١٣) أن مفسرى الأحلام المحدثين فى الشرق يعتمدون هم أيضا اعتمادا كبيرا على مؤازرة الحالم ، فهو يتحدث عن مفسرى الأحلام بين أعراب ما بين النهرين قائلا : « ولكى يفسر حلم ما تفسيراً مضبوطا ، ترى أمهر المفسرين يسألون من يشاورونهم عن جميع الملابسات التى يرون وجوب معرفتها من أجل الوصول إلى الحل الصحيح . . . وخلاصة القول هى أن مفسرينا لا يتركون كبيرة أو صغيرة تفوتهم ، ولا يدلون بالتفسير المنشود إلا بعد أن يمتلكوا الجواب عن جميع أسئلتهم تمام الامتلاك . »

["Pour interpreter exactement un songe, les oniromanciens les plus habiles s'informent de ceux qui les consultent de toutes les circonstances qu'ils regardent nécessaires pour la bonne explication ... En un mot nos oniromanciens ne laissent aucune circonstance leur échapper et ne donne l'interprétation desirée avant d'avoir parfaitement saisi et reçu toutes les interrogations désirables."]

ومن بين الأسئلة التى يوجهها المفسرون أسئلة تهدف إلى الإلمام بأوثق صلات الحالم بذوى قرباه – الوالدين والزوجة والأبناء – كما تجد صيغا محفوظة كهذه : " هل جامعت زوجك فى هاتيك الليلة قبل الحلم أم بعده ؟ "

["Habuistine in hac nocte copulam conjugalem ante vel post somnium ?"]

« هذا والفكرة المسيطرة على تفسير الأحلام تقوم فى تفسير الحلم بضده . »

["L'idée dominante dans l'interprétation des songes consiste à expliquer le rêve par son opposé."]

(٢) نبهنى الدكتور ألفريد روبيتسك إلى أن كتب الأحلام الشرقية التى تمد كتبنا بجوارها سرقات حرية بالرثاء كثيراً ما تستند فى تفسير عناصر الحلم إلى ما بين الألفاظ من الاتفاق فى الجرس أو التماثل . وضياع هذه العلاقات ضياعا محتوما عند الترجمة هو الذى يعلل استغلاق بعض التفاسير التى نجدها فى كتب الأحلام الشائعة بيننا . ويجد القارئ فى مؤلفات هوجو فينكلرز مزيدا من المعلومات عن القيمة الخارقة التى تعلقها المدنيات الشرقية

ولسنا نستطيع أن نشك برهة فى أن هذين المنهجين الشعبيين فى تفسير الأحلام لا يمكن استخدام أى منهما فى معالجة الموضوع معالجة علمية ؛ فالمنهج الرمزى محدود التطبيق ولا يمكن شرحه على أسس عامة ، وأما منهج الشفرة فكل شىء يتوقف فيه على إمكان الثقة « بالمفتاح » ، أى كتاب الحلم ، وهنا يعوزنا كل ضمان . وهكذا قد يغرى المرء بأن يسلم بأن الحق للفلاسفة وأطباء النفس ، فيمحو معهم مشكلة تفسير الحلم محوا ، باعتبارها مشروعاً خيالياً محضاً[1] .

بيد أننى قد تعلمت ما هو خير من ذلك ؛ فإنى لم أجد بداً من أن أدرك أننا نواجه هنا مرة أخرى حالة من هذه الحالات غير النادرة التى يبدو فيها اعتقاد شعبى قديم قدم الزمن ، لا تتزعزع عنه النفوس أقرب إلى حقيقة الأمور من الحكم السائد اليوم فى دنيا العلم . ولزام علىّ أن أؤكد أن الحلم له فى الحقيقة معناه وأن من الممكن أن يكون ثمت منهج علمى لتفسيره . وأما معرفة هذا المنهج فقد أتيت إليها من ذلك الطريق :

لقد شغلت سنوات طوالا بتحليل بعض التراكيب النفسية المرضية ، مثل المخاوف الهستيرية والأفكار القهرية وما شاكلها ، مستهدفاً فى ذلك علاجها . وشغلت بها على التحديد منذ أن علمت من كلمة هامة ليوسف بروير أن هذه التراكيب التى تعد أعراضاً مرضية — يتطابق فيها التحليل والحل[2] . (أنظر بروير وفرويد ، ١٨٩٥) .

القديمة على التورية واللعب اللفظى . وعلى مثل هذا اللعب يقوم أجمل مثال على تفسير الحلم انحدر إلينا من الأزمنة القديمة ، وهو مثال يرويه أرتميدوروس إذ يقول (ص ٢٥٥) : « ويخيل إلى كذلك أن أريستا ندروس قد وفق أحسن التوفيق فى تفسير حلم الإسكندر المقدونى . فبينما كان هذا الأخير يحاصر مدينة تيروس [صور] وقد هاجه طول الحصار وأقلقه ، رأى فى المنام ساتيروس [كائن أسطورى] يرقص على درعه . واتفق أن كان أريستاندروس قريباً من صور ، فقد كان فى معية الملك أثناء حملته على السوريين ، فأمكنه بتقسيم كلمة ساتيروس إلى sa [سا = لك] و Tyros [تيروس = صور] أن يحث الملك على الاستماتة فى الحصار حتى استولى على المدينة . » — والحق أن الرابطة بين الحلم والتعبير اللغوى قوية إلى درجة دعت فرنتسى إلا أن يلاحظ بحق أن لكل لسان لغته الحلمية الخاصة ، بحيث يستحيل بوجه عام أن يترجم الحلم إلى لغة أخرى . ولا أخال إلى أن الأمر كذلك فى كتاب مثل هذا الكتاب ، بيد أن الدكتور أ . أ . بريل ، من مدينة نيويورك ، وآخرين من بعده ، قد أفلحوا مع ذلك فى ترجمة « تفسير الأحلام » .

(١) لقد عثرت بعد أن فرغت من هذا الكتاب على مقال كتبه ستومف اتفقت فيه آراءه مع ما أرى إليه من التدليل على أن للحلم معناه وأنه يقبل التفسير . بيد أنه يجرى تفسيراته بالاستعانة برمزية ذات طابع استعارى تمثيلى ، دون أن يكون ثمت أقل دليل على جواز منهجه بوجه عام .

(٢) [Auflösung und Lösung — والمراد هو أن الكشف عن سر هذه الحالات لا يفترق من علاجها.]

فإن أمكن اقتفاء فكرة مرضية من هذا القبيل حتى العناصر التى نشأت منها هذه الفكرة فى حياة المريض النفسية ، امحت الفكرة وخلص المريض منها . وإزاء العجز الذى لمسته فى جهودنا العلاجية الأخرى ، وإزاء الطابع الملغز الذى تتسم به هذه الاضطرابات ، رأيتنى أغرى بالمضى فى الطريق الذى دلنى إليه بروير على الرغم من كل صعوبة ، حتى ينجلى الأمر كاملا . وسوف يتسنى لى فى مناسبة أخرى أن أفصل الكلام فى الصورة التى اتخذها هذا المنهج أخيراً وفى النتائج التى انتهت إليها جهودى . وإنما أقول الآن : إننى إنما التقيت بتفسير الأحلام فى خلال هذه المباحث التحليلية النفسية . ذلك أن مرضاى ، بعد أن أستعهد منهم الإفضاء إلىّ بكل فكرة أو خاطر يعن لهم ، كانوا يقصون على أحلامهم ضمن ما يقصون ، وهكذا تعلمت منهم أن الحلم يمكن إدراجه فى السلسلة النفسية التى يجب اقتفاء أثرها فى الذاكرة ابتداء من الفكرة المرضية . ومن هذا إلى أن يعامل الحلم نفسه معاملة العرض وأن يطبق عليه ذات المنهج التفسيرى الذى أحكم تدبيره للأعراض — لم يكن أمد بعيد .

وهذا العمل يقتضى بعض الإعداد السيكولوجى للمريض . فنحن نهدف معه إلى أمرين : زيادة انتباهه إلى مدركاته النفسية ، وتعليق ملكة النقد التى اعتاد أن ينخل بها ما ينبعث من أفكاره . ولكى يتمكن المريض من تركيز انتباهه فى الملاحظة الذاتية فمن الخير له أن يستلقى فى وضع هادىء ويغمض عينيه ، وعلينا أن نطلب منه صراحة الإقلاع عن كل نقد للأفكار التى يدركها ، ونخبره أيضاً أن نجاح التحليل مرتهن بملاحظته كل ما يدور برأسه وروايته إياه دون أن ينقاد إلى قمع هذا الخاطر من خواطره لأنه يبدو له خالياً من الشأن أو خارجاً عن الموضوع ، أو إلى قمع ذاك لأنه يبدو له غير معقول . فعليه أن يقف تجاه خواطره جميعاً موقف الحياد التام ؛ لأنه إذا كان لا يوفق عادة إلى الإيضاح المنشود للحلم أو الفكرة القهرية أو ما إليهما ، فالإخفاق مرده هذا الموقف النقدى على التحديد .

ولقد لاحظت فى خلال عملى التحليلى النفسى أن الوضع النفسى للمرء وهو يفكر يغاير كل المغايرة وضعه وهو يلاحظ عملياته النفسية . فالتفكير يتضمن نوعاً من النشاط النفسى يزيد على المتضمن فى الملاحظة الذاتية ، مهما بذل المرء فى هذه من الانتباه ، وبهذا تشهد — بين سائر الشواهد — هيئة المفكر المتوترة وجبهته المتعقدة ، على نقيض التعبير الساكن لمن

يلاحظ نفسه . فنى كلا الحالين يلزم تركيز الانتباه ، ولكن من يفكر يعمل ملكة النقد فوق ذلك : ينحى بعض خواطره بعد أن يدركها ويقتضب بعضها الآخر دون أن يتابع مسالك الفكر التى كانت توحى بها . ثم هو يعرف كيف يسلك حيال فريق ثالث منها مسلكاً لا تبلغ معه إلى الشعور البتة ، فتقمع قبل أن تدرك . وأما الذى يلاحظ نفسه ، فليس عليه إلا أن يقمع ملكته النقدية . فإن أفلح ، تواردت إلى شعوره أفكار لا حصر لها ما كان ليجتازها بغير ذلك . و بهذه المادة المكتسبة حديثاً لإدراكه الذاتى على هذا النحو يمكن تفسير أفكاره المرضية وتراكيبه الحلمية على السواء . فالمسألة كما نرى هى أن نقيم حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التى تسبق النوم (وتماثل أيضاً حالة التنويم المغناطيسى من غير شك) ، من حيث توزيع الطاقة النفسية – أعنى توزيع الانتباه المتحرك . فقبيل النوم تنبعث « أفكار لا إرادية » ، نتيجة لاسترخاء نشاط إرادى معين (هو أيضاً نشاط نقدى ما فى ذلك من شك) كنا نتركه يؤثر فى مجرى أفكارنا ونحن مستيقظون . وأما سبب هذا الاسترخاء ، فنقول عادة : إنه « التعب » . وتستحيل هذه الأفكار اللاإرادية المنبعثة [قبل النوم] إلى صور بصرية وسمعية (أنظر ملاحظات شلاير ماخر وغيره فيما سبق ، ص ٨٤ وما بعدها .)[١] وأما فى الحالة المستخدمة لتحليل الأحلام والأفكار المرضية ، فيترك المرء هذا النشاط تركاً مقصوداً متعمداً ، ثم يعمل الطاقة النفسية المدخرة على هذا النحو (أو يعمل جزءاً منها على الأقل) فى الانتباه المتصل إلى الأفكار اللاإرادية التى تأخذ الآن فى الانبعاث ، والتى تظل – وهنا الفرق بين هذه الحالة وحالة الأخذ فى النوم – محتفظة بطابع الأفكار . وهكذا تحول الأفكار « اللاإدارية » إلى أفكار « إرادية » .

ويبدو أن هناك كثيراً من الناس لا يسهل عليهم الوقوف الموقف المطلوب حيال الأفكار المنبعثة « إنبعاثاً حراً » فى ظاهره ، واطراح النقد الذى ألفوا ممارسته إزاءها . فمن شأن « الأفكار اللاإرادية » أن تحرك مقاومة عنيفة فى الغاية ، تهدف إلى الحيلولة دون انبعاثها . ومع هذا فالخلق الشعرى نفسه لا بد يتضمن موقفاً يماثل الذى نصفه كل مماثلة – هذا إذا أولينا التصديق شاعرنا وفيلسوفنا العظيم فردريك شيللر . فهو فى فقرة من رسائله إلى كورنر

(١) لقد أتى سيلبرر بنتائج هامة فى تفسير الحلم ، وذلك بملاحظة هذا التحول للأفكار إلى صور ملاحظة مباشرة (١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١٢) . [أنظر « الظاهرة الوظيفية » فى الفهرست التحليلى .] .

يرجع فضل الكشف عنها إلى أوتورانك ، يرد على شكوى صديقه من افتقاره إلى القدرة الخالقة فيقول : « أعتقد أن السبب فى شكواك يرجع إلى استبداد عقلك بخيالك ، وسأضرب لمعناى بتشبيه يمثله لك : فإن العقل إذا غالى فى إكثاب النظر إلى الأفكار التى ترد عليه كأنه واقف لها بالمرصاد وهى لا تزال على الأبواب — إن جاز هذا التعبير — لم يكن فى ذلك نفع بل لعله يعرقل عمل النفس الخالقة . فالفكرة إن أخذتها على حدة قد تبدو تافهة كل التفاهة ، غريبة أقصى الغرابة ، ولكن أخرى قد تتلوها فإذا هى ذات شأن ، أو هى قد ترتبط بأفكار غيرها تلوح فى مثل سخفها فإذا هى الحلقة المفقودة ؛ فما يستطيع العقل أن يحكم على الكل إذا هو لم يمسك بالفكرة أمداً كافياً ليتأملها مقرونة بأخرياتها . وأما الذهن الخالق — فيما يهيأ إلى — ففيه على العكس يرفع العقل الحراسة عن الأبواب ، تاركاً الأفكار تهجم شذر مذر ، وعندئذ — عندئذ فقط — يأخذ فى النظر إليها وفحصها مجتمعة . وأما أنتم يا حضرات النقاد — أو أيا كان الاسم الذى يحلو لكم — فتستحيون — أو ترهبون — هذا الجنون العابر الموقوت الذى يعرفه كل خالق حقيقى ، والذى يفرق طول أمده أو قصره بين الفنان المفكر والحالم . ومن ثم شكواكم من العقم ، فأنتم تنبذون سريعاً وتفرقون عسفاً . » (خطاب الأول من ديسمبر ١٧٨٨) .

ومع هذا فما يسميه شيللر « رفع الحراسة عن أبواب العقل » ، أى التحول إلى حال من الملاحظة الذاتية التى لا يشوبها إعمال النقد ، ليس على الإطلاق بالأمر المتعذر .

فمعظم مرضاى يوفقون إليه بعد سماع إرشاداتى الأولى ، وأنا نفسى أقوم به على أوفى وجه إذا استعنت فى خلاله بتدوين الخواطر التى تعن لى . ويتفاوت مقدار الطاقة النفسية التى تنقص من النشاط النقدى وتزاد بها شدة الملاحظة الذاتية تفاوتاً ضخماً بحسب الموضوع الذى يراد تثبيت الانتباه عليه .

وتعلمنا الخطوة الأولى فى استخدام هذا المنهج أننا لا نستطيع أن نتخذ الحلم فى مجموعه موضوعاً للانتباه ، وإنما الأجزاء المتفرقة لمحتواه . فلو سألت مريضاً لم يزل حديث العهد بالمنهج : ما الذى يخطر له فى صدد هذا الحلم ؟ ، لم يجد فى العادة شيئاً يدركه فى حقله النفسى . فإن قسمت له الحلم أجزاء أمكنه أن يدلى فى صدد كل جزء بطائفة من المستدعيات يجوز لنا وصفها بأنها « الأفكار المستترة » وراء هذا الجزء . وهكذا يختلف منهج التفسير الذى أزاوله من المنهج الشعبى التاريخى الطائر الذكر ، منهج التفسير بوساطة الرموز ،

من هذه الوجهة الهامة الأولى ، ويقترب من المنهج الثانى « منهج الشفرة » : فهو — كهذا الأخير — يفسر الحلم جزءاً فجزءاً وليس جملة ، وهو — مثله — يعد الحلم منذ البداية شيئاً مركباً ، مجتمع مكوّنات نفسية شتى .

ولقد فسرت فى خلال اشتغالى بالتحليل النفسى للعصابيين ما يربو على ألف الحلم، ولكنى لا أريد أن أستخدم هذه المادة فى التمهيد الحاضر إلى طريقة تفسير الحلم ونظريته . فهناك — بغض النظر عن كون استخدام هذه الأحلا م يعرضنى لقول المعترض : إنها أحلام عصابيين لا تجوز النتائج المستخلصة منها على أحلام السويين — وهناك بغض النظر عن ذلك سبب آخر يفرض علىّ هذا الامتناع ؛ فمن الطبيعى أن يكون الموضوع الذى تسوق إليه أحلام مرضاى هو دائماً تاريخ المرض الكامن وراء أعصبتهم ، لذلك كان كل حلم من أحلامهم يستلزم تمهيداً مسهباً وغوصاً فى طبيعة الأعصبة وشروطها العلية ، وهذه فى ذاتها مسائل ذات جدة ، محيرة إلى أقصى مدى ، فقد تصرف الانتباه عن مشكلات الأحلام، بينما أريد على العكس أن أتخذ تحليل مشكلات الحلم ذريعة إلى حل المشكلات السيكولوجية للأعصبة — وهى الأشد صعوبة . فإذا أغفلت الآن مادتى الرئيسة — أعنى أحلام العصابيين — لم يعد لى أن أتصعب فى الاختيار بين ما يتبقى ؛ فما تتبقى سوى أحلام من قبيل ما يرويه لى بين الحين والحين أشخاص سويون بين معارفى ، أو من قبيل تلك المساقة على سبيل المثال فى المصنفات الموضوعة عن الحياة الحالمة . ولكن هذه الأحلام جميعاً لا تصطحب لسوء الحظ بالتحليل الذى لا أستطيع بدونه أن أكشف معنى الحلم . فنهجى من غير شك ليس له يسر منهج الشفرة الشعبى ، حيث يترجم كل جزء من محتوى الحلم وفق مفتاح ثابت ، بل أنا أتوقع على العكس أن يكن ذات المحتوى معنى يختلف باختلاف الناس أو الملابسات . وهكذا أساق إلى أحلامى نفسى من حيث هى مادة وفيرة صدرت عن شخص قريب من السواء، تتصل بوقائع متعددة الألوان من حياة كل يوم . ولا مرية فى أن البعض سوف يتشكك فى إمكان الثقة بمثل هذه « التحليلات الذاتية »، وسوف أسمع أن مثل هذه التحليلات لا تتجنب الهوى . بيد أنى أعتقد أن الأوضاع قد تكون فى الحقيقة أعون على ملاحظة الذات منها على ملاحظة الغير . ومهما يكن من أمر ، فلمَ لا نحاول أن نرى إلام نستطيع المضى فى تفسير الحلم بوساطة التحليل الذاتى ؟ وهناك عدا ذلك صعوبات أخرى يتحتم على التغلب عليها ، صعوبات ألاقيها هذه المرة فى داخل

نفسي : فبالإنسان نفور طبيعي يصده عن الإفراط فى البوح بسرائر نفسه ، ولا هو يضمن أن الغرباء لن يسيئوا التأويل . ولكن لا بد للمرء من أن يستطيع التغلب على مثل هذه الصعوبات . ولقد قال دلبوف : « من الواجب على كل عالم نفسى أن يفضى حتى بمواطن ضعفه ، إذا اعتقد أنه يلقى بذلك بعض الضوء على مشكلة غامضة . »[١] ثم إنى أقدر أن القارىء أيضاً لن يلبث أن يزول اهتمامه الأول بالأمور التى أرانى مضطراً إلى الإفضاء بها ، ليحل محل هذا الاهتمام اشتغال مانع بالمشكلات التى يعين هذا الإفضاء على جلائها[٢] .

وعلى ذلك أمضى فأنتخب حلماً من أحلامى وأوضح طريقتى فى التفسير بتطبيقها عليه ولكن كل حلم من هذا القبيل يستلزم بعض التمهيد . فلزام علىّ الآن أن أسأل القارىء أن يجعل مشاغلى مشاغله فترة ، وأن ينغمس معى فى أدق تفاصيل حياتى ؛ فمثل هذا التحويل أمر يقتضيه اهتمامنا بالمعنى الخبىء للأحلام اقتضاء آمراً .

تمهيد

كنت فى صيف عام ١٨٩٥ أعالج بالتحليل النفسى سيدة فى مقتبل العمر كانت تربطها بى وبأسرتى صداقة وثيقة . ونفهم أن من شأن مثل هذا التداخل فى العلاقات أن يثير كثيراً من المشاعر المضطربة فى نفس الطبيب ، وبخاصة إذا كان طبيباً نفسياً . فاهتمام الطبيب الشخصى يزيد ، لكن سلطته تقل . فإن أخفق ، كان فى ذلك ما يهدد صداقته القديمة بذوى المريض . بيد أن العلاج كان قد انتهى فى هذه الحالة إلى نجاح جزئى ؛ فقد برئت المريضة من هيلتها الهسترية ، لكن دون أن تبرأ من جميع أعراضها الجسمية . وكنت فى ذلك الحين لا أعلم بعد علم اليقين ما هى المعايير التى تدل على انتهاء التاريخ المرضى لحالة من حالات الهستريا انتهاء لا رجعة بعده ، وكنت قد اقترحت على المريضة حلا بدا لها غير مقبول . وبين هذا الخلاف أوقفنا العلاج ؛ لإجازة فصل الصيف . وفى ذات يوم زارنى زميل يصغرنى سناً ، وهو أيضاً صديق من أقرب الأصدقاء إلىّ . وكان قد حل

---

(١) ["Tout psychologiste est obligé de faire l'aveu même de ses faiblesses s'il croit par là jeter du jour sur quelque problème obscur."]

(٢) ولا أنسى مع هذا أن أقيد هذا القول فأضيف أننى لم أكد أورد ولو مرة كل التفسير الذى أعرفه لحلم واحد من أحلامى . وأغلب الظن أنى كنت مصيبا حين اقتصدت فى الثقة بتصون القارئ .

ضيفاً على المريضة — إرما — وعائلتها فى مقرهم الصيفى ، فسألته عن حالها ، فأجابنى : « حسنة ، لكنه ليس الحسن كله . » وأعلم أن كلمات صديقى أوتو — أو نبرات صوته حين إلقائها — قد ضايقتنى ؛ فقد خيل إلىّ أنى أسمع فيها لوماً : كأن أكون وعدت المريضة بأكثر مما استطعت . وكان أنى عزوت — سواء مصيباً أم مخطئاً — ما توهمته من تعصب أوتو علىّ إلى تأثير أهل المريضة الذين لم ينظروا قط بعين الرضا إلى علاجى — أو هكذا كان يتسرب إلى ظنى . ولم يكن هذا الانطباع المؤلم واضحاً لى على أية حال ، كما أننى لم أبد ما يعرب عنه . وفى مساء ذلك اليوم كتبت تقريراً فى تاريخ مرض إرما ، كنت أنوى إعطاءه إلى الدكتور م . (وهو صديق مشترك كان فى ذلك الوقت صاحب الكلمة المسموعة بيننا) ، كأنما كنت أريد أن أبرئ نفسى . ثم فى الليل (أو فى الصباح المبكر على الأرجح) حلمت بهذا الحلم الذى بادرت إلى تدوينه عقب اليقظة مباشرة [١] .

حلم ليلة ٢٣ — ٢٤ من يوليه ١٨٩٥

قاعة كبيرة — ضيوف كثيرون ونحن نستقبلهم . — بينهم إرما ، أبادر إلى الانتحاء بها جانباً ، كأنما أريد أن أرد على خطابها ، أن ألومها على كونها لم تقبل « الحل » [٢] بعد . أقول لها : إذا كنت مازلت تتألمين ، فالذنب فى الحقيقة ذنبك وحدك . — تجيبنى قائلة : لو علمت أية أوجاع أحسها الآن فى الحلق والمعدة والبطن ، إنها تخنقنى — أفزع وأنظر إليها . إنها تبدو شاحبة منتفخة ، أحدث نفسى : لابد أن ثمت شيئاً عضوياً أغفلته . آخذها إلى جوار النافذة وأنظر فى حلقها . حينئذ تبدى بعض الممانعة ، شأن النساء اللائى يحملن أسناناً صناعية . أقول لنفسى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك . — عندئذ ينفتح فمها كما ينبغى ، فأرى بقعة كبيرة بيضاء [٣] على الجانب الأيمن ، وفى موضع آخر أرى قشوراً كبيرة ذات لون رمادى يضرب إلى البياض ، انتشرت فوق زوائد متجعدة ، غريبة الشكل ، كان من الجلى أنها قد صيغت على غرار الخياشيم الأنفية . — أستدعى الدكتور م . على الفور ، فيعيد الفحص ويؤيده . . . إن الدكتور م . يبدو مختلفاً من نفسه كل الاختلاف ؛ فهو شاحب جداً ، يعرج فى مشيته ، حليق الذقن . . . الآن يقف بجانبها صديقى أوتو كذلك ، وصديقى ليوبولد ينقر صدرها من فوق الصدار ويقول : إن ثمت منطقة صماء على الجانب الأيسر إلى أسفل ، ثم ينبه أيضاً إلى رقعة مرتشحة من الجلد على الجانب الأيسر (وهو ما ألحظه مثله على الرغم من الرداء) . . . يقول م . : لا شك فى أن هذه عدوى ، ولكن هذا ليس بشىء ؛ فسوف تعقب الدسنتاريا وينطرد السم . . . إننا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى . فقد حقنها صديقى أوتو منذ قريب ، وقد ساءت صحتها يوماً ، حقنة من مركب من البروبيل . . . بروبيلين . . . حامض البروبيونيك . . . تريمتيلامين (وهنا أرى المعادلة الخاصة بتركيب هذه المادة الأخيرة مطبوعة أمامى بحروف سميكة) . . . إن مثل هذه الحقن لا يقدم عليها المرء بمثل هذه الخفة ، وأغلب الظن أن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك .

---

(١) ذلك هو أول حلم حللته تحليلا مستفيضا .

(٢) ["Losung" ، ويعنى أيضاً " المحلول ".]

(٣) [أسقطت كلمة " بيضاء " من طبعة سنة ١٩٤٢ وحدها وهو إسقاط مرجعه السهو من غير شك.]

إن لهذا الحلم ميزة على أحلام كثيرة غيره : فنحن نرى على الفور بأى أحداث اليوم السابق يرتبط وأى موضوع يعالج . فالكلمة التى مهدت له بها تأتى فى ذلك بالبيان : فالأنباء التى حملها إلى أوتو عن حالة إرما ، وتاريخ مرضها الذى انهمكت فى تحريره إلى ساعة متأخرة من الليل قد ظلا يشغلان نشاطى النفسى حتى بعد أن نمت . ومع هذا يعجز من ألم بالتمهيد وبمحتوى الحلم عن أن يحذر معناه . ولا كنت أنا نفسى أعلمه . فأنا أعجب للأعراض التى تشكوها إرما فى الحلم ؛ فهى غير الأعراض التى من أجلها عالجتها . وأما هذه الفكرة الجوفاء ، عن حقنة مركبة من حامض البروپيونيك ، وكذلك كلمات العزاء الموضوعة على لسان الدكتور م . ، فكل هذه تدعونى إلى الابتسام . ثم إن الحلم يبدو لى فى نهايته أكثر إبهاماً وكثافة منه فى أوله . ولا بد ، لكى أعرف معنى هذا كله ، من أن أعقد العزم على تحليله تحليلا دقيقاً .

التحليل

القاعة — ضيوف كثيرون ، ونحن نستقبلهم . كنا نقضى ذلك الصيف فى بلڤو [1] فى منزل منعزل قام على أحد التلال الملتحقة بالكالنبرج . وكان قد قصد فى بناء هذا المنزل إلى أن يكون مكاناً للهو ، ولهذا كانت به غرف تخرج عن المألوف فى علو أسقفها ، أشبه بالقاعات . وفى بلڤو أيضاً وقع لى هذا الحلم ، وكان وقوعه يسبق عيد ميلاد زوجى بأيام معدودات . وكانت زوجى قد ذكرت لى فى اليوم الذى سبق الحلم أنها تتوقع أن يزورنا عدد من الأصدقاء — بينهم إرما — يوم عيد ميلادها هذا . فالحلم إذن يسبق إلى هذا الموقف : إنه عيد ميلاد زوجى ، ونحن نستقبل ضيوفاً كثيرين — ومن بينهم إرما — فى القاعة الرحبة بمنزل بلڤو .

ألوم إرما على كونها لم تقبل الحل ، أقول لها : إذا كنت ما زلت تتألمين ، فالذنب فى الحقيقة ذنبك وحدك . لقد كان من الممكن أن أقول لها هذا الكلام فى حياة اليقظة ، أو قد أكون قلته فعلا . فقد كان من رأيى فى ذلك الوقت (وهو رأى عرفت خطأه فيما بعد) أن مهمتى تقف عند إطلاع المريض على المعنى المستتر لأعراضه ، فأما أن يقبل المريض هذا الحل

(١) [مصيف على مشارف ڤيينا .]

أو ألا يقبله، فأمر لا شأن لى فيه — وإن كان النجاح مرهوناً به . ولقد كان من فضل هذا الخطأ علىّ (وإن أكن صححته اليوم لحسن الحظ) أنه هون على الحياة فى وقت كان من المفروض فيه ن أظفر بنتائج علاجية ناجحة مع جميع ما كنت عليه من جهل محتوم . — بيد أنى ألحظ من العبارة التى أتحدث بها فى الحلم إلى إرما أننى إنما أريد قبل كل شىء أن كون بريئاً من ذنب الآلام التى لا تزال تعانيها : إذا كان الذنب ذنبها ، لم يكن ذنبى . أنلتمس هدف الحلم فى هذا الاتجاه ؟

شكايات إرما : أوجاع فى الحلق والبطن والمعدة ، كانت تخنقها . كانت آلام المعدة بين أعراض مريضتى ، لكنها لم تكن من أعراضها البارزة ، بل كان معظم شكواها من أحاسيس بالغثيان والاشمئزاز . وأما آلام الحلق والبطن وانقباض الحلق ، فلم يكد يكون لها نصيب فى مرضها . وإنى لأعجب لم قررت أن أختار هذه الأعراض فى الحلم . بيد أنى لا أعلم سر ذلك الآن .

إنها تبدو شاحبة منتفخة . لقد كانت مريضتى متوردة اللون دائما. إنى ليساورنى الشك فى أن يكون شخص آخر قد حل محلها هنا .

أفزع إذ أفكر فى أننى ربما كنت أغفلت مرضا عضوياً ما . إن من السهل أن نصدق أن مثل هذا الإغفال مصدر هيلة لا تنقطع عند طبيب متخصص لا يكاد يرى غير العصابيين وصار من عادته أن ينسب إلى الهستريا عددا كبيرا من الأعراض التى يعالجها الأطباء الآخرون معالجة الأمراض العضوية . وهناك من ناحية أخرى شك خافت أخذ يتسرب إلى نفسى — من أين ؟ لا أدرى — هو الشك فى أن يكون فزعى هذا فزعا صادقا كل الصدق : إذا كانت آلام إرما ذات أصل عضوى ، لم أكن — مرة أخرى — مسئولا عن شفائها؛ فعلاجى إنما يزيل الآلام الهسترية . وهكذا يخطر لى أننى ربما كنت فى الحقيقة راغبا فى أن يكون ثمت خطأ فى التشخيص ؛ فحينئذ يزول عنى أيضا اللوم على الإخفاق .

آخذها إلى جوار النافذة لكى أنظر فى حلقها . تبدى بعض الممانعة شأن النساء اللائى يحملن أسنانا صناعية ، أقول لنفسى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك . لم يعرض قط فى علاج إرما ما يدعو إلى فحص تجويف فمها . وإنما يذكرنى ما يقع فى الحلم بفحص آخر أجريته منذ وقت ما : كانت المريضة مربية تبدو للوهلة الأولى صورة من صور الجمال الغض، فلما وجب أن تفتح

فاها ، أخذت تحتاط لكى تخفى « طقم » أسنانها . ويسوقنى ذلك إلى ذكريات أخرى عن الفحوص الطبية وما تكشف عنه من أسرار صغيرة لا تسر طبيبا ولا مريضا . وأما قولى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك ، فيبدو للوهلة الأولى إطراء لإرما ، بيد أنى أتصور له معنى آخر عدا ذلك — وإن المرء إذا أعمل انتباهه فى أثناء التحليل ، أحس أهو استنفد كل الأفكار المستترة التى يصح له توقعها أم لا . ثم إن الوضع الذى اتخذته إرما وهى واقفة إلى جوار النافذة يذكرنى فجأة بواقعة أخرى : فقد كانت لإرما صديقة حميمة كنت أكن لها أكبر التقدير ، ثم اتفق أنى زرتها ذات مساء فوجدتها واقفة إلى جوار النافذة فى الوضع الذى أعاده الحلم ، وقال طبيبها — وكان الدكتور م . عينه — إنها تشكو من غشاء دفتيرى. إن شخص الدكتور م . يظهر من جديد فى الحلم ويظهر أيضا الغشاء . وهنا يخطر لى أننى فى الأشهر القليلة الأخيرة قد دعتنى كل الأسباب إلى أن أفترض أن هذه السيدة الأخرى إنما تشكو كذلك آلاما هسترية . لا ، بل إن إرما نفسها قد كشفت ذلك لى . ولكن ما الذى أعلمه عن حالها ؟ شىء واحد على التحديد : وهو أنها تشكو اختناقا هستريا ، شأن إرما فى الحلم . وأنا إذن فى الحلم قد استبدلت بإرما صديقتها . ويحضرنى الآن أنى كثيرا ما داعبتنى تلك الفكرة : أنها أيضا — أعنى صديقة إرما — قد تسألنى يوما الخلاص من أعراضها . على أنى كنت أقدر فى الوقت نفسه أن هذه فكرة بعيدة عن الاحتمال ؛ لما كان بطبع هذه السيدة من شدة التحفظ : إنها تمانع مثل إرما فى الحلم. وسبب آخر لموقفها : وهو أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك ؛ فهى فى الحقيقة قد أبدت حتى هذه اللحظة قدرة كافية على مغالبة ما بها من غير حاجة إلى عون خارجى. وتبقى بعد ذلك بضع ملامح لا أستطيع إسنادها إلى إرما أو صاحبتها : شاحبة ، منتفخة ، أسنان زائفة . فأما الأسنان الزائفة فتذهب إلى المربية التى سبق أن ذكرتها ، وأشعر الآن أننى أستطيع أن أكتفى بهذا القسط فى باب الأسنان الرديئة . وأفكر بعدئذ فى شخص آخر قد يكون فى هذه الملامح ما يومئ إليه : إن التى أعنى لم تكن أيضا بين مرضاى ، ولا كنت أحب أن أكون طبيبها ؛ فقد لاحظت منها تحرجا شديدا فى محضرى ، ولا أظنها كانت تكون مريضا سهل القياد . إنها كانت شاحبة اللون عادة واتفق حينا أن بلغت صحتها أوجها فكانت تلوح ممتلئة[1] . وهكذا أقارن إرما فى

---

(١) ربما كان من الممكن أن نرد إلى هذا الشخص الثالث أيضاً شكوى آلام البطن التى بقيت من غير =

الحلم بشخصين آخرين ما كانا هما أيضا إلا ليبديا ممانعة فى العلاج لو قد أخذا فيه . فأى داع دعانى أن أبدل بإرما صديقتها ؟ لعله أنى كنت أرغب فى هذا التبديل فعلا ؛ إما لأن الأخرى كانت تحرك فى نفسى انعطافا أكبر إليها أو لأنى كنت أرفع تقديرا لذكائها ؛ فقد كنت أراه حمقا من إرما أنها لم تقبل الحل . فأما الأخرى فكانت تكون أكثر فطنة ومن ثم أسرع استسلاما ، حينئذ كان ينفتح الفم كما ينبغى : إنها كانت ستفضى إلى بأكثر مما أفضت به إرما[1] .

ما أراه فى الحلق : بقعة بيضاء وخياشيم عليها قشور . إن البقعة البيضاء تذكرنى بالدفتريا ومن ثم بصديقة إرما . ولكنها تذكرنى أيضا بالمرض الذى أصاب ابنتى منذ عامين على التقريب وبكل الجزع الذى عانيته فى هذه الأيام التعسة . وأما القشور المنتثرة على الخياشيم فتذكرنى بقلق يساورنى على صحتى نفسى . فقد كنت فى هذه الأيام أكثر من استخدام الكوكايين لأخفف به تورما أنفيا ممضا ، وكنت سمعت قبل الحلم بأيام قلائل أن إحدى مرضاى حذت حذوى فأصابها نكروز واسع النطاق فى الغشاء الأنفى المخاطى . ولقد كنت أول من أوصى باستعمال الكوكايين فى سنة ١٨٨٥[2] ، وجرت علىّ هذه التوصية ملائم خطيرة . ثم إن الإفراط فى استعمال هذا الدواء قد عجل بموت صديق عزيز على ، وكان موته قبل سنة ١٨٩٥ .

استدعى الدكتور م . على الفور ، فيعيد الفحص ويؤيده . ذلك ما يتفق ومكانة الدكتور م . بيننا . غير أن « على الفور » هذه تستلفت نظرى ، بحيث يقتضى أمرها إيضاحاً

= إيضاح . وغنى عن البيان أن هذا الشخص الثالث كان زوجى نفسى ، وتذكرنى آلام البطن بمناسبة لحظت فيها تحرجها . ولا أجد مفرا من أن أصارح نفسى بأنى لا أحسن فى هذا الحلم إلى إرما ولا إلى زوجى . ولكن قد نلاحظ على سبيل المعذرة أننى إنما أقارنهما بمثال المريضة الشجاعة الطيعة .

(١) إنى أحس أننى لم أواصل تفسير هذا الحلم حتى أتأثر كل معنى خبىء ، ولو أنى أردت أن أواصل المقارنة بين النساء الثلاث لذهب بى ذلك مذهبا بعيدا . — إن فى كل حلم موضعا واحدا على الأقل يخسف فيه قراره ، سرّه — إن جاز التعبير — يرتبط منها بالمجهول .

(٢) [هذا خطأ لم يصححه فرويد فى أى من الطبعات الثانى التى ظهرت فى حياته . والصحيح أنه أوصى باستعمال الكوكايين فى مقال نشر له عام ١٨٨٤ . ولقد يدرك المرء سر هذا الخطأ إذا قرأ الفصل السادس من الجزء الأول من كتاب جونز عن حياة فرويد ، وهو مخصص لأبحاث فرويد فى الكوكايين وما ارتبط بها من الأحداث . ومنه نعلم أيضاً أن « الصديق العزيز » المشار إليه هو فلايشل فون ماركسوف أحد معاونى بروكه فى المعهد الفيزيولوجى الذى عمل فيه فرويد . ويجد القارئ فيما بعد إشارات أخرى متعددة إلى هذه القصة ، ص ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ .]

خاصا . إنها تذكرنى بحادثة فاجعة وقعت لى فى أثناء القيام بمهنتى : فقد حدث مرة أنى كنت سببا فى أن أصيبت إحدى مريضاتى بتسمم حاد ، وذلك بأن وصفت لها المرة بعد المرة دواء كان يعد فى تلك الوقت لا ضرر منه (السيلفونال) ، وكان أنى هلعت إلى هذا الزميل الذى يكبرنى سنا وحنكة ، ألتمس منه العون والسند . وهناك قرينة تؤيد أننى كنت أفكر حقيقة فى هذا الحادث : فقد كانت المريضة التى أودى السم بها تحمل اسم ابنتى الكبرى . وما فكرت قط فى هذا الاتفاق من قبل ، ولكنه يلوح لى الآن أشبه بقصاص من القدر ، لكأنما كان من الحتم أن يواصل تبديل الأشخاص بعضهم ببعض فى تلك الوجهة الأخرى : ماتيلدا هذه بماتيلدا تلك ، عين بعين وسن بسن . إنه ليبدو أننى كنت أتلمس كل مناسبة أستطيع أن أؤنب بها نفسى على افتقارها إلى الضمير الطبى .

الدكتور م . شاحب الوجه ، حليق الذقن ، يعرج فى مشيته . جانب الصدق فى ذلك هو أن الدكتور م . كثيرا ما يثير مظهره المعتل قلق أصدقائه . وأما السمتان الأخريان فإنما تصدقان من غير شك على شخص آخر : إنى أذكر هنا أخى الأكبر الذى يعيش فى الخارج ؛ فهو حليق الذقن ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد كان م . الحلم يشبهه . وكنا قد علمنا قبل الحلم بأيام قلائل أنه كان يعرج فى مشيته لالتهاب مفصلى فى أعلى فخذه اليسرى . ولا إلا أرى أن ثمت سبباً من أجله أدمجت فى الحلم الاثنين فى واحد : وإنى لأذكر بالفعل أننى كنت واجدا على كليهما لأسباب متماثلة ؛ فكلاهما قد رفض اقتراحا كنت عرضته عليه .

صديقى أوتو يقف الآن بجانبها بينما يفحصها صديقى ليوبولد ويكشف عن منطقة صماء فى أسفل الجانب الأيسر . إن صديقى ليوپولد طبيب كذلك وله بأوتو قرابة . وقد شاء القدر إلا أن يكونا غريمين ؛ فقد سلكا اختصاصا واحدا وكانت المفاضلة بينهما لا تنقطع . وقد عاوننى كلاهما بضع سنوات حين كنت أدير مستشفى خاصا بالأمراض العصبية للأطفال وكانت تقع هناك مشاهد شبيهة بالذى يقع فى الحلم : فبينما كنت أناقش أوتو إحدى الحالات كان ليوپولد يعود إلى فحص الطفل المريض ثم يخرج بجديد يكون له أثره الحاسم فى قرارنا . وكان بين الاثنين من التباين فى الطبع مثل ما بين المفتش برازيج وصديقه كارل[1] : فأحدهما قد عرف بحضوره وتوقده ، وأما آخرهما فبطىء ، لكنه

---

(١) [شخصيتان رئيستان فى رواية كتبها فريتس رويتر (١٨٦٢ - ٦٤) وكان لها ذيوع عظيم فى وقت ما .]

لا يترك كبيرة ولا صغيرة . وجلى أننى إذ أفاضل فى الحلم بين أوتو وليوپولد الحذر فإنما أبتغى من وراء ذلك إعلاء ليوپولد؛ فالمفاضلة بينهما أشبه بها بين مريضتى العصبية إرما وبين صديقتها التى كنت أراها أكثر رجاحة . وهأنذا الحظ الآن أحد المسالك التى عرج عليها تداعى الخواطر فى الحلم : من الطفلة المريضة إلى مستشفى الأطفال وأما المنطقة الصماء بأسفل الجانب الأيسر فيخيل إلى أنها تطابق فى كل تفاصيلها حالة مماثلة أدهشنى فيها ليوپولد بدقته . وبذهنى أيضا فكرة مبهمة ، هى أن هذا الكدر ربما كان وليد سروح مرضى [1]. ولعل فى هذه الفكرة ما يلمح كذلك إلى الصديقة التى كنت أود علاجها بدل إرما ؛ فقد ظهرت من هذه السيدة — بقدر — ما وسعنى الحكم — أعراض تحاكى الدرن .

رقعة مرتشحة من الجلد على الكتف الأيسر . أرى على الفور أن المراد هنا هو الروماتزم الذى أعانيه فى كتفى نفسى والذى لا أسهر ليلة حتى ساعة متأخرة إلا أحسسته . وإن الطريقة التى ركبت بها عبارة الحلم نفسها لتتسم هى أيضا بالاشتراك[2] إلى أبعد حد : « وهو ما ألحظه مثله . . . » ، ألحظه فى جسمى نفسى — هذا هو المقصود[3] . ويتبادر إلى ذهنى عدا ذلك كيف يخرج هذا التعبير : « رقعة مرتشحة من الجلد » عن المألوف ؛ فقد كان من عادتنا أن نقول: « ارتشاح بأعلى اليسار خلفا » — وهو ما يشير إلى الرئة فإلى الدرن مرة أخرى .

على رغم الرداء . هذه الكلمات لا تخرج على التأكيد عن أن تكون إضافة ثانوية ؛ فنحن بالطبع كنا نفحص الأطفال فى المستشفى وهم مجردون من ثيابهم ، على عكس ما يجب اتباعه عند فحص النساء . وأذكر أنه كان يروى عن أحد الأطباء المشهورين أنه كان يجرى الفحص الجسمى لمرضاه من خلال ثيابهم . وأما فيما عدا ذلك ، فلست أتميز شيئا . والصراحة هى أننى لا أريد التعمق فى هذا الموضع .

يقول الدكتور م. إنها عدوى ، ولكن ذلك ليس بشىء سوف تغلب الدسنتاريا وينطرد السم . ذلك ما يبدو لى شيئا مضحكا للوهلة الأولى . ولكن لا بد مع هذا من تحليله تحليلا مستوفى ،

---

(١) [انتقال العلة من عضو لآخر .]

(٢) [اللفظ المشترك هو ما كان له معنيان .]

(٣) [والانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى يسهله فى الألمانية لعب بالألفاظ يضيع عند الترجمة ؛ لأن Wie er spüre (بمعنى " ألحظه مثله ") لا يكاد يختلف فى النطق من verspüre (بمعنى " أحسه ") .]

شأنه شأن غيره . وإنى لألمح فيه ضربا من المعنى إذ أقرب النظر إليه . فالمرض الذى اكتشفته بالمريضة كان التهابا دفتريا بالحلق . وإنى لأذكر مناقشة دارت أيام مرض ابنتى حول العلاقة بين الالتهاب الدفترى الموضعى والدفتريا ؛ فالأخيرة هى العدوى المعممة التى تنشأ من الدفتريا الموضعية وكان ليوپولد يستدل على مثل هذه العدوى المعممة من وجود المنطقة الصماء التى يصح تبعا لذلك أن نعدها ناتجة عن السروح المرضى . وأما أنا فكنت أعتقد أن مثل هذا السروح المرضى لا يقع فى الدفتريا ، بل هو يذكرنى على الأكثر بالحمى الصديدية .

ذلك ليس بشىء . إن المراد هو العزاء . وأما وجه الحاجة إلى العزاء فى هذا المقام ، فهو الآتى : لقد كان مضمون الجزء السابق من الحلم أن مريضتى تشكو آلاما ترجع إلى علة عضوية خطيرة ، ويهيأ إلىّ أننى إنما كنت أبتغى من وراء ذلك أن أصرف اللوم عن نفسى ؛ فالعلاج النفسى لا يمكن أن يُسأل عن دوام آلام دفترية ، ولكن ينغصنى مع هذا أن أكون اخترعت لإرما مثل هذه العلة الخطيرة لا لغاية سوى أن أبرئ نفسى ؛ ففى هذا تظهر القسوة كل القسوة ، وأنا إذن بحاجة إلى من يؤكد لى حسن العاقبة ، وأخال أنى لم أسىء الاختيار حين أجريت العزاء على لسان الدكتور م . بالذات . بيد أننى أسمو بنفسى فوق الحلم فى هذا الموضع ، وهذا نفسه يحتاج إلى إيضاح .

ثم لماذا صيغ العزاء فى هذه العبارة المجردة من كل معنى ؟

الدسنتاريا : أسرحُ إلى ضرب من فكرة نظرية غامضة فحواها أن المواد السامة يمكن أن تطرد من طريق الأمعاء . أيكون أنى أريد أن أهزأ بخصب الدكتور م . فى تصور التعليلات المستبعدة وإنشاء العلاقات المرضية غير المتوقعة ؟ إن الدسنتاريا تذكرنى أيضا بشىء آخر : فقد عنيت منذ بضعة شهور بشاب كان يعانى متاعب عجيبة تتعلق بالتبرز ، عالجها زملاء آخرون على أنها « فقر دم مع تغذية سيئة » . وأدركت من جانبى أن الأمر يتعلق بحالة هسترية ، بيد أننى لم أرد أن أجرب معه علاجى النفسى ، وأرسلته فى رحلة بحرية . وحدث قبل الحلم بأيام أنى تلقيت منه خطابا يائسا من مصر جاء فيه أن نوبة جديدة ألمت به هناك وأن الطبيب أعلن إليه أنها الدسنتاريا . وأكبر ظنى أن هذا التشخيص خطأ انزلق إليه زميل غير عليم ترك الهستريا تمكر به ، ولكنى لا أستطيع مع ذلك أن أجنب نفسى اللوم على أنى جعلت المريض فى موقف قد تُصاب منه أمعاؤه بمرض عضوى فوق

مرضها الهستِّرى . وفوق ذلك فلفظ « دستِّريا » يشبه فى الجرس « دفتِّريا » — وهو اسم نَحْسٌ لا يعرض ذكره فى الحلم .

نعم ، هو هذا من غير شك : إننى أسخر من الدكتور م . إذ أجرى على لسانه هذه النبوءة المعزية :سوف تعقب الدستاريا . . . إلخ . فأنا أذكر أنه نفسه — قبل ذلك بسنوات — قد روى مرة وهو يضحك قصة جد مماثلة عن زميل من الزملاء: فهو — أعنى الدكتور م . — قد دعى مرة ليتشاور وهذا الزميل فى شأن مريض اشتدت به العلة اشتدادا خطيرا . وأحس الدكتور م . أن الواجب يقتضيه أن ينبه زميله — وكان يبدو جم التفاؤل — إلى أنه قد وجد ببول المريض مادة الألبومين . ولكن الزميل أبى أن يأبه لذلك وأجاب هادئا : « ذلك ليس بشىء يا سيدى العزيز ، فلسوف ينطرد الألبومين سريعا ! » وهكذا لا أملك التشكك بعد الآن فى أن هذه الفقرة من الحلم تحوى فى طياتها استخفافاً بالزملاء الذين لا يعلمون أمر الهستِّريا . وها هى ذى فكرة أخرى تجول الآن بخلدى كأنما أريد بها أن تؤيد هذا الرأى: أيعلم الدكتور م . أن الأعراض التى تشكوها مريضته صديقة إرما — والتى تحدوه إلى خشية السل، إنما تنبعث هى أيضامن الهستِّريا ؟ أتراه فضح الهستِّريا ، أم تراها « ضحكت عليه » ؟

ولكن أى دافع يدفعنى إلى أن أسىء إلى هذا الصديق كل هذه الإساءة ؟ الجواب هين : ذلك أن « الحل » الذى أرتأيه لإرما لا يلقى من قبول الدكتور م . إلا ما يلقاه من إرما نفسها . وهكذا أكون انتقمت فى هذا الحلم من شخصين : من إرما حين أقول : إذا كنت ما زلت تتألمين، فالذنب ذنبك أنت ، ثم من الدكتور م . بمنطوق العزاء المجرد من المعنى الذى وضعته على شفتيه .

إنا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى . هذه المعرفة المباشرة فى الحلم مدعاة إلى العجب ؛ فما كنا نعلم من أمرها شيئا منذ هنيهة،إذ كان ليوپولد أول من اكتشف وجود العدوى .

حقنها صديق أوتو منذ قريب حين ساءت صحتها يوماً . لقد روى لى صديقى أوتو حقيقة أنه قد استدعى يوما فى أثناء إقامته القصيرة مع أسرة إرما إلى فندق مجاور ليحقن شخصاً ساءت صحته فجاءة . وتذكرنى الحقن مرة أخرى بصديقى التعس الذى سمم نفسه بالكوكايين. لقد كنت أوصيته باستعمال هذا الدواء من الباطن فحسب [أى من طريق الفم] بعد

ابتداء التخلص من المورفين ، ولكنه بادر إلى حقن نفسه بالكوكايين .

مركب من البروبيل . . . بروبيلين . . . حامض البروبيونيك . كيف اتفق لى التفكير فى ذلك ؟ لقد حدث فى الأمسية السابقة — قبل أن أكتب تاريخ الحالة المرضية ويأتينى هذا الحلم — أن فتحت زوجتى زجاجة شراب كتب عليها « أناناس »[1] وكانت هذه الزجاجة هدية من صديقنا أوتو ؛ فقد كان من عادته أن ينتهز كل مناسبة لكى يزف هداياه ، والأمل أن يرزق يوما بزوج فيبرأ من هذه العادة[2] . وكانت تفوح من هذا الشراب رائحة زيت الفوزل ، حتى أننى امتنعت عن مذاقه . وخطر لزوجى أن تعطى الخدم هذه الزجاجة ، ولكنى كنت أكثر حذراً منها ، فأجبتها بهذه الملاحظة الإنسانية : هم أيضا لا يجب أن يتسمموا . وجلى أن رائحة زيت الفوزل (آميل . . .) قد استدعت هذه السلسلة كلها : بروبيل ، ميتيل ، وما إليها — وهو ما يعلل ورود مركب البروبيل فى الحلم . صحيح أننى أجريت هنا بعض التبديل ، فحلمت بالبروبيل بعد أن شممت الآميل ، ولكن مثل هذه التبديلات قد تجوز فى الكيمياء العضوية بخاصة .

تريمتيلامين . لقد رأيت فى الحلم المعادلة الكيميائية لهذه المادة ، وهو ما يشهد بمجهود عظيم من جانب ذاكرتى . ثم إنى رأيتها مطبوعة بحروف سميكة ، كأنما أريد أن يُنص لها على أهمية خاصة فى هذا السياق . فإلام يسوقنى التريمتيلامين الذى يُفرض على انتباهى على هذا النحو ؟ إلى حديث دار يوما بينى وبين صديق كان يعلم كل شىء عن مؤلفاتى وهى فى طور النمو كما كنت أعلم منه المثل[3] . فى خلال هذا الحديث أفضى إلى صديق بآرائه فى كيمياء العمليات الجنسية وكان بين ما ذكره لى أن التريمتيلامين — على ما يعتقد —

(١) وهناك بعد ذلك جناس ملحوظ بين " أناناس " واسم عائلة مريضتى إرما .

(٢) [هامش أضيف فى عام ١٩٠٩ ثم حذف ابتداء من عام ١٩٢٥ :] لم يكن الحلم نبيا من هذه الناحية ، ولكنه كان كذلك فى ميدان آخر : فالآلام التى كانت تعانيها مريضتى إرما " من غير حل " والتى كنت حريصاً كل هذا الحرص على ألا ألام عليها قد ثبت أنها كانت العلائم الأولى على اضطراب خطير ناجم عن حصوة فى كيس الصفراء .

(٣) [الصديق الذى تذهب إليه هذه الإشارة هو ڤيلهلم فليس ، وكان أخصائيا فى أمراض الأنف والحنجرة فى مدينة برلين ، ولكن اهتماماته شملت ميدان علم الحياة بأجمعه ، وكانت له فى هذا العلم نظريات أقل ما يقال عنها هو أنها كانت تتسم بالغرابة . ولكى تعرف شيئاً عن هذه النظريات وعن صلة صاحبها بفرويد وأثره فى حياته ، فلا معدى عن قراءة رسائل فرويد إليه التى نشرت أخيرا مع مقامة كتبها إرنست كريس (فرويد ١٩٥٠ أ) . هذا وسوف يكثر ذكر هذا الصديق فى خلال الصفحات القادمة ، دون الإشارة إلى اسمه أو مشاراً إليه بحرف الفاء .]

أحد المواد الناتجة عن الميتابوليزم الجنسي . وهكذا تسوقني هذه المادة إلى الحياة الجنسية، وهي العامل الذي أعزو إليه أكبر الأهمية في نشوء الاضطرابات العصبية التي أروم علاجها. ومريضتي إرما أرملة في مقتبل العمر ؛ فلو سُئلت عذرا أبرر به إخفاق علاجي ، ما وجدت خيرا من الاحتجاج بهذا الوضع الذي يود أصدقاؤها لو تغير. ولكن يا للعجب لتركيب مثل هذا الحلم! فالمرأة الأخرى — تلك التي جعلتها مريضتي بدل إرما — أرملة شابة هي الأخرى .

إني أحذر الآن لم أبرزت معادلة التريمتيلامين كل هذا الإبراز في الحلم ؛ فكم من أمور ذات بال تلتقي في هذه الكلمة الواحدة ! إن التريمتيلاين لا يشير إلى الحياة الجنسية بسلطانها الغلاب وحسب ، إنه يلمح فوق ذلك إلى صديق يسعدني أن أذكر تأييده كلما أحسست عزلتي الفكرية . وصديقٌ هذا شأنه في حياتي ، ألا يكون من المحتوم أن يتردد في الحلم ذكره ؟ نعم ، إن له إلماما خاصا بعواقب أمراض الأنف وجيوبه . وهو قد كشف للعلم عن علاقات جديرة بأكبر الإعجاب بين خياشيم الأنف وعضو الإنسال عند الأنثى (الزوائد الثلاث المتجعدة في حلق إرما) . ولقد جعلته يفحص إرما مرة ليرى هل كان لأوجاع المعدة عندها أصل أنفي . ولكنه نفسه يشكو التهابا صديديا في الأنف يثير القلق في نفسي ، وإلى هذا تومئ من غير شك الحمى الصديدية التي طاف ذكرها بخلدي في صدد السروح المرضى المذكور في الحلم .

إن الإنسان لا يقدم على مثل هذه الحقن بمثل هذه الخفة . هنا يوجه اللوم على الخفة إلى صديقي أوتو مباشرة . وأعتقد أن خاطرا من هذا القبيل قد طرأ لي بعد الظهر حين خيل إلي من كلماته ونظراته أن يتعصب عليّ ، كأنما قلت : ما أسهل التأثير فيه ! بأي خفة يرسل أحكامه ! — وفوق هذا ، تذكرني هذه الجملة من جديد بصديقي المتوفى الذي التجأ إلى حقن الكوكايين من غير ترو ؛ فما فكرت على الإطلاق — كما قلت من قبل — في أن يأخذ هذا الدواء حقنا . وألاحظ أيضا أنني إذ ألوم أوتو على نزقه في استخدام المواد الكيميائية ألمس مرة أخرى قصة ماتيلدا التعسة ، وهي القصة التي تعرضني لهذه المؤاخذة عينها . وجلي أنني أجمع هنا الشواهد على حساسية ضميري ، ولكني أجمعها أيضا على العكس .

وأغلب الظن أن الحقنة لم تكن نظيفة كذلك . ذلك لوم آخر يوجه إلى أوتو ، ولكنه

لوم مختلف المصدر. فقد اتفق أنى قابلت فى اليوم السابق ابن سيدة عجوز فى الثانية والثمانين من عمرها، كنت قد كلفت بحقنها حقنتين من المورفين كل يوم . وكانت السيدة تقيم فى الريف حين قابلت ابنها . فأخبرنى أنها تعانى التهابا وريديا . فخطر لى على الفور أن الأمر ربما كان ارتشاحا نجم عن محقنة قذرة . فقد كان من أسباب فخارى أنى لم أسبب لها ارتشاحا واحدا خلال سنتين. فنظافة المحقنة هى همى الدائم : إنى — وذلك هو بيت القصيد — ذو ضمير. وتعود بى الذاكرة من الالتهاب الوريدى إلى زوجى التى اشتكت مرة من انسداد وريدى أصابها فى إحدى فترات الحمل . وهنا تمثل فى ذاكرتى ثلاثة مواقف متماثلة مع زوجى وإرما وماتيلدا المتوفاة . وواضح أن تماثل هذه المواقف هو الذى خول لى فى الحلم تبديل هذه الوجوه الثلاثة فيما بينها .

• • •

الآن أكملت تفسير الحلم[١] . وكنت وأنا ماض فى هذا التفسير أجهد ما استطعت فى تجنب الأفكار التى لم يكن مفر من أن توحيها المقارنة بين محتوى الحلم والأفكار الكامنة وراءه . وفى هذه الأثناء أشرق فى ذهنى « معنى » الحلم . لقد لحظت أن ثمت مأربا وأن هذا المأرب قد صار فى الحلم شيئا واقعا، وهو هو الذى كان لا محالة دافعى إلى الحلم . فالحلم يحقق بضع رغبات أثارتها فى نفسى أحداث الأمسية السابقة : الأنباء المتلقاة من أوتو وتاريخ الحالة المرضية الذى دونته . وحاصل الحلم هو أنى برىء من شكاة إرما المستمرة؛ فإنما المذنب أوتو . والحقيقة هى أن أوتو قد أثار حفيظتى إذ أشار إشارته إلى شفاء إرما شفاء غير تام . والحلم يثأر لى إذ يرد اللوم إليه . ثم هو يعفينى من كل مسئولية فيما عليه إرما إذ يرد حالها إلى عوامل أخرى— وهو يتبدع هنا طائفة كاملة من التعليلات . الحلم — إذن — يصور وضعا من الأوضاع التصوير الذى أحب : إن محتواه يحقق رغبة والدافع إليه رغبة .

كل هذا يقتحم العين . ولكن تفاصيل الحلم كذلك يدنو الكثير منها للفهم إذا نحن نظرنا إليه من وجهة تحقيق الرغبة . فأنا لا أثأر من أوتو لتعجله فى التعصب على وحسب ، راميا إياه بالتهور فى علاجه (الحقنة)، بل أثأر منه كذلك للشراب الردىء الذى يفوح منه زيت الفوزل ، وأجد فى الحلم تعبيرا يوحد الملامتين : حقنة من مركب البروپيل .

(١) وإن كان من المفهوم أنى لم أرو كل ما خطر لى فى أثناء عملية التفسير .

،ثم لا يكفيني ذلك ، فأمضي فى انتقامى ، فأفاضل بينه وبين منافس ثقة عنه ، كأنما أبتغى القول : إنه أحب إلىّ منك . ولست أصب جام غضبى على أوتو وحده ، بل أنتقم أيضا من مريضتى العاصية إذ أستبدل بها أخرى أعقل وأطوع . بل الدكتور م . نفسه لا أنسى له معارضته إياى، بل أريه بإشارة لا تخفى أنه لا يفقه من الأمر شيئا (« سوف تعقب الدسنتاريا ... الخ . ») وإنه ليبدولى أننى أتحول عنه إلى حكم آخر أوسع معرفة ، مثلما تحولت من قبل عن إرما إلى صديقتها وعن أوتو إلى ليوپولد . لكأنى أقول : أبعدوا عنى هؤلاء الثلاثة وآتونى بثلاثة أنتقيهم من غيرهم، ترتفع عنى هذه الملامات التى لا أريدها مستحقة ! ثم هذه الملامات ذاتها لا يلبث أن يُساق البرهان فى الحلم على بطلانها ، مسهبا كأكثر ما يكون الإسهاب : فآلام إرما لا تقع على ، بل هى الملومة؛ لأنها ترفض حلى . ثم ما شأنى وآلام إرما وهى بطبيعةٍ عضوية ، فلا يشفيها علاج نفسى ؟ ثم إن فى ترمل إرما التعليل الكافى لدائها (التريميتيلامين !) ، ولاحول لى على تغيير هذا الوضع . ثم إن علة إرما قد ولدتها حقنة من مادة غير مناسبة ، لم يأخذ أوتو فيها بالحذر — وهو أمر ما كان ليصدر عنى قط . ومرض إرما — مثل الالتهاب الوريدى الذى أصاب مريضتى العجوز — منشؤه حقنها بإبرة قذرة ، وأنا الذى ما أضرت حقنه أحدا قط . ولا يفوتنى بالطبع أن هذه التعليلات لمرض إرما لا تتفق فيما بينها وإن اتفقت على تبرئتى ، بل إن كلا منها يمنع غيره . فالدفاع كله — فما هذا الحلم إلا دفاع — يُذكر برجل اتهمه جاره بأنه اقترض منه قدْرا ثم أعادها بعد أن أفسدها . فأجاب الرجل بأنه قد أعاد القدر على خير حال — هذا أولا — ثم إن القدر — ثانيا — كانت مثقوبة حين استعارها ، ثم هو — أخيرا — لم يستعر شيئا على الإطلاق . والنفع فى الإكثار : فلو لم تجز من حجج الرجل إلا واحدة ، لكفى ذلك أن يُخلى سبيله .

وفى الحلم فكر أخرى تشارك فى بنائه دون أن تكون لها مثل هذه الصلة الواضحة برغبتى فى أن أُبـرَّأ من مرض إرما : مرض ابنتى ومرض سميتها ، الأذى الذى جره الكوكايين ، إصابة مريضى المسافر بمصر ، قلقى على صحة زوجى وأخى وصحة الدكتور م . شكاياتى نفسى ، قلقى على صديقى الغائب وهو يعانى الالتهاب الصديدى الأنفى . ولكنى إذا نظرت إلى كل أولئك رأيته يجتمع فى دائرة فكرية واحدة عنوانها : القلق على الصحة ، لنفسى ولغيرى ، الضمير المهنى . وإنى لأذكر إحساساً أليماً غامضاً خالجنى حين أتانى أوتو بأنبائه

عن إرما ، وفى مقدورى الآن ـــ وقد سفرت هذه الطائفة من الأفكار التى كان لها فى الحلم نصيبها ـــ أن أرجع إلى هذا الإحساس العابر فأثبته فى كلم ، إنى كنت كأنما أسمعه يقول لى : أنت لا تأخذ تبعاتك الطبية مأخذ الجد ، أنت لا ضمير لك ، أنت لا تنجز ما تعد . وكان أن واتتنى هذه الطائفة من الأفكار لكى أتمكن بها من تبيان أى ضمير مرهف هو ضميرى ،وكم أحرص على صحة ذوى وصحة أصدقائى ومرضاى . وحرى بالملاحظة أن هذه المادة قد حوت كذلك أفكارا تؤيد اتهام صديقى أوتو أكثر مما تبرئنى ، إنها مادة محايدة ـــ إن جاز التعبير . ولكن هناك مع ذلك رباطا لا يخفى بين هذه المادة الأوسع نطاقا والتى ينهض عليها الحلم وبين الموضوع الأضيق الذى يعالجه هذا الحلم والذى نشأت عنه الرغبة فى البراءة من كل ذنب فى مرض إرما .

ولست أريد أن أقول : إنى كشفت معنى هذا الحلم كشفا كاملا أو إن تفسيره يخلو من الثغرات .

لقد كان يسعنى أن أفرغ له مزيدا من الوقت وأن أخرج منه بمزيد من العلم وأن أناقش فى صدده مشكلات جديدة ما زال يثيرها . وأنا نفسى أعلم ما هى المواضع التى ينبغى تتبع المستدعيات الفكرية الجديدة ابتداء منها . ولكن توقفى دون مواصلة التفسير اعتبارات تظهر فى صدد كل حلم . فإن أحس البعض بنفسه مسارعة إلى استنكار مثل هذا التحفظ منى ، كفاه أن يحاول غلبتى فى الصراحة . فأما أنا فأقنع فى الوقت الحاضر بتلك المعرفة المفردة الجديدة : إذا سرنا على منهج تفسير الحلم المبين فى هذه الصفحات ، رأينا أن الحلم له فى الحقيقة معنى وأنه بعيد غاية البعد عن أن يكون مظهرا لنشاط مخى متجزئ ، كما يريد المؤلفون : إذا تم التفسير تبين أن الحلم تحقيق رغبة[1] .

---

(١) [فى خطاب إلى فليس بتاريخ ١٢ من يونيه ١٩٠٠ يتحدث فرويد عن حياة الأسرة فى بلفى ثم يردف قائلا :

« أتظن أن لوحا من المرمر سوف يعلق يوما على هذا المنزل وقد نقشت عليه تلك الكلمات ؟ —

فى هذا المنزل ، فى ٢٤ من يوليه ، ١٨٩٥

كشف سر الأحلام

للدكتور سيجموند فرويد

إن الأمل فى ذلك يلوح ضعيفاً فى الوقت الحاضر . »]

الفصل الثالث

الحلم تحقيق رغبة

لو أن رجلا ضرب فى منعطف ضيق ثم إذا هو يستوى فوق قمة عالية تتشعب منها الطرق وينتشر الأفق ثريا فى كل اتجاه ، لكان من الأوفق للرجل أن يتمهل برهة ليتدبر فى نفسه ما هى مقبلة عليه . وحالنا وحال هذا الرجل سواء، بعد أن استتب لنا أول تفسير فسر به حلم ما . فنحن نقف ونور الكشف المباغت يغمرنا . فالحلم ليس بالأصوات الناشزة تنبعث من معزف قرعته قوة خارجة لا يد الموسيقى ، والحلم ليس خلوا من المعنى ولا فاسده، ولا هو يدعنا نفترض أن فريقا من أفكارنا المختزنة ينام بينما يصحو فريق . إنه ظاهرة نفسية صادقة كأصدق ما تكون الظاهرة النفسية : إنه تحقيق رغبة، والطريق موصول بينه وبين ما نعقل من نشاطنا النفسى فى يقظتنا ، وبناؤه من صنع نشاط ذهنى على كثير من التعقيد . بيد أننا لا نكاد نأخذ فى الابتهاج لهذا الكشف حتى يهجم علينا سيل من الأسئلة : فإذا كان الحلم يمثل رغبة محققة – كما يحدثنا به التفسير – فما مأتى الصورة العجيبة التى يتخذها هذا التحقيق ؟ أى تغيير ينال أفكار الحلم قبل أن تحول إلى الحلم الظاهر الذى نذكره فى يقظتنا ؟ كيف يقع هذا التغيير؟ من أين تأتى المادة التى تحول إلى حلم ؟ وما أصل الخصائص الكثيرة التى نستطيع ملاحظتها فى أفكار الحلم – كقبولها التناقض مثلا ؟ (أنظر مثال القدر المستعارة ص١٤٧) . هل يستطيع الحلم أن يعلمنا جديدا عن عملياتنا النفسية الباطنة؟ هل يستطيع محتواه أن يصحح آراء كنا نعتقد صدقها فى أثناء النهار ؟ إنى أرى أن ندع جانبا جميع هذه الأسئلة فى الوقت الحاضر ، وأن نتقدم ببحثنا فى طريق واحدة : لقد رأينا أن الحلم يحقق رغبة ، فواجبنا الآن هو أن نبحث هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا أو هو اتفاق عرض فى محتوى ذلك الحلم الجزئى الذى بدأنا به تحليلنا (حلم حقنة إرما) . فلقد نقبل التسليم بأن لكل حلم معناه وقيمته النفسية ، ولكن من الواجب مع ذلك أن نترك مكانا لإمكان تفاوت هذا المعنى بتفاوت الأحلام . فحلمنا الأول قد حقق رغبة ، ولكن قد يجىء ثان فإذا هو يحقق مخافة ، أو ثالث فلا يخرج

محتواه عن أن يكون فكرة ما ، أو رابع يستحضر إحدى الذكريات وحسب . أهناك إذن أحلام رغبة أخرى عدا هذا الحلم، أم لعله لا وجود لأحلام سوى أحلام الرغبة ؟

إن من السهل أن نتبين أن تحقيق الرغبة كثيرا ما يرد فى الأحلام سافرا غير خاف، حتى أن المرء ليعجب لأن لغة الأحلام لم تفهم منذ زمن طويل . إليك مثالا على ذلك أستطيع إحداثه كلما شئت، كأنما كان ذلك بالتجريب : إذا أكلت فى الليل أنشوجة أو زيتونا أو غيرها من الأطعمة الشديدة المملوحة، أحسست فى الليل العطش وأيقظنى هذا الإحساس . ولكن هذه اليقظة تجيء دائما فى أعقاب حلم لا يختلف محتواه ، ومحتواه أنى أشرب، أشرب جرعات كبيرة من الماء ، والماء حلو المذاق كما يحلو السلسبيل والحلق جاف . عندئذ أستيقظ وأرانى حقيقة مسوقا إلى تلمس الماء . فالمناسبة الداعية إلى هذا الحلم غير المعقد هى العطش الذى أحسه حين أستيقظ ، ومن هذا الإحساس تنبعث الرغبة فى الارتواء ، وهذه الرغبة يصورها الحلم متحققة . وهو إذ يفعل يؤدى وظيفة أحذرها على الفور: فأنا أنام نوما عميقا ولم آلف أن توقظنى حاجة من حاجات الجسد ، فلو قد أفلحت فى أن أسكن عطشى بحلم أرانى فيه شاربا، لأغنانى ذلك عن الاستيقاظ إرضاء لهذا العطش ؛ فهذا الحلم حلم أخذ بالتى هى أسهل: لقد حل الحلم محل العمل — كما يقع أيضاً فى غير ذلك من مواقف الحياة . ومن سوء الحظ أن الحاجة إلى الماء إرواء لعطشى لا يمكن إشباعها بحلم مثل ظمأى إلى الثأر من صديقى أوتو ومن الدكتور م . ولكن حسن القصد فى الحالين واحد . وحدث منذ وقت غير بعيد أن اتخذ هذا الحلم نفسه صورة مختلفة بعض الاختلاف. فقد أدركنى العطش قبيل النوم فأفرغت فى جوفى كوبا من الماء أضعه على منضدة صغيرة بجوار سريرى ، ولكن العطش عاودنى فى خلال الليل بعد ذلك بساعات واستتبع ما يستتبع من إزعاج، فكان علىّ إن أردت لغلتى ارتواء أن أنهض باحثا عن الكوب الموضوع على مائدة زوجى . وعلى ذلك أتانى حلم مناسب للمقام ، فرأيت زوجى تقدم إلى وعاء به شراب ، وكان الوعاء جرة خزف إترورية[1] من قبيل ما يحفظ فيه رماد الموتى بعد إحراقهم ، كنت قد جلبتها معى من رحلة إلى إيطاليا ثم أهديتها إذ ذاك إلى البعض . ولكن الماء كان مالح المذاق (وجلى أن ذلك من أثر الرماد) ، حتى

(١) [نسبة إلى إتروريا ، وهى المنطقة من إيطاليا المسماة اليوم توسكانيا ، وبها استقر قوم يغلب أنهم من أصل آرى وأنهم وفدوا إليها من آسيا الصغرى ، وكانت لهم حضارة رفيعة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد .]

أننى استيقظت . ولا يفوتنا أن نلحظ كيف سهّل هذا الحلم الأمور على أوفق وجه . فغرضه الأوحد هو أن يحقق رغبة ، ومن ثم جاز له أن يكون أنانيا مطلق الأنانية . والحق أن حب السهولة لا يستقيم ومراعاة الآخرين . والراجح أن إدخال الجرة الخزفية فى الحلم كان يحقق أيضا رغبة : فأنا آسف على أن هذا الإناء قد خرج من حوزتى – كما يخرج من متناولى الإناء الموضوع على مائدة زوجى . والجرة برمادها تتسق أيضا وإحساس المذاق المالح الذى كان آخذا إذ ذاك فى الاشتداد والذى أعلم أنه موقظى لا محالة[1] .

وكانت أحلام السهولة هذه تقع لى كثيرا فى شبابى ؛ فقد كان من عادتى دائماً أن أعمل حتّى ساعة متأخرة من الليل وكان الاستيقاظ المبكر أمرا عسيرا على دائما ، فكنت أحلم حينئذ أننى قد غادرت الفراش ، واقف بجوار الحوض أغتسل . وغنى عن البيان أنه لم يكن فى مستطاعى أن أتمادى فى التغافل عن الواقع إلى غير حد ، ولكننى كنت أظفر فى هذه الأثناء ببرهة من النوم . وحدثنى زميل شاب ، كان يشاركنى هذا الغرام بالنوم على ما يبدو ، عن حلم كسل من هذا القبيل ، اتخذ عنده صورة فريدة فى طرافتها . ذلك أن هذا الزميل كان قد طلب إلى السيدة التى يقيم بدارها قريبا من المستشفى أن توقظه فى ساعة محددة كل صباح ، وكان ذلك أمرا مشددا ، ولكن السيدة لم تلبث أن تبينت أن تنفيذه لم يكن بالأمر الهين . وفى ذات صباح لاح له النوم فريدا فى حلاوته ، وجاءت السيدة تصيح وهى بالباب : « يا سيد پى استيقظ ، لقد جاء وقت الذهاب إلى المستشفى » ، فكان جوابه حلما رأى فيه أنه نائم فى إحدى حجرات المستشفى وقد علقت فوق سريره لائحة خط عليها : « پى هـ . ، طالب طب ، ٢٢ سنة » فكان أن حدث نفسه – وهو ما زال بحلمه – قائلا : « لا حاجة بى إلى أن أذهب إلى المستشفى ما دمت هناك » – ثم تقلب فى فراشه ومضى فى نومه . وهكذا اعترف اعترافا صريحا بدافعه إلى الحلم .

---

(١) عرف ڤيجانت أيضاً وقوع أحلام العطش هذه ، فهو يقول : (١٨٩٣ ، ٤١) " وهذا الإحساس بالعطش هو الذى يدرك أدق إدراك ، وهو يبعث دائماً على تصور الارتواء . وأما الطريقة التى يصور بها الارتواء فى الحلم ، فتختلف وتستمد صورتها الخاصة من إحدى الذكريات القريبة . وظاهرة أخرى مطردة الوقوع فى هذا المجال : هى أن فكرة إرواء العطش لا يلبث أن يتلوها الشعور بالخيبة ؛ لقلة غناء هذا الارتواء الوهمى . " إلا أن ڤيجانت يغفل المغزى الكلى الذى تتضمنه استجابة الحلم إلى المنبه . – هذا ، وإذا كان بعض الناس قد يدركهم العطش فى أثناء الليل فيستيقظون دون أن يحلموا ، فذلك ليس اعتراضاً على تجربتى ، وإنما هو دليل على أن هؤلاء الناس أردأ نوماً من غيرهم . – أنظر سفر إشمياء ، الإصحاح ٢٩ ، ٨ : " ويكون كما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ وإذا نفسه فارغة . وكما يحلم العطشان أنه يشرب ثم يستيقظ وإذا هو رازح ونفسه مشتهية . "

وها هو ذا حلم آخر فيه كذلك أحدث المنبه فعله فى خلال النوم نفسه . فقد أمر الأطباء إحدى مريضاتى – وكانت قد أجريت لها عملية فى الفك لم تصب النجاح المأمول – بأن تضع على خدها المصاب جهازا مبردا ، ليلا ونهارا . ولكنها كانت لا تكاد تنام حتى تسارع إلى إلقائه . وسئلتُ ذات يوم أن أعنفها بعض التعنيف على مسلكها هذا ؛ فقد رمت جهازها مرة أخرى . ولكنها أجابتنى قائلة : « الحق أنى لم أكن أملك حيلة فيما وقع هذه المرة ، وإنما المسئول حلم حلمته فى الليل . فقد رأيتنى فى شرفة بدار الأوبرا وقد أخذ المشهد بلبى ، ولكن الهر كارل ماير كان راقدا فى المستشفى وهو يشكو ألما فى فكه مر الشكوى ، فقلت لنفسى : لا حاجة بى إذن إلى هذا الجهاز ما دمت أنا لا أعانى ألما . وكان أنى رميت الجهاز . » إن حلم هذه الشاكية المسكينة يبدو تصويرا أمينا لعبارة شائعة ترد على اللسان عفوا حين يرى الإنسان نفسه فى موقف لا يحسد عليه : « الحق أنى كنت أستطيع أن أتصور ما هو ألطف من ذلك » ؛ فالحلم إنما يصور هذا الألطف ، فقد كان الهر كارل ماير الذى حولت إليه الحالمة أوجاعها آخر شاب يمكن أن يتجه إليه تفكيرها بين من تعرف .

وبمثل هذه السهولة نستطيع أن نتبين تحقيق الرغبة فى أحلام أخرى جمعتها من أناس أصحاء . فقد قال لى يوما صديق كان يعرف نظرياتى فى الحلم وتحدث بها إلى زوجه : « سألتنى زوجى أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها . لعلك تعلم ما معنى ذلك . » ويقينا أنى أعلمه : فأن تحلم هذه الزوج الشابة بأن الحيض قد جاءها ، معناه أن الحيض قد انقطع . وأستطيع أن أتصور أنها كانت تود لو استمتعت بحريتها بعضا آخر من الوقت قبل أن تبدأ تكاليف الأمومة : إن الحلم كان طريقة ماهرة فى الإنباء بحملها الأول . وكتب إلى صديق آخر يقول : إن زوجه قد حلمت منذ قريب بأنها تلحظ بقعا من اللبن على صدارها . وهذه أيضا بشرى تنبئ بالحمل ولكنه ليس الحمل الأول : فالأم الشابة تأمل أن تدر لرضيعها الثانى أكثر مما أدرت لرضيعها الأول .

وظلت سيدة شابة أسابيع طوالا بمعزل عن المجتمع ؛ لأنها كانت تتعهد ابنها المريض مرضا معديا . فلما كتب له الشفاء ، حلمت بمجلس التقت فيه بألفونس دوديه وبورجيه ومارسيل بريفو وغيرهم من الكتاب وكان لطف الجميع تجاهها غاية ، وسروا عنها أجمل تسرية . وكانت للمؤلفين المجتمعين ملامح كالتى لهم فى صورهم ، إلا مارسيل بريفو

الذى لم تكن قد رأت صورته؛ فقد كان يشبه . . . موظف وزارة الصحة الذى بخر غرفة المريض يوم أمس وكان أول زائر يزورها منذ وقت طويل . وهكذا يبدو أن فى الإمكان أن نترجم هذا الحلم ترجمة وافية : لقد آن أوان الانصراف إلى شىء أكثر تسلية من هذا التمريض الأبدى .

لعل هذه المقتطفات كافية أن ترينا أننا نجد فى أحيان كثيرة جدا وبين ملابسات على أشد ما يكون اختلافا — أحلاما لا تترك مجالا لفهمها بغير كونها تحقق رغبة ، أحلاما يسفر محتواها عن فحواها فى غير خفاء . إنها فى الأغلب أحلام قصيرة غير معقدة تباين التآليف الحلمية المشوشة المسهبة التى جذبت بنوع خاص انتباه المؤلفين مباينة حسنة الوقع . بيد أن جهدنا لن يضيع مع ذلك هباء إذا نحن وقفنا عند هذه الأحلام غير المعقدة بعض الوقت . ولنا أن نتوقع أبسط صور الحلم عند الأطفال؛ فلا شك فى أن نتائج نشاطهم النفسى أقل تعقيدا من نظيراتها عند الراشدين . وأعتقد أن من المقدر على علم نفس الطفل أن يسدى إلى علم نفس الراشدين خدمات نافعة كالتى أسدتها دراسة بنية الحيوانات السفلى وتطورها إلى دراسة بنية الحيوانات الأعلى مراتب . ولكن الجهود التى بذلت عن قصد من أجل الانتفاع بعلم نفس الأطفال لهذا الغرض لا تزال قليلة حتى اليوم .

إن أحلام الأطفال لا تخرج فى أحيان كثيرة[١] عن أن تكون تحقيق رغبات ، وهى تخلو عندئذ[٢] من القيمة ، بالقياس إلى أحلام الراشدين ؛ لأنها لا تثير ألغازا تنتظر الحل . ولكنها بالطبع تظل ذات قيمة لا تقدر من أجل البرهنة على أن الأحلام تعنى فى جوهرها الدفين تحقيق رغبة . ولقد أمكننى أن أجمع بضعة أمثلة عليها ، من مادة زودنى بها أطفالى نفسى .

إذ أشكر لرحلة قمنا بها فى صيف عام ١٨٩٦ من آوسى إلى قرية هالشتات الجميلة[٣] أن كانت سببا فى حلمين أتت أولهما ابنتى ، وكانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثمانية أعوام

(١) [" فى أحيان كثيرة " أضيفت فى طبعة ١٩١١ . ولفرويد ملاحظة على هذا التقييد يقول فيها (الكتابات المجمعة ، الجزء الثالث ، ١٩٢٥ ، ص ١٢) : " لقد بينت الخبرة أن الأحلام المشوهة التى تحتاج إلى تفسير تقع أيضاً للأطفال الذين يبلغون الرابعة أو الخامسة . وذلك ما يتفق تمام الاتفاق وآراءنا النظرية عن الشروط التى تحتم تشويه الأحلام . "]

(٢) [قبل عام ١٩١١ كنا نقرأ : " من أجل ذلك " بدلا من " عندئذ " .]

(٣) [فى منطقة سالتسكامرجوت بأعالى النمسا .]

ونصف العام، وأتى ثانيهما ولد تجاوز الخامسة بثلاثة شهور . ومن اللازم أن أقول على سبيل التمهيد : إننا كنا نقضى ذلك الصيف على تل قريب من آوسى ، كنا نستمتع منه إذا صحا الجو بمنظر بديع من مناظر جبل داخشتاين . وكان من الميسور إذا استعنا بمنظار مقرب أن نتبين منه فى وضوح كوخ[1] سيمونى . ولقد حاول الأطفال رؤيته من خلال المنظار تكررا ،ولست أعلم مدى نجاحهم فى ذلك . وكنت قد ذكرت للأطفال قبل الرحلة أن هالشتات تقع على سفح الداخشتاين ، وكانوا هم ينتظرون اليوم الموعود فى فرح شديد . ومن هالشتات أخذنا نصعد فى [وادى] اشرنتال الذى خلب الأطفال بمشاهده المتقلبة ، إلا أن واحدا منهم — وهو الولد الذى فى الخامسة — أخذ يتذمر ؛ فكلما لاح للنظر جبل جديد جعل يسأل : أهذا هو الداخشتاين ؟ فأجيبه : كلا ، إنه أحد التلال التى على سفحه فقط . وبعد أن كرر سؤاله هذا بضع مرات ، التزم الصمت التزاما تاما وأبى مصاحبتنا فى المرتقى الذى يقود إلى مسقط المياه . وظننت أنه كان تعبا ، ولكنه أقبل فى الصباح وعلامات البشر بادية عليه ، وقال : « لقد حلمت فى الليلة الماضية أننا كنا فى كوخ سيمونى . » وإنى لأفهمه الآن : فهو قد توقع حين تحدثت عن الداخشتاين أن يصعد الجبل فى أثناء رحلتنا إلى هالشتات وأن يرى عن كثب كوخ سيمونى الذى طالما كان موضع حديثنا ونحن ننظر إليه بالمنظار. فلما رأى أن عليه أن يقنع بتلال على السفح وبمسقط مياه ، خاب ظنه وصار صموتا . ولكن الحلم عوضه عما فاته . ولقد حاولت أن أعرف بعض تفاصيل الحلم ، ولكننى لم أظفر منه بالشىء الكثير ؛ فكل ما استطاع قوله هو : « إن المرء يصعد ست ساعات قبل أن يصل إلى هناك . » وهو — حتى فى هذا القليل — إنما يردد ما سمع .

كذلك الفتاة البالغة من العمر ثمانى سنوات ونصف السنة ، فقد تركت هذه الرحلة أيضا فى نفسها رغبات لزم أن يرضيها حلم . فقد أخذنا معنا إلى هالستات ابن الجيران ، وكان فتى فى الثانية عشرة من عمره كله فروسية، تدل الدلائل على أنه قد نزل من الآنسة الصغيرة منزل القبول . ففى الصباح التالى روت لى الفتاة هذا الحلم : « تصور أنى حلمت أن إميل واحد منا ، يناديكما «ماما » و « بابا » وينام معنا فى الحجرة الكبيرة مثل إخوتى

(١) [Hüttel — يطلق على بيوت صغيرة من الخشب تقام فى أنحاء متفرقة من الجبل ويأوى إليها الناس ليلوذوا بها من الخطر ، أو ليستريحوا . ويطلق على كل منها اسم الجهة المقام فيها .]

الصبية . ثم جاءت ماما وألقت بملء يديها تحت أسرتنا ألواحا كبيرة من الشوكولاته لفت فى ورق أزرق وأخضر . » فلما سمعها إخوتها الذين لم يرثوا القدرة على تفسير الأحلام — كما نرى — صاحوا مثل المؤلفين الذين نعرف : هذا الحلم هراء . بيد أن الفتاة نفسها دافعت عن جزء واحد من الحلم على الأقل ، ومن المفيد لنظرية الأعصبة أن نعلم أى جزء هو ، قالت : « أن يكون إميل واحدا منا ، هذا هراء ، وأما حكاية الشوكولاته فلا . » وكان هذا الجزء على التحديد هو الجزء الذى خفى على ، ولكن أم الأولاد أتتنى ببيانه : ذلك أن الأطفال قد توقفوا وهم فى طريقهم من المحطة إلى المنزل أمام موزع آلى بغية الحصول على ألواح من الشوكولاته لفت فى ورق معدنى لامع من هذا النوع عينه ، كانوا يعلمون من سابق خبرتهم أن الآلة تخرجها . غير أن أمهم رأت بحق أن اليوم قد حقق لهم من رغباتهم الكفاية ، وبذلك تركت للحلم تحقيق هذه الرغبة الأخيرة . وكان هذا المشهد الصغير قد فاتنى . وأما جزء الحلم الذى تخاذلت ابنتى عن الدفاع عنه ، فقد فهمته على الفور : فلقد سمعت بأذنى ضيفنا المهذب وهو يطلب من الأولاد أن ينتظروا « بابا » و « ماما » ، فجعل الحلم من هذه القرابة الموقوتة تبنيا مستديما . فعاطفة الفتاة لم تكن تعرف بعد شكلا آخر من أشكال الحياة المشتركة غير الذى صوره الحلم مستوحيا علاقتها بإخوتها . وأما كون ألواح الشوكولاته قد رميت تحت الأسرة ، فهذا بالطبع ما لا يتسنى توضيحه إلا باستفسار الطفلة .

وحدثنى صديق بحلم يشبه حلم ابنى تمام الشبه : كان الحلم لفتاة فى الثامنة . فقد خرج أبوها وفى صحبته جماعة من الأطفال فى نزهة إلى دورنباخ وفى نيتهم أن يزوروا كوخ روهرر . ولكن الوقت تأخر بهم ، فقفل الأب بعد أن وعد الأطفال بأن يعوضهم عما فاتهم فى مرة أخرى . وبينما هم عائدون مروا بسارية تشير إلى الطريق المؤدى إلى الضيعة ، فسأله الأطفال أن يأخذهم إليها ، ولكن كان عليهم فى هذه المرة أيضا ، ولذات السبب ، أن يعزوا أنفسهم بوعد الزيارة فى يوم آخر . وفى صباح اليوم التالى ذهبت الفتاة ذات الأعوام الثمانية إلى والدها ، تقول له وعليها علائم الرضا : « بابا ، لقد رأيت الليلة الماضية فى الحلم أنك كنت معنا فى كوخ روهرر وفى الضيعة . » وهكذا سبق صبرها النافد إلى تحقيق ما وعد به أبوها .

وها هو ذا حلم آخر لا يقل صراحة أوحاه جمال الطبيعة فى آوسى إلى ابنة أخرى

كانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات وثلاثة شهور . فهى كانت عبرت البحيرة للمرة الأولى، وبدت لها الرحلة أقصر مما كان ينبغى ، فأبت أن تغادر القارب حين رسا وبكت مر البكاء ، فلما جاء الصباح قالت لنا : « لقد ركبت البحيرة فى الليلة الماضية . » نرجو أن تكون رحلة الحلم هذه قد دامت وقتا أبعث على رضائها .

وأما ابنى الأكبر – وكان عمره ثمانى سنوات – فكان قد سبق إلى الحلم بتحقق خيالاته ؛ فهو قد رأى نفسه يركب إحدى عربات القتال مع أخيليوس، وكان ديوميد سائق العربة . ولا غرو إذا كانت أساطير اليونان التى قرأها فى اليوم السابق فى كتاب مهدى إلى أخته الكبرى قد ألهبت حماسته .

وإذا جاز أن ندرج الألفاظ التى يتفوه بها الأطفال وهم نيام فى عداد الأحلام ، أمكننى أن أسرد فى هذا الموضع حلما لحالم بين أحدث من فى مجموعتى . فقد أصيبت ابنتى الصغرى – وكان عمرها تسعة عشر شهرا – بنوبة من القيء ذات صباح ، فمنعت عن الأكل طيلة النهار . فلما كان الليل الذى أعقب ذلك النهار الجائع سمعناها تنادى وهى مهتاجة فى نومها : « آنا ف (ر) ويد ، ف (ر) يز ، ف (ر) يز ب (رّ) ى ، أومليت ، ك (ر) يمه ! . » وهى إذن تستخدم اسمها نفسها للدلالة على فعل الملك – كعادتها إذ ذاك – كما أنها قد ضمنت قائمة الطعام بالطبع كل ما لاح لها أنه يؤلف وجبة شهية . وأما ذكرها صنفين من الفريز فكان إظهارا لاحتجاجها على القواعد الصحية المرعية فى المنزل ، وهو احتجاج بعثت عليه ملابسة لم تغب على التأكيد عن ملاحظتها : ذلك أن المربية كانت قد عزت توعكها إلى تخمة أصابتها من جراء الإفراط فى أكل الفريز . وهكذا كانت الطفلة تثأر من هذا الحكم الذى لم يصادف هوى من نفسها[1] .

فإذا كنا نشهد بسعادة الطفولة لبراءتها من الرغائب الجنسية فلا ننسى أى مصدر خصيب للخيبة وللنزول المكره – ومن ثم أى منبه إلى الحلم – تتضمنه ثانية العزيزتين

(١) واتفق بعد ذلك بقليل أن حقق الحلم الجدة ما قد حققه الطفلة الصغيرة – ويبلغ عمراهما معاً شيئا يقرب من السبعين سنة . فقد أجبرت الجدة على التزام الحمية يوما لاضطراب راجع إلى كلية سابحة ، فكان أن حلمت فى الليلة التالية – وقد حملها حلمها من غير شك إلى أيام شبابها البهيجة – بأنها قد دعيت إلى تناول كلتا الوجبتين الرئيسيتين فى الخارج ، وفى كل وجبة كانت تقدم إليها أشهى الأطعمة .

الحويتين الكبريين (١) . وها هو ذا مثال آخر على ذلك : وكلت إلى ابن أخى — وكان له من العمر اثنان وعشرون شهرا — مهمة القيام بتهنئتى بعيد ميلادى مع تقديم سلة من الكريز الذى لا تُرى فى هذا الوقت من العام سوى بواكيره هدية إلىّ . ويبدو أن المهمة كانت شاقة عليه ؛ لأنه جعل يردد جملة : « فيها ك (ر) يز » دون أن يتيسر إقناعه بترك السلة تخرج من يديه . إلا أنه عرف على أية حال كيف يعوض ما فاته . فقد كان من عادته حتى ذلك الوقت أن يعلن إلى أمه فى كل صباح أنه قد حلم « بالضابط الأبيض » أى بضابط من ضباط الحرس الإمبراطورى كان قد أعجب به يوما فى الطريق إذ شهده بعباءته البيضاء — ولكنه فى صبيحة اليوم الذى أعقب تلك التضحية من جانبه ، نهض فرحا ليعلن نبأ لا يمكن أن يكون له مأتى غير الحلم : « هـ (ر) مان أكل الك (ر) يز كله ! » (٢) .

(١) [١٩١١ :] هذا ويعلمنا النظر الأدق إلى الحياة النفسية للأطفال أن القوى الغريزية الجنسية تشارك — وإن يكن على صورة طفلية — بنصيب كبير ، ظللنا نغفل أمره زمناً طويلا ، فى النشاط النفسى للأطفال . كما نخرج أيضاً من مثل هذا النظر بأسباب تدعونا إلى التشكك بعض الشىء فى سعادة الطفولة كما يتصورها الراشدون لأنفسهم من بعد . أنظر كتابى : " ثلاث مقالات فى نظرية الحياة الجنسية " (١٩٠٥ د) .

(٢) [١٩١١ :] يجب أن نذكر أن الأطفال سريعاً ما يأخذون فى الحلم بأحلام أكثر تعقيداً وأقل شفافية ، بينما قد يحلم الراشون فى بعض الملابسات بأحلام ذات طابع خال من التعقيد ، طفلى . ويجد القارئ أمثلة على ما قد تزخر به أحلام الأطفال المتراوحة أعمارهم بين الرابعة والخامسة من المادة غير المتوقعة فى مؤلفى : " تحليل مخافة شاذة عند غلام فى الخامسة " (١٩٠٩ ب) ، ويونج (١٩٠٩ أ) . وارجع أيضاً فيما يتصل بالتفسيرات التحليلية لأحلام الأطفال إلى هوج — هلموت وپوتنام ورالته وشپيلراين وتاوسك . وتجد أحلاماً أخرى عند بيانكيرى وبوزمان ودوليا ، وبخاصة عند ڤيجام الذى ألح على نزوع هذه الأحلام إلى تحقيق الرغبة . ويبدو من جهة أخرى إن الأحلام ذات الطابع الطفلى يكثر ورودها عند الراشدين إذا وجدوا أنفسهم فى ملابسات خارجية لم يألفوها مثال ذلك مايتحدث به أوتو نوردنسكولد فى كتابه « القطب الجنوبى » (الجزء الأول ، ص ٣٣٦) عن أعضاء بعثته الذين قضوا معه فصل الشتاء هناك ، يقول : « وكانت أحلامنا أشد ما تكون دلالة على اتجاهات أفكارنا الدفينة ، فهى لم تكن فى يوم من الأيام أشد وضوحاً أو أكثر عدداً . بل حتى أولئك الرفاق الذين لم يكونوا يحلمون إلا نادراً ، قد صاروا يصيحون وفى جعبتهم القصص الطوال يقصونها حين نتبادل آخر خبراتنا فى عالم الخيال . وكانت هذه الأحلام جميعها تتعلق بالعالم الخارجى الذى صار الآن بعيداً عنا أيما بعد ، وإن جاءت أيضاً فى كثير من الأحيان متكيفة بعض التكيف مع ملابسات حياتنا الحاضرة . ومن أكثر هذه الأحلام دلالة على ذلك ، حلم خيل فيه إلى أحد الرفاق أنه قد عاد إلى مقعد الدراسة ، وكان عليه فى الحلم أن يسلخ كلاب بحر مصغرة صنعت خصيصاً لأغراض تعليمية . وكان الطعام والشراب هما المحور الذى تدور حوله معظم أحلامنا : فكان أحدنا — وكان ذا موهبة ممتازة فى الاختلاف ليلا إلى موائد العشاء الفاخرة — يفيض حبوراً إذا هو استطاع أن ينبئنا فى الصباح بأنه « قد ظفر بعشاء من ثلاثة أصناف » . هذا بينما كان يحلم آخر بالطباق ، بجبال منه ، وثالث بسفينة تتجه نحونا وقد انبسط من حولها العباب تمخره مخراً . ثم حلم آخر جدير بالذكر : يقبل ساعى البريد ويفرق فى شرح السبب الذى من أجله أقبل متأخراً ؛ فقد حمل البريد إلى عنوان غير العنوان الصحيح ، ولم يستطع استرجاعه

أما بم يحلم الحيوان ، فهذا ما لا أعلم عنه شيئا . ولكن هناك مثلا سائرا — أدين بمعرفته لأحد تلاميذى — يدعى معرفة الجواب : يسأل المثل : بم تحلم الأوزة ؟ ثم يجيب : بالذرة[1]. إن النظرية القائلة : « إن الأحلام تحقيق رغبة » محتواة جميعها فى هاتين الجملتين[2] .

وهكذا نرى أنه كان فى مقدورنا أن نصل إلى المعنى الخبيء للحلم من طريق أقصر لو أننا استرشدنا العرف اللغوى . صحيح إن اللغة الدارجة تتحدث عن الأحلام أحياناً حديث الزراية . وحين تقول هذه اللغة : « الأحلام أضغاث » فكأنها تبغى بقولها هذا أن تؤيد الحكم العلمى . ومع ذلك فالأحلام فى اللغة الدارجة هى قبل كل شيء المحققات المباركات للرغبات. فنحن نصيح إذ يستخفنا الطرب لأن الواقع قد جاوز ما كنا نتوقعه : ذلك ما لم أكن أتخيله ولو فى أشد أحلامى جرأة .

إلا بالجهد الجهيد . وكنا نحلم على التأكيد بأحلام أخرى أشد بعد استحالة من هذا . ولكن فقر المخيلة فى هذه الأحلام جميعاً — ما أتانى نفسى وما سمعته عن غيرى — كان عجيباً أكبر العجب . ولو قد سجلت كل هذه الأحلام ، لكان من المؤكد أن تكون لها قيمة سيكولوجية كبرى . ومن السهل أن نفهم بعد ذلك كيف كنا نتوق إلى النوم ؛ فلم يكن غير النوم ليجيب كلامنا إلى ما كانت نفسه تتحرق شوقاً إليه . » ويقول دوپرل كذلك (١٨٨٥ ، ٢٣١) : « إن مونجو پارك حين أشرف على الموت ظمأ فى إحدى رحلاته الإفريقية كان لا ينقطع عن الحلم بمراعى وطنه ووديانه التى تجرى فيها المياه . وكذلك ترنك حين عذبه الجوع وهو سجين فى قلعة ماجد بورج ؛ فلما كان يرى نفسه محاطاً بأفخر صنوف الطعام . أما جورج پاك — وكان عضواً فى بعثة فرانكلين الأولى — فكان حين أشرف على الموت جوعاً لا يكف عن حلم واحد لم يتغير : الطعام الكثير . »

(١) وهناك مثل هنجارى استشهد به فرنسى ، يزيد على ذلك فيقول : « يحلم الخنزير بثمر البلوط وتحلم الأوزة بالذرة » . ويقول مثل يهودى : « بم تحلم الفرخة ؟ بالقمح » (برنشتاين ، ١٩٠٨ ، ١١٦) .

(٢) لست أفكر فى القول : إن إرجاع الحلم إلى الرغبة لم يخطر قط لمؤلف من قبل (أنظر مطلع الفصل القادم) فنى مكنة من يعلق أهمية ما على مثل هذه الحدوس المبكرة أن يرجع إلى الأزمنة القديمة وأن يستشهد بهيروفيلوس — وهو طبيب عاش فى أيام بطليموس الأول . فهذا الرجل — على ما يروى بوكسنشوتس (١٨٦٨ ، ٣٣) — قد فرق بين ثلاثة أنواع من الأحلام : أحلام ترسلها الآلهة ، أحلام طبيعية تنشأ حين تتصور النفس ما فيه نفعها وما سوف يقع ، أحلام مختلطة تنشأ نشوءا تلقائيا باجتماع الصور بعضها إلى بعض وذلك حين نرى ما نرغب فيه . ولقد نبه شتاركه إلى حلم فى مجموعة شرنر يصفه المؤلف نفسه بأنه تحقيق رغبة ، يقول شرنر (١٨٦١ ، ٢٣٩) : « إن الحلم قد حقق الرغبة التى أضمرتها الحالمة فى اليقظة ، لا لشيء سوى أن هذه الرغبة كانت تحرك نفسها تحريكا شديدا . » ويدرج شرنر هذا الحلم فى قائمة « الأحلام المزاجية » إلى جانب « أحلام الشبق عند الذكور والإناث » و « أحلام المزاج المعتل » . ومن هذا نرى أن شرنر لا يفكر أقل تفكير فى أن ينسب إلى الرغبات أهمية أخرى فى إثارة الحلم غير التى لغيرها من سائر حالات اليقظة ، وأقل من ذلك أن يفكر فى الربط بين الرغبة و جوهر الحلم .

الفصل الرابع

تشويه الحلم

لو أنني سقت الآن تلك القضية : إن تحقيق الرغبة هو المعنى الذى ينطوى عليه كل حلم ، أى أن من المحال أن تكون ثمت أحلام غير التى تحقق رغبة ، لكان من المحقق مقدما أن ألقى أقطع المعارضة. سوف يقول لى القائلون : « أن تكون هناك أحلام ينبغى فهمها بكونها تحقق رغبات، ذلك ليس بالشىء الجديد ، بل كثير من المؤلفين قد لحظوه منذ زمن طويل (أنظر رادشتوك ص ١٣٧ ، ١٣٨ وفولكلت ص ١١٠ ، ١١١ وپوركينيه ص ٤٥٦ وتيسييه ص ٧٠ وحديث م . سيمون فى ص ٤٢ عن أحلام الجوع التى عرفها البارون ترنك وهو سجين ، ثم الفقرة الواردة فى ص ٨٩ عند جريزنجر)(١) . وأما أنه لا وجود لأحلام غير التى تحقق رغبات ، فتعميم جديد من هذه التعميمات التى لا مبرر لها ، وهو لحسن الحظ تعميم يسهل دحضه . فالأحلام التى تطالعنا بمحتوى أليم أشد الألم دون أن تضم أقل أثر من تحقيق الرغبة ليس أكثر منها . ولا شك فى أن الفيلسوف المتشائم إدوارد فون هارتمان كان أبعد المبعدين عن نظرية تحقيق الرغبة هذه ؛ فهو يقول فى الجزء الثانى من كتابه 'فلسفة اللاشعور' (١٨٩٠ ، ٥٢ ، ٣٤٤) : وأما الحلم ، فبه تنتقل إلى النوم منغصات اليقظة ، فلا شىء ينقصه سوى الشىء الوحيد الذى قد يصلح إلى حد بين الرجل المثقف والحياة : أعنى متعة العلم والفن . . . بل إن من الملاحظين من هم أقل منه برما بالحياة وهم مع ذلك يلحون على أن الألم والضر يكثران فى الحلم اللذة : مثال ذلك شولتس (١٨٩٣ ، ٥٧) وفوللكت (١٨٧٥ ، ٨٠) وغيرهما . وأكثر من ذلك أن السيدتين سارا ويد وفلورنس هالام قد قدرتا غلبة الألم فى الأحلام تقديرا عدديا استندتا فيه إلى دراسة أحلامهما ؛ فأحصتا فى كل مائة حلم ٥٧,٢ حلما أليما ، وأما الأحلام السارة من غير لبس فلم تعد ٢٨,٦ حلما . ثم هناك إلى جانب هذه الأحلام التى تنقل إلى النوم ما تضمه الحياة من ضروب المشاعر الأليمة ، هناك أحلام الهيلة التى فيها يهزنا — حتى ليذهب الكرى

(١) وقديماً قال فيلسوف الأفلاطونية الجديدة أفلوطين : « إذا انبعثت الرغبة ، جاءت المخيلة فصورت لنا ما يشبه موضوع هذه الرغبة . » (عن دوپرل ١٨٨٥ ، ٢٧٦) .

عنا — هذا الشعور الذى يفوق فى هوله كل شعور عداه . ولا تزور أحلام الهيلة هذه أحدا بمثل السهولة التى تزور بها الأطفال (١) ، وهم الذين وجدتَ عندهم أحلام الرغبة فى صورتها السافرة . »

والحق هو أن أحلام الهيلة على التحديد تبدو عائقا يحول دون أى تعميم للقضية التى خرجنا بها من الأمثلة المسوقة فى الفصل السابق : أن الحلم تحقيق رغبة . لا ، بل إنها لتدمغ مثل هذه القضية بالبطلان .

بيد أننا لا نجد مع ذلك كبير صعوبة فى دفع هذه الاعتراضات التى تلوح ذات قوة ملزمة . فكل ما نحتاج إليه هو أن نتذكر أن نظريتنا لا تقوم على النظر فى محتوى الحلم الظاهر ، بل هى تحيل إلى الأفكار التى يكشف عنها التفسير من وراء الحلم ، ومن الواجب أن نفرق بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن. فمن الحق أن ثمت أحلاما يكون محتواها الظاهر من النوع الأليم ، ولكن هل حاول أحد أن يفسر هذه الأحلام وأن يكشف عن المحتوى الفكرى المستتر وراءها ؟ إذا كان الجواب نفيا ارتفع عنا كلا الاعتراضين الموجهين إلينا ؛ فقد يتبين بعد تفسير الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة أنها أيضا تحقق رغبات (٢) .

(١) أنظر حديث دوباكر عن الفزع الليلى .

(٢) [١٩٠٩ :] إن من الصعب أن نتصور مدى إصرار قراء هذا الكتاب ونقاده على أن يغضوا طرفهم عن هذه التفرقة الجوهرية بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن . — [١٩١٤ :] هذا ولست أجد فى أدب الموضوع شيئا يقرب من رأيى فى الحلم قرب تلك الفقرة التى تجىء فى مقالة ج . سولى " الحلم من حيث هو كشف " ، والتى لا ينال من قيمتها أننى لم أستشهد بها من قبل : " وهكذا قد يتبين أن الأحلام ، مهما يكن من أمر ليست كلها ترهات ، على ما ذهب إليه بعض الثقات من أمثال تشوسر وشكسبير وميلتون . فالتآليف المختلطة الناجمة عن مخيلتنا الليلية تملك مغزى وتنقل معرفة جديدة . فنقش الحلم كخطاب كتب بالشفرة لا تكاد تنعم النظر إليه إلا فقد طابع الطلسمة الذى لاح له الوهلة الأولى ولبس ثوب الرسالة الجدية المعقولة . أو إذا أردت أن تغير التشبيه قليلا ، فقد نقول إن مثل الحلم كمثل مخطوط قديم مسح ليسطر فى محله كلام لا وزن له ولكننا نستطيع مع ذلك أن نتبين من وراء أحرف هذا الكلام أثراً من إفادة قديمة ثمينة . "

["Dreams as a revelation" — "It would seem, then, after all, that dreams are not the utter nonsense they have been said to be by such authorities as Chaucer, Shakespeare and Milton. The chaotic aggregations of our nightfancy have a significance and communicate new knowledge. Like some letter in cipher, the dreaminscription when scrutinized closely loses its first look of baladerdash and takes on the aspect of a serious intelligible message. Or, to vary the figure slightly, we may say that, like some palimpsests, the dream discloses beneath its worthless surface - characters traces of an old and precious communication."]

إذا اتفق أن واجهتنا مشكلة صعبة الحل ونحن بسبيل بحث علمى ، فقد يكون من النافع فى أحيان كثيرة أن نضيف إلى هذه المشكلة أخرى ، على نحو ما يسهل كسر جوزتين معا عن كسرهما واحدة فواحدة . وعلى ذلك فلن نواجه هذا السؤال وحده : كيف يمكن أن تكون الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة تحقيقات لرغبات ؟ بل نضيف إليه سؤالا ثانيا نستطيع أن نخرج به من مناقشاتنا السابقة فى أمر الحلم : تلك الأحلام التى تُبدى محتوى خاليا من اللذة والألم على السواء ثم يتضح بعد ذلك أنها تحقق رغبات ، لماذا لا تعرب عن معناها هذا إعرابا سافرا؟ إليك هذا الحلم الذى أطلنا فى مناقشته ، حلم حقنة إرما : إنه لم يكن حلما أليما بحال ما ، ثم تبين بتفسيره أنه كان مثالا ساطعا على تحقيق الرغبة . ولكن لماذا أحوج الأمر إلى تفسير على الإطلاق ؟ لماذا لم يعرب الحلم عن مراده إعرابا مباشرا ؟ فالحقيقة أن حلم إرما لا يوحى للوهلة الأولى أنه يصور للحالم تحقق إحدى رغباته : فلا قارئ الحلم قد خرج من قراءته بهذا الشعور ، ولا أنا نفسى كنت أعلمه حتى أخذت فى تفسيره . فإذا سمينا هذا المسلك الذى يتطلب تعليلا <u>ظاهرة تشويه الحلم</u> ، كان سؤالنا الثانى هو : ما منشأ هذا التشويه فى الأحلام ؟

ههنا قد تخطر لنا على الفور عدة من الحلول الممكنة لهذه المشكلة ، كأن نقول : إن النوم يتضمن ضربا من العجز عن الإعراب عن أفكارنا الحلمية إعرابا مباشرا . ولكن ثمت أحلاما يحملنا تحليلها على التماس تعليل آخر لتشويه الأحلام . وأمثل لذلك بحلم آخر من أحلامى . ويجرنى هذا التمثيل من جديد إلى البوح بأمور شتى ، ولكن يعوض عن هذه التضحية الشخصية أن تتضح المشكلة اتضاحا تاما .

تمهيد : علمت فى ربيع عام ١٨٩٧ أن أستاذين جامعيين قد رشحانى للدرجة أستاذ مساعد[١] . وكان هذا الخبر مفاجأة لى وكان سرورى به عظيما ؛ فقد رأيت فيه تقديرا صادرا عن رجلين جليلين ، لا يمكن عزوه إلى علاقات شخصية . ولكننى حذرت نفسى عند سماعه من أن تجرى وراء الأمل : فلقد ضربت الوزارة صفحا عن اقتراحات من هذا القبيل فى خلال السنوات الأخيرة[٢] ، وهناك زملاء كثيرون يكبروننى سنا ويعدلوننى — على الأقل — استحقاقا ظلوا مع ذلك سنوات ينتظرون هذا المنصب هباء ، ولم يكن

(١) [ترجمة تقريبية لما يسمى فى جامعات النمسا "Professor extraordinarius" .]

(٢) [كانت أمثال هذه الترقيات تصدر إذ ذاك بقرار من وزير المعارف .]

ثمت أى سبب يجعلنى أتوقع أن تتغير الحال معى . لهذا وطدت النفس على الخيبة ، ولست – فيما أعلم – بالرجل الواسع المطامع ، ثم إنى كنت ألاقى فى مهنتى نجاحا مرضيا من غير حاجة إلى أن يزكينى لقب . وعلى أية حال لم يكن ثمت مجال للسؤال عن العنب أحلو هو أم مر ؛ فقد كان من المقطوع به أنه كان مرتفعا جدا .

وفى ذات مساء زارنى صديق من أولئك الزملاء الذين اتخذت لنفسى من مصيرهم نذيرا ؛ فقد ظل زمانا طويلا مرشحا للدرجة الأستاذية التى تجعل من الطبيب فى مجتمعنا نصف إله فى نظر مرضاه . إلا أنه كان أقل منى استسلاما ، فكان يتردد بين الحين والحين على مكاتب الوزارة ، مذكرا كبار المسئولين ، آملا تحقيق مطلبه . وكان مجيئه إلى بعد زورة من هذه ، فقص على كيف أنه فى هذه المرة قد جذب الكبير المسئول إلى أحد الأركان ثم سأله إذا كان تعويق ترقيته لا يرجع فى حقيقة الأمر إلى اعتبارات دينية[1] . فكان الجواب هو : إنه بالنظر إلى تيار المشاعر العامة فى الوقت الحاضر ، فإن معالى الوزير لا يجد نفسه – مؤقتا – فى موقف يسمح له . . . إلخ . ثم أردف صديقى قائلا : « الآن أعرف على الأقل أين أنا » ، مختتما بذلك روايته التى لم تكن تحمل إلى جديدا وإن دعمت تسليمى بالأمر الواقع ؛ فتلك الاعتبارات الدينية تصدق علىّ كذلك .

وفى الصباح الذى أعقب هذه الزيارة وقع لى الحلم الآتى ، وهو حلم استرعى نظرى من أجل الصورة التى اتخذها كذلك ؛ فقد تكون الحلم من فكرتين وصورتين : فكرة فصورة ثم فكرة فصورة . ولا أذكر هنا سوى النصف الأول وحده ، لأن النصف الآخر لا علاقة له بالغرض الذى من أجله أورد هذا الحلم .

١ – صديقى ر . هو عمى – أشعر نحوه بحنان كبير .

٢ – أرى وجهه أمامى وقد أصابه بعض التغيير : كأنه استطال . تبرز فى وضوح شديد لحية صفراء أحاطت به .

ثم يعقب الجزءان الآخران اللذان أحذفهما : فكرة أيضا فصورة .

ولقد وقع تفسير الحلم على هذا النحو :

عندما خطر هذا الحلم ببالى فى خلال الصباح ، ضحكت وحدثت نفسى قائلا : هذا الحلم هراء . ولكن الحلم لم ينفك عنى ، بل ظل يلاحقنى طوال النهار ، إلى أن أنبت

---

(١) [كانت المشاعر المعادية للسامية متأججة فى ذلك الوقت فى ڤيينا ، وفرويد – كما نعلم – يهودى .]

نفسي أخيرا ، في المساء ، قائلا : « لو أن مريضا من مرضاك لم يجد في خلال تفسير حلمه خيرا من قوله : إن هذا الحلم هراء ، لأخذت في تأنيبه ولظننت أن الحلم يخفي قصة كريهة يريد الحالم أن يجنب نفسه مؤونة العلم بها . فخذ نفسك بما تأخذ به غيرك. إن اعتقادك أن الحلم هراء إنما يدل على مقاومة باطنة بإزاء تفسيره . فابدأ ، ولا تدع مانعا يمنعك . » وعلى ذلك شرعت أفسره .

« ر . هو عمي . » ما معنى ذلك ؟ إني لم يكن لي قط سوى عم واحد، عمي يوسف [1]. وكانت لهذا العم قصة مؤلمة: فقد حدث مرة – منذ أكثر من ثلاثين عاما – أن دفعه الطمع في الكسب إلى التورط في صفقة من النوع الذي يعاقب عليه القانون عقابا صارما ، وكان أن عوقب. وكان من عادة والدي الذي شاب رأسه من الحزن في أيام معدودات أن يردد دائما قوله : إن العم يوسف ليس بالرجل الشرير ، ولكنه أبله – تلك كانت كلماته . فلو كان صديقي ر. هو عمي يوسف ، لكان معنى ذلك أني أقول : إن ر . أبله . أمر لا يكاد يصدق ، كريه على النفس كل الكراهة ! ولكن هناك الوجه الذي أراه في الحلم بملامحه المستطيلة ولحيته الصفراء . لقد كان لعمي حقيقة وجه كهذا الوجه ، مستطيل الشكل، يحيط به إطار من لحية جميلة شقراء . وأما صديقي ر. فكان في أول أمره أسود الشعر حالكه . ولكن ذوي الشعور السوداء إذ تتقدم بهم الأيام يفقدون بهاء شبابهم. فلحاؤهم الداكنة يدب فيها – شعرة فشعرة – تحول في اللون لا يسر ، فهي تصير في بادئ الأمر ضاربة إلى الحمرة ، فضاربة إلى الصفرة، ثم تحول بعدئذ فقط إلى الرمادي الخالص. وقد كانت لحية صديقي ر . تمر بهذا الطور الأخير – وكذلك كانت بعدُ لحيتي ، كما كنت ألحظه في غير رضا . فالوجه الذي أراه في الحلم هو وجه صديقي ر . ووجه عمي في آن معا : إنه كان أشبه بصور جالتون المركبة – فقد كان جالتون يطبع على اللوحة الواحدة وجوها متعددة إظهارا لما قد يكون بين ذوي القربى من الشبه المشترك . وما من شك إذن في أنني كنت أعني أن أصف صديقي ر . بالبله – مثل عمي يوسف .

ولست أعلم حتى الآن ما هو الغرض الذي أتوخاه من هذه المماثلة التي لا أزال أثور

---

(١) من العجيب أن نلحظ كيف ضاق نطاق ذاكرتي – ذاكرتي المستيقظة – هنا ، فلم يعد يتسع لغير أغراض التحليل . فالحقيقة هي أنني أملك خمسة أعمام ، أحببت واحداً منهم وأجللته ، ولكنني ما أن تغلبت على المقاومة التي كانت تصدني عن تفسير الحلم حتى قلت لنفسي : إني لم يكن لي قط سوى عم واحد – العم المقصود في الحلم.

عليها . ثم هى مع ذلك مماثلة لا عمق فيها . فقد كان عمى مجرما ، على حين أن صديقى ر . برئ من كل شائبة . . . اللهم إلا من غرامة أدين بها يوما لأنه صدم صبيا بدراجته . أيكون أنى أفكر فى هذه الفعلة ؟ إن معنى ذلك هو أننى أجرى المماثلة مجرى المزاح . ولكننى أذكر الآن حديثا دار منذ بضعة أيام بين زميل آخر — هو ن . — وبينى ، وأذكر أن مدار الحديث كان هذا الموضوع عينه . فقد قابلت ن . فى الطريق ، وكان أيضا مرشحا للدرجة الأستاذية ، فلما علم أنى نلت مثل هذا الشرف هنأنى عليه . ولكننى قاطعته قائلا : « إنك آخر من يحق لهم المزاح فى هذا الباب ؛ فأنت تعلم من خبرتك نفسك ما هى قيمة مثل هذا الترشيح . » فأجابنى وهو فى الأغلب غير جاد : « من يدرى ؟ فالموقف يختلف معى . ألا تعلم أن امرأة قد اتهمتنى يوما فى ساحة القضاء ؟ لا أظننى بحاجة إلى أن أؤكد لك أن الحق قد رجع إلى نصابه وأن الأمر لم يعد أن يكون محاولة دنيئة للابتزاز ، ولقد تحملت مع ذلك كل مشقة لكى أجنب تلك المبلغة الكاذبة جزاءها . ولكن ربما كان القوم فى الوزارة يتخذون من هذه القصة تعلة للحيلولة دون ترقيتى . وأما أنت فلا شائبة تعلق بك . » وهأنذا إذن أملك المجرم وأملك معه تفسير الحلم ومرماه : فعمى يوسف يصور لى كلا الزميلين اللذين لم يرقيا إلى الأستاذية : فأما أولهما ؛ فلأنه أبله . وأما آخرهما ؛ فلأنه مجرم . وأعلم الآن أيضا ما هو وجه الحاجة إلى هذا التصوير : فلو قد كان لعامل الدين أثر فى إرجاء ترقية صديقىَّ ، لكانت ترقيتى كذلك فى خطر ، فإن استطعت أن أجد لإخفاقهما عللا أخرى، بقى لى الأمل دون أن يضطرب . وعلى هذا يعمل الحلم : فهو يجعل من الأول أبله ويجعل من الآخر مجرما — ولما كنت ولست بهذا ولا بذاك ، فلا شئ يجمع بيننا ومن حقى أن أهنئ نفسى على الأستاذية وأن أستثنى شخصى فلا أطبق عليه النتيجة الموئسة التى تخلص من رواية صديقى ر . عن حديث الموظف الكبير إليه .

بيد أنى لا أجد بدا من المضى فى تفسير هذا الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فما زلت أشعر بأننى لم أنته منه إلى النهاية التى أرتضيها ، وأنا لا أزال أضطرب لهذا الاستخفاف الذى أضع به من قدر زميلين جليلين لكى يخلو لى الطريق إلى الأستاذية . نعم ، إن من المستيقن أن سخطى على هذا الأسلوب قد أدركه الوهن منذ تعلمت كيف أقدر شهادة الحلم حق قدرها : فلا أخالنى إلا منكرا أشد الإنكار كل إشارة قد يفهم منها أنى أعد ر . أبله حقيقة ، أو أننى لا أصدق حقيقة قصة البلاغ الكاذب كما رواها ن . ، ولا أنا

أصدق بالطبع أن إرما قد أصابها مرض خطير لأن أوتو حقنها بحقنة من البروبيل؛ فالحلم هنا، شأنه هنالك، إنما يعرب عن رغبتى فى أن تكون الأمور كذلك. كل الفارق هو أن العبارة التى تتحقق فيها رغبتى تلوح فى الحلم الثانى أقل سخفا منها فى الحلم الأول؛ فهى قد صيغت فى هذه المرة باستخدام بعض السند من الواقع استخداما أكثر مهارة، كتجريح ذكى يُخَيِّلُ إليك أن «من وراء الدخان ناراً»: فقد وقع إذ ذاك لصديقى ر. أن أستاذا من كليته قد صوت ضده، وأما صديقى ن. فقد زودنى هو نفسه بمادة القذف من حيث لا يدرى. ولكننى — مع هذا كله — أعود فأقول: إن الحلم لا يزال يقتضى مزيداً من الإيضاح.

إنى أذكر الآن أن هذا الحلم قد احتوى جزءا آخر أغفل التفسير أمره حتى الساعة: ذلك أننى بعد أن خطر لى أن ر. هو عمى شعرت فى الحلم بحنان كبير نحوه. فإلى من يتجه هذا الشعور؟ فأما عمى يوسف، فطبعى أننى لم أشعر نحوه بمثل هذا الشعور فى يوم من الأيام. وأما صديقى ر.، فقد ظللت سنوات أكن له المودة والتقدير، ولكننى لو قد ذهبت إليه لأعرب له عن مودتى فى كلمات تقارب الحنان الذى خالجنى فى الحلم لما كان دهشه من غير شك بالقليل. فحنانى فى الحلم نحوه يظهر لى زائفا مبالغا فيه، مثل حكمى على مقدراته العقلية، وهو الحكم الذى أعربت عنه حين أدمجت شخصيته فى شخصية عمى، وإن تكن المبالغة قد اتخذت هناك الاتجاه المضاد. ولكن ضوءا جديدا قد أخذ يشرق الآن على: فالحنان الذى أحسسته فى الحلم لا ينتمى إلى المحتوى الكامن، إلى الأفكار المستترة خلف الحلم، بل هذا الحنان ضد هذا المحتوى وما أريد به سوى أن يخفى عنى تفسير الحلم. والراجح أن ذلك على التحديد كان الداعى إلى وجوده. وأذكر الآن كيف أخذت فى تفسير هذا الحلم على كره منى، وكيف انتحلت الأعذار لإرجائه زمنا طويلا، وكيف قلت: هذا الحلم هراء محض. ولقد علمتنى ممارسة العلاج بالتحليل النفسى كيف ينبغى تفسير هذا النوع من النبذ: إنه مجرد من كل قيمة من حيث هو حكم، ولا يعدو أن يعرب عن شعور قائله. فابنتى الصغيرة إذا رغبت عن تفاحة قدمت إليها، أكدت أن التفاحة مُرّة وهى لم تذقها. فإن صنع مرضاى صنيع الصغيرة علمت أن ثمت خاطراً يريدون له الكبت. وهذا عينه يصدق على حلمى: فأنا لم أكن أرغب فى تفسيره؛ لأن تفسيره ينطوى على شىء أغالبه. وأعلم الآن — بعد أن أكملت التفسير — ما هو هذا

الشيء ، إنه قولى : إن ر . أبله . ولست أستطيع أن أرجع الحنان الذى أحسست به إلى أفكار الحلم الكامنة ، بل الأحرى إرجاعه إلى تلك المغالبة . فإذا كان الحلم قد شوه فى هذا الموضع بالقياس إلى محتواه الكامن – وشوه بحيث ينقلب إلى ضده – فقد كان الحنان الظاهر فى الحلم مطية هذا التشويه ، أو بعبارة أخرى : إن التشويه يتبين فى هذه الحالة تشويها متعمدا وطريقة من طرق الاستخفاء . فأفكار الحلم كانت تتضمن قدحا فى ر . ، ولكى أعمى عن هذا القدح ، ظهر فى الحلم الضد ، ظهر نحوه حنان شديد .

إن من الجائز أن يكون ذلك كشفا شامل الصدق . نعم ، إن من الحق أن هناك أحلاما يتجلى فيها تحقيق الرغبة من غير خفاء – كما اتضح من أمثلة الفصل الثالث – ولكن حيثما خفيت الرغبة أو تقنعت ، وجب أن يكون ثمت باعث يبعث المرء على أن يقف من هذه الرغبة موقف المدافع ، ويكون من أثر ذلك أن تعجز الرغبة عن أن تفصح عن نفسها إلا إفصاحا مشوها . وهذا الذى يحدث فى مجال الحياة النفسية سأحاول أن أجد له نظيرا فى حياة المجتمع : أين نصادف فى مجال الحياة الاجتماعية مثل هذا التشويه للأفعال النفسية ؟ نصادفه حيثما نجد شخصين حظ أحدهما أن يملك القوة وحظ الآخر أن يحسب لهذه القوة حسابها ، حينئذ نرى هذا الشخص الثانى يشوه أفعاله النفسية ، ونستطيع كذلك أن نقول : إنه يستخفى . والأدب الذي أمارسه فى كل يوم هو إلى مدى بعيد استخفاء من هذا القبيل. وإنى حين أفسر للقارئ أحلامى أرانى مضطرا إلى مثل هذا التشويه . ومن ضرورة مثل هذا التشويه يشتكى الشاعر إذ يقول :

« ثم إن خير ما تستطيع علمه ، قد لا تملك قوله للصبيان . »[1]

ويعرف الكاتب السياسى مثل هذا الموقف ، إذا كانت لديه حقائق لا تسر ذوى السلطان . فهو إن أعرب عن رأيه فى غير مواربة قمعت الحكومة كلماته – قمعا رجعيا

---

(١) [بيتان لجوته ، يجريهما على لسان مفيستوفوليس أثناء الحوار بينه وبين فاوست فى المشهد الرابع من الجزء الأول من " فاوست " . والمراد بالصبيان هم التلاميذ الذين يأخذون عنه المعرفة . وقد كان فرويد يحب الاستشهاد بهذين البيتين ؛ فهو يذكرهما فى موضع آخر من " تفسير الأحلام " ، وكان قد استشهد بهما قبل ذلك فى خطاب إلى فليس بتاريخ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٧ وخطاب بتاريخ ٩ من فبراير سنة ١٨٩٨ (فرويد ١٩٥٠ أ) ، ثم رجع فاستشهد بهما فى أواخر حياته بمناسبة منحه جائزة جوته الأدبية سنة ١٩٣٠ ، مطبقا إياهما فى هذه المرة على جوته نفسه (فرويد ١٩٣٠ ﻫ) .]

إن كان قد أدلى برأيه مشافهة، وقمعا وقائيا إن كانت كلماته لا تزال فى سبيلها إلى النشر . فعلى الكاتب أن يحسب للرقابة حسابها ، وهو من أجل ذلك يتلطف فى تعبيره ويشوهه . وقد يرى نفسه مضطرا — على حسب شدة الرقيب وحساسيته — إما إلى مجرد الإقلاع عن بعض صور المهاجمة ، أو إلى التحدث تلميحا لا تصريحا ، أو إلى أن يخلع على روايته غير المرضى عنها ثوبا من البراءة ، فيتحدث مثلا عن خلاف بين كبيرين من كبراء الصين ، بينما المَعْنِيُّ كبيران فى بلده . وكلما زادت الرقابة ضغطا ، زاد التقنع استفحالا وربما زادت كذلك الحيل التى يشتم منها القارئُ حقائق الأمور(١) .

(١) لقد روت الدكتورة هـ . فون هوج — هلموت (١٩١٥) حلما ربما كان أصلح من أى حلم آخر فى تبرير المصطلحات التى اخترتها . فالتشويه فى هذا الحلم يستخدم طريقة لا تختلف عن الطريقة التى كانت تعمد إليها رقابة البريد فى خلال الحرب للتخلص من الفقرات التى تثير اعتراضها : كانت الرقابة تلجأ إلى ترجيم مثل هذه الفقرات ترجيما تاما لكى تجعل من قراءتها شيئا مستحيلا، بينما عمدت رقابة الحلم إلى إحلال دمدمة غير مفهومة فى مكانها .

ولكى نفهم هذا الحلم أذكر أن الحالمة كانت سيدة محترمة ، على درجة عالية من الثقافة ، بلغت الخمسين من عمرها . وهى أرملة توفى زوجها — وكان ضابطا كبيرا — منذ اثنى عشر عاما ، ولها ولدان راشدان كان أحدهما فى جبهة القتال حين وقع الحلم .

وإليك الآن حلم " خدمات الحب " [اللفظ الألمانى " Liebesdienste "يعنى أولا الخدمات المبذولة من غير مقابل، أى بدافع من الحب ، ولكنه ينطاع أيضاً لتأويل آخر يسهل إدراكه] : « تذهب الحالمة إلى المستشفى رقم ١ ، وتخبر الحارس الواقف بالباب أنها يجب أن تقابل الطبيب الأول . . . (وهنا تذكر اسما لا عهد لها به) ؛ لأنها تريد التطوع للخدمة فى المستشفى . بيد أنها تنطق كلمة " الخدمة " بطريقة تجعل ضابط الصف يدرك على الفور أنها تعنى " خدمة حب " ، فيتردد بعض التردد ، ولكنه يدعها تمر ؛ لما يراه من تقدمها فى السن . غير أن السيدة بدل أن تذهب إلى الطبيب الأول ، تدخل حجرة كبيرة ، شبه مظلمة ، كان بها عدد كبير من الضباط والأطباء العسكريين جلسوا إلى مائدة طويلة أو وقفوا حولها . وتتجه السيدة بمقترحها إلى طبيب أركان حرب فيدرك مرادها ولما تفه إلا بكلمات قليلة . وكان نص كلامها فى الحلم ما يلى : " إننى أعلم أن اقتراحنا هذا يبدو لكم على جانب كبير من الغرابة ، ولكننا جادات فيه غاية الجد . ولا يسأل الجندى فى الميدان أيريد الموت أم لا يريد." وهنا يسود صمت أليم خلال بضع دقائق . ثم بعد ذلك يطوقها ضابط أركان الحرب بذراعه ويقول : " يا سيدتى الكريمة ، تصورى ماذا يكون الموقف ، لو أن الأمر انتهى حقيقة إلى . . . " (دمدمة) فتفلت منه وهى تحدث نفسها قائلة : " إنه لا يختلف عن غيره " ، ثم تجيبه : " يا إلهى ، إننى سيدة متقدمة فى السن ، وأظن أننى لن أنتهى إلى ذلك أبدا . وهناك على أية حال شرط واحد تجب ملاحظته : مراعاة السن ؛ فلا ينبغى لسيدة عجوز وفتى حدث . . . (دمدمة) ، إن ذلك يكون أمرا مروعا . » — ويجيب الطبيب : " إننى أقدر ذلك تمام التقدير " . وعندئذ ينطلق بعض الضباط فى الضحك بصوت عال ، وكان من بينهم ضابط كان قد طلب يدها وهى فى شبابها . وتعرب السيدة عن رغبتها فى أن ترى الطبيب الأول الذى تعرفه معرفة شخصية لكى تنهى معه هذه المسألة جميعها . ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أنها لم تكن تعرف اسمه . بيد أن طبيب أركان الحرب يريها فى أدب واحترام بالغين سلما من الحديد ، حلزونيا ، شديد الضيق ، يسلم مباشرة إلى الطابق

هذا التطابق الذى يمس دقائق التفاصيل بين ظواهر الرقابة والتشويه يخول لنا أن نفترض أن لكليهما شروطا متماثلة . وفى مقدورنا إذن أن نقول : إن الذى يعين شكل الحلم عند كل فرد قوتان (ونستطيع أن نسميهما تيارين أو نظامين) ، إحداهما هى الرغبة التى يعرب عنها الحلم ، والأخرى هى التى تقوم بالرقابة على هذه الرغبة وبذلك تؤدى بالضرورة إلى تشويه التعبير عنها . ولا يبقى إلا أن نسأل : فيم تقوم سلطة هذا النظام الثانى ، تلك السلطة التى تمكنه من أن يفرض رقابته ؟ إذا لم ننس أن أفكار الحلم الكامنة هى أفكار لم نكن نشعر بها قبل أن نقوم بالتحليل ، على حين أننا نتذكر الحلم الناشئ عنها تذكرا شعوريا ، لم نكن بعيدين عن أن نقدر أن المزية التى يحظى بها هذا النظام الثانى هى مزية الإذن بدخول الشعور . فلا شيء يدخل الشعور من النظام الأول إلا مر بهذا النظام الثانى ، كما أن هذا النظام الثانى لا يترك شيئا يدخل الشعور بدون أن يمارس حقوقه ودون أن يدخل على الفكرة الصائرة إلى الشعور كل ما يراه مناسبا من التغييرات . ونحن نتوسم من وراء ذلك فكرة محدودة تمام التحديد عن «ماهية» الشعور : فالصيرورة إلى الشعور تصبح فى نظرنا فعلا نفسيا خاصا ، له تميزه واستقلاله عن عملية تكوين الأفكار أو التصورات ، كما أن الشعور يتبدى لنا فى صورة عضو من أعضاء الحس يتناول بإدراكه مادة تنشأ فى جهات أخرى . ومن الممكن أن نبين أن علم الأمراض النفسية لا يملك الاستغناء عن هذه الفروض الأساسية بحال من الأحوال . بيد أننا لا نجد بدا من أن نرجئ النظر فى هذه الفروض إلى موضع آخر . [أنظر الفصل السابع ، وبخاصة القسم و .]

فإذا أخذنا بفكرة النظامين النفسيين وعلاقتهما بالشعور ، وجدنا فى مجال الحياة السياسية مثالا يصور أحسن التصوير هذا الحنان العجيب الذى شعرت به فى الحلم نحو صديقى ر . مع ما أظهره التفسير من حط قدره : إنى أتخيل الحياة السياسية فى بلد يغار حاكمه على سلطته أشد الغيرة وينازعه إياها رأى عام يقظ : قد يثور الشعب على رجل من رجال الدولة بغيض إليه ويطالب بإقالته ، ولكن الحاكم المستبد يريد أن يظهر ازدراءه

الثانى . وبينما تصعد تسمع ضابطا يقول : " إنه قرار ما أجسمه ، ويستوى أن تكون صاحبته صغيرة السن أو متقدمته ، لها كل إجلالنا ! "

« وتمضى الحالمة مصعدة فى درجات لا تنتهى ، يملؤها الشعور بأنها إنما تؤدى واجبا .

وتكرر هذا الحلم مرتين فى خلال بضعة أسابيع دون أن يمسه – على حسب ما لاحظته السيدة – سوى تغيير مجرد من كل أهمية أو مغزى . »

لإرادة الشعب ، فإذا هو يخلع على رجل الدولة هذا شرفا كبيرا ما كان ليمنحه إياه لولا ذلك . وعلى هذا النحو يجود النظام الثانى الذى يتحكم عندى فى الطريق إلى الشعور بطفحة من الحنان على صديقى ر . ، لا لشىء سوى أن النوازع المنتمية إلى النظام الأول كانت تبغى لو رمت ر . بالبله؛ لمنفعة خاصة كانت تجذبها فى ذلك الحين[١] .

لعلنا نلمح الآن أن فى مقدور تفسير الأحلام أن يلقى على تركيب جهازنا النفسى ضوءا ظللنا ننتظره عبثا من الفلسفة . بيد أننا لن نسلك هذه السبيل، بل نعود وقد وضحنا أمر تشويه الحلم – إلى المشكلة التى ابتدأنا منها . لقد كان سؤالنا هو : كيف يمكن أن ترد الأحلام الأليمة إلى تحقيقات للرغبات؟ وها نحن أولاء نرى أن ذلك أمر ممكن إذا طرأ التشويه على الحلم ،وإذا لم يكن المحتوى الأليم سوى قناع لأمر تتجه الرغبة إليه.ويمكننا أيضا أن نقول بالإشارة إلى ما افترضناه من وجود نظامين نفسيين: إن الأحلام الأليمة تتضمن حقيقة شيئا مؤلما بالنسبة إلى النظام الثانى ولكنها تحقق فى الوقت عينه رغبة للنظام الأول ؛ فهى أحلام رغبة من حيث أن كل حلم يصدر عن النظام الأول، وأما علاقة النظام الثانى بالحلم فعلاقة دفاعية لا إنشائية[٢] . ولو أننا قصرنا أنفسنا على النظر فيما يضيفه النظام الثانى إلى الأحلام ، ما أمكننا قط أن نتوصل إلى فهمها: إن جميع الألغاز التى لاحظ المؤلفون أمرها فى صدد الحلم تظل عندئذ قائمة .

أن يكون لكل حلم حقيقةً معنى مستتر لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة أمر يجب تبيانه بالتحليل فى كل حالة من جديد . وعلى ذلك أنتخب قليلا من الأحلام ذوات المحتوى الأليم وأحاول تحليلها . وبعض هذه الأحلام قد أتاه أشخاص هستريون ، وهى

---

(١) إن أمثال هذه الأحلام المنافقة غير نادرة الوقوع سواء عندى أم عند غيرى . ولقد اتفق بينما كنت أشتغل بمشكلة علمية معينة أن أزعجنى حلم عاودنى فى خلال عدة ليالى متقاربة . وكان مضمونه هو الصلح مع صديق كنت قد تحولت عنه منذ زمن بعيد . وأخيرا ، بعد المرة الرابعة أو الخامسة ، أفلحت فى فهم هذا الحلم : إنه كان تحريضا على أن أدع البقية الباقية من الاعتبار الذى كنت أكنه لهذا الشخص ، وعلى أن أحرر نفسى منه تحريرا تاما ، وهو ما تقنع بقناع الضد نفاقا . ولقد ذكرت فى موضع آخر (١٩١٠ ل) حلما حلمه البعض فيه حل الحنان الظاهر محل النزعات العدوانية ورغبات الموت المتضمنة فى الأفكار الكامنة . وسوف أذكر فيما بعد نوعاً آخر من أحلام النفاق (أنظر الفصل السادس " عمل الحلم" [ص ٤٧١ وما بعدها]) [الصديق المشار إليه فى هذا الهامش هو من غير شك ڤيلهلم فليس ، والهامش كله قد أضيف فى سنة ١٩١١ .]

(٢) [١٩٣٠ :] سوف نصادف أيضا – فيما بعد – أمثلة أخرى تعرب – على العكس – عن رغبة لهذا النظام الثانى . [أنظر « أحلام العقاب » فى الفهرست التحليلى .]

إذن تستدعي تمهيدا طويلا وتستدعي فى بعض المواضع غوصا فى العمليات النفسية التى تتميز بها الهستريا . ولكننى لا أجد سبيلا إلى إزالة هذه الصعوبات التى تثقل عرض حجتى .

عندما أعالج أحد العصابيين بالتحليل النفسى ، فالقاعدة — كما سبق أن ذكرت — هى أن تغدو أحلامه موضع حديثنا . ولست أجد بدا فى خلال هذه المناقشة من أن أطلعه على كل الإيضاحات السيكولوجية التى أعانتنى نفسى على فهم أعراضه . وهنا أسمع منه نقدا لا هوادة فيه، لا يقل صرامة — على التأكيد — عن هذا الذى أتوقعه من زملائى. ولم يفت مريضا من مرضاى أن ينقد قولى: إن الأحلام جميعها تحقق رغبات. وها هى ذى بضعة أمثلة من تلك الأحلام التى ساقها أصحابها تدليلا على بطلان نظريتى .

قالت مريضة فطنة من مرضاى: « إنك تقول دائما : إن الحلم يحقق رغبة . إليك إذن حلما كان على عكس ذلك تماما؛ فقد كان مؤداه أننى لا أحقق إحدى رغباتى . فكيف توفق بين ذلك وبين نظريتك ؟ وها هو ذلك الحلم :

« أريد أن أقيم مأدبة عشاء ، ولكنى لا أجد لدى سوى قليل من سمك السالمون المدخن. أفكر فى الخروج لكى أشترى شيئاً ما ، ولكنى أتذكر أننا فى عصر يوم الأحد وأن جميع المحال مغلقة . فأحاول الاتصال ببعض الموردين ولكن التليفون كان متعطلا . وعلى ذلك لا أجد بدأ من النزول عن رغبتى فى إقامة مأدبة العشاء . »

وكان جوابى بالطبع هو : أن التحليل وحده هو الذى يستطيع أن يقرر ما معنى هذا الحلم ، وإن كنت أسلم بأنه يلوح للوهلة الأولى معقولا متناسق الأجزاء، وأنه يرينا عكس تحقيق الرغبة . « ولكن أية مناسبة دعت إلى هذا الحلم؟ فأنت تعلمين أن الحافز إلى الحلم يكمن دائما بين أحداث اليوم السابق . »

التحليل : إن زوج المريضة — وهو رجل أمين قدير يشتغل بتوريد اللحوم بالجملة — قد أخبرها فى اليوم السابق أنه أخذ يفرط فى السمنة، وأنه — لذلك — قد اعتزم أن يبدأ علاجا يخفف وزنه: أن يستيقظ فى ساعة مبكرة من الصباح وأن يقوم ببعض التمرينات البدنية، مع الأخذ بنظام دقيق فى التغذية ، ثم هو — قبل كل شىء — لن يقبل أى دعوة إلى العشاء . — وأضافت المريضة كيف تعرّف زوجها فى المطعم الذى اعتاد أن يتناول فيه وجبة الغذاء برسام ألح فى طلب رسمه إلحاحا شديدا ؛ لأنه — أعنى الرسام — لم ير فى

حياته رأسا كانت لملامحه مثل هذه القوة المعبرة . إلا أن زوجها أجابه بطريقته القاطعة : أنه شاكر جزيل الشكر ولكنه واثق من أن طرفا من مؤخر فتاة جميلة سوف يكون أحب إلى الرسام من رأسه هو بأكمله[1]. إنها الآن مولعة بزوجها أشد الولع ، وتتحين المناسبات لمعاكسته . وهى أيضا قد طلبت منه أخيرا أن يكف عن تقديم الكافيار إليها . — ما معنى ذلك ؟

الحقيقة هى أنها تتمنى منذ زمن طويل لو قد استطاعت أن تأكل ساندويتش من الكافيار كل صباح ، ولكنها تغالب نفسها خشية التكاليف . إنها تستطيع بالطبع أن تنال على الفور كل الكافيار الذى تشاء لو قد سألت زوجها ، ولكنها طلبت منه — على العكس — ألا يهدى إليها شيئا منه ، لكى يتاح لها المضى فى معاكسته .

(إن هذا التعليل يبدو لى مفتعلا . وأمثال هذه البيانات غير المقنعة تستر فى العادة دوافع لا يصارح بها صاحبها نفسه . إنها تذكرنا بالمرضى الذين كان ينومهم برنهايم تنويما مغناطيسيا والذين كانوا ينفذون بعد استيقاظهم ما أمروا فى خلال تنويمهم بأدائه ، فإن سئلوا عن دوافعهم ، لم يقولوا : لا ندرى ، بل انتحلوا لفعلهم سببا يظهر للعيان بعده عن الصواب . وأغلب الظن أن ذلك هو الشأن فيما يتصل بكافيار مريضتى . وألحظ أنها قد سيقت إلى أن تخلق لنفسها رغبة غير محققة فى حياة اليقظة . والحلم أيضا يصور هذا النزول عن الرغبة . فما وجه حاجتها تلك إلى رغبة لا تتحقق ؟)

إن الأفكار التى ظفرنا بها حتى الآن لا تكفى فى تفسير الحلم ؛ فألح فى طلب المزيد . وإذا هى — بعد وقفة قصيرة تتفق والوقت الذى استغرقه ظهورها على بعض المقاومة — تقص على أنها فى اليوم السابق قد زارت صديقة لها تعترف مريضتى بغيرتها منها ، لأن زوجها لا يكف عن امتداحها . ومن حسن الحظ أن هذه السيدة نحيفة عجفاء ، بينما يعجب زوجها بالأشكال المليئة . والآن : عم تحدثت هذه الصديقة العجفاء ؟ تحدثت بالطبع عن رغبتها فى أن تمتلأ بعض الامتلاء . وهى أيضا قد سألت مريضتى : « ترى متى تدعيننا إلى وجبة أخرى ؟ فالطعام الذى نأكله عندك ما أطيبه دائما ! »

والآن اتضح معنى الحلم ، وأستطيع أن أقول لمريضتى : « لكأنك — حين سألتك

(١) أنظر قولنا : " قعد المصور " ثم بيتى جوته :

وإذا لم يكن السيد النبيل مؤخره

فكيف يستطيع السيد النبيل قعودا ؟

صديقتك سؤالها — قد حدثت نفسك قائلة : حقا ! تريدين أن أدعوك إلى منزلى حتى تأكلى وتسمنى وتظفرى من إعجاب زوجى بالمزيد ! إنى لأفضل ألا أدعو أحدا للعشاء بعد الآن . والحلم يقول لك : إنك لا تستطيعين أن تدعى أحدا إلى العشاء ، فيحقق بذلك رغبتك فى ألا تفعلى ما من شأنه أن يستدير جسم صديقتك . وإن عزم زوجك على أن يرفض دعوات العشاء تجنبا للسمنة قد ذكرك أن المرء يسمن فى الولائم . » ولا تنقصنا بعد ذلك إلا مصادفة تؤيد حلنا : ذلك أن مجىء السالمون المدخن فى الحلم لم يكن قد تبين أمره بعد. فلما سألت المريضة : « كيف اتفق لك التفكير فى السالمون ؟ » أجابت : « إن السالمون المدخن هو طبق صديقتى المفضل . » ويتفق أننى أعرف هذه السيدة ، وأستطيع أن أقول: إنها تحل لنفسها من السالمون المدخن مقدار ما تستحله مريضتى من الكاڤيار .

إن هذا الحلم لا يزال يقبل تفسيرا آخر ، ألطف وأخفى، تقتضيه ملابسة ثانوية . ثم هو تفسير لا يتناقض وسابقه، بل إنهما ليتداخلان ضاربين لنا مثالا طيبا على هذا التكثر فى المعنى الذى تنطوى عليه الأحلام عادة شأنها فى ذلك شأن سائر الظواهر النفسية المرضية جميعا . فنحن نذكر أن مريضتى حين وقع لها الحلم الذى تخلت فيه عن إحدى رغباتها كانت تعمل على أن تخلق لنفسها رغبة معوقة فى الحياة الواقعة كذلك (رغبة ساندويتش الكاڤيار) . وكانت صديقتها قد أعربت من جانبها عن رغبة لها — هى الرغبة فى أن تزيد امتلاء . وما كنا لندهش لو أن مريضتى قد حلمت بأن رغبة صديقتها قد جانبها التحقيق ؛ فتلك على التحديد هى رغبة مريضتى ، إنها الرغبة فى ألا تتحقق رغبة صديقتها فى أن تزيد وزنا . ولكنها — بدل ذلك — تحلم بلا تحقق إحدى رغباتها هى . وإن الحلم ليكتسب تفسيرا جديدا إذا لم تكن هى المعنية فى الحلم بل صديقتها ، إذا كانت قد وضعت نفسها مكان صديقتها أو عينت ذاتها[1] بها — كما يمكننا أن نقول .

(١) [هكذا نترجم فعلا ذا أصل لاتينى ، ثم انتقل من اللاتينية إلى جميع اللغات الأوروبية ، دون أن يكون له مرادف تام فى العربية . ومعنى هذا الفعل هو (أ) أن تقول عن شيئين إنهما ذات الشىء ، أن تقول عن أحدهما إنه الآخر أى أن تعرفه به ، أو (ب) أن تجعلهما كذلك . ثم استخدم فرويد هذا الفعل ليسمى به العملية النفسية أو العلاقة التى يتحدث عنها الآن بين الذات وغيرها . فمن الواضح من المثال الذى ذكره أن قول المريضة فيما يتصل بصديقتها : " لا أريد أن تتحقق رغبتها " قد اتخذ فى الحلم صورة : " لا أريد أن تتحقق رغبتى" ومنه تظهر المساواة أو المطابقة التامة بين ياء المتكلم وضمير الغائبة . فكأن المريضة قد دلت على نفسها بصديقتها ، عرفتها بها ، وهذا هو المعنى الأول للكلمة . — وننبه باختصار إلى أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة

وأعتقد أن ذلك هو ما قد وقع حقيقة ، وإن كونها قد خلقت لنفسها رغبة محبطة فى الحياة الواقعة لعلامة على هذا التعين لذاتها بصديقتها . ولكن ما معنى هذا التعين الهسترى؟ إن ذلك ما يحتاج إلى شرح مطول . فالتعين لحظة بالغة الأهمية فى ميكانيكية الأعراض الهسترية . فهو الذى يمكن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم لا عن خبراتهم أنفسهم فقط ، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك ، حتى لكأنهم يألمون

تدركها المريضة وتملكها ، أى معرفة تنطق بها وتجعلها موضع قول ، بل الأصدق هو أن نقول : إن هذه المعرفة هى التى تملك المريضة وتؤسسها وتفصلها عن حقيقتها ، إنها معرفة معاشه قبل كل شىء . ويجرنا هذا إلى المعنى الثانى : فقد " وضعت المريضة نفسها مكان صديقتها " أى أنها قد صارت هى المعوقة الرغبة ، أى هى الصديقة . وترجمتنا لا تنقل هذا المعنى الثانى نقلا مباشرا ، ولكن يبررها أنه إذا كان الأمر كذلك ، فكأن المريضة قد تعينت بصديقتها بالمعنى الأرسطوطاليسى الذى نقول به : إن المادة تتعين بالصورة .

وإذا أردت أن تمثل للعلاقة التى يراد التعبير عنها بمثال مألوف قلنا : حين نرى رجلا انتزعته شخصية نابليون عن نفسه انتزاعا جزئيا (وحينئذ يكون الأمر غرورا ، قل أو كثر) أو انتزاعا كليا (وحينئذ يكون جنونا) — فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حينا : إنه « فاكر نفسه نابليون » ، ونقول حينا آخر : إنه « عامل نفسه نابليون » . وهذه الحرية فى اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها ، بين المجنون ونابليون ، هى علاقة ذات وجهين : وجه معرفى (اعتقادى) هو الذى يبرز حين نقول : فاكر نفسه (وهى معرفة هى فى الوقت نفسه ضلال) ، ثم وجه معاش هو الذى يبرز حين نقول : عامل نفسه (وهو فعل هو فى الوقت نفسه خيال) . ونحن نرى كيف ينطبق الفعل الأوروبى بمعنييه على هذه العلاقة بوجهيها جميعا أحسن الانطباق . أما بالعربية فلم نجد خيرا من قولنا إن المجنون قد " عين ذاته " بنابليون .

وأما الترجمتان الموضوعتان من قبل : تقمص وتوحد ، فلم نجد بدا من تركهما . فقد غضضنا الطرف عن الطابع المجازى لأولاهما وعن الخطأ اللغوى الذى فى ثانيتهما — فما تجدى المناقشة إلا بعد التسليم بمقاصد المخاطب — ومع هذا بقى سببان يحولان دون قبولهما : الأول ، هو أن كلا هاتين الترجمتين تغفل الوجه المعرفى للفكرة المراد ترجمتها إغفالا تاما . ولقد كنا نغض الطرف عن ذلك نظراً لأن هذا المعنى وإن كان متضمنا من غير أدنى شك فى اللفظ الأوروبى إلا أن فرويد لا يبرزه فى العادة صراحة حين يتحدث عن العلاقة التى يسميها بهذا اللفظ ، ولكن هناك السبب الثانى ، وهو الأهم : ذلك أن كلتا هاتين الترجمتين تعرضاننا تعريضاً شديداً لفهم التعيين الذاتى على أنه محاكاة ؛ فقولنا : " تقمص فلان فلانا أو توحد به " يجعلنا نفهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة ، على حين أن فرويد نفسه يفرق فيما يلى تفرقة قاطعة صريحة بين التعيين الذاتى بالمعنى التحليلى وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد . والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلد والمقلد ، فى حين أن التعيين الذاتى هو العملية أو العلاقة التى تتكون الذات بها وفيها . أو بعبارة سبينوزية : إن فكرة التعيين الذاتى فكرة تضعنا فى مستوى الطبيعة الطابعة أو المكونة لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة ، ويجب أن تفهم فى هذا المستوى . وإن ذلك عينه لهو الذى يجعل فهمها هذا عسيرا غاية العسر على غير المحللين ، فليس مثل المحلل ليدرك فى وضوح العلم قول الشاعر : **Je est un autre** .

هذا ولقد أردنا أن نجنب القارئ كل خلط ممكن فامتنعنا فى طول هذا الكتاب وعرضه عن أن نستخدم مادة " عين " إلا فيما يعادل **Identifizieren** فلم نقل "عين ذاته أو نفسه " إلا لمعادلة **sich identifizieren** ، كما لم نقل " التعيين " إلا فى معنى **Identifizierung** .]

بوساطته نيابةً عن جمهور بأكمله من الناس ، ويملأون بمفردهم أدوار الرواية جميعا . وسوف أسمع من يقول : إن هذا إلا التقليد الهسترى المعروف ، قدرة الهستريين على أن يقلدوا أى عرض قد يستدعى انتباههم عند غيرهم من الناس ، إنه المشاركة الوجدانية وقد اشتدت — إن جاز التعبير — إلى حد التكرار . بيد أن هذا القول إنما يدل على الطريق الذى تسلكه العملية النفسية فى حالة التقليد الهسترى. والطريق شىء ، والفعل النفسى الذى يسلك هذا الطريق شىء آخر؛ فهذا الفعل يقوم فى عملية استنباطية لا شعورية ، كما يتضح بمثال: لنفرض أن طبيبا يعالج مريضة تعانى نوعا من التشنج فى حجرة واحدة من حجرات المستشفى مع غيرها من المرضى : إن الطبيب لن يدهش إذا رأى ذات صباح أن هذا النوع من النوبات الهسترية قد وجد مقلدين ، ولن يزيد الطبيب على أن يقول : « لقد رآها سائر المرضى ، فحذوا حذوها ؛ هذه حالة من حالات العدوى النفسية » — نعم ، ولكن هذه العدوى النفسية قد وقعت على نحو يقرب من الآتى : إن المرضى يعلمون فى العادة ، كل عن الآخر ، أكثر مما يعلمه الطبيب عن كل منهم على حدة ، وهم — بعد أن تفرغ زيارة الطبيب — يتحولون إلى الاهتمام بعضهم ببعض؛ فافرض أن مريضة قد انتابتها اليوم إحدى أزماتها: إن البقية لن تلبث أن تعلم أن العلة خطاب تلقته من أهلها أو هائج غرام هاج شجوها أو شىء يشبه ذلك، ثم إذا كل منهم تثور مشاركته ، وتتكون فى نفسه تلك النتيجة — وإن لم تبلغ شعوره — : « إذا كان من الممكن أن يعانى المرء مثل هذه النوبة من جراء مثل هذه العلة، فأنا أيضا قد أعانيها ؛ لأن مثل هذه العلة قد تعرض لى » ، ولو كانت هذه نتيجة تستطيع أن تبلغ الشعور ، لأمكن أن تسلم إلى الهيلة من معاناة مثل هذه النوبة ، ولكنها قد تكونت فى منطقة نفسية مغايرة ؛ ولهذا كانت تنتهى إلى تحقيق العرض المخوف. وهكذا لا يكون تعيين الذات بغيرها تقليدا وحسب ، بل تمثلا[1] قائما على ادعاء علة مماثلة ؛ إنه يعرب عن فكرة « ما من فارق » ويتعلق بعنصر مشترك يظل باقيا فى اللاشعور .

ويستخدم التعيين فى الهستريا — أكثر ما يستخدم — تعبيرا عن شركة جنسية . فالمرأة الهسترية أسرع ما تكون — وإن لم يكن ذلك على نحو مانع — إلى أن تعين ذاتها فى أعراضها بأولئك الأشخاص الذين كانت لها بهم علاقة جنسية ، أو بمن كانت لهم بأولئك

(١) [بالمعنى المعروف فى علوم الأحياء .]

هذه العلاقة نفسها . وتدخل اللغة فى حسابها تصورا مماثلا للأمور ، فيقال عن العاشقين : إنهما « شيء واحد » . ويكفى من أجل وقوع التعيين ، فى المخيلة المسترية كما فى الحلم ، أن يفكر المرء فى علاقات جنسية ، دون أن تكون هذه العلاقات حقيقة بالضرورة . فريضتنا إنما تتبع قواعد التفكير المسترى حين تعرب عن غيرتها (وهى بعدُ غيرة تسلم هى نفسها بخلوها من كل مبرر) بأن تضع نفسها موضع صديقتها وتعين ذاتها بها بخلق عرض من الأعراض (هو الرغبة الممنوعة) . ولنا أن نعرب عن العملية فى كلم على النحو الآتى : إن المريضة قد وضعت نفسها فى محل صديقتها لأن صديقتها قد شغلت منزلتها هى فى نفس زوجها ، ولأنها — أعنى مريضتى — كانت تود لو تحل محل صديقتها فى إعجاب زوجها [1] .

وأرادت مريضة أخرى (هى أمهر حالماتى) أن تنقض نظريتى فى الأحلام ، فأمكن أن يحل حلمها حلا أقل تعقيدا وإن ظل متفقا مع ذات القاعدة : أنّ لا تحقق إحدى الرغبات معناه تحقق أخرى. ذلك أنى شرحت لها يوما أن الحلم يحقق رغبة ، فأتتنى فى اليوم التالى بحلم رأت فيه أنها تسافر وزوجة أبيها لتقضيا فصل الصيف معا فى الريف . وكنت أعلم أنها قد ثارت ثورة شعواء على فكرة المصيف قريبا من زوجة أبيها ، وأنها — قبل ذلك بأيام — قد أفلحت لحسن حظها فى الإفلات من هذه الصحبة المخوفة فاستأجرت منزلا فى الريف يبعدها عن حيث كانت امرأة أبيها كل البعد . وها هو ذا الحلم قد أتى فإذا هو يقلب هذا الوضع رأسا على عقب . ألا ينقض ذلك نظريتى فى تحقق الرغبة بوساطة الحلم أقطع نقض ؟ يقينا ، ولا يحتاج المرء إلا إلى أن يستخرج النتيجة التى تخلص من هذا الحلم لكى يحصل على تفسيره : إن الذى يخلص من هذا الحلم هو أنى كنت على خطأ . وهكذا فقد كانت رغبتها هى أن أكون على خطأ والحلم يريها تحقق هذه

---

(١) إنى آسف إذ أدرج فى سياق كلامى هذه الفقرات الخاصة بسيكوباثولوجية المستريا ، وهى — بعد — فقرات لا يمكن أن تأتينا بنور كبير لتقطع عرضها ولانتزاعها من محيطها. بيد أنه لو أمكن أن تدلنا هذه الفقرات على العلاقات الباطنة بين الأحلام والأعصبة ، لحقق ذلك الغرض الذى أوردتها من أجله . [هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها فرويد فى كتاباته المنشورة عن فكرة التعيين وإن يكن قد أشار إليها من قبل (١٨٩٧) فى رسائله إلى فليس . وتزيد أهمية هذا النص إذا علمنا أن فرويد لا يعود إلى مثل هذا النظر المفصل إلا بعد ذلك بما يزيد على العشرين عاما (فرويد ١٩٢١ ج ، الفصل السابع) وأن الأمر يتعلق بفكرة لا نغالى إذا قلنا إنها حجر الزاوية فى كل النظرية التحليلية النفسية — ونرجو أن يعذرنا ذلك على الهامش الطويل الذى وضعناه فى تبرير ترجمتنا لهذا المصطلح . هذا ويطلق لفظ التعيين أيضاً على عملية أخرى تكون جزءا من عمل الحلم ، يتحدث عنها فرويد فى القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٣٠ . وهذه العملية الأخيرة تختلف فى دلالتها من تلك التى تحدث عنها فرويد الآن اختلافاً مطلقاً — وإن اشتركت معها فى الاسم .]

الرغبة . بيد أن رغبتها فى أن أكون قد جانبت الصواب — وهى الرغبة التى ارتبط تحقيقها بقصة إجازة الصيف— كانت فى الحقيقة تتصل بشىء آخر أكثر خطرا . ذلك أننى كنت قد استنتجت فى ذلك الوقت من المادة التى جلبها تحليلها أن أمرا كانُ له أثره الحاسم فى نشأة مرضها لا بد قد وقع لها فى فترة معينة من حياتها . ولكنها نفت ذلك ؛ لأنها لم تكن تذكر شيئا منه . وما لبث أن تبين أنى كنت على صواب . ورغبتها إذن فى أن أكون على خطأ كانت تحجب رغبة أخرى لها وجاهتها ، هى الرغبة ألا تكون قد وقعت قط تلك الأمور التى كانت المريضة قد أخذت تحذرها إذ ذاك للمرة الأولى .

وحدث مرة أننى جازفت ففسرت من غير تحليل ما بل بتخمين محض قصة صغيرة جرت لصديق لى كان زميلى فى المدرسة طيلة ثمانى سنوات . فقد استمع يوما إلى محاضرة ألقيتها فى دائرة صغيرة وكان موضوع المحاضرة هو هذه البدعة القائلة : إن الحلم تحقيق رغبة . فلما عاد إلى منزله حلم بأنه قد خسر جميع قضاياه — وكان محاميا — ثم جاءنى يشتكينى فى هذا الصدد . فكان أنى تهربت قائلا : « إن المرء لا يستطيع أن يكسب جميع قضاياه . » بيد أننى قد حدثت نفسى قائلا : « إذا كنت قد ظللت ثمانى سنوات وأنا أول الفصل على حين كان هو يتأرجح فى مكان ما بمنتصفه ، فهل من عجب فى أن تساوره تلك الرغبة المتخلفة من أيام الصبا فى أن أبوء يوما بالخذلان ؟ » .

وها هو ذا حلم آخر أقتم طابعا ساقته أيضا إحدى مريضاتى اعتراضا على نظرية أحلام الرغبة . كانت المريضة فتاة فى مقتبل العمر ، قالت : « تذكر أن أختى لم يبق لها الآن إلا ولد واحد ، هو كارل ؛ فقد توفى أخوه الأكبر أوتو حين كنت لا أزال أسكن بمنزلها ، وكان أوتو هو الولد المفضل عندى ؛ فأنا فى الحقيقة التى نشأته . نعم ، إن الولد الأصغر عزيز علىّ كذلك ، لكنه إعزاز لا يقارب ما كنت أكنه لأخيه المتوفى . وفى الليلة الماضية حلمت أنى أرى كارل يرقد ميتا فى نعشه الصغير وقد تشابكت يداه وأحاطت به الشموع ، وبالاختصار كان المشهد شبيها كل الشبه به حين مات صغيرى أوتو تلك الميتة التى تعلم إلى أى حد صدمتنى . والآن خبرنى ، ما معنى ذلك ؟ إنك تعرفنى . هل أكون من القسوة بحيث أتمنى لأختى أن تفقد طفلها الوحيد ؟ أو أن ذلك يعنى أنى كنت أفضل لو كان الميت كارل وليس أوتو الذى آثرته ذلك الإيثار الكبير ؟ »

وهنا أكدت لها أن التفسير الأخير تفسير ينبغى استبعاده كل الاستبعاد . ولم يعجزنى

– بعد قليل من التروى – أن آتيها بالتفسير الصحيح . وقد وسعنى ذلك لأننى كنت أعلم من قبل تاريخ الحالة برمته .

تيتمت الفتاة وهى فى مطلع حياتها فنشأت فى منزل أخت لها تكبرها فى السن كثيرا . ولقيت الفتاة بين من كانت تلقى من أصدقاء المنزل وزواره رجلا ترك فى قلبها أثرا لا يمحى . وجاء وقت لاح فيه أن هذه العلاقة التى ما كادت تبلغ مبلغ التصريح سوف تنتهى إلى الزواج ، ولكن أختها قضت على هذه الخاتمة ؛ لأسباب لم تستتر قط كل الاستتارة . ولما حلت القطيعة انقطع عن المنزل الرجل الذى خصته مريضتى بحبها ، واستقلت هى بعيشها بعد أن مات أوتو الصغير الذى كانت تحولت إليه فى إبان ذلك بحبها . بيد أنها لم تفلح فى التحرر من تلك العيلة التى أوقعها فيها تعلقها بصديق شقيقتها . كان كبرياؤها ينهاها عن القياه ، لكنها كانت عاجزة عن أن تخلع حبها على غيره من الطلاب الذين تواردوا عليها . وكان من المحقق إذا أعلن رجلها الحبيب – وهو من المشتغلين بالأدب – عن محاضرة يلقيها ، أن تجدها بين سامعيه . وكانت إلى ذلك لا تترك فرصة تتيح لها أن تراه فى مكان عام دون أن تُرى . وأذكر أنها قد أبلغتنى فى اليوم السابق أن الأستاذ ذاهب إلى حفل موسيقى وأنها أيضا ذاهبة إليه حتى تنعم بطلعته مرة أخرى . كان ذلك فى اليوم السابق على الحلم ، وكان يوم الحفل هو اليوم الذى قصت فيه الحلم علىّ . وهكذا تيسر أن أستنتج التفسير الصائب : سألتها هل هناك حدث تخصه بالذكر بعد موت أوتو ، فأجابت على الفور : « طبعا ، لقد جاء الأستاذ إذ ذاك بعد طول غيبة ، فرأيته مرة أخرى بجوار أوتو الراقد فى نعشه الصغير » ، وكان ذلك عينه هو ما حسبت ، ففسرت لها الحلم على هذا النحو : « لو أن الولد الآخر مات الآن ، لتكرر ذلك مرة أخرى . سوف تقضين اليوم فى منزل أختك ، ويجئ الأستاذ على التأكيد للتعزية وترينه من جديد فى ذات الملابسات التى رأيته فيها من قبل . ولا يعنى الحلم سوى هذه الرغبة فى العودة إلى رؤيته ، تلك الرغبة التى تكافحينها فى دخيلة نفسك . وأعلم أنك تحملين فى حقيبتك تذكرة لحفل اليوم ؛ فحلمك حلم صبر نافد : إنه يستبق لقاء اليوم بساعات قلائل . »

فالمريضة لكى تخفى رغبتها قد اختارت موقفا جرت العادة على أن تكبت فيه أمثال هذه الرغبات ، موقفا يطغى فيه الحزن على المرء فلا يجد متسعا للتفكير فى الحب . ومع هذا فإن من الممكن كل الإمكان أن تكون الفتاة قد عجزت – حتى وهى واقفة حقيقة بجانب

نعش الولد الأكبر الذى آثرته بحبها – عن أن تكبت مشاعرها الرقيقة تجاه ذلك الزائر الذى طالما اشتاقت إليه .

وهناك حلم آخر يماثل الذى سبق، بيد أنه لقى تفسيرا مختلفا ، وهو حلم أتته مريضة عرفت فى صباها بسرعة النكتة ومرح المزاج وكانت لا تزال تبدى هذه الصفات فى المستدعيات التى كانت تدور بخاطرها فى أثناء العلاج على الأقل . فقد خيل إلى هذه السيدة ، ضمن ما خيل إليها فى سياق حلم طويل ، أنها ترى ابنتها الوحيدة البالغة من العمر خمسة عشر ربيعا وقد رقدت أمامها فى صندوق رقدة الموت . وكانت السيدة تود لو قد أقامت من ظاهر حلمها حجة على نظريتى ، ولكنها كانت تشعر هى نفسها بأن ملابسة الصندوق تنطوى لا محالة على ما قد يؤدى إلى فهم مختلف للحلم [1]. وأخذنا فى التحليل فخطر لها أن الحديث قد دار فى سهرة الأمس حول كلمة "box" الإنجليزية وحول الكلمات الألمانية التى تترجم معانيها المختلفة فى الإنجليزية ، مثل Schachtel [صندوق] و Loge [مقصورة] و Kasten [خزانة] و Ohrfeige [لكمة] . وكان فى سائر فقرات ذلك الحلم ما يسمح لنا بأن نضيف إلى ذلك أن السيدة قد حدست العلاقة بين الكلمة الإنجليزية "box" وبين الألمانية "Büchse" [2] وأنها قد تذكرت عندئذ – ولم تبرحها الذكرى – أن كلمة "Büchse" تستخدم فى لغة السوقة للدلالة على الأعضاء التناسلية عند المرأة . وبهذا أمكننا أن نسلم – مع قليل من التسامح تجاه معرفتها بالتشريح الموضعى – بأن وجود الطفلة فى الصندوق كان يعنى جنينا فى رحم أمه . فلما بلغنا من الاستنارة هذا المبلغ ، لم تعد المريضة تنكر أن الصورة كانت تعرب حقيقة عن رغبة من رغباتها . فهى – شأن الكثيرات من الزوجات الصغيرات السن – لم تستشعر أقل سعادة حين رأت نفسها حاملا ، بل هى قد صرحت أكثر من مرة بما كانت تتمناه من موت الطفل وهو جنين . وأكثر من ذلك أنها قد أخذت مرة – فى نوبة من الغضب أعقبت مشادة حامية مع زوجها – أخذت تقرع بطنها بقبضتى يديها لكى تصرع الجنين الذى تحمله . وهكذا كانت صورة الحلم تحقق بالفعل رغبة ، ولكنها رغبة انطوت منذ خمسة عشر عاما . وما من عجب إذا كان المرء لا يرجع يعرف رغبة له تحققت بعد هذا الإرجاء الطويل؛ فكم تبدلت فى خلال ذلك بالأمور أمور .

---

(١) كما كان الشأن مع السالمون المدخن فى حلم الرغبة الممنوعة [ص ١٧٢] .

(٢) [وتعنى آنية أو وعاء . وتنطق " بوكسه " بضمة مشمومة الكسر .]

وسوف أعود، تحت باب الأحلام النمطية [القسم د من الفصل الخامس] إلى هذه الطائفة من الأحلام التى ينتمى إليها الحلمان الأخيران والتى يمثل محتواها موت قريب عزيز. وسوف أتمكن من أن أبين ببعض الأمثلة الجديدة كيف يجب تفسير هذه الأحلام بكونها تحقق رغبات على الرغم من محتواها غير المرغوب فيه . وأما الحلم الآتى الذى رواه صاحبه أيضا لكى يردنى عن التعجل فى تعميم نظريتى ، فلا أدين به لمريض بل لرجل نابه من رجال القانون تربطنى به معرفة وثيقة . قال محدثى : « حلمت أنى أسير أمام منزلى وقد اتكأت سيدة على ذراعى . وهناك أرى عربة مغلقة ورجلا يخرج منها ويتجه نحوى ثم يطلعنى على ما يثبت أنه من ضباط الشرطة ويطلب منى أن أتبعه ، فأرجومنه أن يمهلنى برهة أرتب فيها حوائجى . أفتعتقد أننى ربما رغبت فى أن يقبض على ؟» — فلا أجد إلا أن أجيبه : « كلا ، يقينا . ولكن أتراك تذكر لأى تهمة قبض عليك ؟ » — « نعم ، أظنها قتل رضيع . » — « قتل رضيع ؟ ولكنك تعلم أن هذه جريمة لاترتكبها إلا أم نحو وليدها ؟ » — « هذا صحيح . »[1] — « وما هى الملابسات التى صاحبت وقوع هذا الحلم ؟ ما الذى حدث فى الليلة السابقة عليه ؟ » — « ذلك ما أوثر الامتناع عن الحديث عنه ، فهى مسألة حساسة .» — « ولكننى أحتاج إليها. وإلا صرفنا النظر عن فكرة تفسير هذا الحلم .» — « اسمع إذن : إننى لم أقض الليلة الماضية بمنزلى بل بمنزل سيدة تعنى الشىء الكثير بالنسبة إلى . فلما استيقظنا فى الصباح عدنا لما فعلناه من قبل . وبعدئذ نمت مرة ثانية وحلمت الحلم الذى رويته لك . » — « أهى سيدة متزوجة ؟ » — « نعم . » — « وأنت لا تريد أن تعقب منها ولدا ؟ » — « كلا ، كلا ، فذلك ما قد يفضح سرنا . » — « ولست — إذن — تمارس الجماع السوى ؟ » — « إنى أحتاط فانسحب قبل الإنزال .» — « هل أفترض أنك قد أعملت هذه الحيلة أكثر من مرة تلك الليلة وأنك لم تكن واثقا من النجاح بعد تكرارك الأمر فى الصباح ؟ » — « ممكن جدا . » — « إذن حلمك يحقق رغبة ؛ فهو يؤكد لك أنك لم تعقب ولدا أو أنك قتلته ، والأمران سيان ، وفى وسعى أن أبين لك من غير عناء ما هى الحلقات التى ربطت بينهما . أتذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام قليلة عن متاعب الزواج وعن التناقض الذى فى إباحتنا الجماع مع الاحتياط لمنع النسل فى حين أننا نعد

---

(١) يحدث فى كثير من الأحيان أن يروى الحلم منقوصاً فى أول الأمر ولا تنبعث ذكرى الأجزاء المحذوفة إلا فى أثناء التحليل . وحينئذ يتضح دائماً أن هذه الأجزاء التى تضاف من بعد هى التى تزودنا بمفتاح تفسير الحلم . أنظر مناقشة نسيان الأحلام فيما بعد [القسم أ من الفصل السابع.]

كل تدخل يحدث بعد التقاء البويضة والحيوان المنوى وبعد تكون الجنين جريمة ؟ لقد تذكرنا بهذه المناسبة المناقشة التى دارت فى القرون الوسطى عن اللحظة التى تنفذ فيها الروح إلى الجنين لأن تطبيق فكرة القتل لا يكون إلا ابتداء من هذه اللحظة . ثم إنك تعرف من غير شك قصيدة ليناو المروعة التى يسوى فيها بين قتل الرضع ومنع النسل. » — « العجيب هو أننى قد فكرت فى ليناو هذا الصباح ، كأنما جاء ذلك اتفاقا . » — « ذلك صدى آخر لحلمك . وأريك الآن فى حلمك تحقيقا آخر ثانويا لرغبة أخرى : ذلك أنك تسير إلى منزلك والسيدة بذراعك، أى أنك تأخذها إلى دارك[1] بدل أن تقضى الليل بمنزلها كما هو الأمر فى الواقع. أما كون تحقيق الرغبة قد اتخذ فى الحلم هذه الصورة غير السارة، فأمر قد يكون له أكثر من سبب. فلعلك علمت من مقالتى فى علية أعصبة الهيلة [فرويد ١٨٩٥ ب] أننى أدخل الجماع المنقطع فى عداد العوامل التى تنشأ عنها الهيلة العصابية . وإنه ليتفق وذلك أن يتركك تكرارك مثل هذا الجماع فى حالة من القلق صارت بعدئذ أحد العناصر المقومة لحلمك . ثم إنك تستغل هذه الحالة المزاجية لكى تخفى بها تحقيق رغبتك . وعلى أية حال فإن إشارتك إلى قتل الرضيع لم ينجل أمرها بعد . كيف اتفق أن خطرت لك تلك الجريمة التى تنفرد بها النساء ؟» — « أعترف لك بأننى قد تورطت مرة — منذ بضع سنوات — فى قصة شبيهة بهذه . فقد كنت مسئولا عن إقدام إحدى الفتيات على الإجهاض لكى تدرأ ما نجم عن صلتها بى . ولم يكن لى أقل دخل فى تنفيذ ما اعتزمته، ولكننى ظللت بالطبع زمنا طويلا فى خشية من أن ينفضح الأمر . » — « أفهم ذلك . وإن هذه الذكرى لتزودنا بسبب ثان يرينا لم كان من الحتم أن يركبك القلق عند توجسك الإخفاق فى حيلتك . »

وسمعنى طبيب شاب أروى هذا الحلم فى قاعة محاضراتى ، ولا بد أن هذا الحلم قد أصاب من نفسه الشيء الكثير ؛ لأنه سارع إلى محاكاته بحلم من عنده طبق فيه ذات الأسلوب الفكرى على موضوع مختلف : فهو قد أدى فى اليوم السابق إقرار الدخل ، وكان إقراره صريحا لا مواربة فيه؛ لأنه لم يكن يملك سوى الشيء القليل ليقرّ به. ثم بعد ذلك رأى فى الحلم أن صديقا من معارفه يجيء إليه بعد اجتماع لجنة الضرائب ويبلغه أن جميع الإقرارات قد مرت من غير استيقاف إلا إقراره؛ فقد أثار تشكك الجميع ، وأنه

---

(١) [heimfuhren ، يعنى " أخذها إلى داره " ويعنى أيضاً " تزوجها " .]

قد يدان من جراء ذلك بغرامة كبيرة . إن هذا الحلم ليس إلا قناعا شفافا لبسته الرغبة فى أن يكون طبيبا ذا دخل كبير . وإنه ليذكر بقصة الفتاة التى نصحها الناصحون بأن ترفض رجلا طالب يدها ؛ لأنه رجل حاد المزاج ولأنه لا محالة سوف يتفاهم معها باللكمات بعد الزواج ، فكان أن أجابت الفتاة : « لو ضربنى ! » فرغبة الفتاة فى الاقتران شديدة حتى أنها لتقبل ضمن البيعة منغصات هذا الزواج ، بل تتمناها .

لو أنى جمعت هذا النوع من الأحلام الشائعة أكبر الشيوع [١] والتى تبدو تناقض نظريتى مناقضة مباشرة من حيث تحتوى على رغبة حيل دونها والتحقق أو من حيث تحتوى على أمر تصدف عنه النفس صدوفا جليا تحت عنوان «الأحلام المضادة للرغبات » ، لرأيت أنها ترتد جميعا إلى مبدأين لم أذكر أحدهما بعد على كبير خطره فى حياة الناس كما فى أحلامهم . فأول قوة دافعة إلى هذه الأحلام هى الرغبة فى أن أكون على خطأ . وتظهر هذه الأحلام فى خلال العلاج دون أن تتخلف ، إذا مر المريض بفترة من المقاومة تجاهى ؛ وأستطيع أن أستثير عند المريض حلما من هذا القبيل وأنا واثق أكبر الثقة من ذلك إذا شرحت له للمرة الأولى نظريتى فى أن الحلم تحقيق رغبة [٢] . بل إنى أتوقع أن تجرى الأمور على هذا المنوال مع الكثيرين من قرائى ، فيمنعوا أنفسهم فى الحلم إحدى رغباتها طواعية ، لا لغرض سوى التدليل على خطائى . ويصور لنا ذلك مرة أخرى الحلم الآتى – وهو آخر ما أذكر من هذا النوع من الأحلام التى تقع تحت العلاج . والحالمة هنا فتاة فى مقتبل العمر استطاعت أن تستمر فى علاجها بعد أن كافحت إرادة أهلها وإرادة من شاورتهم من أولى الأمر كفاحا شاقا ، رأت : أن أهلها يمنعونها عن المجىء إلى ، فتذكرنى بما وعدتها إياه من المداومة على علاجها من غير مقابل إذا لزم ذلك ، ولكننى أجيبها : إننى لا أعرف اعتبارا لأحد فى مسائل النقود .

الواقع أن تبيين الرغبة فى هذا المثال ليس أمرا سهلا . بيد أننا نجد فى جميع أمثال هذه الحالات مشكلة أخرى يعين حلها على حل المشكلة الأولى . فمن أين جاءت المريضة بهذه الكلمات التى وضعتها على لسانى فى الحلم ؟ إن مثل هذا القول لم يصدر عنى قط

---

(١) [أضيفت هذه الفقرة والتى تليها فى عام ١٩٠٩ .]

(٢) لقد سمعت تكرارا فى خلال السنوات القليلة الأخيرة كثيراً من هذه " الأحلام المضادة للرغبات " وكان أصحابها من المستمعين إلى محاضراتى ، وكانت أحلامهم هذه هى استجابتهم تجاه أول التقائهم " بنظرية الرغبة " فى الأحلام .

بالطبع ، ولكن أخاً لها — هو صاحب التأثير الأعظم فيها — كان من اللطف بحيث خصنى بهذه الملاحظة. والحلم —إذن— يهدف إلى إثبات صواب أخيها. وهى لا تصر على أن يكون الحق لأخيها هذا فى الحلم وحده ، بل ذلك كان شاغل حياتها ودافعها إلى المرض .

وها هو ذا حلم آخر [١] يبدو للوهلة الأولى أنه يواجه نظرية تحقيق الرغبة بصعوبات خاصة ، وهو حلم أتاه طبيب وفسره (ورواه أوجست شتاركه ، ١٩١١) :

« أرى على العقلة الأخيرة من السبابة اليسرى أول آثار [Primäraffekt] السفلس »

إن المرء قد يحجم عن تفسير هذا الحلم بعد الروية ؛ فهو حلم واضح متناسق ، فيما خلا محتواه غير المرغوب فيه. ولكن لو أن أحدا تكلف مع ذلك عناء تحليله لعلم ، أن "Primäraffekt" تعادل " Primo Affectio "(الحب الأول) ، ولتبين أن القرحة المنفرة كانت — كما يقول شتاركة — « تمثل تحقيق رغبات ذات شحنة وجدانية شديدة . »

وأما الدافع الثانى إلى الأحلام المضادة للرغبات [٢]. فواضح حتى ليسهل خطر إغفاله ، كما كان الشأن معى زمنا طويلا. ذلك أن التكوين الجنسى يضم عند كثير من الناس مقوما ماسوشيا ينشأ عن انقلاب المقوم العدوانى السادى إلى ضده . ويسمى أمثال هؤلاء الناس ماسوشيين « نفسيين » إذا لم يلتمسوا اللذة فى إيقاع الألم الجسمى بأنفسهم ، بل فى المذلة وعذاب النفس . وندرك على الفور أن هؤلاء الأشخاص قد تقع لهم أحلام برغبات مضادة أو أحلا م مؤلمة ، وهى مع ذلك لا تخرج عن أن تكون تحقيقات رغبات ؛ لأنها تشبع نوازعهم الماسوشية . وإليك حلما من هذا القبيل ، وهو لشاب كان يعذب فى صباه أخاه الأكبر شر العذاب وكان له بهذا الأخ شغف جنسى ، فلما تغير طبعه تغيرا أساسيا جاءه ذلك الحلم على ثلاثة أجزاء : ١ — أخوه الأكبر يغيظه . ٢ — شخصان بالغان يلاطف أحدهما الآخر لغاية جنسية مثلية . ٣ — باع أخوه المؤسسة التجارية التى كان يطمع فى إدارتها يوما. ويستيقظ الحالم من الحلم الأخير نهبا لأشد الأحاسيس ألما . والحلم مع ذلك حلم رغبة ماسوشية تمكن ترجمته على هذا النحو : إنه لجزاء عدل أن يعقد أخى هذا البيع على كره منى عقابا لى على كل ما اضطر إلى احتماله من العذاب على يدى .

أرجو أن تكون الأمثلة المتقدمة كافية — حتى يظهر اعتراض جديد — فى تسويغ

(١) [أضيف ذكر هذا الحلم مع التعقيب عليه فى عام ١٩١٤ .]

(٢) [وهو الدافع الذى قال فرويد فى الصفحة السابقة إنه لم يذكره بعد— أضيفت هذه الفقرة فى عام ١٩٠٩ .]

القول بوجوب تحليل الأحلام الأليمة المحتوى كما لو كانت هى أيضا تحقق رغبات (١) . ومن الواجب كذلك ألا نعد الأمر صدفة إذا كان تفسير هذه الأحلام يوقفنا فى كل مرة على موضوعات ينفر الناس من التحدث عنها أو التفكير فيها . فلا شك فى أن الشعور الأليم الذى تثيره هذه الأحلام لا يختلف من النفور الذى يحدونا — بنجاح فى غالب الأحايين — إلى الإمساك عن معالجة هذه الموضوعات أو ذكرها والذى تتحتم على كل منا مغالبته إذا لم نجد مع ذلك بدا من مواجهتها . بيد أن هذا الشعور غير اللاذ الذى يتردد تبعاً لذلك فى الأحلام لا يمنع من أن تكون ثمت رغبة من الرغبات ؛ فلكل امرئ رغبات يؤثر كتمها عن غيره من الناس ، بل رغبات لا يريد أن يصارح نفسه بها . ونحن ، من ناحية أخرى ، محقون حين نربط بين الطابع غير اللاذ لهذه الأحلام جميعاً وبين واقعة تشويه الحلم ، وحين نخلص إلى أن تلك الأحلام إنما نالها ذلك التشويه وأن تحقيق الرغبة إنما تقنع فيها إلى حد الخفاء لأن ثمت نفورا من موضوع الحلم أو من الرغبة المتفرعة عنه ، ونية مبيتة على كبتهما . وهكذا يتضح أن تشويه الحلم هو فى الحقيقة فعل من أفعال الرقابة . ونحن إذن ندخل فى حسابنا كل ما قد أظهره إلى الضوء تحليل الأحلام غير اللاذة حين نعدل الصيغة التى أردنا أن نعرب بها عن ماهية الحلم هذا التعديل : الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة (مقموعة أو مكبوتة) (٢) .

(١) أشير هنا إلى أننى لم أفرغ بعد من هذا الموضوع فروغاً تاما ، وسوف أعود إليه فيما بعد [أنظر " أعلام العقاب " فى الفهرست التحليلى .]

(٢) [هامش أضيف عام ١٩١٤ :] لقد توصل كاتب معاصر كبير — وهو على ما علمت يرفض أن يسمع كلمة واحدة عن التحليل النفسى أو عن تفسير الأحلام — إلى صيغة فى ماهية الحلم لا تكاد تختلف من تلك التى وضعتها ، فهو يقول : إن الحلم " انبعاث من غير تصريح لرغبات وأمان مقموعة ، تحت ملامح وأسماء مزيفة . " (شپيتلر ، ١٩١٤) .

[١٩١١ :] وأستبق الأمور هنا بذكر التوسيع والتعديل اللذين أدخلهما أوتو رانك على الصيغة الأساسية المذكورة فى النص : " إن الحلم يصور دائما ، فى صورة مقنعة رمزية ، تحقق رغبات حاضرة ، هى أيضاً فى القاعدة رغبات جنسية ، وذلك بالاستناد إلى مواد مستندة من الحياة الجنسية الطفلية المكبوتة و بمعاونتها . " (رانك ، ١٩١٠) .

[١٩٢٥ :] هذا ولم يحدث قط أنى ذكرت فى أى موضع من المواضع أن صيغة رانك تعرب عن رأيى . وإن الصيغة الأقصر ، على ما وردت عليه فى النص ، لتبدو لى وافية بالغرض . ولكن مجرد ذكر التعديل الذى أدخله رانك كان كافياً لأن تنهال على التحليل النفسى اتهامات لا يحصى عددها ، مؤداها أن التحليل النفسى يؤكد أن جميع الأحلام ذات محتوى جنسى . وهذه الجملة إذا فهمت بالمعنى الذى يراد فهمه منها فإنما تدل على مدى التجرد من الضمير الذى يظهره النقاد فى قيامهم بعملهم ، وعلى مدى مسارعة الخصوم إلى التعامى عن كل

تبقى الآن أحلام الهيلة من حيث هى نوع أسفل من أنواع الأحلام الأليمة المحتوى ، وهى التى سوف يلاقى تصورها على أنها أحلام رغبة أقل الترحيب ممن لا يعلمون . غير أنى لا أستطيع مع ذلك أن أعرض لأحلام الهيلة فى هذا الموضع إلا عرضا موجزا غاية الإيجاز . وذلك لأنها لا تواجهنا بوجه جديد لمشكلة الحلم ، وإنما المشكلة هنا هى أن نفهم الهيلة العصابية بوجه عام . فالهيلة التى نستشعرها فى الحلم لا يعللها محتوى ذلك الحلم إلا فى الظاهر . فإذا أخضعنا محتوى الحلم للتحليل رأينا أن الهيلة فى ذلك الحلم لا تعلل بمحتواه [الظاهر] خيرا مما تعلل الهيلة فى مخافة من المخاوف المرضية بالفكرة التى تقترن بها هذه المخافة — مثلا . فمن الحق — مثلا — أن المرء قد يقع من الشباك وأن على المرء لهذا السبب أن يأخذ ببعض الحيطة إذا وقف قريبا من الشباك ، لكننا لا نفهم لم كانت الهيلة فى مخافة الشبابيك كبيرة إلى هذا الحد ولم كانت تلاحق ضحاياها ملاحقة تعدو ما تجيزه علتها الظاهرة بمدى بعيد . والذى نكتشفه عندئذ هو أن ذات التعليل يصدق على المخافة المرضية مثلما يصدق على حلم الهيلة : فالهيلة فى كلتا الحالتين إنما تلصق إلصاقا بالفكرة التى تصحبها ، وأما منبعها فشىء آخر .

هذه العلاقة الوثيقة بين الهيلة فى الحلم والهيلة فى العصاب [1] لا تترك لى مفرا من

قضية مهما بلغ وضوحها ، ما دامت لا تتلاءم ونزعاتهم العدوانية ؛ إذ يكفى القارئ أن يرجع صفحات قليلة إلى الوراء ليرى أننى ذكرت أحلاما تحقق عند الأطفال رغبات متنوعة (كنزهة بالبر أو ببحيرة ، أو كتعويض أكلة فاتت ، إلخ .) ، كما ذكرت فى موضع آخر أحلاما أثارها العطش أو الحاجة إلى التبول وأخرى لا تخرج عن أن تكون أحلام استسهال . بل إن رانك نفسه لا يرسل القول على إطلاقه ؛ فهو يقول : " هى أيضاً فى القاعدة رغبات جنسية " ، وهو قول يمكن تأييده تأييدا واسعا فى أحلام معظم الراشدين .

ولقد كان الموقف يختلف لو كان نقادى استخدموا لفظ " جنسية " بالمعنى الذى شاع استخدامه فيه اليوم فى التحليل النفسى — معنى " إيروس " [اسم يونانى لإله الحب كان من حظه أنه صار يستخدم منذ قديم كاسم كلى لجميع النوازع المتجهة — فى الطبيعة كما فى الإنسان — إلى التوحيد والخلق ، فى مقابل التفرقة والهدم أو السلب]. ولكن نقادى كانوا بعيدين غاية البعد عن أن يفكروا فى تلك المشكلة الهامة : هل الأحلام جميعها من خلق القوى الغريزية " الليبيدية " (فى مقابل " التدميرية ") ؟

(١) [الهيلة Angst لغة هى المخافة من الأمر لا يدرى المرء ماذا يهجم عليه منه . ويراد بها فى التحليل النفسى الخوف الذى يكون من ممكن مستقبل فحسب (كهبوب العاصفة أو الرسوب فى الامتحان أو — أخيرا — الموت) وليس من موضوع بعينه (كالرمضاء أو النار) . ولكن كلمة " Angst " يكثر أيضاً استخدامها فى اللغة الألمانية للدلالة على الخوف مجرداً وبأى درجة من درجاته ، وقد يجريها فرويد بهذا المعنى . ويقال أيضاً فى العربية " الهول " ولكننا لم نكد نستخدمه قط لشيوع معناه فى غير ذلك — هذا وقد احتفظنا بكلمة " القلق " لترجمة معنى "Sorge" أو "Worry" .]

الإشارة إلى الثانية عند مناقشة الأولى . لقد قلت منذ زمن ما فى مقال قصير عن عصاب الهيلة (فرويد ، ١٨٩٥ ب) : إن الهيلة العصابية تنشأ عن الحياة الجنسية ، وأنها توافق ليبيدو صرفت عن غايتها ولم تجد شاغلا يشغلها . ومنذ ذلك الوقت لم تجد هذه القضية إلا ما يزيدها ثبوتا . وهى تمكننا الآن من أن نستخلص منها أن أحلام الهيلة أحلام ذات محتوى جنسى ، تحولت الليبيدو المتصلة بها إلى هيلة . وسوف يتسع المقام فيما بعد لتأييد هذه القضية بتحليل بعض أحلام المرضى العصابيين . كما سوف يتاح لى فى خلال محاولة قادمة من أجل الوصول إلى نظرية فى الحلم أن أتحدث عن شروط أحلام الهيلة وعن اتفاقها مع نظرية تحقيق الرغبة [ص٥٦٧ وما بعدها .]

الفصل الخامس

مادة الحلم ومصادره

عندما تبين لنا من تحليل حلم حقنة إرما أن الحلم تحقيق رغبة ، اتجه كل اهتمامنا بادئ ذى بدء إلى أن نعرف هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا ، وفى خلال ذلك أخمدنا كل تطلع علمى آخر كان يمكن أن يثار ونحن نقوم بعمل التفسير . ويحق لنا الآن — وقد بلغنا من هذا الدرب نهايته — أن نقفل أدراجنا ، وأن نختار موضعا آخر نبدأ منه استكشافاتنا فى مشكلات الحياة الحالمة ، وإن اضطرنا ذلك إلى أن نتناسى بعض الوقت مشكلة تحقيق الرغبة التى لم نزل بعيدين عن استيعابها .

فمن الطبعى — وقد أمكننا بتطبيق منهجنا فى التفسير أن نرفع النقاب عن محتوى كامن للحلم تعلو قيمته قيمة المحتوى الظاهر بآماد وآماد — أن تكون المهمة التى تعجلنا الآن هى أن نتناول مشكلات الحلم من جديد واحدة فواحدة ؛ لكى نرى إذا كانت الألغاز والمتناقضات التى لاحت لنا متعذرة ونحن لا نعرف من الحلم غير ظاهره تلقى الآن عندنا حلا مرضيا .

ولقد فصلنا الحديث — فى الفصل الذى قدمنا به هذا الكتاب — عن آراء المؤلفين السابقين فى علاقة الحلم بالحياة المستيقظة وفى منشأ مادته . وإنا لنذكر هذه الخصائص التى تتميز بها الذاكرة فى الحلم والتى لاحظها المؤلفون كثيرا ، دون أن يوضحوا أمرها قط :

١ — أن الحلم يؤثر انطباعات الأيام الأخيرة إيثارا ظاهرا (رو برت ، شترومپل ، هيلدبرانت ، ويد ، هالام .)

٢ — أنه ينهج فى اختياره على مبادئ تختلف من تلك التى تنتهجها ذاكرتنا المستيقظة من حيث كونه لا يختار ما هو جوهرى وهام ، بل الثانوى وغير الملحوظ .

٣ — أنه يملك استحضار انطباعات ترجع إلى طفولتنا المبكرة ، بل يستعيد من تلك الفترة من حياتنا تفاصيل تبدو لنا على جانب كبير من التفاهة ، وكنا نعتقد ونحن

مستيقظون أننا قد نسيناها منذ زمن طويل[1] .

وغنى عن البيان أن جميع هذه الخصائص التى يتميز بها اختيار مادة الحلم إنما لاحظها المؤلفون بصدد محتوى الحلم الظاهر وحده .

أ

الحديث والتافه فى الحلم

إذا استرشدت خبرتى الشخصية فيما يتصل بمنشأ العناصر التى تدخل فى محتوى الحلم ، لم أجد مناصا من أن أقرر ، بادئ ذى بدء ، أنه ما من حلم يخلو من بعض الصلة بأحداث اليوم الذى انقضى. وما من حلم تناولته بالبحث ، سواء أكان من أحلامى أم كان من أحلام غيرى ، إلا أيد عندى هذه الخبرة الشخصية . وفى مكنتى — وقد علمت هذه الحقيقة — أن أبدأ تفسير الحلم بالبحث عن حدث اليوم السابق الذى حرك إليه ، بل تلك فى الحقيقة هى الطريق الأقصر فى كثير من الحالات . والحلمان اللذان فصلت تفسيرهما فى الفصول السابقة (حلم حقنة إرما وحلم عمى ذى اللحية الصفراء) تتضح فيهما هذه العلاقة باليوم السابق اتضاحا لا نحتاج بعده إلى توضيح. ولكننى أورد هنا بعض الأمثلة أنتخبها من سجل أحلامى الخاصة ؛ لكى أبين كيف يمكن التثبت من هذه العلاقة على نحو مطرد . ولن أروى هذه الأحلام إلا بالقسط الذى أحتاج إليه من أجل الكشف عن مصدرها الذى نبحث عنه .

١ — أزور منزلا لا أستطيع دخوله إلا بعد صعوبات . . . إلخ . ، وفى هذه الأثناء أدع سيدة تنتظرنى

المصدر : محادثه مساء أمس مع إحدى قريباتى : إن عليها أن تنتظر حتى تستلم سلعا اشترتها . . . إلخ .

٢ — كتبت بحثاً خاصاً بنوع (غير واضح) من أنواع النبات .

---

(١) من البين أننا لا نستطيع أن نأخذ بفكرة روبرت القائلة بأن غاية الحلم هى تخليصنا من الانطباعات غير النافعة المتخلفة من النهار ، إذا كانت الصور الذكروية المستمدة من طفولتنا تتردد فى الحلم أى تردد ؛ وإلا كان معنى ذلك أن الحلم إنما يقوم بوظيفته تلك على نحو ناقص جداً .

المصدر : رأيت فى الضحى بحثا خاصا بفصيلة السيكلامين فى عارضة إحدى المكتبات .

٣ – أرى فى الطريق امرأتين : أما وابنتها ، والأخيرة منهما مريضة من مرضاى .

المصدر : حدثتنى البارحة إحدى مريضاتى عن الصعوبات التى تقيمها أمها فى طريق استمرارها فى العلاج .

٤ – أجريت بمكتبة س . اشتراكا فى إحدى الدوريات ، وكانت قيمة الاشتراك عشرين فلورين سنويا .

المصدر : ذكرتنى امرأتى أمس نهارا أننى لا أزال أدين لها بعشرين فلورين من مصروف الأسبوع الماضى .

٥ – تلقيت رسالة من لجنة الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وفى هذه الرسالة وجه إلى الكلام باعتبارى عضوا .

المصدر : كنت قد تلقيت فى وقت واحد رسالتين : إحداهما من اللجنة الانتخابية لحزب الأحرار والثانية من جماعة الإخاء الإنسانى التى أنا عضو فيها حقيقة .

٦ – رجل يقف على صخرة فى عرض البحر على أسلوب بوكلين [1] .

المصدر : دريفوس فى جزيرة الشيطان ، وفى الوقت نفسه أنباء من أقاربى المقيمين بانجلترا ، إلخ .

وقد نسأل : ألا تكون صلة الحلم إلا بأحداث اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة ، أم هى قد تمتد إلى فترة أطول من فترات الماضى القريب؟ الراجح أن ذلك سؤال لا ينطوى على كبير أهمية نظرية ، ومع ذلك أرانى أميل إلى الأخذ بأحقية اليوم الأخير (ولنسمه يوم الحلم) أحقية مانعة . فكلما خيل إلى أن مصدر الحلم كان انطباعا يرجع إلى ما قبل الحلم بيومين أو بثلاثة أيام ، أمكننى بإكثاب النظر أن أقتنع بأن ذلك الانطباع قد تمثل للذاكرة يوم الحلم ، أى أن استحضارا بيِّنا قد وقع فى خلال اليوم الذى يسبق الحلم مباشرة فتوسط بين يوم الحدث ووقت الحلم ، وأمكننى فوق ذلك أن أبين ما هى المناسبة الحديثة التى ربما كانت السبب فى تذكر هذا الانطباع الأقدم . بيد أننى – من جهة أخرى – لم أر ما يقنعنى بوجود أية فترة منتظمة ذات مغزى بيولوجى بين الانطباع النهارى المهيج ورجوعه

(١) [أسلوب بوكلين هو الرومانسية المغرقة ، فالصخور التى أكثر من رسمها صخور تعلوها أليهات البحر وعرائسه فى بحر عاصف متلاطم الأمواج ، صخور " ڤاجنريه " – إن جاز التعبير .]

فى الحلم (وكان سفوبودا قد ذكر أن أول فترة من هذا القبيل تستغرق ثمانى عشرة ساعة[1]). وكذلك أعلن هافلوك إليس الذى أولى أيضا هذه المسألة انتباهه أنه عجز عن أن يعثر فى أحلامه على مثل هذا الاستحضار الدورى المنتظم « رغم البحث عنه » . وهو يروى حلما أى فيه أنه يسافر فى أسبانيا وبغيته مكان يدعى : داراوس أو فاراوس أو زاراوس . فلما استيقظ عجز عن أن يذكر مكانا له مثل هذا الاسم وصرف النظر عن الحلم . ثم ثبت له بعد ذلك بشهور قلائل أن زاراوس حقيقةً اسم لمحطة تقع بين سان سباستيان وبيلباو ، وكان قد مر بها فى القطار قبل تاريخ الحلم بمائتين وخمسين يوما .

---

(١) (١٩١١ :) لقد حاول هرمان سفوبودا – على ماذكرته فى كلمة ألحقتها بالفصل الأول (ص ١٢٥) أن يطبق على مجال الأحداث النفسية بوجه عام فكرة الدورات البيولوجية المؤلفة من ٢٣ و ٢٨ يوما والتى اكتشفها ڤيلهلم فليس (عام ١٩٠٦) . وهو يؤكد بوجه خاص أن هذه الدورات هى التى تحتم انبعاث العناصر التى تظهر فى الحلم . ولو قد ثبتت صحة هذا الرأى ، لما غير ذلك من تفسير الأحلام تغييراً جوهريا ، كل ما هنالك هو أننا نكون اكتشفنا بذلك مصدراً جديدا من مصادر مادة الحلم . ومع هذا قمت حديثا ببحث عدد من أحلامى ؛ بغية التحقق من صدق " نظرية الدورات " عليها ، واخترت من أجل هذا الغرض عناصر حلمية تلفت النظر بنوع خاص ، أمكن التيقن من تاريخ ظهورها ، فى الحياة الواقعة .

١ – حلم ١ – ٢ من أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . فى مكان ما بإيطاليا . ثلاث ابنات يرينني تحفا صغيرة الحجم – كما لو كان ذلك فى دكان آثار . وهن جالسات فى حجرى . أقول بصدد إحدى القطع : لقد أخذتن هذه منى . وبينما أقول ذلك أرى قناعا يمثل جانب وجه " سافونا رولا " بتقاطيعه الحادة .

متى رأيت صورة «سافونا رولا» للمرة الأخيرة؟ تقول مذكرة رحلاتى : إنى كنت بفلورنسا فى الرابع والخامس من شهر سبتمبر . وهناك خطر لى أن أرى رفيقى فى الرحلة الحفر الذى يحمل ملامح ذلك الراهب المتعصب فى [الميدان المسمى Piazza Signoria] ، بالبقعة التى لقى فيها الموت حرقا . وأظن أنى جذبت انتباهه إليه فى صباح اليوم الخامس من شهر سبتمبر . فالفترة المنقضية بين هذا الانطباع وبين تكرره فى الحلم هى يقينا : ٢٧ + ١ يوما – وهى مدة " الدورة الأنثوية " على حسب فليس . [لاحظ الخطأ فى هذه الحسبة . ولقد وضع ستراشى " الثالث من سبتمبر " بدل " الخامس " ونبه إلى أن " الخامس " خطأ مطبعى ورد فى الطبعات الحديثة . ومن شأن تعديله هذا أن يصلح الحسبة ، ولكنه من جهة أخرى لا يستقيم وما ورد من إشارة المذكرة إلى وجود فرويد بمدينة فلورنسا فى الرابع والخامس من سبتمبر] . بيد أننى – لسوء حظ القيمة البرهانية التى لذلك المثال – لا أجد بدا من أن أضيف أنه قد اتفق يوم الحلم نفسه أن زارنى زميل قدير لكنه ذو طلعة متقطبة ، كنت ألقبه منذ سنوات " سيدى الحاخام سافونا رولا " . وقدم لى زميلى مريضا نكبته حادثة نزلت بقطار بونتبا السريع – وهو القطار الذى كنت سافرت فيه منذ أسبوع – فرجع ذلك بذاكرتى إلى رحلتى الأخيرة فى إيطاليا . وهكذا نرى أن ورود ذلك العنصر الذى يلفت النظر " سافونا رولا " فى محتوى الحلم تعلله زيارة زميلى يوم الحلم بينما تفقد فترة الثمانية والعشرين يوما كل مغزاها .

٢ – حلم ١٠ – ١١ من أكتوبر .

أدرس الكيمياء من جديد بمعمل الجامعة . يدعونى الأستاذ ل . إلى مكان ما ويقودنى فى أحد الأروقة ممسكا

وعلى ذلك أعتقد أن لكل حلم حافزا نجده بين تلك الخبرات التى «لم ينقض عليها الليل بعد».

أمامه بمصباح أو بآلة أخرى رفعها بيده المنتصبة وقد امتد رأسه إلى الأمام هيئة خاصة ، ولاح كن ينظر فى نفاذ (؟) (إلى بعيد ؟) . ثم بعد ذلك نصل إلى مكان فضاء . . . (نسيت البقية) .

إن أكبر ما يسترعى الانتباه من محتوى هذا الحلم هو الطريقة التى حمل بها الأستاذ ل. المصباح (أو العدسة) أمامه وقد أنفذ بصره إلى بعيد . ولم أكن رأيت ل . منذ سنوات متعددة ، ولكننى أدرك على الفور أنه إنما كان شخصا بديلا حل محل آخر يعلوه شأنا ، محل أرشميدس . . الذى انتصب تمثاله بالقرب من نافورة أريتوزا ، فى سيرا قوسة ، وقد اتخذ تلك الهيئة عينها : ممسكا مرآته المحرقة بيده ، مادا بصره إلى الجيش الرومانى المحاصر. فمتى رأيت هذا التمثال للمرة الأولى (والأخيرة) ؟ رأيته – على حسب مفكرتى – فى مساء اليوم السابع من سبتمبر ، و بين ذلك اليوم ووقت الحلم قد انقضى حقيقة ١٣ + ١٠ = ٢٣ يوما – وهى " الدورة المذكرة " بحسب فليس .

بيد أن من سوء الحظ أننا لا نتعمق تفسير الحلم حتى نرى هذا الاتفاق أيضاً جزءا يفقد من قوته البرهانية . فقد كانت المناسبة التى حفزت إلى الحلم نبأ سمعته يوم الحلم ، كان مؤداه أن العيادة التى كنت أستضاف للمحاضر بقاعتها قد أوشك نقلها إلى مكان آخر . وقدرت أن المكان الجديد لن يكون إلا بجهة متطرفة جداً وقلت لنفسى : وما الفرق بين ذلك وبين ألا تكون لى قاعة أحاضر فيها على الإطلاق ؟ وكان لزاما أن ترجع بى الذاكرة عند ذلك إلى أيام بدأت حياتى كمحاضر بالجامعة حين كنت حقيقة لا أجد قاعة أحاضر فيها ، وحين لم تكن جهودى من أجل الحصول على قاعة تصادف إلا القليل من ترحيب أساتذة الجامعة وأصحاب كراسيها الذين كان بيدهم السلطان. وأذكر أنى ذهبت إذ ذاك إلى ل . – وكان عميداً وقتئذ وكنت أعده حاميا – لكى أشكو إليه حاجتى . فوعدنى بالعون، ثم لم أسمع منه بعد ذلك شيئا . وهو فى الحلم أرشميدس يعطينى Pou stô [مكانا أقف فيه ، باليونانية] ، ويقودنى بنفسه إلى المحل الجديد . فأما أن رغبة الانتقام والشعور بالعظمة لا يغيبان عن أفكار هذا الحلم – فذلك ما يسهل تخمينه على كل عارف بالتفسير . وإنما الذى أريد أن أقوله هو أن أرشميدس ما كان ليجد طريقه إلى الحلم فى هاته الليلة لولا تلك المناسبة . كما أننى لست واثقاً من أن ذلك الانطباع القوى ، الحديث العهد بعد ، الذى أثاره فى نفسى تمثال سيراقوسة – لم يكن يستطيع أن يحدث كذلك أثره فى نفسى بعد فترة مختلفة من الزمن .

(٣) حلم ٢ – ٣ أكتوبر ١٩١٠ .

(نبذة) . . . شىء عن الأستاذ أوزر الذى وضع بنفسه قائمة الأطعمة التى يجب أن أتناولها ، وهو ما يدخل على نفسى ارتياحا كبيرا (وأشياء أخرى نسيت) .

هذا الحلم استجابة بإزاء اضطراب هضمى جعلنى أفكر فى ضرورة الالتجاء إلى أحد زملائى لكى يقرر نظام التغذية الذى يجب أن أتبعه . وأما كونى قد اخترت لأجل ذلك الغرض الأستاذ أوزر الذى مات فى خلال الصيف فيرجع السبب فيه إلى موت مدرس جامعى آخر كنت أعجب به أشد الإعجاب ، وكان موته قبل الحلم بزمن قليل (فى الأول من أكتوبر) فمتى مات أوزر ؟ ومتى سمعت نعيه ؟ يتضح من الصحف أنه قد مات فى الثانى والعشرين من أغسطس . وكنت فى ذلك الوقت فى هولندا ، وكانت صحف ڤيينا تصل إلى بانتظام ؛ فلا بد أنى قرأت نعيه فى الرابع والعشرين من أغسطس . ولكن هذه الفترة لا تتفق وأى من الدورتين : فهى تعدل ٧ + ٣٠ + ٢ = ٣٩ يوما ، وقد تكون ٤٠ ، ولست أستطيع أن أذكر أنى تحدثت عن أوزر أو فكرت فيه فى هذه الأثناء .

وأمثال هذه الفترات التى لا يمكن التوفيق بينها وبين نظرية الدورات دون مزيد من التفنن فى الحساب – تفوق فى أحلامى كثيرا تلك التى تتفق وهذه النظرية . والعلاقة الوحيدة التى أراها ترد بانتظام هى تلك التى تصل الحلم بانطباع من اليوم السابق ، على ما أكدته فى النص .

ولا تسفر إذن انطباعات الماضى الحديث (باستثناء اليوم الذى يسبق الحلم) عن علاقة بمحتوى الحلم تختلف فى نوعها من تلك التى لغيرها من انطباعات الزمن الماضى بوجه عام أيا كان بعده . فالحلم قادر على أن يختار مادته من أى فترة من فترات الحياة ما دام ثمة خيط فكرى يصل بين خبرة يوم الحلم (أى « أحدث » الانطباعات) وبين سابقاتها .

ولكن لم خُصت أحدث الانطباعات بهذا الإيثار ؟ سوف نصل إلى تكوين رأى فى هذه المسألة إذا أخذنا حلما من الأحلام التى استشهدت بها توا [ص ١٨٧] فحللناه تحليلا أوفى . وعلى ذلك أختار :

حلم المبحث النباتى

كتبت مبحثا خاصا بنبات ما. الكتاب ماثل أمامى وأنا أدير فى تلك اللحظة صفحة مطوية رسمت فيها لوحة ملونة . ربط فى داخل كل نسخة نموذج مجفف من ذلك النبات ، كأنه مأخوذ من معشب [1] .

التحليل

كنت رأيت فى الصباح كتاباً جديداً فى واجهة إحدى المكتبات عنوانه : فصيلة السيكلامين — ومن الواضح أنه كان مبحثا خاصا بذلك النبات .

السيكلامين هو الزهرة المفضلة عند زوجتى. إنى ألوم نفسى على أنى قلما أفكر فى أن آتيها بالأزهار ، مثلما تحب. — وتذكرنى فكرة نسيان الأزهار بقصة سردتها حديثا على جماعة من الأصدقاء لكى أدلل بها على أن النسيان كثيراجدا ما يحمل غرضا لاشعوريا وأنه يمكننا دائما من أن نستنتج ما تنطوى عليه نفس الناسى من نيات مستترة. فقد ألفت امرأة شابة أن تتلقى باقة أزهار من زوجها يوم عيد ميلادها . واتفق فى سنة أنها افتقدت هذه الأمارة على الحب ، فطفقت تبكى بدمع غريز . وفيما هى كذلك أقبل زوجها ، فلم يدر سببا لبكائها حتى أخبرته أن ذلك كان يوم عيد ميلادها . فضرب جبينه بيده

(١) [وهو مجموعة الأعشاب الجفيفة .]

وصاح قائلا : إنى لآسف ، ولكنى نسيت ذلك كل النسيان . وأراد أن يخرج على الفور لكى يبحث لها عن الأزهار . بيد أنها تأبى العزاء لأنها رأت فى نسيان زوجها برهانا على أنها لم تعد تشغل من أفكاره المكان الذى كانت تشغله من قبل . — هذه السيدة ، كانت قد قابلت زوجى منذ يومين ، وأخبرتها أنها فى خير حال ، ثم سألتها عنى — وكنت قد توليت علاجها قبل ذلك بسنوات .

ثم ها هى ذى بقية جديدة : لقد كتبت مرة — حقيقة — شيئا أشبه بمبحث خاص بنبات ما ، وكان على التحديد مقالا عن نبات الكوكة جذب انتباه كارل كوللر إلى خصائص الكوكايين المخدرة [فرويد ١٨٨٤هـ]. لقد أشرت فى بحثى الذى نشرته إلى إمكانية استخدام القلوانى هذا الاستخدام، ولكنى لم أكن من الدقة بحيث أتابع تلك المسألة[1] . وأذكر الآن أن الفكر قد ذهب بى غداة الحلم — ولم أكن وجدت متسعا لتفسيره إلا فى المساء — ذهب بى إلى الكوكايين فيما يشبه أن يكون حلما من أحلام اليقظة . لو أصابتنى الجلوكوما لسافرت إلى برلين وأجريت هناك ، فى منزل صديقى البرلينى [فليس] عملية جراحية على يد طبيب يزكيه صديقى ، دون أن يعلم الطبيب من أنا . وسوف ينوه الطبيب مرة أخرى — وهو لا يدرى على من أجرى عمليته — بمدى السهولة التى صارت تجرى بها هذه العملية منذ إدخال الكوكايين ، ولن أبدى فى خلال ذلك أقل بادرة تنم على أننى قد أخذت فى ذلك الكشف بنصيب . وساقنى هذا التخيل إلى خواطر تدور حول مدى الحرج الذى يستشعره الطبيب — مهما يكن من أمر — حين يسأل زملاءه علاجا لنفسه . ولكن جراح العيون البرلينى لن يعرف من أنا وسيكون فى وسعى أن أنقده أجره مثلما يصنع أى مريض آخر . وألحظ الآن لأول مرة ، بعد أن تذكرت هذا الحلم من أحلام اليقظة ، أنه كان يخفى وراءه ذكرى حدث بعينه : فقد أصابت الجلوكوما والدى ، فكان أن أجرى له صديقى الدكتور كونجشتاين جراح العيون عملية ، وتولى الدكتور كوللر التخدير بالكوكايين ، ولاحظ كوللر بتلك المناسبة أن هذه الحالة قد جمعت الأشخاص الثلاثة الذين أخذوا فى إدخال الكوكايين بنصيب .

وتذهب خواطرى بعد ذلك إلى المرة الأخيرة التى ذُكِّرت فيها بقصة الكوكايين هذه:

(١) [أنظر صفحة ١٤٠ ، هـ ٢ .]

كان ذلك منذ أيام قلائل حين تلقيت نسخة من كتاب تذكارى أصدره بعض التلاميذ العارفين بالجميل احتفالا منهم بيوبيل معلمهم ومدير معملهم . وجاء فى هذا الكتاب – بين ما أحصى من مآثر المعمل – أن اكتشاف الخصائص المخدرة للكوكايين قد تم هناك على يد كوللر . إنى أرى الآن فجاءة أن حلمى كان يتصل بحدث وقع فى المساء : فقد صحبت الدكتور كونجشتاين بالذات إلى منزله ، وأخذت معه فى حديث تناول أمرا يلهبنى ذكره كلما ورد . وبينا كنت أتحدث إليه فى مدخل البيت أقبل الدكتور جارتنر [ومعناه البستانى] ومعه زوجه الشابة ، فلم أملك إلا أن أهنأهما على مظهرهما المزدهر . ولقد كان الاستاذ جارتنر أحد الذين حرروا الكتاب التذكارى الذى أشرت إليه توا ، ومن الجائز – إذن – أن يكون قد ذكرنى به . ثم إن السيدة ل . التى رويت منذ هنيهة كيف خاب أملها يوم عيد ميلادها قد عرض ذكرها أيضاً فى خلال حديثى مع الدكتور كونجشتاين – وإن يكن قد عرض فى سياق مختلف قطعاً .

وأحاول بعد أن أبين كذلك ما هى المحتمات الأخرى لهذا الحلم . لقد ضُمِّن البحث نموذجا مجففاً من النبات ، كأنه معشب . إن المعشب يقودنى إلى ذكرى ترجع إلى أيام المدرسة الثانوية . فقد استدعى ناظر مدرستنا مرة طلبة الفصول العالية وأسلمهم معشب المدرسة لكى يقوموا بمراجعته وتنظيفه ؛ فقد وجدت به بعض الديدان الصغيرة – ديدان كتب . ويبدو أن ناظر المدرسة كان قليل الثقة بقدرتى على المعاونة ، لأنه لم يسلمنى إلا ورقات قليلة . ولا أزال أذكر إلى اليوم أن هذه كانت تتضمن بعض الصليبيات[١] . إن العلاقة بينى وبين علم النبات لم تكن قط بالعلاقة الحميمة . وقد حدث وأنا أؤدى الامتحان التمهيدى فى علم النبات أنى أعطيت أيضاً نباتاً من فصيلة الصليبيات لكى أقول ما هو ، فلم أحر جواباً . ولولا أن معارفى النظرية أسعفتنى ، لآلت الأمور معى مآلا سيئاً . ومن فصيلة الصليبيات أنتقل إلى فصيلة المركبات . والخرشوف يدخل بحق فى عداد هذه ، وهو الذى أستطيع يقينا أن أدعوه زهرتى المفضلة . وكثيراً ما تعود زوجتى من السوق – وهى أكثر كرما منى – حاملة إلى تلك الأزهار التى أوثرها .

أرى المبحث الذى كتبته ماثلا أمامى . هذا أيضاً يذكرنى بشىء . فبالأمس كتب إلى صديقى البصير الذى يسكن برلين [فليس] خطابا جاء فيه : « إن كتابك عن

(١) [أى من فصيلة النباتات الصليبية .]

الأحلام يشغل حيزاً كبيراً جداً من تفكيرى: إنى أراه ماثلا أمامى وأرانى أدير صفحاته . »
لكم غبطته على قدرته هذه كراء ! لو أنى أيضاً استطعت أن أراه ماثلا أمامى كاملا !

اللوحة الملونة المطوية . كنت وأنا أدرس الطب ضحية لدافع لايني يدفعني إلى تعلم الأشياء من طريق الأبحاث المقصورة على موضوع واحد دون غيرها . وكنت على الرغم من ضيق مواردى أتزود بعدد كبير من منشورات الجميعات الطبية كانت تخلبني لوحاتها الملونة . وكنت أستشعر الفخر بهذا النزوع إلى الاستيفاء . فلما بدأت أنشر مقالاتى ، لم يكن بد من أن أرسم لوحاتها بنفسى . وأذكر أن إحداها بلغت من الركاكة مبلغاً حمل زميلا من أهل الخير على أن يسخر منى . وههنا تحضرنى — لا أدرى كيف — إحدى ذكريات الطفولة . فقد عنّ لوالدى مرة أن يعطينى مع كبرى أخواتى كتاباً حوى لوحات ملونة (وكان يصف رحلة فى بلاد فارس) لكى ندمره — وهو أمر لا يسهل تبريره من الوجهة التربوية . وكنت أبلغ من العمر إذ ذاك خمس سنوات ولم تكن أختى بلغت الثلاث . وإن صورتنا ونحن آخذان كلانا — وقد فاض بنا الحبور — فى تمزيق هذا الكتاب (وأرانى أقول : كالخرشوف ، ورقة فورقة) لهى الذكرى الوحيدة التى أذكرها من هذه الفترة من حياتى فى صورة مرئية . فلما صرت طالباً تكون عندى ولع لا يوصف بجمع الكتب وامتلاكها ، أشبه بالنزوع إلى دراسة الأبحاث ذات الموضوع الواحد ، أى هواية مفضلة (وفكرة الهواية المفضلة قد ظهرت من قبل فى صدد السيكلامين والخرشوف) . لقد صرت دودة كتب (أنظر معشب) . وقد كنت منذ أخذت أفكر فى أمر نفسى — أرجع دائماً هذا الغرام الأول فى حياتى إلى ذلك الانطباع الطفلى ، أو قل : إنى عرفت فى هذا المشهد من مشاهد طفولتى « ذكرى ستارية » لصداقتى اللاحقة بالكتب . وقد اكتشفت أيضاً بالطبع منذ تلك السن المبكرة أن غرم المرء كثيراً ما يكون فى غرامه ؛ فقد كان لى وأنا بالسابعة عشر حساب لا يستهان به عند بائع الكتب دون أن تكون لى القدرة على سداده . وكان والدى لا يكاد يقبل الاعتذار بأن نوازعى كان يمكن أن تتجه إلى ما هو شر من ذلك . بيد أن ذكرى تلك الخبرة المتأخرة من خبرات حداثتى ترجع بى دفعة واحدة إلى حديثى مع صديقى الدكتور كونجشتاين : فقد كان مثل ذلك اللوم على إفراطى فى الجرى وراء هواياتى المفضلة أحد الموضوعات التى تناولها الحديث فى تلك الأمسية التى سبقت الحلم .

وإلى هذا الحد أقف بتفسير ذلك الحلم ؛ لأسباب لا محل لذكرها ، وإنما أشير محض إشارة إلى الطريق الذى يسلم إليه . لقد تذكرت وأنا أفسر الحلم محادثتى مع الدكتور كونجشتاين ، وتذكرتها من أكثر من وجهة . وإنى إذ أنظر فى الموضوعات التى دار بها هذا الحديث أرى معنى الحلم يتضح لى . فجميع خيوط الفكر التى تبتدئ من الحلم : الأفكار المتعلقة بأزهار زوجتى المفضلة وأزهارى ، ثم بالكوكايين وبالحرج الذى فى طلب المعالجة بين الزملاء الأطباء ، ثم بإيثارى دراسة الأبحاث المقصورة على موضوع واحد وإغفالى بعض فروع العلم مثل النبات ، كل هذه تسلم فى النهاية — إذا المرء تابعها — إلى فرع من فروع تلك المحادثة المتعددة الشعاب . والحلم ينقلب مرة أخرى إلى تبرير ، إلى دفاع عن حق ، شأن الحلم الذى فسرناه أول ما فسرنا ، حلم حقنة إرما . نعم ، إنه يتابع الموضوع المثار هناك ويناقشه بالإشارة إلى مادة جديدة تجمعت فى الفترة الواقعة بين الحلمين . بل حتى صور الحلم بما اتسمت به من لا مبالاة ظاهرية هى أيضاً لهجة[1] ؛ إنها تعنى : ومع هذا فأنا الرجل الذى كتب تلك المقالة القيمة ذات الأثر عن الكوكايين ، مثلما كنت أقول من قبل : ومع هذا فأنا طالب مجد لا يترك مجالا لعائب . وحاصل القول فى الحالتين هو : ومن حقى إذن أن أستبيح ذلك لنفسى. بيد أنى أكتفى من تفسير الحلم بهذا القدر ؛ فما أردت بروايته سوى أن أصور بمثال علاقة محتوى الحلم بخبرة اليوم السابق التى أثارته : ما دمت لا أعرف من ذلك الحلم سوى محتواه الظاهر لم تتضح لى سوى علاقة واحدة للحلم بانطباع واحد من انطباعات النهار ، فأما بعد أن قمت بالتحليل فيظهر مصدر ثان للحلم فى خبرة أخرى من خبرات ذلك النهار نفسه . فأما أول هذين الانطباعين اللذين تعلق بهما الحلم فانطباع يستوى شأنه عندى ، إنه ملابسة ثانوية : أرى فى إحدى العارضات كتاباً يجذب عنوانه انتباهى لحظة ، ولا يكاد محتواه أن يثير منى أقل اهتمام . فأما الخبرة الثانية فذات قيمة نفسية عالية ؛ فقد تحدثت ساعة تامة إلى صديقى طبيب العيون حديثاً مشبوباً ، لمحت فى خلاله تلميحات كان من شأنها أن تصيب كلينا من قريب ، واستثيرت ذكريات جعلتنى أنتبه إلى ما انطوت عليه دخيلتى من تهييجات ذات صنوف شتى . أضف إلى ذلك أن

---

(١) [Akzent — ونقول " لهجة " بالمعنى الذى تكون لهذه الكلمة من خلال استخدامها العامى على الأقل وهو معنى تعبير الصوت عند الكلام ، كما فى قولنا " لهجة التوسل " أو " لهجة التحدى " مثلا . والمراد بالطبع هو : حتى صورة الحلم لا تخلو من المعنى كما لا تخلو منه " لهجة " الكلام .]

المحادثة قد انقطع حبلها قبل تمامها إذ أقبل علينا بعض معارفنا . فما علاقة هذين الانطباعين النهاريين كلا بالآخر ثم بحلم الليلة التالية ؟

فأما محتوى الحلم [الظاهر] فلا أرى فيه سوى إشارة إلى الانطباع المجرد من القيمة الخاصة ، وبذا أستطيع أن أؤيد قول القائلين : إن الحلم يؤثر أن يلتقط من الحياة الواقعة ما هو ثانوى لكى يدرجه فى محتواه . وأما تفسير الحلم فكل شىء فيه يقود على العكس إلى الخبرة الهامة التى أهاجتنى بحق . فلو حكمت على معنى الحلم على النحو الوحيد الصحيح ، أى بحسب محتواه الكامن الذى أخرجه التحليل إلى الضوء ، رأيت أنى قد انتهيت على غير توقع إلى كشف جديد ذى خطر . فأنا أرى اللغز المتضمن فى قولنا : إن الحلم إنما يشغل بأشتات معدومة القيمة فى حياة النهار - أراه يتبدد . ولست أجد كذلك بدا من مناقضة القضية القائلة بأن الحياة النفسية التى نعرفها فى اليقظة لا تُواصل فى الحلم وأن الحلم — تبعاً لذلك — إنما هو نشاط نفسى ينفق فى الصغائر : إن الضد هو الصحيح ؛ فما يشغلنا فى النهار يسيطر أيضاً على أفكار الحلم ، وما نكلف أنفسنا عناء الحلم إلا بتلك الأمور التى كانت فى النهار داعية إلى التروى .

إن أقرب تعليل لكونى أحلم بالانطباع المجرد من القيمة ، فى حين أن ما حملنى على الحلم كان الانطباع الذى هاجنى بحق ، هو من غير شك أننا نواجه هنا مرة أخرى ظاهرة من ظواهر التشويه الحلمى الذى أرجعناه فيما سبق إلى قوة تعمل عمل الرقابة . وفى هذه الحالة تكون ذكرى البحث الخاص بفصيلة السيكلامين قد استخدمت من أجل الإشارة إلى حديثى مع صديقى ، مثلما نابت إشارة « السالمون المدخن » فى حلم العشاء المعاق [ص ١٧٢] عن ذكر الصديقة . وسؤالنا الوحيد هو عن الحلقات الوسطى التى مكنت انطباع ذلك البحث من أن يعمل كإشارة إلى حديثى مع طبيب العيون ؛ فما ثمت من صلة واضحة للوهلة الأولى بين الطرفين . ففى مثال العشاء المعاق كانت الصلة قائمة مقدماً : « فالسالمون المدخن » — وهو طبق الصديقة المفضل — كان يدخل من غير تكلف ضمن طائفة الأفكار التى كان يحتمل أن تثيرها شخصية الصديقة فى نفس الحالمة . وأما فى مثالنا الجديد فكل ما هنالك انطباعان منفصلان لا يبدو بينهما للوهلة الأولى جامع مشترك سوى وقوعهما فى ذات اليوم : في الصباح يلفت البحث الخاص بفصيلة السيكلامين ناظرى ، ثم فى المساء أتحدث إلى صديقى . إن الجواب الذى يضعه

التحليل بين يدينا هو هذا : إن أمثال هذه العلاقات التى لا توجد من قبل بين انطباعين من الانطباعات تنسج من بعد بين المحتوى الفكرى الذى لأحد هذين الانطباعين وذلك الذى لآخرهما . ولقد جذبت الانتباه من قبل إلى الحلقات الوسطى فى مثالنا هذا بالكلمات التى أبرزتها عند رواية التحليل . فلولا التأثير الذى جاء من جهة أخرى ما أدت فكرة البحث الخاص بفصيلة السيكلامين — فى الأغلب — إلا إلى فكرة أن تلك هى الزهرة التى تؤثرها زوجتى ، وربما ساقت أيضاً إلى باقة السيدة المفتقدة . ولست أعتقد أن تلك الأفكار المستترة كانت تكفى عندئذ فى أن تستثير حلماً ؛ فكما يجىء فى « هاملت » :

« ولا حاجة بنا ، يا سيدى ، إلى شبح يخرج من قبره
لكى يأتينا بهذا الخبر [١] . »

ولكن انظر ! لقد تذكرت فى خلال التحليل أن الرجل الذى قطع حبل حديثنا كان يدعى جارتنر [البستانى] وأن زوجه لاحت لى مزدهرة ، بل إنى لأذكر الآن وأنا أكتب هذه الكلمات أن الحديث بيننا قد دار برهة حول مريضة من مريضاتى كانت تحمل ذلك الاسم الجميل : فلورا [أزهار] . فلا بد أن الذى حدث هو أن تلك الحلقات الوسطى المنبعثة من دائرة الأفكار النباتية قد وصلت ما بين خبرتى اليوم : المجردة من القيمة والمثيرة . ثم استتبت بعد ذلك روابط أخرى ، وأعنى بها تلك التى كانت تصحب فكرة الكوكايين — وهى فكرة كانت تملك الحق كل الحق فى أن تتوسط بين شخص الدكتور كونجشتاين وبين بحث نباتى كنت قد كتبته — فكان أن وثقت هذه الروابط اندماج كلتا الدائرتين الفكرتين ، بحيث صار من الممكن أن يستخدم جزء من الخبرة الأولى فى الإشارة إلى الثانية .

إنى أتوقع أن يرد البعض هذا التعليل لكونه يجىء اعتباطاً أو لأنه مفتعل : فماذا ترى كان يحدث لو أن الأستاذ جارتنر وزوجه المزدهرة لم يقبلا ، أو لو أن المريضة التى جرى الحديث بذكرها لم تكن تدعى فلورا بل آنا ؟ والجواب مع ذلك هين : فلو قد غابت تلك الروابط الفكرية لاتجه الاختيار من غير شك إلى غيرها . وما أسهل إنشاء أمثال هذه الروابط ! كما يتضح من التوريات والنكات التى يبتدعها الناس كل يوم لكى يلهوا بها : إن سلطان النكتة لا يعرف حدوداً . ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه لو قد تعذر إنشاء روابط كافية بين انطباعى النهار لما خرج الأمر عن

---

(١) [الفصل الأول ، المشهد الخامس ، السطر ١٢٥ — بالإنجليزية فى الأصل .]

أن يجيء الحلم مختلفاً ؛ كان يجيء انطباع آخر مجرد من القيمة – من قبيل ما يعرض لنا زرافات ثم لا نلبث أن ننساه – فيقوم بالنسبة إلى الحلم مقام « المبحث الخاص » ، فيرتبط بمضمون المحادثة وينوب عنها فى محتوي الحلم . ولما كان هذا المبحث دون غيره هو الذى قد خص بهذا القدر ، فمعنى ذلك أنه كان من غير شك أنسب الانطباعات لهذا الارتباط . ولسنا بحاجة إلى أن نتعجب مع هانشن سلاو – فى [إحدى لُـمَع] لسّنج [المنظومة] – من « أن أغنياء الدنيا وحدهم هم الذين يملكون معظم المال » .

بيد أن العملية النفسية التى بوساطتها تحل الخبرة المجردة من القيمة محل الخبرة ذات القيمة النفسية – على حسب كلامنا – لا يمكن إلا أن تبدو لنا مع ذلك مثار شك وحيرة وسوف نعمل فى فصل قادم [الفصل السادس، قسم ب، ص٣١٧ وما يليها] على تقريب خصائص تلك العملية اللامعقولة مظهراً من أفهامنا. وأما فى هذا الموضع فلسنا نشغل إلا بنتيجة تلك العملية التى تدفعنا إلى التسليم بها خبرات لا تحصى ، مطردة الوقوع ، فى تحليل الحلم . بيد أننا نقول الآن : إن العملية تبدو كأن نقلة –أنقول : فى النبرة[١] النفسية ؟ – تقع على طول الطريق المؤلف من هاته الحلقات الوسطى ، إلى أن تكتسب الأفكار ذات الشدة الضعيفة أصلا شحنة الأفكار التى كانت مستثمرة فى الأصل استثمارا شديداً ، وبذلك تتمكن من شق طريقها إلى الشعور[٢]. وأمثال هذه النقلات لا تثير عجبنا على الإطلاق حين يتعلق الأمر بكميات وجدانية أو بوجوه النشاط الحركى عامة : فأن تتحول عانس وحيدة بحبها إلى الحيوانات ، أو أن يصبح الأعزب من المغرمين بجمع الأشياء، أو أن يذود الجندى بمهجته عن خرقة ملونة ، علمه ، أو أن تطول ضغطة اليد لحظة فتفيض بالعاشق النشوة ، أو أن يفقد منديل فى « عطيل » فيطلق فقده غضباً عارماً ، كل أولئك أمثلة على النقل لا نجادل فيها . ولكن أن يتقرر أمر ما يدخل الشعور وما يقبض عنه – أى ما نفكر فيه وما لا نفكر فيه – أن يتقرر ذلك على هذا النحو عينه

---

(١) [Akzent – ويعنى أيضاً رفع الصوت أو خفضه عند النطق بالمقاطع أو العلامات الدالة على ذلك ، من وترجمناه بالنبرة من " نبر " أى رفع صوته بعد انخفاض . ويستخدم هنا كناية عن الشدة أو الأهمية النفسية من حيث أن الصوت يرتفع فى المقاطع التى يراد إبراز أهميتها .]

(٢) [سوف يرى القارئ كيف يحاول فرويد فى الفصل السابع أن يبنى نظرية فى الحياة النفسية تقوم على فكرة " الطاقة " . ومن شأن فكرة الطاقة أن تجر إلى فكرة الاستثمار أى صرف هذه الطاقة واستخدامها فى الأوجه المختلفة . والأفكار المستثمرة استثمارا شديدا هى إذن تلك التى وضعت أو صرفت فيها كميات كبيرة من الطاقة النفسية ، أو المصحوبة بشحنات نفسية كبيرة .]

ووفاقاً لتلك المبادئ الأساسية ذاتها — ذلك ما يلوح لنا حدثاً مرضيا ، ونسميه خطأ فى التفكير حيثما وقع فى حياة اليقظة . وأستبق الأمور هنا بذكر نتيجة سوف نخلص إليها فيما بعد ، فأقول : إن العملية النفسية التى شاهدناها فى النقل الحلمى لا يمكن أن تعد اضطراباً مرضياً ، بيد أنها تختلف مع ذلك من العمليات السوية ، ومن الواجب أن نعتبرها عملية ذات طبيعة أكثر أولية [أنظر الفصل السابع ، القسم هـ .]

ونحن — إذن — نفسر كون محتوى الحلم يلتقط آثار الخبرات الثانوية بأنه مظهر من مظاهر التشويه الحلمى (تشويه بالنقل) ، ونذكر فى هذا الصدد أننا قد عرفنا فى تشويه الحلم أثراً من آثار الرقابة التى تعمل عملها فى منتصف الطريق بين نظامين نفسيين [ص١٦٨] ولهذا نتوقع أن يكشف لنا تحليل الحلم بانتظام عن مصدر حياة النهار الحقيقى ، ذى القيمة النفسية — ذلك المصدر الذى نقلت النبرة من ذكراه إلى الذكرى المجردة من الوزن . ونحن إذ نتصور الأمور على هذا النحو نرانا نعارض نظرية روبرت [ص١١١] التى تفقد عندئذ كل جدوى بالنسبة إلينا تمام المعارضة . فالواقعة التى توخى روبرت تعليلها واقعة لا وجود لها ، وتسليمه بها يرجع إلى فهم خاطئ ، إلى إخفاق روبرت فى أن يستبدل بالمحتوى الظاهر للحلم معناه الحقيقى . واعتراض آخر يمكننا توجيهه إلى نظرية روبرت : فلو كانت مهمة الحلم الحقيقية هى أن يخلص ذاكرتنا بفعل نفسى خاص من « حثالة » ذكريات النهار ، للزم من ذلك أن يكون النوم أكثر عذاباً وأبلغ مشقة من الحياة النفسية المستيقظة ؛ فمن الواضح أن عدد الذكريات المجردة من القيمة التى كان ينبغى عندئذ حماية الذاكرة منها يفوق الحصر : إن الليل بأكمله ما كان ليكفى الفراغ من مثل هذا الحشد . والأرجح من ذلك كثيراً هو أن نسيان الانطباعات المجردة من الوزن يتم من نفسه دون أن تتدخل قوانا النفسية فى ذلك تدخلا فعالا .

بيد أننا نشعر مع ذلك بما يحذرنا من أن ننصرف عن أفكار روبرت دون مزيد اعتبار ؛ فما فسرنا بعد تلك الواقعة ، وأعنى بها : أن انطباعاً لا منزلة له من انطباعات اليوم — اليوم الأخير على التحديد — يشارك دائماً فى محتوى الحلم . فإن العلاقة بين هذا الانطباع وبين مصدره الحقيقى فى اللاشعور لا تقوم منذ البدأ ، بل هى — كما رأينا — قد لا تنسج إلا من بعد فى خلال عمل الحلم[1] ، كأنها قد سخرت تسخيراً لتحقيق

---

(١) [تلك هى المرة الأولى التى يذكر فيها فرويد تلك الفكرة الجوهرية التى يخصص لها الفصل السادس من هذا الكتاب — وهو أطول فصوله وأهمها جميعاً .]

النقل المستهدف . وعلى ذلك فلا بد أن ثمت قوة قاهرة تدفع إلى إنشاء روابط فى اتجاه الانطباع الحديث ، المجرد مع ذلك من القيمة ، دون غيره . ولا بد أن هذا الانطباع قد خص بكيف يجعله يصلح لهذا الغرض صلاحية خاصة . فلولا هذا لكان من السهل كذلك أن تنقل أفكار الحلم شدتها إلى عنصر غير هام مما يدخل فى دائرة معانيها هى .

إن الملاحظات الآتية قد تعيننا على توضيح هذه المسألة : إذا حمل النهار فى طياته خبرتين جديرتين بأن تستثيرا حلماً — أو أكثر من خبرتين — أدمج الحلم ذكر كليهما فى كل واحد : إنه يخضع لدافع قهرى يدفعه إلى أن يؤلف منهما وحدة . وها هو ذا مثال على ذلك : دخلت فى عصر يوم من أيام الصيف عربة قطار فوجدت بها رجلين أعرفهما دون أن يعرف أحدهما الآخر . وكان أحدهما زميلا كبير النفوذ وكان الآخر وجيها من عائلة معروفة كانت تطلب مشورتى الطبية . فعرفت كلا منهما بالآخر ، بيد أنهما ظلا طيلة الرحلة يتبادلان الحديث من خلالى ، بحيث كان على أن أتحدث فى مختلف الموضوعات مع أحدهما طوراً ثم مع الآخر طوراً آخر . ورجوت من زميلى أن يزكى شاباً يعرفه كلانا ، كان قد بدأ يزاول مهنته كطبيب فى ذلك الحين . فأجاب الزميل بأنه واثق أكبر الثقة من كفاءة هذا الشاب ، بيد أنه يعتقد أن مظهره المتواضع لن يجعل نجاحه وسط العائلات الكبيرة أمراً سهلا . فأجبته : « وهذا عينه هو الذى يجعله محتاجاً إلى توصية » . ثم استدرت بعد ذلك إلى رفيقى الآخر فى السفر أستفسره عن صحة عمته — وهى أم إحدى مريضاتى ، وكانت تلزم الفراش إذ ذاك لمرض خطير ألم بها . وفى الليلة التى جاءت فى أعقاب تلك الرحلة ، رأيت فى الحلم صديقى الشاب الذى رجوت تزكيته واقفاً فى قاعة أنيقة جمعت كل من أعرف من الأكابر والأغنياء ، وهو يلقى عليهم — ولا شىء ينقصه من مسحة رجل المجتمعات — خطاباً فى رثاء السيدة العجوز (التى اعتبر الحلم موتها شيئاً واقعاً) عمة رفيقى الثانى فى السفر . (وأعترف بأن العلاقة بينى وبين هذه السيدة لم تكن على ما يرام . (وهكذا عرف الحلم مرة أخرى كيف يقيم الروابط بين انطباعى النهار وكيف يؤلف منهما موقفاً واحداً .

ولست أرى بدا من أن أقرر — استناداً إلى خبرات كثيرة من هذا القبيل — أن عمل الحلم يخضع لنوع من القسر يدفعه إلى أن يؤلف من جميع المصادر التى تزود الحلم

بمنبهاته وحدة واحدة فى الحلم . [١]

وأنظر الآن فى تلك المسألة : أمن الحتم فى كل مرة أن يكون المصدر الحافز إلى الحلم والذى يقود إليه التحليل حدثاً قريب العهد (وذا أهمية) ، أم أن من الممكن أن تقوم بعمل الحافز إلى الحلم خبرة باطنة ، وأعنى بذلك تذكر حدث ذى أهمية نفسية ، أى تفكيرا فيه ؟ إن الجواب الذى نخلص إليه من عدد كبير من التحليلات يؤيد الاحتمال الثانى أقطع التأييد . فالحافز إلى الحلم قد يكون عملية باطنة ، اكتسبت حداثة العهد — إن جاز التعبير — لأن الفكر قد اتجه إليها فى خلال النهار . ولقد حان الوقت لكى نجمل الشرائط التى نرى خضوع مصادر الحلم لها .

إن مصدر الحلم قد يكون :

أ) خبرة حديثة ذات أهمية نفسية تُمثَّل فى الحلم تمثيلا مباشراً [٢] ، أو

ب) عدة من الخبرات الحديثة الهامة يدمجها الحلم فى وحدة [٣] ، أو

جـ) خبرة أو أكثر من الخبرات الحديثة الهامة تمثل فى محتوى الحلم بذكر خبرة أخرى معاصرة لها لكنها خالية من القيمة [٤] ، أو

د) خبرة باطنة ذات أهمية (ذكرى من الذكريات أو خيطا فكريا) تمثل باطراد فى الحلم بذكر انطباع حديث لكنه مجرد من الوزن [٥] .

ومن هذا نرى أن تفسير الأحلام يحقق ذلك الشرط فى جميع الحالات : أن يكون أحد مقومات محتوى الحلم تكراراً لانطباع حديث من اليوم السابق . وهذا الانطباع الذى

---

(١) إن نزوع عمل الحلم إلى أن يدمج فى موقف واحد جميع الأحداث ذات الشأن والتى تقع فى وقت واحد ، ظاهرة لاحظها مؤلفون عديدون من قبل، مثل دولاچ (١٨٩١ ، ٤١) ودلبوف الذى يتحدث فى هذا الصدد عما يسميه "rapprochement forcé" [التقريب القهرى] (ص ٢٣٧) . [هذا وقد كانت تلك الفقرة تنتهى بالجملة الآتية التى أضيفت فى طبعة ١٩٠٩ ثم حذفت من جديد بعد سنة ١٩٢٢ : " وسوف نصادف فى فصل قادم (عن عمل الحلم) هذا الدافع القاهر إلى الإدماج من حيث هو حالة من حالات تكثيف الحلم . — وهو نوع آخر من العمليات الأولية . "]

(٢) كما فى حلم حقنة إرما وحلم عمى ذى اللحية الصفراء .

(٣) كما فى حلم خطبة الرثاء التى يلقيها الطبيب الشاب .

(٤) كما فى حلم المبحث النباتى .

(٥) معظم أحلام مرضاى فى خلال العلاج تنتمى إلى هذا النوع .

يتحتم تمثيله فى الحلم إما أن يكون داخلا فى دائرة الأفكار التى ينتمى إليها الحافز الحقيقى إلى الحلم – سواء كجزء جوهرى منها أم كجزء غير هام – وإما أن يكون قد أخذ من مجال انطباع لا قيمة له ربطت بينه وبين الأفكار المحيطة بالحافز إلى الحلم حلقات يزيد عددها أو ينقص . والكثرة الظاهرة فى هذه الشروط إنما تتوقف فى الحقيقة على هذين الاحتمالين : أن يحدث النقل أو ألا يحدث ، وحرى بنا أن نلحظ كيف يمكننا هذان الاحتمالان من تعليل كل درجات التباين بين مختلف الأحلام ، بمثل السهولة التى كان كان يتيحها للنظرية الطبية فرض الخلايا المخية المتدرجة من اليقظة الجزئية حتى اليقظة التامة (أنظر ص ١٠٩) .

ونلاحظ بعد ذلك فيما يتصل بهذه الحالات الأربع الممكنة أن عنصراً حديثاً لكنه خال من القيمة قد يستبدل من أجل تكوين الحلم بعنصر نفسى ذى قيمة لكنه غير حديث (سلسلة الأفكار أو الذكرى) وذلك على أن يتوافر الشرطان الآتيان : (أ) أن يكون محتوى الحلم على رباط يربطه بخبره حديثه العهد، (ب) أن يظل الحافز إلى الحلم عملية نفسية ذات قيمة . ولا يجتمع هذان الشرطان فى ذات الانطباع إلا فى حالة واحده ، هى (أ) . فإذا لاحظنا – فوق ذلك – أن الانطباعات المجردة من المنزلة والتى يمكن استخدامها فى تكوين الحلم طالما ظلت على حداثتها – تفقد هذه الصلاحية إذا ما انقضى عليها يوم واحد (أو بضعة أيام على الأكثر) ، لم يكن بد من أن نخلص إلى أن حداثة الانطباع فى ذاتها تخلع عليه نوعاً من القيمة النفسية تعدل بوجه من الوجوه القيمة التى للذكريات أو للسلسلات الفكرية ذات النبرة الوجدانية . وأما الأساس الذى تنهض عليه هذه القيمة التى تملكها الانطباعات الحديثة فيما يتصل بتكوين الحلم فلن يتضح لنا إلا فى سياق مناقشاتنا السيكولوجية التالية(١) .

هذا ولقد يتجه اهتمامنا بهذه المناسبة إلى تلك الظاهرة ، وهى : أن مادتنا الذكروية والفكرية قد تصيبها تغييرات تقع فى خلال الليل دون أن يلحظها الشعور . فمن البين أن النصيحة التى تسدى إلينا بإسلام أنفسنا للنوم ليلة قبل أن نتخذ قراراً أخيراً فى صدد أمر ما هى نصيحة لها ما يبررها . ولكننا ننتقل هنا من سيكولوجية الاحلام إلى سيكولوجية

(١) أنظر ما ورد عن " التحويل " فى الفصل السابع [ص٥٥١ وما بعدها .]

النوم ، ولن تكون هذه هي المناسبة الأخيرة التي نغرى فيها بهذا الانتقال [١] .

غير أن ثمت اعتراضاً يهدد بدفع نتائجنا الأخيرة . ذلك أنه إذا كانت الانطباعات المجردة من المنزلة لا تشق طريقها إلى الحلم إلا ما دامت على حداثتها ، فكيف يتفق أن يشتمل محتوى الأحلام كذلك على عناصر مستمدة من فترة سابقة من فترات الحياة ، لم تكن لها — على حسب كلمات شترومبل — أية قيمة نفسية حتى فى إبان حداثة عهدها ، وكان الواجب — من ثم — أن يعف عليها النسيان منذ زمن بعيد ، أى عناصر لا هى بالطازجة ولا هى بذات أهمية نفسية ؟

إن فى إمكاننا أن نفرغ من هذا الاعتراض فروغا تاماً إذا استعنا بمكتشفات التحليل النفسى للعصابيين . والحل الذى تلقاه المشكلة عندئذ هو هذا : إن النقل الذى يبدل بالمادة ذات الأهمية السيكولوجية مادة أخرى لا قيمة لها (فى الحلم كما فى التفكير على السواء) قد وقع فعلا فى تلك الحالات فى هاته الفترة السابقة من فترات الحياة ، ثم نبت من بعد ذلك فى الذاكرة . فالانطباعات التى كانت مجردة من القيمة فى مبدأ الأمر لم تعد كذلك منذ أن اكتسبت بوساطة النقل قيمة المادة ذات الأهمية النفسية . وما بقى بغير أهمية حقيقية لا يمكن استحضاره فى الحلم بعد ذلك أبداً .

ومن المناقشات المتقدمة يستخلص القارئ بحق أننى أذهب إلى أنه لا وجود لحافز مجرد من القيمة ولا وجود — من ثم — لأحلام بريئة . وذلك هو ما أعنيه بكل صراحة ومن غير قيد — هذا إذا تركنا جانبا أحلام الأطفال وربما بعض الاستجابات الحلمية

---

(١) لقد قام پوتسل بعمل هام فى تبيان النصيب الذى يرجع إلى الانطباعات الحديثة العهد فى تكوين الحلم ، وذلك فى مقال ثرى فى متضمناته (١٩١٧) . فقد قام پوتسل بتجارب كان يطلب فيها إلى عدد من الأشخاص أن يرسموا ما قد لاحظوه ملاحظة شعورية من صورة تعرض على أبصارهم بوساطة التاخيستوسكوب [جهاز يستخدم لعرض الصورة فى فترة وجيزة جداً من الزمن] . ثم يعد ذلك كان يتجه باهتمامه إلى أحلامهم التى يحلمون بها فى خلال الليلة التالية ويطلب منهم مرة أخرى أن يقوموا برسم أجزاء مناسبة منها . وحينئذ كان يتبين بما لا يقبل الشك أن التفاصيل التى لم يلاحظها هؤلاء الأشخاص ملاحظة شعورية من الصور المعروضة عليهم هى التى كانت توفر مادة أحلامهم على التحقيق ، على حين لم تكن تتكرر فى المحتوى الظاهر للحلم تلك التفاصيل التى أدركت إدراكاً شعورياً وسجلت بالرسم بعد أن عرضت الصورة . وكانت المادة التى يقتبسها عمل الحلم تعدل بوساطته على طريقته " التحكمية " المألوفة (أو ، على الأصح ، " الأوتوقراطية ") تعديلا يسخرها لأغراض تكوين الحلم . وإن المشكلات التى تثيرها تجارب پوتسل لتعدو كثيراً نطاق تفسير الحلم كما نعالجه فى هذا الكتاب . ومع هذا ينبغى علينا أن نشير بكلمة عابرة إلى مدى الفرق بين هذا المنهج الجديد فى دراسة تكوين الأحلام بالتجريب وبين الطريقة القديمة الفجة التى كانت تتلخص فى أن تدخل على محتوى الحلم منبهات مزعجة للنوم .

القصيرة إلى أحاسيس يستشعرها المرء فى خلال الليل . وأما فيما خلا ذلك فما نحلم به إما أن يكون ذا قيمة نفسية سافرة، وإما أنه قد شوه فلا نعود نملك الحكم عليه حتى نفسره ، وحينئذ يكتشف مرة أخرى أنه ذو قيمة . فالحلم لا يشغل أبداً بالتوافه ، ولسنا ندع نومنا تزعجه الصغائر [1]. والأحلام البريئة مظهرا لا يلبث أن يتبين مكرها إذا تجشم المرء عناء تحليلها . وإذا جاز لى أن ألجأ إلى هذا التعبير الجارى ، قلت : إنها ترينا « تحت التبن ماء ». ولما كانت هذه مسألة أتوقع المناقضة فى صددها، وكنت أرحب بكل فرصة تتيح لى أن أفضح تشويه الحلم وهو يعمل عمله — فقد انتخبت من مجموعتى عدداً من « الأحلام البريئة » لكى أقوم بتحليلها .

١

روت شابة ذكية ، مثقفة ، لكنها من أولئك الذين يسود التحفظ مسلكهم ، الذين يشبهون بـ « الماء الساكن » [2] — روت ما يلى : حلمت أننى وصلت إلى السوق بعد فوات الوقت ، فلم أستطع أن أخرج بشىء ، لا من الجزار ولا من بائعة الخضر . حلم برئ من غير شك ، لكن الأحلام لا تكون بهذه البساطة ، فأسألها أن تزيده تفصيلا ، فتدلى إلى بالرواية الآتية تذهب إلى السوق ومعها طاهيها وهو يحمل السلة . تسأل الجزار شيئاً ما ، فيقول لها : « لم يعد نيل ذلك فى الإمكان» ويعرض عليها شيئاً آخر بدله قائلا : « هذا أيضاً لا بأس به . » تعرض عنه وتذهب إلى بائعة الخضر ، وتريد هذه أن تبيعها نوعاً غريباً من الخضر ربط حزما ، لكنه كان أسود اللون . تقول الحالمة : «لا أعرف ذلك ، لا آخذه . »

إن الحلم صريح الصلة باليوم السابق . فهى — حقيقة — قد ذهبت متأخرة إلى السوق،

---

(١) يقول هافلوك إليس — وهو من أرفق نقاد " تفسير الأحلام " — : " وهذا هو الموضع الذى لايستطيع الكثيرون منا أن يتابعوا فرويد بعده . " (١٩١١ ، ١٦٩) . بيد أن هافلوك إليس لم يقم قط بتحليل أى حلم من الأحلام ، وهو لا يريد أن يصدق كيف يكون من الجور أن يقيم المرء حكمه على محتوى الحلم الظاهر .

(٢) [وهم الذين لا يظهرون شيئاً مما بهم ، وبهم مع ذلك الشىء الكثير ، كالماء الساكن لا تظهر حركة على سطحه وهو مع ذلك بعيد الغور .]

فخرجت منه خالية الوفاض : كان دكان الجزار مغلقاً — هذا هو ما يتبادر إلى الذهن كوصف لما حدث . ولكن مهلا ! أليس ذلك — أو على الأصح ضده — تعبيراً سوقيا يشير إلى نوع بعينه من الإهمال قد يأتيه الرجل فى ملبسه ؟[1] أيا كان الأمر فإن الحالمة لم تستخدم هذه العبارة ، ولعلها تجنبت استخدامها . فلنعمل — إذن — على أن نفسر تفاصيل هذا الحلم .

إن كل ما يحمل فى الحلم صفة الكلام الصريح ، أى كل ما يقال أو يسمع ولا يقف الأمر عند مجرد التفكير فيه (والتفرقة ممكنة فى معظم الأحيان عن يقين) فهو مستمد من كلام قيل فعلا فى الحياة المستيقظة — وإن كان من المفروغ منه أن هذا الكلام إنما يعالج معالجة المادة الخام ، فيقتطع ، ويعدل بعض التعديل ، وينتزع من محيطه بنوع أخص[2] . ولنا حين نفسر حلما أن نبدأ بأمثال هذه العبارات المنطوقة ؛ فما هو — إذن — مصدر كلمة الجزار : إن نيل ذلك لم يعد فى الإمكان ؟ أنا المصدر ؛ فقد ذكرت لها منذ أيام قلائل أن أقدم خبرات الطفولة لم يعد فى الإمكان نيلها من حيث هى كذلك ، بل تحل محلها فى التحليل « التحويلات » والأحلام . وهكذا أكون أنا الجزار ، وهى ترفض هذا التحويل إلى الحاضر للأساليب القديمة فى التفكير والإحساس . وما مصدر قولها فى الحلم : لا أعرف ذلك ، لا آخذه ؟ ذلك ما يقتضى التحليل تجزئته . إن « لا أعرف ذلك » كلام قالته هى فى اليوم السابق لطاهيها إذ احتدم النقاش بينه وبينها . بيد أنها قد أردفت إذ ذاك قائلة : الزم حدودك ! ومن البين أن نقلا قد وقع فى هذا الموضع ؛ فهى لم تدرج فى حلمها من الجملتين اللتين وجهتهما إلى طباخها سوى الجملة التى لا خطر منها ، لكن الجملة المقموعة وحدها : « الزم حدودك » هى التى تتلاءم وبقية محتوى الحلم ، إنها الجملة التى يجوز توجيهها إلى رجل خرج عن اللياقة ونسى « دكان جزارته مفتوحاً » . وأما أننا قد وفقنا حقيقة إلى الأثر الصحيح بتفسيرنا هذا فذاك ما يثبت بعدئذ من التجاوب بين هذا التفسير وبين التلميحات

(١) [" دكان الجزار مفتوح " تعبير دارج فى ڤيينا معناه : " أزرار البنطلون مفكوكة . "]

(٢) انظر ماسوف يجىء بصدد الكلام فى الأحلام فى الفصل الخاص بعمل الحلم [القسم و ص٤١٩ ومابعدها.] وليس هناك سوى كاتب واحد يبدو أنه عرف مصدر العبارات المنطوقة فى الحلم ، وأعنى به دلبوف الذى يشبه هذه العبارات بال clichés .

الكامنة وراء قصة بائعة الخضر . فصنف الخضر الذى يباع فى حزم (وحزَم مستطيلة ، كما أضافت الحالمة من بعد ، وهو إلى ذلك أسود اللون — هذا الصنف ما عساه أن يكون إلا مزيجاً حلمياً من الهليون والفجل الأسود ؟ وأما الهليون فلا أظننى بحاجة إلى تفسيره لعارف أو عارفة[1]. وأما الصنف الآخر من الخضر — وانظر كيف يتحول [اسمه: schawrzer Rettig ، أى الفجل الأسود] إلى تلك الصيحة : Schwarzer,rett'dich [اهرب ، يا أسود !] [2]— فيهيأ إلى أنه يشير كذلك إلى ذات الناحية الجنسية التى خمناها منذ البدأ حين استشعرنا الميل إلى أن ندرج فى رواية الحلم جماة : كان دكان الجزار مغلقاً . ولسنا بحاجة إلى أن نعرف معنى هذا الحلم معرفة كاملة ؛ فالشىء الثابت هو هذا : أن للحلم معنى ومعنى بعيداً عن البراءة[3].

٢

وها هوذا حلم آخر برىء لهذهالمريضة ، وهو بمعنى ما بمثابة الكفة الأخرى للميزان بالنسبة إلى الحلم الأول : يسألها زوجها : ألا ينبغى علينا أن نضبط أصوات هذا المعزف فتجيبه قائلة : إن الأمر لا يستحق العناء ، فالمطارق محتاجة إلى أن تركب مع الأوتار الصحيحة على أية حال .

هذا أيضاً تكرار لحدث حقيقى من أحداث اليوم السابق ؛ فقد سألها زوجها هذا السؤال وأجابته بمثل هذا الجواب. فما معنى حلمها به ؟ . إنها تقول عن المعزف : إنه قفص يبعث على الاشمئزاز ، منكر الصوت ، شىء كان يملكه زوجها

(١) [« نبات ذو قضبان رخصة بها لبن » — عن « أقرب الموارد » .]

(٢) [لاحظ الجناس . وأما كيف يؤيد هذا الجناس الإشارة الجنسية التى يراها فرويد فى اسم هذا النبات فأمر غير بين . ويرجح ستراشى بهذه المناسبة أن فرويد ربما كان يتحدث هنا وهو يذكر لغزاً من الألغاز المصورة التى كانت ذائعة أكبر الذيوع فى مجلات ذلك العصر الهزلية وبخاصة مجلة : Fliegende Blatter أو " الصحائف الطائرة " . وسوف يرد ذكر هذه المجلة وذكر ألغازها المصورة فى مواضع شتى من هذا الكتاب .]

(٣) أقول لمن أراد العلم أن هذا الحلم يخفى وراءه تخييلا مداره أنى أسلك مسلكاً منافياً للأدب ، منطوياً على استفزاز جنسى ، وأنها تصد هذا المسلك من جانبى . فإن بدا هذا التفسير شيئاً بعيد عن التصديق ، ذكرت القارىء بالحالات التى يرى فيها الأطباء أنفسهم هدفاً لاتهامات من هذا القبيل من جانب نساء هستريات لم يظهر هذا التحليل عندهن مشوهاً فى صورة حلم ، بل يظهر ظهوراً شعورياً سافراً فى صورة هذائية — [١٩٠٩ :] وقد كانت الحالمة فى بدء تحليلها حين أتاها هذا الحلم ، ولم أعلم إلا فيما بعد أنها إنما كانت تكرر بهذا الحلم الصدمة الأولى التى كانت منشأ عصابها . ومنذ ذلك الحين وأنا ألحظ هذا المسلك عينه من جانب أشخاص كانوا فى طفولتهم ضحايا لمثل هذه المحاولات الجنسية ثم صاروا الآن كأنهم يلتمسون تكرارها فى أحلامهم .

من قبل الزواج[١] ، الخ . بيد أن مفتاح الحل إنما يكمن فى قولها : إن ذلك لا يستحق العناء . فهى قد استمدت هذه الكلمات من زيارة قامت بها فى اليوم السابق لإحدى صديقاتها ، ودعتها الصديقة إلى أن تنزع سترتها ولكنها أبت قائلة : شكراً ، ولكن الأمر لا يستحق العناء ؛ فأنا ذاهبة بعد قليل . وبينما كانت تقص على ذلك تذكرتُ أنها فى خلال جلسة التحليل بالأمس قد أمسكت بسترتها فجاءة ؛ فقد انفك أحد ازراها. وهكذا تكون كمن أرادت أن تقول : أرجو ألا تلتفت ، إن الأمر لا يستحق العناء . وبذا يكتمل القفص فيصبح : القفص الصدرى ، ويعود بنا تفسير الحلم دفعة واحدة إلى زمن نضجها الجسمى فى خلال المراهقة ، حين بدأت تشعر بقلة رضاها عن هيئة جسمها . بل إنه ليقودنا إلى أزمنة تسبق ذلك كثيراً إذا اعتبرنا « يبعث على الاشمئزاز » و « منكر الصوت » ، وإذا تذكرنا فى هذا الصدد كيف يكثر فى التلميح وفى الحلم أن يحل نصفا الكرة الأصغران من جسم المرأة محل النصفين الأكبرين — على سبيل التقابل أو التبديل .

٣

وأقطع هنا هذه السلسلة من أحلام تلك المريضة بإيراد حلم قصير ، برىء ، أتاه شاب فى مقتبل العمر : فقد رأى أنه يرتدى معطفه الشتوى من جديد ، وكان ذلك شيئاً مروعاً . إن السبب الظاهر لهذا الحلم هو هجوم البرد هجوماً مفاجئاً . بيد أننا نلحظ إذا أنعمنا النظر أن الجزئين القصيرين اللذين تركب منهما هذا الحلم لا يستقيمان كلا والآخر : إذ ما هو « المروع » فى ارتدائك فى البرد معطفاً ثقيلا أو سميكا ؟ إن من سوء حظ براءة هذا الحلم أن أول ما يحضر ذاكرة الحالم فى أثناء التحليل هو أن سيدة قد أسرت إليه البارحة بأن الفضل فى حياة ولدها الأخير يرجع إلى تمزق الحجاب المانع للنسل . فقد أجرى الحالم أفكاره بما يتفق وما سمع : الحجاب الرقيق خطر ، لكن السميك ردىء . ولقد تمثل الحجاب بحق فى صورة « المعطف » ؛ فكلاهما يُعْتَطَفُ . ولا شك فى أن حادثة من قبيل ما أفضت به السيدة قد كانت تكون شيئاً « مروعاً » بالنسبة إلى رجل أعزب .

ولكن لنعد الآن إلى حالمتنا البريئة .

---

(١) وهو ما ينطوى على إبدال للضد بالضد كما سيتضح من تفسير الحلم .

٤

إنها تضع شمعة فى الشمعدان ، ولكن الشمعة تنكسر فلا تنتصب كما ينبغى . وتقول رفيقاتها فى المدرسة : إنها غير حاذقة . بيد أن المدرسة تقول : إن الذنب ليس ذنبها .

إن لهذا الحلم أيضاً مناسبة من الحقيقة . فهى — حقيقة — قد وضعت البارحة شمعة بالشمعدان ، إلا أن هذه الشمعة لم تنكسر . وقد لجأت الحالمة إلى رمز شفاف : فالشمعة موضوع يهيج أعضاء المرأة الجنسية ، وانكسارها بحيث لا تنتصب كما ينبغى يعنى عجز الرجل الجنسى (« إن الذنب ليس ذنبها ») . ولكن أتعرف السيدة الشابة هذا الاستعمال للشمعة ، وهى التى نشئت تنشئة ملؤها العناية وظلت بمنأى عن كل قبيح ؟ لقد اتفق أنها كانت قادرة على أن تبين كيف بلغ ذلك علمها : فهى كانت تركب نهر الراين يوماً حين مر بهم قارب علته جماعة من الطلبة استخفهم الطرب فرفعوا عقائرهم بأغنية ينشدونها — أو بالأحرى تصايحوا بها — هى : « عندما تقف ملكة السويد ، خلف مصراع النافذة المغلق ، وهى بشموع أبوللو . . . . »[١]

إن السيدة لم تسمع الكلمة الأخيرة [المحذوفة] أو سمعتها فلم تفهمها . ولا بد أن زوجها قد أدلى إليها بالإيضاح المنشود . وقد استبدلت بهذه الأبيات فى محتوى الحلم ذكرى بريئة تتعلق بعمل كلفت به المريضة وهى لا تزال بالمدرسة فلم تحذق أداءه ؛ لأن مصراع النافذة كان مغلقاً — وهو العامل المشترك الذى يسر التبديل . وأما العلاقة بين فكرتى الاستمناء والعجز الجنسى فواضحة بما فيه الكفاية . و « أبوللو » المتضمن فى المحتوى الكامن لهذا الحلم كان حلقة وصل بينه وبين حلم سابق تمثلت فيه [الآلهة] پالاس العذرية . كل هذا بعيد فى الحقيقة عن البراءة .

٥

ولكى لا نخال أن الاستدلال بالحلم على الحياة الحقيقية للحالم أمر جم السهولة ،

---

(١) [أبيات من أغنية معروفة من أغانى الطلبة . "وشموع أبوللو" اسم لنوع من الشموع . وأما الكلمة المحذوفة فهى onaniert أى " تستمنى " .]

أضيف حلماً آخر – ظاهره البراءة أيضاً – من أحلام تلك السيدة . قالت : لقد حلمت بشيء صنعته بالأمس حقيقة ؛ فقد رأيت أننى أملأ خزانة صغيرة بالكتب حتى تعذر على إغلاقها ، وكان ما حلمت به هو هو الذى قد حدث حقيقة . فى هذا المثال ينصب معظم إلحاح الحالمة نفسها على الاتفاق الذى بين الحلم والحقيقة . وإن كل ما يعن فى صدد الحلم من أمثال هذه الأحكام والملاحظات – وإن حلت فى الفكر المستيقظ – إنما يكون دائماً ، فى الحقيقة ، جزءاً من محتوى الحلم الكامن – كما سوف تؤيده الأمثلة فيما بعد [ص ٤٤٥] . والذى تحدثنا به الحالمة – إذن – هو أن الحدث الذى يصفه الحلم قد وقع حقيقة بالأمس. وإن المطاف ليبعد بنا كثيراً لو أردنا أن نروى كيف خطر لنا أن نستعين باللغة الإنجليزية فى تفسير هذا الحلم . يكفى أن نقول : إن الأمر يدور من جديد حول box صغير (أنظر حلم الطفل الميت فى الصندوق ، فى ص ١٧٨) ، امتلأ حتى تعذر أن يدخله بعد ذلك شىء . وما من شائنة – إذن – فى هذه المرة على الأقل .

ومن البين فى جميع هذه الأحلام « البريئة » أن العامل الجنسي هو الدافع إلى الرقابة بيد أن ذلك موضوع ذو أهمية رئيسة يجب أن ندعه جانباً .

ب
مادة الطفولة
من حيث هى مصدر من مصادر الحلم

قلنا – متفقين فى ذلك مع كافة المؤلفين إلا روبرت –: إن ثالثة الخصائص التى تميز محتوى الحلم هى أن الحلم قد تظهر فيه انطباعات ترجع إلى حياة الطفولة الأولى ، انطباعات تبدو بعيدة عن متناول الذاكرة فى اليقظة . ومن الصعب بطبيعة الحال أن نقرر

إلى أى حد يندر ورودها أو يكثر ؛ ما دمنا لا نعرف بعد اليقظة مصدر عناصر الحلم . فالبرهان على أن الأمر يتعلق فى هذا الحلم أو ذاك بانطباع مستمد من الطفولة يجب أن يؤسس على شهادة موضوعية ، وهو أمر لا تتيحه الفرص إلا نادرا . ومن الأمثلة الفريدة الدلالة على ذلك قصة مورى [المذكورة فيما سبق ، ص ٥٦] عن الرجل الذى اعترم أن يزور مسقط رأسه بعد غيبة دامت ما ينيف على العشرين عاماً : فقد حلم الرجل فى الليلة السابقة على الرحيل بأنه فى مكان لا عهد له به على الإطلاق وأنه يلتقى فى الطريق هناك برجل لا يعرفه ويتحدث إليه ، فلما عاد إلى وطنه تاح له أن يقتنع بأن المكان المجهول موجود حقيقة على مقربة من بلده ، وأما رجل الحلم الغريب فصديق من أصدقاء والده المتوفى لم يكن لا يزال على قيد الحياة بذاك المكان . وذلك من غير شك دليل على أنه قد رأى فى طفولته كلا الرجل والمكان . والحلم بعد ذلك حلم ينبغى إدراجه بين أحلام الصبر النافد ، كحلم الفتاة التى كانت تحمل تذكرة الحفل الموسيقى فى جيبها [ص ١٧٦] ، أو حلم الطفلة التى وعدها أبوها برحلة إلى الضيعة [ص ١٥٥] ، إلى آخر ذلك . فأما الدوافع التى جعلت الحالم لا يستحضر من طفولته إلا تلك الانطباعات دون غيرها — فأمر لا يتبين بالطبع من غير تحليل .

وأخبرنى أحد المستمعين إلى محاضراتى — وكان يفخر بأن أحلامه قلما يصحبها التشويه — بأنه قد حلم منذ زمن غير بعيد بأنه يرى مدرسه الخاص القديم راقداً فى سرير واحد مع المربية التى ظلت بمنزلهم حتى الحادية عشرة من عمره . وحضره فى الحلم أيضاً مكان ذلك المشهد . وأثار كل هذا فى نفسه فضولا شديداً ، فقص الحلم على أخيه الأكبر الذى أكد له ضاحكاً صدق الحلم ؛ فهو — أعنى الأخ الأكبر — يذكر ذلك تمام الذكرى ، فقد كان عمره ، إذ ذاك ستة أعوام : كان من دأب العاشقين أن يسكرا الأخ الأكبر بالجعة كلما هيأت لهما الفرصة أن يجتمعا ليلا ، وأما الأخ الأصغر — حالمنا الذى كان يبلغ إذ ذاك الثلاثة أعوام وكان ينام مع المربية فى غرفة واحدة — فلم يكن يعد خطراً .

وثمت حالات أخرى يسهل علينا فيها أن نقطع باحتواء الحلم على عناصر مستمدة من حياة الطفولة دون استعانة بتفسير الأحلام . وذلك إذا كان الحلم مما يسمى بالأحلام المتكررة عن قدم ، أى إذا كان حلماً يأتى صاحبه للمرة الأولى وهو ما زال طفلا ثم

يعاوده بعد ذلك فى الرشد من حين إلى حين . وأستطيع أن أضيف إلى الأمثلة المعروفة على هذا النوع من الأحلام أحلاماً قليلة جمعتها ، وإن لم أكن قد وقع لى قط حلم متكرر من هذا القبيل : فقد قص على طبيب فى العقد الرابع من عمره أن أسداً أصفر اللون كان يتراءى له كثيراً فى أحلامه منذ عهد طفولته إلى يومنا هذا ، وكان فى استطاعته أن يصفه أدق الوصف . ثم جاء يوم فإذا هو يكتشف هذا الأسد الذى عرفه من حلمه متجسماً فى صورة لعبة من الخزف عفى عليها الدهر . وحينئذ علم الشاب من أمه أن هذا الأسد كان لعبته المفضلة فى طفولته ، وإن لم يعد يذكر شيئاً من ذلك .

وإذا تركنا المحتوى الظاهر للحلم إلى أفكاره الكامنة التى لا تنال بغير التحليل ، أدهشنا أن نرى أثر خبرات الطفولة فى أحلام ما كان محتواها ليدعونا قط إلى مثل هذا الظن . وأدين لزميلى المبجل ، صاحب « الأسد الأصفر » ، بمثال على ذلك فريد فى لطفه ودلالته النظرية . فقد أتاه — بعد أن قرأ وصف نانزنس لرحلته القطبية — حلم رأى فيه أنه فى حقل من الجليد يعالج هذا المستكشف المقدام علاجاً كهربائياً لنوبة ألمت به من مرض عرق النساء ! وبينما كنا نحلل الحلم تذكر قصة من طفولته لولاها لظل الحلم مستغلقاً على الفهم كل الاستغلاق : ذلك أنه — وهو طفل فى الثالثة أو الرابعة — كان يصغى يوماً إلى حديث دار بين من يكبرونه حول رحلات الاستكشاف حين سأل والده : أذلك مرض خطير ؟ وكان جلياً أنه قد خلط كلمة « رايزْن » [رحلات] بكلمة « رايسْن » [تشنجات] ، وتكفلت سخرية إخوته وأخواته بألا تنزلق تلك الخبرة المخزية إلى النسيان .

وإنا لنرانا إزاء مثال شبيه بذلك كل الشبه حين أعثر وأنا أحلل حلم المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين على إحدى ذكريات طفولتى : ذكرى والدى حين جعلنى — وأنا فى الخامسة — أمزق كتاباً زين بلوحات ملونة . وقد نتشكك فى أن تكون تلك الذكرى قد أخذت حقيقة بنصيب ما فى تشكيل محتوى ذلك الحلم ، ونرجح أن يكون التحليل هو الذى أوجد هذه العلاقة من بعد . ولكن غزارة الروابط الاستدعائية وتشابكها يضمنان صحة وجهة النظر الأولى : السيكلامين — الزهرة المفضلة — الطبق المفضل — الخرشوف ، تمزيق كتمزيق الخرشوف ورقة فورقة (وهى جملة كانت تطرق أسماعنا كل يوم بمناسبة تمزيق الامبراطورية الصينية) ، المعشب — دودة الكتب التى تجد فى الكتب

غذاءها المفضل . ثم إنى أستطيع أن أؤكد للقارئ أن المغزى الأخير لذلك الحلم — وهو مالم أفض به ههنا — كان متصلا أوثق الاتصال بمضمون ذلك المشهد الطفلى .

ويرينا التحليل فى طائفة أخرى من الأحلام أن الرغبة التى أثارت الحلم فعلا ، والتى صور الحلم تحقيقها — قد تفرعت عن حياة الطفولة ، حتى أن المرء يدهش إذ يرى الطفل باندفاعاته وهو ما زال حياً فى الحلم !

وفى هذا الموضع أستأنف تفسير حلم سبق أن خرجنا منه بجديد ، وأعنى به حلم : صديقى ر . هو عمى [ص ١٦٢ وما يليها] . لقد مضينا فى تفسيره إلى أن تبين لنا فى جلاء أن الرغبة فى أن أرقى إلى منصب الأستاذية كانت إحدى الرغبات الدافعة إليه ، وعللنا الحنان الظاهر فى الحلم تجاه صديقى ر . بأنه كان نتاجاً أملته معارضتى ومدافعتى للمطاعن الموجهة فى أفكار الحلم نحو زميلىّ . ولقد كان الحلم حلمى ، ولى — إذن — أن أتابع تحليله بأن أقول : إننى وقد انتهيت من حله إلى هذا المدى لم أشعر بالرضا بما انتهيت إليه . فقد كنت أعلم أن حكمى المستيقظ على الزميلين اللذين أسأت إليهما فى الحلم كل هذه الإساءة كان حكماً مختلفاً كل الاختلاف ، وكان سلطان الرغبة فى ألا أشاركهما مصيرهما فيما يتصل بمسألة الترقية يبدولى أضعف من أن يفسر هذا التناقض بين التقديرين : تقدير اليقظة وتقدير الحلم . فلو أن احتياجى إلى أن ألقب بلقب مختلف كان شديداً إلى هذا الحد ، لكان ذلك دليلا على طموح مرضى لا أعهده فى نفسى وأعتقد أنه بعيد عنى . ولست أدرى ما هو حكم الغير ، ممن يعتقدون معرفتى ، فى هذا الصدد . ربما كنت طموحاً حقيقة . ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهذا الطموح قد انصرف منذ أمد بعيد إلى موضوعات أخرى غير لقب الأستاذ المساعد أو منصبه .

من أين — إذن — أتى الطموح الذى ألهمنى هذا الحلم ؟ هنا تحضرنى قصة كثيراً ما سمعتها تحكى فى طفولتى : ذلك أنه اتفق حين ولدت أن تنبأت فلاحة عجوز لأمى السعيدة بوليدها الأول بأنها قد أتت إلى الدنيا برجل عظيم. ولا شك أن أمثال هذه النبوءات شىء كثير الوقوع : فكم فى الدنيا من أمهات آملات وكم فيها من عجائز فلاحات — أو غير فلاحات — ممن هجرتهن قواهن الدنيوية فتحولن جهة الغيب ! ثم إن المتنبئة لن تضيرها النبوءة . أيكون ذلك هو النبع الذى منه كان ظمئى إلى العظمة ؟ ولكننى أذكر

هنا انطباعاً آخر يرجع إلى ما أعقب من سنوات حداثتى ، انطباعاً يزودنا بتعليل أفضل : فقد حدث ذات مساء فى مطعم فى [حديقة] براتر اعتاد والداى أن يصطحبانى إليه وأنا غلام فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرى أن جذب انتباهنا رجل كان ينتقل من مائدة إلى أخرى مرتجلا لقاء هبة صغيرة أبياتاً من الشعر فى أى موضوع يعرض عليه . وأُرسلت فى طلب الشاعر إلى مائدتنا ، فأبدى شكره للرسول ، وقبل أن يسألنا أى موضوع اخترنا ألقى ببضعة أبيات عنى ، ثم أعلن فى غمرة الإلهام أننى على الأرجح صائر فى يوم من الأيام « وزيرا » . وما زلت أذكر أحسن الذكرى أى انطباع أحدثته هذه النبوءة الثانية فى نفسى . لقد كانت تلك أيام وزارة الطبقة المتوسطة [1] ، وكان والدى قد أحضر إلى المنزل منذ قريب صور أولئك الأقطاب البورچوازيين : هربست وجيسكرا وأونجر وبرجر وغيرهم ، وكنا قد أشلعنا الأنوار تكريماً لهؤلاء السادة . بل لقد بلغ من الأمر أن كان بينهم يهود ؛ فكان يهيأ لكل غلام يهودى مجتهد أنه يحمل كرسى الوزارة فى حقيبته المدرسية . ولا بد أن الانطباع الذى تخلف فى نفسى من ذلك العهد قد كان له أثره فى أننى بقيت إلى ما قبل التحاقى بالجامعة بزمن قصير وأنا أنوى أن أدرس القانون ، ولم أعدل إلا فى اللحظة الأخيرة . ومن اشتغل بالطب صدت دونه أبواب الحياة الوزارية من غير رجعة . ونعود الآن إلى حلمى : إننى ألحظ للمرة الأولى أنه ينتقل بى من الحاضر المحزن إلى أيام الوزارة البورچوازية المليئة بالآمال المرحة ، وأنه يبذل ما وسعه من أجل أن يحقق ما كنت أرغب فيه إذ ذاك : فأنا إذ أسىء إلى زميلىّ العالمين الجليلين إلى هذا المدى لأنهما يهوديان ، وإذ أعد أحدهما أبله وأعد الآخر مجرماً — أسلك كأننى كنت الوزير : لقد وضعت نفسى فى موضعه . ياله من انتقام حاسم من صاحب المعالى ! إنه يرفض ترقيتى أستاذاً مساعداً ، وأنا أرد له الكيل بأن أضع نفسى مكانه .

وأمكننى أن ألحظ فى حالة أخرى أن الرغبة التى تثير الحلم — وإن تكن رغبة حاضرة — قد لقيت مع ذلك تعزيزاً قوياً من ذكريات امتدت جذورها بعيداً فى الطفولة . وأنا أفكر هنا فى طائفة من الأحلام كان أساسها الحنين إلى زيارة روما . ولسوف أمكث زمناً طويلا وأنا مكره على أن أرضى هذا الشوق بوساطة الأحلام ؛ ففى هذا الفصل من

---

(١) [Burgermirsterium — وزارة كانت لها آراء من قبيل الآراء المتوارثة عن أحزاب الأحرار ، انتخبت بعد وضع الدستور النمسوى الجديد عام ١٨٦٧ .]

العام الذى أتمكن فيه من الترحال يتحتم على أن أتجنب الإقامة فى روما لأسباب صحية(١).
وهكذا رأيت مرة فى الحلم أننى أنظر من نافذة عربة قطار إلى نهر التيبر وجسر سانت آنجلو، ثم يأخذ القطار فى الحركة، فيخطر لى أننى لم أطأ المدينة قط. وكان المنظر الذى رأيته فى الحلم مقتبساً عن رسم معروف وقع عليه بصرى برهة فى حجرة جلوس أحد مرضاى. وفى مرة أخرى يقودنى قائد إلى قمة تل ويرينى منه روما وقد تلفعت بالضباب نصف تلفع وبعدت بعداً سحيقاً حتى لأعجب معه من وضوح منظرها. ومحتوى الحلم أكثر ثراء مما أستطيع روايته، ولكن من السهل أن نستشف فيه فكرة «أرض الميعاد وهى تلوح من بعيد». والمدينة التى رأيتها للمرة الأولى على هذا النحو، ملفعة بالضباب، كانت: لوبك، وأما التل فقد رأيت أنموذجه فى — جلا يخنبرج. وفى حلم ثالث أرانى أخيراً فى روما — على ما حدثنى به الحلم — بيد أنى — لخيبة أملى — أرى منظراً لا يشبه المدن فى شىء، أرى: نهيراً حلك ماؤه وحملت إحدى ضفتيه صخوراً سوداء وانتشرت على الأخرى مراع انتثرت فيها أزهار كبيرة بيضاء، ثم ألحظ رجلاً يدعى السيد تسوكر (وهو رجل لى به بعض المعرفة) وأعقد العزم على أن أسأله عن الطريق المؤدية إلى المدينة. وجلى أننى كنت أحاول عبثاً أن أرى فى الحلم مدينة لم أرها فى حياة اليقظة قط. وإنى إذ أجزئ مشهد الحلم إلى عناصره أرى الأزهار البيضاء تعود بى إلى مدينة رافنا التى أعرفها والتى احتلت مكانة روما كعاصمة لإيطاليا — بعض الزمن على الأقل. ففى المستنقعات المحيطة برافنا وجدنا أجمل الزنابق المائية نامية فى الماء الأسود. وكنا نكابد العناء فى اقتطافها من الماء، فجعلها الحلم تنبت فى المرعى، مثل النرجس فى آوسى. وأما الصخرة السوداء القريبة ذلك القرب من الماء فتذكرنى تذكيراً شديداً بوادى التپل، على مقربة من كارلسباد. وتمكننى الآن «كارلسباد» من أن أفسر تلك اللمحة العجيبة، وأعنى بها سؤالى السيد تسوكر عن الطريق: إن المادة التى نسج منها الحلم قد تضمنت فى هذا الموضع قصتين من تلك القصص اليهودية، الممتعة، المنطوية على علم عميق بأحوال الدنيا، هو فى غالبية الأحيان مرير، والتى يطيب لنا كثيراً أن نستشهد بها فى

---

(١) [١٩٠٩ :] لقد تعلمت منذ ذلك الحين أن تحقيق الرغبات التى يظل المرء زمانا طويلا وهو يعتقد امتناعها إنما يحتاج إلى قليل من الشجاعة. [١٩٢٥ :] ومنذ هذا الحين وأنا من حجاج روما المواظبين على زيارتها.
[سوف يلمح القارئ من هذه الأحلام مدى الأهمية النفسية التى كانت ترتبط فى نفس فرويد بفكرة زيارة مدينة روما، وهو أمر يتضح فى مواضع كثيرة من رسائله إلى فليس. هذا وقد حقق فرويد تلك الرغبة للمرة الأولى فى صيف عام ١٩٠١.]

أحاديثنا ورسائلنا . وأما الأولى فهى قصة « البنية » ، وهى تروى كيف يدلف يهودى مسكين إلى قطار كارلسباد السريع دون تذكرة ، ثم يفتضح أمره ، ولا يمر المفتش للمراجعة إلا طرده من القطار وزاد إغلاظاً إليه ، ثم يلتقى به صديق فى إحدى محطات سكة الأوجاع هذه ، فيسأله عن وجهته ، فيجيبه : « إلى كارلسباد — إذا احتملت بنيتى »[١] . وتنتقل ذاكرتى إلى القصة الثانية ، وهى تدور حول رجل يهودى لا يعرف الفرنسية ، كلف أن يسأل فى باريس عن شارع ريشليو . وقد كانت باريس أيضاً هدفاً لأشواقى سنوات طوالا . والسعادة التى أحسستها وأنا أنزل قدمى على رصيفها لأول مرة قد لاحت لى بشيراً بتحقق أمنيات أخرى . ثم إن السؤال عن الطريق كان إشارة مباشرة إلى روما ؛ فإلى روما تذهب كل الطرق كما نعلم . وكذلك اسم تسوكر [أى سكر] : إنه يشير من جديد إلى كارلسباد ؛ فمن عادتنا أن نرسل إلى هذا البلد مرضى السكر ، وهو مرض مرده البنية . ولقد كان الحافز إلى هذا الحلم اقتراحاً من صديقى البرلينى [فليس] بالالتقاء فى براج ، فى خلال عيد الفصح . وكان بين الموضوعات التى كان مفروضاً أن نتحدث فيها موضوع له رباط آخر « بالسكر » « وبمرض السكر » .

ويعود بى إلى روما من جديد حلم رابع تلا الحلم السابق بزمن قليل : رأيت أمامى ناصية طريق ، وأدهش لكثرة ما أراه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية . وكنت فى اليوم الذى سبق هذا الحلم قد كتبت إلى صديقى أخبره — وكأنما كنت أقرأ الغيب — أن براج لن تكون بالمكان الذى يدخر لسائح المانى إقامة طيبة . وهكذا يعرب الحلم فى آن واحد عن الرغبة فى ملاقاة صديقى فى روما بدل ملاقاته فى مدينة بوهيمية ، ثم عن الرغبة فى أن تحظى اللغة الألمانية بمزيد من التسامح فى براج — وهى رغبة ترجع فى الأرجح إلى أيام التلمذة . ولا بد أننى كنت أفهم اللغة التشيكية فى السنوات الأولى من طفولتى ؛ فقد ولدت بمدينة صغيرة فى موارڤيا وسط شعب سلافى . ولقد سمعت مرة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى بيتا من الشعر الذى يغنى للأطفال ، فعلق البيت فى ذاكرتى دون ما جهد منى حتى أننى لأستطيع ترديده إلى اليوم — وإن كنت لا أدرك شيئاً من معناه . وهكذا لا تخلو هذه الأحلام أيضاً من روابط تربطها بطفولتى الأولى .

---

(١) [يشير فرويد إلى هذه القصة فى كثير من رسائله إلى فليس : رسالة ٥٤ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ مثلا . وهو فى الرسالتين الأخيرتين يستخدم روما وكارلسباد رمزاً للأهداف التى لا تدرك .]

وكان فى خلال رحلتى الإيطالية الأخيرة التى حملتنى إلىما وراء بحيرة تراسيمن أننى اكتشفت فى النهاية — بعد أن رأيت التيبر وقفلت راجعاً على مضض وأنا على ثمانين كيلو متر من روما — كيف تعزز شوقى إلى المدينة الخالدة بانطباعات حداثتى . فقد كنت أفكر فى رحلة تحملنى فى العام القادم إلى نابولى مارا بروما حين خطرت لى تلك الجملة التى لا أشك فى أننى قرأتها فى نص من نصوصنا المأثورة[1] : « إنه لسؤال : أى الرجلين كان أنفد صبرا وهو يذرع الحجرة طولا وعرضاً بعد أن قر قراره على الذهاب إلى روما : وكيل ناظر المدرسة ڤينكلمان أو القائد الأعظم هانيبال ؟ » نعم ، إننى فى الحقيقة كنت أقفو خطى هانيبال . فقد كتب على ، مثلما كتب عليه ، ألا أرى روما . وهو أيضاً قد توجه إلى كامپانيا حين كان العالم أجمع ينتظره فى روما . ولكن هانيبال الذى انعقدت بينى وبينه تلك الشبه كان بطلى الأثير وأنا ما زلت بالمدرسة . فمشاعرى ، شأن الكثير من الغلمة بتلك السن ، قد انحازت فى حروب قرطاجنه إلى جانب القرطاجنيين وليس إلى جانب الرومان . ثم حين أخذت أدرك فى سنوات المدرسة الأخيرة ما يجره على المرء انتماؤه إلى جنس غريب ، وحين نبهتنى مشاعر العداء السامى بين الأقران إلى أننى لم يعد لى مفرمن أن أتخذ لى موقفاً — حينئذ زاد أيضاً شخص القائد السامى علوا فى ناظرى . فهانيبال وروما كانا يرمزان فى عين الصبى للصراع بين عناد اليهودية ونظام الكنيسة الكاثوليكية . ومنذ ذلك الحين وحركة العداء السامى لا تزيد آثارها فى حياتنا الانفعالية إلا خطورة ، فأعان ذلك على تثبيت أفكار تلك الأيام المبكرة وأحاسيسها . وهكذا صارت رغبة الذهاب إلى روما فى حياتى الحالمة ثوباً ورمزاً تكتسيها رغبات أخرى أشد احتداماً ، رغبات يقتضى تحقيقها بذل الجهد بكل دأب القرطاجنى وبكل عزوفه عما ليس من قصده ، وإن بدا فى الحاضر أن تحقيقها لن يلقى من مواتاة القدر إلا ما لاقته الرغبة التى صاحبت هانيبال فى حياته جمعاء ، رغبة الدخول فى روما .

والآن أعثر لأول مرة على خبرة الحداثة التى ظلت تعرب إلى اليوم عن سلطانها فى كل هاته الانفعالات والأحلام . ربما كنت فى العاشرة أو فى الحادية عشرة من عمرى حين بدأ والدى يصطحبنى فى نزهاته ويكاشفنى فى أحاديثه بنظراته فى أمور هذا العالم الذى نحيا فيه . وهكذا حدثنى مرة بالقصة الآتية لكى يرينى كم تفضل الأيامُ التى

(١) إن الكاتب الذى قرأت عنده هذه الجملة لا بد أن يكون — من غير أدنى شك — چان پول .

ولدتُ بها أيامه ، قال : كنت وأنا شاب أتنزه فى يوم سبت فى شوارع البلد الذى ولدتَ به وقد لبست لباساً حسناً ووضعت على رأسى قلنسوة من الفراء وإذا مسيحى يقبل فيضرب بقبعتى فى الوحل ، صائحاً : أيها اليهودى انزل عن الرصيف ! — فسألت والدى : وماذا فعلت ؟ — فأجابنى فى هدوء : نزلت إلى عرض الطريق والتقطت القلنسوة . لقد بدا لى ذلك مسلكاً مجرداً من البطولة إذ يصدر عن الرجل الضخم القوى الذي كان يقودنى ممسكاً بيدى — أنا الولد الصغير . وقارنت هذا الموقف الذى لم يرضنى بآخر أكثر تلاؤماً ومشاعرى ، قارنته بالمشهد الذى فيه يستحلف هاميلكار باركاس[١] — أمام مذبح العائلة — ابنه هانيبال إلا أن يأخذن بالثأر من الرومان . ومنذ ذلك الحين وهانيبال يحتل مكاناً بين تخاييلى .

وأظننى قادراً بعد على تأثر هذه الحماسة للقائد القرطاجنى إلى عهد أقدم من عهود طفولتى ؛ بحيث لا يخرج الأمر هنا أيضاً عن أن يكون تحويلا إلى حامل [أى موضوع] جديد لعلاقة عاطفية متكونة من قبل . فقد كان من أوائل الكتب التى وضعت بين يدى وأنا طفل حديث العهد بالقراءة كتاب تيير « تاريخ القنصلية والإمبراطورية » . وما زلت أذكر كيف ألصقت بالظهور المسطحة لجنودى الخشبية قصاصات من الورق تحمل أسماء القواد الأمبراطوريين ، وأذكر أن ماسينا (باليهودية : منشا) كان بطلى المفضل إذ ذاك[٢] . (وهو تفضيل يفسر أيضاً من غير شك بكونى قد ولدت فى ذات التاريخ ، قرناً بعده) .[٣] ونابليون خليفة هانيبال ؛ لعبوره جبال الألب . وربما أمكن أن أتتبع نشأة هذا المثل الأعلى الحربى إلى زمن أقدم من طفولتى : إلى علاقتى فى خلال السنوات الثلاث الأولى من حياتى بولد يكبرنى بعام واحد ، وإلى المشاعر التى لا بد قد أثارتها فى نفس أضعف الرفيقين تلك العلاقة التى كانت طوراً صداقة وطوراً حرباً[٤] .

وكلما تعمق المرء تحليل أحد الأحلام ، زاد عثوره على آثار خبرات الطفولة التى كان لها نصيبها بين مصادر المحتوى الكامن لهذا الحلم .

---

(١) [١٩٠٩ :] جاء هذا الاسم فى الطبعة الأولى على تلك الصورة : هاسدروبال . وهو خطأ عجيب فسرته فى كتابى : سيكوباثولوجية الحياة اليومية (١٩٠١ ب ، الفصل العاشر) .

(٢) [١٩٣٠ :] وأشير عرضا إلى أن الأصل اليهودى لهذا القائد موضع شك .

(٣) [أضيفت هذه الجملة عام ١٩١٤ .]

(٤) [سيتحدث فرويد عن هذه العلاقة كثيراً فيما بعد .]

وقد علمنامن قبل (ص٥٩–٦٠) أنه يندر غاية الندرة أن يستحضر الحلم الذكريات الاستحضار الذى يجعلها تؤلف – دون أن ينالها اقتضاب أو تحريف – كل المحتوى الظاهر للحلم . ومع هذا فهناك أمثلة على ذلك لا يتطرق إليها الشك . وفى استطاعتى أن أضيف إليها بضعة أمثلة أخرى تتعلق من جديد بمشاهد مستمدة من الطفولة . فقد اتفق مرة أن واجه الحلم أحد مرضاى باستحضار كاد يخلو من التشوية لواقعة جنسية تبين على الفور أنها ذكرى صادقة . والحقيقة هى أن هذه الذكرى لم تضع قط من حياته المستيقظة كل الضياع ، ولكنها غمضت غموضاً شديداً وكان بعثها أثراً من آثار العمل الذى تم من قبل فى خلال التحليل . فالحالم كان قد ذهب وهو فى الثانية عشرة من عمره ليزور رفيقاً من رفاق المدرسة لزم الفراش حين تعرى هذا الرفيق تعرياً جاء فى أغلب الظن عفوا بحركة فى فراشه . فلما رأى المريض أعضاء الولد التناسلية وليه نوع من الدافع القهرى ، فعرى نفسه وأمسك بعضو الولد الآخر الذى نظر إليه مستنكراً دهشا ، فأسقط فى يده وخلى . وقد أعاد الحلم هذا المشهد بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً ، وأعاده بكل المشاعر التى صاحبته ، إلا أنه عُدِّل بحيث أخذ الحالم الدور السلبى بدل الإيجابى ، بينما استبدل برفيق المدرسة شخص معاصر .

والقاعدة المستيقنة هى أن مشهد الطفولة لا يرد فى محتوى الحلم الظاهر إلا تلميحاً ، ولا معدى عن استخلاصه من الحلم بالتفسير . والأمثلة على ذلك لا تحمل روايتها كبير إقناع ؛ فليس ثمت فى معظم الأحيان شاهد آخر على وقوع خبرات الطفولة هذه : إنها – وقد وقعت فى سن مبكرة جداً – لا ترجع الذاكرة تعرفها . وإن حقنا فى أن نستدل عامة بالأحلام على وقوع مثل هذه الخبرات إنما يخلص من خلال العمل التحليلى من جملة من العوامل تبدو خليقة بالركون إليها من حيث اتفاقها فيما بينها . فإذا انتزعت هذه الإشارات الراجعة إلى خبرات الطفولة من محيطها بغية تفسير الحلم ، كان من المحتمل الا تترك إلا تأثيراً قليلا ، وبخاصة إذا كنت لا أذكر مرة واحدة كل المادة التى يستند إليها التفسير . بيد أننى لن أدع ذلك يردنى عن رواية بعض الأمثلة .

١

بين مريضاتى مريضة تمتاز أحلامها جميعاً بذلك الطابع : وهو كون الحالمة تظهر « مُعْجَلة »[1] . فهى تعجل لكى تصل فى الميعاد، أو تعجل لئلا يفوتها القطار ، وهكذا . وفى أحد أحلامها رأت أنها تتأهب لزيارة إحدى صديقاتها وقالت لها أمها أن تذهب راكبة لا ماشية، ولكنها تنطلق جريا ولا تكف فى أثناء ذلك عن الوقوع . — لقد مكنتنا المادة المنبعثة فى سياق التحليل من التعرف على ذكريات تتصل بهياج الأطفال (ونعلم ما يسميه أهل ڤيينا « هيجة »[2]). وأشار أحد أحلامها بخاصة إلى تلك المزحة التى يحبها الأطفال كثيراً ، وهى أن يكرروا جملة : « جرت البقرة حتى وقعت » بسرعة شديدة حتى تبدو الجملة كأنها كلمة واحدة — وهو أيضاً ضرب من " الجرى" . وقد استحضرت الذاكرة كل هذا الجرى البرىء بين الصديقات الصغيرات ؛ لأنه كان يخفى وراءه ذكريات أخرى أقل براءة .

٢

وها هو ذا حلم ثان لمريضة أخرى : إنها فى حجرة كبيرة انتصبت فيها آلات من كل نوع ، شىء أشبه بما كانت تتخيله عن أحد معاهد تقويم الأجسام . وتسمع أننى لا وقت عندى وأنه لا معدى لها عن أن تقبل معالجتها فى وقت واحد مع خمسة آخرين . ولكنها تأبى وتمتنع عن الرقود فى السرير المخصص لها — أو فى الشىء الذى ظهر على أنه السرير ، أياً كانت حقيقته . وتقف فى الركن وتنتظر أن أقول لها : إن ذلك غير صحيح . وفى هذه الأثناء يضحك منها الآخرون ، قائلين : إنه دلالها المعهود . — فى الوقت نفسه : كأنما كان عليها أن ترسم مربعات كثيرة صغيرة .

يرتبط الجزء الأول من هذا الحلم بالعلاج وبتحويلها مشاعرها إلىّ . وأما الجزء الثانى فينطوى على إشارة إلى مشهد من مشاهد الطفولة . ووصل بين الجزئين ذكر السرير . فمعهد تقويم الأجسام يرجع إلى حديث لى قارنت فيه العلاج من حيث مدته وطبيعته بعلاج

(١) [من فعل hetzen zu ويعنى عجل ، وجرى وراء الصيد أو طرد وعلى سبيل المجاز اضطهد ، ثم هيج وأثار .]

(٢) [eine Hetz وهو الحفل المرح الحافل بالاستثارة الذى يترك كل مشترك فيه لنفسه العنان .]

يستهدف تقويم الجسم . ولقد اضطررت عند ابتداء علاجها إلى أن أخبرها أننى لا أستطيع أن أخصص لها فى الوقت الحاضر إلا وقتاً قليلا ، ولكننى سوف أفرغ لها ساعة كاملة كل يوم فيما بعد . وحرك ذلك حساسيتها القديمة التى هى سمة يتميز بها الأطفال المهيأون للهستريا ؛ فرغبتهم فى الحب لا ترتوى . ومريضتى كانت صغرى ستة إخوة وأخوات (ومن ثم : مع خمسة آخرين .) وكانت لذلك الطفلة المحببة إلى والدها ، ولكن يبدو أنها كانت ترى رغم ذلك أن والدها لا يفرغ لها سوى القليل من الوقت والالتفات . — وأما كونها تنتظر حتى أقول لها : إن ذلك غير صحيح ، فمأتاه ما يلى : أحضر صبى طرزى ثوباً إليها ، فسلمته النقود ، ثم بعد ذلك سألت زوجها هل هى ملزمة بأن تدفع النقود مرة ثانية لو أن الغلام أضاعها ، فأجابها زوجها بغية معاكستها: يقينا (المعاكسة فى الحلم) ، وظلت تعاود السؤال المرة تلو المرة وهى تنتظر أن يقول لها فى النهاية : إن ذلك غير صحيح . وهكذا أمكن أن نستخلص أن أفكار الحلم كانت تتضمن تلك الفكرة : هل هى ستلزم بأن تدفع ضعف المبلغ حين أفرغ لها ضعف الوقت ؟ فكرة شحيحة تشمئز لها نفسها.(ومن الشائع أن يحل إمساك المال محل قذارة الطفولة فى الحلم؛ وكلمة "باعث على الاشمئزاز"(١) هى هنا حلقة الوصل.)فلو صح أن كل تلك الفقرة حول انتظارها حتى أقول ذلك لها ... الخ .— إنما هى ترجمة مسهبة لكلمة «باعث على الاشمئزاز»، لكان مما يتفق وذلك الوقوف فى الركن وإباء الرقود فى السرير باعتبارهما عنصرين من مشهد طفلى تكون قد وسخت فيه سريرها فكان عقابها أن وقفت فى الركن وقد هددت بأن بابا سوف يكف عن حبها، بينما ضحك منها إخوتها وأخواتها ... الخ . وأما المربعات الصغيرة فكانت تحيل إلى أبنة أختها — أو أخيها — الصغيرة التى أرتها تلك الحيلة الحسابية التى تتلخص فى أن تكتب أرقاماً داخل تسعة مربعات — على ما أعتقد — بحيث تجمعها فى أى اتجاه فيكون المجموع خمسة عشرة .

٣

وها هو ذا حلم أتاه رجل: يرى صبيين يتضاربان ، إنهما من غير شك صبيا صانع براميل ، كما يستنتجه من العدد المبعثرة حولها . يطرح أحد الولدين الآخر أرضاً . يحمل الولد المطروح قرطا ذا أحجار زرقاء

(١) [Schmutzig وهو يستخدم للقذارة والبخل الشديد على السواء .]

إنه يندفع نحو ضاربه رافعاً عصاه لكى يقتص منه . يلوذ الضارب بامرأة تقف بجوار حاجز خشبى. كأنها كانت أمه . إنها امرأة من الطبقة العاملة ، وهى تقف وظهرها إلى الحالم. ولكنها تستدير إليه فى النهاية وتصوب إليه نظرة مروعة حتى ليولين الإدبار وقد ملكه الرعب . كان يسع المرء أن يرى اللحم الأحمر لجفنيها الأسفلين وقد برز تحت عينيها .

إن هذا الحلم يستغل أحداثاً تافهة مما وقع فى اليوم السابق استغلالا واسعا . فبالأمس رأى الحالم فى الطريق حقيقة ولدين طرح احدهما الآخر أرضا . فلما تقدم منهما ليفض العراك لاذا بأهداب الفرار . — أما كونهما صبيى صانع براميل ، فلا يفسره إلا حلم تال استخدم فيه هذا التعبير : « خرق قاع البراميل » [أى : أفرغ ما بنفسه] . — وأما الأقراط ذات الأحجار الزرقاء فيقول الحالم إن خبرته قد دلته على أن البغايا هن اللائى يحملنها بنوع خاص . وعلى ذلك يخطر له بيت من أغنية شعبية ذائعة عن ولدين : «والولد الثانى كان اسمه مارى» (أى أنه كان فتاة). — والمرأة الواقفة ؟ إنها تجعله يتذكر أنه قد ذهب بعد مشهد الولدين لكى يتنزه على شاطىء الدانوب ، وأنه انتهز خلوته لكى يتبول بجوار حاجز خشبى . ثم بعد ذلك بقليل صادف فى طريقه سيدة مسنة محتشمة الرداء ابتسمت له فى لطف وأرادت أن تعطيه بطاقة من بطاقات الزيارة .

ولما كانت المرأة تقف فى الحلم كما وقف هو من قبل عند تبوله، فالأمر يتعلق بامرأة تتبول . ومن هنا كانت « النظرة » المروعة ، وكان بروز اللحم الأحمر الذى لا يمكن أن يشير إلا إلى تجويف أعضاء المرأة حين تجلس القرفصاء ، تلك الأعضاء التى رآها فى طفولته فترجع من بعد إلى ذاكرته فى صورة « لحم منتفش » فى صورة « جرح » . والحلم يوحد بين مناسبتين مكنتاه وهو صبى صغير السن من أن يرى أعضاء فتاة صغيرة : إذ طرحها على الأرض مرة ، وحين رآها تتبول مرة أخرى ، وهو — كما يتبين من بقية الحلم — لا يزال يحفظ ذكرى عقاب أو وعيد أتاه من والده على ما أبداه فى هاتين المناسبتين من التطلع الجنسى .

(٤)

وأما الحلم الآتى — وهو لسيدة مسنة — فتكمن وراءه طائفة كاملة من ذكريات

الطفولة ، أدمجت بقدر الإمكان فى تخييل واحد :

تخرج متعجلة فى قضاء بعض الحاجيات . تقع على ركبتها فى شارع جرابن كأنما أصابتها كبوة . يجتمع من حولها حشد من الناس ومن الحوذية بنوع خاص ، لكن ما من أحد يعينها على النهوض . تبذل هى جهدها مرات متعددة من غير جدوى . لا بد أنها قد أفلحت أخيراً ، فها هى ذى توضع فى إحدى العربات لكى تقودها إلى منزلها . يقذف البعض وراءها ، من خلال نافذة العربة ، بسلة كبيرة مثقلة (من قبيل ما يستعمل فى التسوق .)

تلك هى السيدة التى تظهر دائماً معجلة فى أحلامها ، مثلما كان شأنها فى طفولتها . وجلى أن المشهد الأول من الحلم مستمد من رؤيتها جوادا يقع ، كما أن الكبوة تشير أيضاً إلى سباق الجياد . والحالمة كانت فارسة فى شبابها ، وأرجح الظن أنها ، وهى بعد أكثر شباباً ، كانت أيضاً جوادا . وإلى السقوط ترجع ذكرى من أوائل ذكريات طفولتها ، عن ابن البواب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ؛ فقد سقط يوما فى عرض الطريق وقد نزلت به نوبة من الصرع ، وأحضر إلى المنزل محمولا فى عربة . إنها بالطبع لم تعلم ذلك إلا سماعاً ، ولكن فكرة نوبات الصرع ، فكرة « النازلة » ، قد اكتسبت سلطاناً عظيما على مخيلتها ، وكان لها فيما بعد أثرها فى تشكيل نوباتها الهستيرية . — وإذا حلمت امرأة بالسقوط كان فى حكم القاعدة أن لذلك معنى جنسيا : إنها تغدو "ساقطة" . وإذا كان هذا التفسير يثير شكا فهو لا يثير فى حلمنا إلا أقله ؛ لأنها تسقط فى طريق جرابن ، أى فى ذلك المكان من ڤيينا الذى عرف بكونه مراح العاهرات ومغداهم . وأما سلة التسوق فتحتمل أكثر من تفسير : فهى ، من حيث أنها سلة - رفض[١] ، تذكرها بالسلال المتعددة التى وزعتها أول الأمر على المتيمين بها ، ثم عادت بدورها — كما تعتقد — فتلقتها . ومن ثم جاء أنه ما من أحد يريد أن يعينها على النهوض — وهو ما تؤوله بنفسها على أنه يعنى الازدراء بها . وتذكرها سلة السوق بعد ذلك بتخييلات سبق ظهورها فى خلال

---

(١) [Einkaufskorb = سلة التسوق . ولفظ Korb له معنيان : السلة والرفض أو الإباء . و " أعطته سلة " تعبير ألمانى جار ، بمعنى : صدت حبه أو طلبه الزواج منها .]

تحليلها ، وكان مدارها أنها قد تزوجت زواجاً دون منزلتها بكثير ، حتى صارت تذهب إلى السوق بنفسها لكي تقضى منه حاجياتها . وسلة التسوق — أخيراً — قد تكون شارة يدل بها على خادم . وفى هذا الصدد تحضرها ذكريات أخرى من طفولتها : الذكرى الأولى عن طاهية طردت لأنها سرقت ؛ إنها — أيضاً — قد سقطت على ركبتيها تطلب الغفران . لقد كان عمر الحالمة إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . وأما الذكرى الثانية فعن خادم طردت من المنزل لعلاقة بينها وبين الحوذى — ونقول عرضاً : إن الحوذى قد تزوج الخادم بعد ذلك . وهكذا ترينا هذه الذكرى أحد مصادر الحوذية فى الحلم (إلا أن هؤلاء لا يأخذون بساعد المرأة الساقطة ، على خلاف ما قد وقع فى الحقيقة) . ويبقى علينا أن نفسر قذف السلة ، وقذفها من خلال النافذة : إن ذلك يذكرها بتشييع الطرود بسكة الحديد ، وبعادة العشاق فى الريف أن يناجوا محبوباتهم ليلا بالنوافذ ، وكذلك ببضعة انطباعات صغيرة تركتها حياتها فى الريف : كيف رمى سيد سيدة ببضعة برقوقات زرقاء من خلال نافذتها . وكيف فزعت أختها الصغرى يوماً لأن معتوها عابراً تطاع إلى غرفتها من خلال النافذة . ومن خلال هذا كله تنبثق ذكرى معتمة من سنتها العاشرة عن مربية اشتبكت وهم بالريف فى علاقة غرامية — يحتمل أن تكون الفتاة قد أدركت شيئاً منها — مع أحد الخدم ، فكان جزاؤها أن "شيعت" من المنزل و"قذفت إلى الخارج" (وفى الحلم الضد : "قذف إلى الداخل") — وهى قصة كنا قد اقتربنا منها من وجهات أخرى متعددة . بيد أن متاع الخادم أو صندوقها يسمى فى ڤيينا على سبيل الاستخفاف «بالسبع برقوقات» : « احزمى برقوقاتك السبع وانزحى! »

إن مجموعتى تزخر بالطبع بأحلام كهذه من أحلام المرضى ، يسوق تحليلها إلى انطباعات من الطفولة لم تعد تذكر إلا ذكرا غامضاً ، أو لا تذكر البتة ، انطباعات كثيراً ما ترجع إلى السنوات الثلاث الأولى من الحياة . بيد أن تطبيق النتائج المستخلصة منها على الأحلام عامة عمل غير مأمون . فأصحابها كانوا دائماً من العصابيين ، وبخاصة هستيريين . فمن الجائز أن يكون نصيب المشاهد الطفلية فى أحلامهم راجعاً إلى طبيعة العصاب عندهم وليس إلى ماهية الحلم . بيد أننى وأنا أفسر أحلامى نفسى — وهو مع ذلك تفسير لا أفعله من جراء أعراض مرضية بالغة — يتفق لى بمثل تلك الكثرة أن أعثر

فى محتوى الحلم الكامن ، وأنا خالى البال ، على مشهد من مشاهد الطفولة ، وأن أرى مجموعة كاملة من أحلامى ترتبط دفعة واحدة بمستدعيات تتشعب من خبرة وقعت فى طفولتى . وقد سقت من قبل أمثلة على ذلك ، وسوف أسوق أمثلة أخرى منها فى مناسبات شتى . ولعل خير ما أختتم به هذا الجزء كله هو أن أسرد بعضا من أحلامى تلتقى فيه مناسبات حديثة بخبرات من الطفولة انسحب عليها النسيان دهراً طويلا ، فكانت جميعاً مصادر للحلم .

(١) أويت إلى الفراش وأنا متعب جائع ، ثم أخذت حاجات الحياة الكبرى تعلن عن نفسها ، فكان أن حلمت الحلم الآتى : أذهب إلى المطبخ فى طلب بعض الحلوى . هناك ثلاث نساء واقفات ، إحداهن هى مضيفة النزل . إنها تدير شيئاً فى يدها كما لو كانت تصنع فطيراً . تجيبنى أن على بالانتظار حتى تفرغ (لم يكن من الواضح أنها قد تكلمت) ينفد صبرى وانصرف متأذيا . أرتدى معطفاً ، ولكن المعطف الذى أجربه أولا مفرط الطول . أخلعه وأدهش إذ أراه محلى بالفراء . أرتدى معطفاً ثانيا له ذيل طويل ، موشى برسوم تركية . يقبل رجل غريب ، ذو وجه مستطيل ولحية مدببة ، ويمنعنى من ارتدائه قائلا : إن المعطف معطفه . أريه أن المعطف مغطى كله بوشى تركى . يسألنى : « وما لك و (الرسوم ، الذيول . . .) التركية ؟ ولكننا سرعان ما نصبح صديقين حميمين .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم ، اتجه خاطرى على غير توقع إلى أول رواية قرأتها — ولعلى كنت إذ ذاك فى الثالثة عشرة من عمرى [١] — وأقول قرأتها والحقيقة هى أننى بدأتها من نهاية المجلد الأول . وما علمت قط اسم الرواية ولا اسم مؤلفها ، ولكن خاتمتها لا تزال حية فى ذاكرتى : يتردى البطل فى هاوية من الجنون وهو يردد أسماء النساء الثلاث اللائى كان لهن فى حياته أعظم النصيب من سعادتها ومن شقائها . وكان بيلاجى أحد هذه الأسماء . ولست أعلم بعد ما أنا صانع بهذا الخاطر فى التحليل . وههنا تنبثق فى خاطرى — بصدد النساء الثلاث — آلهات القدر الثلاث اللائى ينسجن مصائر الناس . وأعلم أن إحدى النساء الثلاث — وأعنى المضيفة فى الحلم — هى الأم التى تهب الحياة ثم تعطى الحى (كما كان الشأن معى) أول غذاءه . إن الجوع والحب يلتقيان على صدر المرأة . والقصة تروى عن شاب غدا من كبار المعجبين بالجمال الأنثوى ، دار الحديث عن جمال المرضع التى غذته وهو وليد ، فأعرب عن أسفه إذ لم ينتهز الفرصة بخير مما فعل . وإن

---

(١) [لا شك فى أن فرويد يعنى أول رواية من أدب المحدثين ؛ فن المقطوع به أنه كان قد قرأ معظم الأدب الألمانى المأثور وهو بتلك السن .]

أن من عادتى أن أستعين بهذه القصة لأوضح بها عامل التأثير البعدى[1] فى ميكانيكية الأعصبة . كانت إحدى الآلهات – إذن – تفرك يديها كأنها تصنع فطيراً : إنها لمشغلة عجيبة بالقياس إلى إحدى آلهات القدر[2] ، ولا بد لها من إيضاح عاجل ! إن هذا الإيضاح تحمله ذكرى أخرى ، أقدم عهدا ، من ذكريات طفولتى : فقد كان المفروض – وأنا طفل فى السادسة أتلقى من أمى أول دروسى – هو أن أصدق أننا جعلنا من طين وأننا – إذن – إلى الطين نعود ، ولكن النظرية لم ترقنى وارتبت فى أمرها ، وحينئذ فركت أمى كفيها – مثلما تفعل حين تصنع الفطير سوى أنه لم يكن عجين بين يديها – ثم أرتنى ما انفرك من القشور الصغيرة السوداء لطبقة الجلد الخارجية ، برهاناً على الطين الذى صنعنا منه . لقد كان دهشى لهذا البرهان العيانى لا يعرف حداً ، وكان أنى أسلمت نفسى لما سمعته من بعد يؤدى فى تلك العبارة : إن عليك للطبيعة ميتة[3] . وهكذا فآلهات القدر هن حقاً من أجد حين أذهب إلى المطبخ ، مثلما كنت أفعل كثيراً فى طفولتى حين كنت أحس الجوع ، وكانت أمى تأمرنى – وهى بجانب النار – بأن أنتظر حتى يعد الغذاء . – والآن إلى الفطير [بالألمانية كنودل] ! إن بين من علمونى فى الجامعة معلما واحداً على الأقل – وهو على التحقيق من أدين له بمعرفتى فى علم الأنسجة (الطبقة الخارجية للجلد) – سوف يذكره اسم كنودل [من حيث هو اسم علم] بشخص اضطر

(١) [Nachträglickheit من Nachtraglich بمعنى « من بعد» . والمراد هو أن الخبرة الماضية لا تحدث تأثيرها عند وقوعها ، بل بعد أن تنقضى حقبة من الزمن . وتأثيرها بهذا المعنى يكون « فعلا مرجأ » a deferred action – وتلك بالفعل هى الترجمة المطردة التى يستعملها ستراشى لهذا الاصطلاح . غير أن هذه الترجمة تغفل بعدا آخر من أبعاد هذه الفكرة : ذلك أن « من بعد » تعنى أيضاً أن الخبرة لا تحدث تأثيرها إلا بعد أن يعود عليها صاحبها فينظمها تنظيما جديدا ويخلع عليها معنى لم يكن لها فى المبدأ . فى القصة التى يشير إليها فرويد يخلع الشاب معنى تناسليا على علاقة لم يكن لها سوى طابع فنى . وهذا المعنى الثانى هو من غير شك المعنى الأهم وهو الذى يجعل للفكرة أصالة يستحيل معها ردها إلى تصورات علم النفس التجريبى . ولم نجد – للإبقاء على المعنيين – خيرا من أن نقول : عامل « التأثير البعدى » .]

(٢) [من المعلوم أن أولى آلهات القدر – وهى المشرفة على الولادة – كانت تمسك المغزل ، وكانت الثانية تدير البكرة ، وأما الثالثة فتقطع خيط الحياة .]

(٣) إن كلا الانفعالين اللذين صحبا هذا المشهد : الدهش والاستسلام للمحتوم – قد أتانى من قبل فى حلم سبق هذا الحلم بوقت قصير وكان أول ما ذكرنى بتلك الخبرة الطفلية [هذا ولقد استشهد فرويد بتلك الكلمات فى إحدى رسائله إلى فليس (الرسالة رقم ١٠٤) ناسبا إياها إلى شكسبير والنص الصحيح من شكسبير هو : « إن عليك لله ميتة » (الجزء الأول من هنرى الرابع ، الفصل الخامس ، المشهد الأول ، يقوله الأمير هال لفالستاف .) ولكن « وفى دينه للطبيعة » كان تعبيرا ذائعا فى زمن جوته ، يعرب عن فكرة العصر عن الموت .]

معلمي إلى مقاضاته لأنه نقل كتاباته . وأن يرتكب المرء مثل هذا النقل [پلاجيات] ، وأن يستحل لنفسه كل ما صادفه وإن كان ملكاً للغير — ذلك ما ينتقل بنا ، كما هو ظاهر ، إلى الجزء الثانى من الحلم الذى أعامل فيه مثلما عومل سارق المعاطف الذى زاول حرفته حيناً فى قاعات محاضراتنا . ولقد استخدمت كلمة « پلاجيات » [نقل أو سرقة أدبية] عن غير قصد لا لشىء سوى أنها خطرت لى ، ولكنى ألحظ الآن أن من الممكن أن تكون هذه الكلمة قد استخدمت جسراً [بروكه بالألمانيه،وهو أيضا اسم أحد أساتذة فرويد] يصل بين الأجزاء المختلفة لمحتوى الحلم الظاهر . فسلسلة المستدعيات : پيلاجى — پلاجيات — پلاجيوستوم[1] (أى سمك القرش) — مثانة السباحة عند السمك[2] ، قد وصلت الرواية التى قرأتها قديماً بحادثة كنودل وبالمعاطف التى تشير من غير خفاء إلى عدة لها وجه استخدامها الجنسى [ارجع إلى ص ٢٠٧] . (أنظر حلم مورى [عن السلسلة الجناسية] : كيلو — لوتو ، فى ص ٩٤ .) وذلك على التأكيد رباط قد بلغ الغاية من الافتعال ومن اللامعقولية ، ولكنى ما كنت قط لأجد القدرة على اختراعه ، لو لم يكن قد أنشىء من قبل فى خلال عمل الحلم . لا ، بل لكأن هذا الدافع القهرى إلى فرض الروابط لا يعرف لشىء حرمته : فها هو ذلك الاسم الموقر ، اسم بروكه (أنظر الجسر اللفظى فيما سبق) يستغل فى تذكيرى بالمعهد الذى قضيت به أسعد أيام حياتى ، طالباً خلت نفسه من كل حاجة سوى الدرس (« وهكذا أنت على صدر الحكمة ، سوف تجد فى كل يوم لذة »)[3] — بما يباين كل المباينة تلك الرغبات التى تعذبنى [فى الألمانية : پلاجن] وأنا نائم . وتنبثق أخيراً ذكرى معلم آخر أُكْبِرُهُ ، كان اسمه — فلايشل[4] [فلايش = لحم] — يجانس أيضاً اسم غذاء (مثل كنودل) ، ثم ذكرى حادثه فاجعة تدخل فيها قشور الطبقة الخارجية للجلد (الأم المضيفة) والاضطراب العقلى (الرواية) ودواء من أدوية العطارة [الترجمة

---

(١) لقد تجنبت عامداً التوسع فى صدد « پلاجيوستوم » ؛ إنه يذكرنى بمناسبة غير سارة جرت على الخزى أمام المعلم المذكور .

(٢) (Pélagie - Plagiat - Plagiostomen (Haifische) — Fischblase)

(٣) [بيتان من المشهد الرابع من الجزء الأول من فاوست : " فى مكتب فاوست " .]

(٤) [أنظر فيما يتصل ببروكه وفلايشل بعض الحقائق التى سردناها عنهما وعن صلة فرويد بهما فى هامش [وضعناه فى صفحة ٤٨٠.]

الحرفية هى : من المطبخ اللاتينى] يسكن الجوع – وهو الكوكايين .

لقد كان يسعنى أن أتابع خيوط الفكر المتشابكة على هذا النحو ، وأن ألقى الضوء كاملا على هذا الجزء من الحلم الذى لا يزال ينقصنا تحليله . ولكنى لا أجد بدا من التخلى عن هذا العمل لما يقتضيه من تضحية شخصية فادحة . وإنما أكتفى بأن أقبض على خيط واحد من بين الخيوط التى تقودنا إلى أفكار الحلم الكامنة وراء هذا الخليط : إن الرجل الغريب ذا الوجه المستطيل واللحية المدببة ، والذى يمنعنى من ارتداء المعطف - يحمل ملامح تاجر فى سپالاتو اشترت منه زوجى كثيراً من الأقمشة التركية . وكان الرجل يدعى پوپوفيتش[1] – وهو اسم مريب ، عقب عليه من قبل أحد الكتاب الفكاهيين ، هو شتيتنهايم ، بملاحظة غامزة إذ قال : وذكر لى اسمه ثم ضغط يدى وقد احمر وجهه خجلا . ولكن هأنذا أرانى من جديد إزاء ذلك اللعب بالأسماء الذى رأيناه من قبل فى پيلاجى وكنودل وبروكه وفلايشل . وما من أحد يجادل فى أن مثل هذا اللعب ضرب من الخبث الطفلى . فإذا كنت أمعن فيه ، فذلك قصاص لنفسى ؛ فقد اتفق فى مناسبات لا تحصى أن كان اسمى أيضاً ضحية لأمثال هذه المحاولات السهلة فى الفكاهة[2]. وقد لاحظ جوته مدى حساسيتنا فيما يتصل بأسمائنا التى نحس أننا قد نمونا معها نمونا فى جلدنا ، وكانت تلك الملاحظة حين نظم هردر فى اسم جوته قوله :

« أنت يا سليل الآلهة أو الغوط أو الطين » –

« هكذا باتت صوركم الآلهية تراباً » [3]

إنى ألحظ أن هذا الاستطراد حول إساءة اللعب بالاسماء إنما قصد به إلى التمهيد لتلك الشكاة . ولكن لنقفن ههنا . – إن صفقة سپالاتو تذكرنى بأخرى فى كاتارو كانت

---

(١) [پوپو لفظ يطلق فى لغة الأطفال على المؤخر .]

(٢) [" فرويد " يعنى فى الألمانية السرور .]

(٣) "Der du von **Göttern** abstammst, von Gothen oder vom Kote"
"So seid ihr **Götterbilder** auch zu Staub."

[يلاحظ القارئ أن Götter فى الكلمتين المبرزتين لا تكاد تختلف فى النطق من اسم الشاعر الكبير جوته ، وهو ما يضيع عند الترجمة . ويقول ستراشى : إن السطر الأول قد نظمه هردر فى رسالة ظريفة بعث بها إلى جوته يسأله إعارته بعض الكتب ، وبقيته : أى جوته ، ابعث إلى بها ! وأما السطر الثانى فيلحق بالأول فى ذهن فرويد على سبيل الاستدعاء الحر ، وهو مستمد من مسرحية جوته المنظومة : " إيفيجينيا فى توريدا " ، تعرب به إيفيجينيا من ألمها حين ينبؤها پيلاد أى عدد من الأبطال ماتوا فى أثناء حصار طروادة .]

يدى فيها شديدة القبض فضاعت على فرصة الظفر بشيء جميل . (فوات الفرصة على صدر المرضع ، أنظرما سبق .) فبين الأفكار التى أوحاها الجوع إلى الحالم فكرة ذلك فحواها : إن من الواجب ألا يدع المرء شيئاً يفوته وأن يأخذ المرء كل ما استطاع أخذه وإن جر ذلك بعض الجور ، على المرء ألا يضيع فرصة ؛ فالحياة قصيرة والموت محتوم . ولما كان هذا الدرس فى « اغنم من الحاضر لذاته »[1] يرسل على إطلاقه وكانت الشهوة لن تحجم عن الجور ، فقد حقت له خشية الرقابة وحق عليه أن يستتر بحلم . ومن ثمت كان الإعراب عن أفكار مضادة من كل نوع : من ذكرى الزمن الذى كان الحالم يقنع فيه بالغذاء الروحي وحده ، إلى أفكار تتصل بكل ضروب الموانع ، لا ، بل إلى تهديدات بألوان من العقاب الجنسى من أشد ما يكون تنفيراً .

(٢) وها هو ذا حلم ثان يتطلب تمهيداً طويلا بعض الطول :

كنت قد ركبت عربة إلى محطة الغرب [فى ڤيينا] لكى أبدأ منها رحلة الإجازة إلى آوسى . بيد أنى وصلت إلى الرصيف مبكراً وقطار إشل الذى يرحل قبل قطار آوسى لا يزال واقفاً . وهناك لمحت الكونت تون[2] فى طريقه مرة أخرى إلى مقابلة الإمبراطور فى إشل . جاء الكونت على رغم المطر فى عربة مكشوفة ، ثم مرق لا يلوى على شىء من مدخل قطر الضواحى ، منحيا بإشارة مقتضبة من يده لا يصحبها أى إيضاح حارس الباب الذى لم يعرفه وأراد أن يأخذ التذكرة منه . وكان الواجب على بحسب النظم أن أغادر الرصيف عائداً إلى حجرة الانتظار بعد أن رحل قطار إشل ، بيد أنى استطعت — بعد شىء من الجهد — أن أحصل على إذن بالبقاء . وأخذت أقطع الوقت أترقب من ذا الذى يأتى فيحاول أن يحصل بطريق المحسوبية على مقصورة محجوزة ، عاقداً العزم على أن أرفع الصوت عندئذ بالشكوى ؛ أى على المطالبة بحق مماثل . وفى هذه الأثناء كنت أدندن بشىء لم ألبث أن عرفت فيه ذلك اللحن من زواج فيجارو :

---

(١) [carpe diem كلمة ذائعة لهوراس ترجمتها الحرفية « اغنم يومك » ولها المعنى الذى لكلمة الخيام المعروفة .]

(٢) [رجل من رجال الدولة النمسويين ، ذو آراء رجعية ، عاش بين عامى ١٨٤٧ — ١٩١٦ . كان يريد قيام حكومة ذات استقلال ذاتى فى بوهيميا ، معارضا مطالب الوطنيين الألمانيين . ولى الوزارة عام ١٨٩٨ ، ١٨٩٩ . — وأما إشل Ischl فكانت المصيف الرسمى للبلاط ، بأعالى النمسا .]

إذا أراد سيدى الرقص ، الرقص ،
فما عليه سوى الطلب ،
وأنا كفيل بالعزف .

(وما أظن أن أحدا غيرى كان ليعرف ماذا أغنى .)

لقد كنت طيلة المساء فى مزاج ثائر شكس ، فتهكمت بالندل وبسائق العربة – دون أن أجرح شعورهما ، أو هذا على الأقل ما أرجوه . وتجول الآن برأسى خواطر جريئة ثورية من كل صنف ، خواطر تتفق وكلمات فيجارو وتتفق وذكرى مسرحية بومارشيه التى رأيتها تمثل فى الكوميدى فرانسيز : كلمة فيجارو عن كبار السادة الذين كبدوا أنفسهم عناء المجىء إلى الحياة ، حق السيادة الذى يريد الكونت ألماڤيڤا أن يستولى باسمه على سوزانا [حبيبة فيجارو] ، ثم النكات التى تجريها جرائد المعارضة الخبيثة عندنا حول اسم الكونت تون إذ تسميه الكونت نيختستون[١] . حقاً ، لست أحسده ؛ فهناك مقابلة عسيرة تنتظره مع الأمبراطور . وما الكونت « فاعل لا شىء » حقيقة إلا إياى : فأنا المسافر حرا طليقاً فى إجازة . وتتالى ذلك ألوان من المشاريع السارة أدبرها . ثم يقبل سيد كنت قد عرفته مراقباً موفداً من قبل الحكومة فى امتحان كلية الطب واستحق على نشاطه فى هذا المضمار أن يلقب بذلك اللقب اللطيف : « نَوَّام الحكومة » . إنه يطلب بماله من صفة رسمية نصف تذكرة بالدرجة الأولى . وأسمع أحد الموظفين يسأل موظفاً آخر : « بأى مقصورة نضع السيد صاحب نصف تذكرة الدرجة الأولى ؟ » ذلك أيضاً لون طريف من ألوان التفرقة ؛ فأنا قد دفعت درجتى الأولى كاملة . صحيح أننى حصلت على مقصورة كاملة ، ولكنها فى عربة لا دهليز لها ، بحث أظل طيلة الليل ولا مرافق فى متناولى . وأشتكى إلى الموظف ، فلاتثمر الشكاة شيئاً ، فأثأر لنفسى بأن أقترح عليه أن يصنع على الأقل ثقباً بأرض تلك المقصورة ؛ فقد يحتاج إليه المسافرون . ثم فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من الصباح ، أستيقظ حقيقة – وبى حاجة ملحة إلى التبول – من الحلم الآتى :

حشد من الناس ، اجتماع طلبة . – يخطب فى الجمع كونت (اسمه تون أو تافه[٢] .) يتحداه البعض أن يقول

---

(١) [أى الكونت " فاعل لا شىء " .Thun (تون) يعنى أيضاً " فعل " و Nichts يعنى "لا شىء " .]

(٢) [Taaffe(١٨٣٣ – ٩٥) سياسى ألمانى ، ولى رياسة الوزارة بين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٧١ ثم من ١٨٧٩ إلى ١٨٩٣ . وكان مثل الكونت تون يحبذ منح الاستقلال الذاتى للأجزاء غير الألمانية من الإمبراطورية النمسوية .]

شيئاً عن الألمان ، فيجيب بحركة تنم عن الازدراء : إن زهرتهم المفضلة هى حشيشة السعال ، ثم يثبت فى عروته شيئا أشبه بورقة ممزقة من أوراق الشجر — أو على الأصح هيكلها الجعد . أهب ثائراً ، وأهب ثائراً[1] بيد أننى أعجب مع ذلك لانفعالى هذا . ثم فى وضوح أقل: المكان أشبه بقاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة [Aula] . الأبواب محاصرة ولا بد من الفرار . أشق طريقى فى سلسلة من الغرف فرشت فرشاً جميلا ، كان جلياً أنها حجرات رسمية ، نجد أثاثها بلون متوسط بين البنى والبنفسجى . وأخيراً أبلغ بهوا جلست فيه خادم — امرأة عجوز بدينة . أتجنب التحدث إليها ، ولكن كان من الواضح أنها كانت تحسب أن لى حقاً فى المرور من هناك ؛ لأنها تسألنى : هل ترافقنى بالمصباح ؟ أفهمها أو أقول لها : إن عليها أن تلزم السلم ، ويهيأ إلى فى أثناء ذلك أننى شديد المهارة ، إذ نجحت فى أن أفلت فى النهاية من التفتيش وهكذا بلغت أسفل السلم ، فأرى أمامى طريقاً ضيقة شديدة الصعود ، أمضى فيها .

وفى غير وضوح كذلك : . . . كأنما مشكلتى الثانية هى الفرار من المدينة كما فررت قبل ذلك من المنزل . أركب عربة وأطلب من السائق أن يذهب بى إلى إحدى محطات السكة الحديدية . أقول للسائق وقد أثار اعتراضاً ما كأن أكون كلفته ما لا يطيق : « إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة الخط الحديدى نفسه . » لكأنما كنت فى أثناء ذلك قد ركبت معه بالفعل جزءاً من المسافة التى يركبها المرء عادة بالقطار . المحطات محاصرة ، وأنا أفاضل بين الذهاب إلى كرمس أو إلى تسنايم . بيد أننى أفكر فى أن البلاط ربما كان مقيما هناك ؛ فأعقد العزم على الذهاب إلى جراتس أو إلى مكان يشبهها . أجلس الآن فى عربة قطار أشبه بعربة من عربات خط الضواحى ، وفى عروتى شىء غريب الشكل ، مضفر ، مستطيل ، علته أزهار بنفسج ذات لون بنفسجى بنى ، صنعت من قماش خشن ، ويعجب الناس لذلك كثيراً . وهنا ينقطع المشهد .

أرانى أمام المحطة مرة أخرى ، بيد أننى فى صحبة سيد هرم . أفكر فى خطة تمكننى من البقاء مجهول الشخصية ، ولكننى أجد الخطة قد تحققت بالفعل : كأنما كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً . يبدو ذلك السيد فاقد البصر أو على الأقل أعور ، أمد له مبولة زجاج الرجال (كان علينا أن نشتريها من المدينة أو أننا اشتريناها فعلا) أنا إذن ممرض ومن واجبى أن أمد له المبولة لأنه أعمى . لو أن المفتش رآنا بتلك الحال لتغاضى من غير شك عنا . هنا يظهر العيان فى صورة تامة الشكل وضع الرجل وعضوه المتبول . وفى هذا الموضع كان أنى استيقظت وبى حاجة إلى التبول .

إن هذا الحلم فى جملته يلوح تخييلا يحمل الحالم إلى ثورة عام ١٨٤٨ التى جدد ذاكرها يوبيل [الإمبراطور فرانسيس جوزيف] عام ١٨٩٨ ، كما جددتها ذكرى رحلة

(١) تكرار تسلل وأنا أسجل الحلم دون أن يكون لذلك سبب ظاهر سوى السهو . ولكننى تركته كما هو ؛ فسوف يبين التحليل أن له معناه .

قصيرة إلى ڤاشاو ، زرت فى أثنائها إمرسدورف[1] حيث مثوى زعيم حركات الطلبة فيشهوف الذى ربما كان فى بعض عناصر الحلم ما يومئ إليه . وتذهب بى المستدعيات بعد ذلك إلى إنجلترا ، إلى منزل أخى الذى دأب على أن يمازح زوجه بأن يردد على مسمعها تلك الكلمات المقتبسة من عنوان لإحدى قصائد اللورد تنيسون : « منذ خمسين عاماً مضت »[2] فيصححها الأطفال قائلين : منذ خمسة عشر عاماً . بيد أن هذا التخييل الذى تفرع عن الخواطر التى أثارتها فى نفسى رؤية الكونت تون يخلو – مثل واجهة كنيسة إيطالية – من كل رابطة عضوية تجمع بينه وبين البناء الذى من خلفه ، وإن كان يختلف بعد ذلك من مثل تلك الواجهة فى أنه ملىء بالثغرات ، مشوش ، وفى أن بعض الأجزاء الداخلية قد برزت فى كثير من المواضع . فالموقف الأول من الحلم خليط من مشاهد متعددة أستطيع أن أفرق بينها . فالهيئة المتعاظمة التى اتخذها الكونت فى الحلم تنسخ مشهدا وقع فى المدرسة الثانوية ، كنت حينه فى الخامسة عشرة من عمرى : فقد كنا تآمرنا على معلم مكروه جاهل ، وكان الروح المحرك للمؤامرة رفيقاً تدل الدلائل على أنه – منذ ذلك الحين قد اتخذ من هنرى الثامن ملك إنجلترا مثالا يحتذى . وكانت قيادة الضربة القاضية قد وكلت إلىّ . وكانت العلامة المؤذنة بالثورة المكشوفة هى أن نفتتح نقاشا فى أهمية الدانوب بالنسبة إلى النمسا (أنظر ڤاشاو[3]) . وكان فى زمرة المتآمرين الرفيق الوحيد الأرستوقراطى الأصل بيننا ، وكنا نسميه « الزرافة » لما كان بأطرافه من طول مفرط . وأذكر أنه حين أخذ يناقشه الحساب طاغية المدرسة – وأعنى به أستاذ اللغة الألمانية – قد وقف بمثل وقفة الكونت فى الحلم . وأما الزهرة المفضلة ووضعى فى العروة شيئا لا بد من أن يكون أيضاً زهرة (وهو ما يجعلنى أفكر فى سحالب كنت أحضرتها فى ذلك اليوم إلى صديقة لى ، وأفكر فوق ذلك فى وردة من ورد أريحا[4]) فيذكرانى تذكيراً عجيباً

---

(١) ڤاشاو ذلك خطأ ، لكنه ليس هفوة هذه المرة ! فما علمت إلا فيما بعد أن إمرسدورف الواقعة فى ڤاشاو هى غير البلد المسمى أيضاً بهذا الاسم والذى أوى إليه الزعيم الثورى فيشهوف .

(٢) [بالإنجليزية فى الأصل . ويقول ستراشى : إنه لا يبدو أن لتنيسون قصيدة لها هذا المطلع .]

(٣) [ڤاشاو شعبة من وادى الدانوب تبعد قرابة الخمسين ميلا من ڤيينا .]

(٤) [نسبه إلى أريحا وهى أول بلد استولى عليه بنو إسرائيل بعد أن عبروا الأردن على حسب قصة ذائعة تجدها فى الإصحاح السادس من سفر يشوع . ولهذا النوع من الورد خاصة عجيبة هى أنه يذوى فى الجفاف ثم لا يلبث أن يبعث إلى الحياة إذا وجد فى الرطوبة . وهو – إذن – ورد " البعث " .]

بالمشهد الذى يصور فى إحدى روايات شكسبير التاريخية[١] ابتداء حروب الوردتين الحمراء والبيضاء — وورود ذكر هنرى الثامن قد مهد السبيل لهذه الذكرى . والمسافة بعد ذلك غير بعيدة من الورد إلى القرنفل الأحمر والأبيض . (وفى هذه الأثناء يتسرب إلى التحليل سطران من الشعر أولهما ألمانى وثانيهما أسبانى : ورد خزامى أو قرنفل ، كل الأزهار تذبل . — إيزابليتا لا تبك ، فالأزهار من بكائك تذوى[٢]) . والبيت الأسبانى يرجع بى إلى « فيجارو ») والقرنفل الأبيض قد صار عندنا ، فى ڤيينا ، شارة أعداء الساميين بينما الأحمر شارة الاشتراكيين الديموقراطيين . ومن وراء ذلك تكمن ذكرى حادثة من حوادث استفزاز الساميين وقعت فى خلال رحلة بالسكة الحديدية فى ريف ساكس الجميل (أنظر آنجلو ساكسون) . وأما المشهد الثالث الذى شارك فى تكوين الموقف الأول من الحلم فيرجع إلى السنين الأولى من حياتى المدرسية : فقد جرت فى ندوة للطلبة الألمان مناقشة فى علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية ، فاندفعت — وأنا لا أزال فتى غضاً ملأت رأسه النظريات المادية — أذود عن وجهة نظر متطرفة لا مهادنة فيها . وهنا نهض زميل يكبرنى سناً وعقلا ، أبدى منذ ذلك الحين قدرته على توجيه الرجال وتنظيم الجماعات وكان بعد يحمل اسما من المملكة الحيوانية[٣] ، نهض فألقمنا حجرا : فهو أيضاً قد رعى الخنازير فى صباه ثم رجع تائباً إلى بيت أبيه[٤]. وعندئذ هببت ثائراً (كما فى الحلم) وأجبته ، فى غلظة الخنزير[٥] : أننى وقد علمت أنه قد رعى الخنازير يوما ، لا أعود أدهش للهجة خطابه . (فى الحلم أدهش للموقف الوطنى الألمانى الذى اتخذته .) وهنا عم الصخب ، وارتفعت الأصوات من جوانب متعـــددة تطالبنى بأن أسحب

(١) [الجزء الثالث من هنرى السادس الفصل الأول ، المشهد الأول .]

(٢) [Isabelita, no llores, que se marchitan las flores.]

(٣) [المظنون أنه فيكتور آدلر (Adler = نسر) الزعيم الاشتراكى الديمقراطى (١٨٥٢ — ١٩١٨). وانظر الإشارة التى سترد قريبا إلى هذا الاسم .]

(٤) [إشارة إلى مثال معروف للسيد المسيح تجده فى إنجيل لوقا ، الإصحاح الخامس عشر ، ويضرب للمرء يركب رأسه ثم يعود إلى عشيرته مستغفرا .]

(٥) [ترجمة حرفية لوصف جار : saugrab .]

كلمتى ، ولكننى ثبت على موقفى . وكان الزميل المهان أعقل من أن يرى فى تلك البادرة تحدياً موجها إليه ، فترك المسألة تهدأ من تلقاء نفسها .

وأما العناصر المتبقية من هذا الموقف الأول فى الحلم فتنبعث من طبقات أعمق . فما معنى أن يعلن الكونت عن « حشيشة السعال » ما أعلنه ؟ لا مناص لى هنا من أن أسال مستدعياتى ، فأجد : حشيشة السعال [والترجمة الحرفية لاسمها الألمانى هى : خس الحافر] – خس – سلطة – كلب السلطة[(١)] إننا نجد هنا ذخيرة من أسماء الشتائم : زرَ – افه [« آفه » بالألمانية معناه القرد] ، خنزير ، كلب – وكان يسعنى لو قد عرجت على اسم آخر أن أتوصل إلى حمار ، وأن أجرح بذلك مدرساً جامعياً آخر . وأنا – عدا ذلك – أترجم حشيشة السعال إلى الفرنسية – ولست أدرى هل الترجمة صحيحة أم لا – بكلمة "pisse-en-lit"[(٢)]. ولقد استنتجت ذلك من رواية زولا « جرمينال » ففيها نرى الأطفال يكلفون بجمع هذا النبات لأجل السلطة . والكلب ينطوى اسمه الفرنسى — chien — على جناس مع اللفظ الدال على الوظيفة العضوية الكبرى (Chier [تبرز] مثل pisser بالنسبة إلى الوظيفة الأصغر) . ولا يلبث أن تجتمع لنـــا القذارة فى كل حالاتها المادية [الصلبة والسائلة والغازية] : فإن تلك الرواية عينها « جرمنيال » – وهى تدور إلى مدى كبير حول الثورة القادمة – قد اشتملت على وصف منافسة فريدة فى نوعها حول إنتاج مستخرج غازى اسمه فلاتوس[(٣)] [نفس أو ريح] . ولا يسعنى الآن إلا أن ألحظ كيف مُهِّدت الطريق المؤدية إلى « فلاتوس » هذا منذ أمد طويل : من الأزهار عبر البيت الإسبانى إلى إيزابليتا ، إلى إيزابيلا وفرديناد ثم عبر هنرى الثامن إلى التاريخ

---

(١) ["Salathund" أى « كلب السلطة » تعبير نمسوى يقال لمن استيأس فى التشبث بشىء لا عن رغبة منه فيه بل لأن غيره قد رغب فيه . ومنشأ هذا التعبير قصة لاقت ذيوعا عظيما الكاتبة أوجينى شفارتسفالد عن كلب لم يكن يعطيه صاحبه سوى الخس وكان الكلب لا يأكله إلا راغما ، إلى أن جاء يوما كلب أدقع منه فقرا فأراد أن يزاحمه فى أوراق الخس هذه ، فنهض الكلب يطرد غريمه ويدافع عن خسه دفاع المستميت .]

(٢) ["Pissenlit" فى الحقيقة هو الهندب أو الخس البرى . تقطيع الكلمة على النحو الوارد فى النص يجعلها تحتمل هذا المعنى : بال فى السرير .]

(٣) وهوما لم يرد فى الحقيقة فى Germinal بل فى La terre [الأرض] – وهى غلطة لم ألحظها إلا بعد أن فرغت من التحليل . – لاحظ الاشتراك فى الحروف بين "flatus" و "Huflattich" [حشيشة السعالى] .

الإنجليزى وقت حملة الأرمادا [التى شنها الأسبان] على إنجلترا ، وهى الحملة التى صك الإنجليز بعدها « ميداليا » حفروا عليها تلك الكلمات : « ونفخ ، فتبعثروا »(١) ؛ لأن الريح قد بعثرت شمل الأسطول الإسبانى (٢). ولكن تلك كلمات كنت قد فكرت نصف مازح فى أن أتخذها عنواناً لفصل عن « العلاج » ، لو قد بلغت يوماً إلى أن أكتب شرحاً مفصلا لنظريتى فى الهستريا وعلاجها .

وأما المشهد الثانى من الحلم فلست أستطيع الخوض فيه بمثل هذا التفصيل ، حاسباً للرقابة حسابها . فأنا أضع نفسى هنا فى مكان سيد رفيع المقام من رجال ذلك العهد الثورى ، كانت له أيضاً مغامرة مع نسر [آدلر] ، وقيل إنه كان يعانى فقدان القدرة على ضبط الأمعاء ... الخ .. وأعتقد أننى لا أكون محقاً فى تجاوز الرقابة هنا ، وإن يكن الجانب الأكبر من تلك القصة قد رواه لى مستشار بالبلاط (Aula, conciliarius aulicus)(٣) . وأما سلسلة الحجرات فمشتقة من عربة القطار الخاصة بصاحب السمو والتى كنت أفلحت فى أن ألقى نظرة عليها . ولكن الحجرات [Zimmer] – كما هو الحال غالباً فى الأحلام – تعنى أيضاً النساء [Frauenzimmer] (٤) – و « نساء مشاعة » فى هذا المثال . وأما شخص الخادم فيومئ إلى سيدة عجوز بارعة النكتة إيماء أجزيها به سوءاً على حسن ترحيبها وعلى القصص العديدة الطيبة التى كانت تغدق بها على فى منزلها . – وأما الإشارة إلى المصباح فترجع إلى جريلپارتسر (٥) الذى دون

---

(١) [Flavit et dissipati sunt]

(٢) [١٩٢٥ :] أخذ على كاتب تطوع بتأريخ حياتى غير مرجو – هو الدكتور فريتس ڤيتلز أننى حذفت اسم « يهوه » من تلك الكلمات . [١٩٣٠ :] وإن المداليا الإنجليزية لتحمل اسم الرب بالحروف العبرية على سحابة فى الخلف ، بحيث يستطيع المرء أن يراها على أنها جزء من الرسم أو من تلك الكلمات على السواء .

(٣) ["Aula" هى الاسم الذى كان يطلق على قاعات الاحتفالات الكبرى بالجامعة (أنظر صدر المشهد الثانى من الحلم) ومن معانيها فى اللاتينية " بلاط الملك " . أما « مستشار البلاط » أو « مستشار ملكى » فترجمة حرفية للكلمة الألمانية "Hofrat" ، وهو لقب كان يمنحه الإمبراطور لكل من امتاز بخدمة طويلة مشهودة فى وظائف الحكومة أو فى الحياة العامة ، دون أن تعنى أن لصاحبها أقل صلة بالبلاط .]

(٤) [ومعناه بالحرف " حجرة النساء " لفظ جار يطلق فى اللغة الألمانية – مع شىء من التحقير – على النساء .]

(٥) [من أكبر كتاب النمسا المسرحيين فى القرن الماضى (١٧٩١ – ١٨٧٢) . لا تزال مسرحياته تمثل إلى اليوم .]

حادثة ظريفة من نوع مماثل كانت قد وقعت له حقيقة ، ثم أدرجها بعد ذلك فى مأساته « هيرو وليآندر » [١] (أمواج البحر والحب — الأرمادا والعاصفة) . [٢]

ولست أجد كذلك بدا من أن أمسك عن التحليل المفصل للجزئين الباقيين من هذا الحلم [٣] . وأكتفى بأن ألتقط تلك العناصر التى تقودنا إلى مشهدى الطفولة اللذين ما أخذت فى مناقشة هذا الحلم على الإطلاق إلا من أجلهما . وسنحذر بحق أن هذا التكتم قد ألجأت إليه مادة جنسية ، ولكننا لا نحتاج إلى أن نقف عند هذا التعليل قانعين ؛ فكثيرة هى الأمور التى يصارح بها المرء نفسه وإن واراها عن غيره اضطرارا . ثم إن المسألة لا تتعلق ههنا بالأسباب التى تحملنى على أن أخفى الحل ، بل بدوافع الرقابة الباطنة التى أخفت المحتوى الصحيح للحلم عنى نفسى . وعلى ذلك لا أجد مناصاً من أن أقول : إن التحليل قد بين أن هذه الأجزاء الثلاثة [الأخيرة ، بعد الجزء الخاص باجتماع الطلبة والكونت الخطيب] إنما هى مباهاة سليطة ، دفقة من جنون باطل بالعظمة كبحت جماحه فى حياتى المستيقظة زمناً طويلا ، واقتحمت بعض شعابه محتوى الحلم الظاهر نفسه (هيئ إلىّ أننى كثير الدهاء) ، ثم هو يجعلنا من غير شك نفهم أحسن الفهم ذلك المزاج الفائر المتعاظم الذى كنت فيه فى المساء الذى سبق الحلم . وقد شملت المباهاة جميع الميادين ؛ فذكر [مدينة] جراتس — مثلا — كان يرجع إلى تلك الجملة العامية : « ما ثمن جراتس ؟ » — وهى الجملة التى يعرب بها المرء عن اغتباطه إذ يشعر بوفرة المال . وكل من يذكر وصف رابليه المنقطع النظير فى حياة جارجانتوا وابنه بانتاجرويل [٤] وأعمالهما

---

(١) [ليآندر فتى من أبيدوس أحبته « هيرو — وكانت كاهنة لڤينوس — أغرق نفسه فى الدردنيل .]

(٢) [١٩١ :] لقد حاول سيلبرر (١٩١٠) فى مقال هام أن يدلل من هذا الجزء من حلمى على أن عمل الحلم لا يملك تمثيل الأفكار الكامنة وحدها ، بل كذلك العمليات النفسية التى تقع فى خلال تكوينه (وهو ما يسميه " الظاهرة الوظيفية ") . [١٩١٤ :] بيد أننى أعتقد أنه يغفل بذلك تلك الحقيقة : وهى أن "العمليات النفسية التى تقع عند تكوين الحلم " إنما هى بالنسبة إلى مادة تشغل فكرى شأنها شأن غيرها . فمن الواضح أننى أفخر فى هذا الحلم المتباهى بأننى قد اكتشفت تلك العمليات .

(٣) [إلا أن فرويد يحلل الجزء الأول منهما (ركوب العربة إلى المحطة) ، فيما بعد ص ٤٣١ .]

(٤) [من وقائع جارجانتوا الذائعة واقعة سوف يشار إليها فى هذا الكتاب وهى أنه اعتلى كنيسة نوتردام بباريس وبال على أهلها " بولا عنيفا حتى أغرق منهم مائتين وستين ألفا وأربعة مائة وثمانية عشر رجلا عدا النساء والأطفال " . وله ولابنه وقائع متعددة فى هذا الباب وما يعدله .]

سوف يدرج تحت باب المفاخرة ما ألمحت إليه الفقرة الأولى من الحلم كذلك . ولكن ها هى ذى تلك المادة التى ينتسب إليها مشهدا الطفولة اللذين وعدت بهما: كنت قد اشتريت من أجل تلك الرحلة حقيبة جديدة ، ظهر لونها – وكان بنياً بنفسجياً – مرات متعددة فى الحلم (أزهار البنفسج ذات اللون البنى البنفسجى ، المصنوعة من قماش خشن ، بجانب شيء يسمى « مصيدة بنات[1] » ، ثم أثاث الحجرات الرسمية) . ونحن نعلم أن الأطفال يعتقدون أن كل جديد يجذب الأنظار . ولقد قص على هذا المشهد من مشاهد طفولتى الذى حلت روايته فى ذاكرتى محل ذكراه ، قيل : إننى وأنا فى الثانية من عمرى كنت لا أزال أبلل فراشى بين الحين والحين ، وكنت إذا قرعنى والدى على ذلك عزيته واعدا إياه بأن أبتاع له سريراً جميلا جديداً أحمر اللون من ن . – وهى أقرب مدينة لها بعض الحجم إلينا . ومن هنا جاءت فى الحلم تلك الجملة الاعتراضية فيما يتصل بالمبولة الزجاجية ؛ اشتريناها من المدينة أو كان علينا شراؤها – إذا وعد المرء فقد حق عليه الوفاء . (ونلاحظ التجاور بين المبولة الزجاجية – رمز مذكر – والحقيبة أو الصندوق – رمز مؤنث [أنظر ص ١٧٨] .) إن كل جنون العظمة عند الطفل متضمن فى وعدى هذا . ولقد عرفنا من قبل ونحن نفسر حلماً سابقاً مدى ما يكون لصعاب الطفل المتصلة بالتبول من خطر فى الحلم [أنظر ص ٢٢٠] . كما أن التحليل النفسى للعصابيين قد علمنا مدى الارتباط الوثيق بين بلل الفراش وبين تلك السمة من سمات الطبع التى هى الطموح[2] .

ثم جاء بعد ذلك – وأنا فى السابعة أو الثامنة من العمر – مشهد عائلى آخر ما زلت أذكره أبين الذكر : فقد تغاضيت يوماً عما ينهى عنه الاحتشام من إجابة بعض الحاجات فى غرفة الوالدين وفى محضرهم ، وكان أن ألقى والدى – وهو يقرعنى – بتلك الملاحظة : هذا الولد لن يصير شيئاً ما . ولا بد أن هذه كانت صدمة مروعة لطموحى ؛ فالإشارات إلى هذا المشهد لا تزال تترى فى أحلامى من غير انقطاع ، مصحوبة بتعديد ما حققته وأصبت فيه نجاحاً ، كأنما أريد أن أقول: « أترى ؟ لقد صرت مع ذلك شيئاً .» وهذا المشهد الطفلى يزودنا الآن بالمادة التى نسجت منها صورة الحلم الأخيرة بعد أن تبودلت فيها الأدوار بدافع من الانتقام بالطبع : فالرجل العجوز – من الواضح أنه والدى ؛

(١) [تعبير بمعنى عربيد أو قناص نساء .]

(٢) [الجملة الأخيرة قد أضيفت عام ١٩١٤ .]

وما يشير العور إلا إلى الجلوكوما التى أصابت عينا من عينيه[1] — هو الذى يتبول الآن أمامى ، شأنى أمامه من قبل . ثم إن فى الجلوكوما تذكيراً لوالدى بالكوكايين الذى أعانه على احتمال العملية التى أجريت له [أنظر ص ١٩٣] ، كأنما كنت بذلك قد حققت وعدى . وأنا بالإضافة إلى ذلك أهزأ به : فهو أعمى ، وأنا لذلك مضطر إلى أن أمد له الزجاجة ، ثم أسترسل فى تلميحات إلى مكتشفاتى فى نظرية الهستريا التى أنا فخور بها[2].

ولكن إذا كان مشهدا التبول المستمدان من طفولتى مرتبطين على أية حال بباب

---

(١) وتفسير آخر : إنه أعور مثل أودين ، أبى الآلهة [فى الأساطيز الجرمانية] . — عزاء أودين [اسم رواية أسطورية كتبها Felix Dahn عام ١٨٨٠] . — تعزيتى إياه فى مشهد الطفولة بوعده بشراء سرير جديد .

(٢) وها هى ذى مادة تفسيرية أخرى : إن الإمساك بالزجاجة يذكرنى بقصة الفلاح الذى ذهب إلى النظاراتى فظل يجرب الزجاجة [أى العدسة] بعد الزجاجة دون أن يستطيع القراءة . — (مصيدة فلاحين [ويقال للمحتال] — مصيدة بنات ، فى الفقرة السابقة من الحلم .) — المعاملة التى يلقاها الأب على أيدى الفلاحين بعد أن ضعف عقله فى رواية زولا «الأرض» — المقاصة الفاجعة حين أخذ والدى فى أواخر أيام حياته يوسخ الفراش بدوره كالطفل ، ولهذا كان أنى ظهرت ممرضا . — " كان التفكير والخبرة الفعلية شيئا واحدا هنا ". يذكرنى ذلك بمسرحية أدبية ذات طابع ثورى عنيف كتبها أوسكار پانيتسا ، فيها يلقى الآب — وقد تشكل فى صورة رجل عجوز مشلول — شر المعاملة ، و" كن " و " يكون " كانتا هنا شيئا واحدا ، فكان على ملاك من ملائكته — أشبه بجانيميد [ساقى الآلهة فى الأساطير اليونانية] — أن يحول بينه وبين اللعن والسب وإلا تحققت دعواته على الفور . — وأما التفكير فى خطة فلوم موجه إلى والدى يرجع إلى فترة لاحقة فى نمو ملكتى النقدية . والحق أن كل محتوى الحلم بما فيه من تمرد ومن عيب فى الذات الملكية وانتقاص للسلطة العليا إنما يرجع إلى ثورة على والدى . فالأمير يدعى أبا الشعب ، والأب أقدم السلطات وأولها ، وهو بالنسبة إلى الطفل السلطة المفردة ، ومن هيمنته المطلقة خرجت فى خلال تاريخ الحضارة سائر السلطات (اللهم إلا بالقدر الذى يقتضى به « النظام الأموى» تقييد هذه القضية) . — وجملة الحلم : «كان التفكير والخبرة الفعلية شيئا واحدا » تتصل بتفسير الأعراض الهسترية ، وبهذه أيضا تتصل المبولة الزجاجية . فلست أحتاج إلى أن أشرح لمن كان من أهل ڤيينا ما هو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه اللعبة المسماة "Gschnas" : إنها تتلخص فى أن تركب من مواد تافهة أو — وهو أفضل — مضحكة ، معدومة القيمة موضوعات تبدو نادرة غالية ، كأن تصنع درعا من أوعية المطبخ والقش وأرغفة الخبز المكورة وغيرها — وهى تسلية يشغف بها فنانونا فى سهراتهم البوهيمية . ولقد لاحظت أن الهستريين يجرون على تلك الوتيرة : فهم إلى جانب ما يقع لهم حقيقة يهيئون لأنفسهم — لا شعوريا — أحداثا متخيلة ، مروعة أو منحرفة ، يركبونها من أقل خبراتهم ضررا أو أكثرها ألفة . وأعراضهم ترتبط فى المرتبة الأولى بهذه التخييلات وليس بذكريات الأحداث الحقيقية ، سواء أكانت هذه أحداثا جدية أم كانت أحداثا خالية من الشأن . ولقد أعاننى هذا الكشف على كثير من الصعوبات ، وجلب لى سرورا لا يعدله سرور . وأما الذى مكننى من الإلماع إلى هذا كله بوساطة هذا العنصر من الحلم ، " مبولة الرجال الزجاجية " ، فهو ما سمعته عن ليلة « الكشناس » الأخيرة من أن كأسا سامية من كئوس لوكريس بورجيا قد عرضت فيها ، وكان هيكلها وأهم أجزائها مكونا من مبولة زجاجية للرجال ، من قبل ما يستعمل فى المستشفيات .

الجنون بالعظمة أوثق الارتباط ، فقد أعان بعد ذلك على تنبيهما فى خلال رحلة آوسى ما اتفق من خلو مقصورتى من المرافق ومن أننى كنت أتوقع تلك الورطة ، مثلما حدث بالفعل فى الصباح : فقد استيقظت إذ ذاك وأنا أشعر بحاجة عضوية . وأغلب ظنى أننا قد نميل هنا إلى أن نرى فى هذا الشعور العامل الذى أطلق الحلم فعلا . ولكننى أوثر وجهة نظر أخرى ، هى على التحقيق : أن الحاجة إلى التبول إنما بعثت عليها أفكار الحلم . فإنه لأمر غريب على كل الغرابة أن تزعجنى فى أثناء النوم حاجة جسمية من أى نوع كانت ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى استيقظت فيه ـ الثانية والخامسة والأربعون. ويبقى اعتراض آخر أدفعه بأن ألاحظ أننى لم أشعر قط فى رحلات أخرى تحقق لى فيها من أسباب الراحة قسط أوفر بالحاجة إلى التبول بعد الاستيقاظ مبكراً . وليس يضيرنى على أية حال أن أترك تلك المسألة من غير بت .

ولما كانت خبراتى فى تحليل الأحلام قد جذبت انتباهى إلى أنه حتى تلك الأحلام التى يبدو تفسيرها للوهلة الأولى أمراً مفروغاً منه لأننا اكتشفنا من غير عناء مصادرها والرغبات الحافزة إليها ـ تخرج منها هى الأخرى خيوط تمتد إلى أبعد عهود الطفولة ، فإنى لم أجد مفرا من أن أسأل : هل هذه الخاصة أيضاً شرط جوهرى من شروط الحلم ؟ ومعنى ذلك ـ إذا وضعنا القضية فى صورة كلية ـ هو أن كل حلم يرتبط فى محتواه الظاهر بخبرات حديثة العهد ، لكنه ـ فى محتواه الكامن ـ مرتبط بأشد الخبرات قدما ، تلك الخبرات التى تمكنت من أن أبين بالفعل فى تحليل الهستريا أنها قد ظلت على حداثتها بالمعنى الصحيح للكلمة حتى الزمن الحاضر. بيد أن هذا الظن ما زال يبدو بحق صعب البرهان غاية الصعوبة ، وسوف أعود فى مناسبة أخرى (الفصل السابع [القسم ب ، ص٥٤٣ـ٥٤٤]) إلى مناقشة النصيب المحتمل الذى تقوم به خبرات الطفولة المبكرة فى تكوين الحلم.

فإذا رجعنا إلى الخصائص الثلاث التى تتميز بها الذاكرة فى الحلم والتى أحصيناها فى مطلع هذا الفصل ، وجدنا أن الواحدة ـ تفضيل ما هو ثانوى فى محتوى الحلم ـ قد لقيت حلا مرضيا بإرجاعها إلى تشويه الحلم . فأما الاثنتان الأخريان ـ تغليب الحديث والطفلى ـ فقد تأيد لنا وجودهما ، بيد أننا لم نتمكن من استنباطهما من الدوافع المؤدية إلى فعل الحلم . فلا ننسى هاتين الخاصتين اللتين يبقى علينا تعليلهما أو تقديرها ؛ فهما ـ لا محالة ـ واجدتان مكانهما فى موضع آخر : إما فى سيكولوجية حالة النوم ، أو

عند البحث فى تركيب الجهاز النفسى — وهو البحث الذى سوف نشرع فيه حين نكون تعلمنا أن تفسير الحلم أشبه بنافذة نستطيع أن نلقى منها نظرة إلى باطن هذا الجهاز [أنظر الفصل السابع] .

غير أن هناك نتيجة أخرى تلزم من تحليلات الأحلام السابقة ننبه إليها دون إمهال ، وهى : أن الحلم كثيراً ما يبدو الحلم حاصلا على أكثر من معنى واحد . فهو كما يتبين من أمثلتنا — قد لا يقتصر على أن يحقق رغبات متعددة جنباً إلى جنب بل قد يتضمن فوق ذلك جملة من المعانى أو تحقيقات الرغبات يفترش كل منها غيره حتى نعثر فى القاع على تحقيق رغبة ترجع إلى أقصى عهود الطفولة . وهنا نسأل من جديد : أليس الأصدق هو أن نضع « دائماً » بدل « من الشائع » فى هذه القضية ؟ [1] .

ج
المصادر الجسمية للحلم .

لو أننا أردنا أن نبعث أحد المثقفين غير المختصين على الاهتمام بمشكلات الحلم ، فسألناه من أجل هذا الغرض أى المصادر تصدر عنها الأحلام فى زعمه ، لوجدنا فى معظم الأحيان أن من نسأله يظن أنه واثق كل الثقة من امتلاكه هذا الجزء من الجواب عن السؤال : فهو يفكر لفوره فى الأثر الذى يحدثه فى تكوين الحلم هضم معتل أو عسير (« الأحلام تأتى من المعدة » [أنظر ص ٦٠]) أو وضع يعرض للجسم أو حدث صغير يقع أثناء النوم ، وهو لا يظهر أبدا ولو ريبة فى أننا إذا حسبنا لهذه العوامل جمعاء حسابها بقى بعدها شىء يقتضى مع ذلك إيضاحاً .

فأما النصيب الذى تعزوه المؤلفات العلمية إلى المصادر الجسمية للتنبيه فى تكوين الحلم ، فذلك ما أطلنا فى تبيانه فى الفصل الذى قدمنا به (ص ٦٠) بحيث لا نحتاج

---

(١) إن تراكم معانى الحلم بعضها فوق بعض طبقات مشكلة من أدق مشكلات تفسير الحلم وإن تكن كذلك من أمتعها . وكل من نسى هذه الإمكانية سهل عليه أن يضل الصواب وأن ينقاد إلى قضايا لا يمكن الأخذ بها فى ماهية الحلم . ومع هذا فالأبحاث الموضوعة فى هذا الباب لا تزال قليلة غاية القلة . فما نجد حتى الساعة من دراسة عميقة سوى تلك التى خصصها أوتو رانك (١٩١٤ أ) للتراكم الرمزى المنتظم إلى حد كبير فى الأحلام الناشئة عن منبه بولى .

هنا إلى غير التذكير بنتائج ذلك البحث : لقد سمعنا أن هناك ثلاثة أنواع من المصادر الجسمية للتنبيه تنبغى التفرقة بينها : المنبهات الحسية الموضوعية الناشئة عن موضوعات خارجية ، الحالات التهييجية الباطنة لأعضاء الحواس – وهذه ليس لها إلا أساس ذاتى – ثم المنبهات الجسمانية المنبعثة من باطن الجسم . ولاحظنا بالإضافة إلى ذلك نزوع المؤلفين إلى أن يهونوا من قيمة كل مصدر نفسى للحلم بجانب هذه المنبهات الجسمية ، أو إلى أن يستبعدوه جملة (ص ٨٧) . فلما فحصنا ما يدعى لهذه المنبهات الجسمية من شأن ، انتهينا إلى أن قيمة المنبهات الموضوعية لأعضاء الحس – وبعضها عارض فى أثناء النوم وبعضها يستحيل تجنيب النفس إياه ولو كانت نائمة – أمر تثبته الملاحظات المتعددة ويؤيده التجريب (ص ٦٢) ، وأما نصيب التهييجات الحسية الذاتية فيثبته – فيما يبدو – رجوع الصور الحسية قبل النومية فى الأحلام (ص ٦٨) ، وأخيراً فإن ما يقال على إطلاقه من رجوع صور الحلم وأفكاره إلى منبهات جسمية باطنية أمر يستحيل قطعاً إثباته فى كل مداه ، ولكنه قد يجد مع ذلك سنداً فيما هو معروف من تأثير حالات التهييج الذى يصيب أعضاء الهضم والتبول والإنسال فى أحلامنا [ص ٧٤] .

وهكذا يكون « التنبيه العصبى » و «التنبيه الجسمانى» هما المصدران الجسميان للحلم ، أى – فى رأى كثير من الكتاب مصدراه الوحيدان على الإطلاق .

غير أننا قد سمعنا أيضاً أصواتاً تعرب عن عدد من الشكوك ، وإن كان من الحق أن هذه الشكوك لا تبدو موجهة إلى صحة نظرية التنبيه الجسمى ، بل إلى كفايتها .

فهما كان من ثقة المنتصرين لهذه النظرية من ناحية أسسها الواقعية – وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنبهات العصبية الخارجية العارضة التى يسهل قفوها فى محتوى الحلم دون ما عناء – فما غاب عن أحدهم أن فى الأحلام من ثراء المحتوى الفكرى ما يستحيل تفريعه من المنبهات العصبية الخارجية وحدها . ولقد مكثت الآنسة مارى هوايتون كالكنيز ستة أسابيع تبحث من هذه الوجهة أحلامها وأحلام شخص آخر ، فلم تجد على الترتيب سوى ١٣,٢ و ٦,٧ من المائة حلماً أمكن فيها الاهتداء إلى عنصر الإدراك الحسى الخارجى ، ولم يكن فى المجموعة كلها سوى حلمين أمكن إرجاعهما إلى إحساسات عضوية . فالإحصاء يؤيد هنا ما قد خمنته من نظرة عاجلة إلى خبراتى الخاصة .

وكثيراً ما يرتأى البعض أن نفصل أحلام « التنبيه العصبى » – باعتبارها نوعاً سافلا

من الأحلام تمت دراسته دراسة وافية ـــ من سائر أشكال الحلم . ومثال ذلك شپيتا إذ يقسم الأحلام قسمين : أحلام تنبيه عصبي وأحلام تداع . بيد أن من الواضح أن ذلك سوف يظل حلا غير مرض ، ما دمنا لا نفلح فى تبيان الرباط بين المصادر الجسمية للحلم وبين محتواه الفكرى .

وهكذا ينهض إلى جانب الاعتراض الأول : أن المصادر الخارجية للتنبيه ليست كثيرة الوقوع الكثرة الكافية ـــ ينهض اعتراض ثان : أن تعليل الأحلام التى تأتى بوساطة مثل هذه المصادر ليس بالتعليل الكافى . ذلك لأن أنصار هذه النظرية مدينون لنا بإيضاحين : الأول : لم كان المنبه الخارجى لا يُعْرَف فى الحلم على طبيعته الحقة ، بل يعرف دائماً معرفة خاطئة (أنظر أحلام جرس المنبه فى ص٦٥) ؟ والثانى هو : لم كانت استجابة النفس النائمة لهذا المنبه الذى يعرف معرفة خاطئة تتنوع كل هذا التنوع الذى لا ضابط له ؟ لقد سمعنا شترومپل يقول فى الإجابة عن هذا السؤال : إن النفس وقد انصرفت فى أثناء النوم عن العالم الخارجى لم تعد قادرة على أن تفسر المنبهات الموضوعية الحسية تفسيراً صحيحاً ، بل هى مضطرة إلى أن تشيد أوهاماً حسية على ما يصل إليها من تنبيه مبهم فى كثير من نواحيه ، أو بعبارته هو (١٨٧٧ ، ١٠٨) :

« إنه ما أن يستثار فى النفس النائمة ـــ نتيجة لمنبه عصبى خارجى أو باطنى ـــ إحساس أو مركب من الإحساسات أو انفعال أو أية عملية نفسية بوجه عام ، وما أن تدرك العملية المستثارة على هذا النحو بوساطة النفس ـــ حتى تستدعى العملية صوراً حسية تستمد من نطاق خبرات اليقظة المتخلفة فى النفس ، أى مدركات سابقة ، تجىء إما مجردة من قيمتها النفسية التابعة لها وإما مصحوبة بها . وهكذا تحيط العملية نفسها بعدد يزيد أو ينقص من أمثال تلك الصور التى من طريقها يكتسب الانطباع الناشىء عن المنبه العصبى قيمته النفسية . ونحن نقول هنا (مثلما اعتدنا أن نفعل فيما يتصل بسلوك اليقظة) إن النفس تفسر الانطباعات الناجمة عن المنبه العصبى . ونتيجة هذا التفسير هى ما نسميه حلم تنبيه عصبى ، أى حلما تحتمت مقوماته بوساطة منبه عصبى ، أحدث أثره النفسى فى النفس النائمة وفقا لقوانين الاستحضار . »

ويطابق تلك النظرية مطابقة جوهرية قول ڤونت : إن أفكار الحلم يصدر الجزء الأعظم منها على الأقل عن منبهات حسية ومنبهات الحساسية العامة بالجسم بنوع خاص ،

ولهذا كان معظمها أوهاماً تخيلية ولم تكن إلا إلى حد ضئيل فى الراجح ذكريات خالصة اشتدت إلى درجة الهلاوس . ولقد عثر شترومپل على تشبيه موفق للعلاقة التى تخلص من هذه النظرية بين محتوى الحلم ومنبهاته ، وذلك إذ يقول : « إن الأمر يبدو كأن رجلا لا يملك أقل معرفة بالموسيقا قد أجال أصابعه العشرة على مفاتيح المعزف . » وهكذا لا يكون الحلم بحسب تلك النظرة ظاهرة نفسية تقوم على دوافع نفسية ، بل نتيجة لتنبيه فيزيولوجى أعربت عنه أعراض نفسية ؛ لأن الجهاز الذى أصابه المنبه لا يملك أية صورة أخرى من صور التعبير . وعلى مسلمة مماثلة يقوم — مثلا — التشبيه الذائع الذى أراد ماينيرت أن يعلل الأفكار القهرية بوساطته : ميناء الساعة تبرز عليها بعض الأرقام لأنها قد زيدت تحديباً .

غير أنه مهما كان التحبيذ الذى صارت تنعم به نظرية التنبيه الجسمانى ومهما بدا من جذبها ، فمن الهين كذلك أن نبين موطن الضعف فيها. فكل منبه من منبهات الحلم الجسمية التى تحث الجهاز النفسى النائم على تفسيرها بتشييد الأوهام يستطيع أن يطلق عدداً لا يحصى من أمثال هذه المحاولات التفسيرية ، وأن ينتهى بذلك إلى أن تمثله فى الحلم أفكار لا حصر لها[1]. ولكن نظرية شترومپل وڤونت تعجز عن أن ترينا أى دافع يضبط العلاقة بين المنبه الخارجى وبين فكرة الحلم المختارة لتفسيره ، أى عن أن تعلل « هذا الاختيار العجيب » الذى كثيراً ما تبديه المنبهات « فى خلال نشاطها المنتج » (ليپس ، ١٨٨٣ ، ص ١٧٠) . ثم هناك اعتراض آخر يمتد إلى المسلمة التى تنبنى عليها نظرية الوهم بأسرها ، وهى المسلمة القائلة بأن النفس حين تنام تفقد القدرة على تعرف الطبيعة الحقيقية للمنبهات الموضوعية الحسية : فقد بين الفيزيولوجى بورداخ منذ زمن طويل أن النفس تملك فى النوم كذلك قدرة تامة على أن تفسر ما يصل إليها من الانطباعات الحسية تفسيراً صحيحاً ، وعلى أن تستجيب بما يتفق وهذا التفسير الصحيح ، وذلك حين ذكر بأن فى وسع الإنسان أن يستثنى من الإهمال الذى يشمل الانطباعات الحسية عند النوم تلك الانطباعات التى تبدو له ذات بال (المرضع والطفل) ، وأن استيقاظ المرء على صوت اسمه أوثق كثيراً من استيقاظه على انطباع سمعى آخر لا يهمه فى شىء وكل هذا يتضمن

---

(١) لقد أخرج مورلى فولد مجلدين يحتويان على وصف دقيق مفصل لطائفة من الأحلام أحدثها بالتجريب ، مجلدين أشير على كل قارئ بدراساتهما ؛ حتى يقتنع بضآلة الضوء الذى تلقيه الشروط التجريبية الموصوفة فى هذين المجلدين على محتوى الأحلام الجزئية ، ثم بقلة غناء أمثال هذه التجارب عامة فى فهم مشاكل الحلم .

من غير شك أن النفس تفرق فى النوم كذلك بين الإحساسات (الفصل الأول ص٨٨) . ويخلص بورداخ من هذه الملاحظات إلى أن ما ينبغى افتراضه فى خلال حالة النوم ليس العجز عن تفسير المنبهات تفسيراً صحيحاً ، بل نقص الاهتمام بها . وهذه الحجج التى استخدمها بورداخ عام ١٨٣٠ تعود هى هى عام ١٨٨٣ عند ليبس فى نقده لنظرية التنبيه الجسمانى . وهكذا تبدو النفس مثلها مثل الحالم الذى تحكى عنه الحكاية ؛ فقد سأله سائل : « هل أنت نائم ؟ » فأجابه : « كلا » ، فلما أثنى السائل : « إذن أقرضنى عشرة ريالات » تعلل قائلا : « إننى نائم » .

ومن الممكن أن نثبت عدم كفاية نظرية التنبيه الجسمى بطرق أخرى . فالملاحظة تظهر أن المنبهات الخارجية لا تدفعنى إلى الحلم دفعاً وإن كانت هذه المنبهات تظهر فى الحلم بمجرد ما أحلم وإذا ما حلمت . ودعنا نفترض أن منبهاً من المنبهات ، بضغط أو بلمس ، قد عرض لى فى أثناء النوم : إن فى متناولى أن أستجيب له باستجابات مختلفة : فأنا أستطيع أن أغض الطرف عنه لكى أكتشف حين أستيقظ أن ساقاً من ساقى قد تعرت أو أن ساعداً قد ضغط — وفى علم الأمراض شواهد موفورة على أن منبهات حسية أو حركية شديدة التهييج ، مختلفة النوع قد تلبث دون أن تحدث أثراً فى خلال النوم . ثم أنا قد أستشعر هذا الإحساس وأنا نائم ، أستشعره « من خلال » النوم ، كما نقول ، (وتلك هى القاعدة فى حالة المنبهات المؤلمة) ولكن دون أن أنسج من الألم حلماً . وفى استطاعتى — ثالثاً — أن أستجيب لهذا المنبه بالاستيقاظ لكى أتخلص منه[١] . وأما أن يسوقنى المنبه العصبى إلى الحلم — فإن هذا إلا احتمال رابع ، يقع ، ولكن الاحتمالات الأخرى تقع أيضاً بمثل كثرته على الأقل . وما كان ذلك ليكون لولا أن الدافع إلى الحلم يكمن خارج المصادر الجسمية للحلم .

وقدر بعض الكتاب — وأعنى به شرنر والفيلسوف فولكلت الذى تابعه — قدروا شأن تلك الثغرات التى عينت عليها الآن فى تعليل الحلم بوساطة المنبهات الجسمية تقديراً صائباً ، فحاولوا أن يعرفوا بمزيد من الدقة ما هى أوجه النشاط النفسى التى تؤدى

(١) أنظر مقالة لانداور عن السلوك فى أثناء النوم (١٩١٨) . وإن فى استطاعة كل منا أن يلاحظ أناسا نائمين وهم يقومون بأفعال ذات دلالة واضحة . فالإنسان لا يرتد عند النوم إلى البله المطلق ، إنه — على العكس — يظل قادرا على الإتيان بأفعال منطقية متعمدة .

إلى نشوء صور الحلم المتقلبة من المنبهات الجسمية ، أى أن يعودوا بماهية الحلم فيقيموها من جديد فى النفس وفى نشاطها . فشرنر لم يكفه أن يترك لنا وصفا يزخر بالإحساس الشاعرى ويفيض حياة للخصائص النفسية المتجلية فى تكوين الحلم ، بل هو قد اعتقد فوق ذلك أنه اكتشف المبدأ الذى تسلك النفس بمقتضاه حيال المنبهات التى تعرض لها ، وهذا المبدأ هو : إن عمل الحلم — وقد أطلقت المخيلة فيه من قيود النهار — ينزع إلى تصوير العضو الذى ينبعث منه المنبه وكذلك طبيعة هذا المنبه تصويراً رمزيا . وهكذا يخرج لنا ما يشبه أن يكون كتاباً من كتب الأحلام ، مرشداً إلى تفسيرها ، به يتسنى لنا أن نستدل من صور الحلم على أحاسيس الجسم وحالة الأعضاء وطبيعة المنبهات . «فصورة القط تعرب عن مزاج مستاء غضوب ، بينما تعرب صورة الخبز الأملس الفاتح اللون عن عرى الجسم . والجسم الإنسانى فى مجموعه تصوره مخيلة الحلم فى صورة منزل وتصور كل عضو منه بجزء من أجزاء المنزل . وفى « الأحلام ذات المنبه السنى » يقوم بهو مرتفع السقف مقوسه مقام الفاه ، ويقوم سلم مقام الطريق النازل من الحلق إلى البلعوم . وأما « أحلام الصداع » ففيها يصور أعلى الرأس سقف غطته عناكب شبيهة بالضفادع السامة ، تبعث أشكالها على الغثيان »(فولكلت ١٨٧٥، ٣٩). « وينوع الحلم فيختار من هذه الرموز العدد الكبير للدلالة به على ذات العضو ؛ فالرئتان وهما تتنفسان قد تجدان رمزهما فى موقد استعر لهبه وصار له حفيف ، بينما يجده القلب فى صناديق أو سلال خاوية ، وتجده الكلية فى موضوعات مستطيلة تشبه الأكياس أو مجوفة وحسب بوجه عام . والمهم بنوع خاص هو أن العضو الذى أثار الحلم — أو وظيفة هذا العضو — كثيراً ما يتكشف فى ختام الحلم صراحة ، ويتكشف فى معظم الأحيان فى جسم الحالم نفسه ، وهكذا ينتهى عادة الحلم الناجم عن منبه سنى بأن يرى الحالم نفسه وهو يخلع سنا من فيه » (ص ٣٥) . ولا يستطيع المرء أن يقول : إن هذه النظرية قد لاقت من المؤلفين ترحيباً كثيراً . فالغرابة أظهر ما فيها ، حتى أن الكتاب ترددوا فى أن يسلموا لها ولو بهذا القسط من الوجاهة الذى نرى أنه حق لها . فهى تؤدى — كما نرى — إلى أن يبعث من جديد تفسير الأحلام بوساطة الرموز — وهو المنهج الذى اتبعه القدماء — سوى أن النطاق الذى تؤخذ منه التفسيرات قد حد بحدود الجسم الإنسانى نفسه . ثم إن خلو نظرية شرنر من كل نهج فى التفسير نستطيع تعقله بأسلوب علمى قد ضيق من غير شك إمكان تطبيقها تطبيقاً عظيما . وأما الاسترسال مع

الهوى فى تفسير الحلم فلا يبدو أن تلك النظرية تمنعه بحال من الأحوال ، وبخاصة أن من الجائز – هنا أيضاً – أن يظهر المنبه الواحد فى محتوى الحلم بصور شتى ، وهكذا عجز أيضاً تلميذ شرنر ، فولكلت ، عن أن يؤيد ظهور الجسم فى صورة المنزل . واعتراض آخر لا بد منه ، وأعنى به أن النفس تودع مرة أخرى القدرة على الحلم وكأنها أودعت شيئاً لا نفع منه ولا غاية له ؛ فالنفس تقنع فى تلك النظرية التى نحن بصددها بأن تحيك التخييلات حول المنبهات التى تشغلها ، دون أقل إشارة إلى وظيفة تستهدف التخلص من تلك المنبهات .

بيد أن هناك اعتراضاً آخر ينال نيلا بالغاً من نظرية شرنر فى أن الحلم يعبر عن المنبهات الجسمية تعبيراً رمزياً : فهذه المنبهات قائمة فى كل وقت ، ومن الأمور المتفق عليها أن النفس أشد إحساساً بها فى النوم منها فى يقظتها ؛ وعلى ذلك كنا لا نفهم لم لا تحلم النفس طيلة الليل كله من غير انقطاع ، بل لم لا تحلم فى كل ليلة بجميع الأعضاء . لقد نحاول تجنب هذا الاعتراض ، فنقول : إنه لكى يستثار نشاط الحلم فلا بد من أن تصدر عن العين والأذن والأسنان والأحشاء وغيرها من الأعضاء تهييجات عدا المألوفة . وعندئذ نواجه صعوبة أخرى ، ألا وهى أن نثبت وقوع هذا الاشتداد فى التنبيه – وهو ما لا يتسنى إلا فى عدد قليل من الحالات . فلو أن أحلام الطيران كانت رمزاً للرئتين حين تعلوان وحين تهبطان ، لكان الواجب – كما لاحظه شترومپل – أحد أمرين : فإما أن يكون لهذه الأحلام من كثرة الوقوع ما يزيد عن المألوف زيادة كبرى ، وإما نثبت أن النشاط التنفسى قد اشتد فى أثنائها . وهناك بعد احتمال ثالث هو أرجح الاحتمالات جميعاً ، وأعنى به أن دوافع خاصة قد تعمل عملها فى هذه اللحظة أو تلك فتجذب الانتباه إلى الإحساسات الأحشائية القائمة فى كل وقت ، ولكن ذلك احتمال يحملنا إلى ما وراء نظرية شرنر .

إن القيمة التى لأفكار شرنر وفولكلت تقوم فى كونها تجذب الانتباه إلى عدد من الخصائص التى يتميز بها محتوى الحلم – وهى خصائص تتطلب تعليلا وتبدو تبشر باكتشافات جديدة . فمن الحق كل الحق أن الأحلام تحمل فى طياتها رموزاً ترمز لأعضاء الجسم ووظائفه : أن الماء فى الحلم يشير كثيراً إلى منبه بولى ، وأن أعضاء التناسل عند الذكر قد تصور بعصا مثبتة تثبيتا عمودياً أو بعمود أو بما أشبه . والأحلام التى يزدحم

فيها الحقل البصرى بالحركة وبالألوان الزاهية — على خلاف ما يسود بعض الأحلام الأخرى من قتمة — هذه الأحلام لا نكاد نستطيع تفسيرها بغير كونها « أحلاماً ذات منبه بصرى » ، ولا نحن نستطيع أن ننازع فى دخل الأوهام الحسية فى الأحلام التى تحوى ضوضاء ولغطا . فحلم كالذى يرويه شرنر عن فريقين من الصبية الحسان الشقر اصطفا على جسر فى صفين متقابلين ، أخذ كل منهما يهجم على الآخر ثم يعود إلى موضعه ، إلى أن يرى الحالم نفسه فى النهاية وقد جلس على جسر وهو يخلع سنا ، أو حلم كالذى يرويه فولكلت ، كان لصفين من الأدراج شأن فيه وانتهى مرة أخرى بسن يخلع — أحلام كهذه يورد منها هذان المؤلفان العدد الوفير لا تسمح لنا بأن ننبذ نظرية شرنر كما لو كانت اختراعاً لا طائل منه دون أن نبحث لبها الطيب . ومهمتنا إذن هى أن نجد تعليلا من نوع آخر للتعبير الرمزى المفترض عما يقال إنه منبه سنى .

لقد امتنعت طيلة هذا الوقت الذى شغلنا فى أثنائه بنظرية المصادر الجسمية للحلم عن استخدام الحجة التى تلزم من تحليلاتنا للأحلام . فلو قد تسنى لنا بطريقة لم يطبقها سائر المؤلفين على المواد المتجمعة عندهم عن الأحلام أن نثبت أن للحلم قيمته الخاصة من حيث هو فعل نفسى ، وأن الدافع إلى تكوينه رغبة ، وأن خبرة اليوم السابق تمده بأقرب مادة يبنى منها محتواه ، فإن كل نظرية أخرى فى الحلم تغفل طريقة فى البحث تلك أهميتها وتظهر الحلم من ثمت فى صورة استجابة نفسية ، معدومة القيمة ، معماة ، إزاء بعض المنبهات الجسمية — هى نظرية مقضى عليها من غير حاجة إلى نقد خاص . هذا ، وإلا وجب أن يكون ثمت نوعان من الأحلام مختلفان أكبر الاختلاف ، مر أحدهما بى وحدى ومر الآخر بالبحثة السابقين وحدهم — وهو أمر بعيد كل البعد عن الاحتمال . والذى يبقى علينا — إذن — إنما هو أن نجد فى نطاق نظريتنا عن الحلم مكاناً للوقائع التى قامت عليها النظرية السائرة ، نظرية التنبيه الجسمى للأحلام .

لقد خطونا بالفعل الخطوة الأولى فى هذا الاتجاه حين سقنا تلك القضية ، وهى : أن الحلم يعمل مدفوعاً إلى أن يصوغ فى وحدة كل حوافز الحلم الناشطة فى وقت واحد (ص ٢٠٠) . وكنا رأينا أنه إذا تخلفت من اليوم السابق خبرتان أو أكثر من الخبرات القادرة على أن تستثير انطباعاً فإن الرغبات المتفرعة عن هذه الخبرات تدمج فى حلم واحد ، ورأينا كذلك أن الانطباع ذا القيمة النفسية يدرج فى مادة الحلم إلى جانب خبرات اليوم

السابق التافهة ، بشرط أن يتسنى إيجاد أفكار تصل ما بينهما . وهكذا يبدو الحلم استجابة لكل ما يجتمع حضوره فى النفس حضوراً ناشطاً . فمادة الحلم — بقدر تحليلنا إياها حتى الآن — قد رأينا أنها مجموعة من البقايا النفسية والآثار الذكروية ، اضطررنا (لما بدا من إيثار المادة الحديثة والطفلية) إلى أن ننسب إليها صفة نفسية تركناها حتى الآن من غير تحديد ، هى صفة الحضور الناشط . وعلى ذلك كنا لا نصادف كبير حيرة فى أن نتنبأ بما يقع إذا ما جاءت مادة جديدة — هى الإحساسات — فانضافت فى خلال النوم إلى هاته الذكريات الحاضرة حضوراً ناشطا : إن هذه التهييجات الحسية سوف تكتسب هى الأخرى أهمية بالنسبة إلى تكوين الحلم لكونها حاضرة حضوراً ناشطاً ، وهى سوف توحد مع ما عداها من المواد النفسية ذات الحضور الناشط من أجل تزويد الحلم بالمادة التى تلزم تكوينه . وبعبارة أخرى : إن المنبهات التى تقع فى خلال النوم سوف تصاغ بحيث يخرج منها تحقيق رغبة تتكون سائر مقوماتة من بقايا النهار النفسية التى نعرف أمرها . ولكن هذا التوحيد أو الإدماج لا يحدث ضرورة، فقد رأينا أن المنبهات الجسمية التى تقع فى أثناء النوم يمكن التصرف إزاءها بأكثر من طريقة . فإن حدث ، لم يكن ذلك إلا لأن الوصول إلى مادة تستطيع أن تمثل كلا مصدرى الحلم — الجسمى والنفسى — قد تيسر .

وليس يغير من ماهية الحلم فى شىء أن تضاف مادة جسمية إلى مصادره النفسية ؛ فالحلم يظل تحقيق رغبة أيا كانت الطريقة التى يتم عليها تحتم الصورة المفصحة عن هذا التحقيق بوساطة المادة الحاضرة حضوراً ناشطاً .

وإنى أفسح المجال هنا طواعية لطائفة من العوامل التى من شأنها أن تحدد مدى ما يكون للمنبهات الخارجية من الأهمية بالنسبة إلى الحلم ؛ فأن يسلك المرء على هذا النحو أو ذاك فى حالة بعينها من الحالات التى يشتد فيها التنبيه الموضوعى فى أثناء النوم اشتداد نسبياً ، ذلك — كما أتصوره — أمر تحدده مجموعة متآزرة من عوامل فردية ، فيزيولوجية ، عارضة ، تنشأ عن ملابسات الساعة : فعمق النوم عمقاً مألوفاً أو عارضا — مأخوذا فى علاقته بشدة المنبه — سوف يتيح فى حالة قمع المنبه بحيث لا يزعج النائم ويضطر النائم فى حالة أخرى إلى الاستيقاظ أو يؤيد محاولته فى أن يسكت المنبه بإدخاله فى نسيج حلم من الأحلام . وعلى حسب هذه التراكيب المتعددة الممكنة فإن الإفصاح

عن المنبهات الخارجية الموضوعية فى صورة حلم سوف يكثر عند هذا الشخص — أو يقل — عنه عند ذاك . فأما فيما يتعلق بى — أنا الذى أنام نوماً ممتازاً وأرفض رفضاً عنيداً أن أنزعج فى خلال النوم لأية علة كانت — فيندر كل الندرة أن تجد العلل الخارجية للتنبيه منفذا إلى أحلامى ، فى حين يتضح أن الدوافع النفسية تجعلنى أحلم فى سهولة لا مزيد عليها . والحق أنى لم ألحظ إلا حلماً واحداً يمكننا أن نتعرف فيه على منبه موضوعى أليم ، ويفيدنا فائدة كبرى أن نبحث أى أثر أحدثه المنبه الخارجى فى هذا الحلم بالذات .

أركب حصاناً رمادى اللون ، أركبه أول الأمر فى وجل ومن غير مهارة كما لو كنت لا أفعل سوى التعلق به . أقابل أحد الزملاء ، ب . ، وقد امتطى جواده عالياً ، مرتدياً حلة من الصوف . يجذب ب . نظرى إلى شىء ما (لعله سوء ركوبى) . أرانى الآن أحكم ركوب جوادى ذى الذكاء الخارق إحكاماً متزايداً ؛ فأستقر عليه مستريحاً ، وألحظ أننى أجدنى على صهوته كما لو كنت فى دارى . يقوم مقام السرج عندى شىء يشبه الحشية ، يشغل كل المسافة بين عنق الجواد ومؤخره . أجرى على هذا النحو بين عربتين . بعد أن قطعت شوطاً من الطريق أستدير وأريد النزول أول الأمر عند كنيسة صغيرة ، مفتوحة ، تقوم فى مواجهة الطريق . ثم بعدئذ أنزل بالفعل أمام كنيسة أخرى تقترب من الأولى . كان فندق يقع فى الطريق نفسه ، وكان يسعنى أن أترك الحصان يذهب إليه بمفرده . ولكننى آثرت أن أقوده إليه . كأنما كان على أن أستشعر الخجل إذ أصل إلى هناك راكباً . يقف أمام الفندق غلام يطلعنى على مذكرة لى عثر عليها ، ويهزأ بى من جرائها . كان مكتوباً على المذكرة — وقد خط سطران تحت ما كتب : «لا أكل» ، ثم جملة ثانية (غير متميزة) مثل : «لا عمل» . تصحب ذلك فكرة مبهمة مؤداها أننى فى مدينة غريبة لا أعمل فيها شيئاً .

إن المرء لا يفطن للوهلة الأولى إلى أن هذا الحلم قد جاء بتأثير من منبه أليم ، أو — على الأصح — تحت إكراهه . ولكننى كنت منذ بضعة أيام أعانى خراجات جعلت على من كل حركة عذاباً . وأخيراً ظهر فى كيس الخصيتين خراج بحجم التفاحة ، فكان سبباً فى ألم لا يطاق مع كل خطوة أخطوها . وحالف الألم على تنغيصى كلال محموم وفقدان للشهية ثم عمل النهار المضنى الذى مضيت رغم ذلك فيه . ولم أكن أملك كل القدرة على أداء تبعاتى الطبية ، ولكن من السهل — وتلك طبيعة العلة وموضعها — أن نتصور عملا آخر ، كنت من غير شك أقل صلاحية له منى لأى عمل سواه ، وأعنى به : الركوب . وذلك على التحقيق هو النشاط الذى يسلمنى الحلم إليه . لذلك أقوى إنكار للمرض يستطيع أن يذهب إليه الخيال ! والحق أنى لا أعرف الركوب ولا حلمت به غير هذا الحلم ، كل الأمر أنى أجلست على حصان مرة فى حياتى وكان الحصان بغير سرج ولم أجد فى ذلك متعة . ولكننى أركب فى هذا الحلم ، كأن لم يكن عندى خراج فيما بين الفخذين أو — على الأصح — لأننى لا أريد أن يكون ثمت خراج .

وما السرج الذى جلست عليه — إذا حكمنا استناداً إلى وصفه — إلا الكمادة التى أعانتنى على النوم . وأغلب الظن أنى — وقد هدأنى فعلها — لم أستشعر الألم فى خلال الساعات الأولى من النوم . بيد أن الإحساسات المؤلمة أخذت بعدها فى الظهور عاملة على إيقاظى ، فأتى عندئذ الحلم يقول مهونا : « امض فى سباتك فما بك من حاجة إلى الاستيقاظ ، وما بك خراج ، فأنت تركب جوادا وما يستطيع امرؤ الركوب لو كان يشكو خراجاً فى مثل هذا الموضع ! » ونجح الحلم فى مأربه ، فأخرس الألم ومضيت فى نومى .

ولكن الحلم لم يكفه أن « يوحى إلىّ » زوال الخراج ، بالإلحاح على فكرة لا تتفق مع الألم الذى كنت أعانيه ، متخذا فى ذلك مسلك الهجاس الهلوسى الذى تسلكه الأم فقدت ولدها[1] أو التاجر ضيعت خسائره ثروته . كلا ، بل إن تفاصيل الإحساس المراد استبعاده وتفاصيل الصورة التى استخدمت فى كبت هذا الإحساس قد أفادت الحلم هى الأخرى من حيث كانت أداة توسل بها الحلم إلى أن يربط بالموقف الذى ظهر فيه سائرَ ما كان حاضراً فى النفس حضوراً ناشطاً وتوسل بها إلى تصويره . فأنا أركب حصاناً رمادى اللون ، ولون الحصان هو هو لون الحلة التى كان يرتديها صديقى ب . حين قابلته أخيراً فى الريف : لون الملح والفلفل . ولقد عزوت خراجاتى إلى أننى كنت أكلت طعاماً زخر بالتوابل — وهو تعليل أقل ما يقال عنه هو أنه يفضل مرض السكر الذى قد يتجه الذهن إليه أيضاً بمناسبة الخراجات . وصديقى ب . يحب أن يركب جواده العالى معى[2] منذ أن خلفنى لدى مريضة من المريضات كنت قد أظهرت فى علاجها الأفانين (كنت فى أول الحلم أركب الحصان من جانب واحد مثلما يفعل راكب متفنن) ، ولكنها فى الحقيقة — مثل الجواد فى قصة فارس الأحد[3] — كانت تقودنى حيثما تشاء .

---

(١) أنظر الفقرة الواردة عند جرايزنجر [والمشار إليها فى ص١٢٢] ، وكذلك الملاحظات الواردة فى مقالتى الثانية عن الأعصبة النفسية الدفاعية (فرويد ١٨٩٦ ب) .

(٢) [تعبير يقال كناية عن الاستعلاء والمباهاة .]

(٣) [بين خطابات فرويد إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) خطاب يتحدث فيه عن " المبدأ المعروف ، مبدأ إيتسيج فارس الأحد : إيتسيج ، إلام أنت راكب ؟ لا تسألنى ، اسأل الحصان ! "]

وهكذا صار الحصان يرمز للمريضة (كان خارق الذكاء فى الحلم) . وأما جملة « أحس أننى على صهوته كما لو كنت فى دارى » فتشير إلى المكانة التى كنت أشغلها فى منزل هاته المريضة قبل أن يخلفنى فيه ب . وكان أحد القلائل من ذوى الفضل علىّ بين كبار أطباء هذه المدينة قد قال لى منذ زمن غير بعيد وهو يشير إلى هذا المنزل : « كنت أظنك ثابتاً على السرج هناك » . ثم أن أقوم بالتطبيب النفسى من ثمانى إلى عشر ساعات فى اليوم وبى كل هذا الألم — ذلك أيضاً كان فعل رجل مفن[1] . غير أنى كنت أعلم أنى لن أستطيع مواصلة عملى الجم الصعوبة بغير عافية مكتملة ، والحلم ملىء بالإشارات العابسة إلى ما ليس بد من حدوثه عندئذ (المذكرة ، مثل المذكرات التى يحملها مرضى النوراستانيا لكى يُروا الطبيب إياها) : لا عمل ، لا أكل . وحين واصلت تفسير الحلم رأيت أن عمل الحلم قد أفلح فى أن يجد طريقاً يمتد من الموقف المرغوب فيه ، موقف الراكب ، إلى مشاهد شجار ترجع إلى طفولتى المبكرة ، مشاهد لا بد أنها وقعت بينى وبين ابن أخ لى يعيش اليوم فى إنجلترا ، وكان بعد يكبرنى بعام واحد . والحلم فوق ذلك قد استمد بعض عناصره من رحلاتى إلى إيطاليا : فالشارع قد تركب من انطباعات من ڤيرونا وسيينا ، ثم إن تعمق التفسير إلى أبعد من ذلك يسوق إلى أفكار جنسية ، وإنى لأتذكر ماذا كانت تعنيه الإشارة إلى إيطاليا فى أحلام مريضة لم تكن قد رأت قط هذا البلد الجميل (gen Italien [إلى إيطاليا] — Genitalien [الأعضاء التناسلية]) ، ولم يكن ذلك أيضاً بغير ارتباط بالمنزل الذى كنت طبيبه قبل ب . وبالموضع الذى ظهر فيه خراجى .

وثمت حلم آخر أفلحت فيه بطريقة مماثلة فى أن أدفع خطراً هدد بأن يقطع نومى ، أتى هذه المرة من منبه حسى ، إلا أن الصدفة وحدها هى التى مكنتنى فى تلك الحالة من أن اكتشفت الرابطة بين هذا الحلم وبين منبهه الطارئ ومن أن أفهم الحلم تبعاً لذلك . فقد استيقظت ذات صباح — وكان ذلك فى أوج الصيف ، فى مكان جبلى بالتيرول — وأنا أذكر أنى قد حلمت بهذا الحلم : مات البابا . واستعصى على أن أفسر هذا الحلم القصير ، غير البصرى ، ولم أذكر سوى أصل من أصوله ، وهو أنى كنت قد طالعت فى

(١) [أى يفعل الأعاجيب .]

إحدى الصحف أن قداسة البابا كان يشكو توعكا خفيفاً . غير أن امرأتى سألتنى فى خلال الصباح : أسمعت قرع الأجراس المفزع صباح اليوم ؟ ولم أكن أعلم ذلك، لم أكن أعلم أنى سمعتها ، ولكنى أفهم الآن حلمى : إنه كان استجابة استجابت بها حاجتى إلى النوم تجاه الضوضاء التى أراد أهل التيرول الأتقياء إيقاظى بها ؛ لقد أدركت منهم ثأرى بأن خلصت إلى تلك النتيجة التى تكون منها محتوى الحلم ، ثم مضيت فى نومى دون أدنى مزيد من الاحتفال بالأجراس وقرعها .

وبين الأحلام التى ذكرناها فى الفصول السابقة أحلام كثيرة ، يمكن اتخاذها أمثلة على الصياغة الجديدة التى تلقاها المنبهات المسماة منبهات عصبية . فما حلمت به من شرب الماء على جرعات كبيرة [ص ١٥٠] كان مثالا على ذلك ؛ فقد كان المنبه الجسمى مصدره الوحيد — فيما يبدو — وكانت الرغبة الناشئة عن الإحساس — وأعنى بها العطش — هى الدافع الوحيد إليه . والأمر أشبه بذلك فى أحلام أخرى خالية من التعقيد ، يبدو المنبه الجسمى فيها قادراً بذاته على أن يخلق رغبة . وحلم المريضة التى ألقت فى أثناء الليل بالجهاز المبرد عن خدها [ص ١٥٢] يرينا منهجاً غير مألوف فى الاستجابة إلى المنبه الأليم بتحقيق الرغبة : إن الموقف يبدو فى هذا المثال كما لو كانت الحالمة قد نجحت فى أن تجرد نفسها من حاسة الألم بأن تنسب آلامها إلى شخص عداها .

وحلمى ، حلم آلهات القدر الثلاث [ص ٢٢٤] ، كان صراحة حلم جوع ، إلا أنه عرف كيف ينقل الحاجة إلى الطعام راجعاً بها إلى رغبة الطفل فى صدر أمه ، وكيف يجعل من تلك الرغبة البريئة غطاء يستتر به أخرى أشد خطراً ولا يجوز الإعراب عنها بمثل هذه الصراحة . وفى وسعنا أن نرى فى حلم الكونت تون أى طرق تربط بين حاجة جسمية عارضة وبين نوازع هى أشد نوازع الحياة النفسية عنفاً ، وإن تكن أيضاً أشدها حظا من القمع . وإذا كان القنصل الأول [نابليون] — على ما يرويه جارنييه — قد نسج حلماً بمعركة من دوى قنبلة انفجرت قبل أن يوقظه هذا الدوى ، فإنه قد كشف بذلك فى وضوح فريد فى بابه عن الدافع الأوحد الذى من أجله يشغل النشاط النفسى فى خلال النوم بالإحساسات. وأعرف محامياً شاباً نام فى عصر يوم وهو ممتلىء الرأس بأولى قضاياه الهامة ، سلك مسلكاً لا يفترق من مسلك نابليون العظيم فى شىء : فقد حلم برجل يدعى

ج . رايخ من [مدينة] هوسياتين ، وكان قد تعرف به فى قضية من القضايا ، وظل اسم هوسياتين هذا يلح عليه حتى استيقظ فإذا زوجه – وكانت تشكو رشحاً صدرياً – قد أخذتها نوبة من السعال [بالألمانية husten] .

ولنقارن حلم نابليون الأول الآنف الذكر (ونعلم أن نابليون كان ينام نوماً خارق العمق) بحلم ذلك الطالب النؤوم الذى جاءت ربة الدار توقظه ، وكان عليه أن يذهب إلى المستشفى ، فحلم أنه هناك ، راقد على أحد الأسرة ، ثم مضى فى نومه بحجة أنه لا يحتاج إلى النهوض من فراشه لكى يذهب إلى المستشفى ما دام موجودا به [ص١٥١] . إن من الواضح أن هذا الحلم حلم أخذ بالأسهل ، ولقد صارح الحالم نفسه بدافعه إلى إلى الحلم من غير خفاء . ولكنه بهذا عينه يكشف الغطاء عن سر من أسرار الحلم عامة : فكل الأحلام أحلام أخذ بالأسهل ، بمعنى من المعانى : فالهدف الذى تخدمه هو إطالة النوم بدل الاستيقاظ : إن الأحلام حراس النوم لا مزعجاته . وسيتاح لنا فى موضع آخر أن نبرر هذه النظرة فيما يتعلق بالعوامل النفسية التى تدفع إلى اليقظة [الفصل السابع ، القسم د] ، ولكننا نستطيع منذ الآن أن نبين صدق انطباقها فيما يتصل بنصيب المنبهات الخارجية . فالنفس إما أن تغفل جملة مناسبات الإحساس فى أثناء النوم – إذا وسعها هذا الإغفال على رغم شدة المنبهات ورغم ما تعرف من دلالتها – ، أو هى قد تلجأ إلى الحلم لكى تنكر به وجود هذه المنبهات ، أو هى – ثالثا – حين لا تجد مفراً من التسليم بها – تلتمس لها تفسيرا من شأنه أن يحيل الإحساس الحاضر الناشط إلى جزء مقوم من أجزاء موقف مرغوب فيه ، يتفق والنوم . فالإحساس الحاضر الناشط إنما ينسج فى حلم لكى يُسلَبَ واقعيته . ولنابليون أن يمضى فى نومه ؛ فما يعمل على إزعاجه سوى حلم يذكر بقصف المدافع فى أركول[1] .

وهكذا فرغبة النوم التى يستغرق فيها الأنا الشعورى والتى تُكَوِّن بالإضافة إلى الرقابة وإلى المراجعة الثانوية التى يجىء ذكرها فيما بعد نصيبَ الأنا الشعورى فى الحلم – يجب أن يحسب حسابها فى كل حالة من حيث هى دافع إلى تكوين الحلم ، وكل حلم

---

(١) إن المرجعين اللذين عرفت منهما هذا الحلم لا يتفقان فى روايته .

ناجح هو تحقيق لهذه الرغبة . وسوف نبحث فى موضع آخر أمر العلاقة بين هذه الرغبة العامة التى لا تتخلف ولا تختلف – رغبة النوم – وبين سائر الرغبات التى يحقق محتوى الحلم الواحدة منها حينا ثم الأخرى حينا آخر . وأما الآن فإنا اكتشفنا فى رغبة النوم هذه ذلك العامل الذى يستطيع أن يسد وجه النقص فى نظرية شترومپل وڤونت وأن يفسر الطريقة الفاسدة التعسفية التى تفسر بها المنبهات الخارجية . فالتفسير الصحيح الذى يستطيع الذهن النائم إتيانه تمام الاستطاعة يتضمن اهتماماً فعالا ويستلزم إنهاء النوم . ولهذا السبب لم يُترك المجال إلا لما كان – بين جميع التفاسير الممكنة – متفقاً مع الرقابة المطلقة التى تزاولها الرغبة فى النوم . وكأنى بالحلم يقول : إنه البلبل لا القبرة ؛ فلو أنها كانت القبرة ، لكان معنى ذلك أن ليل العاشقين قد حان ختامه . وعلى ذلك لم يكن يُنتخب من بين التفاسير التى يمكن تفسير المنبه بها إلا هذا التفسير الذى يستطيع أن يوفر أحسن رباط بالاندفاعات الراغبة التى تتربص فى النفس . وهكذا كل شىء محتوم من غير لبس ، ولا شىء متروك للهوى ، وخطأ التفسير ليس وهما ، بل هو – إن جاز التعبير – مماطلة . ولكن علينا أن نسلم بأننا نجد أنفسنا هنا من جديد – كما فى حالة التبديل بالنقل وفقاً لمقاصد الرقابة [أنظر ص ١٩٩] – بإزاء فعل يحيد عن العمليات النفسية السوية .

وحين تبلغ المنبهات العصبية الخارجية والمنبهات الحسمية الباطنية حدا من الشدة يحمل النفس على الانتباه إليها ، فإنها تصير – هذا إذا أدت إلى الحلم وليس إلى اليقظة – بمثابة النقطة الثابتة فى تكوين الحلم ، نواة تجتمع من حولها مادته ، ويدور البحث عن تحقيق رغبة متسق معها ، على نحو ما يدور البحث عن أفكار وسطى تربط ما بين منبهين نفسيين (أنظر ماسبق [فى ص٢٤٦–٢٤٧]) . وإلى هذا المدى يصدق على بعض الأحلام أن العنصر الحسمى يملى فيها محتوى الحلم . ولقد يذهب الأمر فى هذه الحالة المتطرفة إلى حد استدعاء رغبة ليست بالحاضرة الناشطة من أجل تكوين الحلم . بيد أن الحلم لا يملك إلا أن يصور رغبة وقد تحققت فى موقف من المواقف ؛ فهو – إن جاز التعبير – يواجه تلك المشكلة : أن يبحث عن الرغبة التى يمكن تصوير تحقيقها بوساطة الإحساس الناشط حاضراً . فإن كانت هذه المادة الحاضره ذات طابع كريه أو مؤلم ، لم يعن ذلك بالضرورة أن استخدامها من أجل تكوين الحلم قد صار محالا ؛ فإن بالنفس رغبات يجلب تحقيقها

الألم، ولقد يبدو ذلك شيئاً متناقضاً ، ولكنه يدنو للفهم إذا لم ننس وجود نظامين نفسيين ووجود رقابة بينهما .

ففى الحياة النفسية – كما رأينا – رغبات مكبوتة تنتمى إلى النظام الأول ، ويناقض النظام الثانى تحقيقها . وأنا إذ أقول : إن ثمت رغبات مكبوتة من هذا القبيل ، لا أطلق حكما تاريخياً قصاراه أن هذه الرغبات قد وجدت حينا ثم امحت ، بل إن نظرية الكبت التى لا يستغنى عنها المرء فى دراسة الأعصبة تؤكد أن هذه الرغبات المكبوتة لا تزال قائمة وإن قام فى الوقت نفسه معها كف يوازنها . ويصيب العرف اللغوى [فى الألمانية] كبد الحقيقة حين يتحدث فى صدد هذه الاندفاعات عن « Unterdrucken » [أى « دفع إلى أسفل» ومعناه القمع] . والحيل النفسية التى تمكن هذه الرغبات المقموعة من أن تشق طريقها إلى التحقيق لا تنى قائمة ، قابلة للاستخدام . ولكن دع رغبة مقموعة من هذا القبيل توضع موضع التنفيذ : إن كف النظام الثانى ، المغلوب على أمره (وهو النظام القادر على الصيرورة إلى الشعور) يفصح عندئذ عن نفسه فى صورة الألم . ولكى نختم هذه المناقشة نقول: إنه إذا نشأت فى أثناء النوم إحساسات ذات طابع أليم صادرة عن مصادر جسمية ، استغل عمل الحلم هذا الوضع فى تصوير تحقيق رغبة تُلاقى عادة بالكف – هذا مع بقاء الرقابة إلى درجة تنقص أو تزيد[١] .

وهذا الوضع هو الذى يتيح وقوع طائفة من أحلام الهيلة ، فى حين تنم عن ميكانيكية مختلفة طائفة ثانية من تلك التراكيب الحلمية التى لا تحمل على تأييد نظرية الرغبة : ذلك أن الهيلة فى الأحلام قد تكون هيلة عصابية ، ناشئة عن تهييج نفسى جنسى ، وهى فى هذه الحالة تعدل ليبيدو مكبوتة . وعندئذ تكون للهيلة ، كما لحلم الهيلة جميعه ، قيمة العرض النفسى ، ونكون اقتربنا من الحد الذى يتحطم عنده ميل الحلم إلى تحقيق الرغبة . وأما أحلام الهيلة الأخرى فالهيلة فيها تنجم عن الجسم (مثلما يقع حين تعترى مرضى الرئتين أو القلب صعوبة فى التنفس) . وفى هذه الحالة تُستغل الهيلة فى المعاونة على أن تتحقق فى صورة الحلم رغبات مكبوتة كبتاً عنيفاً ، لو أن الدوافع إلى الحلم بها كانت دوافع نفسية لكانت النتيجة انطلاق الهيلة كذلك . وليس من الصعب

---

(١) [يعود فرويد إلى معالجة هذا الموضوع فى القسم ج من الفصل السابع، ص ٥٤٧ وما بعدها .]

أن نجمع بين هاتين الحالتين على ما يبدو من انفصالهما ؛ فى كلتاهما نجد عنصرين نفسين مرتبطتين كلا بالآخر أوثق الارتباط ، هما نزوع وجدانى ومحتوى فكرى ، يستدعى أحدهما — وهو الحاضر الناشط — العنصر الآخر حتى فى الحلم : فطوراً تستدعى الهيلة المحتَّمة بعلل جسمية المحتوى الفكرى للحلم ، وطوراً آخر يستتبع المحتوى الفكرى — بعد أن تحرر من عقال الكبت بما يصحبه من تهييج جنسى — يستتبع انطلاق الهيلة . ونستطيع أننقول عن الحالة الأولى : إن حالة وجدانية محتمة بعلل جسمية قد لقيت فيها تفسيرا نفسيا ، وأما الحالة الثانية فالكل فيها ذو أصل نفسى إلا أن تفسيراً جسمياً يتلائم والهيلة قد حل فيها من غير عناء محل المحتوى الذى كان مكبوتاً . وعلى أية حال ، فإن الصعوبات التى نلقاها فى فهم هذا كله لا تحمل كبير صلة بمسألة الأحلام : إنها ترجع إلى كوننا نقترب ههنا من مشكلة نشوء الهيلة ومشكلة الكبت .

وما من شك فى أن الحالة المزاجية العامة [أنظر ص ٧٢] للجسم تدخل فى عداد المنبهات الجسمانية الباطنة التى تتحكم فى محتوى الحلم ؛ لا لكونها تستطيع أن تمد الحلم بمحتواه ، ولكنها تملى على أفكار الحلم أن تختار ما تختاره من المادة المعدة لأن تصور فى محتوى الحلم ، وذلك من حيث أنها تقرب ما كان من أجزاء تلك المادة متلائماً وطبيعتها بينا تبعد الأجزاء الأخرى . أضف إلى ذلك أن تلك الحالة المزاجية العامة المتخلفة من النهار ترتبط يقينا ببقايا النهار النفسية — مع ما لهذه من أهمية بالنسبة إلى الحلم . ولقد يبقى هذا المزاج هو هو فى خلال النوم ، وقد تم الغلبة عليه فإن كان أليماً انقلب إلى الضد .

وهكذا أقدر أن مصادر التنبيه الجسمية (أى إحساسات النوم) إنما تأخذ من تكوين الحلم بنصيب يماثل نصيب ما يتخلف عن النهار من انطباعات حديثة العهد لكنها خالية من الشأن — هذا إلا إذا كانت تلك المصادر ذات شدة غير مألوفة . أى أننى أعتقد أن الأحاسيس الجسمية إنما يستعان بها فى تكوين محتوى الحلم إذا كانت تتلائم والمحتوى الفكرى المستمد من مصادر الحلم النفسية بحيث يمكن التوحيد بينها وبين هذا المحتوى الفكرى ، وإلا لم يستعن بها . فهى تعامل بمثل ما تعامل به مادة رخيصة سهلة

المنال فى كل وقت ، تنطاع للمرء كلما احتاج إليها ، وليس كمادة ثمينة ، تفرض بذاتها وجه استخدامها . فمثل الحال هنا كمثل أحد الحادبين على الفنون الجميلة أتى فناناً بحجر كريم — كقطعة من العقيق — لكى يصوغ منه أثراً فنياً ؛ إن حجم القطعة ولونها وتشريحها سوف تعين الفنان على أن يقرر أى رأس أو أى منظر يصلح لأن يصور فيها، على حين أن الفنان لا يحتاج فى مادة متساوية موفورة — كالمرمر أو الحجر — إلى غير متابعة الفكرة التى تهيأت فى ذهنه . وعلى هذا النحو وحده نفهم — فيما يهيأ إلى — تلك الحقيقة : أن المنبهات العضوية ذات الشدة المألوفة لا تظهر آثارها فى محتوى الحلم فى كل حلم وفى كل ليلة ، وإن زودت الحلم ببعض محتواه أحياناً[1] [أنظر ص ٢٤٥] .

وربما كان أحسن ما يوضح معناى مثال يعود بنا من جديد إلى تفسير الأحلام . فقد كنت أجهد ذات يوم فى فهم المعنى الذى تراه يكون لهذا الإحساس الذى يكثر فى الأحلام أيما كثرة ويقرب من الهيلة أيما قرب : حين يشعر المرء بأنه قد كف ، أو سمر فى موضعه ، أو فقد القدرة على إتيان عمل من الأعمال ، الخ. فلما كان الليل جاءنى هذا الحلم

أصعد السلم وأنا مرتد ثيابى منقوصة إلى حد كبير ، من شقة فى الطابق الأرضى إلى طابق أعلى . كنت أنهب السلم ثلاث درجات فى كل خطوة وأنا سعيد بهذه الخفة. أرى فجأة خادماً تنزل السلم ، أى مقبلة نحوى . يتولانى الخجل وأريد أن أمضى مسرعاً ، وفى هذه اللحظة يحل بى هذا الشعور بالكف: لقد سمرت على الدرج ولم أعد أستطيع حراكاً من موضعى .

التحليل : إن الموقف الذى يظهر فى الحلم مأخوذ من واقع كل يوم ؛ فأنا أشغل فى منزل بفيينا شقتين لا يصل بينهما سوى السلم المشترك . وتقع غرفة الاستشارة مع مكتبى فى الطابق الأول ، بينما تقع غرف السكن فى الطابق الأعلى . فإذا فرغت من عملى فى ساعة متأخرة من الليل صعدت السلم إلى حجرة النوم . وكنت فى الأمسية التى سبقت الحلم قد قطعت هذه المسافة القصيرة وأنا حقيقة مبعثر الثياب بعض الشىء ، وأعنى أنى نزعت البنيقة وربطة العنق والأكمام . وتزيد فى الحلم درجة التجرد من الثياب — وإن

---

(١) لقد بين رانك فى مقالات متعددة أن الأحلام الجالبة لليقظة والتى تحدث عن منبهات عضوية (مثل الأحلام ذات المنبه البولى وأحلام الإنزال) تصلح صلاحية خاصة للبرهنة على الصراع بين الحاجة إلى النوم ومطالب الحاجات العضوية ، وكذلك على تأثير تلك الحاجات فى محتوى الحلم .

بقيت غير محددة ، كما هو الشأن عادة [أنظر ٢٦٠ وص٢٦٢] . ومن عادتى أن أنهب السلم على هذا النحو ، وهى عادة كان جلياً فى الحلم أيضاً أنها تحقق رغبة ؛ فالسهولة التى أصعد السلم بها كانت تطمئننى إلى حالة القلب عندى . وعدا ذلك ، كانت هذه الطريقة فى الصعود تناقض الكف الذى أعقب فى النصف الثانى من الحلم مناقضة فعالة ، إنها كانت تريني – وهو ما لم يكن محتاجاً إلى برهان – أن الأحلام لا تجد أقل صعوبة فى تصوير الأفعال الحركية وهى تؤدى أداء يبلغ حد الكمال . ويكفى أن يفكر المرء فى أحلام الطيران !

غير أن الدرج الذى أصعده لم يكن درج منزلى . وقد عجزت للوهلة الأولى عن معرفته ، ولم أتبين أى مكان هو المعنى إلا حين عرفت من هو الشخص الذى أقبل نحوى : إن هذا الشخص خادم تعمل لدى سيدة متقدمة فى السن أزورها فى كل يوم مرتين لكى أحقنها . والسلم أيضاً كان يشبه كل الشبه سلم منزلها ، هذا السلم الذى كنت أصعده فى النهار مرتين .

ولكن كيف كان لهذا السلم ولهذا الشخص الأنثوى أن يدخلا حلمى ؟ إن الخجل لتجردى من الثياب بعض التجرد خجل ذو طابع جنسى من غير شك . ولكن الخادم التى أحلم بها تكبرنى سنا ، عبوس ، عاطل ولا شك من الجاذبية . الجواب الوحيد الذى يخطر لى هنا هو هذا : كنت عندما أزور هذا المنزل زيارة الصباح ينتابنى السعال عادة وأنا أصعد السلم . ولم يكن بد من أن يقع البصاق على الدرج ؛ فلم تكن هناك مبصقة فى أى من هذين الطابقين ، وكانت وجهة نظرى هى أن نظافة السلم لا ينبغى صونها على حسابى ، بل يجب تيسيرها بوضع المبصقات . ولكن بوابة المنزل – وهى أيضاً عجوز عبوس – وإن تكن فطرت على النظافة ، كما أسلم به طائعاً – كانت ترى رأيا مختلفاً : فهى ترقبنى لترى هل أبيح لنفسى الفعل الذى ذكرته ، فإن رأتنى أفعله سمعت لها همهمة لا تُخطئ ، وظلت بعد ذلك أياماً لا تجيب التحية بمثلها . واتفق فى يوم الحلم أن انتصرت الخادم لحزب البوابة : فقد كنت فرغت على عجل – شأنى دائماً – من زيارة المريضة ، حين استوقفتنى الخادم لتدلى بهذه الملاحظة : « يا سيدى الطبيب أما كان يسعك أن تمسح نعليك اليوم قبل أن تدخل الحجرة ، لقد اتسخت السجادة الحمراء

كلها من قدميك مرة أخرى . » وهذا هو كل ما يخول للسلم والخادم أن يظهرا فى حلمى .

وهناك رباط باطن يربط ما بين انتهاب السلم والبصق عليه . فالسعال — كمرض القلب — يعد لوناً من العقاب على رذيلة التدخين ، وهى رذيلة كان من جرائها أن سمعتى من ناحية النظافة لم تكن على أحسن ما يرام قبل السلطات المعنية فى منزلى نفسى ؛ إنها ضعيفة فى كلا المنزلين على السواء حتى أن الحلم قد مزجهما فى صورة واحدة .

ولست أجد بدا من أن أرجئ المضى فى تفسير الحلم حتى أبين منشأ هذه الأحلام النمطية التى نرى فيها أنفسنا متجردين بعض التجرد من الثياب . وإنما أكتفى هنا بالإشارة إلى نتيجة موقوتة تخلص من الحلم الذى رويته ، وهى : أن الشعور بكف الحركة إنما ينشأ فى الحلم كلما اقتضت ذلك ملابسات خاصة . فمن المحال أن تكون علة هذا المحتوى الحلمى تغيراً خاصاً طرأ على قدرتى الحركية فى أثناء النوم ؛ فقد رأيتنى منذ لحظة سبقت (كأنما كان المراد دعم ما أقول) وأنا أهرول على الدرج دون ما عناء .

د

الأحلام النمطية

إننا لا نجد نفسنا — بوجه عام — فى موقف يسمح لنا بأن نفسر أحلام شخص سوانا ، إلا إذا قبل الحالم أن ينقل إلينا أفكاره اللاشعورية الكامنة وراء محتوى الحلم ؛ ولهذا حُدّ إلى مدى كبير إمكان التطبيق العملى لمنهجنا فى تفسير الأحلام[1] . غير أن هناك أحلاماً تخالف كل المخالفة هذه الحرية التى يملكها كل فرد فى أن يشكل دنيا

---

(١) إن القول بأن منهجنا فى تفسير الأحلام لا يمكن تطبيقه إلا إذا وقفنا على المادة الاستدعائية عند الحالم يقتضى تكلمته بالنص على أن نشاطنا التفسيرى يصبح مستقلا عند هذه المستدعيات فى حالة واحدة : إذا

الحلم عنده على حسب خصوصيته ، جاعلا فهمها أمراً ممتنعاً على الآخرين : إنها أحلام لا يكاد يكون بيننا امرؤ لم يحلم بها على نحو لا يختلف عنده منه عند الآخرين وألفنا أن نفترض لها معنى واحداً عند الجميع . هذه الأحلام النمطية هي أيضاً أحلام ذات أهمية خاصة ؛ لأنها تنشأ في الراجح من مصادر واحدة عند جميع الناس ، وهي لذلك تبدو ذات صلاحية خاصة لأن تلقى بعض الضوء على مصادر الحلم .

ومن ثمت كنا نأخذ في تطبيق منهجنا التفسيرى على هذه الأحلام النمطية ونحن نعقد عليه آمالا كبارا ، لكي نتبين بعد ذلك على مضض أن منهجنا هذا لا يجيب تلك الآمال الكبار فيما يتصل بهذه المادة بالذات . ذلك أن الذى يقع عادة حين نتعرض لتفسير الأحلام النمطية هو أن تغيض خواطر الحالم — تلك الخواطر التى كانت تتيح لنا فهم الحلم فى غير ذلك من الحالات — أو هى تغمض وتندر ، بحيث نعجز عن أن نحل مشكلتنا بمعاونتها .

فما منشأ ذلك ؟ وكيف نسد هذا النقص فى طريقتنا ؟ ذلك ما سوف يتضح فى موضع آت من هذا الكتاب [القسم ه من الفصل السابع]، وعندئذ سوف يتبين أيضاً للقارئ لم كنت لا أستطيع أن أتناول هنا سوى أنماط قليلة من مجموعة الأحلام النمطية ، مرجئاً مناقشة ما عداها إلى ذلك الحين .

(أ) أحلام الارتباك من جراء العرى

إن الأحلام التى يرى فيها المرء نفسه عارياً من الثياب أو متجرداً بعض التجرد منها قد تتسم أيضاً بتلك السمة : وهى أن يغيب عند الحالم كل شعور بالخجل أو بما شاكله . ولكننا لن نشغل بأحلام العرى إلا حين يستشعر فيها المرء الخجل والارتباك ، ويريد الفرار أو الاختباء ، وعندئذ يتولاه كف غريب ، فلا يستطيع من موضعه حراكاً ،

استخدم الحالم عناصر رمزية فى محتوى الحلم . فعندئذ يتسنى لنا أن نلتجىء إلى منهج فى تفسير الحلم يمكن وصفه وصفاً دقيقاً بأنه منهج ثانوى مساعد . (أنظر ما يلى [القسم ه من الفصل السابع .])

ويحس العجز عن أن يغير من موقفه الأليم . وبغير هذه المصاحبة لا يكون الحلم حلماً نمطياً ؛ فلا شيء يمنع إذا هي ارتفعت من أن تدرج النواة التي يدور من حولها محتوى الحلم وسط ملابسات من كل نوع ، أو من أن تزان بتطاريز تختلف باختلاف الأفراد . فالحلم يقوم في جوهره [من حيث هو حلم نمطي] في هذا الشعور الأليم الذي هو خجل ، وفي كون المرء يود لو أخفى عريه — بالحركة في أغلب الأحايين — ولكنه يجد نفسه عاجزاً دون ذلك . وأعتقد أن الغالبية العظمى من القراء قدعرفوا هذا الموقف في الحلم .

والمألوف هو أن يكون نوع العري ومداه بعيدين عن الوضوح . فقد نسمع الحالم يقول: « كنت أرتدي قميصا » ، ولكن قل أن تكون هذه صورة متميزة . فالعري في الأغلب غير محدد ، حتى أن الراوي يعدد في وصفه الاحتمالات : « كنت ألبس قميصاً أو معطفاً » . والنقص في الثياب لا يكون في العادة خطراً إلى المدى الذي يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل ، بل إن العري كثيرا ما تستبدل به عند من ألف الملابس العسكرية طريقة في الارتداء تخرج بعض الشيء على التعليمات : « كنت أسير في الطريق بغير سيف ورأيت بعض الضباط يقبلون » ، أو « كنت بغير ربطة عنق » ، أو « كنت أرتدي سراويل مدنية » ، الخ .

وأما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائماً غرباء تركت سيماهم من غير تحديد . ولا يحدث أبدا في الحلم النمطي أن تلقى طريقة الارتداء التي توقع صاحبها في كل هذا الارتباك اعتراضاً ، ولا هي تُعار التفاتا ، بل تحمل الناس على العكس وجوهاً لا تبالي أو — كما لحظته في حلم فريد في دلالته — وقورة ، جامدة . لفي ذلك مدعاة إلى التفكير !

نعم ، إن ارتباك الحالم وقلة احتفال الناس يطالعاننا — مجتمعين — بتناقض من قبيل ما يكثر وقوعه في الأحلام : فإنما كان يماشي مشاعر الحالم أن ينظر إليه الغرباء في دهش واستهزاء أو مستنكرين . بيد أني أظن أن هذا الوجه الفاضح من الموقف قد أزيل بفعل تحقيق الرغبة في حين أبقت على الوجه الآخر [الارتباك] قوة من القوى ؛ وهكذا لا يتوائم الشطران كلا والآخر . ولدينا شاهد ممتع على أن الحلم في صورته التي شوهتها الرقابة تشويهاً جزئياً لم يلق فهمه الصحيح . ذلك أن هذا الحلم قد كان الأساس الذي بنيت عليه قصة صرنا جميعاً نعرفها في رواية هانس أندرسن («حلة الإمبراطور الجديدة ») ،

ونظمها حديثاً لودفيج فولدا فى « الطلسمان » : تحدثنا قصة أندرسن عن محتالين نسجا للأمبراطور رداء غالى الثمن لا يراه إلا الأخيار المخلصون ويخرج الأمبراطور مرتديا هذا الرداء الخفى ، ويخاف الناس مما يزعم للنسيج من القدرة على امتحانهم ، فيسلكون كما لو كانوا لا يرون عرى الأمبراطور .

ولكن هذا عينه هو الموقف الذى نجده فى حلمنا . ولسنا نجازف كثيراً حين نقدر أن لا معقولية الحلم هى التى كانت الحافز إلى اختراع رداء يجعل لهذا الموقف — كما يمثل فى ذاكرتنا بعد الحلم — معنى ما . صحيح أن الموقف يُسلب فى أثناء ذلك معناه الأصلى ويسخر فى خدمة أغراض مغايرة . ولكن مثل هذا الفهم الخاطئ الذى يلقاه محتوى الحلم من جانب النشاط الفكرى الشعورى الصادر عن نظام نفسى ثان - سوف نعلم أنه أمر كثير الوقوع وأنه يجب أن يعد بين العوامل التى تخلع على صورة الحلم شكلها الأخير[1] ، وسوف نعلم فوق ذلك أن أخطاء مماثلة فى الفهم — تقع أيضاً فى نطاق الشخصية النفسية الواحدة — تشارك بنصيب رئيس فى تكوين الأفكار القهرية والمخاوف الشاذة . ثم إن من السهل فيما يتصل بحلمنا أن نبين من أين استقيت المادة التى أقيم عليها التفسير الخاطئ : فالمحتال هو الحلم ، والأمبراطور هو الحالم نفسه ، والميل إلى الموعظة الخلقية ينم عن معرفة مبهمة بأن الأمر يدور فى محتوى الحلم الكامن حول رغبات محرمة ، ذهبت ضحية الكبت . والحق أن السياق الذى تظهر فيه أمثال هذه الأحلام فى أثناء قيامى بتحليل العصابيين لا يترك أقل مجال للشك فى أن الحلم قائم على ذكريات ترجع إلى الطفولة المبكرة . فطفولتنا هى الزمن الوحيد الذى كنا نُرى فيه غير مكتملى الثياب سواء أمن الأقربين أم من الغرباء ، كالمربيات والخدم والزوار ، ولم نكن إذ ذاك نشعر بالخجل لعرينا[2] . ونستطيع أن نلحظ كيف يطرب الكثير من الأطفال ، ممن تقدموا مع ذلك بعض التقدم فى السن ، حين ينزعون ملابسهم ، يطربون إلى ما يقارب الثمل بدل أن يخجلوا ، فهم يتضاحكون ويتواثبون ويتبادلون الضربات على صفحات أجسامهم ، بينا تقرعهم أمهم أو من اتفق حضورها قائلة : آه ، إن هذا عار لا يجوز . والأطفال كثيراً ما يظهرون التذاذهم بأن يعرضوا أنفسهم ؛ فلا يكاد المرء يمر بقرية فى ريفنا دون أن

---

(١) [يشير فرويد هنا إلى عملية « المراجعة الثانوية » التى يشرحها فى القسم ط من الفصل السادس .]

(٢) وقصة أندرسون يظهر فيها طفل كذلك ؛ فطفل هو الذى يصيح : ولكنه عار !

يصادف طفلا فى الثانية أو الثالثة يرفع أمامه جلبابه الصغير — ربما على سبيل التكريم . وبين مرضاى مريض حفظت ذاكرته الشعورية مشهداً وقع له وهو فى الثامنة من عمره ، حين أراد وقد نزع ثيابه متأهباً للنوم أن يرقص وليس عليه سوى القميص فى الحجرة المجاورة حيث أخته الصغيرة ، فصدته المربية عن مراده . والتعرى أمام أطفال الجنس الآخر ظاهرة لها نصيب ضخم فى تاريخ الطفولة عند العصابيين ، كما أن ما يهيأ فى البارانويا للمريض من أنه ملحوظ حين يرتدى ثيابه وحين ينزعها يجب إرجاعه إلى خبرات من هذا القبيل . هذا بينما نجد بين من بقوا على انحرافهم طبقة اشتد عندها هذا الاندفاع الطفلى حتى بلغ مبلغ العرض المرضى : تلك هى طبقة المستعرضين .

هذه الفترة من الطفولة التى لا تعرف الخجل تبدو للنظر حين نرده إليها ضربا من الفردوس . والفردوس نفسه إن هو إلا تخييل جماعى عن طفولة الفرد ؛ لهذا كان الناس فى الفردوس كذلك عراة لا يخجلون حين يتواجهون ، إلى أن جاء أوان فاستيقظ الخجل ودب الهول وتبع الطرد[1] وأخذت الحياة الجنسية ومشاغل العمران فى المسير . ولكن الحلم مستطيع أن يسرى بنا فيعيدنا إلى هذا الفردوس من جديد ، ولقد أعربت من قبل [ص ٢٤١] عن ظن مؤداه أن انطباعات الطفولة (أعنى من فترة ما قبل التاريخ إلى أن تقارب السنة الثالثة ختامها) تسعى إلى التكرار من تلقاء ذاتها ولذاتها ، وربما سعت إليه بغض النظر عن محتواها ، وأن تكرارها هذا يحقق رغبة . وهكذا تكون أحلام العرى أحلام استعراض[2] .

والحلم الاستعراضى تتكون نواته من الحالم الذى لا يترأى على ما كان عليه فى طفولته بل كما هو فى حاضره ، ومن ردائه المنقوص الذى يبدو غير متميز ، سواء أرجع ذلك إلى تراكم ما أعقب من ذكريات لا حصر لها عن نزعه ملابسه أم رجع إلى الرقابة ، ثم يأتى بعد ذلك الأشخاص الذين يخجل فى محضرهم . ولست أعرف مثالا واحداً عاود فيه الظهور فى الحلم أولئك الذين قد شهدوا حقيقة ذاك الاستعراض الطفلى ؛ فالحلم لا يكون

---

(١) [الطرد ، هو طرد آدم وحواء من الجنة على حسب قصة التوراة المعروفة فى سفر التكوين ، وقد رواها القرآن رواية مقتضبة أطولها ما جاء منها فى سورة البقرة . والهول بمعنى الهيلة .]

(٢) لقد سجل فرنتسى طائفة جديرة بالاهتمام من أحلام العرى حلمت بها نساء . ولم تكن هناك صعوبة فى تأثر هذه الأحلام إلى الرغبة الطفلية فى الاستعراض ، إلا أنها كانت تختلف فى بعض نواحيها من الأحلام " النمطية " التى أعالجها فى النص .

أبدا ذكرى وحسب ، ومن العجيب أن أولئك الأشخاص الذين يتجه إليهم اهتمامنا الجنسى فى طفولتنا يتركون جانباً فى كل استحضار يقع فى الحلم أو فى الهستريا أو فى العصاب القهرى . البارانويا وحدها هى التى تعود إلى هؤلاء المشاهدين فتنصبهم من جديد وتستدل على وجودهم فى يقين ملؤه التعصب ، وإن ظلوا غير منظورين . وأما ما يحل محلهم فى الحلم – « كثرة من الغرباء » لا تلقى بالا إلى المشهد المعروض عليها – فإن هو على التحقيق إلا الضد المرغوب لذاك الشخص المفرد عينه الذى قد ألفه الحالم يوماً والذى من أجله كان التعرى . وهذه الـ « كثرة من الغرباء » تظهر بعد فى الأحلام كثيراً ، فى سياق يتنوع بتنوع المقاصد ، وهى عندئذ تعنى دائماً – باعتبارها رغبة مضادة – « فى الخفاء[1] » . وإنا لنلحظ كيف لا تخلو البارانويا ذاتها – حيث يتحقق استرجاع الوضع القديم – من أثر هذا الاتجاه المضاد ؛ ففيها يحس المريض أنه لم يعد وحده : إنه موقن من أن ثمت آخرين يرقبونه ، ولكن مراقبيه « كثرة من الغرباء متروكين من غير تحديد على نحو عجيب » .

والكبت أيضاً له كلمته فى أحلام الاستعراض؛ فالشعور الأليم الذى يرد فى الحلم إنما هو رد النظام النفسى الثانى على نجاح المشهد الطفلى فى أن يعرب عن محتواه على الرغم من تحريمه . والسبيل الوحيد إلى تجنب هذا الألم هو ألا يبعث ذلك المشهد أبدا .

ونعود فيما بعد إلى الشعور بالكف [ص٣٤٤] . وإنما نقول الآن : إنه يصور فى الحلم – تصويراً ما أوفقه ! – صراع الإرادة ، يصور « كلا » ؛ فالغاية اللاشعورية تأبى إلا متابعة الاستعراض والرقابة تأبى إلا إيقافه .

وما من شك فى أن الروابط بين أحلامنا النمطية وبين قصص الأطفال وغيره من مؤلفات الخيال ليست بالقليلة ولا بالعارضة . ويتفق أحياناً أن تتسنى لفنان خالق نافذ البصر معرفة تحليلية بعملية التحول التى لا يكون الفنان عادة سوى مطيتها ، فإذا هو – وقد تتبع تلك العملية فى اتجاه عكسى – يرد الأثر الفنى إلى الحلم . ولقد نبهنى صديق إلى فقرة خطها جوتفريد كيللر فى « هاينريخ اليانع » جاء فيها : « ولست أود لك يا عزيزى لى أن تعلم أبدا علم المتعظ بنفسه ما حواه من صدق لاذع فريد ذلك الموقف من الأوديسا ، حيث يظهر أوليس عاريا ، مغطى بالوحل أمام أعين نوسيكا وقريناتها .

(١) وبما له هذا المعنى أيضاً حضور " العائلة مجتمعة " وذلك لأسباب لا تخفى على الفهم.

أتريد أن تعلم كيف يقع ذلك ؟ لنكثب النظر إذن إلى مثالنا : لو أنك جولت فى الغربة بعيداً عن وطنك وعن كل عزيز عليك ، ورأيت كثيراً وخبرت كثيراً ، وعرفت الأسى والهم ، وصرت إلى تعس وضياع بلغا منك النهاية ، إذن لحلمت لا محالة فى ليلة أنك تدنو من وطنك . لسوف تراه مشرقاً زاهياً فى أبهى الألوان، وهاهى ذى أطياف رحيمة، رقيقة ، حبيبة تقترب منك ، وهنا ينكشف لك فجأة أنك فى سمال ، عار ، عليك غبار . وعندئذ يتولاك خجل لا وصف له ، ولسوف تبحث عما يسترك أو يخفيك ، ثم تصحو فى عرق مصبوب . ذلك ، ما بقى على الأرض الإنسان ، حلم الرجل أثقلته الأحزان وتطارحته الرياح ؛ فما استمد هومير صفحاته هاته إلا من أعمق أعماق الوجود الإنسانى وخالده . »

وأعمق ما فى الوجود الإنسانى وخالده ، هذا الذى يعتمد الشاعر عادة على استثارته ، يقوم فى هذه الاندفاعات النفسية التى تضرب جذورها فى طفولة آلت من بعد إلى ما قبل التاريخ . فهناك رغبات من رغبات الطفولة مكبوتة، ممنوعة ، تنفذ إلى الحلم مستترة وراء رغبات الشريد التى لا اعتراض عليها والتى يمكن قبولها فى الشعور . ولهذا كان الحلم الذى يتجسم فى أسطورة نوسيكا ينقلب دائماً إلى حلم هيلة .

وحلمى المروى فى ص ٢٥٦ ، الذى رأيتنى فيه أنهب السلم نهباً ثم لا ألبث أن أتسمر على درجاته كان أيضاً حلماً استعراضياً لأنه يحمل الأمارات الجوهرية على ذلك . ولا بد إذن من أن يكون فى الوسع تأثره إلى ذكريات وقعت فى الطفولة ، ومعرفة هذه الذكريات بدورها لا بد أن تعيننا على أن نقدر إلى أى مدى أعان مسلك الخادم إزائى — وأعنى تقريعها إياى على توسيخ السجادة — على أن تجد لها محلا فى الحلم . والواقع أننى أستطيع أن آتى بالإيضاح المطلوب : إن التحليل النفسى يعلم المرء أن يفسر التقارب فى الزمن بالترابط فى المضمون [أنظر القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٢٤] . فإذا تعاقبت فكرتان على غير رباط ظاهر كان ذلك دليلا على أنهما تنتميان إلى كل واحد ينبغى الكشف عنه ، كما أنك إذا كتبت أ ثم أردفت بها ب وجب النطق بهما مقطعاً واحداً : أب ، والأمر كذلك إذا وقع الترادف فى الحلم . وحلم السلم هذا قد اخترته من بين سلسلة من الأحلام ألممت بمعناها بعد تفسيرها . وهو إذن يعالج ذات الموضوع من غير شك . وأقول الآن : إن هذه الأحلام كانت تقوم على ذكرى مربية عهد بى إليها فى فترة ما، امتدت من

زمن الرضاعة إلى أن بلغت الستين والنصف ، ولا زالت أحفظ فى الشعور ذكرى غامضة عنها. وقد كانت هذه المرأة — على حسب ما علمته أخيراً من أمى — عجوز ، قبيحة ، لكنها كانت ماهرة ، قديرة . ثم هى لم تكن — بحسب النتائج الذى يجو ز لى استخلاصها من أحلامى — تعاملنى دائماً ألطف المعاملة ، وأظنها كانت تسمعنى خشنا إذا قصرت فى بلوغ المستوى المطلوب من النظافة . وهكذا حق للخادم — وقد أخذت على عاتقها من جديد متابعة تلك المهمة التربوية — أن تعامل فى الحلم كما لو كانت نسخة جديدة من عجوز ما قبل التاريخ . ونستطيع أن نفترض بالطبع أن الطفل كان يهدى حبه إلى من لقنته هاته الدروس على الرغم من سوء معاملتها(١) .

(ب) أحلام موت الأحياء

وهناك طائفة أخرى من الأحلام تصح تسميتها أحلاماً نمطية ، هى تلك التى يرد فى محتواها أن حبيباً قد مات ، كأحد الوالدين أو الإخوة أو الأبناء . وعلينا أن نبادر بالتفرقة بين طبقتين من هذه الأحلام : الواحدة هى التى يظل الحالم فيها دون أن يحرك الموت فى نفسه شيئاً ، حتى ليدهش — إذا استيقظ — لجمود حسه ، وأما الأخرى فيحزن فيها الحالم للموت حزنا عميقاً ، حتى ليدفق دمعه غزيرا وهو نائم .

ولنا أن نترك الطائفة الأولى من هذه الأحلام ، إذ ليس هناك ما يخول لها أن تعد أحلاماً نمطية ، لأننا نجد إذا حللناها أنها تعنى شيئاً آخر غير ما تحويه ، وأنها قد جاءت لكى تستر رغبة أخرى من الرغبات . ومثال ذلك حلم الخالة التى رأت ابن أختها الوحيد مسجى أمامها (ص١٧٨) : فهذا الحلم لم يكن يعنى أنها كانت تريد الموت لابن أختها

---

(١) وها هو ذا تفسير آخر : لما كان "Spucken" [: البصق ويعنى أيضاً الولاية أو التسلط حين يقالان للأرواح] من مهام الأرواح ، فإن "Spucken" [بمعنى البصق] على السلم ، يذهب بالذهن — من طريق ترجمة واهية — إلى : "Esprit d'escalier" [تعبير فرنسى ترجمته الحرفية : " روح السلم" ، ويعنى بطء البديهة عند الرد ، من كونك لا يسعفك الجواب ثم تجده " وأنت نازل على السلم "] . وهذا التعبير يعدل ضده فى الألمانية قولنا : "Schlalgfertigkeit" [ومعناه الحرفى : التأهب للضرب] وهو استعداد لا أرى إلا أنه ينقصنى . ولكن أتراه كان ينقص مربيتى ؟ [يشير فرويد إلى هذه المربية فى نهاية الفصل السابع من كتاب " سيكوباثولوجية الحياة اليومية " ويتحدث عنها بمزيد من التفصيل فى خطابين إلى فليس : ٧٠ ، ٧١ (فرويد ١٩٥٠ أ) .]

الصغير ، كل ما هناك – كما رأينا – هو أن الحلم كان يخفى رغبة فى أن ترى بعد طول قطيعة شخصاً حبيباً إليها ، هذا الشخص عينه الذى سبق لها لقاؤه مرة – بعد انقطاع دام كذلك طويلا – بجوار ابن أختها الآخر وهو راقد فى نعشه . ولم يكن من شأن هذه الرغبة التى كانت تكون محتوى الحلم الحقيقى أن تثير حزناً ، وعلى ذلك لم يكن فى الحلم حزن . فنحن نلحظ هنا أن الشعور الذى أحست به الحالمة لم يكن يتعلق بمحتوى الحلم الظاهر بل بالباطن ، وأن محتوى الحلم الوجدانى قد سلم من التشويه الذى أصاب محتواه الفكرى .

ولكن الأمر يختلف فى تلك الأحلام التى يتخيل فيها الحالم موت قريب حبيب ، ويألم لذلك وجدانه : هذه الأحلام – كما يتحدث به محتواها – تعنى الرغبة فى موت الشخص المقصود . ولما كنت أتوقع هنا أن تثور مشاعر قرائى كافة ، هم وكل من وقع له مثل هذا الحلم ، لم يكن بد من أن أحاول إقامة دليلى على أوسع أساس ممكن .

لقد ناقشنا من قبل حلما علمنا منه أن الرغبات التى يصور الحلم تحققها لا تكون دائماً بنت يومها ، بل هى قد تكون أيضاً رغبات ماضية ، مهجورة ، مدفونة ، مكبوتة ، لا يحملنا على أن ننسب إليها نوعاً من الوجود المستمر سوى رجوعها إلى الانبعاث فى الحلم . فهى – تلك الرغبات – ميتة ، لا كالموتى فى تصورنا ، بل كأشباح الأوديسا التى لا تلبث أن تبعث إلى الحياة حين تلغ الدم . فحلم الطفلة الميتة فى صندوقها (ص ١٨٠) كان يتصل برغبة كانت منذ خمسة عشر عاماً رغبة حاضرة وكانت الحالمة إذ ذاك تعلنها سافرة . ولا أظنه أمراً يخلو من القيمة بالنسبة إلى نظرية الأحلام أن أضيف أن هذه الرغبة كانت تقوم هى أيضاً على ذكريات من ذكريات الطفولة : ذلك أن الحالمة قد سمعت فى طفولتها – دون أن تدرى متى تحديداً – أن أمها قد افترسها فى أثناء الحمل الذى كانت هى ثمرته انقباض شديد ، وأنها ودت ودا حارا لو أن الطفل قد مات وهو جنين . فلما كبرت الحالمة وصارت حاملا ، لم تفعل إلا أن حذت حذو أمها .

فإذا حلم البعض وهو يفصح عن كل علائم الألم أن أباه أو أمه أو أخاه أو أخته قد مات ، لم أفكر على الإطلاق فى أن أقيم من هذا الحلم دليلا على أن الحالم يريد اليوم موت هذا القريب . فنظرية الحلم لاتقتضى كل هذا ، بل تقنع بالانتهاء إلى أنه – أعنى الحالم – قد اشتهى هذا الموت فى فترة أو أخرى من فترات الطفولة . غير أننى أخشى ألا

يفلح هذا التحفظ في تسكين المعترضين ؛ فهؤلاء سوف ينكرون احتمال أن تكون مثل هذه الفكرة قد طرأت لهم يوماً بمثل القوة التي ينكرون بها أن تكون تلك رغبتهم اليوم . وعلى ذلك لا يكون مفر من أن أبعث من جديد بعض ما غبر من حياة الطفولة النفسية استناداً إلى شهادة الحاضر[1].

دعنا ننظر بادئ ذي بدء في علاقة الطفل بإخوته . لست أدرى لماذا نفترض مقدماً أن هذه العلاقة لا بد أن تكون حباً . فمن ذا الذي لم ير بين الراشدين شواهد على شقاق الإخوة ؟ وكم يتاح لنا التحقق من أن هذا الشقاق قد تأصل في الطفولة وأنه لم ينقطع يوماً ! أضف إلى ذلك أن كثيراً من الراشدين الذين تربطهم اليوم بإخوتهم أواصر المودة وينصرونهم عند الشدة كانوا في طفولتهم يعيشون وإياهم على عداوة لا تكاد تلين . فالأكبر كان يسيء إلى الأصغر ويقهره ويسلبه لعبه ، في حين يضوى الأصغر مما به ، من غيظ العاجز المقهور . فهو يحسد أخاه الأكبر ويخشاه أو قد يستدير إلى مضطهده فيواجهه بأوائل ثوراته محبة للحرية وشعوراً بالعدل. هذا بينما يردد الوالدان أن أبناءهم لا يصطلحون ، دون أن يعرفوا لذلك سبباً . ولا يصعب أن نرى أن الطفل ولو كان حسن الطبع لا يحقق كل ما نأمل في رؤيته عند الراشد . فالأطفال أنانيون مطلقوا الأنانية ، وهم يشعرون بحاجاتهم شعوراً بالغ الشدة ، ويجهدون في إرضائها غير حاسبين لما عداها حساباً ، وبخاصة في وجه الغرماء من سائر الأطفال ، ومن الإخوة في المحل الأول . غير أننا لا نقول من أجل ذلك : إن الطفل « شرير » بل نصفه « بالرداءة » ؛ فهو لا يسأل عن سوء فعاله ، في نظرنا كما في نظر القانون . ومن العدل أن تكون الأمور كذلك ؛ فلنا أن نتوقع أن تستيقظ قبل ختام تلك الفترة المسماة طفولة نزعات غيرية ، وأن تستيقظ الأخلاق ، أو أن يأتي أنا ثان — بتعبير ماينيرت — فيغطي الأول ويكفه . ومن المحقق أن الأخلاق لا تظهر في كل النواحي في وقت واحد ، وأن مرحلة الطفولة اللاخلقية يتفاوت طولها بتفاوت الأفراد . فإن وقف هذا التخلق عن النمو ، أحببنا الحديث عن « الانحلال » بينما الواضح أننا نواجه كفا في النمو . وأما بعد أن يغطي النمو اللاحق الطبع الأول ، فقد يعرى هذا الطبع ثانية ، على الأقل إلى حد في حالات المرض الهستري . والحق أن الشبه عجيب بين ما ندعوه الطبع الهستري وبين رداءة الأطفال . وأما العصاب القهري فيوافق

---

(١) أنظر "تحليل مخافة شاذة عند طفل في الخامسة" (فرويد ١٩٠٩ ب) . وكذلك مقالتي في "بعض النظريات الجنسية عند الأطفال" (١٩٠٨ ج) .

على العكس تخلقاً مفرطاً أريد به تعزيز القدرة على مغالبة ما يتحرك من جديد من الطبع الأول .

هناك إذن قوم كثيرون ممن يحبون اليوم إخوتهم ويستشعرون فداحة الفقدان لو قد حق عليهم الموت ، وهم مع ذلك يضمرون لهم فى لا شعورهم رغبات خبيثة من العهد الأول قادرة على أن تتحقق فى الحلم . ولكن الذى يفيدنا هنا أكبر الفائدة هو أن نلحظ مسلك صغار الأطفال إلى سن الثالثة أو الرابعة تجاه من يصغرونهم من أشقائهم وشقيقاتهم ؛ لقد ظل الطفل حتى ذلك الحين وهو الطفل الأوحد ، وها هو ذا يعلم اليوم أن اللقلق قد أتى بطفل جديد : إنه لينعم النظر فى هذا الوافد الصغير ثم يعلن فى عزم . « ليعد به اللقلق من حيث أتى [١] » .

وإنى لأعتقد وأنا جاد تمام الجد أن الطفل يعرف كيف يقدر تقديراً صائباً كل ما ينتظره على يد الدخيل الصغير . وها هى ذى سيدة من معارفى تربطها اليوم أحسن الروابط بأختها التى تصغرها بأربعة أعوام — تخبرنى أنها قد تلقت نبأ وفادة أختها لأول مرة بهذا التحفظ : « ولكننى لن أعطيها معطفى الأحمر مهما يكن! » ومن هذا التاريخ تبدأ عداوة الطفل ولو لم يدرك موقفه إلا فيما بعد . وأعرف طفلة لما تبلغ الثالثة حاولت أن تخنق رضيعاً فى مهده لأنها لم تستبشر بمحضره خيراً . والغيرة فى هذا الوقت من الحياة شىء يستطيعه الأطفال بكل شدته ووضوحه . وهب الأخ الصغير أو الأخت قد خلى مكانه بالفعل عاجلا ، وعاد الطفل يحتكر كل عطف المنزل ، ثم يأتى اللقلق بوافد جديد : أليس من المنطق أن يضمر طفلنا المدلل الرغبة فى أن يلقى منافسه الجديد مصير سابقه حتى تسير الأمور بما يشتهى ، شأنها فى البدء وفيما بين الفترتين [٢] . ومن الطبعى أن يتفاوت مسلك الأطفال هذا تجاه من يولد بعدهم بتفاوت الأعمار . فقد يحدث إذا بلغ الفرق فى السن حدا معيناً أن تستثار فى الأخت الكبرى أول بشائر الغريزة الأموية تجاه هذا الوليد الذى لا عون له .

---

(١) وهانس البالغ من العمر ثلاثة سنوات ونصف السنة والذى كانت مخافته الشاذة موضوع التحليل المشار إليه فى الهامش السابق — قد صاح وهو محموم حين ولدت أخته : ولكننى لا أريد أختا صغيرة . ثم هو قد أعرب صراحة فى أثناء عصابه — بعد ذلك بثمانية عشر شهرا — عن رغبته فى أن تلقى أمه الطفلة فى حجرة الاستحمام حتى تموت . ومع هذا كان هانس ولدا حسن الطبع ، عطوفا ، سرعان ما شغف بأخته الصغرى وشغف على الأخص بحمايتها .

(٢) إن حالات الموت التى يعاصرها الطفل على هذا النحو أمر قد تسارع العائلة إلى نسيانه ولكن البحث التحليلى النفسى يرينا أن لها أهمية قصوى فى العصاب الذى يجىء من بعد .

وما من شك فى أن مشاعر العداوة بين الإخوة تزيد فى سن الطفولة كثيراً عما يلحظه منها الراشدون الغافلون[١] .

ولقد ضيعت فيما يتعلق بأبنائى الذين تتابعوا الواحد إثر الآخر فى تعاقب سريع فرصة إتيان مثل هذه الملاحظات . ولكننى أدرك اليوم ما فاتنى مع ابن أخت صغير جاءه غريم أنثوى فأدخل الاضطراب على حكمه المطلق بعد أن دام خمسة عشر شهراً . نعم ، لقد سمعت أن الشاب الصغير يسلك بإزاء أخته مسلكاً جد كريم ؛ فهو يقبل يديها ويلاطفها . بيد أنى رأيت ما يقنعنى بأنه قد أخذ — ولما يكمل الثانية — فى استخدام قدرته اللغوية فى نقد هذا المخلوق الذى لم يكن يبدو إلا نافلة : فهو كلما دار الحديث عنها أقحم نفسه وصاح متأففا : « صغيلة جداً ، صغيلة جدا ! » ولما ترعرت الطفلة فى الشهور الأخيرة وصارت من الكبر بما يرفع عنها هذه الزراية ، التمس صاحبنا سنداً جديداً لزعمه أنها لا تستحق كل هذه الرعاية ، فلا تسنح فرصة إلا ذكرنا بأنها لا أسنان لها[٢] . ولا تزال أسرتنا جميعها تذكر عن البنت الكبرى لأخت لى أخرى كيف أخذت مرة — وكانت فى السادسة — تلح ساعة كاملة على جميع عماتها ، تسألهن لكى يؤيدنها : « إن لوسى لا تستطيع أن تفهم ذلك بعد ، أليس كذلك ؟ » وكانت لوسى منافستها التى تصغرها بعامين ونصف العام .

ولم أجد — مثلا — بين جميع مريضاتى مريضة واحدة أخطأها هذا الحلم الدال على أقصى العداوة : بموت أخ أو أخت . لم أجد إلا استثناء واحدا لم يصعب تفسيره بما يؤيد القاعدة . فقد كنت أشرح هذا الوضع لإحدى السيدات فى خلال جلسات تحليلية لأنه بدا لى ذا حساب يحسب فى العرض الذى كان مطروحاً على بساط البحث فى ذلك

---

(١) إن ملاحظات لا يحصرها العد عن عداوة الأطفال فى المبدأ نحو إخوتهم وأحد والديهم قد لوحظت وسجلت فى المؤلفات التحليلية منذ أن خطت هذه السطور . ولكن الشاعر [السويسرى] شبيتلر قد صور لنا هذا المسلك الطفل المتطى تصويرا فريدا فى صدقه وسذاجته استمده من طفولته : " وكان هناك عدا ذلك — أدولف ثان : مخلوق صغير زعموا أنه أخى وإن كنت لا أفهم كثيراً وجه النفع منه ، وأفهم أقل لم يحفلون له مثلما يحفلون لى أنا . لقد كانت نفسى تكفينى ، فما حاجتى لأخ ؟ وليته كان عديم النفع وحسب ! بل هو يزيد أحياناً فيصير عقبة : فإذا عاكست جدتى أراد أن يعاكسها مثلى ، وإن خرجت للنزهة جلس قبالتى ، فلا يكون مناص من أن نتضارب بأقدامنا . »

(٢) وهذه الكلمات عينها قد استعارها أيضاً هانس الصغير وهو فى الثالثة والنصف من عمره فى نقده الجارف لأخته الصغيرة (ذات المرجع) . وكان يقدر أن عجزها عن الكلام راجع إلى افتقارها إلى الأسنان .

اليوم ، وإذا هى تجيبنى لدهشى أنها لم تر مثل هذا الحلم قط . غير أن حلماً يبدو منقطع الصلة بالموضوع طرأ ببالها ، وهو حلم أتاها فى الرابعة — وكانت إذ ذاك أصغر أفراد الأسرة — ثم عاودها بعد ذلك تكراراً : جمع من الأطفال — كلهم من الإخوة والأقارب ، صبية وبنات — يزحفون فى حقل ثم فجأة ظهرت لهم أجنحة ، فطاروا كلهم ثم اختفوا . ولم تكن الحالمة تملك أقل فكرة عن هذا الحلم. ولكن من السهل علينا أن نعرف أنه فى صورته الأصلية التى لم تغير منها الرقابة إلا قليلا حلم بموت إخوتها وأخواتها جميعاً . وأجازف إلى افتراض التحليل الآتى : عندما مات أحد هؤلاء الأطفال — وكانت الحالمة وإخوتها قد نشئوا هم وأولاد عم لهم فى أسرة واحدة — اتجهت الحالمة — ولما بلغت الرابعة — إلى أحد الكبار العاقلين تسأله : ما الذى يحدث للأطفال حين يموتون ؟ ولا بد أنه أجابها : تنمو لهم أجنحة ويصبحون ملائكة صغارا . ونحن نرى فى الحلم الذى أعقب هذه الإفادة أن إخوة الحالمة قد صارت لهم جميعاً أجنحة كالملائكة وأنهم — وهنا المهم — قد طاروا بعيداً، ولم يبق سوى صغيرتنا صانعة الملائكة [1] ، وتأمل : إنها الباقية الوحيدة من الحشد كله ! وأما أن يزحف الأطفال فى حقل قبل طيرانهم فهو ما لا نكاد نجانب الصواب إذ نرى فيه إشارة إلى الفراشات ، وكأنما كانت الطفلة مسوقة بذلك التداعى الفكرى الذى ساق القدامى إلى أن يصوروا الروح فى صورة فراشة ذات أجنحة .

وهنا قد يعترض البعض قائلا : « نسلم بأن الأطفال عرضة لدفعات عدائية نحو إخوانهم ، ولكن أنى لقلب الطفل أن يبلغ من الفساد إلى تلك القمة ، حتى ليشتهى موت من نافسه أو قوى عليه من رفاق اللعب ، كأنما كان لا يعرف غير الموت عقاباً لكل جريمة ؟ » بيد أن قائل مثل هذا الكلام ينسى أن فكرة الطفل عن « الموت » لا تحمل — بعد اللفظ — إلا أقل الشبه بفكرتنا نحن . فما يعلم الطفل شيئاً من شناعة الفساد ، ومن الرعدة فى قبر بارد كالثلج ، ومن هول العدم الأبدى — وكلها أمور قلما احتمل الكبار تصورها ، دليل ذلك كل الأساطير المنسوجة حول العالم الآخر . فالخوف من الموت غريب عن الطفل ، ومن ثمت كان لعبه بالكلمة الهائلة والتجاؤه إليها لكى يهدد بها أحد الرفاق : « ستموت لو عدت إلى ذلك مثلما مات فرانتس » .

---

(١) [صانعة الملائكة تعبير يقال للقابلة التى تزاول عمليات الإجهاض — من كونها تقتل الأولاد ولما يولدوا فيصيرون ملائكة .]

وتسرى الرعشة فى الأم المسكينة ، ولعلها لا تستطيع أن تنسى أن الشطر الأكبر من البشر مواليد الأرض لا تتجاوز حياتهم سنى الطفولة . بل لقد يبلغ الطفل الثامنة ثم لا يزال قادراً على أن يقول لأمه وقد عاد إلى المنزل من جولة فى متحف التاريخ الطبيعى : « ماما ، ما أكثر حبى لك ! إذا مت فسأجعلهم يحشونك ، وسأضعك هنا ، فى هذه الغرفة ، حتى أستطيع رؤيتك دائماً ، دائماً . » إلى هذا المدى يختلف الطفل منا فى تصوره للموت [1] .

ولما كان الطفل يجنب فوق ذلك مشاهدة آلام الاحتضار ، فالموت عنده يعنى إلى حد كبير « الغياب » ، الكف عن إزعاج الأحياء المتبقين . وهو لا يميز بين أسباب هذا الغياب ؛ أسفر أم طرد أم غربة أم موت [2] . فلو أن طفلا طردت مربيته وهو مازال بالمرحلة قبل التاريخية ثم ماتت أمه بعد ذلك بقليل ، لتطابق الحدثان فى ذهنه وكونا سلسلة واحدة — كما يكشف عنه التحليل . وأما أن الطفل لا يفتقد الغائب كثيراً فهذا ما تعلمه الكثيرات من الأمهات لحسرتهن حين يعدن إلى دورهن بعد أسابيع قضينها فى إجازة الصيف فيقابلن بهذا النبأ : أن الأطفال لم يسألوا عن أمهم مرة واحدة . فإن ذهبت الأم حقيقة إلى هذه « الأرض المجهولة التى لا يعود منها راحل » بدا على الطفل للوهلة الأولى أنه نسيها ولم يأخذ إلا من بعد فى تذكر موتها .

وهكذا إذا رأى طفل ما يدعوه إلى أن يتمنى غياب شخص آخر ، فليس ما يمنعه من أن يلبس أمنيته هذه لبوس الرغبة فى الموت ، كما أن الاستجابة النفسية إلى الأحلام

---

(١) لقد أدهشنى أن أسمع ولدا فى العاشرة عالى الذكاء وهو يقول على أثر وفاة والده وفاة مفاجئة : " إنى أفهم أن يكون والدى ميتا ، ولكنى لا أرى لم لا يحضر إلى المنزل للعشاء . " ويجد القارئ مادة أخرى تتصل بهذا الموضوع فى الباب الذى تشرف على تحريره الدكتورة هـ . فون هوج - هلموت تحت عنوان " نفس الطفل " بمجلة Imago ، المجلدات ١ — ٥ ، ١٩١٢ — ١٩١٨ .

(٢) أتى أحد الآباء ممن لهم إلمام بالتحليل النفسى ملاحظة أرته اللحظة التى أدركت فيها ابنة له فى الرابعة على نمو عقلى كبير ما هو الفرق بين " الموت " و " البعد " . ذلك أنها سلكت على المائدة سلوكاً مزعجا بعض الشىء وأحست أن إحدى الخادمات تنظر إليها فى غير استحسان فأعربت لوالدها عن شعورها قائلة : " أود لو ماتت جوزفين ! " فسألها والدها مهدئا : " ولم الموت ؟ ألا يكفى أن تبعد ؟ " فأجابت الطفلة : " كلا ، وإلا عادت ثانية . " إن محبة الذات المطلقة عند الأطفال (النرجسية) تجعلهم يرون فى كل تدخل جريمة مساس بالذات الملكية ، ومشاعرهم — مثل قوانين دراكون — لا تعرف لكل جريمة من هذا القبيل إلا تلك الصورة من العقاب التى لا تحتمل وسطا .

المنطوية على رغبات فى الموت ترينا أنه مهما تنوع محتوى هذه الرغبات عند الطفل فهى تعنى مع ذلك على نحو من الأنحاء ما تعنيه نظيراتها عند الراشدين .

ولكن إذا كانت رغبة الطفل فى موت إخوته وأخواته تجد ما يفسرها من أنانيته التى تجعله يرى فى هؤلاء منافسين له ، فكيف نفسر رغبته هذه تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجاته واللذين كان يخلق بأنانيته تلك أن تدعوه إلى اشتهاء بقائهما ؟

هذه صعوبة يهدينا إلى حلها ما نلحظه من أن الحلم بموت الوالدين يصيب فى الغالبية الغالبة من كان من الزوجين الوالدين يشارك الحالم جنسه ؛ فالرجل يحلم فى الأغلب بموت الأب وتحلم المرأة بموت الأم . ولست أستطيع أن أدعى لتلك القضية عموم القاعدة ، ولكن غلبة الاتجاه الذى أشير إليه بينة إلى حد يتطلب تعليلها بعامل ذى قيمة كلية كذلك[1] : إن الأمور تجرى – إذا تركنا كل تعبير مخفف – كما لو كان ثمت إيثار جنسى يستشعره الطفل وهو فى باكورة الحياة ، كما لو كان الصبى يرى فى أبيه – والفتاة فى أمها – غريماً لن يصيبه من إزاحته غير النفع .

وإنه ليجدر بنا هنا أيضاً – قبل أن ننبذ هذه الفكرة معتبرين إياها فكرة شنعاء – أن نكثب النظر إلى العلاقات الحقيقية بين الوالدين والأبناء . وعلينا بنوع خاص أن نفرق بين تلك العلاقة كما يريدها واجب التقوى البنوية الذى يقتضيه العمران وبين ما يتكشف بالملاحظة اليومية أنه واقع تلك العلاقة : إن وراء العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العداوة ، وإنها لعلاقة تزدحم فى وفرة ما بعدها وفرة بكل العوامل التى تبعث على رغبات لا يمكن أن تواجه الرقابة . ولنقفن بادئ ذى بدء على العلاقة بين الأب والابن : إنى أعتقد أن القداسة التى أسبغناها على ما سنته الوصايا العشر من نواه قد أعمت أبصارنا عن إدراك الحقيقة الواقعة . ولعلنا لا نكاد نجرؤ على ملاحظة أن الشطر الأعظم من أبناء النوع الإنسانى يخرجون عن طاعة الوصية الرابعة[2] . فتقوى الأبناء نحو آبائهم – فى أسفل مراتب المجتمع كما فى أعلاها – تطغى عليها عادة مطامع أخرى . والبلاغ الحالك الذى ينحدر إلينا عبر الملاحم والأساطير عن العصور الأولى للمجتمع

---

(١) [١٩٢٥ :] إن الغموض كثيرا ما يشمل هذا الموقف لظهور دافع عقابى يهدد الحالم بموت من يحب من الوالدين على سبيل الجزاء الخلقى .

(٢) [" أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك . » (خروج ، ٢٠)]

الإنسانى يرينا ما لا تطرب له النفس من مطلق سلطان الأب ومن قساوته فى مزاولة هذا السلطان . فكرونوس قد التهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشى بخلف أنثاه ، وجاء زوس فأخصى أباه [1] ونصب نفسه سيداً فى مكانه . وكلما خلا سلطان الأب فى العائلة من كل قيد ، وجد الابن نفسه بالضرورة — وهو الوريث المنتظر — فى موقف العدو من أبيه ، ونفد بالضرورة صبره وهو يترقب الظفر بالسيادة عبر موت أبيه . ولا يزال الأب فى طبقتنا المتوسطة يأبى على ابنه الاستقلال ويأبى عليه العدة لبلوغه ، متعهداً بذلك بذور العداوة التى تكمن بطبيعتها فى هذه العلاقة . وكثيراً ما يتاح للطبيب أن يلحظ كيف يعجز حزن الابن لفقد أبيه عن قمع فرحه إذ يظفر أخيراً بحريته . وكل أب يتشبث اليوم يائسا بما يتبقى فى عصرنا من « سلطة لرب العائلة » [2] صارت إلى قدم لا يذكر بالخير ، وكل كاتب — مثل إبسن — يبرز هذا الصراع الأزلى بين الآباء والأبناء إلى مكان الصدارة من كتاباته فله أن يكون على ثقة من أنه محدث فى النفوس أثراً . وأما البنت وأمها فتنشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فترى فى أمها رقيباً عليها ، على حين تطمح هى إلى الحرية الجنسية ، هذا بينا ترى الأم من ناحيتها فى تفتح ابنتها نذيراً ينذرها أن قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية .

كل هذا ظاهر يملأ أعين الجميع . لكنه لا يعيننا على ما نستهدفه من تفسير الأحلام بموت الوالدين عند أناس رسخت تقواهم نحو والديهم رسوخاً وطيداً منذ زمن طويل . أضف أن المناقشات السابقة قد أعدتنا لأن نعلم أن رغبة الموت تجاه الوالدين تنبعث جذورها من الطفولة الأولى .

إن هذا الفرض يتأيد تأييداً لا يتطرق إليه أدنى شك بالنسبة إلى العصابيين الذين يأخذون فى التحليل النفسى . فنحن نعلم عندئذ أن رغبات الطفل الجنسية — إذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهى لا تزال فى طورها الجنينى — تنشأ منذ وقت مبكر ، وأن أول نزوع الفتاة يكون لأبيها كما تتجه رغائب الولد أول ما تتجه إلى أمه ،

---

(١) أو ذلك ما ورد فى بعض الأساطير . وفى روايات أخرى أن الإخصاء إنما أوقعه كرونوس على أبيه أورانوس . ولمعرفة المغزى الأسطورى الذى لهذه المسألة اقرأ رانك ، ١٩٠٩ ، وكذلك رانك ١٩١٢ ج ، الفصل التاسع ، القسم الثانى .

(٢) [potestas patris familialis ، الإشارة هنا إلى نظام العائلة الرومانية وسلطة الأب فيها .]

وبذلك يصبح الأب للولد – مثل الأم للبنت – مزاحماً مزعجاً ، ولقد رأينا من قبل – فيما يتعلق بالإخوة – كيف يكفى الشىء القليل من مثل هذا الشعور فى سوق الطفل إلى اشتهاء الموت للغريم . ويظهر مثل هذا الإيثار عادة عند الوالدين كذلك ؛ فهناك نسبة طبيعية ترعى الأمور بحيث يدلل الزوج ابنته الصغيرة وتأخذ زوجه جانب الابن ، بينما يعمل كلاهما – هذا إذا لم يفسد حكمتهما سحرُ الجنس – على تنشئة صغارهما تنشئة دقيقة . ويلحظ الطفل هذا الإيثار تمام الملاحظة وينقلب على الجانب الذى يعارضه من الزوجين الوالدين ؛ فالحظوة بحب الراشد لا تشبع حاجة بعينها من حاجات الطفل وحسب ، إنها تعنى بنوع أخص أن رغبته مجابة فى كل ناحية أخرى من النواحى . وهكذا يتبع الطفل دافعه الجنسى ويزيد فى الوقت عينه نزوع والديه حدة جديدة ، حين يتفق اختياره بينهما واختيارهما .

ومن عادتنا أن نغض النظر عن معظم علائم هذه النوازع الطفلية ، بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نلحظ بعضها حتى بعد انقضاء السنوات الأولى من الطفولة : فأنا أعرف فتاة فى الثامنة لا يدعو أمها داع إلى المغيب عن المائدة دون أن تنتهز الفرصة لتعلن أنها قد خلفتها : «سأصبح أنا ماما الآن . كارل ، أتريد مزيداً من الخضر ؟ خذ بعضا من فضلك ! » وهكذا . ولقد شفّت هذه الناحية من سيكولوجية الطفل شفافية خاصة عند طفلة فى الرابعة على جانب ملحوظ من الحيوية والذكاء ، كانت تقول : « الآن تستطيع ماما أن تذهب ، وسيتزوجنى بابا بعد ذلك على التأكيد . وأصبح أنا زوجه » – هذا دون أن تتنافى هذه الرغبة عند الطفلة مع حبها أمها حباً ملؤه الحنان . وإذا أبيح لطفل أن ينام إلى جانب والدته ووالده مسافر ثم أعيد مكرها فور رجوعه إلى غرفته المعتادة حيث ينام مع شخص آخر لا يحبه إلا حباً يقل كثيراً عن حبه لأمه ، كان من السهل أن تنشأ عنده الرغبة فى أن يظل والده غائباً على الدوام حتى يتمكن من استبقاء أمه الحبيبة الجميلة على الدوام . وجلى أن من الوسائل إلى ذلك أن يصبح الأب فى عداد الأموات ؛ فقد علم الطفل من تجربته شيئاً : هو أن الموتى يظلون دائماً على غيبتهم – مثل جده – ولا يرجعون منها إلى أبد الآبدين .

هذه الملاحظات قبل الأطفال الصغار وإن وافقت التفسير الذى أقترحه دون أن نحملها مالا تحتمل ، لا تجلب مع ذلك مطلقاً هذا الاقتناع الكامل الذى يفرضه على

الطبيب تحليل الكبار الراشدين . فالأحلام التى نحن فى صددها ترد هنا مصحوبة بمقدمات يستحيل معها تجنب تفسيرها . بغير كونها أحلام رغبة . ولقد وجدت يوماً إحدى مريضاتى مكتئبة دامعة وقالت المريضة لى : « إننى لا أريد أن أرى أقربائى أبدا ، لا بد أنهم يرتعدون منى فرقاً . » ثم أردفت تقول — من غير ما صلة تقريباً — : إنها تذكر حلماً من أحلامها ، وإن تكن بالطبع لا تفقه شيئاً من معناه . هذا الحلم قد أتاها فى الرابعة ، وهذا هو نصه : يجول فهد أو ثعلب[1] على سطح البيت ، عندئذ يسقط شىء من أعلى ، أو هى نفسها قد سقطت ، ثم تحمل أمها ميتة إلى خارج المنزل — وهنا تنتحب الحالمة نحيباً موجعاً . وما كدت أخبرها أن هذا الحلم لا بد يعنى رغبة أضمرتها وهى طفلة فى أن ترى أمها ميتة وأن هذا الحلم ولا شك هو الذى جعلها تظن أن أقرباءها يرتعدون منها فرقاً ، حتى أسلمتنى مادة ألقت على الحلم الضوء : ذلك أن « عين الفهد » شتيمة رماها بها ولد من أولاد الأزقة وهى لا تزال صغيرة جداً ، ثم إن حجرا قد سقط من السطح وهى فى الثالثة والنصف فأصاب رأس أمها وأدماها غزيرا .

وأتيح لى مرة أن أدرس درساً وافياً فتاة مرت بحالات نفسية متقلبة : فقد بدأ مرضها بحالة من الهيجان الخلطى ، كانت تبدى فى خلالها نفورا بالغ الشدة من أمها ، تضربها وتشتمها كلما اقتربت من سريرها ، بينما ظلت فى الوقت عينه على حبها وانطياعها لأخت تكبرها كثيراً ، ثم أعقبت هذه حالة من صفاء الذهن ، وإن صاحبها شىء من الخمود الانفعالى مع اضطراب فى النوم . وفى هذه المرحلة أخذت فى علاجها وتحليل أحلامها ، وكان عدد عظيم منها يدور — على نحو يزيد أو ينقص استخفاء — حول موت أمها : فهى طورا تشترك فى تشييع جنازة امرأة عجوز ، وطوراً آخر تجلس مع أختها إلى المائدة وقد ارتديتا ثياب الحداد — بحيث لم يعد هناك أقل مجال للشك فى معنى هذه الأحلام . فلما زادت حالها تحسناً أخذت مخاوف هستيرية فى الظهور . وكان أشد هذه المخاوف تعذيباً لها الخوف من أن تصاب أمها بمكروه ؛ فكانت — حيثما كانت — تضطر إلى أن تعجل بالعودة إلى المنزل ، حتى تقتنع بأن أمها لا تزال حية ترزق . هذه الحالة — هى وتجاربى الأخرى مجتمعة — قد علمتنى الشىء الكثير ؛ فهى قد أرتنى — فيما يشبه الترجمة إلى لغات مختلفة — تنوع الطرق التى يستجيب بها الجهاز النفسى إلى فكرة

---

(١) [هناك جناس شديد بين اسمى هذين الحيوانين فى الأصل : Luchs و Fuchs .]

مهيجة : ففى حالة الهيجان – التى أتصورها على أنها طغيان النظام النفسى الأول الذى يظل فى العادة مكبوتاً على النظام النفسى الثانى – يجد العداء نحو الأم متنفساً حركياً قويا ، فلما أخذت الحالة فى الهدوء وقمعت الثورة واستتب سلطان الرقابة من جديد ، لم يبق لعداوتها من مجال مفتوح غير مجال الحلم تحقق فيه رغبتها فى موت أمها ، ولما قويت الحالة السوية بعد ذلك ظهر قلقها المفرط على أمها من حيث هو استجابة هسترية مضادة وظاهرة من ظواهر الدفاع . وهنا لا يعود يغمض علينا لم كان من الشائع إلى هذا المدى أن تتعلق الفتيات الهستريات بأمهاتهن فى تحنان زائد .

وأتاحت لى فرصة أخرى أن أسبر غور الحياة اللاشعورية عند شاب فى مقتبل العمر كاد عصابه القهرى أن يعجزه عن الحياة . فهو لم يكن يخرج إلى الطريق ؛ لأنه إذا خرج عذبه الخوف من أن يقتل كل من مر به . وكان يقضى أيامه وهو يفكر فى دليل يثبت به براءته إذا وقعت جريمة قتل فى المدينة وأخذ هو بجريرتها – وغنى عن البيان أن هذا الشاب كان على مقدار عظيم من علو الخلق والثقافة على السواء . لقد بين التحليل (وهو تحليل أدى إلى شفائه) أن أساس هذه الفكرة القهرية الأليمة كان دافعاً إلى القتل يستهدف أباه ، وكان هذا الأب على صرامة لا تخلو من بعض الغلو . ولقد أعرب المريض لفرط دهشه عن هذا الدافع إعراباً شعورياً وهو فى السابعة من عمره ، وإن كانت نشأة الدافع ترجع بالطبع إلى ما قبل ذلك كثيراً من سنى الطفولة . فلما قضى الأب بعد مرض حفل بالعذاب ركب المريض – وكان فى الحادية والثلاثين – تأنيب قهرى تحول إلى الغرباء فى صورة هذه المخافة . وكأنما كان المريض يحدث نفسه قائلا : إن من استطاع أن يرغب فى أن يدفع أباه من قمة جبل عال إلى هاوية سحيقة لا يمكن أن يؤتمن بحال من الأحوال على احترام حياة الغير ممن هم أقل قربا إليه ؛ ولهذا كان صواباً منه أن يلزم غرفته حبيساً .

وتشهد خبرتى – وهى خبرة بلغت مدى واسعاً – بأن الوالدين يقومان بالدور الرئيس فى الحياة النفسية الطفلية لكل من صار فى مستأنف حياته عصابياً . فمحبة أحد الوالدين وكراهية الآخر من المقومات الجوهرية فى خزانة الاندفاعات النفسية التى تتكون فى ذلك الوقت والتى تملك أكبر الأهمية فى تشكيل أعراض العصاب الذى يجئ بعد ذلك . بيد أننى لا أعتقد أن العصابيين يختلفون فى هذه الناحية اختلافاً جوهرياً من أولئك

الذين يظلون سويين أى أنهم يملكون القدرة على أن يخلقوا شيئاً جديداً مطلق الجدة ، خاصاً بهم كل الخصوص . بل الذى يرجح ذلك كثيراً وتؤيده أيضاً الملاحظات العارضة عن الأطفال السويين هو أن العصابيين بمشاعرهم هذه — من حب وكره نحو والديهم — إنما يطلعوننا فى صورة مكبرة على ما يعتمل فى نفوس معظم الأطفال بوضوح أقل وشدة منقوصة . ولقد جاءتنا من الزمن القديم أسطورة لا سبيل إلى أن نفهم فعلها العميق الشامل فى النفوس إلا إذا كان الفرض الذى قدمته فى سيكولوجية الطفل صحيحاً كذلك صحة شاملة .

وأنا أشير هنا إلى أسطورة الملك أوديب وإلى مسرحية سوفوكليس التى تحمل اسمه : ولد أوديب من لايوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا ، وألقى به إلى العراء وهو بعدُ رضيع ، لأن نبوءة أعلمت لايوس — وابنه ما زال بالرحم — أن ابنه هذا سوف يكون قاتله . إلا أن منقذاً أنقذه وشب الطفل وليا للعهد فى بلاط أجنبى إلى أن خامره الشك فى أصله فراح بدوره يستفسر العرافة فأنذرته إياه والإقامة فى وطنه ؛ فقد قضى عليه أن يقتل أباه وأن يأهل أمه . وبينما هو هائم على وجهه فى طريق يبعده عما يظن أنه وطنه إذا هو يلتقى بالملك لايوس فيصرعه فى قتال نشب على غرة . وأقبل بعدها إلى طيبة ، وهناك حل لغز أبى الهول (١) الذى كان يعترض الطريق إلى المدينة فنصبه الطيبيون ملكاً عليهم عرفاناً منهم بجميل صنعه ، وأهدوا إليه يد يوكاستا . وظل أوديب يحكم دهراً آمنا معززاً ، وأعقبت له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين ، إلى أن نزل وباء فكان سبباً فى أن يذهب الطيبيون فى سؤال العرافة من جديد . وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس : يعود الرسل بهذا البلاغ : ينقطع الوباء إذا ارتحل قاتل لايوس عن الديار . ولكن بأى أرض هو ؟

« أين نجد هذا الأثر الخفى لجريمة غابرة ؟ »

(السطر ١٠٩)

ولا تقوم المعالجة المسرحية فى شىء آخر سوى الإفضاء — إفضاء تتزايد الإثارة فى سياقة رويدا رويدا ويتم بعد تعويق ماهر ، حتى لتجوز مقارنته بسير التحليل النفسى — بأن أوديب نفسه هو هو قاتل لايوس وأنه أيضاً ولده ، منه ومن يوكاستا . ويرتاع

(١) [لغز أبى الهول فى أشهر صيغه هو الآتى : من ذا الذى إذا طلع النهار سار على أربع ، فإن انتصف فعلى اثنتين ، فإن ضرب إلى المغيب فعلى ثلاث ؟ والجواب هو : الإنسان — الذى يستند إلى العصا فى شيخوخته .]

أوديب لهول ما أتى غير عالم ، فيفقأ عينيه ويهجر وطنه . وهكذاتصدق النبوءة .

« أوديب ملكا » تدخل بين ما يعرف باسم مأسويات القدر . ويقال : إن تأثيرها المأسوى يقوم فى التضاد بين مشيئة الآلهة القاهرة وبين محاولة الإنسان سدى أن يجنب نفسه الويل الذى يتهدده . ويقال أيضاً : إن الدرس الذى يخرج به من شهد المسرحية فملكته – هو الاستسلام للمشيئة الإلهية والبصر بقلة حوله . وعلى ذلك أراد المؤلفون المحدثون أن يبلغوا مثل هذا التأثير المأسوى ، فحاكوا هذا التضاد عينه فى خيال من عندهم . ولكن المشاهدين ظلوا لم يحركوا ساكناً وهم ينظرون كيف تَنْفُذُ عرافة أو نبوءة مهما بذل برىء فى دفعها ؛ إن مأسويات القدر المحدثة لم تصب وقعاً .

فإذا كانت « أوديب ملكا » تهز اليوم معاصرينا مثلما هزت من عاصرها من الإغريق ، فلا تفسير لذلك إلا أن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد ، وإنما ينبغى علينا أن نلتمس سر هذا الوقع فى طبيعة المادة التى تَشَخَّص بها هذا التضاد . أوقل : إنه لا مناص من أن يكون ثمت صوت يُعِدُّنا لأن نعرف قوة القدر الطاغية فى أوديب ، على حين يسعنا الزهد فى مواقف من قبيل ما يحاك فى « الجدة » [لجريلپارتسر] أو غيرها من مأسويات القدر المحدثة زهدنا فى نتاج لم يمله سوى هو صاحبه . وقصة الملك أوديب تشتمل حقيقة فى طياتها على عامل من هذا القبيل : فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن نصير إليه ، لأن النبوءة قد صبت علينا – ولما نولد – تلك الدعوة التى صُبت عليه ؛ فلعله قد قدر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسى جهة الأم وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب ، وأحلامنا تقنعنا بأن الأمر كذلك . فما عدا أوديب الملك الذى قتل أباه لايوس وتزوج أمه يوكاستا أن يحقق رغبات من طفولتنا . بيد أننا ونحن أسعد منه حظا قد نجحنا فى أن نتحول بنوازعنا الجنسية عن أمهاتنا وفى أن ننسى غيرتنا من آبائنا – نجاحاً يقاس بمقدار نجاحنا فى ألا نصير عصابيين . ولكن ، ها هو ذا البعض تحققت عنده هذه الرغبات وليدة الزمن الأول : إن الرعدة لتسرى فينا وإنا لندبر بعدا عنه ، لا تدخر فى ذلك طاقة من الكبت الذى ألجم منذ إذ ذاك هاته الرغبات فى دخيلتنا . فالشاعر إذ يخرج إلى الضوء – بينا ينقب فى الماضى – جرمَ أوديب هذا لا يترك لنا محيصاً عن أن نعرف دخيلتنا ، دخيلتنا التى لا تفتأ هاته الدفعات ماثلة فيها وإن قمعت . والتقابل الذى تودعنا الجوقة على صورته :

« أنظروا أوديب هذا ، من حل اللغز الذائع الصيت وكان رجلا فاق الرجال اقتداراً ، من كان المواطنون جميعاً يرمقون حظه فى حسد ، أنظروا فى أى بحر من الشقاء يقذف به! »(١) هذا التقابل تحذير يصيبنا ويصيب كبرياءنا ، نحن الذين صرنا — فى اعتقادنا — على هذه الدرجة من الحكمه ومن القوة منذ أن شيعنا سنى الطفولة ؛ فنحن نعيش — مثل أوديب — على جهل بهذه الرغبات المنافرة للأخلاق ، التى فرضتها الطبيعة علينا ، ولئن كشفت لأردنا أيضاً لو نغمض الطرف عن مشاهد طفولتنا .(٢)

فأما أن أسطورة أوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة أزلا ، متصلة بهذا الاضطراب الأليم الذى ينتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الأولى — ذلك ما يجد فى نص مأسوية سوفوكليس إشارة لا شبهة فيها . فها هى ذى يوكاستا ترفه عن أوديب — ولم يكن قد استنار بعد ولكن ذكرى النبوءة أخذت تشيع الاضطراب فى نفسه — فإذا هى تشير إلى حلم يأتى حقيقة أناسا كثيرين لكن دون أن يعنى ذلك — فى زعمها — شيئاً :

« كم من مائت قبلك ضاجع فى الحلم أمه ، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالا . » (سطر ٩٨٢ وما بعده .)

واليوم كما فى ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويروون أحلامهم مستنكفين ، متعجبين . ومن السهل أن نفهم أن هذا الحلم هو مفتاح المأسوية والجزء المكمل للحلم بموت الأب . فقصة الملك أوديب استجابة من المخيلة إلى هذين الحلمين النمطيين جميعاً . وكما أن هذه الأحلام تصحبها — حين تقع للراشدين — مشاعر شتى من النفور فقد حق كذلك أن تضم الأسطورة فى طياتها الارتياع وإيقاع العقاب بالنفس . وأما التحوير الذى يجىء بعد ذلك فمنشأه مرة أخرى أن المادة تراجع هنا أيضاً مراجعة ثانوية خاطئة تهدف إلى استخدامها فى أغراض لاهوتية . (أنظر مادة أحلام الاستعراض فى ص ٢٦٠

(١) [سطر ١٥٢٤ وما بعده .]

(٢) ليس بين مكتشفات التحليل النفسى ما لقى من النقاض المرورومن المدافعة المستميتة — ومن الحذلقة. النقدية الطريفة كذلك — ما لقيته هذه الإشارة إلى النزوع الطفلى الذى يظل متبقيا فى اللاشعور إلى الزنا بالمحارم بل لقد حاول البعض أخيراً — رغم كل ما تظهره التجربة — ألا يتركوا للزنا بالمحارم غير قيمة « رمزية » . — هذا وقد أتى فرنتسى (١٩١٢) بتفسير إضافى بارع لأسطورة أوديب اعتمد فيه على فقرة من خطاب لشوبنهاور . كما ظهر من مواصلة البحث أن ل « مركب أوديب » الذى أشير إليه للمرة الأولى فى هذه الفقرات من « تفسير الأحلام » أهمية لم نكن نحلم بها فى فهم التاريخ الإنسانى وتطور الدين والأخلاق (أنظر : الطوطم والتابو ، ١٩١٣) .

وما بعدها .) ولكن كان من الحتم أن تخفق محاولة التوفيق بين القدرة الآلهية المطلقة وبين المسؤلية الإنسانية ، فى صدد هذا الموضوع كما فى غيره .

وهناك مأثرة أخرى من مآثر الشعر المأسوى تضرب جذورها فى ذات التربة التى تضرب فيها أوديب ملكا : تلك هى «هاملت» شكسبير . بيد أن المعالجة المختلفة للمادة الواحدة تجلو لنا كل الفرق فى الحياة النفسية بين هذين العصرين المتباعدين تباعداً كبيراً من عصور الحضارة ، وأعنى بهذا الفرق تقدم الكبت عبر القرون فى الحياة العاطفية للبشرية. فنى «أوديب» يظهر جهارا ذلك التخييل الذى يجيب رغبة الطفل والذى تقوم عليه المأسوية ، ويتحقق كما قد يتحقق فى حلم . فأما « هاملت » فيظل فيها هذا التخييل مكبوتا ، ولا نعلم عن وجوده شيئاً إلا بما يظهر من عواقب كفه — شأن الحال مع العصابيين . والعجيب أنه يتبين أن ما تملكه المأسوية الأحدث من وقع طاغ فى نفوس الناس لا يتعارض مع بقائهم من أمر طبع البطل فى ظلمة مطلقة . فالمسرحية تقوم على تردد هاملت فى إنفاذ الانتقام الذى وكل إليه ، ولكن ما هى أسباب هذا التردد أو دواعيه ، ذلك مالا ينبس النص بحرف عنه وبذلت فى تفسيره محاولات لا تحصى فما أتت بطائل . فهاملت فى نظرة أصلها جوته[1] ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم يمثل هذا الطراز من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على العمل المباشر : شلها نمو العقل نموا مفرطا (« أسقمه الفكر الشاحب ») . وفى نظره أخرى أن الشاعر قد أراد أن يصور لنا طبعاً بريضاً مذبذبا شارف النوراستانيا . بيد أن المسرحية ترينا أن هاملت بعيد كل البعد عن أن يصور فى صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل . فنحن نراه يعمل مرتين : الأولى فى فورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار ، وأما الثانية فعن قصد مبيت بل فى مكر جم ، وذلك حين يرسل برجلى البلاط إلى الموت الذى كان مدبراً له هو ، مبدياً فى ذلك كل التحلل الخلقى الذى يمكن أن يتصف به أمير من أمراء عصر النهضة . فما الذى يوقفه على هذا النحو فى إنفاذ المهمة التى كلفه شبح أبيه إياها ؟ الجواب نجده مرة أخرى فى الطبيعة الخاصة لتلك المهمة . إن هاملت يستطيع أن يأتى كل شىء إلا أن يثأر من الرجل الذى أزاح أباه واحتل مكانته عند أمه ، الرجل الذى يريه — إذن — رغباته الطفلية وقد تحققت . وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذى كان كفيلا أن يدفعه إلى الانتقام تأنيب النفس

(١) [« فيلهم ما يشتر » ، سنوات التعلم ، الكتاب الرابع ، الفصل ١٣ .]

وتخوف الضمير يذكرانه أنه لا يفضل بحرف ذاك الخاطئ الذى كلف عقابه . وأنا إذ أقول ذلك أترجم فى عبارة شعورية ما كان مقرراً بقاؤه لا شعورياً فى نفس البطل . فإن أراد البعض أن يدعو هاملت هستريا ، لم أجد إلا أن أسلم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيرى . ويتسق وذلك أحسن الاتساق ما يعرب عنه هاملت فى حديثه مع أوفيليا من نفوره من الحياة الجنسية ؛ هذا النفور الذى كان مقدراً أن يزيد على الدوام تمكنا من نفس الشاعر فى مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه فى « تيمون الأثينى » — فما يطالعنا فى هاملت بالطبع سوى الحياة النفسية للشاعر . وإنى لألحظ فى كتاب جورج براندس (١٨٩٦) قوله : إن شكسبير كتب هذه المسرحية فور موت أبيه (١٦٠١) أى حين كانت وطأة الحزن عليه فى أشدها وحين بعثت فى نفسه من جديد — كما يحق لنا افتراضه — مشاعره الطفلية نحو والده . ومن الأمور المعلومة كذلك أن ولد شكسبير الذى مات فى سن مبكرة كان يحمل اسم هامنت (وهو ما يطابق هاملت) . وكما أن هاملت تعالج العلاقة بين الابن والوالدين ، كذلك تدور « ماكبث » المكتوبة قرب تلك الفترة حول موضوع العقم من الخلف . هذا ، سوى أنه كما أن جميع الأعراض العصابية — شأن الحلم ذاته — تقبل أكثر من تفسير واحد ، لا بل هى تقتضى مثل هذا التفسير المضاعف إذا نحن أردنا أن نفهمها حق الفهم ، كذلك كل خلق فنى صادق : فهو يصدر عن أكثر من دافع واحد وعن غير هائج واحد بنفس الشاعر ، وهو يفسح المجال لأكثر من تفسير . فما حاولت هنا إلا أن أفسر هذه الطبقة من الدوافع التى ترسب فى قرارة النفس عند الشاعر الخلاق [1] .

ولست أستطيع أن أترك الأحلام النمطية بموت الأقرباء المحببين دون أن أضيف بضع كلمات أوضح بها دلالة هذه الأحلام بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة . فهذه الأحلام تطالعنا بوضع لم نألفه قط ، وهو أن فكرة الحلم التى أملتها الرغبة المكبوتة تفلت من كل رقابة وتظهر فى الحلم من غير ما تحريف . فلا بد أن تكون هناك شروط خاصة تجعل ذلك أمراً ممكناً . وأعتقد أن العاملين الآتيين هما اللذان يعينان على وقوع هذه الأحلام :

---

(١) [١٩١٩ :] هذه الإشارات إلى فهم تحليل نفسى لهاملت قد أنماها إرنست جونز بعد ذلك ودافع عنها (أنظر جونز ١٩١٠ أ) . [١٩٣٠ :] هذا ولقد انتهيت فى هذه الأثناء إلى شك مطلق فى صحة المسلمة المتضمنة فى هذا الكلام ، وهى أن يكون مؤلف أعمال شكسبير هو الرجل المولود فى ستراتفورد . [١٩١٩ :] ويجد القارئ محاولات أخرى فى تفسير ماكبث فى مقالى (١٩١٦ ج) وكذلك فى مقال آخر بقلم يكلز (١٩١٧) .

العامل الأول هو أننا نعتقد أن هذه الرغبة أبعد ماتكون عنا ، أنها « لا تخطر لنا ولو فى الحلم » ، ولهذا ظلت الرقابة على الحلم غير معدة لمواجهة هذه الشناعة ، على نحو ما ظلت شرائع صولون من غير نص على عقاب من قتل أباه . والعامل الثانى هو أنه يكثر بنوع خاص فى هذه الحالة أن يذهب إلى لقاء تلك الرغبة الممنوعة غير المتوقعة أثر من اليوم السابق فى صورة القلق على حياة شخص عزيز : هذا القلق لا يستطيع أن ينفذ إلى الحلم إلا إذا استغل تلك الرغبة التى تلتقى به فى منتصف الطريق ، بينما تستطيع تلك الرغبة من ناحيتها أن تتقنع بقناع ذلك القلق الذى اختلج فى أثناء النهار . فإن ارتأى البعض أن الأمر أبسط من ذلك كثيراً وأن الأمر لا يعدو أننا نتابع فى الليل وفى أحلامنا ما شغلنا به فى نهارنا ، فإن صاحب هذا الرأى يترك الحلم بموت الأحباء من غير رباط يجمعه بنظرية الحلم عامة ، وهو بذلك يتشبث من غير داع بلغز يقبل الحل كل القبول .

ومن المفيد كذلك أن نتأثر علاقة هذه الأحلام بأحلام الهيلة . فإن الرغبة المكبوتة قد تمكنت فى الأحلام التى يموت فيها من نحب من أن تجد وسيلة تفلت بها من الرقابة ومن التشويه الذى تفرضه هذه الرقابة ، ولا يكون ذلك دون أن يستشعر الحالم فى أحلامه مشاعر أليمة . وأحلام الهيلة إنما تنشأ على هذا النحو عينه حين تكتسح الرقابة اكتساحاً شاملا أو جزئياً — هذا من جهة — ، بينما نجد — من جهة أخرى — أن اكتساح الرقابة يسهل حين تكون الهيلة قائمة بالفعل فى صورة إحساس خامد ناشط منبعث من مصادر جسمية [أنظر ص ٢٥٤] . وهكذا يتضح كل الوضوح أى غرض تقوم الرقابة من أجله بوظيفتها ، ولأى غرض تشوه الحلم : ذلك لكى تحول دون تمخض الهيلة وغيرها من الحالات الوجدانية الأليمة .

* * *

لقد تحدثت فيما سبق [أنظر ص٢٦٧] عن أنانية النفس الطفلية . وأردف الآن — لكى أشعر بالصلة — أن الأحلام كذلك تتسم بهذا الطابع عينه . فالأحلام فى جملتها على أنانية مطلقة ، والأنا المحبوب يظهر فيها جميعاً وإن تقنع . والرغبات التى تتحقق فيها من غير استثناء رغبات هذا الأنا عينه . وإذا لاح أن الاهتمام بالغير قد أثار حلما ، فما ذلك إلا مظهر خادع . وهأنذا أحلل بضعة أمثلة تبدو مناقضة لما أقول .

١

روى طفل لم يبلغ الرابعة : أنه رأى طبقاً كبيراً ازدحم بالخضر وعلته شريحة كبيرة من اللحم المشوى . ابتلعت الشريحة دفعة واحدة دون تقطيع . لم ير الحالم من أكلها(١) .

من هو يا ترى هذا الشخص المجهول الذى أتحفه حالمنا الصغير بتلك الشريحة الفاخرة ؟ لا شك فى أن خبرة اليوم السابق تلقى الضوء على ذلك : فالطفل كان منذ بضعة أيام لا يغتذى إلا باللبن خضوعاً لأمر الطبيب ، وهو بالأمس قد جاوز الحد فى « الشقاوة » فكان عقابه الحرمان من وجبة العشاء . ثم إنه كان ذا خبرة سابقة بعلاج الحمية هذا وأظهر فى احتماله شجاعة كبيرة : كان يعرف أنه لن يحصل على شىء من الطعام ولكنه لم يكن يبيح لنفسه أقل إشارة إلى جوعه ، ولو بكلمة واحدة . والتربية إذن كانت قد أخذت تحدث أثرها فيه . وإنها لتفصح عن نفسها فى هذا الحلم الذى تظهر فيه بواكير التشويه . فلا شك فى أنه هو هذا الشخص الذى تتجه رغائبه إلى مثل هذه الوجبة الحافلة — وأى وجبة ! وجبة من اللحم . ولكنه وهو يعلم أن ذلك محرم عليه لا يجرؤ على الجلوس إلى المائدة كما يفعل الأطفال الجائعون فى أحلامهم (أنظر حلم ابنتى الصغيرة آنا بالكريز ، ص ١٥٥) . وهكذا يظل الآكل مجهولا .

٢

حلمت مرة أننى أرى فى واجهة إحدى المكتبات مجلداً جديداً من إحدى هذه السلسلات التى اعتدت شراءها والتى تنشر من أجل الهواة فى موضوع بعينه (كبار الفنانين ، تاريخ العالم ، أشهر المدائن . ، الخ .) . وكان عنوان السلسلة الجديدة هو

(١) إن ما يظهر فى الحلم من ضخامة الأشياء وكثرة مقاديرها ومن المبالغة بوجه عام أمر يمكن اعتباره خاصة أخرى من الخصائص الطفلية . فليس بين رغبات الطفل ما هو أشد من رغبته فى أن يصير كبيراً وفى أن يحوز من كل شىء مقدار ما يحوزه الأكبرون . والطفل صعب الإرضاء ، لا يعرف القناعة ولا يشبع من الإلحاح فى تكرار تلك الأشياء التى سر بها أو أعجبه مذاقها . والتربية وحدها هى التى تعلمه الاعتدال والقناعة والنزول عن رغباته . ومن المعروف أن العصابيين كذلك ينزعون إلى الإغراب ومجانبة الاعتدال .

« أشهر الخطباء » أو « الخطب » ، وكان أول مجلداتها يحمل اسم الدكتور ليشر .

عندما أخذت أحلل هذا الحلم بدا لى أمراً بعيداً عن الاحتمال أن أشغل فى أحلامى بشهرة الدكتور ليشر ، هذا المتحدث الذى لا يفرغ من الكلام باسم المعارضة الألمانية فى البرلمان . وحقيقة الأمر هى أننى قد أخذت من أيام قلائل فى علاج بعض المرضى الجدد ، وهكذا أصبحت اليوم مضطراً إلى التحدث عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة فى اليوم . فأنا أيضاً متكلم لا يفرغ .

٣

وحلمت فى مرة أخرى أن بعض معارفى من أعضاء هيئة التدريس يقول : يا بنى ، ضعيف النظر . ثم يعقب ذلك حوار مؤلف من جمل قصيرة وردود عليها . ولكن هذا الحوار قد أعقبه أيضاً جزء ثالث من الحلم أظهر فيه أنا وأبنائى ، وليس الأستاذ م . وابنه – من حيث يتصل الأمر بالمحتوى الكامن للحلم – إلا شبحين قصد بهما إلى تغطيتى أنا وابنى الأكبر . وسأعود إلى هذا الحلم مرة ثانية لخاصة أخرى فيه [ص ٤٤٠ وما بعدها] .

٤

ويضرب لنا الحلم الآتى مثالا على مشاعر أنانية خسيسة استترت وراء قلق رؤوف :

يبدو صديقى أوتو معتل الصحة ؛ فوجهه مسود وعيناه جاحظتان .

إن أوتو طبيب أسرتى ودينى نحوه يفوق كل ما أطمع فى أن أجزيه به ؛ فهو يسهر على صحة أبنائى منذ سنوات ويعالجهم فى مرضهم علاجاً شافياً ، وهو بعد هذا كله لا يدع فرصة تمر دون أن يهدى إليهم شيئاً . [أنظر ص ١٤٤ .] واتفق أنه زارنا فى يوم الحلم ولاحظت زوجى أنه يبدو متعباً مستنفد القوى . وفى الليل أحلم به وأعزو إليه فى الحلم بعضاً من أعراض مرض بازدوف . إن من يتعرض لتفسير هذا الحلم غير ملتفت إلى قواعدى سوف يخلص إلى أننى كنت فى قلق على صحة صديقى وأن هذا القلق يتحقق فى الحلم . والحلم إذن لا ينقض رأيى فى أن الأحلام تحقق رغبات وحسب ، إنه ينقض

كذلك قضيتي الأخرى : أن الأحلام لا تعرف غير الدوافع الأنانية . ولكن هلا يبين لى من أخذ بهذا التفسير لم خشيت على أوتو من مرض بازدوف — وهو تشخيص ليس فى مظهر أوتو الحقيقى أقل دليل عليه ؟ إن تحليلى يمدنى بالمادة الآتية التى ترجع إلى حدث وقع منذ ست سنوات خلت : كنا صحبة صغيرة ضمت الأستاذ ر . وكنا نركب فى حلكة الليل عربة تجتاز غابة ن . الواقعة على مسيرة ساعات من المكان الذى كنا نصيف فيه ، وفجأة قذف السائق — وكان ثملا بعض الشيء بالعربة وبمن فيها فى منحدر كان هناك ، ولولا حسن الحظ ما خرجنا جميعاً سالمين . غير أننا اضطررنا إلى أن نقضى الليل فى نزل قريب بلغته أنباء حادثتنا فأدرت علينا عطفاً كثيراً . وجاء سيد يحمل علائم لا تخطئ على مرض بازدوف — وكانت على التحديد اسودادا فى بشرة الوجه مع جحوظ العينين ولكن بغير تضخم الغدة الدرقية كما هو الحال فى الحلم تماماً — جاء يضع نفسه بكليته تحت تصرفنا ويسأل هل يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا . فأجابه الأستاذ ر . بطريقته الحاسمة : لا شيء إلا أن تقرضنى قميصاً للنوم . وهنا أجابه رجلنا النبيل قائلا : « إنى آسف ، ولكن هذا هو مالا أستطيعه » ثم بارح الحجرة .

ولما تابعت تحليلى خطر لى أن بازدوف ليس اسم طبيب وحسب بل هو أيضاً اسم مرب معروف . (ولست أثق الآن وأنا مستيقظ من صحة هذه المعرفة [1] .) ولكن صديقى أوتو هو هذا الشخص الذى رجوت منه أن يعنى إذا ما أصابنى مكروه بالتربية البدنية لأبنائى ، وبخاصة فى سن المراهقة (ومن هنا قميص النوم) . وأنا — إذن — إذ أرى صديقى أوتو فى الحلم بأعراض صاحبنا ذى المروءة أهدف صراحة إلى أن أقول : لو أن مكروهاً أصابنى لأبدى من العون مثل ما أبداه البارون ل. فى هاتيك المناسبة رغم عروضه السخية . ولعل فى ذلك ما ينشر طية الأنانية فى هذا الحلم [2] .

---

(١) [الواقع أنها معرفة صحيحة ؛ فبازدوف رجل من كبار رجال التربية فى القرن الثامن عشر .]

(٢) [هامش وضع عام ١٩١١ :] كان إرنست جونز يلقى فى جمعية أمريكية محاضرة علمية عن أنانية الحلم حين نهضت سيدة مثقفة تعترض على هذا التعميم غير العلمى قائلة : إن مؤلف هذا الكتاب لا يستطيع إلا أن يحكم على أحلام النمسويين ، وليس له أن يتحدث عن أحلام الأمريكيين . وهى واثقة فيما يتعلق بها من أن جميع أحلامها أحلام غيرية خالصة .

[١٩٢٥ :] ويجمل بنا أن نضيف على سبيل المعذرة لهذه السيدة الوطنية أن من الواجب علينا ألا نخطئ فهم القضية القائلة بأن الأحلام أنانية على الإطلاق — لأنه إذا كان كل ما يطرأ على التفكير القبشعورى ممكن الورود فى الحلم (سواء فى محتواه الظاهر أم بين أفكاره الكامنة) ، فإن هذه الإمكانية تظل قائمة كذلك بالنسبة

ولكن أين تحقيق الرغبة ؟ إننا لا نجده فى الانتقام من صديقى أوتو الذى قدر عليه – فيما يبدو – أن تساء معاملته فى أحلامى ، بل فى الملابسة الآتية : إذا كنت قد صورت أوتو فى صورة البارون ل. فإنى بهذا عينه أكون قد عينت شخصى أنا بآخر غيره، وأعنى به الأستاذ ر . ؛ فأنا أيضاً قد طلبت من أوتو طلباً مثلماً فعل الأستاذ ر . مع البارون ل . إبان تلك الحادثة . وهنا بيت القصيد : فالأستاذ ر . – وهو الذى ما كنت لأجرؤ فى الحقيقة على أن أقارن نفسى به لولا ذلك – قد شق أيضاً طريقة بعيداً عن العالم الأكاديمى ولم يحصل إلا بعد عمر طويل على لقب الأستاذية الذى كان يستحقه منذ أمد بعيد . وأنا إذن أبتغى مرة أخرى أن أصبح أستاذاً . لا ، بل إن هذه الكلمات ذاتها : « بعد عمر طويل » لتحقق هى أيضاً رغبة ؛ لأنها تعنى أننى سأعيش حتى أرى بنفسى أولادى وهم فى سن المراهقة .

وهناك أنواع أخرى من الأحلام النمطية[١] يطير فيها المرء مسروراً أو يسقط وهو يشعر بالهيلة : هذه أحلام ما عرفتها قط بخبرة شخصية وكل ما أستطيع قوله عنها إنما أستمده من التحليلات النفسية التى أجريتها . والدروس التى يتلقاها المرء من هذه التحليلات تلجئه إلى النتيجة الآتية : أن هذه الأحلام أيضاً تعيد انطباعات من انطباعات الطفولة ، إنها تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذى لم يُعِن طفلا على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهىء إليه بحركة مباغتة أنه يتخلى عنه ؟ والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إذا احتوت على ما يحدث بعضاً من الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها فى أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب – كولعهم بالأراجيح بأنواعها – أمر معروف . فإذا رأوا فى «السيرك» بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب[٢] . وقد لا تخرج

=إلى الدوافع الغيرية . وعلى هذا النحو عينه يستطيع دافع من العطف أو العشق تجاه شخص آخر أن يظهر فى الحلم إذا كان قائماً فى اللاشعور . وعلى هذا ينحصر صدق القضية الموردة فى النص فى كوننا نجد فى أحيان كثيرة جداً بين الحوافز اللاشعورية إلى الحلم نوازع أنانية يلوح فى حياة اليقظة أننا قد تغلبنا عليها .

(١) [يلحظ القارىء ههنا المفاجأة فى الانتقال من أحلام موت الأحباء إلى أنواع أخرى من الأحلام النمطية – وهو ما جعل ستراشى يضيف فى هذا الموضع عنواناً جديداً .]

(٢) [١٩٢٥ :] لقد أرانا البحث التحليلى أن هناك عاملا آخر – عدا اللذة المحسة فى الأعضاء ذاتها – يدفع إلى ولع=

النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى فى مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . كما أنه لا يندر أن تنبه هذه الألعاب الحركية – وإن كانت بريئة فى ذاتها – مشاعر جنسية [١] . وإذا جاز لى أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته ، قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد فى أحلام الطيران والوقوع والتأرجح وما شابهها استعادة تنقلب فى خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهى فى الواقع كذلك بالشجار وبالدموع – كما تعرفه كل أم .

وأنا – إذن – أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا اللمسية فى أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه – هى التى تبعث على أحلام الطيران والسقوط [أنظر ص ٧٥] ، بل فى رأيى أن هذه الأحاسيس ذاتها إنما تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التى يرتد إليها الحلم ، أى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له .

ولكننى لا أخفى عن نفسى بحال من الأحوال قصورى عن الإتيان بتفسير كامل لهذه الطائفة من الأحلام النمطية ؛ فالمادة التى عندى تتركنى حائراً فى هذه المسألة بالذات . إلا أننى – على أية حال – لا أرى بدا من الاستمساك بوجهة النظر العامة هذه : أن جميع الإحساسات اللمسية والحركية المتضمنة فى هذه الأحلام إنما تستدعى على الفور كلما احتاج إليها دافع نفسى ما ، وأن من الممكن إغفالها إذا لم تكن هناك مثل هذه الحاجة [أنظر ص ٢٥٦ .] وكذلك العلاقة بين هذه الأحلام وخبرات الطفولة : إنها تبدو لى أمراً تقطع به الدلائل المتجمعة عندى من تحليل العصابيين . فأما ما هى سائر المعانى التى تجىء فى سياق الحياة فترتبط بذكرى هاته الإحساسات – وأرجح أن هذه المعانى

= الأطفال بالحركات البهلوانية وإلى استعدادتهم إياها فى النوبات الهسترية ، هذا العامل الآخر هو صورة ذكروية (يكثر أن تكون صورة لاشعورية) عن جماع لوحظ (بين الإنسان أو الحيوان) .

(١) تحدث إلى فى هذا الصدد زميل شاب خلا من كل أثر من الاضطراب العصبى فقال : " أعلم من خبرتى الشخصية أننى وأنا طفل كنت أستشعر إحساساً معيناً فى أعضائى التناسلية عند ما آخذ فى التأرجح ، وحين تبلغ الحركة الهابطة حدها الأدنى . وإنى و إن كنت لا أستطيع أن أقول : إننى كنت أسر بهذا الإحساس ، إلا أننى لا أجد بداً من وصفه بأنه كان إحساساً لذيذاً" . – وكثيراً ما سمعت من المرضى أن أولى انتصاباتهم المصحوبة باللذة والتى يستطيعون تذكرها قد أتتهم فى صباهم وهم يتسلقون – كما أنه يثبت من التحليل النفسى ثبوتاً لا يتطرق إليه الشك أن الدفعات الجنسية الأولى كثيراً ما تتأصل جذورها فى ألعاب المناوشة والمصارعة التى تقع فى سنى الطفولة .

تختلف باختلاف الأفراد مهما كان من ظهور هذه الأحلام على نحو نمطى — فذلك ما لا أعرف الجواب عنه ، وكم كنت أود لو كان فى استطاعتى أن أسد هذا النقص بتحليل بعض الأمثلة البينة تحليلا دقيقاً . فإن عجب البعض إذ يرانى أشكو نقص المادة فى هذا الصدد وليس أكثر من هذه الأحلام على التحديد — أحلام الطيران والسقوط ووقوع الأسنان، الخ . — أجبته بأن مثل هذه الأحلام لم تقع لى قط منذ أن وجهت انتباهى إلى موضوع تفسير الأحلام . وأما أحلام العصابيين فلا يسعنا دائماً — أو على الأقل لا يسعنا كثيراً — أن نمضى فى تحليلها إلى غاية معناها الخبىء ؛ فهناك قوة خاصة — قوة كان لها نصيبها فى تكوين العصاب أصلا وتتحرك إلى العمل حين نتعرض لحله — تحول دون تفسير الحلم حتى لغزه الأخير .

(ج) أحلام الامتحان

إن كل من اجتاز امتحان البكالوريا فى ختام الدراسة الثانوية يشكو من إلحاح هذا الحلم من أحلام الهيلة فى ملاحقته : أنه قد رسب فى الامتحان ، أو أنه مضطر إلى إعادته من جديد ، الخ . وأما الذين حصلوا على درجة جامعية فيحل عندهم محل هذا الحلم النمطى حلم آخر يخيل إليهم أنهم قد رسبوا فى امتحان الإجازة الجامعية ، وهو ما يعترضون عليه سدى وهم ما زالوا نياماً محتجين بكونهم يعملون منذ سنوات كأطباء أو محاضرين بالجامعة أو رؤساء أقلام : تلك ذكريات لا تُجتَنْدَر عن ألوان من العقاب لقيناها فى طفولتنا جزاء على سوء فعالنا ، ذكريات تبعث فى نفوسنا من جديد رابطةً نفسها بهاتين اللحظتين الحاسمتين فى تاريخ حياتنا المدرسية ، بـ « يوم الغضب ، ذاك اليوم » [1] ، يوم نمتحن أعسر امتحانين . وإلى هذه المخاوف الطفلية عينها يرجع اشتداد « هيلة الامتحان » عند العصابيين . فنحن بعد أن نفرغ من مرحلة التلمذة لا نرجع نلقى عقابنا على يد آبائنا أو أولياء أمورنا أو المدرسين من بعدهم ، وإنما يتكفل بتربيتنا فى مستأنف السنين هذا الرباط العِلّى الذى لا يرحم بين أحداث الحياة الواقعة . وها نحن أولاء

---

(١) ["dies irae, dies illa!" مطلع صلاة منثورة لا ترددها الكنيسة إلا يوم يموت أبناؤها . وهى تصف ساعة البعث للامتحان الأخير : " . . . الطبيعة والموت سوف يروعان يوم يقف الإنسان ليواجه القاضى الأعلى " — وإن انتهت بالإعراب عن الأمل فى حسن وساطة المسيح .]

نحلم اليوم بامتحان البكالوريا أو الإجازة الجامعية — ومن ذا الذى لم يرتعد إذ ذاك ولو كان مستعداً ؟ — كلما ارتكبنا خطأ أو قصرنا فى أمر فخشينا أن تأتى العاقبة بالعقاب ، أى كلما شعرنا بوطأة المسئولية .

ولأحلام الامتحان تفسير أعمق أدين به لملاحظة لاحظها أحد الزملاء المحنكين (وهو شتيكل) إذ أعلن مرة فى اجتماع علمى أن الحلم بامتحان البكالوريا لا يأتى — بقدر ما يعلم — إلا الذين اجتازوا هذا الامتحان بنجاح ، ولا يأتى أبدا أولئك الذين أخفقوا فيه . وهكذا يلوح أن أحلام الامتحان المصحوبة بالهيلة — وهى التى يثبت بالملاحظة تلو الملاحظة أنها تأتى المرء حين تنتظره فى الغد مسئولية يخشى الإخفاق فيها — يلوح أنها تتلمس مناسبة ماضية لم تجد فيها الهيلة الشديدة ما يبررها بل جاءت الحوادث بما يكذبها . وإذا كان الأمر كذلك ، كان هذا مثالا عجيباً على الخطأ الذى نقع فيه إذ نفهم محتوى الحلم بوساطة النظام المستيقظ [أنظر ص٢٦١] . فما نعده احتجاجاً على الحلم : « ولكننى طبيب بالفعل ، الخ . » هو فى الحقيقة العزاء الذى يحمله الحلم ، عزاء يخلق بنا أن نقرأه على هذا النحو : « لا تخش من الغد شيئاً ، أنظر أى هيلة تملكتك قبيل امتحان البكالوريا ، ومع هذا لم يمسسك شىء ، وها أنت ذا اليوم طبيب بالفعل ، الخ . » وأما الهيلة التى نعزوها إلى الحلم فقد تولدت فى الحقيقة من بقايا اليوم السابق .

وإن المحاولات التى استطعت إتيانها للتثبت من صحة هذا الرأى عندى وعند غيرى — وإن لم تكن كثيرة العدد الكثرة الكافية — قد أيدت صدق هذا الرأى . فأنا — مثلا — قد رسبت فى امتحان البكالوريوس فى مادة الطب الشرعى ، ولم يحدث قط أن امتحننى الحلم مرة ثانية فى تلك المادة على حين امتحنت كثيراً فى علوم النبات أو الحيوان أو الكيمياء ، وهى مواد كنت أذهب للامتحان فيها وبى هيلة كانت لها أسباب وجيهة ولكننى كنت أفلت من العقاب سواء بفضل الحظ أو بفضل الممتحنين . وأما فى الأحلام المتصلة بامتحانات الدراسة الثانوية فأرانى أمتحن دائماً فى مادة التاريخ وهى مادة نجحت فيها نجاحاً باهراً — وإن رجع الفضل فى ذلك إلى أن أستاذى ذا القلب الرحيم (غائى ذو العين الواحدة فى حلم آخر ، ص٥٦) لم يفته أن يلحظ أننى حين أعدت ورقة الأسئلة إليه قد أعلمت بإظفرى ثانى الأسئلة الثلاثة المدونة فيها [للإجابة عنها شفهياً] تنبيهاً له

إلى أنه لا داعى إلى الإلحاح فى هذا السؤال . وأعرف مريضاً من مرضاى عدل عن دخول امتحان البكالوريا فى المرة الأولى ثم عاد بعد ذلك فأداه بنجاح ، ولكنه أخفق فى امتحان الكلية الحربية ولم يفلح قط فى أن يكون ضابطاً : هذا المريض يخبرنى أنه يحلم فى أحيان كثيرة بالامتحان الأول ولكنه لا يحلم أبداً بالثانى .

هذا ، ونحن نواجه فى تفسير أحلام الامتحانات تلك الصعوبة التى قلت من قبل [ص ٢٥٩] إنها خاصة من خواص غالبية الأحلام النمطية : فالمادة التى تزودنا بها مستدعيات الحلم لا تكفى فى تفسير الحلم إلا نادرا ، ولسنا نستطيع الوصول إلى فهم هذه الأحلام فهما أوفى إلا بجمع عدد ضخم من أمثلتها . ولقد انتهيت منذ زمن غير بعيد إلى تلك النتيجة المستيقنة ، وهى أن قول الحلم : « ولكنك طبيب حقيقة ، الخ . » لا يضمر العزاء وحسب ، بل هو يتضمن لوماً مؤداه : « إنك اليوم رجل كهل تقدمت بك السنون ، وأنت مع هذا لا تنقطع عن ذلك العبث الطفلى الأخرق » . وهذا المزيج من نقد النفس وتعزيتها هو الذى يعرب فى رأيى عن محتوى الحلم الكامن . وعلى ذلك لن يكون أمراً عجبا إذا وجدنا أن ما يجىء فى الأمثلة التى حللناها أخيراً من لوم على « الخرق » و « العبث الطفلى » إنما يتعلق فى الحقيقة باستعادة أفعال جنسية محرمة .

ولقد كان من رأى شتيكل — وهو الذى أتى بأول تفسير لأحلام البكالوريا [1] — أن هذه الأحلام تلمح من غير استثناء إلى الامتحان الجنسى والبلوغ الجنسى . وكثيراً ما دعمت خبرتى صحة هذا الرأى .

---

(١) [" البكالوريا " فى الألمانية =Matura ، وهو من اللاتينية بمعنى " النضج " أو " البلوغ " .]

الفصل السادس

عمَل الحلم

إن كل المحاولات التى بذلت حتى اليوم فى حل مشكلات الحلم قد انصبت من غير وساطة على محتواه الظاهر كما يمثل فى ذاكرتنا ؛ فمن هذا المحتوى جهدت هذه المحاولات فى الوصول إلى تفسير الحلم ، أو عليه أقامت حكمها فى طبيعته — حين تركت مشكلة تفسره . نحن وحدنا نواجه وضعاً مختلفاً ؛ فهناك مادة جديدة تقوم من وجهة نظرنا بين محتوى الحلم الظاهر وبين النتائج التى انتهى إليها بحثنا : تلك هى محتوى الحلم الكامن أو أفكار الحلم التى بلغناها بمنهجنا . ونحن إنما نفك معنى الحلم من محتواه الكامن لا من محتواه الظاهر . وعلى ذلك تواجهنا مهمة جديدة لم يكن لها وجود من قبل : أن نبحث العلاقة بين محتوى الحلم الظاهر وبين أفكاره الكامنة ، وأن نتأثر العمليات التى تستحيل بها هذه الأفكار إلى ذلك المحتوى .

إن أفكار الحلم ومحتوى الحلم يمثلان أمامنا كترجمتين تؤديان فى لغتين مختلفتين معنى بعينه ، أو بعبارة أصح : إن محتوى الحلم يبدو لنا كأنه نقل لأفكار الحلم فى نمط مختلف من التعبير ، نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه ، وذلك بالمقارنة بينه وبين الأصل . إننا نفهم أفكار الحلم من غير وساطة فور العلم بها . وأما محتوى الحلم فيأتينا فيما يشبه الكتابة المصورة ، كتابة يجب علينا أن ننقل رسومها رسما فرسماً إلى لغة أفكار الحلم . فمن الجلى أننا ننساق إلى الخطأ حين نقرأ هذه الرسوم بحسب دلالتها المصورة لا على حسب علاقتها الرمزية . هب أمامى لغزاً من الألغاز المصورة : منزل أرى على سطحه مركباً ، ثم حرف واحد من الحروف الأبجدية ، ثم شخص يجرى منزوع الرأس ، الخ . لقد أنزلق إلى النقد معلنا أن هذه الصورة غير معقولة فى كلها وفى أجزائها : فما شأن المركب بسطح المنزل ؟ وكيف لرجل أن يجرى منزوع الرأس ؟ ثم إن الرجل أكبر حجماً من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور منظراً طبيعياً فليس هذا محل الحرف الأبجدى ، فالطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية . ولكن من الواضح أننا إنما نوفق

إلى الحكم على هذا اللغز حكماً صحيحاً حين ندع جانباً أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة فى مجموعها وفى أجزائها ، وحاولنا بدل ذلك أن نبدل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعاً أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الأنحاء . فإن فعلنا ، فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى ، بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه . والحلم لغز مصور من هذا القبيل ، ولقد أخطأ المتقدمون علينا فى مجال تفسير الحلم فنظروا إلى اللغز نظرتهم إلى لوحة مصورة . وكان أن بدا لهم — من حيث هو كذلك — خالياً من المعنى ، مجرداً من القيمة .

أ

التكثيف

إن أول ما يتبين للباحث عند المقارنة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم هو أن ثمت عملية تكثيف قد أجريت على نطاق واسع : فالحلم مقتضب ، هزيل ، ملىء بالثغرات ، إن هو قورن بسعة أفكار الحلم وغناها . فهو إذا كتبته قد يستغرق نصف الصفحة ، فلو سطرت التحليل الذى ينشر أفكار الحلم المتضمنة فيه لملأت ضعف ذلك ست مرات أو ثمانى مرات أو اثنتى عشرة مرة . وتختلف هذه العلاقة باختلاف الأحلام . ولكنها بقدر ما تذهب إليه تجربتى — لا تغير اتجاهها أبداً . ونحن فى العادة نقدر مقدار الإدغام الذى يقع تقديراً دون الحقيقة ؛ إذ يغلب علينا أن ننظر إلى أفكار الحلم التى خرجت إلى الضوء كما لو كانت تؤلف كل المادة الممكنة ، على حين أننا إذا تابعنا التفسير فقد تتكشف لنا أفكار أخرى مستترة وراء الحلم . ولقد سنحت لى الإشارة من قبل [ص ٢٣٨] إلى كوننا لا نستطيع أن نستيقن أبداً من أن هذا الحلم أو ذاك قد فسر تفسيراً كاملا . فاحتمال أن يكون للحلم معنى آخر غير الذى كشف احتمال يظل قائماً دائماً حتى ولو بدا الحل مقنعاً لا خلل فيه . أو بعبارة أدق : إن من المستحيل أن نحدد

مقدار التكثيف . غير أن هناك ردا يبدو للوهلة الأولى مقبولا فى الغاية على قولنا : إن النقص العظيم فى التناسب بين محتوى الحلم وأفكار الحلم دليل على أن المادة النفسية قد احتملت فى أثناء تكوين الحلم عملية تكثيف واسعة النطاق . ذلك أننا نشعر فى أحيان كثيرة بأننا قد حلمنا بالشيء الكثير طيلة الليل كله ونسينا معظم ما حلمنا به ؛ فالحلم الذى نذكره قد لا يكون — بحسب هذا الرأى — سوى نبذة متبقية من مجموع عمل الحلم ، ولو قد تذكرنا هذا كله لكان من الجائز أن نجد له من الشمول مثل مالأفكار الحلم . وما من شك فى أن هذا الرأى لا يخلو من بعض الصدق ؛ فلا جدال فى أننا نستحضر الأحلام على أدق وجه إذ حاولنا أن نتذكرها فور استيقاظنا وأن ما نذكره منها يتناقص شيئاً فشيئاً حتى المساء . غير أننا نستطيع أن نبين — من ناحية أخرى — أن شعورنا هذا بكوننا قد حلمنا بأحلام تربو كثيراً على ما نذكره هو شعور قائم فى أحيان كثيرة على وهم سوف أناقش مصدره فيما بعد [ص ٤٨٦ — ٤٨٧ ثم ص ٥٠٧] . أضف إلى ذلك أن فرضنا القائل بأن ثمت تكثيفاً يقع فى خلال عمل الحلم هو فرض لا تغير منه فى شيء إمكانية نسيان الأحلام ؛ لأن هذا الفرض إنما تثبته كمية الأفكار المتصلة بكل جزء مفرد من أجزاء الحلم المحفوظة فى الذاكرة. فإن كنا نسينا حقيقة شطراً كبيراً من أحلامنا ، فمعنى ذلك فى الراجح هو أننا قد حرمنا من الوصول إلى طائفة جديدة من أفكار الحلم . وأما أن نتوقع أن أجزاء الحلم المفقودة ربما تعلقت بهذه الأفكار عينها التى توصلنا إليها بتحليل الأجزاء المتبقية ، فذلك ما لا مبرر له على الإطلاق[1] .

ولكن من شأن غزارة المستدعيات التى تخطر عند التحليل بخصوص كل عنصر مفرد من محتوى الحلم أن تثير فى أذهان الكثيرين من القراء هذا الشك المبدئى : هل يحق لنا أن نعد كل هذه المستدعيات التى تظهر من بعد ، فى خلال التحليل ، جزءاً من أفكار الحلم ؟ أى : هل يحق أن نعتقد أن هذه الخوطر كانت حاضرة بالفعل ناشطة فى خلال حالة النوم وأنها قد شاركت فى تكوين الحلم ؟ أليس الأرجح أن مستدعيات

(١) إن وقوع التكثيف فى الأحلام ظاهرة أشار إليها مؤلفون كثيرون من قبل . فنحن نجد عند دوپرل (١٨٨٥ ، ٨٥) فقرة يقول فيها : إن من الأمور المستيقنة استيقانا مطلقا أن هناك عملية تكثيف تصيب طوائف الأفكار فى الحلم .

فكرية جديدة تنشأ فى سياق التحليل دون أن يكون لها فى تكوين الحلم نصيب ؟ إننى لا أستطيع أن أوافق على هذا الشك سوى موافقة مشروطة . نعم ، إن من الحق ولا شك أن بعض حلقات المستدعيات تظهر فى سياق التحليل للمرة الأولى ، ولكن فى وسع المرء أن يقتنع فى مثل هذه الحالات جميعها بأن هذه الروابط الجديدة إنما تقوم بين فكرتين كانتا موصولتين بالفعل فى أفكار الحلم على نحو آخر من الأنحاء. فهذه الروابط الجديدة هى بمثابة حودات أو مسالك مختصرة صارت ممكنة لأن ثمت طرقاً رابطة أخرى أعمق غوراً. ولا بد لنا من أن نسلم بأن الغالبية العظمى من الأفكار التى تنكشف فى أثناء التحليل كانت حاضرة بالفعل ناشطة عند تكوين الحلم ؛ لأننا كثيراً ما نتابع خيطاً من الأفكار تبدو منقطعة الصلة بتكوين الحلم، ثم إذا نحن نعثر فجأة على فكرة مُثِّلت فى الحلم، ولا يستغنى عنها فى تفسيره ، وما كنا مع ذلك لننتهى إليها بغير متابعة هذا الخيط الفكرى. ويحق لى هنا أن أذكر بحلم المبحث النباتى ، هذا الحلم الذى يبدو نتيجة لعملية تكثيف مدهشة وإن لم أرو تحليله كاملا .

ولكن إذا كان ذلك كذلك ، فعلى أى نحو نتصور الوضع النفسى فى خلال فترة النوم التى تسبق الحلم؟ هل تتراص أفكار الحلم جميعاً ، الواحدة بجانب الأخرى ، أو هى تتعاقب تترى ، أو أن عمليات نفسية متعددة تبدأ فى وقت واحد من مراكز مختلفة ثم تلتقى ؟ أعتقد أننا لا نحتاج فى الوقت الحاضر إلى تكوين فكرة منظورة عن الوضع النفسى القائم فى خلال حالة النوم . يكفى ألا ننسى أن الأمر يتعلق بفكر لا شعورى من السهل أن يجىء سيره مختلفاً مما نلحظه فى أنفسنا عند التفكير الهادف المصحوب بالشعور .

وأيا كان الأمر فالحقيقة الثابتة تبقى : أن تكوين الحلم يقوم على عملية تكثيف . فكيف يقع هذا التكثيف ؟

إن المرء إذ يرى أن أقلية ضئيلة من أفكار الحلم هى التى تمثل وحدها فى الحلم بوساطة أحد عناصرها الفكرية المشتركة — قد يتجه ظنه إلى أن هذا التكثيف يتم من طريق الحذف ، أى أن الحلم ليس ترجمة صادقة لأفكار الحلم أو إسقاطاً لها نقطة فنقطة ، بل هو نسخ ناقص، ملىء بالثغرات إلى أبعد مدى . هذا الرأى — كما سنراه عاجلا —

بعيد غاية البعد عن مطابقة الواقع . إلا أننا سنتكئ الآن عليه اتكاء موقوتا ثم نمضى منه فنسأل : إذا كانت قلة قليلة من أفكار الحلم هى التى تنفذ وحدها إلى محتواه ، فما هى الشروط التى تحدد اختيارها ؟

لا بد لكى نجيب عن هذا السؤال من أن نوجه الآن اهتمامنا إلى هذه العناصر من محتوى الحلم التى لا بد أن تكون قد حققت تلك الشروط التى نبحث عنها . وأحسن ما يعين بالطبع على هذا البحث حلم شاركت فى تكوينه عملية تكثيف ذات شدة تفوق المألوف . ولهذ أختار بادئ ذى بدء حلماً ذكرته من قبل فى ص ١٩١ .

١

حلم المبحث النباتى

محتوى الحلم : كتبت مبحثاً خاصاً بنوع (غير محدد) من النبات . الكتاب ماثل أمامى وأنا أدير فى تلك اللحظة على التحديد لوحة ملونة مطوية . أرفق بالنسخة نموذج مجفف من النبات .

إن العنصر الذى يظهر على غيره فى هذ الحلم هو المبحث النباتى. وقد نشأ هذا العنصر من انطباع تخلف من اليوم الذى سبق الحلم ؛ فقد رأيت فى واجهة إحدى المكتبات بحثاً فى فصيلة السيكلامين ولم يرد لهذه الفصيلة ذكر فى الحلم ، بل كل ما تبقى كان المبحث وصلته بعلم النبات . ولم يلبث «المبحث النباتى » دون أن ينكشف رباطه بمقال عن الكوكايين كتبته مرة . ومن الكوكايين ذهبت المستدعيات — من جهة — إلى الكتاب التذكارى وإلى أحداث معينة وقعت فى معمل الجامعة ، وذهبت — من جهة أخرى — إلى الدكتور كونجشتاين طبيب العيون الذى كان له سهم فى التعريف بالكوكايين. وذكرنى شخص الدكتور كونجشتاين بمحادثة قطع حبلها ، جرت بيننا فى مساء الحلم وبخواطرى المتعددة فيما يتعلق بسداد أجر الخدمات الطبية بين الزملاء . وكانت هذه المحادثة هى الحافز الحقيقى إلى الحلم ، حافزه الحاضر الناشط ، وأما المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين فكان انطباعاً حاضراً ناشطاً كذلك ولكنه كان خالياً من القيمة .

وتبين لى أن « المبحث النباتى » فى الحلم كان بمثابة عنصر مشترك أوسط بين خبرتى اليوم السابق ؛ فهو قد أخذ كما هو من الانطباع المجرد من القيمة ثم ربط بالانطباع ذى القيمة النفسية الكبيرة بوساطة روابط استدعائية غزيرة .

ولكن الأمر لم يقتصر على هذه الفكرة المركبة ، فكرة « المبحث النباتى » ، بل إن كل عنصر من عنصريها ، « نباتى » و « مبحث » ، قد أدى منفصلا إلى رزمة أفكار الحلم المختلطة من خلال روابط متعددة تزيد عمقاً بعد عمقا . فإلى « نباتى » رجعت ذكرى الأستاذ جارتنر [البستانى] وذكرى زوجته المزدهرة ، ثم ذكرى مريضتى فلورا [أزهار] وذكرى السيدة التى رويت فى صددها قصة الأزهار المنسية . وأدى جارتنر بدوره إلى المعمل وإلى حديثى مع كونجتشاين ، ولقد كنا أشرنا فى خلال هذا الحديث عينه إلى هاتين المريضتين [فلورا والسيدة ل.].ومن السيدة بأزهارها تشعب الفكر إلى أزهار زوجتى المفضلة ثم إلى عنوان البحث الذى كنت ألقيت عليه فى النهار نظرة عابرة . و « نباتى » قد ذكرنى — عدا ذلك — بقصة وقعت فى المدرسة الثانوية وبامتحان فى الجامعة ، ثم جاء موضوع جديد كان الحديث مع كونجتشاين قد تطرق إليه — وأعنى به هواياتى المفضلة — فارتبط من طريق ما سميته مازحا زهرتى المفضلة — وأعنى الخرشوف— بسلسلة الخواطر المنبعثة من الأزهار المنسية . ومن وراء « الخرشوف » كمنت — من جهة — ذكرى إيطاليا[1] وكمن — من جهة أخرى — مشهد من طفولتى كان فاتحة ما أصبح من بعد علاقتى الحميمة بالكتب . وهكذا كان هذا العنصر « نباتى » معقد الحلم حقيقة : ففيه التقت خيوط من الفكر كانت قد دخلت فى سياق تلك الحادثة دخولا مناسباً — كما يسعنى توكيده . فنحن نجد أنفسنا هنا فى مصنع للأفكار يصدق عليه قول الشاعر عن عمل النساج :

فى دفعة القدم يموج ألف خيط
وينتفض البكر فى كر وفر
والخيوط تنساب لا تنظرها
كل ضربة تحزم ألف شكل [2] .

(١) [لم يرد ذكر إيطاليا فى المستدعيات التى أوردها فرويد فى صدد هذا الحلم ، وأغلب الظن أنه يشير هنا إلى مستدعيات لم يذكرها .]

(٢) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد الرابع " فى مكتب فاوست " سطر ١٩٢٤ وما بعده .]

وكذلك « مبحث » : فهى تلمس موضوعين : اقتصار دراساتى على جانب واحد ثم التكاليف التى تجر إليها هواياتى .

هذه النظرة الأولى تشعر المرء بأن هذين العنصرين ، « نباتى » و « مبحث »، قد وجدا موضعاً فى محتوى الحلم لأنهما كانا يملكان أوفر العلائق بمعظم أفكار الحلم ، وكانا لذلك بمثابة معقدين تجتمع فيهما أفكار حلمية غزيرة غاية الغزارة ، أى لأن لهما فيما يتصل بتفسير الحلم معانى متعددة . وفى وسعنا أيضاً أن نعبر عن الظاهرة الأساسية التى يقوم عليها هذا التعليل تعبيراً مختلفاً فنقول : إن كل عنصر من عناصر محتوى الحلم لا يلبث أن يتبين أنه محتوم حتما مضاعفا ، أى أنه ممثل فى أفكار الحلم أكثر من مرة .

وإنا لنعلم ما هو أكثر من ذلك إذا فحصنا سائر مقومات الحلم من حيث ورودها بين أفكاره . فاللوحة الملونة التى كنت أديرها قد أدت (أنظر تحليل الحلم فى ص١٩٧) إلى موضوع جديد هو النقد الذى وجهه الزميل إلى أعمالى ، ثم إلى موضوع آخر سبق أن رريناه ممثلا فى الحلم ، هو هواياتى المفضلة ، وهذا بالإضافة إلى ذكرى مشهد الطفولة الذى كنت أمزق فيه — ورقة فورقة — كتاباً حوى لوحات ملونة . وأما نموذج النبات المجفف فكان يرجع إلى قصة معشب المدرسة الثانوية ويؤكد هذه الذكرى توكيدا خاصاً . وهكذا يتضح لنا نوع العلاقة بين محتوى الحلم وأفكاره : فعناصر الحلم قد حتمتها أفكار الحلم المرة بعد المرة ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن أفكار الحلم المتفرقة قد تمثل فى الحلم بأكثر من عنصر واحد فطريق التداعى يمتد من أحد عناصر الحلم إلى أفكار كثيرة للحلم ، ثم من فكرة واحدة من أفكار الحلم إلى أكثر من عنصر من عناصره . وهكذا لا يتم تكوين الحلم بحيث تسلم كل فكرة من أفكاره أو كل طائفة من هذه الأفكار إلى عنصر مختزل يمثلها فى محتوى الحلم تمثيلا مستقلا على نحو ما تنتخب الدوائر الانتخابية نوابها ، بل الأصح أن تقليبا يتناول أفكار الحلم فى مجموعها بحيث لا يكتسب حق الدخول فى الحلم إلا العناصر المؤيَّدة أكثر التأييد وأقواه على نحو يماثل نظام الانتخاب بالقائمة . وما من حلم حللته مثل هذا التحليل إلا اكتشفت فيه هذا المبدأ الثابت : أن عناصر الحلم تبنى من أفكار الحلم مأخوذة فى مجموعها وأن كل

عنصر من هذه العناصر محتوم فى علاقته بهذه الأفكار أكثر من حتم .

ومن المؤكد أنه لن يكون من نافلة الكلام أن نصور العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم بمثال جديد يمتاز بتشابك العلائق المتبادلة بين هذين الطرفين تشابكا فذا فى مهارته . والحلم حلم مريض كنت أعالجه من مخافة الأماكن المغلقة وسيتبين للقارئ سريعاً لم اخترت لهذا النتاج الحلمى الفريد فى ألمعيته اسم :

٢

« حلم جميل »

كان يركب مع صحبة كبيرة فى شارع س . حيث يوجد نزل متواضع (وهو ما ليس صحيحاً) . بداخل النزل مسرحية تمثل . إنه متفرج تارة ، ممثل تارة أخرى . كان على الجميع بعد أن انتهت المسرحية أن يغيروا ملابسهم لكى يذهبوا إلى المدينة . نزل فريق من المجموعة فى الطابق الأرضى ونزل فريق آخر فى الطابق الأول . شب حينئذ نزاع : الأعلون غاضبون لأن الأسفلين يتباطئون بحيث يحولون بينهم و بين النزول . كان أخوه بالطابق الأعلى وكان هو بالطابق الأسفل وكان ساخطا على أخيه لأنه وفريقه يحثونهم حثا لا يطاق . (هذا الجزء غير واضح) كانت القسمة بين من يحتلون الطابق الأعلى و بين من يحتلون الطابق الأسفل أمراً مقرراً منذ اللحظة التى وصلوا فيها . يذهب بعد ذلك وحده مصعداً فى شارع س . فى اتجاه المدينة . يلاقى فى الصعود صعوبة ويلاقى عناء حتى أنه لا يكاد يبارح مكانه . يقبل عليه سيد متقدم فى السن ويعرض بملك إيطاليا . عند ما يبلغ قمة المرتقى يسهل سيره كثيراً .

وكانت صعوبة الصعود متميزة حتى أنه ظل يشك بعد اليقظة برهة فيما إذا كان الأمر حلماً أم حقيقة .

إن هذا الحلم لن يلقى منا كلمة طيبة لو حكمنا عليه من محتواه الظاهر . وسأبدأ تفسيره على عكس القاعدة — بهذا الجزء الذى نص الحلم على أنه كان أشد أجزائه تميزاً .

إن الصعوبة التى حلم الحالم بها وأحسها فعلا فى حلمه على الراجح — الصعود الشاق مع عسر التنفس — هى إحدى الأعراض التى كانت قد بدت بالفعل على المريض منذ سنوات وعزيت إذ ذاك — مع غيرها — إلى السل (ويرجح أنه كان محاكاة هستيرية .)

ولقد عرفتنا أحلام الاستعراض من قبل بهذا الإحساس الخاص الذى يرد فى الحلم ، إحساس الكف ، وإنا لنرى مرة أخرى أن هذا الإحساس مادة سهلة المنال فى كل وقت ، تستغل فى كل غرض تصويرى آخر . ولقد ذكرتنى تلك الفقرة من الحلم التى يبدأ فيها الصعود صعباً ثم يسهل عند نهاية المرتقى – ذكرتنى والحالم يروى حلمه بالمقدمة الذائعة المنقطعة النظير التى يستهل بها الفونس دوديه رواية « سافو » : هناك نرى شاباً فى مقتبل العمر يصعد السلم حاملا خليلته خفيفة كالريشة أول الأمر ، ولكنه كلما صعد أثقلت ذراعيه . والمشهد كله ينبىء بمصير العلاقة بينهما ، أراد دوديه بتصويره أن يحذر الشباب من الإغراق فى كلف جاد بفتيات لا يعرف لهن أصل ولا يسلم ماضيهن من بعض الظن[1] . وكنت أعلم أن مريضى قد اشتبك فى صلة غرامية بسيدة تعمل فى المسرح وأنه قد قطع هذه الصلة أخيراً ، ومع هذا لم أكن أتوقع أن يتأيد تفسيرى . أضف إلى ذلك أن الموقف فى سافو كان عكسه فى الحلم : ففى الحلم يبدأ السير صعباً ثم يسهل من بعد ، بينما يقوم كل مغزى الرمز الروائى فى كون ما كان سهلا فى البداية قد صار فى النهاية عبئاً ثقيلا . فلشد ما كان دهشى حين أجاب المريض أن تفسيرى يتسق غاية الاتساق ومسرحية رآها فى مساء الحلم : كان اسم المسرحية « جولة فى ڤيينا » وكانت تعالج سيرة فتاة بدأت حياتها فتاة محترمة ثم صارت بين بين ، وتعددت لها صلات برجال من ذوى المكانة وبذلك « بلغت القمة » ، ولكنها عادت فى النهاية « فهبطت بأسرع مما صعدت » . وذكرته هذه المسرحية بمسرحية أخرى رآها منذ سنوات ، كان عنوانها « درجة فدرجة » وكان لها إعلان يصور سلما متعدد الدرجات .

لنمض فى التفسير . إن الممثلة التى اتصل بها اتصاله الأخير الحافل هذا كانت تقطن شارع س . وليس بهذا الشارع نُزُل . بيد أنه قد قضى جزءاً من الصيف فى ڤيينا من أجل هذه السيدة ، ونَزُل إذ ذاك فى فندق صغير قريب منها . وهو يذكر أنه قد قال لسائق العربة إذ غادر الفندق : « إننى لسعيد ؛ فقد سلمت على الأقل من الحشرات ! » (وأذكر عرضاً أن تلك كانت إحدى مخافاته) وكان جواب السائق : « وكيف ينزل

---

(١) إن ما كتبته فى القسم الخاص بالرمزية من هذا الكتاب عن معنى أحلام الصعود يلقى الضوء على تصوير الكاتب . [القسم هـ من هذا الفصل .]

المرء بمثل هذا المكان ! إنه ليس فندقاً بالمعنى الصحيح ، إن هو فى الحقيقة إلا نُزُل . »

ولا تلبث فكرة النزل أن تذكره بهذين البيتين :

« قد حللت أخيراً فى نزل

وكان المضيف أرق مضيف . »

والمضيف فى قصيدة أولاند [التى استشهد منها المريض بهذين البيتين] كان شجرة تفاح . والآن ترد على خاطره آية أخرى من الشعر :

فاوست (وهو يرقص مع الساحر الصغيرة) :

أتانى مرة حلم جميل

رأيت فيه شجرة تفاح

وعلى الشجرة أشرقت تفاحتان جميلتان

سلبتانى اللب فصعدت صوبهما .

الساحرة الجميلة :

لقد تقت للتفاح توقا جما

منذ أن خلتهُ فى الجنة

كم يستحفنى الطرب وأنا أجد

حديقتى تؤتى هذه الأكل [١] .

إن الشك محال فيما يعنيه الشاعر بشجرة التفاح وبالتفاحتين . والصدر الناهد كان بعدُ بين السحر الذى شد حالمى إلى صاحبته .

وكان سياق التحليل يخول لنا كل الحق فى أن نفترض أن الحلم يرجع إلى انطباع من الطفولة . فإذا كان الأمر كذلك ، لزم أن الحلم يتعلق بمرضع الحالم البالغ الآن ثلاثين عاماً . وما صدر المرضع فى الحقيقة إلا نُزُل بالنسبة إلى الطفل . والمرضع إذن — مثل سافو دودويه — تبدو تومئ إلى الحبيبة المهجورة منذ زمن غير بعيد .

وأخو الحالم (وهو أخوه الأكبر) يظهر كذلك فى محتوى الحلم ، ويظهر فى الطابق

---

(١) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد ٢١ .]

الأعلى بينما الحالم نفسه فى الطابق الأسفل . وهذا أيضاً قلب للوضع الحقيقى : فالأخ – كما أعرف – قد فقد مكانته الاجتماعية بينما ظل المريض محتفظاً بها . ولقد تجنب الحالم حين سألته أن يعيد رواية الحلم – تجنب أن يقول : إن أخاه كان فى الطابق الأعلى وكان هو فى « الطابق الأرضى » . وما تجنب هذا التعبير إلا لأنه كان يكون تعبيراً واضح المعنى أكثر مما ينبغى ؛ فنحن حين نقول [فى ڤينا] عن رجل ما : إنه « فى الطابق الأرضى » نعنى بذلك أنه قد فقد ثروته ومكانته ، أى نعنى – بعبارة أخرى – أنه قد هبط . ولأن يصور أمر ما فى هذا الموضع من الحلم تصويراً مقلوباً – ذلك ماله بالضرورة معناه . ولا بد أن القلب قد تناول فوق ذلك علاقة أخرى بين أفكار الحلم ومحتواه . وإنا لنملك إشارة بينة ترينا أين نجد هذا القلب : من الجلى أنه قد ورد فى نهاية الحلم حيث يجرى الصعود على نسبة معكوسة منها فى سافو . وهنا يسهل علينا أن نرى أى قلب هو المقصود : ففى سافو يحمل الرجل المرأة التى تعقد بينها وبينه صلات جنسية ، فأما فى أفكار الحلم فيتصل الأمر على العكس بامرأة تحمل الرجل. وإذ كانت هذه الحالة لا تتحقق إلا فى الطفولة ، فالأمر يتعلق من جديد بالمرضع التى تحمل الرضيع بما وزن. وهكذا وفقت نهاية الحلم إلى أن تصور فى إشارة واحدة كلا سافو والمرضع.

وكما أن المؤلف لم يختر اسم سافو دون أن يلمح به إلى العادات الجنسية المثلية بين النساء، كذلك فقرات الحلم التى تتحدث عن « الأعلين» و « الأسفلين » : فهى تلمح إلى تخييلات من نوع جنسى شغلت الحالم ولم تكن تخلو من بعض الصلة بعصابه من حيث هى شهوات مكبوتة . ولا يرينا تفسير الحلم فى ذاته هل الأمور المصورة هذا التصوير تخييلات وليست ذكريات عن أحداث وقعت حقيقة ؛ فالتحليل إنما يسلمنا محتوى فكرياً بعينه ويترك لنا تقدير مدى حظه من الحقيقة . وذلك لأن الأحداث سواء أكانت حقيقية أم متخيلة تبدو هنا للوهلة الأولى متساوية القيمة – وليس هنا ، أى فى الحلم ، وحسب ، بل كذلك فى خلق الأبنية النفسية التى تفوق الحلم خطراً . والصحبة الكبيرة تعنى « السر » – كما نعلم من قبل [ص٢٦٣] . وأما الأخ فإن هو إلا ممثل جميع مزاحميه اللاحقين فى حب المرأة ، ممثل أدرج فى مشهد الطفولة بفعل « تخييل راجع ».
وأما قصة السيد الذى يُعَرِّض بملك إيطاليا فتتصل مرة أخرى – من طريق خبرة حديثة العهد خالية فى ذاتها من القيمة – بتكالب الأشخاص الذين لا مكانة لهم على الاندساس

بين الطبقات العليا للمجتمع . والأمر يبدو كما لو كان التحذير الموجه من دوديه إلى الشباب قد ضم إليه تحذير يناظره ، متجه إلى الطفل الرضيع (١) .

ولكى آتى بمثال ثالث يعين على دراسة التكثيف فى تكوين الحلم أروى تحليلا جزئياً لحلم آخر أدين به لسيدة متقدمة فى السن أعالجها علاجاً تحليليا نفسيا . وكانت هذه المريضة تشكو حالات من الهيلة شديدة الوطأة ، فلا غرو أن حفلت أحلامها بأفكار جنسية أثارت معرفتها دهش المريضة وتخوفها على السواء . وإذ كنت لا أستطيع أن أسوق تحليل هذا الحلم حتى نهايته ، فسوف تبدو مادته منقسمة طوائف متعددة لا يربط بينها رباط ظاهر .

٣

« حلم الخنفساوين »

محتوى الحلم : تتذكر أن لديها خنفساوين وضعتا فى صندوق وأن عليها أن تطلق لهما الحرية وإلا اختنقتا . تفتح الصندوق فتجد الخنفساوين فى حالة من الاعياء الشديد . تطير إحدى الخنفساوين من النافذة المفتوحة ، وأما أخراهما فيسحقها مصراع النافذة بينما كانت المريضة تغلقها — على ما طلب إليها (علامات على الاشمئزاز) .

التحليل : كان زوجها غائباً عن المنزل فى سفر ، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربعة عشر ربيعاً تنام فى السرير إلى جوارها . لقد نبهتها الصغيرة إلى أن عثة قد سقطت فى كوب مائها ، ولكنها لم تفكر فى إخراجها ثم إذا طلع الصباح أسفت للمخلوقة المسكينة . إنها كانت قد قرأت فى المساء قصة روت كيف ألقى بعض الصبية بقطة فى ماء مغلى وأعقب ذلك وصف تقلصات الحيوان : ذانك هما مناسبتا الحلم وهما يخلوان من الأهمية فى ذاتيهما . إنها تفكر بعد ذلك فى موضوع القسوة على الحيوان . إن ابنتها قد كانت منذ بضع سنوات — وكانوا يقضون الصيف إذ ذاك فى مكان ما — شديدة القسوة على الحيوان . فهى — أعنى الابنة — كانت تجمع الفراشات وكانت تسأل أمها بعض الزرنيخ لكى تقتل به الفراشات . وكان من صنعها أن يراعة ظلت تحوم فى أرجاء

(١) لقد ثبت أن الموقف المتصل بمرضع الحالم إنما كان وليد التخييل ، أثبتته تلك الواقعة الموضوعية : وهى أن مرضع الحالم كانت فى هذه الحالة أم الحالم نفسه . وأذكر هنا بحكاية الشاب الذى أسف على أنه لم يستغل موقفه من مرضعه استغلالا أحسن (ص ٢٢٤) ، فلا شك فى أن حلمنا هذا يصدر عن أسف من هذا القبيل .

الغرفة برهة وقد اخترق دبوس جسمها . وفى مرة أخرى ماتت يرقات كانت البنت قد احتفظت بها لكى تشهد انسلاخها . وكان من دأب هذه الطفلة أيضاً — وهى بعد أصغر سناً — أن تمزق أجنحة الخنافس والفراشات . إنها — أعنى الابنة — ترتاع اليوم من هذه القساوة كلها ؛ لكم رق قلبها من بعد !

إن المريضة تفكر فى هذا التناقض ، وهذا التناقض يذكرها بآخر — وأعنى به التناقض بين المظهر والمخبر كما تصوره [جورج] إليوت فى رواية «آدم بيد» : فتاة جميلة لكنها مغرورة ، غبية إلى آخر درجات الغباء ، وأخرى دميمة لكنها على خلق كريم ، ورجل نبيل الطبقة يستغوى الرعناء وآخر من الطبقة العاملة ولكنه النبيل حقيقة فى حسه وصنيعه على السواء . لكم يغرك البصر عن البصر بالناس ! أكان الناظر إليها — هى — يحذر تلك الرغبات الحسية التى تؤرقها ؟

إنه فى السنة التى أخذت فيها ابنتها تجمع الفراشات أصيبت منطقتهم بوباء خطير من خنفس - مايو [١] . كان الأطفال يجنون لمرأى الخنفس ويسحقونه من غير رحمة . لقد رأت فى ذلك الحين رجلا كان ينزع أجنحة خنفساء — مايو ثم يلتهم الجسد . إنها قد ولدت فى شهر مايو ، وفى مايو كان أيضاً زواجها . ولما انقضت ثلاثة أيام من شهر العسل كتبت خطاباً إلى أهلها تتحدث فيه عن سعادتها — وكان ذلك أبعد الأمور عن الحقيقة .

إنها فى الأمسية التى جاءها الحلم فى أعقابها كانت تنبش فى رسائلها القديمة ، وقرأت على ذويها بعضاً كان منه الجدى وكان منه ما يضحك . وكان بين ما قرأته خطاب مسل جدا جدا ، كتبه إليها مدرس بيانو غازلها أيام عذرها ورسالة أخرى كتبها معجب نبيل الطبقة [٢] .

إنها تؤنب نفسها لأن إحدى بناتها قد عثرت على كتاب لا يليق من كتب موباسان [٣] .

---

(١) [Maikäfer ، نوع من الخنفس ، ترجمته الصحيحة هى الجعل أو الخنفس الأوروبى . ولكننا آثرنا التزام الترجمة الحرفية فى هذا الموضع تسهيلا لمتابعة المستدعيات .]

(٢) ذلك كان الباعث الحقيقى على الحلم .

(٣) ونذكر على سبيل التكلة : هذه الكتب سم للفتيات . والحالمة أيضاً قد انغمست فى هذه الكتب وهى فتاة .

إن الزرنيخ الذى سألتها إياه فتاتها يذكرها بحبوب الزرنيخ التى أعادت إلى الدوق دى مورا قوة الشباب فى « النابابب »[(١)] .

وأما « إطلاق الحرية » فيذكرها بتلك الفقرة من الناى الساحر :

« الحب لا أدرى كيف أرغمك عليه ،

وأما الحرية فلن أعطيك إياها . »[(٢)]

و « خنفس – مايو » يذكرها أيضاً بقول كاتخن[(٣)] :

« لأنت تهيم بى مثل هيام الخنفساء . »[(٤)]

وبين هذا كله يجىء تانهويزر [لڤاجنر] : « أما وقد حركتك هذه اللذة الخبيثة . »[(٥)]

إنها تعيش فى هيلة وشغل دائمين من أجل زوجها الغائب . والخوف من أن يصيبه مكروه فى ترحاله يعرب عن نفسه فيما يأتيها فى خلال النهار من شتى التخييلات . وقد كانت رأت منذ زمن قريب – فى خلال التحليل – فكرة من أفكارها اللاشعورية فحواها الشكوى من « شيخوخة » زوجها . وربما كنا نحذر على أحسن وجه فكرة الرغبة التى يخفيها هذا الحلم لو ذكرت أن الحالمة قد روعت منذ بضعة أيام إذ جاءتها وسط مشاغلها جملة وضعت فى صيغة الأمر ووجهت إلى زوجها ، وهى « اشنق نفسك ! » ثم تبين أنها قد قرأت فى موضع ما – قبل ذلك بساعات – أن الشنق يحدث انتصاباً شديدا . فالرغبة فى هذا الانتصاب هى التى بثقت من خلال الكف متقنعة بهذا القناع

(١) [لقب هندى دخل اللغة الفرنسية ، أطلقه ألفونس دوديه على أحد أشخاص رواية له معروفة بهذا الإسم : Le Nabab . وقد جاء فى هذه الرواية أن الدوق دى مورا كانت له فى شيخوخته علاقة غرامية مستترة وأن طبيبه الإرلندى الدكتور جنكنز كان يعطيه حبوبا مسماة " لآلئ جنكنز " بقصد تقوية الباه ، ثم عرف الطبيب أن معشوقة الدوق هى المرأة التى يحبها هو ، فجن جنونه ودس السم للدوق فى هذه الحبوب .]

(٢) [من سارا سترو إلى پامينا فى ختام الفصل الأول من " الناى الساحر " لموزار.]

(٣) [فى المشهد الثانى من الفصل الرابع من مسرحية von Kleist المعنونة : Katche von Heilbronn] واتجه خاطر الحالمة بعد ذلك إلى Penthesilea الشاعر عينه ، وإلى فكرة القسوة على العاشق .

(٤) [أى هياما شديدا .]

(٥) [فى الفصل الثالث حين يروى تانهويزر لڤولفرام كيف ذهب إلى روما ليسأل الغفران لأنه – وهو الفارس المسيحى – كان قد شاطر ڤينوس الآلهة الوثنية الملذات ، وكيف أجابه البابا أنه وقد شارك فى هذه اللذة الخبيثة فلن يكون له غفران . والبيت يرد هنا محرفا عن الأصل تحريفا خفيفا .]

المروع . وقولها : « اشنق نفسك ! » يعدل قولها : « أحصل على أن تنتصب أيا كان الثمن ! » وهنا تجد موضعها المناسب حبوب الدكتور جنكتز — حبوب الزرنيخ فى الناباب . ولكن مريضتى كانت تعلم أيضاً أن أشد مقويات الباه — وهى الذراريح (وتعرف عادة باسم الذباب الأسبانى [1]) — تصنع من الجعل المسحوق فإلى . هذا المعنى يهدف الجزء الرئيس من محتوى الحلم .

فأما فتح النوافذ وإغلاقها فكان من أسباب الخلاف الدائمة بينها وبين زوجها ؛ فهى تحب النوم والهواء طلق ولكن زوجها يخشاه . وأما الإعياء فهو العرض الرئيس الذى تشكو منه هذه الأيام .

لقد أبرزت وأنا أسرد هذه الأحلام الثلاثة المواضع التى يعاود فيها أحد عناصر الحلم الظهور بين أفكاره لكى أبين بذلك تعدد العلائق التى تتشعب من هذا العنصر . ولكن ليس بين هذه الأحلام حلم مضينا فى تفسيره حتى النهاية ، ولذلك ربما كان من الأفيد أن نتناول حلماً أوردنا تحليله مفصلا لكى نوضح به كيف يحتم محتوى الحلم تحتيما مضاعفاً . ولهذا الغرض اختار حلم حقنة إرما. وسيسهل علينا أن نرى فى هذا المثال أن التكثيف يستخدم أكثر من وسيلة فى تكوين الحلم .

إن الشخص الرئيس فى محتوى الحلم هو مريضتى إرما التى تظهر فى الحلم بالملامح التى أعرفها لها فى حياة اليقظة والتى تمثل بذلك شخصها ذاته . ولكن الوضع الذى كنت أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذا من ذكرى شخص آخر ، وأعنى به تلك السيدة التى كنت أود استبدالها بمريضتى — كما تبين من أفكار الحلم . وإرما من حيث ما يظهر عندها من غشاء دفترى يذكرنى بقلقى من أجل ابنتى الكبرى تمثل هذه الابنة ، وهذه بنوبتها تخفى وراءها — بجامع الاشتراك فى الاسم — شخص المريضة التى ماتت من جراء التسمم . ولا ينى شخص إرما عن أن يتغير مدلوله فى مستأنف سياق الحلم (دون أن تتغير مع ذلك صورتها المرئية فى الحلم) . فهى تصير الطفل الذى نفحصه فى قسم الأمراض العصبية بمستشفى أمراض الأطفال فحصا تجلى فى خلاله ما بين صديقى [أوتو وليوبولد] من التباين فى المواهب . وكان من البين أن طفلتى الصغيرة قد كانت حلقه الوصل فى هذه الصيرورة . وإرما أيضاً تومئ بممانعتها فى أن تفتح فمها إلى مريضة

(١) [ويقال بالعربية : الذباب المندى .]

أخرى قمت بفحصها مرة ، وتومئ كذلك — لذات العلاقة — إلى زوجى . وأنا بعد هذا كله قد ضمنت التغييرات المرضية التى اكتشفتها فى حلقها إشارات تذهب إلى فريق بأكمله من أشخاص آخرين .

كل هؤلاء الأشخاص الذين ألتقى بهم وأنا أتابع « إرما » لا يظهرون فى الحلم بأشكالهم الجسمية ، بل يختبئون وراء شخص الحلم « إرما » التى تستحيل بذلك إلى صورة جمعية اجتمعت فيها — والحق يقال — شتى الملامح المتناقضة . أى أن إرما قد صارت تنوب عن هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين ضُحى بهم من أجل التكثيف لأنى مررت إليها — لمحة فلمحة — كل ما يذكرنى بهؤلاء الأشخاص .

وهناك طريقة أخرى أستطيع بوساطتها أن أركب شخصاً جَمْعيا من أجل أغراض التكثيف الحلمى ، وذلك حين أمزج الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر فى صورة موحدة : على هذا النحو ركب شخص الدكتور م. فى حلم إرما ، فهو يحمل اسم الدكتور م. ويتحدث مثله ويعمل مثله ولكن خصائصه الجسمية ونوع مرضه كانت لشخص آخر هو أخى. ولم يكن الحتم مضاعفاً سوى فى لمحة واحدة فى سيماهما — وأعنى بها شحوب الوجه ؛ فهذا الشحوب كان فى الحقيقة مشتركاً بينهما. ونجد مثل هذا الشخص المزيج فى حلم « الدكتور ر. هو عمى »، غير أن صورة الحلم قد ركبت هنا بطريقة مختلفة : فأنا لم أمزج ملامح لأحدهما بملامح من الآخر مختزلا فى أثناء ذلك الصورة المنطبعة فى الذاكرة عن كل منهما بأن أحرف سائر ملامحه ، بل قد اتبعت طريقة جالتون فى إحداث الصور العائلية ، أى أننى أسقطت صورتين كلا على الأخرى بحيث تبرز الملامح المشتركة بينهما بروزا قوياً فى حين تبطل الملامح غير المتوائمة بعضها بعضاً ويغمض ظهورها فى الصورة. وهكذا تبرز اللحية الشقراء فى حلم عمى مثل سمة مقواة فى وجه ينتسب إلى شخصين ، ولهذا جاء ممسوحاً . هذا كما انطوت اللحية على إشارة إلى والدى وإلى من طريق فكرة المشيب .

إن تكوين أشخاص الجمع والأشخاص المزيجة أحد الوسائل الرئيسة التى يتبعها الحلم فى التكثيف . وستسنح لى عاجلا فرصة التحدث عن ذلك فى سياق مختلف .

وكانت فكرة « الدستاريا » فى حلم حقنة إرما محتمة أيضاً حتما مضاعفاً : أولا من حيث التجانس فى الجرس بينها وبين « دفتريا » ، وثانياً من حبث صلتها بالمريض الذى

أرسلته إلى الشرق والذى لم يعرف أحد وجود الهستريا عنده .

ومثال آخر حرى بالاهتمام من أمثلة التكثيف فى هذا الحلم هو ذكر « البروپيلين ». فنحن لا نجد بين أفكار الحلم « پروپيلين » بل « آميل » . وقد يظن المرء أن ما وقع فى هذا الموضع من تكوين الحلم إنما هو نقل وحسب . وذلك حق ، بيد أن هذا النقل كان يخدم أغراض التكثيف ، كما يثبت من تلك التكملة التى أضيفها إلى تحليل الحلم : عندما تمهلت عند كلمة « پروپيلين » برهة انتبهت إلى الجناس بينها وبين كلمة « پروپيلاين » . ولكن أثينا ليست البلد الوحيد الذى ينفرد بوجود « پروپيلاين » فيه ، بل قد حوت ميونيخ نظيره [١] . ولقد ذهبت إلى ميونيخ قبل هذا الحلم بعام أزور هناك صديقاً ألم به إذ ذاك مرض خطير — وهو هذا الصديق الذى لمح إليه الحلم تلميحاً لا لبس فيه بوساطة كلمة « تريمتيلامين » التى أعقبت « پروپيلين » مباشرة .

إنى لن ألح على هذا الوضع العجيب ، وأعنى به ما نجده هنا — كما فى عدا ذلك من المواضع فى تحليل الأحلام — من أن مستدعيات متفاوتة القيمة أشد التفاوت تستخدم فى إقامة الروابط بين الأفكار كما لم يكن بينها مثل هذا التفاوت ، وسأسلم نفسى لهذا الإغراء الذى يدعونى إلى أن أصور فيما يشبه الرسم البيانى تلك العملية التى استبدل بها البروپيلين فى محتوى الحلم بالآميل الذى فى أفكاره .

إننا نجد — من جانب — طائفة الأفكار المتصلة بصديقى أوتو الذى لا يفهمنى ولا يقرنى والذى أهدى إلى شراباً له نكهة الآميل ، ونجد — من جانب آخر — طائفة أخرى ارتبطت بالأولى من طريق التضاد ، تلك هى طائفة صديقى البرلينى [ڤيلهلم فليس] الذى يفهمنى ويقرنى والذى أدين له بمعلومات جمة القيمة تتصل — بين ما تتصل به — بكيمياء العمليات الجنسية .

ولقد حددت المناسبات التى بعثت على الحلم حديثاً وكانت حوافزه الحقيقية أى أفكار من مجموعة أوتو كان ينبغى أن تجذب انتباهى بنوع خاص ، وكان الآميل بين هذه العناصر المختارة التى كان مقدراً أن تظهر فى محتوى الحلم . وأما المجموعة الحافلة الأخرى ، مجموعة « ڤيلهلم » فقد بعث فيها الحياة على التحديد من أجل التضاد الذى بينها وبين مجموعة أوتو ومنها أبرزت تلك العناصر التى تتناغم مع العناصر المستثارة من مجموعة أوتو . نعم ، فأنا

(١) [بهو للاحتفالات فى ميونخ على غرار بهو الآكروبول فى أثينا .]

فى خلال هذا الحلم بأسره أستعيذ من شخص يسخطنى بآخر أقابله به وفق مشتهاى ، وأنا أستدعى من الصديق كل ما يظهرنى على الخصم — نقطة فنقطة . وهكذا كان أن أثار الآميل الذى ينتمى إلى مجموعة أوتو ذكريات من مجال الكيمياء من المجموعة الثانية وكان أن نجح التريمتيلاين الذى كان يلقى التأييد من جهات متعددة فى أن يصل إلى محتوى الحلم. ولقد كان من الممكن أن ترد آميل فى الحلم من غير تغيير لولا تأثير مجموعة « ڤيلهلم » ؛ فقبضة الذكريات التى يصدق عليها هذا الاسم قد جرى استكشافها جميعاً من أجل العثور على عنصر يضاعف تحتم « آميل » ، وكانت « پروپيلين » سهلة الاستدعاء من آميل ، ثم جاءت ميونيخ بمبناها — البروپيلاين — جاءت من مجموعة « ڤيلهلم » تلاقى پروپيلين هذه . فهاتان الدائرتان الفكريتان قد التقيتا جميعاً فى « پروپيلين — پروپيلاين » ، وهكذا استطاع هذا العنصر الأوسط أن ينفذ إلى محتوى الحلم كأنما كان ذلك بفعل من أفعال المساومة. فههنا قد صكت وحدة مشتركة متوسطة تقبل أكثر من حتم . وهكذا نلمس لمس اليد أن الحتم المضاعف يسهل النفاذ إلى محتوى الحلم. فمن أجل خلق مثل هذه الوحدة الوسطى نقل الانتباه دون ما تردد من الفكرة المستهدفة حقيقة إلى مستدعى آخر قريب منها .

لقد مكنتنا دراسة حلم حقنة إرما من أن ننفذ ببصرنا بعض الشىء إلى عمليات التكثيف التى تقع عند تكوين الحلم واستطعنا أن نرى بعض تفاصيل التكثيف مثل اختيار العناصر التى يتكرر ورودها فى أفكار الحلم وخلق الوحدات الجديدة (كالأشخاص الجمعية والصور المزيجة) وتكوين الحدود المتوسطة المشتركة . وأما الغاية التى يخدمها التكثيف والعوامل التى تستلزمه فأسئلة لن نثيرها إلا حين نعرض للعمليات النفسية التى تعمل فى تكوين الحلم لكى ندرسها فى جملتها [القسم هـ من الفصل السابع] . ويكفينا الآن أن نلحظ أن التكثيف الحلمى خاصة ملحوظة من خصائص العلاقة بين أفكار الحلم ومحتواه .

ولكن عمل التكثيف الذى يقوم به الحلم إنما يتجلى فى أوضح صوره حين يتناول الألفاظ والأسماء . فالحلم بوجه عام كثيراً ما يعالج الألفاظ كما لو كانت أشياء عيانية ، وهو إذن يجرى بينها من المزج مثل ما يجريه بين صور الأشياء العيانية . وتطالعنا الأحلام التى من هذا القبيل بأطرف المبتكرات اللغوية وأغربها[1] .

---

(١) [وهنا يتوقع القارئ بالطبع أن تكون الأمثلة على ذلك غير قابلة للترجمة ، كما سيرى .]

١) أرسل إلى أحد الزملاء مقالا كتبه ، وكان من رأيى أنه غالى فى تقدير أهمية كشف فيزيولوجى حديث وأنه – على الأخص – قد عالج الموضوع بعبارات طنانة . فحلمت فى الليلة التالية بجملة كان من الجلى أنها تشير إلى هذه المعالجة : « يا له من أسلوب نوركدالى ! » لقد واجهت بادئ الأمر صعوبة فى حل هذه الكلمة . صحيح أنه لم يكن ثمت شك فى أنها قد ركبت بوساطة تحريف ماجن لنعتين [ألمانيين] من النعوت المطلقة : كولوسال [جسيم] وپيراميدال [هرمى] ، بيد أنه لم يكن من السهل أن أقول ما مصدرها . وأخيراً تبينت أن المسخ قد ركب من هذين الاسمين : نورا وإكدال – وهما شخصيتان فى مسرحيتين معروفتين من مسرحيات إبسن[1]، وقد كنت قرأت فى إحدى الصحف مقالا عن إبسن كتبه هذا المؤلف الذى كنت أنقد عمله الأخير .

٢) وروت لى إحدى مريضاتى حلماً قصيراً ورد فيه مركب لفظى لا معنى له : كانت فى حفل ريفى مع زوجها ثم قالت : سوف ينتهى ذلك إلى "Maistollmütz" شامل . وكانت الحالمة تشعر فى الحلم شعوراً مبهما بأن ذلك صنف من الحلوى يصنع من دقيق الذرة ، نوع من الولائق . وقد قسم التحليل الكلمة إلى : Mais [ذرة] – toll [مجنون] mannstoll [مجنونة بالرجال] Olmütz [مدينة فى موراڤيا] ، وكلها أجزاء تبين أنها كانت آثاراً تبقت من حديث جرى حول المائدة بينها وبين أقاربها . وكانت كلمة Mais تتضمن – عدا الإشارة إلى المعرض اليوبيلى الذى افتتح أخيراً[2] – الكلمات الآتية : Meissen (شكل من الصينى المصنوع بمدينة مايسن [فى ساكس] على صورة الطائر) ، Miss [وكانت المربية الإنجليزية التى تعمل عند أقربائها قد سافرت إذ ذاك إلى أولموتس] ، mies (وهى كلمة يهودية عامية تستخدم على سبيل المزاح بمعنى « مقرف ») . وكانت تتشعب من كل مقطع من هذا المخلوط اللغوى سلسلة طويلة من الخواطر والمستدعيات .

٣) شاب قرع أحد معارفه جرس بابه فى ساعة متأخرة من الليل ليترك له بطاقة زيارة فحلم فى تلك الليلة بالحلم الآتى : ظل رجل يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل لكى

---

(١) [" نورا " فى " بيت اللعبة " و " إكدال " فى " البطة البرية ".]

(٢) [احتفالا بيوبيل الإمبراطور فرانسو جوزيف عام ١٨٩٨ .]

يصلح تليفون المنزل . وظل الرنين مستمراً بعد أن انصرف الرجل ولكنه لم يكن رنيناً موصولا بل دقات منفصلة . يذهب الخادم لكى يبحث عن الرجل مرة ثانية ، فيقول له هذا الرجل : إن لمن العجيب أن يقف فى أمر كهذا أناس هم فى العادة tutelrein .

إننا نرى أن المناسبة غير الهامة التى بعثت على هذا الحلم لا تفسر سوى عنصر واحد من عناصره . وإنما اكتسبت هذه المناسبة بعض الأهمية حين وصل الحالم بينها وبين خبرة سابقة من خبراته تخلو هى الأخرى من الخطر ولكن خيال الحالم قد خلع عليها معنى بديلا : ذلك أن الحالم حين كان صبياً يعيش مع والده قد قلب مرة كوبا من الماء على الأرض وهو نصف نائم . وكان من أثر ذلك أن ابتل سلك التليفون المنزلى وأزعج رنينه المتصل نوم والده. وإذ كان الرنين المتصل يوافق البلل فالدقات المنفصلة قد استخدمت فى تصوير قطرات تسقط . وأما كلمة "tutelrein" فقد أمكن تحليلها على أنحاء ثلاثة ، فأدت بذلك إلى ثلاثة موضوعات متمثلة فى أفكار الحلم : "tutel" — وهو لفظ قانونى بمعنى الوصاية ، ثم "tutel" (وربما كتب "Tuttell" —) وهو اسم يطلقه العوام على صدر المرأة ، وأما الجزء الأخير من الكلمة ، "rein" ، فإنه إذا ركب مع الجزء الأول من الكلمة المركبة "Zimmertelegraph" [التليفون المنزلى] كون "Zimmerrein" [النظافة المنزلية] — وهو ما يذكر تذكيراً قوياً ببلل أرض الغرفة ثم هو فوق ذلك لفظ يجانس فى الجرس اسم أحد أقرباء الحالم[1] .

---

(١) إننا نستخدم فى اليقظة هذه الطريقة فى تحليل المقاطع وتركيبها (وهى كيمياء مقطعية بمعنى الكلمة) ، وذلك فى تكوين عدد كبير من النكات . وهاك مثالا على ذلك : « كيف تحصل على الفضة بأرخص طريقة ؟ تذهب فى طريق اصطفت على جانبيه Silberpappeln [أى أشجار الحور ، ولكن الكلمة الألمانية قد ركبت من لفظين الأول معناه الفضة والثانى له معنيان : الحور والحفيف] ثم تأمر بالصمت ، فينقطع الحفيف وتبقى الفضة ». ولقد اعترض على أول قارئ قرأ كتابى ونقده [المقصود هنا هو ڤيلهلم فليس ، أنظر الخطاب ١١٨ فى فرويد ١٩٥٠أ] اعتراضا أرجح أن القراء اللاحقين سوف يرددونه ، وهو " أن الحلم يبدو بارع النكتة فى كثير من الأحايين". وهذا القول صحيح ما دام المقصود هو الحالم ، ولا يصبح نقدا إلا إذا مد إلى مفسر الحلم . وما أظن أن « نكات » من المحمولات التى أملك كبير حق فى الاتصاف بها فى حياة اليقظة ، فإذا كانت أحلامى تبدو « نكاتة » فالسر فى ذلك لا يعود إلى شخصى بل إلى الشروط السيكولوجية الخاصة التى يخضع لها تكوين الحلم — وهو أمر يتصل أوثق اتصال بنظرية النكتة والمضحك. فالحلم إنما يصير نكاتا لأن الطريق المباشر والأسهل إلى الإعراب عن أفكاره قد سد فى وجهه ، أى أنه مكره على أن يكون كذلك . وفى وسع القارئ أن يقتنع بأن أحلام مرضاى تحوى مثل ما تحويه أحلامى من النكات ، بل تزيد عليها . ومع هذا فقد دعانى هذا الاعتراض إلى المقارنة بين طرائق النكتة وعمل الحلم ، مقارنة يجد القارئ حاصلها فى كتاب نشرته عن النكتة وعلاقتها باللاشعور (١٩٠٥ج) .

٤) حلمت حلماً طويلا بعض الشيء مشوشاً كان يدور – فيما يبدو – حول رحلة بحرية ، وتراءى لى فيه أننا سنرسو أولا فى ميناء اسمه Hearsing ثم فى آخر يليه اسمه Fliess وهذا الاسم الأخير هو اسم صديقى القاطن فى مدينة ب . [برلين] ، والذى كان هدفاً لأسفارى مراراً . وأما Hearsing فمركب اشتق جزء منه من أسماء الأماكن الواقعة فى ضواحى ڤيينا ، وهى أسماء كثيرة ما تنتهى بالمقطع ing : Hietzing ، Liesing ، Môdling, (والاسم القديم لهذه المدينة هو Medelitz من [اللاتينى] mea deliciae أى "meine Freud" [أى « سرورى » ، و « سرور » هو اسم فرويد فى الألمانية]) . وأما الجزء الآخر فمشتق من الكلمة الإنجليزية Hearsay بمعنى شائعة ، وهو ما يشير إلى النم ويثبت علاقة الحلم بالمنبه غير الهام المتخلف من النهار ، وأعنى به قصيدة قرأتها فى مجلة "Fliegenden Blättern" [« الصحائف الطائرة »] عن قزم نمام يدعى "Sagter Hatergesagt" [« قيل وقال »] . فإذا أضفنا المقطع "ing" إلى الاسم Fliess ، خرج لنا "Vlissingen"[1] – وهو حقيقة اسم الميناء الذى يرسو فيه أخى حين يقبل من إنجلترا لزيارتنا . ولكن المرادف الإنجليزى لكلمة Vlissingen هو Flushing ، وهو ما يعنى حمرة الخجل ويذكرنى بالمرضى الذين أعالجهم من « مخافة الخجل » ويذكرنى كذلك بمقال حديث –أثار بعض السخط فى نفسى – نشره بشترف عن هذا العصاب .

٥) وحلمت فى مرة أخرى حلماً تركب من جزئين منفصلين : الجزء الأول كلمة علقت واضحة فى ذا كرتى هى كلمة "Autodidasker" ، وأما الجزء الثانى فكان يعيد – إعادة أمنية –تخييلا قصيراً ، لا ضرر فيه ، طاف بذهنى منذ بضعة أيام . وكان مؤدى هذا التخييل أننى سأقول للأستاذ ن . فى أول فرصة أراه فيها : « إن المريض الذى كنت استشرتك فى أمره أخيراً يعانى بالفعل عصاباً ، على ما خمنته أنت » . ولا بد إذن لهذه الطرفة اللفظية "Autodidasker" من أن تحقق شرطين : الأول هو أن تحمل –أو أن تصور– معنى مضغوطاً ، والثانى هو أن يكون لهذا المعنى رباط مقبول يربط بينه وبين تلك النية المكررة فى الحلم بعد اليقظة ، وأعنى بها نية تقديم هاته الترضية للأستاذ ن .

لننظر إذن فى كلمة "Autodidasker" هذه : إن من السهل أن نقسمها إلى

---

(١) [الحرف V ينطق فى الألمانية فاء .]

Autor [مؤلف] و Autodidact [متعلم عصامى] و Lasker — وهو اسم يرتبط فى الذهن باسم Lasalle[1] . وتسوقنى أولى هذه الكلمات إلى مناسبة الحلم — وهى مناسبة لها مغزاها فى هذه المرة —: فقد كنت أعطيت زوجى عدة من المجلدات لمؤلف معروف كان صديقاً لأخى وكان — على ما علمت — من أبناء البلد الذى ولدت فيه (ى. ى . دافيد) . وفى ذات مساء حدثتنى زوجى عن الأثر العميق الذى تركته فى نفسها قصة فاجعة قرأتها فى أحد مجلدات دافيد عن رجل موهوب ساء مآله. وعرج بنا الحديث إلى المواهب التى نرى آماراتها فى أطفالنا. وهنا أعربت زوجى — وهى ما تزال متأثرة بما قرأت — عن تخوفها فيما يتصل بالأطفال ، فرفهت عنها ملاحظاً أن تلك على التحقيق هى المخاطر التى يمكن أن نتلافاها بالتنشئة الحسنة. ولكننى واصلت تلك الخواطر فى خلال الليل ، فأخذت عن زوجى مخاوفها ونسجت حول هذه المخاوف أشياء أخرى من كل صنف . وكان لهذا المؤلف رأى فى الزواج أفضى به إلى أخى ، ولقد ساق هذا الرأى خواطرى فى طريق جانبى يمكن أن تبلغ منه إلى التصور فى الحلم : هذا الطريق قد أدى إلى برسلاو حيث تزوجت — وأقامت — سيدة كان تعقد بينها وبيننا صداقة متينة . ووجد الخوف من أن تضيع الحياة من أجل امرأة — هذا الخوف الذى كان مدار أفكارى فى ذلك الحلم — مثالين فى برسلاو مكنانى من أن أصور فى وقت واحد كلتا الطريقتين اللتين ينفذ بهما هذا التأثير المنحوس : لاسكر ولاسال[2] . هذه الخواطر تتخلص جميعها فى : « ابحث عن المرأة » ، وهذه العبارة تقودنى بدورها — وقد أخذتها بمعنى مختلف — إلى أخى الذى لم يتزوج بعد ، واسمه الكساندر . إنى الحظ الآن أن Alex يكاد يجانس لاسكر مقلوباً وأن هذا العامل لا بد قد شارك فى التعريج بأفكارى جهة برسلاو .

ولكن هذا اللعب بالأسماء والمقاطع الذى كنت أسترسل فيه ههنا كان يضمر بعد ذلك معنى آخر ؛ فهو يعرب عن رغبتى فى أن أرى أخى ينعم بحياة عائلية سعيدة ، وكان ذلك من الطريق الآتية : نعلم أن زولا قد وصف نفسه ووصف حياته العائلية فى بعض

(١) [ولد فرديناند لاسال مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية فى ألمانيا بمدينة برسلاو عام ١٨٢٥ ومات عام ١٨٦٤ . وولد إدوارد لاسكر (١٨٢٩ — ١٨٨٤) فى ياروتشين على مقربة من برسلاو ، وكان أحد مؤسسى حزب الوطنيين الأحرار فى ألمانيا . وكلاهما كان من أصل يهودى .]

(٢) مات لاسكر من شلل تدريجى ، أى من جراء عدوى نقلتها إليه امرأة (السفلس) ، وأما لاسال فقد مات — كما نعلم — فى مبارزة من أجل امرأة .

مشاهد الرواية التى ألفها عن حياة فنان "L'oeuvre" — وهى رواية لا بد أن محتواها قد قرب بينها وبين أفكار هذا الحلم . وهو يظهر فى هذه الرواية باسم ساندوز ، وأغلب الظن أنه قد توصل إلى تعديل اسمه على هذا النحو من الطريق الآتية : إذا كتبنا اسم زولا معكوساً (وهو الشىء الذى يصنعه الأطفال عادة فى ولع كبير) خرج لنا آ اوز . ولكن لا شك فى أن ذلك كان يكون تنكراً غير كاف . وعلى ذلك رفع زولا آ ل — وهو المقطع الأول من آ لكساندر — ووضع مكانه ساند — وهو المقطع الثالث من هذا الاسم عينه — وبذلك خرج ساندوز . وعلى نحو جد شبيه بذلك أنشأت أيضاً كلمتى « أوتوديداسكر » .

فأما التخييل الذى كان مؤداه أننى أقول للدكتور ن : إن المريض الذى اشتركنا فى فحصه إنما كان يعانى عصاباً — فقد جاء فى الحلم على هذا النحو : أخذت قبل أن يحين موعد أجازتى السنوية بوقت قصير فى العناية بمريض حارت فى أمره قدرتى على التشخيص ؛ فقد كانت حاله توحى أن ثمت مرضا عضويا خطيرا — قد يكون فساداً فى النخاع الشوكى — ولكن لم يكن فى المستطاع التثبت من ذلك . وكان القول بأن الحالة حالة عصاب مغريا وكان ذلك كفيلا أن ينهى كل صعوبة ، لولا أن المريض قد أنكر التاريخ الجنسى الذى لا أسلم بدونه بوجود العصاب أشد الإنكار . ولم أجد — وأنا فى هذه الربكة — إلا أن أستعين بالطبيب الذى أجله رجلا كما لا أجل رجلا سواه (يشاركنى فى ذلك الكثيرون عداى) وأذعن لرأيه طبيباً أسرع إذعان . واستمع الأستاذ إلى شكوكى وأقرنى عليها ثم ذكر رأيه : « امض فى ملاحظة الرجل ، فلا بد أن الأمر عصاب . » وكنت أعلم أنه لا يشاركنى آرائى فى علية الأعصبة ، فلم أفاتحه بالحجة التى تدعونى إلى رأى مخالف ، بيد أننى لم أخف عنه تشككى . ثم بعد ذلك ببضعة أيام أبلغت المريض أننى لا أعرف ماذا أصنع معه ونصحت له بالتوجه إلى طبيب آخر . ولشد ما دهشت عندئذ إذ طفق الرجل يرجو منى معذرته لكذبه على ، قائلا : إنه كان خجلا من نفسه خجلا شديداً ، ثم كاشفنى بهذا الطرف من العلية الجنسية الذى كنت أتوقعه على التحديد والذى لم أستطع بدونه القول بوجود العصاب . لقد فرج ذلك عنى ولكنه فى الوقت عينه قد أذلنى ؛ فقد وجب على أن أسلم بأن ناصحى — إذ لم يضلله اعتبار التاريخ الجنسى — قد أصاب فى رأيه أكثر مما أصبت . وكان أنى عقدت العزم على أن

أخبره بذلك حين أراه مرة ثانية : أن أخبره بأنه كان على صواب وأنى كنت على خطأ .

وهذا على التحقيق هو ما أصنع فى الحلم . ولكن ما هى هذه الرغبة التى تتحقق حين أعترف بأنى كنت على خطأ ؟ إنها الرغبة فى هذا الخطأ بالذات : لقد كنت أود لو أخطأت فى مخاوفى ، أو — بعبارة أصح — لوقد أخطأت زوجى فى هاته المخاوف التى صارت فى الحلم مخاوفى . ثم إن الموضوع الذى يدور من حوله الصواب والخطأ فى الحلم لم يكن بعيداً كل البعد عن المسائل التى كانت تشغلنى فى أفكار الحلم حقيقة ؛ فالأذى الذى تسببه امرأة أو تسببه — بعبارة أصح — الحياة الجنسية قد يكون كذلك عضوياً وقد يكون وظيفياً : شلل زهرى أو عصاب ، وفى هذه المقولة الأخيرة نستطيع أن ندرج من طريق غير مباشر نوع الموت الذى لاقاه لاسال .

ولكن الأستاذ ن . لم يأخذ بنصيب فى هذا الحلم المتماسك التركيب والذى يصبح شفافاً كل الشفافية حين نعنى بتفسيره من أجل تلك المماثلة ومن أجل رغبتى فى أن أكون مخطئاً ، ولا من أجل الروابط العارضة التى تربطه بمدينة برسلاو وبأسرة الصديقة التى تزوجت هناك ، بل قد جاءت مشاركته — فوق ذلك — من أجل هذه الواقعة الصغيرة التى اختتم بها تشاورنا : فهو بعد أن أدلى برأيه الذى ذكرته وفرغ بذلك من مهمته الطبية تحول باهتمامه إلى الأمور الشخصية فسألنى : « ما عدد أطفالك الآن ؟ » — « ستة » — وهنا أتى بحركة تنم عن الإعجاب والقلق ثم قال : « بنات أم صبية » ؟ — « ثلاثة وثلاث ، وهم فخرى وغناى » — « حسنا ، ولكن خذ حذرك ! إن الأمور تجرى على ما يرام فيما يتعلق بالبنات ، وأما الصبية فتجلب تربيتهم المتاعب فيما بعد » ، فاحتججت بأن أبنائى قد ظلوا حتى اليوم طيعين على أحسن وجه . ومن الواضح أن هذا التشخيص الثانى فيما يتصل بمستقبل أبنائى لم يرقنى إلا بقدر ما راقنى سابقه عن المريض الذى لا يشكو إلا عصاباً . فهذان الانطباعان قد ارتبطا من طريق التلازم ، أى لأنى خبرتهما الواحد عقب الآخر ، وأنا حين أتناول قصة العصاب فأدرجها فى حلمى أحلها محل حديثنا عن عن التربية — هذا الحديث الذى كان لا شك مرتبطاً أوثق الارتباط بأفكار الحلم من حيث يقرب كل هذا القرب من المخاوف التى أعربت عنها زوجى أخيراً . وهكذا نرى أنه حتى خوفى من أن يكون ن. محقاً فيما تحدث به من صعوبة تنشئة الصبيان قد وجد منفذا إلى محتوى الحلم ، من حيث كان يستتر وراء الصورة التى صورت رغبتى فى أن أكون

مخطئاً فى مجاراة أمثال هذه المخاوف . وذات التخييل قد أفاد — كما هو — فى تصوير كلا الاحتمالين المتقابلين .

٦) نقلا عن مارسينوفسكى [١٩١١] : « خبرت اليوم وأنا بين الحلم واليقظة مثالا بديعاً غاية الإبداع على التكثيف الحلمى : فقد استوقفتنى وسط أشتات حلمية لا أكاد أذكرها كلمة رأيتها وقد كتب نصفها وطبع النصف الآخر . كانت الكلمة : 'erzefilisch' [كلمة لا معنى لها] ، وهى قد جاءت فى جملة انزلقت فى ذاكرتى الشعورية مفصولة من كل سياق ومعزولة عزلا تاماً. هذه الجملة هى : « إن ذلك يؤثر فى المشاعر الجنسية تأثيراً 'erzefilisch' . لقد عرفت للوهلة الأولى أن هذه الكلمة لا بد أن تكون فى الحقيقة : 'erzieherisch' [تربوى] ولهذا ظللت أتشكك برهة فيما إذا لم يكن الأجدر أن تكون الكلمة غير المفهومة 'erzifilisch' [بحيث يكون المقطعان الأولان متفقين نطقاً والمقطعين الأولين من الكلمة الدالة على « تربوى » ، وهى الكلمة التى خمن الحالم أن الكلمة المخترعة قد أخذت منها] . وفى هذه الأثناء خطرت لى كلمة 'Syphilis' ، وأخذت أعصر ذهنى — وقد بدأت فى تفسير الحلم وأنا مازلت نصف نائم — سائلا كيف تسنى لهذه الكلمة أن تعرض فى الحلم ، إذ ليست هناك أى علاقة تربط بينى وبين هذا المرض لا من وجهة شخصية ولا من وجهة مهنية. وعندئذ خطرت لى كلمة 'erzehlerisch' [كلمة أخرى لا معنى لها] ففسرت السر فى وجود حرف e الثانى [فى الكلمة المخترعة فى الحلم] ، وذلك بأن ذكرتنى بأن المربية 'Erzieherin' كانت قد سألتنى فى المساء أن أحدثها برأيى فى مشكلة البغاء ، فأعطيتها كتاب هس (عن البغاء) قاصدا من ذلك إلى التأثير فى حياتها الانفعالية — ولم تكن قد نمت نمواً سوياً تماماً — تأثيراً 'erzieherisch' [تربوياً] ، ثم حدثتها بعد ذلك حديثاً طويلا فى هذه المشكلة . وعندئذ اتضح أن كلمة 'Syphilis' لا يجب أخذها بمعناها الحرفى ، بل هى تنوب عن « سم » — فيما يتصل بأمور الحياة الجنسية بالطبع . وهكذا نجد أننا نخرج من ترجمة هذه الكلمة غير المفهومة بجملة منطقية تماماً : لقد كنت أبتغى من هذا الحديث ['Erzählung' ، e = â نطقاً] أن أؤثر فى الحياة الانفعالية لمربيتنا ['Erzieherin'] تأثيراً تربويا ['erzieherisch'] ولكننى أخشى أن يكون لذلك فعل السم .أى أن'erzefilisch' قد ركبت من'— 'erzäh ثم'— 'erzieh'.» (١)

(١) [أى أن الكلمة المخترعة فى هذا الحلم erzefilisch قد تضمنت تكثيفا حاذقا ، فهى قد

هذه التركيبات اللغوية الفاسدة للحلم تشبه غاية الشبه تلك التى نعرفها فى البارانويا وإن كانت لا تغيب أيضاً من الهستريا والأفكار القهرية . وإن الألاعيب اللغوية للأطفال الذين يعاملون الكلمات أحياناً معاملة الموضوعات ويبتدعون فوق ذلك لغات جديدة وصوراً نحوية مصطنعة لهى المنبع الذى يصدر عنه هذا كله ، سواء أفى الحلم أم فى الأعصبة النفسية .

إن تحليل الألفاظ التى لا معنى لها يصلح صلاحية خاصة لإظهارنا على ما يحققه عمل الحلم فى مجال التكثيف. وليس للقارئ أن يستنتج من قلة الأمثلة التى ذكرتها أن هذا الضرب من المادة نادر أو لا يعرض للملاحظة إلا نادرا . بل الأصدق هو أن هذه الأمثلة كثيرة الوقوع إلى مدى كبير ولكن توقف تحليل الحلم على العلاج النفسى كان من نتيجته أن أمثلة قليلة العدد جداً هى التى قد لوحظت ورويت وأن التحليلات المروية لهذه الأمثلة لا يدنو فهمها فى العادة إلا للمتخصصين فى دراسة مرضية الأعصبة. ولقد روى الدكتور فون كارپينسكا (١٩١٤) مثالا من هذا النوع احتوى على هذا المركب اللفظى غير المفهوم « svingnum elvi » . وإنه لجدير بنا أن نذكر هذه الحالات التى فيها تظهر فى الحلم كلمة لا تخلو فى ذاتها من المعنى ولكنها قد جردت مع ذلك من معناها الخاص وضمنت معانى متعددة يكون شأن هذه الكلمة منها شأن الكلمة التى « لا معنى لها » . مثال ذلك حلم رواه تاوسك (١٩١٣) عن طفل فى العاشرة من عمره وردت فيه الكلمة "Kategorie" [مقولة] ،وكانت تعنى هنا أعضاء المرأة التناسلية ، كما كان الفعل الذى اشتق من هذه الكلمة "Kategoriereen" يعنى التبول .

وإذا وردت فى الحلم جمل منطوقة متميزة صراحة — من حيث هى كذلك — من الأفكار ، فالقاعدة التى لا تتخلف هى أن الكلمة المنطوقة فى الحلم إنما تستمد من كلمات منطوقة متذكرة فى مادة الحلم. ومنطوق الكلام إما أن يحفظ كما هو أو يصدر معدلا بنقل طفيف. وكثيراً ما يؤلف الكلام فى الحلم من أقوال متنوعة مستمدة من ذاكرة الحالم ، وفى هذه الأثناء يبقى النص هو هو ، ولكن تخلع عليه — إذا أمكن ذلك —

ركبت من الكلمات الآتية (١) erzieherisch: (تربوى) + ٢) Erzieherin (مربية) + ٣) Erzählung (محادثة) + ٤) Syphilis – وهى أهم الكلمات الداخلة فى تكوين الجملة المتضمنة فى أفكار الحلم .]

معان متعددة ، أو معنى يختلف من معناه الأصلى . ولا يندر أن يستخدم الكلام الوارد فى الحلم على سبيل الإشارة إلى الموقف الذى ورد فيه هذا الكلام لا أكثر (١).

ب

عمل النقل

لا بد أن علاقة ثانية لا تقل فى الراجح أهمية عن التكثيف قد تجلت لنا بينما كنا نجمع الشواهد على هذا الأخير . لقد وسعنا أن نلحظ أن العناصر التى تبرز فى محتوى الحلم باعتبارها مقومات جوهرية له بعيدة كل البعد عن أن يكون لها مثل هذا الشأن فى أفكار الحلم . ونستطيع أن نعكس هذه القضية فنخرج منها بنتيجة تتبعها : إن ما يتضح جلياً أنه المحتوى الجوهرى فى أفكار الحلم لا يتمثل فى الحلم بالضرورة . فللحلم — إن شئت — محور مختلف ، أى أن محتواه ينتظم حول عناصر غير التى تشغل فى أفكاره نقطة المركز . خذ مثلا حلم المبحث النباتى : من الواضح أن مداره كان العنصر « نباتى » وأما فى أفكار الحلم فيتعلق الأمر بالتعقد والنزاع اللذين ينشآن بين الزملاء من جراء التزاماتهم المهنية ، ثم يتعلق بعد ذلك بما ألام عليه من أننى أبذل فى سبيل هواياتى تضحيات تفوق كل ما ينبغى ، ولم يكن العنصر « نباتى » يشغل أدنى محل فى نواة أفكار الحلم هذه ، اللهم إلا أن يكون قد ارتبط بها ارتباطا واهياً على سبيل التضاد من حيث أن علم النبات لم يكن يوماً بين العلوم التى أوثرها . ثم حلم سافو الذى أتاه أحد مرضاى : النقطة الرئيسية فى هذا الحلم هى الصعود والهبوط ، الأعلى والأسفل ، ولكن الحلم يعالج مخاطر العلاقات الجنسية بأشخاص محطوطى القدر ، بحيث يبدو أن عنصراً واحداً من

(١) [١٩٠٩ :] لقد وجدت منذ زمن غير بعيد الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ، وكان ذلك فى حالة شاب كان يشكو أفكارا قهرية مع احتفاظه بكل وظائفه العقلية — وكانت بعد على نمو كبير — كاملة غير منقرصة : لم تكن الأقوال التى ترد فى أحلام هذا الشاب أقوالا سمعها أو قالها ، بل كانت توافق النص غير المحرف لأفكاره القهرية التى لم تكن تستطيع أن تنفذ إلى شعوره فى اليقظة إلا فى صورة محرفة . [الشاب المعنى هنا هو الذى عرفت حالته بين الحالات الخمس التى نشرها فرويد باسم " الرجل الفأر " (فرويد ١٩٠٩ د) .]

أفكار الحلم هو الذى قد نفذ إلى محتواه ، وإن يكن هذا العنصر قد مُطَّ مطاً لا تناسب فيه . والحال كذلك فى حلم الخنفساوين : فموضوعه هو العلاقة بين الحياة الجنسية والقسوة ، وعامل القسوة يظهر يقينا فى محتوى الحلم ، ولكنه يظهر فى سياق مختلف دون أن يذكر للحياة الجنسية ذكر ، أى منزوعاً من محيطه ، مصوراً — من ثم — فى صورة تنأى به عن الموضوع . كذلك فى حلم عمى حيث كانت اللحية الصفراء هى النقطة الرئيسة : لقد بدت هذه اللحية مجردة من كل معنى يربط بينها وبين رغبة العظمة التى عرفنا فيها لب أفكار الحلم . إن أمثال هذه الأحلام توحى إلى المرء بحق أن « نقلا » قد وقع . وحلم حقنة إرما يبدو إذن مخالفاً لهذه الأمثلة تمام المخالفة ؛ إذ فيه أمكن العناصر المختلفة أن تحتفظ فى خلال تكوين الحلم بالمحل الذى كانت تشغله فى أفكار الحلم . وإن الكشف عن هذه العلاقة الجديدة بين أفكار الحلم ومحتواه — تلك العلاقة المتقلبة غاية التقلب فى اتجاهها أو معناها — لأمر يثير عجبنا للوهلة الأولى . فنحن إذا نظرنا فى عملية نفسية من عمليات الحياة السوية فوجدنا أن فكرة بعينها قد انتخبت من بين الكثيرات غيرها ثم اكتسبت حدة خاصة بالنسبة إلى الشعور ، رأينا فى ذلك عادة دليلا على أن لهذه الفكرة قيمة نفسية عالية بنوع خاص — على أنها تلقى درجة معينة من الاهتمام. ولكننا نرى الآن أن هذه القيمة التى لمختلف العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم لا تُستَبقَى فى خلال تكوينه أو لا يحسب لها حساب . فنحن لا نشك أقل شك فى أى عناصر أفكار الحلم تفوق ما عداها قيمة : فحكمنا ينبئنا بذلك إنباء مباشراً . وهذه العناصر الجوهرية المحملة باهتمام شديد قد تعامل عند تكوين الحلم كما لو لم تكن تملك سوى قيمة ضئيلة ، وتحل محلها فى الحلم عناصر أخرى لا نشك فى أنها كانت ذات قيمة ضئيلة فى أفكار الحلم . وفى ذلك ما يوحى للوهلة الأولى أن الشدة النفسية[1] التى لمختلف الأفكار لا يحسب لها حساب على الإطلاق حين يختار الحلم من هذه الأفكار ما يختار ، وإنما الشىء الوحيد الذى يحسب حسابه هو تعدد حتمها تعددا ينقص أو يزيد ، أى أن المرء قد يظن أن ما يظهر فى الحلم من أفكار الحلم ليس خطيرها ، بل مكررها . بيد أن هذا الفرض لن يعيننا كثيراً على فهم تكوين الحلم ؛ فنحن لن نعقل أن عامل الحتم المضاعف

---

(١) علينا أن نفرق بالطبع بين الشدة النفسية أو القيمة أو درجة الأهمية التى لفكرة من الأفكار ، وبين الشدة الحسية ، أى شدة الصورة الماثلة أمامنا .

وعامل القيمة النفسية الخاصة يمكن أن يعملا فى اتجاهين متباينين على اختيار العناصر التى تظهر فى الحلم ، بل الأفكار التى هى أشد أفكار الحلم أهمية سوف تكون يقينا أكثرها أيضاً ترددا ، فنها – كما من بؤرة – تشع أفكار الحلم المتفرقة . ومع هذا يستطيع الحلم أن يترك تلك العناصر المؤكدة توكيداً شديداً فى ذاتها المؤيدة من جوانب متعددة بغيرها ، وأن يلتقط لمحتواه عناصر أخرى لا تتحقق فيها سوى ثانية هاتين الخاصتين .

ولكى نصل إلى حل هذه الصعوبة سوف نسترشد بانطباع آخر يوحيه أيضاً بحثنا فى الحتم المضاعف لمحتوى الحلم : ربما كان الكثيرون من القراء قد حكموا من تلقاء أنفسهم بأن الحتم المضاعف لعناصر الحلم ليس بالمكتشف الهام لأنه أمر واضح بذاته ؛ فنحن نأخذ فى التحليل ابتداء من عناصر الحلم ثم ندون كل الخواطر التى تستدعيها هذه العناصر ، ولا عجب إذن حين نجد أن هذه العناصر على التحديد قد تكرر ورودها فى المادة الفكرية المكتسبة من هذا الطريق تكراراً خاصاً . ولست أستطيع أن أقبل هذا الاعتراض ، ولكننى أسوق مع ذلك قولا يلوح مشابها له : إن بين الأفكار التى يخرجها التحليل إلى الضوء أفكاراً كثيرة بعيدة بعداً نسبياً عن لب الحلم وتبدو مثل وسائط مصطنعة جعلت لهدف بعينه . وهذا الهدف يسهل تخمينه : فهذه الأفكار على التحقيق هى التى تعقد الصلة بين محتوى الحلم وأفكاره ، صلة كثيراً ما تكون مفروضة ، مفتعلة . ونحن إذا أسقطنا هذه العناصر من التحليل كانت النتيجة فى كثير من الأحايين أن مقومات المحتوى الحلمى لا تفقد حتمها المضاعف وحسب ، بل هى قد تفقد كل حتم كاف يجيئها من أفكار الحلم . وهكذا نساق إلى تلك النتيجة : أن الحتم المتكثر الذى يفصل فى اختيار ما يدخل الحلم ليس عاملا أولياً فى تكوين الحلم بل هو فى الكثير من الأحيان نتاج ثانوى لقوة نفسية لا نزال نجهلها . ومع هذا فلا بد أن تكون لهذا الحتم أهمية خاصة فى اختيار أى العناصر يدخل الحلم ، ما دمنا نلحظ أن هذا الحتم يُجلب جلباً بجهد خاص حين لا ينبعث من أفكار الحلم بغير عون .

وهكذا نصبح قاب قوسين من تلك الفكرة : أن هناك قوة نفسية تفصح عن نفسها فى أثناء عمل الحلم ، قوة تجرد العناصر ذات القيمة النفسية العالية من شدتها – هذا من جهة ، وهى – من جهة أخرى – تخلق بوساطة الحتم المضاعف من العناصر ذات القيمة

النفسية المنخفضة قيما جديدة ، تلج بعد ذلك محتوى الحلم . وإذا كان الأمر كذلك ،

كان معناه أن تحويلا ونقلا فى الشدات النفسية التى لمختلف العناصر يقعان فى أثناء تكوين الحلم ، وأن التباين بين نص محتوى الحلم ونص أفكار الحلم يأتى نتيجة لهذا التحويل وهذا النقل . والعملية التى نفترض وجودها على هذا النحو هى على التحقيق الجزء الجوهرى فى عمل الحلم ، وهى تستحق اسم « النقل الحلمى » . فالنقل الحلمى والتكثيف الحلمى هما سيدا العمل اللذان يحق لنا أن نعزو تشكيل الحلم إلى نشاطهما هما فى المقام الأول .

وأعتقد أن من السهل علينا أيضاً أن نعرف ما هى تلك القوة النفسية التى تفصح عن نفسها فى وقائع النقل الحلمى ؛ فنتيجة هذا النقل هى أن محتوى الحلم يفقد شبهه بلب أفكار الحلم ، وأن الحلم لا يعطينا بعد ذلك سوى صورة مشوهة من رغبة الحلم اللاشعورية . وتشويه الحلم ظاهرة عرفناها من قبل ، وقد كنا أرجعناها إلى الرقابة التى يمارسها أحد نظامين يعملان فى الحياة الفكرية بإزاء النظام الآخر . والنقل الحلمى — على ذلك — وسيلة من الوسائل الرئيسة التى يتحقق بها هذا التشويه ؛ فإن « فاعل الفعل هو من انتفع منه ».[1] ومن حقنا إذن أن نفترض أن النقل الحلمى يقع بتأثير من هاته الرقابة ، رقابة الدفاع الصادر عن داخل النفس[2].

(١) [Is fecit, cui profuit.]

(٢) إننى أستطيع القول بأن رد تشويه الحلم إلى الرقابة هو جوهر نظريتى عن الأحلام ، ولهذا أورد هنا الجزء الأخير من قصة بعنوان "الحلم على غرار اليقظة" من كتاب "أحلام واقعى" تأليف لينكويس (ڤيينا ، الطبعة الثانية ، ١٩٠٠) — وهو كتاب التقيت فيه بهذه السمة الرئيسة التى تتميز بها نظريتى . [أنظر الملحق المكتوب بتاريخ ١٩٠٩ بآخر الفصل الأول] :

" حول رجل له تلك الخاصة العجيبة ، وهى أنه لا يحلم أبدا أحلاما تنافى المعقول . . . "

" إن تلك الموهبة الماجدة التى خصصت بها : أن تحلم كما لو كنت مستيقظا — هى ثمرة فضائلك وطيبتك وإنصافك ومحبتك الحقيقة . والصفاء الخلقى الذى فى طبيعتك هو الذى يجعلنى أفهم كل ما اتصل بك . "

" فأجاب الآخر : ولكننى — حين أمعن النظر . أعتقد أن جميع الناس قد خلقوا على هذا الغرار ، وأنه ما من أحد تخلو أحلامه أبداً من المعنى ! فكل حلم يتذكره المرء تذكرا متميزا بحيث يستطيع روايته من بعد ، أى كل حلم لم تلده الحمى ، هو دائماً حلم ذو معنى ، ومحال أن تكون الأشياء على خلاف ذلك ! فما يفرق بينه التناقض لا يمكن أن يجتمع فى كل واحد . فأما أن الزمان والمكان كثيراً ما يختلطان فذلك ما لا ينال من محتوى الحلم الحقيقى فى شىء ؛ فكلاهما — ولا شك — عديم الخطر فيما يتعلق بجوهر الحلم . ثم نحن كثيراً ما نفعل مثل ذلك فى اليقظة ذاتها : انظر إلى القصص وإلى تآليف الخيال المليئة بالجرأة الزاخرة بالحكمة والتى لا يستطيع أن يقول عنها : ذلك هراء لأنه مستحيل ، إلا رجل لا عقل له ! "

" فقال الصديق : لو قد استطاع المرء فقط أن يفسر الأحلام دائماً تفسيراً صحيحاً مثلما فعلت بحلمى ! "

" تلك على التأكيد ليست بالمهمة السهلة . ولكن لامرية فى أن النجاح فيها ميسور بقليل من الانتباه من =

وأما السؤال : كيف تعمل معاً فى تكوين الحلم عوامل النقل والتكثيف والحتم المضاعف أيها المسيطر وأيها الثانوى؟ فذلك ما ندخره لبحث مقبل . [أنظر مثلا القسم ومن هذا الفصل .] ولكننا نستطيع أن نكشف فى الوقت الحاضر عن شرط ثان لا بد من أن تستوفيه العناصر التى تشق طريقها إلى الحلم : أن تفلت هذه العناصر من الرقابة التى تفرضها المقاومة . ومن الآن فصاعداً سنحسب للنقل الحلمى حسابه باعتباره واقعة لا يتطرق إليها الشك .

ج

وسائل الحلم فى التصوير

إذا تركنا عاملى التكثيف والنقل اللذين رأينا نشاطهما فى تحويل الأفكار الكامنة إلى محتوى الحلم الظاهر ، أوقفتنا متابعة البحث على شرطين آخرين يؤثران فى اختيار المادة التى تنفذ إلى الحلم تأثيراً لاشك فيه . ولكننى أود أولا أن ألقى نظرة على العمليات التى تقع فى أثناء القيام بتفسير الحلم ، مهما كان فى ذلك من خطر الظهور بمظهر من لا يتقدم فى طريقه . إننى لا أخفى على نفسى أن أقرب الطرق إلى إيضاح هذه العمليات وإلى الذود عن جدارتها بالثقة فى وجه النقد هو أن آخذ حلماً بعينه على سبيل المثال وأن أفصل تفسيره كما فعلت من قبل بحلم حقنة إرما فى الفصل الثانى ، وأن أجمع بعدئذ ما يتكشف لى من أفكار الحلم ، ثم آخذ فى بناء الحلم من جديد ابتداء من هذه الأفكار ، أى أن أردف تحليل الحلم بتركيب يكمله . ولقد قمت بهذا العمل فى أمثلة متعددة طلباً لفائدتى الخاصة ، ولكننى لا أستطيع أن أورد هنا هذه الأمثلة ، إذ تمنعنى من سوق هذا البرهان اعتبارات تتعلق بطبيعة المادة النفسية المضمنة — وهى اعتبارات متنوعة ويسلم بوجاهتها كل امرئ منصف فى التفكير . هذه الاعتبارات قد تدخلت فى تحليل الأحلام إلى حد أقل ؛ فإن التحليل قد يظل ناقصاً ويستبقى مع ذلك قيمته ، بل هو قد يستبقيها

ـجانب الحالم . إنك تسألنى : ولم الفشل فى معظم الأحايين ؟ ذلك أنكم تبدون دائماً يا معشر البشر كأنما كان ثمت شىء خبيث فى أحلامكم ، شىء غير عف بمعنى أخص وأعمق ، خاصة مستسرة ركبت فى طبيعتكم ويصعب عليكم تأمها ، ولهذا غلب أن تجىء أحلامكم مجردة من المعقولية ، إن لم تناقضها . بيد أنها تخالف ذلك تمام المخالفة فى حقيقتها العميقة ، لا بل ذلك فى الحق ما لا يمكن أن يكون ؛ لأن الإنسان يظل دائماً هو هو سواء أفى الحلم أم فى اليقظة . »

وإن لم ينفذ إلا فى رقعة صغيرة من نسيج الحلم . فأما تركيب الحلم فلست أدرى كيف يُصنعُ إلا إذا كان كاملا . وما أستطيع أن أورد تركيباً كاملا لبعض الأحلام إلا إذا كانت هذه الأحلام لأناس تجهلهم جمهرة القراء . ولكن إذا كان هذا الشرط لايتحقق إلا فى مرضاى – وهم عصابيون – فقد وجب على أن أرجئْ هذا الجزء من الكلام عن الحلم إلى أن أتمكن – فى موضع آخر غير هذا الكتاب – من المضى بتفسير سيكولوجية الأعصبة إلى الحد الذى يتم عنده الوصل بينها وبين موضوعنا الحاضر (١) .

وقد علمتنى محاولاتى فى بناء الأحلام بتركيبها من أفكار الحلم أن المادة التى تنبعث فى خلال التفسير تتفاوت فى القيمة : فهناك جزء يتكون من أفكار الحلم الجوهرية ، أى تلك التى تحل محل الحلم تماماً وكانت كفيلة أن تجىء بدله لولا وجود الرقابة على الحلم ، وأما الجزء الآخر فهو فى العادة خليق بأن يوصف بكونه ذا أهمية ضئيلة . ولسنا نأخذ بالقضية القائلة إن جميع الأفكار التى من هذا النوع الثانى قد اشتركت فى تكوين الحلم [أنظر ص ٢٩٤] ، بل لقد توجد بينها على العكس مستدعيات تتعلق بخبرات وقعت بعد الحلم ، بين لحظتى الحلم والتفسير . هذا الجزء يشمل جميع الطرق الرابطة التى أدت من المحتوى الظاهر إلى الأفكار الكامنة ، كما يشتمل على المستدعيات المتوسطة المتدرجة التى توصلنا من خلالها – ونحن نقوم بالتفسير – إلى معرفة تلك الطرق الرابطة .

ولسنا نوجه اهتمامنا فى هذا الموضع إلا إلى أفكار الحلم الجوهرية وحدها . هذه الأفكار تتكشف فى معظم الأحايين فى صورة مجموعة من الأفكار والذكريات ذات بنية متشابكة أقصى التشابك ، حاصلة على كل الخواص التى نعرفها لعملياتنا الفكرية فى حياة اليقظة . وهى قد تكون فى أحيان ليست بالنادرة سلسلات من الفكر تصدر عن أكثر من مركز واحد ، وإن تماست فى بعض المواضع . وتكاد كل سلسلة من هذه أن تقترن دائماً بمقابلها المناقض لها : يرتبط بها من طريق التداعى بالتباين .

والأجزاء المختلفة من هذا البناء المعقد تتداخل بالطبع فى علاقات منطقية أو لغوية تتنوع غاية التنوع : ففيها المتقدم والمتأخر وفيها الاستطراد والإيضاح ، فيها الشرط

---

(١) لقد نشرت منذ ذلك الحين فى " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ١٩٠٥ هـ) تحليلا وتركيبا كاملين لحلمين . ومن الواجب أن نشير هنا إلى التحليل الذى نشره أوتو رانك بعنوان : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [رانك ١٩١٠] باعتباره أتم تفسير نعرفه لحلم ذى طول يعتد به .

والتدليل والمناقضة . فإذا ما خضعت كتلة أفكار الحلم هذه للضغط المتولد عن عمل الحلم ، يدير أجزاءها ويفتتها ثم يلحمها فيما يشبه الثلج المندفع ، ثار فى أنفسنا السؤال عما آلت إليه هاته العلاقات التى كانت حتى الساعة هيكل البناء . أى تصوير تلقاه فى الحلم « إذا » و « لأن » أو « مثل » و « رغم » و « إما — أو » وسائر الأحرف التى لا تفهم بغيرها عبارة أو خطاب ؟

لا مفر من أن نجيب فى بادئ الأمر بأن الحلم لا يملك أى وسيلة يصور بها هذه العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم . فهو فى معظم الأحايين يغفل كل هذه الحروف ولا يستبقى من الأفكار سوى محتواها الشئ يصوغ منه صوغه . وعلى التفسير أن يسترجع ما أعدمه عمل الحلم من الروابط المنطقية .

وإذا كانت هذه القدرة على التعبير تعوز الحلم ، فهى لا بد راجعة إلى طبيعة المادة النفسية التى تصنع منها الأحلام . ويعرف هذان الفنان التشكيليان : التصوير والنحت — مثل هذا التقييد ، بالقياس إلى الشعر الذى يسعه استعمال الكلم . وعلة العجز هنا أيضاً طبيعة المادة التى يجهد هذان الفنان فى الإعراب عن شىء ما بتشكيلها . ولقد جهد فن التصوير — قبل أن يصل إلى الأحكام التى يعمل اليوم بمقتضاها — فى تذليل هذا العائق . فنحن نرى الأشخاص فى الرسوم القديمة وقد تعلقت بأفواههم شرائط خطت عليها أحرف تقول ما قد يئس الفنان من الإعراب عنه فى صور .

وربما ظهر فى هذا الموضع اعتراض ينازع فيما ننكره من قدرة الحلم على تصوير العلاقات المنطقية : فهناك أحلام يقوم فيها الحالم بعمليات عقلية معقدة غاية التعقيد ، فيبرهن على القضية أو ينقضها أو يسفهها أو يقارنها بغيرها ، كشأنه فى اليقظة . وهذا صحيح ، ولكن هنا أيضاً يخدع المظهر ، فلو أنا مضينا فى تفسير أمثال هذه الأحلام لعلمنا أن هذا كله إنما هو مادة من مادة الحلم وليس تصويراً لعمل عقلى يتأدى فى الحلم .

وما يعيد الحلم بتفكيره الظاهر هذا سوى محتوى أفكار الحلم لا علاقاتها المتبادلة التى يقوم التفكير فى التزامها . وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك [ص ٤٤٠ وما بعدها] ، ولكن أسهل ما نستطيع التثبت منه فى هذا الموضع هو أن كل كلام يعرض فى الحلم منصوصاً صراحة على أنه كذلك إنما هو إعادة محرفة أو محرفة قليلا لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم . وفى كثير من الأحيان لا يخرج الكلام المقول فى الحلم عن أن يكون إلماعاً

إلى موقف متضمن فى أفكار الحلم ، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف . [أنظر ص ٤١٩ وما بعدها .]

بيد أنى لن أنكر مع ذلك أن التفكير النقدى الذى لا يقف عند مجرد تكرار المادة المحتواة فى أفكار الحلم يأخذ مع ذلك بنصيب فى تكوين الحلم . ولن أجد بدا من ألقى الضوء فى نهاية المناقشة الحاضرة على تأثير هذا العامل . وعندئذ سوف يتضح أن هذا النشاط الفكرى لا يرد إلى أفكار الحلم بل يصدر عن الحلم ذاته بعد أن يكون قد اكتمل صنعه بمعنى من المعانى . [انظر القسم الأخير من هذا الفصل .]

وإلى أن يتضح لنا ذلك نقول إذن : إن العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم لا تحظى فى الحلم بأى تصوير مستقل . فإذا عرض فى الحلم تناقض – مثلا – فهو إما تناقض من جانب الحلم وإما تناقض فى فكرة من أفكار الحلم . ولا يكون التناقض فى الحلم مصوراً لتناقض بين أفكار الحلم إلا بطريقة غير مباشرة إلى أبعد حد .

ولكن كما أن فن التصوير قد أفلح أخيراً فى أن يعرب على الأقل عن مقاصد الكلم عند من يصور من الناس : حب أو وعيد أو تحذير أو غيره ، وذلك بطريقة أخرى عدا الشرائط المدلاة ، كذلك أمكن الحلم أن يدخل فى حسابه بعض العلاقات المنطقية بين أفكاره ، وذلك بتعديل طريقة التصوير المميزة للأحلام تعديلا ملائماً . وتدل التجربة على أن الأحلام المختلفة تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى هذا الباب ؛ فبينما يغفل حلم الترتيب المنطقى الذى لمادته إغفالا تاماً ، يعمل حلم آخر على الإبانة عن هذا الترتيب إبانة كاملة بقدر المستطاع . وفى أثناء ذلك يبعد الحلم عن النص المراد صوغه بعدا ينقص أو يزيد . هذا ، وتختلف الأحلام كذلك فى مسلكها تجاه الترتيب الزمنى لأفكار الحلم ، إذا كان مثل هذا الترتيب قد قام فى اللاشعور (كما فى حلم حقنة إرما ، مثلا .)

فما هى الوسائل التى يتمكن بها الحلم من الإبانة عما تتضمنه مادته من علاقات صعبة التصوير ؟ سأحاول أن أحصى هذه الوسائل واحدة فواحدة .

الحلم أولا يدخل فى حسابه جملة الرباط القائم من غير أدنى شك بين أجزاء أفكار الحلم جميعها ، وذلك بتوحيد هذه المادة فى سياق يجمعها فى صورة موقف أو حدث : إنه يعيد الرباط المنطقى فى صورة المزامنة . وهو فى ذلك يحذو حذو الرسام الذى يرسم صورة مدرسة أثينا أو البرناس ، فيحشد فى الصورة جميع الفلاسفة والشعراء وما اجتمعوا

قط فى رواق واحد أو على قمة واحدة . ولكنهم مع ذلك يؤلفون يقينا صحبة واحدة بالمعنى التصورى المجرد .

والحلم يتابع هذا المنهج فى التصوير حتى الجزئيات . فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كل من الآخر كان ذلك ضامنا لوجود علاقة وثيقة بنوع خاص بين مقابليهما فى أفكار الحلم . فالأمر هنا أشبه به فى نظامنا الكتابى : فأنت إذا كتبت « أب » كان معنى ذلك أن هذين الحرفين يجب أن يقرآ مقطعاً واحداً ، فإن تركت فاصلا بينهما كان معناه أن « أ » هى الحرف الأخير من كلمة و « ب » الأول فى تاليتها . وعلى هذا الغرار تجىء تجمعات الحلم ، فهى لاتتكون عفوا من أجزاء مشتتة فى مادة الحلم ، بل من من أجزاء يربط بينها فى أفكار الحلم أيضاً رباط وثيق .

فأما علاقات العلية فيملك الحلم طريقتين فى تصويرها ، هما فى جوهرهما طريقة واحدة . فعندما تجرى أفكار الحلم على هذه الصورة : « وإذ كان الأمر كذا وكذا ، فقد لزم أن يقع هذا وذاك » فأشيع طرق التصوير هى أن تدرج جملة الشرط فى حلم تمهيدى يتلوه جواب الشرط فى الحلم الرئيس . ومن الممكن — إذا لم أكن أخطأت التفسير — أن ينقلب هذا الوضع . ولكن الجزء الأوسع فى الحلم يقابل دائماً جملة جواب الشرط .

وقد أتت إحدى مريضاتى بمثال بديع على هذه الطريقة فى تصوير علاقة العلية ، وذلك فى حلم سوف أورده كاملا فيما بعد . [ص ٣٥٥] . كان الحلم يتكون من مقدمة وجزة ومن حلم مسهب دار إلى درجة ملحوظة حول موضوع بعينه ، وهو يستحق أن يسمى باسم : لغة الأزهار . وكان الحلم التمهيدى كما يلى : تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لما تجهزا لها « قضمة تؤكل » تلمح فى أثناء ذلك عدداً كبيراً جداً من أوعية المطبخ العامية الطراز ، قلبت على الأرض وقد رصت بعضها فوق بعض أكواماً حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء . تذهب الخادمان فى طلب بعض الماء ، وتضطران إلى الخوض فى نهر ارتفع حتى بلغ المنزل أو فناءه .

ثم تبع ذلك الحلم الرئيس ، وكان يبدأ على هذا النحو : تهبط من مرتفع عظيم فوق حواجز ركبت بطريقة غريبة وتشعر بالسرور لأن ثوبها لم يشبك بأى منها فى خلال ذلك الهبوط . . . الخ .

إن الحلم التمهيدى يشير إلى منزل والدى هذه السيدة . وأما الكلمات التى ألقت بها فى المطبخ فلا شك فى أن المريضة قد سمعت أمها ترددها مراراً . وأكوام أوعية

المطبخ مستمدة من دكان متواضع لبيع الأوانى بأسفل منزلهم . فأما الجزء الثانى من هذا الحلم التمهيدى فيشير إلى والد الحالمة ، وكان لا يكف عن مطاردة الخادمات ، إلى أن أصابه فى أثناء الفيضان مرض أودى به — وكان منزلهم يقع على ضفة النهر . فالفكرة المستترة وراء الحلم التمهيدى يمكن صوغها على هذا النحو : « وإذ كنت ولدت فى هذا المنزل ، فى هذا الجو الوضيع المكتئب . . . » والحلم الرئيس يرجع فيتناول هذه الفكرة عينها ويصوغها من طريق تحقيق الرغبة فى الصورة الآتية : « إننى أنحدر من سلالة عالية . » والقراءة الصحيحة للحلم هى إذن : « وإذ كنت أنتمى إلى هذا الأصل الوضيع ، فقد كانت حياتى كيت وكيت . »

وانقسام الحلم جزئين متفاوتين فى الطول لا يدل فى كل حالة — بقدر ما أعلم — على وجود علاقة علية بين الفكرتين المتضمنتين فى هذين الجزئين . فكثيراً ما يبدو الأمر كأن كلا الحلمين يعالج ذات المادة من وجهة نظر مختلفة ، وتلك هى الحال يقينا حين ترد فى الليلة الواحدة سلسلة من الأحلام تنتهى بالإمناء ؛ فهذه الأحلام مراحل تقرّب الحاجة الجنسية من خلالها رويداً رويداً إلى تعبير أصرح . أو قد ينبعث كلا الحلمين من مركز خاص به فى مادة الحلم ثم يقع بين الحلمين تداخل فى المحتوى بحيث نرى ما كان إشارة عابرة فى أحدهما وقد صار مركز الحلم الآخر ، والعكس . بيد أن هناك — مهما يكن — حالات يدل فيها بالفعل انشقاق الحلم شقين — تمهيد قصير وملحق طويل — على وجود رابطة علية بين الجزئين . وأما المنهج الثانى فى تصوير علاقة العلية فيستخدم حين تكون المادة أقل اتساعاً . وهو يتلخص فى أن ترد فى الحلم صورة — سواء لشخص أم لشىء — ثم تتحول إلى أخرى . والقول بوجود العلاقة العلية هنا لا يكون قولا جدياً إلا حيث نرى هذا التحول فى صورة الحلم يدور أمام ناظرنا ، وليس يكفى فيه أن نلحظ أن شيئاً ما قد جاء فى موضع شىء آخر كان حاضراً منذ هنيهة . ولقد قلت : إن هذين المنهجين فى تصوير علاقة العلية هما فى الحقيقة منهج واحد . وذلك لأن العلية تصور فى كليهما بالتعاقب : بتعاقب الأحلام طوراً ، وبتحويل إحدى الصور إلى غيرها تحويلا مباشراً طوراً آخر . ولكن الحق الصراح هو أن علاقة العلية لا تصور على الإطلاق فى الغالبية العظمى من الحالات ، بل تضيع وسط تعاقب العناصر تعاقباً لا بد منه حتى فى عملية الحلم .

وأما علاقة « إما كذا أو كذا » فلا يستطيع الحلم تصويرها على الإطلاق، بل يدرج الحلم كلا الاحتمالين فى سياق واحد كما لو كانا يتساويان فى الجواز . وحلم حقنة إرما يرينا مثالا مأثورا على ذلك . فقد كان من الجلى أن الأفكار الكامنة لهذا الحلم كانت الآتية : لا ذنب لى إذا كانت آلام إرما لا تزال مستمرة ؛ فالذنب راجع إما إلى رفضها الأخذ بحلى ، أو إلى أنها تعيش فى وضع جنسى لا يساعد على البرء ولا أستطيع تغييره ، أو إلى أن طبيعة آلامها هذه ليست هسترية على الإطلاق بل عضوية . ولكن الحلم يحقق جميع هذه الاحتمالات التى يكاد يمنع بعضها بعضاً ، ولا يجد مانعاً من أن يضيف إليها احتمالا رابعاً أوحته رغبة الحلم(١). ثم لما فرغت من التفسير أدرجت « إما » و « أو » فى سياق أفكار الحلم .

غير أنه إذا شعر الراوى وهو يستذكر حلمه بحيرة بين « إما » و « إما » كأن يقول : « كان المكان إما حديقة وإما غرفة استقبال » فمقابل هذا الاحتمال فى أفكار الحلم ليس احتمالا مثلهما بل واو عطف ، أى إضافة وحسب . فنحن فى معظم الأحايين نستخدم « إما كذا وإما كذا » لكى نصف بها عنصراً من عناصر الحلم اتسم بطابع من الغموض يسهل مع ذلك تبديده ؛ فالقاعدة التفسيرية فى مثل هذه الحالة هى الآتية : أن نعامل كلا الاحتمالين الظاهرين كما لو كانا يتساويان صحة ، وأن نربط كلا بالآخر بوساطة واو العطف . مثال ذلك أننى ظللت زمنا طويلا أنتظر سدى عنوان صديق لى كان مسافرا فى إيطاليا ، ثم حلمت بأنى أتلقى رسالة برقية تخبرنى بهذا العنوان . لقد رأيت العنوان مطبوعاً على الرسالة باللون الأزرق ، وكانت الكلمة الأولى منه مبهمة ؛ فهى :

ربما كانت Via
أو Villa ثم تتلوها الكلمة الثانية واضحة Sezerno
أو حتى Casa

إن للكلمة الثانية جرساً كجرس الأسماء الإيطالية ، وهى تذكرنى بمناقشاتى فى الاشتقاقات اللغوية مع هذا الصديق ، كما أنها تعرب عن غضبى منه إذ مكث هذا الزمن الطويل يحتفظ بعنوانه سرا(٢) . وأما الكلمة الأولى فقد ظهر أن كل احتمال من

(١) [أن يكون الذنب ذنب أوتو بمحقنته المتسخة .]

(٢) [سر = Segreto فى الإيطالية . ويذكر فرويد هذا الحلم مع مزيد من التفصيل فى خطاب إلى فليس – وهو الصديق المشار إليه بتاريخ ٢٨ أبريل ١٧٩٨ . أنظر الخطاب ٦٠ فى فرويد ١٩٥٠ أ .]

احتمالاتها كان نقطة ابتداء تفرعت عنها سلسلة من الأفكار ، نقطة قائمة بذاتها مساوية للآخرين فى صوابها .

وقد حلمت فى خلال الليلة التى سبقت تشييع جنازة والدى بلائحة أو لافتة مطبوعة أشبه ما تكون باللافتات التى تحرم التدخين فى حجرات الانتظار بمحطات السكة الحديدية ، وكتب على هذه اللافتة : المرجو أن تغلق كلا العينين

أو

المرجو أن تغلق إحدى العينين

وهو ما أكتبه عادة فى الصورة الآتية :

المرجو أن تغلق $\frac{\text{كلا}}{\text{إحدى}}$ العينين

إن لكلا هذين النصين معناه المستقل ، وكلاهما يضرب فى اتجاه مستقل حين نشرع فى تفسير الحلم . فقد كنت اخترت لجنازة والدى أبسط الطقوس الممكنة ؛ لأننى كنت أعلم رأى الراحل فى أمثال هذه المراسيم . ولكن هذه البساطة الطهرية[1] لم ترض سائر أعضاء الأسرة : فقد رأوا فى ذلك مجلبة للعار بين المشيعين . ومن ثم جاء فى إحدى القرائتين : « أن تغمض إحدى العينين » أى « أن تغض الطرف » . فالإبهام الذى أعربت عنه « إما — وإما — » يسهل تفسيره هنا بنوع خاص : فعمل الحلم أخفق فى أن يجد لفكرتى الحلم صيغة لفظية موحدة ولكنها مزدوجة المعنى ، ولهذا انشقت فى محتوى الحلم الظاهر سلسلتا الفكر الرئيستان .

هذا ، وهناك حالات قليلة تحل فيها صعوبة تصوير الاحتمال بقسمة الحلم قسمين متساويين فى الطول .

وأما مسلك الحلم بازاء مقولة التضاد والتناقض فسلك يسترعى النظر إلى أبعد مدى : فالحلم لا يزيد على أن يغفل هذه المقولة إغفالا ، أى أنه لا يعرف شيئاً اسمه « كلا » . فهو يبدى إيثاراً خاصاً نحو إدماج الأضداد فى كل واحد أو تصويرها على أنها شىء واحد . وهو — فوق ذلك — يستبيح لنفسه أن يصور أى عنصر من عناصره بوساطة ضده

---

(١) [الطهريون لفظ أطلق على طائفة بروتستانية تتمسك بحرف الكتب المقدسة تمسكا شديدا ، ثم صار يطلق بوجه عام على المتزمتين .]

المرغوب فيه ؛ بحيث يعجز المرء للوهلة الأولى – إذا ورد فى الحلم عنصر يقبل الضد – عن أن يعرف ما إذا كانت أفكار الحلم قد حوت هذا العنصر فى صورة موجبة أم سالبة[١] . وفى أحد الأحلام التى رويناها أخيراً (وهو حلم فسرنا جزأه الأول : « إذ كنت أنتمى إلى مثل هذا الأصل . . . ») رأت الحالمة نفسها تهبط فوق الحواجز وقد حملت فى يدها غصناً مزدهراً . ولقد خطر لها فى صدد هذه الصورة كيف يحمل الملك عوداً من الزنبق فى يده فى صور البشارة إلى مريم (وكانت هى تدعى مريم) ، ثم كيف تسير العذارى فى موكب عيد المسيح [٢] بينا ازدانت الطرق بالغصون الخضر . وهكذا يشير الغصن المزدهر فى الحلم إلى الطهارة الجنسية ، ذلك لا ريب فيه . بيد أن الغصن قد غطته فى الحلم أزهار حمراء تشبه الكاميليا ، ولقد مضى الحلم حتى بلغت الحالمة نهاية مسيرها وإذا الزهر قد ذوى معظمه أو كاد ، ثم تجىء بعد ذلك إشارات إلى الطمث ما فى فهمها من شك. فذات الغصن الذى تحمله الحالمة مثل زنبقة تحملها فتاة طاهرة يلمح فى الوقت عينه إلى غادة الكاميليا ؛ فنحن نعرف عن هذه أنها كانت تحمل كاميليا بيضاء اللون ، إلا وقت الطمث فتحمل حمراء . وذات الغصن المزدهر يمثل الطهارة الجنسية ويمثل ضدها (أنظر « أزهار العذراء » فى أغنية الطحانة عند جوته)[٣]. وذات الحلم الذى يعرب عن فرحها لأنها قد نجحت فى المسير عبر الحياة دون أن تفقد بكارتها يتركنا نلمح فى بعض مواضعه (مثل ذبول الأزهار) وميض أفكار أخرى مضادة ، فحواها استذناب النفس لأنها ارتكبت أنواعاً من الآثام فى حق النقاوة الجنسية (أى ارتكبتها فى

(١) لقد أدهشنى أن أعلم من مؤلف كتبه ك . آبل " تضاد المعنى فى الكلمات القديمة " (١٨٨٤) (وانظر تعليق عليه ، ١٩١٠ ه) – أدهشنى أن أعلم تلك الواقعة التى أيدها لغويون آخرون : أن أعظم اللغات قدما تسلك فى هذا الصدد مسلكا يشبه مسلك الحلم تمام الشبه . فهذه اللغات تملك فى مبدأ الأمر كلمة واحدة تعرب بها عن طرفين متضادين تتدرج بينهما سلسلة من الكيفيات أو الأفعال (مثل : قوى – ضعيف ، عجوز – حدث ، بعيد – قريب ، يربط – يحل) ، ولا تصل إلى حدود متمايزة للأضداد إلا فيما بعد ، بإحداث تغيير طفيف فى الأصل المشترك . ويبرهن آبل على هذه الخاصة استناداً إلى اللغة المصرية القديمة بنوع خاص . ولكننا نستطيع أن نتبين آثاراً واضحة لهذا التطور عينه فى اللغات السامية والإندوجرمانية .

(٢) [عيد يقع فى الخميس الثانى بعد عيد العنصرة وفيه يخرج المسيحيون فى موكب من كنيستهم ثم يطوفون بشوارع البلدة ويعود الموكب إلى الكنيسة .]

(٣) [Der Mullerin Verrath أو " خيانة الطحانة " قصة منظومة لجوته ، جاء فيها أن رجلا قضى ليلة غرام – أو ما ظنه كذلك – مع طحانة جميلة ، فلما أصبح الصباح باغته أهلها بتدبير منها لكى يسألوه الحساب عن " أزهار العذراء " .]

طفولتها) . ولقد أمكن عند تحليل الحلم أن نفرق تفرقة واضحة بين هاتين السلسلتين الفكريتين اللتين بدت أولاهما — تلك التي ترفه — طافية على السطح ، في حين شغلت الثانية — تلك التي تؤنب — طبقة أعمق ، واللتين صور ما بينهما من عناصر متشابهة وإن تكن متقابلة بوساطة ذات العناصر في محتوى الحلم الظاهر .

غير أن هناك علاقة منطقية واحدة تعين ميكانيكية تكوين الحلم على تصويرها إلى أبعد حد ، تلك هي علاقة التشابه أو التوافق أو التقارب ، العلاقة التي يعرب عنها قولنا : « مثل كذا تماماً » . إن هذه العلاقة تجد من تعدد الوسائل في تصويرها ما لا تجده أي علاقة أخرى.[1] فحالات « مثل » أو نظائرها المتضمنة من قبل في مادة الحلم هي الأساس الأول الذي ينبني عليه كل تكوين الحلم ، كما أن جزءاً لا يستهان به من عمل الحلم يقوم في خلق نظائر جديدة من هذا القبيل إذا كانت تلك الموجودة من قبل لا تستطيع النفاذ إلى الحلم بسبب الرقابة . وإن تصوير علاقة التشابه ليسند نزوع عمل الحلم إلى التكثيف .

فالتشابه والتوافق والحصول على محمولات مشتركة ، كل هذه يصورها الحلم بأن يدمج طرفي العلاقة في وحدة إما أن تكون متضمنة من قبل في مادة الحلم وإما تخلق خلقاً جديداً . والاحتمال الأول تجوز تسميته تعيينا ، وأما الاحتمال الثاني فنسميه مزجاً . ويستخدم التعيين حين يتعلق الأمر بالأشخاص ، وأما المزج فحين تكون مادة التوحيد هي الأشياء — وإن جاز أن يقع المزج بين الأشخاص كذلك ، كما أن الأماكن قد تعامل في كثير من الأحيان معاملة الأشخاص .

ونجد في التعيين أن شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يربط بينهم جامع مشترك هو الذي يظهر دون غيره في محتوى الحلم ، بينما يبدو الشخص الثاني أو الأشخاص المتبقون كأنما قمعوا في الحلم[2]. ولكن هذا الشخص الذي يحجب الآخرين يظهر في الحلم بكل العلاقات والمواقف التي تصدق عليه وعلى سائر من يحجب . وأما في المزج — حين

(١) أنظر ملاحظة أرسطو في المواهب التي تلزم من يفسر الأحلام [أنظر ما سبق ص ١٢٧ هـ ٢ .]

(٢) [فكأن هؤلاء الأشخاص قدعينوا بالشخص الظاهر في الحلم ، أي أخذوا صورته وجعلوا إياه وعرفوا به . ويلاحظ ستراشي بحق أن التعيين هنا غير التعيين الذي تحدث عنه فرويد من قبل في ص ١٧٢ . فالتعيين هنا عملية من العمليات التي يجريها المرء على شخصين — أو على شيئين أحيانا — أو أكثر . بينما التعيين هناك هو العملية أو =

يمتد المزج إلى الأشخاص – فتجيء صورة الحلم حاوية على ملامح من هذا الشخص وملامح من ذاك ، ولكنها ليست بالملامح المشتركة بينهما ، بحيث يؤدى التوحيد بين هذه الملامح إلى ظهور وحدة جديدة ، أى شخص مركب . وقد تقع عملية المزج على أنحاء مختلفة : فالشخص الظاهر فى الحلم قد يحمل اسم أحد الشخصين المرتبطين به – وحينئذ نعلم أن المعنى هو هذا الشخص أو ذاك على نحو يماثل كل المماثلة نحو معرفتنا فى اليقظة – بينما تكون ملامحه المرئية هى ملامح الشخص الآخر . أو قد تتركب صورة الحلم المرئية من ملامح يرجع بعضها فى الحقيقة إلى أحد الشخصين ويرجع بعضها الآخر إلى الشخص الآخر . أو قد لا يشارك الشخص الثانى فى صورة الحلم بملامحه المرئية بل بالحركات التى نظهره بها أو الكلمات التى نجعله يفوه بها أو المواقف التى نضعه فيها – وفى هذا النوع الأخير من المزج يأخذ الفرق بين التعيين والمزج فى الزوال . غير أنه قد يحدث أيضاً أن يفشل الحلم فى تكوين مثل هذا الشخص المركب ، وفى هذه الحالة نجد مشهد الحلم ينسب إلى أحد الشخصين بينما لا يخطر الثانى – وهو فى العادة الشخص الأهم – فى هذا المشهد إلا باعتباره حاضراً وحسب . ويصف الحالم هذا الوضع بأن يقول مثلا : كانت أمى أيضاً هناك (شتيكل) . ومثل هذا العنصر فى محتوى الحلم تجوز إذن مقارنته بمخصِّصات الكتابة الهيروغليفية التى لا يراد بها أن تنطق ، وإنما تجعل لكى توضح سائر العلامات[1] .

والعنصر المشترك الذى يبرر توحيد كلا الشخصين أو – بالأحرى – يسببه قد يتمثل فى الحلم وقد يغيب . ولكن القاعدة هى أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركبة إنما يستخدم على التحقيق من أجل تصوير هذا العنصر المشترك . فأنا بدل أن أقول : « إن أ يعادينى وكذلك ب » أبتدع فى الحلم شخصاً مركباً من أ و ب ، أو أتخيل أ وهو يعمل عملا من نوع يخالف ما عرف عنه ويتميز به ب . والشخص الذى أحصل عليه

العلاقة التى بها وفيها يتكون الأنا . فالفرق بين المعنيين على اشتراك اللفظ قد لا يعدله – إذا جاز لنا اللجوء إلى مماثلة مستمدة من مجال الفلسفة – سوى الفرق بين " الفكر " فى الكوجيتو الديكارتى و " الفكر " بمعنى هذه العملية الفكرية أو تلك ، كما يكون فى حل مسألة حساب أو شطرنج أو غيره . وربما كان فى قولنا هناك : " التعيين الذاتى " – بينما نكتفى هنا بأن نقول : " التعيين " وحسب – ما يشير إلى هذا الفارق أو ينبه إليه .]

(١) (Determinativum) – ترجمناه بالمخصصات نقلا عن الدكتور عبد المحسن بكير فى كتابه " اللغة المصرية القديمة فى عصرها الذهبى " .]

بهذه الطريقة أو تلك يخطر لى فى الحلم فى سياق جديد ما ، وإن كونه يومئ إلى أ و ب على السواء ليخول لى الحق فى أن أضع ما هو مشترك بين هذين — وأعنى به موقفهما العدائى نحوى — فى موضعه المناسب من تفسير الحلم . وبهذه الطريقة يتسنى لى فى كثير من الأحيان أن أحقق تكثيفاً خارقاً فى محتوى الحلم : فأنا أستطيع أن أجنب نفسى مؤنة التصوير المباشر لما قد يرتبط بأحد الأشخاص من ملابسات شديدة التعقيد إذا وجدت شخصاً آخر يشاركه بعض هذه الملابسات . ومن السهل كذلك أن نرى كم ينفع هذا التصوير فى مداورة الرقابة الناجمة عن المقاومة ، هذه الرقابة التى تفرض على الحلم شروطاً من الصعوبة بمكان : فالرقابة قد تكون موجهة إلى أفكار معينة ترتبط فى مادة الحلم بشخص دون غيره ، وأنا لذلك ألتمس شخصاً ثانياً يرتبط هو الآخر بهذه المادة المعترض عليها ، ولكن بجزء منها ليس غير ، وعندئذ يخول لى هذا التماس القائم بينهما فى تلك النقطة الخاضعة للرقابة أن أكون من كليهما شخصاً مزيجاً يُخَصُّ بما فى كليهما من سمات لا خطر منها ، وهذا الشخص المتولد عن المزج أو عن التعيين يدرج الآن فى محتوى الحلم حرا من الرقابة ، بينا أكون من جانبى قد أرضيت هذه الرقابة بإعمال التكثيف .

وحيثما يصور فى الحلم عنصر مشترك بين شخصين ، كان ذلك فى العادة بمثابة إشارة تدعونا إلى أن نبحث عن عنصر مشترك آخر مستتر ، حالت الرقابة دون تصويره . أى أن ذلك دليل على أن نقلا قد وقع فيما يتصل بالعنصر المشترك لكى يتيسر تصويره . وعلى ذلك إذا تراءى لى فى الحلم شخص مزيج يحمل سمة مشتركة خالية من الوزن ، حملنى ذلك على أن أستنتج أن ههنا عنصراً آخر مشتركاً بعيداً كل البعد عن أن يكون على هذا الخلو من القيمة .

وبذلك يخدم التعيين وتكوين الأشخاص المزيجة أهدافاً متنوعة فى الحلم : أولها تصوير عنصر مشترك بين شخصين ، وثانيهما تصوير عنصر مشترك أصابه النقل ، ثم الثالث وهو التعبير عن شركة مرغوب فيها ليس غير . وإذ كانت الرغبة فى أن يشترك شخصان فى وجه من الوجوه توافق فى أحيان كثيرة الرغبة فى مبادلة الواحد بالآخر ، كانت هذه العلاقة الأخيرة أيضاً يُعْرَبُ عنها فى الحلم بوساطة التعيين : ففى حلم حقنة إرما أود لو استبدلت بإرما المريضة الأخرى ، أى أننى كنت أود لو قد كانت هذه الأخرى مريضتى مثلما كانت إرما ، والحلم يحسب حساب هذه الرغبة حين يرينى

شخصاً اسمه إرما ولكنه يفحص فى وضع لم يتفق لى قط أن رأيت فيه غير المرأة الأخرى . وفى حلم عمى نصادف تبديلا من هذا القبيل صار هو النقطة الرئيسة فى الحلم : فأنا أعين نفسى بالوزير حين أبدى نحو زميلى مسلكاً وحكماً لا يفضلان مسلك الوزير وحكمه فى شيء [أنظر ص٢١٣] .

ولقد علمتنى خبرة لم أجد لها استثناء أن كل حلم يدور حول الحالم نفسه . فالأحلام على أنانية مطلقة(١) ، وإذا لم يظهر أناى فى محتوى الحلم بل ظهر شخص غريب ، جاز لى أن أفترض وأنا مطمئن أن أناى يكمن مستتراً وراء ذلك الشخص الآخر بوساطة التعيين ، وجاز لى أن أدرج أناى فى السياق . ويحدث فى أحيان أخرى — حين يظهر أناى فى الحلم — أن ينبئنى الموقف الذى يكون فيه ظهوره أن شخصاً آخر يختبئ وراء هذا الأنا بوساطة التعيين كذلك . وعندئذ يجب علىّ الانتباه عند تفسير الحلم إلى أن أحول إلىّ أنا وجه الاشتراك المستتر المنسوب إلى هذا الشخص . وهناك كذلك أحلام يظهر فيها أناى بجانب أشخاص آخرين يتضح مرة أخرى حين نحل التعيين أنهم أناى . ولا بد فى هذه الحالة من أن تكون تلك التعيينات قد مكنتنى من أن أجمع بين أناى وبين تصورات بعينها كانت الرقابة تحول دون قبولها . وهكذا يكون فى مستطاعى أن أصور أناى فى الحلم مرات ومرات ، تصويراً مباشراً تارة ، وبوساطة تعيينه بأشخاص غرباء تارة أخرى. وتعدد أمثال هذه التعيينات يمكن من تكثيف كمية ضخمة من أفكار الحلم(٢) . وإن ورود أنا الحالم فى الحلم مرات متعددة أو فى هيئات مختلفة ليس فى الحقيقة بأعجب من وروده فى أفكارنا الشعورية مرات متكررة وبمواضع مختلفة أو فى علاقات متغايرة — أنظر مثلا هذه القضية : حين أذكر أى طفل صحيح كنتُ(٣) .

وحل التعيينات أسهل فيما يتعلق بأسماء الأعلام الدالة على الأماكن منه فى الأشخاص؛ فهنا يغيب تدخل الأنا الذى يملك على الحلم كل هذا السلطان . وقد حدث فى أحد

(١) أنظر هامش ٢ فى ص ٢٨٥ .

(٢) حينما أشك فى الشخص الذى ينبغى على أن أبحث عن أناى وراءه بين الأشخاص الظاهرين فى الحلم ، أتبع القاعدة الآتية : الشخص الذى تعرض له فى الحلم حالة وجدانية أستشعرها أنا نفسى وأنا نائم — هذا الشخص هو الذى يخفى أناى .

(٣) [لا يغيب عن القارئ أن ضمير المتكلم يظهر فى العبارة الألمانية فى صورة لفظية مستقلة : Ich . فن المعلوم أن اللغة الألمانية شأن الكثير من اللغات الأوروبية الحديثة " تجوهر " الضمير فى صورة لفظية قائمة بذاتها ، بينما هو لا يدل عليه فى لغتنا العربية وفى كثير من اللغات الأخرى إلا بتصريف الفعل .]

أحلامى عن روما (ص٢١٥) أن دعى المكان الذى رايتنى فيه روما ، ولكننى دهشت لكثرة ما رأيت فيه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية على ناصية الطريق . وكانت هذه اللمحة الأخيرة تحقيق رغبة جعلنى أفكر على الفور فى پراج – ولعل الرغبة ذاتها كانت ترجع إلى مرحلة الحماسة القومية الألمانية ، وهى مرحلة مررت بها فى شبابى ثم انطوت . ذلك أننى حين أتيت هذا الحلم كنت أتوقع لقاء صديقى [فليس] عن قريب فى مدينة پراج ؛ وهكذا يعلل تعيين روما وپراج كلا بالأخرى بشركة كانت موضوع رغبة : فأنا أوثر لقاء صديقى فى روما على لقائه فى پراج ، وأود لو بدلت روما بپراج من أجل هذا اللقاء .

فأما القدرة على خلق الأشكال المزيجة فهى أكبر الخصائص التى تضفى على الأحلام هذا الطابع المغرب فى الخيال الذى يكثر اتسامها به . ذلك أن هذه القدرة هى التى تدخل فى محتوى الحلم عناصر ما كانت لتعرض قط لإدراكنا الحسى . ومن الواضح أن العملية النفسية التى تجرى فى أثناء هذا المزج هى التى تقع حين نتخيل كائنا مثل القنطورس أو التنين ، أو حين نرسمه . كل الفرق هو أن النتاج المتخيل فى اليقظة لا يسترشد غير التأثير المستهدف إحداثه من وراء الشكل الجديد ، على حين أن مزيج الحلم محتوم بعامل يخرج عن دائرة خصائصه الشكلية ، وأعنى به العنصر المشترك فى أفكار الحلم . ومن الممكن أن يتحقق المزج فى الحلم على أنحاء تتعدد غاية التعدد . وأقل هذه من حيث مهارة الصنعة هو أن نصور خصائص شىء من الأشياء تصويراً يصطحب بمعرفتك أن هذه الخصائص تنتسب كذلك إلى موضوع آخر . وطريقة أخرى تزيد عن سابقتها عناية ، هى التى تجمع خصائص كل من الموضوعين فى صورة جديدة وتنتفع فى أثناء ذلك انتفاعاً ماهراً بكل ما يمكن أن يوجد فى الواقع من أوجه الشبه بين الموضوعين ، والصورة الجديدة قد تلوح لنا شيئاً تجرد من المعقولية كل التجرد ، وقد تبدو عملا ناجحاً من جانب المخيلة ، على حسب المادة وعلى حسب البراعة المبذولة فى تركيبها . فإذا كانت الموضوعات المراد تكثيفها فى وحدة أخلاطا مبعثرة كل التبعثر ، غلب أن يكتفى عمل الحلم بأن يخلق منها صورة مزيجة ذات نواة متميزة بعض الشىء تصحبها عدة من السمات الأقل تميزاً . وفى هذه الحالة تكون عملية التوحيد فى صورة مفردة كأنما قد باءت بالفشل : فكلا التصورين قد غطى الآخر ، ونجم عن ذلك ما يشبه النزاع بين صورتين بصريتين .

ويستطيع المرء أن ينتهى إلى تصويرات مماثلة إذا هو ابتغى أن يبين فى رسم تـكـوُّن أحد التصورات الكلية من صور المدركات الحسية الجزئية .

والأحلام بالطبع تعج بأمثال هذه الصور المزيجة . ولقد سردت من قبل أمثلة منها عرضت فى الأحلام التى حللتها حتى الآن . وهأنذا ألحق بها أخرى : إذا رجعنا إلى الحلم الذى ذكرته فى ٩ ص ٣٢٥ والذى يصف تاريخ حياة المريضة « بلغة الأزهار » ، رأينا أنا الحالمة يُصوَّر ممسكا فى يد غصنا ناضراً كان يشير — كما رأينا — إلى الطهارة وإلى الخطيئة الجنسية فى آن واحد . وإن الطريقة التى انتثرت بها الأزهار على الغصن قد ذكرت الحالمة — فوق ما سبق — بأزهار الكريز ، وأما الأزهار فى ذاتها — كل على حدة — فتذكرها بالكاميليا ، ثم الكل مجتمعاً يوحى بعد ذلك بنبات من أرض غريبة . ولقد أظهرتنا أفكار الحلم على الجامع المشترك بين عناصر هذه الصورة المركبة : فالغصن المزدهر قد ركب من إشارات إلى هدايا قدمت إليها واكتسب بها مقدموها ودها أو أرادوا اكتسابه : هكذا الكريز فى طفولتها والكاميليا فى مستأنف السنين . وأما النبات الغريب الأرض فيلمح إلى عالم طبيعى كثير الطواف توسل إلى رضاها بزهور رسمها لها . وصنعت مريضة أخرى شيئاً وسطاً بين نجيرة استحمام على شاطىء البحر ومرفقة مياه منعزلة من قبيل ما يوجد فى الريف وحجرة مائلة السقف بأعلى منزل من منازل السكنى فى مدننا : العنصران الأولان يشتركان فى علاقتهما بالتعرى ونزع الملابس ، واقتران العنصر الثالث بهما يجعلنا نستنتج أن حجرة مائلة السقف كانت (والحالمة طفلة) مسرحاً لمشهد من مشاهد التعرى . وهناك مريض صنع مكاناً مركباً من مكانين من الأمكنة التى يقع فيها « Kur » [= علاج وغزل] ، أحدهما غرفة استشارتى والآخر كان الملهى الذى الذى عرف فيه زوجته . وحلمت فتاة بعد أن وعدها أخوها الأكبر بأن يمتعها بالكافيار — حلمت بأن أخاها الأكبر هذا قد تغطت ساقه بحبوب الكافيار الأسود . وهكذا نجد أن العنصر « عدوى » بالمعنى الخلقى — وأن ذكرى بثر ألم بها فى طفولتها فغطى ساقيها ببقع حمراء لا سوداء ، قد اتحدا مع حبوب الكافيار فى تصور جديد ، هو تصور « ما نابها من أخيها » . ولقد عوملت أجزاء الجسم الإنسانى فى هذا الحلم — كما فى غيره من الأحلام — معاملة الموضوعات . وفى حلم رواه فرنتسى وردت صورة ركبت من شخص أحد الأطباء ومن حصان ، ثم بعد ذلك ألبست الصورة قميصاً من قمصان النوم .

وبالتحليل تبين وجه الاشتراك بين هذه العناصر الثلاثة حين عرفت المريضة فى قميص النوم إشارة إلى والدها كما رأته فى مشهد من مشاهد الطفولة . فالأمر يتصل – فى مقومات الحلم الثلاثة – برغبة الحالمة الجنسية فى الاستطلاع ؛ ولقد كانت المريضة تصحب مربيتها فى أحيان كثيرة إلى إصطبل تابع للجيش حيث كان يتاح لها أن تشبع تطلعها الجنسى – ولم يكن مسه الكف بعد – ما أرادت .

وسبق أن قلت [ص ٣١٥] : إن الحلم لا يملك وسيلة ما فى الإعراب عن علاقة التناقض أو التضاد، عن « كلا » . وسآخذ الآن فى مناقضة هذه القضية للمرة الأولى . فهناك طائفة من الحالات التى يمكن أن نعدها حالات « تضاد » تصور فى الحلم بوساطة التعيين ليس غير ، ويكون ذلك على التحقيق – كما رأينا [ص ٣٣٢] – إذا أمكن أن تقترن فكرة التضاد بفكرة المقايضة أو التبديل – ولقد أعطيت أمثلة متكررة على ذلك من قبل . وبين أفكار الحلم طائفة أخرى من الأضداد – يصح إدراجها فى مقولة « القلب أو العكس التام » – تبلغ إلى التمثل فى الحلم بطريقة عجيبة ، حتى لتكاد تستحق وصفها بالتنكيت . و « الضد الذى هو عكس » لا يمثل هو نفسه فى محتوى الحلم ، ولكنه يفصح عن وجوده فى مادة الحلم بالطريقة الآتية : أن يقلب فى محتوى الحلم الذى تم تكوينه جزء اتفق وقوعه لأسباب خارجية على مقربة من هذا الضد كأنما جاء ذلك القلب من بعد . والتمثيل لهذه العملية أسهل من وصفها : خذ مثلا الحلم الجميل – حلم الصعود والنزول المذكور فى ص٢٩٨– تر الحلم يصور الصعود تصويراً يعكس النموذج الماثل فى أفكار الحلم ، أى يعكس مشهد التقدمة فى رواية سافو لدوديه ؛ فهو يتم فى الحلم صعباً فى أوله سهلا فى آخره ، على حين أنه يسهل فى مبدأ ذلك المشهد ثم يصعب شيئاً فشيئاً . ثم « الأعلى » و « الأسفل » فيما يتصل بعلاقة الحالم بأخيه قد صورا أيضاً تصويراً مقلوباً . ولقد كان فى ذلك ما يشير إلى وجود علاقة قلب أو تضاد بين جزئين من أجزاء المادة المحتواة فى أفكار الحلم ، وهى علاقة وجدناها فيما تخيله الحالم من حمل مرضعه إياه على عكس ما يحمل البطل محبوبته فى الرواية . ثم الحلم الذى أرى فيه جوته يهجم على السيد م . (أنظر ما بعد [ص ٤٣٨]) ، أليس يحوى مثل هذا القلب الذى يجب علينا أن نبدأ بعدله قبل أن نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً صحيحاً ؟ لقد هاجم جوته فى الحلم شاباً حديث السن هو السيد م . ، والحقيقة المتضمنة فى أفكار الحلم هى أن رجلا ذا خطر ، صديقى [فليس] ، قد تهجم عليه

مؤلف نكرة حديث السن . وأنا فى الحلم أحسب السنين ابتداء من تاريخ وفاة جوته ، وأما فى الحقيقة فيبدأ الحساب من سنة ميلاد المريض المشلول . والفكرة التى تبين أنها قد كانت القول الفصل فى مادة الحلم كانت المعارضة فى أن يعامل جوته كما يعامل مخبول ، فالحلم كان يقول : « على العكس ، إذا أنت لم تفهم الكتاب فضعيف العقل أنت لا صاحب الكتاب . » ويلوح لى – عدا ذلك – أن جميع أحلام القلب هذه لا تخلو من معنى الازدراء المتضمن فى قولنا : « أدار له ظهره . »[1] (أنظر قلب العلاقة بالأخ فى حلم سافو .[ص ٣٠١]) وخليق بنا أن نلاحظ – فوق ذلك – كيف يكثر استخدام القلب فى الأحلام الصادرة على التحقيق عن دوافع جنسية مثلية مكبوته .

والقلب أو التحويل إلى الضد هو بعد ذلك وسيلة من آثر وسائل التصوير إلى عمل الحلم وأكثرها تنوعاً من حيث أوجه استخدامها . فهو يستخدم أول ما يستخدم فى مساندة تحقيق الرغبة بالنسبة إلى عنصر معين بين العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم . وإن قولنا : « لو أن الوضع انعكس ! » لهو فى كثير من الأحايين أحسن ما يعرب عن استجابة الأنا بالنسبة إلى صفحة أليمة من صفحات الذاكرة . ولكن قيمة القلب تظهر بنوع أخص حين يعمل لخدمة الرقابة ؛ لأنه يحدث مقداراً ضخماً من التشويه فى الأفكار المراد تصويرها ، بحيث نرى فهمنا للحلم وقد شل للوهلة الأولى شلا . ولذلك لم يكن ضير – كلما عَنُدَ الحلم ولم يسلم معناه – فى أن نجرب قلب أجزاء معينة فى محتواه ، وحينئذ لا يندر أن يتضح كل شىء على الفور .

وهناك إلى جانب القلب فى المحتوى المادى قلب آخر ينبغى علينا أن نحسب حسابه ، هو قلب الترتيب الزمنى . فمن الطرق الشائعة فى تشويه الحلم أن تُصور خاتمة حدث أو نتيجة عملية فكرية فى صدر الحلم على حين ترجأ إلى نهايته المقدمات التى بنيت النتيجة عليها أو العلل التى نجم الحدث عنها . وكل من نسى هذه الحيلة الفنية فى تشويه الحلم صائر ولا شك إلى الوقوف فى تفسيره[2] .

---

(١) [Kehrseite ويعنى الظهر والوجه المقلوب للشىء .]

(٢) إن النوبات الهسترية تستخدم أحياناً هذه الطريقة عينها – طريقة قلب الترتيب الزمنى – لكى تخفى معناها عن المشاهد . مثال ذلك فتاة هسترية كانت نوبتها تصور مغامرة غرامية قصيرة تخيلتها فى لا شعورها بعد أن التقت برجل ما فى سكة حديد الضواحى : كيف يجتذب جمال قدمها الرجل فيبادئها بالحديث بينا كانت تقرأ ، وكيف تصحبه هى على أثر ذلك ثم تحيا معه مشهداً غرامياً عاصفاً . كانت نوبتها تبدأ بتصوير هذا المشهد الغرامى

والحق أن هناك حالات لا يكشف فيها المرء معنى الحلم إلا بعد أن يجرى على محتواه قلباً متعدداً ، مختلف الأوجه . مثال ذلك شاب كان يعانى عصاباً قهرياً نرى عنده ذكرى الرغبة الطفلية فى موت الأب المخوف وقد اختفت وراء حلم كان ذلك نصه : يشتمه والده لمجيئه إلى المنزل متأخراً جداً . إن موقع الحلم من سياق العلاج التحليلي ثم مستدعيات الحالم قد بينت أن الأصل يجب أن يقرأ على هذا النحو : أنه — هو — غاضب على والده ، وأن والده كان — فى رأيه — يعود دائماً إلى المنزل مبكراً جداً (أى سريعاً جداً). والحالم كان يؤثر ألا يرجع والده على الإطلاق، وهى رغبة لا تختلف فى شيء من الرغبة فى موت الأب (أنظر ص٢٧١) ، فقد حدث وهو طفل صغير أنه أذنب بعدوان جنسى على طفل آخر فى خلال غيبة موقوتة لأبيه ، فكان عقابه هذا الوعيد : « انتظر حتى يعود أبوك ! »

فإذا أردنا أن نمضى فى دراسة العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم إلى أبعد من هذا المدى فأحسن السبل الآن هى أن نتخذ من الحلم نفسه نقطة بدايتنا ، فنسأل : ما هى الدلالة التى لهذه الخاصة أو تلك من الخصائص الصورية لتصوير الحلم بالنسبة إلى أفكاره الكامنة ؟ وأولى هذه الخصائص التى لا يمكن إلا أن تسترعى نظرنا فى الحلم هى التفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم وتميز أجزاء معينة منه — أو تميز أحلام بأكملها — إذا هى قورنت فيما بينها . والتفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم يشمل سلماً بأجمعه يتدرج من حدة فى الصلك يجنح المرء — وإن يكن بغير حق — إلى وصفها بأنها تفوق الواقع ، إلى غموض محنق نعلن أنه سمة تتميز بها الأحلام لأنه لا يقبل المقارنة الصحيحة بأى درجة من درجات اللاتميز الذى قد ندركه فى الموضوعات الحقيقية . يضاف إلى ذلك أننا فى العادة نصف الانطباع الذى نتلقاه من موضوع غير متميز من موضوعات الحلم بقولنا إنه انطباع « سريع المرور » بينما يخيل إلينا أن صور الحلم المتميزة قد تعرضت لإدراكنا زمناً أطول . وسؤالنا الآن هو : أى شروط فى مادة الحلم تجلب هذا التفاوت فى الشدة الحسية بين مختلف أجزاء الحلم ؟

بوساطة تشنجاتها الجسمية (وكانت فى خلالها تحرك شفتيها تصويراً للقبل ، وتبسط ذراعيها تصويراً للعناق) ، ثم بعد ذلك تندفع إلى الغرفة المجاورة وتجلس على مقعد وترفع رداءها حتى يظهر قدمها بينما تتصنع قراءة كتاب ، ثم بعد ذلك تتحدث إلى (أى تجيبنى) . وبهذه المناسبة أنظر ملاحظة آرتميدوروس : « على المرء حين يفسر الأحلام أن يستعرضها من البداية إلى النهاية ، ثم مرة أخرى من النهاية إلى البداية . . . »

إن علينا فى هذا الموضع أن نناقش أولا عدة من المظان لا يكاد يكون مفر من تواردها على الذهن . فإنه إذا كانت مادة الحلم تضم إحساسات حقيقية نشعر بها أثناء النوم، فأغلب الظن أننا سنفترض مقدماً أن هذه الإحساسات أو عناصر الحلم المستمدة منها تحظى فى محتوى الحلم بشدة خاصة ، فإذا عكسنا هذه القضية خرج أن ما يبدو فى الحلم ذا شدة حسية خاصة لا بد راجع إلى مثل هذه الإحساسات الحقيقية الحادثة فى خلال النوم . غير أن خبرتى الخاصة لم تؤيد هذا القول قط . فليس من الصحيح أن عناصر الحلم المستمدة من إحساسات النوم الحقيقية (أى من المنبهات العصبية) تمتاز بشدة خاصة دون غيرها من العناصر الناشئة عن الذكريات : إن عامل الواقع صفر فى تحديد شدة عناصر الحلم . .

وقد يظن المرء بعد ذلك أن هناك علاقة بين الشدة الحسية التى لمختلف صور الحلم (وأعنى حدتها) وبين الشدة النفسية التى للعناصر المقابلة لها فى أفكار الحلم . وفى هذه الحالة تكون الشدة الحسية مطابقة للقيمة النفسية : فأعلى العناصر شدة هى أيضاً أهمها، تلك التى تكون النقطة الرئيسية فى أفكار الحلم . نعم ، إننا نعلم أن هذه العناصر بالذات لا تلقى فى معظم الأحيان قبولا فى محتوى الحلم بسبب الرقابة ، ولكن من الجائز مع هذا أن تعزز مشتقاتها المباشرة التى تنوب عنها فى الحلم بدرجة مرتفعة من الشدة ، دون أن تصير لذلك بالضرورة مركز الحلم . غير أن هذا التوقع يخيب بدوره عند البحث المقارن بين الحلم الظاهر ومادته الأصلية ؛ فما من علاقة بين شدة العناصر هنا وشدتها هناك ، وإنما الحق أن « انقلاباً تاماً فى جميع القيم النفسية » [بتعبير نيتشه الذائع] قد وقع بين مادة الحلم والحلم . فما يشغل بين أفكار الحلم مكاناً يظهر به على سواه ، قد لا تكتشف فى أحيان كثيرة نائبه الأوحد فى الحلم إلا فى عنصر عارض طغت عليه صور أقوى حتى حجبته .

إن الحقيقة هى أن شدة عناصر الحلم تحدد من طريق مختلف ، يحددها عاملان مستقلان كل عن الآخر . فمن السهل أن نرى — أولا — أن هذه العناصر التى يفصح تحقيق الرغبة عن نفسه بوساطتها تصور فى الحلم تصويراً ذا شدة خاصة ، والتحليل ينبئنا — ثانياً — أن عناصر الحلم ذات الشدة الحسية الأعلى هى التى تخرج منها أيضاً أكثر المستدعيات ، أى أن هذه العناصر الأشد هى فى الوقت عينه أكثر العناصر حتما .

ولسنا نغير معنى هذه القضية الأخيرة المقامة على التجربة إذا نحن صغناها فى الصورة الآتية : تتناسب شدة عناصر الحلم مع مقدار العمل التكثيفى الذى بذل فى تكوينها . ولنا أن نتوقع أن يكون الإعراب فى صيغة واحدة عن هذا الشرط وعن سابقه الخاص بتحقيق الرغبة أمراً يدخل فى حيز الإمكان .

وأنبه هنا إلى أن المشكلة التى كنت أعالجها الآن – وأعنى بها علل التفاوت فى الشدة أو الوضوح بين عناصر الحلم المتفرقة – يجب ألا تخلط بمشكلة أخرى ، هى مشكلة التفاوت فى الوضوح بين أحلام بأكملها أو فقرات من أحلام. فالوضوح فى الحالة الأولى ضد الغموض ، وأما فى الحالة الثانية فهو ضد التشوش . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن درجات التفاوت فى هاتين الكيفيتين تصعد وتنزل معاً فى كلا السلمين : فإذا بدت إحدى فقرات الحلم خالية من التشوش كانت فى الأغلب مشتملة على عناصر شديدة،وأما الحلم المختلط فيتكون على العكس من عناصر ضعيفة فى الشدة . ومع هذا فالمشكلة التى تواجهنا فى حالة التدرج من الوضوح الظاهر إلى التشوش والغموض أعقد كثيراً من مشكلة التفاوت فى درجات الشدة الحسية بين عناصر الحلم،بل الحق أن المشكلة الأولى مشكلة تمتنع على المناقشة هنا لأسباب سوف تتبين فيما بعد [ص ٤٦٩] . هذا ، ويتفق أحياناً أن نكتشف لفرط دهشنا أن إحساسنا بوضوح الحلم أو بتشوشه لا يمت بسبب إلى صنعة هذا الحلم ، بل هو صادر عن مادة أفكار الحلم وجزء من أجزائها : مثال ذلك أنى أذكر حلماً بدا لى حين استيقظت حسن الصنعة ، خالياً من الثغرات ، واضحاً ، حتى أننى عقدت العزم وأنا لم أزل فى سكرة النوم على إدخال مقولة جديدة من الأحلام لا تخضع لميكانيكيات التكثيف والنقل بل يحق وصفها بكونها « تخييلات فى أثناء النوم » ، فلما أنعمت النظر تبين أن هذا الحلم النادر كان فيه من خلل الصنعة وركاكتها مثل ما فى سواه ، ولهذا تركت مقولة الحلم التخييلى[1]. كان مضمون هذا الحلم – بعد أن انتهيت إليه – هو أننى أدلى إلى صديقى [فليس] بنظرية عويصة طال التنقيب عنها فى الثنائية الجنسية ، وكانت قوة الحلم على تحقيق الرغبة هى المسئولة فى أن بدت هذه النظرية (ولم تكن قد ذكرت فى الحلم) واضحة خالية من الثغرات . وهكذا فما حسبته حكماً على الحلم المنهى كان فى الحقيقة جزءاً من محتوى الحلم وأهم جزء . وكأن عمل الحلم هنا قد امتد

(١) [١٩٣٠ :] ولست أدرى اليوم أمصيب أنا أم مخطىء .

إلى بواكير أفكارى المستيقظة فقدم لى فى صورة الحكم على الحلم هذا الجزء من مادة الحلم الذى لم يستطع النجاح فى تصويره فى الحلم تصويراً وافياً . ورأيت مرة حلماً يوازن حلمى هذا تماماً الموازنة عند مريضة رفضت أن تقص حلماً كان يلزم تحليله رفضاً قاطعاً بحجة أنه « غامض جداً مختلط جداً » ، ثم ذكرت بعد لأى وهى تكرر احتجاجها هذا أن الحلم قد ضم أشخاصا كثيرين : هى وزوجها ووالدها ، ولم تكن تعلم إذا كان زوجها هو والدها ، أو من والدها على الحقيقة ، أو شىء من هذا القبيل . فلما قرن هذا الحلم بخواطرها أثناء الجلسة، اتضح بما لا يرقى إليه الشك أن الأمر يتعلق بتلك القصة الشائعة بين أحداث كل يوم : قصة الخادم التى تضطر إلى الاعتراف بأنها تنتظر وليداً ولكنها لا تعلم « من هو الوالد (والد الطفل) على الحقيقة ».[1] والغموض الذى أبداه الحلم كان إذن – فى هذه الحالة أيضاً – جزءاً من المادة التى أثارت الحلم ، أى أن بعض هذه المادة قد تمثل فى الصورة التى اتخذها الحلم : إن الصورة التى يبدو الحلم عليها أو الصورة التى يحلم بها تستخدم فى تصوير مادة الحلم الكامنة استخداماً شائعاً إلى درجة تبعث على الدهش .

والتعليقات التى نعلق بها على الحلم والملاحظات الظاهرة البراءة التى تعن لنا فى صدده – كل هذه أيضاً يكثر استخدامها فى إخفاء جزء مما نحلم به – وإن كان الأصدق بالطبع أنها تفضحه – بطريقة هى غاية فى اللطافة . مثال ذلك أن يقول حالم : إن الحلم قد انمسح فى هذا الموضع ، ثم إذا التحليل يسوق إلى ذكرى طفلية فحواها أن الحالم قد تجسس مرة على شخص كان يمسح نفسه بعد التبرز . وها هو ذا مثال آخر يستحق أن نذكره مفصلا : فقد حلم شاب حلماً واضحاً غاية الوضوح ذكره بتخييلات من صباه ظلت محفوظة فى شعوره ، وكان مؤدى الحلم أنه قد رأى نفسه ساعة المساء فى فندق فى مصيف وأخطأ رقم غرفته فدخل غرفة وجدبها سيدة وابنتها ، وكن جميعاً ينتزعن ثيابهن تأهباً للنوم ، ويمضى الحالم قائلا : « وهنا تخللت الحلم ثغرات ، هناك شىء ناقص ، وأخيراً أرى فى الحجرة رجلا يريد أن يلقى بى خارجها فأضطر إلى مصارعته . » ويجهد الحالم فى غير طائل لكى يتذكر ما هو هذا التخييل الصبيانى الذى كان واضحاً أن الحلم يلمح

(١) أعراض هسترية مصاحبة عند هذه المريضة : انقطاع الطمث ثم انقباض شديد كان هو شكاتها الرئيسة .

إليه ولكى يتذكر مرماه ، وأخيراً يتضح أن ما نبحث عنه قد أُعطيناه ، أعطتنا إياه تلك الملاحظة عن جزء الحلم غير المتميز : فإن « الثغرات » هى الأعضاء التناسلية للنسوة المتأهبات للنوم و « هناك شيء ناقص » تصف السمة الرئيسية لأعضاء التناسل عند الأنثى . وقد كان المريض يتحرق فى صباه تطلعاً إلى رؤية أعضاء المرأة ، وكان لم يزل ينزع إلى الأخذ بتلك النظرية الجنسية الطفلية التى تنسب إلى المرأة عضواً مذكراً .

ويلبس حالم آخر إحدى ذكرياته المماثلة صورة جد مشابهة ، فيحلم : أذهب مع الآنسة ك . فى مطعم فولكس جارتن . . . ، هنا تأتى فقرة مبهمة ، قَطْع . . . ، أرانى بعد ذلك فى بهو منزل من منازل البغاء حيث أرى امرأتين أو ثلاثاً ، إحداهن فى قميص ولباس . »

التحليل : إن الآنسة ك . هى ابنة رئيسه السابق وهى تقوم مقام أخت بديلة — كما يسلم هو بذلك . ولم تكن الفرصة قد سنحت له بالتحدث إليها إلا لماما ، ولكن وقع مرة أن دار بينهما حديث « كان كأنما كنا نعترف فى أثنائه لأنفسنا بكياننا الجنسى ، كأنما كنت أقول لها : إننى رجل وأنت امرأة » . وهو لم يدخل هذا المطعم إلا مرة واحدة مع أخت صهره — وهى فتاة يستوى أمرها فى نفسه . وحدث مرة أخرى أنه صحب ثلاث سيدات إلى هذا المطعم ، وكن أخته وأخت زوجها التى ورد ذكرها ثم زوجة أخيه [وبالترجمة الحرفية : أخته بالمصاهرة] . وثلاثهن يستوين عنده إلى أقصى مدى ، بيد أن ثلاثهن يدخلن فى مقولة « الأخت » . فأما منزل البغاء فكان لم يطرقه الحالم إلا نادراً ، مرتين أو ثلاث مرات فى حياته .

ولقد بنى التفسير على « الفقرة المبهمة » وعلى « القطع » اللذين عرضا فى الحلم ، وكانت فحوى التفسير هى أن الحالم فى تطلعه الصبيانى قد استكشف أحيانا — وإن تكن بالنادرة — أعضاء أخته التى تصغره بأعوام قلائل . وبعد ذلك ببضعة أيام تذكر الحالم هذا الجرم الذى أومأ إليه الحلم تذكراً شعورياً .

وجميع الأحلام التى ترد فى الليلة الواحدة يؤلف محتواها جزءاً من كل واحد . وإن انقسامها أقساماً متعددة وكذلك عدد هذه الأقسام ونحو تجمعها — كل هذا أمر له معناه ويجوز لنا أن نعده إفادة منبعثة عن أفكار الحلم الكامنة . فمن الواجب حين نفسر أحلاماً تتكون من أقسام رئيسة أو حين نفسر — بوجه أعم — أحلاماً وقعت فى خلال

الليلة عينها ، من الواجب ألا ننسى إمكانية أن تكون أمثال هذه الأحلام المنفصلة المتعاقبة ذاتَ معنى واحد ، وأنها ربما كانت تعرب عن ذات الاندفاعات بمواد مختلفة . فإذا كان الأمر كذلك ، غلب أن يكون أول هذه الأحلام المتناظرة أكثرها تشويها واستحياء ، بينا تزيد اللاحقة ثقة وتميزاً .

ومن هذا القبيل حلم فرعون فى التوراة ، حلم السنابل والبقرات الذى فسره يوسف . لقد روى يوسيفوس (تاريخ اليهود القديم ، الكتاب الثانى ، الفصلان الخامس والسادس) هذا الحلم فى تفصيل يزيد على ما ورد فى التوراة . فقد جاء عنده أن فرعون بعد أن قص حلمه الأول . قال : « وبعد أن رأيت هذه الرؤيا استيقظت ، وهأنذا مبعثر النفس أتدبر ما عساه يعنى هذا الطائف ، ثم عدت إلى النوم فرأيت حلما ثانياً أعجب من سابقه ، روعنى وبث الاضطراب فى نفسى أكثر مما فعل الأول . . . » فلما سمع يوسف رواية الملك أجاب : « هذا الحلم معناه واحد، أيها الملك، وإن تراءى فى صورتين . . . »

ويصف يونج فى بحثه « مقال فى سيكولوجية الإشاعة » كيف حلمت تلميذة حلماً عشقيا مستخفياً ففهمته قريناتها من غير تفسير ما ، ثم أخذنه عنها ووسعن منه وحرفن فيه ، وهو يلحظ فى صدد إحدى روايات هذا الحلم : « أن الفكرة الأخيرة فى سلسلة طويلة من صور الحلم تتضمن على التحقيق هذا الذى حاولت الصورة الأولى تصويره . فالرقابة تعمل على دفع المركب [الفكرى الانفعالى] أطول زمن ممكن بسلسلة لا تنقطع من الستائر الرمزية والنقل والأقنعة البريئة . . . الخ . » (١٩١٠ ب) . ولقد عرف شرنر هذه الخاصة فى تصوير الحلم حق المعرفة ، وهو يصفها – ناظراً إليها من وجهة نظره فى التنبيه العضوى – باعتبارها قانونا كلياً ، فيقول (١٨٦١ ، ١٦٦) : « والمخيلة أخيراً تتبع قانوناً عاماً فى جميع أبنية الحلم الرمزية الناشئة عن منبهات عضوية معينة ؛ فهى فى مبتدأ الحلم لا تلمح إلى الموضوع الذى يصدر عنه التنبيه إلا أبعد التلميح وأقله تحرياً للحقيقة ، ولكنها تضطر فى النهاية إلى أن تظهر المنبه إظهاراً سافراً ، هو أو العضو المعرض له أو وظيفة هذا العضو ، على حسب الأحوال ، وبذلك يبلغ الحلم – وقد عيَّنَ على علته العضوية – نهايته . . . »

ولقد أتى أوتو رانك فى بحثه « حلم يفسر نفسه بنفسه » (١٩١٠) بما يؤيد قانون شرنر هذا تأييداً بديعاً . فهو يروى حلماً لفتاة تكون من حلمين جاءا فى ليلة واحدة مع

فاصل زمنى ، وانتهى ثانيهما بالإنعاظ . وكان من الممكن تفسير هذا الحلم الثانى تفسيراً مفصلا بدون مشاركة كبيرة من جانب الحالمة ، وكانت كثرة العلاقات بين محتوى الحلمين تمكننا من أن نرى أن الحلم الأول كان يعرب فى استحياء عما أفصح عنه الحلم الثانى ، بحيث أعان الحلم الثانى – الحلم الذى انتهى بالإنعاظ – على استجلاء الحلم الأول استجلاء كاملا . ويستخدم رانك هذا المثال بحق فى مناقشة المغزى الذى لأحلام الإنعاظ أو الإمناء بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة .

بيد أن خبرتى قد دلت مع ذلك على أننا لا نستطيع إلا فى حالات نادرة أن نفسر وضوح الحلم أو اختلاطه بما تتضمنه مادته من الثقة أو التردد وسأكشف فيما بعد عن عامل فى تكوين الحلم لم أذكره حتى الآن ، على فعله يتوقف تدرج الحلم بين هاتين الكيفيتين توقفاً جوهريا . [أنظر ص ٤٩٦ .]

ويحدث أحياناً بعد أن يدوم فى الحلم فترةً موقف ومنظر معينان أن يطرأ انقطاع يوصف بتلك الكلمات : « وعندئذ تغير المكان فصار كأنه مكان آخر فى الوقت عينه ، وهناك وقع كذا وكذا . » وبعد برهة يتصل السياق الرئيس للحلم ، ويتضح أن ما قد قطعه على هذا النحو إنما كان جملة شرط محتواة فى مادة الحلم ، فكرة اعتراضية – فالحلم قد أعرب عن الشرط المتضمن فى أفكار الحلم بالمزامنة . أى أن « إذا » قد انقلبت إلى إلى « بينما » .

وما معنى هذا الإحساس بالحركة المكفوفة الذى يشيع فى الأحلام كل هذا الشيوع ويقرب من الهيلة كل هذا القرب ؟ يريد المرء المشى لكنه لا يتحرك من موضعه . أو يريد أن يبلغ شيئاً من الأشياء فيصطدم بالعقبة تلو العقبة . القطار يؤذن بالحركة وهو لا يستطيع الوصول إليه ، أو هو يرفع يده ليثأر الإهانة ، فإذا يده عاصية ، الخ . إنه إحساس قد صادفناه من قبل عند التحدث عن أحلام الاستعراض [ص٢٥٩] ، ولكننا لم نعمل بعد على تفسيره عملا جدياً . قد نجيب بأن شلل الحركة يسود عند النوم وأن هذا الشلل هو ما نشعر به حين نستشعر هذا الإحساس . وإنه لجواب سهل ، لكنه غير كاف . فإن لنا أن نسأل : إذا كان الأمر كذلك فلم لا نحلم دوماً بأشباه هذه الحركة المكفوفة ؟ لأحرى بنا أن نفترض أن هذا الإحساس الذى قد ينبعث فى كل وقت من أوقات النوم إنما يخدم هدفاً بعينه من أهداف التصوير ، وأنه لا ينبعث فعلا إلا حين تكون بمادة

الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده .

و « العجز عن كل فعل » لا يظهر دائماً فى صورة الإحساس ، بل إنه فى بعض الأحيان قد يكون جزءاً من محتوى الحلم ليس غير . وأمثال هذه الحالات صالحة فى رأيى تمام الصلاحية لأن تلقى بعض الضوء على معنى هذه السمة من سمات الحلم . وها هى ذى خلاصة حلم ظاهرة أننى أتهم بالحيد عن الأمانة : المكان مزيج من مصحة خاصة ومن محال أخرى متعددة . يظهر خادم يستدعينى لأن هناك فحصاً يراد إجراؤه . أعلم فى الحلم أن شيئاً قد فقد وأن الفحص مرجعه الارتياب فى أن أكون استوليت على الشىء المفقود . (يتبين من التحليل أن للفحص معنيين وأنه يشمل الفحص الطبى .) أصحب الخادم فى هدوء وأنا شاعر ببراءتى و بما لى من مكانة الطبيب فى هذه المصحة . يظهر خادم آخر بأحد الأبواب ويقول وهو يشير إلى : لماذا أحضرته ؟ إنه شخص محترم . أذهب بعد ذلك غير مصحوب إلى قاعة كبرى نصبت فيها آلات تذكرنى بالجحيم و بما يحتويه من عدد العقاب الجهنمية . أرى أحد زملائى وقد مد على عدة من هذه العدد . كان هذا الزميل يملك أكثر من سبب يدعوه إلى أن يشغل بأمرى ، بيد أنه لا يلتفت إلى . يقال لى عندئذ : إننى أستطيع المضى لشأنى ، ولكننى لا أجد قبعتى وأظل عاجزاً عن الذهاب .

من البين أن تحقيق الرغبة فى هذا الحلم يقوم فى كونى قد عرفت بريئاً يجوز له المضى لشأنه . ولا بد إذن أن أفكار الحلم كانت مشتملة على مادة من كل نوع حوت نقيض ذلك . فأن يجاز لى الانصراف تلك علامة التبرئة . فإن كانت نهاية الحلم تجىء بحدث يعوقنى عن الذهاب ، لم يبعد أن تكون هذه سمة يفصح فيها النقيض المكبوت عن نفسه . وعجزى عن العثور على القبعة يعنى بناء على ذلك : لستَ رجلا بريئا بعد . وما يظهر فى هذا الحلم من « عجز عن كل فعل » هو إذن إعراب عن المناقضة ، إعراب عن « كلا » ، بحيث يحق علينا الآن أن نصحح ما قدمناه من قبل أن الحلم لا يملك الإفصاح عن النفى [1] . [أنظر ص ٣٢٨ .]

(١) تضمن التحليل الكامل الحلم إشارة إلى خبرة من خبرات الطفولة جاءت من ذلك الطريق : " لقد أدى المغربى واجبه ، فنى استطاعة المغربى أن يمشى لشأنه . " [ينبه ستراشى إلى أن هذا السطر — وهو لشيلر — قد ذكر هنا محرفا ؛ فقد جاء فى الأصل " أدى عمله " لا واجبه .] ثم يتبع هذا السؤال المازح : كم كان عمر المغربى حين أدى واجبه ؟ سنة واحدة ما دام كان يستطيع المشى . (ويبدو أننى قد ظهرت إلى الدنيا بشعر أسود كث حتى ان أمى قد لقبتنى بالمغربى الصغير) . — وأما العجز عن العثور على القبعة فكان حدثا من أحداث اليوم السابق استغله الحلم فى أكثر من معنى ؟ ذلك أن خادمتنا — بعبقريتها فى حفظ الأشياء — كانت قد أخفت تلك القبعة عن نظرى . — كذلك تتضمن نهاية الحلم اطراح بعض الأفكار السوداء المتصلة بالموت : إننى لا أزال بعيداً من أكون قد أديت واجبى ، ومن حق إذن ألا أذهب بعد . فالحياة والموت يعالجان فى هذا الحلم كما هو الشأن فى حلم جوته والمشلول الذى جاءنى قبل ذلك بزمن قصير (أنظر ص ٣٣٦ ثم ص ٤٣٨)

وأما الأحلام الأخرى التى يظهر فيها العجز عن الحركة فى صورة إحساس وليس فى صورة موقف وحسب – فتعرب عن ذات التناقض إعراباً أقوى : فى صورة إرادة تقاومها إرادة مضادة. وإحساس الحركة المكفوفة يمثل إذن صراعاً فى الإرادة. [أنظر ص ٢٦٣ .] ذلك أننا سوف نعلم [ص ٥٥٦] أن ما يصحب النوم من شلل الحركة هو على التحقيق أحد الشروط الأساسية للعمليات النفسية الحادثة فى أثناء الحلم . وإن انتقال دافع من الدوافع إلى المسارات الحركية ليس شيئاً آخر سوى الإرادة ويقيننا بكوننا لن نحس هذا الدافع فى خلال النوم إلا مكفوفاً هو الذى يجعل العملية فى جملتها صالحة كل هذه الصلاحية الفائقة لتصوير فعل الإرادة وتصوير « كلا » التى تناهضه . ومن السهل أيضاً أن نرى فى ضوء تفسيرى للهيلة لم كان الإحساس بكف الإرادة يقرب كل هذا القرب من الهيلة ولم غلب اقترانه بها فى الأحلام ، فإن الهيلة دافع يبدى أصله فى اللاشعور وكفه ما قبل الشعور[1] . وعلى ذلك ، حيثما ارتبط الكف بالهيلة فى الحلم فلا بد أن الأمر يتعلق بإرادة كانت قادرة فى زمن ما على توليد الليبيدو ، أى بهائج جنسى .

وسأتعرض فى موضع آخر (أنظر ما بعد [ص٤٨٥]) لهذا الحكم الذى كثيراً ما يظهر أثناء الحلم فى تلك العبارة : « ما هذا إلا حلم » ، وسأناقش عندئذ معنى هذا الحكم والقيمة النفسية التى يجب أن نعزوها إليه . ولكننى أستبق الأمور فأقول : إن هذا الحكم يهدف إلى التهوين من قيمة ما نحلم به . وقد أمكن شتيكل بتحليل بعض الأمثلة المقنعة أن يجد حلا شبيهاً بذلك لمشكلة أخرى ، ممتعة ، قريبة من مشكلة هذا الحكم ، وأعنى بها : ما الذى نعرب عنه حين نصف محتوى الحلم بأنه « قد حلمنا به » فى غضون الحلم نفسه ؟ أى مشكلة « الحلم فى الحلم » . فالمقصود مرة ثانية هو حط قيمة هذا الذى « نحلم به » ، سلبه حقيقة ؛ فما نتابع الحلم به بعد أن نستيقظ من « الحلم المندرج فى الحلم » هو ما تهدف رغبة الحلم إلى استبداله بحقيقة ممحوة ، ولذلك جاز لنا أن نفترض أن « المحلوم به » فى الحلم هو الذى يصور الحقيقة ، هو الذكرى الصادقة ، وأما الحلم المحيط به فلا يصور على العكس سوى رغبة الحلم وحدها . فأن تدرج محتوى ما فى « حلم فى حلم » يعدل رغبتك فى لو أن الجزء الموصوف بأنه حلم لم يقع قط . وبعبارة أخرى : إذا أورد عمل الحلم حدثاً بعينه على أنه حلم فى حلم ، كان ذلك أقطع الأدلة على كون هذا الحدث قد وقع حقيقة وأقوى إثبات لذلك . فعمل الحلم يتخذ الحلم كصورة من صور التنصل وهو بذلك يؤيد ما قد حدسناه من أن الحلم تحقيق رغبة .

د

اعتبار قابلية التصوير

لقد شغلنا حتى الآن ببحث الطريقة التى يصوربها الحلم العلاقات القائمة بين أفكار الحلم ، ولكننا فى هذه الأثناء قد لمسنا أكثر من مرة تلك المشكلة الأخرى : ما هو التغيير الذى يصيب مادة الحلم بوجه عام من أجل تكوين الحلم ؟ فنحن نعلم الآن أن ثمت ضغطاً يصيب مادة الحلم بعد أن تجرد من جزء كبير من علاقاتها ، على حين تجرى فى الوقت عينه نقلات من حيث الشدة بين عناصر هذه المادة ، نقلات تحدث بالضرورة انقلاباً فى قيمها النفسية . والنقلات التى نظرنا فى أمرها حتى الآن قد اتضح أنها تتلخص فى أن تستبدل بفكرة معينة فكرة أخرى تقرب منها فى التداعى على نحو من الأنحاء ، ثم هى — أعنى هذه النقلات — كانت تسخر فى خدمة التكثيف ؛ فبوساطتها كان ينفذ إلى محتوى الحلم عنصر متوسط مشترك بين عنصرين بدل هذين العنصرين جميعاً . ولكننا لم نذكر بعد على الإطلاق نوعاً آخر من النقل مع أن التحليل يرينا أن هذا النوع الآخر موجود ، وأنه يبين عن نفسه فى تبديل التعبير اللغوى عن الأفكار . ففى كلتا الحالتين يتعلق الأمر بنقل يتم على طول سلسلة المستدعيات ، ولكن ذات العملية تقع فى منطقتين نفسيتين مختلفين ، فيكون حاصل هذا النقل — فى حالة — أن يحل عنصر محل عنصر آخر ، على حين يقع — فى الحالة الأخرى — أن يستبدل عنصر بمنطوقه اللفظى منطوقاً آخر .

هذا النوع الثانى من النقل الذى يقع عند تكوين الحلم لا يملك أهمية نظرية رفيعة وحسب ، بل هو — فوق ذلك — مؤهل تأهيلا فريداً لأن يعلل ما يستخفى وراءه الحلم من مظهر اللامعقولية الخيالية . ذلك أن هذا النقل يؤدى فى العادة إلى تلك النتيجة : أن تستبدل بعبارة تعرب عن إحدى أفكار الحلم إعراباً فاقد اللون مجرداً عبارة أخرى مشبهة عيانية[1] . ومزية هذا الاستبدال — ومن ثم بغيته — واضحة كل الوضوح :

(١) [المراد بالعيانى ضد المجرد ، والعبارة المشبهة هى تلك التى تخلع على الفكرة شبهاً محساً ، ضد العبارة المجردة . وفى باب العبارة المشبهة تدخل معظم الاستعارات وضروب المجاز المرسل والكناية] .

فما هو مشبه قادر على أن يُصَوَّر فى الحلم ، قابل لأن يدرج فى موقف من المواقف . بينما التعبير المجرد يواجه التصوير الحلمى بصعوبات تشبه ما يواجه الرسام عند تصوير المقال السياسى الافتتاحى بإحدى الصحف . ولكن قابلية التصوير لا تخرج وحدها غانمة من هذا الاستبدال ، بل يمكن التكثيف والرقابة أن يخرجا منه كذلك بما يخدم مآربهما . ففكرة الحلم تظل غير قابلة للاستخدام ما بقيت فى عبارة مجردة ، ولكنها ما أن تصاغ فى لغة مشبهة حتى يتيسر عن ذى قبل أن تظهر بين التعبير الجديد وبين سائر مادة الحلم نقط التماس والعينيات [١] التى يقتضيها عمل الحلم ويخلقها خلقاً حين لا تكون موجودة من قبل ؛ وذلك لأن الحدود العيانية فى كل لغة أثرى مستدعيات بحكم تطورها من أسماء التصورات المجردة . وفى وسعنا أن نتصور أن جزءا كبيراً من العمل الذى يتم أثناء تكوين الحلم — مستهدفاً رد أفكار الحلم المتفرقة إلى تعبير حلمى يكون على أكثر ما يمكن من الوحدة والاختزال — إنما يتأدى بإدخال تعديل لفظى ملائم فى العبارة عن كل فكرة من أفكار الحلم . فإن اتفق فى خلال ذلك أن كانت هناك فكرة ثبت منطوقها ورسخ لسبب من الأسباب ، كان لهذه الفكرة أثرها فى اختيار صيغ التعبير الممكنة عن سائر الأفكار وفى تحديدها ، وربما كان ذلك منذ البدأ على نحو ما يقع فى قرض الشعر ؛ فإن القصيدة إذا التزمت القافية غل كل بيت فيها تاليه بقيدين : أن يعبر عن معناه تعبيراً مناسباً وأن يجىء هذا التعبير متمشياً مع القافية ، وأحسن القصائد بالطبع ما لا تلحظ فيه العمد إلى القافية بل تجىء الفكرتان وقد اختارت كل انفسها منذ البدء — بتأثير متبادل — صورة لفظية لا يحتاج الاحتفاظ بالقافية بعدها إلا إلى القليل من الإعمال .

وهناك بضع حالات نرى فيها استبدال العبارة المشبهة بالمجردة يساند التكثيف الحلمى من طريق أكثر بعد مباشرة : وذلك حين يفضى هذا الاستبدال إلى صيغة لفظية تحمل من ازدواج المعنى ما يؤهلها للإعراب عن أكثر من فكرة واحدة من أفكار الحلم . وعلى هذا النحو يدخل عالم النكات اللفظية بأجمعه فى متناول عمل الحلم ويسخر لأغراضه .

---

(٢) [نريد بالعينية العلاقة التى تكون بين حدين كل منهما هو الآخر . ولقد سمينا الفعل الذى يقيم هذه العلاقة « التعيين » identifizierung (أنظر الهامش الذى فى ص ١٧٢) ولهذا سمينا العلاقة نفسها « العينية Identitat » ولم نقل « الذاتية » كما جرت العادة فى المنطق لتجنب الخلط أولا ثم لأن الشائع فهمه من الذاتية هو كون الحد هو هو نفسه ؛ فالذاتية إن شئت عينية بين الحد وذاته لا بينه و بين غيره ، أو هى عينية مجردة ، تكرار أجوف ، لا تتضمن الغيرية فى ذاتها .]

وما لنا أن نعجب للنصيب الذى تشارك به الكلمة فى تكوين الحلم ؛ فالكلمة من حيث هى معقد أفكار كثيرة قد قدر عليها – إن جاز التعبير – الاشتراك[1] ، وإن الأعصبة كالأفكار (القهرية والمخاوف المرضية) لتنتهز هذه المزايا التى تهيئها الكلمة للتكثيف والتقنع انتهازا لا تقل فيه تبجحاً عن الأحلام . فأما أن التشويه الحلمى يربح بدوره من هذا النقل اللفظى فذلك ما يسهل تبينه : فإن من مجالب الخطأ أن تستخدم كلمة واحدة ذات معنيين بدل اثنتين لكل منهما معنى واحد ، ثم إن من شأن النزول عن طريقتنا المألوفة المتزنة فى التعبير لقاء طريقة أخرى مشبهة أن يعطل فهمنا ، وبخاصة أن الحلم لا ينبئنا مطلقاً هل الواجب أن نفسر العناصر التى يأتى بها بمعنى حرفى أو مجازى ، تفسيراً مباشراً أو بوساطة تعبير من التعبيرات الدارجة . والحق بوجه عام هو أننا حين نفسر أى عنصر من عناصر الحلم نغدو فى شك لا ندرى معه :

أ) هل الواجب أخذ هذا العنصر بمعنى إيجابى أو سابى (علاقة التضاد) ، أو

ب) هل ينبغى تفسيره تفسيراً تاريخياً (فيكون أثراً من الآثار الذكروية) ، أو

ج) تفسيراً رمزياً ، أو

د) هل يجب أن يخرج تفسيره من نطقه[2] .

ومع هذا فإن من العدل أن نقول رغم هذا اللبس كله : إن التصوير الذى ينتهى إليه عمل الحلم – ولا ننسى أنه تصوير لم يقصد منه إلى أن يكون مفهوماً – لا يواجه المترجم بصعوبات تفوق ما تطالع به الرسوم الهيروغليفية قراءها .

ولقد ذكرت من قبل أمثلة متكررة على تصاوير حلمية لم تتركب إلا لهذا الاشتراك فى التعبير اللفظى (مثل : « فتحت فمها بأوسعه » [3] فى حلم حقنة إرما ، و « أظل دون أن أستطيع الذهاب »[4] فى الحلم الذى ذكرته أخيراً فى ص ٣٤٥ إلخ.) وسأذكر الآن مثالا أخذ فيه صب الفكر المجرد فى عبارات مشبهة بنصيب كبير . وإن الفرق بين مثل هذا التفسير وبين تفسير الحلم بوساطة الرموز ليظل محدداً تحديداً قاطعاً : ففى التفسير الرمزى

(١) [اللفظ المشترك هو الذى يحمل أكثر من معنى واحد .]

(٢) [أى أن يبنى التفسير استنادا إلى أصوات الألفاظ المستخدمة فى رواية الحلم وما قد تتضمنه من تورية أو غيره.]

(٣) [وكانت هذه الصورة تترجم فكرة : أن تفيض فى الحديث . أنظر ص ١٣٩ .]

(٤) [وكانت هذه الصورة تعنى فى لغة مجردة : ما زال لى الحق فى الحياة] .

يترك اختيار مفتاح الرمز للمفسر ، وأما فى حالات التقنع اللفظى التى نحن بصددها فالمفاتيح معلومة للجميع وواضعها هو العرف اللغوى الثابت . فلو أن المرء أصاب الفكرة الصحيحة فى المناسبة الصحيحة ، أمكنه أن يفسر الأحلام التى من هذا القبيل تفسيراً كاملا أو جزئياً وإن لم يستعن بمستدعيات الحالم .

حلمت سيدة من معارفى الحلم الآتى : إنها فى دار الأوبرا . مشهد لفاجنر دام حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً . نصبت فى القاعة موائد جلس إليها أناس يأكلون ويشربون . يجلس إلى مائدة من هذه الموائد قريب من أقربائها عاد حديثاً من رحلة شهر العسل مع عروسه وبجانبهما رجل من طبقة النبلاء . يقال إن الزوجة الشابة قد أحضرت هذا النبيل معها من رحلة شهر العسل فى علانية تامة كأنما أحضرت قبعة . فى القاعة برج عال وضعت فوقه منصة أحيطت بسياج حديدى . يقف على هذه المنصة قائد الفرقة الموسيقية وكانت له ملامح هانس ريختر . إنه يجرى فى حلقة وراء سياجه هذا وقد تصبب منه العرق إلى درجة مروعة وهو يقود من موضعه ذلك الفرقة الموسيقية التى انتظم أفرادها حول قاعدة البرج . الحالمة – هى – قد قعدت فى إحدى الشرفات مع صديقه لها (أعرفها). تريد أختها أن تمد إليها من القاعة قطعة كبيرة من الجمر قائلة : إنها ما كانت تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول ، وإن البرد فى الشرفات قد أصبح لا شك مثلجاً . (كأنما كان ينبغى تسخين الشرفات أثناء هذا العرض الطويل .)

إن هذا الحلم قد حوى من اللمحات غير المعقولة ما فيه الكفاية ، وإن يكن فيما عدا ذلك قد التف التفافاً طيباً حول موقف واحد . فما معنى هذا البرج الذى ينتصب وسط القاعة والذى منه يدير القائد الموسيقى فرقته ، ثم بخاصة تلك الجمرة التى تمدها إليها أختها ؟ لقد امتنعت عامداً عن طلب أى تحليل لهذا الحلم . ولكننى قد أمكننى بما أعرفه من علاقات الحالمة الشخصية أن أصل مستقلا إلى تفسير أجزاء منه : كنت أعلم أن قلبها قد انعطف إلى موسيقى قضى مرض عقلى على مستقبلة قبل الأوان . فرأيت أن آخذ البرج الذى فى الحلم مأخذا مجازيا ، فخرج أن الرجل الذى ودت لو رأته فى محل هانس ريختر قد علا البرج[1] دون سائر أفراد الفرقة . والبرج يصح وصفه بكونه صورة مزيجة ركبت بعطف بيان[2] ؛ فقاعدته تمثل عظمة الرجل وأما السياج

---

(١) [مجاز دارج فى الألمانية بمعنى علاهم أو فاقهم .]

(٢) [Apposition ويترجمه النحاة أيضاً بكلمة " البدل " . فالفكرة التى تعرب عنها صورة البرج فى الحلم هى : الرجل الذى كان موسيقياً عظيما ، هذا الذى جن فى أواخر حياته . وقولنا : " هذا الذى . . . إلخ " بدل أو عطف بيان .]

الحديدى الذى يعدو الرجل خلفه مثل أسير أو مثل حيوان فى قفصه (وهو ما يشير إلى اسم الرجل المنكود)[١] فيمثل مستأنف قدره . وربما كان « برج المجانين »[٢] هو اللفظ الذى استطاعت هاتان الفكرتان أن تلتقيا فيه .

ويحق لنا بعد أن اكتشفنا منهج الحلم فى التصوير أن نحاول تطبيق المفتاح ذاته على البدوة الثانية غير المعقولة فى هذا الحلم ، وأعنى بها جمرة الفحم التى تمد بها أخت الحالمة يدها . إن « الجمرة » لا بد كانت تعنى « الحب المستسر » :

ما من نار ولا من جمر
يتقد ويستعر
مثل حب مستسر
لا يعلمه أحد[٣] .

ونحن نراها فى الحلم هى وصديقتها وقد ظلتا قاعدتين[٤] ، وأختها الصغيرة التى كانت لا تزال تأمل فى الزواج تسلمها جمراً لأنها لم تكن تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول . ما هذا الذى قد طال ؟ إن الحلم يلوذ هنا بالصمت . ولو أن الأمر كان يتعلق بقصة لقلنا : إن المعنى هو المشهد . أما والأمر يتعلق بحلم فلنا أن نضع الجملة فى ذاتها نصب أعيننا ، وأن نقرر أنها ذات معنيين فنضيف : « حتى تتزوج » . ويؤيد بعد ذلك تفسير « الحب المستسر » ذكرها قريبها الجالس فى القاعة مع زوجه وما ينسب إلى هذه الأخيرة من الحب المكشوف . فالمقابلة بين الحب المستسر والمكشوف ، بين نارها وبرودة الزوجة الشابة تسيطر على الحلم . وفى كلتا الحالتين نجد رجلا « عالى المكانة » هو حد مشترك بين الرجل الذى من طبقة النبلاء وبين الموسيقى الذى كان معقد هاته الآمال الكبيرة .

إننا بالمناقشة السابقة نكون قد كشفنا فى النهاية عن عامل ثالث لا تنبغى الاستهانة بنصيبه فى تحويل أفكار الحلم إلى محتوى الحلم ، هذا العامل هو : اعتبار قابلية التصور فى المادة النفسية التى يستخدمها الحلم استخداماً خاصاً — أى فى صور مرئية

(١) Hugo Wolf.

(٢) [Narrenturm تعبير ألمانى قديم يقال للمارستان .]

(٣) [من أغنية ألمانية شعبية .]

(٤) [تعبير ألمانى دارج بمعنى : لم تتزوجا .]

على الأغلب . ولهذا كانت تُفَضَّل – بين الأفكار الثانوية المقترنة بأفكار الحلم الجوهرية – تلك التي تقبل التصوير المرئى ، وكان عمل الحلم لا يتردد فى أن يتكلف صوغ الأفكار الرئيسة فى صيغة لفظية جديدة ، ولو كانت أقل ألفة ، إذا كان فى ذلك ما يؤدى إلى تيسير التصوير وما يؤدى – من ثم – إلى إنهاء التوتر السيكولوجى الذى ينجم عن التفكير المحبوك . وهذا الصب للمحتوى الفكرى فى قالب آخر قد يسخر فى الوقت عينه فى خدمة العمل التكثيفى ويخلق علاقات جديدة – ما كان لتكون لولا ذلك – بفكرة أخرى . هذا بينما يصح أن تكون هذه الفكرة الأخرى قد غيرت هى نفسها منطوقها الأصلى لكى تلاقى الأولى فى منتصف الطريق .

ولقد دل سيلبرير (١٩٠٩) على طريقة تمكننا من أن نلاحظ استحالة الأفكار إلى صور فى أثناء تكوين الحلم ملاحظة مباشرة، وتمكننا بذلك من أن ندرس هذا الوجه من أوجه عمل الحلم بمعزل عن غيره . فهو كان إذا حمل نفسه على عمل فكرى وهو مكدود يغالب النوم – رأى الفكرة تفلت منه وتظهر فى محلها صورة كان يسعه عندئذ أن يرى فيها بديل الفكرة . وهو يصف هذا البديل وصفاً غير موفق كل التوفيق بقوله إنه : « ذو رمزية ذاتية » [١] ، وأسوق هنا بضعة أمثلة من مقال سيلبرير ، كما أننى سأضطر إلى العود إلى هذه الأمثلة فى موضع آخر [ص ٤٩٩] لخصائص معينة فى الظواهر الملاحظة .

« المثال الأول : أفكر فى أن على أن أراجع فقرة ناشزة فى إحدى مقالاتى :

« الرمز : أرانى أسوى قطعة من الخشب . »

« المثال الخامس : أحاول أن أتبين الهدف من دراسات ميتافيزيقية معينة كنت انتويت القيام بها . هذا الهدف – كما حدثت نفسى به – هو أن يشق المرء طريقه فى بحثه عن الوجود إلى صور أسمى من الشعور أو إلى طبقات أعلى من طبقات الوجود .

« الرمز : أدفع سكيناً طويلة تحت فطير كبير ، كما لو كنت أريد أن آخذ قطعة منه .

« التفسير : إن حركة يدى بالسكين تعنى (شق الطريق) الذى تحدثت عنه . . . وأما

---

(١) [كان غرض سيلبرير من هذه التسمية هو الدلالة على أن الصورة البديلة ترمز إلى العملية الفكرية من حيث هى فعل ذاتى بقدر ما ترمز إلى المحتوى الموضوعى للفكرة فى ذاتها .]

مأخذ هذا الرمز فبيانه ما يأتى : يتفق بين الحين والحين ونحن إلى المائدة أن أقوم بقطع فطير كبير وتوزيعه . . وهى مهمة أؤديها مستعينا بسكين طويلة مرنة يحتاج استعمالها إلى بعض العناية . ثم رفع الشرائح بعد قطعها رفعاً نظيفاً ، ذلك على الأخص ما يقترن ببعض الصعوبات : فلا بد هنا من أن تدفع السكين فى تؤدة تحت الشريحة المقطوعة (شق الطريق ، ببطء حتى الوصول إلى الأسس) . بيد أن الصورة قد حوت من الرمز ما يزيد على ذلك : فالفطير الذى تراءى لى فى الصورة الرمزية كان من النوع الذى يصنع طبقات يجتازها السكين عند القطع (طبقات الشعور والتفكير) . »

« المثال التاسع : ينقطع خيط تفكيرى وأحاول استئنافه ، ولكننى أضطر إلى التسليم بأن نقطة الاتصال قد غابت عنى تماماً .

« الرمز : صفحة من مؤلف ما ، سقطت سطورها الأخيرة . »

وإذ كانت النكات والاستشهادات والأغانى والأمثال تشارك بنصيب كبير فى الحياة العقلية للمثقفين ، كان مما يتفق وتوقعنا كل الاتفاق أن نرى هذا النوع من الأقنعة يكثر استخدامه إلى أقصى مدى فى تصوير أفكار الحلم . ما الذى يعنيه — مثلا — أن تظهر فى الحلم عربات تحمل نوعاً واحداً من الخضر يختلف مما تحمله الأخريات ؟ إن ذلك هو الضد المرغوب فيه لقولنا : « كرنب وجزر » ، أى [— فهذا هو معنى ذلك التعبير فى اللغة الألمانية —] « شذر مذر » ، وهو — إذن — يعنى « الفوضى » . ولقد عجبت لأن هذا الحلم لم يرو لى سوى مرة واحدة[1] . ولم تظهر رموز حلمية تصدق صدقاً شاملا إلا بالنسبة إلى عدد قليل من الموضوعات وكانت تستند إلى التلميحات المألوفة للجميع وإلى التبديلات اللفظية . ثم إن الحلم يشارك الأعصبة والأساطير والعادات الشعبية فى مقدار لا بأس به من هذه الرموز .

ولا غرو فى أن تكون الأمور كذلك ؛ فإنا إذا أنعمنا النظر لم نجد مناصاً من التسليم بأن عمل الحلم لا يأتى على الإطلاق بشىء مبتكر حين يجرى هذا النوع من التبديل ، بل هو لكى يصل إلى هدفه — وهدفه فى هذه الحالة هو قابلية التصوير المتحرر من الرقابة — إنما يتبع الطريق التى يجدها ممهدة أمامه من قبل فى اللاشعور ويؤثر تلك التحويلات فى المادة المكبوتة التى يمكن أن تظهر للشعور كذلك فى صورة النكات والتلميحات ،

(١) والواقع أننى لم أصادف هذا التصوير بعد ذلك قط ؛ ولهذا صرت أتشكك فى صحة هذا التفسير .

والتى تزدحم بها كل تخييلات العصابيين . وهنا يتكشف أمامنا فجأة سبيل إلى فهم تفاسير شرنر التى دافعت عن صحتها الجوهرية فى غير هذا الموضع [ص١١٥ و ص ٢٤٥ .] فاشتغال الإنسان بجسمه ليس بحال من الأحوال خاصة من خواص الحلم وحده ولا ميزة تميزه ، بل قد أرتنى تحليلاتى أننا نجد هذا الاشتغال دائماً بين الأفكار اللاشعورية للعصابيين ،وأنه راجع إلى التطلع الجنسى الذى يتجه فى سن المراهقة إلى الأعضاء التناسلية للجنس الآخر ولذات الجنس أيضاً . ولكن المنزل – كما ألح عليه بحق شرنر و فولكلت ليس الدائرة الفكرية الوحيدة التى تستقى منها رموز الجسد – لا فى الأحلام ولا فى التخييلات اللاشعورية للعصاب . صحيح أنى أعرف مرضى ظلوا مبقين على الرموز المعمارية للجسم ولأعضاء التناسل (والاهتمام الجنسى يعدو أعضاء التناسل الخارجة بكثير) : فالأعمدة والعمدان المتوجة تعنى عندهم السيقان (كما فى نشيد الإنشاد)[1] ، وكل باب يدل على فتحة من فتحات الجسم (« ثقب ») ، وكل أنبوبة تذكر بالجهاز البولى، الخ . ، إلا أن الأفكار المتصلة بحياة النبات أو بالطبخ قد تستخدم هى الأخرى بمثل هذه الكثرة عينها – لكى تستر الصور الجنسية . وإنا لنجد فيما يتعلق بدائرة الأفكار النباتية أن الطريق قد مهده العرف الجارى الذى هو خزانة الأخيلة الاستعارية منذ أقدم العصور (أنظر « كرمة » الرب و « البذور » و « حديقة » المحبوبة فى نشيد الإنشاد) . كما أن التفكير فى أقبح تفاصيل الحياة الجنسية وأبطنها – أو الحلم بها – قد يتأدى فى إشارات ظاهرها البراءة إلى أعمال المطبخ ، وإن الأعراض الهسترية لتستغلق إلى الأبد على كل تفسير إذا نسينا أن الرمزية الجنسية تجد أحسن مخبأ لها وراء المألوف وما لا يستلفت الأعين. فمن الأمور المنطوية على معنى جنسى صحيح أن يأبى الطفل العصابى رؤية أى دم أو لحم نيئ ، وأن يشمئز من البيض و « المكرونة » وأن يزيد الخوف الطبعى من الثعابين تلك الزيادة المفرطة عند العصابيين . وعلى الجملة فالعصاب حيثما التجأ إلى مثل هذه الأقنعة فإنما يسلك طرقاً مرت بها الإنسانية جمعاء فى أقدم مراحل العمران ولا تزال يشهد على وجودها إلى يومنا هذا وراء حجب شفافة العرف اللغوى والمعتقدات والعادات .

وهنا ألحق بما تقدم الحلم المزدهر الذى أتى إحدى مريضاتى ووعدت من قبل بسرده [ص٣٢٥] ، وفيه أعلم بالأحرف المكبرة كل ما ينبغى تفسيره من عناصره تفسيراً

(١) [" وساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز . " الإصحاح الخامس ، ١٥ .]

جنسيا . هذا وقد فقد ذلك الحلم الجميل رواءه فى عين الحالمة بعد أن وقفت على تفسيره

أ) الحلم التمهيدى : تنهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لما تجهزا لها وقضمة » تؤكل. وفى أثناء ذلك تلمح عدداً كبيراً جداً من أوعية مطبخ من طراز عامى وقد قلبت على الأرض حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء. تضيف فى رواية ثانية : تنهب الخادمان طلباً لبعض الماء وتضطران حينئذ إلى الخوض فى نهر علا ماؤه حتى بلغ المنزل أو فناءه (١) .

ب) الحلم الرئيس (٢) : تهبط من مرتفع عظيم (٣) فوق حواجز أو سياج غريبة الهيئة شد بعضها إلى بعض فى مربعات كبيرة وصنعت من خيزران مضفر فى مربعات صغيرة (٤) . لم تكن هذه الحواجز مجعولة لكى يتسلق الإنسان فوقها ، ولهذا كانت تلاقى عناء دائماً فى إيجاد موضع تضع فيه قدميها ، وتهنىء نفسها لأن رداءها لم يشتبك بأى منها ، بحيث ظلت مبقية على مظهرها اللائق (٥) وهى ماضية . كانت فى أثناء ذلك تحمل غصناً كبيراً فى يدها (٦) ، والحق أنه كان يشبه شجيرة غطتها زهور حمراء تفرعت عن الشجيرة وانتشرت (٧) . كانت هناك فكرة فحواها أن هذه أزهار كريز ، ولكنها كانت تلوح فى الوقت نفسه مثل الكاميليا المفتحة – وإن كانت هذه لا تنمو بالطبع على الشجر . كان بيدها وهى تهبط غصن واحد فى أول الأمر ، صار فجأة اثنين ، ثم رجع واحداً من جديد (٨) . حين تبلغ أسفل المنحدر تكون الأزهار التى بأسفل الغصن قد أصابها ذبول عظيم . ترى عندئذ – بعد أن نزلت – خادماً من خدم المنزل ، وكان – كما تحب أن تقول – يمشط شجيرة مماثلة أى أنه كان يستخدم خشبة لكى ينتزع بها خصلة سميكة من الشعر علقت بالشجرة مثل الأشنة . كان هناك عامل آخر قطع أغصاناً مماثلة من حديقة من الحدائق التى ألقى بها فى الطريق حيث ظلت مطروحة بحيث أخذ أناس كثيرون بعضها . ولكنها تسأل نفسها هل ذلك عمل مشروع ، هل تستطيع أن تأخذ واحدا (٩) هى الأخرى . يقف فى الحديقة رجل فى مقتبل العمر (وهو شخص تعرفه ، غريب عن العائلة) ، تنهب إليه لكى

---

(١) أنظر ص ٣٢٥ فى تفسير هذا الحلم التمهيدى من حيث يعرب عن علاقة " علية " .

(٢) وهو حلم يصف سيرة حياتها .

(٣) أى أنها تنحدر من أصل رفيع – وهو الضد المرغوب فيه للحلم التمهيدى .

(٤) صورة مزيجة تجمع بين محلين : أولها هو ما كان يسمى فى منزل أبيها حجرة السطوح ، حيث كانت تلعب مع أخيها الذى صار موضوع تخييلاتها اللاحقة ، وثانيهما مزرعة يملكها عم رذل كان لا ينقطع عن معاكستها .

(٥) ضد مرغوب فيه لإحدى ذكرياتها الحقيقية المتصلة بمزرعة عمها ، حيث كان من عادتها أن تتعرى وهى نائمة .

(٦) كما يحمل الملاك عود الزنبق فى صور البشارة إلى مريم .

(٧) أنظر ص ٣٢٩ فى تفسير هذه الصورة المركبة : الطهارة ، الطمث ، غادة الكاميليا .

(٨) إشارة إلى تعدد الأشخاص الذين كانت تنصب عليهم تخييلاتها .

(٩) أى هل يجوز لها أن تنتزع واحدا [وهو تعبير ألمانى عامى بمعنى :] أن تستمنى .

تسأله كيف يمكنها أن تنقل هذه الأغصان إلى حديقتها الخاصة (١) . يحتضنها الرجل فتدفعه وتسأله : فيم تفكر ؟ أيظن أن الناس يستطيعون احتضانها على هذا النحو ؟ يجيبها قائلا : إنه لا ضرر فى ذلك وإن ذلك أمر مباح (٢) . يخبرها أنه على استعداد للذهاب معها إلى الحديقة الأخرى لكى يريها الزرع ثم يضيف شيئاً لا تفهم مراده منه تمام الفهم : غير أننى أحتاج إلى ثلاثة أمتار (وفى رواية أخرى : أمتار مربعة) أو ثلاث قصبات من الأرض . كأنه كان يطلب شيئاً ما لقاء استعداده ، أن يعوض نفسه من حديقتها ، أو كأنه كان يريد أن يحتال على قانون من القوانين لكى يظفر منها بمغنم دون أن يصيبها الأذى . هل أراها بالفعل شيئاً ما بعدئذ ؟ لا تدرى .

إن هذا الحلم الذى أوردته لما اشتمل عليه من العناصر الرمزية خليق أن يوصف بأنه حلم « يؤرخ حياة » حالمه ، وأمثال هذه الأحلام تعرض كثيراً فى خلال التحليل النفسى ، ولكن أغلب الظن أنها لا ترد خارجه إلا نادرا (٣) .

إن فى جعبتى بالطبع الشىء الكثير من مثل هذه المادة ، ولكن سردها يجعلنا نوغل فى بحث شروط العصاب ، ثم هى تذهب جميعها إلى نتيجة واحدة ، وأعنى بها : أنه لا حاجة بنا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يتضمن نشاطاً رمزيا خاصاً به من جانب الذهن ، وإنما يستخدم الحلم الرموز الموجودة من قبل فى التفكير اللاشعورى ، وهو يستخدمها لأنها أكثر اتفاقاً ومقتضيات تكوين الحلم من حيث قابليتها للتصوير ، ولأنها أيضاً تفلت عادة من الرقابة .

---

(١) لقد ناب الغصن عن عضو التناسل عند الذكر منذ زمن طويل ، وهو – بعد – ينطوى على تلميح إلى اسم عائلة المريضة .

(٢) يشير ذلك وما يتبعه إلى احتياطات منع النسل .

(٣) يجد القارئ حلما آخر مماثلا من نوع هذه الأحلام «المؤرخة» بين الأمثلة التى سأضرب بها على الرمزية فى الحلم ، المثال الثالث . وهناك مثال ثان سرده رانك سرداً مفصلا : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [١٩١٠] . ثم مثال آخر تجب قراءته « مقلوبا » أورده ستيكل (١٩٠٩ ، ٤٨٦) .

هـ

التصوير بوساطة الرموز فى الأحلام

أحلام نمطية أخرى [(١)]

إن تحليل الحلم الذى سبق — الحلم المؤرّخ — شاهد على أننى قد عرفت الرمزية فى الحلم منذ البداية. ولكننى لم أنته إلى تقدير كامل لمدى انتشارها وأهميتها إلا على نحو متدرج ساير تزايد خبرتى ، وبتأثير من مؤلفات ڤيلهم شتيكل[(٢)] الذى قد يكون من المناسب فى هذا الموضع أن اتحدث بكلمة عنه .

إن هذا الكاتب الذى ربما كان ضرره بالتحليل النفسى يعدل نفعه قد قدم عدداً ضخماً من تراجم رمزية لم يفطن إليها أحد من قبل ، تراجم لم تلق فى مبدأ الأمر تصديقا ولكن الشواهد لم تلبث أن جاءت بما يؤيد معظمها ، بحيث لم يعد مفر من قبولها . ولست أهون من قيمة الخدمات التى أسداها شتيكل فى هذا الباب إذا أضفت أن التحفظ المشوب بالشك الذى قوبلت به آراؤه فى أول الأمر لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات . فالأمثلة التى سند بها شتكل تفسيراته كانت غير مقنعة فى كثير من الأحايين ، ثم هو قد استخدم منهجاً يتحتم نبذه؛ لأنه غير حرى بالثقة من وجهة النظر العلمية . ذلك أن شتيكل قد اكتشف تفسيراته الرمزية من طريق الحدس ، بقوة هبة خاصة فى فهم الرموز فهما مباشراً . ولكن مثل هذا الفن شىء لا يعتمد عليه بوجه عام ، لأنه يخلو من كل إعمال للنقد ، ولهذا تجردت نتائجه من كل حق على التصديق . فاستنادك إليه كالتماسك أن تؤسس تشخيص الأمراض المعدية على ما يصلك من إحساسات الشم وأنت إلى سرير المريض — وإن كان من المقطوع به أن ثمت أطباء حققوا ما لم يحققه

(١) [لم يظهر هذا القسم هـ من الفصل السادس فى الطبعة الأولى من " تفسير الأحلام ". والكثير من مادته قد أضافه فرويد فى طبعتى عام ١٩٠٩ و ١٩١١ ولكنه أدرج المادة المضافة فى الفصل الخامس فى القسم الخاص بالأحلام النمطية . وأما القسم هـ بصورته الحاضرة المستقلة فلم يظهر للمرة الأولى إلا فى طبعة ١٩١٤ مكونا من المادة المضافة فى الطبعتين السابقتين وأخرى جديدة .]

(٢) ف . شتكل ، لغة الأحلام ، ١٩١١ .

غيرهم مستعينين بحاسة الشم هذه (وهى حاسة مبتسرة عند معظم الناس) ، أطباء كان يسعهم أن يشخصوا تيفوساً معوياً بوساطة الشم .

ولقد جذب تقدم الخبرة التحليلية انتباهنا إلى مرضى يبدون مثل هذا الفهم المباشر لرموز الحلم على نحو يبعث على الدهش . هؤلاء المرضى كانوا فى العادة يعانون جنون المراهقة ، بحيث غلب فترة الميل إلى أن تظن هذه العلة بكل حالم يبدى مثل هذا الفهم الرمزى . ولكن الحقيقة على خلاف ذلك ، فالمسألة هبة أو خاصة شخصية بدون دلالة مرضية ظاهرة .

وإن المرء إذا ألف الاستخدام الواسع الذى تلقاه الرموز فى تصوير المادة الجنسية فى الحلم لم يجد مناصاً من أن يسأل إذا كان الكثير من هذه الرموز يجىء على حسب دلالات ثابتة مثل « علامات » الاختزال ، ولقد يغرى عندئذ بتسطير كتاب جديد من كتب الأحلام وفق منهج الشفرة . والذى تمكن ملاحظته فى صدد هذه المسألة هو هذا : أن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام، بل من خواص التفكير اللاشعورى ، وتفكير الشعب بنوع خاص ، وإنا لنجدها فى أغانى الشعب وأساطيره ورواياته المتوارثة وفى التعابير الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها فى الحلم . ولهذا لم يكن مفر من أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا أردنا أن نوفى معنى الرمز حقه وأن نناقش ما يتصل بفكرة الرمز من مشكلات متعددة لا يزال القسط الأعظم منها بغير حل.(١) وعلى ذلك نقتصر ههنا على القول بأن التصوير بوساطة الرمز يدخل فى عداد مناهج التصوير غير المباشر ، ولكن هناك دلائل من كل نوع تحذرنا من أن نزج بالتصوير الرمزى بين سائر أنواع التصوير غير المباشر قبل أن يكون فى استطاعتنا أن نتمثل خواصه التى تفرق بينه وبينها فى تعريف جلى . والجامع المشترك بين الرمز والمرموز إليه يكون واضحاً فى طائفة من الحالات ، خفياً فى طائفة أخرى ، حتى ليبدو اختيار الرمز شيئاً محيراً . وإن هذه الحالات الأخيرة على التحديد لهى التى لا بد قادرة على أن تلقى الضوء على المعنى الأخير الذى لعلاقة الرمزية ، وإنها لتدل على أن هذه العلاقة ذات طبيعة نشوئية : فالأشياء التى ترتبط اليوم برباط رمزى كانت على الأرجح تتحد فى الأزمنة

---

(١) [١٩١١ :] أنظر مؤلفات بلويلر وتلاميذه من مدرسة زيوريخ : مادير وأبراهام وغيرهما – فى مسألة الرمزية ، وانظر من يشير إليه هؤلاء من المؤلفين غير الأطباء (مثل كلاينپول وغيره) . [١٩١٤ :]

قبل التاريخيه فى عينية تصويرية ولغوية[١] ، فالعلاقة الرمزية تبدو أثراً من عينية غابرة وعلامة عليها . ونستطيع أن نلاحظ فى هذا الصدد كيف يقع فى بعض الحالات أن يمتد الاتفاق فى استخدام رمز من الرموز إلى ما وراء الجماعة اللغوية، على ما نبه إليه شوبرت من قبل (١٨١٤)[٢] ، كما أن بعض الرموز قديم قدم الكلام نفسه بينما بعضها الآخر لا ينقطع صكه على مر العصور إلى يومنا هذا (مثال : المنطاد ، « زبلين ») .

والحلم يستخدم الرموز من أجل تصوير أفكاره الكامنة تصويراً مقنعاً . ومن الرموز المستخدمة على هذا الوجه عدد كبير يعنى دائماً — أو يكاد يعنى دائماً — ذات الشيء. ومع هذا ينبغى علينا أن نتذكر دائماً ما تتميز به المادة النفسية من مرونة خاصة . فقد يكون الواجب فى أحيان جد كثيرة ألا يفسر الرمز الظاهر فى محتوى الحلم بالمعنى الرمزى بل الحرفى ، ويجوز فى أحيان أخرى أن يستمد الحالم من مادة ذكرياته الخاصة الحق فى أن يستخدم كرموز أشياء من كل صنف لا تستخدم عادة هذا الاستخدام . ثم إن الحالم إذا أمكنه الاختيار بين رموز متعددة من أجل تصوير محتوى بعينه ، انتخب هذا الرمز الذى يرتبط من حيث محتواه الموضوعى بسائر أفكار الحلم ، أى الذى تدفع إلى قبوله أسباب فردية إلى جانب الأسباب النمطية .

وإذا كانت الأبحاث الجديدة فى الحلم منذ زمن شرنر قد جعلت من وجود الرموز الحلم أمراً لا يقبل المنازعة — فحتى هافلوك إليس يسلم بأن من المحال التشكك فى ازدخار أحلامنا بالرموز — فإن من الواجب أن نقر مع ذلك بأن حضور الرموز فى الحلم لا يسهل مهمة التفسير وحسب ، بل يزيدها أيضاً صعوبة . ذلك أن طريقتنا

ويجد القارئ أصوب ما كتب عن هذا الموضوع فى كتاب رانك وهانس ساكس (١٩١٣ ، الفصل الأول) . [١٩٢٥ :] وانظر أيضاً إرنست جونز (١٩١٦) .

(١) إن هذه النظرة تحظى بعضد قوى إذا أخذنا بنظرية اقترحها الدكتور هانس شبير بر (فى تأثير العامل الجنسى فى نشأة اللغة وتطورها ، إيماجو ١٩٢٢) . فهو يرى أن جميع الكلمات البدائية كانت تطلق على أشياء جنسية ثم أخذت تفقد بعد ذلك معانيها الجنسية هذه بإطلاقها على أشياء وأوجه من النشاط مختلفة كانت تقارن بما هو جنسى .

(٢) مثال ذلك أن المراكب الجارية على الماء ترد فى أحلام التبول عند الحالمين المنغاريين مع أنهم لا يستخدمون كلمة Schiffen [أبحر] بمعنى " تبول " [كما هو الشأن فى الألمانية] (أنظر فرنتسى وكذلك المثال ٦ من هذا القسم) . والناطقون بالفرنسية وبسائر اللغات الرومانية يستخدمون الغرفة فى التصوير الرمزى للمرأة مع أن هذه الشعوب لا تملك شيئاً يشبه التعبير الألمانى : "Frauenzimmer" (أنظر ص ٢٣٤) .

المألوفة فى التفسير وفقا لمستدعيات الحالم تتركنا فى حيرة حين نجىء إلى العناصر الرمزية فى محتوى الحلم . فاحترام النقد العلمى يمنعنا من الاحتكام إلى مشيئة المفسر كما هو المنهج المتبع فى الأزمنة القديمة والذى يبدو كأنما قد بعثته من جديد تفسيرات شتيكل الهمجيه . ونحن لذلك مضطرون حيال عناصر الحلم التى نرى أنها عناصر رمزية إلى أن نصطنع منهجاً مزيجاً يستند من ناحية إلى مستدعيات الحالم ويكمل الثغرات من ناحية أخرى بمعرفة المفسر للرموز . ومن واجبنا — إذ أردنا أن نتجنب كل اتهام بمتابعة الهوى فى التفسير — أن نجمع بين الحذر النقدى فى حل الرموز وبين دراستها دراسة ملؤها العناية تستند إلى أمثلة قوية الدلالة بنوع خاص . والعجز عن الاستيقان الذى لايزال يعلق بعملنا فى تفسير الأحلام ناشىء إلى حد عن نقص معارفنا — وهو نقص يمكن سده شيئاً فشيئا مع التعمق فى الاستقصاء — ولكنه ناشىء إلى حد آخر عن خصائص معينة فى رموز الحلم . فهذه الرموز تملك فى كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد — إن لم تملك العدد الكبير من المعانى — بحيث لا يمكن فهمها فى كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق وحده ، كما هو الشأن فى الكتابة الصينية . ثم إن هذا التكثر فى معنى الرموز لا يلبث أن يلتقى بما يتميز به الحلم من قبول تفسيرات متعددة ، أى من القدرة على أن يصور فى بعض محتواه أفكاراً ورغبات كثيراً ما تختلف اختلافاً واسعاً فى طبيعتها .

وبعد هذه القيود والتحفظات أتابع الكلام فأقول : إن الإمبراطور والإمبراطورة (أو الملك والملكة) يصوران حقيقة والدى الحالم فى معظم الأحيان . وأما الأمير أو الأميرة فيصور الحالم أو الحالمة . غير أن هذه السلطة العالية التى تعزى إلى الإمبراطور قد تعزى أيضاً إلى عظماء الرجال ، وهكذا كان جوته — مثلا — يبدو رمزاً إلى الأب فى كثير من الأحلام (هيتشمان) . — وتصور القضيب عند الرجال كل الموضوعات المستطيلة مثل العصى وجذوع الشجر والمظلات (لأن انفتاحها يقارن بالانتصاب !) ، كما تصوره كل الأسلحة المستطيلة الحادة مثل السكاكين والخناجر والمعاول . ورمز آخر يكثر استعماله وإن لم يكن مفهوماً كل الفهم ، هو مبرد الأظافر (أبجامع الاحتكاك ؟) — وأما العلب والصناديق والأدراج والدواليب والمواقد فتصور الرحم وكذلك الموضوعات المجوفة والسفن وسائر صنوف الجوارى . — والغرف فى الحلم ترمز فى معظم الأحيان إلى النساء،

فإن صورت أيضاً مداخلها المختلفة ومخارجها لم يبق فى هذا التفسير شك[١] . وأما الاهتمام بما إذا كانت الحجرة « مفتوحة » أم « مغلقة » فأمر يسهل فهمه فى هذا السياق . (أنظر حلم دورا [الأول] فى « طرف من تحليل حاله هستريا » [فرويد ١٩٠٥ هـ]) . ولسنا نحتاج إلى أن نسمى صراحة المفتاح الذى يفتح الغرفة ، ولقد استعان أولاند برمزى القفل والمفتاح فى تأليف قطعة طريفة من الأدب المكشوف ، فى أغنية « الكونت ايبرشتاين » . — والحلم الذى يعبر فيه الحالم سلسلة من الحجرات المتتالية هو حلم بمنزل بغاء أو حريم . ولكنه — كما بين هانس ساكس فى مثال بديع — قد يستخدم أيضاً (من قبيل التضاد) فى تمثيل الزواج . وأما أن يحلم الحالم بحجرتين كانتا من قبل حجرة واحدة أو أن يرى حجرة واحدة يألفها قد انقسمت حجرتين ، فينم عن ارتباط بتطلع الطفل الجنسى خليق أن ننتبه إليه . ذلك أن الطفل يعد عضو التناسل عند المرأة منطقة واحدة وفتحة الشرج (النظرية الاستية عند الطفل) ولا يفطن إلا فيما بعد إلى أن هذه المنطقة تضم فجوتين وفتحتين مستقلتين . — وأما المرتفعات والدرجات والسلالم والمسير عليها — سواء أكان صعوداً أم كان هبوطاً — فصور ترمز إلى الجماع[٢] . — وأما

---

(١) " حلم أحد مرضاى — وكان يقيم فى " بنسيون " — أنه قابل إحدى الخادمات على السلم ، فسألها ما رقمها ، فأجابته لدهشه : ١٤ ، والواقع أنه كان قد اتصل بهذه الخادم وزارها زيارات متعددة فى غرفتها ، وكانت الخادم تخشى طبعاً أن تتشكك سيدتها فى أمرها فاقترحت على الحالم فى اليوم الذى سبق الحلم أن يتلاقيا فى حجرة غير مشغولة . وكانت هذه الحجرة حقيقة هى الحجره رقم ١٤ ، بينما حملت هذا الرقم فى الحلم المرأة نفسها . ولا يكاد المرء يتخيل مثالا أوضح من ذلك دلالة على تعيين المرأة بالحجرة . " (جونز ١٩١٤ أ .) وانظر أيضاً أرتميدوروس " رموز الأحلام " (ترجمة ف . س . كراوس ڤيينا ١٨٨١ ، ص ١١٠) : مثال ذلك أن غرفة النوم تعنى الزوجة ، إذا كانت بالمنزل زوجة .

(٢) أكرر هنا ما قلته عن هذا الموضوع فى موضع آخر (فرويد ١٩١٠ د) : علمت منذ زمن غير بعيد أن سيكولوجيا بعيدا عن مجال عملنا قال لأحدنا : إننا نبالغ من غير شك فى تقدير المعنى الجنسى المكنون للأحلام ؛ فهو — مثلا — يحلم أكثر ما يحلم بالصعود ، ومن المؤكد أن ذلك ما لا ينطوى على شىء جنسى . وأثار هذا الاعتراض اهتمامنا ، فوجهنا اهتمامنا إلى ظهور المرتفعات والدرجات والسلالم فى الأحلام وسرعان ما أمكننا أن نتبين أن السلالم (وما ماثلها من الموضوعات) ترمز من غير أقل شك إلى الجماع الجنسى . وليس من الصعب أن نكتشف أساس هذه المقارنة . فنحن نبلغ القمة فى حركات متعاقبة موقعة وفى لهث متزايد ، ثم إذا نحن نستطيع النزول إلى حيث كنا فى قفزات قليلة مسرعة . وهكذا يعيد الصعود النمط التوقيعى للجماع . ثم لا ننسى شهادة العرف اللغوى ؛ فهو يرينا أن " صعد " تستخدم بغير مزيد من التخصيص [فى اللغة الألمانية] للدلالة على الفعل الجنسى ، ونحن نقول عن رجل : إنه " صعاد " [أى ذو ولع بالنساء] ، ونقول : " صعد وراء " [أى طارد ، والمقدر هو المرأة] . ودرجات السلم تسمى فى اللغة الفرنسية "marches" ومنه : "un vieux marcheur" [أى " دراج قديم "] ، وهو ما يعدل تعبيرنا الألمانى " صعاد قديم " [أى زير نساء] .

الحوائط الملساء التى يتسلقها المرء والواجهات التى ينزلق عليها – فى هيلة شديدة عادة – فتمثل الأجسام الإنسانية الواقفة ، وهى على الأرجح تعيد فى الحلم ذكريات عن تعلق الطفل بوالديه أو بالمرضع . والحوائط « الملساء » رجال . ولا يندر أن يتشبث المرء بـ « نتوءات » المنزل فى أحلام الهيلة . – ويشبه للنساء بالموائد والموائد المعدة للطعام و بالألواح أيضاً – ولعل ذلك من قبيل التضاد إذ ترتفع هنا الدوائر البارزة فى جسم المرأة . وأما « الخشب » على الجملة فيبدو من علاقاته اللغوية أنه ينوب عن المادة الأنثوية (Materie) وجزيرة ماديرا [1] يعنى اسمها الخشب فى اللغة البرتغالية . وإذ كان « الفراش والخوان » يؤلفان الزواج فقد كثر أن ينوب ثانيهما عن أولهما وأن يترجم مركب الأفكار الجنسية إلى مركب الاغتذاء . – وأما الملابس فيسعنا فى كثير من الأحيان أن نترجم قبعة المرأة بعضو التناسل ، وبعضو الرجل على التحديد . والأمر كذلك فيما يتصل بالمعطف ، وإن كنا لا نعلم إلى أى حد يرجع استخدام هذا الرمز إلى الجناس اللفظى [2] . ويكثر فى أحلام الرجال أن تنوب ربطة العنق عن القضيب ، وليس ذلك لمجرد كون ربطة العنق مستطيلة الشكل ، مدلاة ، مميزة للرجال ، بل لأن المرء أيضاً يختارها وفق هواه – وهى حرية منعته الطبيعة إياها فيما يتصل بالموضوع المرموز إليه [3] . ويغلب أن يكون الأشخاص الذين يستخدمون هذا الرمز شديدى الاحتفال بربطات عنقهم فى حياتهم الواقعة وأن يملكوا مجموعات مستوفاة منها . – ومن المرجح أكبر الترجيح أن جميع الآلات والأجهزة المعقدة تقوم فى الحلم مقام الأعضاء التناسلية – وأعضاء الرجل عادة – تلك الأعضاء التى لا يكل الحلم من وصفها ، شأنه فى ذلك شأن النكتة . ولا شك أيضاً فى أن جميع الأسلحة والعدد تستخدم رموزاً إلى عضو الرجل : المحاريث والمطارق والبنادق والمسدسات والخناجر والصوارم ، الخ . – ومن السهل أن نتبين كذلك أن المناظر الطبيعية

---

(١) [Madeira من اللاتينى Mater ومعناه الأم ، لاحظ الجناس مع Materei .]

(٢) [رجل = Mann فى الألمانية ، ومعطف = Mantel .]

(٣) أنظر رسما منشورا فى Zbl. Psychoanal. ، ٢ ، ٦٧٥ [رورشاخ ، ١٩١٢] رسمه مريض بالهوس فى التاسعة عشرة من عمره : رجل ربطة عنقه أفعوان يمد رأسه إلى فتاة . وانظر أيضاً قصة " الرجل الخجول " (Anthropophyteia ، ٦ ، ٣٣٤) : دخلت سيدة فى حجرة استحمام فصادفت رجلا لم يكد يفرغ من ارتداء قميصه ، ويخجل الرجل خجلا شديدا ولكنه يسارع إلى تغطية عنقه بمقدم قميصه قائلا : معذرة إذا كنت بغير ربطة عنق .

المتجلية فى الحلم — وبخاصة إذا احتوت جسوراً أو قمماً تعلوها الأشجار — هى أوصاف للأعضاء التناسلية . ولقد جمع مارسينوفسكى طائفة من رسوم يوضح بها الحالمون ما ورد فى أحلامهم من مناظر الطبيعة والمحال. هذه الرسوم ترينا رؤية العين الفرق الذى بين معنيي الحلم الظاهر والكامن ؛ فبينما يلوح للعين غير المحققه أن هذه الرسوم تخطيطات أو خرائط أو ما شاكله ، إذا الباحث الثاقب يتبين أنها تصور الجسد الإنسانى وتصور أعضاء التناسل ، الخ .، وحينئذ يتيسر فهم الحلم للمرة الأولى . (أنظر فى هذا الصدد مقالات فستر عن الكتابة بالرسوم والألغاز المصورة.) ولنا أيضا أن نتساءل تجاه المركبات اللفظية غير المفهومة إذا لم تكن هذه المركبات قد تكونت من عناصر ذات معان جنسية. — ثم الأطفال ، هم أيضاً كثيراً ما يعنون فى الحلم أعضاء التناسل ، والحق أن من عادة كلا الرجل والمرأة أن يسمى عضوه [فى الألمانية] على سبيل الإعزاز : « صغيره » أو « صغيرها » . ولا يجانب شتيكل الصواب حين يعرف فى « الأخ الصغير » القضيب، كما أن اللعب مع طفل صغير أو ضربه، الخ .، تصوير كثيراً ما يصور به الحلم الاستمناء .— فأما تصوير الخصاء تصويراً رمزيا فهذا ما يتوسل إليه الحلم بصور الصلع وقص الشعر وسقوط الأسنان وقطع الرأس . فإن جاء أحد الرموز المألوفة إلى القضيب مضعفاً أو متكثراً ، عُدّ ذلك استعاذة من الخصاء . ومجىء العظايا فى الحلم — وهى حيوانات تنمو أذيالها من جديد بعد قطعها — له كذلك هذا المعنى عينه . (أنظر حلم العظايا فى ص ٩١ .) — والحيوانات التى تتخذ رموزا إلى أعضاء التناسل فى الأساطير والقصص الشعبي يلقى الكثير منها ذات الاستخدام فى الحلم : السمك والقواقع والقطط والفئران (لشعر العانة) ، ثم بنوع خاص ذلك الحيوان الذى هو أهم الرموز إلى قضيب الرجل : الثعبان . وتمثل الحيوانات الصغيرة والديدان صغار الأطفال مثل الإخوة والأخوات غير المرغوب فيهم ، كما أن التدود يمثل الحمل فى كثير من الأحيان . — ومن الحرى بالذكر رمز إلى عضو التناسل عند الرجل حديث العهد جدا ، هو المنطاد . وتبرر هذا الاستخدام علاقة المنطاد بالطيران ثم شكله أحياناً . — وهناك طائفة أخرى من الرموز ساقها شتيكل مدعماً إياها بالشواهد ولكنها مع ذلك لم تثبت ثبوتاً كافياً . فمؤلفات شتيكل — وبخاصة « لغة الأحلام » — تحوى أوفى مجموعة من التراجم الرمزية ، وبعض هذه التراجم ينم عن بصيرة نافذة كما أن التمحيص قد أيده من بعد ، مثال ذلك فصله عن رموز الموت ، ولكن افتقار هذا المؤلف إلى ملكة النقد مع نزوعه إلى التعميم مهما كان الثمن يبعثان على التشكك فى

تفسيراته الأخرى أو يقفان حائلا دون استخدامها ، بحيث ينبغى الأخذ بالحذر الجم عند الرجوع إلى مؤلفاته . ولهذا كنت أقتصر على ذكر أمثلة قليلة من تراجمه .

فى رأى شتيكل أن اليمين واليسار يحملان فى الحلم معنى خلقياً : « فطريق اليمين تعنى دائماً طريق الاستقامة ، فأما طريق اليسار فتعنى الجريمة . وهكذا قد يصور اليسار الجنسية المثلية أو الزنا بالمحارم أو الانحراف ، بينما يصور اليمين الزواج أو الاجتماع ببغى ، الخ . — كل هذا من وجهة النظر الخلقية للفرد الحالم دائماً . » (شتيكل ١٩٠٩ ، ٤٦٦) . ويقوم الأقارب فى الحلم مقام أعضاء التناسل فى غالب الأحيان (ص ٤٧٣) ، بيد أننى لا أستطيع أن أؤيد ذلك إلا فيما يتصل بالأبناء والبنات وصغار الإخوة والأخوات أى فيما يتصل بالأقارب الذين يدخلون تحت مقولة الصغـــير . كما أننى وجدت من جهـــة أخرى أمثلة مؤكدة ترمز فيها الأخوات إلى الصدر بينما يرمز الإخوة إلى الردفين . ويفسر شتيكل عدم اللحاق بعربة بفرق فى السن لا سبيل إلى محوه (ص ٤٧٩) . فأما المتاع الذى يحمله المرء فى سفر فحمل من الخطيئة يثقل كاهله (ذات الموضع) . بيد أن متاع السفر على التحقيق كثيراً ما يتبين أنه رمز لا يخطئ إلى عضو الحالم التناسلى . وحدد شتيكل — فوق ذلك — معانى رمزية للأرقام التى يكثر ورودها فى الأحلام ، ولكن هذه التراجم لا تبدو مؤكدة التأكيد الكافى ولا صحيحة صحة شاملة — وإن كان تفسير شتيكل يبدو عادة مقنعاً فى الحالات الجزئية . ولكن ثبت مع ذلك — من جوانب متعددة — أن الرقم ٣ يرمز إلى عضو الرجل التناسلى . وبين القضايا المعممة التى ساقها شتيكل قضية تتعلق بالمعنى المزدوج الذى تنطوى عليه الرموز الجنسية ، فهو يقول : « أين هو هذا الرمز الذى لا يمكن استعماله فى آن واحد فى كلا المعنيين : المذكر والمؤنث ، بشرط أن تقبل المخيلة هذا الاستعمال ولو أقل قبول ؟ » إن هذا الشرط لا شك يزيل الشيء الكثير من اليقين الذى أطلقت به القضية ؛ إذ الواقع أن المخيلة لا تقبل هذا الاستعمال دائماً . ومع هذا أعتقد أنه لن يكون من نافلة القول إذا أضفت أن تجربتى تدل على أن قضية شتيكل تقصر عن مكافأة واقع يزيدها تعقداً . فهناك إلى جانب الرموز التى تنوب عن أعضاء التناسل المذكرة والمؤنثة على السواء ، رموز أخرى تدل على أحد الجنسين دلالة غالبة أو تكاد تكون مانعة، ثم أخرى لا نعرف لها إلا معنى مذكراً أو مؤنثاً : فأن تتخذ الأسلحة والموضوعات المستطيلة الصلبة رموزاً إلى الرحم أو أن تتخذ

الموضوعات المجوفة (مثل الأدراج والصناديق والعلب وغيرها) رموزا إلى القضيب — ذلك ما تأباه المخيلة على التحقيق .

وإنه لمن الصحيح أن نزوع الأحلام ونزوع المخيلة اللاشعورية إلى استعمال الرموز الجنسية استعمالا مزدوجاً ينم عن سمة أثرية ؛ لأن الطفل يجهل الفرق بين الأعضاء التناسلية وينسب ذات الأعضاء إلى كلا الجنسين . ولكن من السهل كذلك أن نساق إلى القول خطأ بوجود رمز جنسى مزدوج إذا نسينا أن هناك عكساً جنسياً عاماً يقع فى كثير من الأحلام ، بحيث يصور المذكر بالمؤنث ، والعكس . وأمثال هذه الأحلام قد تعرب — مثلا — عن رغبة المرأة فى أن تكون رجلا .

ومن الممكن كذلك أن تصور الأعضاء التناسلية بوساطة أجزاء أخرى من الجسم ، فتمثل عضو الذكر يد أو قدم ويمثل فتحة الفرج الفم أو الأذن أو حتى العين . وإفرازات الجسم البشرى — المخاط والدموع والبول والمنى ، الخ . — قد يحل بعضها محل البعض الآخر فى الحلم . وقد قيد رايتلر (١٩١٣ ب) قضية شتيكل هذه — وهى صحيحة فى جملتها — تقييدا نقدياً صائباً إذ لاحظ أن الأمر يتعلق فى جوهره بإحلال إفرازات لادلالة لها محل آخر له دلالته كالمنى .

هذه الإشارات على قصورها قد تكون كافية فى الحث على دراسة أخرى جامعة أشد عناية[١] . وقد حاولت من جانبى أن أتناول رمزية الحلم بمزيدمن التفصيل فى « محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى » (١٩١٦/١٩١٧)[٢] .

وأضرب الآن بضعة أمثلة على استخدام أمثال هذه الرموز فى الحلم ، أمثلة تبين كيف يستحيل الوصول إلى تفسير الحلم إذا استبعد المرء رمزية الحلم ، وكيف يضطر المرء فى حالات كثيرة إلى التسليم بهذه الرمزية تسليما لا منازعة فيه . غير أنى أود فى الوقت عينه أن أحذر من المغالاة فى تقدير أهمية الرموز فى الحلم حتى نقصر ترجمة الحلم على ترجمة الرموز تاركين منهج الاستناد إلى مستدعيات الحالم . فالواجب هو أن

(١) إنه مهما كان الفرق بين رأى شرنر فى رمزية الحلم وبين الرأى الذى أجريه على هذه الصفحات فمن الواجب أن أنبه إلى أن شرنر يجب أن يعد المكتشف الحقيقى للرمزية فى الحلم ، وأن الأبحاث التحليلية قد استرجعت لكتابه مكانته بعد أن ظل هذا الكتاب الذى نشر منذ عهد طويل (١٨٦١) يعد أثرا من آثار مخيلة جامحة .

(٢) [نقله إلى العربية الدكتور عزت راجح .]

تكمل كلتا الطريقتين الأخرى ، ولكن المحل الأول يظل دائماً – سواء من حيث العمل أو النظر – للطريقة التي بدأت بوصفها ، بينما تظل ترجمة الرموز فى متناولنا من حيث هى منهج مساعد .

١ – القبعة من حيث هى رمز إلى الرجل
(أو إلى أعضاء الرجل التناسلية)(١)

(نبذة من حلم امرأة فى مقتبل العمر تشكو مخافة الأماكن الطلقة نتيجة الخوف من الغواية)

« أسير فى شارع والفصل فصل الصيف حاملة قبعة من القش كان لها شكل غريب ، فقد مال جزؤها الأوسط متجهاً إلى أعلى بينما تدلت حافتاها إلى أسفل (تتلكأ فى الوصف ههنا) ، وتدلتا بحيث صار أحد الجانبين منخفضاً عن غيره . وكنت فى مزاج ملؤه المرح والثقة ، فلما مررت بجماعة من الضباط الشبان ، حدثت نفسى قائلة : ليس بينكم أحد يستطيع إيذائى . »

لما رأيت القبعة لا تستدعى شيئاً فى ذهن الحالمة ، قلت لها : « لا شك فى أن القبعة ترمز إلى عضو الرجل بجزئها الأوسط المتجه إلى أعلى وبحافتيها المتدليتين . قد يبدو عجيباً أن تكون القبعة رجلا ولكنك تعلمين كيف نقول : وَقَعَتْ تحت القبعة [وهو تعبير ألمانى بمعنى تَزَوَّجَتْ] . » وامتنعت عامداً عن أن أفسر لها تدلى حافتى القبعة تدلياً غير متساو ، مع أن أمثال هذه التفاصيل هى التى يجب أن تحدد اتجاه التفسير . ولكنى مضيت أقول : إنها وقد أصبح لها بذلك زوج له هذه الأعضاء الفاخرة لم تعد بحاجة إلى أن تخشى شيئاً من هؤلاء الضباط ، أي لم تعد بحاجة إلى أن ترغب فى شىء منهم ؛ فقد كان ما تتخيله من إمكانية إغوائها هو السبب الجوهرى الذى يحول بينها وبين الخروج من غير حام أو صحبة . وكنت قد استطعت مراراً من قبل أن أفسر هيلتها هذا التفسير الأخير استناداً إلى مادة أخرى .

وكان مسلك الحالمة عقب هذا التفسير مسلكاً ملحوظاً إلى أبعد مدى : ذلك أنها استردت وصفها للقبعة وأصرت على أنها لم تقل قط : إن حافتيها كانتا تتدليان . ولكنى كنت موقناً مما سمعت يقينا يستحيل معه التضليل ، فثبت على موقفى . وظلت هى صامتة برهة ثم وجدت الشجاعة الكافية لكى تسأل : ما معنى أن تتدلى إحدى الخصيتين عند

---

(١) من " إضافات إلى تفسير الأحلام " فرويد ١٩١١ أ .

زوجها دون الأخرى ، وهل الأمر كذلك عند جميع الرجال ؟ وبهذا اتضحت تلك الخاصة العجيبة فى القبعة ولىّ التفسير كله قبول الحالمة .

لقد كنت أعرف رمز القبعة منذ زمن طويل حين روت لى الحالمة هذا الحلم . وكانت هناك حالات أخرى ، لكنها أقل شفافية ، جعلتنى أعتقد أن القبعة قد تنوب كذلك عن عضو المرأة التناسلى[١] .

٢ ــ الطفل الصغير رمز إلى عضو التناسل

السقوط تحت العربة رمز إلى الجماع

(حلم آخر للمريضة السابقة)

أرسلت أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث اضطرت إلى أن تذهب وحدها . تركب بعد ذلك قطاراً مع أمها وتلمح صغيرتها وهى تسير على سكة الحديد بحيث لا يصبح مفر من وقوعها تحت عجلات القطار . تسمع قعقعة عظامها (ويحدث ذلك فى نفسها شعوراً غير مريح ولكنه لا يبلغ مبلغ الارتياع الحق) . تدير نظرها خارج نافذة العربة لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف ثم تنحى على أمها باللائمة لأنها تركت صغيرتها تخرج وحدها .

التحليل : ليس من السهل أن نورد التفسير الكامل لهذا الحلم ؛ فهو قد جاء بين أحلام تتابعت حلقاتها ولا يمكن فهمه إلا موصلا بسائره ؛ وإن لمن الصعب أن نعزل المادة اللازمة لإثبات رموزه عزلا كافياً . ــ رأت الحالمة أولا أن رحلة القطار ينبغى تفسيرها تفسيراً تاريخياً ؛ فهى تشير إلى رحلة قامت بها حين غادرت مصحة للأمراض العصبية لانحتاج إلى أن نقول : إنها قد أغرمت بمديرها . وكانت أمها قد ذهبت إليها لتصطحبها وجاء الطبيب إلى المحطة وأسلمها باقة من الزهور ، هدية فراق ، وكان يحرجها كل الحرج أن تشهد أمها هذه التقدمة . وأمها ــ إذن ــ تظهر فى هذا الموضع فى صورة شخص يعكر صفو جهودها من أجل أن تحب ، وهو دور لعبته هذه السيدة الصارمة حقيقة والمريضة لا تزال فتاة . ــ وتدور مستدعياتها بعد ذلك حول هذه الجملة : تدير نظرها لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف . إن مظهر الحلم يحملنا بالطبع على أن نظن أن المعنى هو أجزاء فتاتها الصغيرة التى جرى القطار فوقها وطحنها . ولكن مستدعياتها تذهب

---

(١) أنظر مثالا من هذا النوع رواه كرشجرابر (١٩١٢) . وروى شتيكل (١٩٠٩ ، ٤٧٥) حلما ترمز فيه قبعة ثبتت فى وسطها ريشة مقوسة إلى رجل (عاجز عجزاً جنسياً) .

بها فى اتجاه آخر : فهى تذكر أنها رأت والدها عارياً فى غرفة الاستحمام مرة ، ورأته من الخاف . وتمضى المريضة فتتحدث عن الفروق بين الجنسين ، وتلح على كون الأعضاء التناسلية للرجل تمكن رؤيتها من الخلف بينما الحال مع المرأة خلاف . وفى هذا السياق تفسر المريضة بنفسها « الصغيرة » بكونها تعنى أعضاء التناسل و « صغيرتها » بمعنى أعضائها هى — وكانت لها طفلة فى الرابعة . وهى تنحى باللائمة على أمها لأنها أرادت لها أن تحيا كما لو لم تكن لها أعضاء تناسل ، وتنبه إلى أن هذا اللوم متضمن فى جملة الحلم الأولى : ترسل أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث تضطر إلى أن تذهب وحدها . فأن تذهب وحدها فى الطريق يعنى فى مخيلتها أن تكون بغير رجل ، أى بغير حياة جنسية (Coire = سار مع)[1] ، وإنها لتكره ذلك . ويخلص من كل رواياتها أنها — وهى فتاة — قد عانت الأمرين حقيقة من جراء غيرة أمها منها ، غيرة مبعثها إيثار أبيها لها .

فأما التفسير الأعمق لهذا الحلم فيتضح من حلم آخر أتاها فى الليلة عينها ، وهو حلم عينت فيه ذاتها بأخيها . والحق أنها كانت فتاة كالولد ، ولكم سمعت أنه كان أولى بها أن تكون صبيا. هذا التعيين بالأخ قد أضفى وضوحا خاصا على ماتشير إليه « الصغيرة » من معنى عضو التناسل ؛ فالأم كانت تهدد الأخ (أى تهددها) بالخصاء ، ، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا عقاباً على اللعب بأعضاء التناسل ، وتعيينها ذاتها بأخيها يدل بذلك على أنها قد مارست هى نفسها الاستمناء — وهو أمر لم تعد تذكره اليوم إلا عن أخيها وحده . ويخلص من معطيات هذا الحلم الثانى أن المريضة لابد قد حصلت على بعض المعرفة بأعضاء الذكر التناسلية فى ذلك الوقت المبكر ، معرفة آلت بعد ذلك إلى النسيان . أضف أن هذا الحلم يشير إلى النظرية الجنسية التى يعتقد الأطفال بمقتضاها أن الفتيات صبيان مخصيون . وإنى حين أشرت إلى هذا الاعتقاد الطفلى أيدته على الفور بقصة تحكى عن ولد صغير يسأل فتاة صغيرة : مقطوع ؟ فتجيبه الفتاة : كلا ، كان كذلك دائماً .

وعلى ذلك فإرسال الصغيرة (عضو التناسل) إلى الشارع يتعلق فى الحلم الأول أيضاً بوعيد الخصاء ، وهى فى النهاية حانقة على أمها لأنها لم تلدها ولداً .

فأما أن « السقوط تحت العربة » يرمز إلى الجماع فلا يتضح من هذا الحلم ، وإن كان قد تأيد من مصادر أخرى متعددة .

---

(١) [coire فعل لاتينى بمعنى جامع ، وترجمته الحرفية سار مع أو ساير .]

٣ – تصوير أعضاء التناسل بوساطة المبانى والسلالم والمغاور

(حلم شاب كَفّه مركب الأب)

يتمشى مع والده فى مكان لا شك فى أنه منتزه پراتر[١] ؛ لأنه – أعنى الحالم – يرى مبنى الروتوندا وقد تقدمه بناء صغير شد إليه منطاد بحبال ، غير أن المنطاد بدا متراخياً بعض الشىء . يسأله والده لم كل هذا ؟ و يعجب الحالم لسؤال أبيه غير أنه يشرح الأمر له . يجيئان بعد ذلك إلى فناء طرح على أرضه لوح من الصفيح . يريد والده أن ينتزع جزءاً منه ، ولكنه يدير البصر حوله قبل الإقدام على هذا الفعل لكى يرى هل هناك عين ترقبه . يقول لأبيه : إنه لا يحتاج سوى إلى مصارحة الحارس وله بعد ذلك أن يأخذ ما أراد وهو خالى البال . ينحدر من الفناء درج إلى مغارة فى جوف الأرض نجدت حوائطها تنجيداً وثيراً كما يكون للمقاعد الجلدية ، وفى نهاية المغارة دهليز طويل تبدأ بعده مغارة ثانية . . .

إن هذا المريض ينتسب إلى طائفة من المرضى لا يبشر العلاج معهم بخير كثير ؛ فهم يماشون التحليل مسافة معينة دون أن تظهر منهم مقاومة ما ثم بعد ذلك ينقلبون فلا يكاد يكون ثمت مجاز إليهم . ولقد استقل المريض بتفسير حلمه هذا استقلالا كاد أن يكون تامًّا ، فقال : « إن الروتوندا هى أعضاء التناسل عندي والمنطاد المشدود قدامها قضيبى الذي أرى فى ارتخائه مدعاة إلى شكاتى . » ولنا إذن أن نزيد كلامه تفصيلا فنترجم الروتوندا بالردفين – اللذين يدخلهما الطفل بين أعضاء التناسل عادة – ونترجم المبنى الصغير الذى يتقدم الروتوندا بكيس الخصيتين . ويسأله أبوه فى الحلم ما معنى هذا كله ، أى ما الغرض من أعضاء التناسل وما عملها ، ولكن لا يخفى أن العكس هو الصحيح بحيث يكون المسئول سائلا . ولما كانت الحقيقة هى أنه لم يسأل والده مثل هذا السؤال قط فعلينا أن نقدر أن فكرة الحلم رغبة أو شىء أشبه بجملة شرطية : « لو أننى سألت والدى بعض الإيضاح الجنسى . . . » وستتكشف لنا بقية الجملة عاجلا .

وأما الفناء الذى طرح لوح الصفيح على أرضه فلا ينبغى أن نبدأ بأخذه مأخذا رمزيا ، بل هو مستمد من محل عمل والده . ولقد اقتضى داعى الأمانة على السر أن أستبدل الصفيح بالمادة الأخرى التى يتجر فيها والد الحالم دون أن أغير شيئاً من نص الحلم فيما خلا ذلك . وكان الحالم قد التحق بمؤسسة أبيه واحتج احتجاجاً عنيفاً على ما

(١) [منتزه معروف فى ضواحى ڤيينا ، ورد ذكره من قبل فى ص ٢١٣ .]

رآه من تصرفات مشبوهة بعض الشيء كانت تعتمد عليها أرباح المؤسسة إلى حد ، ومن هنا جاز أن نكمل فكرة الحلم المذكور فى الفقرة السابقة على هذا النحو : « (لو أننى سألته) لغشنى مثلما يصنع بعملائه . » فأما الانتزاع الذى أفاد فى تصوير غش الأب فيورد الحالم من تلقاء نفسه تفسيره الثانى : إنه يعنى الاستمناء – وهو تفسير عرفناه منذ زمن طويل (أنظر ص ٣٥٦). ولكن يؤيده هنا أتم التأييد أن يُعْرَب عن السر الذى يحوط الاستمناء عادة بضده (من الممكن أن يؤتى ذلك علانية) . ويتفق وتوقعنا بعد ذلك كل الاتفاق أن ينقل الاستمناء إلى الأب مثل السؤال فى المشهد الأول من الحلم . وأما المغارة فيبادر الحالم – وهو يفكر فى حشو حوائطها الوثير – إلى تفسيرها بالمهبل . وأضيف مستنداً إلى ما تعلمته من تحليلات أخرى أن النزول – مثل الصعود فى بعض الحالات – يصف الاتصال الجنسى فى المهبل (أنظر ملاحظاتى فى ١٩١٠ د ، وانظر الهامش الذى فى ص ٣٦١ من هذا الكتاب) .

وأما أن يتبع المغارة الأولى دهليز طويل ثم مغارة ثانية فيفسره الحالم أيضاً تفسيراً مستمداً من تاريخ حياته : فهو قد عرف الجماع حينا ثم انقطع نتيجة للكف ويرجو اليوم أن يعينه العلاج على استرجاع قدرته . بيد أن الحلم يغمض مع ذلك قرب النهاية ، ولا شك فى أن كل عارف سوف يرجح أن موضوعاً آخر قد أخذ يتطرق إلى المشهد الثانى من الحلم ويؤثر فيه تأثيره ، وهو موضوع يشير إليه عمل الوالد وتصرفاته المحتالة والمهبل الأول المصور فى صورة المغارة ، وهكذا يستطيع المرء أن يفترض أن لهذا الموضوع صلة بالأم .

٤ – الرمز إلى أعضاء التناسل عند الرجل بوساطة الأشخاص وعند المرأة بمنظر طبيعى

(حلم امرأة من عامة الشعب كان زوجها من رجال الشرطة)

(رواه ب . داتنر)

. . . وعندئذ اقتحم البعض الشقة فصاحت – وقد امتلأت رعباً – تستنجد رجلا من رجال الشرطة ولكن رجل الشرطة هذا يدخل فى هدوء كنيسة [Kirche] [1] كانت تسلم إليها عدة من الدرجات [2] ، وكان يصحبه أفاقان.

---

(١) أو كنيسة صغيرة [Kapelle] = مهبل .

(٢) رمز إلى الاتصال الجنسى .

كان يشمخ من وراء الكنيسة جبل [١] تعلوه غابة كثيفة [٢] . وكان رجل الشرطة يرتدى خوذة وصدارا معدنياً وعباءة . [٣] وكانت له لحية سمراء ، وأما الأفاقان اللذان كانا يصحبانه فقد شد كل منهما إلى حقوه إزارا أشبه بالفرارة [٤] . كان هناك طريق يبيلم من الكنيسة إلى قمة الجبل وعلى جانبى هذا الطريق نبتت حشائش وشجيرات كانت تزيد على طول الطريق كثافة حتى صارت فوق قمة الجبل غابة حقيقية .

٥ — أحلام الخصاء عند الأطفال

ا) استيقظ طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات وخمسة أشهر — وكان من الجلى أنه لا يرتاح إلى فكرة رجوع والده من جبهة القتال — استيقظ ذات صباح منزعجاً ، سائلا ، ملحاً فى السؤال : لم كان بابا يحمل رأسه على طبق ؟ كان بابا يحمل رأسه على طبق فى الليلة الماضية .

ب) ويذكر طالب يعانى اليوم عصاباً قهرياً شديداً أن الحلم الآتى قد عاده مرات متكررة وهو فى السادسة من عمره : يذهب إلى الحلاق لكى يقص شعره . تدخل عندئذ امرأة ضخمة صارمة الملامح وتقطع رأسه . يعرف أن المرأة أمه .

٦ — رموز البول

إن الرسوم التى يراها القارئ هنا قد اكتشفها فرنتسى فى صحيفة هزلية هنغارية (هى صحيفة « فيديبوس ») فلم يفته أن يرى كيف يمكن استخدامها فى تصوير نظرية الحلم ، ولقد سبق أوتو رانك إلى نقلها فى مقال له (١٩١٢ أ) .

كانت هذه الصور تحمل العنوان الآتى : « حلم مربية فرنسية » ولكن الصورة الأخيرة التى ترينا المربية وهى تستيقظ على صراخ الطفل هى وحدها التى تجعلنا ندرك أن الصور السبع السابقة إنما تصور مراحل فى حلم واحد . فالصورة الأولى تبين المنبه الذى كان ينبغى أن يؤدى إلى اليقظة : فالطفل يستشعر حاجة ويطلب معاونته على قضائها . ولكن الحلم يخيل إلى الحالمة أنها تصطحب الطفل فى نزهة وليست نائمة فى غرفته . وهى فى الصورة الثانية قد أخذته إلى جانب الطريق حيث نراه يتبول — ولها إذن أن تمضى فى نومها . ولكن المنبه يستمر ، بل يزداد ؛ فالطفل إذ لا يجد أحداً يسارع

---

(١) Mons veneris [جبل الزهراء .]

(٢) Crines pubis [شعر العانة .]

(٣) فى رأى خبير أن الشياطين المكتسية بعباءات وطراطير ذات طبيعة قضيبية .

(٤) نصفا كيس الخصيتين .

إليه يرفع صوته بالصراخ . وكلما ألح فى إيقاظ مربيته وفى طلب عونها أكد لها الحلم أن كل شىء على ما يرام وأنه لا داعى يدعوها إلى الاستيقاظ . وفى هذا الوقت عينه يصور الحلم الزيادة فى المنبه بالزيادة فى أبعاد الرموز الرامزة إليه : فمجرى الماء الذى يحدثه التبول يزيد عنفوانا ، فما أن تأتى الصورة الرابعة حتّى تصير منه الكفاية لقارب ذى مجداف ، ثم لجندل ، فمركب ذى شراع ، وفى النهاية باخرة . وهكذا استطاع رسام ماهر أن يصور الصراع بين حاجة عنيدة إلى النوم ومنبه لحوح يدفع إلى اليقظة تصويراً حاذقاً .

٧ ــ حلم سلم

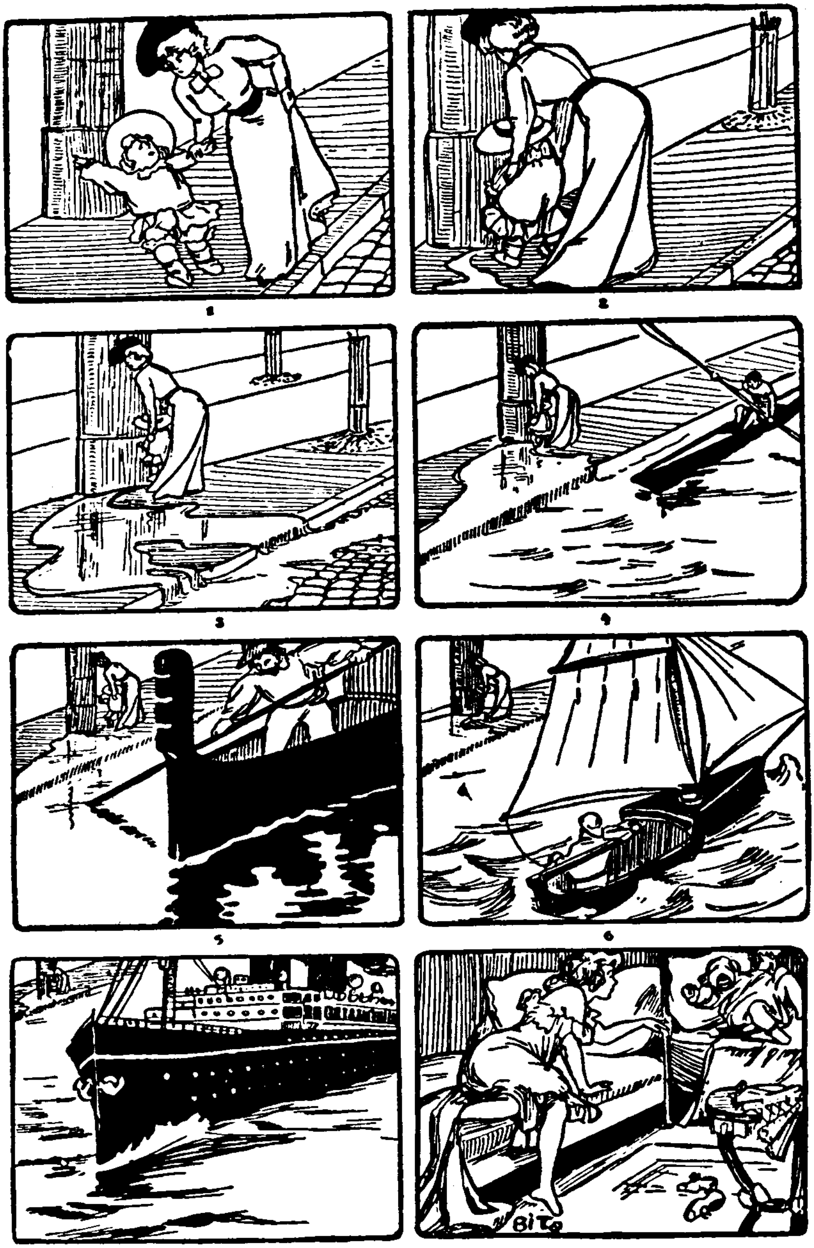
(رواه أوتو رانك وفسره)

« وأشكر أيضاً هذا الزميل الذى أدين له بحلم المنبه السنّى (وهو حلم مذكور هنا فى ص٣٩٢ وما بعدها) على حلم آخر من أحلام الإمناء لا يقل عنه شفافية :

« أنهب السلم ملاحقاً فتاة صغيرة ارتكبت فى حقّ شيئاً ما أريد عقابها عليه . يوقفها لى عند نهاية السلم شخص ما (أهو امرأة راشدة ؟) أمسك بالفتاة ، ولا أعلم هل ضربتها ، لأننى وجدتنى فجأة على منتصف الدرج أجامع الطفلة (كما لو كان ذلك فى الهواء) . لم يكن ذلك جماعاً حقيقياً ، بل كنت أحك بعضوى أعضاءها الخارجية التى كنت أراها فى هذه الأثناء متميزة غاية التميز كما كنت أرى رأسها الذى ارتد إلى الوراء بميل إلى أحد الجانبين . وبينما كنت آخذا فى الفعل الجنسى رأيت صورتين معلقتين فوقى عن يسارى (كما لو كان ذلك أيضاً فى الفضاء) ، وكانت كلتاهما تصور منزلا تحيط به الأشجار وكان اسمى مكتوباً بأسفل أصغر الصورتين فى موضع توقيع الرسام ، كأنما أريد بالصورة أن تكون هدية عيد ميلاد إلى . وعلقت أيضاً أمام الصورتين لافتة كتب عليها : الصور الأرخص يمكن الحصول عليها أيضاً (وعندئذ أرانى كما لو كنت نائماً فى سرير على فسحة السلم رؤية مبهمة إلى أبعد حد) ثم يوقظنى شعور بالبلل الذى أحدثه الإمناء .

« التفسير : ذهب الحالم فى مساء يوم الحلم إلى إحدى المكاتب وبينما كان ينتظر تلبية طلبه أجال بصره فى صورة كانت تعرض هناك وكانت تصور موضوعات أشبه بما رآه فى الحلم . وراقته بنوع خاص لوحة صغيرة فاقترب منها ليتبين اسم الرسام ، فكان اسماً لا يعرفه على الإطلاق .

« وحدث بعد ذلك فى هذه الأمسية عينها أنه كان فى رفقة جماعة من الأصدقاء ، فسمع قصة تحكى عن خادم بوهيمية كانت تفاخر بأن ابنها غير الشرعى قد صنع على السلم . واستفسر الحالم عن تفاصيل هذه القصة غير المألوفة فعلم أن الخادم اصطحبت عاشقها يوماً إلى منزل والديها فلم يجدا هناك فرصة للاجتماع وغلب الشبق الرجل فأتى فعله


1
2
3
4
5
6
BiTo

معها على السلم . وعندئذ لمح الحالم تلميحاً مازحاً إلى تعبير خبيث يطلق فى وصف الأنبذة المخلوطة : إن هذا الطفل قد جاء حقيقة ' من كرمة زرعت فى بئر سلم .'

« تلك هى وشائج الحلم باليوم السابق ، وهى وشائج ظهرت فى محتوى الحلم بشىء من الإلحاح وسردها الحالم دون أن يلاقى فى سردها صعوبة ما . ولكنه ذكر أيضاً بمثل هذه السهولة طرفاً من إحدى ذكريات طفولته ، ذكرى لقيت هى الأخرى فى الحلم وجه استخدامها : فالسلم قد أخذ من المنزل الذى قضى فيه الحالم معظم طفولته وفيه — على الأخص — حصل أول معرفته الشعورية بالمسائل الجنسية . وكان الحالم كثيراً ما يلعب على هذا السلم ، ومن صنائعه فى هذا المضمار امتطاء الحُلّق والترحلق عليه وهو فعل كان يطلق عنده أحاسيس ذات طابع جنسى . وإنه فى الحلم كذلك يندفع على الدرج فى سرعة خارقة حتّى أن قدميه — على حسب تعبيره — لم تكونا — والحق يقال — تلمسان السلم درجة فدرجة ، بل كانتا « تطيران » طيراناً — كما تقول . فإذا حسبنا لهذه الخبرة الطفلية حسابها ، بدا أن بداية الحلم تصور عامل الهياج الجنسى . — غير أن الحالم قد عبث أيضاً مع أبناء الجيران عبثاً جنسياً فوق هذا السلم وسلم البيت المجاور وكثيراً ما أشبع رغباته الجنسية فى خلال هذا العبث على نحو يماثل نحو إشباعها فى الحلم كل المماثلة .

«فإذا تذكرنا أن أبحاث فرويد (أنظر ١٩١٠أ [وانظر ص٣٦٣فيما سبق]) قد بينت أن السلالم وصعودها تقوم فى الحلم مقام الجماع قياماً لا يكاد يكون له استثناء، غدا الحلم شفافاً كل الشفافية . فالدافع إليه — كما يظهر فى الحقيقة من خاتمته ؛ وهى الإنزل — كان دافعاً ليبيديا محضاً . فقد استيقظ الهياج الجنسى للحالم أثناء نومه — وهو ما تصور فى الحلم باندفاعه على السلم — وكان فى هذا الهياج عنصر سادى يرجع تكونه إلى عبث الطفولة ودلت عليه مطاردة الحالم للطفلة وسبقه إياها . وزاد الهياج الليبيدى شدة حتّى حث على الفعل الجنسى — وهو ما تصور فى إطباق الحالم على الطفلة وحمله إياها إلى منتصف السلم . وإلى هنا لم يكن الحلم جنسياً إلا على نحو رمزى ، ولعل الحلم كان يستغلق كل الاستغلاق على من لا مراس له بتفسير الأحلام . بيد أن مثل هذا الإشباع الرمزى لم يكف لأن يكفل للحالم رقوداً هادئاً ؛ لشدة التهييج الليبيدى. فكان أن أدى التهييج إلى الإنزال ، وبذا انكشف أن رمزية الحلم بحذافيرها كانت تصور الجماع . — وإذا كان

فرويد يذهب إلى أن أحد الأسباب الداعية إلى استخدام صعود السلم رمزاً جنسيًّا هو الطابع التوقيعى الذى لكلا الفعلين ، فهذا الحلم شاهد يؤيد كلامه فى وضوح خاص ؛ لأن الحالم قد ذكر صراحة أن أبرز عناصر حلمه جميعاً كان توقيع الفعل الجنسى وحركته صعوداً وهبوطاً .

« تبقى ملاحظة خاصة بالصورتين اللتين ظهرتا فى الحلم بمعنى رمزى ، بمعنى 'صور نساء' [1] إلى جانب المعنى الموضوعى : إن ذلك ما يشهد به وجود صورة كبيرة وأخرى صغيرة مثلما جاءت فى الحلم من قبل امرأة كبيرة (أو راشدة) وطفلة صغيرة . كما أن إمكانية الحصول على الصور الأرخص تؤدى إلى مركب البغايا . هذا بينما يلمح إلى المركب الوالدى ظهور اسم الحالم فى الصورة الصغرى ثم تفكيره فى أن هذه الصورة يراد إهداؤها إليه يوم عيد مولده (ولد على السلم = جاء نتيجة الجماع) .

« فأما المشهد الأخير غير المتميز — حين يرى الحالم نفسه راقداً فى سريره على فسحة السلم مع إحساس بالبلل — فيبدو أنه يشير إلى عهد من عهود الطفولة يسبق عهد الاستمناء الطفلى أيضاً . وأغلب الظن أنه مشهد يستمد مثاله المحتذى من مشاهد مشبعة أيضاً باللذة تتعلق ببلل الفراش . »

٨ — حلم سلم معدل

كان بين مرضاى مريض ينفر من الحياة الجنسية نفوراً أملاه عصاب شديد وكانت تخييلاته مثبتة على أمه وكان يحلم مراراً بأنه يصعد السلم فى صحبتها . واتفق أنى ذكرت له أن الاستمناء مع شىء من القصد لن يضره فى أغلب الظن ضرر امتناعه القهرى هذا ، فكان من أثر هذه الملاحظة أنه حلم الحلم الآتى :

« يؤنبه معلم البيانو على إهماله العزف ولأنه لم يجود ' دراسات ' موشليس ولا ' مراقى البارناس ' لكليمنتى . »

ويعقب المريض على هذا الحلم فيلاحظ أن المراقى أيضاً درجات وأن المعزف نفسه درج لأنه يحتوى على سلالم .

---

(١) ["Weibsbilder" تعبير ألمانى دارج بمعنى : نساء .]

إن المرء لا يجانب الحق إذا قال : إنه ما من طائفة من الأفكار إلا أمكن استخدامها فى تصوير حقائق الحياة الجنسية ورغباتها .

٩ – الشعور بأن ما يرى فى الحلم حقيقة وتصوير التكرار

قص رجل يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره حلماً يتذكره تذكرا واضحاً ويدعى أن هذا الحلم قد أتاه وهو فى الرابعة من عمره : أحضر مسجل العقود المكلف بإنفاذ وصية والده – وكان والده قد مات وهو طفل فى الثالثة – كمثريين كبيرتين ، أعطى إحداهما ليأكلها ووضعت الثانية على عارضة النافذة التى فى حجرة الجلوس . واستيقظ الحالم وهو مقتنع بحقيقة ما رأى حتى أنه ألح على أمه فى طلب الكمثرى الثانية مؤكداً أنها ما زالت بعارضة النافذة مما أثار ضحك أمه .

التحليل : كان مسجل العقود سيدا متقدماً فى السن مرح الطبع ، واتفق ذات مرة أنه أحضر حقيقة بعض الكمثرى – كما يعتقد الحالم تذكره . وأما عارضة النافذة فكانت كما رآها فى الحلم ، ولم يخطر بباله خاطر آخر بصددها – سوى أن أمه كانت قد روت له حلماً منذ زمن قريب : رأت طائرين يقبعان فوق رأسها ، فسألت نفسها ، متى يطيران بعيداً عنها ؟ ولكنهما لم يطيرا بعيدا ، بل طار أحدهما إلى فمها وأخذ يحسو منه .

وكان وقوف مستدعيات الحالم يخول لنا الحق فى أن نحاول تفسير حلمه بترجمته الترجمة الرمزية : إن الكمثريين – تفاح وكمثرى[1] – هما ثديا الأم اللذان غذياه ، وأما عارضة النافذة فهى بروز صدرها ، مثل الشرفات فى أحلام المنازل [أنظر ص ٣٦٢] . وهو محق فى شعوره بعد اليقظة بحقيقة ما رأى ؛ فقد أرضعته أمه حقيقة ، بل تمادت فى ذلك إلى ما يعدو الحد المألوف كثيراً وكان صدرها إذ ذاك لا يزال مباحاً له . فالحلم تنبغى ترجمته : يا أماه ، اعطنى (أو أرينى) مرة ثانية صدرك الذى نهلت منه مرة من قبل . . و « المرة التى من قبل » قد ترجمت فى الحلم بالكمثرى التى أكلت ، وترجمت « المرة الثانية » بسؤاله عن الأخرى . فالتكرار الزمنى للفعل ينقلب فى الحلم بانتظام إلى تكثير عددى للموضوع .

---

(١) [pommes et poires . – رموز دارجة إلى الأثداء فى اللغة الفرنسية .]

ولأن تأخذ الرمزية بنصيب فى حلم طفل ما زال فى الرابعة أمر بالطبع من أشد الأمور جذبا للنظر . ولكن ذلك ليس استثناء بل هو القاعدة . وما نجانب الصواب إذا قلنا : إن الحالم يجد لغة الرموز فى متناوله منذ البدأ .

وها هى ذى ذكرى خالية من كل تأثير غريب تقصها سيدة تبلغ اليوم السابعة والعشرين من عمرها ، وإنها لترينا بأى سن مبكرة يصطنع الإنسان لغة الرموز خارج الحياة الحالمة كما فى داخلها : كانت سنها بين الثالثة والرابعة حين أخذتها مربيتها إلى مرفق المياه مع أخيها الذى يصغرها بأحد عشر شهراً وفتاة قريبة تتوسطهما فى العمر ، لكى يقضى الجميع حاجاتهم قبل أن يخرجوا للنزهة. وكانت هى أكبر الثلاثة فجلست على مرحاض الكبار فى حين جلس الطفلان الآخران على الأصص المخصصة للأطفال . وهنا سألت الراوية قريبتها : أأنت أيضاً تملكين كيساً ؟ إن ڤالتر يملك سجقاً صغيراً ، وأما أنا فكيس . فأجابت القريبة : نعم ، أنا أيضاً أملك كيساً . وسمعت المربية حديثهما ضاحكة ثم نقلته إلى سيدتها ، فكان جوابها تقريعاً محتداً .

وأسرد فى هذا الموضع حلماً مكنتنا رموزه البديعة المنتقاة من تفسيره بغير كبير استعانة بمستدعيات الحالمة :

١٠ — « مسألة الرمزية فى أحلام الأصحاء »[١]

« هناك اعتراض يكثر منه خصوم التحليل النفسى — ورَدده هاڤلوك إليس أخيراً[٢] وهو يتلخص فى أن رمزية الحلم قد تكون نتاجاً للنفس العصابية ولكنها تفقد كل صدق فيما يتصل بالأشخاص السويين . وإن البحث التحليلى النفسى إذا كان لا يرى فارقاً أساسياً بين الحياتين السوية والعصابية ، بل كل الفرق عنده فى الكم ، فإن تحليل الأحلام التى تعمل فيها المركبات المكبوتة عند المرضى والأصحاء على السواء يرينا عينية تامة بين الأحلام هنا وهناك ، سواء أمن حيث الميكانيكيات أم من حيث الرموز ، بل إن أحلام الأصحاء الساذجة كثيراً ما تحوى رموزاً أقل تعقيداً وأكثر شفافية ودلالة مما يرد

(١) عن ألفريد روبيتسك ، ١٩١٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) " عالم الأحلام " لندن ١٩١١ ، ص ١٦٨ .

فى أحلام العصابيين ؛ فهذه قد تستغلق على التفسير وتتعذر نتيجة لفعل الرقابة الأشد وما ينجم عنه من تشويه أوسع نطاقاً . والحلم الذى أرويه ينفع فى تصوير هذه الحقيقة . إنه حلم فتاة لا تشكو عصاباً ، يغلب على طبعها الخفر والتحفظ ، علمت وأنا أتحدث معها أنها قد خطبت ولكن تحول دون زواجها عقبات ربما ألجأت إلى إرجائه . ولقد روت لى الحلم الآتى من تلقاء نفسها :

« أهيئ وسط إحدى الموائد بأزهار استعداداً لعيد ميلاد [١] . وتقول الفتاة إجابة عن سؤال سألتها إياه : إنها بدت فى الحلم كأنما كانت فى بيتها (وهى لا تعيش فيه فى الوقت الحاضر) . وأن شعورا بالسعادة كان يخالجها .

« إن الرموز ' الشعبية ' تمكننى من ترجمة هذا الحلم وحدى . فهو يعرب عن رغبتها فى العرس : فالمائدة المزدانة بالأزهار فى وسطها ترمز إليها هى وإلى أعضاء التناسل عندها . وهى تصور رغبة المستقبل محققة : فها هى ذى تشغل بالتفكير فى عيد ميلاد الطفل كأنما الزواج وراءها بينه وبينها أمد بعيد .

« وأقول لها : إن وسط إحدى الموائد [٢] تعبير غريب بعض الغرابة (وهو أمر توافقنى عليه) ولكننى بطبيعة الحال أحجم عن أن أوجه إليها سؤالا مباشراً فى هذا الصدد ؛ فقد كنت حريصاً على ألا أوحى إليها تفسير الرمز ، واكتفيت بسؤالها عما يدور بخلدها فيما يتصل بأجزاء الحلم المتفرقة . ولم يلبث تحفظها أن انحسر فى سياق التحليل ليحل محله اهتمام بالتفسير ومصارحة مكن لها ما اتسم به الحديث من طابع الجد . ـــ سألتها أى الأزهار كانت ، فأجابت على الفور : أزهار غالية لا ينالها المرء إلا إذا دفع [٣] ، ثم أردفت : زنابق الوادى وبنفسج وقرنفل [٤] ، وتراءى لى أن كلمة الزنبق قد وردت فى هذا الحلم بمعناها الشعبى من حيث هى رمز للطهارة ، فأيدت الفتاة كلامى لأن الزنبق يستدعى فى ذهنها الطهارة . ولكن الوادى رمز أنثوى يشيع فى الأحلام ، فكأن رمزية

(١) [I arrange the centre of a table with flowers for a birthday.]

(٢) [the centre of a table.]

(٣) ['Expensive flowers; one has to pay for them']

(٤) ['Lilies of the valley, violets and pinks or carnations' ?]

الحلم قد استغلت التقاء كلا الرمزين التقاء عارضاً فى الكلمة الإنجليزية الدالة على هذه الزهرة(١) من أجل توكيد نفاسة عذرها — أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع — ومن أجل الإعراب عن أملها فى أن يعرف رجلها كيف يقدر قيمتها حق قدرها ولن نلبث دون أن نرى أن هذه الملاحظة : أزهار غالية . . . إلخ . كان لها معنى يختلف باختلاف الأزهار الثلاث الرامزة .

« وخطر لى — وهو خاطر بدا لى غاية فى الجرأة — أن أفسر 'violets' [بنفسج] الظاهرة الحلو من كل وجه جنسى بصلة بينها وبين الفرنسية 'viol' [اغتصاب] ، فشد ما كان دهشى إذ رأيت الحالة تستدعى 'violate' وهى الكلمة الإنجليزية الدالة على : اغتصب . فكأن الحلم قد استغل هذا الجناس العارض الكبير بين كلمتى 'violet' و 'violate' — والحق أنهما لا يختلفان فى النطق الإنجليزى إلا من حيث نبرة المقطع الأخير — فى الإعراب بـ " لغة الأزهار " عن أفكار الحالة حول القسوة التى فى فض زهرة العفاف (وهو تعبير آخر يستخدم لغة الرموز) ، ولعله استغله فى الإعراب كذلك عن سمة ماسوشية من سمات طبعها — وهو مثال جميل على الجسور اللفظية التى يمر بها الطريق إلى اللاشعور . وأما قولها : لا ينالها المرء إلا إذا دفع فيعنى — فى هذا الموضع — حياتها التى يجب أن تدفعها لكى تصير زوجاً وأما .

« وأما كلمة 'pinks' [قرنفل] التى ألحقت بها مرادفها 'carnations' فقد ذهبت بخاطرى إلى الصلة بينها وبين الكلمة الإنجليزية التى بمعنى " لحمى " (٢) ولكن الحالة فكرت فى كلمة 'colour' (لون) ، ثم أضافت أن الـ 'carnations' [القرنفل] أزهار كان خطيبها يهديها إليها فى مناسبات كثيرة وبمقادير كبيرة . غير أنها بعد أن فرغت من كلامها صرحت فجأة من تلقاء نفسها بأنها لم تقل الصدق : فالكلمة التى خطرت لها لم تكن 'colour' بل 'incarnation' (التجسد) [وبالحرف : الحلول فى لحم] — وهى الكلمة التى كنت توقعتها . ونلاحظ بعد ذلك أن كلمة 'colour' ذاتها لم تكن جاءت عفوا ، بل ساقها معنى كلمة 'carnation' (لون اللحم) (٣) ، وهى إذن كانت محتمة بالمركب .

---

(١) [قلنا : زنابق الوادى ، بترجمة حرفية لاسم هذه الزهرة فى اللغة الإنجليزية تسهيلا لمتابعة النص والمقصود نوع من الزنبق أو السوسن .]

(٢) [المقصود كلمة carnal ويراد بها : حسى أو جنسى .]

(٣) [ويراد به الأحمر القرمزى .]

« وترينا هذه المواربة أن المقاومة قد بلغت فى هذا الموضع أقصى مداها وهو ما يتفق وكون الرمز كان ههنا أكثر ما يكون وضوحاً ، وأن الصراع بين الليبيدو والكبت قد بلغ أشده فيا يتصل بهذا الموضوع القضيبي . وملاحظة الحالمة أن خطيبها كان يهدى إليها هذه الأزهار كثيراً لم تكن تشير — إذن — إلى المعنى المزدوج الذى لكلمة 'carnation' وحسب [" قرنفل " و "فى لون اللحم"] ، بل كانت تشير كذلك إلى مضمونها القضيبي فى الحلم . وهدية الأزهار — وكانت هى الحدث اليومى الذى بعث على الحلم — قد استخدمت فى التعبير عن أفكار تدور حول تبادل العطايا الجنسية : إنها تهدى بكارتها وتنتظر فى مقابلها حياة من الحب الموفور . وهنا كان أيضاً لقولها : أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع — كان له معناه — ومعنى مالى ، حرفى ، من غير شك . — وهكذا اشتملت رمزية الزهور فى هذا الحلم على عذر الأنوثة ، ثم على الذكورة ، ثم على إشارة إلى فض البكارة عنوة . وإنه مما تنبغى الإشارة إليه فى هذا المجال أن الرمزية الجنسية للأزهار — وهى رمزية يكثر استخدامها من غير شك فى غير هذا المثال — ترمز إلى الأعضاء الجنسية للإنسان بالأزهار التى هى الأعضاء الجنسية للبنات . وربما كانت هدايا الزهور بين العاشقين تحمل بوجه عام هذا المعنى اللاشعورى .

« ثم إن يوم الميلاد الذى كانت الحالمة تعد له عدته يعنى ولا شك مولد طفل . فالحالمة تعين ذاتها بخطيبها وتصوره كما لو كان يهيئها للميلاد ، أى يجامعها . والفكرة الكامنة يمكن إذن صوغها على هذا النحو : لو كنت إياه ما انتظرت ، بل كنت أفض زهرة خطيبتى دون أن أسألها ، معملا العنف — وهى فكرة ألمعت إليها كلمة 'violate' وهكذا يبلغ المقوم السادى فى الليبيدو إلى الإفصاح عن نفسه .

« وربما كان لقولها : أهيئ . . . الخ . ، ربما كان له — فى طبقة أعمق من الحلم — مدلول العشق الذاتى ، أى مدلول طفلى .

« والحالمة حاصلة أيضاً على معرفة لا تتسنى إلا فى الحلم بنقصها الجسمى ؛ فهى ترى نفسها مسواة مسطحة مثل المائدة ، وهى لذلك تعلى من نفاسة الـ 'centre' [الوسط أو المركز] (وتسميه فى موضع آخر : جزءاً أوسط من الزهور)[١] ، أى عذرتها .

(١) ['a centre piece of flowers']

وهكذا شاركت أفقية المائدة بعنصر من عناصر الرمز . — وإنه لأمر حرى بالملاحظة هذا التركز فى الحلم ؛ فما فيه من نافلة وكل كلمة رمز .

« وقد أتت الحالة من بعد بملحق لحلمها : ' أزين الأزهار بورق أخضر متجعد ' (١) ثم أضافت أنه كان ' ورق زينة ' (٢) من النوع الذى يستخدم فى تغطية أصص الزهور المألوفة . ثم مضت تقول : ' لإخفاء الأشياء القذرة ، كل ما قد تقع عليه العين ولا يلوح لها حسناً ؛ هناك فجوة أو فضاء صغير بين الأزهار ' (٣) . ثم : ' يبدو الورق مثل القطيفة أو الطحلب ' (٤). ويذهب بها التداعى من كلمة 'decorate' (زين) إلى كلمة 'decorum' (اللياقة) — مثلما توقعت . واللون الغالب هو اللون الأخضر وهو يستدعى 'hope' (الأمل)— وهى إشارة أخرى إلى الحمل. إن السمة الغالبة فى هذا الجزء من الحلم ليست تعين ذاتها برجل ، بل الصدارة هنا لأفكار خجل ومصارحة : فهى تتجمل له وتسلم بما فى جسمها من معايب تثير خجلها وتحاول هى إصلاحها . ولقد كانت مستدعياتها فى صدد القطيفة والطحلب شاهداً واضحاً على أن الأمر يتعلق بشعر العانة .

« هذا الحلم يعرب إذن عن أفكار كانت الفتاة لا تكاد تعرفها فى حياتها المستيقظة أفكار تدور حول الحب الحسى وأعضائه : فهى كانت ' تهيأ للميلاد ' أى تواصل بوصال جنسى . والخشية من أن تفض عذرتها تلق هى الأخرى ما يفصح عنها ، وربما كان ثمت ما يعرب كذلك عن ألم مشرب باللذة . والفتاة تصارح نفسها بمعايبها الجسمية وتعوض نفسها عنها بالمغالاة فى تقدير بكارتها . وحياءها يتلمس لها العذر على هذه النزعات الحسية ، وعذره أنها تهدف إلى الخلف . ثم بالإضافة إلى ذلك تدخل اعتبارات مادية ، غريبة عن ذهن المحب . كما أن الحالة الوجدانية المقترنة بهذا الحلم الساذج — وأعنى بها إحساس السعادة — تدل على أن مركبات عاطفية قوية قد وجدت فى هذا الحلم كفايتها . »

وما جانب فرنتسى الصواب — إذن — حين لاحظ (١٩١٧) أى سهولة تم بها

---

(١) ['I decorate the flowers with green crinkled paper.']

(٢) ['fancy paper']

(٣) ['to hide untidy things, whatever was to be seen which was not pretty to the eye; there is a gap, a little space in the flowers.']

(٤) ['The paper looks like velvet or moss'.]

« أحلام الغافلين »[1] بوجه التحديد عن معنى الرموز وعن تفسير الأحلام .

وفى هذا الموضع أدرج حلماً لشخصية تاريخية معاصرة ؛ لأننا نرى فيه موضوعاً من الموضوعات التى تصلح بوجه عام لتمثيل عضو الذكر وقد أضيف إليه محمول يرينا فى وضوح ما بعده وضوح أن هذا الموضوع رمز قضيبى : فأن يطول سوط الفارس طولا لا نهاية له — ذلك ما لا يسهل تفسيره بسوى كونه يعنى الانتصاب . يضاف إلى ذلك أن هذا الحلم يزودنا بمثال جميل يبين كيف يمكن أن تصور أفكار جدية ، بعيدة كل البعد عن كل ما هو جنسى بوساطة مادة طفلية جنسية .

١١ — حلم لبسمارك

(عن الدكتور هانس ساكس)

« يروى بسمارك فى كتابه ' خواطر وذكريات ' (الجزء الثانى من الطبعة الشعبية [١٨٩٨] ص ٢٢٢) خطاباً قصيراً كتبه إلى القيصر ڤيلهلم فى ١٨ من ديسمبر عام ١٨٨١ . وكان الخطاب يتضمن تلك الفقرة: إن ما أفضت به جلالتكم إلىّ يشجعنى على أن أروى حلماً أتانى ربيع عام ١٨٦٣ ، فى أشد أيام ذلك الصراع الذى لم تكن تستطيع عين إنسان أن ترى منه مخرجاً : حلمت — وطلع الصباح فما لبثت حتى قصصت الحلم على زوجى وشهود آخرين — أننى أركب فى طريق ضيق بين جبال الألب ، الهاوية عن يمينى والصخور عن يسارى والطريق تزيد ضيقاً بعد ضيق حتى أبى الحصان مواصلة المسير واستحال على أن أنزل أو أستدير ؛ لقلة المتسع . عندئذ رفعت سوطى بيسارى وهويت به على الصخرة الملساء وأنا أدعو الله ، فإذا السوط يطول إلى غير نهاية ، وإذا الصخرة تسقط مثل مشهد من مشاهد المسرح ، ويظهر طريق فسيح يشرف على تلال وغابات من قبيل ما نرى فى بوهيميا ، ولاحت الفرق البروسية حاملة راياتها ، فأفكر — وأنا ما أزال بحلمى — فى أن أنبئ جلالتكم بالأمر من غير إمهال . ولقد صار هذا الحلم حقيقة واستيقظت منه مثلج الصدر ، مشددا .

---

(١) [المراد بالغافلين من لا يعلمون شيئا عن التحليل النفسى ومكتشفاته .]

« إن حركة هذا الحلم تنقسم قسمين : فى الأول تضيق بالحالم السبيل ، ثم يخرج منها بأعجوبة فى الثانى . وجلى أن الموقف الوعر الذى يقف فيه كلا الجواد وراكبه تصوير حلمى يصور الموقف الحرج الذى كان يلم برجل الدولة ، ولعله قد ذاق مرارة هذا الموقف بصفة خاصة وهو يفكر فى مشكلات سياسته فى ذلك المساء الذى سبق الحلم . ألا نرى بسمارك — فى الفقرة التى أوردناها — يستعيد بنفسه تلك الصورة عينها فى وصف ضائقته إذ ذاك ؟ وهى إذن صورة مألوفة له كل الألفة ، قريبة من ذهنه كل القرب . ونحن — إلى جانب ذلك — نواجه مثالا بديعاً على ما يسميه سيلبرير " الظاهرة الوظيفية " ؛ فالعمليات التى تدور فى ذهن الحالم — يلتمس الحلول فإذا عقبة كأداء تقف دون كل حل وهو مع ذلك لا يملك أن يحرر نفسه من هذه المشاغل ولا يُحِل لها هذه الحرية — هذه العمليات تتمثل أوفق تمثل فى الراكب الذى لم يعد يستطيع إقداما ولا رجوعاً . وكبرياؤه التى تمنعه التفكير فى أن يسلم أو أن يستعفى تتجلى فى هذه الكلمات : استحال على أن أنزل أو أن أستدير . ولا بد أن بسمارك — وهو رجل العمل الذى لا ينقطع عن الكد ويرهق نفسه من أجل الغير — لم يكن بعيداً عن أن يشبه نفسه بالجواد . والحق أن بسمارك قد أتى بذلك التشبيه فى مناسبات شتّى ، مثال ذلك قوله المعروف : الحصاد الجيد ينفق وهو فى زُنّاقة. وعلى ذلك فقوله : أبى الحصان مواصلة السير ، لا يعنى إلا أن رجل الدولة المنهك قد شعر بالحاجة إلى أن يتحول عن هموم الحاضر ، أو هو — إن شئت تعبيراً آخر — كان آخذا فى تحرير نفسه من قيود مبدأ الواقع بوساطة النوم والحلم . ولقد حوى الحلم من قبل — فى قوله : طريق بين جبال الألب — بعض الإشارة إلى تحقيق الرغبة الذى يشتد فى الجزء الثانى من الحلم كل هذا الاشتداد . فلا شك فى أن بسمارك كان يعلم فى ذلك الحين أنه سيمضى إجازته المقبلة فى جبال الألب ، فى جاشتاين ، والحلم إذ ينقله إلى هذه الجبال يحله فى دفعة واحدة من جميع أعباء الدولة .

« وأما الجزء الثانى من الحلم فيصور رغبات الحالم محققة ، ويصورها كذلك على نحوين : الأول سافر مفهوم ، والآخر رمزى . فأما التحقيق الرمزى ففى اختفاء الصخرة الكؤود وظهور الطريق الفسيحة — أى " المخرج " الذى كان يلتمسه — فى أحسن صورها . وأما التحقيق السافر ففى تقدم الكتائب البروسية رافعة راياتها . ونحن لكى نفسر هذه الرؤيا

المتنبئة لا نحتاج إلى تشييد الفروض الصوفية ؛ فنى نظرية فرويد عن تحقيق الرغبة الكفاية كل الكفاية : لقد كان بسمارك إبان ذلك الحلم يرغب حقيقة فى شن حرب ظافرة على النمسا تكون أحسن مهرب من المنازعات المتقدة فى داخل بروسيا ، وهكذا يصور الحلم تحقق هذه الرغبة – متفقاً وفرض فرويد – حين يرى الحالم الكتائب البروسية رافعة راياتها فى بوهيميا ، أى فى أرض العدو . وكل القيمة الفردية فى هذه الحالة هى أن الحالم الذى يشغلنا حلمه لم يكفه أن يحقق رغبته فى حلم ، بل عرف كيف يفرضها حقيقة واقعة . وهناك لمحة لا يمكن إلا أن يلتفت إليها كل من له ألفة بالطريقة التحليلية النفسية فى التفسير ، هى السوط الذى يطول إلى غير نهاية . إن السياط والعصى والرماح وما شابهها موضوعات نعرفها رموزاً قضيبية ، ولكن أن يملك سوط – فوق ذلك – أكبر الصفات التى تميز القضيب – قابلية الاستطالة – ذلك ما لا يكاد يترك مجالا لشك . ويبدو أن المبالغة فى الظاهرة ، من حيث الاستطالة ' إلى غير نهاية ' ، تدل على استمرار ليبيدى مفرط ، الطفولة مبدأه . وأن يمسك الحالم السوط بيده إشارة جلية إلى الاستمناء – وإن تكن الإشارة لا تتجه بالطبع إلى ملابسات الحالم المعاصرة بل إلى رغباته الطفلية المنتمية إلى الماضى السحيق . ومن الكشوف الثمينة القيمة ههنا كشف شتيكل أن اليسار يعنى فى الحلم الخطأ والممنوع والأثيم – وهو ما ينطبق كل الانطباق على الاستمناء الذى يزاوله الطفل رغم تحريمه . وفى وسعنا أن نجد بين هذه الطبقة الطفلية العميقة والطبقة السطحية التى تخص مشاغل رجـــل الدولة الحاضرة طبقة وسطى كانت موصولة بكل منهما . ذلك أن جميع هذا الجزء المتعلق بخلاص من الحاجة يتم – فيما يشبه المعجزة – بسوط يضرب الصخر مع الدعاء إلى الله مؤيداً ونصيراً – يحمل شبها ملحوظاً بمشهد من التوراة : حين يفجر موسى الماء من الصخر لأبناء إسرائيل الظماء . ولنا أن نفترض فى غير تردد أن بسمارك كان يعرف هذه الفقرة وكل تفاصيلها ، وهو المنحدر من أسرة بروتستانتية حافظة للتوراة . ولا هو بالشىء المستبعد أن يكون بسمارك – بين أيام هذا الصراع – قد قارن نفسه بموسى ، موسى القائد الذى كافأه الشعب بالتمرد والبغضاء والجحود على ما أراد له من الخلاص . ومن هنا – إذن – كانت الصلة برغبات الحالم المعاصرة . ولكن فقرة التوراة قد حوت من التفاصيل ما ينطبق أيضاً على تخييل استمنائى . فموسى يمسك العصا خارجاً على أمر الله ، ويعاقبه الرب فيعلنه أنه لا محالة مائت قبل أن يدخل أرض الميعاد . فالإمساك المحرم بالعصا – وهو ما يحمل فى الحلم معنى قضيبيا لا لبس فيه – ثم

حدوث السائل من ضربتها ووعيد الموت ، كل أولئك يزودنا باللحظات الرئيسة فى الاستمناء الطفلى مجتمعة . ومن الطريف أن نلحظ كيف لحمت – بوساطة فقرة التوراة هذه – هاتان الصورتان المتغايرتان الصادرة إحداهما عن ذهن رجل الدولة العبقرى والنابعة أخراهما من نوازع النفس الطفلية لحماً أخرست فى أثنائه كل العناصر الأثيمة : فكون الإمساك بالعصا عملا ممنوعاً عاصياً – ذلك ما لا يشار إليه إلا بإشارة رمزية ، باليد اليسرى التى أنقذته . والله يدعى فى محتوى الحلم الظاهر كأنما أريد بذلك أن تستبعد استبعاداً ظاهراً كل فكرة فى محرم أو مستور . ولقد أعلن الله موسى بأمرين : أنه سوف يرى الأرض الموعودة وأنه لن يدخلها ، فإذا الحلم يصور تحقق النبوءة تصويراً واضحاً (الإشراف على التلال والغابات) ويسكت عن الثانية البالغة نهاية مبالغ الألم . وأما الماء فلا يظهر ، وأغلب الظن أنه قد ضحى به من أجل المراجعة الثانوية التى جهدت جهداً موفقاً فى أن تدمج هذا المشهد وسابقه فى كل واحداً ، وبدل الماء تسقط الصخرة نفسها .

« ولنا أن نتوقع عند انتهاء الاستمناء الطفلى – وهو الذى ينطوى على فكرة المحظور – أن يرغب الطفل فى ألا يعلم أولو الأمر فى محيطه شيئاً مما صنع . وهذه الرغبة تصور فى الحلم بضدها ، بالرغبة فى أن يخطر الملك على الفور بما حدث . وهذا العكس يتسق اتساقاً حسنا طبعيا مع تخييل الانتصار المتضمن فى طبقة أفكار الحلم السطحية وفى جزء من محتوى الحلم الظاهر . وكثيراً ما يكون الحلم بالانتصار والغزو – كما هو الشأن فى هذا الحلم – غطاء يخفى الرغبة فى النجاح فى غزو عشق . وربما كان فى بعض ملامح الحلم ما يشير إلى ذلك الاتجاه – كأن تعترض عقبة تقدم الحالم ثم تخلى مكانها لطريق فسيح بعد أن يعمل الحالم سوطه – ولكنها لا توفر أساساً كافياً نستطيع أن نستدل منه على أن الحلم قد ضم أفكاراً ورغبات تتجه فى هذه الوجهة المحددة . إننا نرى هنا مثالا تاماً على تشويه حلمى نجح كل النجاح . فكل محرجة قد صيغت صياغة جديدة بحيث لا تنبثق على الإطلاق من خلال الطبقة السطحية التى فرشت على الحلم كغطاء حام . وبذلك أمكن تجنب كل انطلاق للهيلة . والحلم حالة مثالية لرغبة حققت تحقيقاً ناجحاً دون مخالفة الرقابة ، بحيث نفهم أن الحالم قد خرج من مثل هذا الحلم مثلج الصدر ، مشدداً . »

وأختتم بهذا المثال :

١٢– حلم كيميائى

صاحب هذا الحلم شاب كان يبذل طاقته من أجل الإقلاع عن عادة الاستمناء لكى تكون له صلات بالنساء .

تمهيد : كان الحالم فى اليوم الذى سبق الحلم قد شرح لأحد الطلبة تفاعل جرينيارد – وهو ذوبان المغنيسيوم فى الأثير المطلق النقاء بفعل اليود كعامل حافز . وقبل ذلك بيومين كان هذا التفاعل قد أدى إلى انفجار كان من نتيجته أن احترقت يد أحد الطلبة .

الحلم : ١) عليه أن يحضر مركباً من البرومين والفانيل والمغنسيوم . إنه يرى الجهاز فى وضوح شديد ولكنه قد استبدل بالمغنسيوم شخصه هو . إنه يجد نفسه الآن فى حالة عجيبة لا تستقر ، ولا ينقطع عن التحدث إلى نفسه قائلا : « كل هذا على ما يرام ، إن الأمور تسير سيراً حسناً ، قدماى قد أخذتا بالفعل فى الانحلال وركبتاى تلينان . » يمد يده بعدئذ ويتحسس قدميه ، وفى هذه الأثناء يشد ساقيه من البوتقة (دون أن يدرى كيف) ويحدث نفسه من جديد قائلا : « إن ذلك مستحيل ، ومع هذا فالعمل يسير سيراً صحيحاً . » يستيقظ عندئذ استيقاظاً جزئياً ويعيد الحلم لنفسه لأنه يريد أن يقصه على . إنه يشعر بخوف من حل هذا الحلم ويشعر باهتياج شديد فى أثناء غفوته هذه ولا ينى يكرر : الفانيل ، الفانيل .

٢) كان فى ضاحية –ينج مع جميع أسرته ، وكان عليه أن يكون فى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة فى شوتنتور (١) ليقابل سيدة معينة . ولكنه لا يستيقظ إلا فى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة ، فيحدث نفسه قائلا : « لقد فات الوقت ، لست تستطيع أن تكون هناك قبل الثانية عشرة ونصف الساعة . » وعلى أثر ذلك يرى الأسرة جميعها وقد جلست حول المائدة ، ويرى فى وضوح خاص أمه والخادم التى تحمل وعاء الحساء . يحدث نفسه قائلا : « لقد بدأنا نأكل ، فلست أستطيع الخروج بعد ذلك . »

التحليل : إن الحالم لا يشك فى أن الجزء الأول من الحلم له أيضاً بعض الصلة بالسيدة التى كان يريد لقاءها (لقد أتاه الحلم فى الليلة التى سبقت موعده المنتظر) . إنه يعتقد أن الطالب الذى شرح له استجابة جرينيارد شخص ثقيل إلى أبعد حد . وهو يذكر أنه قد قال لهذا الطالب : « لقد أخطأت ، فليست هناك دلائل تدل على أن المغنسيوم قد تأثر . » فأجاب الطالب كأن الأمر لا يعنيه فى شىء : « حقاً ، إنه لخطأ . » لا بد أن

---

(١) [« شوتنتور » مكان قريب من وسط فيينا . وأما «–ينج» فالمراد بها ضاحية من ضواحى فيينا التى ينتهى اسمها بهذا المقطع . أنظر ص ٣١١ .]

هذا الطالب يمثله هو لأنه يستخف بالتحليل مثلما يستخف الطالب بالتركيب (الكيميائى) . والا «هو» الذى يجرى العملية فى الحلم ليس إلا إياى . لا بد أننى أستثقله لقلة مبالاته بالنتيجة .

والمريض من جهة أخرى هو المادة المستخدمة فى التحليل (التركيب فى الحلم) والأمر إذن يتعلق بنجاح العلاج . وإن الإشارة إلى ساقيه لتذكره بحدث من الليلة السابقة : ذلك أنه كان يتلقى درسا فى الرقص والتى بسيدة كان يحرص على غزوها . لقد ضمها إليه ضما شديداً حتى أنها صرخت مرة. فلما أرخى ضغطه أحس منها ضغطاً مقابلا شديداً على أسفل فخذيه إلى ما فوق الركبتين ، فى الموضع المذكور فى الحلم . وفى هذا الموقف تكون المرأة التى تجرى الأمور معها أخيراً على ما يرام هى أيضاً المغنسيوم الذى فى البوتقة . إنه مؤنث بالنسبة إلى كما هو مذكر بالنسبة إلى المرأة . والأمور تسير سيراً طيباً مع السيدة ، وهى إذن تسير سيراً طيباً فى العلاج . وأما تحسسه نفسه والأحاسيس التى شعر بها فى ركبتيه فتشير إلى الاستمناء ، ثم هى تتفق وتعبه المتخلف من اليوم السابق . وقد كان موعده مع السيدة فى الحادية عشرة ونصف الساعة حقيقة . وإن رغبته فى النوم والمكوث مع موضوعاته الجنسية المنزلية (أى فى المداومة على الاستمناء) لتتفق ومقاومته .

أما فيما يتعلق بترديده كلمة «الفانيل» فهو يروى أنه كان دائم الولع بأصول الكلمات المنتهية بالمقطع «يل» لأنها يسيرة الاستخدام غاية اليسر : بنزيل ، آستيل . . . إلخ . وكل هذا لا يفسر شيئاً . ولكنى أقترح عليه كلمة شليميل [1] فإذا هو يغرب فى الضحك ويقص على أنه قد قرأ كتابا لمارسيل بريفو جاء فيه فصل عن : «المبعدين عن الحب» [2] حوى بعض الملاحظات عن «الخائبين» [3] . فلما قرأه حدث نفسه قائلا : تلك حالتى . — ولو أنه تخلف عن موعده ، لكان ذلك مثالا آخر على «خيبته» .

ويبدو أن ورود الرموز الجنسية فى الأحلام قد لقى تأييدا تجريبيا مباشراً . ذلك أن

---

(١) [Schlemihl كلمة من أصل عبرى شاع استخدامها فى الألمانية للدلالة على شخص عاثر لا كفاءة فيه ، أو كما نقول : خايب .]

(٢) ["Les exclus de l'amour"]

(٣) [يستخدم المريض هنا كلمة «شليميل» مصرفة تصريفاً فرنسيا : "les schlemiliés" .]

الدكتور شروتّر قد أخذ فى عام ١٩١٢ – استناداً إلى فكرة أوحاها هـ . سفوبودا – ينوم بعض الأشخاص تنويماً مغناطيسيًّا عميقاً ، وكان فى مقدوره أن يملى عليهم جزءاً كبيراً من أحلامهم بإيحاءات كان يوحى بها إليهم وهم فى نومهم . فكان إذا أوحى إلى النائم أن يحلم بجماع سوى أو غير سوى أنفذ المنوِّم هذا الإيحاء مستخدماً الرموز التى عرفناها بالتحليل النفسى بدل المادة الجنسية الصريحة . مثال ذلك أنه أوحى إلى فتاة أن تحلم بجماع جنسى مثلى مع صديقة لها ، فظهرت الصديقة فى الحلم تحمل حقيبة بالية كتب عليها : « للسيدات فقط . » ويقال إن الحالمة كانت لا تملك أقل معرفة برموز الأحلام وتفاسيرها . ومما يؤسف عليه أننا لن نتمكن من تقدير قيمة هذه الأبحاث الهامة تقديراً صحيحاً نتيجة لذلك الحادث المحزن ، وأعنى به انتحار الدكتور شروتر بعد القيام بها بزمن قليل . ولسنا نملك عن هذه الأبحاث سوى دراسة تمهيدية (شروتر ، ١٩١٢) . وقد نشر ج . روفنّشتاين كشوفاً مماثلة عام ١٩٢٣ . بيد أن التجارب التى أتاها بتلهايم وهارتمان (١٩٢٤) تحظى بأهمية خاصة ؛ لأن هذين الباحثين لم يلجآ إلى التنويم المغناطيسى . وإنما كان هذان المؤلفان يقصان قصصاً جنسية مكشوفة على المرضى المصابين بجنون كورساكوف وهم فى حالة الهذيان ، ثم يلحظون ما يطرأ على هذه القصص من التشويه حين يعيد المرضى روايتها . فوجدا أن الرموز التى عرفناها من تفسير الأحلام كانت تظهر فى رواياتهم (صعود السلم والطعن وإطلاق النار رموزاً إلى الجماع ، والسكاكين ولفائف التبغ رموزاً إلى القضيب) . ويعلق المؤلفان قيمة خاصة على رمز السلم لأنه « ما من رغبة شعورية فى التشويه كانت تستطيع أن تبتدع مثل هذا الرمز » كما يلحظان بحق .

والآن بعد أن وزنا قيمة الرمزية فى الأحلام ، نستطيع أن نعود إلى موضوع الأحلام النمطية الذى تركناه فى ص٢٩١ . إنى أعتقد أننا محقون حين نقسم أمثال هذه الأحلام قسمة إجمالية إلى طبقتين : أحلام تملك دائماً ذات المعنى ، وأحلام يجب تفسيرها على أنحاء تتباين غاية التباين وإن كان لها محتوى واحد أو متشابه . وقد سبق أن تناولت فى شىء من التفصيل أحلام الامتحان بين أحلام الطبقة الأولى .

وتستحق أحلام فوت القطار أن تدرج فى صف أحلام الامتحان . لما بينها وبين

هذه من التشابه فى الحالة الوجدانية ، وإن تفسيرها ليرينا أننا لا نجانب الصواب حين نفعل ذلك . فهى أحلام عزاء تطمئننا عن نوع آخر من الهيلة يتخالجنا فى أثناء النوم ، هو هيلة الموت ؛ فإن « الرحيل » هو أكثر رموز الموت شيوعاً وأحسنها ثبوتاً . فهذه الأحلام تقول مرفهة : « لا تخف ، فأنت لن تموت (ترحل) » ، مثلما يقول حلم الامتحان مهوناً : « لا تخف سوف تسلم من الضر هذه المرة أيضاً . » ومرجع الصعوبة فى فهم هذين النوعين من الأحلام هو أن شعور الهيلة يرتبط على التحديد بالعبارة عن العزاء .

ولقد خفى على حقبة من الزمن المعنى الذى للأحلام « ذات المنبه السنى » — وهى أحلام كثيراً ما كان يجب على تحليلها عند المرضى — لأن مقاومة بالغة الشدة كانت تحول دائماً — لدهشى — دون تفسيرها .

وأخيراً أثبتت الدلائل فى وضوح لا يترك مجالا للشك أن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية فى زمن المراهقة . وسأحلل حلمين من هذه الأحلام ، أحدهما هو فى الوقت نفسه حلم طيران . وقد أتى كلا هذين الحلمين ذات الشخص ، وهو شاب ذو نزعات جنسية مثلية مشتدة ، ولكنها مكفوفة فى الحياة الواقعية :

يشهد عرضاً لأوبرا « فيدليو » وهو جالس فى قاعة الأوبرا وبجانبه شخص يستظرفه ويود لو كسب صداقته . يطير فجأة فى القاعة حتى نهايتها ، ثم يضع يده فى فمه ويجذب منه سنين .

إن الحالم يصف طيرانه قائلا : إنه كان كمن « رمى » فى الهواء . وإذ كان المشهد أوبرا « فيدليو » فالبيت الآتى يطوف بالذهن :

« من ظفر بامرأة رشيقة . . . »

ولكن الظفر بامرأة — ولو كانت أرشق النساء — لم يكن بين رغبات الحالم . وإنما الأنسب وهذه الرغبات هو البيتان الآتيان :

« من وفق إلى تلك الرمية الكبرى :
أن يكون صديقاً لصديق . . . »[١]

ولقد اشتمل الحلم حقاً على هذه « الرمية كبرى » ، غير أن ذلك لم يكن يحقق رغبة وحسب ، بل كان يخفى كذلك تأملات أليمة للحالم : كم كان عاثر الحظ فى مساعيه من أجل الصداقة ، كم من مرة « رمى » فيها ، إنه ليخشى تكرار هذ المصير مع الشاب الذى يستمتع بمشاهدة « فيدليو » إلى جواره . يتبع ذلك اعتراف يخجل منه الحالم وهو على ما هو عليه من رفاهية الحس : ذلك أنه بعد أن نبذه أحد أصدقائه قد استمنى مرتين متعاقبتين مدفوعاً بشوقه .

وها هو ذا الحلم الآخر : يعالجه بدل أستاذان جامعيان يعرفهما . يصنع أحدهما شيئاً بقضيبه . إنه يخشى أن تجرى له عملية . يقرع الآخر فه بقضيب من الحديد بحيث تسقط منه سن أو أسنتان ، إنه مقيد بأربعة مناديل من الحرير .

إن الشك فى أن يكون لهذا الحلم معنى جنسى مثلى يكاد أن يكون ممتنعاً . فمناديل الحرير تعين الحالم بشخص ذى جنسية مثلية يعرفه . والحالم لم يعرف الجماع قط ، ولم يعمل قط فى الحياة الواقعة على أن تكون له صلة برجل ، وكان يتمثل الرابطة الجنسية على غرار استمناء المراهقة الذى كان يألفه يوماً ما .

وأعتقد أن التعديلات المتعددة التى تطرأ على الحلم النمطى ذى المنبه السنى (كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر ، الخ – يمكن أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الذى قدمناه[٢] . قد ندهش إذ نرى « المنبه السنى » وقد صار له هذا المعنى ، ولكننى أنبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه ، هذا النقل الذى يسخر لخدمة الكبت والذى يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهسترية التى كان يجب – لولا الكبت – أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق فى أجزاء أخرى من الجسم على الأقل ، أجزاء لا اعتراض

---

(١) [هذان البيتان يعقبهما البيت الذى ذكر أولا يأتيان فى قصيدة شيللر التى لحنها بيتهوفن فى السمفونيا التاسعة . ولكن البيت الذى ذكر أولا : " من ظفر . . . إلخ. " قد جاء أيضاً وحده فى أوبرا فيدليو ، وهى لبيتهوفن لذلك .]

(٢) أن ينزع سن الحالم شخص آخر ، ذلك ما ينبغى تفسيره عادة بالخصاء (مثل قص الشعر عند الحلاق فى رأى شتيكل) . ولا بد من أن نفرق بوجه عام بين الأحلام ذات المنبه السنى وبين أحلام أطبة الأسنان كالتى يرويها كوريات (١٩١٣) .

عليها . ومن الأمثلة على هذا النقل أن يستبدل الوجه بأعضاء التناسل فى رمزية التفكير اللاشعورى . والعرف اللغوى يحذو هذا الحذو حين يماثل بين الـ Hinterbacken [1] وبين الخدين ، وحين يوازن بين شفرتى العورة عند المرأة وبين الشفتين اللتين تضمان فتحة الفم . والمقارنات بين الأنف والقضيب أمر شائع ، ويزيد الشبه اكتمالا وجود الشعر فى كل منهما . والعضو الوحيد الذى يخرجه تركيبه عن كل مقارنة ممكنة هو السن ، ولكن هذا الالتقاء على التحديد بين التشابه والاختلاف هو الذى يؤهل الأسنان لخدمة المقاصد التصويرية حين تشتد وطأة الكبت الجنسى .

ولست أدعى أننا حين نفسر أحلام المنبه السنى بكونها أحلام استمناء — وهو أمر لا أستطيع التشكك فى صحته — نأتى بتفسير يخلو كل الخلو من الغموض[2] ، وإنما أعطى القدر الذى أستطيع من الإيضاح ، فأما الباقى فلا مناص من تركه على علاته . بيد أننى لا أجد غنى عن الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوى ؛ ففى بلدنا يشيع تعبير غير مهذب يطلق على فعل الاستمناء هو : « شد [أو انتزع] واحداً إلى خارج » أو « شد واحداً إلى أسفل »[3]. ولست أدرى شيئاً عن منشأ هذين التعبيرين أو عن التخييل الذى أقيما عليه ، ولكن الأول منهما قد يناسب الحديث عن « السن » كل المناسبة .

وإذ كان الحلم بانتزاع السن أو سقوطه يعنى موت أحد الأقرباء فى زعم الاعتقاد الشعبى ، وكان التحليل النفسى لا يقر مثل هذا التفسير اللهم إلا بالمعنى المازح الذى أومأت إليه من قبل على أكثر تقدير ، فإنى أسوق هنا « حلماً ذا منبه سنى » مدنى به أوتو رانك :

« بعث إلى زميل بدأ يهتم منذ عهد قريب بمشكلات تفسير الأحلام بالمذكرة الآتية فى موضوع الأحلام ذات المنبه السنى :

"حلمت منذ زمن قريب بأننى فى عيادة طبيب الأسنان الذى كان يحفر سناً خلفية فى الفك الأسفل . وأعمل

---

(١) [ويعنى الردفين ، وترجمته الحرفية هى : الخدين الخلفيين .]

(٢) تحمل الأحلام ذات المنبه السنى عند النساء المعنى الذى لأحلام الوضع ، على حسب إفادة من يونج . والعنصر المشترك بين هذا التفسير والتفسير المقترح فيما فوق هو أن الأمر يتعلق فى كلتا الحالتين (الخصاء والولادة) بانفصال جزء من الجسم عن الكل .

(٣) أنظر ٥٢ الحلم « المؤرخ » فى ص ٣٥٦ .

الطبيب الحفر بقوة حتى لم تعد فى السن جدوى ثم أمسكها بمقبض وانتزعها فى سهولة خلت من الجهد إلى حد أدهشنى. يخبرنى الطبيب ألا أكترث لذلك ؛ فهذه فى الحق ليست السن التى يعالجها . ثم وضع السن على مائدة حيث انقسمت (وقد بدا لى الآن أنها ناب علوى) طبقات متعددة . نهضت من المقعد واقتربت من المائدة مستطلعاً ، ثم سألت الطبيب سؤالا طبياً يهمنى . فجعل الطبيب – بينما كان يفصل أجزاء السن التى لاحت لى بالغة مبلغاً عجيباً من البياض ويلقها بعلة من عنده (يحيلها إلى رماد) – جعل يشرح لى أن السن علاقة بالمراهقة وأن الأسنان لا تخرج بمثل هذه السهولة إلا قبل المراهقة وأن العامل الحاسم فى حالة النساء هو أن يولد طفل .

وعندئذ لاحظت (وأنا نصف نائم فيما أعتقد) أن الحلم قد اصطحب بإنزال ، ولكننى لم أعرف بأى جزء من أجزاء الحلم ارتبط هذا الإنزال – وإن لاح لى أن الأرجح هو أن يكون حدوثه قد سبق خلع السن .

ثم بعد ذلك حلمت من جديد بحادثة لم أعد أذكرها ولكنها انتهت على هذا النحو :

أترك سترتى وقبعتى فى مكان ما (ربما كان حجرة نزع الثياب بعيادة الطبيب) آملا أن يتبعنى البعض بهما وأسرع ولست أرتدى غير معطفى إلى اللحاق بالقطار الذى كان آخذاً فى الرحيل . أفلح فى اللحظة الأخيرة فى القفز إلى عربة خلفية حيث أجد أحد الناس واقفاً . ولكننى لا أتمكن من شق طريقى إلى داخل العربة بل أرانى مضطراً إلى السفر فى موقف غير مريح أحاول التخلص منه وأفلح فى ذلك آخر الأمر . ندخل فى نفق كبير ويأتى قطاران فى الاتجاه المقابل لنا ثم ينفذان من خلال قطارنا – كما لو كان قطارنا هو النفق . أتى النظر إلى داخل إحدى العربات كما لو كنت ألقيه من خارجها .

إن المادة اللازمة لتفسير هذا الحلم تمدنا بها الخبرات والأفكار الآتية المستمدة من اليوم السابق :

١) كنت حقيقة آخذا فى علاج أسنانى منذ زمن قريب وكنت حين جاء هذا الحلم أعانى ألما مستمراً فى سن بالفك الأسفل هى التى كانت تحفر فى الحلم ، وكان الطبيب قد حفرها كذلك فى الواقع وقضى فى حفرها زمناً أطول مما أحببت . وكنت قد ذهبت فى صبيحة اليوم الذى سبق الحلم إلى طبيب الأسنان من جراء هذا الألم ، فأوحى إلى أن من الضرورى أن تخلع سن أخرى فى ذات الفك قائلا : إنها قد تكون السبب فى هذا الألم . وكانت هذه السن الأخرى ' ضرس عقل ' كان ينبت فى ذلك الحين . ولقد أثرت بهذه المناسبة سؤالا يتعلق بالضمير المهنى للطبيب .

٢) اضطررت إلى أن أعتذر فى عصر ذلك اليوم إلى إحدى السيدات عما كنت

عليه من سوء المزاج من جراء هذا الألم. فأخبرتنى السيدة عندئذ أنها تخشى أن تضطر إلى أن تخلع ضرساً لها كان طربوشه يتفتت كل التفتت. إنها تظن أن خلع الأسنان يزيد ألما وخطراً فى أسنان العين[1] بخاصة ، وإن يكن بعض معارفها قد أكد لها من جهة أخرى أن أسنان الفك الأعلى – مثل سنها – أسهل خلعاً . وروى لها هذا الشخص أيضاً كيف كان الخطأ مرة سبباً فى أن تخلع له سن سليمة بعد التخدير ، فزاد ذلك ارتياعها من العملية المحتومة . ثم بعد ذلك سألتنى هل أسنان العين ضروس أو أنياب ، فأشرت إلى ما تحويه هذه المعتقدات جميعها من عنصر خرافى ، وإن أكدت لها فى الوقت عينه نواة الصدق المحتواة فى بعض الآراء الشعبية . وعندئذ استطاعت أن تروى لى ما تظنه معتقداً شعبياً قديماً جدا واسع الانتشار : إذا أصاب حاملا ألم فى أسنانها جاء المولود ولدا .

٣) وأثار جوابها هذا اهتمامى نظراً لما يقوله فرويد فى 'تفسير الأحلام' ، عن الأحلام النمطية ذات المنبه السنى باعتبارها بدائل من الاستمناء الطفلى ؛ إذ أن هذا المعتقد الشعبى يقيم أيضاً علاقة بين السن وبين أعضاء التناسل المذكرة (الولد) . وعلى ذلك أخذت فى مساء ذات اليوم أقرأ الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع من 'تفسير الأحلام' ، فوجدت القضايا الآتية التى يسهل علينا أن نرى تأثيرها فى حلمى مثل الخبرتين السابقتين : يتحدث فرويد عن الأحلام ذات المنبه السنى قائلا : إن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية فى زمن المراهقة [ص٣٩٠] . ثم يقول : وأعتقد أن التعديلات المتعددة التى تطرأ على الحلم النمطى ذى المنبه السنى – كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر ، الخ.– يمكن أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الذى قدمناه. وقد ندهش إذ نرى المنبه السنى وقد صار له هذا المعنى ، ولكننى أنبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه (فى هذا الحلم من الفك الأسفل إلى الأعلى) ، هذا النقل الذى يسخر لخدمة الكبت والذى يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهسترية التى كان يجب – لولا الكبت – أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق فى أجزاء أخرى من الجسم على الأقل – أجزاء لا اعتراض عليها [ص٣٩١]. ثم يقول : بيد أننى لا أجد غنى عن

(١) [يقال للنياب .]

الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوى؛ فى بلدنا يشيع تعبير لغوى غير مهذب يطلق على فعل الاستمناء، هو: شد واحد إلى خارج أوشد واحداً إلى أسفل [ص٣٩٢ .] ولقد كنت أعرف هذا التعبير فى صباى وأعرف دلالته على الاستمناء ، ومن هنا لن يصعب على الخبير بتفسير الأحلام أن يجد طريقه إلى المادة الطفلية التى تكمن وراء هذا الحلم . ولست أضيف إلا أن السهولة التى خرج بها السن التى تبين بعد خلعها أنها من القواطع قد ذكرتنى بمناسبة من طفولتى فيها شددت بنفسى — دون عناء أو ألم — سنا علوية واهية فى مقدم الفم . ولقد وقع هذا الحدث الذى ما زلت أذكره بحذافيره أوضح الذكر فى ذات الفترة التى ترجع إليها محاولاتى الأولى فى الاستمناء (ذكرى ستارية) .

وإن إشارة فرويد إلى رأى يونج فى أن الأحلام ذات المنبه السنى تحمل عند النساء المعنى الذى لأحلام الوضع (تفسير الأحلام ، ص ٣٩٢ ، فى الهامش)، مع الاعتقاد الشعبى بمغزى ألم الأسنان عند الحامل — قد بعثا على المقابلة فى الحلم بين المعنى المؤنث [الوضع] والمعنى المذكر (المراهقة) . وأذكر فى هذا الصدد حلماً سبق ذلك ، جاءنى عقب زيارة إلى طبيب الأسنان ، وفيه حلمت بسقوط الطرابيش الذهبية التى لم يكد يفرغ تثبيتها ، وأزعجنى ذلك فى الحلم إزعاجاً كبيراً ؛ فقد كنت تورطت فى نفقات كثيرة لم أكن تغلبت عليها بعد إذ ذاك . وإنى لأفهم هذا الحلم الآن (بالإشارة إلى خبرة معينة مررت بها) من حيث هو مفاضلة بين المزايا المادية للاستمناء وبين الحب المتجه إلى موضوع ، فهذا الحب أشد ضرراً من الوجهة الاقتصادية فى كل صورة من صوره (الطرابيش الذهبية)[1] .وأعتقد أن ملاحظة السيدة على معنى ألم الأسنان عند الحوامل قد أيقظت عندى هذه الخواطر من جديد .

ذلك تفسير زميلى ، وهو تفسير واضح بذاته ولا أظن أننا نعترض عليه . ولست أجد ما أضيفه إليه سوى إشارة إلى المعنى المحتمل للجزء الثانى من الحلم . ذلك أنى أعتقد أن هذا الجزء يصور انتقال الحالم من الاستمناء إلى الجماع الجنسى انتقالا يبدو محفوفاً بالصعوبات (النفق الذى تدخل فيه القطارات وتخرج منه فى اتجاهات مختلفة) . كما

---

(١) [ويقال فى الألمانية Goldkronen أى الكرونات الذهبية . والكرونات أيضاً عملة .]

يصور مخاطر هذا الجماع (الحمل والمعطف [أنظر ص ٢٠٧]). وأما واسطة الانتقال إلى هذا الجزء الثانى من الحلم فكانت الجسر اللغوى الآتى : Zahn-ziehen (. Zug) و Zahn-reissen (reisen)[١]

ومن ناحية أخرى يلوح لى هذا المثال ذا أهمية نظرية من وجهتين : فهو أولا يشهد بصحة ما اكتشفه فرويد من أن الإنزال فى الحلم يصحب انتزاع السن . ونحن مضطرون — مهما كانت الصورة التى يظهر فيها الإمناء — إلى أن نعده إشباعاً استمنائياً يتم بغير تنبيه ميكانيكى . أضف إلى ذلك أن الإشباع الإمنائى لم يتحقق فى هذه الحالة — كما هو الشأن عادة — بإزاء موضوع من الموضوعات ، ولو كان موضوعاً متخيلا ، بل كان — إن جاز التعبير — إشباعاً لا موضوع له ، كان يحمل طابع العشق الذتى صرفاً ، أو هو على الأكثر كان يبدى أثراً لا يعتد به من الجنسية المثلية (طبيب الأسنان) .

وأما النقطة الثانية التى تبدو لى خليقة بأن نلح عليها فهى الآتية : قد نقول : إنه لا حاجة بنا إلى أن نرى فى هذا الحلم تأييداً لوجهة نظر فرويد ؛ لأن أحداث اليوم السابق تكفى وحدها فى جعل محتوى الحلم مفهوماً ، فزيارة الحالم إلى طبيب الأسنان وحديثه مع السيدة ثم قراءته ' تفسير الأحلام" تفسر كيف انتهى به الأمر إلى إحداث هذا الحلم تفسيراً كافياً ، وبخاصة أن نومه فى تلك الليلة كان نوماً مضطرباً لألم أسنانه ، بل إن هذه الأحداث تفسر — إذا أردنا — كيف وضع الحلم حداً للألم الذى كان يزعج النوم بفكرة التخلص من السن الموجعة مع إغراق إحساس الألم الذى يخشاه الحالم بالليبيدو . ولكن مهما كان تسليمنا بكل أولئك فمحال أن نذهب جادين إلى أن قراءة شروح فرويد كانت تكفى وحدها فى أن تربط عند الحالم بين خلع السن وبين الاستمناء ، بل هى ما كانت تكفى فى تحريك هذا الرباط إلى العمل لو لم يكن ذلك الرباط قد سبق له الرسوخ منذ زمن طويل، كما يسلم به الحالم نفسه (فى جملة : انتزع واحداً إلى الخارج). ولعل الذى حرك هذا الارتباط لم يكن حديث الحالم مع السيدة وحسب ، بل ملابسة ثانوية ذكرها الحالم من بعد : ذلك أن الحالم حين قرأ ' تفسير الأحلام ' قد وجد

---

(١) [الترجمة الحرفية للتعبير الأول هى : جر السن أو شدها ، وهو يذكر بالقطار لأن اسم القطار (Zug) فى الألمانية مشتق من فعل ziehen (جر أو شد) . والتعبير الثانى ترجمته : انتزع السن أو اقتلعها وهو يذكر بالسفر لأن فعل انتزع (reissen) لا يكاد يختلف فى الألمانية من الفعل الذى يعنى سافر (reisen) .]

ـ لأسباب مفهومة ـ بعض الغضاضة فى تصديق هذا المعنى النمطى للأحلام ذات المنبه السنى . وشعر بالحاجة إلى أن يعرف هل يصدق هذا المعنى على جميع الأحلام التى من هذا الطراز . فكان أن جاءه هذا الحلم يؤيد له أن الأمر كذلك ـ فيما يتعلق يه على الأقل ـ ويريه بهذا عينه لماذا كان تشككه أمراً محتوماً . فالحلم من هذه الناحية أيضاً يحقق رغبة ، هى الرغبة فى أن يقتنع بمدى انطباق رأى فرويد وبصحته . »

وأما المجموعة الثانية من الأحلام النمطية فتشمل الأحلام التى يطير فيها الحالم أو يموج فى الهواء أو يسقط أو يعوم ، إلخ . فما معنى هذه الأحلام ؟ إن من المستحيل أن نجيب عن هذا السؤال بجواب عام ؛ فهذه الأحلام ـ كما سنرى ـ تعنى شيئاً مختلفاً فى كل حالة ، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هى وحدها التى تنشأ دائماً من ذات المصادر .

والدروس التى يتلقاها المرء من التحليلات النفسية تلجئه إلى تلك النتيجة .. أن هذه الأحلام كذلك تعيد انطباعات من الطفولة ، أو هى تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذى لم يعن طفلا على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهيئ إليه بحركة مفاجئة أنه يتخلى عنه . والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إن احتوت على ما يحدث بعض الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها فى أحلامهم بعد أن تمضى بهم السنون ، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التى تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب ـ كولعهم بالأراجيج بأنواعها ـ أمر معروف . فإذا رأوا فى « السيرك » بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب . وقد لا تخرج النوبات الهسترية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى فى مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . وليس من النادر أن تنبه هذه الألعاب الحركية ـ وإن كانت بريئة فى ذاتها ـ مشاعر جنسية . وإذا جاز لى أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد فى أحلام الطيران والسقوط والتأرجح وما شاكلها ، استعادة تنقلب فى خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهى فى الواقع كذلك بالشجار وبالعويل كما تعرفه كل أم .

وأنا إذن أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا اللمسية فى أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه ، هى التى تبعث على أحلام الطيران والسقوط . بل فى رأيى أن هذه الأحاسيس ذاتها تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التى يرتد الحلم إليها ، أى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له [١] .

هذه المادة من الإحساسات المركبة المتماثلة نوعاً المتفقة مصدراً تستخدم الآن فى تصوير أفكار حلمية من كل ضرب ممكن . فأحلام الطيران والطواف فى الهواء — وهى أحلام يغلب عليها عادة طابع اللذة — تقتضى تفسيرات متنوعة غاية التنوع ، خاصة كل الخصوص عند بعض الناس ، ثم ذات طابع نمطى عند البعض الآخر . فهكذا يتفق أن تحلم إحدى مريضاتى بأنها تسير على ارتفاع معين فوق الطريق دون أن تمس قدماها الأرض ، وكانت هذه المريضة قصيرة جداً ، وكانت تخشى العدوى من كل صلة بالناس ؛ فحلمها هذا يحقق لها رغبتين إذ يرفع قدمها دون الأرض وإذ يُصَعِّد رأسها إلى طبقة أعلى من الهواء — هذا بينما تعرب أحلام الطيران عند بعض الحالمات عن ودهن : « لو كنت طائراً صغيراً ! » وبينما تصير أخريات ملائكة فى الليل لأنهن قد حرمن من أن يدعون كذلك بالنهار . وإن الصلة الوثيقة بين الطيران وبين فكرة الطير تجلعنا نفهم كيف صار لأحلام الطيران عند الرجال معنى حسى غليظ فى غالب الأحيان [٢] . ولن يدهشنا أن نسمع أن هذا الحالم أو ذاك كان شديد الفخر بقدرته على الطيران .

ولقد أعرب الدكتور پول فيدرن (من ڤيينا) عن رأى جذاب مؤداه أن جزءاً كبيراً من أحلام الطيران هو أحلام انتصاب ؛ لأن ظاهرة الانتصاب — تلك الظاهرة العجيبة التى شغل بها الخيال الإنسانى من غير انقطاع — لا يمكن إلا أن تسترعى الانتباه لما يبدو فيها من إبطال لقوة الجاذبية (أنظر بهذه المناسبة القضيب المجنح عند الأقدمين .) وإنه لأمر خليق بالانتباه أن نجد باحثاً تجريبياً ، متزناً ، صدوفاً عن كل ما هو تفسير ، مثل مورى فولد ، يؤيد التفسير العشقى لأحلام الطيران أو التأرجح (فولد ،

---

(١) قد كررنا ههنا هاتين الفقرتين الخاصتين بأحلام الحركة لمقتضيات السياق .

(٢) [ههنا إشارة إلى كلمة عامية ألمانية بمعنى " جامع " (vogeln) اشتقت من الكلمة الدالة على الطير (Vogel) .]

١٩١٠ ـ ١٩١٢ ، جزء ٢ ، ص٧٩١) . فهو يصف الدافع العشقى بقوله : « إنه أقوى الدوافع إلى أحلام الطواف فى الهواء » ويجذب الانتباه إلى إحساس الذبذبة الجسمية الشديدة التى تصحب أمثال هذه الأحلام ويشير إلى كثرة اقترانها بالانتصاب أو الإنزال .

فأما أحلام السقوط فيغلب أن تتسم بطابع الهيلة . ولسنا نجد صعوبة فى تفسيرها عند النساء ؛ فهؤلاء يكدن يسلمن دائماً بأن الاستخدام الرمزى للسقوط يصف الاستسلام لدافع عشقى . ونحن لم نحصر بعد المصادر الطفلية لأحلام السقوط ؛ فلا يكاد يكون ثمت طفل إلا وقع فى مناسبة أو أخرى ثم أقيل من عثرته ودلل ، فإن كان وقوعه من مهده فى أثناء الليل حملته المعنية بأمره إلى سريرها .

وأما ا لأشخاص الذين يحلمون كثيراً بالسباحة ويشقون الموج فى انشراح عظيم فهم فى العادة ممن كانوا يبللون فراشهم . وهم اليوم يعيدون فى أحلامهم لذة تعلموا الإقلاع عنها منذ زمن طويل . وسنعلم قريباً من أكثر من مثال أى شىء يسهل استخدام أحلام السباحة فى تصويره [ص ٤٠٣ .]

وأما أحلام الحريق فيؤيد تفسيرها هذا القانون التربوى الذى يحرم على الأطفال « أن يلعبوا بالنار » لكيلا يبللوا فراشهم فى الليل . ذلك أن هذه الأحلام أيضاً يكمن وراءها أثر ذكروى عن بلل الفراش فى فترة الطفولة . ولقد عرضت فى مقالى «طرف من من تحليل هستريا » (١٩٠٥) [١] تحليلا وتركيبا كاملين لحلم حريق من هذا القبيل وذلك من حيث صلة هذا الحلم بتاريخ الحالة ، كما بينت أى دوافع سن الرشد يمكن استخدام هذه المادة الطفلية فى تصويرها .

وفى مقدورنا أن نذكر عدداً وفيراً من الأحلام « النمطية » إذا كنا نعنى بهذا الحد أن ذات المحتوى الظاهر يكثر وروده عند حالمين مختلفين . نستطيع أن نذكر مثلا الأحلام التى يسير فيها المرء فى أزقة ضيقة أو يمشى عبر حجرات متعاقبة ، أو أحلام سراق الليل الذين يحتاط منهم الأشخاص العصبيون حتى قبل أن يذهبوا إلى الفراش ،

---

(١) [١٩٠٥ هـ ، القسم الثانى ، حلم دورا الأول .]

ثم هناك الأحلام التى يطاردك فيها وحش كاسر (أو ثور أو حصان) وتلك التى يهدد فيها الحالم بسكين أو خنجر أو رمح — والنوعان الأخيران من الأحلام يميزان المحتوى الظاهر فى أحلام المصابين بعصاب الهيلة — وكثير غيرها . ولا شك فى أن بحثاً يندب لهذه المادة خاصة سوف يكون بحثاً مجزياً إلى أبعد مدى ، ولكننى — بدل ذلك — أدلى بملاحظتين وإن كانتا لا تنطبقان على الأحلام النمطية انطباقا مانعا .

كلما زاد المرء اشتغالا بحل مشكلة الأحلام زاد استعداده للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات عشقية . وأولئك الذى يحللون الأحلام فعلا — أى يذهبون من محتواها الظاهر إلى أفكارها الكامنة — هم وحدهم الذين يستطيعون أن يقطعوا برأى فى هذا الصدد ، ويعجز عن ذلك أبدا كل من قنع بتدوين المحتوى الظاهر (مثل نا°كه فى كتاباته عن الأحلام الجنسية) . ولنقل دون إمهال : إن هذه الحقيقة ليست بالأمر الذى يدهشنا ، بل هى تتسق والمبادئ التى يستند إليها تعليلنا للأحلام أكمل اتساق ؛ فما من غريزة لاقت منذ الطفولة مثل الكبت الذى لاقته الغريزة الجنسية فى مقوماتها المتعددة ، وما من غريزة غيرها خلفت وراءها رغبات على هذا المدار من الكثرة والقوة تعمل اليوم على إحداث الحلم فى حالة النوم . فواجبنا عند تفسير الحلم هو ألا ننسى أبداً هذه القيمة التى للمركبات الجنسية ، وإن وجب كذلك بالطبع أن نتجنب المغالاة إلى الحد الذى يمنع غيرها .

ونستطيع أن نقول عن أحلام كثيرة — إذا عنينا بتفسيرها — : إنها أحلام تتسم بطابع الجنسية الثنائية ؛ لأنها تسلم من غير جدال إلى تفسير مضاعف تتحقق فيه للحالم رغبات جنسية مثلية ، أى رغبات تخالف نشاطه الجنسى السوى . ولكن أن نذهب إلى أن جميع الأحلام يجب تفسيرها على هذا النحو — مثلما يصنع شتيكل (١٩١١) وآدلر (١٩١٠) — ذلك ما يبدو لى تعميما مجرداً من البرهان ومن الرجوج على السواء ، تعميما لا أرانى مستعداً لأن أنتصر له . ولست أدرى بخاصة كيف أنكر تلك الحقيقة الواقعة ، وأعنى بها أن هناك أحلاماً تلبى حاجات غير الحاجات العشقية — وإن أخذنا الكلمة بأوسع معانيها — : أحلام جوع وعطش ، أحلام سهولة ، الخ . ثم القضايا التى من قبيل : « يكمن طيف الموت وراء كل حلم » (شتيكل) أو أن فى كل حلم « انتقالا من

المؤنث إلى المذكر » (آدلر) - تلك أيضاً أقوال تبدو لى بعيدة كل البعد عما يجيز لنا تفسير الحلم الأخذ به أخذاً مشروعاً . — وإن القول بأن جميع الأحلام تستلزم تفسيراً جنسيًّا — وهو القول الذى ثارت عليه محاجة لا تكل — لقضية غريبة عن « تفسير الأحلام » ؛ فأنت لا تجده فى طبعات الكتاب السبع ، ثم إنه يتناقض وسائر محتواه تناقضاً ظاهراً .

وقد سبق أن بينا أن بعض الأحلام التى ظاهرها السذاجة قد تضم رغبات غليظة ، وكان يسعنا أن نؤيد ذلك بأمثلة جديدة كثيرة . ولكن هناك كذلك أحلاماً ظاهرها اللامبالاة ، لا يسترعيك منها اتجاه ما أو شىء بعينه ، ثم إذا هى ترتد عند التحليل إلى رغبات جنسية لا شك فيها ، تكون فى أحيان كثيرة من نوع غير متوقع . من ذا الذى كان يستطيع — مثلا — أن يحذر وجود نزعة جنسية فى الحلم الآتى قبل تفسيره ؟ لقد رواه حالمه على هذا النحو : قصران عظيمان قام بينهما — إلى الخلف بعض الشىء — منزل صغير مغلق الباب . تقودنى زوجى فى جزء من الطريق يؤدى إلى المنزل الصغير ثم تدفع الباب فأدلف فى سرعة ويسر داخل فناء يميل بزاوية صاعدة .

ومع هذا فإن من له ولو قليل دراية بتفسير الأحلام سوف يذكر على الفور أن النفاذ فى أماكن ضيقة وفتح الأبواب المغلقة بين أكثر الرموز الجنسية شيوعاً ، وسوف يدرك فى غير عناء أن هذا الحلم يصور محاولة فى الجماع من الخلف (بين الردفين العظيمين فى جسم المرأة) . والممر الضيق الصاعد بزاوية هو المهبل بالطبع . وأما المساعدة التى ينسبها الحالم إلى زوجه فلا تفسير لها سوى أن مراعاة الزوجة هى المانع الأوحد الذى يحول بين الحالم وبين الإقدام على مثل هذه المحاولات فى الحياة الواقعة . وها نحن أولاء نعلم أن خادماً صغيرة السن قد جاءت يوم الحلم منزل الحالم وأنها حسنت فى عينيه كثيراً ، وأنه قد خيل إليه أنها لن تمانع محاولة من هذا القبيل إلا قليلا . والمنزل الصغير بين القصرين العظيمين أثر ذكروى من [قلعة] هارد شين فى پراج ، وهو بذلك يلمح إلى ذات الفتاة ؛ لأن پراج مدينتها .

وإذا أكدت لأحد مرضاى كثرة وقوع الأحلام الأوديبية التى يتصل فيها الحالم بأمه بصلة جنسية ، غلب أن يكون جوابه : لا أذكر أنى رأيت مثل هذا الحلم قط .

ولكن تنبعث على أثر ذلك ذكرى حلم ممحو ، لا يستلفت نظراً ، جاء الحالم مراراً ، وعندئذ يبين التحليل أن ذلك فى الحقيقة حلم له ذات المحتوى ، أى حلم أوديبى . وأستطيع أن أؤكد أن الأحلام المقنعة التى تدور حول الصلة بالأم تفوق السافرة فى كثرتها مرات ومرات[١] .

وهناك أحلام بمشاهد من الطبيعة أو بمحال يكون أظهر ما فيها يقين الحالم — وهو ما زال بحلمه — بأنه قد كان بذلك المكان من قبل . ولكن هذه « الرؤية السابقة »[٢]

---

(١) لقد نشرت فى موضع آخر (فرويد ١٩١٠ ل) مثالا نموذجيا على حلم أوديبى مقنع من هذا القبيل (تجده فى آخر هذا الهامش) ، كما نشر أوتورانك (١٩١١ أ) مثالا آخر قرنه بتحليل مفصل . وانظر كذلك مقالة رانك (١٩١٣) فيما يتصل بأحلام أوديبية مقنعة تتجلى فيها رمزية العين . وإن القارئ ليجد فى ذات الموضع الذى نشر فيه مقال رانك مقالات أخرى عن " أحلام العين " ورمزية العين كتبها ايدير وفرنتسى ورايتلر . وإن فقأ العينين فى أسطورة أوديب — كما فى غيرها — لهو بديل من الخصاء . هذا ولم يكن القدماء يجهلون التفسير الرمزى للأحلام الأوديبية المقنعة ، واقرأ فى ذلك رانك (١٩٠ ، ٥٣٤) حيث يقول : " وهكذا قيل : إن يوليوس قيصر قد حلم حلما رأى فيه أنه يجامع أمه ، فأوله مفسرو الأحلام قائلين : إنه يبشر بأن قيصر سوف يمتلك الأرض (الأرض الأم) . ومن الأمور المعلومة كذلك النبوءة المعطاة إلى التاركوينيين والتى أعلنت أن السيادة على روما سوف تكون من حظ أول من يقبل أمه (osculum matri tulerit) — وهو ما يفسره بروتوس بمعنى الأرض الأم (قبل الأرض قائلا : إنها الأم المشتركة لجميع المائتين. تيت ليف ١ ، ٥٦ [باللاتينية فى الأصل]) . » وانظر بهذه المناسبة حلم هيپياس الذى يرويه هيرودوت (٦ ، ١٠٧) إذ يقول : " أما الفرس فقد كان هيپياس يرشدهم إلى ماراتون . وكان هيپياس قد زاره فى الليلة الماضية منام رأى فيه أنه يضاجع أمه ، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته وأنه — فى شيخوخته — سيموت فى أرض وطنه . " هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة ؛ فقد رأيت أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضلون أو معززون لدى أمهاتهم يبدون فى حياتهم هذه الثقة الفريدة بالنفس وهذا التفاؤل الوطيد اللذين لا يندر أن يكون لهما مظهر البطولة وأن يطوعا النجاح لأصحابهما فعلا .

مثال نمطى على حلم أوديبى مقنع : حلم رجل أن له علاقة مستترة بسيدة يريد شخص آخر زواجها ، والحالم يخشى أن يعلم الآخر بهذه الصلة وألا ينتهى الزواج المقترح إلى نتيجة ، وهو لذلك يسلك تجاه هذا الرجل مسلكا ملؤه التودد ، يعانقه ويقبله . إن واقع حياة هذا الحالم لا يتفق وحلمه إلا فى نقطة واحدة : فقد كانت له علاقة بسيدة متزوجة أنى زوجها يوما — وكان صديقا للحالم — بملاحظة ذات معنيين جعلته يشك فى أن يكون الزوج قد لحظ أمرا . ولكن الحقيقة كانت تتضمن شيئا آخر لم يذكره الحلم مطلقا ، وهو مع ذلك الشىء ، الذى يعطينا المفتاح إلى فهم الحلم : ذلك أن الزوج كان مهددا بمرض عضوى ، وكانت الزوجة معدة لإمكانية موته فجأة ، وكان الحالم مشغولا بالتفكير الشعورى فى التزوج من الأرمل الشابة بعد موت زوجها . وهذا الموقف الخارجى يضع الحالم فى جو الحلم الأوديبى : فرغبة الحالم قادرة على قتل الرجل من أجل الظفر بامرأته ، والحلم يعرب عن هذه الرغبة فى صورة مشوهة ملؤها النفاق ؛ فبدل أن تظهر المرأة متزوجة بالفعل نرى شخصا غير الحالم يتقدم لزواجها — وهو ما يتفق وما للحالم نفسه من نيات مستترة — هذا بينما تختفى رغباته العدائية نحو الزوج وراء مظاهر من الود مستمدة من ذكرى الحالم عن علاقته بوالده فى أيام الطفولة .

(٢) ["Déja vu"]

لها فى الحلم معناها الخاص : فهذا المكان يعنى دائماً أعضاء التناسل عند الأم ، والواقع أنه ليس ثمت مكان آخر يستطيع المرء أن يقول عنه بمثل هذه الثقة : لقد كنت فيه من قبل . ومرة واحدة هى التى حيرنى فيها مريض بعصاب قهرى إذ قال : إنه حلم حلماً رأى فيه أنه يزور منزلا كان قد وجد فيه مرتين من قبل . ولكن هذا المريض على التحديد كان قد ذكر لى منذ زمن بعيد قصة ترجع إلى سنته السادسة ، حاصلها أنه شارك أمه سريرها مرة ، فأساء انتهاز الفرصة بأن دس إصبعه فى عضوها وهى نائمة .

وهناك طائفة كبيرة من الأحلام يغلب أن تصطحب بالهيلة وأن يكون محتواها المرور بأماكن ضيقة أو المكوث فى الماء ، تقوم على تخييلات تدور حول الحياة الجنينية والإقامة فى رحم الأم والولادة . والحلم الذى يلى كان حلماً لشاب انتهز فى مخيلته فرصة الحياة الجنينية لمشاهدة جماع بين والديه .

« إنه فى حفرة عميقة بها شباك كما فى نفق سمرينج [(١)] . يرى أول الأمر من النافذة مشهداً مقفراً ، ولكنه يتخيل صورة تناسب المكان ، ولا تلبث الصورة أن تتحقق دفعة واحدة وأن تملأ الفضاء . إن الصورة تمثل حقلا حرث حرثاً عميقاً بآلة من الآلات ، وكان الهواء العليل مع فكرة العمل الشاق التى تصحب المنظر ومع المدر الأزرق الأسود ، كان كل أولئك مما يحدث فى النفس تأثيراً جميلا . يستمر بعد ذلك فيرى كتاباً فى التربية مفتوحة أمامه . . . ويدهش لكل هذه الأهمية التى تعلق على المشاعر الجنسية (للأطفال) ويذهب به ذلك إلى التفكير فى . »

وها هو ذا حلم بديع لإحدى المريضات كان يخدم هدفاً بعينه فى العلاج :

إنها فى مصيفها على شاطىء بحيرة . تقفز إلى الماء فى ذات البقعة التى كان ضوء القمر الشاحب قد انعكس فيها على صفحة الماء .

إن الأحلام التى من هذا القبيل أحلام ولادة . ونصل إلى تفسيرها بقلب الحدث الذى يرد فى الحلم الظاهر ، وهكذا يكون لنا « خروج من الماء » — أى ولادة — بدل « القفز فيه » [(٢)] . ونستطيع أن نعرف المكان الذى يخرج منه الإنسان إذا نحن فكرنا فى الاستخدام الفكه لكلمة "la lune" [القمر] فى اللغة الفرنسية [بمعنى مؤخر الجسم] فالقمر الشاحب هو — إذن — المؤخر الأبيض الذى يبادر الطفل فيخمن أنه قد خرج منه . ولكن ما معنى أن ترغب الحالمة فى « أن تولد » فى مصيفها ؟ أسألها ذلك فتجيب من غير تردد : ألم أكن بالعلاج كمن ولدت من جديد ؟ وعلى ذلك فالحلم دعوة إلى متابعة

---

(١) [نفق يبعد نحو السبعين ميلا من فيينا على سكة الحديد الجنوبية .]

(٢) أنظر رانك (١٩٠٩) فيما يتصل بالمغزى الأسطورى الذى للولادة من الماء .

علاجها فى ذلك المصيف ، أى إلى عيادتها هناك . وربما كان الحلم يحوى كذلك إشارة حيية إلى رغبة المريضة فى أن تكون هى نفسها أما [1].

وأنقل من مقال لجونز (١٩١٠ ب) حلماً آخر من أحلام الولادة مع تفسيره :

« كانت تقف على شاطىء البحر وهى ترقب طفلا هيىء إليها أنه ولدها بينما كان يلعب فى الماء . وظل الولد يلعب حتى غمره الماء ، فلم تعد ترى إلا رأسه وهو يقب ويغطس قريباً من سطح الماء . وعندئذ تغير المنظر إلى قاعة مزدحمة فى فندق . يتركها زوجها فتطرق حديثاً مع شخص غريب .

« يتبين عند التحليل أن الجزء الثانى من هذا الحلم إنما يصور رغبة الحالمة فى الفرار من زوجها والأخذ فى علاقة وثيقة بشخص ثالث . . . وأما الجزء الأول فتخييل ولادة مكشوف ؛ فمن المألوف فى الأحلام كما فى الأساطير أن يصور الخروج من مياه الرحم من طريق القلب — فى صورة الدخول فى الماء ، ومولد أدونيس وأوزوريس وموسى وباكوس ، كل هذه — والكثير غيرها — أمثله معروفة على ذلك . وتذكرها حركة الطفل وهو يطفو فوق الماء ويغطس تحته بما عهدته من حركات الجنين فى بطنها أثناء حملها الوحيد . ويذهب بها تفكيرها فى الطفل وهو ينزل فى الماء إلى حلم يقظة ترى فيه نفسها وهى تنشل الطفل من الماء وتحمله إلى محضنة حيث تغسله وتكسوه ثم تأخذه إلى دارها .

« وهكذا كان النصف الثانى من الحلم يصور أفكارا خاصة بالفرار تتصل بالنصف الأول من أفكار الحلم الكامنة ، ويوافق النصف الأول من الحلم المحتوى الكامن لنصفه الثانى : تخييل الولادة . ثم كل نصف من نصفى الحلم ينطوى على قلب آخر فى الترتيب الزمنى إلى جانب القلب الذى ذكرناه : ففى النصف الأول من الحلم ينزل الطفل فى الماء ثم تطفو رأسه وتغطس ، وأما فى أفكار الحلم الكامنة فيتحرك الطفل أولا ثم يغادر الماء (قلب مزدوج) ، وفى النصف الثانى من الحلم يتركها زوجها ، بينما فى أفكار الحلم الكامنة تترك هى زوجها . » (عن ترجمة ألمانية بقلم أوتو رانك .)

ويروى أبراهام حلم ولادة آخر ، أتى امرأة شابة كانت تنتظر وضعها الأول . فى

(١) لقد ظللت زمناً طويلا دون أن أقدر قيمة التخيلات والأفكار اللاشعورية التى قد تدور حول الحياة فى الرحم ؛ ففيها تفسير هذه الهيلة العجيبة عند الكثيرين من كونهم قد يدفنوا أحياء ، وفيها أعمق أساس لاشعورى يرتكز عليه الاعتقاد بحياة مستقبلة بعد الموت وهواعتقاد لا يعدو أن يصور إسقاطاً فى المستقبل لهذه الحياة الغامضة التى تسبق الولادة . والولادة بالإضافة إلى ذلك — هى أول خبرة بالهيلة ، وهى بذلك منهل هذه الحالة الوجدانية ونموذجها .

هذا الحلم نرى مجرى يجرى تحت الأرض من أرض حجرتها إلى الماء مباشرة (القناة الرحمية – السائل النخطى) ، ثم ترفع الحالمة غطاء فى أرض الحجرة فيبرز على الفور مخلوق مغطى بفراء أسمر اللون ، أشبه بسبع البحر ، ثم يتبين أن هذا المخلوق الصغير هو أخو الحالمة الأصغر الذى كانت الحالمة تقف منه دائماً موقف الأم .

وقد بين رانك (١٩١٢ أ) بطائفة من الأحلام أن أحلام الولادة تستخدم ذات الرموز التى تستخدمها أحلام المنبه البولى ؛ ففيها يصور المنبه العشقى كما لو كان منبهاً بوليا ، وإن وجود طبقات من المعنى فى هذه الأحلام ليوافق تحويلا دخل على معنى الرمز من عهد الطفولة .

ومن المناسب—وقد بلغنا هذا الموضع—أن نعود ثانية إلى موضوع تركناه (فى ص٢٥٨) وهو نصيب المنبهات العضوية المزعجة للنوم فى تكوين الأحلام . فالأحلام التى تقع تحت تأثير هذا المنبهات لا يقف شأنها عند كونها تكشف علانية عن الميل إلى تحقيق الرغبة وعن طابع الأخذ بالأسهل وحسب ، بل هى – فى أحيان كثيرة جداً – قد تكشف أيضاً عن رمزية شفافة كل الشفافية ؛ إذ ليس من النادر أن يوقظ منبه حالماً بعد أن يكون الحالم قد حاول سدى إرضاء هذا المنبه فى الحلم تحت ستار رمزى . وينطبق ذلك على أحلام الإمناء كما ينطبق على الأحلام التى تحرك إليها حاجة إلى التبول أو التبرز . ولكن الطابع الخاص لأحلام الإمناء لا يمكننا فقط من أن نميط اللثام بطريقة مباشرة عن رموز بعينها كنا نعلم من قبل أنها رموز نمطية ولكنها كانت تلاقى مع ذلك إنكاراً عنيفاً ، بل هو يعيننا – فوق ذلك – على الاقتناع بأن بعض مواقف الأحلام الظاهرة البراءة لا تعدو أن تكون فاتحة رمزية لمناظر جنسية فظة – مناظر لا تلقى فى العادة تصويراً صريحاً إلا فى أحلام الإمناء النادرة ندرة نسبية ، على حين يكثر ، إنقلابها إلى حلم هيلة يدفع كذلك إلى اليقظة .

وأما رموز الأحلام ذات المنبه البولى فتتسم بشفافية خاصة ، كما أنها قد عرفت منذ أقدم الأزمنة ؛ فقد سبق هيبوقراط إلى القول بأن الينابيع والنوافير تدل على خلل فى المثانة (هافلوك إليس) . ودرس شرنر رموز المنبهات البولية الكثيرة ثم أكد أن « كل منبه بولى شديد بعض الشدة يستحيل من غير استثناء إلى تنبيه فى المنطقة الجنسية وإلى صور ترمز إليها . . . وكثيراً ما يكون الحلم ذو المنبه البولى ممثلا فى الوقت نفسه للحلم الجنسى . »

وإن أوتو رانك – الذى أتابع ههنا مقاله عن « التراص الطبقى للرموز فى الأحلام المؤدية إل الاستيقاظ » (١٩١٢ أ) – قد جعل من الراجح كل رجوح أن يكون عدد كبير من الأحلام ذات المنبه البولى ناجماً فى الحقيقة عن منبه جنسى بدأ بالتماس الإشباع من طريق النكوصى إلى صورة طفلية من العشق هى صورة العشق البولى . وإنا لنعلم الشىء الكثير بخاصة من تلك الحالات التى يؤدى فيها المنبه البولى – وقد استثير على هذا النحو – إلى اليقظة وإفراغ المثانة ، ومع هذا يتابع الحلم بعد ذاك إلى أن يتم الإعراب عن الحاجة فى صور عشقية صريحة [1].

وأما الأحلام ذات المنبه المعوى فتلقى الضوء بطريقة مماثلة على الرمزية المتضمنة فيها ، ثم هى – فى الوقت ذاته – تؤيد العلاقة بين الذهب والبراز – وهى علاقة تدعمها كذلك شواهد وفيرة من علم المجتمعات الإنسانية [2]. « فهكذا تحلم امرأة كانت تعالج لمرض فى أمعائها برجل يدفن كنزاً على مقربة من كوخ أشبه بمرفق مياه ريفى معزول عن الدار ، ثم يتبع جزء ثان ترى فيه أنها تمسح است بنتها الصغيرة التى وسخت نفسها . »

وتتبع أحلام الإنقاذ أحلام الولادة : فالإنقاذ – وبخاصة الإنقاذ من الماء – له عند النساء معنى الولادة ، ولكن هذا المعنى يدخله التعديل إذا كان الحالم رجلا [3].

فأما اللصوص وسراق الليل والأشباح الذين يوجس منهم البعض خيفة قبل أن يتوجهوا إلى فراشهم والذين يتبعون أحياناً ضحاياهم هؤلاء حتى بعد نومهم فيخرجون جميعاً من طبقة واحدة من الآثار الذكروية لا تتغير : إنهم زوار يعودون الأطفال فى جنح الليل ويوقظونهم ويحملونهم لكيلا يبللوا فراشهم ، أو يرفعون عنهم الغطاء ليروا بأعينهم بأى موضع وضعوا أياديهم وهم نيام . ولقد مكننى تحليل بعض أحلام الهيلة هذه من أن

---

(١) " إن ذات الصور الرمزية التى تجىء بمعناها الطفلى فى الأحلام البولية تظهر بمعناها الحديث فى أحلام جنسية لا مرية فيها : ماء = بول = السائل النخطى ، schiff [سفينه] = schiffen [شخ] = رحم (صندوق) ، البلل = بلل الفراش أثناء النوم = الجماع = الحمل ، العوم = امتلاء مجرى البول = مقر من لم يولد ، المطر = البول = الرمز إلى الإخصاب ، السفر (الرحيل أو الخروج من العربة) = النهوض من الفراش = الجماع الجنسى (رحلة شهر العسل) ، تبول = أنزل " . (رانك ذات المرجع .)

(٢) أنظر فرويد ١٩٠٨ ب ورانك ١٩١٢أ وداتنر ١٩١٣ ورانك ١٩١٥ .

(٣) لقد أورد فيستر حلما من هذا النوع (١٩١٩ ح) . أنظر أيضاً رانك ١٩١١ ب ورايك ١٩١١ . ثم أيضا رانك ١٩١٤ .

أمضى إلى أبعد من ذلك فى إخراج شخص الزائر الليلى من مجهوليته : فى كل حالة كان السارق يقوم مقام الأب بينما تنوب الأشباح عن الأشخاص الأنثوية فيما يرتدينه ليلا من الغلل البيضاء.

و

أمثلة – عمليات الحساب والأقوال فى الحلم

قبل أن أحدد للعامل الرابع الذى يحكم تكوين الحلم موضعه الصحيح [القسم ط] ، أقترح أن أسرد بعض الأمثلة من مجموعتى . هذه الأمثلة سوف تفيد – من جهة – فى تصوير التفاعل بين العوامل الثلاثة التى عرفناها ، وسوف تفيد – من جهة أخرى – فى تزويدنا بدليل يؤيد بعض القضايا التى ظلت حتى الآن بغير سند أو فى بيان نتائج تازم منها ضرورة . فقد كنت وأنا أشرح عمل الحلم أجد صعوبة بالغة فى مساندة اكتشافاتى بالأمثلة ؛ فالأمثلة التى يراد بها تدعيم هذه القضية أو تلك لا تحمل على الاقتناع إلا إذا سيقت وسط تفسير كامل لحلم من الأحلام ، فإن انتزعت من محيطها فقدت أثرها– هذا بينما نجد من ناحية أخرى أن التفسير إذا عمق ولو قليلا لا يلبث أن يبلغ من الجسامة حدا نفقد معه حبل القضية التى كان يراد تصويرها . ولعل هذه الصعوبة الفنية تعذرنى إذا أنا حركت الآن أشياء من كل صنف لا يربط بينها رابط مشترك سوى اتصالها بما ورد فى الأقسام السابقة من هذا الفصل .

سأبدأ بأمثلة على طرائق فى التصوير غريبة أو غير مألوفة . حلمت سيدة الحلم الآتى : تقف خادم على سلم كأنما كانت تمسح الشباك ، وكانت تحمل قرداً وقطاً من نوع الغوريلا (وتستدرك السيدة بعدئذ قائلة : من نوع الأنجورا) . ترمى الخادم الحاملة بالحيوانين ، ويلصق القرد بها – وهو ما يثير فى نفسها اشمئزازاً كبيراً . – لقد حقق هذا الحلم هدفه بطريقة غاية فى البساطة : فهو قد استعار مجازاً من مجازات الكلام ثم أجراه على حرفه ، « فالقرد » وأسماء الحيوان بوجه عام تستخدم على سبيل السباب ، ولا يعنى الموقف الذى عرض فى الحلم شيئاً آخر سوى قولنا :

رماه بالسباب . ولن تلبث مجموعتى دون أن تأتى بأمثلة جديدة على استخدام هذه الحيلة البسيطة فى عمل الحلم .

ونهج حلم آخر نهجاً يماثل السابق كل مماثلة : سيدة مهما طفل شاه شكل جمجمته شوها ملحوظا ، تسمع الحالمة أن ذلك راجع إلى وضع الطفل فى الرحم . يقول الطبيب : إن من الممكن تحسين شكل الجمجمة يضغطها ، إلا أن ذلك قد يؤذى مخ الطفل . تفكر فى أن الطفل صبى فلن يضيره ذلك كثيراً . — إن هذا الحلم يحوى تعبيراً مصوراً عن فكرة مجردة : « انطباعات الطفولة » ، وهى فكرة كانت الحالمة قد سمعتها فى أثناء التوضيحات التى اقتضاها العلاج .

ولكن عمل الحلم قد سلك طريقاً مخالفاً بعض المخالفة فى المثال الآتى ، وكان ينطوى على ذكرى رحلة إلى هيلمتايش[1] بالقرب من جراتس : فى الخارج عاصفة مروعة ، نزل حقير ، يقطر الماء من الجدران ، الأسرة مبللة (هذا الجزء الأخير من الحلم قد روى فى صورة أقل صراحة مما ذكرت) . إن هذا الحلم يعنى « نافلة » ؛ فهذه الفكرة المجردة المتضمنة فى أفكار الحلم قد لاقت أول الأمر علاجاً متكلفاً صيرها إلى شىء من قبيل « فائض » أو « طافح » ، ثم تمثلت بعد ذلك فى عدة من الصور المشابهة : ماء فى الخارج ، ماء فى الداخل على الحوائط ، ماء فى أغطية السرير المنداة ، كل شىء يقطر أو « يطفح » . ولن يدهشنا أن نرى أن أصوات الكلمات تفوق تهجيها بكثير من حيث أهميتها بالنسبة إلى التصوير الحلمى ، وبخاصة حين نذكر أن الشعر المقفى يستبيح لنفسه حرية مماثلة . فقد روى رانك (١٩١٠ ، ٤٨٢) فى كثير من التفصيل حلماً أتته فتاة وحلله تحليلا وافياً إلى مدى بعيد ، وفى هذا الحلم نسمع أن الفتاة قد سارت وسط الحقول وهى تقطع سنابل [Ahren] مثقلة بالقمح والشعير ، ثم أقبل عليها صديق فى سنها ، فحاولت أن تتجنب لقاءه . ويبين التحليل أن الأمر يتعلق بقبلة ، « قبلة فى شرف»[Kuss in Ehren][2] . فالسنابل [Ahren] التى كان يجب اقتطافها لااقتطاعها

---

(١) [شعبة ماء .]

(٢) [Ahren (سنابل) = Ehren (شرف) فى النطق ، فكأن معنى التعبير منطوقا هو : قبلة فى شرف أو قبلة بين السنابل . ومن المهم أن نلاحظ مع ستراشى أن هذا التعبير يشير إلى مثل ألمانى ترجمته الحرفية هى : ما من أحد يرفض قبلة فى شرف ، كما أن الفتاة كانت فى الحقيقة قد تلقت أول قبلاتها وهى سائرة فى حقل قمح ، فكانت قبلة " بين السنابل " .]

قد أفادت من حيث هى كذلك ومن حيث تكثيفها بكلمة Ehren [شرف] فى تصوير طائفة كاملة من أفكار أخرى .

وفى حالات أخرى نجد أن اللغة قد يسرت الأمور على الحلم تيسيراً كبيراً ؛ فاللغة تملك طوع يدها طائفة بأسرها من المفردات التى كانت تملك فى الأصل معانى عيانية مصورة ثم صارت اليوم تستخدم استخداماً مجرداً لا لون فيه ، وكل ما يحتاج إليه الحلم هو أن يسترجع لهذه الكلمات معانيها السابقة المليئة وأن يرجع بعض المسافة إلى مرحلة متقدمة فى تطور الكلمة. ومثال ذلك أن يحلم حالم بأن أخاه فى صندوق، ثم تذهب خواطر الحالم فى أثناء التفسير من صندوق إلى « دولاب » [Schrank ويعنى أيضاً الحد بالمعنى المجرد] ، فتكون فكرة الحلم الكامنة هى : أن على أخيه أن يلزم حده — أى أن يلزمه هو . وها هو ذا حالم آخر يعتلى جبلا يشرف منه على منظر « قصى الأطراف » ، وهو بذلك يعين ذاته بأخيه الذى كان يشرف على تحرير باب عنوانه « نظرة على الشرق الأقصى » .

وفى حلم يرد فى « هاينريخ اليانع » [رواية ذائعة لجوتفريد كيللر] نرى فرساً جموحاً وهو يتقلب فى حقل جميل من الخرطل كل حبة منه « لوزة حلوة وزبيبة ودرهم جديد . الكل ملفوف فى حرير قان ، معقود بسبائب الخنزير » . ولا يلبث الكاتب (أو الحالم) أن يفسر هذه الصورة الحلمية ؛ إذ يشعر الحصان بدغدغة تطيب له ، ويهتف قائلا : الخرطل ينغزنى . [وهو من مثل ألمانى بمعنى : أفسده الرغد .]

وفى رأى هنتسن أن الأحلام المشتملة على توريات وجمل لفظية تكثر كثرة خاصة فى الأساطير الشمالية القديمة ، فلا تكاد تخلو أسطورة منها من حلم ينطوى على بعض الاشتراك أو اللعب بالألفاظ .

وإنه ليكون عملا قائماً بذاته أن يجمع المرء أساليب التصوير وأن يقسمها بحسب المبادئ التى تقوم عليها ، وإن منها لأساليب تكاد أن تكون خليقة بأن تسمى نكات ، أساليب يحس المرء إزاءها أنه ما كان ليحذر قط معناها لو لم يفض به الحالم إليه :

١) حلم رجل بأن البعض يسأله عن اسم ما ولكنه لا يستطيع تذكره . إنه يقول : إن هذا يعنى أن ذلك لا يخطر لى ولو فى الحلم .

٢) أخبرتنى مريضة بحلم بدا الناس فيه طوالا إلى حد يتجاوز المألوف ، ثم مضت تقول : إن هذا يعنى أن الحلم يتناول أحداثاً وقعت فى طفولتى ؛ فى هذا الوقت كان جميع الراشدين يبدون لى بالطبع طوالا ضخاماً . هذا ولم يظهر شخصها هى فى ذلك الحلم .

ومن الممكن أن نعرب عن كون الحلم يشير إلى الطفولة بطريقة أخرى ، هى ترجمة الزمان إلى المكان ، فتبدو الأشخاص والمشاهد كما لو كانت على بعد عظيم ، فى نهاية الطريق ، أو كما لو كان ينظر إليها من منظار أوبرا معكوس الوضع .

٣) حلم مرة رجل كان ينزع فى حياته إلى العبارات المجردة غير المحددة وإن كان – فيما خلا ذلك – قد وهب نكتة بارعة بأنه قد وصل إلى إحدى محطات السكة الحديدية وقت دخول القطار ، وإذا الرصيف يتحرك جهة القطار بينما القطار واقف بلا حراك – وهو عكس غير معقول لما يحدث فى الواقع . ولم يكن هذا القلب إلا إشارة تشير إلى أن الحلم لا بد مشتمل على قلب آخر فى محتواه [أنظر ص ٣٣٦] . فلما حللناه انتهى الحالم إلى أن تذكر كتاباً مصوراً حوى صور رجال وقفوا على رؤوسهم ومشوا على أيديهم .

٤) وفى مرة أخرى روى هذا الحالم نفسه حلما يذكر بطريقة الألغاز المصورة ؛ فقد رأى أن عمه كان يقبله فى السيارة [Automobil] . وبادر الحالم إلى تفسير الحلم تفسيراً ما كنت لأحذره قط : إن ذلك كان يعنى العشق الذاتى [Autoerotismus] . وقد كان من الممكن أن يخرج محتوى هذا الحلم فى الحياة المستيقظة على صورة نكتة .

٥) حلم رجل بأنه يجذب [hervorziehen] امرأة من وراء السرير ، وكان معنى ذلك أنه يؤثرها [vorziehen] .

٦) حلم رجل أنه يجلس إلى إحدى الموائد فى مواجهة الإمبراطور . وكان معناه أنه يعارض أباه.

٧) حلم رجل بأنه يعالج شخصاً ما أصيب بكسر فى أحد أطرافه . وأظهر التحليل أن

العظمة المكسورة[Knochenbruch] كانت تنوب عن الزواج المكسور [Ehebruch ويقال بمعنى الزنا .]

٨) ومن الشائع فى الأحلام أن يمثل الوقت عمر الحالم فى فترة معينة من فترات الطفولة . مثال ذلك أن « الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة » كانت تعنى فى أحد الأحلام « خمس سنوات وثلاثة أشهر » . وكان لذلك التاريخ أهمية ؛ إذ تلك كانت سن الحالم حين ولد أخوه الأصغر .

٩) وها هو ذا تصوير آخر للسن فى الحلم : فقد حلمت امرأة بأنها تسير مع فتاتين صغيرتين فرق السن بينهما خمسة عشر شهراً . ولا تعرف الحالمة أحداً من أسرتها يصدق عليه ذلك . ولكنها قد أتت بالتفسير حين قالت : إن كلتا الطفلتين تمثلها وإن الحلم إنما يذكرها بالصدامين اللذين عرفتهما فى طفولتها ؛ فقد كانت تفصل بينهما هذه الفترة على التحديد ، وقع أحدهما حين كانت تبلغ من العمر السنة الثالثة ونصف السنة ووقع الآخر حين كانت فى الرابعة والتسعة الأشهر .

١٠) ولسنا نعجب إذا رأينا أن الشخص الذى يتبع علاجاً تحليليا نفسياً يحلم كثيراً بعلاجه هذا ويعرب عن أفكار وتوقعات متعددة يبعث العلاج عليها . والصورة التى يغلب اختيارها فى تصوير العلاج هى صورة الرحيل ، والرحيل بالسيارة بنوع خاص ؛ لكونها عربة حديثة معقدة . وفى هذه الحالة تجد تهكمات المريض متنفساً بالإشارة إلى سرعة السيارة . وإذا أريد تصوير « اللاشعور » من حيث هو عنصر ورد بين أفكار اليقظة استبدلت به — استبدالا جد ملائم — أماكن تقع « تحت الأرض » — وهى أماكن تنوب عن جسم المرأة أو عن الرحم حين تجىء من غير علاقة بالعلاج التحليلى . ويكثر أن تشير « أسفل » إلى أعضاء التناسل ، بينما تشير « أعلى » — على العكس — إلى الوجه أو الفم أو الصدر . ويرمز عمل الحلم عادة بالحيوانات الوحشية إلى الانفعالات الاندفاعية التى يخشاها الحالم من نفسه أو من غيره على السواء، وهكذا يستطيع — بنقل جد طفيف — أن يرمز بهذه الحيوانات إلى الأشخاص الذين تغلب عليهم هذه الانفعالات . والمسافة هنا قريبة بين ما نحن فيه وبين الحالات التى يصور فيها الأب المخوف بوساطة

وحش كاسر أو كلب أو حصان وحشى ، على نحو يذكر بالطوطمية . وفى مقدورنا أن نقول : إن الحيوانات الوحشية تستخدم فى تصوير الليبيدو — والليبيدو قوة يفزع منها الأنا ويغالبها بالكبت . ومن الشائع أيضاً أن يُفصل العصاب فى ذاته — « الشخص المريض » — من الحالم وأن يتمثل فى الحلم فى صورة شخص مستقل .

١١) (عن هانس ساكس) « إننا نعلم من ' تفسير الأحلام ' أن عمل الحلم يسلك طرقاً مختلفة من أجل الوصول إلى تصوير الكلمات أو الجمل فى صورة حسية مرئية . فإذا اتفق — مثلا — أن كان لتعبير معنيان استطاع الحلم أن يستغل هذا الاشتراك باعتباره منعطفاً يترك عنده أول المعنيين — وهو المعنىّ فى أفكار الحلم — ليدرج الثانى بدلا منه فى محتوى الحلم الظاهر .

« ذلك ما قد وقع فى الحلم القصير الآتى ، ووقع بعد استغلال ماهر لانطباعات ملائمة من اليوم السابق باعتبارها مادة تصويرية :

« ذلك أنى كنت يوم الحلم قد عانيت بعض البرد ، فعزمت فى المساء على ألا أغادر الفراش فى الليل بقدر المستطاع . وجاء حلم لا يبدو منه إلا أنه يجعلنى أتابع فى الليل عملا من أعمال النهار : فقد كنت شغلت فى أثناء النهار بلصق قصاصات من الصحف فى دفتر لدى ، وكنت أحرص فى خلال ذلك على أن توضع كل قصاصة فى موضعها الملائم ، وكان أن جاء الحلم هكذا :

أجهد فى لصق إحدى قصاصات الصحف فى الدفتر ، فلا يتمشى ذلك مع الصفحة[1] ، وهو ما يثير فى نفسى ألماً كبيراً .

« وأستيقظ فأجد أن ألم الحلم لا يزال مستمراً فى صورة ألم جسمى حقيقى ؛ فقد أراد الحلم — من حيث هو حارس النوم — أن يهيئ إلى أن رغبتى فى المكث بالفراش قد تحققت متوسلا إلى ذلك بتصوير عيانى للجملة [الألمانية] المزدوجة المعنى . » [وتعنى ولكنه لا يماشى الصفحة ، وأيضاً : ولكنه لا يمشى إلى المرحاض أو لا يذهب إليه .]

إننا لنستطيع أن نذهب إلى حد القول : إن عمل الحلم يتوسل إلى التصوير المرئى لأفكار الحلم بكل وسيلة فى متناوله ، سواء أمقبولة لاحت لعين النقد المستيقظة أم

(١) [er geht aber nicht auf die seite]

مرفوضة، وذلك هو ما يجعل عمل الحلم عرضة للتشكك والسخرية عند كل من لم يَعْدُ أن يسمع عن تفسير الحلم دون أن يزاوله . وكتاب شتيكل « لغة الأحلام » (١٩١١) ثرى بالأمثلة التى من هذا القبيل ، غير أننى قد تجنبت مع ذلك الاستشهاد به ؛ لأن افتقار المؤلف إلى الحكم النقدى مع اتسام منهجه بطابع التعسف يحملان الذهن على التشكك حتى ولو خلا من كل فكرة سابقة .

١٢) فأما الأمثلة الآتية فمقتبسة من مقال كتبه تاوسك (١٩١٤) عن استخدام الثياب والألوان فى التصوير الحلمى :

ا — حلم أ . حلماً رأى فيه مربيته القديمة وقد ارتدت رداء ذا بريق [Lüster] أسود، والتصق بردفيها التصاقاً شديداً — وكان معنى ذلك أن تلك المربية كانت فى رأيه امرأة شهوانية [Lustern] .

ب — حلم ج . أنه يرى فتاة تسير فى طريق س . وقد غمرها ضوء أبيض وارتدت صداراً أبيض . كان الحالم قد بدأ فى ذلك الطريق أول علاقاته الوثيقة بآنسة لقبها : أبيض .

ج — حلمت السيدة د. بأنها ترى Blasel العجوز (وهو ممثل من ڤيينا بلغ الثمانين من العمر) وقد رقد على ديوان وهو شاكى السلاح [in voller Rüstung] ثم أخذ هذا الممثل يثب فوق الموائد والمقاعد، ثم استل خنجراً ونظر إلى نفسه فى المرآة ملوحاً بالخنجر فى الهواء كأنما يحارب عدواً موهوماً .

التفسير : كانت الحالمة تعانى ألماً مزمناً فى المثانة [Blase] ، ثم هى كانت تستلقى على ديوان فى أثناء التحليل ، وكانت إذا نظرت إلى نفسها فى المرآة أسرت إلى نفسها أنها على رغم سنها ومرضها — لا تزال صحيحة معافاة [rüstig] .

١٣) « عمل عظيم » فى الحلم .

حلم رجل فرأى نفسه راقداً فى السرير مثل امرأة حبلى ويثير هذا الموقف فى نفسه مضضاً شديداً . يصيح قائلا : لقد كنت أفضل . . . (فى أثناء التحليل أكمل الرجل عبارته — بعد أن تذكر شخص امرأة ممرضة — بتلك الكلمات . . . أن أكسر الأحجار .) كانت تعلو سريره خريطة ثبت شريط من الخشب بحافتها السفلى لكى يبقيها منشورة . ينتزع الحالم الشريط الخشبى بأن يقبض على طرفيه كليهما ، ولكن الشريط لا ينكسر عرضاً بل ينشق طولا . يحس الحالم عندئذ أنه قد تخفف كثيراً وأن هذا الفعل قد أعانه على الوضع .

يفسر الحالم من تلقاء نفسه انتزاع الشريط [Leiste] الخشبى بأنه يعنى إتيان

« عمل »["Leistung"] عظيم . ذلك أنه يريد التخلص من موقفه غير السار (فى العلاج) بأن ينتزع نفسه من وضعه المؤنث . . وأما تلك اللمحة غير المعقولة : ألا ينكسر شريط الخشب بل ينفلق شقين ، فتفسيرها ما يتذكره الحالم من أن هذا التضعيف مضافاً إلى التمزيق ينطوى على إشارة إلى الخصاء . ومن الأمور الشائعة غاية الشيوع أن يصور الحلم الخصاء بوساطة رمزين قضيبين تصويراً صادراً عن رغبة مضادة فيها التحدى . أضف إلى ذلك أن Leiste [الشريط ، ويعنى أيضاً « الحالب »] منطقة من الجسم قريبة من أعضاء التناسل . ويجمل الحالم تفسير حلمه بما معناه أنه — أعنى الحالم — يغالب وعيد الخصاء الذى أحوجه إلى اتخاذ هذا الموقف المؤنث [١].

١٤) وعرض مرة للتفسير — أثناء تحليل أجريته باللغة الفرنسية — حلم ظهرتُ فيه فى صورة الفيل . ودعانى ذلك بالطبع إلى أن أسأل الحالم لم صورت هذا التصوير ، فكان جوابه "Vous me trompez" [أى « أنت تخدعنى »] (trompe = زلومة).

وفى وسع عمل الحلم أن يصور مواد عَصِيَّة إلى أبعد حد — مثل أسماء الأعلام — باستخدام متكلف لروابط جد مستبعدة . فقد جاء فى أحد أحلامى أن بروكيه الشيخ كلفنى القيام بعملية من عمليات التشريح وأننى فرغت من تحضير أحد المركبات ثم التقطت شيئاً لاح مثل روق الفضة المجعد (وهو حلم سأعود إليه فيما بعد [ص ٤٥١]) . وكان المستدعى الذى ورد على ذهنى بعد شىء من الصعوبة هو : « ستانيول »[٢] . وعندئذ عرفت أننى كنت أفكر فى اسم « ستانيوس » — وهو مؤلف كتب مقالا عن الجهاز العصبى لنوع من السمك أعجبت به إعجاباً شديداً فى شبابى . والحق أن أول عمل علمى كلفنى به أستاذى (بروكيه) كان يتعلق بالجهاز العصبى لنوع من السمك اسمه : « Ammocoetes » [فرويد ١٨٧٧ أ]. ومن الواضح أن ذلك الاسم كان يستحيل استخدامه فى لغز مصور .

ولست أستطيع أن أمنع نفسى من أن أسرد فى هذا الموضع حلماً عجيباً فى محتواه ، ثم هو حلم جدير بأن يعار التفاتاً لأنه حلم طفلة ، كما أنه يسهل استجلاؤه بالتحليل :

---

(١) أنظر فرويد ١٩١٤ هـ .

(٢) [ورق الفضة (واسمه عندنا ورق القصدير) عبارة عن شرائح مفضضة من الصفيح ، و"ستانيول" مشتق من "ستانيوم وهو" الصفيح .]

قالت سيدة : إننى لا أزال أذكر حلماً عاودنى مراراً فى طفولتى ، وكان فحواه أن الله يحمل قبعة مدببة فوق رأسه . ولقد كان من عادتى وأنا طفلة أن أرى هذه القبعة توضع كثيراً على رأسى حين أجلس إلى المائدة ؛ حتى لا أتمكن من التطلع إلى أطباق الأطفال الآخرين لأرى مقدار ما أخذوا . وإذ كنت سمعت من قبل أن الله عليم بكل شىء ، فمعنى الحلم أننى على علم بكل شىء رغم القبعة المدببة .

بيد أن طبيعة عمل الحلم والطريقة التى يتصرف بها فى مادته — وأعنى أفكار الحلم — تظهر على نحو حافل بالفائدة النظرية حين نجىء إلى بحث ما يعرض فى الحلم من الأعداد وعمليات الحساب . أضف إلى ذلك أن للأعداد فى الحلم — على حسب معتقد خرافى — دلالة خاصة على الغيب . ولهذا أنتقى من مجموعتى بضعة أمثلة من هذا الطراز .

(١) من حلم أتته سيدة قبل أن ينتهى علاجها بزمن قصير : تريد أن تدفع ثمن شىء ما ، تأخذ ابنتها **٣** فلورين و **٦٥** كرويتسر من كيسها . تقول الحالمة : ماذا تفعلين ؟ إن هذا لا يكلف سوى **٢١** كرويتسر . لقد بدا لى هذا الطرف من الحلم واضحاً مفهوماً دون معاونة ما من جانب الحالمة ، وذلك لما أعرفه من ملابسات حياتها . فالحالمة سيدة أجنبية أدخلت فتاتها فى أحد المعاهد التربوية بڤيينا ، ولم تكن تستطيع مواصلة علاجها إلا إذا بقيت ابنتها فى ڤيينا . ولم يكن باقياً غير ثلاثة أسابيع تنتهى بعدها السنة الدراسية وينتهى معها العلاج . واتفق يوم الحلم أن ناظرة المعهد سألتها : هل تستطيع أن تقرر بقاء ابنتها عاماً آخر ؟ ولا شك فى أن خاطرها قد ذهب بها عندئذ إلى أنها سوف تتمكن فى هذه الحالة من الاستمرار فى علاجها سنة أخرى . وذلك هو محور الحلم : ففى السنة **٣٦٥** يوماً ، والأسابيع الثلاثة الباقية من السنة الدراسية تعدل **٢١** يوماً (وإن يكن عدد ساعات العلاج أقل من ذلك) . فالأرقام التى كانت تشير فى أفكار الحلم إلى فترات زمنية قد ترجمت فى الحلم إلى مبالغ من النقود — دون أن يخلو ذلك من معنى أعمق ؛ فإن « الوقت من ذهب »[١] . ولا تعدل **٣٦٥** كرويتسر سوى **٣** فلودين و **٦٥** كرويتسر . وإن ضآلة المبالغ المذكورة فى الحلم لتحقيق رغبة مكشوف ؛ فرغبة الحالمة

---

(١) ["time is money"]

قد خفضت تكاليف العلاج وأقساط المدرسة على السواء .

(٢) وتسوقنا الأرقام المتضمنة فى حلم آخر إلى علاقات أشد تعقداً . فقد سمعت سيدة فى مقتبل العمر — وإن تكن تزوجت منذ سنوات متعددة — أن صاحبة من صواحبها تكاد تكون فى مثل سنها — هى إليز ل . — قد خطبت حديثاً، فحلمت على أثر ذلك الحلم الآتى : إنها فى المسرح مع زوجها وقد خلا أحد جوانب القاعة خلواً تاماً . يقول لها زوجها : إن إليز ل . وخطيبها كانا يريدان المجىء أيضاً، ولكنهما لم يجدا سوى مقاعد رديئة — ثلاثة مقاعد قيمتها فلورين ١ و ٥٠ كرويتسر — فلم يرضيا بها بطبيعة الحال . فتحدث نفسها قائلة : وما هناك ضرر لو قد فعلا .

ما منشأ هذا الرقم : ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ؟ منشؤه حدث من أحداث اليوم السابق كان فى الحقيقة خالياً من كل وزن : ذلك أن أخت زوجها قد أهدى إليها زوجها ١٥٠ فلورين ، فسارعت إلى تبديدها بأن اشترت بها حلية . ولا يفوتنا أن نلحظ أن ١٥٠ فلورين تعدل ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ١٠٠ مرة . والرقم ٣ — وهو عدد تذاكر المسرح — من أين أتى ؟ الرباط الوحيد الذى نجده هنا هو أن صديقتها المخطوبة تقل عنها فى السن بمثل هذا العدد من الشهور — ٣ .

وقادنا بعد ذلك إلى حل الحلم أن نكتشف إلام كانت تلمح المقاعد الشاغرة : فتلك كانت تشير إلى واقعة صغيرة هيأت لزوجها فرصة طيبة لمعاكستها ؛ ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن ترى مسرحية أعلن أنها ستمثل فى أسبوع مقبل ، وتكلفت الذهاب لابتياع التذاكر قبل الموعد بأيام متعددة — مع دفع ما يجره ذلك من فرق الحجز . فلما دخلا المسرح ألفيا أحد جوانب القاعة وقد كاد أن يكون شاغراً : لم تكن هناك حاجة إلى أن تتعجل كل هذا التعجل .

والآن أبدل بالحلم أفكاره الكامنة : « لقد كان جنونا منى أن أتزوج فى مثل هذه السن المبكرة ، وما كانت بى حاجة إلى كل هذه العجلة . وها هو ذا مثال إليز ل . يرينى أننى كنت مستطيعة دائماً أن أجد زوجاً ، بل لقد كنت أجد زوجاً أحسن مائة مرة (زوج ، كنز) لو أننى انتظرت بعض الشىء (على خلاف عجلة أخت زوجها)، وبنقودى (الدوطة) كان يسعنى أن أشترى ثلاثة رجال على هذه الشاكلة ! » إننا نلحظ أن معنى الأعداد والسياق الذى سيقت فيه قد نالهما فى هذا الحلم تحريف يفوق كثيراً

نظيره فى الحلم السابق . فعمليات التعديل والتشويه قد ضربت هنا بسهم أوفر ، ومعنى ذلك أن أفكار هذا الحلم كانت مكرهة على أن تتخطى مقداراً ذا شدة خاصة من المقاومة النفسية الداخلية قبل أن تبلغ إلى تصويرها فى الحلم . ولا نحن ننسى أن هذا الحلم قد تضمن عنصراً غير معقول ، وأعنى به أن يستأجر شخصان اثنان ثلاثة مقاعد . وهنا أستبق مبحث اللامعقولية فى الحلم فأشير إلى أن هذه اللمحة غير المعقولة كانت تهدف إلى تصوير الفكرة التى كان يلح الحالم عليها أشد الإلحاح : لقد كان جنوناً منى أن أتزوج فى مثل هذه السن المبكرة . والثلاثة المحتواة فى علاقة جد ثانوية بين الشخصين اللذين تنعقد بينهما المقارنة (ثلاثة الشهور فرق السن بين الحالمة وإليز ل.) قد استغلت استغلالا حاذقاً فى إحداث اللمحة غير المعقولة التى كان يتطابها الحلم . ثم خفض المائة وخمسين فلورين إلى فلورين وخمسين كرويتسر يوافق القيمة المنخفضة التى تضيفها الحالمة فى أفكارها الكامنة إلى زوجها (أو الكنز) .

٣) وأما المثال الآتى فيسوقنا إلى طرق الحلم فى الحساب ، تلك الطرق التى كان لها أكبر الأثر فى الاستهانة بالحلم : حلم رجل فرأى أنه كان يجلس فى مقعد لدى آل ب . (وهى أسرة سبقت له معرفتها) وأنه يتحدث قائلا : لقد كان خطأ كبيراً منكم ألا تعطونى Mali . ثم يواصل كلامه فيسأل الخادم : إذن ما عمرك ؟ فتجيبه قائلة : لقد ولدت فى ١٨٨٢ . — وأنت إذن فى الثامنة والعشرين .

وإذ كان الحلم قد وقع عام ١٨٩٨ فمن الواضح أن ذلك كان حساباً خاطئاً ، وإن ضعف الحالم فى الحساب لحرى بأن يُقَرَّبَ من ضعف المريض بعته الشلل إذا لم نجد له تعليلا آخر . لقد كان مريضى ينتمى إلى هذه الطبقة من الرجال الذين لا يريحون من تفكيرهم امرأة وقع عليها ناظرهم . وكانت تاليته المنتظمة فى الدخول إلى حجرة استشارتى خلال بضعة شهور سيدة فى مقتبل العمر ، فكان يقابلها فى خروجه ويدأب على الاستعلام عنها ويتكلف التأدب معها . وكانت هى من يقدر عمرها بثمان وعشرين عاماً — وفى هذا الكفاية فى تعليل نتيجة الحساب المزعوم . وأما ١٨٨٢ فكانت السنة التى تزوج فيها هذا الحالم . وأذكر بعد أنه كان من بين الأمور التى لا يطيقها هذا الحالم ألا يفيض فى الحديث مع الشخصين المؤنثين الآخرين اللذين كان يلتقى بهما فى منزلى ، وأعنى بهما خادمين — كلتاهما على أبعد ما يكون من الصبا — كانتا تتناوبان

فتح الباب له ، فلما لم يجد منهما استرسالا كبيراً علل ذلك لنفسه بأنهما تحسبانه سيداً تقدم فى السن و « استقر » .

وها هو ذا حلم آخر يتميز بوضوح حتمه أو — بالأحرى — حتمه المضاعف ، وهو حلم أدين به و بتفسيره للدكتور ب . داتنر .

« حلم صاحب المنزل الذى أسكن فيه — وهو من رجال الشرطة — بأنه يقوم بالخدمة فى أحد الشوارع — وهو ما يحقق له رغبة . و يمر به مفتش حملت بنيقته الرقم ٢٢ يتبعه الرقم ٦٢ أو ٢٦ ، وعلى أية حال كان الرقم يحوى العدد ٢ مكرراً .

« إن كون الحالم قد قسم الرقم ٢٢٦٢ قسمين فى أثناء رواية الحلم ظاهرة تجعلنا بذاتها ندرك أن لكل من شطريه معناه المستقل . ولقد خطر للحالم أن الحديث قد دار بالأمس فى مقر الشرطة حول طول مدة الخدمة ، وكانت مناسبة الحديث أن مفتشاً قد أحيل على المعاش بعد أن بلغ من العمر ٦٢ عاماً . والحالم قد قضى ٢٢ عاماً فى الخدمة و يلزمه الاستمرار فيها عامين وشهرين لكى يكون له الحق فى معاش قدره ٩٠ ٪ . فالحلم يحقق أولا رغبة داعبت فكره زمناً طويلا وهى الرغبة فى أن يرقى إلى درجة المفتش ؛ لأن الرئيس الذى يحمل الرقم ٢٢٦٢ على بنيقته ليس إلا الحالم نفسه . وإنه ليقوم بالخدمة فى الشارع — وهى رغبة أخرى أثيرة عنده . ثم هو قد استمر فى الخدمة المدة المتبقية : ٢ سنة و ٢ شهر مثل المفتش القديم ذى الـ ٦٢ عاماً ، وصار فى وسعه الآن أن يحصل على معاش كامل . » (١)

إذا ألقينا نظرة شاملة على هذه الأمثلة وأخرى تشبهها (أرويها فيما بعد [ص٤٤٧]) ، صرنا فى حل من أن نقول : إن عمل الحلم لا يعرف الحساب على الإطلاق سواء أكان صحيحاً أم كان غير صحيح . كل الأمر أنه يلتقط أعداداً ماثلة فى أفكار الحلم ويتخذ منها إشارات يلمع بها إلى مادة لا يمكن تصويرها بغير ذلك ، واضعاً إياها — هذه الأعداد — فى صورة العملية الحسابية . وهو فى ذلك يعامل الأعداد كما لو كانت مادة يتوسل بها إلى الإعراب عن مقاصده ، على نحو يطابق كل المطابقة أسلوب معالجته لكل فكرة أخرى بما فى ذلك أسماء الأعلام والأقوال الواردة صراحة فى هيئة صور لفظية .

---

(١) أنظر عند يونج (١٩١١) ومارسينوفسكى (١٩١٢ ب) وغيرهما تحليلات لأحلام أخرى كانت تشتمل على أرقام ، وكانت هذه الأحلام تتضمن فى أحيان كثيرة عمليات معقدة جدا أجراها الحالم فى دقة مدهشة . وانظر أيضا جونز (١٩١٢أ) .

ذلك أن عمل الحلم عاجز فى الحقيقة عن أن يخلق الكلام خلقاً . فمهما ورد فى الحلم من الأقوال والردود – سواء كانت معقولة فى ذاتها أم كانت هراء – فالتحليل يثبت فى كل حالة أن الحلم لم يعد أن يلتقط من أفكار الحلم نبذاً من أقوال قيلت بالفعل من قبل أو سمعت ، وأنه قد عالج هذه الأقوال معالجة طابعها التعسف إلى أقصى الحدود : فهو لم يقف عند انتزاعها من محيطها وتمزيق أوصالها ، يأخذ أجزاء ويترك أخرى ، بل هو فى أحيان كثيرة ينتظمها فى نسق جديد ، حتى لنرى الكلام يبدو فى الحلم كلا مترابطاً فإذا التحليل يبين أنه قد تركب من ثلاث نبذ متفرقة أو أكثر . والحلم فى خلال هذا الصوغ الجديد يترك فى أحيان كثيرة المعنى الأول الذى كان للكلمات فى أفكار الحلم ويضيف إليها معنى جديداً كل الجدة (١) . وإذا أمعنا النظر فى الكلام الذى يشتمل عليه

---

(١) إن الأعصبة تسلك من هذه الناحية مسلكا لا يختلف مطلقا من مسلك الحلم . فأعرف مريضة كانت شكاتها أنها تسمع (أى تهلوس) أغنيات أو فقرات من أغنيات بدون إرادتها وعلى رغم هذه الإرادة ، وذلك دون أن تستطيع أن تدرك معنى هذه الأغنيات بالنسبة إلى حياتها النفسية – هذا ولم تكن حالتها قطعا بالبارانويا . لقد بين التحليل أنها كانت تستخدم نص هذه الأغنيات فى غير ما وضعت له بأن تستبيح لنفسها إدخال بعض التعديل عليها . مثال ذلك هذا السطر [من لحن أجاتا فى أوبرا ڤيبير " فرايشوتس "] .

"Leise, Leise, fromme Weise"
[رفقا ، رفقا ، أيتها النغمة الخاشعة]

إنه كان يعنى بالنسبة إلى لاشعورها : "Leise, leise fromme Waise" [ولا تختلف "Waise" من "Weise" فى النطق ، ولكن المعنى يختلف ، فيصبح السطر : " رفقا ، رفقا ، أيتها اليتيمة الخاشعة "]– وما اليتيمة بالطبع إلا إياها . أو هذا السطر :

"O du selige, O du frohlich"
[أيتها الليلة المباركة ، أيتها الليلة السعيدة]

إنه مطلع أنشودة من أناشيد الاحتفال بليلة مولد اليسوع ، ولكن المريضة إذ تسكت عن بقية السطر : " يا ليلة ولد فيها يسوع " تحيل الأنشودة إلى أغنية عرس ، إلخ . . . ومن الممكن كذلك أن يعمل هذا التشويه عمله فى أفكار لا تعدو أن تكون أفكارا ، غير مصحوبة بهلاوس . لم كانت تلاحق أحد مرضاى ذكرى قصيدة حفظها فى صباه :

"Nachtlich am Busento lipseln..."
[فى الليـــل على همس البـــوزنتو] ؟

لأن مخيلته كانت تقنع بهذا القدر من البيت :

"Nachtlich am Busen"
[أى : فى الليل على الثدى . والبيت من قصيدة ذاعت أوسع ذيوع للشاعر الرومانسى پلاتن فون هالرموند ه =

الحلم ، أمكننا أن نفرق بين أجزاء واضحة مركزة نسبياً ، وأخرى كل نفعها أنها أداة وصل ، وأرجح الظن أنها قد أضيفت من بعد على سبيل التكملة ، كما يحدث حين نكمل عند القراءة حروفاً أو مقاطع اتفق سقوطها عند الطباعة . وهكذا يكون للأقوال فى الحلم التركيب الذى لبنيان مرصوص تألف من كتل ضخمة من أحجار مختلفة النوع شد بعضها إلى بعض بمادة مقواة .

وإذا أردنا الدقة فالوصف الذى قدمناه لا ينطبق إلا على الأقوال التى تحمل شيئاً من الطابع المحسوس للكلام والتى يصفها الحالم نفسه بأنها كانت « كلاما » . فأما سائر الأقوال التى لا يشعر الحالم — كما يقع أحياناً — بأنها قيلت أو سمعت (أى التى لا تقترن فى الحلم بمصاحبات سمعية أو حركية) فهذه لا تعدو أن تكون أفكاراً من بين مايدور بخلدنا فى أثناء نشاطنا الفكرى المستيقظ ، وهى فى العادة تنقل إلى الحلم كما هى . ويبدو أن القراءة مصدر آخر غزير ترد منه الأقوال غير المتميزة التى من هذا القبيل ، وإن تكن مصدرا يصعب تأثره . وعلى أية حال ، فكل ما يخطر فى الحلم متخذاً صورة الكلام على نحو ملحوظ من الأنحاء يقبل رده إلى أقوال حقيقية فاه بها الحالم أو سمعها .

وقد رأينا من قبل أمثلة تشهد بأن ذلك هو مصدر الأقوال فى الحلم ، رأيناها بينما كنت أحلل أحلاماً سردتها لمقاصد أخرى . مثال ذلك الحلم « البرىء » الذى ذكرته فى ص ٢٠٤ حيث كانت جملة « لم يعد الحصول على ذلك فى حيز الإمكان » تفيد فى

=(١٧٩٦ — ١٨٣٥) وأما البوزنتو فنهر فى إيطاليا .]

ومن المعروف أن الكتاب المزليين لا يحجمون عن الالتجاء إلى هذه الحيلة الفنية . فقد نشرت "الصحائف الطائرة" [الصحيفة المزلية المعروفة] فى بابها المعنون " عيون الأدب الألمانى مصورة"، نشرت رسما يصور قصيدة شيللر "Sieges fest" [عيد الظفر] ، وألحقت بالرسم هذين البيتين :

"Und des frisch erkampften Weib
Freut sich der Atrid und strickt..."

[« وبأنثاه الغضة المغتصبة
يفرح ابن أتروس ويعقد . . . »]

ثم سكتت عن البقية ، والبقية هى :

"Um den Reiz des schonen Leibes
Seine Arme hochbeglückt".

[« حول سحر جسمها المبدع
ساعده الشديد المؤيد .»]

تعيينى بشخص الجزار ، بينما أفادت تلك النبذة المقتبسة من سياق آخر : « لست أعرف ذلك ، لا آخذه » — أفادت على التحديد فى جعل الحلم حلماً بريئاً . فنحن نذكر أن الحالمة كانت فى اليوم الذى سبق الحلم قد ردت على مطلب لطاهيها بالعبارة الآتية : « لست أعرف ذلك ، الزم حدودك ! » والجزء الأول من هذا القول — الجزء الذى يلوح بغير شائبة — هو الذى انتقل إلى الحلم لكى يتحقق به التلميح إلى الجزء الثانى — وهو الجزء الذى كان يلائم نوع التخييل الكامن من وراء الحلم أكبر الملائمة ، ولكنه كان أيضاً كفيلا أن يفضحه .

وها هو ذا مثال يغنى عن أمثلة أخرى كثيرة تفضى جميعها إلى ذات النتيجة :

الحالم فى فناء كبير أحرقت فيه بعض الجثث . يقول : إنى ماض ، لست أطيق منظرها (لم يكن ذلك كلاماً متميزاً .) يقابل الحالم بعدئذ صبيى جزار فيسألهما : حسناً . هل كان مذاقها لذيذاً ؟ فيجيبه أحدهما : كلا ، كلا على الإطلاق . كأنما كان اللحم لحماً آدمياً .

إن المناسبة البريئة للحلم هى الآتية : ذهب الحالم وزوجه ذات مساء فى زيارة بعض الجيران ، وكانوا من طيبة الناس ولكنهم لم يكونوا بحال من الأحوال من النوع الذى « يفتح النفس » . وكانت ربة البيت العجوز المضيافة لا تزال تتناول عشاءها فحاولت أن ترغمه على أن يذوق بعض طعامها (هناك كلمة أخرى يستخدمها الرجال فيما بينهم على سبيل المزاح للإعراب عن فكرة الإرغام[1]) . فاعتذر متعللا بنقص شهيته ، ولكنها أجابته قائلة : « امض ، امض ، إن هذه الكسرة لن تعجزك » أو شيئاً من هذا القبيل . فكان أن اضطر إلى تذوقها ثم أطرى السيدة قائلا : « إن طعمها لذيذ جداً . » فلما خلا إلى زوجه من جديد تذمر من إلحاح الجارة ومن مذاق طعامها كذلك . وأما فكرة « لا أطيق منظرها » — وهى الفكرة التى لا تخطر حتى فى الحلم فى صورة الكلام بالمعنى الصحيح — فتلمح إلى الفتن البدنية للسيدة الداعية ، ولا ترجمة لها سوى أن الحالم لا يطيق النظر إليها .

غير أننا نجنى المزيد من الفائدة النظرية من حلم آخر أرويه فى هذا الموضع لما اشتمل عليه من كلمات جد متميزة كانت تكون نقطته الرئيسة ، وإن كان هذا الحلم

---

(١) [أرغم = "notigen" ، والكلمة المومئ إليها هى "notzüchtigen" وتعنى الإرغام بالمعنى الجنسى أو الاغتصاب .]

لن يتضح إلا حين نعرض للحديث عن الحالات الوجدانية فى الحلم . حلمت الحلم الآتى فى وضوح تام : ذهبت ليلا إلى معمل بروكه . وقرع الباب قرعاً رفيقاً ففتحته للأستاذ (المتوفى) فلايشل الذى جاء يصحبه بعض الغرباء ثم جلس إلى مائدته بعد كلمات قليلة . وأعقب ذلك حلم ثان : جاء صديقى ف . (فليس) إلى ڤيينا فى شهر يوليه على غير توقع . أقابله فى الطريق وهو يتحدث إلى صديقى (المتوفى)ب. ، ثم أذهب معهما إلى مكان ما حيث يجلسان الواحد قبالة الآخر كأنما يجلسان إلى مائدة صغيرة ، وأجلس فى الصدر عند جانب المائدة الضيق . يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت فى خمس وأربعين دقيقة ، ثم يضيف بضع كلمات من قبيل : تلك كانت العتبة . ولا يفهم ب . مراده ، فيتحول ف . إلى ويسألنى : إلى أى حد أطلعت ب . على أخباره ؟ حينئذ تتولانى انفعالات غريبة وأحاول أن أشرح لصديقى ف . أن ب . ما كان بالطبع ليستطيع أن يفهم شيئاً على الإطلاق ؛ لأنه ليس حياً . ولكن التعبير الذى أستخدمه بالفعل – وأنا ألحظ خطئى – كان Non Vixit (لم يعش) ثم بعد ذلك أصوب نظرة ثاقبة إلى ب . فإذا هو يمتقع أمام نظرتى ، وتختلط صورته ، وتحول عيناه إلى زرقة مريضة ، وفى النهاية يذوب ويختفى . أطرب لذلك طرباً لا حد له وأدرك الآن أن إرنست فلايشل لم يكن هو الآخر إلا طيفاً ، شبحاً عائداً ، وأرى أنه من الممكن غاية الإمكان أن يكون أمثال هؤلاء الأشخاص إنما يوجدون بمقدار ما يريد لهم المرء أن يوجدوا وأن فى الوسع أن يتبددوا لو شاء الغير ذلك .

إن هذا الحلم البديع قد حوى عدة من الخصائص المحيرة لمحتوى الحلم [الظاهر] : كأن أمارس ملكة النقد فى أثناء الحلم نفسه فألحظ خطئى حين أقول : Non vixit [لم يعش] بدل : Non vivit [ليس حيا] ، ثم هذه الصلة الخالية من كل كلفة بموتى أعرف فى الحلم أيضاً أنهم كذلك ، ثم فساد استنتاجى الأخير وما أثاره هذا الاستنتاج من الطرب فى نفسى ! إنى « لأبذل حياتى طواعية » لو قد استطعت بذلك أن أورد حل هذه الألغاز كاملا . ولكن الحقيقة أنى لا أستطيعه : إنى لأعجز عن أن آتى ههنا ما آتيه فى الحلم من التضحية بأشخاص أكن لهم أكبر التقدير فى سبيل مطامحى . بيد أن كل استخفاء سوف يهدم مع هذا ما أعلم حق العلم أنه معنى الحلم . وعلى ذلك أقنع هنا ثم فى الموضع الآخر [ص ٤٧٨] بأن أنتقى قلة من عناصره لأفسرها .

لقد كان محور الحلم مشهداً أعدم فيه ب . بنظرة ، وتحول عيناه فى أثنائه إلى أزرق غريب يفارق كل مألوف ، ثم يذوب هو ويختفى . وما من خطأ فى أن هذا المشهد إنما ينسخ آخر قد عشته حقيقة . فقد عملت ممرنا فى المعهد الفيزيولوجى وكان الواجب يقتضى أن أبدأ العمل فى الصباح الباكر . ونمى إلى سمع بروكه أنى كنت أصل متأخراً

إلى معمل الطابة فى بعض الأحيان ، فتوجه إلى المعمل ذات صباح ساعة البدء فى العمل وانتظرنى : كانت كلماته موجزة وكانت فى الصميم . ولكن الذى هسنى لم يكن كلماته وإنما اكتسحتنى عيناه الزرقاوان الرهيبتان اللتان سددهما إلى فأحالتانى إلى عدم — شأن ب . فى الحلم، حيث انعكس الدوران بما يخفف عنى . وإن من يذكر عينى الأستاذ الجليل — هاتين العينين اللتين ظل لهما جمالهما العجيب وهو بعد شيخ طاعن — ويذكر أنه رآه فى سورة من الغضب ليستطيع فى غير عناء أن يتخيل ما ولى إذ ذاك الفتى الآثم من الانفعالات .

بيد أنى لبثت وقتا طويلا لا أفلح فى العثور على مأتى جملة "Non vixit" التى صغت فيها ذلك الحكم على ب ، . إلى أن خطر لى أن هاتين الكلمتين لم تحظيا فى الحلم بتلك الدرجة الشديدة من الوضوح لأنى سمعتهما من قبل أو فهت بهما ، بل لأنى رأيتهما . وحيئذ علمت على الفور من أين أتتا : فعلى قاعدة التمثال المقام للقيصر جوزيف فى القصر الإمبراطورى بفيينا نقرأ تلك الكلمات الجميلة :

Saluti patriae **vixit**
non diu sed totus[1]

لقد أخذت من هذه الكلمات ما يلائم الخواطر للعدائية التى كانت تتضمنها أفكار الحلم ، وما كان معناه : «ليس لهذا الشخص رأى يعتد به ؛ إنه ليس حيا على الإطلاق» . وإنى أذكر الآن أنى رأيت هذا الحلم أياماً قليلة قبل أن يرفع الستار عن نصب تذكارى أقيم لفلايشل فى ساحة الجامعة . وكنت آنذاك قد رأيت نصب بروكه مرة ثانية ، ولا بد أنى فكرت آسفاً (تفكيراً لا شعورياً) كيف كان الموت المبكر سبباً فى أن يفقد صديقى ب . الذى ندب حياته لخدمة العلم حقه المشروع المستحق فى نصب يقام له فى هاته الحرمات . وهكذا كان أن أقمت له فى الحلم هذا النصب — وأذكر بعد أن صديقى ب . كان اسمه الأول جوزيف[٢] .

(١) [لخير الوطن عاش بكل نفسه وإن لم يعش طويلا .] الكلمات الصحيحة هى :

Saluti Publicae vixit
non diu sed totus.

وأكبر الظن أن فيتلز قد خمن السبب الصحيح للخطأ الذى جعلنى أضع **patriae** بدل **publicae** [أى " لخير الوطن " بدل " للخير العام "] .

(٢) وأضيف — كمثال على الحتم المضاعف ، أن معذرتى عن الوصول إلى المعمل متأخرا كانت أنى =

بيد أن قواعد تفسير الحلم لا تبرر حتى الآن كونى بدلت بـ "non vivit" التى أحتاج إليها "non vixit" المستمدة من ذكرى نصب القيصر جوزيف . لا بد أن أفكار الحلم قد حوت عنصراً كان له أثره فى جعل هذا التبديل أمراً ممكناً . وهأنذا أنتبه الآن إلى أن هذا المشهد من الحلم قد حوى مجريين من المشاعر نحو صديقى ب . : الأول عدائى ، طاف على السطح والثانى ملؤه الود ، مستتر ، ولكنهما يبلغان جميعاً إلى التمثل فى تلك الجملة الواحدة : « non vixit » . لقد استحق ب . أطيب الجزاء من العلم ، فله أشيد نصباً ، ولكنه تذنب علىّ برغبة شريرة (أعرب عنها فى نهاية الحلم) ، ولهذا أعدمته . إنى ألحظ أن هذه الجملة الأخيرة قد أجريت على وتيرة خاصة ، ولا بد أنى كنت متأثراً فيها بنموذج احتذيته . أين نجد مثل هذا التقابل ، مثل هذا التجاور جنباً إلى جنب بين استجابتين متضادتين تجاه شخص بعينه ، استجابتين تدعى كل منهما أن لها ما يبررها كمال التبرير دون أن تعمل مع ذلك على أن تغير شيئاً من الأخرى ؟ نجده فى فقرة واحدة ولكنها فقرة تترك فى النفس أثراً عميقاً ، فى الخطاب الذى يلقيه بروتوس لكى يبرر فعله فى « يوليوس قيصر » لشكسبير : « أحبنى قيصر ، فعليه أبكى ، وكان مجدودا ، فله أسر ، وكان مقداما ، فإياه أبجل ، لكنه كان طموحا ، لهذا قتلته . » أليست بنية العبارة هنا وأليس التقابل فى المعنى هما هما اللذان رأيناهما فى فكرة الحلم التى كشفت عنها . وإذن كنت ألعب بروتوس فى الحلم . لو استعطت أن أجد فى محتوى الحلم أثراً آخر يؤيد هذه الرابطة الجانبية المدهشة ! إنى أفكر فى أن ما يأتى ربما كان شاهدا ممكنا : « جاء صديقى ف . إلى ڤيينا فى شهر يوليه . » إن هذه النبذة من الحلم لا أساس لها فى الحقيقة الواقعة ؛ فصديقى ف . — بقدر ما أعلم — لم يأت قط إلى ڤيينا فى شهر يوليه . ولكن يوليه شهر سمى باسم يوليوس قيصر ، وهو إذن قد يمثل حقيقة هذه الإشارة التى أبحث عنها إلى تلك الفكرة المتوسطة ، فكرة القيام بدور بروتوس [1]

والشىء العجيب هو أنى قد لعبت بروتوس حقيقة يوماً ما : فقد مثلت مرة أمام جمهور من الأطفال مشهداً من شيللر يدور بين بروتوس وقيصر . كنت أبلغ من العمر

كنت مضطرا — بعد العمل حتى ساعة متأخرة من الليل — إلى أن أقطع فى الصباح المسافة الطويلة بين شارع القيصر جوزيف وشارع ڤارينجر .

(١) ثم أيضا هذه الرابطة : قيصر [يوليوس] — قيصر [جوزيف] .

إذ ذاك أربعة عشر ربيعاً وكان يشاركني المشهد ابن أخ يكبرني بعام واحد ، وكان قد وفد حديثاً من إنجلترا ؛ فكان هو الآخر عائداً ! إنه كان رفيق السنوات الأولى من طفولتي يُبعث بمجيئه إلى الوجود من جديد . فقد كنا حتى نهاية السنة الثالثة من حياتي صنوين لا يفترقان ، أحب كلانا الآخر وناصبه العداء ، وكان لهاته العلاقة الطفلية — كما ألمعت إليه من قبل — أثر حاسم في جميع علاقاتي التالية بمن كانوا في مثل سني . ومنذ ذلك الحين وابن أخي — جون — يجد له متقمصين عديدين يبعثون — على حسب الأطوار — هذا الجانب أو ذاك من شخصه المثبت في ذاكرتي اللاشعورية تثبيتاً لا يتزعزع . ولا بد أنه — بين الحين والحين — قد أذاقني شر المعاملة ، ولا بد أني أظهرت شجاعة جمة في وجه طاغيتي ؛ فكثيراً ما سمعت في مستأنف السنين عن خطاب قصير ألقيته دفاعاً عن نفسي إذ سألني والدي — وهو جد غريمي — الحساب : سألني : لم تضرب جون ؟ فأجبته في لغة الطفل لما يبلغ العامين : ضـ (ل) بته ؛ لأنه ضـ (ل) بني .

ولا بد أن هذا المشهد الطفلي هو الذي حرف non vivit إلى non vixit ؛ فالضرب في لغة سنوات الطفولة اللاحقة يسمى wichsen [ڤيكسن] ، وما يترفع عمل الحلم عن التوسل بأمثال هذه الروابط . والحق أن عدائي تجاه صديقي ب . لم يكن له من الحقيقة الواقعة إلا أقل المبررات ، وكان إذن يرجع يقينا إلى علاقتي الطفلية المعقدة بجون ؛ لقد كان صديقي ب . يفضلني أضعافاً ، وهو — لهذا — كان مهيئاً لأن يبدو لي مثل نسخة جديدة من رفيقي في اللعب .

وقد قلت : إن لي عوداً إلى هذا الحلم .

ز

الأحلام اللامعقولة — النشاط العقلي في الأحلام

لقد صادفنا عنصر اللامعقولية مراراً من قبل بينا كنا نفسر الأحلام التي سبقت ولسنا نستطيع بعد الآن أن نرجئ البحث في منشأ هذا العنصر وفي المغزى الذي قد يكون

له ؛ فما زلنا نذكر أن لا معقولية الأحلام قد زودت أولئك الذين ينفون قيمة الحلم بحجتهم الرئيسة فى أن الأحلام يجب أن تعد نتاجاً لا معنى له تولد عن نشاط عقلى منقوص متقطع .

وأبدأ بتقديم أمثلة قليلة ليست اللامعقولية فيها إلا شيئاً ظاهريا ، ولكنها لا تلبث أن تختفى حين نقرب النظر إلى الحلم . وها هى ذى بضعة أمثلة تتصل بالأب الميت (وهى صلة قد تبدو للوهلة الأولى وليدة الصدفة) .

حلم مريض كان قد فقد والده قبل الحلم بستة أعوام الحلم الآتى :

نزلت بوالده نكبة بالغة : ذلك أنه كان يسافر ليلا فخرج القطار عن السكة وانطبقت المقاعد بعضها فوق بعض وانضغط رأس والده حتى انطبق جانباً على جنب . يراه الحالم بعد ذلك راقداً فى سريره وفوق حاجبه الأيسر جرح ذو اتجاه رأسى . يعجب الحالم من أن يتزل بوالده مكروه (ويزيد فيقول وهو يروى : لأنه كان قد مات) . ما كان أفتح لون عينيه !

لو اتبعنا النظرية السائدة عن الأحلام لفسرنا محتوى هذا الحلم على ذلك الوجه : إن الحالم وهو يتخيل هذه الحادثة التى ألمت بأبيه قد نسى أول الأمر أن أباه هذا راقد فى قبره منذ سنوات متعددات ، فلما استمر فى حلمه استيقظت الذكرى وكانت النتيجة أنه عجب لحلمه وهو ما زال بنومه . بيد أن التحليل يعلمنا أن التماس أمثال هذه التعليلات لا يجدى شيئاً . لقد كان الحالم أوصى أحد الفنانين بصنع تمثال نصفى لأبيه ، ولم يكن رأى التمثال للمرة الأولى إلا قبل الحلم بيومين . وإن تكن من نكبة ، فالنكبة إنما حلت بهذا التمثال ؛ ذلك أن المثال لم يكن رأى والد الحالم قط وكان يعمل غير مستعين إلا إلا بالصور الشمسية وحدها . وحدث فى اليوم الذى سبق الحلم أن الحالم — مدفوعاً بتقواه البنوية — أرسل خادماً من خدم الأسرة القدماء ليرى بعينه هل كان الحالم محقاً فى حكمه على الرأس المرمرية — وكانت تبدو له شديدة الضيق فيما بين الجانبين عند الصدغين . ثم يمضى الحالم فيأخذ فى تذكر المادة التى شاركت فى تكوين هذا الحلم : لقد كان من عادة الوالد حين تعذبه هموم العمل أو متاعب الأسرة أن يضغط جانبى الجبهة بكلتا يديه كأنما كان يحس انبساطاً مفرطاً فى رأسه ويود لو ضمها . — وحدث مرة أن المريض — وهو فى الرابعة من عمره — كان حاضراً حين انطلق مسدس اتفق أنه كان مليئاً

بالرصاص فاسودت عينا والده (ما كان أفتح لون عينيه !) — وأما تلك البقعة فوق الجبهة حيث مكان الجرح فى الحلم فكانت — ووالده على قيد الحياة — تحمل خطا غائراً يظهر كلما ولى الوالد فكر أو حزن . فأما أن يرتفع هذا الخط ويحل جرح فى موضعه فهذا ما يشير إلى المناسبة الثانية للحلم : ذلك أن الحالم التقط صورة شمسية لابنته الصغيرة وانزلقت اللوحة بين أصابعه ، فلما التقطها رأى بها شرخاً جرى فوق جبهة الفتاة الصغيرة فى اتجاه رأسى حتّى حاجبها . ولم يملك الحالم إلا أن يتطير ؛ لأنه قبل أن تموت أمه بأيام قلائل قد كسر لوحة شمسية كانت تحمل صورتها .

وهكذا لا تخرج اللامعقولية فى هذا الحلم عن أن تكون نتاجاً لما فى التعبير اللغوى من إهمال يقعده عن التفرقة بين التمثال أو الصورة وبين الشخص الحقيقى ؛ فكلنا قد نقول [ونحن نتحدث عن صورة] « ألا ترى أن الوالد غير مضبوط ؟ » وقد كان من السهل تجنب ظهور اللامعقولية فى هذا الحلم ؛ فلو جاز للمرء أن يحكم مستنداً إلى مثال واحد لأغرينا بالقول : إن مظهر اللامعقولية هذا مظهر لاقى موافقة — إن لم يكن جاء عمداً .

(٢)

وها هو ذا مثال ثان يشبه السابق غاية الشبه ، أنتخبه من أحلامى (فقدت والدى عام ١٨٩٦) :

قام والدى بعد موته بدور سياسى كبير بين المجريين ، ووحد بينهم سياسياً . وهنا أرى صورة صغيرة غير واضحة : حشد من الناس كأنهم فى الراخشتاج ، يقف شخص على مقعد أو مقعدين وقد أحاط به آخرون . أذكر عندئذ كيف كان والدى — وهو على فراش الموت — شديد الشبه بغاريبالدى ، وأسر لأن هذا الوعد قد صار حقيقة .

لى هذا من اللامعقولية الكفاية ! إن هذا الحلم قد جاءنى فى وقت آل فيه المنغاريون إلى حال انعدم فيها القانون من جراء العرقلة البرلمانية ، وكانوا يجتازون هذه الأزمة التى

خلصهم منها كولومان سل[١] . ولم تكن تلك الملابسة التافهة : أن المشهد المرئى فى الحلم قد تكون من صور صغيرة كل الصغر – خالية من الأهمية فيما يتعلق باستجلاء هذا العنصر من الحلم . ذلك أن الحلم يصور أفكارنا عادة فى صورة تقارب الحجم الطبيعى ، ولكن الصورة التى رأيتها فى حلمى إنما كانت تردد صورة محفورة من الخشب رأيتها منقولة فى كتاب مصور عن تاريخ النمسا ،وكانت هذه الصورة تمثل ماريا تيريزا فى رايخشتاج پرسبورج إبان المشهد المعروف [حين هتف نبلاء المجر بمبايعتهم] : « نموت فداء مليكنا »[٢]. وقد وقف والدى محاطاً بالجموع مثل ماريا تيريزا ، ولكنه وقف على مقعد [Stuhl] أو مقعدين ، أى أنه كان قاضياً [Stuhlrichter وترجمته الحرفية هى : قاضى الكرسى بمعنى القاضى المترئس] . ثم هو قد وحدهم : إن الرابطة هنا هى هذا التعبير [الألمانى] الدارج : لن نكون بحاجة إلى قاض [أى سنكون متحدين لا متنابذين] . فأما أن والدى وهو على فراش موته قد لاح شبيهاً بغاريبالدى كل الشبه فذلك أمر لاحظناه جميعاً نحن الذين اجتمعنا من حوله فى هاته الساعة ؛ فقد ارتفعت درجة حرارته عقب الوفاة واحمرت وجنتاه حمرة زادت عمقاً بعد عمق . إن الخاطر لينساق هنا طواعية إلى تلك الكلمات : « ومن ورائه يجثم – فى مظهر خلو من كل حقيقة – هذا القيد الذى يغلنا جميعاً : الأمور المشتركة [أو المشاعة المبتذلة] . »[٣]

إن هذا العلاء فى أفكارنا يجعلنا نتوقع أننا لا بد آتون إلى هذا « المبتذل » على التحقيق فارتفاع درجة حرارة والدى « عقب الوفاة » هو المضمون الذى يقابل قول الحلم : « بعد موته » ، وقد كان أقسى ما لاقاه والدى من العذاب شلل الأمعاء شللا تاماً (العرقلة) فى خلال الأسابيع الأخيرة . وترتبط بذلك أفكار لا توقير فيها من كل صنف . من ذلك

(١) [رئيس الحكومة الائتلافية التى تألفت عام ١٨٩٨ فأنقذت المجر من أزمة سياسية عنيفة .]

(٢) ["moriamur pro rege nostro"] – لست أدرى أين قرأت عن حلم ازدحم بصور صغيرة على خلاف المألوف ثم تبين أن مصدرها كان صورا بماء الفضة من صنع چاك كاللو ، رآها الحالم فى خلال النهار . ولوحات كاللو هذه تحتوى فعلا على عدد كبير من صور صغيرة جدا ، وتمثل طائفة منها أهوال حرب الثلاثين .

(٣) [من قصيدة جوته المعنونة "Epilog zu Schiller's Glocke" .]

أن أحد أقرانى – وكان قد فقد والده ونحن لا نزال بالمدرسة الثانوية وكنت قد تأثرت له كثيراً إذ ذاك وبذلت له من صداقتى – قد قص على مستهزئاً أى ألم أصاب إحدى قريباته إذ سقط والدها ميتا فى الطريق ، وأحضر إلى المنزل محمولا ، فلما نزعت الثياب عن جسده تبين أن عمود البراز [Stuhl] قد نزح منه فى لحظة الوفاه أو عقب الوفاة . وكانت الابنة تشعر بتعس عميق إذ ترى هذه اللمحة الكريهة تنغص ذكراها لأبيها . ههنا نلمس الرغبة التى تجسمت فى هذا الحلم : أن يقف الأب بعد مماته طاهراً عظيما فى أعين أبنائه – ومن ذا الذى لا تجول بصدره هذه الرغبة ؟ ولكن ماذا عن لا معقولية الحلم ؟ إن مظهرها إنما يرجع إلى أن تعبيراً جارياً يستسيغه الجميع كل استساغة وألفنا أن نغض النظر عن اللامعقولية المتضمنة فى التناقض الذى بين مقوماته قد صور فى الحلم بحذافيره . وهنا أيضاً لا نستطيع أن نتجنب الشعور بأن مظهر اللامعقولية فى الحلم مظهر مقصود ، مستثار عمداً .

إن الكثرة التى يخطر بها الموتى فى أحلامنا ويعملون ويتصلون بنا كما لو كانوا أحياء كانت مثاراً لعجب لا داعى إليه وسبباً فى نظريات غريبة تبرز سوء فهمنا للأحلام إبرازاً قوياً . وتعليل هذه الأحلام قريب مع ذلك منا كل القرب . فكم من مرة نرانا فى موقف نتساءل معه : « ترى ماذا كان يقول الوالد لو كان حيا ؟ » ولا يستطيع الحلم أن يصور « لو » هذه بغير الحضور الفعلى فى موقف بعينه . مثال ذلك شاب ترك له جده ميراثاً كبيراً ، فلما أخذ يؤنب نفسه لأنه أضاع قدراً لا يستهان به من المال حلم بأن جده يناقشه الحساب . وإن ما نعتقد أنه نقد موجه إلى الحلم إذ نحتج استناداً إلى معرفتنا الوثقى بأن الرجل ميت مطمور بعد كل شىء ، ليس فى الحقيقة إلا عزاء يقول لك : إن الميت قد أغناه الموت عن أن يرى هذا كله ، أو ارتياح إلى ما آل إليه من العجز عن أن يتدخل بخير أو بشر .

وهناك نوع آخر من اللامعقولية يظهر فى أحلام الأقارب المتوفين ولكن دون أن يعرب عن سخرية أو زراية[1] ، وإنما عن استنكار بلغ منتهاه ، وبذلك يفيد فى تصوير فكرة مكبوتة يؤثر المرء أن ينظر إليها نظرته إلى أمر يستحيل مجرد التفكير

---

(١) [يفهم من هذه الجملة أن اللامعقولية فى الحلم تعرب عن سخرية أو زراية متضمنة فى أفكار الحلم وهى النتيجة التى يخلص إليها فرويد فيما بعد .]

فيه . وتبدو الأحلام التى من هذا النوع مستعصية على كل حل ما لم ننتبه إلى أن الحلم لا يفرق أقل تفرقة بين ما هو حقيقى وما هو موضوع رغبة . مثال ذلك رجل عنى بأبيه فى أثناء مرضه وألم لموته ألما بالغاً ثم بعد أن انقضى زمن على موته حلم هذا الحلم غير المعقول : كان أبوه حيا من جديد وكان يتحدث إليه كسابق عهده ولكنه (وهذا هو الشىء العجيب) كان مع ذلك ميتاً ، سوى أنه لم يكن يعلم أنه كذلك . إننا نفهم هذا الحلم حين نضيف إلى « كان مع ذلك ميتا » : « نتيجة لرغبة الحالم » ، وحين نكمل « دون أن يعلم » بـ : « أن تلك رغبة الحالم » . ذلك أن الحالم قد اشتهى الموت لوالده مراراً بينما كان يقوم بتمريضه ، وهذا يعنى أنه قد ساورته تلك الفكرة التى كانت فى الحقيقة مشربة بالرحمة : أن يضع الموت حدا لعذاب أبيه . فلما جاء الحداد فى أعقاب الموت أصبحت هذه الفكرة عينها مثاراً لتأنيب لا شعورى ، كأنما كان من أثرها أن قصرت بالفعل حياة المريض . ولقد أمكن الإفصاح عن هذا التأنيب فى صورة حلم ، لأن أقدم الدوافع الطفلية العدائية نحو الأب قد أثيرت ثائرتها ، إلا أن الفرق الساحق بين الحافز إلى الحلم وبين أفكار اليقظة — هذا الفرق على التحديد — هو الذى حتم خروج الحلم على تلك الصورة اللامعقولة . (أنظر فرويد ١٩١١ ب .)

والحق أن الأحلام المتعلقة بمن ماتوا من أحباء الحالم تثير فى وجه التفسير مشكلات صعبة ليس من المستطاع فى كل حالة الوصول إلى حلها حلا مرضياً . والسر فى ذلك ينبغى التماسه فيما يسيطر على علاقة الحالم بالشخص الميت من ازدواج عاطفى ذى شدة خاصة ملحوظة . ومن الشائع فى الأحلام التى من هذا القبيل أن يعامل الشخص الميت فى المبدأ كما لو كان حيا ، ثم ينقلب فإذا هو ميت ، ثم يعود إلى الحياة فى جزء تال من الحلم . وكل هذا سبب فى أن تختلط الأمور علينا . ولقد خطر لى فى النهاية أن هذا التداول بين الموت والحياة قد يكون القصد منه استواء الطرفين عند الحالم (« سواء عندى أن يكون حيا أو ميتا ») . وهذا الاستواء بالطبع ليس حقيقة بل موضع رغبة وحسب ، والقصد منه هو مساندة الحالم على أن ينبذ مواقفه العاطفية ذات الشدة المفرطة والتى يكثر تناقضها ، وهو لهذا يصير وسيلة يصور بها الحلم الازدواج الذى فى عاطفة الحالم . وهناك أحلام يتواصل فيها الحالم والميت ، وهنا تعيننا القاعدة الآتية على أن نجد طريقنا : إذا لم يذكر فى الحلم أن الميت ميت ، فالحالم يساوى نفسه بالميت ، أى أنه يحلم بموته نفسه ،

فإن صاح فجاءة فى دهش : « ولكنه قد مات يقينا منذ زمن طويل ! » فالحالم يطرح هذه المساواة وينبذ ما يحمله الحلم من معنى موته . بيد أننى أعترف بشعورى بأن تفسير الأحلام ما زال بعيداً عن أن يفض جميع الأسرار التى تنطوى عليها الأحلام التى لها هذا المحتوى .

(٣)

ولقد أمكننى فى المثال الذى سأرويه الآن أن أفاجئ عمل الحلم وهو يعمل عن عمد على خلق مظهر من مظاهر اللامعقولية دون أن تكون فى مادة الحلم أقل مناسبة لذلك . والمثال مأخوذ من الحلم الذى أثاره التقائى بالكونت تون وأنا أهم بالإجازة [ص٢٢٨] : « أركب عربة وآمر السائق بالتوجه إلى المحطة . أقول له بعد أن أثار اعتراضاً ما – كأن أكون أرهقته : إننى بالطبع لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها : وهنا يبدو الأمر كأنما كنت قد ركبت معه بالفعل المسافة التى يقطعها المرء عادة بالقطار . » إن التحليل يزودنا بما يلى فى توضيح هذه القصة المشوشة غير المعقولة : أجرت فى اليوم السابق عربة لكى تحملنى إلى شارع ناء فى دورنباخ [من ضواحى ڤيينا] ، ولم يكن الحوذى يعلم مكان الشارع ، ولكنه مع ذلك أخذ يسوق ويوغل على ما نعلم من عادة هؤلاء القوم الأماجد ، إلى أن انتبهت أخيراً فأعلمته أين الطريق الصحيح دون أن أبخل عليه ببعض الملاحظات الساخرة . وكانت هناك رابطة فكرية – سألتقى بها مرة أخرى فيما بعد – تقود من الحوذى إلى النبلاء . وأما الآن فلم تكن إلا تلك الفكرة العابرة ، وهى أن أشد ما يدهشنا نحن عامة البورجوازيين من النبلاء هو غرامهم بالجلوس فى مقعد السائق ؛ فقد كانت الكونت تون فى الحقيقة يقود عربة الدولة النمسوية . بيد أن الجملة التالية كانت تشير إلى أخى الذى عينته – إذن – فى الحلم بسائق العربة ؛ فقد حدث فى هذا العام أننى عدلت عن رحلة كنا عزمنا على القيام بها سوياً إلى إيطاليا (« إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») ، ولقد كان هذا العدول نوعاً من العقاب على ما كنت أسمعه من شكاياته : فأنا فى أمثال هذه الرحلات لا أكف عن إرهاقه (وهو ما ورد فى الحلم من غير تحريف) بالإصرار على الانتقال العاجل من مكان إلى آخر و على مشاهدة عدد لا يحصى من الأشياء الجميلة فى اليوم

الواحد . وكان أخى قد صحبنى ذلك المساء إلى المحطة ، ولكنه قفز قبلها بمسافة قصيرة عند محطة خطوط الضواحى الملحقة بمحطة الخطوط الرئيسة لكى يركب الخط الذاهب إلى پوركسدورف [على سبعة أو ثمانية أميال من ڤيينا] . وكنت فى حديثى إليه قد لاحظت أنه كان يستطيع أن يمكث معى فترة أطول او أنه سافر إلى پوركسدورف بالخط الرئيس بدل السفر بخط الضواحى . ومن هنا جاء فى الحلم أنى ركبت بالعربة جزءاً من المسافة التى يقطعها المرء عادة بالسكة الحديدية . ولقد كان ذلك عكس ما وقع فى الحقيقة (و « الركوب المعكوس هو أيضاً ركوب »)[1] ؛ فقد كنت قلت لأخى : تستطيع أن تركب معى على الخط الرئيس تلك المسافة التى تريد أن تقطعها فى خط الضواحى . وكنت أنا مبعث كل الخلط فى الحلم بأن وضعت « العربة » بدل « خط الضواحى » — وهو ما أفاد على أية حال فائدة طيبة فى الربط بين الحوذى وأخى . وهكذا أخلق فى الحلم شيئاً لا معنى له ، يبدو مختلطاً اختلاطاً يكاد يتعذر معه كل حل ، ثم هو يكاد يناقض ملاحظتى السابقة فى الحلم (« إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») كل المناقضة . وإذ لم تكن هناك أية ضرورة تدعونى إلى أن أخلط بين سكة حديد الضواحى والعربة ، فلا مناص من التسليم بأن كل هذه الأشغولة الملغزة إنما جاءت لغرض فى نفسى .

ولكن أى غرض؟ إن علينا الآن أن نكتشف معنى اللامعقولية فى الحلم والدوافع التى تدفع إلى قبولها أو خلقها خلقاً . وحل اللغز فى الحالة التى نحن فيها هو ما يأتى : إننى كنت محتاجاً إلى أن أحيك مظهرا من مظاهر اللامعقولية ، شيئاً غير مفهوم مرتبطاً بكلمة "fahren"[2] لأننى كنت أضمر بين أفكار الحلم معنى لم يكن بد من تصويره . وبيان ذلك أنه حدث ذات مساء أنى كنت فى منزل سيدة كريمة عالية الذكاء — هى التى ظهرت فى صورة « مدبرة المنزل » فى أحد مشاهد هذا الحلم عينه — وهناك سمعت أحجيتين طلب منى أن أجد

---

(١) ["Umgekehrt ist auch Gefahren"، (أى أن الركوب أو السوق الذى ينعكس اتجاهه فيصير إلى الخلف هو أيضا ركوب أوسوق) . تعبير نمسوى لطيف بمعنى : والعكس أيضا يصدق . والمراد هنا هو : لم يركب أخى تلك المسافة فى الحقيقة ، إذن أركبها أنا فى الحلم ، وكله ركوب برغم العكس .]

(٢) [إن كلمة "fahren" التى ترجمناها حتى الآن ترجمة منتظمة بكلمة " ركب " تعنى فى الحقيقة : ركب العربة أو ساقها أو ركب القطار أو سافر .]

حلهما . وكانت بقية الجماعة تعرف هاتين الأحجيتين ، فكان منظرى وأنا أحاول سدى العثور على الإجابة باعثاً على الضحك . وكانت الأحجيتان تقومان على تورية فى معنى كلمتى "Nachkommen" و "Vorfahren" ، وكان نصهما — فيما أعتقد — هو الآتى :

Der Herr befiehlt's,
Der Kutscher tut's.
Ein jeder hat's,
Im Grab ruht's.

[السيد يطلبه
الحوذى ينفذه .
الجميع يملكه
فى القبر مرقده .]

الجواب : "Vorfahren" [وهو فعل بمعنى « تقدم بعربته » واسم بمعنى « السلف » أو « المتقدمون ».]

وكان مما يبعث على الارتباك أن النصف الأول من الأحجية الثانية كان مشتركاً بينها وبين الأولى :

Der Herr befiehlt's
Der Kutscher tut's.
Nicht Jed r hat's
Im der Wiege ruht's

[السيد يطلبه
الحوذى ينفذه .
ليس الكل يملكه
فى المهد مرقده .]

الجواب : "Nachkomm n" [ويعنى « تبع » وأيضاً « الخلف » أو « الذرية » أو « اللاحقون ».]

فلما رأيت الكونت تون تتقدم عربته على هذا النحو الفخم وتولانى عندئذ مزاج فيجارو بملاحظته عن طيبة السادة الذين كلفوا أنفسهم عناء المجىء إلى الحياة (أن يكونوا خلفا) ، اقتبس عمل الحلم هاتين الأحجيتين متخذاً منهما فكرتين متوسطتين[١].

(١) [التأدية من فكرتى النبلاء والحوذية من ناحية إلى فكرتى السلف والخلف من ناحية أخرى .]

وإذ كان من السهل أن نخلط بين النبلاء والحوذية [أو السائقين] وكان هناك زمان فى بلدنا كنا نسمى فيه الحوذى : "Herr Sehwager" ["Schwager" يعنى « صهر » أو على الأدق « أخ بالمصاهرة »] ، فقد وسع التكثيف أن يدرج أخى فى ذات الصورة . وكانت فكرة الحلم التى تعمل عملها وراء هذا كله هى الفكرة الآتية : إن من الخرق أن يتيه المرء بسلفه ، إنى أوثر أن أكون أنا نفسى سلفاً ورأس سلالة . ومن أجل هذا الحكم : « إن كذا خرق » ظهر الخرق فى الحلم . وهكذا يحل آخر لغز فى تلك الفقرة المعتمة من الحلم : أنى تقدمت مع الحوزى [على تلك المسافة] ، أنى كنت متقدماً [أو سابقاً ، أى سلفاً] .

الحلم – إذن – يُجعل لا معقولا أو فاسداً إذا كان بين العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم حكم فحواه : إن ذلك خرق ، أى إذا كان بين أفكار الحالم اللاشعورية فكرة دافعها النقد أو الزراية . واللامعقولية على ذلك أحد المناهج التى يتوسل بها عمل الحلم إلى تصوير التناقض بجانب المناهج الأخرى : كأن تقلب علاقة بين المواد عند الانتقال من أفكار الحلم إلى محتوى الحلم [ص ٣٣٦] أو مثل استخدام إحساس الحركة المكفوفة [ص ٣٤٦] . غير أن اللامعقولية فى الحلم لا تنبغى ترجمتها بـ « كلا » وحسب ، بل المراد من ورائها هو استعادة ما يصحب أفكار الحالم من حالة مزاجية تجمع النقد أو الزراية إلى جانب المناقضة . فإن جاء عمل الحلم بما يجلب الضحك فلهذا الغرض وحده ، أى أنه – هنا أيضاً – إنما يضفى صورة ظاهرة على محتوى الحلم الكامن[1] .

والحق أننا مررنا من قبل بمثال مقنع من حلم غير معقول كان له مثل هذا المعنى : الحلم الذى فسرته من غير حاجة إلى تحليل ، حلم أوبرا ڤاجنر التى طالت حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، وكانت الفرقة الموسيقية تقاد فيه من برج ، إلخ .

---

(١) وهكذا يسفه عمل الحلم الفكرة المعطاة له على أنها فكرة مضحكة بأن يخلق هو شيئاً مضحكاً فى صددها . ولقد نهج هينه نهجا شبيهاً بذلك حين أراد أن يسخر من الأشعار الغثة التى كان ينظمها ملك باڤاريا ، فقد صاغ سخريته فى شعر أغث منها وأردأ :

السيد لودڤيج شاعر فحل ، من الفحول
ما أن ينشد حتى يخر أبوللو على ركبتيه
ساجدا أمامه ، راجيا ، متضرعا إليـــه :
" كفى ، وإلا أصابنى مس من الجنون "

(أنظر ص٣٥١) . فقد كان واضحاً أن هذا الحلم كان يعنى : « إنه لعالم مخبول ومجتمع مجنون ؛ فمن استحق شيئاً لم ينله ، ويناله من كان فى غنى عنه » — وكانت الحالة إذ ذاك تقارن بين حظها وحظ قريبتها . وما كان على الإطلاق بالاتفاق المحض أن جاءت أمثلتنا الأولى على اللامعقولية فى الحلم متعلقة بأب ميت ؛ فى أمثال هذه الحالات تجتمع الشروط الضرورية لخلق الأحلام اللامعقولية على نحو مثالى . فالسلطة التى خص بها الأب تثير نقد الأبناء منذ سن مبكرة ، ووطأة المطالب التى يقتضيها منهم تجعلهم يعيرون كل ضعف يبدو منه انتباها ؛ لكى يتخففوا . غير أن الخشوع البنوى الذى يغمر به الأب نفوسنا — وخاصة بعد مماته — يشحذ الرقابة التى تقف دون كل إفصاح شعورى عن مثل هذا النقد .

(٤)

وها هو ذا حلم آخر غير معقول يدور حول أب ميت :

تلقيت من مجلس البلدة التى ولدت فيها رسالة تتعلق بمبلغ يجب سداده ؛ فى سنة ١٨٥١ احتجزت المستشفى رجلا لنوبة كانت قد حلت به وهو فى منزلى . ويثير ذلك ضحكى : فأولا لم أكن ولدت سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة تتعلق به قد صار فى عداد الأموات . أذهب إلى والدى فى الحجرة المجاورة حيث كان يرقد فى سريره وأسأله الخبر ، ولشد ما يكون دهشى حين يتذكر أنه قد سكر مرة فى سنة ١٨٥١ وأن الأمر قد أدى إلى حبسه أو احتجازه ، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يعمل فيه لحساب شركة ت . أسأله : « إذن السكر أيضاً كان من عاداتك ؟ هل تزوجت عقب ذلك ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أننى ولدت فى سنة ١٨٥٦ ويلوح لى أن تلك هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة .

إننا إذ نرى إمعان هذا الحلم فى نشر مظاهر لا معقوليته سوف نخلص فى ضوء المناقشة السابقة إلى أن هذا الإمعان لا يمكن إلا أن يكون دليلا على أن أفكار الحلم قد انطوت على مجادلة بلغت مبلغاً خاصاً من المرارة وشدة الانفعال . ونحن إذن لن نزيد إلا دهشاً حين نلحظ أن المجادلة قد دارت فى هذا الحلم علانية وأن والدى كان الهدف الصريح للسخرية ؛ فمثل هذه العلانية تبدو شيئاً يتناقض وفروضنا المتعلقة بأثر الرقابة فى عمل الحلم . ولكن هذا الغموض لا يلبث ينجلى حين نعلم أن الأب فى هذا المثال لم يكن يعدو أن يكون حجاباً وأن رحى المنازعة إنما تدور مع شخص آخر لا يظهر أثره فى الحلم إلا فى إشارة

مفردة . فبينما المألوف هو أن يدور الحلم حول التمرد فى وجه شخص آخر يستتر الأب من ورائه ، إذا العكس هو الصحيح هنا : فالأب رجل من قش قصد من ورائه إلى تغطية البعض ، وللحالم أن يتعرض على هذا النحو المكشوف لشخص يلقى منه فى العادة تنزيهاً لأنى أعلم علم اليقين أن والدى ليس الشخص المعنى حقيقة . وتبين لنا مناسبة الحلم أن الأمر كذلك ؛ فقد جاءنى هذا الحلم بعد أن سمعت أن زميلا يكبرنى ، كان حكمه يوضع فوق كل نقد ، قد أعرب عن استيائه ودهشه لأن أحد مرضاى قد شارف علاجه التحليلى السنة الخامسة[1] . والجمل الأولى من الحلم تشير من خلال قناع شفاف إلى تلك الحقيقة : وهى أن هذا الزميل كان قد أخذ على عاتقه بعض الزمن التبعات التى لم يعد والدى يستطيع القيام بها (المبلغ الواجب السداد ، دخول المستشفى) ، وأننى حين أخذت آصرة الصداقة بيننا فى الوهن صرت أرانى فريسة هذا الصراع العاطفى الذى ينشأ حقاً حين تسوء العلاقة بين الأب والابن ؛ للموضع الذى يشغله الأب ولسالف مآثره . وإن أفكار الحلم لتحتج احتجاجاً مرا على ما ألام عليه من التلكؤ — وهو لوم يجئ أول الأمر فى صدد علاج هذا المريض ولكنه يمتد بعد ذلك إلى أمور أخرى : أيعرف شخصاً آخر يستطيع أن يسرع عنى ؟ ألا يعلم أن أمثال هذه الحالات — إذا تركنا علاجى — لا تجد لها برءاً وأنها تدوم أبد الحياة ؟ وما أربع سنوات أو خمس بالقياس إلى العمر بأجمعه ، خاصة أن عبء الحياة قد يسر على المريض فى خلال العلاج يسرا كبيراً ؟

وقد كان جزء كبير من طابع اللامعقولية فى هذا الحلم يرجع إلى أن جملا مستعارة من أنحاء شتى فى أفكار الحلم قد أجريت معاً من غير وصل أو واسطة . مثال ذلك جملة : « أذهب إليه فى الحجرة المجاورة . . . إلخ . » إنها تترك الموضوع الذى كانت تدور من حوله جمل الحلم السابقة لتستعيد الملابسات التى أعلمت فيها والدى بنبأ خطبتى دون سابق استشارته استعادة أمنية . وهذه الجملة ترمى — إذن — إلى تذكيرى بما أظهره الرجل الشيخ إذ ذاك من إيثار رفيع وتقارن مسلكه هذا بمسلك شخص آخر ، شخص جديد . وإنى لألحظ هنا أن الحلم قد استباح لنفسه هذه السخرية بالأب لأننى

---

(١) [ذاك هو المريض الذى يشير إليه فرويد فى رسائله إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) بحرف E ولقد وردت فى إحدى هذه الرسائل (الخطاب ١٢٦) إشارة إلى هذا الحلم . وفى الرسالة ١٣٣ أعلن فرويد انتهاء علاج هذا المريض بخاتمة مرضية .]

فى اعتراف كامل بسموه قد نصبته قدوة للآخرين ؛ فمن طبع الرقابة – كل رقابة – أن تُحل لك كذب الكلام فى المحظورات مؤثرة إياه على الحق صراحاً . فأما الجملة التالية – عن كونه تذكر أنه قد سكر مرة واحتجز من جرائها – فقد انقطع فيها كل ما يمت فى الحقيقة بسبب إلى والدى . وإنما المستتر وراءه فى هذا الموضع ماينيرت العظيم لاأقل – ماينيرت الذى قفوت أثره فى إجلال يعلو على الوصف والذى انقلب مسلكه إزائى – بعد فترة قصيرة من الرضى – إلى عداوة لا تقنع فيها . والحلم هنا يذكرنى بأن ما ينيرت – بنفسه – قد أخبرنى يوماً أن شبابه لم يخل من فترة اعتاد فيها أن يدمن على تخدير نفسه بالكلوروفورم ، وأنه اضطر من جراء ذلك إلى النزول بإحدى المصحات . ويذكرنى الحلم أيضاً بحادثة أخرى تتصل بماينيرت سبقت وفاته بزمن قصير : فقد كانت دارت بيننا فى الصحف العلمية مناقشة حامية الوطيس حول موضوع الهستريا عند الرجال (وهو الأمر الذى كان هو ينكر وجوده) ، فلما زرته فى خلال العلة التى مات فيها واستفسرته عن صحته أفاض بعض الإفاضة فى الحديث عن حاله ثم اختتم حديثه بتلك الكلمات : « أتعلم ؟ لقد كنت دائماً حالة من أجمل حالات الهستريا عند الرجال. » وهكذا سلم ماينيرت – تسليما أرضانى وأدهشنى – بما أصر على إنكاره كل هذا الزمن الطويل . ولكن السبب الذى مكننى من أن أتخذ من أبى حجاباً يحجب ماينيرت فى هذا المشهد من الحلم لم يكن يرجع إلى شبه اكتشفته بين كلا الشخصين ، بل إلى كون المشهد كان تصويراً موجزاً – ولكنه تصوير واف – لجملة شرطية تضمنتها أفكار الحلم ، هذا هو نصها الكامل : طبعاً ، لو كنت خليفة أستاذ أو عميد ، ابنا لهذا أو لذاك ، لكنت يقيناً قد أسرعت عن ذلك . وهكذا جعلت من والدى فى الحلم عميداً وأستاذاً . ولكن أنكر ما اشتمل عليه هذا الحلم من وجوه اللامعقولية وأشده إزعاجاً يقوم فى معالجة تاريخ سنة ١٨٥١ الذى بدا لى لا يفترق من عام ١٨٥٦ كما لو كان فرق سنوات خمس أمراً لا يعتد به على الإطلاق . ولكن تلك على التحديد كانت إحدى أفكار الحلم التى كان يراد الإفصاح عنها ؛ فأربع سنوات أو خمس تلك هى مدة الزمن الذى حظيت فيه بتأييد الزميل الذى أشرت إليه من قبل ، وهى أيضاً مدة الزمن الذى تركت فيه خطيبتى تنتظر زواجنا ، ثم هى كانت بعد ذلك – بصدفة عارضة حرصت أفكار الحلم على استغلالها – مدة الزمن الذى جعلت فيه أطول مرضاى تحليلا ينتظر كامل شفائه .

فأفكار الحلم تسأل : « وما خمس سنوات ؟ إنها بقدر ما يعنيني الأمر ليست زمناً على الإطلاق ولا يحسب لها حساب . وإنى لأملك وقتاً كافياً أمامى ، وسأنجح أخيراً فى هذا كما نجحت من قبل فى ذلك — وإن لم تصدقوا . » هذا ، ثم إن الرقم ٥١ فى ذاته ، مستقلا عن رقم القرن، قد حتمه معنى آخر يتجه يقيناً فى وجهة مخالفة ، ومن هنا كان مجيئه فى الحلم مرات متكررة : ذلك أن الحادية والخمسين — فيما يبدو — سن مفعمة بالخطر فى حياة الرجل، هى السن التى رأيت فيها كثيراً من الزملاء يقضون نحبهم ، وكان منهم زميل رقى بعد طول انتظار إلى منصب الأستاذية قبل موته بأيام معدودات (١).

(٥)

وها هو ذا حلم آخر فاسد يتلاعب بالأرقام :

هوجم أحد معارفى — وهو السيد م . — فى مقال ما مهاجمة كان من رأينا جميعاً أنها بلغت حداً من العنف لا مبرر له . وكان المهاجم جوته نفسه — لا أقل . ومن الطبعى أن السيد م . قد سحقه هذا الهجوم . إنه يشتكى منه مر الاشتكاء إلى صحبة فى إحدى الولائم ، بيد أن هذه المحنة الشخصية لم تنل شيئاً من إجلاله لجوته . أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية التى بدت لى بعيدة عن الرجوح : لقد مات جوته عام ١٨٣٢ ، وطبعى أن هجومه هذا على السيد م . قد سبق هذا التاريخ ، ولا بد إذن أن السيد م . كان فى ذلك الوقت شاباً فى مقتبل الشباب . يلوح لى أن من الراجح أنه كان إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره . غير أننى لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها ، بحيث تتبخر حسبتى وتستبهم . هذا وقد وردت تلك المهاجمة فى مقال جوته المعروف عن الطبيعة .

إننا لن نلبث طويلا دون أن نجد السبيل إلى تبرير ما فى هذا الحلم من البله . فالسيد م. الذى اتفقت لى معرفته بين صحبة فى إحدى الولائم كان قد سألنى منذ زمن غير بعيد أن أفحص أخاه لما بدا عليه من علامات الاضطراب العقلى الشللى . وكان السيد م. مصيباً فيما خمنه . وقد وقعت فى خلال هذه الزيارة واقعة مؤسفة : ذلك أن المريض — لغير سبب مفهوم — قد أحرج أخاه فى خلال الحديث بإشارة إلى حماقات شبابه . هذا وقد كنت سألت المريض عن السنة التى ولد فيها ، كما جعلته يقوم — عدة مرات — بجمع أعداد صغيرة لكى أمتحن ضعف ذاكرته . وأذكر بعد

(١) [تلك من غير شك — على حسب ملاحظة ستراشى — إشارة إلى نظرية فليس عن الدورات البيولوجية . فالرقم ٥١ = ٢٨ + ٢٣ وهما زمنا الدورتين المذكرة والمؤنثة .]

أنه كان لا يزال قادراً على القيام بها خير قيام . وهأنذا ألحظ أننى قد سلكت فى الحلم كما يسلك مشلول (لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها) . وهناك جزء آخر من مادة الحلم اشتق من مصدر آخر حديث العهد : ذلك أن ناشراً لإحدى الصحف الطبية ، كانت تربطنى به علاقات المودة ، قد نشر نقداً جارحاً إلى أبعد الحدود ، نقداً « ساحقاً » ، لكتاب صديقى ف . [فليس] الأخير ، وكان صاحب هذا النقد معلقاً فى مقتبل الشباب ، ضعيف القدرة على الحكم ، وارتأيت أن لى حقاً فى التدخل ، فناقشت الناشر الحساب . فأعرب لى إعراباً حاراً عن أسفه لنشر هذا النقد ، ولكنه لم يشأ الوعد بعلاج المسألة ، فقطعت صلتى بالصحيفة ، ولكننى أعربت فى خطاب استقالتى عن أملى فى ألا تنال هذه الحادثة من علاقاتنا الشخصية . فأما المصدر الثالث للحلم فرواية كانت لا تزال حية فى ذهنى سمعتها من مريضة وهى تصف مرضاً عقلياً أصاب أخاها ، وكيف أخذته الآخذة وهو يصرخ : « أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! » . ولقد اعتقد الأطباء أن النداء كان وليد قراءته مقالة جوته الرائعة ، وأنه ــ هذا النداء ــ كان يبين إلى أى حد أنهكت المريض قراآته فى الفلسفة الطبيعية . ولكننى ــ من ناحيتى ــ كنت أفضل التفكير فى المعنى الجنسى الذى تستخدم فيه كلمة « الطبيعة » عندنا حتى على ألسنة من هم أقل ثقافة . وكان أن فكرتى هذه لم تجد على الأقل ما يكذبها حين قطع الشاب العاثر أعضاءه التناسلية . وكان عمر المريض ثمانية عشر ربيعاً حين وليته تلك النوبة .

فإذا أضفت أن كتاب صديقى الذى لقى كل هذا النقد القاسى (لقد قال عنه معلق آخر : « إن المرء ليعجب أهو المجنون أم المؤلف ») كان يعالج موضوع المعطيات الزمنية للحياة ويبين أن عمر جوته رقم مضاعف لعدد [من الأيام] له قيمته البيولوجية ، سهل أن نفهم أننى كنت فى هذا الحلم أضع نفسى فى موضع صديقى . (أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية) . بيد أننى سلكت كما يسلك مشلول فجاء الحلم ركاماً من الأباطيل ، وهذا يعنى أن أفكار الحلم تقول على سبيل التهكم : « طبعاً ، إن صديقى هو المجنون ، هو الملتاث ، وأنتم العباقرة الأحسن علماً . وكيف يكون العكس ؟ » وهذا العكس يتمثل بعد ذلك بإسهاب فى محتوى الحلم : فجوته يهاجم شاباً فى مقتبل العمر ــ وهو شىء غير معقول ــ فى حين يستطيع اليوم يافع أن يقدح فى جوته ــ وهو الخالد ــ

وأنا أجرى الحساب ابتداء من سنة موت جوته ، فى حين أننى جعلت المشلول يحسب عمره ابتداء من سنة ميلاده .

غير أنى كنت قد أخذت من قبل فى تبيان أن الحلم إنما تحركه دوافع الأثرة دون غيرها [ص٢٨٢] ، وعلى ذلك فلا مفر من أن أبين كيف اتفق فى هذا الحلم أننى جعلت قضية صديقى قضيتى ووضعت نفسى فى موضعه . إن اقتناعى النقدى [بآراء صديقى] فى حياة اليقظة ليس سبباً كافياً . ولكن ها هى ذى قصة المريض ذى الثمانية عشر ربيعاً والتفسيرات المختلفة فى أمر ندائه « أيتها الطبيعة ! » ؛ فهذه إشارات إلى التعارض الذى أرانى فيه تجاه معظم الأطباء لما أعتقده من أن للأعصبة عللا جنسية . ولى إذن أن أحدث نفسى قائلا : هذا النوع من النقد الموجه إلى صديقك سوف تدور عليك دائرته يوماً ما ، لا بل أنت قد ذقته بالفعل إلى حد . وعلى ذلك يسعنا أن نضع « نحن » فى أفكار الحلم بدل « هو » : « نعم ، أنتم العقلاء ونحن المجانين » . وفى الحلم أثر يذكرنى فى وضوح كبير بأننى « ما أهاجتنى سوى أشجانى »(١) ، هذا الأثر المذكر هو تلك الإشارة إلى مقالة جوته الجميلة جمالا لا يعدله جمال(٢) : ذلك أننى سمعت هذه المقالة تقرأ بصوت عال فى محاضرة عامة وكنت قد فرغت من الدراسة الثانوية حائراً لا أدرى ماذا أكون ، فكان هذا السماع دافعى إلى دراسة العلوم الطبيعية .

(٦)

وهناك حلم آخر كنت قد شرعت أبين فى صفحات سابقة من هذا الكتاب أنه كان حلماً أنانياً وإن لم يظهر فيه أناى . فقد رويت فى ص٢٨٤ حلماً قصيراً كان مؤداه أن الأستاذ م. يقول : « يا بنى ، قصير النظر . . . » ثم قلت إن هذا الحلم لم يكن إلا مقدمة لحلم آخر كان لى فيه نصيب . وها هو ذا الحلم الرئيس الباقى الذى يطالعنا بصيغة لفظية غير معقولة ولامفهومة ، يحتاج أمرها إلى بعض الإيضاح :

---

(١) ["mea res agitur"]

(٢) [هذا المقال يتألف من مجموعة من الخواطر الشعرية الفلسفية كتبها جوته حوالى عام ١٧٨٠ ثم بعث بها إلى اللوقة آنا آماليا . فلما ماتت هذه بعد ذلك بثلاثين عاما ووقعت بين يدى جوته رسالته استطاع أن يعرف فيها أثراً من آثار شبابه .]

وقعت فى مدينة روما أحداث اقتضت نقل الأطفال إلى مكان أمين – وهو عمل تم. يجرى المشهب أمام أحد مداخل المدينة ، مدخل ذى بابين على الطراز القديم (هو « الباب الرومانى » الذى فى مدينة سيينا – كما وعيته فى الحلم نفسه) . أجلس على حافة إحدى النوافير وأنا شديد الاكتئاب أكاد أبكى . يقبل شخص مؤنث – وصيفة أو راهبة – وتحضر معها طفلين وتسلمهما إلى أبيهما – وكان شخصاً آخر عداى. الولد الأكبر هو من غير شك ابنى الأكبر ، لست أدرى وجه الآخر . تسأل المرأة التى أحضرت الطفل قبلة وداع منه . إن لها أنفاً أحمر يلفت النظر . يأبى الولد أن يقبلها ، ولكنه يقول لها وهو يمسك يدها مودعاً : **Auf Geseres** ، ثم يقول لنا كلينا (أو لأحدنا) : **Auf Ungeseres**. يدور بذهنى أن هذه العبارة الأخيرة تفيد التفضيل .

لقد بنى هذا الحلم على حزمة مختلطة من الأفكار أثارتها مسرحية شهدتها ، كان عنوانها : « الجيتو الجديد » . ومن السهل أن نرى أن للمشكلة اليهودية مكانها بين أفكار هذا الحلم : قلق المرء على أبنائه الذين لا يستطيع أن يوفر لهم وطناً يكون وطنهم ، القلق من أجل تعليمهم التعليم الذى يمكنهم من أن ينتقلوا عبر الحدود أحرارا .

« على أنهار بابل، هناك جلسنا وبكينا[1] . » – إن سيينا – مثل روما– قد عرفت بنافوراتها الجميلة ولم يكن بد من أن أورد مكاناً أعرفه يحل فى الحلم محل روما [التى لم أكن رأيتها بعد] (أنظر ص٢١٣) . ولقد كنا رأينا بالقرب من الباب الرومانى فى سيينا بناء ضخماً علمنا أنه المارستان . وكنت قد سمعت قبل هذا الحلم بوقت قصير أن رجلا من ديانتى قد اضطر إلى التخلى عن المنصب الذى بلغه بعد عناء كبير فى مارستان حكومى .

وتثير اهتمامنا عبارة : Auf Goseres التى تجىء فى موقف من الحلم كان المرء يتوقع فيه : Auf Wiedersehen [إلى اللقاء] ، كما يثيره ضدها الخالى من كل معنى : Auf Ungeseres .

إن Geseres – على ما علمته من بعض اللغويين – كلمة عبرية خالصة ، مشتقة من فعل goiser ، وأحسن ترجمة لها هى : « الألم المحتوم » أو « القضاء » . ويحدونا استخدامها فى اللغة العامية إلى أن نظن أنها تعنى « البكاء والعويل » . فأما Ungeseres فمصطلح جديد من عندى ، وقد كانت هى أسبق الكلمتين إلى جذب

(١) [« على أنهار بابل ، هناك جلسنا وبكينا ، عندما تذكرنا صهيون » . مطلع المزمار ١٣٩ ، وهو من مراثى اليهود المسبيين فى بابل ، والترجمة الموردة هنا موضوعة عن النص اللاتينى مباشرة ؛ لأن الترجمة البروتستانتية المعروفة تختلف اختلافا لا تصلح معه للاقتباس فى هذا الموضع .]

انتباهى ، ولكننى وقد بدأت بها لم أستطع الخروج منها بشىء . غير أن الملاحظة القصيرة التى جاءت فى ختام الحلم بما معناه أن Ungeseres تفيد التفضيل قد فتحت الطريق إلى المستدعيات ، ومن ثم إلى فهم الكلمة . إننا نجد علاقة مماثلة فيما يتصل بالكافيار : فالكافيار غير المملح [ungesalzen] يفضل على الكافيار المملح [gesalzene] . كافيار للشعب ، « المشاعر النبيلة » : ههنا تكمن إشارة مازحة إلى عضو من أعضاء أسرتى آمل منها — وهى التى تصغرنى سناً — أن تعنى بأبنائى فى مستقبل الأيام . ويتفق وذلك أن عضواً آخر من أعضاء أسرتى — وهو مربيتنا العظيمة — قد صورت فى الحلم تصويراً لا يخطئ فى شخص الوصيفة (أو الراهبة) . ولكن هذا كله لا يرينا بعد أى فكرة توسطت بين الزوجين : « gesalzen - ungesalzen » و « Geseres - Ungeseres, » . إن الواسطة هى « gesaüret - ungesaüret » [مختمر — غير مختمر] ؛ فأبناء إسرائيل إذ فروا من مصر معجلين لم يجدوا متسعاً من الوقت لكى يخمر عجينهم ، وإنهم إلى يومنا هذا ليأكلون الخبز فى عيد الفصح غير مختمر ؛ تذكاراً . وهأنذا أذكر الآن فجأة كيف كنا — صديقى الذى من برلين وأنا — نسير فى عيد الفصح فى برسلاو — وهى مدينة كنا فيها غرباء — وإذا فتاة تسألنى الطريق إلى أحد الشوراع ، فلم أجد إلا أن أعترف لها بجهلى ، ثم عقبت أحدث صديقى : « أرجو لهذه الفتاة حين تتقدم بها السن أن تبدى مزيداً من التمييز فى اختيار الناس الذين تكل إليهم إرشادها . » ثم لمحت عقب ذلك لافتة كتب عليها : الدكتور هيرودوس مواعيد الزيارة . . . فعقبت قائلا : « أرجو ألا يكون زميلنا بالصدفة طبيب أطفال . »(١) وكان صديقى يحدثنى فى هذه الأثناء عن ظاهرة التوازن بين الجانبين ، وكان قد بدأ إحدى جمله بهذه العبارة : « لو أننا لم نكن نملك إلا عيناً واحدة فى وسط الجبهة مثل السيكلوب [Zyklop] . . » وهذا يؤدى بى إلى قول الأستاذ فى الحلم التمهيدى : *« يا بنى ، قصير النظر [Myop] . »* والآن أتوصل إلى المصدر الرئيس لكلمة « Geseres » : ذلك أنه حدث منذ سنوات متعددة حين كان ابن الاستاذ م . — وهو اليوم مفكر مستقل — لا يزال بمقعد الدراسة ، أنه أصيب

---

(١) [إشارة إلى ما هو معروف من أن هيرودوس الملك كان قد اعتزم أن يهلك الطفل يسوع ، فلما لم يجده غضب " وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون " . إنجيل متى ، الإصحاح الثانى .]

بمرض فى عينيه قال الطبيب : إنه يدعو إلى التخوف ، وأوضح أن الأمر يظل خالياً من الأهمية ما دام المرض مقصوراً على جانب واحد ، ولكنه يصبح خطراً إذا امتد إلى العين الأخرى . وحدث أن العين برأت برءاً تاماً ، ولكن ظهرت أعراض تدل على أن العين الأخرى قد أصيبت . وهلعت الأم فأرسلت على الفور فى طلب الطبيب إلى مقامهم النائى فى الريف . ولكن الطبيب أخذ الآن جانباً آخر ، وصاح فى وجه الأم : « ولم كل هذا العويل [Geseres] ؟ ما دام أحد الجانبين قد برئ فسيبرأ الآخر كذلك . » وهكذا كان .

ولا بد الآن من أن نبحث صلة هذا كله بى وبأسرتى : إن المقعد الدراسى الذى تلقى عليه ابن الأستاذ م. أول حظه من المعرفة قد انتقلت ملكيته فيما بعد إلى ابنى الأكبر الذى وضعت على لسانه كلمات الوداع فى الحلم ؛ فقد أهدت المقعد إليه أم الغلام . ومن السهل أن نحذر إحدى الرغبات التى أثارها ذلك الانتقال . بيد أن هذا المقعد كان أيضاً قد صنع بحيث يقى الطفل من أن يصبح ضعيف النظر أو مبصراً بعين واحدة . ومن هنا كان ظهور "Myop" (ومن ورائها « Zyklop ») فى الحلم ، وكانت الإشارة إلى التوازن بين الجانبين . ولقد كانت خيفتى من وحدانية الجانب تحمل أكثر من معنى : فهى لم تكن تشير إلى وحدانية الجانب بالمعنى البدنى وحسب ، بل كانت تشير كذلك إلى النظر فى الأمور من جانب واحد فيما يتصل بالتطور العقلى . أفلا يمكن أن يكون هذا التخوف على التحديد هو ما أراد الحلم دفعه بطريقته غير المعقولة ؟ فبعد أن استدار الغلام إلى أحد الجانبين ليلقى كلمات الوداع ، استدار إلى الجانب الآخر ليقول الضد ، كأنما كان يريد إعادة التوازن : إنه يسلك كما لو كان يولى التوازن بين الجانبين العناية التى تنبغى .

وهكذا تكون الأحلام فى كثير من الأحيان أعمق ما تكون حتى لا يبدو منها غير الجنون . وفى كل عصر من عصور التاريخ كان أولئك الذين يملكون شيئاً يقولونه دون أن يملكوا قوله آمنين يرتدون مسوح المجانين ؛ فالتسامح يهون على السامع الذى يتجه إليه مقالهم المحرم إن هو تمكن من الضحك ومن أن يتملق نفسه ظناً منه أن هذه الكلمات غير المستحبة ليست إلا هراء جلياً . وما يسلك الحلم فى الحقيقة إلا كما يسلك فى الرواية

الأمير وهو يلجأ إلى التقنع بثوب من الجنون ، حتى ليسعنا أن نقول عن الحلم ما يقوله هاملت عن نفسه وهو يخفى حقيقة حاله تحت رداء من التنكيت والاستعجام : « ولست بالمجنون إلا والريح مشملة ، شمالا بغرب ، فإن أجنبت عرفت الباز من البلشون »[1].

وهكذا أكون قد انتهيت إلى حل مشكلة اللامعقولية فى الحلم على هذا النحو : إن أفكار الحلم لا تكون أبداً أباطيل — أو لا تكون كذلك فى أحلام الأصحاء على الأقل — وإن عمل الحلم إنما تحدث عنه أحلام لا معقولة أو أحلام مشتملة على عناصر لامعقولة إذا كان بين أفكار الحلم نقد أو سخرية أو استخفاف تدعو الضرورة إلى تصويرها . ومهمتى الآتية هى أن أبين أن عمل الحلم إنما يقوم فى فعل العوامل الثلاثة التى ذكرتها مجتمعة — مع عامل رابع لما أذكره — وأنه لا يفعل شيئاً آخر سوى ترجمة أفكار الحلم وفاقاً لهذه الشروط الأربعة ، وأن السؤال هل تعمل النفس فى أثناء الحلم بكل قواها العقلية أو بجزء منها سؤال خاطئ الصياغة ، يغفل الوقائع . بيد أن هناك أحلاماً كثيرة يعرض فيها الحكم والنقد والمعرفة ، أحلاماً يعجب فيها المرء لعنصر من عناصر الحلم ويحاول التعليل ويشرع فى المحاجة . لهذا لا أجد مفراً من مواجهة الاعتراضات المبنية على أمثال هذه الوقائع ، وذلك بإيراد بعض الأمثلة المختارة .

وسيكون الجواب الذى أخلص إليه هو هذا : إن كل ما يخطر فى الحلم فى صورة نشاط ظاهره أنه صادر عن وظيفة الحكم يجب ألا يعد نتاجاً عقلياً حققه عمل الحلم ، بل الواجب أن نعتبره منتميا إلى مادة أفكار الحلم ، ومنها انتقل إلى محتوى الحلم الظاهر كشىء جاهز الصنع من قبل . بل إن فى وسعى أن أمد هذه القضية إلى أبعد من ذلك : فالأحكام التى يصدرها المرء عقب اليقظة فى صدد حلم تذكره ، والمشاعر التى تنبعث فى

---

(١) [هاملت : المشهد الثانى من الفصل الثانى . بيت من الأبيات الشكسبيرية التى تتعذر ترجمتها لشدة ما فيها من "التكثيف" . ويكفى أن نشير إلى أن التمييز بين هذين الطائرين يصبح عسيرا كل العسر — فيما يقال — إذا أخذت الريح هذا الاتجاه ؛ فالمعنى المراد من البيت والذى من أجله كان الاستشهاد به هو : إن كنت مجنونا فلغرض ، فإن جد الجد لم يكن مثلى تمييزا .] إن هذا الحلم يزودنا أيضا بمثال جيد على قضية أخرى شاملة الصدق : إن جميع الأحلام التى تقع فى خلال الليلة الواحدة تنبت من تربة فكرية واحدة ، ولو تذكرناها متفرقة . وأذكر بعد أن الموقف الذى ورد فى الحلم عن الفرار بأبنائى من مدينة روما قد شوه بربطه بحادث مماثل وقع فى طفولتى . والمعنى هو : أننى أحسد بعض أقاربى ممن سنحت لهم الفرصة بأن ينقلوا أبناءهم منذ سنوات متعددة إلى بلد آخر .

نفسه عند استحضار هذا الحلم ، كل هذه أيضاً تكون إلى حد كبير جزءاً من المحتوى الكامن للحلم ، ومن الواجب إدراجها فى تفسيره .

(١) لقد ذكرت من قبل مثالا على ذلك يستلفت النظر : امرأة تأبى أن تذكر حلمها لأنه « لم يكن واضحاً الوضوح الكافى » ؛ فهى قد رأت البعض فى الحلم ولكنها لا تعلم أزوجها هو أم أبوها . ثم أعقبت ذلك فقرة ثانية من الحلم ورد فيها ذكر مزبلة ، وهو ما يسوقها إلى تلك الذكرى : حدث ذات مرة وهى زوجة حديثة العهد بأعمال ربة المنزل أنها قالت مازحة فى محضر قريبة شابة من قريباتها : إن أول ما ستعنى به سيكون شراء « مزبلة » جديدة ، فلما جاء اليوم التالى إذا واحدة تُهدى إليها ، ولكنها كانت مليئة بالسوسن . وقد كان هذا الجزء من الحلم يفيد فى تصوير ذلك التعبير [الألمانى] الدارج : « ما نما ذلك من زبلى[1] » . ولما تم تحليل الحلم تبين أن أفكار الحلم كانت تدور حول الأثر البعدى الذى كان لقصة سمعتها الحالمة فى حداثتها عن فتاة ولدت ولداً لم يتضح من هو أبوه . ومن هذا نرى أن تصوير الحلم قد امتد فى ذلك المثال إلى أفكار اليقظة تاركاً أحد عناصر أفكار الحلم يتمثل فى صورة حكم مستيقظ أطلق على الحلم فى مجموعة .

(٢) وها هى ذى حالة ثانية مماثلة : حلم أحد مرضاى حلماً لاح له ذا أهمية ؛ لأنه لم يكد يستيقظ حتى حدث نفسه قائلا :[2] لا بد من أن أتحدث إلى الطبيب بذلك . وحلل الحلم فانبعثت إشارات من أوضح ما يكون إلى صلة جنسية بدأها الحالم فى خلال علاجه وعقد العزم على ألا يحدثنى بها .

(٣) ثم ها هو ذا مثال ثالث أنتخبه من بين أحلامى : كنت ذاهباً إلى المستشفى برفقة صديقى ب . مارين بمنطقة انتثرت فيها المنازل والبساتين . وفى هذه الأثناء كانت تدور بخلدى فكرة مؤداها أننى قد رأيت تلك المنطقة مراراً من قبل فى الأحلام . لم أكن أعرف الطريق معرفة طيبة . أرانى ب . شارعاً ينتهى بمطعم على ناصيته (وكانت قاعة الطعام فى الداخل لا فى حديقته) . أسأل هناك عن السيدة دونى ، فيقال لى :

(١) [" الزبل " هو ما تصلح به الأرض أو " السباخ " ، والمراد بالمزبلة – عدا معناها الشائع – هو ما يوضع فيه الزبل . والتعبير الألمانى المشار إليه معناه : " لست مسئولا عن ذلك " أو " لست أعترف بهذا الولد " .]

(٢) إذا جاء فى خلال العلاج التحليلى حلم يحدث فيه الحالم نفسه قائلا : " لا بد من أن أخبر الطبيب بذلك " فمعنى هذا أن هناك مقاومة شديدة فى وجه الإفضاء بهذا الحلم ولا يندر عندئذ أن يؤدى ذلك إلى نسيانه .

إنها تسكن مع ثلاثة أطفال فى حجرة صغيرة خلفية . أسير إلى تلك الحجرة ، ولكننى – قبل أن أصل إليها – ألتقى بشخص غير متميز تصحبه ابنتاى الصغيرتان . آخذهما معى بعد أن أمكث معهما برهة قصيرة . يدور بخاطرى شىء يشبه اللوم أوجهه إلى زوجتى لكونها تركت الفتاتين هناك .

فلما استيقظت شعرت برضا كبير عللته بأننى كنت وشيكاً أن أعلم من تحليل هذا الحلم معنى : قد حلمت بذلك من قبل .[1] ولكن الواقع أن التحليل لم يعلمنى شيئاً من هذا القبيل . وإنما الذى تبين لى منه حقيقة هو أن الشعور بالرضا كان يرجع إلى أفكار الحلم الكامنة ولم يكن يرجع بحال من الأحوال إلى حكم من الأحكام عليه : إنه كان الرضى لأن زواجى قد أعقب . ذلك أن ب . شخص سايرت حياته حياتى زمناً ثم بعد ذلك سبقنى مسافات من الناحيتين الاجتماعية والمادية ، ولكنه ظل لا ينجب من زواجه خلفاً . وإن مناسبتى الحلم لكافيتان فى الدلالة على معناه دون حاجة إلى أن نسوق تحليله كاملا . فقد حدث فى اليوم الذى سبق الحلم أننى قرأت فى إحدى الصحف نبأ وفاة السيدة دونا أ . . . ى (وهو الاسم الذى حرفته فى الحلم إلى دونى) ، وكانت وفاتها فى أثناء الوضع . وسمعت من زوجى أن القابلة التى كانت تعنى بالمتوفاة هى هى التى عنيت بزو ى عند ولادة طفلينا الأصغرين . وكان اسم دونا قد استوقفنى لأننى كنت – منذ قريب – قد صادفته للمرة الأولى فى رواية إنجليزية . فأما المناسبة الثانية للحلم فكانت تاريخ وقوعه : فقد وقع الحلم فى الليلة التى سبقت عيد ميلاد ابنى الأكبر الذى يبدو على بعض الموهبة الشعرية .

(٤) ولقد تركنى وأنا أستشعر هذا الرضا عينه ذلك الحلم غير المعقول الذى دار حول أبى وما كان له من مشاركة سياسية فى حياة المجريين ، وعللت لنفسى هذا الشعور بأنه كان امتداداً للشعور الذى صحب الجزء الأخير من الحلم [أنظر ص ٤٢٧] : (تذكرت كيف كان والدى وهو على فراش موته شديد الشبه بجاريبالدى وشعرت بالسرور لأن ذلك قد تحقق ... (يعقب ذلك جزء منسى) . لقد مكننى التحليل من أن أملأ تلك الثغرة فى الحلم . فقد ورد فيها ذكر ابنى الثانى الذى أطلقت عليه اسم شخصية من عظماء التاريخ [كروmويل] اجتذبتنى اجتذاباً شديداً فى صباى وبخاصة منذ أن

---

(١) لقد كان هذا الموضوع مثار مناقشة مستفيضة دارت فى السنوات الأخيرة على صفحات " المجلة الفلسفية " تحت عنوان : " التذكر المشوه فى الأحلام " .

زرت إنجلترا ، وكنت قد انتويت فى خلال السنة التى سبقت مولد الطفل أن أطلق عليه هذا الاسم إن جاء المولود ذكراً ، وكان أن جاء كذلك فخلعت عليه الاسم وأنا أشعر برضا عظيم . ومن السهل أن نلحظ كيف ينتقل جنون العظمة عند الآباء إلى تفكيرهم فى أبنائهم ، وتلك فى أغلب الظن إحدى الطرق التى يتم بها قمع هذا الشعور — وهو قمع تجعل منه الحياة الواقعة ضرورة لا مفر منها . فأما الحق الذى خول لابنى الصغير أن يظهر فى محيط هذا الحلم ، فكان مستمدا من كونه قد وقع إذ ذاك فى تلك العثرة التى تسهل مغفرتها للطفل وللرجل على سرير الموت ، وأعنى بها توسيخ الفراش — قارن هنا بين "Stuhlrichter" وبين الرغبة التى يعرب عنها الحلم فى أن يقف المرء عظيماً طاهراً فى أعين أبنائه . [ارجع إلى ص ٤٢٩ .]

(٥) وأتحول الآن إلى النظر فى الأحكام التى تطلق فى أثناء الحلم نفسه ولكنها لا تتابع حتى حياة اليقظة أو تنقل إليها . وتسهل مهمة البحث عن الأمثلة على ذلك إلى درجة كبيرة إذا التجأت إلى الأحلام التى سقتها من قبل لغايات أخرى . خذ حلم « جوته يهاجم السيد م . » إنه يبدو مشتملا على طائفة من أفعال الحكم ، مثل : « أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية التى تبدو لى بعيدة عن الرجوح » . ألا يبدو ذلك نقداً موجهاً إلى تلك الفكرة الفاسدة ، وأعنى بها أن جوته قد شن هجوماً أدبياً على شاب من معارفى ؟ ثم تلك الجملة : « يلوح لى أن من الراجح أنه كان إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره » ، إنها تبدو وليدة عملية حسابية وإن يكن الحساب — والحق يقال — حساب أبله . وأخيراً فإن قول الحلم : « لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها » قد يبدو مثالا على التردد أو الشك يعرض فى الحلم .

ومع هذا فإنا نعلم من التحليل أن تلك القضايا الذى تبدو فى صورة أفعال حكم تطلق فى الحلم للمرة الأولى يمكن أن يفهم منطوقها فهماً آخر تغدو فى فى ضوئه لازمة كل اللزوم من أجل تفسير الحلم فى حين يرتفع عنها فى الوقت نفسه كل أثر من اللامعقولية . فجملة : « أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية » كانت تضعنى فى مكان صديقى [فليس] الذى كان يسعى فى الحقيقة إلى إلقاء الضوء على المعطيات الزمنية للحياة . وهكذا تفقد الجملة معنى الحكم يحتج على فساد القضايا السابقة . فأما جملة الصلة : « التى تبدو لى بعيدة عن الرجوح » فترتبط بتاليتها : « يلوح لى أن من الراجح » ؛

فتلك على التقريب هى الكلمات التى كنت استخدمتها فى حديثى إلى السيدة التى قصت على كيف جن أخوها ، قلت لها : « إنه ليبدو لى أمراً بعيدا عن الرجوح أن يكون لندائه أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! ، أدنى علاقة بجوته ، وإنما الذى يلوح لى أرجح من ذلك كثيراً هو أن يكون لتلك الكلمات معنى جنسى تعرفينه . »و صحيح أننى قد أطلقت هنا حكماً ، ولكننى لم أطلقه فى الحلم بل فى الواقع ، وفى مناسبة رجعت إليها أفكار الحلم بالذكرى واستغلتها . ثم جاء محتوى الحلم فاستحوذ على هذا الحكم كما يستحوذ على أية نبذة أخرى من فكر الحلم .

وكذلك الرقم ١٨ الذى ارتبط به الحكم الذى أطلق فى الحلم دون أن يكون لذلك معنى ما ، إنه ليحتفظ بأثر من السياق الحقيقى الذى انتزع منه الحكم . فأما جملة : « لم أكن واثقاً من السنة التى نحن فيها » فلم تكن — أخيرا — تعرب عن شىء سوى تعيينى بالمريض المشلول الذى أثيرت تلك النقطة بالفعل فى خلال فحصه .

إن حل أفعال الحكم الظاهرة فى الحلم قد يذكر المرء بالقواعد الأساسية التى نص عليها فى مبتدأ هذا الكتاب فيما يتصل بالقيام بعملية التفسير . فقد قلنا : إن من الواجب أن نترك الاتساق الظاهر بين مقومات الحلم كما نترك وهما لا حقيقة له وأن نتأثر مصدر كل عنصر من عناصر الحلم فى ذاته . فما الحلم إلا حزمة يقتضى البحث تفكيكها أجزاء من جديد . غير أننا قد نلحظ من جهة أخرى أن هناك قوة نفسية تعمل عملها فى الحلم ، هى التى تخلق هذا الترابط الظاهر ، قوة تخضع المادة الناجمة عن عمل الحلم لمراجعة ثانوية . وهنا نرانا نواجه تلك القوة الرابعة التى سوف نزن فيما بعد أهميتها باعتبارها رابعة العوامل المشتركة فى تكوين الحلم .

(٦) وها هو ذا مثال آخر على عملية من عمليات الحكم جرت فى حلم ذكرته من قبل : فى الحلم غير المعقول الذى جاء فيه أننى تلقيت رسالة من المجلس البلدى [ص٤٣٥] أرانى أسأل أبى : « وهل تزوجت عقب ذلك مباشرة ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أننى ولدت فى سنة ١٨٥٦ ويلوح لى أن تلك هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وكل هذا قد ألبس صورة الاستدلال : تزوج أبى سنة ١٨٥١ بعد النوبة المشار إليها ، وأنا — يقينا — أكبر أبناء الأسره ، مولود سنة ١٨٥٦ ، ويلزم — إذن — أن سنة ١٨٥٦ هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وهذه النتيجة الكاذبة قد استخلصت — كما نعلم —

وفقاً لمقاصد تحقيق الرغبة ؛ فقد كانت الفكرة المسيطرة على الحلم هى الآتية : إن أربع سنوات أو خمس ليست زمناً على الإطلاق ، ولا يحسب لها حساب . بيد أن كل خطوة من خطوات هذا الاستدلال كانت محتومة أيضاً بأفكار الحلم من حيث المحتوى ومن حيث الصورة على السواء ، فالمريض الذى ضاق زميلى بطول علاجه هو الذى كان قد عقد العزم على الزواج عقب الفراغ من العلاج . ثم إن الطريقة التى تحدثت بها إلى والدى كانت تذكر باستجواب أو بامتحان وإنها لتذكرنى بأستاذ فى الجامعة كان من عادته أن يدون معلومات مستفيضة عن كل طالب يسجل اسمه للاستماع فى محاضراته : « تاريخ الميلاد ؟ » — « ١٨٥٦ » — « اسم الأب ؟ » — وهنا كان على الطالب أن يجيب بذكر اسم أبيه منتهياً بنهاية لاتينية ، وكنا نحن معشر الطلبة نقدر أن الأستاذ كان يستنتج من اسم الأب نتائج لا يتسنى دائماً استنتاجها من اسم الطالب نفسه . وهكذا لم يكن الاستنتاج فى الحلم إلا ترديداً للاستنتاج الذى يظهر بين أفكار الحلم كجزء من مادتها . وفى هذا ما يطالعنا بجديد : إذا وردت فى محتوى الحلم نتيجة ، فلا جدال فى أن تلك النتيجة مستمدة من أفكار الحلم . غير أن هذه النتيجة قد تكون داخلة فى هذه الأفكار كجزء من مادتها المتذكرة أو هى قد تصل ما بين سلسلة من أفكار الحلم باعتبارها رابطة منطقية . وفى كلتا الحالتين تمثل النتيجة فى الحلم نتيجة فى أفكار الحلم[١] .

ونعود فنستأنف تفسير هذا الحلم : إن استجواب الأستاذ يسوقنى إلى تذكر سجل الطلبة بالجامعة — وكان فى أيامى يملأ باللغة اللاتينية — ثم إلى ذكرى دراستى الجامعية : إن السنوات الخمس المقررة لدراسة الطب كانت هى الأخرى تقل عما يلزمنى ؛ فقد سرت فى العمل وئيداً وأبطأت بعد السنوات الخمس ستوات . وعدنى معارفى شخصاً متعطلا وتشككوا فى أن أفرغ يوماً مما أخذت فيه . وعندئذ قررت على عجل أن أتقدم للامتحان وأن أجتازه رغم التأخير . وفى هذا معزز جديد لأفكار الحلم التى كنت أواجه بها نقادى متحدياً إياهم : « سأفرغ مما بدأت ، وإلى نتيجة سأنتهى ، وإن لم تصدقوا لما ترونه من تمهلى . وكم انقلبت الأمور من قبل هذا المنقلب . »

---

(١) إن هذه الاكتشافات تصحح من بعض النواحى ما ذكرته من قبل (ص٣٢٣) عن تصوير العلاقات المنطقية فى الحلم . فكلامى هناك يصف مسلك عمل الحلم بوجه عام ، دون أن يحسب حساباً لبعض مظاهر نشاطه التى تفوق غيرها دقة واعتناء .

ولقد حوى هذا الحلم فى مطلعه جملة من القضايا لا يكاد يستطيع المرء أن يأبى عليها اسم الحجة . بل هى لم تكن بالحجة المجافية للمعقول ، بل قد كان يمكن أن تصدر عن الفكر المستيقظ : أضحك فى الحلم لتلك الرسالة التى يرسلها إلى المجلس البلدى ؛ فأولا لم أكن حثت إلى الدنيا بعد فى سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة متعلقة به قد صار فى عداد الموتى . إن كلا من هاتين القضيتين لم تكن صحيحة وحسب ، بل هى تتفق كل الاتفاق والحجج التى ما كنت أتردد فى إطلاقها لو قد تلقيت مثل هذه الرسالة حقيقة . ولقد تبين من التحليل الذى سبق (ص٤٣٥) أن هذا الحلم قد صدر عن أفكار حلمية شديدة المرارة ، مشربة بالزراية . فإذا فرضنا بعد ذلك أن دوافع الرقابة كانت بالغة الشدة ، أمكن أن نفهم أن عمل الحلم قد دعته كل الدواعى إلى أن يخلق نقضاً لا خلل فيه لفكرة غير معقولة على المنوال المتضمن فى أفكار الحلم . غير أن التحليل يرينا أن عمل الحلم — هنا أيضاً — لم يكن مطلق الخيار فى أن يخلق خلقه كيفما شاء ، بل كان مضطرا — لبلوغ غرضه — إلى أن يستخدم مادة مستمدة من أفكار الحلم . فالأمر أشبه بمعادلة جبرية حوت — بالإضافة إلى الأعداد — علامات على الزائد والناقص وعلى الأسس والجذور ، ثم جاء البعض يريد نسخ المعادلة وهو لا يفهمها ، فنقل علامات العمليات ونقل الأرقام ، لم يترك شيئاً ، لكنه خلطها خلطاً . فالحجتان المشار إليهما يمكن تأثرهما إلى المادة الآتية : إنه لأمر يمضنى أن أرى أن من شأن بعض المسلمات التى تنبنى عليها حلولى السيكولوجية لمشكلة الأعصبة أن تثير الشك والضحك حين تعرف للمرة الأولى . مثال ذلك أننى لا أجد مهرباً من القول بأن انطباعات ترجع إلى السنة الثانية — بل إلى السنة الأولى أحياناً — قد تركت أثراً لا يمحى فى الحياة الانفعالية لمن قدر لهم المرض فيما بعد ، وبأن هذه الانطباعات — وإن شوهتها الذاكرة وجسمتها على أكثر من نحو — قد تكون أول أسس الأمراض الهسترية وأعمقها . وكان من عادة المرضى الذين أشرح لهم ذلك فى موضعه المناسب أن يطلقوا العنان لسخريتهم من المعرفة الجديدة ، معلنين استعدادهم لأن يبحثوا عن ذكريات ترجع إلى زمن ما قبل الولادة . وكان اكتشافى لما يؤديه الأب من دور لا يطرأ على البال فى بواكير الدفعات الجنسية عند النساء المريضات يُقابَل — كما كنت أتوقع — بترحيب مماثل . (أنظر المناقشة التى فى ص ٢٧٣ .) ومع هذا فاقتناعى المؤسس على أسس طيبة هو أن

كلتا القضيتين صحيحة . وإنى لأفكر — على سبيل التأييد — فى أمثلة نرى فيها الأب يموت والطفل ما زال بسن مبكرة جداً ، ثم تجىء بعد ذلك أحداث — لا يمكن تفسيرها بغير ذلك — تثبت أن الطفل قد حفظ مع ذلك ذكريات لا شعورية عن الشخص الذى اختفى فى هذا الزمن المبكر . وكنت أعلم أن قضاياى هذه تقوم على استنتاجات قد تنازع صحتها . وعلى ذلك فعمل الحلم يحقق رغبة حين يستخدم على التحديد مادة تلك النتائج التى كنت أخشى معارضتها لكى يستخلص منها نتائج لا يمكن الاعتراض عليها .

٧) وهناك حلم تركته إلى الآن دون أن أكاد ألمسه [أنظر ص ٤١٤] ظهر فى مطلعه تعبير واضح عن عجب أحسسته لفكرة انبعثت فى الحلم :

يكلفنى بروكه الشيخ مهمة ما ، والشىء العجيب أنها كانت تتعلق بتشريح الجزء الأسفل من جسمى ، بتشريح الحوض والساقين التى أراها أمامى كما لو كان ذلك فى حجرة التشريح ولكن دون ألحظ غيابها عندى ودون أن يساورنى أثر من الشعور بالفظاعة . كانت لويز ن . تقف إلى جانبى وتؤدى معى عملا ما . أفرغ الحوض من الأحشاء وصار مرئياً ، طوراً من أعلى وطوراً من أسفل وقد اختلط المسقطان . تظهر زوائد لها لون كلون اللحم (تذكرنى فى الحلم نفسه بالبواسير) . علا هذه شىء أشبه بورق الفضة المتجعد[1] كان من الضرورى التقاطه فى حذر . صرت بعد ذلك حائزاً على ساق من جديد وأخذت أشق طريقى وسط المدينة ، ولكننى (لتعبى) أركب عربة . شقت العربة طريقها — لدهشى — خلال باب منزل انفتح تاركاً العربة تمر وسط ممر انعطف عند نهايته ليؤدى إلى الهواء الطلق مرة أخرى[2] . وأخيراً أرانى أقوم برحلة وسط مناظر طبيعية متقلبة مع مرشد من مرشدى جبال الألب كان يحمل متاعى . حملنى المرشد جزءاً من الطريق مراعاة منه لساق المتعبتين . كانت الأرض موحلة . سرنا حول الحافة ، وكان هناك قوم جلسوا على الأرض مثل الهنود الحمر أو الغجر ، حول الحافة . كنت قبل ذلك أشق طريقى قدماً وسط الأرض الزلقة وقد ساورنى شعور بالدهش لما كنت أبديه فى ذلك من المهارة بعد التشريح . وصلنا أخيراً إلى منزل صغير من الخشب فى نهايته شباك مفتوح . هناك وضعنى المرشد على الأرض ثم أتى بلوحين من الخشب كانا معدين هناك من قبل وأسندهما إلى عارضة النافذة كأنه كان يقيم بذلك جسراً فوق الهاوية التى لم يكن بد من عبورها للخروج من المنزل . حينئذ شعرت فعلا بالخوف على ساق ولكننى بدل أن أعبر الهاوية — كما كان متوقعاً — رأيت رجلين راشدين وقد رقدا على دكتين من الخشب كانتا تحاذيان جدران المنزل الخشبى ، ورأيت أيضاً ما لاح لى أنه طفلان نائمان بجوارهما . كأن وسيلتنا فى عبور الهاوية لن تكون لوحى الخشب بل الطفلين . أستيقظ فى حالة من الرعب العقلى .

---

(١) ستانيول ، إشارة إلى كتاب ستانيوس عن الجهاز العصبى للأسماك (أنظر ص ٤١٤) .

(٢) هذه صورة تستحضر فناء العمارة التى كنت أقطنها ، حيث كان المستأجرون يتركون عربات أطفالهم . ولكن الصورة كانت — فيما عدا ذلك — متعددة الحتم من وجوه كثيرة .

إن من كون ولو أقل فكرة عن مدى التكثيف الذى يقع فى الأحلام يتخيل من غير عناء أى عدد من الصفحات يستغرقه تحليل هذا الحلم تحليلا كاملا . ولكنى لحسن الحظ لا أحتاج فيما نحن فيه سوى إلى أن أبحث نقطة واحدة : تلك التى تزودنا بمثال على الدهش فى الحلم كما يتبين فى كلمة « والشيء العجيب » . وأبدأ بذكر مناسبة الحلم : إنها زيارة من لويز ن . — السيدة التى وقفت إلى جانبي وأنا أؤدى عملي فى الحلم . فقد سألتنى : « أعرنى شيئاً أقرأه » فاقترحت عليها « هى » لرايدار هاجارد ، ثم انطلقت فى الشرح قائلا : « إنه كتاب عجيب ، ولكنه مليء بالمعانى الدفينة ، الأنوثة الخالدة ، أبدية مشاعرنا ... » وهنا قاطعتنى لويز ن . قائلة : « أعرفه ، أليس عندك شيء من تأليفك ؟ » — « كلا فإن كتبي الخالدة لم تظهر بعد . » — فسألتنى ساخرة بعض الشيء : « متى إذن تظهر شروحك المسماة بالنهائية والتى وعدت بأن تكون مقروءة ولو كان القارئ نحن ؟ » وهنا لاحظت أن شخصاً آخر هو الذى يتحدث بلسانها ، وسكت . أخذت أفكر فيما يكلفنى إياه من مغالبة باهظة للنفس أن أنشر على الملأ كتابى عن الأحلام حيث لا أجد محيدا عن الإفضاء بالشيء الكثير من دخيلة طبعي : « وخير ما تستطيع علمه قد لا تملك قوله للصبيان . »[(١)] وهكذا نرى أن ما يفرض علي فى الحلم من تشريح جسمي إنما يعنى تحليلي أنا الذى لا بد من اقترانه برواية أحلامى . وإن بروكه الشيخ ليجد هنا بحق موضعه المناسب ؛ فقد حدث من قبل وأنا ما أزال بالسنوات الأولى من اشتغالى بالبحث العلمي أنني اكتشفت اكتشافاً ثم تركته معطلا إلى أن حملنى بروكه على نشره حملا بأمر شديد . وأما سائر الخواطر التى أثارها حديثي مع لويز ن . فكانت أعمق غوراً من أن تصير إلى الشعور . لقد عرجت هذه الخواطر ناحية المادة التى اتفق أن أثارها فى نفسى ذكر « هى » لرايدار هاجارد . فإلى هذا الكتاب وإلى كتاب آخر لذات المؤلف « قلب العالم »[(٢)] يرجع الحكم المتمثل فى قولى : « والشيء العجيب » . ومن هاتين الروايتين الحافلتين بالخيال استقيت الكثير من عناصر الحلم : فالطريق الموحلة التى يحمل المنتقلون عليها والجسر الذى لا يجدون بدا من عبوره بألواح يحضرونها معهم — كل أولئك مأخوذ من « هى » ، فأما الهنود الحمر والفتاة والمنزل الخشبي فمن « قلب العالم » .

(١) [أنظر ص ١٦٦، فى الهامش .]
(٢) ["The heart of the World"،]

والرائد فى كلتا الروايتيين امرأة ، وكلتا الروايتين تصف تجوالا يحفل بالمخاطر ، بينما تصف « هى » طريقاً كله مغامرة يمتد إلى المجهول ، لم تكد تطؤه قدم من قبل . فأما التعب الذى بساقى فإحساس حقيقى كنت قد عانيته فى النهار — بحسب ملاحظة أجدها مدونة حين سجلت الحلم . وأكبر الظن أن هذا التعب قد كان له صداه فى مزاج من الكلل وفى سؤال موسوم بالشك: « ترى إلى متى ستحملنى قدماى بعد ذلك ؟ » وإن المغامرة المروية فى « هى » لتختتم بالمرأة الرائدة وهى تهلك فى النار المجهولة المستعرة فى جوف الأرض بدل أن تجد الخلود لنفسها ولمن معها . وما من خطأ فى أن خوفاً من هذا القبيل كان ناشطاً بين أفكار الحلم . ومن المؤكد أن المنزل الخشبى كان يعنى النعش ، إذن القبر . بيد أن الحلم قد بلغ أوج مهارته حين صور تلك الفكرة التى لا ينفر المرء من شىء قدر نفوره منها بأن حقق رغبة . ذلك أننى كنت قد رأيتنى فى الحقيقة مرة بجوف أحد القبور ، إلا أنه كان قبراً إترورريا كشف عنه بالقرب من مدينة أورفيتو ، وكان القبر حجرة ضيقة بداخلها دكتان امتدتا بحذاء الجدران وامتد عليهما هيكلا رجلين راشدين . وقد كان داخل المنزل الخشبى فى الحلم شبيهاً بهذا القبر أتم الشبه ؛ فكأنما كان الحلم يقول : « إذا لم يكن من القبر بد ، فليكن القبر الإتروورى . » ، وبهذا الاستبدال يقلب الحلم أظلم الممكنات إلى شىء أرغب فيه رغبة صادقة . غير أن الحلم لسوء الحظ — كما سنراه قريباً [ص ٤٥٩] — قد لايغير سوى الفكرة التى تصحب حالة وجدانية معنية دون أن يغير هذه الحالة ذاتها . ولهذا استيقظت فى فزع على رغم النجاح فى تصوير تلك الفكرة : أن الأبناء قد يفلحون فيما أخفق فيه آباؤهم — وهى إشارة جديدة إلى الرواية العجيبة التى نرى أحد أشخاصها يظل هو هو خلال أجيال متعاقبة بلغت العشرين قرناً .

(٨) وهناك حلم آخر من أحلامى يظهر فيه أيضاً التعبير عن الدهش لأمر وقع فى الحلم . . . ولكن الدهش قد اصطحب بمحاولة فى تعليله بلغت حدا من الغرابة والبعد — وأكاد أقول : من الألمعية — حتى أنها تكفى وحدها فى حثى على تحليل هذا الحلم كله ، بغض النظر عن اشتماله على مسألتين أخريين جديرتين بأن تجذبا اهتمامنا . ذلك أننى كنت أسافر على سكة حديد الجنوب فى الليلة من ١٨ إلى ١٩ من شهر يوليه حين سمعت

وأنا نائم ، صوتاً يصيح : « هولتورن [Hollthurn] (١) ، وقوف عشر دقائق . » فاتجه خاطرى على الفور إلى Holothurien – فإلى متحف للتاريخ الطبيعى – فإلى أن تلك هى البقعة التى ثار فيها رجال شجعان فى وجه حاكم بلدهم فشنوا على قواته المتفوقة حرباً لم يخرجوا منها بطائل – نعم . إنها الحركة المناهضة للإصلاح فى النمسا ! – كأنما كانت تلك البقعة مكاناً فى شتيريا أو التيرول . أرى بعد ذلك متحفاً صغيراً حفظت فيه بقايا هؤلاء الرجال أو متعلقاتهم ، وكانت الرؤية غير متميزة . أود لو استطعت مغادرة القطار ، ولكننى أتردد فى ذلك . على الرصيف نساء يحملن ثماراً ، إنهن يجلسن القرفصاء على الأرض وقد أمسكن بالسلال على نحو جد مشوق . إننى أتردد لأننى لست واثقاً من أنى أملك متسعاً من الوقت ، ولكن القطار يظل دون أن يتحرك . أرانى فجاءة فى مقصورة أخرى ضاقت فيها الأرائك والمقاعد حتى أن ظهر المرء كان يستند مباشرة إلى مؤخر العربة(٢) . أدهش لذلك ، ولكنى ربما كنت انتقلت من عربة إلى أخرى فى خلال حالة النوم . ههنا أناس كثيرون بينهم إنجليزيان ، أخ وأخت . على أحد الرفوف صف من الكتب يراها المرء رؤية متميزة . ألحظ بينها « ثروة الشعوب » و « المادة والحركة » (٣) (لكلارك ماكسويل) ، إنه مجلد سميك مغلف فى قماش ذى لون بنى . يسأل الرجل أخته عن كتاب لشيللر : هل نسيته ؟ كأنما كانت الكتب كتبهم طوراً ، وطوراً كتبى . أشعر هنا برغبة فى التدخل فى الحديث مؤيداً أو مؤكداً . . . أستيقظ وأنا أتصبب عرقاً ، فقد كانت كل النوافذ مغلقة . كان القطار واقفاً فى ماربورج [فى شتيريا] .

وبينما كنت أدون هذا الحلم خطرت لى نبذة جديدة منه كانت ذاكرتى قد حاولت إغفالها : قلت (باللغة الإنجليزية) للأخ والأخت وأنا أشير إلى كتاب ما : "It is from..." ثم أصحح قائلا : "It is by..." ، فيعقب الرجل على كلامى قائلا لأخته : « لقد قال ذلك دون أن يخطىء . »

إن هذا الحلم قد بدأ باسم المحطة ، ولا شك فى أن مناداة هذا الأسم كانت قد أيقظتنى إيقاظاً جزئياً ، إلا أننى غيرت الاسم فجاء هولتورن بدل ماربورج والشاهد على أننى سمعت ماربورج عندما نودى اسمها للمرة الأولى – أو ربما بعد نداء تال – هو ما

---

(١) [اسم لا يصدق على أى مكان حقيقى .]

(٢) حتى أنا لا أفهم هذا الوصف : ولكننى أتبع هنا تلك القاعدة الأساسية ، وهى أن أروى الحلم بالكلمات التى تخطر لى عند تدوينه ؛ فإن الصيغة اللفظية هى نفسها جزء من التصوير الحلمى [أنظر ص ٥٠٨ .]

(٣) ["Wealth of Nations", "Matter and Motion"]

جاء فى الحلم من ذكر شيللر الذى ولد فى ماربورج — وإن لم تكن ماربورج التى فى شتيريا[١] . وقد صحبت سفرى فى هاته الليلة ملابسات متعبة إلى آخر مدى ، مع أننى كنت أسافر فى الدرجة الأولى . ذلك أن القطار لم يكن فيه موضع لقدم ، ثم إننى وجدت فى مقصورتى سيدة وسيداً بدت عليهما كل مظاهر الغطرسة وتجردا من الأدب ، أو هما لم يتكلفا أن يخفيا عنى شعورهما بالضيق لدخولى عليهما ، فظلت تحيتى المؤدبة لا تلقى منهما ردا . ومع أن الرجل وزوجته كانا جالسين جنباً إلى جنب (وظهراهما إلى القاطرة) ، فإن المرأة سارعت إلى احتلال المقعد الذى كان يواجهها بجوار النافذة ، فوضعت عليه مظلتها . وأغلق الباب على الفور وتبودلت ملاحظات فى موضوع النوافذ وفتحها . وأكبر الظن أنهما قد أدركا على الفور أننى كنت ظامئاً إلى بعض الهواء الطلق ؛ فقد كانت ليلة حارة ، ولم يلبث الجو أن صار خانقاً فى المقصورة المغلقة إغلاقاً محكماً . وقد كانت تجاربى فى السفر علمتنى أن مثل هذا المسلك المجرد من الأدب ومراعاة ما للغير شىء مما يتميز به أولئك الذين يسافرون بالمجان أو بنصف أجر . فلما جاء جامع التذاكر وأريته تذكرتى التى كلفتنى ما كلفتنى خرجت من فم السيدة كلمات ألقتها فى نبرات متعالية كادت أن تكون متوعدة : إن زوجى يحمل ترخيصاً مجانياً . لقد كانت سيدة ذات هيئة مسيطرة وملامح غضوبة ، فى سن لا تبعد كثيراً عن تلك التى يأخذ فيها جمال المرأة فى الذبول ، فأما الرجل فما نبس بحرف وظل حيث هو لا يريم . وكان أنى تحايلت على النوم ، وهأنذا أثأر فى الحلم من رفيقى غير المستحبين ثأراً مخيفاً ؛ فما من أحد يستطيع أن يحذر أى صنوف من السباب ومن الإذلال تستقر وراء الأجزاء المتقطعة التى تكون منها الشطر الأول من الحلم . فلما اكتفت هذه الحاجة انبعثت أخرى ، هى الحاجة إلى تغيير المقصورة . ومن الأمور الشائعة أن يتغير المشهد فى الحلم دون أن يلقى ذلك اعتراضاً ما ، فإذا كنت بادرت فاستبدلت برفيقى فى السفر آخرين من ذاكرتى أكثر منهما لطفاً ، فما كان ذلك ليكون بالشىء العجيب أو الملحوظ . ولكننا نجد هنا حالة دعا فيها أحد

(١) إن البلد الذى ولد فيه شيللر لم يكن أى ماربورج ، بل مارباخ ، كما يعلمه كل تلميذ ألمانى وكما كنت أعلمه أنا أيضا وتلك إذن هفوة أخرى (أنظر ص ٢١٧ هـ ١) من الهفوات التى تتسرب لكى تعوض عن تزييف متعمد فى موضع آخر — وهى هفوة حاولت تفسيرها فى كتابى "سيكوباثولوجية الحياة اليومية " . [١٩٠١ ب ، الفصل العاشر ، المقال الأول .]

الدواعى إلى أن يلقى تغيير المشهد اعتراضاً وإلى أن يعد أمراً يتطلب تعليلا : كيف صرت فجأة فى حجرة أخرى ؟ إنى لم أكن أذكر أنى انتقلت وليس إلا تعليل واحد لا ثانى له : لا بد أنى تركت العربة وأنا نائم — إنه حادث نادر الوقوع ولكننا نرى أمثلة منه فى خبرة طبيب الأمراض العصبية ؛ فنحن نعرف أناساً سافروا بالسكة الحديدية وهم فى حالة شفقية[١] دون أن تبدر منهم بادرة تنم عن وضعهم الشاذ ، إلى أن يبلغوا حدا من رحلتهم فإذا هم راجعون إلى أنفسهم ، يدهشون للثغرة التى فى ذاكرتهم . وهكذا أعلن وأنا ما زلت فى الحلم أن حالتى من حالات « الأوتوماتية التنقيلة »[٢].

ولكن التحليل يمكننا من حل آخر . فهذه المحاولة التعليلية التى تبدو لى على هذا المبلغ من العجب لوكنت مضطرا إلى أن أعزوها إلى عمل الحلم — ليست فى الحقيقة محاولة مبتكرة من عندى ، بل هى قد نسخت من عصاب أحد مرضاى . فقد سبق أن تحدثت فى موضع آخر [ص ٢٧٦] عن شاب عالى الثقافة ، حم العطف فى حياته الواقعة ، كيف أخذ بعد موت والديه بزمن قصير يتهم نفسه بنوازع قتالة ، ثم بعد ذلك سقط فريسة للحيطة التى لم يكن يرى مفرا من التزامها حماية لنفسه من هذه النوازع . كانت حالته حالة أفكار قهرية مع قدرة على إدراك حاله ظلت غير منقوصة . ففى أول الأمر صار السير فى الطرقات عبئاً أليماً عليه ؛ إذ كان به دافع قهرى يدفعه إلى ألا يترك مارا به دون أن يسجل غدوه ورواحه ودون أن يرى أين اختفى . فإن أفلت أحدهم من عينه المتتبعة تخلف عنده شعور أليم واحتمال لا مسرح له غير فكره ، مؤداه أنه ربما كان قد أجهز على هذا الشخص . والذى يستتر وراء هذا كله كان — ضمن أشياء أخرى — [تخييلا تجوز تسميته] تخييل قايين ؛ أفليس « كل الناس إخوة » ؟ وإذ كانت مهمة المتابعة تلك شيئاً محالا ، فقد ترك المريض كل نزهة وقضى حياته حبيس جدرانه الأربعة . ولكن أخبار الجرائم المرتكبة فى الخارج كانت تنفذ والصحف إلى غرفته . وأمره ضميره فى صورة الشك بأنه قد يكون هو القاتل المطلوب . بيد أن يقينه من أنه قد لبث أسابيع دون أن يبارح منزله ظل يحميه زمناً من هذه التهمات ، إلى أن طاف بخلده يوماً احتمال أن

(١) [أى حالة يقظة لكن دون وعى كامل ، فكأن الشعور فيها كالضوء ساعة الشفق .]

(٢) ["automatisme ambulatoire"]

يكون قد ترك المنزل وهو فى حالة لاشعورية ، فاستطاع بذلك أن يرتكب الجريمة دون أن يعلم من أمرها شيئاً . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أوصد باب منزله وسلم المفتاح إلى خادمه العجوز آمرا إياها أمراً مشدداً ألا تترك أبداً هذا المفتاح يقع بين يديه ولو طلبه .

وهذا إذن هو منشأ محاولتى التعليلية حين قلت : إنى ربما كنت غيرت العربة وأنا فى حالة لا شعورية . لقد نقل هذا التعليل جاهزا من مادة أفكار الحلم إلى الحلم — ومن البين أن القصد منه هو أن يفيد فى تعيينى بشخص هذا المريض . وأما تذكرى للمريض فقد أثاره استدعاء قريب من الذهن : ذلك أن هذا الرجل عينه كان يصحبنى فى آخر مرة سافرت فيها ليلا ، قبل ذلك ببضعة أسابيع . كان قد شفى وكان يسافر معى إلى الأقاليم ليزور أقارب له ، كانوا أرسلوا فى طلبى . وكانت لنا مقصورة خاصة بنا وتركنا كل النوافذ مفتوحة طيلة الليل وقبل النوم قضينا وقتاً من أطيب ما يكون . وكنت أعلم أن الأصل فى مرضه دفعات عدائية نحو الأب ترجع إلى زمن الطفولة ولها ارتباطها بمواقف جنسية . وأنا إذن من حيث أعين نفسى به إنما أنشد الاعتراف بشىء مماثل . والحق أن المشهد الثانى فى الحلم قد انتهى بتخييل مغرب بعض الإغراب حاصله أن رفيقىّ المسنين فى السفر قد سلكاً نحوى ذلك المسلك النافر لأن مقدمى قد أفسد عليهما ما كانا يزمعانه من تبادل الود فى ليلهما . بيد أن هذا التخييل يرجع بدوره إلى مشهد من مشاهد الطفولة المبكرة ، حين يزج الطفل بنفسه — مدفوعاً فى أكبر الظن بتطلعه الجنسى — إلى حجرة نوم والديه ثم يخرج منها بأمر من الوالد لا مرد له .

لا طائل — على ما أعتقد — فى حشد أمثلة أخرى . فهى إنما تذهب جميعاً إلى تأييد ما تحصل من الأمثلة السابقة : أن فعل الحكم فى الحلم ليس إلا ترديداً لنموذج موجود فى أفكار الحلم ترديدا يتسم فى معظم الأحيان بسوء التصرف ويجىء وسط محيط غير مناسب ، ولكنه قد يساق أحياناً — كما فى مثالنا الأخير — سوقاً ماهراً حتى يخيل إلينا للوهلة الأولى أن ثمت نشاطاً عقلياً مستقلا يتم فى الحلم . وانا وقد بلغنا هذا الموضع أن ندير انتباهنا إلى هذه القوة النفسية التى تبدو ولا شك بعيدة عن أن تشارك دائماً فى تكوين الأحلام ، إلا أنها حين تفعل توجه همها إلى إدماج عناصر الحلم المتفرقة الأصول فى كل خال من التناقض ، ذى معنى . ولكننا — قبل أن نطرق هذا الموضوع نشعر

بحاجة ملحة إلى أن ننظر أولا فيماورد فى الأحلام من التعبيرات الوجدانية ، وإلى أن نقارن بينها وبين الحالات الوجدانية التى يكشف عنها التحليل فى أفكار الحلم .

ج

الحالات الوجدانية فى الحلم

لقد نبهتنا ملاحظة حصيفة لاحظها شتريكر إلى أن التعبيرات الوجدانية فى الحلم لا يمكن أن تقابل بهذا النوع من الاستخفاف الذى اعتدنا أن نعرف به محتوى الحلم : « حين يخاف المرء فى الحلم غائلة اللصوص ، فاللصوص يقيناً من صنع خياله ، لكن الخوف حقيقى » . والأمر كذلك إذا أحسسنا فى الحلم مرحا . فشعورنا يحدثنا بأن الحالة الوجدانية التى يخبرها المرء فى الحلم لا تقل بأى وجه من الوجوه عن حالة نخبرها فى اليقظة معادلة فى الشدة ، وإن حق الحلم فى أن يدرج ضمن خبراتنا النفسية الحقيقية لأقوى بمحتواه الوجدانى منه بمحتواه الفكرى . غير أننا نعجز فى اليقظة عن هذا الإدراج ؛ لأننا لا نستطيع أن نزن القيمة النفسية لإحدى الحالات الوجدانية إلا مرتبطة بمحتوى فكرى ما ، فإن انعدم التناسب بين الحالة الوجدانية والفكرة من حيث النوع والشدة وقف حكمنا المستيقظ ولم يحر جواباً .

وإن من سمات الأحلام لسمة حدت إلى العجب منها فى كل وقت ، تلك هى : أن محتواها الفكرى لا يحمل معه الأثر الوجدانى الذى ما كنا فى فكرنا المستيقظ إلا لنتوقعه كما نتوقع أمراً ضرورياً ، حتى أعلن شترومبل أن الأفكار تجرد فى الحلم من قيمها النفسية . غير أن الأحلام لا تعوزها أمثلة على الضد ، أمثلة يخطر فيها تعبير وجدانى شديد مقترناً بمحتوى لا يبدو فيه أقل مبرر يبرر انطلاق مثل هذا الوجدان : فقد أرانى فى الحلم فى موقف بشع ، خطر ، باعث على الاشمئزاز ، ولا أحس خوفاً أو نفوراً ، وعلى العكس : قد أروع أحياناً وليس ما يروع ، أو أفيض حبوراً وما يحبرنى سوى موضوع طفلى .

هذا اللغز هو — فى الغالب — أسرع ألغاز الحلم إلى الاختفاء وأتمها تبدداً حين ننتقل من محتوى الحلم الظاهر إلى محتواه الكامن . ولن تكون بنا حاجة إلى أن نشغل بفضه ؛ فقد فض من قبل . فالتحليل يعلمنا أن المحتوى الفكرى قد مسه الشىء الكثير من النقل والتبديل ، على حين ظلت الحالات الوجدانية من غير تحريف ، ولا غرو بعد ذلك إذا فقد المحتوى الفكرى المغير بفعل التشويه الحلمى كل تناسب يقرب بينه وبين الحالة الوجدانية المحفوظة كما هى ، ولا نحن نجد مدعاة للعجب حين يعيد التحليل المحتوى الصحيح إلى نصابه .(١)

وحين يخضع مركب نفسى لتأثير الرقابة التى تفرضها المقاومة فالحالات الوجدانية هى أقل مقوماته تأثراً ، وهى وحدها التى تهدينا الطريق إلى التكملة الصحيحة . وإن هذا الوضع لأظهر فى الأعصبة منه فى الأحلام . فالحالة الوجدانية فى العصاب لها دائماً سببها الذى يبررها ، من حيث الكف على الأقل — وإن جاز بالطبع أن تكون قد زادت شدة لما يصيب الانتباه العصابى من النقلات . فإذا كان الهسترى يعجب لكل هذا الخوف يركبه تجاه تفاهة من التفاهات ، أو إذا استعجب رجل يعانى أفكاراً قهرية لما يوجهه إلى نفسه من هذا اللوم المنبعث من لا شىء ، فكلاهما ضال عن سبيل الفهم من حيث يتوهم أن المحتوى الفكرى — أن تلك التفاهة أو ذلك « اللاشىء » — هو الشىء الجوهرى ، وإنه ليدافعن عن نفسه بغير طائل من حيث يتخذ من هذا المحتوى نقطة البدء فى تفكيره . ولكن التحليل النفسى يريهما بعد ذلك الطريق الصحيح إذ يسلم — على العكس — بأن للحالة الوجدانية ما يبررها ، ثم يبحث عن الفكرة المتصلة بها والتى

---

(١) إذا لم أكن أخطأت كثيراً ، فأول حلم استطعت أن أستشفه عند حفيدى الأكبر البالغ من العمر عشرين شهراً يدل على أن الحلم قد نجح فى تحويل مادة أفكار الحلم إلى رغبة محققة ، على حين بقيت الحالة الوجدانية المرتبطة بها دون أن تتغير أثناء حالة النوم . فهو فى الليلة التى سبقت رحيل والده إلى الجبهة قد استيقظ وهو ينشج نشيجا حارا : " بابا ، بابا — بيبى ". والترجمة الوحيدة لذلك هى : « بابا وبيبى باقيان معا » ، بينما البكاء تسليم بالرحيل المرتقب . ولقد كان الطفل فى ذلك الوقت قادرا تمام القدرة على الإعراب عن فكرة الفراق ؛ إذ كان بين أوائل ما نطق به هذا الطفل كلمة "Fort" [" بعيدا "] (وكان الطفل يفخم حرف o تفخيما خاصا ويمطه مطا طويلا : o — o — o) ، ثم هو — قبل هذا الحلم الأول بشهور — كان يطوح بكل ما يقع تحت يديه من لعبه وهو يصيح : " بعيدا " — وهى لعبة كانت ترجع إلى نجاح مبكر فى السيطرة على النفس وغزوها بترك الأم تذهب بعيدا . [أنظر ما ورد عن ذلك فى " ما وراء مبدأ اللذة " (فرويد ١٩٢٠ ز) .]

نالها الكبت وحل محلها بديل . وكل هذا يتضمن مسلمة ، هى أن الاستجابة الوجدانية والمحتوى الفكرى لا يكونان تلك الوحدة العضوية التى لا تنفصم عراها ، بل قد يكون كل من هذين الجزأين ملفوقاً بالآخر بحيث يمكن الفصل بينهما بالتحليل . وتفسير الأحلام يرينا أن الأمر كذلك فى الحقيقة .

وأبدأ بمثال يفسر لنا فيه التحليل ما ظهر من تخلف الحالة الوجدانية دون المحتوى الفكرى ، مع أن هذا المحتوى كان يستلزم انطلاقها .

(١)

ترى فى صحراء ثلاثة أسود يضحك أحدها ولكنها لم تكن خائفة منها . لاشك فى أنها قد ولت فراراً منها بعد ذلك لأنها كانت تحاول أن تتسلق شجرة ، غير أنها وجدت أن إحدى قريباتها — وهى مدرسة للغة الفرنسية — قد سبقتها إلى هناك .

لقد جاء التحليل بالمادة الآتية : إن مناسبة الحلم التافهة جملة وردت فى موضوع الإنشاء الإنجليزى : العرف زينة الأسد . إن والدها كان يحمل لحية تحف بوجهه مثل العرف . وكانت مدرستها للغة الإنجليزية تسمى الآنسة Lyons (Lions = أسود) وكانت إحدى معارفها قد أرسلت إليها أشعاراً من نظم Lœwe [وهو « الأسد » فى الألمانية] . تلك إذن أسودها الثلاثة ؛ فلم الخوف منها ؟ — إنها قد قرأت قصة تروى كيف حث زنجى رفاقه على الثورة فطورد وأرسلت فى أثره كلاب الصيد فتسلق شجرة لكى ينقذ نفسه . تعقب ذلك ذكريات شتى ترويها الحالمة فى مرح شديد ، مثل تلك النصحية فى صيد الأسد — عن مجلة « الصحائف الطائرة » — : ضع صحراء على المصفاة ، ينساب الرمل وتبقى الأسود . ثم قصة جمة الطرافة وإن لم تكن بالنظيفة كل النظافة عن موظف سؤل لم لا يتكلف بعض العناء ليظفر بحظوة رئيسه الأعلى ، فأجاب بأنه قد حاول بالفعل أن يشق طريقه من الباب الخلفى ولكن الموظف المتقدم عليه كان قد سبقه إلى هناك . وتغدو كل هذه المادة شيئاً مفهوماً حين يتبين أن السيدة كانت فى اليوم الذى سبق الحلم قد تلقت زيارة من رئيس زوجها فى العمل . وكان الرجل جم الأدب وقبل يدها ولم تشعر هى بأقل خوف منه مع أنه كان « وحشاً كبيراً » وكان « مستأسداً » فى

مجتمع عاصمة البلد الذى أتت منه . وعلى ذلك فهذا الأسد أشبه بالأسد الذى فى « حلم ليلة من منتصف الصيف » والذى افتضح أمره فلم يكن يخفى ورائه سوى سْنَج النجار [1] ، والأمر كذلك فى كل أسود الحلم التى لا يستشعر منها المرء رهبة .

(٢)

وأسوق كمثال ثان حلم الفتاة التى رأت الابن الأصغر لأختها ميتاً فى نعشه [ص ١٥٥ وص ٢٦٥] ولكنها — كما تسعى الآن إضافته — لم تستشعر لذلك ألما ولا حزناً . إننا نعلم من التحليل لم كان ذلك كذلك : فالحلم إنما كان يخفى رغبتها فى أن ترى الرجل الذى أحبته مرة أخرى ولم يكن بد من أن تجىء حالتها الوجدانية مجانسة لرغبتها تلك وليس لما تقنعت به هذه الرغبة . وعلى ذلك لم تكن ثمت مدعاة إلى الحزن .

وهناك أحلام تظل فيها الحالة الوجدانية مرتبطة على الأقل بالمحتوى الفكرى الذى حل محل ذلك الذى كانت تلك الحالة مقترنة به فى الأصل . ولكن هناك أحلاماً أخرى يذهب فيها تفكيك المركب [الفكرى الوجدانى] إلى أبعد من ذلك ؛ فتظهر الحالة الوجدانية منفصلة كل الانفصال من الفكرة المتصلة بها وتدرج فى موضع آخر حيث تتسق والترتيب الجديد لعناصر الحلم . والموقف حينئذ أشبه بما قد رأيناه فى حالة أفعال الحكم فى الأحلام [ص٤٤٤] : إذا تضمنت أفكار الحلم نتيجة هامة اشتمل الحلم كذلك على نتيجة ، ولكن النتيجة التى فى الحلم قد تنقل فتجىء فى صدد مادة متخلفة كل الاختلاف . ولا يندر أن يتم هذا النقل وفقاً لمبدأ التضاد .

هذه الإمكانية الأخيرة تتمثل فى الحلم التالى الذى أخضعته لتحليل بلغ غاية الاستيفاء :

---

(١) [سنج النجار أحد أصحاب الحرف الممثلين الذين اجتمعوا لكى يمثلوا رواية ما احتفالا بعرس دوق أثينا ، فى مسرحية " حلم ليلة من منتصف الصيف " لشكسبير . وقد وكل إلى سنج أن يمثل الأسد ، ولم يكن أحد يبعد عن الأسد بعد سنج هذا وبعد الأسد الذى لعبه .]

(٣)

حصن على شاطىء البحر ، ثم لا يعود الحصن على شاطىء البحر مباشرة بل على قناة ضيقة مؤدية إلى البحر . الحاكم رجل يدعى السيد ب . كنت واقفاً معه فى قاعة استقبال كبيرة ذات ثلاث نوافذ تواجهها شرفات مقفلة تشبه مكامن إطلاق النار فى الحصون . كنت ملحقاً بالحامية على أننى ضابط بحرى متطوع أو شىء من هذا القبيل . إننا نخشى وصول سفن الأعداء ؛ فقد كنا فى حالة حرب . السيد ب . ينتوى الرحيل ويعطينى تعليمات فيما يجب عمله إذا وقع ما نخشاه . كانت زوجه المريضة فى الحصن المهدد مع أطفالها . إذا بدأ ضرب القنابل فالواجب إخلاء القاعة الكبيرة على الفور . إنه يتنفس تنفساً ثقيلا ويستدير لينصرف . أمسك به وأسأله : كيف أتصل به عند الضرورة ؟ يقول شيئاً ما على سبيل الجواب ولكنه لا يلبث أن يسقط ميتاً على الفور . لا شك فى أننى قد حملته بأسئلتى ما لا يطيق . أسائل نفسى بعد موته — موتاً لا يترك فى نفسى أى أثر آخر — هل كان ينبغى أن تبقى أرملته بالحصن وهلا ينبغى أن أنقل نبأ موته إلى القيادة العليا وأن أتولى قيادة الحصن بعده باعتبارى تاليه فى المرتبة . كنت واقفاً بالنافذة أراقب السفن وهى تمر . كانت سفناً تجارية تندفع بسرعة عبر الماء الداكن وكان لبعضها مداخن كبيرة ولبعضها الآخر أسطح محدبة (تشبه كل الشبه مبانى المحطة فى الحلم التمهيدى — غير المذكور) . بعد ذلك يقف أخى بجانبى وينظر كلانا من النافذة إلى القناة . نرتاع لمرأى إحدى السفن ونصيح : ها هى ذى السفينة الحربية ! ولكن يتضح أنه لم يكن هناك سوى السفن التى أعرفها من قبل فى طريقها إلى العودة . تقبل الآن سفينة صغيرة انفطرت عند الوسط فلم يبق سوى نصفها على نحو يثير الضحك ، نرى على سطحها أشياء غريبة تشبه الفناجين أو العلب فى شكلها . نصيح فى صوت واحد : تلك سفينة الإفطار .

إن حركة السفن المسرعة مع لون المياه الأزرق الداكن والدخان الأسمر المتصاعد من المداخن — كل أولئك قد ائتلف ليحدث فى النفس شعوراً شديد التوتر ، قاتماً .

ولقد نقلت الأماكن التى ظهرت فى الحلم عن رحلات متعددة قمت بها فى البحر الأدرياتى (إلى ميرامار — ودونيو والبندقية وآكيليا) . وكانت لا تزال حية فى ذاكرتى رحلة ممتعة قمت بها مع أخى إلى آكيليا ، قبل الحلم ببضعة أسابيع . ويحتوى الحلم كذلك على إشارات إلى الحرب البحرية بين أمريكا وأسبانيا وإلى ما أثارته إذ ذاك من القلق على مصير بعض أقاربى ممن يقيمون فى أمريكا . وقد ورد ذكر الحالات الوجدانية فى موضعين من هذا الحلم : فى موضع تغيب حالة وجدانية متوقعة ، إذ نص صراحة على

أن موت الحاكم لم يترك أثراً فى نفسى ، كما أننى فى موضع آخر – حين أقبلت السفينة الحربية – قد ارتعت لمرآها وشعرت بكل أحاسيس الفزع فى نومى . ووزعت الحالات الوجدانية فى هذا الحلم الحسن التركيب توزيعاً كان من شأنه أن اجتنب كل تناقض يلفت النظر ؛ فلم يكن ثمت سبب يدعونى إلى الفزع من موت الحاكم وكان من المعقول كل المعقولية – وأنا قائد الحصن – أن أفزع لمرأى السفينة الحربية . بيد أن تحليل الحلم يبين أن السيد ب . لم يكن إلا بديلا منى (فى الحلم كنت بديله) ؛ فأنا الحاكم الذى سقط ميتا ، وأفكار الحلم تدور حول مصير أسرتى إذا مت قبل الأوان . تلك كانت بين أفكار الحلم الفكرة الوحيدة الأليمة ، ولا بد أن الفزع قد فصل منها ثم وصل فى الحلم بمرأى السفينة الحربية . ويبين التحليل من جهة أخرى – أن منطقة أفكار الحلم التى استقيت منها السفينة الحربية كانت تحفل على العكس بأشد الذكريات مرحا : كان ذلك منذ عام مضى فى البندقية ، وكنا فى صبيحة يوم ساحر جميل ، وقوفاً إلى نوافذ حجرتنا المطلة على الريڤا سكياڤونى ننظر عبر البحيرة الزرقاء حيث كانت الحركة فى ذلك اليوم أكثر منها فى كل يوم ؛ فقد كان القوم يتوقعون مقدم بعض السفن الإنجليزية ويتهيأون للاحتفال بها . ثم إذا زوجتى تهتف مرحة كالطفل : « ها هى ذى السفينة الحربية الإنجليزية ! » وإنى أفزع فى الحلم لهذه الكلمات بالذات (وهو مثال آخر على أن أقوال الحلم إنما تستقى من أقوال قيلت فى الحياة [أنظر ص٤١٩] ، كما أنى لن ألبث دون أن أبين أن العنصر « إنجليزى » لم يفلت هو الآخر من فعل عمل الحلم) . وأنا إذن فى عملية تصيير أفكار الحلم إلى محتوى الحلم الظاهر قد قلبت المرح هنا إلى خوف ، ولست أحتاج إلى غير الإلماع إلى أن هذا القلب نفسه كان يعرب عن جزء من محتوى الحلم الكامن . وأيا كان الأمر ، فهذا المثال دليل على أن عمل الحلم حر فى أن يفصل الحالة الوجدانية من روابطها بأفكار الحلم وفى أن يدرجها بأى موضع يشاء من محتوى الحلم الظاهر .

وأنتهز هذه الفرصة لكى أسوق تحليلا مفصلا بعض التفصيل لـ « سفينة الإفطار » التى ظهرت فى الحلم فكان ظهورها خاتمة لا معنى لها لموقف ظل يدار حتى ذلك الحين فى مستوى معقول . إننى حين أستحضر سفينة الحلم استحضارا أدق يفجأنى منها أنها كانت سوداء اللون وأنها – نتيجة لكونها قد فطرت فى منتصفها حيث أوسع عرضها – كانت

جمة الشبه — عند هذا الطرف — بطائفة من أشياء جذبت انتباهنا فى متاحف المدن الإترورية : تلك كانت صينيات من الخزف الأسود ذات مقبضين ، وضعت عليها أشياء تشبه فناجيل القهوة أو الشاى ولا تخلو من كل شبه بأوانى الأفطار فى مدنيتنا الحديثة . فلما استفسرنا علمنا أن تلك كانت عدد « التواليت » لسيدة إترورية بما تحويه من أوعية للدهون والمساحيق ، فقلنا مازحين : إنها تكون فكرة طيبة لو أنا حملنا معنا أحدها لربة المنزل . وعلى ذلك فالسفينة التى تظهر فى الحلم كانت تعنى « تواليت أسود » ، أى ثوب حداد ، وكانت تشير بإشارة مباشرة إلى الموت . وأما الطرف الآخر لسفينة الحلم فيذكرنى بالقوارب الجنائزية[1] التى كانت توضع عليها أجسام الموتى ويترك للبحر دفنها . وهذا يؤدى إلى عودة السفينة فى الحلم :

« وفى سكون يحمل الماء الشيخ إلى المرسى ، سالماً على قاربه . »[2]

إنها عودة من سفينة غارقة ["Schiffbruch" وبالحرف : سفينة مكسورة] ، ولقد كانت سفينة الإفطار مكسورة فى منتصفها . ولكن ما منشأ ذلك الاسم : سفينة « الإفطار » ؟ ههنا قد استغل لفظ « الإنجليزية » الذى تركناه عند الحديث عن السفن الحربية . ذلك أن الكلمة الإنجليزية الدالة على « الإفطار » ("breakfast") تعنى « كسر الصيام » ، وإن الكسر ليرجع من جديد إلى السفينة الغارقة [وبالحرف : المكسورة] ، بينما يتصل الصيام بالرداء [التواليت] الأسود .

غير أن الحلم لم يبتدع جديداً سوى اسم مركب الإفطار ، فأما الشىء نفسه فقد وجد ، وإنه ليذكرنى بجزء من أمتع أجزاء رحلتى الأخيرة . فقد ساورنا الشك فى جودة الطعام الذى قد يقدم لنا فى آكيليا ، فأحضرنا معنا زاداً من جوريزيا واشترينا فى آكيليا زجاجة من نبيذ إيستريا الممتاز . وبينما كانت باخرة البريد الصغيرة تشق طريقها وئيدة فى قناة دل مى عبر البحيرة المهجورة إلى جرادو كنا نحن ، الراكبان الوحيدان ، نتناول طعام الإفطار على السطح ونحن أشد ما نكون حبورا ، وكان إفطارا ندر أن ذقنا مثله من قبل . تلك إذن « سفينة الإفطار » ، ووراء هذه الذكرى من ذكريات الاستمتاع

---

(١) إن كلمة "Nachen" (القوارب الجنائزية) قد اشتقت — على ما علمت من صديق فيلولوجى — من الأصل اليونانى nekus (جثة) .

(٢) [Schiller, Nachtrage zu den Xenien]

بالحياة فى أهنأ صورة — وراءها دون غيرها — يخفى الحلم أظلم الأفكار عن غيب مجهول مفارق للمألوف .

إن فصل الحالات الوجدانية المتولدة من أفكار الحلم هو أعجب ما يقع لها فى أثناء تكوين الحلم ، ولكنه ليس بالشيء الوحيد الذى يقع لها ، ولا هو أهم ما يعتورها من التغيير فى طريقها من أفكار الحلم إلى الحلم الظاهر . فلو أننا قارنا الحالات الوجدانية التى تصحب أفكار الحلم وبين تلك الظاهرة فيه ، لاتضح أمر على الفور : كلما عرضت فى الحلم حالة وجدانية وجدت هذه الحالة فى أفكار الحلم ، ولكن العكس غير صحيح . فالحلم بوجه عام أفقر وجداناً من المادة النفسية التى نجم الحلم عن معالجتها ، فأنا فى العادة إذ أركب أفكار الحلم من جديد أرى بينها أشد الدوافع النفسية وهى تجهد لكى تبلغ الحس وأراها فى معظم الأحايين وهى تصارع دوافع غيرها تخالفها مخالفة بينة . فإن رجعت بعد ذلك إلى الحلم ، لم يندر أن أجده حائل اللون ، خالياً من كل نغمة انفعالية ذات شدة يعتد بها . فعمل الحلم لا يهبط إلى مرتبة التساوى بمحتوى أفكارى وحده ، بل إن نغمتها الانفعالية تلقى كذلك ذات المصير فى كثير من الأحيان . ولقد يصح القول بأن عمل الحلم يجلب معه قمعاً للحالات الوجدانية . دعنا نأخذ — مثلا — حلم البحث النباتى : إن الأفكار التى كان يعرب عنها هذا الحلم كانت تقوم فى دفاع حار مهتاج عن حريتى فى أن أسلك كيفما أختار وفى أن أوجه حياتى على النحو الذى يبدو لى — ولى وحدى — صواباً ، ولكن خرج من ذلك حلم سيماه التساوى : كتبت مبحثاً ، المبحث أمامى ، إنه يشتمل على لوحات ملونة ، أرفقت بكل نسخة نباتات مجففة . لنى ذلك ما يذكر بالسلام الذى يخيم فوق ساحة قتال انتثرت الجثث فى رحابها ؛ فكل أثر ينم عن الصراع الذى دارت رحاه فوق أرضها قد انمحى .

غير أن الأمور قد تختلف : قد تنفذ إلى الحلم نفسه تعبيرات وجدانية مشتدة . سوى أننى أقف فى الوقت الحاضر عند تلك الحقيقة التى لا منازعة فيها : أن عدداً كبيراً من الأحلام يبدو متساوياً ، على حين يستحيل أن يلج المرء أفكار الحلم دون أن يتولاه انفعال عميق .

وليس هنا مقام الإتيان بالتعليل النظرى الكامل لما يقع فى خلال عمل الحلم من هذا القمع للحالات الوجدانية ؛ فذلك ما يستلزم التمهيد له ببحث من أشق ما يكون فى نظرية الحالات الوجدانية وفى ميكانيكيه الكبت [أنظر ص٥٨٨ وما بعدها] ، وإنما أريد الإدلاء

هنا بفكرتين : إننى مضطر — لأسباب أخرى — إلى أن أتصور انطلاق الحالات الوجدانية فى صورة عملية نازحة عن المركز متجهة إلى داخل الجسم مثل عمليات التعصيب[1] الحركى والغددى. وكما أن إرسال الدفعات الحركية إلى العالم الخارجى يبدو معطلا فى أثناء حالة النوم ، فإن إثارة الحالات الوجدانية بوساطة التفكير اللاشعورى قد تزيد كذلك صعوبة فى خلال النوم . وفى هذه الحالات تكون الخلجات الوجدانية التى تخطر فى ثنايا أفكار الحلم ضعيفة فى ذاتها وبذاتها ، ومن ثم لا يكون ما ينفذ منها إلى الحلم بأقل ضعفاً . ويلزم من هذه النظرة أن " قمع الحالات الواجدانية " ليس نتيجة لعمل الحلم على الإطلاق ، بل ينجم عن حالة النوم . وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه لا يمكن أن يكون كل الحقيقة . فلا بد أن نذكر أن كل حلم — مهما قل حظه من التعقيد — يتبين فى النهاية أنه وليد تصالح بين قوى نفسية متعارضة . فالأفكار التى تبنى بها الرغبة لا تجد مفرا من مكافحة المعارضه المنبعثة من العامل القائم بالرقابة — هذا من جهة . ثم نحن — من جهة أخرى — قد رأينا فى أحيان كثيرة أن التفكير اللاشعورى لا يحوى فكرة إلا كانت مشدودة إلى ضدها الذى ينقضها . وإذ كانت هذه الأفكار جميعاً قادرة على إثارة الحالات الوجدانية فنحن ولا ريب بمأمن من مجانبة الصواب حين نقدر أن قمع الحالات الوجدانية هو نتيجة للكف الذى تعمله هذه الأضداد بعضها فى بعض وتعمله الرقابة فى النوازع المقموعة بوساطتها . وعلى ذلك يكون كف الحالات الوجدانية هو النتيجة الثانية لرقابة الحلم كما كان التشويه الحلمى نتيجتها الأولى .

وأسرد هنا مثالا من حلم يسعنا فيه أن نعلل ما يطبع محتوى الحلم من تساوى النغمة الانفعالية بما بين أفكار الحلم من التضاد . إنه حلم قصير يملأ كل قارئ اشمئزازا .

(٤)

تل علاه شيء أشبه بمرحاض فى الهواء الطلق : مقعد طويل جداً فى نهايته ثقب كبير ، غطيت حافته الخلفية بغطاء سميك من أكوام صغيرة من الغائط ، من جميع الأحجام ودرجات الطزاجة . وراء المقعد شجيرات .

---

(١) [فى بيان استخدام فرويد لهذه الكلمة انظر الهامش الذى فى ص ٥٢٩ .]

أتبول على المقعد ، يغسل مسيل طويل من البول كل شىء ، فأكوام الغائط تنزاح فى يسر وتسقط فى الفتحة . كأنما ظل بعضها متبقياً فى النهاية .

لم انتفى عندى كل شعور بالاشمئزاز فى خلال هذا الحلم ؟

لأن هذا الحلم — كما يبينه التحليل — قد اشتركت فى تكوينه أشد الأفكار مجلبة للسرور وأكثرها بعثاً على الرضى . فما يخطر لى على الفور عند تحليل هذا الحلم هو حظائر أوجياس [1] التى نظفها هرقل . وهرقل هذا كان إياى . فأما التل والشجيرات فتأتى من آوسى حيث كان يقيم أطفالى فى ذلك الوقت . وإنى قد اكتشفت أن للعصاب عللا ترجع إلى الطفولة وبذلك جنبت أطفالى المرض . وأما المقعد فكان (إذا استثنينا الثقب بالطبع) صورة طبق الأصل من قطعة من الأثاث أهدتها إلى مريضة عارفة للجميل ، وهو — إذن — يذكرنى بمدى التكريم الذى ألقاه من مرضاى . لا ، بل إن متحف البراز الإنسانى نفسه ليجد تفسيراً من شأنه أن يثير سرورى ؛ فإنه — مهما بلغ اشمئزازى منه فى الحياة الواقعة — كان فى الحلم أثراً ذكروياً من أرض إيطاليا الجميلة حيث تهيأ المراحيض فى المدن الصغيرة — كما نعلم جميعاً — على هذا النحو عينه . وأما سيل البول الذى يغسل كل شىء فعلامة لا تخطئ على العظمة . فهكذا أطفأ جاليفر الحريق الكبير الذى شب فى ليليپت — وإن يكن هذا العمل قد جر عليه يقيناً غضب الملكة الرقيقة . ولكن جارجنتوا — رجل رابليه الفائق — قد أخذ هو الآخر بثأره من أهل باريس بأن امتطى متن كنيسة نوتردام وصب سيل بوله على المدينة[2] ولقد اتفق يوم أمس على التحقيق أننى — قبل التوجه إلى الفراش — تصفحت رسوم جارنييه لكتاب رابليه . ومن العجب أن ههنا شاهداً جديداً على أننى الإنسان الفائق : فرصيف نوتردام كان كنفى المفضل فى باريس ، كلما فرغت فى عصر يوم جلت هنا وهناك على أبراج الكنيسة بين المسوخ والشياطين . فأما اختفاء كل الغائط بتلك السرعة تحت سيل البول فيذكر بشعار " نفخ فتبعثروا " الذى كنت انتويت أن أتخذه عنواناً لفصل فى علاج الهستريا . [أنظر ص ٢٣٤ .]

وعلينا الآن بالمناسبة الحافزة على الحلم . كان ذلك فى عصر يوم قائظ من أيام

(١) [ملك أغرقت الأساطير فى وصف ثروته حتى قيل : إن البراز المتراكم فى حظائره قد بلغ عنان السماء لكثرة مواشيه . ولم يستطيع تنظيفها إلا هرقل .]

(٢) [أنظر الهامش ٤ فى ص ٢٣٥ .]

الصيف ، وكنت – بعد الظهر – قد ألقيت محاضرتى فى الصلة بين الهستريا والانحرافات الجنسية . وكان كل ما قلته يبعث الاستياء فى نفسى ويبدو لى مجرداً من القيمة كل التجرد . كنت متعباً لا أستشعر أثراً من السرور بعملى المضنى ، تواقاً إلى البعد عن هذا التنبيش فى القاذورات الإنسانية إلى حيث يقيم أبنائى ثم – بعد ذلك – إلى روائع إيطاليا . وفى هذا المزاج مضيت من قاعة المحاضرة إلى أحد المقاهى حيث تناولت لقمة متواضعة ؛ فلم تكن بى شهية إلى الطعام . بيد أن واحداً من مستمعى جاء معى ورجا منى أن أدعه يجلس إلى جانبى ريثما أحتسى قهوتى وأتبلغ كسرتى ، ثم أخذ يتملقنى : كم من أشياء تعلمها منى ، وكيف أصبح ينظر إلى الأشياء بعين جديدة ، كيف نظفت حظائر أوجياس من الأخطاء ومن الآراء السابقة بنظريتى عن الأعصبة ، وبالاختصار قال قال لى : إننى رجل عظيم جداً . ولم أكن فى مزاج يتفق وهذا التقريظ ، فغالبت شعورى بالاشمئزاز ثم ذهبت إلى المنزل مبكراً لكى أفلت منه . وكان أن تصفحت رابليه قبل الذهاب إلى الفراش وقرأت قصة قصيرة من قصص ك . ن . ماير بعنوان " أحزان صبى " .

تلك هى المادة التى خرج منها الحلم . أضف أن قصة ماير القصيرة قد أثارت فى نفسى ذكريات عن مشاهد من الطفولة (أنظر الجزء الأخير من حلم الكونت تون [ص٢٣٥]) . ولقد استمر فى الحلم مزاج النفور والاشمئزاز الذى عرفته فى خلال النهار ، حتى أنه زود الحلم بكل مادة محتواه الظاهر تقريباً . سوى أن مزاجاً مضاداً من توكيد الذات توكيداً قوياً بل مغالياً قد استيقظ فى أثناء الليل ونحى الأول دون أن يبطله . ولم يكن لمحتوى الحلم بد من أن يجد صورة تمكنه من الإعراب عن هجاس الشعور بالضآلة وعن جنون العظمة فى آن واحد . وكان من نتيجة هذا التلاقى محتوى حلمى طابعه الاشتراك ، ولكن نجمت كذلك نغمة انفعالية متساوية نتيجة للكف المتبادل بين الأضداد .

ولو أخذنا بنظرية تحقيق الرغبة لزم أن هذا الحلم ما كان يتيسر لولا أن الأفكار المضادة الصادرة عن جنون العظمة (وهى أفكار كانت تقع تحت وطأة القمع من غير شك سوى أنها كانت ذات طابع لاذ) قد انبعثت إلى جانب الشعور بالاشمئزاز . فما هو أليم يجب ألا يصور فى الحلم ، وكل ما يؤلم من أفكارنا الحلمية لا ينفذ إلى الحلم إلا إذا هو أسلم فى الوقت نفسه قناعاً يتقنع به تحقيق رغبة ما .

وهناك بعد ذلك طريقة أخرى يستطيع بها عمل الحلم معالجة الحالات الوجدانية المتضمنة بين أفكار الحلم – إلى جانب تركها تشق طريقها أو سلبها كل حِدّة، تلك هى : قلبها إلى ضدها .

فقد عرفنا من قبل [ص٣٤٩] تلك القاعدة التفسيرية : أن كل عنصر – من حيث تفسيره – قد يعرب عن ضده كما يعرب عن نفسه . ولسنا نستطيع أن نعلم مقدماً بأى الطرفين نأخذ ، وإنما الفصل للسياق ، ومن الواضح أن الشعور الشعبى قد أحس هذه الحقيقة ؛ فكتب الأحلام تنهج فى تفاسيرها وفق مبدأ الأضداد فى كثير من الأحايين . والذى يجعل هذا القلب إلى الضد شيئاً ممكناً هو هذه الرابطة الاستدعائية الباطنة التى تربط فى فكرتنا بين فكرتنا عن شىء وبين ضدها . وهذا القلب – شأنه شأن أى نوع آخر من أنواع النقل – قد يخدم أغراض الرقابة ، ولكنه قد يكون أيضاً – فى أحيان كثيرة – وليد تحقيق الرغبة ؛ فما تحقيق الرغبة إلا أن تستبدل بشىء مستكره ضده . وإذا كانت أفكارنا المعربة عن الأشياء قد تظهر فى الحلم مقلوبة إلى ضدها ، فكذلك الحالات الوجدانية المرتبطة بأفكار الحلم ، والراجح – فيما يبدو – هو أن هذا القلب للحالة الوجدانية يجىء نتيجة لرقابة الحلم ، أو تلك هى القاعدة . ونحن فى الحياة الاجتماعية – تلك الحياة التى تزودنا بتشبيهنا المألوف لرقابة الحلم – نلجأ كذلك إلى قمع حالاتنا الوجدانية كما نلجأ إلى قلبها ، مستهدفين فى ذلك الاستخفاء أولا . فإذا كنت أحدث شخصاً تحملنى الضرورة على مداراته بينما رغبتى هى أن أرميه بكلمة عداء ، فإن إخفاء كل تعبير عن حالتى الوجدانية أمر يكاد يفوق فى أهميته وفى لزومه تخفيف العبارة اللغوية عن أفكارى ؛ فإنى إذا خاطبته بكلمات لا تجانب الأدب ولكنها تصطحب بنظرة أو بإشارة من الكراهية والاحتقار ، لم يختلف التأثير الذى أحدثه فى نفسه منه لو أننى رميته باحتقارى مجاهرة . وعلى ذلك كانت الرقابة تأمرنى أن أقمع حالاتى الوجدانية قبل كل شىء . فإن كنت معلماً فى فن الاستخفاء تلبست بالحالة المضادة : أبسم وأنا غاضب، وأظهر الود ورغبتى الدمار .

ولقد مر بنا من قبل مثال ملحوظ على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية يقع فى الحلم نتيجة للرقابة . ففى حلم "عمى ذى اللحية الصفراء" [ص ١٦٢] أحسست أكبر الود نحو

صديقى ر . ، بينما كنت أدعوه فى أفكار الحلم مغفلا ، ولأننى كنت أدعوه كذلك . وقد كان من هذا المثال على قلب الحالة الوجدانية أننا خرجنا بأول إشارة إلى وجود رقابة الحلم . وهنا أيضاً ما من ضرورة تدعونا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يخلق مثل هذه الحالة الوجدانية من عدم ، بل القاعدة هى أنه يراها فى متناول يده بين أفكار الحلم، كل الأمر أنه يزيدها شدة على شدة بالقوة النفسية التى لدافع الدفاع ، حتى تصير لها الغلبة فى تكوين الحلم . فالراجح فى حلم عمى الذى ذكرته هو أن الحالة الوجدانية المضادة — الحنان — قد انبعثت من مصدر طفلى (كما أوحاه الجزء الأخير من الحلم) ؛ لأن علاقة العم وابن الأخ قد صارت المنهل الذى ترد منه كل صداقاتى وعداواتى ، نتيجة للطابع الخاص الذى كان لأوائل خبراتى فى عهد الطفولة . [أنظر التحليل المساق فى ص ٤٢٤ وما بعدها .]

ونجد مثالا ملحوظاً على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية فى حلم رواه فرنتسى (١٩١٦) ، قال : « استيقظ سيد متقدم فى السن ذات ليلة ، أيقظته زوجه المذعورة ؛ لأنه كان يضحك فى نومه ضحكاً صاخباً مطلقاً . وقد ذكر الرجل بعد ذلك أنه كان يحلم الحلم الآتى : كنت راقد فى سريرى ثم دخل الغرفة سيد أعرفه ، حاولت أن أدير النور ولكننى لم أستطع . كررت المحاولة فلم تجد . عندئذ نهضت زوجتى لمعاونتى ، ولكنها عجزت هى الأخرى . تنزل فى النهاية عن محاولتها وتعود إلى فراشها لأنها كانت تشعر بالخجل أمام السيد لتجردها من الرداء بعض التجرد . وكان هذا كله شيئاً مضحكاً حتى لم أملك إلا أن أضحك ضحكاً مدوياً . وسألتنى زوجى : ولم تضحك ؟ لم تضحك ؟ ، ولكن ذلك لم يزدنى إلا ضحكاً حتى استيقظت . — وفى غداة هذا الحلم كان السيد يشعر باكتئاب وصداع ؛ فكل هذا الضحك قد كربه — أو هكذا ظن .

« إن هذا الحلم ليس بالحلم السار إلى المدى الذى يبدو ، لو بحثناه بحثاً تحليليا نفسيا ؛ لأن 'السيد المعروف' الذى دخل الحجرة كان فى أفكار الحلم صورة للموت باعتباره 'المجهول الأكبر' — وهى صورة طافت بخلده فى اليوم الذى سبق الحلم ؛ فقد وقع لهذا السيد المسن — وهو يشكو تصلب الشرايين — ما دعاه فى اليوم السابق إلى التفكير فى الموت . ولقد حل الضحك المطلق محل النحيب والبكاء لفكرة موته المحتوم ، ونور الحياة هو هذا الذى لم يعد يستطيع إدارته . ولعل هذه الفكرة المظلمة قد ارتبطت بمحاولات فى الجماع بذلها قبيل نومه دون أن يصيب توفيقاً وإن عاونته زوجه وهى متجردة ، فلحظ أنه قد أخذ فى الأفول . بيد أن الحلم أفلح فى تحويل هذه الفكرة المظلمة عن العنة

والموت إلى مشهد هزلى ، والنحيب حال إلى ضحك . »

وهناك طبقة من الأحلام تستحق بنوع خاص أن توصف بكونها أحلاماً " منافقة " ، ثم هى محك صعب لنظرية تحقيق الرغبة . ولقد اتجه انتباهى إلى هذه الأحلام حين أتت السيدة الطبيبة م. هيلفردينج بالحلم الآتى من أحلام روزجر [1] لمناقشته فى " جمعية ڤيينا للتحليل النفسى " .

يقول روزجر فى قصته " مطرود "[2] : « إنى أنعم عادة بنوم عميق ، ومع هذا ما أكثر الليالى التى لم أذق فيها راحة ! — لأننى ، إلى جانب بدايتى المتواضعة طالباً وأديباً ظللت أجر معى سنوات طوالا ظل حياتى وأنا طرزى ، مثل شبح لا أستطيع الخلاص منه .

« ولا يعنى ذلك أننى فى خلال النهار ، كنت أشغل بأيامى الماضية انشغالا كثيراً أو كبيراً ؛ فمن نزع عن نفسه جلد الفلسطينى [3] وراح يغزو الأرض والسماء يتجه بهمته إلى أمور أخرى . ولا كنت أكاد — وأنا فتى مرح مقدام — أفكر لحظة فيما يزورنى فى جنح الليل من الأحلام . ولكننى بعد ذلك ، حين اعتدت أن أفكر فى كل شىء ، أو حين أخذ الفلسطينى الكامن فى يختلج قليلا ، حينئذ فقط ساءلت نفسى : لم كنت ، إذا حلمت على الإطلاق ، رأيتنى طرزيا أجيراً ورأيتنى — وأنا كذلك — أقضى الساعات الطوال إلى جانب معلمى أعمل فى دكانه من غير أجر ؟ كنت أعلم حق العلم ، وأنا جالس إلى جانبه أخيط وأكوى ، أن مكانى الصحيح لم يعد هناك ، وأن أمامى — وأنا الحضرى — أمور أخرى أشغل بها . بيد أننى كنت دائماً فى إجازة ، وكان الوقت دائماً وقت إجازة الصيف . ولهذا كنت هناك بجانب معلمى أعاونه . وكان هذا الوقت المضيع الذى كان يسعنى أن أصنع فى أثنائه أموراً أخرى أكرم وأنفع ، كان يمضنى وكنت أتحسر عليه . وكنت بين الحين والحين ، إذا لم تجر الأمور على ما يرام ، أصغر كارهاً لملامة من معلمى ، وأما الأجر فما من كلمة عنه . ولكم عزمت وأنا جالس محنى

---

(١) [هو ﭙيتر روزجر (١٨٤٣ — ١٩١٨) كاتب نمسوى معروف بلغ ذرى الشهرة بعد نشأة ريفية متواضعة .]

(٢) ["Fremd gemacht"] "Waldheimat" ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٣ .

(٣) [Der Philister — لفظ كان الطلبة الألمان يطلقونه فى شىء من التحقير على كل من خرج عن الدوائر الجامعية وعلى التجار بنوع خاص ، على نحو ما يقول الفرنسيون أحيانا : " بورچوا " .]

الظهر فى الدكان المظلم على أن أترك العمل وأغادر المكان . لا ، بل إنى أقدمت على ذلك مرة . ولكن المعلم أخذ الأمر كأنه لم يكن ولم ألبث أن رأيتنى جالساً من جديد إلى جواره وأخيط .

« وكم كانت اليقظة حلوة بعد هذه الساعات الثقال . كنت أعقد العزم بعدها إذا عادنى هذا الحلم اللجوج إلا أن أطرحه طرح النواة وأن أصيح بأعلى صوتى : إن هذه إلا أضغاث أحلام ، إنى راقد فى سريرى أبتغى النوم . ولكن تأتى الليلة التالية ، فإذا أنا جالس فى دكان الطرزى مرة أخرى .

« وهكذا دام الأمر سنوات فى اطراد يشيع العجب . ثم حدث مرة أننا كنا — معلمى وأنا — نعمل فى بيت ألپلهوفر (وهو الفلاح الذى اشتغلت فى داره حين عملت أجيرا للمرة الأولى) ، وأبدى معلمى استياء من عملى فوق استياءه المألوف ، فقال لى : أريد أن أعلم أين رأسك ! ، ثم نظر إلى نظرة مغبرة . وفكرت فى أن أصوب ما أستطيع صنعه هو أن أنهض واقفاً وأن أعلنه أننى لا أمكث معه إلا توخياً لمرضاته ثم أبرح . ولكننى لم أصنع شيئاً من ذلك . ولا أنا أبديت أقل اعتراض حين أخذ معلمى أجيراً آخر وأمرنى أن أترك له مقعدى ، بل انزويت فى الركن وأخذت أخيط . وفى هذا اليوم عينه ألحق المعلم بالعمل أجيراً آخر ، رجلا ذا ورع زائف ، هو الغجرى الذى عمل فى محلنا منذ تسعة عشرة عاماً ثم وقع مرة فى النهر وهو راجع من المنزل . فلما أجال الأجير الجديد بصره يلتمس مقعداً لم يكن فى المكان محل . ونظرت إلى معلمى أسأل فقال لى : إنك لا تصلح للخياطة ، لك أن ترحل ، أنت مطرود . — وعندئذ أحسست ذعراً طاغياً حتى أننى هببت مستيقظاً .

« كان ضوء المصباح الرمادى يلمع من خلال الستائر المسدلة نافذاً إلى غرفتى الأليفة ، وكانت روائع الفن تحف بى : ها هم أولاء فى صوان كتبى الأنيق هومير الخالد ودانته العملاق وشكسبير المنقطع النظير وجوته الماجد ، الخالدون العظام جميعهم . وفى الحجرة المجاورة ترن أصوات جلية طرية ، أصوات أبنائى الصغار وهم يستيقظون ويمازحون أمهم . لكأنى اكتشفت من جديد هذه الحياة الحلوة كعيش الرعاة ، الوادعة ، الشاعرة ، الروحية ، التى عرفت فيها السعادة الإنسانية التأملية وذقتها ذوقاً عميقاً . ومع هذا ، كان يغضبنى أننى لم أسبق معلمى فأتركه مختاراً ، بل شيعت مطروداً .

« ثم كم كان دهشى بعد ذلك : فمنذ الليلة التى طردنى فيها معلمى وأنا أنعم بالسلام ، لم أعد أحلم بأيام الطرزى المستكنة من ورائى فى الماضى السحيق ، تلك الأيام التى كانت – والحق يقال – أياماً هانئة فى خلوها من كل اقتضاء ولكنها ظلت تنشر فوق مستأنف سنواتى كل هذا الظل القاتم الممدود . »

إن من الصعب أن نتبين أين تحقيق الرغبة فى هذه السلسلة من الأحلام التى أتاها مؤلف كان فى صباه طرزيا أجيراً . فكل سعادة الحالم كائنة فى حياته التى يحياها بالنهار فى حين يصر الحلم على ملاحقته بشبح حياته الشقية التى لم يخرج منها إلا بشق النفس . ولكن أحلاماً لى تماثل هذه فى النوع قد مكنتنى من ألقى بعض الضوء على هذا الموضوع . ذلك أننى عملت زمناً طويلا – وأنا طبيب شاب – فى معهد كيميائى دون أن أبرز يوماً بموهبة من الموهبات التى يقتضيها هذا العلم . ولهذا كنت دائماً فى حياتى المستيقظة أصدف عن التفكير فى هذه الفترة العقيمة والمذلة بحق فى تاريخ تعلمى . بيد أننى – من جهة أخرى – كنت أحلم مراراً بأننى أعمل فى المعمل وأقوم بالتحليلات وأجرى مختلف التجارب. هذه الأحلام أحلام مستكرهة على نحو ما كانت أحلام الامتحان ثم هى لا تجىء متميزة أبداً . وكنت أفسر أحدها حين جذبت انتباهى كلمة " تحليل " التى أعطتنى المفتاح إلى فهمها . فمنذ هاته الأيام صرت « محللا » وإنى لأقوم اليوم بتحليلات تلقى تقديراً رفيعاً وإن تكن يقيناً تحليلات نفسية . وهكذا فهمت السر : إذا كنت أستشعر الفخر فى حياتى النهارية لأننى أقوم بتحليلات من هذا القبيل وأحس نزوعاً إلى أن أباهى نفسى بمدى ما صرت إليه من النجاح ، فإن أحلامى تذكرنى فى أثناء الليل بهاته التحليلات الأخرى المخفقة ، الخالية من كل وجه يدعو إلى الافتخار ؛ إنها أحلام عقاب تنزل بحديث النعمة مثل أحلام الطرزى الأجير الذى صار مؤلفاً ذائع الصيب . ولكن كيف يتسنى لحلم وسط هذا الصراع بين غرور حديث النعمة وبين نقده لنفسه أن ينحاز إلى جانب هذا النقد وأن يختار لمحتواه تحذيراً معقولا بدل التحقيق غير المشروع لرغبة من الرغبات ؟ لقد ذكرت من قبل أن الإجابة عن هذا السؤال تثير صعوبات شتى ولكننا نستطيع أن نستنتج أن أساس الحلم كان فى أول الأمر تخييلا طامحاً ، مغرقاً فى الطموح ، ثم نفذت إلى الحلم بدل ذلك أفكار مذلة جاءت فألقت ماء بارداً على هذا التخييل . فلا ننسى أن بالنفس دوافع ماسوشية قد تكون هى السبب فى مثل هذا القلب . ولست

أرى ما يمنع دون تمييز هذه الأحلام من أحلام " تحقيق الرغبة " تحت عنوان " أحلام العقاب" ؛ فما كنت لأرتأى فى هذه التفرقة قيداً يحد نظرية الحلم التى لم أزل أعرضها ، بل هى تنازل لفظى محض تجاه وجهة النظر التى ترى فى اجتماع الأضداد شيئاً عجيباً [١].

ثم إن إمعان النظر فى بعض الأحلام التى من هذه الطبقة يلقى الضوء على شىء آخر . فقد جاء فى هامش أحد أحلامى عن المعمل جزء غير متميز بدوت فيه وأنا فى هاته السن التى عرفت فيها على التحقيق أظلم سنوات حياتى الطبية وأقلها حظاً من النجاح : كنت لا أزال بغير وظيفة ، لا أعرف كيف أرتزق . ولكن تكشف لى فجاءة أننى كنت إذ ذاك لا أزال أملك الخيار بين أكثر من امرأة أستطيع التزوج بها ! أى أننى كنت شاباً من جديد ثم — قبل كل شىء — كانت أيضاً شابةً من جديد الزوجة التى شاركتنى كل هاته السنوات الصعاب . وهكذا تجلى أن الباعث اللاشعورى على الحلم كان رغبة من هذه الرغبات التى لا ينى عن أن يتلظى بها قلب الرجل الذى تتقدم به السن . فالصراع الناشب فى طبقات أخرى من النفس بين غرور الإنسان ونقده نفسه هو الذى حدد محتوى الحلم ، هذا صحيح . ولكن الرغبة فى الشباب — هذه الرغبة الأعمق جذوراً — هى وحدها التى مكنت لهذا الصراع سبل الظهور فى صورة الحلم . وإنا — بين الحين والحين — لنحدث أنفسنا قائلين : " كل شىء اليوم على أحسن ما يكون ، وزمان الصعاب قد انقضى ،ومع هذا كم كانت جميلة تلك الأيام، كنت لم تزل شاباً فتيا . "

ووقعت لى طائفة أخرى من الأحلام عرفت فيها طابع النفاق[٢] ، يدور محتواها حول مصالحة أناس انقطعت أسباب الصداقة بين الحالم وبينهم منذ زمن بعيد : فى مثل هذه الحالات يكشف التحليل عادة عن دافع يحث المرء على أن يطرح البقية الباقية مما يكنه من الرعاية لهؤلاء الأصدقاء القدماء وعلى معاملتهم معاملة الغرباء والأعداء . ولكن الحلم يؤثر إلا أن يصور العلاقة المضادة .

ومن الحكمة حين نكون رأياً يتصل بأحلام رواها كاتب مبدع أن نفترض أنه

---

(١) منذ قسم التحليل النفسى الشخصية إلى أنا وأنا أعلى (فرويد ١٩١٢ ج [وأيضا ١٩٢٣ ب]) صار من السهل أن نعرف أن أحلام العقاب هذه تحقق رغبات الأنا الأعلى .

(١) [أضيفت هذه الفقرة عام ١٩١٩ ، والظاهر أنها أضيفت فى غير موضعها ؛ وربما كان موضعها الصحيح بعد الفقرتين التاليتين . ومن المؤكد أن فرويد يشير هنا إلى حلم يتصل بفاليس بعد أن انقطعت أسباب الصداقة بينهما .]

قد حذف فى خلال روايته تفاصيل من محتوى الحلم لاحت له غير جوهرية أوقد تبدد الانتباه ، وفى هذه الحالة تثير أحلامه مشكلات قد كان يسهل حلها لو أنه أورد محتواها كاملا .

وقد نبهنى أوتورانك إلى أن قصة جريم عن الطرزى الصغير الجسور أو " سبعة فى ضربة واحدة " قد حوت حلماً مماثلا كل المماثلة يأتيه حديث نعمة : ففيها نرى الطرزى الذى أصبح بطلا وصهراً للملك يحلم ذات ليلة بحرفته القديمة و زوجه الأميرة راقدة إلى جواره . وترتاب هذه فى الأمر فتأتى بحراس مدججين توقفهم لكى يسترقوا السمع فى الليلة التالية ويلقوا القبض عليه . ولكن الطرزى الصغير يجد من يحذره فيعرف بعد ذلك كيف يصحح حلمه .

إن العمليات المعقدة التى تحول بوساطتها الحالات الوجدانية المتضمنة فى أفكار الحلم إلى تلك الظاهرة فيه — عمليات الاستبعاد والانتقاص والقلب — يمكن تأثرها على نحو مرض فى مؤلفات حلمية مناسبة سبق تحليلها تحليلا وافياً . وسأنتخب الآن بضعة أمثلة أخرى على الحالات الوجدانية فى الحلم ، أمثلة نرى فيها الإمكانيات التى أحصيتها وقد تحققت .

(٥)

إذا عدنا إلى حلم المهمة العجيبة التى كلفنى إياها بروكيه الشيخ — أن أُشَرِّحَ حوضى [ص٤٥١] — رأينا أننى قد افتقدت فى الحلم نفسه ما كان يتلائم ومثل هذه المهمة من الشعور بالفظاعة . وأضيف الآن أن ذلك كان يحقق رغبة بأكثر من معنى . فالتشريح كان يعنى تحليلى النفسى الذى أقوم به كأنما كان ذلك من أجل نشر هذا الكتاب — وهو أمر كان يؤلمنى فى الحقيقة حتى أننى أجلت طبع المخطوط سنة أخرى بعد الفراغ منه . وهنا انبعثت الرغبة فى أن أتغلب على هذه الكراهية ؛ فلم أشعر فى الحلم بفظاعة ما . ولكننى أود كذلك لو أفلت من هذه الفظاعة ["Grauen"] بالمعنى الآخر للكلمة [وهو الشيب] ؛ فقد أخذ شعرى يضرب إلى المشيب ، وهذا الشيب يذكرنى كذلك بأن أكف عن الإرجاء . ونحن نعلم أن هذا الخاطر : أننى قد أضطر إلى أن أترك لأبنائى تحقيق الهدف الذى لم أبلغه من رحلتى الصعبة — قد نفذ إلى التصور عند خاتمة الحلم .

دعنا الآن نبحث الحلمين اللذين نقلا تعبير الرضا إلى اللحظة التى أعقبت اليقظة مباشرة . لقد نسب الرضا فى حالة إلى ما توقعته من كشف وشيك عن معنى « قد حلمت بذلك من قبل » بينما كان هذا الرضا يشير فى حقيقة الأمر إلى مولد أولادى الأوائل [ص ٤٤٥] ، ونسب الرضا فى الحالة الثانية إلى أن « وعدا » قد تحقق بينما كانت الإشارة الصحيحة فى هذا الحلم أشبه بها فى سابقه ، فلم يكن الرضا إلا هذا الذى هللت به لمولد ابنى الثانى [ص٤٤٦] . وهكذا نجد هنا أن الحالات الوجدانية المسيطرة فى أفكار الحلم قد بقيت فى الحلمين ، ولكن أكبر الظن أنه ما من حلم تجرى فيه الأمور على هذا النحو من البساطة . فلو أننا تعمقنا تحليل هذين الحلمين قليلا لعلمنا أن هذا الرضا الذى يفلت من الرقابة قد لقى تعزيزاً من مصدر آخر كان من شأنه أن يخشى الرقابة وما كانت الحالة الوجدانية المنبعثة منه لتلقى من غير شك سوى المعارضة ، لولا أنها استترت وراء حالة الرضا المماثلة ، المشروعة ، المستقاة من مصدر لا اعتراض عليه ، وبذا تسللت — إن جاز التعبير — تحت جناحها . ولست أستطيع لسوء الحظ أن أوضح ذلك فى صدد هذين الحلمين بالذات ، ولكن ها هوذا مثال مستمد من مجال آخر يوضح معناى : دعنا نفترض الموقف الآتى : هب بين معارفى شخصاً أضمر له الكراهية بحيث أحس نزوعاً قوياً إلى الاغتباط كلما خالفت الأمور مشتهاه ، ولكن الجانب الخلقى فى طبيعتى لا يفسح الطريق لمثل هذا الشعور فلا أجرؤ على أن أعرب عن رغبة فى أن يعثر حظه ، وإن أصابه مكروه غير مستحق تكلفت مظاهر الأسف وأفكاره — كل إنسان قد رأى نفسه فى هذا الموقف يوما ما . والآن هب أن هذا الشخص المكروه قد جر على نفسه ضراً مستحقاً لعثرة من جانبه : إن الذى يحدث عندئذ هو أننى أطلق العنان لرضاى عن كونه قد لقى عقاباً عادلا ، وإنى لأرانى متفقاً فى ذلك مع أناس غيرى كثيرين ، لا شبهة فى إنصافهم . بيد أننى قد ألحظ أن رضاى هذا يبدو أكثر شدة من رضا هؤلاء الآخرين ؛ فهو قد لقى تعزيزاً من مصدر الكراهية الذى ظل حتى ذلك الحين لا يجد سبيلا إلى إحداث أثره الوجدانى لضغط الرقابة الداخلية ، ولكنه — وقد تغيرت الملابسات — لم يعد يصادف مثل هذا الحائل . وذلك هو ما يحدث فى الحياة الاجتماعية عامة كلما جانب الحق أناس مستثقلون أو أفراد منتمون إلى أقلية مبغضة . فعقابهم لا يقابل فى العادة جرمهم ، بل جرمهم مضافاً إليه هذا القسط من

الضغن المكنون نحوهم والذى ظل من قبل لا يحدث أثراً . ولا شك فى أن من يوقعون عليهم القصاص يرتكبون فى ذلك جوراً ، ولكن يحول بينهم وبين إدراك جورهم هذا الرضا الناجم عن إزاحة القمع الذى ظلوا يتكلفونه زمناً طويلا . والحالة الوجدانية فى مثل هذه الأحوال حالة لها ما يبررها من حيث الكيف ولكنها ليست كذلك من حيث مقدارها. سوى أن نقد الإنسان نفسه إذ يهدأ من ناحية لا يستشعر كبير ميل إلى مراجعة الأخرى . وما أن تفتح باباً حتى يتسع اقتحامه لعدد من الناس أكبر ممن كنت تنتوى فى البدء تركهم يدخلون .

وعلى هذا النحو يجب أن نعلل سمة عجيبة فى طبع العصابيين —وذلك بقدر ما تسمح هذه السمة بأى تعليل نفسى على الإطلاق — وأعنى بها أن العلل القادرة على إطلاق حالة وجدانية معينة تحدث عندهم نتيجة لها مبررها من حيث الكيف ولكنها مفرطة من حيث الكم . ذلك أن الإفراط ينجم هنا عن منابع لا شعورية ، بقيت مقموعة حتى ذلك الحين ، ولكنها أفلحت فى أن تجد روابط استدعائية تصل ما بينها وبين المناسبة المدركة فى الواقع ، وبذلك فتح هذا المصدر الأخير المشروع الذى لا غبار عليه سبيل الانطلاق أمام الحالات الوجدانية المرتبطة بهاته المنابع . وفى ذلك ما ينبهنا إلى أننا حين ندرس العلاقة بين العاملين القامع والمقموع يجب ألا ننظر إلى هذه العلاقة كما لو كانت علاقة كف متبادل وحسب ، بل يجب أن نوجه قسطاً مساوياً من انتباهنا إلى الحالات التى يجتمع فيها كلا العاملين على إحداث نتيجة مَرَضية بأن يعملا جنباً إلى جنب وبأن يعزز كل منهما الآخر . ولنستخدم الآن هذه الملاحظات العابرة حول ميكانيكيات الحياة النفسية فى فهم التعبيرات الوجدانية فى الحلم: إذا عرضت فى الحلم حالة من الرضا وأمكن بالطبع أن نكشف على الفور عن مكانها بين أفكار الحلم ، فهذا الكشف وحده لا يغنى دائماً فى تعليل هذه الحالة تعليلا تاماً ، بل القاعدة هى أن يستلزم تعليلها التام البحث عن مصدر آخر لها ، واقع تحت ضغط الرقابة — مصدر كان من شأنه وهو تحت هذا الضغط ألا يجلب الرضا بل ضده ، لولا أن مجىء المصدر الحلمى الأول قد أتاح له الإفلات بالحالة الوجدانية الناجمة عن إرضائه من وطأة الكبت وأتاح له تركها تنطلق باعتبارها معززاً لحالة الرضا المنبعثة من المصدر الأول . وبذا يتبين أن الحالات الوجدانية فى الحلم ترد من عدة من المنابع المتلاقية وأنها كثيرة الحتم من حيث علاقتها بمادة أفكار

الحلم : فى خلال عمل الحلم تجتمع على إحداث حالة وجدانية معينة جميع المصادر القادرة على توليد هذه الحالة [١].

إننا نستطيع أن ننفذ ببصرنا قليلا فى هذه العلاقات المعقدة ، إذا حللنا هذا النموذج الحلمى البديع الذى كونت كلمتا "Non vixit" منطقته الرئيسة [ص٤٢١ وما بعدها] . فقد اجتمعت فى موضعين من المحتوى الظاهر لهذا الحلم تعبيرات وجدانية مختلفة الكيف . فى الموضع الذى أعدمت فيه صديقى وخصمى بهاتين الكلمتين تراكمت فى نفسى مشاعر من العداء والألم جميعاً (" وليتنى انفعالات غريبة " — تلك كانت كلمات الحلم) . ثم عند نهاية الحلم يتولانى فرح عظيم وأذهب إلى تأييد تلك الإمكانية التى أعلم فى الحياة المستيقظة بطلانها : أن يكون ثمت عائدون يسهل محوهم برغبة ليس غير .

غير أننى لم أرو بعد مناسبة الحلم . وهى مع ذلك ذات أهمية جوهرية وتذهب بنا شوطاً بعيداً فى فهم الحلم : فقد كنت سمعت أن صديقى الذى يقطن برلين (والذى أشرت إليه بحرف ف . [أى فليس] كان مقبلا على عملية جراحية وأن أحد أقاربه القاطنين بفيينا سوف يحمل إلى ما يجد من أنباء حالته الصحية . وكانت الأنباء الأولى بعد العملية غير مطمئنة ، فثار قلقى . وكنت أفضل لو أمكننى الذهاب إليه بنفسى ، ولكننى كنت فى ذلك الوقت بالذات فريسة لشكاة موجعة صارت معها كل حركة تصدر عنى عذاباً على . وإنى أعلم الآن من أفكار الحلم أنى كنت خائفاً على حياة صديقى ! فقد ماتت أخته التى لم أعرفها قط وهى — على ما علمت — فى باكورة الشباب ، بعد مرض قصير جداً (فى الحلم : يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت فى خمس وأربعين دقيقة) ولا بد أننى تخيلت أن بنية صديقى لا تزيد كثيراً من حيث قدرة الاحتمال على بنية أخته وأن الأنباء قد تسوء كثيراً فأضطر فى النهاية إلى السفر وأصل متأخراً ويكون ذلك شيئاً لا أكف مدى الحياة عن مؤاخذة نفسى عليه [٢] . ولقد صارت هذه المؤاخذة على التأخر فى الوصول هى النقطة الرئيسة فى الحلم ، إلا أنها صورت بوساطة المشهد الذى

---

(١) وعلى هذا النحو علت الأثر اللاذ الخارق القوة الذى تحدثه النكات المغرضة [فرويد ١٩٠٥ ج ، فى نهاية الفصل الرابع .]

(٢) إن هذا التخييل الذى كان يكون جزءاً من أفكار الحلم اللاشعورية هو الذى كان يتطلب وضع "non vivit" بدل "non vixit" [" غير حى " بدل " لم يحى "] : " لقد جئت متأخراً ، إنه الآن غير حى . " وسبق أن وضحت فى صفحة ٤٢٤ أن محتوى الحلم الظاهر كان يتطلب أيضا "non vivit" .

رأيتنى فيه طالباً ورأيت أستاذى المبجل بروكه يصوب إلى اللوم بنظرة مروعة من عينيه الزرقاوين – ولن نلبث طويلا دون أن نرى ما الذى عرج بالموقف [المتخيل بإزاء فليس] هذا التعريج. ولم يكن من المستطاع أن يستحضر الحلم المشهد [الذى وقع مع بروكه] على الصورة التى عشته فيها ، فكان أن تركت العينين الزرقاوين للوجه الآخر [ب .] ولكن الإعدام وكل إلى – وهو قلب لا يخفى أنه قد جاء بفعل تحقيق الرغبة . فقلقى على صحة صديقى ومؤاخذتى نفسى على كونى لا أذهب إليه وخجلى من جراء ذلك – جاء إلى ڤيينا (ليرانى) خلسة – ثم الحاجة إلى أن ينفع مرضى فى عذرى ، كل أولئك قد اجتمع على إحداث الزوبعة الانفعالية التى استشعرتها بجلاء فى خلال النوم والتى كانت تعصف فى هذه المنطقة من أفكار الحلم .

ولكن مناسبة الحلم قد تضمنت شيئاً آخر كان له فى نفسى أثر مخالف كل المخالفة . فالأخبار غير المطمئنة التى تلقيتها فى الأيام القليلة الأولى بعد العملية قد جاءت يصحبها تحذير من أن أحدث أحداً بشىء من هذا كله . ولقد ساورنى هذا التحذير لأنه كان ينم عن ارتياب فى أمانتى على السر لا داعى إليه . صحيح أننى كنت أعلم أن هذه التوصية لم تصدر عن صديقى بل مرجعها خلو الشخص الوسيط من اللباقة أو زيادة فى قلقه ، ومع هذا فقد آلمنى هذا اللوم المقنع ؛ لأنه لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات ، فلا تثير ثائرة المرء – على ما نعلم جميعاً – إلا الملامة التى تصيب منه " مطعناً " . وأنا إذ أقول ذلك لا ألمح – والحق يقال – إلى واقعة جرت مع هذا الصديق ، بل إلى بادرة بدرت منى وأنا أصغر كثيراً فى السن : فقد كان لى إذ ذاك صديقان ، كان كلاهما قد شرفنى بهذا الاسم ، فأخبرت أحدهما من غير داع بما قاله الآخر عنه . وكان اللوم الذى سمعته إذ ذاك لم يزل عالقاً كذلك بذاكرتى . وكان أحد هذين الصديقين هو أستاذى فلايشل ، وأستطيع أن أدعو الآخر باسمه الأول يوسف – وهو أيضاً الاسم الأول لصديقى وغريمى فى الحلم : ب.

هذه المؤاخذة على عجزى عن أن أكتم شيئاً فى نفسى يشهد عليها فى الحلم العنصر خلسة وسؤال ف. عن مدى ما أفضيت به من شؤونه إلى ب . وإن تدخل هذه الذكرى هو الذى عرج باللوم على التأخر فى الوصول من الوقت الحاضر إلى ذاك الوقت الذى

كنت أعمل أثناءه فى معمل بروكه[1] ، كما أننى إذ أحول الشخص الثانى فى مشهد الإعدام إلى يوسف لا أجعل هذا المشهد يصور مؤاخذتى على التأخر فى الوصول وحسب ، بل أجعله يصور كذلك ذاك اللوم المنكبت بكبت أشد كثيراً على أننى لا أكتم سراً . وهنا يبرز للعيان ما يقوم به الحلم من عمل التكثيف والنقل ، كما تبرز دوافعهما .

ثم إن غضبى الحاضر — وهو طفيف — لما حذرت به من ألا أفضى بشىء [عن مرض صديقى فليس] يلقى أمداداً تجيئه من أعماق النفس ، وبذا يتضخم حتى يصير تياراً من المشاعر العدائية نحو أشخاص أكن لهم فى الواقع كل حب . والمنبع الذى ترد منه هذه الأمداد هو الطفولة . فقد ذكرت من قبل [ص ٤٢٤ و٤٢٥] كيف ترجع كل مشاعرى المحتومة نحو معاصرى ، بالصداقة وبالعداوة ، إلى علاقتى فى زمن الطفولة بابن أخ كان يكبرنى بعام واحد ، كيف كان هذا القريب يفوقنى وكيف تعلمت الذود عن نفسى تجاهه منذ زمن مبكر ، كيف كنا صديقين لا نفترق وكنا — وإنا لكذلك — نتشاجر ويشكو كلانا الآخر ، على ما يرويه الأكبرون . إن جميع أصدقائى هم بمعنى من المعانى تقمصات لهذا الوجه الذى " تكشف منذ باكورة الزمن لنظرتى المضطربة "[2] ، إنهم جميعاً عائدون [Revenants] . وقريبى نفسه قد عاد إلى الظهور فى صباى ، فلما عاد لعبنا سوياً قيصر وبروتوس ، وظل مطلباً لا تستغنى عنه حياتى الانفعالية أن يكون لى صديق حميم وعدو مقيت . وكان يسعى دائماً أن أزود نفسى بكليهما المرة بعد المرة . ولم يكن من النادر أن يتكرر النموذج الطفلى بحذافيره حتى ليجتمع فى الشخص الواحد العدو والصديق — وإن لم يجتمعا بالطبع فى آن معاً أو فى ذبذبة دائمة كما كان العهد فى الطفولة الأولى .

---

(١) [لا بد للقارئ — لكى يتمكن من متابعة فرويد هنا وفى الصفحات القادمة — من الإلمام ببعض حقائق حياته : كان فرويد بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٨٢ يعمل فى المعهد الفيزيولوجى . وكان يرأس المعهد بروكه (١٨١٩ — ١٨٩٢) يعاونه إرنست فلايشل فون ماركسوف (١٨٤٦ — ١٨٩١) وسيجموند إكستر (١٨٤٦ — ١٩٢٥) وكلاهما يكبر فرويد بعشر سنوات . ولقد مات فلايشل بعد مرض شديد نزل به فى السنوات الأخيرة من حياته . وفى هذا المعهد أيضا التقى فرويد بيوسف بروير (١٨٤٢ — ١٨٢٥) . وكان بروير يكبر فرويد كثيراً فى السن وفى الجاه ، كما كان له أثر معروف فى نشأة التحليل النفسى عند فرويد ، فقد تحدث به فرويد فى كثير من المواضع . وهو ثانى اليوسفين فى هذا التحليل ، هذا الذى أوقع فرويد بينه وبين فلايشل . فأما يوسف الأول الذى يظهر فى الحلم " صديقى وغريمى پ . " فهو يوسف پانيت (١٨٥٧ — ١٨٩٠) الذى خلف فرويد فى منصبه بالمعهد .]

(٢) [جوته ، فاوست ، الإهداء ، السطر الثانى .]

ولست أرى أن أبحث فى هذا الموضع كيف يقع فى مثل هذه الملابسات أن ترتد مناسبة حديثة لإحدى الحالات الوجدانية إلى موقف قديم ثم يحل هذا الموقف القديم محلها فيما يتعلق بإحداث هذا الوجدان . فهذه المسألة جزء من سيكولوجية اللاشعور ، ولقد كانت تجد مكانها المناسب بين إيضاح سيكولوجى للأعصبة . دعنا نفترض — لأجل ما نستهدفه من تفسير الحلم — أن إحدى ذكريات الطفولة قد انبعثت أو أن المخيلة قد ركبتها ، وأن محتواها كان شيئاً شبيهاً بما يأتى : يتنازع الطفلان شيئاً ما (ونستطيع أن نترك جانباً السؤال عما هو هذا الشىء وإن كانت الذكرى أو الذكرى المكذوبة تلمح إلى شىء محدد تمام التحديد) ويدعى كلا الطفلين أنه كان الأسبق وأنه بناء على ذلك صاحب الحق الأول ، ثم تجىء اللكمات وتطغى القوة على الحق — وإذا صدقت إشارات الحلم فقد كنت أعلم حق العلم أنى كنت على خطأ (ألحظ خطأى) بيد أننى أقوى الطرفين فى هذه المرة ، فأظل سيداً على الميدان ، ويسرع الجانب المهزوم إلى جده — وهو والدى — ويشكونى إليه ، فأدافع عن نفسى بالكلمات التى أعلمها من رواية أبى : ضربته ؛ لأنه ضربنى . إن هذه الذكرى أو — على الأرجح — هذا التخييل الذى يرد على خاطرى وأنا أحلل الحلم — دون مزيد من الإيضاح ، لا أدرى أنا نفسى كيف — هو الذى يكون الجزء الرئيس بين أفكار الحلم ، الجزء الذى يجمع ما يشتعل بين هذه الأفكار من الانفعالات ، كما تجمع البئر الماء الذى يصب فيها . ومن هذه النقطة تنساب أفكار الحلم على النهج الذى يلى : لا تلومن إلا نفسك إذا ضطررت إلى أن تخلى الطريق أمامى ، ما الذى دفعك إلى أن تحاول إزاحتى من الطريق ؟ إنى لست بحاجة إليك وإنه لأمر هين أن أجد شخصاً آخر سواك يلعب معى بدلا منك ، إلخ . ثم بعد ذلك تسير هذه الأفكار فى المسارات التى تؤدى بها إلى التصور فى الحلم . فقد دعتنى الأسباب فى يوم من الأيام إلى أن ألوم صديقى يوسف [ب .] على مثل هذا المسلك ، مسلك : " قم وأنا أقعد مكانك(١) " . فهو قد جاء عقبى ملدرباً فى معمل بروكه . وكانت الترقية هناك بطيئة عسيرة ، فما كانت بمعاونى بروكه كليهما أقل رغبة فى أن يتزحزحا من مكانيهما ، بينما صبر الشباب نافد . فكان صديقى الذى لم يكن يجهل أن أيامه معدودات ولم تكن تربط بينه وبين رئيسه

(١) ["ôte-toi que je m'y mette"]

المباشر أواصر وثيقة – كان يعرب أحياناً عن نفاد صبره إعراباً صريحاً . وإذ كان رئيسه هذا [فلا يشل] مصاباً بمرض خطير فقد أمكن رغبة ب . أن تحتمل معنى أقبح من من مجرد الأمل فى الترقية . وقد كان أمراً طبعياً أننى – قبل ذلك بسنوات – كنت قد أضمرت رغبة كانت أكثر بعد احتداماً فى ملء مكان شاغر ؛ فأينما وجدت الدرجة والترقية فى هذه الدنيا ، انفتحت الطريق أمام رغبات تتطلب القمع : أما عجز الأمير الشاكسپيرى هال عن أن يقاوم ما أغرته به النفس – وهو ما زال بجوار أبيه الراقد على فراش مرضه – من أن يجرب التاج لكى يرى بعينه كيف يلوح فوق رأسه ؟[1] ولكن الحلم – كما نتوقع – لا يعاقبنى أنا على هذه الرغبة الخبيثة ، بل يعاقب صديقى[2].

" كان طموحاً ، فقتلته" . لم يستطع أن يتمهل حتى يخلى الآخر مكانه ، فأزيح هو نفسه . تلك كانت الخواطر التى دارت بخلدى بعد أن حضرت رفع الستار عن النصب التذكارى المقام فى الجامعة – لشخص آخر وليس له . وعلى ذلك كان بعض الرضا الذى استشعرته فى الحلم يعنى : جزاء عادل ، لا تلومن إلا نفسك .

ولقد حدث فى جنازة صديقى [ب.] أن أحد الشبان أتى بملاحظة لم تكن تناسب المقام ، كان مؤداها أن الطبيب الذى ألقى كلمة الرثاء قد تحدث كما لو كانت الدنيا مقبلة على نهايتها بعد أن فقدت هذا الرجل الفرد . نعم ، إن هذه الملاحظة كانت تعرب عن الرفض الذى يعتمل فى صدر رجل صادق أزعجت المبالغة حزنه ، إلا أنها اجتذبت إليها أفكار الحلم الآتية : نعم ، إن لمن الحق أنه ما من أحد لا يعوض ؛ فما أكثر من شيعت إلى القبر ، ومع هذا لم أزل حيا ، لقد عشت دونهم جميعاً وبقيت سيداً على الميدان . وإن فكرة من هذا القبيل فى اللحظة التى كنت أخشى فيها ألا أجد صديقى بين الأحياء حين أسافر إليه لا يمكن أن تقبل تفسيراً آخر سوى أننى كنت مسروراً لأنى سأثبت على البقاء مرة أخرى بعد شخص سواى ، لأنه هو الميت وليس إياى ، لأننى سيد الميدان من جديد – كما كنته فى المشهد المتخيل عن طفولتى . هذا الرضا الطفلى فى مصدره لبقائى سيداً على الميدان هو الذى يكون الجزء الأكبر من الحالة الوجدانية التى ظهرت فى الحلم : إنى أستشعر السرور لأننى باق حين يولى غيرى ، وأعرب عن هذا

(١) [هنرى الرابع ، الفصل الرابع ، المشهد الخامس.]

(٢) يلاحظ القارئ أن اسم يوسف يقوم بنصيب كبير فى أحلامى . ذلك أن من السهل على أناى أن يختبئ وراء هذا الاسم ؛ لأن يوسف كان أيضا اسم مفسر الأحلام المعروف فى التوراة .

السرور بكل الأنانية الساذجة التى تتكشف فى قصة الزوجين اللذين يقول أحدهما للآخر : إذا مات أحدنا فسأذهب إلى باريس . إلى هذا المدى كان يبدو لى أمراً بديهياً أن المائت لن يكون إياى .

إننا لا نستطيع أن ننكر أن تفسير الأحلام وروايتها عمل يتطلب ضبطاً شاقاً للنفس ؛ فالمرء لا يجد مناصاً من أن يتكشف فى صورة الوغد الأوحد وسط موكب الطبائع النبيلة ممن يشاطرونه الحياة . وهكذا بدا لى أمراً طبعياً جداً أن العائدين إنما يوجدون بقدر ما يود لهم المرء البقاء ، فإن شاء امحوا . ولقد رأينا علام كان عقاب صديقى يوسف . غير أن العائدين هم التجسدات المتعاقبة لصديق طفولتى . وأنا إذن أستشعر الرضا كذلك لأننى استعطت دائماً أن أجد بدائل لهذا الوجه ولأننى لن ألبث طويلا قبل أن أعثر على بديل لهذا الصديق [فليس] الذى كنت أوشك على فقده : ما من أحد لا يعوض

ولكن ماذا عن الرقابة ؟ لماذا لم تثر أقوى المعارضة فى وجه خواطر تتسم بمثل هذه الأثرة الوحشية فتقلب الرضا المرتبط بهذه الأفكار إلى ألم شديد ؟ السر فيما أعتقد هو أن أفكاراً أخرى لا اعتراض عليها ، متعلقة بهؤلاء الأشخاص أنفسهم ، قد لقيت فى ذات الوقت ما يرضيها ، فكان أن حجبت الحالة الوجدانية المقترنة بها تلك المنبعثة من المصدر الطفلى . ذلك أننى عند الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكارى قد حدثت نفسى فى طبقة أخرى من الفكر بتلك التأملات : لكم فقدت من الأصدقاء الأعزاء ، أفقدنى الموت البعض والبعض الآخر أفقدنى إياه ما انفصم من عرى الصداقة ، لقد كان من حسن الحظ أننى وجدت من يعوضنى عنهم ، أننى اكتسبت صديقاً يعنى فى نفسى الشىء الكثير ، أكثر من كل ما استطاعه الآخرون ، وذلك فى زمن لا يسهل فيه على المرء أن يعقد صداقة جديدة ، لسوف أحتفظ بصداقته أبد الدهر . وهذا الرضى لكونى وجدت صديقاً يعوضنى عن الأصدقاء المضيعين لا يلاقى مانعاً يحول بينه وبين النفاذ إلى الحلم غير محرف فى شىء ، ولكن تسللت من ورائه حالة الرضا العدوانى المستمدة من المصدر الطفلى . نعم ، إن من المستيقن أن الحنان الذى انطوت عليه علاقة الطفولة قد أفاد فى تعزيز نظيره المعاصر المشروع ، ولكن كره الطفولة أيضاً قد أفلح فى أن يشق طريقه إلى التصوير .

ثم إن الحلم قد اشتمل – فوق ما سبق – على خيط فكرى آخر كان من شأنه أن يسلم إلى رضا مشروع : فقد حدث منذ زمن قريب أن صديقى [فليس] أعقب بنتاً بعد طول انتظار . وكنت أعلم كيف كان حزنه على أخته المتوفاة فى وقت مبكر ، فكتبت إليه أقول له : إننى واثق من أنه سوف ينقل الحب الذى يكنه لها إلى الطفلة الجديدة ،وأن الفتاة الصغيرة سوف تتيح له فى النهاية نسيان فقيدته التى لا تعوض .

وهكذا ترتبط هذه الطائفة من الأفكار بدورها بالفكرة المتوسطة فى محتوى الحلم الكامن [أنظر ص٤٨١ و٤٨٢] والتى تتشعب منها طرق التداعى فى اتجاهات متضاربة : " ما من أحد لا يعوض . أنظر ، ليس إلا عائدون، كل الذين افتقدناهم يرجعون " . ثم بعد ذلك تأتى تلك الواقعة العارضة ، وأعنى بها أن ابنة صديقى قد حملت الاسم الذى كانت تحمله الفتاة الصغيرة التى اعتدت اللعب معها فى طفولتى – وكانت فى سنى وأختاً لأول عدو وصديق – تأتى هذه الواقعة فتحكم الروابط الاستدعائية بين المقومات المتناقضة لأفكار الحلم . فقد كنت شعرت بالرضا حين سمعت أن المولودة سوف تدعى « پولين » ، وعلى سبيل الإشارة إلى هذا الاتفاق وضعت أحد اليوسفين محل الآخر فى الحلم ، ووجدت استحالة فى كتمان التماثل بين الحرفين الأولين من اسمى " فلا يشل" و" ف ." [فليس] . ومن هنا اتجهت خواطرى إلى أسماء أطفالى . فقد أصررت على ألا تختار أسماءهم وفاقاً لبدع اليوم الجارية ، بل تذكيراً بمن أحببت . فأسماء الأطفال قد جعلت منهم – إذن – « عائدين » . ثم فى النهاية ، أليس إنجاب الأولاد هو السبيل الذى لا نملك جميعاً غيره إلى الخلود ؟

وههنا لا أجد ما أضيفه إلى موضوع الحالات الوجدانية فى الحلم سوى بضعة ملاحظات تصدر عن وجهة نظر مختلفة . ذلك أن نفس النائم قد تنطوى على نزوع وجدانى (ما نسميه مزاجاً) يكون هو العنصر المسيطر عليها ويكون له عندئذ نصيبه فى تحتيم الحلم . وقد ينشأ هذا المزاج من خبرات اليوم السابق وأفكاره وقد تكون مصادره جسمية ، وفى كلتا الحالتين يصطحب بالأفكار الملائمة له . ويستوى بعد ذلك من وجهة نظر تكوين الحلم أن يكون هذا المحتوى الذهنى لأفكار الحلم هو الأصل الأول الذى حتم ذلك المزاج ، كما يقع طوراً ، أو أن يكون هذا المحتوى ذاته قد نبه على نحو ثانوى بوساطة استعداد النائم الانفعالى الراجع فى النهاية إلى شروط جسمية ، كما يقع طوراً آخر ؛ فى كلتا الحالتين

يخضع تكوين الحلم لهذا الشرط : أنه لا يستطيع أن يصور إلا ما يحقق رغبة وأنه إنما يستمد دافعه النفسي من الرغبات . فالمزاج الحاضر الناشط يعامل كما يعامل إحساس نبه وصار حاضراً ناشطاً فى أثناء النوم (ص٢٥٣) ، أى أنه إما أن ينحى جانباً أو يلقى تفسيراً جديداً فى الاتجاه الذى يحقق رغبة . والحالات المزاجية المؤلمة تمسى قوة تدفع إلى الحلم ، وذلك من حيث تثير رغبات قوية يفترض فى الحلم العمل على تحقيقها. ولا تنقطع صياغة المادة المرتبطة بهذه الحالات حتى يمكن استخدامها فى الإعراب عن رغبة . وكلما اشتد نصيب المزاج المؤلم فى أفكار الحلم وسيطر ، زدنا يقينا من أن أشد الرغبات قمعاً سوف تنتهز الفرصة لكى يتحقق تصويرها به ؛ لأن الألم الذى ما كانت هذه الرغبات إلا لتحدثه ضرورة قد صار موجوداً فعلا وهى بهذا تجد الجانب الأكبر من عملها على بلوغ التصور فى الحلم وقد صار ممهداً أمامها . وبهذه المناقشات نتطرق مرة أخرى إلى مشكلة أحلام الهيلة التى سوف يتبين أنها الحالة التى يبلغ عندها نشاط الحلم حافته .

ط

المراجعة الثانوية

وأخيراً نتجه إلى رابع العوامل المشتركة فى تكوين الحلم .

إذا تابعنا دراستنا لمحتوى الحلم على النحو الذى بدأنا به ، أى بالمقارنة بين الأحداث الظاهرة فى محتوى الحلم وبين مصادرها فى أفكار الحلم ، عثرنا على عناصر يتطلب تعليلها فرضاً جديداً كل الجدة . وأنا إذ أقول ذلك أفكر فى حالات يشعر فيها المرء وهو يحلم بالعجب أو الضيق أو الاستنكار ، وكل أولئك بإزاء جزء من محتوى الحلم نفسه . إن غالبية هذه المشاعر النقدية التى تعرض فى الحلم لا تتجه فى الحقيقة — كما بينت فى عدد من الأمثلة — إلى محتوى الحلم فى ذاته ، بل يتبين أنها أجزاء من أفكار الحلم ، منها أخذت ثم استخدمت لغاية مناسبة . ولكن بعض هذه المادة لا يخضع لهذا التعليل ؛ فنحن لا نجد له مقابلا بين مادة أفكار الحلم . ما الذى تعنيه — مثلا — تلك الملاحظة النقدية التى يشيع ورودها فى الحلم : " ما هذا إلا حلم " ؟ إننا نجد ههنا نقداً فعلياً للحلم من قبيل ما قد آتيه فى حياة اليقظة . وإن لمن الشائع ألا يكون هذا النقد سوى مقدمة إلى اليقظة ، وأشيع منه أن يجىء مسبوقاً بشعور أليم تهدئ منه تلك المعرفة : أن الحالة حالة

نوم . ذلك أن فكرة " إن هذا إلا حلم" إنما تعرض فى الحلم لذات الغرض الذى من أجله ترد فوق خشبة المسرح على شفاه هيلينا الجميلة فى أوبرا أوفنباخ [الهزلية المعروفة بهذا الاسم[١]] : إنها ترمى إلى التهوين من شأن الحدث الذى لم يكد المرأ يفرغ من خبرته وتهيئة السبيل إلى التسامح فيما قد يعقبه ، إنها تفيد فى تسكين عامل نفسى معين حتى يتمكن من متابعة نومه ، وما كان لولا ذلك إلا لينشط ثائراً ويحول دون استمرار الحلم - أو المشهد الذى فى الأوبرا . فالأهون - مهما يكن من أمر - هو المضى فى النوم والمغفرة للحلم ؛ لأنه - أولا وآخراً - " حلم ليس إلا " . فهذا الحكم النقدى المهون : " إن هذا إلا حلم" إنما يظهر فى الحلم - على حسب نظرتى - كلما أحست الرقابة التى لا تنام أبداً كل النوم أنها قد أخذت على غرة بحلم فتحت له أبواب الولوج فولج وفات أوان قمعه ولم يبق أمام الرقابة سوى اللجوء إلى هذه الكلمات لكى تواجه بها ما قد أثير من الهيلة . أى أن هذه الجملة شاهد على " بطء البديهة "[٢] من جانب الرقابة النفسية .

هذا المثال يزودنا - إذن - بدليل مقنع على أن كل ما يحتويه الحلم ليس مستمداً من أفكار الحلم ، بل قد يكون بعض محتوى الحلم راجعاً إلى وظيفة نفسية لا تتميز من فكرنا المستيقظ . وسؤالنا الآن هو : هل يحدث ذلك فى حالات استثنائية وحسب أم أن القاعدة هى أن يأخذ هذا العامل النفسى الذى لا يعمل فيما عدا ذلك إلا من حيث هو رقابة بنصيب فى تكوين الحلم ؟

لا مجال للتردد فى القطع بصحة الاحتمال الثانى . ما من شك فى أن العامل المراقب الذى لم نعرف أثره حتى الآن إلا فيما يدخله على الحلم من التقييد والحذف سبب كذلك فى حواش وإضافات . فأما الحواشى فيسورة معرفتها ؛ فروايتها تصطحب بالتردد ، يقدم لها الراوى بقوله : " كما لو " ، ثم هى لا تتسم فى ذاتها بشدة حسية خاصة ، وتدخل دائماً فى الموضع التى تستطيع أن تعمل فيها عمل الروابط بين فقرتين فى محتوى الحلم أو فى وصل المسافة بين جزءين من الحلم . والذاكرة فى العادة أقل حفظاً لها منها للمشتقات الصادقة ، الصادرة عن مادة أفكار الحلم . فإن نسى الحلم كانت هى أول ما يختفى من أجزائه ، وأغلب ظنى أن شكوانا المألوفة من كوننا نحلم بالشىء الكثير ثم ننسى

(١) [الفصل الثانى ، فى مشهد المناجاة بين هيلينا وباريس عندما يفاجئهما فى نهايته مينيلاوس زوج هيلينا .]

(٢) ["esprit d'escalier"]

معظمه ترجع إلى مسارعة هذه الأفكار الرابطة إلى الاختفاء . وإذا حللنا حلماً ما تحليلا كاملا ، نم عن هذه الحواشى أننا لا نجد مادة ما ترتبط بها فى أفكار الحلم . ولكن البحث المستيقن يدعونى إلى الاعتقاد بأن تلك هى الحالة الأقل شيوعاً . فالقاعدة هى أن الأفكار الروابط ترجع بنا مع ذلك إلى مادة قائمة فى أفكار الحلم ، ولكنها مادة لم تكن تستطيع وحدها أن تجد حقا يؤهلها لأن تقبل فى الحلم ؛ فلا هى بالهامة فى ذاتها ولا هى بالكثيرة الحتم . ولا تخلق الوظيفة النفسية التى نحن الآن فى صددها خلقاً جديداً إلا فى حالات متطرفة — على ما يبدو . إنها — كلما أمكن ذلك — تستخدم كل ما تراه مناسباً بين مادة أفكار الحلم .

إن الشيء الذى يميز هذا الجزء من عمل الحلم وينم عنه فى الوقت نفسه هو غايته . فهذه الوظيفة تسلك على النحو الذى ينسبه الشاعر الماكر إلى الفلاسفة : أى أنها تملأ ما فى الحلم من الثغرات بخرق وسمال[1] ونتيجة جهودها هى أن الحلم يفقد مظهره اللامعقول ويفقد تفككه ويقارب نمط الخبرة المعقولة . ولكن جهودها لا تتوج دائماً بالنجاح . فهناك أحلام قد تبدو للنظرة السطحية خالية من كل مجافاة للمنطق ، معقولة ؛ فهى تبدأ من موقف ممكن تصوره ثم تمرره بسلسلة من التغييرات المتناسقة إلى أن تنتهى به — وإن ندر ذلك — إلى خاتمة ليس فيها ما يدعو إلى العجب . فأمثال هذه الأحلام قد خضعت لمراجعة بعيدة المدى من جانب هذه الوظيفة النفسية القريبة من فكرنا المستيقظ . إنها تبدو حاصلة على بعض المعنى ، ولكن هذا المعنى بعيد غاية البعد عن مغزاها الحقيقى . ولو أننا أخذنا فى تحليلها لرأينا أن تلك على التحديد هى الأحلام التى استباحت فيها المراجعة الثانوية لنفسها حرية اللعب بمادة أفكار الحلم أعظم الاستباحة ولم تبق على العلاقات القائمة فى هذه المادة إلا بأقل نصيب . إنها أحلام نستطيع أن نقول عنها : إنها تجيء وقد فسرت بالفعل مرة قبل أن نأخذ نحن فى إخضاعها لتفسيرنا المستيقظ . وهناك أحلام أخرى لم تصادف فيها هذه المراجعة المغرضة إلا نجاحاً جزئياً ؛ فالمعقولية تبدو غالبة عليها شوطاً ما ، ولكن الحلم ينقلب فإذا هو خال من المعنى ، مختلط ، ثم قد يعود فى لاحق سياقه فيكتسى ثانية بمظهر المعقولية . وهناك بعد أحلام أخرى تخفق فيها

(١) [إشارة إلى أبيات لهاينه استشهد بها فرويد بعد ذلك فى آخر محاضرة من " محاضرات تمهيدية جديدة " (فرويد ١٩٢٣ أ) : بقلنسواته الليلية و بأطراف من عباءة الغرفة يسد ثقوب البناء الكونى .]

المراجعة إخفاقاً كاملا ؛ فنرانا نواجه من غير حول ركاماً لا معنى له من مادة متقطعة .

ولست أريد أن أنكر إنكاراً قاطعاً أن هذه القوة الرابعة فى تكوين الحلم التى سنرى سريعاً أن لنا بها معرفة قديمة – فهى فى الحقيقة ، بين القوى الأربع ، الوحيدة التى لنا بها خبرة مألوفة فى غير مجال الحلم – لست أريد أن أنكر أن هذه القوة تملك القدرة على أن تخلق جديداً فى الحلم . سوى أن من المؤكد أنها – كالأخريات – تمارس فعلها أولا من طريق التفضيل والاختيار بين المادة النفسية المتكونة من قبل فى أفكار الحلم . وإن ثمت حالة تُجَنَّبُ فيها هذه القوة إلى مدى بعيد عناء العمل على تكوين واجهة للحلم – إن جاز التعبير . تلك هى الحالة التى نرى فيها بناء أو تركيباً من هذا النوع وقد وجد من قبل بين مادة أفكار الحلم ، مهيئاً للاستخدام . والبناء الذى أعنيه بقولى هذا عنصر اعتدت أن أسميه " تخييلا "[1] ، ولعلى أتجنب سوء الفهم إذا أشرت إلى حلم اليقظة[2] من حيث هو عدله فى الحياة المستيقظة . إن النصيب الذى يرجع إلى هذا العنصر فى حياتنا النفسية أمر لم يعرفه بعد أطباء النفس تمام المعرفة ولم يكشفوا عنه ، وإن يكن م. بنديكت قد أتى فى هذا الاتجاه ببداءة يبدو لى أنها تعد بالشيء الكثير . بيد أن أهمية أحلام اليقظة لم تخف على ما للفنانين من حدس لا يخيب ، وكلنا يعرف وصف دوديه لأحلام اليقظة التى كانت تراود أحد الأشخاص الثانويين فى رواية « النابات » . وتنتهى بنا دراسة الأعصبة إلى نتيجة تبعث على الدهش ، تلك هى : أن هذه التخييلات أو أحلام اليقظة هى النذر التى تسبق الأعراض الهسترية – أو على الأقل عدداً كبيراً منها – سبقاً مباشراً ، فالأعراض الهسترية لا ترتبط بذكريات حقيقية ، بل بتخييلات تشيد على أساس هذه الذكريات . وشيوع تخييلات اليقظة الشعورية هو ما يقرب من معرفتنا هذه الأبنية أو التراكيب ، ولكن إذا كانت ثمت تخييلات شعورية من هذا النوع ، فإن ثمت أيضاً عدد وفير لا شعورى ، مرغم على البقاء كذلك بسبب محتواه ولانبعاثه من مادة مكبوتة . وإن التعمق فى بحث خصائص هذه التراكيب يرينا كم نحن محقون حين نطلق عليها ذات الاسم الذى نطلقه على مخلفات فكرنا الليلى ، اسم الأحلام . فهى تشارك أحلام

(١) ["Phantasie" كلمة كانت تستخدم قبل فرويد بمعنى " المخيلة " ، فلو أن فرويد تابع لغة العصر لقال : "Phantasiebildung" أى " نتاجا المخيلة ". ومن وجهة نظر علم الأمراض النفسية فإن "التخييل" كان يقال بمعنى " حلم اليقظة " أى تفكير اجترارى لا موضوعية له أو لا يرعى الواقع . ولكن فرويد قد مده إلى "فكرنا الليلى" كما هو واضح من هذه الفقره .]

(٢) Rêve, petit roman - day dream, story

الليل فى عدد كبير من خصائصها ، ولعلنا لو كنا بدأنا ببحثها لكان ذلك أقصر طريق وأفضله إلى فهم أحلام الليل .

فهى كالأحلام تحقق رغبات ، وكالأحلام تنهض إلى مدى بعيد على انطباعات من خبرة الطفولة ، وكالأحلام تنتفع من تراخى الرقابة بعض التراخى . ولو فحصنا تركيبها لرأينا كيف يمزج الهدف المرغوب الناشط فى إحداثها المادة التى تدخل فى بنائها ويعيد ترتيبها ويصوغها فى كل جديد . فبينها وبين ذكريات الطفولة التى منها اشتقاقها علاقة كالتى بين بعض القصور ذات الطراز الباروكى فى روما وبين الأنقاض القديمة التى من أرصفتها وأعمدتها انتزعت المادة المستخدمة فى تشييد هذه الصور المعمارية الأحدث عهداً .

فنحن فى هذه " المراجعة الثانوية " التى عزوناها إلى رابع عواملنا المشتركة فى تكوين الحلم نجد هذا النوع من النشاط الذى يتجلى فى خلق أحلام اليقظة حرا من كل قيد يرجع إلى تأثير غريب . وقد كان يسعنا القول من غير مزيد من التعقيد : إن عاملنا الرابع هذا يسعى إلى تشكيل ما يعرض له من المواد تشكيلا يخرج منها شيئاً شبيهاً بحلم من أحلام اليقظة . فإن كان مثل هذا الحلم قد تكون من قبل بين دائرة أفكار الحلم ، آثر هذا العامل الرابع من عوامل عمل الحلم أن يستولى على حلم اليقظة المتكون بالفعل وحاول إدخاله فى محتوى الحلم . وهناك أحلام لا تعدو أن تكون تكراراً لتخييل طرأ أثناء النهار ولعله كان تخييلا لاشعوريا ، مثال ذلك حلم الصبى الذى رأى أنه يقود عربة من عربات الحرب مع أبطال طروادة [ص١٥٦] . وحلم « أوتو ديداسكر » [ص٣١١] قد كان جزءه الثانى على الأقل إعادة أمينة لتخييل نهارى، برىء فى ذاته ، حول محادثة أجريها مع الأستاذ ن . بيد أنه إذ كانت الشرائط التى يجب على الحلم إرضاءها قبل أن يظهر إلى الوجود معقدة إلى المدى الذى نعرفه ، فالأكثر وقوعاً هو أن التخييل النهارى لا يكون سوى جزء من الحلم أو أن الحلم لا ينفذ إليه سوى جزء من التخييل ثم بعد ذلك يعامل التخييل بوجه عام كما يعامل أى جزء آخر من المادة الكامنة، وإن بقى مع ذلك فى أحيان كثيرة متميزاً ككل فى الحلم . فكثيراً ما ترد فى أحلامى أجزاء تبرز دون غيرها لما تحدثه من أثر مختلف : فهى تبدو لى أكثر سلاسة وترابطاً من سائر أجزاء الحلم ثم فى الوقت عينه أسرع تقضياً . هذه أعلم أنها تخييلات لا شعورية اندست فى نسيج الحلم ، ولكننى

لم أفلح فى رصد تخييل من هذا القبيل . ثم إن هذا التخييلات – شأنها شأن أى مقوم آخر من مقومات الحلم – تضغط وتكثف ويطبع بعضها فوق بعض ، إلى غير ذلك . إلا أن هناك حالات متدرجة بين تلك التى تكون فيها هذه التخييلات – غير محرفة – محتوى الحلم أو على الأقل واجهته وبين الطرف النقيض حين لا تتمثل هذه التخييلات فى محتوى الحلم إلا بعنصر فرد من عناصرها أو بإشارة قصية . ومن الواضح أخيراً أن المصير الذى تنتهى إليه التخييلات المحتواة فى أفكار الحلم يتوقف كذلك على ما تشتمل عليه هذه التخييلات من مزايا توافق مقتضيات الرقابة ومقتضيات الحاجة القاهرة إلى التكثيف .

لقد كنت – وأنا أختار الأمثلة على تفسير الحلم – أتجنب حتى الساعة تلك الأحلام التى تأخذ فيها التخييلات اللاشعورية بأى نصيب يعتد به ؛ لأن إدخال هذا العنصر النفسى من شأنه أن يتطلب مناقشات طويلة فى سيكولوجية التفكير اللاشعورى . بيد أنى لا أستطيع فى هذا المقام أن أتجنب موضوع « التخييلات » كل التجنب ؛ فهى تنفذ إلى الحلم كاملة فى كثير من الأحيان ، وأكثر من ذلك أن تترك وراءها لمحات بينة نستطيع رؤيتها خلف الحلم . وعلى ذلك أضيف إلى ما سبق حلماً آخر يبدو متكوناً من تخييلين مختلفين ، متعارضين ، يتلاقيان فى قلة من المواضع ، أحدهما سطحى فى حين أن آخرهما بمثابة تفسير للأول(١) .

كان هذا الحلم – وهو الحلم الوحيد الذى لم أبد كبير عناية فى تدوينه – كان يجرى بوجه الإجمال على هذا النحو : يجلس الحالم – وهو شاب أعزب – فى المطعم الذى اعتاد أن يتناول فيه طعامه والذى صور فى الحلم تصويراً واقعياً . يقبل أناس كثيرون يبتغون البحث عنه ويريد أحدهم أن يلقى القبض عليه . يقول الحالم لأحد رفاقه الجالسين : سأدفع فيما بعد ، إنى راجع . ولكنهم يصيحون قائلين وبسمات السخرية تعلو شفاههم : نحن أدرى ، هذا ما يقوله كل واحد . يصيح من ورائه أحد الضيوف قائلا : ها هو ذا

(١) فى " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ، ١٩٠٥ هـ [الجزء الثانى]) حللت نموذجاً بديعاً من حلم من هذا النوع تركب من تخييلات طبع بعضها فوق بعض . هذا ، وقد ظللت لا أقدر نصيب التخييلات فى تكوين الحلم حق قدره طالما كنت أشتغل بتحليل أحلامى أنا أولا – وهى أحلام تنبئ فى العادة على مناقشات وأصرعة فكرية ولا تضم أحلام يقظة إلا فيما ندر ، بالنسبة إلى غيرها . فأما الآخرون فكثيراً ما يكون من السهل أن نثبت عندهم التماثل التام بين أحلام الليل وأحلام النهار . ومن الممكن فى أحيان كثيرة عند المستريين أن يحل حلم محل نوبة هسترية ، وعندئذ يستطيع المرء أن يقتنع فى غير عناء بأن النذير المباشر لكلا هذين التركيبين النفسيين كان تخييلا جاء فى صورة حلم يقظة .

واحد آخر يذهب . ويساق الحالم بعد ذلك إلى غرفة ضيقة يرى فيها شخص امرأة تحمل طفلا ويقول أحد الذين يصحبونه : هذا هو الهر موللر . هناك مفتش من رجال الشرطة أو رجل له مثل هذه الوظيفة . إنه يقلب حزمة من البطاقات أو الأوراق وهو يردد فى هذه هذه الأثناء قوله : موللر ، موللر ، موللر . وأخيراً يسأل الرجل سؤالا ما فيجيب الحالم بقوله : « قبلت » . ثم يستدير ليرى شخص المرأة ، فيلحظ أن لحية كبيرة قد نبتت لهـــا .

إن من السهل أن نفصل ههنا بين التخييلين اللذين تكون منهما هذا الحلم . فعلى السطح تخييل مداره إلقاء القبض على الحالم ، يبدو أن الحلم قد استحدثه ، ولكن من وراء ذلك يظهر تخييل الزواج كمادة لم يغير عمل الحلم من شكلها إلا تغييراً طفيفاً ، كما برزت فى وضوح خاص السمات المشتركة بين كلا التخييلين ، على نحو مايقع فى صورة من صور جالتون المركبة . فما يعد به الشاب (الذى كان إلى ذلك الحين أعزب) من العودة إلى رفاقه الجلوس والانضمام إليهم ، والشك الذى يستجيب به خلانه هؤلاء (الذين جعلتهم الخبرة أدرى) ، ثم صيحة أحدهم : ها هو ذا واحد آخر يذهب (لكى يتزوج) — كل أولئك سمات يسهل أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الآخر . والأمر كذلك فى « قبلت » التى أجاب بها الحالم سؤال الموظف . فأما تقليب حزمة الأوراق مع تكرار ذات الاسم تكراراً مستمراً فيقابل سمة ثانوية ولكنها بينة من سمات حفلات العرس ، وأعنى بها قراءة برقيات التهنئة التى تصل كلها إلى ذات العنوان حاملة اسما واحداً . ولا شك فى أن تخييل الزواج قد أحرز نصراً صريحاً على تخييل إلقاء القبض حين ظهرت العروس بشخصها فى الحلم . وقد أمكننى بعد استفسار — فهذا الحلم لم أحلله — أن أكتشف لم نبتت للعروس لحية فى آخر الحلم : ذلك أن الحالم فى اليوم الذى سبق حلمه كان يسير فى الطريق مع صديق من أصدقائه ، عدو للزواج مثله ، فلفت الحالم صديقه هذا إلى حسناء حالكة الشعر مرت بهما ، فأجابه الصديق : نعم ، او أن هؤلاء النسوة لم تنبت لهن على مر الأيام لحى كآبائهن !

وطبعى ألا يفتقر هذا الحلم إلى عناصر يذهب فيها تشويه الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فمن الجائز مثلا أن يكون قوله : « سأدفع فيما بعد » منطوياً على إشارة تومئ إلى ما كان يخشاه من موقف حميه المنتظر فى مسألة المهر . كما أن من الجلى أن مخاوف من كل نوع كانت تقعد هذا الحالم عن أن يسلم نفسه فى بشر لتخييل الزواج ، ولقد تجسمت

إحدى هذه المخاوف – وهى مخافة أن يفقده الزواج حريته – فى تحويل الأمر إلى مشهد قبض يلقى عليه .

فإذا عدنا إلى ما كنا فيه من أن عمل الحلم يقبل طواعية على استخدام تخييل متكون من قبل بدل أن يبنى تخييلا جديداً من مادة أفكار الحلم ، فقد يصبح فى مستطاعنا أن نحل لغزا من أكثر ألغاز الحلم إثارة للاهتمام . فقد ذكرت فى صفحة ٦٤ القصة المأثورة عن مورى : كيف سقطت قطعة من الخشب على قفاه وهو نائم ، فاستيقظ من حلم طويل كان شبيهاً بقصة مكتملة جرت أحداثها فى أيام الثورة الفرنسية . وإذ كان هذا الحلم متسق الأجزاء – على حسب روايته – وكان كأنما جعل ليكون تفسيراً للمنبه الذى أيقظ النائم والذى لم يكن من المستطاع التنبؤ به ، فالفرض الوحيد الممكن – فيما يبدو – هو أن هذا الحلم المحكم قد ألف جميعه وانقضى فى الفترة القصيرة الواقعة بين سقوط العارض الخشبى على فقارات مورى العنقية وبين ما أعقب من استيقاظه . ولسنا نستطيع على الإطلاق أن ننسب مثل هذه السرعة إلى نشاطنا الفكرى فى الحياة المستيقظة ، وعلى ذلك لا يكون مفر من أن نخلص إلى أن عمل الحلم يملك ميزة إعجال عملياتنا الفكرية إلى درجة تدعو إلى العجب .

بيد أن هذه النظرية التى لم تلبث أن لاقت ذيوعاً سريعاً قد وجهت إليها اعتراضات قوية من جانب بعض الكتاب الأحدث عهداً (لولوران وايجير وغيرهما) . فهم – من جهة – يتشككون فى دقة رواية مورى لحلمه ، ومن جهة أخرى يحاولون أن يبينوا أن سرعة عمليات أفكارنا المستيقظة لا تقل عنها فى هذا الحلم إذا حذفنا منه المبالغات . ولقد أثارت المناقشة مسائل تتعلق بالمبدأ لا يبدو لى أننا نستطيع حلها حلا مباشراً . بيد أننى أعترف بأن الحجج التى ساقها هؤلاء المؤلفون (مثل ايجير) على حلم المقصلة الذى رواه مورى بخاصة قد تركتنى دون أن تقنعنى . وأفضل من جانبى أن أقترح التعليل الآتى : أهو فرض مستبعد كل الاستبعاد أن يكون حلم مورى قد صور تخييلا اختزن منذ سنوات فى ذاكرته ثم نُبه – وأحرى بى أن أقول : أشير إليه – فى اللحظة التى شعر فيها مورى بالمنبه الذى أيقظه ؟ إذا كان الأمر كذلك اختفت كل الصعوبة التى نواجهها حين نسأل كيف ألفت مثل هذه القصة الطويلة فى الفترة الزمنية البالغة القصر التى كانت فى متناول الحالم ؟ ذلك أن القصة – على حسب الفرض – كانت مؤلفة من قبل . ولو أن العارض

أصاب عنق مورى وهو مستيقظ ، لكان هناك محل لمثل ذلك الخاطر : لكأنها المقصلة ! وأما والعارض يصيبه وهو نائم فإن عمل الحلم يبادر إلى استغلال هذا التنبيه غير المتوقع بما يحقق رغبة ، كأنما قد خطرت له تلك الفكرة (ومن الواجب أن يأخذ قولى هذا مأخذا استعارياً محضاً) : « ها هى ذى فرصة طيبة لتحقيق تخييل مشبع بالرغبة كونته فى هذا الوقت أو ذاك، أثناء مطالعاتى . » ولا منازعة — على ما أعتقد — فى أن قصة الحلم من النوع الذى ينزع إلى تخيله شاب تعمل فى نفسه انطباعات شديدة الإثارة ، ومن ذا الذى لم يخفق قلبه — ودع عنك رجلا فرنسياً ودارساً لتاريخ الحضارة — وهو يسمع قصص عهد الإرهاب أيام كان النبلاء رجالا ونساء ، زهرة الشعب ، يظهرون للملأ كيف يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الموت بنفس مقبلة وحين كانوا يستمسكون بتوقد قريحتهم وأناقة مسلكهم حتى لحظة النداء الذى ينفذ بعده قضاءهم ؟ وأى إغراء فى أن يتصور المرء نفسه وسط هذا كله ، شاباً بين أولئك الشبان الذين يودع كل منهم سيدته بقبلة يطبعها على يدها ثم يصعد بعدها إلى المقصلة فى غير ما وجل ؟ فإن كان الطموح هو الدافع الرئيس إلى التخييل ، فأى إغراء فى أن يضع المرء نفسه فى موضع أحد هؤلاء الأفراد الأفذاذ الذين كانوا بقوة أفكارهم وفصاحتهم الملتهبة — ليس غير — يحكمون المدينة التى كان قلب العالم يخفق فيها إذ ذاك خفقاً تشنجياً ، أولئك الذين قادتهم معتقداتهم إلى أن يرسلوا آلاف الرجال إلى حتفهم والذين كانوا يمهدون الطريق لتغيير وجه أوروبا بينا كانت رؤوسهم أنفسهم غير آمنة مقدراً لها أن تسقط يوماً تحت المقصلة ، كأنما المتخيل أحد الجيرونديين أو دانتون البطل ؟ والحق أن ذكرى مورى لحلمه قد تضمنت سمة تبدو شاهداً على أن تخييله كان من النوع الطموح ، وأعنى بها ما جاء من كونه « يساق إلى المقصلة وقد أحاط به حشد غفير » .

ثم إنه لا حاجة إلى أن يكون النائم قد مر فى خلال نومه بكل هذا التخييل المهيأ منذ زمن طويل ؛ بل يكفى أن يقف الأمر عند حد « لمسه » . والذى أعنيه هو هذا : إذا عُزفت الأقدار الأولى من مقطوعة موسيقية ثم عقب البعض — كما فى « دون چوان » — قائلا : هذا النغم من « زواج فيجارو » لموزار ، كان ذلك كافياً لأن يحرك دفعة واحدة عددا من الذكريات ما كانت تستطيع إحداها أن تلج الشعور منفردة فى اللحظة الأولى . فالنغم المفتاح كان بمثابة منفذ ينفسح فإذا التنبيه يشمل الكل فى آن معاً . ويكفى أن

تكون الحال كذلك فيما يتصل بتفكيرنا اللاشعورى : يأتى المنبه فيثير المنفذ النفسى الذى منه ينفسح الطريق لتخييل المقصلة كله ، ولكن النائم لا يذرع هذا التخييل جميعه فى خلال نومه وإنما فى ذاكرته بعد أن يستيقظ . فهو بعد أن يستيقظ يذكر كل تفاصيل هذا التخييل الذى أثير من حيث هو كل . وفى مقدورنا أن نطبق هذا التعليل ذاته – وأعنى به أن المسألة مسألة تخييل معد من قبل تم إثارته بوساطة المنبه – على غير ذلك من الأحلام التى تتبلور حول منبه مثير ، مثل حلم الموقعة الذى أتاه نابليون قبيل انفجار اللغم [ص٢٥١ و ص ٦٤] . وإن بين الأحلام التى جمعتها چوستين توبوڤولسكا فى رسالتها عن الديمومة الظاهرة للزمن فى الأحلام – حلماً يبدو لى أشد أحلام المجموعة دلالة ، هو هذا الذى رواه ماكازيو (١٨٥٧) عن مؤلف مسرحى يدعى كازيمير بونجور(١) فقد حدث ذات مساء أن رغب بونجور فى حضور العرض الأول لإحدى مسرحياته ، غير أنه كان مجهداً حتى أن النعاس أطبق جفنيه وهو جالس خلف المشاهد بينما كان يرفع الستار ، فإذا هو – فى خلال نومه – يرى فصول الرواية الخمس جميعاً ويلاحظ ما يبديه جمهور المتفرجين فى خلال المواقف المتتالية من مختلف أمارات الانفعال . وانتهى العرض وامتلأت نفسه سروراً إذ سمع الجمهور يتصايح باسمه مصحوباً بأشد التصفيق . عندئذ استيقظ فجأة فلم يكد يصدق من نفسه عيناً ولا أذناً ؛ فما جاوز العرض السطور الأولى من المشهد الأول ولا طال نومه بحال من الأحوال عن الدقيقتين . ومن المؤكد أننا لا نركب شططاً إذ نفترض فى حالة هذا الحلم أن مرور الحالم بالفصول الخمسة للرواية وملاحظته استجابة الجمهور لمختلف مواقفها لم يصدرا بالضرورة عن خلق جديد لكل هذه المادة ، بل لعلهما إنما استعادا أثراً سبق أن أتمه النشاط التخييلى بالمعنى الذى بينت . وإن توبوڤولسكا لتؤكد – شأن غيرها من الكتاب – أن الأحلام التى تنقضى فيها الأفكار انقضاء معجلا تحمل تلك الخاصة المشتركة ، وهى أنها تبدو فريدة فى اتساقها ، مخالفة فى ذلك سائر الأحلام كل المخالفة ، وأن ذكراها تكون موجزة أكثر منها مفصلة . ولكن تلك على التحقيق هى الخاصة التى يجب أن تكون لأمثال هذه التخييلات المعدة من قبل والتى لمسها عمل الحلم – وهى نتيجة قصر عن استنباطها سائر المؤلفين . غير أنى لا أؤكد مع ذلك أن كل حلم يجئ عقب منبه موقظ يقبل هذا التعليل ، ولا أننا

---

(١) توبوڤولسكا ، ص ٣٥ .

نتخلص جملة بهذه الطريقة من مشكلة انقضاء الأفكار فى الحلم انقضاء معجلا .

وههنا يستحيل علينا أن نتجنب النظر فى العلاقة بين هذه المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم وبين سائر عوامل عمل الحلم . أنفترض أن الذى يقع هو أن العوامل المشتركة فى تكوين الحلم – وأعنى بها النزوع إلى التكثيف ثم ضرورة الإفلات من الرقابة ثم اعتبار قابلية التصوير بالوسائل النفسية الميسرة للحلم – تقوم فى بادئ الأمر بتكوين محتوى حلمى موقوت من المادة المتوفرة ، ثم بعد ذلك يرتب هذا المحتوى ترتيباً جديداً بحيث يتفق بقدر الإمكان ومطالب عامل آخر (هو المراجعة الثانوية) ؟ ذلك فرض لا يكاد يلقى أقل حظ من الرجوح ، بل أحرى بنا أن نفترض أن مطالب هذا العامل الآخر هى منذ البدء إحدى الشرائط التى يتحتم على الحلم إرضاؤها وأن هذا الشرط – كغيره مما يقتضيه التكثيف والرقابة وليدة المقاومة وقابلية التصوير – يزاول فى ذات الآن عمله فى مجموع المادة الحاضرة فى أفكار الحلم ، مختاراً بينها ، آخذاً هذا مانعاً ذاك . بيد أن العامل الذى جئنا إلى معرفته آخرا هو – بين شرائط تكوين الحلم – هذا الذى تبدو مطالبه أقل الجميع إكراهاً للحلم . فأما أن هذه الوظيفة النفسية التى وصفناها باسم المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم يجب أن تعد شيئاً واحداً ونشاط فكرنا المستيقظ ، فذلك ما يرجحه الاعتبار الآتى كل الترجيح : إن تفكيرنا المستيقظ (قبل الشعورى) ينهج إزاء أية مادة مدركة يصادفها على ذات النهج الذى تسلكه هذه الوظيفة التى نحن بصددها إزاء محتوى الحلم فمن طبيعة فكرنا المستيقظ أن يقر النظام فى مثل هذه المادة وأن ينشىء العلائق فيما بينها وأن يجعلها تطابق ما نتوقعه من كل معقول . والحق أننا نغلو بعض الغلو فى هذا الاتجاه ؛ فإنما تخدعنا حيل المشعوذة لأنها تستغل عاداتنا العقلية هذه . فنحن فى محاولاتنا أن نسوى ما نتلقاه من الانطباعات الحسية على نمط معقول نرتكب فى أحيان كثيرة أشد الأخطاء غرابة ولقد نزيف الحقيقة فيما يتصل بالمادة الماثلة أمامنا . والشواهد على ذلك من الأمور المعلومة للجميع – وهو ما يعفينا من الإلحاح عليها . فنحن حين نقرأ نغض الطرف عن الأخطاء المطبعية التى تبطل المعنى ونتوهم أن ما نقرأه صحيح . وقد قيل إن ناشراً لإحدى المجلات الفرنسية الذائعة قد راهن على أن يجعل الطابع يدس كلمتى « أماما » و « خلفا » فى كل جملة من جمل مقال طويل دون أن ينتبه إلى ذلك قارئ واحد ، فكان أن كسب الرهان . وقرأت منذ سنوات فى إحدى الصحف مثالا

مضحكاً من أمثلة الربط الزائف . ذلك أن أحد الفوضويين ألقى قنبلة في مجلس النواب الفرنسى أثناء انعقاده وأخمد ديپوى الذعر الذى أعقب بصيحته الشجاعة : الجلسة مستمرة(١). وطُلب إلى الزائرين ممن كانوا فى الأروقة أن يصفوا مشاعرهم كشهود للاعتداء وكان بين هؤلاء رجلان من الريف ، فقال أحدهما : إنه قد سمع الطلق حقيقة لكنه ظنها عادة برلمانية أن يرسل طلق كلما جلس خطيب وأما الثانى – وكان فى الراجح قد استمع إلى خطب متعددة قبل ذلك – فقد خطرت له هذه الفكرة أيضاً ، سوى أنه ظن أن الطلق تكريم لا يعقب إلا الخطب التى تبز غيرها فى نجاحها .

وما من شك – إذن – فى أن تفكيرنا السوى هو العامل النفسى الذى يتقدم إلى محتوى الحلم مطالباً إياه بأن يكون معقولا ، وهو الذى يخضعه لتفسير أول ، وبذا يسبب خطأً كاملا فى فهمه . ولهذا كان من القواعد الجوهرية فى تفسيرنا ألا نلتفت فى أيه حالة إلى الاتصال الظاهر فى الحلم معتبرين إياه ذا أصل مشكوك فيه ، وأن نتأثر ذات الطريق راجعين إلى مادة أفكار الحلم ، سواء أواضحا كان الحلم أم مختلطاً .

غير أننا نلمح بذلك علام يتوقف ما تحدثنا عنه فى ص ٣٤٠ من التدرج الكيفى للحلم بين الاختلاط والوضوح . فأجزاء الحلم الواضحة هى تلك التى استطاعت المراجعة الثانوية أن تحدث فيها أثرها ، فأما تلك التى لا تفلح فيها جهود هذه المراجعة فمختلطة . وإذ كانت أجزاء الحلم المختلطة فى أحيان كثيرة هى فى الوقت نفسه أقل أجزائه من حيث الشدة الحسية ، جاز أن نستنتج أن المراجعة الثانوية سبب كذلك فى تفاوت هذه الشدة بين مختلف عناصر الحلم .

فإذا بحثت الآن عن شىء أقارن به الصورة الأخيرة التى يتخذها الحلم بعد أن يدلى تفكيرنا السوى بداوه ، لم أجد أحسن من هذه النقوش المعماة التى سلت بها « الصحائف الطائرة » قراءها زمناً طويلا . لقد كان الهدف منها أن تدخل فى روع القارئ أن هذه الجملة أو تلك – ويفضل من أجل المفارقة أن تكون الجملة عامية مضحكة قدر الإمكان – إنما هى نقش لا تينى . ولهذا تنزع الحروف من تراكيبها المقطعية وترتب على نسق جديد ، فتظهر هنا وهناك كلمة لاتينية حقيقية ، وقد نتعامى بعد ذلك فى مواضع أخرى من النقش عن خلو الحروف المنعزلة من كل معنى فنتوهم أن فى النقش أجزاء انمحت أو ثغرات .

---

(١) [La séance continue.]

فإذا كنا نريد ألا تغرر بنا المزاحة ، وجب أن ندع جانباً كل ما من شأنه أن يجعل الجملة تبدو مثل النقش وأن نصوب إلى الأحرف نظرة ثابتة غير ملقين انتباها إلى ترتيبها الظاهر ، وبذلك نركبها فى كلمات من لغتنا نحن .

وقد كانت المراجعة الثانوية – بين عوامل عمل الحلم – هى العامل الذى لحظته غالبية الكتاب فى الموضوع وقدرت له أهميته . ويأتى هاڤلوك إليس (١٩١١، ١٠) بوصف طريف لمسلكها ، فيقول :

« ولنا أن نتصور أن الأمور تجرى بالفعل على هذا النحو : يحدث الشعور النائم نفسه قائلا : ها هو ذا سيدنا مقبل ، ها هو ذا الشعور المستيقظ الذى يعلق كل هذه الأهمية الغالبة على العقل والمنطق وما إليهما . أسرع ! اجمع الأمور ونظمها – وأى نظام يكفى – قبل أن يدخل هو لكى يضع يده . »

ولقد أكد دولاكروا العينية بين هذا المنهج فى العمل وبين منهج التفكير المستيقظ توكيداً فريدا فى وضوحه ، فقال (١٩٠٤ ، ٢٥٦) :

« هذه الوظيفة المفسرة ليست بالخاصة القاصرة على الحلم فهى لا تختلف من عمل الربط المنطقى الذى نجربه على إحساساتنا ونحن أيقاظ . »(١)

ويرى جيمس سوللى هذا الرأى أيضاً . وكذلك توبوڤولسكا ، إذ تقول :

« هذه الهلاوس المتعاقبة فى غير اتساق يجهد الذهن لكن يجرى عليها ذات العمل الذى يؤديه فى اليقظة بإزاء إحساساتنا ، وأعنى به ربطها فيما بينها برباط منطقى ؛ فهو يصل كل هذه الصور المتقطعة برباط موهوم ويسد ما كان بينها من ثغرات مفرطة الاتساع . »(٢) (ص ٩٣) .

وفى رأى بعض الكتاب أن هذه العملية ، عملية الترتيب والتفسير ، تبدأ فى خلال الحلم وتواصل عملها بعد اليقظة ، فهكذا يقول پولان (ص ٥٤٧) :

« ومع هذا فقد فكرت فى كثير من الأحايين فى أن صورة الحلم قد تلقى فى ذاكرتنا

---

(١) [“Cette fonction d’interprétation n’est pas particulière au rêve; c’est le même travail de coordination logique que nous faisons sur nos sensations pendant la veille.”]

(٢) “Sur ces successions incohérentes d’hallucinations, l’esprit s’efforce de faire le même travail de coordination logique qu’il fait pendant la veille sur les sensations. Il relie entre elles par un lien imaginaire toutes ces images décousues et bouche les écarts trop grands qui se trouvaient entre elles.]

تحريفاً أو بالأحرى تصاغ صوغاً جديداً . . . فنزوع مخيلتنا إلى التنسيق مستطيع ولا شك أن يتم فى اليقظة ما قد بدأه أثناء النوم وهكذا تبدو السرعة الحقيقية لفكرنا وقد زادت زيادة مظهرية بفعل التنقيحات التى تدخلها المخيلة المستيقظة . »[1]

ويقول لوروا وتوبوفولسكا (ص ٥٩٢) :

« فأما فى حالة الحلم فالتفسير والربط لا يتمان بالاستعانه بمعطيات الحلم وحدها، بل تعين عليهما معطيات اليقظة كذلك . . . »[2]

ولم يكن بعد ذلك محيد عن أن نرى هذا العامل الذى عرف وحده دون سائر عوامل تكوين الحلم وقد لاقى تقديراً لأهميته يتسم بالمغالاة حتى نسب إليه البعض كل وظيفة خلق الحلم . فنى رأى جوبلو — وفوكو بخاصة — أن هذا الخلق يتم فى لحظة اليقظة ، أى أن هذين المؤلفين يضيفان إلى الفكر المستيقظ القدرة على تكوين الحلم من الأفكار المنبعثة فى أثناء النوم .

ويقول لوروا وتوبوفولسكا فى صدد هذه النظرية : « لقد ظن البعض أن من الممكن جعل مكان الحلم فى لحظة اليقظة ، وأضافوا إلى الفكر المستيقظ وظيفة تكوين الحلم بالصور الحاضرة فى فكر النائم . »[3]

وبهذه المناقشة فى أمر المراجعة الثانوية أردف بحث عامل آخر فى عمل الحلم ، ألقت عليه الضوء أخيراً ملاحظات دقيقة لهربرت سيلبرير . فقد ذكرت من قبل (ص٣٥٣) أن سيلبرير قد اقتنص — إن جاز هذا التعبير — عملية تحويل الأفكار

---

(١) [“Cependant j'ai souvent pensé qu'il pouvait y avoir une certaine déformation, ou plutôt reformation du rêve dans le souvenir ... La tendance systématisante de l'imagination pourrait fort bien achever après le réveil ce qu'elle a ébauché pendant le sommeil. De la sorte la rapidité réelle de la pensée serait augmenteé en apparence par ces perfectionnements dus à l'imagination eveillée.”]

(٢) [“Dans le rêve, au coutraire, l'interprétation et la coordination se font non seulement à l'aide des données du rêve, mais encore à l'aide de celles de la veille ...”]

(٣) [“On a cru pouvoir placer le rêve au moment du réveil et ils ont attribués à la pensée de la veille la fonction de construire le rêve avec les images presentes dans la pensée du sommeil.”]

إلى صور ، واقتنصها على التحديد وهي آخذة فى التمام . وكان ذلك بأن كان يتكلف ضروباً من ضروب النشاط العقلي وهو فى حالة من التعب أو النعاس . ففى مثل هذه اللحظات كانت تختفى الفكرة التى يعالجها وتحل محلها رؤية لا يلبث أن يتضح أنها بديل لما لم يكن فى العادة سوى أفكار مجردة (أنظر الأمثلة على ذلك فى الصفحة المذكورة). والذى يهمنا الآن هو أنه يحدث أحياناً أن الصورة المنبعثة – والتى تصح مقارنتها بعنصر من عناصر الحلم – كانت تمثل أحياناً شيئاً آخر غير الفكرة المعالجة ، ألا وهو التعب نفسه أو المشقة المتضمنة فى العمل أو الضيق به ، أى أنها كانت تمثل الحالة الذاتية لمن يتكلف الجهد وتمثل وضعه وهو يمارس وظائفه بدل أن تمثل موضوع هذا الجهد . ولقد أطلق سيلبرير على أمثال هذه الصور التى كان يشيع ورودها عنده إلى مدى بعيد اسم « الظاهرة الوظيفية » تفريقاً بينها وبين « الظاهرة المادية » التى كنا نتوقعها .

« مثال : كنت فى عصر يوم راقدا على أريكتى وأنا أشعر بنعاس شديد ، ومع هذا حملت نفسى على التفكير فى مشكلة فلسفية ، كنت أريد المقارنة بين آراء كانْت فى الزمن وآراء شوبنهاور . غير أنى – وبى من النعاس ما بى – لم أكن قادراً على الإمساك بقضايا كلا الفيلسوفين فى وقت واحد ، على ما تقتضيه المقارنة . وبعد عدد من المحاولات غير المجدية أشربت ذهنى بالاستنباط الكانتى مرة ثانية ، باذلا فى ذلك كل ما تملك إرادتى من القوة ، حتى أتمكن من تطبيقه على قضية شوبنهاور فى المشكلة . ثم بعد ذلك تحولت إلى هذه القضية ، ولكننى حين أردت العودة إلى كانت رأيت أن براهينه قد أفلتت منى مرة ثانية ، وعبثا حاولت استرجاعها . هذا الجهد المضيع فى فتح درج كانْت الذى كان مختزنا فى جهة ما من رأسى لم يلبث أن تمثل نصب عينى فى رمز عيانى متشكل ، كأنه صورة من حلم : أسأل موظفاً عبوساً جلس محنياً على مكتبه بعض المعلومات ، ولكنه لا يلقى بالا إلى مطلبى الذى ألح فيه ثم يستقيم فى جلسته نصف استقامة ويرسل إلى نظرة رفض غاضبة . » (سيلبرير ١٩٠٩ ، ٥١٣)

وهاهى ذى أمثلة أخرى تتعلق بالتردد بين حالتى النوم واليقظة :

« مثال رقم ٢ – الملابسات : فى الصباح ، عند الاستيقاظ . يذهب خاطرى وأنا نائم بعض النوم (أى وأنا فى حالة شفقية) إلى حلم جاءنى وأتابع الحلم به على نحو من

الأنحاء . وبينما أنا كذلك أحسست أننى أقترب من حالة اليقظة شيئاً فشيئاً ولكننى أريد البقاء فى الحالة الشفقية .

« المنظر : أقدم رجلا لأعبر مجرى ماء ولكننى أعود فأؤخرها عازماً على البقاء حيث أنا . » (سيلبرير ١٩١١ ، ٦٢٥)

« مثال رقم ٦ — الملابسات : كما فى المثال رقم ٤ (حيث كان يريد المضى فى النعاس قليلا دون أن يفوته الوقت.) أود لو واصلت النعاس برهة .

« المنظر : أودع البعض وأدبر معه (أو معها) لقاء قريباً . » [ذات المرجع ، ص ٦٢٧ .]

لقد لاحظ سيلبرير الظاهرة « الوظيفية » التى هى « تصوير لوضع ذاتى وليس لموضوع » فى خلال حالتى الشروع فى النوم والاستيقاظ منه ، قبل كل حالة أخرى . ومن الواضح أن تفسير الحلم إنما يعنى بالحالة الثانية . ومن هذه الناحية نجد أن سيلبرير قد أتى بأمثلة مقنعة تدل على أن الأجزاء الأخيرة من المحتوى الظاهر لكثير من الأحلام — وهى الأجزاء التى تأتى قبيل اليقظة مباشرة — لا تصور فى كثير من الأحيان سوى نية الاستيقاظ أو فعل الاستيقاظ نفسه . وقد يجئ هذا التصوير فى صور من قبيل اجتياز إحدى العتبات (رمزية العتبة) أو مغادرة حجرة أو دخول أخرى أو الرحيل أو العودة إلى الوطن أو الافتراق عن رفيق أو الغطس فى الماء ، إلى آخره . بيد أننى لا أستطيع إلا أن ألاحظ أننى لم أصادف عناصر حلمية يمكن ردها إلى رمزية العتبة — سواء أكان ذلك فى أحلامى أم فى أحلام الآخرين — اللهم إلا فى حالات تقل كثيراً عما تهيئه لنا روايات سيلبرير .

وليس من الممتنع على التصور ولا هو بالشيء المستبعد أن يكون فى «رمزية العتبة » هذه ما يلقى ضوءاً على بعض العناصر التى تجئ وسط سياق الحلم ، فى مواضع يتعلق فيها الأمر بذبذبة فى مستوى عمق النوم ونزوع إلى إنهاء الحلم مثلا . ومع هذا فما أتى أحد بأمثلة مستيقنة على ذلك . وإنما الأكثر وقوعاً — فيما يبدو — هو حالات الحتم المضاعف التى نرى فيها إحدى فقرات الحلم المستمد محتواها من جعبة أفكار الحلم وقد استخدمت فوق ذلك فى تصوير إحدى حالات النشاط النفسى .

وقد كانت ظاهرة سيلبرير الوظيفية هذه — وهى ظاهرة جد خليقة بالاهتمام — سبباً فى الشيء الكثير من سوء الاستغلال ، دون أن تكون لصاحبها جريرة فى ذلك . ذلك أن البعض

قد رأى فيها سنداً يدعم النزوع القديم إلى أن نخلع على الأحلام تفسيرات مجردة، رمزية . ومن الناس من يذهبون شوطاً بعيداً فى إيثار « المقولة الوظيفية » حتى أنهم ليتحدثون عن الظاهرة الوظيفية كلما عرضت فى الحلم وجوه من النشاط العقلى أو من العمليات الانفعالية ، مع أن هذه المادة لا تملك من حق الدخول فى الحلم – باعتبارها مخلفات من اليوم السابق – إلا ما يملكه سواها ، لا أكثر ولا أقل .

إننا نسلم طواعية بأن فى ظاهرة سيلبرير مشاركة ثانية يشارك بها الفكر المستيقظ فى تكوين الحلم ، وإن تكن تقل عن الأولى – تلك التى أدخلناها من قبل تحت اسم « المراجعة الثانوية » – من حيث اطراد الوقوع ومن حيث القيمة والخطر . فقد تبين لنا أن جزءاً من الانتباه الذى لا ينى عن العمل أثناء النهار يستمر أيضاً فى خلال حالة النوم متجهاً حينئذ إلى الأحلام ، فيكبح جماحها وينقدها ويحتفظ لنفسه بالحق فى أن يضع لها حداً . وكان من الطبعى أن نرى فى هذا العامل النفسى الباقى على يقظته المراقبَ الذى عزونا إليه مثل هذا التأثير التقييدى الشديد فى تشكيل الحلم . والذى تضيفه ملاحظات سيلبرير هو تلك الحقيقة : إن ضرباً من الملاحظة الذاتية يشترك عندئذ فى العمل تحت ملابسات معينة ويكون له أثره فى محتوى الحلم . فأما العلاقة المحتملة بين هذا العامل الذى يقوم بالملاحظة الذاتية والذى قد يبرز عند أصحاب العقول الفلسفية بنوع خاص وبين الإدراك الباطنى وهجاس الملاحظة والشعور ومراقبة الحلم ، فذلك ما تنبغى معالجته فى موضع آخر[١].

والآن أنخلص هذا البحث المطول فى عمل الحلم . لقد وجدنا أنفسنا نواجه ذلك السؤال : أتستخدم النفس كل قواها فى تكوين الحلم دون أن تدخر منها شيئاً ، أم تستخدم جزءاً منها مكفوف النشاط ليس غير ؟ وأدت بنا أبحاثنا إلى أن نطرح مثل هذه الصياغة للسؤال لأنها لا تكافئ الأوضاع . فإن حُتمت علينا الإجابة مع البقاء فى المجال الذى ترسمه حدود السؤال ، لم يكن مفر من الرد بالإيجاب على كلا الاحتمالين – وإن بدا أن كليهما يمنع الآخر منع الضد للضد . فالعمل النفسى الذى يبذل عند تكوين الحلم ينقسم قسمين : إحداث أفكار الحلم ثم تحويلها إلى محتوى الحلم . فأما أفكار الحلم فصحيحة كل الصحة وفى تكوينها تبذل كل الطاقة النفسية التى نحن مستطيعونها ،

(١) " فى النرجسية " (فرويد ١٩١٤ ج) .

إنها ترجع إلى فكرنا الذى لم يصبح بعد فكراً شعورياً والذى منه تنشأ أفكارنا الشعورية أيضاً بعد تعديل خاص. ومهما ارتبط بها — أعنى بأفكار الحلم — من أسئلة جديرة بالاهتمام، معماة، فهذه الأسئلة لا تحمل صلة خاصة بالحلم ولا تقتضى علاجها بين مسائله[1]. فأما الجزء الثانى من العمل وهو هذا الذى يحول الأفكار اللاشعورية إلى محتوى الحلم فقصر على الحياة الحالمة وخاصة تميزها. هذا الجزء هو عمل الحلم بالمعنى الصحيح للكلمة، وهو يبعد عن مثال الفكر المستيقظ بعدا يزيد على ما كان يظنه حتى أعند المنتقصين للنشاط النفسى فى تكوين الحلم: فهو — أعنى عمل الحلم — لا يختلف فقط من تفكير اليقظة فى كونه أكثر إهمالا وفساداً وأكثر نسياناً ونقصاً، بل هو يختلف من هذا التفكير اختلافاً كيفيا مطلقاً، ولهذا لم تجز المقارنة المباشرة بينهما. إنه لا يفكر على الإطلاق ولا يحسب أو يحكم، بل يقصر نفسه على صب كل أولئك فى صورة جديدة، ونحن نستغرق وصفه حتى نعدد الشروط التى يجب عليه إرضاؤها وهو يحدث نتاجه. هذا النتاج — وهو الحلم — يجب قبل كل شىء أن يفلت من الرقابة، ومن أجل هذا الغرض يلجأ عمل الحلم إلى نقل الشدات النفسية حتى ؤليحدث تغييراً كاملا فى جميع القيم النفسية. ثم إن الأفكار يجب أن تستحضر — على نحو مانع أو غالب — فى مادة من الآثار الذكروية البصرية والسمعية، وهو اقتضاء يفرض على عمل الحلم اعتبارات تتعلق بقابلية التصوير يواجها عمل الحلم بأن يجرى نقلات جديدة. ولا بد (على الراجح) من إحداث شدات نفسية تفوق ما يكون لأفكار الحلم ليلا، وهو غرض يتم بوساطة التكثيف الواسع النطاق الذى يشمل مقومات الحلم. فأما العلاقات المنطقية بين الأفكار فلا تنال سوى القليل من الانتباه، وهى فى نهاية الأمر تلقى تصويراً

(١) لقد كنت فى وقت من الأوقات أجد صعوبة قصوى فى جعل القراء يألفون التفرقة بين المحتوى الظاهر للحلم وبين أفكاره الكامنة، وكنت لا أفتأ أسمع اعتراضات وحججا مستخرجة من حلم لم يفسر، أخذ كما أبقت عليه الذاكرة دون التفات إلى ضرورة تفسيره. وأما اليوم وقد رضى المحللون على الأقل بإحلال تفسير الحلم محل محتواه الظاهر، فإن الكثيرين منهم يرتكبون نوعا من الخطأ يصرون عليه إصرار سابقيهم على خطئهم: ذلك أنهم يبحثون عن جوهر الحلم فى محتواه الكامن، وبذا يغضون الطرف عن التفرقة بين أفكار الحلم وعمل الحلم. إن الحلم فى جوهره ليس سوى صورة خاصة من صور التفكير صارت ممكنة بفعل شروط حالة النوم. وعمل الحلم هو الذى يخلق هذه الصورة، وفيه وحده تقوم ماهية الحلم، إنه هو الذى يفسر طبيعة الحلم الخاصة. وإنى أقول ذلك لكى نقدر تقديرا صحيحا ما يتحدث به الكثيرون من " ميل الحلم إلى الاهتمام بالمستقبل "؛ فلأن يشغل الحلم بالتماس حلول للمشكلات التى تواجه حياتنا النفسية ليس بأعجب من اشتغال حياتنا المستيقظة الشعورية بهذه المشكلات، ولا يدل بعد ذلك إلا على أن هذا العمل يمكن وقوعه فى ما قبل الشعور كذلك — وهو أمر نعرفه من قبل.

مقنعاً فى بعض الخصائص الصورية للحلم . وأما الحالات الوجدانية المتصلة بأفكار الحلم فيصيبها تغيير يقل عن الذى يتناول المحتوى الذهنى لهذه الأفكار ، والقاعدة هى أن تقمع أمثال هذه الحالات ، فإن أبقى عليها انتزعت مما ترتبط به من الأفكار وضم ما تجانس منها . جزء واحد من عمل الحلم – وأعنى به ما يأتيه الفكر المستيقظ استيقاظا جزئياً من مراجعة متفاوتة المدى – هو الذى يتفق بعض الاتفاق والنظرة التى أراد المؤلفون تطبيقها على فعل تكوين الحلم فى مجموعه .

الفصل السابع

سيكولوجيّة عمليات الحلم

إن بين الأحلام التى رواها لى أناس آخرون حلماً يستحق بنوع خاص أن نوليه فى هذا الموضع انتباهنا . لقد ذكرته لى إحدى مريضاتى ، وكانت هى قد سمعته فى محاضرة عن الأحلام ولا زلت أجهل مصدره الحقيقى . غير أن محتواه قد ترك فى نفس السيدة أثراً عميقاً حتى أنها أخذت « تحلم على غراره » أى أخذت تكرر بعض عناصره فى حلم من عندها لكى تعرب بهذا الاقتباس عن اتفاقها معه فى ناحية معينة من نواحيه .

كانت مقدمات هذا الحلم النموذجى هى الآتية : ظل أب يسهر على ابنه المريض أياماً وليالى متداولة . فلما مات الطفل ذهب إلى الغرفة المجاورة لكى يستلقى ولكنه ترك الباب مفتوحاً بحيث يستطيع النظر من غرفته إلى الغرفة التى يثوى فيها الجسد وقد التفت من حوله شموع طويلة . وكان الأب قد استأجر رجلا معمراً لينوب عنه فى السهر ، فجلس الرجل إلى جوار الولد الميت وهو يتمتم بأدعية . ومضت ساعات قليلة من النوم حلم الأب بعدها أن ابنه واقف بجوار فراشه ، يمسك بساعده ويهمس فى أذنه معاتباً : « أبى ألا ترى أنى أحترق ؟ » واستيقظ الأب فلمح وهجاً براقاً من الغرفة المجاورة ، فهرع إليها ، فرأى أن الرجل المعمر قد أخذته سنة من النوم وأن شيمعة موقدة قد سقطت فأشعلت الدثائر وساعداً من جثمان طفله الحبيب .

إنه ما من صعوبة تقف دون إيضاح هذا الحلم المثير . ولقد فسره المحاضر تفسيراً صحيحاً ، على حسب رواية السيدة : فوهج الضوء قد سطع من خلال الباب إلى عينى الرجل النائمتين وكان أن ذهب الرجل إلى النتيجة التى قد كان يستخلصها لو أنه كان مستيقظاً : أن شمعة قد سقطت فأشعلت النار فى شىء مما يحيط بجسد الابن — ولعل الأب قد ذهب ليضطجع وهو قلق ، يسأل نفسه عن مدى قدرة الرجل المعمر على القيام بمهمته .

وما كنت من جانبى لأغير من هذا التفسير فى شىء ، اللهم إلا أن أضيف أن

محتوى الحلم لا بد كان مضاعف الحتم ، وأن الكلمات التى قالها الطفل فى الحلم لابد قد أخذت من كلمات صدرت عنه بالفعل فى حياته وكانت ترتبط فى ذهن الأب بأحداث ذات بال . ولعل قول الطفل : « إنى أحترق » قد خرج من شفتيه وهو محموم فى مرضه الأخير ، ولعل « أبى ألا ترى ؟ » جملة مستمدة من موقف آخر ، حافل بانفعال شديد ، لا نعلم عنه شيئاً .

غير أننا وقد عرفنا أن الحلم عملية ذات معنى يمكن إدراجها فى سياق خبراتنا النفسية قد نتساءل : لم كان على الإطلاق أن جاء حلم فى ملابسات كهذه كانت تتطلب الاستيقاظ أسرع الاستيقاظ ؟ الجواب هو أن نلاحظ أن هذا الحلم أيضاً كان يشتمل على ما يحقق رغبة : ذلك أن الطفل الميت قد سلك فى الحلم مثل طفل حى ، ينادى أباه بنفسه ويذهب إليه فى فراشه ويمسك بساعده ، مثلما صنع — فى أغلب الظن — إبان هاته المناسبة التى أخذت كلمات الطفل الأولى فى الحلم من ذكراها ، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة أطال الأب نومه هنيهة وآثر الحلم على تدبير اليقظان لأن الحلم كان يملك القدرة على أن يظهر الطفل حيا من جديد . ولو أن الأب بدأ فاستيقظ ثم استنتج النتيجة التى حملته إلى الغرفة المجاورة لكان بذلك كأنما اختصر عمر ابنه برهة من الزمان .

فإذا تساءلنا : « أية خاصة فى هذا الحلم القصير تثير اهتمامنا ؟ » ، لم يكن شك فى الجواب . لقد ظللنا حتى الساعة وشاغلنا الغالب هو ما للأحلام من معنى خبىء ومنهج الكشف عن هذا المعنى ووسائل عمل الحلم فى ستره ، فمشكلات تفسير الحلم هى التى كانت موضوعة نصب أعيننا حتى الآن . والآن يواجهنا حلم لا مشكلة فى تفسيره ولا خفاء فى معناه ، لكنه — كما نرى — قد احتفظ مع ذلك بكل الخصائص الجوهرية التى تفرق بين الحلم واليقظة تفرقة بينة وتشعرنا بالحاجة إلى التعليل . فنحن بعد أن نفرغ من كل ما يتعلق بفعل التفسير نستطيع أن نلحظ للمرة الأولى مدى النقص فى سيكولوجيتنا عن الأحلام .

ولكن يجمل بنا قبل أن نضرب فى هذا الطريق الجديد أن نتمهل ونجيل النظر من حولنا لنرى إن كان ثمت شىء ذو بال قد نسيناه فى خلال رحلتنا حتى بلغنا الموضع الذى نحن فيه . إذ يجب أن نعلم فى جلاء أن الجزء الهين السار من طريقنا قد تركناه الآن خلفنا . فإلى هنا كانت كل الطرق التى سرنا فيها ، كانت — إذا لم أكن على خطأ كبير —

تسلمنا إلى الضوء ، إلى التعليل وإلى فهم أتم . ولكننا ما أن نبتغى التعمق فى العمليات النفسية التى يتضمنها فعل الحلم حتى تسلمنا كل الطرق إلى الظلمة . فما لنا من قوة على تعليل الأحلام من حيث هى عملية سيكولوجية ؛ لأن تعليلك شيئاً يعنى رده إلى معلوم سابق ولسنا – فى الوقت الحاضر – نملك معرفة سيكولوجية موطدة نستطيع أن ندرج تحتها ما نعلم بالفحص السيكولوجى للأحلام أنه أساس تعليلها . بل نحن على العكس مضطرون إلى أن نضع عدداً من الفروض الجديدة تمس من باب المحاولة تركيب الجهاز النفسى ولعب القوى العاملة فيه – وهى فروض يجب أن نراعى عدم الغلو فى متابعتها إلى ما وراء مستخلصاتها المنطقية الأولى وإلا ضاعت قيمتها فيما لا علم لنا به . فنحن وإن لم نرتكب خطأ فى استدلالاتنا وأدخلنا جميع الإمكانيات المنطقية فى حسابنا فإن النقص الذى يرجح وجوده فى مقدماتنا خطر يهدد حسابنا أجمعه بخسران مبين . ذلك أن من المحال أن نصل إلى نتائج فى تكوين العدة النفسية وطرائقها المتبعة فى العمل – أو يستحيل على الأقل البرهان على هذه التنائج برهانا تاماً – ابتداء من دراسة الأحلام وحدها أو أية وظيفةنفسية أخرى على حدة ، مهما بذلنا فى هذه الدراسة من العناية . بل لا بد لكى نصل إلى هذا الهدف من أن نربط بين جميع المتضمنات الثابتة المستخلصة من دراسة مقارنة لعدد بأكمله من أمثال هذه الوظائف . وهكذا فالفروض السيكولوجية التى نتتهى إليها من تحليل عمليات الحلم يجب أن تظل معلقة – إن جاز التعبير – إلى أن يتسنى وصلها بمكتشفات تكشف عنها بحوث أخرى تحاول النفاذ من زاوية مختلفة إلى لب المشكلة ذاتها .

أ

نسيان الأحلام

وعلى ذلك أقترح أن نعود إلى صعوبة لم ننظر فيها حتى الآن وهى مع ذلك كفيلة أن تقوض كل ما بذلناه من الجهود فى تفسير الحلم . فقد سمعنا من أكثر من جانب اعتراضاً حاصله أننا – والحق يقال – لا نعرف الحلم الذى نتعرض لتفسيره ، أو – بعبارة أدق – لا نملك ضماناً يضمن أننا نعرفه كما وقع حقيقة (ص٨١ –٨٢) .

فما نذكره من الحلم ونزاول فنوننا التفسيرية فى صدده قد نالت منه أولا ذاكرة لا تؤتمن، تبدو عاجزة عن الإبقاء على الحلم بنوع خاص وربما أضاعت من محتواه أهم أجزائه على على التحديد. وإنه ليحدث فى كثير من الأحيان حين ندير انتباهنا إلى حلم من أحلامنا أن نرانا نأسف لأننا وإن كنا قد حلمنا بالشيء الكثير لم نعد نستطيع أن نذكر سوى نبذ مفردة، حتى هذه لا نذكرها إلا ذكراً خالياً من كل يقين. وثانياً فإن كل الشواهد تدعونا إلى التشكك فى أن تكون ذكرانا عن الحلم مجتزئة وحسب، دون أن تكون فوق ذلك مجانبة للأمانة مكذوبة. فقد نشك من جهة فى أن يكون الحلم فى حقيقته مفكك الأوصال مبهما كما هو فى ذاكرتنا، وقد نشك من جهة أخرى فى أن يكون الحلم مترابطاً حقيقة كما هو فى روايتنا إياه، فى كوننا حين نحاول استرجاعه لا نملأ منه ما لم يكن موجوداً — أو كان موجوداً ثم نسى — بمادة جديدة مختارة من عندنا، فى كوننا لا نزوقه ونسويه ونصححه بحيث لا يبقى مجال للقطع برأى فى حقيقة محتواه. لا، بل لقد رأينا [ص ٨٣] أحد المؤلفين (شبيتا) [١] يفترض أن كل ما يظهر فى الحلم من قبيل الترتيب والاتساق إنما يدخله للمرة الأولى حين نحاول استعادته فى أذهاننا. وهكذا نكون فى خطر من أن يفلت من يدنا الموضوع الذى شرعنا فى تقديره.

لقد كنا حتى الساعة — ونحن نفسر الأحلام — لا نلقى بالا إلى مثل هذه النذر. بل كان من رأينا — على العكس — أن أصغر مقومات الحلم وأقلها ظهوراً ويقينا تقتضى من التفسير مثل ما تقتضيه تلك التى بقيت واضحة مستيقنة. فقد جاء فى حلم حقنة إرما أننى استدعيت الدكتور م. على الفور فافترضنا أنه حتى هذه اللمحة الصغيرة ما كانت لتشق طريقها إلى الحلم لو لم يكن لها أصل خاص، وكان أننا انتهينا على هذا النحو إلى قصة المريضة التعسة التى استدعيت زميلى الأكبر إلى جوارها على الفور. ثم ذلك الحلم الفاسد المظهر الذى عومل فيه الفرق بين الرقم ٥١ والرقم ٥٦ كما لو كان «كما مهملا» [٢] [ص ٤٣٥] : لقد تكرر مجئ الرقم ٥١ فى هذا الحلم أكثر من مرة، وبدل أن ننظر إلى ذلك نظرتنا إلى واقعة نسلم بها أو إلى أمر لا وزن له استدللنا منه على أن محتوى الحلم الكامن كان ينطوى على خيط فكرى ثان يؤدى إلى الرقم ٥١،

---

(١) وكذلك فوكو وتانرى.

(٢) [Quantité négligeable]

فلما قفونا هذا الأثر انتهينا إلى تخوفى من أن تكون السنوات الواحدة والخمسون كل فسحة عمرى – على مخالفة بينة من الخيط الفكرى الآخر الذى كان غالباً على الحلم وكان يغرق فى المفاخرة بعمر مديد. ثم حلم « Non vixit» [ص٤٢١]: إنه قد حوى قضية عابرة لم أعرها أول الأمر انتباها، هى: « فلما لم يفهم ب مراده سألنى ف ... الخ. » ولكننى عندما وقفت فى التفسير رجعت إلى هذه الكلمات فكانت هى التى قادتنى إلى ذكرى الطفولة التى لم يلبث أن تبين أنها كانت نقطة العقد المتوسطة بين أفكار الحلم [ص٤٨١]. وقد كان ذلك من طريق الأبيات الآتية :

ندر أن فهمتنى ،
ندر أيضاً أن فهمتك ،
ليس إلا والطين يجمعنا ،
أن كان الفهم منى ومنك(١).

ومن الممكن أن نجد فى كل تحليل أمثلة ترينا أن أتفه عناصر الحلم على التحديد أمر لا يستغنى عنه فى تفسير الحلم وأن عملنا لا يلبث أن يقف إذا أرجأنا الانتباه إلى هذه العناصر. وعلقنا مثل هذه الأهمية فى تفسير الحلم على كل ظل من ظلال العبارة اللغوية التى يأتينا الحلم فيها. بل لقد كنا إذا مثل أمامنا نص خال من المعنى غير واف – كأنما أخفق الراوى فيما أراد الالتزام به من ترجمة الحلم ترجمة صحيحة – حسبنا أيضاً لهذا القصور فى العبارة حسابه. وعلى الجملة. كنا نعالج مالم يكن فى زعم المؤلفين السابقين إلا قولا مرتجلا أملاه الهوى واقتضت الضرورة أن تلم أجزاؤه على عجل – كنا نعالجه كأنه نص مقدس. هذا التعارض يتطلب تعليلا.

إن التعليل يبين أننا على حق دون أن يجر ذلك إلى تخطئة الكتاب الآخرين ؛ لأن من شأن فهمنا المكتسب حديثاً لأصل الأحلام أن يوفق بين المتناقضات. فمن الحق أننا نشوه الحلم حين نحاول استحضاره، وههنا نلتقى مرة ثانية بالعملية التى سميناها مراجعة الحلم مراجعة ثانوية – يكثر أن تنطوى على خطأ فى الفهم – من جانب عامل الفكر السوى. ولكن هذا التشويه ذاته لا يعدو أن يكون جزءاً من المراجعة التى تخضع لها أفكار الحلم خضوعاً مطرداً نتيجة لرقابة الحلم. فالكتاب قد شعروا هنا بهذا الجزء من التشويه الحلمى الذى

---

(١) [Heine, Die Heimkehr, Buch der Lieder.]

يعمل عمله علانية أو هم لحظوه . ولكن هذا الجزء لا يعنينا أمره سوى قليلا ؛ لأننا نعلم أن تشويها أوسع مدى وأقل يسرا على الملاحظة قد استهدف الحلم من قبل ، ابتداء من الأفكار الكامنة . وإنما أخطأ هؤلاء الكتاب حين ظنوا أن التغيير الذى يصيب الحلم عند تذكره أو صوغه فى كلم تغيير تحكمى لا يمكن رده لم إلى شىء أبعد منه وأنه — من ثم — كفيل أن يزيف معرفتنا بالحلم : لقد قدروا الحتمية فى المجال النفسى دون قدرها . والحقيقة أنه ما من تحكم هنا . وفى وسعنا أن نبين بوجه عام أنه إذا خلا عنصر ما من خيط فكرى يحتمه سارع خيط ثان إلى تحتيمه على الفور . مثال ذلك أننى قد أحاول أن أستحضر عدداً استحضاراً تحكمياً محضاً ، ولكن ذلك محال ؛ فالعدد الذى يخطر لى قد حتمته أفكار من أفكارى — وإن تكن بعيدة عن مقصدى المباشر — تحتيماً ضرورياً لا شبهة فيه .[١] والتغييرات التى تصيب الحلم عند تحريره فى اليقظة لا يزيد التحكم فيها عليه فى غيرها : إنها تظل على رباط استدعائى يصل بينها وبين المحتوى الذى حلت هى محله وترشدنا إلى طريق هذا المحتوى الذى قد يتبين أنه كان بدوره بديلا من شىء آخر .

ولقد اعتدت وأنا أحلل أحلام مرضاى أن أمتحن هذا الرأى امتحاناً لم يخلف ظنى قط : كنت إذا بدت رواية أحد الأحلام مستعصية على الفهم أول الأمر سألت المريض أن يعيدها ، وهو إذ يفعل ذلك قلما يعيد ذات الألفاظ ، ولكن المواضع التى يختلف تعبيره عنها . هذه أعلم عندئذ أنها مواطن الضعف فى قناع الحلم ، وإنها لتفيدنى مثلما أفادت هاجن العلامة المطرزة على عباءة سيجفريد[٢] ، ومنها ينبغى الشروع فى تفسير الحلم . ذلك أن سؤال المريض أن يعيد الرواية قد جعلته يفطن إلى أننى عازم على أن أخصص بعض جهدى لتفسير حلمه ، وهو لهذا يسارع بحافز من الرقابة إلى تغطية مواطن الضعف فى قناع الحلم ، مستبدلا بكل عبارة نمامة عبارة أخرى أبعد مأتى ، وبذلك يجذب انتباهى إلى التعبير الذى أسقط . فالمشقة المبذولة من أجل الحيلولة دون حل الحلم

---

(١) أنظر فرويد ١٩٠١ ب الفصل السابع .

(٢) [سيجفريد بطل من أبطال الأساطير الجرمانية ، قيل : إنه لم يكن فى جسمه سوى موضع واحد يمكن أن ينفذ إليه منه الموت ، ولم يكن يعلم هذا الموضع سوى كريمهلد زوجه . ولكن هاجن — خصمه اللدود — استطاع أن يستدرج هذه حتى جعلها تعلم له ذلك الموضع بصليب صغير على عباءة سيجفريد ، وبذا أمكنه أن يطعنه الطعنة القاتلة .]

تزودنى كذلك بمقياس أقيس به مدى الحرص المصروف فى نسج ردائه .

وقد كان حظ المؤلفين السابقين من المبررات أقل حين علقوا أهمية كبرى على الشك الذى تتلقى به ملكة الحكم عندنا رواية الأحلام: فإن هذا الشك ليس مما يقوم على سُند عقلية . صحيح أن ذاكرتنا لا تعرف على وجه العموم ضامنا يضمن صحتها ، ومع هذا فنحن مدفوعون بدافع قهرى إلى أن نصدق ذاكرتنا فى حالات تربو كثيراً جداً على تلك التى يجد فيها التصديق مبررات موضوعية . فإذا كنا نتشكك فى أن يكون الحلم أو بعض تفاصيله قد روى رواية صحيحة ، فهذا الشك بدوره مستمد من رقابة الحلم ، من المقاومة التى تحول دون نفاذ أفكار الحلم إلى الشعور . فهذه المقاومة لم تستنفد بعد رغم كل ما جلبته من النقل ومن التبديل ، إنها تستمر فى صورة شك موضوعه هذه المادة التى سمح لها بالعبور . ويزيد نزوعنا إلى الخطأ فى فهم حقيقة هذا الشك حرصه على ألا يهاجم أبداً أكثر عناصر الحلم شدة ، بل العناصر الضعيفة غير المتميزة وحسب . ولكننا نعلم من قبل أن قلبا شاملا لجميع القيم النفسية قد وقع بين أفكار الحلم والحلم [ص٣٣٩] ، ولا يتيسر التشويه إلا بسحب القيمة النفسية ، وهو بهذه الوسيلة يعرب عن نفسه عادة، وقد يقنع بها أحيانا . فإن جاء أحد عناصر الحلم غير متميز ثم بعد ذلك أضيف الشك ، كان هذا علامة مؤكدة على أننا نواجه عنصراً مشتقاً من أفكار الحلم الممنوعة اشتقاقاً مباشراً . والحال هنا أشبه بها بعد ثورة كاسحة فى جمهورية من العصور القديمة أو من عصر النهضة : فقد كانت الأسر القديمة النبيلة صاحبة السيادة من قبل ترسل إلى المنفى بينما يملأ مقاعد الحكم وفود جدد ، ولم يكن يؤذن بالبقاء فى المدينة إلا لأشد أعضاء الأسر المدحورة فقراً وأقلهم حولا أو لمن لم تكن له بهذه الأسر إلا تبعة بعيدة ، وحتى هؤلاء لم يكن يترك لهم الاستمتاع بكامل حقوقهم المدنية وكان ينظر إليهم بعين الحذر . والحذر فى هذا المثال هو عِدْل الشك فى حالتنا ، ولهذا كنت أقتضى عند تحليل الحلم أن نترك ميزان تقدير درجات اليقين برمته ، فإن كان هنـــاك أقل احتمال لأن يكون مثل هذا الشىء أو ذاك قد عرض فى الحلم ، وجب أن يؤخذ هذا الاحتمال مأخذ الحقيقة الثابتة كل ثبوت . فإن لم نصمد على هذا الموقف ونحن نقفو أحد عناصر الحلم لم يلبث التحليل أن يتوقف على الفور . وإن كل تشكك فى قيمة العنصر الذى نصادفه تكون نتيجته انقطاع الأفكار اللاارادية المستترة وراء هذا العنصر عن الورود . ومن الحق

أن هذه النتيجة ليست واضحة بذاتها ؛ فلا شيء يمنع من أن يقول المرء : « لست أعلم علم اليقين إن كان هذا الشيء أو ذاك قد عرض فى الحلم ، ولكن ها هو ذا ما يخطر لى فى صدده على أية حال » ، ولكن الواقع هو أنه ما من أحد يقول ذلك أبداً . وهذا التأثير المعوق الذى ينجم عن الشك فى التحليل ، هذا التاثير على التحديد ، هو ما يعلن أن الشك فرع من الرقابة النفسية وأداة من أدواتها . إن التحليل النفسى حذر وهو محق فى حذره ، فإحدى قواعده هى الآتية : كل ما يعوق سير العمل مقاومة[1].

وكذلك نسيان الأحلام ، فإنه يظل أيضاً من غير تعليل ما لم نحسب لقوة الرقابة النفسية حسابها . صحيح أن شعورنا بأننا قد حلمنا كثيراً دون أن نبقى إلا على القليل قد تكون له معان كثيرة : كأن يكون عمل الحلم قد استمر طيلة الليل كله على نحو ملموس دون أن يترك وراءه سوى حلم قصير . ولا شك أيضاً فى أننا نزيد نسياناً للأحلام كلما انقضى الوقت بعد الاستيقاظ وكثيراً ما ينساها المرء رغم جهوده المضنية من أجل الإمساك بها . إلا أنى أرى مع ذلك أننا كما نبالغ عادة فى تقدير مدى هذا النسيان نبالغ كذلك فى تقدير مدى التقييد الذى ينال معرفتنا بالحلم من جراء هذه الثغرات . فمن الممكن فى كثير من الأحيان أن نسترجع بوساطة التحليل كل ما أفقدنا إياه النسيان من محتوى الحلم ، وفى عدد لا بأس به من الحالات على الأقل يتسنى لنا ابتداء من نبذة مفردة بقيت من الحلم ، لا أقول : أن نركب الحلم من جديد — وهذا بعد ليس بالشىء الهام — بل أفكار الحلم جميعها . وهذا العمل يقتضى قدراً كبيراً من الانتباه وضبط النفس ، هذا هو كل شىء — ولكنه يبين أن نسيان الحلم لم يكن يخلو من غرض معاد[2] [أى منطو على مقاومة] .

(١) إن من السهل أن نخطئ فهم هذه القضية المصاغة هنا فى حدود جريئة : كل ما يعوق سير العمل ماومقة . إنها بالطبع لا تعدو أن تكون قاعدة فنية ، تحذيرا للمحللين ؛ فمن المستحيل أن ننكر أن أحداثا مختلفة قد تقع فى خلال العلاج دون أن تكون المسئولية فيها راجعة إلى نيات المريض : فوالده قد يموت فجأة دون أن يكون هو الذى قضى عليه ، أو قد تشتعل الحرب فيكون اشتعالها نهاية العلاج . بيد أن القضية إلى جانب هذه المبالغة الظاهرة تتضمن مع ذلك شيئا صحيحا جديدا : فإنه حتى إذا كان الحدث الذى يعرقل العلاج حدثا حقيقيا مستقلا عن إرادة المريض فإن مدى الانقطاع الذى ينجم عن هذا الحدث أمر يتوقف فى كثير من الأحيان على المريض . ثم إن المقاومة تظهر من غير خطأ فى مدى مسارعة المريض إلى تقبل مثل هذه الفرصة وفى مغالاته فى استغلالها .

(٢) من محاضراتى التمهيدية [فرويد ١٩١٦ — ١٩١٧ ، المحاضرة السابعة] أقتبس الحلم الآتى الذى تم تفسيره بعد وقوف دام فترة قصيرة ، مثالا على التردد والشك فى الحلم مع انكماش محتواه فى الوقت عينه إلى عنصر مفرد :

ويظفر المرء بشاهد مقنع على أن نسيان الأحلام نسيان مغرض يخدم مآرب الرقابة[١] ، إذا أتيح له أن يتتبع فى أثناء التحليلات مرحلة أولى من مراحل النسيان . فليس من النادر أن نكون فى منتصف عملية التفسير فإذا جزء محذوف من الحلم ينبثق ، يقول متذكره : إنه قد ظل حتى هذه اللحظة نسياً منسياً . ثم لا يلبث أن يتضح أن هذا الجزء المنتزع من النسيان هو فى كل مرة أهم أجزاء الحلم : إنه يقع دائماً على أقصر الطرق المسلمة إلى حل الحلم ، وهو — لهذا السبب — قد عرض لمقاومة تفوق ما أصاب سواه . وبين الأحلام المنثرة فى هذا المجلد مثال أضيف جزء من محتواه على هذا النحو فى صورة فكرة لاحقة ، هو حلم السفر الذى أثار فيه من رفيقى المزعجين فى السفر [ص ٤٥٤] والذى اضطررت إلى تركه ولما أكد أبدأ تفسيره — هكذا كان مبلغه من مجافاة اللياقة . لقد كان الجزء المحذوف هو الآتى : «أقول وأنا أشير إلى كتاب لشيللر : "It is from..."

" حلمت مريضة شكاكة من مريضاتى حلما طويلا بعض الطول ، فيه تحدث إليها البعض عن كتابى فى ' النكات ' وأثنى عليه ثناء عاطرا . ثم بعد ذلك ورد فى الحلم شىء عن ' قناة ' ما ، لعله كتاب آخر عرض فيه ذكر قناة ، أو شىء آخر متعلق بقناة . . . لا تدرى . . . كان كل ذلك منهما .

" إنكم تتوقعون ولا شك أن يكون العنصر ' قناة ' — وهو على هذا الخلو من التميز — ممتنعا على التفسير . وأنتم محقون حين تتوقعون صعوبة ، ولكن الخلو من التميز ليس منشأها ، بل هذا الخلو وهذه الصعوبة يرجعان معا إلى مصدر آخر . إن المريضة لا يخطر ببالها شىء ما عن القناة ، ولست أدرى بالطبع ماذا أقول . بيد أن المريضة تذكر لى بعد أن انقضى بعض الوقت — وكان ذلك فى اليوم التالى على التحديد — تذكر أنها قد فكرت فى شىء ربما كانت له صلة بالقناة ، وكان هذا الشىء نكتة كذلك ، نكتة سمعتها : كانت باخرة تمخر العباب بين دوفر وكاليه حين دارت على سطحها محادثة بين مؤلف معروف ورجل إنجليزى . وجاء سياق الحديث بما دعا الرجل الإنجليزى إلى الاستشهاد بالعبارة الآتية : بين السامى والمضحك إن هى إلا خطوة [Du sublime au ridicule il n'y a qu'un pas] — فكان أن أجاب المؤلف : نعم ، خطوة كاليه [pas de Calais] — يريد أن يقول بذلك : إن فرنسا فى رأيه سامية وأما إنجلترا فضحكة . ولكن "خطوة كاليه" [اسم يطلق بالفرنسية على] قناة ، هى قناة المانش . فهل أرى أن لذلك صلة بالحلم ؟ أراه يقينا : إنها تأتينا بحل هذا العنصر الحلمى المعمى . أو هل تريدون الشك فى أن هذه النكتة قد كانت موجودة قبل أن يقع الحلم كفكرة لاشعورية مستترة وراء العنصر ' قناة ' ؟ أفى وسعكم أن تفترضوا أنها قد خلقت خلقا من بعد ؟ إن المستدعى الذى خطر ببال المريضة قد نم عن الشك الذى كانت تضمره وراء إعجابها الظاهر ، ولا ريب فى أن مقاومتها قد كانت العلة المشتركة على السواء لإبطاء المستدعى فى المجىء ولخلو هذا العنصر الحلمى من التميز . وانظروا هنا إلى العلاقة بين العنصر الحلمى وبين مضمونه اللاشعورى : إنها تعرض فى هيئة نبذة من هذا المضمون أو تلميح إليه ، ولكن عزلها قد جعلها تتعذر على الفهم . "

(١) أنظر فيما يتصل بالغرض من النسيان بوجه عام مقالى الصغير عن « الميكانيكيات النفسية للنسيان » (فرويد ١٨٩٨) — وهو مقال صار بعد ذلك الفصل الأول من كتابى " سيكوباثولوجية الحياة اليومية » (فرويد ١٩٠١ ب) .

ولكنى ألحظ خطأى فأستدرك مصححاً : "... It is by" عندئذ يعقب الرجل قائلا لأخته : نعم ، لقد قال ذلك دون أن يخطىء .(١)

أن يصحح المرء نفسه فى حلم — وهو ما يبدو لبعض المؤلفين عجباً عجاباً — أمر لا نحتاج يقينا إلى أن نشغل به . وإنما أميط اللثام بدل ذلك عن الذكرى التى اتخذتها نموذجاً صنعت على غراره هفوتى اللغوية فى الحلم : كنت فى التاسعة عشرة من عمرى حين زرت إنجلترا للمرة الأولى وقضيت يوماً كاملا على شاطئ البحر الإيرلندى . ولم أفوت بالطبع ما هيأته لى الفرصة من جمع الحيوانات البحرية التى تركها المد ، وكنت منصرفا بانتباهى إلى سمكة من سمك النجمة (يبدأ الحلم بكلمتى -Holothurn Holothrien [حيوان بحرى بطنى الأرجل]) حين أقبلت فتاة صغيرة أخاذة وسألتنى : "Is it a starfish ? Is it alive ?" — فأجبتها "Yes, he is alive" ولكننى استدركت فصححت جملتى على الفور وقد خجلت لهفوتى . ولقد استبدل الحلم بالهفوة التى أتيتها فى ذلك الحين هفوة أخرى يسهل الوقوع فيها كذلك على ناطق بالألمانية ؛ فقولنا : "Das Buch ist von Schiller" لا تصح ترجمته بحرف "from" ، بل بحرف "by" . فإذا علمنا بعد ذلك أن عمـــل الحلم قد أجرى هذا التبديل لأن الجناس بين الحرف الإنجليزى "from" وبين النعت الألمانى « "fromm" [تقى] كان : يمكنه من تكثيف ضخم ، لم يدهشنا ذلك بعد أن سمعنا كل ما سمعنا عن أهداف عمل الحلم وعن اختياره سبل الوصول إليها غير مبال . ولكن ما الذى أقحم ذكراى الشاطئية البريئة فى سياق هذا الحلم ؟ إنها قد أفادت من حيث كانت أكثر الأمثلة الممكنة براءة على استخدامى لكلمة ذات دلالة على الجنس فى غير موضعها ، على إقحامى الجنس "h" حيث لا موضع له . ولقد كان ذلك أحد المفاتيح اللازمة لحل الحلم . ولا تصعب تكملة البقية على من علم فوق ذلك بمأتى عنوان "Matter and Motion"(٢) :

(١) أن يصحح المرء نفسه وهو يتحدث بلغة أجنبية أمر كثير الوقوع فى الأحلام ، ولكن التصحيح يوضع فى معظم الأحيان على لسان شخص آخر . مثال ذلك أن مورى حلم مرة فى وقت كان يتعلم فيه اللغة الإنجليزية بأنه يتحدث إلى شخص كان قد زاره فى اليوم السابق قائلا : "I called for you yesterday" فأجاب الآخر مصححا : بل تقول : "I called on you yesterday" .

(٢) [" المادة والحركة " — وهو عنوان كتاب ماكسويل الذى ورد ذكره فى هذا الحلم .]

(*Mo*lière — Le *ma*lade imaginaire : La *ma*tière est-elle laudable ? — a *mo*tioin of the bowels.)(1)

وفى استطاعتى فوق ذلك أن أسوق برهاناً عيانياً على أن نسيان الأحلام ناجم إلى مدى بعيد عن المقاومة . فقد يقول أحد مرضاى : إنه قد حلم لكنه نسى حلمه فلم يبق منه أثر ، والأمر إذن كأن الحلم لم يكن قط . ونبدأ عملنا فأجىء إلى مقاومة ، وعندئذ أوضح للمريض مسألة ما وأعاونه بالتشجيع والحث على أن يتراضى مع فكرة من الأفكار لا تسره ، ثم لا أكاد أفرغ من ذلك حتى أسمعه يهتف قائلا : إنى أتذكر الآن بماذا حلمت . فذات المقاومة التى تدخلت فى عملنا ذلك اليوم هى التى جعلته كذلك ينسى الحلم ، وبالتغلب على هذه المقاومة أعدت الحلم إلى ذاكرته .

وعلى هذا النحو عينه نرى مريضاً يبلغ مرحلة معينة من العمل التحليلى فإذا هو يذكر حلماً أتاه من قبل بأيام ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وكان الحلم قد ظل حتى الآن نسياً منسياً (٢) .

ولقد زودتنا الخبرة التحليلية ببرهان آخر على أن توقف نسيان الأحلام على المقاومة يفوق كثيراً توقفه على ما بين حالتى النوم واليقظة من الاختلاف – كما كان يظن الكتاب السابقون . فليس من النادر أن يقع لى – كما يقع لغيرى من المحللين وللمرضى تحت العلاج – أن نستيقظ من النوم على حلم – إن جاز التعبير – فنشرع على الفور فى تفسيره وقد حضرت ملكاتنا العقلية حضوراً تاماً . وكنت فى مثل هذه الحالات آبى فى أحيان كثيرة أن يقر لى قرار حتى أبلغ فهم الحلم فهماً تاماً . بيد أنه كان يتفق لى أحياناً ، حين أستيقظ أخيراً فى الصباح ، أن أرانى وقد نسيت عملى التفسيرى كل النسيان كما نسيت ما هو محتوى الحلم ، وإن كنت أعلم أن حلماً قد أتانى وأننى فسرته . وإن الحالات التى تجر فيها المقاومة نتائج تفسيرى إلى النسيان لتفوق كثيراً تلك التى يفلح فيها نشاطى العقلى هذا فى الإبقاء على الحلم ماثلا فى ذاكرتى . ومع هذا فنشاطى التفسيرى لا تفرق بينه وبين أفكارى المستيقظة هوة نفسية كالتى يريد الكتاب افتراضها لكى يعللوا

---

(١) [موليير – المريض الواهم : هل المادة محمودة ؟ (وهو اصطلاح بين الأطباء فى زمن موليير بمعنى : هل البراز طيب ؟) – حركة فى الأمعاء .]

(٢) يصف إرنست جونز [١٩١٢ ب] حالة مماثلة كثيرة الوقوع ، إذ يتذكر المريض – بينما نحلل حلماً ما – حلماً آخر وقع له فى الليلة ذاتها لكنه كان قد نسيه حتى لم يعد يعرف شيئاً عن وجوده .

بها نسيان الأحلام . — وحين يعترض مورتون پرنس على تعليلى لنسيان الأحلام قائلا : إن هذا النسيان ليس إلا مثالا جزئياً من أمثلة النساوة التى تصحب الحالات النفسية المنشقة وإن استحالة تعميم تعليلى لهذه النساوة الجزئية على سائر أنواع النساوة تجعل هذا التعليل مجرداً من كل قيمة حتى فيما يتعلق بغرضه المباشر ، فإنه بذلك إنما يذكر القراء بأنه فى جميع أوصافه لهذه الحالات المنشقة لم يحاول ولو مرة أن يجد تعليلا ديناميا لهذه الظاهرة . ولو أنه فعل لرأى أن الكبت (أو — على الأدق — المقاومة الناجمة عنه) هو على السواء العلة فى هذه الحالات المنشقة وفى النساوة التى تصحب محتواها النفسى .

ولقد سنحت لى وأنا أحرر مخطوط هذا الكتاب ملاحظة بينت لى أن نسيان الأحلام لا يزيد البتة على نسيان غيرها من الأفعال النفسية وأنها إذا قورنت بالوظائف النفسية الأخرى من حيث مدى لصوقها بالذاكرة لم تخرج من المقارنة غارمة . ذلك أنى كنت قد دونت عدداً كبيراً من أحلام أتيتها ولم أستطع لسبب من الأسباب تفسيرها تفسيراً وافياً حين وقوعها ، أو تركتها من غير تفسير على الإطلاق . والآن ، بعد أن انقضى ما بين العام والعامين ، أخذت أحاول تفسير بعضها من جديد آملا الظفر بمادة أغنى أصور بها آرائى ، فكان أن كللت هذه المحاولات بالنجاح فى كل حالة من الحالات . لا ، بل أستطيع أن أقول : إن التفسير كان يتأدى بعد هذه الحقبة الطويلة على نحو أكثر يسراً منه حين كان الحلم خبرة حديثة ، والتعليل المرجح لذلك هو أنى تغلبت فى هذه الأثناء على بعض المقاومات الداخلية التى كانت تعوقنى قبلا . وكنت إذا أتيت هذه التفسيرات اللاحقة قارنت بين أفكار الحلم التى تكشفت فى زمن الحلم وبين تلك المكتشفة حديثاً والتى كانت فى معظم الأحايين أوفر كثيراً ، فكنت دائماً أرى القديمة متضمنة بين الجديدة . ولم يلبث عجبى لهذه الظاهرة أن انقطع حين تذكرت أنى قد اعتدت منذ زمن طويل حين يقص على مرضاى أحلاماً أتتهم منذ سنوات خلت — كما يفعلون أحياناً — اعتدت أن أخضع هذه الأحلام للتفسير كأنها وقعت فى الليلة السابقة ، متبعاً فى ذلك ذات المنهج ، منتهياً إلى ذات النجاح ، وسأذكر مثالين على هذة التفسيرات المرجأة حين أجىء إلى مناقشة أحلام الهيلة[ص٥٧٠]. وكنت حين أتيت أولى محاولاتى فى هذا الصدد يقودنى توقع له ما يبرره ، هو أن تسلك الأحلام فى هذا المجال مسلك

---

(١) [dissociated states]

الأعراض العصابية . فلست أجد مفراً حين أعالج عصابياً — ولنقل هستريا — بوساطة التحليل النفسى من أن أصل إلى تعليل لأول أعراض مرضه ، تلك التى اختفت منذ زمن بعيد ، كما أعلل أعراضه الحاضرة التى ساقته إلى ، وإنى لأجد حينئذ أن المشكلة الأقدم عهداً أيسر على الحل من المباشرة . ولقد وسعنى حتى فى كتاب « دراسات عن الهستريا »[1] المنشور عام ١٨٩٥ أن أسوق تعليلا لأول نوبة هسترية عرفتها امرأة تجاوزت سنها الأربعين حين كانت فى الخامسة عشرة من عمرها[2].

وهنا أورد من غير تقيد برباط محكم بضع ملاحظات تعن لى فى موضوع تفسير الأحلام ، قد تعين على توجيه القارئ إذا أراد أن يتحقق من قضاياى بالعمل على تفسير أحلامه فيما بعد .

ليس لأحد أن يتوقع رؤية تفسير أحلامه وقد ألقى بين راحتيه من غير عناء . فإدراك الظواهر المبصرة بالعين الباطنة وغيرها من الإحساسات التى نقبض عنها انتباهنا عادة يتطلب أيضاً مراناً . وتلك هى الحال حتى حين لا يكون هنالك دافع نفسى يحارب هذه المدركات ، ولكن المشقة أعظم على التأكيد فيما يتعلق « بالأفكار اللاإرادية » . فعلى طالب هذه أن يعى كل ما تدعو إلى توقعه هذه الصفحات ، وعليه — بحسب القواعد المنصوص عليها هنا — أن يمتنع فى أثناء العمل ما استطاع عن نقد كل فكرة سابقة وكل ميل عقلى أو وجدانى ، وعليه أن يذكر نصيحة كلود برنارد إلى المجرب فى المعمل الفيزيولوجى : « إعمل كما يعمل البهيم »[3] ، أى أن عليه أن يعمل فى مثابرة لا تقل عن مثابرة الحيوان وبمثل انصرافه عن النتيجة . فإن اتبعت النصيحة هانت المشقة . ولا يتم تفسير الحلم دائماً فى جلسة واحدة ، إذ ليس من النادر أن يشعر المرء بأن قدرته قد غاض معينها بعد أن يكون قد تأثر عدداً من المستدعيات ، ويستحيل الخروج من الحلم بشىء فى هذا اليوم . وهنا يحسن المرء صنعاً إذا هو انقطع ثم استأنف العمل

(١) [بروير وفرويد ١٨٩٥ ، الحالة الخامسة.]

(٢) إن الأحلام التى تقع فى سنوات الطفولة الأولى وتثبت فى الذاكرة عشرات من السنين — وكثيراً ما يكون ذلك مع احتفاظها بشدتها الحسية كاملة — تكاد تملك دائماً أهمية قصوى فى تمكيننا من فهم تاريخ التطور النفسى للمريض وتاريخ عصابه . وتحليل أمثال هذه الأحلام يصون الطبيب من الأخطاء والشكوك التى قد تقوده — ضمن غيرها — إلى الخلط النظرى .

(٣) ["Travailler Comme nue bête"]

فى يوم تال ، فقد يستهوى انتباهه عندئذ جزء آخر من محتوى الحلم يفتح له الطريق إلى طبقة جديدة من أفكار الحلم . ولنا أن نسمى ذلك بالتفسير « المتكسر » للحلم .

والصعوبة العظمى هى أن تحمل مبتدئاً فى تفسير الأحلام على التسليم بتلك الحقيقة ، وهى : أن مهمته لا تفرغ حين يصبح فى يده تفسير واف للحلم ، تفسير معقول ، متناسق ، يلقى الضوء على جميع عناصر محتوى الحلم . فإن الحلم الواحد قد يكون له أيضاً تفسير آخر ، تفسير مضاعف ، غاب عن المفسر . والحق أنه ليس بالشيء الهين أن نتصور وفرة ما يعتمل فى فكرنا من مستدعيات لاشعورية تجهد فى الإفصاح عن نفسها ، ولا أن نقدر مدى الحذق الذى يبديه عمل الحلم إذ يوفق دائماً إلى صور تعبيرية تحتمل أكثر من معنى ، مثل الطرزى الذى تحكى القصة أنه يصيب سبع ذبابات بضربة واحدة . ولسوف ينزع القارئ إلى اتهامى بالمغالاة فى المهارة من غير داع ، ولكن التجربة كفيلة أن تعلمه خيراً .

ولست أستطيع — من ناحية أخرى — أن أؤيد الرأى الذى أعرب عنه سيلبرير للمرة الأولى : أن جميع الأحلام (أو عدداً منها أو طبقات معينة بينها) تتطلب تفسيرين يزعم المؤلف فوق ذلك أن ثمت علاقة ثابتة بينهما . فأما أحد هذين التفسيرين — وهو الذى يسميه سيلبرير التفسير التحليلى النفسى — فيقال : إنه يخلع على الحلم معنى جنسياً طفلياً فى معظم الأحيان ، وأما التفسير الآخر — وهو المسمى تفسيراً روحياً — فيقال : إنه يميط اللثام عن المادة التى اصطنعها عمل الحلم من أفكار أكثر جدية ، عميقة المضمون فى كثير من الأحايين . ولم يثبت سيلبرير رأيه هذا بإيراد طائفة من الأحلام ثم تحليلها من كلتا الوجهتين . ولست أجد مفراً من القول بأن الواقعة المزعومة ليس لها وجود . فغالبية الأحلام لا تقتضى تفسيراً مضاعفاً ثم هى — على الأخص — لا تقبل تفسيراً روحياً . فأما أن نظرية سيلبرير قد تأثرت بنازع ينزع بها إلى إخفاء الملابسات التى تحيط بتكوين الأحلام وإلى صرف الانتباه عن جذورها الغريزية ، فهذا أمر واضح فيها وضوحه فى نظريات أخرى متعددة تقدم بها أصحابها فى السنوات الأخيرة . ولقد وسعنى أن أتثبت من قضايا سيلبرير فى طائفة من الحالات ، فكان التحليل يبين عندئذ أن عمل الحلم قد واجه مشكلة القيام بتحويل طائفة من الأفكار المستمدة من حياة اليقظة ، الشديدة التجريد ، المتعذرة على كل تصوير مباشر ، إلى حلم من الأحلام .

وحاول الحلم أن يحل المشكلة بالاستيلاء على مادة فكرية أخرى تتصل بالأفكار المجردة بصلة واهية تجوز تسميتها صلة استعارية، وتقبل التصوير – من ثم – فى صعوبة أقل. والتفسير المجرد لحلم نشأ على هذا النحو يعطيك الحالم إياه من غير صعوبة ما، وأما التفسير الصحيح للمادة المستبدلة فيجب التماسه بالطرق الفنية التى نعلمها.

فأما السؤال: هل من الممكن أن نفسر كل حلم؟ فلا مفر من الإجابة عنه بالنفى. إذ يجب ألا ننسى أننا حين نفسر حلماً تعارضنا القوة النفسية التى كانت سبباً فى تشويهه. فأن تمكننا اهتماماتنا العقلية وقدرتنا على ضبط النفس ومعرفتنا السيكولوجية ومرانتنا على تفسير الأحلام من السيطرة على مقاومتنا الداخلية أو ألا تمكننا – هذه إذن مسألة تناسب بين القوى. ولكن من الممكن دائماً أن يقطع المرء شوطاً ما، وشوطا يكفى على الأقل للاقتناع بأن الحلم بناء له معناه ويكفى غالباً فى حدس هذا المعنى. ومن الشائع أن نجازف بتفسير لأحد الأحلام ثم يجىء حلم تال فيتيح لنا الاستيثاق من هذا التفسير ومتابعته. كما أن مجموعة بأسرها من الأحلام تتعاقب على فترة تبلغ الأسابيع بل الشهور قد تكون فى كثير من الأحيان قائمة جميعها على أساس مشترك بحيث يجب تفسيرها متصلة بعضها ببعض. وإذا كان ثمت حلمان متعاقبان أمكننا فى أحيان كثيرة أن نلحظ كيف يدور أحدهما حول مسألة لا تعرض إلا على هامش الثانى والعكس بالعكس، بحيث يغدو تفسير كل منهما مكملا تفسير الآخر. هذا وقد اخترت من قبل أمثلة تبين أن الأحلام المختلفة التى ترد فى الليلة الواحدة يجب على وجه الإطلاق أن تعالج عند تفسيرها كما لو كانت كلا مفرداً [ص٣٣١].

والغالب أن يشتمل كل حلم – مهما أحكمنا تفسيره – على فقرة لا نرى مفراً من أن نتركها فى الظلام لأننا نلحظ فى ثنايا التفسير أن هذه نقطة اشتبكت عندها عقدة من أفكار الحلم لا حل لها، ولكنها – فوق ذلك – لم تضف شيئاً جديداً إلى محتوى الحلم. هذه هى سرة الحلم، هى الموضع الذى يسلم منه الحلم إلى المجهول. والحق أن أفكار الحلم التى نكشف عنها ونحن نفسر لا يمكن أن تكون لها نهاية مرسومة، ولا يمكن إلا أن تتشعب فى المسالك المتشابكة لعالمنا الفكرى ضاربة فى كل اتجاه. وإنما تبزغ رغبة الحلم فى موضع من هذا النسيج يزيد سمكاً على غيره، مثل نبات الفُطْر من زغبيه.

ولكن دعنا نعود إلى الوقائع المتصلة بنسيان الأحلام ؛ فقد فاتنا أن نستخلص منها نتيجة هامة . ذلك أنه إذا كانت حياتنا المستيقظة تبدى نزوعاً لا خطأ فى أمره إلى نسيان الحلم الذى تكون أثناء الليل ـ سواء أجاء نسيانه جملة عقب اليقظة أم جاء جزءاً فجزءاً على ممر النهار ـ وإذا كنا قد عرفنا أن العامل الرئيس على هذا النسيان هو هذه المقاومة النفسية للحلم التى عملت فى الليل كذلك على محاربته ما استطاعت ، فالسؤال لا شك منبعث : وكيف يتسنى على الإطلاق أن يتكون حلم فى وجه مثل هذه المقاومة ؟ دعنا نأخذ الحالة المتطرفة ، تلك التى تعود فيها الحياة المستيقظة فتتخلص من الحلم جملة كأنه لم يكن قط : إذا نحن نظرنا إلى الأمر من وجهة التوازن بين القوى ، لم يكن مفر من التسليم بأن الحلم ما كان قط ليتم لو أن المقاومة كانت قوية فى الليل قوتها فى النهار . ونتيجتنا إذن هى أن المقاومة تفقد فى الليل بعض قوتها وإن لم تفقدها جميعها ؛ فقد رأينا نصيبها فى تكوين الحلم وهى تعمل على تشويهه . ولكن لا محيد عن أن نفترض أن قوتها قد تنقص فى الليل وأن هذا التراخى فى المقاومة هو الذى يجعل تكوين الحلم شيئاً ممكنا . وهكذا نفهم من غير عناء كيف تبادر المقاومة وقد استردت مع اليقظة كل قوتها إلى التخلص مما اضطرت إلى قبوله فى حالة ضعفها . وإذا كان علم النفس الوصفى يحدثنا بأن الشرط الأول فى تكوين الحلم هو أن تكون النفس فى حالة النوم ، ففى مقدورنا الآن أن نضيف إلى ذلك القول تعليله : إن النوم يجعل تكوين الحلم أمر ممكنا لأنه ينقص قوة الرقابة النفسية الباطنة .

ولا شك فى أن من الأمور المغرية أن ننظر إلى هذه النتيجة كما لو كانت النتيجة الوحيدة التى يمكن استخلاصها من وقائع نسيان الأحلام وأن نتخذها أساساً نمضى منه إلى نتائج أكثر بعداً حول العلاقات بين القوى فى حالتى النوم واليقظة . ومع هذا سنقف حيث نحن فى الآونة الحاضرة . وسيتبين لنا ـ عندما ننفذ إلى مسافة أعمق بعض الشىء من سيكولوجية الأحلام ـ أن العوامل التى تتيح تكوين الأحلام يمكن النظر إليها من وجهة أخرى كذلك . فالمقاومة التى تحول دون صيرورة أفكار الحلم إلى الشعور قد يكون من الممكن الإفلات منها دون أن يكون قد أصابها أقل نقص فى قوتها . ومن الجائز فوق ذلك أن يكون كلا العاملين اللذين يتيحان تكوين الحلم ـ نقص الرقابة والإفلات منها ـ قد صارا ممكنين فى آن واحد بفعل حالة النوم . وهنا أقطع حبل الكلام

لكى ألتقطه بعد قريب [ص٥٦١] .

ولا بد لنا الآن من أن نشغل بطائفة أخرى من الاعتراضات التى تواجه منهجنا فى تفسير الأحلام . ذلك أن منهجنا يقوم فى أن ندع جانباً كل الأفكار الغائية التى تحكم تدبرنا عادةً وفى توجيه كل انتباهنـــا إلى عنصر مفرد من عناصر الحلم فندون كل ما يعن لنا فى صدده من الأفكار اللاإرادية ، ثم بعد ذلك نتناول الجزء التالى من الحلم ونعيد ذات العمل . ونحن نسلم أنفسنا لخواطرنا أيا كانت وجهة هذه الخواطر ، جائلين على هذا النحو من هذا إلى ذاك . بيد أننا إذ نفعل ذلك نعتقد اعتقاد الواثق أننا سوف نصل فى نهاية الدرب — دون تدخل من جانبنا — إلى أفكار الحلم التى منها نشأ الحلم . وهنا قد يعترضنا النقاد بما معناه أنه ما من عجب فى أن يسلمنا عنصر مفرد من عناصر الحلم إلى جهة ما ؛ فما من فكرة إلا أمكن أن يرتبط بها شىء من الأشياء . وإنما العجيب أن يقودك هذا التجوال التعسفى الذى يجرى اتفاقاً إلى أفكار هى أفكار الحلم بالضرورة . والراجح أننا إنما نخدع أنفسنا . فنحن نتبع خيطاً من المستدعيات ابتداء من عنصر واحد حتى يلوح لنا أن هذا الخيط قد انقطع لسبب أو لآخر . فلو أنا أخذنا بعد ذلك عنصراً ثانياً لكان من الطبيعى أن يضيق الآن مجال المستدعيات الذى كان يبدو غير محدود فى بادئ الأمر . ذلك لأن خيط الأفكار السابقة لا يزال عالقاً بالذاكرة ، ولهذا السبب كنا حين نحلل فكرة الحلم الثانية أكثر عرضة لأن نعثر على مستدعيات تحمل وجهاً مشتركاً بينها وبين المستدعيات الأولى . وحينئذ نهيئ إلى أنفسنا أننا قد كشفنا عن فكرة كانت حلقة وصل بين عنصرين من عناصر الحلم . وإذ كنا نمنح أنفسنا مطلق الحرية فى أن نصل بين الأفكار كيف نشاء ، وكنا فى واقع الأمر لا نستبعد بين طرق التأدى من فكرة إلى أخرى إلا تلك التى تعمل عند التفكير السوى ، فما من صعوبة فى أن نخرج فى نهاية المطاف بمحصول من « الأفكار المتوسطة » ، بشىء ندعوه أفكار الحلم ونزعم أنه البديل النفسى للحلم دون أن يكون ثمت أقل ضمان يضمن صحة هذا الزعم ؛ فمالنا — فيما خلا زعمنا — من معرفة أخرى بهذه الأفكار . وإنما الأمر كله عسف فى عسف ، ولسنا نعدو أن نستغل الصدفة استغلالا يظهر بمظهر البراعة ، وكل من تكلف هذه المشقة التى لا طائل من ورائها مستطيع بذلك أن يخرج من أى حلم يشاء بأى تفسير يشاء .

إنه لو أن مثل هذا الاعتراض قد وجه إلينا حقيقة لكان فى مقدورنا أن نحتكم إلى الأثر الذى تحدثه تفسيراتنا وإلى الروابط المدهشة التى تنبعث حين نقفو فكرة مفردة بين هذه الفكر وغيرها من عناصر الحلم ، وأن ننظركم هو أمر بعيد عن الاحتمال أن يكون فى المستطاع الوصول إلى نتيجة تفسر الحلم كل هذا التفسير الشامل دون أن نكون تتبعنا روابط نفسية مقامة من قبل . وفى مقدورنا كذلك أن ندافع عن أنفسنا بالتنبيه إلى أن منهجنا فى تفسير الأحلام هو هو الذى نحل بوساطته الأعراض الهسترية حيث تجد طريقتنا ضماناً لصحتها فيما يقع من انبثاق الأعراض واختفائها ، أى — إذا أردت تشبيهاً — حيث تدعم القضايا المساقة فى النصوص بالرسوم التى تصحبها . بيد أننا لا نحتاج إلى التهرب من المشكلة التى تواجهنا — وهى : كيف نوفق إلى بلوغ هدف موجود من قبل بمتابعة خيوط فكرية تسترسل استرسالا تعسفياً ، لا غاية له ؟ — لأننا إذا كنا ، والحق يقال ، لا نستطيع أن نجد لهذه المشكلة حلا إلا أننا نملك القدرة على تقويضها من أساسها .

فإنه لمن الخطأ الذى يمكن البرهان عليه أن نقول : إننا نستسلم لتيار من الأفكار لا غاية له حين نتخلى أثناء التفسير عن تدبرنا ونترك للأفكار اللاإرادية أن تنبثق . وفى وسعنا أن نبين أن كل ما نستطيعه إنما هو التخلص من أفكار غائية معلومة لنا وأننا ما أن نصنع ذلك حتى تتولى السلطة أفكار غائية غير معلومة — أو كما نقول بعبارة غير دقيقة : لا شعورية — وهذه هى التى تعين بعد ذلك مجرى الأفكار اللاإرادية . ولسنا نملك من قدرة على أن نؤثر فى أنفسنا أى تأثير يكون من شأنه أن ينبعث فينا فكر مجرد من الغائية ، ولا أنا أعلم حالة واحدة من حالات الخلط النفسى يكون من شأنها أن ينبعث مثل هذا الفكر [1] . ولقد تعجل أطباء النفس الأمور كثيراً حين عدلوا هنا عن اعتقادهم

---

(١) إن انتباهى لم يوجه إلا فيما بعد إلى كون إدوارد فون هارتمان قد رأى هذا الرأى عينه فيما يتصل بهذه المشكلة السيكولوچية الهامة . فقد جاء فى مقال كتبه پوهوريللس (١٩١٣) : " إن إدوارد فون هارتمان ، وهو يناقش نصيب اللاشعور فى الخلق الفنى (١٨٩٠ ، الجزء الأول القسم الثانى ، الفصل الخامس) قد نص صراحة على القانون القائل : إن تداعى المعانى يخضع لأفكار لاشعورية غائية — وإن لم يفطن إلى مدى انطباق هذا القانون . فهو قد أراد أن يثبت أن التأليف بين الأخيلة الحسية — إذا لم يترك للصدفة المحضة بل قصد منه إلى غاية محدودة — يقتضى معاونة اللاشعور ، وأن النصيب الذى يقوم به الاهتمام الشعورى هو حث الشعور على اختيار أنسب الأفكار بين ما لا حصر له من الأفكار الممكنة . فاللاشعور هو الذى يقوم بالاختيار المناسب لهدف يتوخاه الاهتمام ، وهذا القول ' يصدق على تداعى المعانى فى التفكير المجرد كما فى التخيل الحسى والتأليف الفنى ' وابداع النكات . لهذا السبب كان حصر تداعى المعانى بين فكرة مثيرة وفكرة مثار — بالمعنى الذى تذهب إليه سيكولوچية ترابطية خالصة — شيئا لا يمكن الأخذ به . فمثل هذا التقييد لا يجد ما يبرره ' إلا إذا كانت الحياة الإنسانية تحتمل ملابسات =

فيما للبناء النفسى من الأحكام . وإنى لأعلم أن انسياب الخواطر انسياباً مجرداً من كل فكرة غائية تحكمه أمر لا وقوع له فى مجال الهستريا والپارانويا أكثر من وقوعه فى تكوين الأحلام أو فى حلها . ومن المحتمل أنه لا يحدث فى أى من الاضطرابات النفسيه الباطنة المنشأ . وإذا أخذنا بالفرض اللامع الذى أوحاه لوريه ، فحتى أهذية الحالات الخلطية تملك معنى ولا تستغلق علينا إلا لما يتخللها من الثغرات . ولقد انتهيت بنفسى إلى هذا الرأى حين سنحت لى الفرصة بملاحظتها . فالأهذية من صنع رقابة لم تعد تتكلف إخفاء عملها ، فهى بدل أن تشارك فى خلق طبعة جديدة لا اعتراض عليها ، تمحو كل ما ينال موافقتها محوا ، دون مراعاة أى اعتبار ، بحيث يصير المتبقى خالياً من كل رباط . فهذه الرقابة تتبع منهجاً يشبه من كل الوجوه المنهج الذى تصطنعه رقابة الصحف عند الحدود الروسية إذ لا تترك الصحف الأجنبية تذهب إلى أيدى القراء المراد حمايتهم إلا بعد أن تمحو بالسواد مقداراً من الفقرات .

إن لعب الخواطر لعباً حراً ، مسترسلة مع أى خيط من المستدعيات اتفق ربما وجد فى العمليات العضوية المخية المدمرة ، وأما ما يعد كذلك فى الأعصبة النفسية فمن المستطاع دائماً تعليله بأنه نتيجة لتأثير الرقابة فى سلسلة من الخواطر دفعت إلى الصدارة بفعل أفكار غائية ظلت مستترة[١] . نعم ، إن البعض قد ارتأى أن من العلامات التى لا تخطئ على وجود تداع خال من تأثير كل فكرة غائية أن تلوح المستدعيات (أو الصور) المنبعثة وقد ترابطت فيما بينها برباط التداعى المسمى تداعياً سطحياً ، مثل الجناس أو الاشتراك اللفظى أو الاتفاق الزمنى من غير ارتباط فى المضمون أو أى تداع

= لا يكون المرء فيها حرا من كل هدف شعورى فقط ، بل كذلك من سيطرة كل اهتمام لا شعورى وكل مزاج عابر أومن مشاركتهما . ولكن ذلك شرط لا يكاد يتحقق أبدا ، لأن المرء – وإن أطلق عنان أفكاره فى الظاهر للصدفة المحضة أو أسلم نفسه بكليته لأحلام المخيلة اللاإرادية – لا يتخلص أبدا من اهتمامات أخرى موجهة وإحساسات وأمزجة مسيطرة ، تسود فى هذا الوقت ولا تسود فى ذاك ، وكل هذه تحدث دائما أثرها فى تداعى الأفكار ، (المرجع عينه ، ٢٤٦) . ولا تعرض أبدا فى الأحلام نصف الشعورية سوى الأفكار التى توافق الاهتمام (اللاشعورى) الغالب فى الآونة الحاضرة . (الموضع عينه) . وإن الإلحاح على تأثير الإحساسات والأمزجة فى التعاقب الحر للأفكار ليجعل من الممكن تبرير الطريقة المنهجية للتحليل النفسى تبريرا كاملا من وجهة نظر سيكولوجية هارتمان " – ويخلص دوپرل (١٨٨٥ ، ١٠٧) من كوننا قد نحاول فى كثير من الأحيان أن نتذكر اسما من الأسماء دون جدوى ثم إذا الاسم يخطر على بالنا بغتة من غير مقدمات إلى أن تفكيرا لاشعوريا – ولكنه مع ذلك تفكير غائى – قد وقع وأن نتيجته ولجت الشعور فجأة .

(١) لقد أتى يونج فى تحليلاته لحالات الجنون المبكر بما أيد هذه القضية تأييدا ساطعا . (أنظر يونج ١٩٠٧ .)

آخر من قبيل ما نبيحه فى النكات وفى اللعب بالألفاظ . وصحيح أن هذه الخاصة موجودة فى خيوط الفكر التى تذهب من عناصر الحلم إلى الأفكار المتوسطة ثم من هذه إلى أفكار الحلم بالمعنى الصحيح — وقد رأينا فى عدد كبير من الأحلام التى حللناها أمثلة كثيرة على ذلك أثارت ولاشك عجبنا ؛ فما من رابطة تركت مهما كان وهنها ولا من نكتة مهما كانت رداءتها ، إذا هما أفادتا فى الوصل بين فكرتين . ولكن التفسير الصحيح لهذه الاستباحة السهلة ليس بعيداً ؛ إذ كلما ربط بين عنصرين تداع ممجوج أو سطحى ، فبين العنصرين أيضاً رابطة صحيحة ، أعمق غوراً ، تخضع لمقاومة الرقابة .

فالسبب الحقيقى لغلبة المستدعيات السطحية ليس التخلى عن الأفكار الغائية ، بل ضغط الرقابة . ولا تحل المستدعيات السطحية محل العميقة إلا إذا حالت الرقابة دون المسير فى طرق الربط السوية . ولنا أن نتخيل على سبيل المماثلة منطقة جبلية انقطع فيها المرور انقطاعاً شاملا — على أثر فيضان مثلا — فسدت الطرق الرئيسة المتسعة ، ولكن المواصلات بقيت فى المسالك الوعرة المنحدرة التى لا يطرقها عادة سوى الصيادين .

ولنا هنا أن نفرق بين حالتين — وإن كانتا فى جوهرهما حالة واحدة : فى الحالة الأولى تنصب الرقابة على محض الصلة بين فكرتين لا تلقى أى منهما اعتراضاً إذا أخذت منفصلة : وحيئنذ تلج كلتا الفكرتين الشعور على التعاقب وتبقى الصلة بينهما مستترة ولكن يخطر لنا فى محلها رابط سطحى ، ما كنا قط لنفكر فيه لولا ذلك ، يقوم فى العادة على جزء آخر من المركب الفكرى غير الذى تقوم عليه الصلة المقموعة الجوهرية . وأما الحالة الثانية فحين تكون الفكرتان فى ذاتهما موضع الرقابة نتيجة لمحتواهما : حينئذ لا تظهر أى منهما فى شكلها الحقيقى بل فى صورة محرفة تحل محلها ، وتختار الفكرتان المستبدلتان بحيث تكون بينهما رابطة سطحيه تمثل الصلة الجوهرية بين الفكرتين الأصليتين. وفى كلتا هاتين الحالتين يكون ضغط الرقابة قد أدى إلى حدوث نقلة من المستدعى السوى الجدى إلى آخر سطحى غير معقول فى مظهره .

وإذ كنا نعلم بأمر هذه النقلات ، لم نكن نتردد — حين نفسر الأحلام — فى أن نستند إلى المستدعيات السطحية استنادنا إلى سواها[1] .

---

(١) من الطبعى أن هذه الاعتبارات تصدق أيضا على الحالات التى تظهر فيها المستدعيات السطحية فى محتوى الحلم صراحة ، كما فى حلمى مورى المذكورين فى ص ٩٤ :

(Pélerinage - Pelletier - Pelle; kilomètre - Kilogramme - Gilolo - Lobelia - Lopez - Lotto.)

والتحليل النفسى للأعصبة يستخدم هاتين القضيتين أوسع الاستخدام : أن الأفكار الغائية الشعورية إذا نحيت جانباً تولت أفكار غائية مستترة توجيه مجرى الخواطر ، وأن المستدعيات السطحية ليست إلا بدائل حلت بوساطة النقل محل أخرى مكبوتة ، أعمق غوراً . بل الحق أن هاتين القضيتين قد صارتا ركنين أساسيين فى فن التحليل النفسى . فأنا حين أسأل مريضاً أن يدع جانباً كل تدبر وأن يخبرنى بما يطرأ بعد ذلك على خاطره أستند استناداً راسخاً إلى ذلك الفرض : أن المريض لا يستطيع أن يهجر الفكرة الغائية التى يتضمنها العلاج بما هو علاج ، وأشعر أنى محق حين أستنتج من ذلك أن كل ما يقوله لى لا بد أن يكون له ارتباطه بحالته المرضية مهما بدا قوله بريئاً اعتباطياً . وهناك فكرة غائية أخرى لا يفطن إليها المريض ، تلك هى الفكرة المتعلقة بشخصى أنا . ولكن تقدير الأهمية التى لهاتين القضيتين تقديراً وافياً مع تعمق البحث فيهما أمر يدخل فى شرح فن التحليل النفسى من حيث هو منهج علاجى. فههنا أحد المواضع الفاصلة التى نتجاوز فيها موضوع تفسير الحلم وفق ما تقرر من قبل [1].

غير أن هناك نتيجة واحدة يمكن تحصيلها من هذه الاعتراضات ، وهى : أننا لسنا بحاجة إلى افتراض أن كل مستدعى يخطر أثناء عمل التفسير لا بد قد وقع من قبل خلال عمل الحلم فى الليل [أنظر ص٢٩٠وص٣٠٨]. صحيح ،أننا حين نقوم بالتفسير نتبع طريقاً يعود بنا من عناصر الحلم إلى أفكار الحلم وأن عمل الحلم قد اتبع طريقاً يضرب فى اتجاه مضاد ، ولكن من المستبعد غاية الاستبعاد أن يكون أى من هذين الطريقين قابلا لأن يقطع فى كلا اتجاهيه على السواء . بل أغلب الظن – فيما يبدو – هو أننا ، فى خلال النهار ، نجس خيوطا جديدة من الفكر وأننا فى أثناء ذلك نلتقى بالأفكار المتوسطة وبأفكار الحلم ، فى هذا الموضع طورا وطورا آخر فى ذاك . وفى وسعنا أن نرى كيف يتسنى بذلك أن تندس مادة النهار الجديد وسط طائفة الأفكار المفسرة ، والراجح أن هذه المادة

= ولقد تعلمت من العمل مع المرضى العصابيين ما هو نوع الذكريات التى تؤثر هذا الأسلوب فى تصويرها : إنها مناسبات قلب فيها المرء صفحات دوائر المعارف أو القواميس لكى يروى حاجته إلى جواب عن ألغاز الحياة الجنسية – كما يفعل معظم الناس فى سن المراهقة بما تتميز به هذه السن من رغبة فى الاستطلاع .

(١) إن هاتين القضيتين اللتين كانتا تبدوان بعيدتين كل البعد عن الرجوح حين قيلتا للمرة الأولى قد طبقتا منذ ذلك الحين تطبيقاً تجريبيا أيدهما ، وكان ذلك على يد يونج وتلامذته فى دراساتهم للتداعى اللفظى .

تضطر كذلك أمام ازدياد الرقابة منذ الليل إلى اتخاذ دورات جديدة أشد بعداً . ولكن عدد الأفكار الجانبية التى ننسجها على هذا النحو فى خلال النهار أو نوعها أمر لا قيمة له على الإطلاق من الناحية السيكولوجية ، ما دامت هذه الأفكار تقودنا دائماً إلى أفكار الحلم التى نبحث عنها .

ب

النكوص

أما وقد دفعنا الاعتراضات التى أثيرت فى وجهنا أو على الأقل بينا أين نجد الأسلحة التى ندافع بها عن أنفسنا ، فعلينا ألا نرجئ بعد الآن البدء فى مباحثنا السيكولوجية التى ظللنا نتدرع من أجلها هذا الوقت الطويل . ولنبدأ بإجمال الكشوف الرئيسة التى انتهى إليها بحثنا حتى الآن : إن الأحلام أفعال نفسية لها من المعنى مثل ما لغيرها . والقوة الدافعة إليها هى فى كل حالة رغبة تسعى إلى التحقيق . وخفاؤها علينا من حيث هى رغبات راجع مع الكثير من خواصها ومظاهر فسادها إلى تأثير الرقابة التى يخضع لها الحلم فى أثناء تكوينه . وهناك ، عدا ضرورة الإفلات من الرقابة ، عوامل أخرى تشارك فى تكوينها ، هذه العوامل هى : حاجة إلى تكثيف مادتها النفسية ومراعاة لإمكانية تصويرها فى صور محسوسة وحرص على أن تكون لبناء الحلم واجهة معقولة مفهومة — وإن لم يتحقق ذلك دائماً . ومن كل قضية من هذه القضايا تخرج طريق مؤدية إلى مسلمات وفروض سيكولوجية جديدة . فالعلاقة المتبادلة بين الرغبة التى هى القوة الدافعة إلى الحلم وبين الشروط الأربعة التى يخضع لها تكوين الحلم ، ثم علاقات هذه فيما بينها — كل أولئك يستلزم بحثاً . ومكان الحلم من سياق الحياة النفسية لا بد من تحديده .

ولقد بدأت هذا الفصل بأن سردت حلماً من الأحلام لكى أذكر بالمشكلات التى لا يزال علينا حلها . فهذا الحلم — عن الطفل المحترق — لم يكن بالحلم الذى يواجهنا تفسيره بصعوبة ما ، وإن كنا لم نسق تفسيره كاملا بالمعنى الذى نفهمه . وقد أثرت إذ ذاك هذا السؤال : لماذا حلم الحالم بهذا الحلم على الإطلاق بدل أن يستيقظ ؟ وعرفنا

أن أحد دوافعه إلى ذلك كان الرغبة فى تصوير ابنه كأنه ما زال حياً ، وسنعلم من مناقشاتنا الآتية [ص٥٥٩] أن هناك رغبة أخرى كان لها أيضاً نصيبها . وعلى ذلك يكون تحقيق الرغبة هو السبب الأول الذى من أجله حولت العملية الفكرية التى وقعت فى خلال النوم إلى حلم .

فإذا تركنا تحقيق الرغبة لم يبق سوى سمة واحدة تميز بين هذين النوعين من الحدث النفسى ، ذلك أن أفكار الحلم تمكن صياغتها على هذا النحو : أرى وهجاً آتياً من الحجرة المجاورة حيث يثوى الجسد ، ربما كان أن شمعة سقطت وأن ولدى يحترق . فأما الحلم فيعيد هذه الأفكار غير محرفة ولكنه يصورها فى موقف حاضر بالفعل ، مدرك بالحس كما لو كان خبرة من خبرات اليقظة . وهذه هى أعم خواص فعل الحلم وأشدها عجباً : أن تتخذ فكرة — هى دائماً فكرة أمر مرغوب فيه — شكلا موضوعياً فى الحلم ، أن تصور فى صورة مشهد أو أن تعاش — فيما يهيأ إلينا .

كيف إذن نعلل هذه الخاصة المميزة لعمل الحلم أو — لكى نضع المسألة وضعاً أكثر تواضعاً — كيف نجد لها محلا فى محيط العمليات النفسية ؟

إنا إذا قوينا النظر لاحظنا أن هناك خاصتين تبرزان فى الصورة التى اتخذها ذلك الحلم ، خاصتين تكاد كلتاهما أن تكون مستقلة عن الأخرى : الأولى أن الفكرة قد صورت فى صورة موقف حاضر بالفعل مع حذف "ربما" ، والثانية هى أن الفكرة قد حلت محلها صورة مرئية وأقوال .

فأما التغيير الذى أصاب الأفكار حين وضع ما تعرب عنه من التوقع فى صيغة المضارع فقد لا يبدو فى هذا الحلم بالذات أمراً يلفت النظر كثيراً ، وذلك راجع لما يقوم به تحقيق الرغبة فى هذا الحلم من دور ثانوى حقا بخلاف المألوف . ولكن دعنا نأخذ حلماً آخر لا تنفصل فيه رغبة الحلم من أفكار اليقظة المتابعة فى النوم ، وليكن حلم حقنة إرما مثلا [ص١٣٤] : إن فكرة الحلم التى لقيت تصويرها هنا كانت موضوعة فى صيغة التمنى : ليت أوتو كان هو المسئول عن مرض إرما ! ولكن الحلم يكبت التمنى ويستبدل به الحاضر الصريح : إن أوتو هو المسئول عن مرض إرما . وهذا إذن هو أول تغيير يدخله الحلم على أفكار الحلم ، حتى ولو خلا الحلم بعد ذلك من التشويه . بيد أننا لن نقف طويلا عند هذه الخاصة الأولى للأحلام . فى وسعنا أن نفرغ من أمرها

بالإشارة إلى التخييلات الشعورية ، إلى أحلام اليقظة التى تعالج هى الأخرى محتواها على *هذا النحو* عينه . *فمسيو چوايوز الذى يصوره دوديه [فى " النابابٍ "]* إذ كان يجول فى شوارع باريس متعطلا عن العمل بينما تعتقد بناته أن له عملا وأنه لا بد جالس إلى مكتبه ، مسيوچوايوز هذا كان — وإنه لكذلك — يحلم بالمخبآت التى ستحمل إليه حماية القوى فالوظيفة ، وكان أيضاً يحلم فى صيغة المضارع . وهكذا يستخدم الحلم صيغة المضارع مثلما تستخدمها أحلام اليقظة وبمثل حقها ؛ فالمضارع هو الصيغة التى تصور فيها الرغبات محققة .

ولكن الأحلام تختلف من أحلام اليقظة فى خاصتها الثانية ، وهى أن محتواها الفكرى يستحيل إلى صور حسية يضيف إليها المرء تصديقه ويعتقد أنه يعيشها . ويجب أن أضيف على الفور أن هذه الاستحالة من الفكرة إلى الصور الحسية لا تظهر فى جميع الأحلام ؛ فهناك أحلام تتكون من أفكار ليس غير ، دون أن نستطيع مع ذلك أن نأبى عليها حصولها على طبيعة الأحلام الجوهرية . وقد كان حلم " أوتو ديداسكر "المرتبط بتخييل نهارى عن محادثة مع الأستاذ ن. [ص ٣١١]— كان حلماً من هذا القبيل ؛ فهو لم يكن يتضمن من العناصر الحسية أكثر مما قد كان يتضمنه تفكيرى فى محتواه أثناء النهار . وما من حلم يطول بعض الطول إلا حوى عناصر لم تنل صورة حسية كغيرها بل يقف المرء عند محض التفكير فيها أو العلم بها على نحو ما اعتدنا أن نفكر فى الأشياء أو نعملها فى حياة اليقظة . ثم إن من الواجب ألا ننسى أن مثل هذا التحويل من الأفكار إلى الصور الحسية لا يقع فى الأحلام وحدها ، بل يقع أيضاً فى الهلاوس والرؤى التى قد تظهر ظهوراً أشبه بالمستقل فى حالة الصحة أو من حيث هى أعراض فى حالة الأعصبة النفسية . ومجمل القول هو أن العلاقة التى نحن الآن فى صددها ليست بحال من الأحوال بالعلاقة المانعة . ومع هذا يبقى من الحق أن هذه السمة من سمات الأحلام إذا حضرت كانت أبرز سماتها للملاحظة ، حتى أننا ربما عجزنا عن التفكير فى عالم الحلم بغيرها . بيد أنا إذا أردنا فهمها لم يكن بد من الخوض فى مناقشات تذهب بنا شوطاً بعيداً .

إن بين جميع الملاحظات التى قد نجدها عند مختلف المؤلفين فى نظرية فعل الحلم ملاحظة أحب أن أبرزها متخذاً منها نقطة البدء فى بحثنا . فقد أعرب فخنر العظيم (١٨٨٩ ، الجزء الثانى ، ٥٢٠) خلال مناقشة موجزة فى موضوع الحلم عن فكرة مؤداها أن مسرح

الحلم غير مسرح الحياة الفكرية المستيقظة [أنظر ص ٨٤] . وما هناك من فرض آخر يمكننا من أن نعقل الخصائص الفريدة التى للحياة الحالمة .

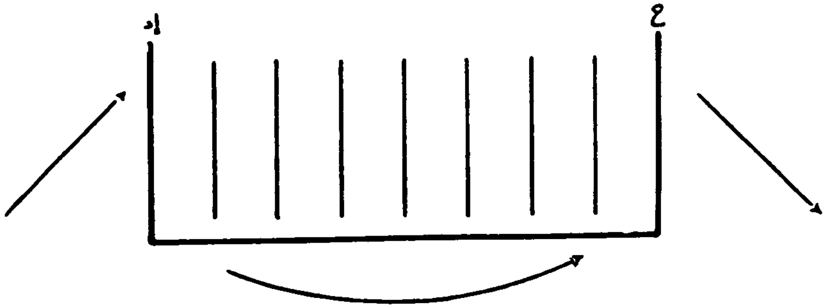
إن الفكرة التى تطالعنا من هذه الكلمات هى فكرة المحل النفسى . وههنا سنغضى النظر إطلاقاً عن كون الجهاز النفسى الذى يشغلنا الآن أمره هو جهاز نعرفه كذلك فى صورة مستحضر تشريحى ، وسنحرص على تجنب كل إغراء قد ينحو بنا إلى تحديد المحل النفسى على نحو تشريحى . فنحن باقون على أسس سيكولوجية ، ولسنا نزمع سوى متابعة الفكرة الداعية إلى أن نتصور الأداة التى تقوم بوظائفنا النفسية كما لو كانت تشبه مجهراً مركباً أو جهازاً من أجهزة التصوير الشمسى أو شيئاً من هذا القبيل . وبناء على ذلك فالمحل النفسى يعادل نقطة فى داخل هذا الجهاز تظهر عندها إلى الوجود مرحلة من المراحل التمهيدية فى تكوين الصورة . ونعلم أن هذه النقاط — فى المجهر والمقراب — هى إلى حد نقاط مثالية ، مناطق لا يتحيز فيها أى جزء من الأجزاء المقومة للجهاز . ولست أرى داعياً إلى الاعتذار عما يتضمنه هذا التشبيه أو أى تشبيه آخر يماثله من مواطن القصور . فما المراد بأمثال هذه التشبيهات إلا أن تعيننا فيما نحاوله من تفهم تعقدات الوظيفة النفسية بتقسيم الوظيفة النفسية وبإسناد مقوماتها المختلفة إلى أجزاء مختلفة من الجهاز . وما من أحد حتى الآن — فيما أعلم — قد حاول هذه المحاولة فى تخمين مجمل تركيب العدة النفسية متبعاً مثل هذا التقسيم . ولست أرى فى المحاولة ضرراً . فمن حقنا — فيما أعتقد — أن نطلق العنان لفروضنا ، ما دمنا نحتفظ بهدوء حكمنا ولا نخلط بين الصقالة والبناء . وإذ كان كل ما نحتاج إليه لكى نقترب للمرة الأولى من شىء نجهله هو التزود ببضعة فروض موقوتة ، فإنى سأوثر فى أول الأمر أغلظ الفروض وأشدها ظهوراً للعيان .

وعلى ذلك سنتصور الجهاز النفسى كما لو كان آلة مركبة نسمى مقوماتها المختلفة "جهات اختصاص"[١] أو — زيادة فى الإيضاح — "أنظمة" . ولنا بعد ذلك أن نتوقع وجود علاقة مكانية منتظمة بين هذه الأنظمة ، مثلما ترتب أنظمة العدسات المختلفة فى المقراب واحدة خلف الأخرى . وإذا أردنا التحديد ، فالحقيقة هى أننا لا نحتاج إلى أن

(١) [Instanz — لفظ استخدمه فرويد من قبل فى ص ١٦٨ وترجمناه هناك بكلمة « نظام » توخيا للبساطة ولأن اللفظين مترادفان كما هو بين هنا . ولكننا سنترجمه من الآن فصاعدا بكلمة « جهة الاختصاص » أو « دائرة الاختصاص » . واللفظ فى أصله مشتق من مجال المصطلحات القانونية ؛ فهو يطلق بالمعنى الذى نقول فيه عندنا : « محكمة درجة أول » .]

نفترض بين الأنظمة النفسية ترتيباً مكانياً قائماً بالفعل ، بل يكفينا أن يكون الترتيب الثابت قائماً على كون التهييج فى عملية نفسية ما ينتقل خلال الأنظمة المختلفة بحسب تعاقب زمنى ثابت ، وقد يختلف نمط التعاقب فى عمليات نفسية أخرى — هذه إمكانية نريد أن نترك بابها مفتوحاً . هذا ، وسنطلق من الآن فصاعداً اسم " الأنظمة ن. " [أى : النفسية] على مقومات الجهاز ؛ طلباً للاختصار .

إن أول ما يجذب انتباهنا هو أن هذا الجهاز المكون من الأنظمة ن . حاصل على اتجاه . فكل نشاطنا النفسى يبدأ من المنبهات (داخلية كانت أم خارجية) وينتهى إلى التعصيبات [1] . وعلى ذلك ننسب إلى الجهاز طرفاً حسيا وآخر حركيا : عند الطرف الحسى يوجد نظام هو الذى يستقبل الإدراكات ، وعند الطرف الحركى نظام آخر هو الذى يفتح الباب أمام النشاط الحركى . وتسير العمليات النفسية بوجه عام من الطرفى الإدراكى إلى الطرف الحركى . وعلى ذلك يمكننا أن نضع أعم صورة تخطيطية للجهاز النفسى على هذا النحو (الشكل الأول) :



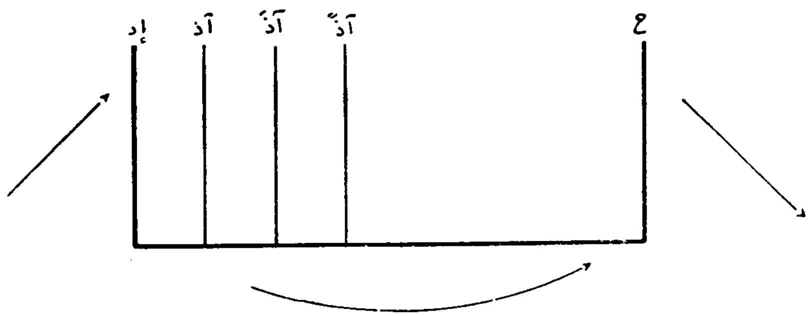
غير أن ذلك لا يعدو أن يحقق مطلباً ألفناه منذ زمن طويل ، وهو : أن الجهاز النفسى يجب أن يركب على غرار جهاز انعكاسى . فالفعل المنعكس يظل النموذج لكل نشاط نفسى .

بعدئذ نجد أن لدينا سبباً يدعونا إلى أن ندخل عند الطرف الحسى تفرقة أولى .

---

(١) [لا يستخدم فرويد كلمة " تعصيب " (Innervation) بمعنى توزيع الأعصاب . بل بمعنى آخر يغلب عنده حتى يكاد يكون مانعا ، هو : انتقال التهييج فى مجموعة من الأعصاب ، ومن الأعصاب المصدرة بنوع خاص : والتعصيب بهذا المعنى عملية تهدف إلى تفريغ التهييج أو الطاقة .]

فالإدركات التى تطبع جهازنا النفسى تترك فيه أثراً نستطيع أن نسمية " أثراً ذكرويا "، وأما الوظيفة المتعلقة به فنسميها " ذاكرة ". فإذا كنا صادقى الرغبة فيما اعتزمناه من إسناد العمليات النفسية إلى أنظمة، فالآثار الذكروية لا يمكن أن تقوم إلا فيما يعتور عناصر الأنظمة من تغييرات دائمة. ولكن هناك صعوبات واضحة تنشأ – كما قد نبه إليه البعض فى مكان آخر [1] – إذا فرضنا أن ذات النظام يستطيع أن يحفظ تغييرات عناصره حفظاً أميناً مع بقائه رغم ذلك مستعداً لاستقبال مناسبات التغيير المستجدة [أى أن يقوم بوظيفتى الذاكرة والإدراك معاً]. وعلى ذلك سنعزو هاتين الوظيفتين إلى نظامين مختلفين – وفقاً للمبدأ الذى يقود محاولتنا. سنفترض أن فى صدر الجهاز نظاماً يستقبل المنبهات الإدراكية ولكنه لا يحفظ أى أثر منها، وهو بذلك خلو من الذاكرة، بينما يقوم وراءه نظام ثان يحول تهييجات النظام الأول الآتية إلى آثار باقية. وبذلك تتخذ الصورة التخطيطية لجهازنا النفسى الشكل الآتى (شكل ٢) :



ومن المعلوم أننا نحفظ من المدركات التى تطبع النظام إد. ما يزيد على مجرد محتواها. فإدراكاتنا يرتبط كذلك بعضها ببعض فى ذاكرتنا – ارتباطاً يتم أولا وقبل كل شىء

---

(١) [فى هامش من الفصل الثالث النظرى الذى كتبه برويير فى " دراسات فى الهستريا " – وهو الكتاب الذى وضعه بالاشتراك مع فرويد (١٨٩٥) – نجد برويير يتحدث عن " الجهاز الإدراكى " فيقول : إن هذا الجهاز " يجب أن يختلف عن العضو الذى يحتفظ بالانطباعات الحسية ويستحضرها فى هيئة صور ذكروية. ذلك أن الخاصة الرئيسة لوظيفة جهاز الإدراك تقوم فى رجوعه بأسرع ما يمكن إلى الوضع الموجود من قبل، ولولا ذلك لاستحال أن يكون هناك أى إدراك صحيح. وأما الشرط فى الذاكرة فيقوم على العكس فى اقتفاء مثل هذا الرجوع، بل كل إدراك يترك تغييرات باقية. ومن المستحيل أن يفى عضو واحد بهذين الشرطين المتناقضين؛ فمرآة المقراب العاكس لا يمكن أن تعمل فى الوقت نفسه عمل اللوحة الشمسية. "]

بحسب تزامنها فى الوقوع . وهذا هو ما نسميه ظاهرة " التداعى " . وواضح إذن أن النظام إد. [الإدراكى] — وهو المجرد من كل ذاكرة — عاجز كذلك عن أن يحتفظ بأى آثار استدعائية ؛ ولو قد كان للأثر المتبقّى من ارتباط سابق أن يؤثر فى المدرك المستجد أى تأثير ، لعيقت العناصر المتفرقة إد. عن أداء وظيفتها عوقاً لا يحتمل . ولا بد لنا إذن من أن نفترض أن أساس التداعى يكمن فى الأنظمة الذكروية . وتقوم ظاهرة التداعى تبعاً لذلك فى أن التهييج ينتقل من عنصر آذ.(١) بعينه إلى عنصر آذ. آخر بأسرع مما ينتقل إلى غيره نتيجة لوهن المقاومات وتعبيد طرق الربط بينهما .

فإذا أمعنا النظر رأينا أن من الضرورى ألا نفترض وجود عنصر واحد من أمثال هذه العناصر آذ. بل كثرة متعددة منها ، يترك فيها التهييج الواحد المنقول إليها بوساطة العناصر إد. أنواعاً متنوعة من التسجيلات الثابتة . ويحتوى أول هذه الأنظمة آذ. بالطبع على تسجيل التداعى من حيث الاتفاق الزمنى ، بينما ترتب ذات المادة المدركة فى الأنظمة التالية على حسب سائر أنواع الاتفاق ، بحيث يسجل أحد هذه الأنظمة التالية علاقات التشابه مثلا ، وهكذا فى سائر الأنظمة . ومن مضيعة الوقت أن نحاول الإعراب عن الأهمية السيكولوجية التى لمثل هذا النظام . بيد أن طابعه المتميز سوف يقوم فى الدقائق الباطنة لما يكون بينه وبين عناصر المادة الذكروية الخام من العلاقات ، أى — إذا أردنا الإشارة إلى نظرية أعمق غوراً — فى مدى ما يصادفه فيه التهييج القادم من هذه العناصر من درجات المقاومة المتحكمة فى التوصيل .

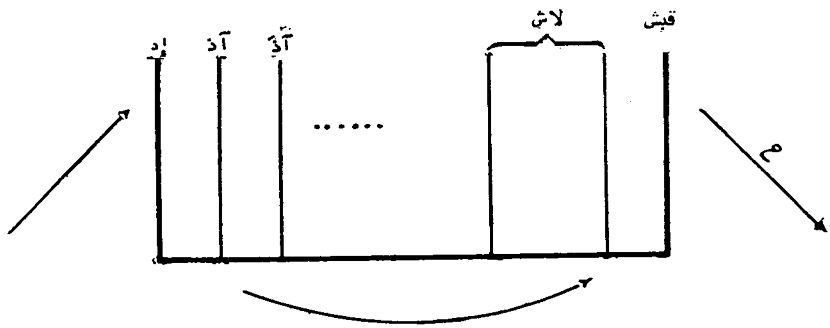
وههنا أسرد ملاحظة ذات طابع عام ، قد تكون لها متضمناتها البعيدة : إن النظام إد. — وهو المجرد من كل قدرة على حفظ التغييرات ومن كل ذاكرة تبعاً لذلك — هو الذى يمد شعورنا بكل كثرة الكيفيات الحسية وتنوعها . وأما ذكرياتنا فهى — على العكس — لاشعورية فى ذاتها ، لا تستثنى من ذلك أعمقها انطباعاً فينا . ومن الممكن جعلها شعورية ، ولكن الذى لا شك فيه هو أنها تظل قادرة على أن تحدث كل آثارها وهى فى وضعها اللاشعورى . فما نسميه الطبع إنما ينبنى على الآثار الذكروية لانطباعاتنا ، بل إن الانطباعات التى كان لها أكبر الأثر فى نفوسنا — تلك التى تلقيناها فى أول عهدنا — هى على التحديد تلك التى لا تصبح شعورية أبداً . ولكن الذكريات إذا رجعت إلى

(١) [آذ. من «آثار ذكروية» .]

الشعور من جديد لم تبد أى كيفية حسية — اللهم إلا أن يكون ذلك بمقدار طفيف جداً بالقياس إلى الإدراكات . فلو تأيد الآن أن الذاكرة والكيف المميز للشعور يمنع كلاهما الآخر فى الأنظمة ن. ، لكان فى ذلك ما يلقى ضوءاً يعد بالشىء الكثير مع الشروط التى تحكم تهييج العصبات[1] .

إن الفروض التى قدمناها حتى الآن فيما يتعلق بتركيب الجهاز النفسى قد أطلقت من غير التفات إلى الحلم وإلى التوضيحات السيكولوجية التى أمكننا أن نخرج بها منه . بيد أن شهادة الحلم ستكون مع ذلك مصدراً يعيننا على فهم قسم آخر من الجهاز . فقد رأينا [فى صفحة ١٦٨ وما بعدها] أننا لا نستطيع أن نلقى الضوء على تكوين الحلم إلا إذا جازفنا فافترضنا أن هناك جهتى اختصاص نفسيتين تخضع إحداهما الأخرى لنقد يستتبع إقصاءها عن الشعور .

وقد كانت النتيجة التى انتهينا إليها هى أن الجهة المختصة بالنقد أوثق صلة بالشعور من الجهة المنتقدة ، فهى تقف كحجاب بين الأخيرة والشعور . ثم بعد ذلك وجدنا أسباباً تدعونا إلى القول بأن الجهة الناقدة لا تختلف من تلك التى توجه حياتنا المستيقظة وتقرر أفعالنا الإرادية الشعورية [ص٤٨٦] . فإذا بدلنا الآن بجهات الاختصاص هذه أنظمة — على حسب فروضنا — لم يكن مفر بعد النتيجة المتقدمة من أن نضع النظام الناقد عند الطرف الحركى للجهاز . وعلى ذلك سندخل كلا النظامين فى تخطيطنا بعد أن نخلع عليهما أسماء تعرب عن علاقتهما بالشعور (شكل ٣) :



(١) لقد أدليت منذ ذلك الحين بفكرة مؤداها أن الشعور ينبعث بالفعل بدل الأثر الذكروى . انظر مقالى المعنون " ملحوظة حول المفكرة السحرية " (١٩٢٥ أ) . [وقد أدلى فرويد بهذه الفكرة للمرة الأولى فى " ما وراء مبدأ اللذة " [١٩٢٠ ز) .]

إننا نسمى آخر الأنظمة من ناحية الطرف الحركى " ما قبل الشعور " [قبش .] للدلالة على أن العمليات التهييجية التى تقع فيه تستطيع أن تلج الشعور دون عائق ما دامت تتوافر شروط أخرى معينة : كأن تبلغ هذه العمليات درجة معينة من الشدة ، وأن تكون الوظيفة التى لا نستطيع تسميتها بغير كلمة " الانتباه " موزعة على نحو خاص [أنظر ص ٥٧٩] إلى آخره . وهذا النظام هو الذى يملك فى الوقت عينه مقاليد الحركة . وأما النظام الذى يقع خلفه فنسميه " اللاشعور " [لاش .] ؛ لأنه لا يستطيع النفاذ إلى الشعور إلا إذا مر من طريق ما قبل الشعور مروراً تضطر فى أثنائه عملياته التهييجية إلى الوقوع تحت وطأة تعديلات معينة [1] .

فى أى نظام من هذه الأنظمة نضع الآن الحافز إلى تكوين الحلم ؟ لنضعه — تجنباً للتعقيد — فى النظام لاش. صحيح أننا سنعلم فى خلال مناقشاتنا القادمة أن هذا الوضع ليس دقيقاً غاية الدقة وأن عملية تكوين الحلم لا تستطيع أن تفلت من الارتباط بأفكار الحلم التى ترجع إلى نظام ما قبل الشعور [ص ٥٥٢] ، ولكننا سنعلم كذلك فيما بعد — حين نجىء إلى الحديث عن رغبة الحلم — أن القوة الدافعة إلى تكوين الأحلام مستمدة من اللاشعور [ص ٥٥٠] . ولأجل هذا العامل الأخير سنفترض أن النظام لاش. هو نقطة البدء فى تكوين الحلم . وسيسعى هذا الحافز على الحلم — مثل جميع الأبنية الفكرية الأخرى — إلى التقدم صوب ما قبل الشعور ، ومنه إلى الظفر بمنفذ إلى الشعور .

وترينا التجربة أن هذا الطريق الذى يؤدى من خلال ما قبل الشعور إلى الشعور يظل فى خلال النهار موصداً دون أفكار الحلم ، توصده الرقابة التى تمليها المقاومة . وفى أثناء الليل تتمكن هذه الأفكار من بلوغ الشعور ، ولكن يظهر عندئذ هذا السؤال : كيف تفعل ذلك وبفضل أى تعديل ؟ فلو أن الذى يمكن أفكار الحلم من تحقيق هذا الغرض هو كون المقاومة التى تفصل الحدود بين اللاشعور وما قبل الشعور تنخفض أثناء الليل ، لأتتنا أحلام لا تختلف طبيعتها من طبيعة أفكارنا ، أحلام تخلو من الطابع الهلوسى الذى هو موضع اهتمامنا الآن .

---

(١) لو أردنا أن نتابع هذا الرسم التخطيطى الذى تصطف فيه الأنظمة متعاقبة على طول خط واحد ، لوجب أن نحسب حساباً لتلك الحقيقة ، وهى : أن النظام الذى يجىء عقب قبش . مباشرة هو النظام الذى تجب إضافة الشعور إليه ، أو — بعبارة أخرى — أن إد . = ش .

وهكذا لا يفسر انخفاض الرقابة بين النظامين قبش. ولاش. سوى الأحلام المكونة على غرار حلم " أوتو ديداسكر " ، ولكنه لا يفسر أحلاماً كحلم الطفل المحترق الذى اتخذناه نقطة بدء فى مطلع مباحثنا .

إن الطريقة الوحيدة التى نستطيع أن نصف بها ما يقع فى الأحلام الهلوسية هى أن نقول : إن التهييج يتحرك فى اتجاه خلفى . فهو بدل أن ينتقل صوب الطرف الحركى للجهاز يتحرك جهة الطرف الحسى واخيراً يبلغ النظام الإدراكى . فإذا أطلقنا على الاتجاه الذى تسير فيه عملياتنا النفسية المنبعثة من اللاشعور فى حياة اليقظة اسم الاتجاه التقدمى ، جاز أن نقول عن الأحلام : إنها ذات طابع نكوصى [1].

هذا النكوص من غير شك أحد الخصائص السيكولوجية لعملية الحلم ، ولكن يجب ألا ننسى أنه لا يقع فى الأحلام وحدها . فالتذكر المتعمد وغيره من العمليات المقومة لتفكيرنا السوى يتضمن حركة نكوصية فى الجهاز النفسى من فعل فكرى مركب إلى ما يكمن وراءه من المادة الخام للآثار الذكروية . إلا أن هذه الحركة القهقرية لا تمتد أبداً إلى ما وراء الصور الذكروية ، إنها لا تفلح فى بعث الصور الإدراكية بعثاً هلوسياً . فلماذا يختلف الأمر فى الحلم؟ لقد اضطررنا ونحن نبحث عمل الحلم إلى أن نفترض أن درجات الشدة المتصلة بالأفكار تنقل نقلاتاماً من فكرة إلى أخرى بوساطة عمل الحلم [ص٣٣٩]. والراجح أن هذا التغيير الذى يدخل على النهج السوى للنشاط النفسى هو الذى يتيح استثمار [2] النظام إد. فى الاتجاه المعكوس ، ابتداء من الأفكار إلى أكمل الوضوح الحسى .

إننى أرجو أن نكون بعيدين عن التغرير بأنفسنا بالمبالغة فى تقدير أهمية هذه المناقشات ؛ فما جاوزنا أن نخلع اسماً على الظاهرة المستغلقة . فنحن نسمى نكوصاً ما يقع فى الحلم حين

---

(١) إننا نجد أول إشارة إلى النكوص عند ألبرت الأكبر [القرن الثالث عشر] . فهو يقول : إن المخيلة تبنى الأحلام من صور الموضوعات الحسية المدخرة ، وتتم هذه العملية فى اتجاه هو عكسه فى اليقظة (نقلا عن ديبجن ١٩١٢ ، ١٤) – ويقول هوبز فى " اللوياثان " (١٦٥١) : " وخلاصة القول أن أحلامنا هى عكس أخيلتنا المستيقظة ؛ فالحركة تبدأ – ونحن أيقاظ – من طرف ، وتبدأ – حين نحلم – من طرف آخر . " (عن هافلوك إليس ، ١٩١١ ، ١٠٩ .)

["In sum, our dreams are the reverse of our waking imaginations, the motion, when we are awake, beginning at one end, and when we dream at anather."]

(٢) [أنظر ص ١٩٨ هـ ٢ فى شرح هذا المصطلح .]

تتحول الفكرة من جديد إلى الصورة الحسية التى منها كان منشؤها . ولكن حتى هذه الخطوة تقتضى تبريراً : فعلام التسمية إذا كانت لا تعلمنا جديداً ؟ إنى أعتقد أن اسم " النكوص " يفيدنا بمقدار ما يفيد فى ربط ظاهرة نعلمها من قبل بصورتنا التخطيطية التى جعلنا فيها للجهاز النفسى اتجاهاً . ولكن ههنا تعود علينا مثل هذه الصورة – للمرة الأولى – بما يعوضنا عن عناء رسمها ؛ لأن هناك خاصة أخرى من خصائص تكوين الحلم سوف تنجلى لنا بمجرد الرجوع إلى هذه الصورة دون مزيد من التأمل . ذلك أننا إذا اعتبرنا عملية الحلم نكوصاً فى داخل جهازنا النفسى المفترض ، رأينا على الفور العلة فى هذه الواقعة المثبتة بالاستقراء ، وأعنى بها : أن جميع العلاقات الفكرية القائمة بين أفكار الحلم تضيع أثناء عمل الحلم أو لا تجد العبارة عنها إلا بعد لأو ، فإن هذه العلاقات الفكرية ليست محتواة – بحسب صورتنا التخطيطية – فى الأنظمة آذ. الأولى بل فى الواقعة بعدها ، ولا بد لها عند حدوث النكوص من أن تفقد كل وسيلة للتعبير عنها باستثناء الصور الإدراكية : فى حالة النكوص ينحل بناء أفكار الحلم إلى مادته الخام .

ولكن ما هو هذا التغيير الذى يتيح نكوصاً لا يتسنى وقوعه فى أثناء النهار ؟ إن علينا أن نقنع فى هذا الباب ببعض الظنون . صحيح أن المسألة يقيناً لا بد مسألة تغييرات فى استثمار الطاقة المنصرفة إلى الأنظمة المختلفة ، تغييرات يكون من جرائها أن تصير هذه الأنظمة أكثر أو أقل قبولا لمرور العمليات التهييجية فيها . ولكن من الممكن فى كل جهاز من هذا القبيل.أن تنجم ذات النتائج المتصلة بالطريق الذى يسلكه التهييج عن أكثر من نحو من أنحاء مثل هذه التغييرات . وهنا تتجه أفكارنا بالطبع أول ما تتجه إلى حالة النوم وإلى ما تجلبه هذه الحالة من تغييرات فى الاستثمار عند الطرف الحسى للجهاز : ففى أثناء النهار يوجد تيار متصل يذهب من النظام إد. متجهاً إلى الحركة ، ولكن هذا التيار ينقطع فى أثناء الليل ولا يعود قادراً على عوق التيار الذاهب فى الاتجاه المعاكس ، وهذا هو – فيما يبدو – " الانعزال عن العالم الخارجى " الذى رأى فيه بعض المؤلفين التعليل النظرى الواجب للخواص السيكولوجية للأحلام . غير أن من الواجب ، ونحن نعلل النكوص فى الأحلام ، أن نذكر كذلك ما يقع من النكوص فى الحالات المرضية المستيقظة . وهنا يتركنا التعليل الذى قدمناه حيارى ؛ لأن النكوص يقع فى هذه الحالات على رغم التيار الحسى الضارب فى الاتجاه التقدمى من غير انقطاع .

إن التعليل الذى أسوقه لما يقع من الهلاوس فى الهستريا والپارانويا ، ومن الرؤى عند السويين نفسيا ، هو أن هذه فى الحقيقة نكوصات ، أى أفكار تحولت إلى صور ، سوى أن الأفكار التى يصيبها مثل هذا التحويل إنما هى تلك المرتبطة وثيق ارتباط بذكريات كبتت أو بقيت لاشعورية . مثال ذلك مريض بين أصغر مرضاى الهستريين ، صبى فى الثانية عشرة من عمره ، تؤرق نومه "وجوه خضر ذوات عيون حمر" كانت تثير الروع فى نفسه . إن منبع هذه الظاهرة كان ذكرى مكبوتة — ولكنها كانت شعورية فى وقت من الأوقات — عن ولد كان مريضى يراه كثيراً منذ أربع سنوات خلت ، ورأى فيه صورة تنذر بنتائج العادات السيئة عند الأطفال ، ومن بين هذه الاستمناء — وهو عادة صار مريضى الآن يؤنب نفسه عليها من بعد . وكانت أم المريض قد لاحظت أن للولد السيئ المسلك وجهاً أخضر وعينين حمراوين (أى تكتنفهما هالة حمراء) ومن هنا كان الشبح المروع — وهو شبح لم يكن الغرض منه سوى تذكير الطفل بنبوءة أخرى من نبوءات أمه : أن أمثال هؤلاء الأولاد يؤولون إلى البله ولا يتعلمون شيئاً من المدرسة ثم يموتون صغاراً . ولقد حقق مريضنا الصغير جزءاً من هذه النبوءة ، فلم يكن يبدى تقدماً فى المدرسة ، وظل فى خشية من أن يتحقق الجزء الباقى — على ما تبين من خواطره اللاإرادية . وأضيف أن علاجه قد أدى بعد زمن قصير إلى تمكينه من النوم واختفاء قلقه العصبى وفوزه بجائزة على تفوقه فى ختام العام الدراسى .

وأستطيع أن أورد فى هذا الصدد الحل الذى اتضح لرؤيا قصتها على مريضة هسترية فى الأربعين قائلة : إن هذه الرؤيا ترجع إلى أيام ما قبل مرضها . ذلك أنها فتحت عينيها ذات صباح فرأت أخاها فى الغرفة مع أنه فى الحقيقة كان يقيم فى المارستان — على ما تعلم . وكان ابنها الصغير راقداً إلى جوارها فى السرير . فلكى تجنب الولد الارتياع والتشنج عند مرأى خاله ، سحبت الملاءة على وجهه ، وعندئذ اختفى الشبح . إن هذه الرؤيا كانت نسخة محرفة لإحدى ذكريات السيدة عن طفولتها ، وكانت هذه الذكرى على التأكيد شعورية ، بيد أنها كانت وثيقة الارتباط بكل المادة اللاشعورية . فقد أخبرتها مرضعتها يوماً أن أمها التى ماتت وهى صغيرة جداً ، لم تبلغ من العمر اثنى عشر شهراً ، قد عانت تشنجات صرعية أو هسترية كانت ترجع إلى الارتياع الذى أثاره فى نفسها أخوها (خال مريضتى) حين ظهر لها متقنعاً فى هيئة شبح بملاءة فوق رأسه .

وهكذا نرى أن الرؤيا قد احتوت ذات العناصر المحتواة فى الذكرى : ظهور الأخ ، الملاءة ، الارتياع وعواقبه . غير أن العناصر قد رتبت فى سياق مختلف وحولت إلى أشخاص آخرين . وقد كان الدافع الواضح للرؤيا — أو للأفكار التى حلت هذه الرؤيا محلها — هو خشيتها من أن يسير الولد فى أعقاب خاله ؛ فقد كان الشبه الجسمى بينهما كبيراً .

إن كلا المثالين اللذين أوردتهما لا يخلو كل الخلو من بعض الصلة بحالة النوم ، وهما لهذا السبب قد لايكونان صالحين كل الصلاحية لما أردت إثباته بهما . ولهذ أحيل القارئ إلى تحليل امرأة كانت تعانى پارانويا هلوسية[1] وكذلك إلى المكتشفات التى أودعتها دراسات لم تنشر بعد فى سيكولو ية الأعصبة النفسية لكى يجد فيها الشاهد على أننا فى مثل هذه الأمثلة على التحول النكوصى للأفكار لا ينبغى أن نغض الطرف عن الذكرى الطفلية فى معظم الأحيان والتى أصابها القمع أو بقيت لا شعورية . فهذه الذكرى — إن جاز التعبير — تجذب معها إلى النكوص الأفكار المرتبطة بها والتى تحول الرقابة دون الإعراب عنها ، باعتبار أن النكوص هو هذة الصورة من صور التمثيل التى يتحقق فيها الحضور النفسى لهذه الذكرى ذاتها . ويحق لى ههنا أن أذكر بأن إحدى النتائج التى كشفت عنها الا " دراسات فى الهستريا " [بروير وفرويد ، ١٨٩٥] كانت : أن المشاهد الطفلية (ذكريات كانت أو تخييلات) إذا أمكن استحضارها إلى الشعور ظهرت فى صورة هلاوس ، ولم تفقد هذا الطابع إلا عند الرواية . كما أن من الأمور المعلومة أن أقدم ذكريات الطفولة تبقى محتفظة بوضوحها الحسى إلى سن متقدمة فى العمر ، حتى عند أولئك الأشخاص الذين لا يمتازون عادة بذاكرة بصرية .

فإذا تذكرنا الآن أى نصيب فى أفكار الحلم تقوم به خبرات الطفولة أو التخييلات المقامة عليها ، كيف يكثر أن تنبعث فى الحلم من جديد أجزاء من هذه الخبرات وكيف يكثر أن تكون رغبات الحلم ذاتها مستمدة منها ، إذا تذكرنا هذا كله لم نستطع أن نستبعد رجوح الاحتمال الآتى بالنسبة إلى الأحلام كذلك : أن تحول الأفكار إلى صور بصرية ربما كان راجعاً إلى الجذب الذى تزاوله الذكريات المتمثلة تمثلا بصريا والظامئة إلى الانبعاث بإزاء الأفكار المنقطعة عن الشعور والجاهدة من أجل الإفصاح عن نفسها .

---

(١) " ملاحظات أخرى حول الأعصبة النفسية الدفاعية . " (فرويد ١٨٩٦ ب .)

وإذا كان الأمر كذلك أمكن أن نصف الحلم بقولنا : إنه بديل من مشهد طفلى عدل بتحويله إلى خبرة حديثة . فالمشهد الطفلى عاجز عن أن يبعث نفسه بنفسه ؛ فلا بد له من أن يقنع بالعودة فى هيئة حلم .

إن بيان ما للمشاهد الطفلية (أو لاستعاداتها فى صورة تخييلات) من قيمة النماذج يحتذيها محتوى الحلم – يغنى عن الحاجة إلى أحد الفروض التى تقدم بها شرنر وتابعوه فيما يتعلق بالمصادر الباطنية للتنبيه . ذلك أن شرنر يفترض أن الأحلام إذا طالعتنا بعناصر بصرية ممتازة فى شدتها الحسية أو فى ثرائها كان ذلك دليلا على وجود حالة من « التنبيه البصرى » ، أى من التنبيه الباطنى لعضو الإبصار . وليس هناك ما يدعونا إلى منازعة هذا الفرض ، ولكن يكفينا نحن أن نفترض أن هذه الحالة التهييجية لا تتناول سوى النظام الإدراكى النفسى لعضو الإبصار ، مع توكيدنا أن الذى أثار هذه الحالة التهييجية هو إحدى الذكريات ، أى أن هذه الحالة بعث جديد لتهييج كان فى يوم من الأيام حاضراً مباشراً . ولست أستطيع أن أستقى من خبرتى الشخصية مثالا قوياً على ذكرى طفلية كان لها مثل التأثير ، فأحلامى تقل فى العادة ، من حيث ثرائها بالعناصر الحسية ، عما أرانى مسوقاً إلى افتراضه عند الآخرين . غير أننى استطعت فى حلم كان أوضح ما عرفت فى السنوات الأخيرة وأجمله أن أتأثر الوضوح الهلوسى لمحتوى الحلم إلى الكيفيات الحسية التى خلفتها انطباعات حديثة لم تسبق الحلم بزمن طويل . فقد ذكرت فى صفحة ٤٦١ حلماً تركت فيه زرقة الماء الداكنة مع لون الدخان الأسمر المتصاعد من مداخن السفينة ثم البنى الداكن والأحمر فى الأبنية المترائية لعينى أثراً عميقاً فى نفسى . فإن يكن من حلم ينبغى تتبعه إلى منبه بصرى ، فهو هذا الحلم . فما الذى أوجد عضو الإبصار عندى فى هذه الحالة من التنبيه ؟ إنه انطباع حديث ارتبط بعدد من انطباعات أخرى سابقة . فالألوان التى رأيتها كانت أولا لمكعبات مما يلعب به الأطفال ، شيد منها أولادى – فى اليوم السابق على الحلم – بناء فخماً ليُروا عينى المعجبة إياه : كان للقوالب الكبيرة ذات اللون الأحمر الداكن وللصغيرة ذات الأزرق والبنى . وارتبط كل أولئك بانطباعات لونية خلفتها رحلاتى الأخيرة إلى إيطاليا : الأزرق الجميل الممتد على الإيسونتسو والبحيرات ولون هضبة الكارسو البنى . ولم يكن جمال الألوان فى الحلم آلا تكراراً لما رأيته فى ذاكرتى .

فلنجمل الآن ما عرفناه عن هذه الخاصة من خواص الحلم ، وأعنى بها نزوعه إلى

أن يصب محتواه الفكرى فى صورة حسية : إننا لم نعلل هذه السمة من سمات عمل الحلم ، لم نردها إلى قانون سيكولوجى معلوم ، بل الأصدق أننا التقطناها إذ بدا لنا أنها تومئ إلى علاقات مجهولة ثم خصصناها باسم الطابع " النكوصى " . وقدرنا أن من الراجح غاية الرجحان أن هذا النكوص حيثما وقع كان نتيجة لمقاومة تحول دون تقدم الفكرة إلى الشعور وفق الطريق السوى ونتيجة لجذب تمارسه إزاءها فى الوقت نفسه ذكريات حاضرة ، ذات قوة حسية كبيرة [١] . وربما كان مما يسهل النكوص فى حالة الحلم انقطاع التيار التقدمى الذى ينسال فى أثناء النهار من أعضاء الحواس ، وغياب هذا العامل المساعد فى صور النكوص الأخرى لا بد تعوض عنه زيادة فى شدة سائر دوافع النكوص . كذلك لا ننسى أن نلاحظ أن عملية تحويل الطاقة فى هذه الحالات المرضية من النكوص كما فى الأحلام لا بد تختلف منها فى النكوصات السوية ؛ إذ هى — فى الحالات الأولى — تتيح استثمار الأنظمة الإدراكية استثماراً هلوسيا كاملا . فأما ما وصفناه — ونحن نحلل عمل الحلم — تحت عنوان " اعتبار قابلية التصوير" فقد يجوز الربط بينه وبين ما تزاوله المشاهد المتذكرة تذكراً بصرياً والتى قد لمستها أفكار الحلم من الجذب الانتقائى .

هذا ، ونلاحظ بعد ذلك أن للنكوص فى نظرية تكوين الأعراض العصابية نصيباً لا يقل أهمية عنه فى نظرية الحلم . ونحن نفرق بين ثلاثة أنواع من النكوص : أ) النكوص الطبوغرافى بالمعنى الذى يفهم من الصورة التخطيطية التى بيناها فى هذه الصفحات ، ب) النكوص الزمنى من حيث أن الأمر يتعلق برجوع إلى أبنية سيكولوجية أقدم عهداً ، ج) النكوص الشكلى ، حين تحل أساليب بدائية من التعبير والتصوير محل الأساليب المألوفة . غير أن هذه الأنواع الثلاثة من النكوص واحدة فى صميمها وهى تقع مجتمعة فى الغالبية الغالبة من الحالات ؛ فالأقدم فى الزمن هو فى الوقت عينه البدائى فى شكله وهو الأقرب إلى الطرف الإدراكى من حيث الطبوغرافية النفسية .

وما كنا لنستطيع أن نترك موضوع النكوص فى الأحلام دون أن نعرب بكلمة عن فكرة أثارت دهشنا مراراً من قبل وسوف تعود إلينا مقواة بقوة جديدة بعد أن نتغلغل فى دراسة الأعصبة النفسية بعض التغلغل : أن فعل الحلم فى جملته مثال على نكوص يعود فيه

(١) إن شرح نظرية الكبت يقتضى أن نبين أن الكبت يصيب الفكرة لما يجتمع من تأثير عاملين فيها : فهى تدفع من ناحية (من رقابة قبش.) وتجذب من أخرى (من لاش.) . على نحو ما يقع حين يعان الناس على صعود الهرم الأكبر . أنظر مقالى عن " الكبت " (فرويد ١٩١٥ د) .

الحالم إلى أقدم أوضاعه ، بعث جديد لطفولته ، للدفعات التى كانت تسيطر على هذه الطفولة ولوسائل التعبير التى كانت إذ ذاك فى متناوله . ومن وراء هذه الطفولة الفردية وعد يعدنا بنظرة إلى طفولة النوع ، إلى تطور الجنس البشرى الذى لا يخرج تطور الفرد فى الحقيقة عن أن يكون ترجيعه المختصر المتأثر بملابسات حياته العارضة . وفى وسعنا الآن أن نرى كم أصاب نيتشه فى قوله : إن فى الحلم " بقية من الإنسانية الأولى لما تمُت وما عدنا اليوم نملك بلوغها من طريق مباشر . " ولنا أن نتوقع أن يقودنا تحليل الأحلام إلى معرفة التراث الأول للإنسان ، بما هو مفطور عليه من الوجهة النفسية ؛ فالأحلام والأعصبة – فيما يبدو – قد أبقت على مخلفات نفسية قديمة تفوق ما كنا نستطيع تقديره ، بحيث يحق للتحليل النفسى أن يطلب لنفسه مكانة عالية بين العلوم التى تشغل بتكوين صورة عن أقدم الفترات التى مر بها الجنس البشرى فى بدايته وأكثرها غموضاً .

إن لمن المحتمل أن هذا الشطر الأول من دراستنا السيكولوجية للحلم سوف يتركنا ونحن نستشعر شيئاً من عدم الرضا . غير أننا نستطيع أن نعزى أنفسنا فنذكر أننا قد اضطررنا إلى أن نبنى طريقنا فى الظلام . وإذا لم نكن على خطأ مطلق ، فلا شك فى أننا منتهون يوماً من وجهات نظر أخرى إلى منطقة أشبه بالتى نحن فيها ، وحينئذ قد لا نرانا دخلاء عليها .

ج
تحقيق الرغبة

إن حلم الطفل المحترق الذى أوردناه فى مطلع هذا الفصل يهيئ لنا فرصة نرحب بها لبحث الصعوبات التى تواجه نظرية تحقيق الرغبة . فلا شك فى أننا جميعاً قد دهشنا إذ سمعنا أن الحلم لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة ، ودهشنا بدهشة ليس مأتاها الأوحد ما تحمله أحلام الهيلة من نقد صريح لهذا الرأى . فنحن بعد أن كشف لنا التحليل للمرة الأولى أن وراء الحلم معنى وقيمة نفسية مخبأين لم نكن نتوقع بحال من الأحوال أن يحدد هذا المعنى على هذا النحو المطلق النظيم . فالحلم على حسب تعريف صادق لأرسطو

– وإن كان تعريفاً لا يقول كثيراً – هو فكر المرء النائم بما هو نائم . فإذا كان فكرنا النهارى يولد أفعالا نفسية تتنوع هذا التنوع كله : حكم واستدلال وإنكار وتوقع وقصد ، إلى آخره ، فلم يضطر فى الليل إلى الاقتصار على أن يولد رغبات ليس غير ؟ أليست هناك على العكس أحلام متعددة ترينا أفعالا نفسية مختلفة النوع – كالقلق مثلا – وقد صيغت فى هيئة الحلم ؟ وألم يكن الحلم الذى صدر به هذا الفصل – وهو حلم ندر مثله شفافية – ألم يكن هذا الحلم على التحديد من ذلك القبيل ؟ فعندما سقط بريق الضوء على عينى الأب النائمتين استنتج الأب وهو فى قلقه أن شمعة انقلبت وقد تكون أشعلت الجثة ، ثم كان أن أحال الرجل هذه النتيجة إلى حلم بأن ألبسها ثوب الموقف الحسى وصيغة المضارع . فما دور تحقيق الرغبة ههنا ؟ ثم أليس من المحال ألا نرى فى هذا الحلم غلبة الفكرة المتابعة من اليقظة أو المنبهة بفعل انطباع حسى جديد ؟

كل هذا صحيح . وإنه ليحملنا على أن نتعمق نصيب تحقيق الرغبة فى الحلم ومدى الأهمية التى لأفكار اليقظة المتابعة فى أثناء النوم .

لقد حدانا تحقيق الرغبة هذا من قبل إلى أن نقسم الأحلام قسمين : فقد رأينا أحلاماً يظهر منها صراحة أنها تحقق رغبات ، ورأينا أخرى يخفى فيها تحقيق الرغبة ويقنع بكل الوسائل الممكنة فى كثير من الأحيان . وفى هذه الطبقة الأخيرة عرفنا فعل رقابة الحلم . وأما أحلام الرغبة غير المشوهة فقد رأيناها عند الأطفال فى المحل الأول ، وإن كنا قد رأينا كذلك أحلاماً قصيرة بدا – وأقول : بدا – أنها تقع عند الراشدين .

وههنا كان يسعنا أن نسأل : من أين تنشأ هذه الرغبات التى تصير فى الحلم حقائق ؟ ولكننا نسأل أولا : فى أى تضاد أو فى أى كثرة من الحدود نفكر حين نقول : "من أين" هذه ؟ نفكر – على ما أظن – فى التضاد القائم بين حياة النهار المدركة إدراكاً شعورياً ونشاط نفسى بقى لاشعورياً ولا نستطيع أن نعلم به إلا ليلا . وإنى أرى أن مأتى الرغبة أحد ثلاث :

١) فلعلها أثيرت فى النهار ولم تلق إشباعاً لعلل خارجية ، وفى هذه الحالة يكون النهار قد خلف لليل رغبة معترفاً بهـا غير مفروغ منها ، ٢) ولعلها أثيرت فى النهار ولكنها نبذت ، والمتخلف فى هذه الحالة رغبة غير مفروغ منها ولكنها مقموعة .

٣) ولقد تكون منقطعة الصلة بحياة النهار ، منتمية إلى تلك الرغبات التى لا تختلج فى نفوسنا إلا ليلا ، منبعثة من الجزء المقموع . فإذا عدنا إلى صورتنا التخطيطية للجهاز النفسى ، وضعنا رغبات النوع الأول فى النظام قبش. ، وأما تلك التى من النوع الثانى فنقدر أنها قد ردت من النظام قبش. إلى لاش. ، حيث تبقى — إذا بقيت — ، وأما الاندفاعات الراغبة التى من النوع الثالث فنعتقد أنها عاجزة كل العجز عن أن تتخطى النظام لاش. وسؤالنا الآن هو : هل تملك الرغبة المنبعثة من هذه المصادر المختلفة قيمة متساوية بالنسبة إلى الحلم ، قدرة متساوية على إثارته ؟

إن نظرة طائرة على الأحلام التى نراها فى متناولنا ونحن نبتغى الإجابة على هذا السؤال تذكرنا — أولا — بأن علينا أن نضيف مصدراً رابعاً لرغبات الحلم ، والذى أعنيه هو هذه الدفعات الراغبة التى تنشأ فى خلال الليل . (كتلك التى ينبهها العطش أو الحاجة الجنسية) . وسيكون من رأينا — بعد ذلك — أن منشأ رغبة الحلم لا يغير فى الراجح شيئاً من قدرتها على استثارة الحلم . فنحن نذكر الحلم الذى جاء الفتاة الصغيرة ليطيل رحلة على البحيرة قطعت فى خلال النهار ونذكر سائر أحلام الأطفال المذكورة معه [فى ص ١٥٣ ومابعدها] : كل هذه أحلام تفسر برغبات من اليوم السابق لم تتحقق ولكنها لم تقمع . فأما الرغبات التى تقمع نهاراً ثم تشق طريقها إلى الحلم ليلا ، فالأمثلة عليها ليس أكثر منها . وألحق بها مثالا بلغ الغاية فى خلوه من التعقيد : سيدة نزاعة بعض الشىء إلى التهكم بالناس ، تزوجت صديقتها التى تصغرها وظلت هى طيلة النهار تجيب عن سؤال المعارف إياها هل تعرف الخطيب وما رأيها فيه ، مقتصرة فى إجاباتها على ثناء أخرست به رأيها ؛ فقد كانت تود لو قالت الحقيقة : إنه ممن تقابل أمثالهم بالعشرات . وفى الليل حلمت السيدة حلماً رأت فيه أنها تسأل هذا السؤال عينه وأنها تجيب عنه بالصيغة المعروفة : عند الطلبات التالية يكفى ذكر الرقم . وأخيراً ، فقد علمنا من تحليلات متعددة أن جميع الأحلام التى يصيبها التشويه هى أحلام تنشأ فيها الرغبة من اللاشعور وكان محالا إدراكها بالنهار . وهكذا يبدو أن لكل الرغبات قيمة متساوية وقوة متساوية بالنسبة إلى تكوين الحلم .

إننى لا أملك هنا أى برهان على أن الحقيقة مع هذا على خلاف ذلك ، بيد أننى أنزع نزوعاً قوياً إلى القول بخضوع رغبة الحلم لحتمية أكثر صرامة . صحيح أن أحلام

الأطفال تثبت بما لا شك بعده أن رغبة لم يفرغ منها فى أثناء النهار قد تمسى الحافز إلى الحلم . ولكن لا ننسى أن هذه رغبة طفل ، اندفاع راغب له القوة التى له عند الأطفال بخاصة . وأشك فى أن تكون لرغبة لم تتحقق فى أثناء النهار عند الراشد قوة تكفى فى أن تحدث حلماً ، بل يبدو لى على العكس أننا كلما تعلمنا كيف نسيطر على حياتنا الغريزية بوساطة نشاطنا الفكرى زهدنا فى أن نكون لأنفسنا الرغبات المشتدة التى يعرفها الطفل ، أو زهدنا فى الإبقاء عليها ، معتبرين إياها شيئاً لا غناء فيه . ولقد تكون ثمت فروق فردية فى هذا الباب ، فيستبقى البعض نمطاً طفلياً من العمليات النفسية أطول مما يستبقيه البعض الآخر – كما أن هناك فروقاً مماثلة فى مدى ضعف المخيلة البصرية الشديدة الوضوح فى الأصل . ولكنى أعتقد بوجه عام أن رغبة تركها النهار عند الراشد دون أن تتحقق لا تكفى أن تحدث حلماً . نعم ، إنى أسلم طواعية بأن اندفاعاً راغباً نشأ عن الشعور قد تكون له مشاركته فى استثارة الحلم ، ولكن تلك على الأرجح طاقته . وما كان الحلم ليكون لولا أن الرغبة قبل الشعورية عرفت كيف تستمد معززاً من جهة أخرى .

من اللاشعور ، على التحقيق . وأنا – إذن – أتصور أن الرغبة الشعورية لا تصير حافزاً حلمياً إلا إذا نجحت فى إيقاظ رغبة لاشعورية تماثلها بعض المماثلة وفى كسب تعزيزها . وهذه الرغبات اللاشعورية أراها – استناداً إلى الدلائل المستمدة من التحليل النفسى للأعصبة – دائمة التوثب ، متأهبة فى كل وقت لأن تشق طريقها إلى التعبير إذا هيأت لها الفرصة أن تتحالف مع اندفاع آت من الشعور وأن تحول شدتها هى العظيمة إلى الشدة الضئيلة لهذا الأخير [1] . وحينئذ تبدو الأمور كأنما الرغبة الشعورية هى المتحققة وحدها فى الحلم – لولا بدوة صغيرة فى سيما الحلم تهدينا إلى أثر الحليف القوى الوافد من اللاشعور . غير أن هذه الرغبات الماثلة فى لاشعورنا متوثبة أبداً – وإن جاز التعبير : خالدة – والتى تذكر المرء بطيطان الأساطير وقد رزحوا تحت الركام الضخم

---

(١) وهى تشترك فى طابع اللاتهدم هذا مع جميع الأفعال النفسية الأخرى اللاشعورية حقيقة أى المنتمية إلى النظام لاش. وحده . فهذه طرق ضربت ولا رجعة فى أمرها ، طرق لا يبطل استخدامها أبدا وتظل دائما ، كلما عاد تهيج لاشعورى إلى استخدامها ، على استعداد لتوصيل العملية التهييجية إلى التفريغ . وإذا جاز أن نستخدم تشبيها قلنا : إنها لا تقبل الفناء إلا كما تقبله أشباح العالم السفلى فى الأوديسا ، تلك الأشباح التى لا تلبث أن تبعث إلى حياة جديدة حين تلغ الدم . وأما العمليات التى تتوقف على النظام قبل الشعورى فتقبل الهدم بمعنى مختلف كل الاختلاف . وعلى هذه التفرقة يتوقف كل العلاج النفسى للأعصبة . [انظر ص ٥٦٦ .]

من الجبال التى رماهم بها الآلهة المنتصرون والتى لا تزال ترتج بين الحين والحين كلما ارتجفت أطرافهم ، أقول : بيد أن هذه الرغبات الرازحة تحت وطأة الكبت هى ذاتها رغبات طفلية المنشأ كما نعلم بالبحث السيكولوجى للأعصبة . ولهذا أقترح أن نترك جانباً ما قلناه منذ هنيهة من أن منشأ رغبة الحلم شيء يستوى أمره ، لنستبدل به قولا آخر ، هو : كل رغبة تصور فى الحلم لا بد رغبة طفلية . وتنشأ هذه الرغبة من اللاشعور عند الراشدين ، وأما عند الأطفال – حيث لا نرى بعد قسمة أو رقابة بين الشعور واللاشعور أو حيث تكون هذه القسمة آخذة فى النشوء على التدريج وحسب – فهى رغبة غير محققة وغير مكبوتة ، صادرة عن حياة اليقظة . وأعلم أن هذا الرأى لا يمكن إثبات صدقه صدقاً شاملا ، لكننا نستطيع أن نثبت صدقه كثيراً ، بل أن نثبته حيث لم نكن نتوقعه ، ثم إن من المحال نقضه نقضاً شاملا .

وهكذا أرد الاندفاعات الراغبة المتخلفة من حياة اليقظة إلى مرتبة ثانية من حيث خطرها فى تكوين الحلم . ولست أستطيع أن أسلم لها بنصيب آخر غير الذى أسلم به – مثلا – لمادة الإحساسات التى تحضر وتنشط فى أثناء النوم (أنظر ص ٢٤٦ – ٢٤٧) وسأتبع الخيط الذى ترسمه لى هذه الفكرة حين أستدير الآن إلى النظر فى حوافز الحلم النفسية الأخرى التى تخلفها حياة اليقظة والتى ليست برغبات . فأقول : إننا قد نفلح حين نعتزم النوم فى أن نضع حدا موقوتاً لاستثمار الطاقة المنصرفة إلى أفكارنا المستيقظة ، وكل من استطاع ذلك فى يسر فهو رجل يجيد النوم ، ويبدو أن نابليون الأول كان المثل الأعلى لهذه الطبقة . بيد أننا لا ننجح فى ذلك دائماً ولا ننجح دائماً كل النجاح . فالمشكلات غير المحلولة والمشاغل المعذبة والانطباعات الطاغية ، كل هذه تمد النشاط الفكرى إلى ما بعد النوم مبقية على العمليات النفسية فى النظام الذى سميناه ما قبل الشعور . فإذا أردنا أن نصنف هذه التهييجات الفكرية المستمرة فى خلال النوم ، جازت قسمتها الأقسام الآتية : ١) تلك التى لم ننته بها إلى نتيجة فى خلال النهار لعائق عرض من العوائق ، ٢) تلك التى لم نفرغ منها لقصور قوتنا العقلية ، أى المشكلات التى لم تحل ، ٣) ما نبذ وقمع فى أثناء النهار . ويجب أن نضيف إلى ما سبق : ٤) فئة قوية تتكون من تلك التى هيجها فى لا شعورنا نهاراً نشاط ما قبل الشعور ، ثم أخيراً ٥) فئة الانطباعات النهارية التى لم يكن لها وزن ولهذا بقيت بدون الفراغ منها .

ولا حاجة بنا إلى التهوين من أهمية الشدات النفسية التى تدخلها على حالة النوم هذه البقايا النهارية ، وبخاصة تلك التى تندرج فى طائفة المشكلات غير المحلولة . فمن المستيقن أن هذه التهييجات تداوم الكفاح من أجل الإفصاح عن نفسها فى خلال الليل ، ولنا أن نفترض بمثل هذا اليقين أن حالة النوم تحول دون مواصلة العمليات التهييجية إلى ما قبل الشعور كما هو الشأن عادة ، وتحول دون صيرورتها شعورية ومن ثم دون انتهائها إلى خاتمة . وحين يكون فى استطاعة عملياتنا الفكرية أن تصير فى أثناء الليل عمليات شعورية على النحو المألوف فهذا يعنى أننا لسنا نياماً — لا أكثر ولا أقل . ولست أستطيع أن أقول أى تغيير تدخله حالة النوم على النظام قبش.[1] ، ولكن لا مجال للشك فى أن الخصائص السيكولوجية للنوم ينبغى التماسها قبل كل شىء فى التغييرات التى تصيب استثمار هذا النظام بالذات — وهو النظام المسيطر كذلك على المرور إلى القدرة الحركية المشلولة فى أثناء النوم . وعلى العكس من ذلك ، لا أرى سيكولوجية الحلم تمدنا بأقل سبب لكى نفرض أن النوم يحدث فى الوضع السائد فى النظام لاش. سوى تغيير ثانوى. ونتيجة ذلك هى أن التهييج الذى يقع ليلا فى قبش. لا يبقى أمامه أى طريق آخر سوى هذا الذى تسلكه التهييجات الراغبة المنبعثة من لاش. فهو مضطر إلى أن يلتمس التعزيز من لاش. وأن يصحب التهييجات اللاشعورية فى دوراتها . ولكن ما هى العلاقة بين بقايا النهار قبل الشعورية والحلم ؟ إنه لا شك فى أن عدداً وفيراً من هذه البقايا يشق طريقه إلى الحلم وأنها تستغل محتوى الحلم لكى تنفذ إلى الشعور حتى فى زمن الليل . لا بل هى قد تسيطر على محتوى الحلم من حين إلى حين وتحمله على مواصلة نشاط النهار . ومن الثابت كذلك أن بقايا النهار قد يكون لها أى طابع آخر سوى الرغبة — ولكن ههنا يغدو من أفيد الأمور ، ثم هو أمر له قيمته الحاسمة بالنسبة إلى نظرية تحقيق الرغبة ، أن نلاحظ الشرط الذى يجب أن تخضع له بقايا النهار لكى يتسنى قبولها فى الحلم .

دعنا نأخذ أحد الأحلام التى ذكرتها من قبل ، وليكن — مثلا — الحلم الذى ظهر فيه صديقى أوتو وهو يحمل أعراض مرض بازدوف (ص٢٨٤) . لقد كنت شغلت فى

---

(١) لقد حاولت أن أتعمق فهم الوضع السائد أثناء النوم وفهم الشروط الضرورية لظهور الهلاوس وذلك فى مقال عنوانه : " ملحق ميتاسيكولوجى لنظرية الأحلام " (فرويد ١٩١٧ د) .

اليوم السابق لمظهر صديقى أوتو وحركنى هذا القلق تحريكاً عميقاً ، شأن كل ما يمس هذا الشخص . ويحق لى أن أفترض أن هذا القلق لم يتركنى فى أثناء النوم . ولعلى كنت أريد أن أعرف ماكنه علة أوتو . واستطاع هذا القلق أن يعرب عن نفسه ليلا فى الحلم الذى رويته والذى كان محتواه مجافياً للمعقول – أولا – وخالياً من كل وجه من أوجه تحقيق الرغبة – ثانياً . وعندئذ أخذت أستقصى مبعث هذا التعبير غير الموفق عن القلق الذى استشعرته أثناء النهار فعثرت بوساطة التحليل على صلة : فقد كنت عينت أوتو بارون يدعى ل. وعينتنى أنا بالأستاذ ر . فأما السبب فى كونى اخترت هذا البديل لأفكارى النهارية دون سواه فلم يكن له إلا تفسير واحد : فلا بد أنى كنت فى اللاشعور على أهبة دائمة لأن أعيننى بالأستاذ ر . ، فبهذا التعيين تتحقق رغبة من طفولتى لا تموت ، هى الرغبة المجنونة فى العظمة . وكانت هناك أفكار كريهة ، معادية لصديقى ، ماكانت لتلقى فى النهار غير النبذ ، فانتهزت الفرصة لتدلف مع الرغبة فتصور معها ، ولكن القلق المتخلف من النهار قد وجد كذلك ضرباً من التعبير عنه بوساطة بديل فى محتوى الحلم . فالفكرة النهارية التى لم تكن فى ذاتها رغبة ، بل كانت على العكس قلقاً ، قد اضطرت إلى أن تبحث عن صلة تصلها على نحو من الأنحاء برغبة طفلية ، هى اليوم لاشعورية مقموعة ، وعندئذ مكنتها هذه الرغبة من أن " تولد " فى الشعور – وإن كان ذلك بعد أن ألبستها الزى الذى ينبغى . وعلى قدر استحكام القلق جاز أن تكون الصلة بعيدة متكلفة ، كما أنه لم تكن هناك أى حاجة إلى رباط يربط بين محتوى الرغبة ومحتوى القلق ولا قام مثل هذا الرباط فى مثالنا .

وربما أفادنا أن نعالج هذه المسألة عينها فى صورة جديدة[١] ، أن ننظر كيف يسلك الحلم حين تواجهه أفكار الحلم بمادة بعيدة غاية البعد عن أن تكون تحقيق رغبة ، بل هى عكس ذلك على خط مستقيم ، مثل القلق الذى له ما يبرره ، والتأملات الممضة ، والمعارف الأليمة بالحقائق . إن الاحتمالات المتعددة يمكن تقسيمها عندئذ قسمين : (أ) فقد يفلح عمل الحلم فى أن يستبدل بالأفكار الأليمة أخرى تخالفها وفى أن يكبت الحالات الوجدانية الأليمة المرتبطة بهاته الأفكار . وتكون النتيجة فى هذه الحالة حلم إشباع صريح ، " تحقيق رغبة " ملموس . لا يبدو لنا مجال للكلام بعده ، وقد (ب)

---

(١) [هذه الفقرة قد أضيفت مع الفقرتين التاليتين عام ١٩١٩ .]

تشق الأفكار الأليمة طريقها إلى محتوى الحلم الظاهر معدلة تعديلا يزيد أو ينقص ، ولكنه يترك معرفتها ميسورة كل اليسر . وتلك هى الحالة التى تثير الشك فى صحة نظرية الرغبة وتتطلب المزيد من الاستقصاء . ومثل هذه الأحلام ذات المحتوى الأليم قد يخبرها الحالم خبرة تخلو من اللذة والألم على السواء . أو تصطحب بكل الشعور الأليم الذى يبدو أن محتواها الفكرى يبرره ، ولقد تؤدى إلى تمخض الهيلة وإلى الاستيقاظ .

إن التحليل يستطيع أن يبرهن على أن هذه الأحلام غير اللاذة هى أيضاً تحقيق رغبة لا تقل فى ذلك عن غيرها . فهناك دائماً رغبة لاشعورية مكبوتة ، لا يمكن أن يحس الأنا تحققها إلا كما يحس شيئاً أليما ، هذه الرغبة قد انتهزت الفرصة التى أتاحها لها استمرار استثمار البقايا النهارية الأليمة ، فأعارت هذه البقايا عونها ومكنتها من أن تلج الحلم . ولكن بينما يقع فى المجموعة « أ » أن تتفق الرغبة اللاشعورية مع الرغبة الشعورية ، تتكشف الهوة فى المجموعة « ب » بين اللاشعور والشعور (بين المكبوت والأنا) ، ويتحقق الموقف الذى نسمع عنه فى قصة الرغبات الثلاث التى أجابتها الساحرة للرجل وزوجه (أنظر ص٥٦٨ ، فى الهامش) . والرضا لتحقيق الرغبة المكبوتة قد يكون عظيما حتى ليوازن المشاعر الأليمة المتصلة ببقايا النهار [ص٤٦٨] ، وحينئذ يكون الحلم ذا نغمة انفعالية متساوية مع أنه يحقق رغبة من جهة وخوفاً من أخرى ، وقد يقع أن يشارك الأنا النائم بنصيب أعظم مقداراً فى تكوين الحلم وأن يرد على إشباع الرغبة المكبوتة باستنكار عنيف وبنفسه يضع حدا للحلم بطلقة من الهيلة . وهكذا نرى فى غير عناء أن الأحلام غير اللاذة وأحلام الهيلة . هى أيضاً تحقيق رغبة بالمعنى الذى تذهب إليه نظريتنا ، لا تقل فى ذلك عن أحلام الإشباع الصريحة .

ومن الجائز كذلك أن تكون الأحلام غير اللاذة «أحلام عقاب » [أنظر ص٤٧١] . ولا بد من أن نسلم بأننا حين نعترف بهذه الطبقة نضيف إلى نظرية الحلم شيئاً جديداً بمعنى ما . فالذى يتحقق فى هذه الأحلام هو أيضاً رغبة لاشعورية ، هى الرغبة فى أن يعاقب الحالم لاندفاع راغب مكبوت ممنوع ، وإلى هذا المدى تستقيم هذه الأحلام والشرط المنصوص عليه هنا ، وهو : أن تكون القوة الدافعة إلى تكوين الحلم مستمدة بالضرورة من رغبة منتمية إلى اللاشعور . غير أن التحليل السيكولوجى الأدق يظهرنا على اختلاف هذه الأحلام من سائر أحلام الرغبة . فى المجموعة « ب » تنتمى الرغبة اللاشعورية المكونة

للحلم إلى ما هو مكبوت ، على حين أنها فى أحلام العقاب يجب أن تمد منتمية إلى الأنا وليس إلى المكبوت — وإن تكن لاشعورية كذلك . وأحلام العقاب تشير إذن إلى إمكانية مشاركة الأنا فى تكوين الحلم بنصيب أعظم مما قدر حتى الآن . وإن ميكانيكية الحلم بوجه عام لتزيد وضوحاً أكبر الزيادة ، لو أننا بدل التضاد بين "الشعور" و "اللاشعور" تحدثنا عن التضاد بين "الأنا" و "المكبوت" . غير أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك دون التفات إلى العمليات التى تحدث فى الأعصبة النفسية ، ولهذا السبب لم تقم به فى هذا الكتاب ، وإنما أضيف أن أحلام العقاب لا يشترط فيها دائماً أن تكون بقايا النهار من النوع الأليم ، بل وقوعها على العكس أسهل ما يكون حين يكون الضد هو الحال ، أى حين تكون البقايا النهارية أفكاراً من نوع مرض ولكنها تعرب عن رضا ممنوع ، وعندئذ لا ينفذ إلى الحلم من هذه الأفكار سوى ضدها المباين لها كل المباينة — كما كان الشأن فى أحلام المجموعة «أ» . وهكذا يبقى أن الخاصة الجوهرية لأحلام العقاب هى كون الرغبة المكونة للحلم فيها ليست تلك الرغبة اللاشعورية المستمدة من المكبوت (أى من النظام لاش.) بل رغبة العقاب المجيبة ضدها ، المنتسبة إلى الأنا — وإن تكن أيضا لا شعورية (أى قبل شعورية)[1].

وهنا أذكر حلماً من أحلامى[2] ، لكى أصور به ما قلت ولأصور به على الأخص كيف يعالج عمل الحلم بقية نهارية من توقعات أليمة :

"بداية غير متميزة : أقول لزوجتى : إن عندى خبراً يسرها ، شيئاً خاصاً جداً . تجزع وترفض الاستماع إلى . أؤكد لها أنه على العكس شىء يسرها سماعه وأبدأ أروى لها أن كتيبة الضباط التى ينتسب إليها ولدنا قد أرسلت إلينا مبلغاً من المال (٥٠٠٠ كرون ؟) . . . شىء عن وسام تقدير . . . توزيع . . . أرانى فى هذه الأثناء قد ذهبت معها إلى حجرة صغيرة ، أشبه بالكرار ، بحثاً عن شىء ما . أشهد ابنى يظهر فجأة ، إنه لا يرتدى ملابسه العسكرية بل ملابس رياضية أحكمت عليه (كسبع البحر ؟) مع قلنسوة صغيرة . إنه يتسلق صندوقاً

---

(١) [هامش أضيف عام ١٩٣٠ :] وهذا هو الموضع المناسب للحديث عن أحد المكتشفات اللاحقة للتحليل النفسى : الأنا الأعلى .

(٢) [هذه الفقرة والفقرتان التاليتان لها قد أضيفت عام ١٩١٩ فى صورة هامش ثم أدرجت فى النص عام ١٩٣٠ .]

. وضع بجانب الصوان كأنه يريد أن يضع شيئاً عليه . أناديه ، لا جواب . يبدو لى أن وجهه معصوب ، أو جبهته . إنه يوجه شيئاً إلى فه ، يدس شيئاً فى فه . لقد ضربت فى شعره خيوط رمادية . أحدث نفسى : أمن الممكن أن يكون مجهداً إلى هذا الحد ؟ هل صارت له أسنان صناعية ؟ وقبل أن أستطيع مناداته مرة ثانية استيقظت وأنا لا أستشعر شيئاً من الهيلة ، ولكن قلبى كان يخفق خفقاً سريعاً . يرينى المنبه أن الساعة الثانية ونصف الساعة ."

محال على مرة أخرى أن أسوق تحليلا كاملا . وأقتصر على إبراز بعض النقاط الظاهرة . لقد كان الباعث على الحلم توقعات أليمة من اليوم السابق . فقد انقطعت عنا مرة أخرى منذ ما يزيد على الأسبوع أخبار ولدنا الذى كان فى جبهة القتال . ومن السهل أن نرى أن محتوى الحلم كان يعرب عن اعتقاد فحواه أنه قد أصيب أو سقط صريعاً . ومن الواضح أن جهوداً قوية قد بذلت فى بداية الحلم لكى تستبدل بهذه الأفكار الموجعة أفكار أخرى تخالفها . فعندى أفكار سارة جداً أرويها : شيء عن نقود أرسلت ، وسام تقدير ، توزيع . (وأما مبلغ المال فمصدره حادثة لطيفة وقعت أثناء عملى الطبى ، وأريد به إلى التنويه عن الموضوع تنويهاً تاما .) ولكن هذه الجهود قد أخفقت . فالأم تحذر شيئاً مروعاً وترفض الإصغاء إلىّ . لقد كانت الأقنعة رقيقة جداً حتى نفذت فى كل مكان منها إشارات إلى ما كان يراد بها إخفاؤه . فلو أن ولدى مات لأرسل رفاقه الضباط متاعه ولاضطررت إلى توزيعه بين إخوته وأخواته وغيرهم من الناس. وأما وسام التقدير فيمنحه الضابط عادة على " استشهاده". وهكذا شرع الحلم يعرب إعراباً صريحاً عما كان يلتمس أول الأمر إنكاره — وإن بقى النزوع إلى تحقيق الرغبة ملحوظاً فى التشويهات . (وأما تغيير المحل فى الحلم فأكبر الظن أنه ينبغى فهمه فى ضوء ما سماه سيلبرير " رمزية العتبه " [أنظر ص ٥٠٠] .) غير أننا لا نرى — والحق يقال — ما الذى زود الحلم بالقوة الدافعة إلى الإعراب من أفكارى الأليمة على هذا النحو . إن ابنى لا يظهر فى الحلم فى صورة شخص "يسقط" بل فى صورة من "يتسلق". والحق أنه كان من متسلقى الجبال الأجرياء. وهو لا يرتدى ملابس عسكرية بل رياضية ، وهذا يعنى أن مكان الحادثة التى أخشى اليوم وقوعها قد استبدل به مكان آخر ، أقدم عهداً ، متخذ من مجال الرياضة ؛ فقد سقط ابنى مرة فى أثناء رحلة للتزحلق على الثلج وكسرت ساقه . والطريقة التى ارتدى بها ملابسه والتى جعلته أشبه بسبع البحر تذكرنى ، من جهة أخرى ، بشخص آخر

أحدث سناً ، بحفيدنا الصغير الممتع ، هذا بينما تذكرني خيوط الشعر الرمادية بوالد هذا الأخير ، بصهرنا الذى أصيب فى الحرب إصابة بالغة . فماذا نفهم من هذا كله ؟ ... ولكننى قلت فى ذلك الكفاية . — إن الكرار والصوان الذى أراد ابنى أن يأخذ من فوقه شيئاً (والحلم يقول : يضع عليه) إشارتان تذكرانى من غير ما خطأ بحادثة جلبتها على نفسى حين كنت بين الثانية والثالثة من العمر . فقد تسلقت مقعداً فى الكرار لأتناول شيئاً حسناً وضع على صوان أو مائدة ، فانقلب المقعد وأصابتنى زاويته خلف فكى الأيسر ، وكان من الممكن أن تهشم أسنانى كلها . وبهذه الذكرى تمتزج فكرة معنفة ، هى : هذا هو جزاؤك الحق — كأنما كان ثمت اندفاع عدائى متجه إلى المحارب الشهم . ويمكننى التعمق فى التحليل بعد ذلك من أن أعرف ما هو هذا الاندفاع المستتر الذى كان مستطيعاً أن يجد إشباعه فى الحادثة المخوف وقوعها لولدى : إنه حسد الذين تقدم بهم العمر نحو من هم فى مطلعه ، ولكن يظنون أنهم قضوا عليه قضاء مبرماً . ولا جدال فى أن شدة العاطفة الأليمة التى كانت تنجم لو أن مثل هذا المصاب قد وقع حقيقة هى هى التى دفعت — طلباً للتخفيف — إلى التماس رغبة مكبوتة من هذا القبيل .

والآن أستطيع أن أبين ما هو نصيب الرغبة اللاشعورية من تكوين الحلم تبييناً محدداً دقيقاً : إنى أسلم طواعية بأن هناك طائفة كاملة من الأحلام ينشأ فيها الحافز إلى الحلم بصفة غالبة إن لم تكن مانعة من البقايا المتخلفة من حياة النهار ، وأعتقد أنه حتى رغبتى فى أن أصير فى النهاية أستاذاً كان يمكن أن تتركنى أنام نوماً هادئاً لو لم يكن قلقى على صحة صديقى قد بقى مستمرا بعد أن انقضى النهار . ولكن القلق وحده ما كان يستطيع أن يصنع حلماً ، بل كان من اللازم أن تقوم رغبة بتوفير القوة الدافعة التى يقتضيها الحلم ، كما كان على القلق أن يتصيد رغبة لتكون منها هذه القوة الدافعة . ولكى نوضح الموقف بتشبيه نقول : إن الفكرة النهارية تقوم بعمل صاحب المشروع بالنسبة إلى الحلم ، ولكن صاحب المشروع — وهو الذى ، كما نقول ، يملك الفكرة ويملك الحافز إلى تنفيذها — لا يستطيع شيئاً بغير رأس المال ؛ فهو محتاج إلى ممول قادر على أن يزوده بالمخرج ، والممول الذى يوفر المخرج النفسى بالنسبة إلى الحلم هو — من غير استثناء ولا جدل وأيا كانت أفكار اليوم السابق — رغبة من اللاشعور .

ويحدث أحياناً أن يكون الممول أيضاً هو صاحب المشروع ، وتلك يقيناً هى الحالة

الأكثر شيوعاً فيما يتعلق بالحلم ، حيث نرى رغبة لاشعورية وقد استثارها نشاط نهارى فأخذت تنشئ الحلم . وكذلك سائر الاحتمالات الممكنة فى الموقف الاقتصادى الذى ضربته مثالا ، فلكل منها نظيره بين عمليات الحلم : قد يشارك صاحب المشروع أيضاً بقسط ضيئل من رأس المال ، أو قد تتجه عدة من أصحاب المشاريع إلى ممول بعينه ، أو يشترك ممولون متعددون فى توفير ما يلزم صاحب المشروع . وعلى هذا الغرار تظهر أحلام يعين عليها أكثر من رغبة من رغبات الحلم ، وكذا فى سائر الاحتمالات المتغايرة التى يسهل إحصاؤها دون أن يعود ذلك علينا بنفع جديد . ولن نستطيع إلا فيما بعد تكملة هذه المناقشة التى لم تزل ناقصة فى صدد رغبة الحلم .

وأما الحد الثالث للمقارنة (١) فى المماثلة التى لجأت إليها – الكم الذى يجب أن يوضع فى متناول صاحب المشروع بمقدار مناسب (٢) – فمن الممكن تطبيقه فى توضيح تركيب الحلم تطبيقاً أكثر بعد تفصيلا . فنحن نلحظ فى معظم الأحلام – كما بينته فى ص٣١٧ [و ٣٣٨] – نقطة رئيسة تمتاز عن غيرها بشدة حسية خاصة . هذه النقطة هى فى العادة تلك التى تصور تحقيق الرغبة تحقيقاً مباشراً ؛ لأننا إذا أزلنا النقلات التى أجراها عمل الحلم وأعدنا الوضع إلى نصابه ، رأينا أن الشدة النفسية للعناصر المتضمنة فى أفكار الحلم قد حلت محلها شدة العناصر الحسية . وأما العناصر التى تقع على مقربة من تحقيق الرغبة فلا يكون لها فى كثير من الأحيان شأن بمعناه ، بل يتبين أنها مشتقات تفرعت عن أفكار أليمة تجرى بعكس تحقيق الرغبة . بيد أنها وقد وقعت فى منطقة الصلة – المتكلفة فى الكثير من الأحيان – بالعنصر الرئيس ، قد اكتسبت شدة كافية لكى تصير قادرة على بلوغ التصوير . وهكذا تنتشر قدرة تحقيق الرغبة على جلب التصوير فى منطقة محيطة بها ، يصير كل ما فى داخلها من العناصر – ومن بينها تلك المجردة من كل قوة فى ذاتها – حاصلا على قوة الظفر بالتصوير . ومن السهل فى حالة الأحلام المدفوعة بعدة من الرغبات أن نحدد مناطق تحقق الرغبات المختلفة ، كما يجوز فى كثير من الأحيان أن نفهم الفجوات التى تعرض فى الحلم باعتبارها حدوداً فواصل بين هذه المناطق .

إن الاعتبارات السابقة وإن تكن خفضت أهمية النصيب الذى يرجع إلى البقايا

---

(١) [Tertium comparationis]

(٢) [وهو الطاقة النفسية فى حالة الحلم .]

النهارية فى تكوين الحلم – إلا أنه لاويزال أمراً خليقاً بالعناء أن نوجه إلى هذه البقايا القليل من اهتمامنا . فهى لا محالة مقومات ضرورية لتكوين الحلم ، ما دامت التجربة ترينا تلك الحقيقة المدهشة ، وأعنى بها أنه ما من حلم إلا تبينا فى محتواه صلة تصله بانطباع نهارى حديث – من أتفه نوع فى الكثير من الأحيان . ولقد ظللنا حتى الساعة دون أن نستطيع تعليل وجة الضرورة فى هذه الزائدة المضافة إلى الخليط الذى يتكون منه الحلم ، (أنظر ص٢٠٢) . ولا نحن نستطيع هذا التعليل إلا إذا تذكرنا دائماً نصيب الرغبة اللاشعورية، ثم بحثنا بعد ذلك عما نستطيع أن نعلمه من سيكولوجية الأعصبة . والذى نعلمه من هذه هو أن الفكرة اللاشعورية عاجزة كل العجز من حيث هى كذلك عن أن تلج ما قبل الشعور ، وأنها لا تستطيع أن تؤثر فيه أى تأثير إلا من حيث تنشئ لنفسها صلة بفكرة منتمية من قبل إلى ما قبل الشعور ، فتحول إليها شدتها وتتخذ منها ستاراً . وتلك هى ظاهرة التحويل – وهى الظاهرة التى توضح لنا كل هذا العدد الكبير من الظواهر العجيبة فى الحياة النفسية للعصابيين . والفكرة قبل الشعورية التى تكتسب من هذا الطريق شدة غير مستحقة قد تظل كما هى دون أن يحرف منها التحويل ، وقد يفرض عليها تغيير آت من الفكرة التى تجرى التحويل . وإنى أرجو أن يغفر لى القارئ نزوعى إلى التشبيهات المستمدة من حياة كل يوم ، ولكنى أرى ما يغرينى بالقول : إن موقف الفكرة المكبوتة يشبه موقف طبيب أسنان أمريكى فى بلدنا هذا ؛ فهو لا يستطيع أن يزاول مهنته إلا إذا أمكنه أن يجد طبيباً مؤهلا على حسب الأصول ، يتخذ منه درعاً وغطاء أمام القانون . وكما أن أكثر الأطباء نجاحاً فى مهنتهم ليسواهم على التحديد بأولئك الذين يقبلون مثل هذه الأحلاف مع طبيب الأسنان ، كذلك الأفكار قبل الشعورية التى تكون قد اجتذبت بالفعل قدراً كافياً من الانتباه العامل فى الإرادة قبل الشعورية ، فهذه ليست هى بالتى تختار ستائر للفكرة المكبوتة . فاللاشعور يؤثر أن ينسج روابطه حول انطباعات وأفكار قبل شعورية إما أن تكون خالية من الشأن فى ذاتها فلم تجتذب إليها انتباهاً ، أو نحيت فانحسر عنها الانتباه سريعاً . ثم إن من القضايا المعروفة فى نظرية التداعى – وهى بعد قضية أيدتها التجربة تأييداً تاماً – أن الفكرة التى يحكم رباطها إحكاماً وثيقاً فى اتجاه ما تنزع إلى صد جماعات بأكملها من الروابط الجديدة . ولقد حاولت مرة أن أقيم نظرية فى الشلل الهسترى على هذه القضية [فرويد ، ١٨٩٣ ج] .

فإذا افترضنا أن هذه الحاجة التى كشفنا عنها فى تحليل الأعصبة ، حاجة الأفكار المكبوتة إلى التحويل تعمل هى هى فى الأحلام كذلك ، حل دفعة واحدة لغزان من ألغاز الحلم ، وأعنى بهما : أنه ما من حلم يحلل إلا أطلعنا تحليله على انطباع حديث مسرود فى نسيجه ، وأن هذا العنصر الحديث يكون فى العادة من نوع تافه غاية التفاهة . وأستطيع أن أضيف – كما سبق أن رأينا فى موضع آخر [ص١٩٩] – أن السبب الذى يجعل هذه العناصر الحديثة المجردة من الشأن تشق طريقها إلى الحلم على هذا النحو الشائع هو أن هذه العناصر لاتملك إلا أقل الأسباب الداعية إلى خشية الرقابة التى تفرضها المقاومة . ولكن بينما يعلل هذا التحرر من الرقابة إيثار العناصر التافهة وحسب ، فإن ورود العناصر الحديثة على هذا النحو المطرد يبرز للعيان وجود الحاجة إلى التحويل . وكلا النوعين من الانطباعات يجيب حاجة المكبوت إلى مادة لا تزال حرة من المستدعيات : التافهة لأنها لم تحمل ما يدعو إلى تكوين روابط متعددة ، والحديثة لأنها لما تستغرق من الوقت ما يسمح بتكوين هذه الروابط .

وهكذا نرى أن البقايا النهارية التى يسعنا الآن أن ندرج بينها الانطباعات التافهة لا تقترض وحسب شيئاً من اللاشعور حين تنجح فى المشاركة فى تكوين الحلم – وأعنى بهذا الشىء القوة الغريزية المتاحة للرغبة المكبوتة – بل هى أيضاً تقرضه ، وتقرضه شيئاً لا يستغنى عنه : وأعنى به نقطة العقد اللازمة من أجل التحويل . ولو قد أردنا فى هذا الموضع أن نزيد تعمقاً فى عمليات النفس ، لما كان لنا مفر من أن نلقى المزيد من الضوء على لعب التهييجات بين ما قبل الشعور والشعور – وهو ما تدفعنا إليه دراسة الأعصبة النفسية دفعاً ولكن يتفق أن الأحلام بالذات لا تعيننا فيه أى عون .

وملاحظة أخيرة عن بقايا النهار : إنه لا مجال للشك فى أن هذه البقايا هى مزعجات النوم الحقيقية وليست الأحلام ؛ فهذه تشغل على العكس بحراسته . وستكون لنا عودة إلى هذه المسألة [ص٥٦٥] .

ولقد كنا حتى الساعة ندرس رغبة الحلم ، ففرعناها من منطقة اللاشعور وحللنا علاقاتها ببقايا النهار التى قد تكون بدورها رغبات أو اندفاعات نفسية من نوع آخر أو انطباعات حديثة ليس غير . وبهذا تركنا مجالا لكل حق قد ندعيه لنشاط الفكر المستيقظ بمختلف أشكاله من حيث أهميته فى تكوين الحلم . لا ، بل إن شرحنا ربما كان يمكننا من أن

نجد تعليلا حتى لهذه الحالات المتطرفة التى يتوصل فيها الحلم وهو يتابع عمل النهار إلى حل موفق لمشكلة من مشكلات اليقظة بقيت من غير حل ، وليس يعوزنا إلا مثال من هذا القبيل لكى نكشف بتحليله عن مصدر الرغبات الطفلية أو المكبوتة التى استطاعت بمددها أن تعزز مجهود النشاط قبل الشعورى بمثل هذا التوفيق . ولكن هذا كله لا يقربنا خطوة من حل ذلك اللغز : لم كان اللاشعور لا يستطيع فى أثناء النوم أن يقدم شيئاً آخر سوى القوة الدافعة إلى تحقيق رغبة من الرغبات ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا بد ملقية بعض الضوء على الطبيعة النفسية لحالة الرغبة ، وأرى أن تكون هذه الإجابة بالإشارة إلى صورتنا التخطيطية للجهاز النفسى .

إننا لا نشك فى أن هذا الجهاز إنما بلغ كماله الحاضر بعد فترة طويلة من النمو ، فدعنا نحاول الرجوع به إلى مرحلة سابقة من مراحل تطور قدرته الوظيفية . ههنا تحدثنا فروض ينبغى التماس مبرراتها من جهات أخرى بأن جهود هذا الجهاز كانت تتجه فى أول أمره إلى حفظه نفسه حراً من المنبهات بقدر الإمكان ، ومن ثم اتخذ تركيبه الأول تصميم الجهاز الانعكاسى ، بحيث يفرغ من طريق حركى أى تهييج حسى قد يصل إليه من الخارج . ولكن مطالب الحياة لا تلبث أن تتدخل فى هذه الوظيفة البسيطة ، وإلى هذه المطالب أيضاً يدين الجهاز بالحافز إلى مستأنف نموه . إنها تعترضه أولا فى صورة الحاجات الجسمية الكبرى . وعن هذه الحاجات تنجم تهييجات تسعى إلى التفريغ فى حركه يمكننا وصفها بأن نقول : إنها « تغيير باطنى » أو « تعبير عن انفعال » . فالرضيع الجائع يصرخ أو يرفس من غير حول . ولكن الموقف لا يتغير ؛ لأن التهييج الصادر عن حاجة باطنة ليس راجعاً إلى قوة عائق موقوت بل إلى قوة متصلة الفعل . وإنما يحدث تغيير إذا أمكن بطريقة من الطرق (بالعون الخارجى فى حالة الطفل) أن تتحقق خبرة إشباع تضع حدا للمنبه الباطنى . .ومن المقومات الجوهرية فى خبرة الإشباع هذه إدراك حسى معين (إدراك الغذاء مثلا) تظل صورته الذكروية من الآن فصاعداً مرتبطة بالأثر الذكروى المتخلف عن التهييج الذى أحدثته الحاجة . ويكون من نتيجة الارتباط الذى ينشأ على هذا النحو أنه كلما ثارت بعد ذلك تلك الحاجة يظهر على الفور اندفاع نفسى بغيته أن يعيد استثمار الصورة الذكروية للإدراك وأن يعيد بعث الإدراك عينه ، أى أن يسترجع موقف الإشباع الأول . ومثل هذا الاندفاع هو ما نسميه رغبة ، وأما

عودة الإدراك إلى الظهور فتحقيق رغبة ، وأقصر الطرق إلى تحقيق الرغبة طريق يذهب قدماً من التهييج الناجم عن الحاجة إلى الاستثمار الكامل للإدراك . ولا شيء يمنعنا من أن نفترض حالة بدائية للجهاز النفسى كان هذا الطريق يجتاز فيها فعلا ، أى كانت الرغبة تنتهى فيها إلى الهلوسة . وهكذا كان هذا النشاط النفسى الأول يهدف إلى إحداث « عينية إدراكية » أى إلى تكرار عين الإدراك الذى ارتبط بإشباع الحاجة .

غير أن خبرة الحياة المرة لا بد قد غيرت هذا النشاط الفكرى البدائى إلى آخر ثانوى أوسع حيلة . فإنشاء عينية إدراكية من الطريق القصير ، طريق النكوص فى داخل الجهاز ، لا يحدث فى موضع آخر منه ذات النتيجة التى يحدثها استثمار هذا الإدراك عينه من الخارج ، فالإشباع لا يعقب والحاجة تستمر . ولكى يكون للاستثمار الداخلى من قيمة الإشباع مثل ما للخارجى ، فلا بد من المداومة عليه من غير انقطاع كما يحدث بالفعل فى حالات الجنون الهلوسى وفى تخييلات الجوع التى تستنفد كل قواها فى التشبث بموضوع رغبتها . ولكى يتسنى الوصول إلى إنفاق للقوة النفسية يكون أفعل أثراً ، فمن الضرورى أن يوقف نكوصها عند حد قبل أن يصبح كاملا ، بحيث لا تتعدى الصورة الذكروية وبحيث يصبح فى مستطاعها — ابتداء من هذه — التماس طرقات أخرى تؤدى فى نهاية الأمر إلى إقامة العينية الإدراكية المرغوب فيها من ناحية العالم الخارجى [1] . ويوكل هذا الكف للنكوص ، مع ما يعقبه من التعريج بالتهييج ، إلى نظام ثان تصبح له السيطرة على الحركة ، أى يستخدم الحركة — للمرة الأولى — فى أغراض متذكرة من قبل . ولكن كل هذا النشاط الفكرى المعقد الذى ينتسج ابتداء من الصورة الذكروية إلى أن تتحقق العينية الإدراكية آتية من العالم الخارجى — لا يخرج عن أن يكون طريقاً دائرياً إلى تحقيق الرغبة ألجأت إليه التجربة [2] . فما الفكر — بعد أن يحسب لكل شيء حسابه — إلا بديل رغبة هلوسية . فإن قيل : إن الحلم تحقيق رغبة ، لم يكن ذلك على التأكيد إلا أمراً واضحاً بذاته ؛ فلا شيء سوى الرغبة يستطيع أن يحرك جهازنا النفسى

(١) أو بعبارة أخرى : إن ضرورة « امتحان الواقع » [أى امتحان الأشياء لكى يتبين أهى واقع أم لا] تنتهى بأن تفرض نفسها .

(٢) لقد أشاد لولوران مصيباً بقدرة الأحلام على تحقيق الرغبة ، فهى « لا تعرف التعب الجدى ولا شيء يحملها على الالتجاء إلى هذا الكفاح العنيد الطويل الذى يستهلك ما نسعى إليه من المتع ويفسده . »

["Sans fatigue serieuse, sans être obligé de recourir à cette lutte opiniâtre et longue qui use et corrode les jouissances poursuivies."]

إلى العمل . وما جاوز الحلم الذى يحقق رغباته من الطريق القصير – طريق النكوص – أن يستبقى ههنا أثراً من منهج العمل الأولى للجهاز النفسى – وهو منهج هجر لقلة فاعليته . فما كان يسيطر يوماً على الحياة المستيقظة حين كانت النفس لا تزال غضة غير كفؤة ، يبدو اليوم أنه قد طرد فلم يعد له غير الليل – مثلما تعاود الظهور فى غرف الأطفال تلك الأسلحة البدائية التى تركها الراشدون من أقواس وسهام : إن الحلم أثر من الحياة النفسية الطفلية المتلاشية . كما أن هذه المناهج فى العمل من جانب الجهاز النفسى – وهى المناهج التى تكبت عادة فى ساعات اليقظة – تحضر وتنشط من جديد فى حالات الذهان ، وعندئذ يتكشف عجزها عن إشباع حاجاتنا بالنسبة إلى العالم الخارجى (١) .

ومن الواضح أن الاندفاعات الراغبة اللاشعورية تسعى إلى النشاط فى أثناء النهار كذلك ، وإن ظاهرة التحويل – شأنها شأن حالات الذهان – لترينا أن هذه الاندفاعات تبذل جهدها ما استطاعت من أجل النفاذ إلى الشعور مارة بالنظام قبل الشعورى ومن أجل الظفر بالسيطرة على القدرة الحركية . وهكذا تستحق الرقابة القائمة بين اللاشعور والشعور والتى لا تجعل لنا الأحلام مفراً من القول بوجودها ، هكذا تستحق الاعتراف بها واحترامها من حيث هى حارس صحتنا العقلية . فإذا كان هذا الحارس يرخى نشاطه أثناء الليل ويسمح للاندفاعات المكبوتة فى اللاشعور بالإفصاح عن نفسها وييسر للنكوص الهلوسى سبيل الوقوع مرة أخرى ، أفلا يجب أن نعد ذلك إهمالا من جانبنا ؟ لست أرى ذلك . لأن هذا الحارس النقاد وإن هدأ أحياناً – ولدينا من الدلائل ما يدل على أن غفواته ليست بالعميقة – فإنه لا ينسى كذلك أن يغلق الباب فى وجه القدرة على الحركة . فمهما كانت الاندفاعات التى تصخب على المسرح آتية من اللاشعور المكبوت عادة ، فما نحن بحاجة إلى أن نشغل أنفسنا بها ؛ فهى تظل بغير قدرة على الضرر لعجزها عن أن تحرك الجهاز الحركى الذى لا تستطيع إلا به وحده أن تعدل من العالم الخارجى . ولكن الموقف يزيد خطورة إذا كانت النقلة فى القوى لا تجئ نتيجة لارتخاء ليلى يصيب القوة التى يبذلها الحارس النقدى بل لنقص مرضى يصيب هذه القوة أو لزيادة مرضية فى شدة التهييجات اللاشعورية بينما يكون استثمار ما قبل الشعور لا يزال مستمراً وتكون الطريق فى

---

(١) [هامش أضيف سنة ١٩١٤ :] لقد أنميت هذه الفكرة فى موضع آخر ، فى مقالى عن المبدأين اللذين يحكمان مسلك الوظائف النفسية واللذين اقترحت تسميتهما مبدأ اللذة ومبدأ الواقع (فرويد ١٩١١ ب) .

وجه القدرة على الحركة لا تزال مفتوحة . حينئذ يغلب الحارس على أمره وتغزو التهييجات اللاشعورية ما قبل الشعور وتهيمن على كلامنا وأفعالنا ، أو تفرض النكوص الهاوسى فرضاً وتعكس سير الجهاز (وهو الذى لم يجعل من أجلها) بفضل الجذب الذى تمارسه الإدراكات على توزيع طاقتنا النفسية . وهذا الوضع نسميه ذهانا .

وإنا نرانا الآن على أحسن طريق نستأنف منه بناء هيكلنا السيكولوجى الذى وقفنا به عند إدخال نظامى اللاشعور وما قبل الشعور . ولكن هناك أسباباً تدعونا إلى متابعة النظر فى الرغبات من حيث هى القوة الوحيدة الدافعة إلى تكوين الحلم . فلقد أخذنا بالتعليل القائل : إن الحلم فى جميع الحالات تحقيق رغبة ؛ لأنه ناتج عن النظام لاش. الذى لا يعرف نشاطه هدفاً آخر غير تحقيق الرغبة والذى لا يملك قوى أخرى سوى الاندفاعات الراغبة . فإذا أردنا بعد ذلك أن نتمسك — ولو لحظة — بحقنا فى أن نقيم أمثال هذه التعاليم السيكولوجية البعيدة على تفسير الأحلام ، كان لزاماً علينا أن نبرهن على أن هذه التعاليم قد مكنتنا من أن نجد للحلم محلا فى سياق يشمل غيره من التراكيب النفسية . فإنه لو كان ثمت وجود لشىء مثل النظام لاش. (أو لشىء آخر يماثله بالنسبة إلى مقاصدنا فى هذه المناقشة) لاستحال أن يكون الحلم مظهره الأوحد . نعم ، إن كل حلم قد يكون تحقيق رغبة ، ولكن لابد عندئذ من أن تكون هناك — بالإضافة إلى الحلم — صور أخرى من صور التحقيقات غير السوية للرغبات . والواقع أن النظرية التى تحكم جميع أعراض الأعصبة النفسية تبلغ ذروتها فى تلك القضية الواحدة ، وهى : أن هذه الأعراض كذلك يجب أن تعد تحقيقات لرغبات لاشعورية[1] . وإنما يغدو الحلم بتعليلنا أول عضو فى طبقة لها أهميتها القصوى عند أطباء النفس ، يتضمن فهمها حل الجانب السيكولوجى المحض من مشكلة الطب النفسى[2] . غير أن سائر أعضاء طبقة تحقيق الرغبة هذه — كالأعراض الهسترية مثلا — تملك خاصة جوهرية لا أزال أفتقدها فى الحلم . فقد علمت من الأبحاث التى أكثرت من الإشارة إليها فى خلال هذا المجلد أيما إكثار أن تكوين

(١) [هامش أضيف عام ١٩١٤ :] أو بعبارة أخرى : يرجع جزء من العرض إلى التحقيق اللاشعورى للرغبة ويرجع جزء آخر إلى البناء النفسى المستجاب به ضدها .

(٢) [هامش أضيف عام ١٩١٤ :] كما يقول هـ . جاكسون : اكتشف كل شىء عن الحلم تكتشف كل شىء عن الجنون . [Find all about dreams and you will have found all about insanity.]

العرض الهسترى يستوجب التقاء كلا تيارى حياتنا النفسية . فالعرض ليس إعراباً عن رغبة محققة وحسب ، بل يجب أن تحضر كذلك رغبة آتية مما قبل الشعور تتحقق بوساطة هذا العرض عينه ، بحيث يكون للعرض شرطان يحتمانه على الأقل ، ينشأ كل منهما من أحد النظامين المشتبكين فى النزاع — دون أن يكون هناك حد لتضاعف الحتم بعد ذلك ، كما هو الحال فى الأحلام . والشرط المحتم الذى لا ينبعث من اللاشعور هو فى كل حالة — بقدر ما أعلم — خيط فكرى يستجاب به فى وجه الرغبة اللاشعورية ، عقاب للذات مثلا . وهكذا أستطيع أن أقول معمماً القول تعميما كاملا : لا ينشأ عرض هسترى إلا حيث يتمكن من الالتقاء فى تعبير واحد تحقيقان لرغبتين متقابلتين صدرت كل منهما عن نظام نفسى مختلف . (قارن ذلك بآخر ما أدليت به فى مقالى عن التخييلات الهسترية وعلاقتها بالثنائية الجنسية ، فرويد ١٩٠٨ أ[١] .) ولا تثمر الأمثلة فى هذا الصدد إلا قليلا ، بل الإيضاح المفصل لما تتضمنه هذه الأمراض من التعقدات هو وحده الذى يحمل الإقناع . ولهذا أترك قضيتى ولا سند لها غير ذاتها ولا أستشهد بمثال إلا لأجلو الأمر وليس طلباً للإقناع : كانت إحدى مريضاتى تعانى قيئاً هسترياً تبين أنه يحقق من جهة تخييلا لا شعورياً يرجع إلى عهد مراهقتها ، أى يحقق رغبة هى على التحديد الرغبة فى أن تكون حاملا من غير انقطاع وفى أن يكون لها أطفال لا يعدون ، مع رغبة أخرى مضافة إلى هذه ، هى الرغبة فى أن تنجب هؤلاء الأطفال من رجال عديدين قدر الإمكان . ونهض اندفاع دفاعى قوى فى وجه هذه الرغبة التى لا يكبحها كابح . وإذ كان من شأن القيء أن يجعل المريضة تفقد قوامها وجمالها فلا تجذب إليها بعد ذلك رجلا ، فقد حاز العرض كذلك قبول الاتجاه الفكرى العقابى ، وإذ حاز قبول الجانبين جميعاً أصبح واقعاً . فذلك فى معالجة تحقيق الرغبة أسلوب لا يختلف من أسلوب ملكة البارثيين[٢] إزاء كراسوس[٣] ؛ فقد ظنت أنه ما طلب القتال إلا طمعاً فى الذهب ، فأمرت بجثته أن تجرع فى الحلق ذهباً مذاباً ، ثم قالت : لك الآن ما أردت . ولكن كل

(١) [أضيفت الجملة الموضوعة بين قوسين عام ١٩٠٩.]

(٢) [نسبة إلى بارثيا ، فى شمال فارس ، فيما عرف بعد ذلك باسم خراسان.]

(٣) [هو — مع يوليوس قيصر وبومبى — أحد رجال حكومة الثلاثة فى روما . عرف عنه أنه كان قليل الهمة كثير المطامع خسيسا.]

الذى نعلمه حتى الآن عن الأحلام هو أنها تعرب عن تحقيق رغبة من اللاشعور ، ويبدو النظام المسيطر ، أى ما قبل الشعور ، كأنه يقبل هذا الوضع بعد أن يفرض عدداً من التشويهات . فلسنا نستطيع بوجه مطرد أن نجد خيطاً فكرياً يضاد الرغبة ويتحقق مثلها فى الحلم من حيث هو مقابلها . بل كل الأمر أننا – ونحن نحلل الحلم – نعثر هنا وهناك على تكاوين لها طابع الاستجابة المضادة – كما كان الشأن مثلا فى مشاعرى الودية نحو صديقى ر. فى حلم العم (ص١٦٥) . غير أننا نستطيع أن نجد فى جهة أخرى الجزء المفتقد ههنا من جانب ما قبل الشعور . فالحلم تصير له القدرة على الخروج برغبة إلى حيز التعبير بعد تشويهات من كل صنف حين يكون النظام المسيطر قد تراجع إلى الرغبة فى النوم ، محققاً هذه الرغبة بإدخال ما يستطيعه من تعديلات الاستثمار فى داخل الجهاز النفسى ، مداوماً عليها طيلة مدة النوم[1] .

هذه الرغبة الثانية فى النوم من جانب ما قبل الشعور تحدث تأثيراً يسهل تكوين الأحلام بوجه عام . ولنذكر حلم الرجل الذى استدل من نفاذ بريق الضوء من الحجرة المجاورة على أن جثمان طفله ربما كان أخذ يحترق : لقد أجرى الأب هذا الاستدلال فى الحلم بدل أن يترك البريق يوقظه ، وأوحينا أن إحدى القوى النفسية المؤدية إلى ذلك كانت رغبة أطالت عمر الطفل المصور فى الحلم هذه اللحظة الواحدة . وأكبر الظن أن هناك رغبات أخرى منبعثة من المكبوت تخفى علينا ؛ فلسنا نملك تحليل هذا الحلم . ولكننا نستطيع أن نفترض أن قوة ثانية فى تكوين هذا الحلم كانت حاجة الأب إلى النوم ؛ فنومه – كعمر ابنه – قد طال أيضاً لحظة ، كأنما هذا الدافع يقول : دع الحلم يأخذ مجراه وإلا اضطررت إلى الاستيقاظ . وفى كل حلم آخر – كما فى هذا الحلم – تناصر الرغبة فى النوم الرغبة اللاشعورية . ولقد رويت فى ص١٥١ أحلاماً ظهرت صراحة على أنها أحلام سهولة . ولكن الحقيقة أنه ما من حلم إلا استطاع أن يدعى لنفسه الحق فى هذا الوصف . ويتجلى فعل رغبة المضى فى النوم أسهل إما يتجلى فى أحلام ساعة الاستيقاظ التى تعدل المنبهات الحسية الخارجية التعديل الذى يجعلها لا تتعارض مع مواصلة النوم : إنها تنسج من هذه المنبهات حلماً لكى تسلبها كل ما تدعيه من حقوق التذكير بالعالم

(١) لقد استعرت هذه الفكرة من نظرية النوم التى ذهب إليها ليبو (١٨٨٩) – وهو الذى يرجع إليه الفضل فى إحياء البحوث الحديثة فى التنويم المغناطيسى .

الخارجي . ولا بد أن لهذه الرغبة ذاتها نصيباً مماثلا فى التمكين لجميع الأحلام الأخرى ، وإن كانت المنبهات لاتهدد بانتزاع الشخص من نومه إلا من الداخل. وما يتحدث به ما قبل الشعور إلى الشعور فى كثير من الحالات حين يغلو الحلم فى تحقيق مراميه : امض فى نومك غير آبه فما هذا إلا حلم ، ذلك أيضاً وصف يصدق بوجه عام على موقف نشاطنا النفسى الغالب تجاه الحلم وإن لم يلق إعراباً صريحاً . وأنا إذن مساق إلى تلك النتيجة : إننا فى خلال حالة النوم جميعها نعلم أننا نحلم بمثل اليقين الذى نعلم به أننا نيام . ويجب ألا نعتد كثيراً بما قد يحتج به من أن الشعور لا يحصل له أبداً العلم بالنوم ولا يحصل له العلم بكوننا نحلم إلا فى أحوال خاصة ، حين تحس الرغبة كأنها أخذت على غرة [أنظر ص٤٨٦] . فهناك على العكس[١] أناس يعلمون فى الليل علماً واضحاً أنهم نيام يحلمون ، وهم بذلك يبدون حاصلين على ملكة توجيه حياتهم الحالمة توجيهاً شعورياً . فإن رأى حالم من هؤلاء – مثلا – أن الحلم قد اتخذ وجهة لا يرضى عنها ، كان فى مستطاعه أن يقطعه دون أن يستيقظ من نومه وأن يبدأه من جديد متخذاً وجهة أخرى مثلما يصنع مؤلف شعبى ناجح حين يدبر عند الطلب نهاية سعيدة لمسرحيته . أو قد يستطيع مثل هذا الحالم فى مرة أخرى – إذا قاده حلمه إلى موقف مثير جنسيا – قد يستطيع أن يحدث نفسه فى نومه بتلك الفكرة : لن أساير هذا الحلم خطوة بعد ذلك مستنفداً جهدى بالإنزال ، بل أدخره لموقف حقيقى .

ولقد كان الماركى درفاى[٢] (فاشيد ، ص ١٣٩) يؤكد أنه قد اكتسب القدرة على تعجيل مجرى أحلامه كيفما أراد وعلى توجيهها فى أى وجهة يشاء . ويبدو أن الرغبة فى النوم قد أفسحت عنده محلا لرغبة قبل شعورية أخرى ، هى الرغبة فى ملاحظة أحلامه والاستمتاع بها . ويستقيم النوم مع مثل هذه الرغبة مثلماً يستقيم مع نية النائم على الاستيقاظ إذا تحقق شرط معين (كما فى نوم المرضع) . ثم إن من الحقائق المعلومة أن كل من يوجه اهتمامه إلى الأحلام يزيد عدد ما يتذكره منها بعد اليقظة زيادة عظمى .

ويقول فرنتسى[٣] [١٩١١] وهو يتحدث عن ملاحظات أخرى فى صدد توجيه الأحلام : « إن الحلم يتناول الفكرة التى يتفق أنها تشغل حياتنا النفسية ويقلبها من جميع

(١) [أضيفت السطور التالية إلى آخر الفقرة سنة ١٩٠٩ .]

(٢) [أضيفت هذه الفقرة سنة ١٩١٤.]

(٣) [أضيفت هذه الفقرة فى صورة هامش سنة ١٩١٤ ثم أدرجت فى النص سنة ١٩٣٠.]

وجوهها ، بترك صورة حلمية إذا كان فيها ما يهدد بإخفاق تحقيق الرغبة ويجرب حلا جديداً إلى أن يوفق فى النهاية إلى تكوين تحقيق رغبة يرضى كلا جهتى الاختصاص فى حياتنا النفسية ويوفق بينهما » .

د

اليقظة بسبب الحلم – وظيفة الحلم – حلم الهيلة

أما وقد علمنا أن ما قبل الشعور يبقى طيلة الليل كله متركزاً فى رغبة النوم ، ففى مقدورنا أن نتابع فهم عملية الحلم مرحلة أبعد . ولكن يجمل بنا أولا أن نلخص عملنا حتى الآن : إن الموقف هو هذا : إما أن بقايا من اليوم السابق قد تخلفت عن نشاط الحياة المستيقظة ولم يمكن حسر كل استثمار للطاقة عنها ، أو أن نشاط الحياة المستيقظة قد أدى فى خلال النهار إلى إثارة رغبة لاشعورية ، أو أن هذين الحدثين قد اتفق وقوعهما معاً (وسبق أن ناقشنا الاحتمالات المختلفة فى هذا الصدد) . وتصل الرغبة اللاشعورية نفسها ببقايا النهار وتجرى تحويلا إليها ، وقد يحدث ذلك فى أثناء النهار وقد لا يحدث إلا بعد أن تستتب حالة النوم . وحينئذ تنبعث رغبة قد تم تحويلها إلى مادة جديدة ، أو تكتسب رغبة حديثة – وقد لاقت الكبت – حياة جديدة بتعزيزها من اللاشعور . وتسعى هذه الرغبة إلى أن تشق طريقها وفق الطريق السوى الذى تسلكه عملياتنا الفكرية إلى الشعور مارة من خلال ما قبل الشعور الذى تنتمى إليه هذه الرغبة انتماء جزئياً . ولكنها تصطدم بالرقابة التى لا تزال قائمة والتى تعمل فيها الآن تأثيرها . وهنا تلبس الرغبة ثوب التشويه الذى تمهد له الطريق من قبل بتحويل الرغبة إلى مادة حديثة . وإلى هذا المدى تكون الرغبة فى طريقها إلى أن تصير فكرة قهرية أو هجاساً أو شيئاً من هذا القبيل ، أى فكرة زاد التحويل شدتها وشوهت الرقابة تعبيرها . غير أن حالة النوم التى يوجد عليها ما قبل الشعور توقف تقدمها بعد ذلك – والراجح أن هذا النظام قد حمى نفسه من الغزو بخفض تهييجاته نفسه . وعلى ذلك تسلك عملية الحلم طريق النكوص المفتوح أمامها بفضل طبيعة النوم على التحديد ، وتسير فى هذا الطريق مقادة بالجذب الذى تمارسه

إزاءها مجموعات من الذكريات لا يوجد بعضها إلا فى صورة استثمارات بصرية وحسب ، وليس كترجمات إلى لغة الأنظمة اللاحقة [أنظر ص٥٣٧–٥٣٨] . وفى أثناء هذا الطريق تكتسب عملية الحلم صفة قابلية التصور (وأتحدث بعد عن مسألة الضغط [أو التكثيف] فيما بعد [ص٥٨٠]) . وبهذا تكون تلك العملية قد أكملت الجزء الثانى من رحلتها المتعرجة . لقد كان الجزء الأول ذا اتجاه تقدمى يذهب من المشاهد والتخييلات اللاشعورية إلى ما قبل الشعور ، وأما الجزء الثانى فيعود من حافة الرقابة إلى الادراكات . ولكن ألا وقد صارت عملية الحلم إلى محتوى إدراكى فإنها بهذا عينه تكون كأنما داورت العائق الذى يعترضها على يد الرقابة وحالة النوم فى قبش. ، إنها تفلح فى جذب الانتباه إليها وفى الظفر بملاحظة الشعور . ذلك أن الشعور الذى ننظر إليه باعتباره عضواً حسيا مخصصاً لإدراك الكيفيات النفسية قادر فى حياة اليقظة على تلقى التهييجات من جهتين : أولا ، من الحافة المحيطة بسطح الجهاز كله ، من النظام الإدراكى ، ثم – بالإضافة إلى ذلك – من تهييجات اللذة والألم التى تدل الدلائل على أنها تكاد تكون الكيف الوحيد الذى يصحب تنقلات الطاقة فى داخل الجهاز . فجميع العمليات الأخرى التى تقع فى الأنظمة ن. – بما فيها قبش. – مجردة من كل كيفية نفسية ، وبذلك لا تستطيع أن تكون موضوعات للشعور إلا من حيث تسلم لذة أو ألما . ونحن بذلك مساقون إلى أن نستخلص أن هذه التفريغات من اللذة والألم تنظم سير العمليات الاستثمارية تنظيما أوتوماتيا [أى بدون تدخل الشعور] . ولكن لكى يصبح الإتيان بأفعال أدق تركيباً شيئاً ممكناً ، فقد صار من الضرورى فيما بعد أن يجعل سير الأفكار غير متوقف على انتقاء الألم أو وجوده . ولهذا الغرض احتاج النظام قبش. إلى أن تكون له كيفيات خاصة به تستطيع أن تجتذب انتباه الشعور ، ومن الراجح هنا أكبر الرجوح أنه قد وجدها بربط العمليات قبل الشعورية بالنظام الذكروى للرموز اللغوية – وهو نظام لا يخلو من الكيف [أنظر ص٥٩٩] . وبفضل كيفيات هذا النظام صار الشعور كذلك عضواً حسياً يُعلم به جزء من عملياتنا الفكرية بعد أن كان حتى الساعة عضواً حسيا تعلم به الإدراكات وحدها . وبذا يصبح عندنا الآن – إن جاز التعبير – سطحان حاسان ، يتجه أحدها جهة الإدراك ويتجه الآخر جهة العمليات الفكرية قبل الشعورية[1] .

---

(١) [يستخدم فرويد كلمة الإدراك (Wahrnehmung وبالإنجليزية Perception) بمعنى انطباع

ويجب على أن أفترض أن حالة النوم تجعل السطح الحاس للشعور المتجه نحو قبش. يقل كثيراً عن السطح المتجه نحو الأنظمة إذ. من حيث قابلية التهييج . ومن المستيقن أن إبطال الاهتمام بالعمليات الفكرية فى أثناء الليل لا يخلو أيضاً من الغرض : فمن الواجب أن يقف كل فكر لأن ما قبل الشعور يطلب النوم . ولكن الحلم – وقد صار إدراكا – لا يلبث حتى تصير له القدرة على تهييج الشعور بفضل ما اكتسبه الآن من الكيفيات . وهذا التهييج الحسى لا يلبث أن يحقق ما هو وظيفته الجوهرية ؛ فيحول جزءاً من الطاقة الاستثمارية المتوافرة فى قبش. إلى انتباه متجه إلى علة التنبيه . وعلى ذلك يجب التسليم بأن لكل حلم تأثيراً موقظاً ، أى أنه يحرك جزءاً من الطاقة الاستثمارية المستكنة فى قبش. إلى العمل . وعندئذ تحدث هذه القوة ذلك التأثير الذى وصفناه بأنه مراجعة ثانوية تستهدف جعل الحلم متسق الأجزاء معقولا . وهذا يعنى أن الحلم يعامل عندئذ كما يعامل أى محتوى إدراكى آخر ، أنه يلاقى – بقدر ما تحتمله مادته – بما يلاقى به غيره من التوقعات الفكرية [ارجع إلى ص٤٩٥] . وبقدر ما يكون لهذا الجزء الثالث من عملية الحلم أى اتجاه ، فهو اتجاه تقدمى .

ولكى نتجنب كل خطأ فى الفهم فقد تناسب المقام هنا كلمة عن الترتيب الزمنى لهذه العمليات الحلمية : لقد اقترح جوبلو فكرة جد جذابة ، أوحاها من غير شك لغز حلم مورى عن المقصلة [ص ٦٤] . فهو – أعنى جوبلو – يريد أن يثبت أن الحلم لا يشغل من الزمن إلا فترة الانتقال من النوم إلى اليقظة . فعملية الاستيقاظ تستغرق مقداراً من الزمن وفى هذا الزمن يقع الحلم ، ونتخيل نحن أن الصورة الأخيرة للحلم كانت قوية حتى إنها أيقظتنا بينما الحقيقة أن هذه القوة لم تكن لها إلا لأننا كنا فى هاته اللحظة على وشك الاستيقاظ : «الحلم يقظة تبدأ»[1] .

ولقد سبق أن بين دوجا كيف يضطر جوبلو إلى أن يغض النظر عن الكثير من الحقائق قبل أن يستطيع إطلاق رأيه هذا على عمومه . فهناك أحلام

حافة الجهاز المستقبلة (فى مقابل المصدرة أو الحركية) بصورة بصرية أو سمعية ، إلى آخر الكيفيات المختلفة . وهذه الصورة (أو المحتوى الإدراكى) قد تكون ذات حقيقة موضوعية وقد تكون هلوسية وحسب – كما هو الشأن فى الأحلام . وهذا « الإدراك » يستتبع إدراكاً ثانياً (يسميه فرويد أحياناً Auffassung وبالإنجليزية apprehension) بمعنى انجذاب الانتباه إلى المحتوى الإدراكى وحصول العلم به . وذلك هو الشعور ، أو الشعور هو عضو هذا الإدراك الثانى – على ما جاء فى هذه الفقرة (وانظر أيضاً ص٥٩٧).]

(١) ["Un rêve c'est un réveil qui commence."]

لا يستيقظ المرء منها : مثال ذلك بعض الأحلام التى يحلم فيها المرء أنه يحلم . وما كنا نحن – بعد الذى علمناه عن عمل الحلم – لنستطيع الموافقة على أن الحلم لا يشغل إلا فترة الاستيقاظ . بل الراجح عندنا – على العكس – هو أن الجزء الأول من عمل الحلم قد بدأ أثناء النهار نفسه تحت سيطرة ما قبل الشعور . وأما جزءه الثانى – التعديل الذى تفرضه الرقابة والجذب الذى يصدر عن المشاهد الطفلية وشق الطريق إلى الإدراك – فلا شك فى أنه يستغرق الليل كله . ونحن من هذه الناحية قد نكون على حق دائماً حين نعرب عن شعورنا بأننا كنا نحلم طيلة الليل وإن لم نستطع القول بم [أنظر ص٥١١] . غير أننى لا أرى ضرورة إلى أن نفترض أن الحلم يلتزم فعلا – حتى يصير شعوريا – هذا الترتيب الزمنى الذى وصفت : فيكون أول ما يقع هو الرغبة الحلمية المحولة ثم يعقب التشويه بوساطة الرقابة ثم التغيير النكوصى فى الاتجاه ، وهكذا . وإنما اضطررنا إلى الأخذ بهذا الترتيب التعاقبى عند الوصف ، ولكن الذى يحدث حقيقة هو ولا ريب استكشاف يضرب فى هذا الاتجاه وذاك فى آن واحد ، ذبذبة فى التهييج تأخذ هذه الوجهة ثم تلك ، إلى أن يتراكم هذا التهييج أخيراً فى أنسب اتجاه فيثبت تجمع من تجمعاته دون سائره . ويهيأ إلى استناداً إلى بعض خبراتى الشخصية أن الحلم يقتضى فى كثير من الأحايين أكثر من نهار وليلة . وإذا كان الأمر كذلك لم نعد بحاجة إلى الدهش للمهارة الخارقة التى تتجلى فى تكوين الحلم . لا ، بل أعتقد أن الشرط الذى يقتضى أن يجىء الحلم معقولا من حيث هو حدث إدراكى قد يأخذ فى إحداث فعله والحلم لما يجتذب الشعور إليه . ولكن لا شك فى أن العملية تسارع ، ابتداء من تلك اللحظة ، إلى ختامها ؛ فالحلم يعامل الآن مثلما يعامل أى مدرك آخر . إن الأمر أشبه بالصواريخ يستغرق إعدادها الساعات ثم تنفق فى لحظة واحدة .

إن عملية الحلم إما أن تكون الآن قد اكتسبت بعمل الحلم شدة تكفى جذب الشعور إليها وإيقاظ ما قبل الشعور بغض النظر عن زمن النوم وعمقه ، وإما أن شدتها لا تكفى ذلك فيتعين عليها البقاء فى حالة من الاستعداد إلى أن يصبح الانتباه خفيف الحركة قبيل الاستيقاظ فتلقاه . ويبدو أن غالبية الأحلام تعمل بشدات نفسية منخفضة انخفاضاً نسبياً ؛ لأنها فى معظم الأحيان تبقى منتظرة إلى أن تحين لحظة اليقظة . ولكن ذلك يفسر أيضاً تلك الحقيقة ، وأعنى بها أننا إذا أو قظنا من نوم عميق فجأة أدركنا فى العادة شيئاً حلمنا به . وفى هذه الحالات يكون أول ما نراه هو المحتوى الإدراكى الذى

كونه عمل الحلم ثم عقب ذلك نرى المحتوى الإدراكى الذى يعرض من الخارج — مثلما يقع حين نستيقظ من تلقاء أنفسنا .

غير أن الأحلام التى تملك القدرة على إيقاظنا فى منتصف النوم تثير قسطاً أعظم من الاهتمام النظرى . ذلك أننا قد نفكر فى حسن التدبير الذى رأينا أنه القاعدة فى كل مكان ، فنتساءل : لم زود الحلم — أى الرغبة اللاشعورية — بالقدرة على إزعاج النوم — أى الرغبة قبل الشعورية ؟ إن ذلك يرجع من غير شك إلى علاقات خاصة بالطاقة لا نعلم من أمرها شيئاً . ولو كان لنا مثل هذا العلم لرأينا فى الراجح أن ترك الحلم يأخذ مجراه مع انفاقنا عليه مقداراً محدوداً من الانتباه غير المشغول هو اقتصاد فى الطاقة إذا قورن بما يقتضيه إلجام اللاشعور إلجاما وثيقاً فى الليل مثله فى النهار . ثم إن التجربة ترينا أن الحلم لا يتعارض والنوم ، ولو قطع النوم مرات متعددة فى أثناء الليل . فالمرء إنما يستيقظ عندئذ لحظة يعود على فورها إلى نومه . إنه كمن يطرد ذبابة وهو نائم ؛ فاستيقاظه محدود بغرضه وحين يستأنف المرء نومه يكون قد قضى على الإزعاج . ولا يتنافى تحقيق الرغبة فى النوم أقل تناف مع المدوامة على صرف قسط من الانتباه فى ناحية ما — كما يتبين من أمثلة مألوفة كنوم المرضع .

وهنا ينهض اعتراض يقوم على معرفة أدق بالعمليات الشعورية . فقد قلت : إن الرغبات اللاشعورية لا تنقطع عن النشاط . ولكن هذه الرغبات لا تبدو مع ذلك قوية إلى المدى الذى يجعلنا نحس بها فى أثناء النهار . فإذا ما ضربت حالة النوم أطنابها وأبدت الرغبة اللاشعورية قوة تكفى تكوين الحلم وإيقاظ ما قبل الشعور ، فلماذا يغيض معين هذه القوة بعد أن يبلغ الحلم علمنا ؟ أما كان ينبغى أن يتردد الحلم من غير انقطاع كما تلح ذبابة سمجة على الرجوع كلما طردت ؟ بأى حق نزعم أن الحلم يقضى على إزعاج النوم ؟

إن من الصحيح كل الصحة أن الرغبات اللاشعورية ناشطة دائماً ؛ فهى بمثابة طرقات يمكن دائماً اجتيازها كلما التجأت إليها كمية من التهييجات [أنظر ص٥٤٣ فى الهامش] . بل إن كون العمليات اللاشعورية لا تقبل الهدم سمة بارزة من سماتها ؛ فلا شىء فى الشعور يُنهى ولا شىء يزول أو ينسى . ويشعر المرء بذلك أشد ما يشعر به حين يدرس الأعصبة ، وبخاصة الهستريا . فالطريق اللاشعورية للأفكار ، الطريق المؤدية إلى التفريغ

فى النوبة الهسترية ، تصبح على الفور مهيأة لاجتيازها من جديد إذا تراكم قدر كاف من التهييج . والمذلة التى وقعت منذ ثلاثين عاماً تظل تعمل مثل مذلة مستحدثة طيلة هذه الأعوام الثلاثين بعد أن تجد مجازا إلى المنابع اللاشعورية للوجدان . فكلما مست ذكراها انبعثت إلى الحياة من جديد واتضح أنها لا تزال مستثمرة بتهييج يجد تفريغه الحركى فى نوبة من النوبات . وذلك على التحديد هو الموضع الذى يجب على التحليل النفسى أن يتدخل عنده . فهمته هى أن ييسر للعمليات اللاشعورية إمكانية معالجتها معالجة نهائية ونسيانها . لأن اضمحلال الذكريات والوهن الوجدانى للانطباعات التى قدم بها العهد — هذا الاضمحلال وهذا الوهن اللذان ننزع إلى اعتبارهما أمراً واضحاً بذاته ونتيجة أولية من نتائج فعل الزمن فى الآثار الذكروية النفسية — إنما هما فى الحقيقة تغييرات ثانوية لا تتم إلا بعمل شاق . والذى يقوم بهذا العمل هو ما قبل الشعور ، ولا يستطيع العلاج النفسى أن يتبع طريقاً آخر سوى وضع اللاشعور تحت سيطرة ما قبل الشعور[1] .

وهكذا يكون لكل عملية تهييجية لاشعورية مخرجان ممكنان : إما أن تترك لشأنها ، وهى فى هذه الحالة قد تتمكن من شق طريقها فى موضع ما وفى هذه المناسبة المفردة تحصل على تفريغ تهييجها فى الحركة ، أو هى قد تقع تحت تأثير ما قبل الشعور ، وبذلك يقيد تهييجها بدل أن يفرغ ، وهذا الاحتمال الثانى هو الذى يتحقق فى عملية الحلم . فالاستثمار الذى يذهب إلى منتصف الطريق صادراً عن ما قبل الشعور ليلاقى الحلم بعد أن صار محتوى إدراكياً ، ويذهب إليه بفعل التهييج الذى يحدثه الحلم عندئذ فى الشعور ، هذا الاستثمار يقيد التهييج اللاشعورى للحلم ويسلبه القدرة على الإزعاج . وإذا كان من الحق أن الحالم يستيقظ طرفة عين ، إلا أنه يكون فى الواقع قد طرد بذلك الذبابة التى كانت تهدد بإزعاج نومه . ومن ثم فقد نحدس الآن أن السماح للرغبة اللاشعورية بأن تأخذ مجراها وتركها تسلك طريق النكوص لكى تكون حلماً ثم تقييد الحلم بعدئذ والتخلص منه ببذل قسط ضئيل من العمل قبل الشعورى — هو فعلا مسلك أحسن تدبيراً وأكثر اقتصاداً من المداومة على إلجام اللاشعور إلجاماً محكماً طيلة فترة النوم جميعها . والحق أنه كان أمراً متوقعاً أن يكون الحلم قد اكتسب لنفسه وظيفة ما وسط اللعب المتبادل بين القوى النفسية ، حتى لو كان فى مبدأ أمره عملية مجردة

(١) [أبرز المؤلف هذه الجملة ابتداء من ١٩١٩ . أنظر ص ٥٤٣ فى الهامش .]

من كل قصد نافع . وفى وسعنا الآن أن نرى ما هى هذه الوظيفة : فالحلم قد أخذ على عاتقه أن يعيد إلى سيطرة ما قبل الشعور التهييج الذى ترك حرا فى اللاشعور . وهو إذ يفعل ذلك يفرغ التهييج اللاشعورى ، يعمل له عمل صمام الأمان وفى الوقت عينه يصون نوم ما قبل الشعور لقاء بذل ضئيل للنشاط المستيقظ . وهكذا يكون الحلم حلا وسطا ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأبنية النفسية التى من طبقته ؛ إنه يخدم كلا النظامين إذ يحقق كلتا الرغبتين – بقدر إمكان الاتفاق بينهما . فإذا ألقينا الآن نظرة إلى « النظرية الإفرازية » فى الحلم – وهى النظرية التى قال بها روبرت وشرحتها فى ص١٩٩ – تبين أن من الواجب إقرار هذا المؤلف على ما يذهب إليه من حيث الجوهر ، من حيث يحدد للحلم وظيفة[1] وإن كنا نختلف معه فى المقدمات وفى نظرتنا إلى عملية الحلم .

إن التحفظ الذى نصصنا عليه فى قولنا : « بقدر إمكان الاتفاق بين الرغبتين » ، يلمح إلى احتمال أن تكون هناك حالات تؤول فيها وظيفة الحلم إلى الإخفاق . فقد أذن لعملية الحلم أن تبدأ من حيث هى تحقيق رغبة ، ولكن هذا التحقيق الملتمس إذا نافر ما قبل الشعور منافرة عنيفة حتى ليجعلنى عاجزاً عن المضى فى النوم كان معنى ذلك أن الحلم قد أخل بالحل الوسط وأخفق فى تحقيق النصف الثانى

(١) [هامش أضيف سنة ١٩١٤ :] أهذه هى الوظيفة الوحيدة التى تمكن إضافتها إلى الأحلام ؟ لست أعرف غيرها . صحيح أن مادير (١٩١٢) قد حاول أن يبين أن للأحلام وظائف أخرى « ثانوية » . فهو قد بدأ من تلك الملاحظة الصائبة : أن بعض الأحلام تتضمن محاولات فى حل المشكلات تنفذ بعد ذلك فى الواقع وبذلك تسلك كما لو كانت محاولات فى التدرب على أفعال اليقظة ، ثم بعد ذلك وازن بين هذه الأحلام وبين لعب الحيوانات والأطفال الذى يمكن اعتباره تدرباً على نشاط الغرائز الفطرية واستعداداً للنشاط الجدى المقبل، ثم خلص من ذلك إلى فرض « وظيفة لاعبة » ["une fonction ludique"] للأحلام . ومن قبل مادير بزمن قليل كان الفريد آدلر (١٩١١) قد ألح كذلك على أن للأحلام وظيفة « التفكير الاستباقى » . (وفى تحليل نشرته عام ١٩٠٥ [١٩٠٥ هـ] أخذ حلم لا يمكن إلا أن نعده معرباً عن نية يتردد كل ليلة حتى نفذ .)

ومع هذا فقليل من التأمل يقنعنا بأنه لا حق لهذه الوظيفة « الثانوية » فى أن تعد موضوعاً من موضوعات تفسير الأحلام . فالتفكير المستبق وعقد النية ومحاولة حلول قد تحقق بعد ذلك فى حياة اليقظة ، كل هذه وكثير غيرها يشبهها إنما هى نتاج للنشاط اللاشعورى وقبل الشعورى ، ومن الجائز أن تدوم فى حالة النوم باعتبارها « بقايا نهارية » وأن تتحد برغبة لاشعورية فى تكوين حلم من الأحلام (أنظر ص ٤٥٠ وما بعدها). ومع هذا فوظيفة « التفكير المستبق » المنسوبة إلى الحلم هى على الأصح وظيفة للتفكير المستيقظ قبل الشعورى الذى يمكن كشف نتائجه بتحليل الأحلام أو غيرها من الظواهر . لقد كان من المألوف زمناً طويلا ألا نفرق بين الأحلام ومحتواها الظاهر ، ولكن من الواجب علينا اليوم أن نتجنب ذلك الخطأ الآخر ، وأعنى به الخلط بين الأحلام والأفكار الكامنة .

من مهمته ، وفى هذه الحالة يقطع حبل الحلم على الفور ويحل محله الاستيقاظ التام . وهنا أيضاً لا يرجع الذنب فى الحقيقة إلى الحلم إذا ألجئ إلى الظهور بمظهر مزعج النوم بدل أن يعمل عمله السوى حارساً له ، ولا داعى يدعونا إلى أن نأبى الاعتراف له بقصده النافع ؛ فذلك فى الكائن العضوى ليس المثال الأوحد على وسيلة لها فى السوى من الأحوال نفعها ولكنها لا تلبث أن تتجرد من هذا النفع وتغدو مزعجة إذا تغيرت الشروط التى تبعث عليها بعض التغيير. ثم إن هذا الإزعاج يخدم على الأقل ذلك الغرض الجديد، ألا وهو: جذب الانتباه إلى التغيير وتحريك الأداة التى تنظم سير الكائن العضوى إلى العمل . والذى أفكر فيه بالطبع وأنا أقول هذا الكلام هو حالة أحلام الهيلة ، ولكى لا يظن بحق أننى أتجنب هذا الشاهد الذى ينقض نظرية تحقيق الرغبة كلما صادفته ، أدلى فى تعليل هذه الأحلام ولو ببعض الإشارات .

لأن تكون عملية نفسية تتمخض عن الهيلة تحقيق رغبة فى الوقت عينه ، هذه فكرة لم نعد منذ زمن طويل نرى فيها تناقضا ما . فنحن نعلم أن من الممكن تعليلها بكون الرغبة تنتمى إلى نظام ، هو لاش. ، على حين أنها قد لاقت نبذاً وقمعاً من النظام قبش.[1] ولا يكون خضوع اللاشعور لما قبل الشعور خضوعاً مطلقاً حتى حين تكون الصحة النفسية

---

(١) [هامش أضيف سنة ١٩١٩ :] «وعامل آخر أهم كثيراً وأعمق غورا – وإن كان غير المختص يهمل أيضاً أمره – هو هذا : إنه لاشك فى أن تحقيق الرغبة يجب أن يجلب لذة . ولكنا نسأل عندئذ: لمن يجلبها ؟ لصاحب الرغبة بالطبع – ولكن علاقة الحالم برغباته – كما نعلم – علاقة لها طابعها الخاص كل الخصوص . فهو ينبذها ويراقبها ، أى أنه – فى كلمة – غير راض عنها . ويكون من أثر ذلك أن تحقيقها لا يجلب له لذة ، وإنما يجلب الضد . وترينا الخبرة أن هذا الضد يظهر فى صورة الهيلة – وهو الأمر الذى لا يزال علينا أن نأتى بتعليله . وهكذا إنما تجوز مقارنة الحالم – من حيث موقفه من تحقيق رغباته – بمجتمع تركب من شخصين منفصلين عقدت بينهما مع ذلك شركة قوية . ويغنينى عن الإطالة هنا أن أذكركم بدل ذلك بحكاية معروفة ترون فيها هذا الموقف عينه وقد تكرر من جديد : ذلك أن جنية طيبة وعدت رجلا وامرأته بتحقيق رغباتهما الثلاث الأولى من بين ما يشتهيان . وامتلأ الرجل وامرأته سروراً وعقدا النية على ألا يختارا رغباتهما الثلاث إلا بعد كثير من التروى . سوى أن رائحة سجق انبعثت من الكوخ المجاور ، فودت المرأة لو كان لها زوجين منه . وفى طرفة عين كان السجق أمامها وكان ذلك أول تحقيق رغبة . ولكن الرجل استشاط غضباً فتمنى وهو فى غيظه لو قد علق السجقان بأنفها . فعلقا وأبيا أن يتزحزحا من مكانهما الجديد . وكان ذلك ثانى تحقيق رغبة . وتعلمون كيف تمضى القصة بعد ذلك : فالرجل والمرأة إذ كانا – مهما كان الذى وقع بينهما – زوجين ، فقد وجب أن تكون الأمنية الثالثة زوال السجق من أنف الزوجة . إن هذه القصة تنفع فى تصوير أمور كثيرة . ولكنها إنما تفيدنا فى تصوير ذلك الاحتمال : أن ما يحقق رغبة الواحد قد لا يجلب لذة للآخر إذا كان الطرفان على غير اتفاق .» (عن المحاضرات التمهيدية فى التحليل النفسى ، فرويد ، ١٩١٦/١٩١٧.)

مكتملة ، وإنما يُرينا مقياس القمع درجة السواء النفسي . وتدلنا الأعراض العصابية فى هذا الصدد على أن النظامين مشتبكان فى صراع كلا والآخر . فهى — هذه الأعراض — نتائج حل وسط ينهى الصراع إنهاء موقوتاً : إنها — من جهة — تسمح للاشعور بمخرج يفرغ منه تهييجه مزودة إياه بما يشبه أن يكون بابا جانبياً ، وهى — من جهة أخرى — تمكن ما قبل الشعور من السيطرة على اللاشعور إلى حد ما . ومن المفيد فى هذا الصدد أن ننظر مثلا فى معنى مخافة هسترية أو فى معنى هيلة الأماكن الطلقة ، ولنفرض مريضاً لا يستطيع اجتياز الشارع وحده — وهو وضع نعده بحق " عرضاً " : إننا إذا أزحنا هذا العرض بحمل المريض على أن يأتى الفعل الذى يعتقد عجزه عنه ، كانت النتيجة أن تنطلق نوبة من الهيلة ، كما أن وقوع نوبة الهيلة يكون فى كثير من الأحيان السبب المعجل باستتباب المخافة . ومن هذا نرى أن العرض قد أقيم تجنباً لانطلاق الهيلة ، أو أن المخافة بمثابة حصن يحمى من الهيلة .

لقد أخذنا فى مناقشة تستحيل مواصلتها إلا إذا بحثنا النصيب الذى تقوم به الحالات الوجدانية فى هذه العمليات — وهو مالا نستطيعه هنا إلا على نحو جد ناقص . فلنفترض إذن تلك القضية : وهى أن قمع اللاشعور أمر يلزم قبل كل شىء لأن مجرى الأفكار فى اللاشعور إذا ترك لنفسه تولدت عنه حالة وجدانية كانت فى الأصل ذات طابع لاذ ولكنها صارت على عكس ذلك بعد وقوع عملية الكبت . والغرض من القمع ، وكذلك نتيجته ، هو الحيلولة دون هذا الانطلاق للألم . ويمتد القمع إلى المحتوى الفكرى للاشعور لأن انطلاق الألم قد يبدأ من هذا المحتوى . وينطوى هذا الكلام على فرض محدد تمام التحديد فيما يتعلق بطبيعة توليد الحالة الوجدانية : فنحن نعد هذا التوليد وظيفة حركية أو إفرازية يكمن المفتاح إلى تعصيبها فى أفكار اللاشعور [أنظر ص٤٦٥–٤٦٦] . ولكن السيطرة المفروضة من جانب ما قبل الشعور تخنق هذه الأفكار وتكفها عن إطلاق اندفاعاتها التى من شأنها توليد الحالة الوجدانية . فإذا انقطع الاستثمار من جانب ما قبل الشعور ، كان الخطر أن تطلق التهييجات اللاشعورية حالة وجدانية من نوع لا يمكن أن يحس إلا فى صورة ألم ، فى صورة هيلة — نتيجة للكبت الذى وقع من قبل .

هذا الخطر يتجسد إذا ترك لعملية الحلم أن تأخذ مجراها . وشرطا تحققه هما : أن تكون عمليات كبت قد وقعت وأن تتمكن الاندفاعات الراغبة المقموعة من بلوغ قوة كافية وهما إذن شرطان يخرجان من نطاق سيكولوجية الحلم خروجاً تاماً ، ولولا

أن موضوعنا يرتبط بموضوع توليد الهيلة من نقطة واحدة ــ وأعنى بها تحرر اللاشعور فى أثناء النوم ــ لكان فى مستطاعى أن أسقط كل مناقشة فى صدد أحلام الهيلة وأن أتجنب الخوض على هذه الصفحات فيما يحيط بها من الظلمات .

إن نظرية أحلام الهيلة ــ كما أعلنته مراراً من قبل ــ جزء من سيكولوجية الأعصبة [١] . ولا يعود لنا شأن بها بعد أن نبين موضع التماس بينها وبين موضوع عملية الحلم . وكل الذى أستطيعه بعد الآن شيء واحد : ذلك أننى ــ وقد قررت أن الهيلة العصابية تنبعث من مصادر جنسية ــ أرى أن أحلل بعض أحلام الهيلة لكى أبين المادة الجنسية الماثلة فى أفكارها الكامنة .

وعندى أسباب وجيهة تدعونى إلى أن أترك جانباً فى خلال المناقشة الحاضرة الأمثلة الغزيرة التى يزودنى بها مرضاى العصابيون وأن أستشهد بأحلام هيلة أتاها بعض الأحداث.

لقد خلت عقود منذ أتانى حلم هيلة بالمعنى الصحيح ، ولكننى أذكر حلماً من سنى السابعة أو الثامنة ، حللته بعد ذلك بما يقرب من الثلاثين عاماً . كان حلماً شديد الجلاء رأيت فيه أمى المحبوبة وقد ارتسم على ملامحها تعبير نائم وادع دعة غريبة يحملها شخصان (أو ثلاثة) لهم مناقير الطير ويرقدونها على الفراش . واستيقظت باكياً صارخاً حتى قطعت على والدى نومهما . ــ إن الشخوص الملفعة فى هيئة غريبة، ذوات الطول الخارق ومناقير الطير قد اشتقوا من توراة فيليبسون [٢]. ولا إخال إلا أنهم كانوا آلهة برؤوس العقاب نقلت صورتهم من حفر جنائزى منحدر من مصر القديمة . وقد ذكرنى التحليل فوق ذلك بغلام سيء التنشئة ، ابن بواب اعتاد اللعب معنا على حشيش أمام المنزل ونحن صغار ، ويغلب على ظنى أنه كان يدعى فيليب . ويبدو لى أن هذا الولد كان أول من سمعت على لسانه اللفظ العامى لفعل الجماع ــ وهو اللفظ الذى يستخدم المثقفون دائماً فى محله كلمة لاتينية ، ولكن دل عليه فى الحلم اختيار رؤوس العقاب دلالة كافية الوضوح [٣].ولا بد أنى خمنت المفهوم الجنسى للكلمة من سيما معلمى المحنك

---

(١) [فى هذا الموضع أضاف فرويد الجملة الآتية عام ١٩١٩ ثم حذفها ابتداء من سنة ١٩٢٥ : « وأحب أن ألح على أن مشكلة الهيلة فى الأحلام هى مشكلة هيلة لا مشكلة حلم . »]

(٢) [Die israelitische Bibel ، طبعة من طبعات العهد القديم باللغتين العبرية والألمانية ، ظهرت فى ليبزيج بين سنتى ١٨٣٠ – ١٨٥٤ وظهرت طبعتها الثانية سنة ١٨٥٨ . وقد احتوى هامش الإصحاح الرابع من سفر التثنية على عدد من الرسوم تصور آلهة مصرية قديمة من بينها آلهة برؤوس طيور .]

(٣) [اللفظ الألمانى العامى المشار إليه هو "Vogeln" من "Vogel" بمعنى طير .]

هذا . فأما التعبير الذى ارتسم على ملامح أمى فى الحلم فينقل مرأى جدى إذ شهدته قبل موته بأيام قلائل،وهو يشخر فى غيبوبته . وعلى ذلك وجب أن تذهب المراجعة الثانوية فى تفسيرها الذى تقوم به فى الحلم إلى أن الأم قد ماتت ، ويلائم ذلك الحفر الجنائزى كذلك . واستيقظت فى هيلة لم تنقطع حتى أيقظت والدى . وأذكر أنى هدأت فجأة حين رأيت وجه أمى كأنما كانت بى حاجة إلى ما يطمئننى أنها لم تمت . سوى أن هذا التفسير الثانوى إنما أتى تحت تأثير هيلة قد أخذت من قبل فى التمخض . فأنا لم أستشعر الهيلة لأن أمى قد ماتت ، بل فسرت الحلم هذا التفسير فى مراجعتى الثانوية إياه لأننى كنت فعلا تحت تأثير الهيلة . فإن حسبنا للكبت حسابه أمكن تأثر الهيلة إلى رغبة مبهمة ، جنسية فى غير خفاء ، وجدت فى المحتوى البصرى للحلم ما يعرب عنها إعراباً موفقا .

وحكى رجل فى السابعة والعشرين من عمره كان مريضاً بمرض خطير منذ عام أنه وهو بين الحادية عشرة والثالثة عشرة كان يحلم تكراراً (مع مصاحبة هيلة شديدة الوطأة) بأن رجلا يطارده بفأس فيحاول الفرار منه ولكنه يبدو كأنما أصابه الشلل فلا يستطيع التحرك من موضعه . إن ذلك مثال طيب من نوع شائع غاية الشيوع ماكنا نظنه قط حلماً جنسياً . فلما أخذنا فى التحليل عثر الحالم بادئ ذى بدء على قصة ترجع إلى زمن متأخر عن الحلم ، رواها له عمه عن رجل مريب الطلعة هاجمه ليلة فى الطريق . واستخلص الحالم بنفسه من هذا الاستدعاء أنه ربما كان قد سمع بقصة تماثل هذه فى زمن الحلم . وأما فيما يتعلق بالفأس فيذكر الحالم أنه قرب هذا الزمن قد جرح يده بفأس وهو يقطع الخشب . ثم مضى على أثر ذلك إلى الحديث عن علاقاته بأخيه الأصغر ؛ لقد كان من عادته أن يسىء إلى هذا الأخ وأن يقرعه على الأرض ، وإنه ليذكر بنوع خاص مناسبة رفس فيها بحذائه الغليظ رأس أخيه فأدماه ، ويذكر كيف صاحت أمه حينئذ : أخشى أن يكون موت الصغير على يديه يوماً ما . وبينما بدا أنه ما زال مشغولا بموضوع العنف طرأت على باله فجأة ذكرى ترجع إلى سنته التاسعة : فقد عاد والداه إلى المنزل فى ساعة متأخرة وذهبا إلى الفراش بينما كان هو يتصنع النوم . وما لبث أن سمع لهثاً وأصواتاً أخرى بدت له غريبة عن كل مألوف ، كما استطاع كذلك أن يحذر وضع الزوجين فى الفراش . وتبين من أفكاره بعد ذلك أنه قد عقد مماثلة بين علاقة والديه هذه وبين

علاقته هو بأخيه . فقد أدرج ما وقع بين والديه فى تصور : العنف والشجار . وأيد هذا الظن عنده أنه كان كثيراً ما يرى دما على فراش الأم .

إن كون الجماع الجنسى بين الراشدين يفجأ من يلحظونه من الأطفال كما لو كان شيئاً غريباً عن المألوف يثير الروع فى نفوسهم ، أمر يجوز لى القول بأنه موضع خبرة يومية . ولقد عللت هذه الهيلة بالقول : إننا نرانا هنا إزاء تهييج جنسى لم يستطع الأطفال السيطرة عليه بأفهامهم كما أنهم يسارعون بلا ريب إلى نبذه لأنه يمس والديهم ، ومن ثم يتحول إلى هيلة . وهناك بعد مرحلة تسبق هذه من مراحل الحياة الجنسية نرى فيها التهييجات المتجهة إلى الوالد الذى من الجنس المقابل وهى لا تلقى بعد كبتاً وتعرب عن نفسها إعرابا حرا — كما سمعنا من قبل (ص٢٧٢) .

ولست أتردد فى تطبيق هذا التعليل ذاته على نوبات الهيلة الليلية المصحوبة بهلاوس (pavor nocturnus) والتى يشيع وقوعها عند الأطفال كل شيوع . فما يتعلق الأمر هنا أيضاً إلا بانطباعات جنسية لم تلق فهما ولاقت نبذا . ومن المرجح أن يطلعنا الاستقصاء فى البحث على دورية نظيمة فى وقوع هذه النوبات ؛ إذ أن زيادة الليبيدو الجنسية لا تنجم عن الانطباعات المهيجة العارضة وحدها ، بل هى قد تكون متوقفة كذلك على موجات متعاقبة من العمليات التمخضية التلقائية .

وإنى لتعوزنى المادة الكافية القائمة على الملاحظة حتى أتمكن من تأييد هذا التعليل (١) . وأما أطباء الأطفال فيبدو على العكس أنهم إنما تعوزهم وجهة النظر التى يستطيعون بها وحدها فهم جميع هذه الطبقة من الظواهر ، سواء من الناحية الجسمية أو النفسية . وأود أن أسوق فى هذا الصدد مثالا مضحكا يرينا كيف تستطيع مئمات (٢) الأساطير الطبية أن تعمى المرء عن فهم أمثال هذه الحالات بعد أن صار من هذا الفهم قيد شعرة ، وهذا المثال قد وجدته فى رسالة دوباكر عن الرعب الليلى (١٨٨١ ، ص ٦٦) :

ولد ضعيف الصحة فى الثالثة عشرة من عمرة أخذ يغدو قلقاً حالماً ، وصار ينام نوماً مضطرباً تقطعه نوبات شديدة الوطأة من الهيلة المصطحبة بالهلاوس — وكانت تقع

---

(١) [هامش أضيف سنة ١٩١٩ :] منذ أن كتبت هذه السطور ظهر فى المؤلفات التحليلية النفسية عدد وفير من هذه المادة .

(٢) [جمع « مئمة » — وهو ما يوضع على عين الحصان لكى ينظر إلى الأمام . وفى لغة حوذيينا : النظارات .]

له بما كاد أن يعدل المرة فى كل أسبوع . وكانت هذه الأحلام واضحة دائماً فى ذاكرته كل الوضوح . وهكذا أمكنه أن يروى أن الشيطان قد صاح به : لقد أمسكنا بك ، لقد أمسكنا بك . وحينئذ كانت تتصاعد رائحة قار وكبريت وتحرق ألسنة النار جلده . وكان يستيقظ فى رعب وهو لا يستطيع فى مبدأ الأمر صراخاً ، فإذا استرجع صوته سمعته سمعاً واضحا وهو يقول : « لا ، لا ، ليس أنا ، إنى لم أرتكب شيئاً » أو : « صفحاً ، صفحا ، لن أعود إلى ذلك ثانية . » وكان يقول فى أحيان أخرى : « إن ألبير لم يرتكب ذلك قط . » وبعد ذلك صار الولد يرفض نزع ثيابه « لأن النار لا تمسك به إلا وهو عار . » وأرسل الولد وسط هذه الأحلام الشيطانية التى صارت خطراً يتهدد صحته إلى مكان فى الريف حيث استعاد صحته فى خلال عام ونصف العام . فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره اعترف مرة قائلا : « إنى لم أكن أجرؤ على الاعتراف بذلك ، ولكنى كنت أحس طيلة الوقت نخسا فى الأعضاء[1] وتهييجاً زائداً ، وأخيراً جعل ذلك يثير أعصابى حتى أننى فكرت كثيراً من المرات فى إلقاء نفسى من نافذة عنبر النوم . »[2]

الحق أنه لا يصعب علينا أن نخمن : ١) أن الولد كان يستمنى حين كان أصغر سناً ، وأنه قد أنكر ذلك فى الراجح ، وأنه هدد بعقاب شديد على عادته السيئة (انظر تصريحه : « لن أعود إلى ذلك أبدا » ، ثم إنكاره : « إن ألبير لم يرتكب ذلك قط »)[3] ، ٢) أن دفعات المراهقة قد أحيت من جديد إغراء الاستمناء فى صورة ذلك النخس المحس فى أعضائه التناسلية ، غير أن ٣) صراعاً نشب فى نفسه من أجل الكبت ، فقمع الليبيدو عنده وأحالها إلى هيلة . وأخذت هذه الهيلة تردد من بعد ما قد هدد به الولد فى تلك المرة من صنوف العقاب .

فلنسمع الآن النتائج التى انتهى إليها مؤلفنا (ص ٦٩) : « يخلص من هذه الملاحظة ما يأتى : ١) أن تأثير المراهقة قد تنجم عنه عند طفل ضعيف الصحة حالة من الضعف الشديد وقد يؤدى إلى درجة شديدة من الأنيمية المخية .[4]

(١) أنا الذى أبرزت هذه الكلمة ، والخطأ فى فهمها محال على أية حال .

(٢) [“Je n’osais pas l’avouer, mais j’éprouvais continuellement des picotements et des surexcitations aux parties; à la fin, cela m’énervait tant que plusieurs fois j’ai pensé me jeter parla fenêtre du dortoir.”]

(٣) [“Je ne le Ferai plus. Albert n’a jamais foit ca”]

(٤) الإبراز من عندى .

٢) تؤدى هذه الأنيمية إلى تغيير فى الطبع وهلاوس مدارها الشيطان وإلى حالات من الهيلة شديدة العنف تقع فى أثناء الليل ، وربما كانت تقع أيضاً فى أثناء النهار .

٣) يرجع هواس الشيطان وترجع مؤاخذة الولد نفسه إلى مؤثرات التربية الدينية التى أثرت فيه وهو طفل .

٤) اختفت جميع هذه المظاهر فى خلال إقامة مطولة فى الريف ، نتيجه للتمرين البدنى ولاسترجاع القوى بعد انقضاء المراهقة .

٥) من الجائز أن نعزو إلى الوراثة وإلى إصابة الأب القديمة بالزهرى تأثيراً مهد لنشوء حالة الطفل المخية . »

ثم ها هى ذى كلمة الختام: « لقد أدرجنا ما لاحظناه فى نطاق أهذية الإعياء غير الحمية ؛ وذلك لأننا نعزو هذه الحالة الخاصة إلى الأسكيمية المخية . »(١)

ه

العمليات الأولية والعمليات الثانوية ــ الكبت

إنى حين جازفت فحاولت أن أتعمق سيكولوجية عمليات الحلم قد تكلفت مهمة عسيرة، ثم هى مهمة ليس عندى من القدرة على العرض ما يكافئها . فأن أنقل ما هو فى الحقيقة كل معقد متزامن الأجزاء فى وصف متعاقب اللحظات وأن أظهر فى كل قضية أسوقها بمظهر من لا يعلم شيئاً عن مقدماتها ، ذلك ما تعجز عنه قواى . وكل هذا هو الجزاء الوفاق على أننى حين تعرضت لسيكولوجية الحلم لم أستطع اتباع التطور التاريخى لأفكارى . فقد جئت إلى موضوع الحلم مقاداً بأعمالى السابقة فى ميدان سيكولوجية الأعصبة التى أردت ألا أتخذ منها أساساً أرجع إليه فى الكتاب الحاضر ،ومع هذا أرانى مساقاً إلى ذلك فى كل خطوة أخطوها بدل المضى فى الاتجاه المخالف متخذا من الحلم وسيلة إلى الاقتراب من سيكولوجية الأعصبة كما كانت مشيئتى . وإنى لأعلم كل

---

(١) ["Nous avons fait entrer cette observation dans le cadre des délires apyrétique d'inanition, car c'est à l'ischémie cérébrale que nous rattachons cet état particulier."]

الاضطراب الذى يجره ذلك على القارئ ، ولكنى لا أعرف وسيلة إلى تجنبه .

وبين هذا السخط على هذه الحال يسرنى أن أقف هنيهة عند اعتبار آخر أرى أنه يرفع من قيمة الجهود التى بذلت . فقد رأيتنى أواجه موضوعاً غلبت على آراء أهل الثقة فيه أقطع المتناقضات – على ما بينته فى الفصل الأول . ولكن معالجتنا لمشكلات الحلم قد تركت لغالبية هذه الآراء المتناقضة محلا . فليس إلا رأيان رأينا وجوب نفيهما نفياً باتا : أن الحلم عملية لا معنى لها وأنه عملية جسمية . وأما فيما خلا ذلك فقد كان فى استطاعتنا أن نجد مبرراً لجميع هذه الآراء المتناقضة فى موضع أو آخر من نظريتنا المعقدة ، وأن نبين ان كلا منها قد لمس طرفاً من الحقيقة . فالرأى القائل : إن الأحلام تواصل مشاغل حياة اليقظة واهتماماتها قد أيد مطلق التأييد باكتشاف أفكار الحلم المختبئة . فهذه لا تشغل إلا بما يبدو لنا ذا خطر ويثير أعظم اهتمامنا ، ولا تشغل الأحلام أبداً بالصغائر ولكنا رأينا كذلك ما يدعو إلى قبول الرأى المخالف أن الحلم يلتقط الحثالة التافهة المتبقية من النهار ولا يستطيع الاستيلاء على أحد اهتماماتنا النهارية الكبرى إلا بعد أن يخرج هذا الاهتمام من نطاق نشاطنا المستيقظ بعض الخروج . فقد رأينا أن هذا الرأى يصدق على محتوى الحلم الذي يعرب عن أفكار الحلم فى صورة غيرها التشويه . وكان الذى قلناه هو أن الاستيلاء على مادة فكرية حديثة أو مجردة من الشأن ، لم تقع بعد تحت نير النشاط الفكرى المستيقظ ، أسهل على عملية الحلم لأسباب تتعلق بميكانيكية التداعى ، ولأسباب تتعلق بالرقابة كانت هذه العملية تحول الشدة النفسية عما هو هام لكنه غير مقبول إلى ما كان أمره يستوى. فأما أن الأحلام ذات ذاكرة مغرقة وأنها تنفذ إلى مادة من عهد الطفولة . فذلك ما صار ركنا رئيساً فيما نذهب إليه ؛ فنظريتنا فى الحلم ترى فى الرغبات الناشئة من الطفولة قوة دافعة لا يستغنى عنها فى تكوينه . ولا خطر لنا بالطبع أن نلقى ظلا من الشك على ما أثبته التجريب من أهمية المنبهات الحسية الخارجية فى أثناء النوم ، سوى أننا بينا أن علاقة مثل هذة المادة برغبة الحلم لا تختلف عن علاقة بقايا الفكر المتخلفة من النهار . كذلك لم نر مدعاة إلى منازعة الرأى القائل بأن الأحلام تأول المنبهات الموضوعية الحسية كما تفعل أوهام الحواس ، ولكنا بينا دافع هذا التأويل – وهو الدافع الذى تركه المؤلفون الآخرون من غير تحديد. ذلك أن هذا التأويل يؤتى بحيث يفقد الموضوع المدرك قدرته على إزعاج النوم ويصير فى الوقت عينه قابلا لأن يستخدم طوع

تحقيق الرغبة . وما الحالات التهييجية الذاتية التي تطرأ على أعضاء الحواس في خلال النوم – هذه الحالات التي يبدو أن ترامبال لاد قد أثبت وقوعها – فصحيح أننا لم نسلم بها مصدراً خاصاً من مصادر الحلم ، ولكننا استطعنا تعليلها قائلين : إنها تنجم عن الإحياء النكوصي للذكريات التي تعمل عملها وراء الحلم . والإحساسات العضوية الباطنية التي كانت تعد طواعية حجر الزوا ية في تعليل الأحلام ، هذه أيضاً قد احتفظت بمكان في نظريتنا – وإن يكن مكاناً أكثر تواضعاً . فهذه الإحساسات – كالإحساس الوقوع أو الهوام في الفضاء أو الكف – توفر مادة يسهل تناولها في كل وقت ويستطيع عمل الحلم أن يلجأ إليها من أجل الإعراب عن أفكار الحلم كلما دعت إلى ذلك حاجة .

والقول بأن عملية الحلم عملية سريعة آنيّة قول صادق في نظرنا فيما يتعلق بإدراك الشعور للمحتوى الحلمي الذي تم تكونه ، ولكن الراجح أن الأجزاء السابقة من عملية الحلم تجرى جريا بطيئاً متقلباً . واستطعنا كذلك أن نشترك في حل لغز الأحلام التي تحتوى على مقدار ضخم من مادة ضغطت في أقصر برهة من الزمن حين أوحينا أن أن الحلم في أمثال هذه الحالات إنما يضع يده على مادة جاهزة الصنع كانت حاضرة في الحياة النفسية من قبل . وأما أن الذاكرة تشوه الأحلام وتجتزئ منها فهذا ما نسلم به ولكن دون أن نعده عقبة ؛ فما ذلك إلا آخر جزء من أجزاء النشاط المشوه الذي تحرك إلى العمل منذ بدء تكوين الحلم وأظهرُها . ثم هاته المعركة المرة والتي لا يبدو سبيل إلى الاتفاق فيها حول ما إذا كانت النفس تنام في الليل أو تمتلك جميع ملكاتها امتلاكها إياها في النهار ، لقد كان رأينا فيها أن كلا الجانبين صحيح دون أن تكون له الصحة كلها . فقد رأينا في أفكار الحلم شاهداً على وظيفة عقلية غاية في التعقيد تكاد تعمل بكل ما يملك الجهاز النفسي من الموارد ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر مع ذلك أن هذه الأفكار الحلمية قد نشأت في خلال النهار كما أنه لا محيد عن أن نفترض أن الحياة النفسية تمر بحالة من النوم . وهكذا حتى نظرية النوم الجزئي قد ظهرت لها هي الأخرى أهميتها – وإن لم يكن من رأينا أن خاصة حالة النوم تقوم في تصدع الروابط النفسية ، بل في تركز النظام النفسي المسيطر نهاراً في رغبة النوم . كذلك يحتفظ عامل الانفصال عن العالم الخارجي بأهميته في نطاق تصورنا ؛ فهو ييسر نكوص التصوير الحلمي – إن لم يكن العامل الوحيد في ذلك . ثم التخلي عن توجيه الأفكار توجيهاً إراديا ، تلك حقيقة لا سبيل إلى

الجدال فيها ، لكنها لا تفقد الحياة النفسية كل قصد ، فقد رأينا كيف تتولى مقاليد الحكم أفكار غائية لا إرادية بعد النزول عن الأفكار الإرادية . وأما تراخى روابط التداعى فلم نقف عند قبوله وحسب ، بل بينا أنه يمتد إلى أبعد مما كان يظن ، إلا أننا رأينا أن هذه الروابط المتراخية إنما هى بدائل تحل محل أخرى صحيحة حافلة بالمعنى . وقد وصفنا الحلم يقينا باللامعقولية ، ولكن الأمثلة أرتنا أى حكمة يبلغها الحلم وراء مظهره الفاسد . فأما عن الوظائف التى ينبغى إسنادها إلى الحلم ، فهذا مالا نخالف فيه أحدا . فالقول بأن الحلم يخفف النفس مثل صمام أمان أو — على تعبير روبرت — بأن أشياء ضارة من كل نوع تفقد ضررها بتصويرها فى الحلم ، هذا القول لا يتفق وحسب مع نظريتنا فى تحقيق الرغبة ، بل إنه ليبدو مفهوماً فى كلماتنا أكثر منه فى كلمات روبرت نفسه . وأما انطلاق قدرات النفس فى لعب حر فهذا ما يتمثل عندنا فى قولنا : إن النشاط قبل الشعورى يترك الأحلام تأخذ مجراها . و « ارتداد الحياة النفسية فى الحلم إلى وجهة نظر جنينية » أو قول هافلوك إليس إذ يصف الحلم بأنه : « عالم أثرى من الانفعالات المبهمة والأفكار الناقصة » [١] ، كل أولئك يبدو لنا استباقاً موفقاً إلى ما ذهبنا إليه من أن أساليب النشاط البدائية المقموعة فى النهار يسمح لها بالاشتراك فى تكوين الحلم . وأما قول سوللى « إن الحلم يستعيد ما تعاقب نموه من سابق شخصياتنا ويستعيد أساليبنا القديمة فى النظر إلى الأشياء والإحساس بها كما يستعيد اندفاعات وأساليب فى الاستجابة كانت تسيطر علينا منذ زمن بعيد » ، فقد وسعنا قبوله رأيا من آرائنا كل القبول ، ولا نحن نتخلف وراء دولاج فى أن « المقموع » هو القوة الدافعة إلى فعل الحلم .

ولقد سلمنا تسليما كاملا بأهمية النصيب الذى يعزوه شرنر إلى « مخيلة الحلم » كما سلمنا بتفسيرات شرنر ذاتها ، سوى أننا اضطررنا إلى تغيير مكانها من المشكلة — إن جاز التعبير . فالمسألة ليست أن الحلم يخلق الصور المتخيلة بل الأصدق أن النشاط اللاشعورى للمخيلة يشارك فى تكوين أفكار الحلم بأعظم نصيب . فنحن نظل مدنيين لشرنر بكشفه عن مورد أفكار الحلم ، ولكن كل ما يعزوه إلى عمل الحلم — أو كله على التقريب — إنما ينبغى عزوه فى الحقيقة إلى نشاط اللاشعور خلال النهار — وهو النشاط الذى يوفر الحافز إلى الأحلام وإلى الأعراض العصابية على السواء . ولقد اضطررنا

(١) ["an archaic world of vast emotions and imperfect thoughts"]

أن نفرق بين هذا النشاط وعمل الحلم على اعتبار أن هذا الأخير شيء مختلف كل الاختلاف وأضيق مفهوماً بكثير . وأخيراً ، فنحن لم نترك العلاقة بين الحلم والاضطرابات النفسية بحال ما ، بل أرسيناها على أرض جديدة إرساء أشد رسوخاً .

وهكذا تجد أشد مكتشفات المؤلفين السابقين تنوعاً وتناقضاً — متسعاً فى بنائنا بفضل ما فى نظريتنا عن الحلم من جديد يؤلف بينها كأنما فى وحدة أرفع . الكثير من هذه النظريات قد استخدمناه استخداماً مختلفاً ولكننا لم ننبذ منها سوى القليل . ومع هذا لا يزال بناؤنا غير مكتمل ؛ إذ يبدو بغض النظر عن المشكلات العديدة المحيرة التى أخذتنا فى غمارها ونحن نشق طريقنا فى دياجير علم النفس ، يبدو أن ثم تناقضاً جديداً يواجهنا . فقد رأينا — من جهة — أن أفكار الحلم تنبعث من خلال نشاط فكرى سوى إلى أبعد المدى ، ولكننا — من جهة أخرى — قد اكتشفنا بين أفكار الحلم عدداً من عمليات فكرية تجانب السوى كل مجانبة ، عمليات تمتد إلى محتوى الحلم ، ثم نعيدها نحن بعدئذ فى خلال التفسير . فكل ما وصفناه تحت عنوان « عمل الحلم » يبدو يفترق مما نعرف أنه العمليات الفكرية الصحيحة افتراقاً لا بد من أن تلوح معه أقسى الأحكام التى أصدرها المؤلفون السابقون حول انخفاض مستوى النشاط النفسى فى الحلم محقة كل الحق .

ولعلنا لن نظفر بالإيضاح والعون بغير المضى فى الاستقصاء . وعلى ذلك أتناول وضعاً من الأوضاع المؤدية إلى تكوين الحلم لكى أزيده بحثاً .

لقد رأينا أن الحلم يحل محل طائفة من الأفكار مستمدة من حياتنا اليومية ، مؤلفة تأليفاً منطقياً كاملا . ولهذا كنا لا نملك الشك فى أن هذه الأفكار قد نشأت عن حياتنا الفكرية السوية . فكل المحمولات التى نقدرها فى عملياتنا الفكرية تقديراً عالياً والتى تخلع على هذه العمليات طابع الأفعال المعقدة الصادرة عن نظام أرفع ، كل هذه نعود فنجدها فى أفكار الحلم . غير أننا لا نحتاج إلى افتراض أن هذا العمل يؤتى فى أثناء النوم — وهو فرض من شأنه أن يدخل ارتباكاً شنيعاً فيما استقرت عليه الآراء حتى اليوم فى تصور حالة النوم . بل من الممكن على العكس كل الإمكان أن تكون هذه الأفكار قد نشأت من اليوم السابق ثم استمرت دون أن يلحظها الشعور منذ البداية ، حتى إذا ما أقبل النوم كانت شيئاً مجهزاً . وغاية ما نستطيع استخلاصه من هذا الوضع هو أن أشد الأعمال الفكرية تعقيداً ممكنة بغير معاونة الشعور — وهى نتيجة ما كنا إلا لنخرج بها على أية

حال من أى تحليل نجريه لحالة من حالات الهستريا أو لشخص يعانى أفكاراً قهرية . ومن المؤكد أن هذه الأفكار الحلدية ليست عاجزة بذاتها عن بلوغ الشعور ، فإن كانت لم تبلغه فعلا فى خلال النهار فلابد من أن تكون لذلك أسبابه المختلفة. فالصيرورة إلى الشعور أمر مرتبط بإعمال وظيفة نفسية محددة هى الانتباه — وهى وظيفة لا تتيسر فيما يبدو إلا بقدر معين ، ولقد ينصرف هذا القدر عن العملية الفكرية التى نكون فى صددها إلى هدف آخر يجذبه . وهناك بالإضافة إلى ذلك طريقة أخرى قد تفصل بها أمثال هذه العمليات الفكرية من الشعور . ذلك أننا نعلم من تأملاتنا الشعورية أننا نتبع طريقاً محدداً حين نعمل انتباهنا . فإذا عثرنا ونحن نتبع هذا الطريق على فكرة لن تحتمل النقد توقفنا عن المضى ، أى أننا نسقط استثمار الانتباه . والذى يبدو الآن هو أن من المستطاع للعملية الفكرية التى بدأت على هذا النحو ثم أسقطت أن تستمر فى نسج نفسها بنفسها دون أن يتجه إليها الانتباه مرة ثانية — اللهم إلا أن تبلغ درجة من الشدة عالية بنوع خاص تحمل الانتباه على الاتجاه إليها حملا . وهكذا إذا نبذت عملية فكرية منذ البداية نبذا قد يكون شعورياً ، بحكم يقرر خطأها أو قلة غنائها بالنسبة إلى الأغراض المتوخاة فى اللحظة الحاضرة ، فقد تكون النتيجة استمرار هذه العملية حتى مقدم النوم دون ملاحظة الشعور .

ولنجمل مقالنا : إننا نصف عملية فكرية هذا شأنها بأنها عملية قبل شعورية ، ونراها عملية معقولة كل معقولية ، ونعتقد أنها قد تكون أهملت وحسب وقد تكون قطعت قطعاً وقمعت . ولننقل بعد ذلك صراحة كيف نتصور سير أفكارنا : إننا نعتقد أن هناك مقداراً معيناً من التهييج — هو ما نسميه « طاقة استثمارية » — ينتقل ابتداء من فكرة غائية ما ، وفق الطرق الاستدعائية التى تنتقيها هذه الفكرة . والعملية الفكرية التى نقول : إنها « أهملت » هى عملية لم تلق مثل هذا الاستثمار ، فأما تلك التى « تقمع » أو « تنبذ » فعملية قد « رد عنها » هذا الاستثمار . وفى كلتا الحالتين تترك العملية لتهييجاتها الخاصة . وبوسع العملية الفكرية المستثمرة استثماراً غائياً أن تجتذب إليها تحت شروط خاصة انتباه الشعور ، وعندئذ تلقى بوساطته « استثماراً مضاعفاً » . ولا بد من أن نشرح بعد قليل نظرتنا فى طبيعة الشعور ووظيفته [أنظر ص ٥٩٧] .

فإذا أطلقت عملية فكرية فى ما قبل الشعور على هذا النحو ، أمكن أن تنقطع

هذه العملية من تلقاء نفسها أو أن تستمر . ونتصور فى حالة المخرج الأول أن الطاقة المقترنة بالعملية الفكرية قد انبثت فى جميع الاتجاهات الاستدعائية المشعة منها مدخلة على شبكة الأفكار جميعها حالة من التهييج تدوم زمنا ما ؛ ثم تنطفئ بعد ذلك إذ يتحول التهييج الساعى وراء التفريغ إلى استثمار راكد . فإن تحقق هذا المخرج الأول ، فقدت العملية كل أهمية مقبلة بالنسبة إلى تكوين الحلم . بيد أن ما قبل شعورنا تتربص فيه أفكار غائية أخرى تتشعب من موارد فى لاشعورنا ومن رغبات متحفزة فى كل وقت . ولقد تتملك هــذه الأفكار الغائية الأخرى زمام التهييج المقترن بطائفة الأفكار التى تركت لشأنها ، فتنشئ رباطاً بينها وبين رغبة لاشعورية وتحول إليها الطاقة الخاصة بهذه الرغبة اللاشعورية ، ومن الآن فصاعداً يتسنى الدوام للفكرة المهملة أو المقموعة — وإن كان التعزيز الذى لقيته لا يكسبها حق الدخول إلى الشعور . ولنا أن نعرب عن ذلك بالقول : إن ما كان حتى الساعة عملية فكرية قبل شعورية قد جُرَّ إلى اللاشعور .

وبين الأوضاع الأخرى المؤدية إلى تكوين الحلم أن تكون العملية الفكرية قبل الشعورية قد ارتبطت برغبة لاشعورية منذ البدء ، ولهذا قوبلت بالنبذ من جانب الاستثمار الغائى الغالب . أو قد تهيج رغبة لاشعورية لأسباب أخرى (جسمية مثلا) وتحاول إحداث تحويل إلى البقايا النهارية غير المستثمرة من قبل . دون أن تذهب هذه البقايا إلى ملاقاتها . غير أن هذه الحالات الثلاث جميعها تؤدى فى نهاية الأمر إلى نتيجة واحدة ، وهى : أن يظهر فى ما قبل الشعور خيط من الأفكار بغير استثمار قبل شعورى ولكنه لقى استثماراً من رغبة لا شعورية .

وابتداء من تلك اللحظة تنتاب هذا الخيط من الأفكار طائفة من التغيرات لانستطيع بعد ذلك أن نعدها عمليات نفسية سوية ، تغيرات تؤدى فى النهاية إلى نتيجة تبعث على استغرابنا ، إلى بناء مرضى . فلنلخص هذه العمليات ونصنفها :

١ — تمسى الشدات الخاصة بالأفكار المتفرقة قادرة على التفريغ جملة واحدة وتنتقل من فكرة إلى أخرى بحيث تتكون أفكار مزودة بشدة عظيمة . وإذ كانت هذه العملية تتكرر مرات متعددة ، فمن المحتمل أن تتجمع الشدة الخاصة بخيط من الأفكار بأجمعه فى عنصر فكرى مفرد . وهذه هى واقعة الضغط أو التكثيف التى ألفناها فى عمل الحلم ، وهى المسئولة أولا عما يطبعنا به الحلم من شعور بالغرابة ؛ لأننا لا نعرف لها مثيلا

على الإطلاق فى الحياة النفسية السوية الواقعة فى متناول الشعور . صحيح أننا نجد كذلك فى الحياة النفسية السوية أفكاراً على قدر عظيم من الأهمية النفسية لأنها نقاط عقد أو نتائج أخيرة لخيوط بأجمعها من خيوط الفكر ، ولكن أهميتها هذه لا تعرب عن نفسها فى أية سمة تبين للإدراك الباطن على نحو حسى ، فالمحتوى الذى نتمثله فى هذه الأفكار لا يزيد شدة تبعاً لأهميتها النفسية بأى وجه من الوجوه . وأما فى عملية التكثيف فكل صلة للفكرة بغيرها تتحول إلى زيادة فى شدة المحتوى المتمثل فيها . فالحال ههنا لا يختلف منه حين أعد كتاباً للطبع فأبرز منه بالأحرف الكبيرة أو الثقيلة كلمة لها من الأهمية فى فهم النص ما ليس لغيرها ، فإن كنت أتحدث نطقت هذه الكلمة عينها بصوت عال بطىء مؤكداً إياها توكيدا خاصاً . وأول هذين التشبيهين يذكرنا على الفور بمثال زودنا به عمل الحلم : بكلمة تريمتيلامين فى حلم حقنة إرما . ولقد جذب مؤرخو الفن انتباهنا إلى أن المثالين فى أقدم عصور التاريخ ينصاعون لمبدأ مماثل ، فكانوا يعربون عن مكانة الأشخاص بأحجامهم . فالملك يصور وله من الحجم مثل مالأتباعه أوأعدائه المهزومين ضعفا أو ضعفين . فإذا جئنا إلى مثال رومانى رأيناه يتوسل إلى إحداث ذات الأثر بوسائل أكثر لباقة ، فهو يقيم الإمبراطور فى المنتصف ويوقفه منتصب القامة ويبذل فى صوغه من العناية مالا يبذل لسواه ، غير أن الأمبراطور لا يعود عملاقاً بين أقزام . والانحناءات التى يحيى بها الأدنون منا الأكبرين إلى يومنا هذا صدى يردد هذا المبدأ القديم فى التصوير .

وأما الاتجاه الذى تتبعه التكثيفات فى الحلم فتحدده — من جهة — العلاقات المعقولة ، قبل الشعورية ، القائمة بين أفكار الحلم ، ويحدده — من جهة أخرى — جذب الذكريات البصرية القائمة فى اللاشعور . ونتيجة النشاط التكثيفى هى بلوغ درجات الشدة اللازمة من أجل النفاذ إلى الأنظمة الإدراكية .

٢) وينجم كذلك عن الحرية التى تمسى بها الشدات قابلة للتحويل أن تتكون تحت سلطان التكثيف أفكار متوسطة ، أشبه بالحلول الوسطى (أنظر الأمثلة المتعددة على ذلك [فى ص٣٠٦ وما بعدها]) . وهذا أيضاً شىء لا نعهده فى السير السوى للأفكار ، حيث يعلق معظم الأهمية على اختيار العنصر الفكرى « الصائب » والاحتفاظ به . ونرى من ناحية أخرى أن وقوع التراكيب المزيجة والحلول الوسطى يشيع شيوعاً عجيباً حين نحاول الإعراب عن الأفكار قبل الشعورية فى كلم . وهى تعد عندئذ ضرباً من « هفوات اللسان » .

٣) والعلاقات المتبادلة بين الأفكار التي تحول شداتها بعضها إلى بعض علاقات متراخية غاية التراخي. فهي تترابط فيما بينها بمستدعيات من النوع الذي يأنف منه فكرنا السوى ولا يخلى استخدامه إلا للنكات . ونجد بنوع خاص أن المستدعيات القائمة على الجناس التام وغير التام تعامل كما لو كان لها من القيمة مثل ما لغيرها .

٤) ولا تعمل الأفكار المتناقضة على إبطال بعضها بعضاً بل تبقى جنباً إلى جنب وفى كثير من الأحيان تجتمع فى تكوين نتائج التكثيف كما لو لم يكن هناك تناقض بينها أو تنتهى إلى حلول وسطى ماكنا نغفرها قط لفكرنا وإن استبحناها كثيراً فى عملنا .

هذه بضعة من أعجب العمليات غير السوية التى تنتاب أفكار الحلم – بعد أن تم تكوينها على نهج معقولة – فى خلال عمل الحلم . ونرى أن الطابع الرئيس لهذه العمليات هو أن كل الأهمية تنصب فيها على جعل الطاقة المستثمرة متحركة قادرة على التفريغ ، وأما محتوى العناصر النفسية التى ترتبط بها هذه الاستثمارات وما لها من معنى خاص فيعدان أمرا ثانوياً . وربما ظن البعض أن التكثيف وتكوين الحلول الوسطى إنما يؤتيان من أجل تيسير النكوص ، أى حين يتعلق الأمر بتحويل الأفكار إلى صور . ولكن يتبين من تحليل الأحلام التى لا تنطوى على مثل هذا النكوص إلى صور مثل حلم « أوتو ديداسكر – محادثة مع الأستاذ ن. [ص ٣١١] » ويتبين على الأخص من تركيبها أنها تضم من عمليات النقل والتكثيف ما يضمه غيرها .

وهكذا نساق إلى هذه النتيجة ، وهى أن نوعين مختلفين من العمليات النفسية يشتركان فى تكوين الحلم ، ينتج أحدهما أفكار حلم صحيحة كل الصحة ، تعدل التفكير السوى قيمة ، بينما يعالج الآخر هذه الأفكار علاجاً مغرباً ، مجافياً لمعايير الصحة إلى أبعد مدى . ولقد سبق فى الفصل السادس أنا عزلنا هذه العملية الثانية على أنها عمل الحلم بالمعنى الصحيح . فما الذى نستطيع قوله الآن فى منشئها ؟

إن من المحال أن نجيب عن هذا السؤال إذا لم نكن قطعنا شوطاً فى دراسة سيكولوجية الأعصبة والهستريا بنوع خاص . ولقد علمنا من هذه أن ذات العمليات النفسية غير المعقولة – وأخرى لم نتحدث عنها – تسيطر على إحداث الأعراض الهسترية . ففى الهستريا كذلك نصادف طائفة من الأفكار معقولة كل المعقولية ، ولكننا ما كنا نستطيع أول الأمر أن نعلم شيئاً عن وجودها فى تلك الصورة ولا نصل إلى إعادة تكوينها إلا من بعد .

فإن هى فرضت نفسها على ملاحظتنا فى موضع من المواضع ، اكتشفنا بتحليل العرض المتكون أن هذه الأفكار السوية قد عُرِّضت لعلاج غير سوى ، فهى قد حولت إلى أعراض بوساطة التكثيف وتكوين الحلول الوسطى ، من طريق المستدعيات السطحية ، وبغض النظر عن المتناقضات ، وربما وفقاً لطريق النكوص . وهذا التطابق التام فى الخصائص بين عمل الحلم والنشاط النفسى الذى تنجم عنه الأعراض العصابية يجعلنا نشعر بأننا محقون حين نتقل النتائج التى توصلنا إليها من دراسة الهستريا إلى الحلم .

وعلى ذلك نستعير من نظرية الهستريا القضية الآتية : لا يُعرَّض خيط من خيوط الفكر السوية لمعالجة نفسية غير سوية من قبيل ما وصفنا إلا إذا حولت إليه رغبة لاشعورية ناشئة من الطفولة ، مكبوته . ولقد كان أخذا منا بهذه القضية أننا أقمنا نظريتنا فى الحلم على افتراض أن الرغبة الدافعة إلى الحلم تنشأ فى كل حالة من اللاشعور — وهو فرض أسلم أنا نفسى طواعية بأننا لا نستطيع البرهنة على صحته الشاملة ، وإن لم نستطع نقضه كذلك . ولكن لكى نبين ما نعنيه بكلمة « الكبت » التى استبحنا لأنفسنا كل هذه الحرية فى استخدامها لا بد لنا من أن نمضى بهيكلنا السيكولوجى مسافة أخرى .

لقد بحثنا من قبل [ص ٥٥٤ وما بعدها] فى وهم توهمناه عن جهاز نفسى بدائى ، قاعدة العمل فيه هى السعى إلى تجنب تراكم التهييج والبقاء خلوا منه بقدر الإمكان ، ولهذا بنى على غرار جهاز انعكاسى . وكانت القدرة الحركية التى هى فى المحل الأول وسيلة لتغيير الجسم تغييراً باطنيا هى طريق التفريغ الموضوعة فى متناول هذا الجهاز . ثم بعد ذلك ناقشنا النتائج النفسية التى تنجم عن خبرة إشباع ، ووسعنا — ونحن لما نزل بهذا الموضع — أن نضيف فرضاً ثانياً مؤداه أن تراكم التهييج (تراكما يتم على أنحاء مختلفة لا يعنينا أمرها) يحس فى صورة ألم وأنه يحرك عندئذ الجهاز إلى العمل بقصد استعادة خبرة الإشباع التى تضمنت إنقاص التهييج إنقاصاً أحس فى صورة لذة . ومثل هذا التيار الذى يجرى فى الجهاز متبدئا من الألم متجهاً إلى اللذة قد سميناه رغبة ، وقلنا : إنه لا شىء سوى الرغبة يستطيع أن يحرك الجهاز إلى العمل وإن سير التهييج فيه سير تنظمه أحاسيس اللذة والألم تنظيما أوتوماتيا . ومن الجائز أن أول اتجاه الرغبة كان إلى استثمار ذكرى الإشباع استثمارا هلوسياً . غير أن أمثال هذه الهلاوس لم يلبث أن تبين قصورها عن التأدية إلى إنهاء الحاجة ومن ثم إلى اللذة المصاحبة للإشباع — اللهم إلا أن يثبت الجهاز عليها إلى حد الاستنفاد .

ولهذا كان من الضرورى أن يظهر إلى الوجود نشاط ثان – أو نشاط صادر عن نظام ثان إذا أردنا التحدث بلغتنا – نشاط لا يترك الاستثمار الذكروى يستمر حتى يبلغ الإدراك ويقيد القوى النفسية من هناك ، بل يعرج بالتهييج الناشئ عن الحاجة فى طريق دائرى مؤد فى نهاية الأمر – بعد المرور بالحركة الإرادية – إلى تغيير العالم الخارجى تغييراً يتيح الإدراك الحقيقى لموضوع الإشباع . هذا هو ما انتهينا إليه فى أمر صورتنا التخطيطية عن الجهاز النفسى ، والنظامان هما بذرة ما نسميه لاش. وقبش. فى الجهاز المكتمل البناء .

ولكن لكى يتسنى تغيير العالم الخارجى تغييراً فعالا بوساطة القدرة على الحركة ، كان من اللازم أن يدخر فى الأنظمة الذكروية عدد عظيم من الخبرات وتسجيل متعدد الأوجه لمتعدد العلاقات التى قد تستثيرها الأفكار الغائية المختلفة فى هذه المادة الذكروية . وهنا نستطيع المضى فى فروضنا خطوة أخرى . ذلك أن نشاط هذا النظام الثانى وهو يتحسس طريقه من غير انقطاع ويرسل الاستثمارات ثم يعود فيستردها يحتاج من جهة إلى أن يكون له مطلق التصرف فى جميع المادة الذكروية ، ولكنه لو أرسل كميات استثمارية عظيمة تضرب فى طرق الفكر المختلفة فتنسال من غير قصد نافع وتنقص الكمية المتوافرة من أجل تغيير العالم الخارجى ، لكان ذلك من الجهة الأخرى إسرافاً فى إنفاق الطاقة لا داعى إليه . وعلى ذلك أفترض أخذا بالمبدأ الغائى أن النظام الثانى قد وفق إلى الاحتفاظ بالجزء الأعظم من طاقته الاستثمارية فى حالة من الاستكانة ، ولا يستخدم فى النقل إلا جزءا ضئيلا . ولست أعلم شيئاً عن ميكانيكية هذه العمليات ، وعلى من أراد أن يأخذ هذه الأفكار مأخذ الجد آن يبحث عن مماثلاتها فى مجال الفيزياء وأن يجد وسيلة نخرج منها بصورة عن الحركات التى تصحب التهييج فى العصبات . ولست أستمسك إلا بتلك الفكرة : أن نشاط أول النظامين ن. يتجه إلى تأمين التفريغ الحر لكميات التهييج ، بينما يوفق الثانى بوساطة الاستثمار الصادر عنه إلى كف هذا التفريغ وإلى تحويل الاستثمار إلى استثمار مستكن ، رافعاً منسوبه فى الوقت نفسه من غير شك . وعلى ذلك أقدر أن تفريغ التهييج يخضع تحت سيطرة النظام الثانى لشرائط ميكانيكية تختلف كل الاختلاف منها تحت سيطرة النظام الأول . وما أن يفرغ النظام الثانى من نشاطه الفكرى الاستكشافى حتى يرفع الكف والسدود عن التهييجات ويتركها تفرغ فى الحركة .

فإذا نظرنا إلى العلاقات بين ما يعمله النظام الثانى من هذا الكف للتفريغ وبين مبدأ الألم[1] ، استتبع ذلك عدة من التأملات الخليقة بالاهتمام . إذ دعنا نبحث عن الطرف النقيض لخبرة الإشباع الأول ، أى عن خبرة رعب خارجى ، لنفترض أن منبهاً إدراكياً قد أثار الجهاز البدائى وأن هذا المنبه كان مصدر تهييج أليم : ستتبع ذلك التهييج مظاهر حركية غير مترابطة تظل باقية إلى أن يجر أحدها الجهاز بعيداً عن الإدراك وعن الألم فى الوقت نفسه . فإذا عاد الإدراك إلى الظهور تكررت الحركة (ولتكن فراراً) على الفور ، إلى أن يختفى الإدراك مرة ثانية . وفى هذه الحالة ينعدم كل نزوع إلى استثمار إدراك مصدر الألم من جديد ، سواء أكان ذلك بالهلوسة أو بأية طريقة أخرى ، بلى سوف ينزع الجهاز البدائى على العكس إلى تنحية الصورة الذكروية الأليمة على الفور إذا اتفقت إثارتها على نحو من الأنحاء ؛ والسبب فى ذلك يقينا هو أن فيضان تهييجها حتى الإدراك من شأنه أن يثير الألم (أو على الأدق : أن يبدأ فى إثارته) . ومما يسهل بعد ذلك تجنب الذكرى – وهو تجنب لا يعدو أن يكون تكرارا للفرار السابق من الإدراك – أن الذكرى ، على خلاف الإدراك ، لا تملك كيفية تكفى تهييج الشعور واجتذاب استثمار جديد بهذه الطريقة . وهذا التحول السهل المطرد من جانب العملية النفسية التابعة للذاكرة عن كل ما آلم مرة يزودنا بالنموذج المحتذى للكبت النفسى وبالمثال الأول عليه . ومن الحقائق المعلومة أننا لا نفتأ نرى الشىء الكثير من هذا التحول عما يؤلمنا ، أى من سياسة النعامة ، فى الحياة النفسية السوية للأفراد الراشدين .

ونتيجة لمبدأ الألم كان النظام ن. الأول عاجزاً كل العجز عن أن يدخل أى شىء مستكره فى محيط أفكاره ، إنه لا يستطيع شيئاً سوى أن يرغب . فلو قد ظلت الأمور على هذا النحو لعيق النشاط الفكرى للنظام الثانى : لأن هذا النشاط يقتضى أن تكون جميع الذكريات التى تركتها الخبرة فى متناول يده . وههنا يعرض احتمالان : إما أن يتحرر نشاط النظام الثانى من قبضة مبدأ الألم تحرراً تاماً ، فيواصل طريقه غير حافل بألم الذكريات ، أو قد يجد منهجاً فى استثمار الذكريات الأليمة يمكنه من تجنب إطلاق الألم . ولنا أن نسقط الاحتمال الأول ؛ فمن الواضح أن مبدأ الألم يحكم مجرى التهييج فى النظام الثانى بقدر ما يحكمه فى الأول . وعلى ذلك يبقى الاحتمال الآخر ، وهو أن

---

(١) [Unlustprinzip – ويقول فرويد فى كتاباته اللاحقة : مبدأ اللذة .]

النظام الثانى يستثمر الذكريات بطريقة تمكنه من كف تفريغها بما فى ذلك — إذن — التفريغ المتجه إلى التمخض عن الألم والذى تمكن مقارنته بتفريغ تعصيب حركى . وبهذا نكون قد تأدينا من جهتين إلى الفرض القائل بأن الاستثمار الصادر عن النظام الثانى يتضمن كف تفريغ التهييج فى الوقت ذاته : تأدينا إليه بمراعاة مبدأ الألم ، ثم بالاستناد إلى مبدأ إنفاق التعصيب بأقل قدر. ولنضع إذن ما يأتى نصب أعيننا لأنه المفتاح إلى نظرية الكبت جميعها : لايستطيع النظام الثانى أن يستثمر فكرة ما ، إلا إذا كان فى موقف يمكنه من كف كل تمخض للألم قد يصدر عنها . وكل ما يستطيع الإفلات من هذا الكف سوف يخرج عن متناول النظام الثانى خروجه عن متناول الأول ؛ لأنه سوف يهجر على الفور وفاقاً لمبدأ الألم . إلا أنه ليس من الضرورى أن يكون كف الألم كفاً تاماً ، بل لا بد على العكس من السماح ببداية منه ؛ لأن هذه البداية هى ما يخطر النظام الثانى بطبيعة الذكرى التى يتعلق الأمر بها وبما قد يكون من منافرتها للهدف الذى تقصد إليه العملية الفكرية .

وأسمى العملية النفسية التى لا يسمح بها إلا النظام الأول عملية أولية ، فأما تلك التى تنجم عن الكف الذى يفرضه النظام الثانى فأسميها عملية ثانوية . وهناك بعد — كما أستطيع تبيانه — هدف آخر يضطر النظام الثانى من أجله إلى تصحيح العملية الأولية : ذلك أن العملية الأولية تجهد من أجل تفريغ التهييج لكى تتمكن بمعاونة كمية التهييج المتراكمة على هذا النحو من إقامة عينية إدراكية، ولكن العملية الثانوية قد تركت هذا الهدف واتخذت بدله هدفاً آخر ، هو أن تقيم عينية فكرية . فالفكر كله إنما هو طريق دائرى يبدأ من ذكرى الإشباع التى استحالت إلى فكرة غائية مستهدفاً استثمار هذه الذكرى عينها استثماراً لا يختلف من الأول ، يرجى بلوغه مرة ثانية من خلال مرحلة وسطى من الخبرات الحركية . ومن الضرورى للتفكير أن يعنى بالروابط بين الأفكار دون أن يضله الانسياق وراء شدتها . ولكن من الواضح أن التكثيفات المصبوبة على الأفكار وكذلك التراكيب المتوسطة والمزيحة لا بد أن تعوق الوصول إلى هذه العينية المستهدفة. فهى من حيث تضع فكرة فى موضع أخرى تكون سبباً فى الخروج عن الطريق التى كان من شأنها أن تقود من الفكرة الأولى قدما . وعلى ذلك يتجنب التفكير الثانوى هذه العمليات فى حرص . ثم إنه من السهل أن نرى أن مبدأ الألم يقيم الصعوبات فى طريق

العملية الفكرية وهى تسعى إلى تحقيق العينية الفكرية ، وإن كان — فيما خلا ذلك — يزودها بأهم سارياتها . ولهذا كان لزاماً أن يتجه الفكر أكثر فأكثر إلى التحرر من تحكم مبدأ الألم فيه تحكماً مانعاً ، وإلى وقف الحالة الوجدانية خلال النشاط الفكرى عند الحد الأدنى الذى يتطلبه قيامها بوظيفة العلامة. وتُستَهْدَفُ هذه الدقة الأعظم فى أداء الوظائف بوساطة استثمار مضاعف جديد أداته الشعور . غير أننا نعلم أن هذا الهدف قلما تحقق تحققاً كاملا ولو فى الحياة النفسية السوية ، فتفكيرنا يظل دائماً عرضة للتزييف من جراء تدخل مبدأ الألم .

غير أن هذه ليست بالثغرة الوحيدة فى الفاعلية الوظيفية لجهازنا النفسى والتى كان من جرائها أن أمكن وقوع الأفكار التى تتمثل لنا باعتبارها ناتجة عن النشاط الفكرى الثانوى تحت وطأة العملية النفسية الأولية — وهى الصيغة التى نستطيع الآن أن نصف بوساطتها النشاط المؤدى إلى الأحلام وإلى الأعراض الهسترية على السواء . وإنما تنشأ قلة الكفاية من التقاء عاملين مستمدين من تاريخ نمونا : يرجع أحدهما برمته إلى الجهاز النفسى ثم هو عامل كان له أثره الحاسم فى العلاقة بين النظامين ، وأما الآخر فيظهر أثره بدرجة متفاوتة ثم هو عامل يدخل فى الحياة النفسية قوى غريزية ذات أصل عضوى . وكلاهما ينبعث من الطفولة ويعجل بالتغيرات التى يمر بها منذ الطفولة كياننا العضوى بشقيه : النفسى والجسمى .

وإنى حين سميت إحدى العمليتين النفسيتين فى جهازنا عملية أولية لم أراع فى ذلك الأهمية النسبية ومدى الفاعلية وحسب ، بل كنت فوق ذلك أريد اسماً يعرب عن سبقها الزمنى . نعم ، إن من الحق أنه لا وجود — بقدر ما نعلم — لجهاز نفسى لا يمتلك سوى العملية الأولية وأن مثل هذا الجهاز لا يخرج إلى هذا المدى عن أن يكون وهما نظريا . ولكن تلك أيضاً حقيقة واقعة : أن العمليات الأولية تحضر منذ البدء فى الجهاز النفسى على حين أن العمليات الثانوية لا تنسلخ ولا يتحقق لها كف الأولية والظهور عليها إلا فى خلال الحياة ، وربما لم تحقق سيادتها الكاملة إلا فى أوج الحياة . ونتيجة لهذا الظهور المتأخر للعمليات الثانوية كان لب وجودنا المتقوم باندفاعات راغبة لاشعورية يظل بعيداً عن أن يناله فهم ما قبل الشعور وكفه ، ويقتصر دور ما قبل الشعور اقتصاراً لا رجعة فيه على توجيه الاندفاعات الراغبة المنبعثة من اللاشعور فى أنسب الطرقات ، وتصبح لهذه

الرغبات اللاشعورية قوة قاهرة على مستأنف النزعات النفسية جمعاء – قوة تضطر هذه النزعات إلى مهادنتها وقد تعمل على التعريج بها وتوجيهها نحو أهداف أسمى . ونتيجة أخرى لهذا الظهور المتأخر للعمليات الثانوية هي : أن منطقة واسعة من المادة الذكروية تغدو بعيدة عن منال الاستثمار قبل الشعورى .

وبين هذه الاندفاعات الراغبة المستقاة من الطفولة والتى لا يمكن هدمها ولا كفها فريق يتناقض تحقيقه والأفكار الغائية التى للتفكير الثانوى . فتحقيق هذه الرغبات لن يولد بعد الآن حالة وجدانية من اللذة بل من الألم ، وهذا التغيير للحالة الوجدانية على التحديد هو ماهية ما نسميه « كبتا » ، . وإن مشكلة الكبت لتقوم فى السؤال عن كيفية وقوع هذا التحويل وما هى القوى الدافعة إليه . ولكن هذه مشكلة لا نحتاج هنا إلى أكثر من لمسها لمساً ، ويكفينا أن نعلم دائماً أن تغيراً من هذا القبيل يخطر بالفعل فى أثناء النمو (وحسب المرء أن يذكر كيف ينشأ الاشمئزاز للمرة الأولى فى الطفولة) وأنه مرتبط بنشاط النظام الثانى . ولقد كانت الذكريات التى على أساسها تثير الرغبة اللاشعورية انطلاق الحالة الوجدانية بعيدة المنال دائماً عن قبش. ؛ ولهذا امتنع كذلك كف انطلاق الحالة الوجدانية المرتبطة بهذه الذكريات . وهذا التولد للحالة الوجدانية هو على التحديد السبب الذى من أجله يستحيل اليوم التوصل إلى هاته الأفكار ولو من طريق الأفكار قبل الشعورية التى حولت إليها هاته شداتها . بل – على العكس – يهيمن مبدأ الألم فيجعل قبش. ينصرف عن هذه الأفكار التحويلية : إنها تترك لأنفسها ، « تكبت » ، وبهذا يكون وجود ذخيرة من الذكريات الطفلية المفصولة منذ البدء عن قبش. هو الشرط الذى لا يكون بدونه الكبت .

وفى أحسن الأحوال ينقطع تولد الألم بسحب الاستثمار من الأفكار التحويلية التى فى قبش. وهذه النتيجة تعنى أن تدخل مبدأ الألم قد حقق غرضاً نافعاً . ولكن الموقف يختلف حين تلقى الرغبة المكبوتة تعزيزاً عضوياً تمرره إلى أفكارها التحويلية ؛ لأنها قد تمكنها بذلك من محاولة النفاذ بتهييجها – وإن تكن قد فقدت استثمارها من قبش. وعندئذ يعقب كفاح دفاعى ، إذ يعزز قبش. بدوره معارضته للأفكار المكبوتة (أى يولد استثمارات مضادة) ، ثم بعد ذلك تشق الأفكار التحويلية – وهى مراكب الرغبات اللاشعورية – طريقها إلى صورة من صور الحلول الوسطى يتم بلوغها بإحداث العرض .

ولكن العمليات الفكرية ، منذ اللحظة التى يشتد فيها استثمارها من جانب الاندفاع الراغب اللاشعورى ويتخلى عنها من الجهة الأخرى الاستثمار قبل الشعورى ، تقع تحت وطأة العمليات الأولية ويصبح هدفها الأخير هو التفريغ الحركى أو بعث العينية الإدراكية بعثاً هلوسياً — إذا كان الطريق إلى ذلك مفتوحاً . ولقد رأينا من قبل بالرجوع إلى الخبرة أن العمليات اللا معقولة التى وصفناها لا تنطبق إلا على الأفكار الخاضعة للكبت ، وفى مقدرونا الآن أن نزيد بصرا بعض الشىء بالموقف فى جملته : فالعلميات اللامعقولة فى الجهاز النفسى هى العمليات الأولية وهى تظهر حيثما تهجر الأفكار من جانب الاستثمار الشعورى وتترك لأنفسها وتصبح مشحونة بطاقة غير مكفوفة من اللا شعور تجهد من أجل الوصول إلى منفذ . وهناك ملاحظات أخرى تؤيد القول بأن هذه العمليات التى نصفها باللامعقولية ليست فى الحقيقة تزييفاً يداخل العمليات السوية ، خطأ عقلياً ، بل أنماطاً من نشاط الجهاز النفسى ارتفع عنها الكف . وهكذا نجد أن انتقال التهييج قبل الشعورى إلى الحركة يخضع لهذه العمليات ذاتها وأن ربط الأفكار قبل الشعورية بالألفاظ قد يبدى بسهولة ذات الصور من النقل والخلط التى ننسبها بعد ذلك إلى انصراف الانتباه . وهناك أخيراً ، واقعة نستطيع أن نرى فيها شاهداً على ما يستلزمه كف هذه الطرائق الأولية فى التصريف من جهد الاحتراس ، وأعنى بها : أننا نحدث تأثيراً مضحكاً ، أى نفرغ فائضاً من الطاقة فى الضحك ، حين نترك هذه الطرائق الأولية للتفكير تنفذ إلى الشعور .

إن نظرية الأعصبة تؤكد فى يقين يمنع كل استثناء أن الاندفاعات الراغبة الجنسية المستمدة من الطفولة والتى أصابها الكبت (أى تغيير حالتها الوجدانية) فى خلال النمو الطفلى هى وحدها القادرة على أن تبعث بعثاً جديداً فى خلال فترات النمو اللاحقة (سواء أكان ذلك نتيجة لتكوين الشخص الجنسى الذى يتفرع عن مرحلة ابتدائية من الثنائية الجنسية ، أم كان نتيجة لتأثيرات غير مواتية فى مجرى حياته الجنسية) وبذلك توفر القوة الدافعة التى تلزم من أجل تكوين الأعراض العصابية بكل أنواعها . ولسنا نستطيع أن نسد أوجه النقص التى لا تزال تتجلى فى نظرية الكبت إلا بإدخال هذه القوى الجنسية فى حسابنا . ولكن هل تستلزم نظرية الأحلام كذلك هذه العوامل الجنسية الطفلية ؟ هذا سؤال أتركه معلقاً . سأترك النظرية ناقصة فى هذا الموضع ، فقد تخطيت نطاق ما

تمكن البرهنة عليه مرة من قبل حين افترضت أن رغبات الحلم تنبعث فى جميع الأحوال من اللاشعور [1]. ولا أنا أنتوى متابعة البحث فى ماهية التفرقة بين لعب القوى النفسية فى الأحلام ولعبها فى الأعراض الهسترية ، فلسنا نملك بعد معرفة دقيقة الدقة الكافية بأحد طرفى المقارنة . غير أن ثمت مسألة أخرى هى التى أعلق الأهمية عليها وأعترف بادئ ذى بدء بأننى ما خضت إلا من أجلها فى جميع هذه المناقشات حول النظامين النفسيين وطرائقهما فى العمل وحول الكبت. إن المسألة لا تتعلق الآن بما إذا كنت قد تصورت العوامل السيكولوجية التى نحن فى صدد الحديث عنها تصوراً يقارب الصواب أو – على العكس – مشوهاً غير مكتمل (وهو أمر محتمل جداً فى مسائل هذا حظها من الصعوبة) ؛ فهما تغير تعبيرنا عن الرقابة النفسية وعما يصيب محتوى الحلم من المراجعات المعقولة والشاذة فإنه يظل من الحق أن هناك عمليات من هذا النوع تعمل عملها فى تكوين الحلم وأنها – من حيث سماتها الجوهرية – تبدى أوثق التماثل مع العمليات الملحوظة فى تكوين الأعراض الهسترية . ولكن الحلم ليس ظاهرة مرضية ، إنه لا يفترض اختلالا فى التوازن النفسى قبله ولا يخلف نقصاناً فى الفاعلية وراءه . فإن قلنا : إن أحلامى وأحلام مرضاى العصابيين لا تبرر الذهاب إلى نتائج تمس أحلام الأسوياء ، فذلك يقينا اعتراض يحق لنا إغفاله

---

(١) لقد تعمدت أن أترك مناقشة هذا الموضوع ناقصة فى هذا الموضع كما فى غيره ؛ لأن سد أوجه النقص كان يقتضى جهداً لا أطيقه من جهة ، ثم هو من الجهة الأخرى يقتضى الالتجاء إلى مادة غريبة عن موضوع الأحلام . ومثال ذلك أننى أغفلت أن أذكر ما إذا كنت أنسب معنى مختلفاً إلى كل من كلمتى « القمع » و « الكبت » – وإن كنا فهمنا من غير شك أن الكلمة الأخيرة تؤكد الارتباط باللاشعور أكثر مما تؤكده سابقتها . ثم إنى لم أتعرض كذلك لتلك المشكلة الواضحة ، وأعنى بها : لم تخضع أفكار الحلم لتشويه الرقابة وإن تكن تركت طريق التقدم نحو الشعور واختارت طريق النكوص ؟ وهناك نقاط كثيرة أخرى تماثل هذه حذفتها . ذلك أن همى كان يتجه قبل كل شىء إلى خلق شعور بالمشكلات التى لا مفر من أن يقودنا إليها تحليل أبعد غوراً لمشكلات الحلم والإيماء إلى سائر الموضوعات التى يعرفنا بها هذا التحليل . ولم يكن من السهل على دائماً أن أقطع برأى فى أين ينبغى الوقوف عن الاستقصاء . – فأما أننى لم أعالج النصيب الذى يرجع إلى عالم الأفكار الجنسية فى الأحلام علاجاً مستوفى وتجنبت تحليل الأحلام ذات المحتوى الجنسى الصريح ، فذلك ما يرجع إلى أسباب خاصة – قد لا تكون هى ما يتوقعه القارئ ؛ فلا شىء يبعد عن نظراتى الخاصة أو عن آرائى النظرية فى علم الأمراض العصبية مثل اعتبار الحياة الجنسية شيئاً مخجلا ليس لطبيب ولا لباحث علمى أن يشغل به . وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستنكاف الخلقى الذى جعل مترجم كتاب Oneirocritica لأرتميدوروس الأفسوسى يحجز الفصل الخاص بالأحلام الجنسية عن معرفة قرائه ، هذا الاستنكاف يبدو لى شيئاً مضحكاً . وإنما حملنى على أن أصنع ما صنعت أننى رأيت أن إيضاح الأحلام الجنسية سوف يوغل بى فى مناقشات عن الانحراف وعن الجنسية الثنائية لم تجد حلها بعد ، وعلى ذلك تركت هذه المادة لمناسبة أخرى .

من غير تعليق . وإن جاز – إذن – أن نستدل استدلالا راجعاً من الظواهر إلى قواها الدافعة ، لزم التسليم بأن الميكانيكية المستخدمة فى الأعصبة لم تخلق خلقاً تحت وطأة اضطراب ألم بالحياة النفسية فأمرضها ، بل هى شىء مهيأ من قبل فى تركيب الجهاز النفسى . فالنظامان النفسيان والرقابة المضروبة على الانتقال بينهما وكف أحدهما الآخر وظهوره عليه وعلاقات كليهما بالشعور ، كل هذه أو ما قد يحل محلها من أى تفسير آخر أكثر صواباً للظواهر الملحوظة تكون جزءاً من التركيب السوى لعدتنا النفسية ، وما تعدو الأحلام أن ترينا أحد الطرق المؤدية إلى فهم هذا التركيب . فلو أنا أردنا أن نكتفى بالقدر الأدنى من المعرفة الجديدة الموطدة تمام التوطيد ، لكان فى مستطاعنا القول : إن الأحلام تثبت أن ما يقمع يظل باقياً عند أسوياء الناس وشواذهم على السواء ، ويظل قادراً على النشاط النفسى . والحلم نفسه مظهر من مظاهر هذه المادة المقموعة ، ذلك صحيح بحسب النظرية فى كل حالة وصحيح بحسب الخبرة فى عدد كبير من الحالات – على الأقل – وهى على التحقيق تلك الحالات التى تتجلى فيها السمات الملحوظة للحياة الحالمة أوضح ما تكون للعيان . وما هو مقموع يمنع من الإفصاح عن نفسه ويحال دونه والإدراك الباطنى فى أثناء النهار ؛ لأن المتناقضات تبطل إذ ذاك فلا يؤخذ إلا بأحد الطرفين المتقابلين دون الآخر . فإذا جاءت حياة الليل وساد النزوع إلى تكوين الحلول الوسطى ، وجد المقموع العدة والسبيل إلى بلوغ الشعور :

ولئن لم أثن السماوات ، حركت الأخرون

إن تفسير الأحلام هو الطريق الملكية إلى معرفة ما هو لاشعورى فى الحياة النفسية .

وإننا إذ نقوم بتحليل الأحلام نتقدم خطوة فى فهم تركيب هذه العدة التى هى أعجب العدد وأحفلها سرا – خطوة صغيرة من غير شك ، لكنها البداية . وهذه البداية تمكننا من متابعة تحليلها بالاستناد إلى تراكيب أخرى لامفر من نعتها بالمرضية ؛ لأن الأمراض – أو على الأقل تلك نسميها بحق أمراضاً وظيفية – لا تفترض تفكك الجهاز أو حدوث انشقاقات جديدة فى داخله ، وإنما ينبغى تفسيرها على أساس دينامى : بالقوة والضعف يصيبان مختلف المقومات فى اللعب المتبادل بين القوى ، هذا اللعب الذى يخفى علينا الشىء الكثير من آثاره حين تكون الوظائف فى حالتها السوية . ولعلى أتمكن فى

موضع آخر من أن أبين كيف أن تَقَوُّمَ الجهاز بجهتى اختصاص يتيح للنشاط السوى دقة أعظم، ما كانت لتتسنى له لو كان تَقَوُّمُ الجهاز بواحدة(١) .

و

اللاشعور والشعور

الواقع

إنا إذا أنعمنا النظر رأينا أن ما تدعونا مناقشاتنا فى الأقسام السابقة إلى افتراضه ليس وجود نظامين على مقربة من الطرف الحركى للجهاز، بل وجود نوعين من العمليات التهييجية أو من أنماط التفريغ. والأمر كله عندنا سيان؛ فمن الواجب أن نكون معدين فى كل وقت لأن نلقى بهيكلنا التصورى، إذا أحسسنا أننا قادرون على أن نستبدل به شيئاً آخر يزيد اقتراباً من الحقيقة المجهولة. وعلى ذلك دعنا نصحح بعض التصورات التى قد تكون ساقتنا إلى الخطأ طالما كنا ننظر إلى النظامين بالمعنى الحرفى الفج كما لو كانا محلين فى الجهاز النفسى — وهى تصورات تركت آثارها فى تعبيرات مثل «كَبَتَ» و«نَفَذَ». فنحن إذ نتحدث على هذا النحو عن لاشعور يحاول الانتقال إلى ما قبل الشعور بحيث يتمكن بعد ذلك من النفاذ إلى الشعور، لا نعنى بذلك أن فكرة ثانية قد تكونت فى محل جديد مثل منسوخ يظل قائماً إلى جانب الأصل. وكذلك فكرة النفاذ إلى الشعور: إن من الواجب تجريدها من كل تغيير فى المحل. وحين نتحدث عن فكرة قبل شعورية كبتت أو دفعت فاستولى عليها الشعور، فهذه الأخيلة المستعارة من تصورات مدارها الصراع حول قطعة من الأرض قد تغرينا إغراء يجعلنا نفترض أن هناك حقيقة تجمعا من العناصر النفسية فى مكان ما، يتبدد ثم يحل محله تنظيم جديد فى مكان آخر. ألا

(١) إن الحلم ليس الظاهرة الوحيدة التى تمكننا من أن نجد ساساً لعلم النفس المرضى فى نطاق علم النفس العام؛ فقد حاولت فى طائفة من المقالات لم تكمل بعد أن أفسر عدداً من ظواهر الحياة اليومية باعتبارها شاهداً يؤيد ذات النتائج (١٨٩٨ ب، ١٨٩٩ أ) — [هامش أضيف سنة ١٩٠٩:] منذ كتابة هذه السطور جمعت هذه المقالات وأخرى تزيد عليها فى النسيان وهفوات اللسان والأفعال العاثرة، إلخ. تحت عنوان «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» (فرويد ١٩٠١ ب).

فلنبدل بهذه الاستعارات شيئاً آخر يبدو أكثر موافقة لواقع الأشياء ، ولنقل : إن تجمعاً ما من العناصر النفسية قد اقترنت به أو ردت عنه طاقة استثمارية ، بحيث يقع المركب النفسى الذى نعنيه تحت سلطان جهة اختصاص معينة أو يفصل منها . والذى نحن صانعوه ههنا هو من جديد أننا نستبدل بطريقة طوبوغرافية فى وصف الأشياء طريقة أخرى دينامية : فما يبدو لنا الآن حاصلا على الحركة ليس المكوِّن النفسى فى ذاته ، بل تعصيبه(١) .

غير أننى أرى مع ذلك أن الإمساك بصورتنا التشبيهية عن النظامين شىء نافع له ما يبرره . ومن الممكن أن نتجنب كل استخدام سيئ لهذا المنهج فى تصوير الأمور إذا تذكرنا أن الأفكار والتصورات والأبنية النفسية عامة يجب ألا ينظر إليها على الإطلاق كما لو كانت متحيزة فى عناصر عضوية للجهاز النفسى ، بل هى — إن جاز التعبير — قائمة بينها ، حيث توفر المقاوماتُ والتذليلات المتضايفات المقابلةَ لهذه الأبنية . فكل ما يمكن أن يكون موضوعاً للإدراك الباطن إنما يوجد بالقوة ، مثل الصورة الحادثة فى المقراب عند مرور أشعة الضوء . ولكن يحق لنا أن نفترض وجود هذه الأنظمة (وهى ليست فى ذاتها بالشىء النفسى على الإطلاق ولا تنال أبداً بإدراكنا النفسى) مثل العدسات التى تعكس الصورة فى المقراب . وإذا جاز أن نتابع هذه المماثلة ، فلنا أن نقارن الرقابة بين النظامين بالانكسار الذى يصيب شعاع الضوء عند مروره فى وسط جديد .

ولقد ظللنا حتى الساعة ندلى بشروحنا السيكولوجية غير مستندين إلا إلى أنفسنا . والآن حان وقت النظر فى الآراء التى تهيمن اليوم على علم النفس وبحث ما بينها وبين فروضنا من العلاقات : إن مشكلة اللاشعور — على حسب كلمات ليپس القوية — ليست مشكلة من مشكلات علم النفس قدر كونها مشكلة هذا العلم . وما دام علم النفس ينفض يده من هذه المشكلة بإيضاح لفظى حاصله أن « النفسى » يعنى « الشعورى » وأن الحديث عن « عمليات نفسية لاشعورية » تناقض ملموس ، فقد امتنع كل سبيل إلى تقدير الملاحظات التى يحصلها الطبيب فى صدد الحالات النفسية المرضية . ولا يستطيع الطبيب والفيلسوف أن يلتقيا إلا إذا سلما كلاهما بأن قولنا : « العمليات النفسية

(١) [هامش أضيف سنة ١٩٢٥ :] لقد صار من الضرورى إحكام صياغة هذه النظرية وتعديلها بعد أن تبين أن السمة الجوهرية للفكرة قبل الشعورية هى ارتباطها بآثار الصور اللفظية . (انظر مقالى عن « اللاشعور » ١٩١٥ ه .)

اللاشعورية » هو « الحد الذى يعرب إعراباً ملائماً مشروعاً عن حقيقة موطدة توطيداً راسخاً » . ولا يسع الطبيب إلا أن يهز كتفيه حين يسمع من يؤكد له أن « الشعور سمة لازمة لما هو نفسى » ، وربما قدر — إذا كان احترامه لأقوال الفلاسفة لا يزال قوياً — أن هؤلاء لا يعالجون ذات الموضوع ولا يشتغلون بذات العلم . ذلك لأن ملاحظة واحدة ممتلئة بالفهم لأحد العصابيين ، أو تحليلا مفرداً لأحد الأحلام ، لا بد أن يتركه وهو راسخ الاعتقاد بأن أشد العمليات الفكرية تعقداً ومعقولية ، تلك التى لا نستطيع يقينا أن نأبى عليها اسم العمليات النفسية ، قد تحدث دون أن تستثير شعور المرء . صحيح أن الطبيب لا يستطيع أن يعلم شيئاً عن هذه العمليات اللاشعورية حتى تحدث أثراً فى الشعور يمكن نقله إلى الغير أو ملاحظته ، ولكن هذا الأثر الشعورى قد يبدى خاصة نفسية تخالف العملية اللاشعورية كل المخالفة ، بحيث يستحيل على الإدراك الباطن أن يعرف فى أحد الطرفين بديل الآخر [1] . ومن الواجب أن يشعر الطبيب بحقه فى اتباع طريق الاستدلال من الأثر الشعورى إلى العملية النفسية اللاشعورية ، وإنه ليعلم عندئذ أن الأثر الشعورى ليس إلا نتيجة نفسية بعيدة للعملية اللاشعورية ، وأن هذه العملية الأخيرة لم تصر شعورية كما هى ، وأنها — فوق ذلك — كانت حاضرة وكانت تعمل عملها وإن لم تنم عن وجودها للشعور بأى وجه من الوجوه .

نعم ، إن من الجوهرى أن ننزل عن المغالاة فى تقدير خاصة الشعور قبل أن يصبح فى مستطاعنا أن نكون أى رأى صحيح فى منشأ ما هو نفسى . ومن الواجب — كما يقول ليپس — أن نفترض أن اللاشعور هو الأساس العام للحياة النفسية . فاللاشعور هو المنطقة الأوسع التى تضم بين جوانبها منطقة الشعور الأضيق نطاقاً . فكل ما هو شعورى له مرحلة تمهيدية لاشعورية ، بينما قد يظل اللاشعورى على هذه المرحلة ولا يفقد مع ذلك

(١) يسعدنى أن أكون قادراً على الإشارة إلى مؤلف استخلص من دراسة الأحلام ذات النتائج التى استخرجتها فى صدد العلاقة بين النشاط الشعورى واللاشعورى .

يقول دوپرل (١٨٨٥ ، ٤٧) : « من الواضح أن مشكلة طبيعة النفس تقتضى بحثاً مبدئياً فيما إذا كان الشعور والنفس شيئاً واحداً . وتجيب الأحلام عن هذا السؤال المبدأى بالنفى؛ فهى ترينا أن تصور النفس أوسع من تصور الشعور ، على النحو الذى تمتد عليه قوة الجاذبية التى لجسم سماوى إلى ما وراء مجال انتشاره الضوئى . »

وفى موضع آخر (٣٠٦) : « إن من الحقائق التى لا يستطيع المرء أبداً إعطاءها حقها من التميز كون الشعور والنفس لا يتساويان فى الماصدق . »

حقه فى أن نسلم له بكل قيمة العملية النفسية . فاللاشعور هو الواقع النفسى الحقيقى وهو فى طبيعته الباطنة مجهول منا ، نجهله قدر جهلنا بحقيقة العالم الخارجى ، كما أنه لا يمثل لنا بوساطة معطيات الشعور إلا مثولا ناقصاً على نحو ما يمثل العالم الخارجى بوساطة رسائل أعضائنا الحسية .

فأما وقد انكمش التقابل القديم بين الحياة الشعورية وحياة الحلم إلى أبعاده الصحيحة بإثبات الوجود النفسى اللاشعورى . فإن عدداً من مشكلات الحلم التى كانت تستغرق من الكتاب السابقين اهتماماً عميقاً يفقد الآن كل قيمته . مثال ذلك بعض الأفعال التى كان النجاح فى أدائها فى الحلم مثارة للعجب : إننا لن نعزوها بعد الآن إلى الحلم ذاته بل إلى التفكير اللاشعورى الذى يعمل أيضاً فى النهار مثلما يعمل فى الليل . وإذا بدا — على حسب شرنر — أن الحلم يلهو بتصوير الجسم تصويراً رمزياً ، فنحن نعلم الآن أن هذه التصويرات نتاج صدر عن تخييلات لا شعورية معينة تتفرع فى الراجح عن اندفاعات جنسية ولاتفصح عن نفسها فى الأحلام وحدها بل فى المخاوف الهسترية وغيرها من الأمراض كذلك . وإذا واصل الحلم أعمال النهار وأتمها ، لا بل إذا أتى إلى النور بأفكار مستحدثة قيمة ، فكل ما نحتاج إليه هو أن ننتزع هنا قناع الحلم الذى هو نتيجة عمل الحلم وأمارة على معاونة ما بأعماق النفس من غامض القوى (انظر الشيطان فى حلم سوناتا تارتينى)[1] ؛ فالنتاج العقلى إنما يرجع إلى ذات القوى النفسية التى تنتج فى النهار كل ما شاكله . وأغلب الظن أننا ننزع أيضاً نزوعاً كبيراً إلى المغالاة فى تقدير الطابع الشعورى للنتاج العقلى والفنى ، ولكن ما يروى عن بعض الرجال ممن تبلغ قدرتهم الخالقة الذروة من أمثال جوته وهلمهولتس يرينا أن الجوهرى والطريف فى خلقهم كان يأتيهم غير مسبوق بالتدبير ، فى صورة كل كاد أن يتم تكوينا . والحق أنه لا غرابة إذا حدث فى حالات غير هذه ، حيث تتطلب الأمور تركيز كل ملكه عقلية يملكها المرء ، أن يدلى النشاط الشعورى كذلك بدلوه ، إلا أن لهذا النشاط الشعورى ميزة كثيراً ما ضللتنا : فهو حيثما أدلى بدلوه أخفى علينا كل نشاط سواه .

(١) [تارتينى عازف كمان ومؤلف موسيقى ولد عام ١٦٩٢ فى پيرانو ومات عام ١٧٧٠ فى پادو. وتؤثر عنه قصة خلاصتها أنه حلم حلماً رأى فيه أنه باع نفسه للشيطان ، فأمسك الشيطان بكمان وعزف له فى مهارة لا تضارع « سوناتا » فائقة الجمال . وعندئذ استيقظ الموسيقى فدون على الفور ما علق بذاكرته وهكذا خرجت إلى الناس المقطوعة التى عرفت باسم : "Trillo del Diavolo" .]

ولو أنا أردنا أن نندب بحثاً خاصاً لموضوع الأهمية التاريخية للأحلام ، ما كاد ذلك أن يثمر ما يعوض جهدنا . فربما صح أن حلماً قد حفز قائداً إلى الشروع فى حملة جريئة غير نجاحها وجه التاريخ ، ولكن ذلك إنما يثير مشكلة جديدة ما دمنا نرى فى الحلم قوة غريبة تغاير سائر القوى التى نحن أكثر ألفة بها ، ولا يعود للمشكلة وجود إذا عرفنا فى الحلم صورة من صور التعبير عن اندفاعات تظل تحت ضغط المقاومة فى خلال النهار ولكنها فى أثناء الليل تستطيع أن تجد معززاً تستمده من موارد تهييجية عميقة الطبقة [1] . غير أن الاحترام الذى كانت تلقاه الأحلام بين الشعوب القديمة كان يقوم مع ذلك على بصر سيكولوجى صحيح : إنه التحية المرسلة إلى ما يعتمل فى أعماق النفس الإنسانية من قوى لا حاكم لها ولا هادم ، إلى القوة « الشيطانية» التى تولد رغبة الحلم والتى نراها تعمل فى لا شعورنا .

وإنى إذ أقول : « فى لا شعورنا » لا يخلو قولى من القصد ؛ لأن ما أسميه كذلك شىء يختلف من لا شعور الفلاسفة ، بل إنه ليختلف من اللاشعور الذى يتحدث عنه ليپس . فهؤلاء إنما يستخدمون هذا الاسم للدلالة به على محض الاختلاف عن الشعور ؛ فالرأى الذى يثير منهم كل هذا الجدل المحتدم ويدافعون عنه بكل هذه الحمية هو أن ثمت عمليات نفسية لاشعورية بالإضافة إلى الشعور . ويمضى ليپس بالأمور مرحلة أبعد حين يؤكد أن النفسى فى جملته يوجد وجوداً لاشعورياً وأن جزءاً منه فقط هو الذى يوجد أيضاً وجوداً شعورياً . وأما نحن فما استعنا بظواهر الحلم وتكوين الأعراض الهسترية لنقيم هذا الرأى ؛ فقد كانت الحياة المستيقظة السوية تكفى فى إثباته إثباتاً لا يرقى إليه ظل من الشك . وإنما يقوم كشفنا الجديد الذى تعلمناه من تحليل الأبنية المرضية وتحليل أولها (وأعنى الحلم) فى كوننا عرفنا أن اللاشعور (ومن ثم النفسى) وظيفة خاصة بنظامين مستقلين وأن الأمر كذلك فى الحياة السوية والمرضية على السواء . وهكذا يكون هناك ضربان من اللاشعور لم يفرق بينهما علماء النفس حتى الآن . وكلا هذين لاشعورى بالمعنى المألوف فى علم النفس، وأما عندنا نحن فأحد هذين النظامين (هذا الذى نسميه لاش. يخصص فوق ذلك بكونه لا يقبل فى الشعور ، بينما نسمى الآخر قبش . لأن تهيجاته قادرة على بلوغ الشعور —

(١) [هامش أضيف سنة ١٩١١ :] أنظر بهذه المناسبة حلم الإسكندر الأكبر فى أثناء حصار صور (ساتيروس) . [ارجع إلى ص ١٢٩ فى الهامش .]

وإن كان من الحق أن ذلك لا يتم إلا بعد مراعاة قواعد معينة وربما كان لا يتم إلا بعد المرور برقابة جديدة ولكن دون التفات إلى لاش. مع ذلك . ولقد أعاننا على إنشاء المماثلة المكانية أن التهييجات لكى تصل إلى الشعور يتحتم عليها المرور بسلسلة أو مراتب ثابتة ينم عنها التعديل الذى يصيب هذه التهييجات على يد الرقابة . ووصفنا العلاقة بين النظامين كلا والآخر وبين كليهما والشعور بقولنا : إن النظام قبش. يقوم مثل ستار بين النظام لاش. والشعور . ولا يقتصر النظام قبش. على إيصاد الطريق إلى الشعور ، بل يتحكم كذلك فى المرور إلى قدرة الحركة الإرادية ، ثم هو حاصل على طاقة استثمارية متحركة موضوعة فى متناوله لتوزيعها ، وجزء من هذه الطاقة هو المألوف لنا فى صورة الانتباه [أنظر ص ٥٧٩] .

ومن الواجب فوق ذلك أن نتجنب التفرقة بين « ما فوق الشعور » و« ما تحت الشعور » وهى التفرقة التى صادفت هوى كبيراً فى المؤلفات الحديثة عن الأعصبة النفسية ؛ لأن مثل هذه التفرقة تبدو كأنما قد جعلت خصيصاً لتركيد التعادل بين ما هو نفسى وما هو شعورى.

ولكن أى عمل يبقى – بحسب تصورنا – للشعور ، بعد أن كان مطلق القدرة يوماً وكان يحجب كل شىء عداه ؟ إنه عضو حسى مجعول لإدراك الكيفيات النفسية : هذا هو كل عمله . فنحن بحسب الأفكار التى توجه محاولتنا التخطيطية ، لا نستطيع أن نرى فى الإدراك الشعورى إلا وظيفة خاصة بنظام معين من الملائم أن ندل عليه اختصاراً بحرف ش . ونحن نقدر أن هذا النظام يشبه الأنظمة الإدراكية إد. من حيث خصائصه الميكانيكية ، أى أنه قابل لأن يتهيج بوساطة الكيفيات ، ولكنه عاجز عن أن يحتفظ بآثار التغييرات ، أى خال من الذاكرة . والجهاز النفسى المتجه بعضو الحس الخاص بالأنظمة إد. جهة العالم الخارجى هو هو العالم الخارجى مأخوذاً فى علاقته بعضو الحس ش. الذى يقوم تبريره الغائى فى هذه الملابسة . وههنا نصادف من جديد مبدأ ترتب

(١) (هامش أضيف سنة ١٩١٤ :) انظر مقالتى « ملاحظات حول تصور اللاشعور فى التحليل النفسى » (فرويد ١٩١٢ ز) – وهو مقال نشر للمرة الأولى باللغة الإنجليزية فى محاضر الأبحاث النفسية ، ٢٦ ، فيه فرقت بين المعانى الوصفية والديناميية والنظامية لهذا اللفظ البالغ مبلغاً كبيراً من الاشتراك : لفظ « اللاشعور » .

جهات الاختصاص درجات — وهو المبدأ الذى يبدو مسيطراً على تركيب الجهاز . وتنصب المادة التهييجية فى عضو الحسى ش. من جهتين : من النظام إد. الذى نرجح أن تهييجة المحدد بالكيفيات يخضع لرقابة جديدة قبل أن يصير إحساساً شعورياً ، ثم من باطن الجهاز النفسى الذى تُحَس عملياته الكمية — حين تشق طريقها إلى الشعور بعد تعديلات معينة — فى السلسلة الكيفية للذة والألم .

وقد لاقى أولئك الفلاسفة الذين فطنوا إلى أن الأبنية الفكرية المعقولة البالغة التعقيد ممكنة دون أى مشاركة من جانب الشعور ، لاقوا صعوبة كبرى فى تحديد وظيفة ما لهذا الأخير ، فبدا لهم أنه لا يمكن أن يزيد على كونه صورة لا طائل منها تعكس العملية النفسية المنهاة . وأما نحن فتخلصنا المماثلة بين نظامنا ش. وبين الأنظمة الإدراكية من هذا الارتباك . فنحن نعلم أن من نتيجة الإدراك بوساطة أعضائنا الحسية توجيه قدر من استثمار الانتباه فى الطرقات التى ينتشر فيها التهييج الحسى الوافد ، أى أن التهييج الكيفى للنظام إد . يفيد الكمية المتحركة فى الجهاز من حيث يعمل عمل المؤشر والمنظم بالنسبة إلى توزيعها . وفى وسعنا أن ننسب هذه الوظيفة عينها إلى العضو الحسى الأعلى الخاص بالنظام ش. : فهو إذ يدرك كيفيات جديدة يأتى بمشاركة جديدة فى توجيه كميات الاستثمار المتحركة وفى توزيعها على نحو ملائم مفيد ، كما أنه بوساطة إدراكه للذة والألم يؤثر فى توزيع تفريغ الاستثمار فى داخل الجهاز النفسى الذى هو — فيما خلا ذلك — جهاز لا شعورى يعمل بوساطة النقلة فى الكميات . والراجح ، على ما يبدو ، هو أن مبدأ الألم ينظم نقلة الاستثمار تنظيما آلياً فى المحل الأول . ولكن من الممكن كل الإمكان أن يضيف الشعور بهذه الكيفيات تنظيما ثانياً أكثر تمييزاً ، بل قادراً على معارضة التنظيم الأول وأن يكمل فاعلية الجهاز بتمكينه — على عكس خطته الأولى — من استثمار ما قد يصطحب بالألم ومواجهته . ونعلم من سيكولوجية الأعصبة أن هذه العمليات التنظيمية التى تتم بوساطة التهييج الكيفى لأعضاء الحس تؤدى دوراً كبيراً فى النشاط الوظيفى للجهاز . فالسيطرة الأوتوماتية الأولى التى لمبدأ الألم — مع ما تستتبعه هذه السيطرة من حدّ فاعلية الجهاز — تقف عند حد بفعل عمليات التنظيم الحسى التى هى بدورها عمليات أوتوماتية . وإنا لنجد أن الكبت (وهو الذى يؤدى فى النهاية إلى فقدان ضار للكف وللقدرة على ضبط النفس وإن كان يخدم فى الأصل قصداً نافعاً) نجد أنه يصيب الذكريات أسهل

كثيراً مما يصيب الإدراكات ؛ لأن الذكريات لا تستطيع أن تتلقى استثماراً إضافياً من تهييج أعضاء الحس النفسية . فمع أن من الحق أن فكرة وجب استبعادها لا تستطيع أن تصير شعورية لأنها قد لاقت كبتاً ، إلا أنه قد يحدث فى مرة أخرى أن تلاقى مثل هذه الفكرة كبتاً ، لا لشىء سوى أنها ـ لأسباب أخرى ـ قد فصلت من الإدراك الشعورى. وكل هذه إشارات ننتفع بها فى فن العلاج من أجل إزالة ما قد تحقق من الكبت.

وأحسن دليل يبين من وجهة نظر غائية قيمة الاستثمار المضاعف الذى يدخله التأثير التنظيمى لعضو الحس ش. على الكميات المتحركة هو ظهور سلسلة جديدة من الكيفيات إلى الوجود ، ومن ثم ظهور تنظيم جديد هو الذى يكون تفوق الإنسان على الحيوان . فالعمليات الفكرية مجردة فى ذاتها من الكيفيات ، إلا من حيث ما يصحبها من التهييجات اللاذة وغير اللاذة والتى يتحتم حصرها فى نطاق محدود نظراً لما تدخله من أثر مزعج على التفكير . ولكى تكتسب العمليات الفكرية كيفا ربطت لدى الكائنات الإنسانية بذكريات لفظية تكفى بقاياها الكيفية فى جذب انتباه الشعور إليها وفى إكساب عملية التفكير استثماراً جديداً متحركاً من جانب الشعور [انظر ص٥٦٢ وص٥٩٣ فى الهامش].

ولسنا نستطيع الإلمام بمشكلات الشعور فى كل تعددها إلا بتحليل العمليات الفكرية فى الهستريا . فهذه تشعرنا بأن الانتقال من استثمار قبل شعورى إلى آخر شعورى يتسم برقابة تماثل تلك القائمة بين النظامين لاش. وقبش. ولا تأخذ هذه الرقابة أيضاً فى العمل إلا بعد حد كمى معين ، بحيث تفلت منها العمليات الفكرية ذات الشدة المنخفضة . وفى مجال الظواهر العصابية النفسية أمثلة من كل نوع تبين كيف تنفصل فكرة من الشعور أو تنفذ إليه تحت قيود معينة ، وكل هذه الأمثلة تلمح إلى العلاقات الباطنة المتبادلة بين الرقابة والشعور. وأختتم هذه التأملات السيكولوجية بذكر مثالين من هذا القبيل .

دعيت فى العام الماضى إلى زيارة فتاة كان مظهرها ينم عن الذكاء والبعد عن الكلفة . وكان ملبسها يبعث على الاستغراب . فبينما ينم هندام المرأة عادة عن عناية تتناول أدق التفاصيل ، كانت هذه تحمل جورباً متدلياً وصدارا انفك منه زراران . وشكت الفتاة ألماً فى ساقها وعرت ركبتها دون أن يطلب منها ذلك . ولكن شكاتها الأولى كانت شعوراً يخالجها فى جسمها كأن شيئاً ما « قد غرس فيه » شيئاً كان « يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف » ، وكان هذا الشىء « يهزها » من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وكان فى

بعض الأحايين يجعلها تشعر بجسمها « متصلباً » . ونظر إلى زميلي الحاضر معي في أثناء الفحص ؛ فلم يفته أن يرى ما تعنيه هذه الشكاة . ولكن الذي لاح لكلينا أمراً عجباً هو أن أم المريضة لم تحدث نفسها بشيء ، مع أنها لا بد قد وجدت نفسها مراراً في الموقف الذي تصفه ابنتها . وأما الفتاة فلم تكن تفطن البتة إلى ما ترمى إليه أقوالها ، وإلا ما فاهت قط بلفظ منها . فهذه حالة أمكنت فيها مداورة الرقابة بحيث نرى تخييلا يبقى عادة طى ما قبل الشعور وقد أذن له بالانبعاث في الشعور تحت ستار برىء من التشكى .

وها هو ذا مثال آخر : ولد في الرابعة عشرة من عمره جاءني وهو يعاني رجفة تشنجية وقيئاً هستريا وصداعاً ، إلخ . وبدأت علاجه التحليلي النفسي بأن أكدت له أنه لو أغلق عينيه لرأى صوراً أو أتته خواطر عليه عندئذ أن ينقلها إلى ، فكان جوابه صوراً : انبعث في ذاكرته انبعاثاً بصريا آخر انطباع تلقاه قبل المجيء إلى : كان يلعب الشطرنج مع عمه وإنه ليرى اللوح أمامه . وجعل يفكر في المواقع المختلفة الرابحة وغير الرابحة وفي الحركات التي يجب أن يتجنبها . ثم بعد ذلك رأى خنجراً يستقر على اللوح — وهو خنجر كان ملكاً لوالده ولكن خياله وضعه على اللوح . وأعقب ذلك محصد فمنجل . ثم ظهرت الآن صورة فلاح عجوز يحش الحشيش بمنجل قدام منزل المريض النائي . وبعد أيام قليلة اكتشفت معنى هذه الحلقات المتتابعة من الصور : فقد كان الولد يبهظه موقف عائلي تعس : فله أب كان رجلا قاسياً ، تعتريه سورات من الغضب ، اقترن بأم المريض اقتراناً غير موفق وكان منهجه التربوي ينحصر في الوعيد . ولقد طلق الأب أم الولد المريض ، وكانت امرأة عطوفاً حدوباً ، ثم تزوج بغيرها . وفي ذات ليلة أقبل إلى المنزل بامرأة شابة كان على الولد أن يتخذها أمه الجديدة . وكان في خلال الأيام القلائل الأولى التي أعقبت هذا الحدث أن الولد جعل يمرض ، وكان غضبه المكبوت تجاه أبيه هو الذي ركب هذه السلسلة من الصور بتلميحاتها غير المفهومة . وأما مادتها فقد اشتقت من ذكرى إحدى الأساطير : فالمحصد هو المحصد الذي به خصى زوس أباه ، وأما المنجل وصورة الرجل العجوز فيمثلان كرونوس الشيخ الباغي الذي التهم أبناءه والذي ثأر منه زوس ذلك الثأر الجاحد . وكان زواج الأب هو الذي أتاح للولد أن يكيل لوالده كل التقريع والوعيد اللذين سمعهما هو منه قبل ذلك بزمن طويل إذ كان يلعب بأعضائه التناسلية (أنظر اللعب بالشطرنج والحركات الممنوعة والخنجر الذي يستطيع المرء أن يقتل

به) . فى هذه الحالة ذكريات كبتت زماناً طويلا ومشتقات منها بقيت طى اللاشعور تدلف جميعها إلى الشعور من طريق دائرى فى هيئة صور ظاهرها الخلو من المعنى .

وهكذا أرى القيمة النظرية لدراسة الحلم فيما تضيفه هذه الدراسة من جديد إلى معرفتنا السيكولوجية ، وفى النور المبدئى الذى تلقيه على مشكلات الأعصبة . ومن ذا الذى يستطيع أن يحذر أهمية النتائج التى قد نظفر بها من فهم مستوفى لتركيب الجهاز النفسى ، إذا كانت معرفتنا — وهى لم تزل بحالتها الراهنة — تمكننا من التأثير فيما يقبل الشفاء من صور الأعصبة النفسية تأثيراً علاجياً مطيباً؟ غير أننى أضع سؤالا : وماذا عن القيمة العملية لهذه الدراسة من حيث هى وسيلة إلى فهم النفس وإلى الكشف عن الخصائص المختبئة للأفراد المختلفين ؟ أليس للاندفاعات اللاشعورية التى يفرغها الحلم قيمة القوى الحقيقية فى الحياة النفسية ؟ هل لنا أن نستخف بالمغزى الخلقى للرغبات المكبوتة — وهى رغبات تولد اليوم الحلم ولكنها قد تولد كذلك أشياء أخرى يوماً ما ؟

إنى لا أشعر بحق فى الإجابة عن هذه الأسئلة : فما ذهبت خواطرى فى صدد هذا الوجه من مشكلة الحلم إلى أبعد من هذا المدى . غير أننى أعتقد مع ذلك أن الإمبراطور الرومانى قد جانب الصواب إذ أمر بإعدام أحد رعاياه لأنه حلم باغتياله . فقد كان أولى به أن يحاول الكشف عن معنى الحلم ،وأغلب الظن أن معناه كان يختلف من ظاهره . ثم إنه لو كان ثمت حلم مختلف المحتوى ولكنه تضمن هذا المعنى الآثم تجاه الذات الإمبراطورية ، أفما كان ينبغى أن نذكر قول أفلاطون : إن الرجل الفاضل يكفيه الحلم حيث يقدم الشرير على الفعل ؟ وعلى ذلك أرى أن الأحسن هو أن نترك للأحلام حريتها . وأما السؤال : هل ينبغى أن نضيف إلى الرغبات اللاشعورية صفة الواقع ؟ فهذا ما لا أستطيع أن أقطع فيه بحرف . إلا أن من الواجب بالطبع أن نأبى مثل هذه الصفة على كل فكرة عابرة أو متوسطة . وإذا نظرنا إلى الرغبات اللاشعورية وقد ردت إلى أول أشكالها وأصدقها وجب ولا ريب القول : إن الواقع النفسى صورة من صور الوجود لا ينبغى الخلط بينها وبين الواقع المادى(١) . وهكذا يبدو ألا مبرر لنفور الناس من أن يتحملوا مسئولية

(١) [هذه الجملة قد ظهرت للمرة الأولى فى طبعة سنة ١٩٠٩ فى صورة مختلفة بعض الاختلاف ثم عدلت فى طبعة سنة ١٩١٤ ، وأخيراً اتخذت شكلها الحاضر سنة ١٩١٩ ، وأما بقية الفقرة فقد أضيفت فى سنة ١٩١٤ .]

انتفاء الأخلاق من أحلامهم . وإن الجزء الأعظم مما لا نرضى عنه من الوجهة الخلقية فى حياتى الحلم والتخييل ليؤول إلى الاختفاء حين نقدر أسلوب الجهاز النفسى فى النشاط تقديراً صائباً وحين نفهم العلاقة بين الشعور واللاشعور . أو بعبارة هانس ساكس : « إنا إذا نظرنا فى شعورنا عن أمر حدثنا به الحلم فى صدد الحاضر (أو الواقع) ، لا يجب أن ندهش إذا رأينا المسخ الذى شهدناه تحت عدسة التحليل المكبرة ينقلب إلى حيوان نقعى . »

إن الأفعال والآراء التى يعرب عنها صاحبها إعراباً شعوريا تكفى عادة من حيث المقاصد العملية فى الحكم على طبائع الناس . والأفعال هى الخليقة بأول اعتبار وأقطعه لأن كثيراً من الاندفاعات قد تنفذ إلى الشعور ثم إذا هى مع ذلك تنفق قبل أن تنمو حتى تصير فعالا ؛ فقد لاقت القوى الحقيقية للحياة النفسية . والحق أن أمثال هذه الدوافع قد لا يلاقى تقدمها حوائل نفسية فى كثير من الأحيان ، والسبب فى ذلك على التحديد هو ثقة اللاشعور من كونها لا محالة واقفة فى مرحلة أخرى من المراحل . ومهما يكن من الأمر ، فإن من المفيد دائماً أن نتعرف هذه التربة التى كثر تقليبها والتى منها تنبعث فضائلنا فى فخر ؛ إذ أنه يندر كل الندرة أن يخضع تعقد الطبع الإنسانى ، بما يضمه من قوى دينامية تحركه فى كل اتجاه ، لاختيار يقطع بين احتمالين وكفى ، كما تريدنا مذاهبنا الأخلاقية التى طال بها الدهر على تصديقه .

وماذا عن قيمة الحلم فى إطلاعنا على الغيب ؟ هذه بالطبع مسألة ليست موضع تفكير وربما كان الأصدق أن نقول بدل ذلك : إن الأحلام تحيطنا علماً بالماضى . فالحلم فرع من الماضى بكل معنى من المعانى . ومع هذا فاعتقاد القدامى أن الأحلام تنبئ بالمستقبل لا يخلو كل الخلو من الصدق . فالحلم مهما يكن من أمر يسلك بنا جهة المستقبل إذ يصور رغباتنا محققة . إلا أن هذا المستقبل الذى يصوره الحالم فى صورة الحاضر قد سوى برغبة لا تعرف الهدم على أكمل شبه بالماضى .

قائمتا المراجع[1]

[وضعت عناوين المقالات بين شولتين مقلوبتين . وجرى استخدام حروف الاختصار وفقاً لقائمة الدوريات العلمية فى العالم (أكسفورد ، ١٩٥٠) . ويدل حرفا G.S. على كتابات فرويد المجمعة (١٢ جزءاً ، ڤيينا ، ١٩٢٤ – ٣٤) وحرفا G.W. على مؤلفات فرويد المجمعة (١٨ جزءاً ، لندن ، ابتداء من ١٩٤٠) و C.P. على مقالات فرويد المجمعة باللغة الإنجليزية (٥ أجزاء ، لندن ، ١٩٢٤ – ٥٠) و Standard E. على الترجمة الإنجليزية الأخيرة لمؤلفات فرويد الكاملة (٢٤ جزءاً ، لندن ، ابتداء من ١٩٥٣ .]

أ

كتاب أشير إلى مؤلفاتهم فى سياق النص

[فيما يتصل بفرويد يدل الحرف الذى يتبع تاريخ السنة على ترتيب المرجع المشار إليه بين سائر مؤلفات فرويد المنشورة فى تلك السنة ، ويدل فيما يتصل بغير فرويد من المؤلفين على ترتيبه بين سائر المؤلفات المذكورة لهم فى هذا الكتاب .]

Abraham, K. (1909) Traum und Mythus, Vienna.

Adler, A. (1910) 'Der psychische Hermaphrcditismus im Leben und in der Neurose', Fortschr. Med., 28, 486.

(1911) 'Beitrag zur Lehre vom Widerstand', ZBL. Psychoanal., 1, 214.

Allison, A. (1868) 'Nocturnal Insanity', Med. Times & Gaz., 947, 210.

Almoli, S. See Salomon Almoli.

Amram, N. (1901) Sepher pithron chalomoth, Jerusalem.

Aristotle, De somniis and De divinatione per somnum. [Trans. by W.S. Hett

(١) [نقل تبويب المراجع عن چيمس ستراشى (انظر كلمة المترجم ، ص ٢٧) . وقد رأينا أن نبقى على مؤلفات فرويد التى لم يرد ذكرها إلا فى هوامش الترجمة الإنجليزية حتى نضع بين يدى القارئ قائمة وافية قدر الإمكان بمؤلفات فرويد مرتبة ترتيباً زمنيا ، كما أبقينا ذكر التراجم الإنجليزية للمراجع لأنها ربما كانت أقرب منالا من الأصول .]

"in volume 'On the Soul', Loeb Classical Library", London & New York, 1935.]

Artemidorus of Daldis, Oneirocritica. [German trans.: Symbolik der Traume by F.S. Krauss, Vienna, 1881, and 'Erotische Traume und ihre Symbolik' Anthropophyteia, 9, 316, by Hans Licht. English trans. "abridged" : The Interpretation of Dreams, by R. Wood, London, 1644.]

Artigues, R. (1884) Essai sur la valeur semeiologique du reve, (Thesis) Paris.

Benini, V. (1898) 'La memoria e la durata dei sogni', Riv. ital. Filos., 13a, a49.

Bernard-Leroy and Tobowolska, J. (1901) 'Mecanisme intellectuel du rêve', rev. phil., 51, 570.

Bernfeld, S. (1944) 'Freud's Earliest Theories and the School of Helmholtz', Psychoanal. Quart., 13, 341.

Bernstein, I., and Segel, B.W. (1908) Judische Sprichworter und Redensarten, Warsaw.

Betlheim, S., and Hartmann, H. (1924) 'Uber Fehlreaktionen des Gedachtnisses bei Korsakoffschen Psychose', Arch. Psychiat. Nervenkr., 72, 278.

Bianchieri, F. (1912) 'I sogni dei bambini di cinque anni', Riv. Psicol., 8, 325. See also Doglia and Blanchieri.

Binz, C. (1878) Uber den Traum, Bonn.

Bleuler, E. (1910) 'Die Psychoanalyse Freuds', Fb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 623.

Bonatelli, F. (1880) 'Del sogno', La filosofia delle scuole italiane, Feb., 16.

Borner, J. (1855) Des Alpdrucken, seine Begrundung und Verhutung, Wurzburg.

Bottinger (1795) In C.P.J. Sprengel : Beitrage zur Geschichte der Medizin, 2.

Bouché-Leclercq, A. (1879-82) Histoire de la divination dans l'antiquité, Paris.

Breuer, J., and Freud, S. (1895) see Freud, S. (1895 d)
1940 [1892] see Freud, S. (1940 d)

Büchsenschütz, B. (1868) Traum und Traumdeutung im Altertum, Berlin.

Burdach, K.F. (1838) Die Physiologie als Erfahrungswissenschaft, Vol. 3 of 2nd ed., 1832-40. (1st ed. 1826-32).

Busemann, A. (1909) 'Traumleben der Schulkinder', Z. pad. Psychol., 10, 294.
(1910) 'Psychologie der kindlichen Traumerlebnisse', Z. pad. Psychol., 11, 320.

Cabanis, P.J.G. (1802) Rapports du physique et du moral de l'homme, Paris.

Calkins, M.W. (1893) 'Statistics of Dreams', Amer. F. Psychol., 5, 311.

Carena, Caesar (1641) Tractatus de Officio Sanctissimes Inquisitionis, Cremons.

Chabaneix, P. (1897) Physiologie cérèbrale; le subconscient chez les artistes, les savants, et les écrivains, Paris.

Cicero : De divinatione. (9,55)
[Trans. by W.A. Falconer 'Loeb Classical Library', London & New York, 1922]

Claparède, H. (1905) 'Esquisse d'une theorie biologique du sommeil', Arch. psychol., 4, 245.

Clerk-Maxwell, J. (1876) Matter and Motion, London.

Coriat, I.H. (1913) 'Zwei sexual-symbolische Beispiele von Zahnarzt-Traumen', Zbl. Psychoanal. Psychother., 3, 440.

Dattner, B. (1913) 'Gold und Kot', Int. Z. Psychoanal., 1. 495.

Davidson, Wolf (1799) Versuch uber den Schlaf, Berlin. 2nd ed., (1st ed., 1795)

Debacker, F. (1881) Des hallucinations et terreurs nocturnes chez les enfants, (Thesis) Paris.

Delacroix, H. (1904) 'Sur la structure logique du reve,' Rev. Metaphys., 12, 921.

Delage, Y. (1891) 'Essai sur la theorie du rêve', Rev. industr., 2, 40.

Delboeuf, I. (1885) Le sommeil et les rêves, Paris.

Diepgen, P. (1912) Traum und Traumdeutung als mediz. naturwissenschaftl. Problem im Mittelater, Berlin.

Doglia, S. and Blanchieri, F. (1910-11) 'I sogni dei bambini di tre anni', Contrib. psicol., 1, 9.

Dollinger, J. (1857) Heidenthum und Judenthum, Regensburg.

Drexl, F.X. (1909) Achmets Traumbuch : Einleitung und Probe eines kritischen Textes, (Thesis) Munich.

Dugas, L. (1897 a) 'Le sommeil et la cérèbration inconsciente durant le sommeil', Rev. phil., 43, 410.
(1897 b) 'Le souvenir du rêve', Rev. phîl., 44, 220.

Du Prel, C. (1885) Die Philosophie der Mystik, Leipzig.

Eder, M.D. (1913) 'Augentraume', Int. Z. Psychoanal., 1. 157.

Egger, V. (1895) 'La durée apparente des rêves', Rev. phil., 40, 41.
(1898) 'Le souvenir dans le rêve', Rev. phil., 46, 154.

Ellis, Havelock (1899) 'The Stuff that Dreams are made of', Popular Science Monthly, 54, 721.
(1911) The World of Dreams, London.

Erdmann, J.E. (1852) Psychologische Briefe (Brief VI), Leipzig.

Fechner, G.T. (1860) Elemente der Psychophysik, Leipzig.

Federn, P. (1914) 'Uber zwei typische Traumsensationen', Jb. Psychoanal., 6, 89.

Fere, C. (1886) 'Note sur un cas de paralysie hystérique consécutive à un rêve', Soc. biolog., 41 (Nov. 20).
(1887) 'A Contribution to the Pathology of Dreams and of Hysterical Paralysis', Brain, 9, 488.

Ferenczi, S. (1910) 'Die Psychoanalyse der Traume', Psychiat. - neurol Wachr.l 12, Nos. 11-13.
[Trans.: 'The Psychological Analysis of Dreams', Chap. III fo Contributions to Psychoanalysis, Boston, 1916.]
(1911) 'Uber lenkbare Traume', Zbl. Psychoanal., 2, 31.
(1912) 'Symbolische Darstellung des Lust-und Realitatsprinzips im Odipus-Mythos', Imago, 1, 276.
[Trans.: 'The Symbolic Representation of the Pleasure and Reality Principles in the Oedipus Myth', Chap. X, Part I of Contributions to Psycho-Analysis, Boston, 1916.]
(1913) 'Zur Augensymbolik', Int. Z. Psychoanal., 1, 161.
[Trans.: 'On Eye Symbolism', Chap. X, Pt. II of Contributions to Psycho-Analysis, Boston, 1916].
(1916) 'Affektvertauschung im Traume', Int. Z. Psychoanal., 4, 112.
[Trans., 'Interchange of Affect in Dreams', No. LV in Further Contributions, London, 1926.]
(1917) 'Traume der Ahnungslosen', Int. Z. Psychoanal., 4, 208.
[Trans., 'Dreams of the Unsuspecting', No. LVI of Further contributions, London, 1926.]

Fichte, J.H. (1864) Psychologie : die Lehre vom bewussten Geiste des Menschen, (2 vols.), Leipzig.

Fischer, K.P. (1850) Grundzuge des Systems der Anthropologie, Erlangen. (Pt. 1, Vol. 2, in Grundzuge des Systems der Philosophie.)

Fliess, W. (1906) Der Ablauf des Lebens, Vienna.

Forster, M. (1910) 'Das lateinisch-altenglische pseudo-Danielsche Traumbuch in Tiberius A. III', Archiv Stud. neueren Sprachen und Literaturen, 125, 39.
(1911) 'Ein mittelenglisches Vers-Traumbuch des 13 Jahrhunderts', Archiv Stud. neureren Sprachen und Literaturen, 127, 31.

Foucault, M. (1906) Le rêve : études et observations, Paris.

Freud, S. (1877 a) 'Uber den Ursprung der hinteren Nervenwurzeln im Ruckenmark von Ammocostes (Petromyson Planeri)', Sitzungsber. k. Akad. Wiss., III Abt., Bd. 75, January.
(1884 e) 'Uber Coca', Centralbl. ges. Therap., 2, 289.
[Trans.: (abbreviated) 'Coca', Saint Louis Med. Surg. J., 48 (1884), 502.]
(1893 c) 'Quelques considérations pour une étude comparative des paralysies motrices organiques et hysteriques', G.S. 1, 30; G.W., 1, 37.

[Trans.' 'Some points for a Comparative Study of Organic and Hysterical Motor Paralyses', C.P., 1, 42; Standard Ed., 1.]
(1894 a) 'Die Abwehr-Neuropsychosen', G.S., 1, 290, 1, 290; G.W., 1, 57.
[Trans.: 'The Neuro-Psychoses of Defence', C.P., 1, 59; Standard Ed., 3.]
(1895 b) 'Uber die Berechtigung, von der Neuresthenie einen bestimmten Symptomenkomplex als "Angstneurose" abzutrennen', G.S., 1, 306; G.W., 1, 313.
[Trans.: 'On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from Neurasthenia under the description "Anxiety Neurosis"', C.P., 1, 76; Standard Ed., 3.]
(1895 d) With Breuer, J., Studien uber Hysterie, Vienna. (G.S., 1; G.W. 1, 75. Omitting Breuer's contributions.)
[Trans.: Studies on Hysteria, Standard Ed., 2.]
(1896 b) 'Weitere Bemerkungen uber die Abwehr-Neuropsychosen', G.S., 1, 363; G.W., 1, 377.
[Trans.: 'Further Remarks on the Neuro-Psychoses of Defence', C.P., 1, 155; Standard Ed., 3.]
(1898 b) 'Zum psychischen Mechanismus der Vergesslichkeit', G.W., 1, 517.
[Trans.: 'The Psychical Mechanism of Forgetting', Standard Ed., 3.]
(1899 a) 'Uber Deckerinnerungen', G.S., 1, 465; G.W., 1
[Trans., 'Screen Memories', C.P., 5, 47; Standard Ed., 3.]
(1900 a) Die Traumdeutung, Vienna. (G.S., 2-3; G.W., 2-3.)
[Trans.: The Interpretation of Dreams, revised ed., London, 1932; Standard Ed., 4-5.]
(1901 a) Uber den Traum, Wiesbaden. (G.S., 3, 189; G.W., 2-3, 643.)
[Trans.: On Dreams, London, 1951; Standard Ed., 5, 629.]
(1901 b) Sur Psychopsthologie des Alltagslebens, Berlin. (G.S., 4; G.W., 4.)
[Trans.: The Psychopathology of Everyday Life, Standard Ed., 6.]
(1904 a) 'Die Froud'sche psychoanalytische Methode', G.S., 6, 3; G.W., 5, 3.
[Trans.' 'Freud's Psycho-Anycho-Analytic Method',C. P., 1, 264; Standard Ed., 7.]
(1905 c) Der Witz und seine Beziehung zum unbewussten, Vienna (G.S., 9; G.W., 6.)
[Trans.: Jokes and their Relation to the Unconscious, Standard Ed., 8.]
(1905 d) drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, Vienns. (G.S., 5, 3; G.W., 5, 29.)
[Trans.: Three Essays on the Theory of Sexuality, London, 1949; Standard ed., 7.]
(1905) 'Bruchstück einer Hysterie-Analyse', G.S., 8, 3; G.W., 5, 163.
[Trans.: 'Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria', C.P., 3, 13; Standard Ed., 7.]

(1907 a) Der Wahn und die Traume in W. Jenses 'Gradiva', Vienna. (G.S., 9, 273, G.W., 7, 31.)
[Trans., Delusion and Dreams in Jensen's 'Gradiva', Standard Ed., 9.]
(1908 a) 'Hysterische Phantasien und ihre Beziehung zur Bisexualitat', G.S., 5, 246; G.W., 7, 191.
[Trans., 'Hysterical Phantsies and their Relation to Bisexuality', C.P., 2, 51; Standard Ed., 9.]
(1908 b) 'Charakter und Analerotik', G.S., 5, 261; G.W., 7, 203.
[Trans.: 'Character and Anal Erotism', C.P., 2, 45; Standard Ed., 9.]
(1908 c) 'Uber infantile Sexualtheorien', G.S., 5, 168; G.W., 7, 171.
[Trans.: 'On the Sexual Theories of Children', C.P., 2, 59; Standard Ed., 9.]
(1908 e) 'Der Lichter und des Phantasieren', G.S., 10, 229; G.W., 7, 213.
[Trans.: 'Creative Writers and Day-Dreaming', C.P. 4, 173; Standard Ed., 9.]
(1909 b) 'Analyse der Phobie eines funfjahrigen Knaben', G.S., 8, 129; G.W., 7, 243.
[Trans.: 'Analysis of a Phobia in a Five-Year Old Boy', C.P. 3, 149; Standard Ed., 10].
(1909 d) 'Bemerkungen uber einen Fall von Zwangsneurose', G.S., 8, 269; G.W., 7, 381.
[Trans.: 'Notes upon a Case of Obsessional Neurosis', C.P. 3, 293; Standard Ed., 10.]
(1910 a) Uber Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 4, 349; G.W., 8, 3.)
[Trans.: Five Lectures on Psycho-Analysis, Standard Ed., 11.]
(1910 d) 'Die Zukunftigen Chancen der psychoanalytischen Therapie', G.S.,
(1910 e) ' "Uber den Gegensinn der Urworte" ', G.S., 10, 221; G.W., 8, 214.
[Trans.: ' "The Anithetical Sense of Primal Words" ', G.P.; 4, 184, Standard Ed., 11.]
(1910 f) 'Brief an Dr. Friedrich S. Krauss uber die Anthropophyteia', G.S., 11, 242, G.W., 8, 224.
[Trans.: 'Letter to Dr. Friedrich S. Krauss on Anthropophyteia', Standard Ed., 11.]
(1910 h) 'Uber einen besonderen Typus der Objektwahl beim Manne' ('Beitrage zur Psychologie des Liebeslebens' I), G.S., 5, 186, G.W., 8, 66.
[Trans.: 'A Special Type of Choice of object made by Men' ('Contributions to the Psychology of Love' I), C.P., 4, 192; Standard Ed., 11.]
(1910 l) 'Typisches Beijpiel eines verkappten Odipustraumes', Zentralbl. Psychoanal., 1, 45; reprinted in Die Traumdeutung, G.S., 3, 118 n.; G.W., 2-3, 404 n.
[Trans.: 'A Typical Example of a Disguised Oedipus Dream'; inciluded in The Interpretation of Dreams, Standard Ed., 5, 398 n.]

(1911 a) 'Nachtrage zur Traumdeutung', Zentraibl. Psychoanal.7., 18,1 (Partly reprinted G.S., 3, 77 ff. and 126 f.; G.W., 2-3, 365 ff. and 412 f.)

[Trans.: 'Additions to the Interpretation of Dreams', (wholly incorporated in the Interpretation of Dreams, Standard Ed., 5, 360 ff. and 408 f.]

(1911 b) 'Formulierungen uber die zwei Prinzipien des psychischen Geschehens', G.S., 5, 409; G.W., 8, 230.

[Trans.: 'Formulations on the Two Principles of Mental Functioning', C.P., 4, 13; Standard Ed., 12.]

(1911 e) 'Die Handhabung der Traumdeutung in der Psychoanalyse', G.S., 6, 45; G.W., 8, 350.

[Trans.: 'The Handling of Dream-Interpretation in Psycho-Analysis', C.P., 2, 305; Standard Ed., 12.]

(1912 g) 'Einige Bemerkungen uber den Begriff des Unbewussten in der Psychoanalyse', G.W., 8, 360.

[Trans.: 'Some Remarks on the Concept of the Unconscious as used in Psycho-Analysis', C.P., 4, 22; Standard Ed., 12.]

(1912-13) Totem und Tabu, Vienna. (G.S., 10; G.W., 9.)

[Trans.: Totem and Taboo, London, 1950; Standard Ed., 13.]

(1913 a) 'Ein Traum als Beweismittel', G.S., 3, 267; G.W., 10, 12.

[Trans.: 'An Evidential Dream', C.P., 2, 133; Standard E., 13.]

(1913 d) 'Marchenstoffe in Traumen', G.S., 3, 259; G.W., 10, 2.

[Trans.: 'The Occurrence in Dreams of Material from Fairy Tales', C.P., 4, 236; Standard Ed., 13.]

(1913 f) 'Das Motiv der Kastchenwahl', G.S., 10, 243-56; G.W., 10, 24-37.

[Trans.: 'The Theme of the Three Caskets', C.P., 4, 244-56; Standard Ed., 12.]

(1913 h) 'Erfahrungen und Beispiele aus der analytischen Praxis', Int. Z. Psychoanal., 1, 377. (Partly reprinted G.S., 11, 301; G.W., 10, 40. Partly included in Traumdeutung, G.S., 3, 41, 71 f., 127 and 135; G.W., 2-3, 238, 359 ff. 413 f. and 433)

[Trans.: 'Observations and Examples from Analytic Practice', Standard Ed., 13 (in full). Also partly incorporated in The Interpretation of Dreams, Standard Ed., 4. 232 and 5, 409 f.]

(1913 k) 'Gewohnheitsrecht der Volker', G.S., 11, 249; G.W., 10, 453.

[Trans.: 'Preface to Bourke, Scatalogic. Rites of all Nations', C.P., 5, 88; Standard Ed., 12.]

(1914 a) 'Uber fausse reconnaissance (''deja raconte'') wahrend der psychoanalytischen Arbeit', G.S., 6, 67; G.W., 10, 116.

[Trans.: ''Fausse reconnaissance (''déja raconté'') in Psycho-Analytic Treatment', C.P., 2, 334; Standard Ed., 14.]

(1914 c) 'Zur Einfuhrung des Narzissmus', G.S., 6, 155; G.W., 10, 138.

[Trans.: 'On Narcissism : an Introduction', C.P., 4, 30; Standard Ed., 14.]
(1914 d) 'Zur Geschichte der psychoanalytischen Bewegung', G.S., 4, 411; G.W., 10, 44.
[Trans.: 'On the History of the Psycho-Analytic Movement', C.P., 1, 287; Standard Ed., 14.]
(1914 e) 'Darstellungen der "grossen Leistung" im Traume', Int. Z. Psychoanal 2, 384; reprinted in Die Traumdeutung, G.S., 3, 130, G.W., 2-3, 416.
[Trans.: 'The Representation in a Dream of a "Great Achievement";' included in the Interpretation of Dreams, Standard Ed., 5, 412.]
(1915 a) 'Weitere Ratschlage zur Technik der Psychoanalyse III : Bemerkungen uber die Ubertragungsliebe', G.S., 6, 120; G.W., 10, 306.
[Trans.: 'Observations on Transference-Love (Further Recommendations on the Technique of Psycho-Analysis, III)', C.P., 2, 377; Standard Ed., 12.]
(1915 b) 'Zeitgemasses uber Krieg und Tod', G.S., 10, 315-46; G.W., 10, 324-55.
[Trans.: 'Thoughts for the Times on War and Death', C.P., 4, 288-317; Standard Ed., 14.]
(1915 d) 'Die Verdrangung', G.S., 5, 466; G.W., 10, 248.
[Trans.: 'Repression', C.P., 4, 84; Standard Ed., 14.]
(1915 e) 'Das Unbewusste', G.S., 5, 480; G.W., 10, 264.
[Trans.: 'The Unconscious', C.P., 4, 98; Standard Ed., 14.]
(1916 c) 'Eine Beziehung zwischen einem Symbol und einem Symptom', G.S., 5, 310; G.W., 10, 394.
[Trans.' 'A Connection between a Symbol and a Symptom', C.P., 2, 162; Standard Ed., 14.]
(1916 d) 'Einige Charaktertypen aus der psychoanalytischen Arbeit', G.S., 10, 287; G.W., 10, 364.
4, 318; Standard Ed., 14.)
(1916-17) Vorlesungon zur Einfuhrung in die Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 7; G.W., 11.)
[Trans.: Introductory Lectures on Psycho-Analysis, revised ed. London, 1929; Standard Ed., 15 and 16.]
(1917 d) 'Metapsychogische Erganzung zur Traumlehre', G.S., 5, 520; G.W., 10, 412.
[Trans.: 'A Metapsychological Supplement to the Theory of Dreams', C.P., 4, 137; Standard Ed., 14.]
(1918 b) 'Aus der Geschichte einer infantilen Neurose', G.S., 8, 439; G.W., 12, 29.
[Trans., 'From the History of an Infantile Neurosis', C.P., 3, 473; Standard Ed., 17.]
(1919 h) 'Das Unheimliche', G.S., 10, 369; G.W., 12, 229.

[Trans.: '"The Uncanny"', C.P., 4, 368; Standard Ed., 17.]
(1920 a) 'Uber die Psychogenese eines Falles von weibli her Homosexualitat', G.S., 5, 312; G.W., 12, 271.

[Trans.: 'The Psychogenesis of a Case of Female Homosexuality', C.P., 2, 202; Standard Ed., 18.]
(1920 f) 'Erganzungen zur Traumehre' (Author's Abstract of Congress Address(, Int. Z. Psychoanal., 6, 397.

[Trans.: 'Supplements to the Theory of Dreams', Int. J. Psycho-Anal., 1, 354; Standard Ed., 18.]
(1920 g) Jenseits des Lustprinzips, Vienna. (G.S., 6, 191; G.W., 13, 3.)
[Trans.: Beyond the Pleasure Principle, London, 1950; Standard Ed., 18.]
(1921 b) Introduction (in English) to Varendonck, The Psychology of Day-Dreams, London. (G.W., 13, 439; Standard Ed., 18.)
(1921 c) Massenpsychologie und Ich-Analyse, Vienna. (G.S., 6, 261; G.W., 13 73.)

[Trans.: Group Psychology and the Analysis of the Ego, London, 1922; Standard Ed., 18.]
(1922 a) 'Traum und Telepathie', G.S., 3, 278; G.W., 13, 165.

[Trans.: 'Dreams and Telepathy', G.P., 4, 408, Standard Ed., 18.]
(1922 b) 'Uber einige neurotische Mechanismen bei Eifersucht, Paranois und Homosexualitat', G.S., 5, 387; G.W., 13, 195.

[Trans.: 'Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality' C.P., 2, 232; Standard Ed., 18.]
(1922 c) 'Nachschrift zur Analyse des kleinen Hans', G.S.G.W., 8,, 2 64; 13, 431.

[Trans.: 'Postscript to the "Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old-Boy"', C.P., 3, 288; Standard Ed., 10.]
(1923 a) (1922) '"Psychoanlyse" and "Libido Theorie"', G.S., 11, 201; 201; G.W., 13, 211.

[Trans.: 'Two Encyclopaedia Articles', C.P., 5, 107; Standard Ed., 18.]
(1923 b) Das Ich und das Es, Vienna. (G.S., 6, 353; G.W., 13, 237.)
[Trans.: The Ego and the Id, London, 1927; Standard Ed., 19.]
(1923 c) 'Bemerkungen zur Theorie und Praxis der Traumdeutung', G.S., 3, 305; G.W., 13, 301.

[Trans.: 'Remarks on the Theory and Practice of Dream Interpretation', C.P., 5, 136; Standard Ed., 19.]
(1923 d) 'Eine Teufelsneurose im siebzehnten Jahrhundert', G.S., 10, 409; G.W., 13, 317.
[Trans.: 'A Seventeenth Century Demonological Neurosis', C.P., 4, 436; Standard Ed., 19.]

(1923 f) 'Josef Popper-Lynkeus und die Theorie des Traumes,' G.S., 11, 295; G.W., 13, 357.
[Trans.: 'Josef Popper-Lynkeus and the Theory of Dream's, Standard Ed., 19.]
(1924-34) Gesammelte Schriften, Vienna.
(1924 c) 'Das ckonomische Problem des Masochismus', G.S., 5, 374; G.W., 13, 371.
[Trans.: 'The Economic Problem of Masochism', C.P., 2, 255; Standard Ed., 19.]
(1925 a) 'Notiz uber den Wunderblock', G.S., 6, 415; G.W., 14, 3.
[Trans.: 'A Note on the "Mystic Writing-Pad" ', C.P., 5, 175; Standard Ed., 20.]
(1925 d) 'Selbstdarstellung', G.S., 11, 119; G.W., 14, 33.
[Trans.: An Autobiographical Study, London, 1935; Standard Ed., 20.]
(1925 i) 'Einige Nachtrage zum Ganzen der Traumdeutung', G.S., 3, 172; G.W., 1, 559.
[Trans.: 'Some Additional Notes upon Dream-Interpretation as a Whole,' C.P., 5, 150; Standard Ed., 20.]
(1925 j) 'Einige psychische Folgen des anatomischen Geschlechtsunterschieds', G.S., 11, 8; G.W., 14, 19.
[Trans.: 'Some Psychological Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes', C.P., 5, 186; Standard Ed., 19.]
(1926 d) Hemmung, Symptom und Angst, Vienna. (G.S., 11, 23; G.W., 13, 113.)
[Trans.: Inhibitions, Symptoms and Anxiety, London, 1936; The Problem of Anxiety, New York, 1936; Standard Ed., 20.]
(1927 c) Die Zukunft einer Illusion, Vienna. (G.S., 11, 411; G.W., 14, 325.)
[Trans.: The Future of an Illusion, London 1928; Standard Ed., 21.]
(1929 b) 'Brief an Maxim Leroy uber einen Traum des Cartesius', G.S. 12, 403; G.W., 14, 558.
[Trans.: 'A Letter to Maxime Leroy on a Dream of Descartes', Standard Ed., 21.]
(1930 a) Das Unbehagen in der Kultur, Vienna. (G.S., 12, 29; G.W., 14, 421.)
[Trans.: Civilization and its Discontents, London, 1930; Standard Ed., 21.]
(1930 e) 'Goethe-Preis 1930', G.S., 12, 406; G.W., 14, 545.
[Trans.: 'The Goethe Prize for 1930', Standard Ed., 21.]
(1931 b) 'Uber die weibliche Sexualitat', G.S., 12, 120; G.W., 14, 7.51
[Trans.: 'Female Sexuality', C.P., 5, 252; Standard Ed., 21.]
(1932 c) 'Meine Beruhrung mit Josef Popper-Lynkeus', G.S., 12, 415; G.W., 16, 261.

[Trans.: 'My Contact with Josef Popper-Lynkeus', C.P., 5, 295; Standard ed., 22.]

(1933 a) Neue Folge der Vorlesungen zur Einfuhrrung in die Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 12, G.W., 15.)

[Trans.: New Introductory Lectures on Psycho-Analysis, London, 1933; Standard Ed., 22].

(1940 a '1938) Abriss der Psychoanalyse, (G.W., 17, 67.)
[Trans.: An Outline of Psycho-Analysis, London and New York, 1949; Standard Ed., 23.]

(1940 c '1922') 'Das Medusenhaupt', G.W., 17, 47.
[Trans.: 'Medusa's Head', C.P., 5, 105; Standard Ed., 18.]

(1940 d '1892') With Breurer, J., 'Zur Theorie des hysterischen Anfalls', G.W., 17, 9.

[Trans.: 'On the Theory of Hysterical Attacks', C.P., 5, 27; Standard Ed., 1.]
(1941 a '1892') 'Brief an Josef Breuer', G.W., 17, 5.

[Trans.: 'A Letter to Josef Breuer', C.P., 5, 25; Standard Ed., 1.]
(1941 c '1899') 'Eine erfullte Traumahnung', G.W., 17, 21.
[Trans.: 'A Premonitory Dream Fulfilled', C.P., 5, 70; Standard Ed., 5, 623. (5 n., 65, n. 2, 623-5.]

(1950 a '1887-1902') Aus den Anfangen der Psychoanalyse, London. [In part in Standard Ed., 1.]

Fuchs, E. (1909-12) Illustrierte Sittengeschichte (Erganzungsbande), Munich.

Galton, F. (1907) Inquiries into Human Faculty and its Development, 2nd ed., Everyman's Edition, London (1st ed., 1883.)
Everyman's Edition, London (1st ed., 1883.)

Garnier, A. (1872) Traité des facultés de l'âme, contenant l'histoire des principales théories psychologiques, (3 vols.), Paris. (1st ed., 1852.)

Giessler, C.M. (1888) Beitrage zur Phanomenologie des Traumlebens, Halle.
(1890) Aus den Tiefen des Traumlebens, Halle.
(1896) Die physiologischen Beziehungen der Traumvorgange, Halle.

Girou De Bouzareinges, G. and Girou De Bouzareinges, L. (1848) Physiologie: essai sur le mécanisme des sensations, des idées et dessentiments, Paris.

Goblot, E. (1896) 'Sur le souvenir des rôves', Rev. phil., 42, 288.

Gomperz, I. (1866) Traumdeutung und Zauberei, Vienna.

Gotthardt, O. (1912) Die Traumbücher des Mittelalters, Eisleben.

Griesinger, W. (1845) Pathologie und Therapie der psychischen Krankheiten, Stuttgart.
(1861) do., 2nd ed. (quoted by Radestock).

Gruppe, O. (1906) Griechische Mythologie und Religionsgeschichte, Munich. (In Muller, Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, 5, 2.)

Guislain, J. (1833) Leçons orales sur les phrenopathies (3 vols.), Brussels. (Quotation in text is from German trans.: Abhandlungen uber die Phrenopathien, Nuremberg, 1838.)

Haffner, P. (1887) 'Schlafen und Traumen', Sammlung zeitgemasser Broschur'u9 226, Frankfurt.

Hagen, F.W. (1846) 'Psychologie und Psychiatrie', Wagner's Handworterbuch der Psychologie, 2, 692, Brunswick.

Hallam, F. and Weed, S. (1896) 'A Study of Dream Consciousness', Amer. J. Psychol., 7, 405.

Hartmann, E. Von (1890) Pilosophie des Unbewussten, 10th ed., Leipzig. (Ist ed., 1869.)
(Trans.: Philosophy of the Unconscious, by W.C. Coupland, London, 1884.)

Hartmann, H. See Betlheim and Hartmann.

Hennings, J.C. (1784) Von den Traumen und Nachtwandlern, Weimar.

Henzen, W. (1890) Uber die Traume in der altnordischen Sagaliteratur, (Theiss) Leipzig.

Herbart, J.F. (1892) Psychologie als Wissenschaft neu gegrundet auf Erfahrung, Metaphysik und Mathematk. (Zweiter, analytischer Teil); Vol. 6 in Herbart's Samtliche Werke (ed. K. Kehrbach), Langensalza. (Ist ed., Konigsb:rg, Samtliche Werke (ed. K. Kehrbach), Langensalza. (Ist ed., Konigsb:rg, 1825.)

Hermann, K.F. (1858) Lehrbuch der gottesdienstlichen Alterthumer der Griechen, 2nd ed., Heidelberg. (Pt. II of Lehrbuch der griechischen Antiquitaten.)
(1882) Lehrbuch der griechischen Privatalterthumer, 3rd ed., Freiburg. (Pt. IV of Lehrbuch der griechischen Antiquitaten.)

Herodotus History.
[Trans. by A.D. Godley, Vol. III (loeb Classical Library), London and New York, 1922.]

Hervey De Saint-Denys, Marquis d', (1867) Les reves et les moyens de les diriger, Paris. (Published anonymously.)

Hilderbrandt, F.W. (1875) Der Traum und seine Verwerthung fur's Leben, Leipzig.

Hippocrates Ancient Medicine and Regimen.
[Trans.: by W.H.S. Jones, Vols. I and IV (Loeb Classical Library), London and New York, 1923 and 1931.]

Hittschmann, E. (1913) 'Goethe als Vatersymbol', Int. Z. Psychoanal, 1, 569.

Hobbes, T. (1651) Leviathan, London.

Hoffbauer, J.C. (1796) Naturlehre der Seele, Halle.

Hohnbaum (1830) In C.F. Nasse : Jb. Anthrop., 1.

Hug-Hellmuth, H. Von (1911) 'Analyse eines Traumes eines 5 jahrigen Knaben', Zbl. Psychoanal., 2, 122.
(1913) 'Kindertraüme', Int. Z. Psychoanal., 1, 470.
(1915) 'Ein Traum der sich selbst deutet', Int. Z. Psychoanal., 3, 33.

Ideler, K.W. (1862) 'Die Enstehung des Wahnsinns aus den Traumen', Charité Annalen, 3, Berlin.

Iwaya, S. (1902) 'Traumdeutung in Japan', Ostasien, 302.

Jekels, L. (1917) 'Shakespeares Macbeth', Imago, 5, 170.

Jessen, P. (1855) Versuch einer wissenschaftlichen Begründung der Psychologie, Berlin.

Jodl, F. (1896) Lehruch der Psychologie, Stuttgart.

Jones, E. (1910 a) 'The Oedipus Complex as an Explanation of Hamlet's Mystery', Amer. J. Psychol, 21, 72.
(1910 b) 'Freud's Theory of Dreams', Amer. J. Psychol., 21, 283.
(1911) 'The Relationship Between Dreams and Psychoneurotic Symptoms', Am. J. Insanity, 68, 57.
(1912 a) 'Unbewusste Zahlenbehandlung', Zbl. Psychoanal., 2, 241.
(1912 b) 'A Forgotten Dream', J. abnorm. Psychol., 7, 5.
(1914 a) 'Frau und Zimmer', Int. Z. Psychoanal., 2, 380.
(1914 b) 'Zahnziehen und Gaburt', Int. Z. Psychoanal., 2, 380.
(1916) 'The Theory of Symbolism', Brit. J. Psychol., 9, 181.
(1949) Hamlet and Oedipus, London.
(1953) Sigmund Freud : Life and Work, 1, London.

Josephus, Flavius, Antiquitates Judaicae.
(Trans; Ancient History of the Jews by W. Whiston, London, 1874.)

Jung, G.G. (ed.) (1906) Diagnostische Assoziationsstudien (2 vols.), Leipzig. [Trans.: Studies in Word-Association, London.]
(1907) Uber die Psychologie der Dementia praecox, Halle.
[Trans.: The Psychology of Dementia Praecox, How York, 1909]
(1910 a) 'Uber Konflikte der kindlichen Seele', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 33.
(1910 b) 'Ein Beitrag zur Psychologie des Ceruchtes', Zbl. Psychoanal., 1, 1.
(1911) 'Ein Beitrag zur Kenntnis des Zahlentraumes', Zbl. Psychoanal., 1, 567.

Kant, I. (1764) Versuch uber die Krankheiten des Kopfes.
(1798) Anthropologie in pragmatischer Hinsicht.

Karpinska, L. Von (1914) 'Ein Beitrag zur Analyse "sinnloser" Worte in Traume', Int. Z. Psychoanal., 2, 164.

Kazousky, A.D. (1901) 'Zur Frage nach dem Zusammenhange von Traumen und Wahnvorstellungen', Neurol. Zbl., 440 and 508.

Kirchgraber, F. (1912) 'Der Hut als Symbol des Genitales', Zbl. Psychoanal. Psychother., 3, 95.

Kleinpaul, R. (1898) Die Lebendigen und die Toten in Volksglauben, Religion und Sage, Leipzig.

Krauss, A. (1858-59) 'Der Sinnim Wahnsinn', Allg. Z. Psychol., 15, 617 and 16, 222.

Krauss, F.S. See Artemidorus.

Ladd, G.T. (1892) 'Contribution to the Psychology of Visual Dreams', Mind, (New Series) 1, 299.

Landauer, K. (1918) 'Handlungen des Schlafenden', Z. ges. Neur. Psychiat., 39, 329.

Lasegue, C. (1881) 'Le délire alcolique n'est pas un délire, mais un rêve', Arch. gén. Méd.

Lauer, C. (1913) 'Das Wesen des Traumes in der Beurteilung der talmudischen und rabbinischen Literatur', Int. Z. Psychoanal., 1, 459.

Lehmann, A. (1908) Aberglaube und Zauberei von den altesten Zeiten bis in die Gegenwart (German trans. by Petersen), Stuttgart.

Le Lorrain, J. (1894) 'La durée du temps dans les rêves', Rev. phil., 38, 275.
(1895) 'Le rêve', Rev. phil., 40, 59.

Lélut, (1852) 'Mémoire sur les sommeil, les songes et le sonnambulisme', Ann. médpsychol., 4, 331.

Lemoine, A. (1855) Du sommeil au point de vue physiologique et psychologique, Paris.

Leroy, See Bernard-Leroy.

Leuret, F. (1834) Fragments psychologiques sur la folie, Paris.

Liébeault, A.A. (1889) Le sommeil provoqué et les états analogues, Paris.

Lipps, T. (1883) Grundtatsachen des Seelenlebens, Bonn.
(1897) 'Der Begriff des Unbewussten in der Psychologie', Records of the Third Internat. Congr. Psychol., Munich.

Lloyd, W. (1877) Magnetism and Mesmerism in Antiquity, London.

Lowinger. (1908) 'Der Traum in der judischen Literatur', Mitt. jud. Volksk.,

Lucretius, De rerum natura.
(Trans. by W.H.D. Rouse 'Loeb Classical Library', London and New York, 1924).

'Lynkeus' (J. Popper) (1899) Phantasien eines Realisten, Dresden.

Maass, J.G.E. (1805) Versuch uber die Leidenschaften, Halle.

Macario, M.M.A. (1847) 'Des rêves, considérés sous le repport physiologique et pathologique', Pt. II, Ann. méd-psychol., 9, 27.
(1857) Du sommeil, des rêves et du sonnambulisme dans l'état de santé et de maladie, Paris-Lyons.

Macnish, R. (1830) Philosophy of Sleep, Glasgow.
(German trans.: Der Schlaf in allen seinen Gestalten, Leipzig, 1835.)

Maeder, A. (1908) 'Die Symbolik in den Legenden, Marchen, Gebrauchen, und Traumen', Psychiat. - neurol. Waschr., 10, 55.
(1912) 'Uber die Funktion des Traumes', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 4, 692.

Maine de Biran, M.F.P. (1834) Nouvelles considérations sur les rapports du physique et du moral de l'homme, (ed. by V. Cousin), Paris.

Marcinowski, J. (1911) 'Eine kleine Mitteilung', Zbl. Psychoanal., 1, 575.
(1912 a) 'Gezeichnete Traume', Zbl. Psychoanal., 2, 490.
(1912 b) 'Drei Romane in Zahlen', Zbl. Psychoanal., 2, 619.

Maudsley, H. (1868) Psychology and Pathology of the Mind, London. (1st ed., 1867.)

Maury, L.F.A. (1853) 'Nouvelles observations sur les analogies des phénoménes du rêve et l'aliénation mentale', Pt. II, Ann. méd-psychol., 5, 404.
(1878) Le sommeil et les rêves Paris. (Ist ed., 1861.)

Meier, G.F. (1758) Versuch einer Erklarung des Nachtwandelns, Halle.

Meynert, T. (1892) Sammlung von popularwissenschaftlichen Vortragen uber den Bau und die Leistungen des Gehirns, Vienna.

Miura K. (1906) 'Uber japanische Traumdeuterei', Mitt dtsch. Ges. Naturk. Ostasiens, 10, 291.

Moreau, J. (1855) 'De l'identité de l'état de reve et de folie', Ann. méd-psychol., 1, 361.

Muller, J. (1826) Uber die phantastischen Gedichtserscheinungen, Coblenz.

Myers, F.W.H. (1892) 'Hypermnesic Dreams', Proc. Soc. Psych. Res., 8, 362.

Nacke, p. (1903) 'Uber sexuelle Traume', Arch. Kriminalanthropol., 307.
(1905) 'Der Traum als feinstes Reagens f. d. Art d. sexuellen Empfindens', Monatschr. f. Krim.-Psychol., 2, 500.
(1907) 'Kontrasttraume und spez. sexuelle Kontrasttraume', Arch. Kriminalanthropol., 24, 1.
(1908) 'Beitrage zu den sexuellen Traumen', Arch. Kriminalanthropol., 29, 363.

(1911) 'Die diaynostische und prognostische Brauchbarkeit der sex. Traume', Arztl. Sachv.-Ztg., 2.

Negelein, J. Von (1912) 'Der Traumschlussel des Jaggadeva,' Relig. Gesch. Vers., 11, 4.

Nelson, J. (1888) 'A Study of Dreams', Amer. J. Psychol., 1, 367.

Nordenskjold, O. et al. (1904) Antarctic. Zwei Jahre in Schnee und Eis am Sudpol, (2 vols.), Berlin.
[English trans. (abr.) : Antarctica, London. 1905].

Pachantoni, D. (1909) 'Der Traum als Urschprung von Wahnideen bei Alkoholdelirianten', Zbl. Nervenheilk., 32, 796.

Paulhan, F. (1894) 'A propos de l'activité de l'esprit dans le reve',; under 'Correspondence' in Rrv. phil, 38, 546.

Peisse, L. (1857) La médecine et les médecins, Paris.

Pfaff, E.R. (1868) Das Traumleben und seine Deutung nach den Prinzipien der Araber, Perser, Griechen, Inder und Agypter, Leipzig.

Pfister, O. (1909) 'Ein Fall von psychoanalytischer Seelsorge und Seelenheilung', Evangelische Freiheit, Tubingen.
(1911-12) 'Die psychologische Entratselung der religiosen Glcssolalie und der automatischen Kryptographie', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 3, 427 and 730.
(1913) 'Kryptolaie, Kryptographie und unbewusstes Vexierbild bei Normalen', Jb. psychoanal. und psychopath. Forsch., 5, 115.

Pichon, A.E. (1896) Contribution a l'étude des délires oniriques ou délires de rêve, Bordeaux.

Pilcz, A. (1899) 'Uber eine gewisse Gesetzmassigkeit in den Traumen', Author's Abstract, Machr. Psychiat. Neurol., 5, 231, Berlin.

Plato, Republic. (67 and n., 620).
[Trans. by B. Jowett (Dialogues, Vol. II), Oxford, 1871.]

Pohorilles, N.E. (1913) 'Eduard von Hartmanns Gesetz der von unbewussten Zielvorstellungen geleiteten Assoziationen', Int. Z. Psychoanal., 1, 605.

Potzl, O. (1917) 'Experimentell erregte Traumbilder in ihren Beziehungen zum indirekten Sehen,' Z. ges. Neurol. Psychiat., 37, 278.

Prince, Morton (1910) 'The Mechanism and Interpretation of Dreams', J. abnorm. Psychol., 5, 139.

Purkinje, J.E. (1846) 'Wachen, Schlaf, Traum und verwandte Zustande', R. Wagner's Handworterbuch der Physiologie, 3, 412, Brunswick.

Putnam, J.J. (1912) 'Ein charakteristischer Kindertraum', Zbl. Psychoanal.,

2, 328.

Raalte, F. Van (1912) 'Kinderdroomen', Het Kind, Jan.

Radestock, P. (1879) Schiaf und Traum, Leipzig.

Rank, O. (1909) Der Mythus von der Geburt des Helden, Leipzig and Vienna. [Trans.: Myth of the Birth of the Hero, New York, 1913].
(1910) 'Ein Traum der sich selbst deutet', Jb. Psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 465.
(1911 a) 'Beispiel eines verkapptén Odipustraumes', Zbl. Psychoanal.71, 16·,
(1911 b) 'Belege zur Rettungsphantasie', Zbl. Psychoanal., 1, 331.
(1911 c) 'Zum Thema der Zahnreiztraume', Zbl. Psychoanal., 1, 408.
(1912 a) 'Die Symbolschichtung im Wecktraum und ihre Wiederkehr im mythischen Denken', Jb. psychoanal, psychopath. Forsch., 4, 51.
(1912 b) 'Aktuelle Sexualregungen als Traumanlasse', Zbl. Psychoanal., 2, 596.
(1912 c) Das Inzest-Motiv in Dichtung und Sage. Leipzig and Vienna.
(1913) 'Eine noch nicht beschriebene Form des Odipus-Traumes', Int. Z. Psychoanal., 1, 151.
(1914) 'Die "Geburts-Rettungsphantasie" in Traum und Dichtung', Int. Z. Psychoanal., 2, 43.

Rank, O., and Sachs, H. (1913) Die Bedeutung der Psychoanalyse für die Geisteswissenschaften, Wiesbaden.
[Trans.: The Significance of Psychoanalysis for the Mental Sciences, New York, 1915.]

Régis, E. (1894) 'Les hallucinations oniriques ou du sommeil des dégénérés mystiques', Compte rendu Congrés Méd. Alién., 260, Paris, 1895.

Reik, T. (1911) 'Zur Rettungssymbolik', Zbl. Psychoanal., 1, c499.
(1915) 'Gold und Kot', Int. Z. Psychoanal., 3, 183.

Reitler, R. (1913 a) 'Zur Augensymbolik', Int. Z. Psychoanal., 1, 159.
(1913 b) 'Zur Genital — und Sekret-Symbolik', Int. Z. Psychoanal., 1, 492.

Robert, W. (1886) Der Traum als Naturnotwendigkeit erklart, Hamburg.

Robitsok, A. (1912) 'Zur Frage der Symbolik in dem Traumen Gesunder', Zbl. Psychoanal., 2, 340.

Roffenstein, G. (1923) 'Experimentelle Symboltraume', Z. ges. Neurol. Psychiat., 87, 362.

R (Orschach), H. (1912) 'Zur Symbolik der Schlange und der Kravatte', Zbl. Psychoanal., 2, 675.

Sachs, H. (1911) 'Zur Darstellungs-Technik des Traumes', Zbl. Psychoanal., 1, 413.
(1912) 'Traumdeutung und Monschenkenntnis', Jb. Psychoanal. psychopath. Forsch., 3, 568.

(1913) 'Ein Traum Bismarcks', Int. Z. Psychoanal., 1, 80.
(1914) 'Des Zimmer als Traumdarstellung des Weibes', Int. Z. Psychoanal., 2, 35.
See also Rank & Sachs.

Salomon Almoli Ben Jacob (1637) Pithron Chalomoth, Amsterdam.

Sanctis, Sante De (1896) I sogni e il sonno nell' isterismo e nella epilepsia, Rome.
(1897 a) 'Les maladies mentales et les rêves', extrait des Ann. Soc. Méd. de Gand, 76, 177.
(1897 b) 'Sui rapporti d'identita, di somiglianza, di analogia e di equivalenza fra sogno e pazzia', Riv. quindicinale Psicol. Psichiat. Neuropatol., Hov. 15.
(1898 a) 'Psychoses et rêves', Rapport au Congrés de neurol. et d'hypnologie de Bruxelles 1897; Comptes rendus, 1, 137.
(1898 b) 'I sogni dei neuropatici e dei pazzi', Arch. psichiat. antrop. crim., 19, 342.
(1899) I sogni, Turin.
(German transl. by O. Schmidt, Halle, 1901.)

Scherner, K.A. (1861) Das Leban des Traumes, Berlin.

Schiciermacher, F. (1862) Psychologie, (Vol. 6, Sec. 3 in Collected Works, ed. L. George), Berlin.

Scholz, F. (1887) Schlaf und Traum, Leipzig.
[Trans.: Sleep and Dreams by H.M. Jewett, New York, 1893.]

Schopenhauer, A. (1862) 'Versuch uber das Geistersehen und was damit zusammenhangt', Paraga und Paralipomena (Essay V.), 1, 123, 2nd ed., Berlin. (1st ed. 1851).

Schrotter, K. (1912) 'Experimentelle Traume', Zbl. Psychoanal., 2, 638.

Schubert, G.H. von (1814) Die Symbolik des Traumes, Bamberg.

Schwarz, F. (1913) 'Traum und Traumdeutung nach "Abdalganian-Nabulusi",' Z. deutsch. morgenl. Ges., 67, 473.

Secker, F. (1909-10) 'Chinesische Ansichten uber den Traum', Neue metaph. Rndschr., 17, 101.

Siebeck, H. (1877) 'Das Traumleben der Seele', Sammlung gemeinverstandlicher Vortrage, Berlin.

Silberer, H. (1909) 'Bericht uber eine Methode, gewisse symolische Halluzinations-Erscheinungen hervorzurufen und zu beobachten,' Jb. psychoanal. psychohap.t Forsch., 1, 513.
(1910) 'Phantasie und Mythos', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 541.
(1912) 'Symbolik des Erwachens und Schwellensymbolik uberhaupt', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 3, 621.

(1914) Problems der Mystik und ihrer Symbolik, Vienna and Leipzig.

Simon, P.M. (1888) Le monde des rêves, Paris.

Sperber, H. (1912) 'Uber den Einfluss sexueller Momente auf Entstehung und Entwicklung der Sprache', Imago, 1, 406.

Spielrein, S. (1913) 'Traum von ''Pater Freudenreich'',' Int. Z. Psychoanal., 1, 484.

Spitta, H. (1882) Die Schlef - und Traumzustande der menschlichen Seele, Tubingen. (1st ed., 1878.)

Spitteler, C. (1914) Meine fruhesten Erlebnisse, Jena.

Stannius, H. (1849) Das peripherische Nervensystem der Fische, anatomisch und physiologisch untersucht, Rostock.

Starcke, A. (1911) 'Ein Traum der das Gegenteil einer Wunscherfullung zu verwirkli chen schien', Zbl. Psychoanal., 2, 86.

Starcke, J. (1913) 'Neue Traumexperimente in Zusammenhang mit alteren und neueren Traumtheorien', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 5, 233.

Stekel, W. (1909) 'Beitrage zur Traumdeutung', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 1, 458.

(1911) Die Sprache des Traumes, Wiesbaden.

Stricker, S. (1879) Studien uber das Bowusstsein, Vienna.

Strumpell, A. von (1883-34) Lehrbuch der speciellen Pathologie und Therapie der inneren Krankheiten, Leipzig.

(Trans.: Text-book of Medicine, (2 vols.), 4th Amer. Ed., New York, 1912.)

Strumpell, L. (1877) Die Natur und Enstehung der Traume, Leipzig.

Stumpf, E.J.G. (1899) Der Traum und seine Deutung, Leipzig.

Sully, J. (1893) 'The Dream as a Revelation', Fortnightly Rev., 53, 354.

Swoboda, H. (1904) Die Perioden des Menschlichen Organismus, Vienna.

Tannery, M.P. (1898) 'Sur la mémoire dans le rêve', Rev. phil., 45, 637.

Tausk, V. (1913) 'Zur Psychologie der Kindersexualitat', Int. Z. Psychoanal., 1, 444.

(1914) 'Kleider und Farben im Dienste der Traumdarstellung', Int. Z. Psychoanal., 2, 464.

Tfinkdji, J. (1913) 'Essai sur les songes et l'art de les interpréter (onirocritie) en Mésopotomie', Anthropos, 8, 505.

Thomayer, S. and Simerka (1897) 'Sur la signification de quelques rêves', Rev. neurol., 5, 98.

Tissié, P. (1898) Les rêves, physiologie et pathologie, Paris. (1st ed., 1870).

Tobowolska, J. (1900) Etude sur les illusions de temps pans les rêves du sommeil normal, (Thesis) Paris.

See also Bernard-Leroy and Tobowolska.
Varendonck, J. (1912) The Psychology of Day-Dreams, London.
Vaschide, N. (1911) Le sommeil et les rêves, Paris.
Vespa, B. (1897) 'Il sonno e i sogni nei neuro- e psicopatici', Boll. Soc. Lancisiana Osp., 17, 193.
Vold, J. Mourly (1896) 'Expériences sur les rêves et en particulier sur ceux d'origine musculaire et optique' (review), Rev. phil., 42, 542.
(1910-12) Uber den Traum (2 vols.) (German transl. by O. Klemm), Leipzig.
Volkelt, J. (1875) Die Traum-Phantasie, Stuttgart.
Weed, S. See Hallam and Weed.
Weygandt, W. (1893) Entstehung der Traume, Leipzig.
Whiton Calkins. See Calkins, Whiton.
Wiggam, A. (1909) 'A Contribution to the Data of Dream Psychology', Ped. Sem. J. Genet. Psychol., 16, 250.
Winterstein, A. Von (1912) 'Zwei Belege fur die Wunscherfullung im Traume', Zbl. Psychoanal., 2, 292.
Wittels, F. (1924) Sigmund Freud : der Mann, die Lehre, die Schule, Vienna.
(Trans.: Sigmund Freud : his Teaching and his School, by Eden and Cader Paul, London 1924.)
(1931) Freud and his Time (trans. by Louise Brink), New York.
Wundt, W. (1874) Grundzuge der physiologischen Psycholcgie, Leipzig.
Zeller, A. (1818) 'Irre', Ersch and Gruber : Allgemeine Encyclopedie der Wissenschaften, 24, 120.

ب

مؤلفات أخرى فى موضوع الأحلام نشرت قبل عام ١٩٠٠
وهى مؤلفات أدرجها فرويد بين مراجعه دون أن يشير إليها خلال النص .

Ahmad Ibn Sirin, Achmetis f. Seirim Oneirocriticae, ed. N. Rigaltius, Paris, 1603.
Alberti, Michael (1744) Diss. de insomniorum infiuxi in sanitatem et morbos. Resp. Titius Halae M.
Alix (1883) 'Les rêves', Rev. Sci. Industr. 3rd series, 6, 554.
Anon (1890) 'Science of Dreams', The Lyceum, p. 28, Dublin.
(1890) 'Rêves et l'hypnotisme', Le Monde, Aug. 25.
(1893) 'The Utility of Dreams', J. Comp. Neurol., 3, 17, Granville.

Bacci, Domenico (1857) Sui sogni e sul sonnambulismo, pensiero fisiologico-metafisici, Venice.

Ball, B. (1885) La morphinomanie, les reves prolongés, Paris.

Benezé, Emil (1897) 'Das Traummotiv in der mittelhochdeutschen Dichtung bis 1250 und in alten deutschen Volksliedern', Benezé, Sageng. und lit. - hist. Unters, 1, Dans Traummotiv, Halle.

Benini, v. (1898) 'Nel moneto dei sogni', il Pensiero nuovo, Apr.

Birkmaier, Hieron (1715) Licht im Finstermiss der nachtlichen Gesichte und Traume, Nuremberg.

Bisland, E. (1896) 'Dreams and their Mysteries', N. Am. Rev., 162, 716.

Bradley, F.H. (1894) 'On the Failure of Movement in Dreams', Mind. (new series), 3, 373, London.

Brander, R. (1884) Der Schlaf und das Traumleben, Leipzig.

Bremer, L. (1893) 'Traum und Krankheit', New York med. Monstschr., 5, 281.

Bussola, Serafino (1834) De somniis, (Thesis) Ticini Reg.

Caetani-Lovatelli (1889) 'I sogni e l'ipnotismo nel mondo antico', Nuova Antol., Dec. 1.

Cane, Francis E. (1889) 'The Physiology of Dreams', The Lancet, 67 II, 1330 (Dec. 28).

Cardano, Girolamo (1562) Somiorum synesiorum, omnis generis insomnia explicantes libri IV, Bale.
(2nd ed. in Opera omnia Cardani, 5, 593, Lyons, 1663.)

Cariero, Alessandro (1575) De somniis deque divinatione per somnia, Padua.

Carpenter (1849-52) 'Dreaming' (under 'Sleep'), Cyclop. of Anat. and Physiol., 4, 687, London.

Claviere, (1897) La rapidité de la pensée dans le rêve, Rev. phil., 43, 507.

Coutts, G.A. (1896) 'Night-terrors', Amer. J. med. Sc.

D.L. (1895) 'A propos de l'appréciation du temps dans le rêve', Rev. phil., 40, 69.

Dagonet, H. (1889) 'Du rêve et du délire alcoolique', Ann. méd.-psychol., Series 7, 10, 193.

Dandelo, G. (1889) La conscienza nel sogno, Padua.

Dechambre, A. (1880) 'Cauchemar', Dict. encycl., sc. méd., 2, 48.

Dietrich, J.D. (1726) An ea, quae hominibus in somno et somnio accidunt iisdem possint imputari ? resp. Gava, Wittemberg.

Dochmassa, A.M. (1890) Dreams and their Significance as Forebodings of Disease, Kazan.

Dreher, E. (1890) 'Sinneswahrnehmung und Traumbild', Reichs-med. Anzeiger, 15, Nes. 20, 21, 22, 23, 24; 16, Nos. 3, 8, Leipzig.

Ducosté, M. (1899) 'Les songes d'attaques des pileptiques', Journ. Méd. Bordeaux, Nov. 26 and Dec. 3.

Du Prel, C. (1869) 'Oneirokritikon : der Traum vour Standpunkte des transcend. Idealismus', Deutsche Vierteljahrschrift, 2, Stuttgart.
(1890) Psychologie der Lyrik, Leipzig.
(1890) 'Kunstliche Traume', Sphinx, July.

Egger, V. (1888) 'Le sommeil et la certitude, le sommeil et la mémoire', Critique philos., 1, 341, Paris.

Ellis, Havelock (1895) 'On Dreaming of the Dead', Psychol. Rev., 2, 458.
(1897) 'A Note on hypnagogic Paramnesia', Mind, 6, 283.

Erdmann, J.E. (1855) 'Das Traumen', Ernste Spiele, Chap .12, Berlin.

Erk, Vinz. Von (1874) Uber den Unterschied von Traum und Wachen, Prague.

Escande De Messieres (1895) 'Les rêves chez les hystériques', (Thesis) Bordeaux.

Faure (1876) 'Etudes sur les reves morbides. Rêves persistants', Arch. génér. Méd., 6th ser., 27, 550.

Fenizia (1869) 'L'azione suggestiva delle cause esterne nei sogni', Arch. per l'Antrop., 26.

Féré, C. (1897) 'Les rêves d'accés chez les épileptiques', Méd. mod., Dec. 8.

Fischer, Joh. (1899) Ad artis veterum onirocriticae historiam symbola, (Thesis) Jena.

Florentin, V. (1899) 'Das Traumleben : Plauderei', Die alte und die neue Welt, 33, 725.

Fornaschon, H. (1897) 'Die Geschichte eines Traumes als Beitrag der Transcendentalpsychologie;, Psychische Studien, 24, 274.

Frensberg. (1885) 'Schlaf und Traum', Sammlung gemeinverst. wiss. Vortr., Virchow-Holtzendorf, Ser. 20, 466.

Frerichs, J.H. (1866) Der Mensch : Traum, Herz, Verstand, Nordon.

Galen. De praecognitione, ad Epigenem, Lyons, 1540.

Girgensohn, L. (1845) Der Traum : psychol. - physiol. Versuch.

Gleichen-Russwurm, A. Von (1899) 'Traum in der Dichtung', Nat. Z., Nos. 553-559.

Gley, E. (1898) 'Appréciation du temps pendant le sommeil', L'intermédiaire des Biologistes, 10, 228.

Gorton, D.A. (1896) 'Psychology of the Unconscious', Amer. med. Timos, 24. 33, 37.

Gould, G.M. (1889) 'Dreams, Sleep, and Consclousness', The Open Court (Chicago), 2, 1433-6 and 1444-7.

Grabener, G.C. (1710) Ex antiquitate judaica de menudim bachalom sive excommunicatis per insomnia exerc, resp. Kiebius, Wittemberg.

Graffunder, P.C. (1894) 'Traum und Traumdeutung', Samml., gemeinv. wiss. Vortrage, 197.

Greenwood, F. (1894) Imaginations in Dreams and their Study, London.

Grot, N. (1878) Dreams, a Subject of Scientific Analysis (in Russien) Kiev.

Guardia, J.M. (1892) 'La personnalité dans les rêves', Rev. phil., 34, 225.

Gutteldt, I. (1899) 'Ein Traum', Psychol. Studien, 26, 491.

Hampe, T. (1896) 'Uber Hans Sachsen Traumgedichte', Z. deutsch. Unterricht, 10, 616.

Heerwagen (1889) 'Statist. Untersuch. uber Traume u. Schiaf', Philes. Stud., 5, 301.

Hiller, G. (1899) 'Traum, Ein Kapitel zu den zwolf Nachten', Leipz., Tagbl. un Anz., No. 657, Suppl. 1.

Hitschmann, F. (1894) 'Uber des Traumleben der Blinden', Z. Psychol., 7, 387.

Jastrow, J. (1888) 'The Dreams of the Blind', New Princeton Rev., 5, 18.

Jensen, J. (1871) 'Traumen und Denken', Samml. gemeinv. wiss. Vortr. Virchow-Holtzendorff Ser. 6, 134.

Kingsford, A. (1888) Dreams and Dream-Stories, (ed. H. Maitland), London. (2nd ed.)

Kloeppel, F. (1899) 'Traumerei und Traum : Allerlei aus unserem Traumleben', Universum, 15, 2469 and 2607.

Kramar, Oldrich (1882) O spanku a snu, Prager Akad. Gymn.

Krasnicki, E. Von (1897) 'Karls IV Wahrtraum', Psych Stud., 24. 697.

Kucera, E. (1895) 'Aus dem Traumleben', Mahr-Weisskirchen, Gymn.

Laistner, L. (1889) Das Ratsel der Sphinx, (2 vols.), Berlin.

Landau, M. (1892) 'Aus dem Traumleben', Munchner Neueste Nachrichten, Jan. 9.

Laupts. (1895) 'Le fonctionnement cérébral pendant le rêve et pendant les ommeil hypnotique', Ann. méd. - psychol., Ser. 8, 2, 354.

Leidesdorf, M. (1880) 'Das Traumleben', Sammlung der 'Alma Mater', Vienna.

Lerch, M.F. (1883-84) 'Das Traumleben und sein Bedeutung', Gymn. Progr., Komotau.

Liberali, Francesco (1834) Dei sogni, (Thesis) Padua.

Liébeault, A. (1893) 'A travers les états passifs, le sommeil et les reves,' Rev. hypnot., 8, 41, 65, 106.

Luksch, L. (1894) Wunderbare Traumerfullung als Inhait des wirklichen Lens, Leipzig.

Macario, M.M. A. (1846) 'Des rêves, considérés sous le rapport physiologique et pathologique', Pt. I, Ann. méd-psychol., 8, 170.
(1889). 'Des reves morbides', Gaz. méd. de Paris, 8, 1, 85, 97, 109, 121.

Macfarlane, A.W. (1890) 'Dreaming', Edinb. med. J., 36, 499.

Maine de Biran, M.F.P. (1792) 'Nouvelles Considérations sur le sommeil, les songes, et le sonnambulisme', Œuvres Philosophiques, 209, (Ed. V. Cousin), Paris, 1841.

Maury, L.F.A. (1857) 'De certains faits observés dans les rêves,' Ann. méd.-psychol., Ser. 3, 3, 157.

Meisel (pseud) (1783) Naturlich-gottliche und teuflische Traume, Seighartstein.

Melinand, M.C. (1898) 'Dream and Reality', Pop. Sc. Mc., 54, 96.

Melzentin, G. (1899) 'Uber wissenschaftliche Traumdeutung', Gegenwart, 50, Leipzig.

Mentz, R. (1888) Die Traume in den altfranzosischen Karls-und Artusepen, Marburg.

Monroe, W.S. (1899) 'A study of taste-dreams', Am. J. Psychol., 10, 326.

Moreau De La Sarthe, J.L. (1820) 'Rêve', Dict. sc. méd. 48, 245.

Motet (1829-36) 'Cauchemar', Dict. méd. chir. pratiques, Paris.

Murray, J.C. (1894) 'Do we ever dream of tasting ?' Proc. Am. psychol. Ass., 20.

Nagele, A. (1889) 'Der Traum in der epischen Dichtung', Programm der Realschule, Marburg.

Newbold, W.R. (1896) 'Sub-conscious Reasoning', Proc. Soc. psychic. Res., 12, 11, London.

Passavanti, J. (1891) Libre die sogni, Rome.

Paulhan, F. (1894) 'A propos de l'activité de l'esprit dans le reve', Rev. phil., 38, 546.

Pick, A. (1896) 'Uber pathologische Tramerei und ihre Beziehungen zur Hysterie', Jb. Psychiat., 14, 280.

Ramm, K. (1889) Diss. pertractans somnis, Vienna.

Régis, E. (1890) 'Les rêves Bordeaux', La Gironde (Variétés), May 31.

Richard, Jerome (1766) La théorie des songes, Paris.

Richardson, B.W. (1892) 'The Physiology of Dreams', Asclep., 9, 129.

Richier, E. (1816) Onéirologie ou dissertaion sur les songes, considérés dans l'état de maladie, (Thesis) Paris.

Richter, J.P. (Jean Paul) (1813) 'Blicke in die Traumwelt', Museum, 2, (also in Werke, ed. Hempel, 44, 128.)
Uber Wahl- und Halbtraume', Werke, 44, 142.
(1826-33) Wahrheit aus Jean Pauls Leben.

Robinson, L. (1893) 'What Dreams are made of', N. am. Rev., 157, 687.

Rousset, C. (1876) Contribution a l'étude du cauchemar, (Thesis) Paris.

Roux, J. (1898) 'Le reve et les délires onitiques', Province méd. Lyons, 12, 212.

Ryff, W.H. (1554) Traumbuchlein, Strassburg.

Santel, A. (1874) 'Poskus raz kladbe nekterih pomentijvih prokazni spanja in sanj', Progr. Gymn., Gorz.

Sarlo, F. De (1887) I sogni. Saggio psicologico, Naples.

Sch. Fr. (1897) 'Etwas uber Traume', Psych. Studien, 24, 686.

Schleich, K.L. (1899) 'Schlaf und Traum', Zukunft, 29, 14; 54.

Schwartzkopff, p. (1887) Das Leben im Traum : eine Studie, Leipzig.

Stevenson, R.L. (1892) 'A Chapter on Dreams', Across the Plain.

Stryk, M. Von (1899) 'Der Traum und die Wirklichkelt', (after C. Mélinand), Baltische Mschr., 189, Riga.

Sully, J. (1881) Illusions, a Psychological Study, London.
(1882) 'Etudes sur les rêves', Rev. scientif., Ser. 3, 3, 385.
(1892) The Human Mind, (2 vols.), London.
(1875-89) 'Dreams', Enc. Brit., 9th ed.

Summers, T.O. (1895) 'The Physiology of Dreaming', St. Louis Clin., 8, 401.

Surbled, G. (1895) 'Origine des rêves', Rev. quest. scient.
(1898) Le rêve, Paris.

Synesius of Syrene Liber de insomniis.
(German trans., Oneiromantik by Krauss, Vienna, 1888.)

Tannery, M.P. (1894) 'Sur l'activité de l'esprit dans le rêve', Rev. phil., 38, 630.
(1898) 'Sur la paramnésie dans les rêves', Rev. phil., 46, 420.

Thiéry, A. (1896) 'Aristote et la psychologie physiologique du rêve', Rev. neo-scol., 3, 260.

Thomayor, S. (1897) 'Contributions to the Pathology of Dreams' (in Czech), Policlinic of the Czech University, Prague.

Tissié, P. (1896) 'Les rêves; rêves pathogènes et thérapeutiques; rêves photographiés', Journ. méd. Bordeaux, 36, 293, 308, 320.

Titchener, E.B. (1895) ''Taste Dreams', Am. J. Psychol., 6, 505.

Tonnini, S. (1887) 'Suggestione e sogni', Arch. psichiatr. antrop. crim., 8, 264.

Tonsor, J.H. (1627) Disp. de vigilia, somno et somniis, prop. Lucas, Marburg.

Tuke, D.H. (1892) 'Dreaming', Dict. of Psychol. Med. (ed. Tuke), London.

Ullrich, M.W. (1896) Der Schlaf und das Traumleben, Geisteskraft und Geistesschwache, (3rd ed.). Berlin.

Unger, F. (1898) 'Die Magie des Traumes als Unsterblichkeitsbewis. Nebst e. Vorwort : Okkultismus und Sozialismus von C. de Prel, (2nd ed.), Munster.

Vignoli, T. (1879) Mito e scienza : Saggio, Milan.
(Trans.: Myth and Science : An Essay, London, 1882, (Chap. VIII).

Vischer, F.T. (1876) 'Studien uber den Traum', Beilage allg. Z., 105.

Vold, J. Mourly (1897) 'Einige Experimente uber Gesichtsbilder im Traume', Report of 3rd. Psych. Congr., Munich, and Z. Psychol. Physiol. Sinnesorgane, 13, 66.

Vykoukal, F.V. (1898) On Dreams and Dream-interpretations, (in Czech) Prague.

Wedel, R. (1899) 'Untersuchungen auslandischer Gelehrter uber gew. Traumphanomene', Beitr. zur Grenzwissenschaft, p. 24.

Wehr, H. (1887) 'Das Unbewusste im menschlichen Denken', Programm der Oberrealschule, Klagenfurt.

Weill, A. (1872) Qu'est-ce que le rêve ? Paris.

Wendt, K. (1858) Kriemhilds Traum, (Thesis) Rostock.

Wilks, S. (1893-94) 'On the Nature of Dreams', Med. Mag., 2, 597, London.

Williams, H.S. (1891-92) 'The Dream State and its Psychic Correlatives, Amer. J. Insanity, 48, 445.

Woodworth, R.S. (1897) 'Note on the Rapidity of Dreams', Psychol. Rev., 4, 524.
(1886) 'Ce qu'on peut rêver en cinq secondes', Rev. sc., 3rd. ser., 11, 572.

Zuccarelli (1894-95) 'Polluzioni notturne ed epilepsia', L'anomalo, 1, 2, 3.

فهرست الأحلام

أ

أحلام فرويد

ب

أحلام الآخرين

[يجد القارىء بين قوسين اسم الحالم أو صفته ثم الراوى]

فهرست عام

من حيث هى مصدر لأحلام الوقوع والطيران ،

٥٤٢ — ٨ ، ٥٥٠ — ٧٣ ، ٥٧٦ — ٦٠٢

الظاهرة الوظيفية (سيلبرير) ، ٣٢٥ هـ ، ٣٨٥ ،
٤١٤ هـ ، ٤٩٨ — ٥٠١

٨٩ — ٩٢ ، ٩١ — ٢٧ — ٥٣٥

سبنسر ، هربرت ، ٤٣
ستانيوس ، ٤١٤ ، ٤٥١ هـ

فهرست الكتاب

صفحة

Ce livre est la traduction de la Traumdeutung de Sigmund Freud par Moustafa Safouan, membre de la Société Française de Psychanalyse. Il paraît dans le cadre d'une série dirigée par Monsieur le Docteur Moustafa Ziwar et consacrée aux œuvres fondamentales de la psychanalyse.

La traduction est dédicacée à Messieurs les Docteurs Moustafa Ziwar et Marc Schlumberger.

رقم الإيداع		١٩٩٤/٥٤٦٠
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4586 - 0	ISBN

١/٩٤/٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)